

الكاتب المصري

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

مكثير التحرير

حسن محمود

إدارة الناشر المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصري »

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها

مجلة الكاتب المصري تعني بكل ما يرد إليها من المقالات
والرسائل ولكنها لا تلتزم بنشرها ولا ردها

التمن بمصر : ١٠ قروش

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير
طه حسين

مجلد ٣



القاهرة ١٩٤٦

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

٣ من القاهرة إلى بيروت	طه حسين
١٤ بريطانيا وحوض البحر المتوسط	محمد رفعت
٢٤ المعاهدات وميثاق الأمم المتحدة	محمود عزى
٣٥ أحلامى الضائعة (قصيدة)	ابراهيم محمد نجا
٣٨ رسالة لم تنشر (مقدمة لطله الحاجر)	الجاحظ
٤٥ بين العلم والأخلاق	عثمان أمين
٥٠ جان بول سارتر ومواقفه الفلسفية	نجيب بلدى
٦٠ بين جيتى ونابليون	على أدهم
٦٩ الملكة شجرة الدر	محمد عبدالله عنان
٨١ عودة الأسير	عبد القادر السباحى
٨٧ إريتريا — مشاهدات وآمال	مراد كامل
٩٦ ليلة فى قرسوفيا (قصة)	حسن محمود
١٠٢ الكنيسة الشرقية	الأب قنواى
١١٠ تمرد (قصيدة)	نذير الحسامى
١١٣ خلاصة من بيسكولوجية السينما	أندرية مالرو
١٢٧ المملوك	أحمد فكرى
١٣٥ زورق فى حجب الظلام (قصيدة)	ضياء الدخلى

من هنا وهناك

(بشر فارس ، صاحب الصباغ ، عبد اللطيف ابراهيم ، على ابراهيم الخطاوى)

شهرية العلم — شهرية السياسة الدولية — شهرية المسرح والسينما

من كتب الشرق والغرب — من وراء البحار — ظهر حديثاً

فى مجلات الشرق



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية
القاهرة

الكاتب المصري



يونيه ١٩٤٦

رجب ١٣٦٥

مجلد ٣ - عدد ٩

من القاهرة إلى بيروت

أرأيت إلى الظلمة الخالكة التي تغمر الكون ، وتطبق على الفضاء ، وتبحم على كل شيء ، ويومض مع ذلك بين طبقاتها المتراكبة المتكاثفة برق ضئيل نحيل خاطف لا يكاد يظهر حتى يستخفي ؟

أرأيت إلى هذه الظلمة العريضة العميقة المتكاثفة ، التي تلح على كل شيء حتى تضطر كل شيء إلى سكون متصل طويل هو النوم ، أو شيء يشبه النوم ، وحتى تكون كل حركة فيها حلاً ، أو شيئاً يشبه الحلم ؟

أرأيت إلى هذه الظلمة العريضة البغيضة التي توشك أن تكون صورة للعدم الأبدى ، إن أمكن أن تكون للعدم الأبدى صورة ، والتي يجاهد فيها هذا البرق الخاطف ليمس الأشياء والأحياء بشيء من نور ، كما تجاهد القوة الخفية في هذا العدم السرمدي لتشيع في الأشياء شيئاً من وجود ؟

تصور هذا النحو من الظلمة كما تشاء أو كما تستطيع ، وقدّر أنها هي التي كانت تكتنف نفسي في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل حين كنت أتهيأ للسفر . ولم أكن أعرف علة لهذه الظلمة التي كانت تكتنف نفسي وتملأ ضميري ، وتأخذ عقلي من جميع أقطاره . فلم يكرهني أحد على هذه الرحلة ، ولم يفرضها عليّ ظرف من الظروف ، وإنما أقبلت عليها عن رضا ، وأزمعتها عن اختيار . وهم المتصلون بي أن يصرفوني عنها ، فلم ألق إليهم سمعاً ولا بالاً . وإنما مضيت في الاستعداد لهذه الرحلة ، لا أتردد ولا أقف عند عقبة من

العقبات ، أو مشكلة من المشكلات ، حتى إذا أصبحت أمراً واقعاً لا سبيل إلى
العدول عنه أو التردد فيه ، ضاقت بها نفسى أشد الضيق ، وامتلاً لها قلبى
حزناً ، وأقبلت عليها كارهاً لها أشد الكره ، مكرهاً عليها أشد الإكراه .
كان حزناً كاملاً شاملاً عميقاً ، يتخلله بين حين وحين ، شعاع ضئيل سريع ،
من أمل أجده ولا أحققه . وكنت على ذلك أتهياً للسفر ، نشيطاً عظيم النشاط ،
آمر وأنهى ، وأسمع وأقول ، وأستقبل وأزور ، وأخضع فى أثناء هذا كله
وعلى رغم هذا كله ، لهذا الحزن العريض العميق ، ولهذا الأمل الضئيل السريع ،
كأنما كانت حياتى الشاعرة حلاًماً من هذه الأحلام التى تقطع راحة النوم . حتى
إذا انتصفت الساعة الخامسة ، وانطلق القطار بعد هذه اللحظات الحلوة المرة ،
التي يبسم فيها الوجه ويعبس فيها القلب ، ويكون فيها وداع المودعين وشكر
المشيعين ، أويت إلى نفسى فى زاوية من زوايا « البولمان » ، أريد أن أفكر ،
وأن أتمس علة لهذه الظلمة القائمة التى كانت تأخذ نفسى من كل وجه ، فلم أجد
سبيلاً إلى التفكير ولا إلى التعليل . واهتمت أن أشارك من كان معى فيما كانوا
يأخذون فيه من حديث ، فلم أجد سبيلاً إلى القول ، كما لم أجد سبيلاً إلى احتمال
الصمت ، فقضيت هذه الساعات القصار الطوال ، بين القاهرة والإسكندرية ،
فى قلق غريب ، لا أمنح نفسى ولا أمنح من حولى من العناية ، إلا أقلها
وأيسرها ، لأنى لم أكن قادراً على تدبير إرادتى ، وتنظيم سيرتى مع نفسى ومع
الناس . وكذلك دخلت الإسكندرية مع الليل ، وشاركت فى بعض الحديث ،
وفى الجلوس إلى المائدة ، وفى الإصابة من الطعام ، وأنققت الليل لا أدرى
أكنت فيه نائماً أم يقظان ، فلم أفقد الشعور بنفسى لحظة ، ولم أتبين مع ذلك
جلية نفسى لحظة ، وإنما كنت شيئاً يشبه الأداة المسخرة المسيرة التى تعمل فى
دقة ونظام ، دون أن تحقق عملاً أو دقة أو نظاماً . وكذلك أنققت وجه النهار
من غد ، وكذلك خلصت من هذه الجماعات التى كانت تزدهم حول السفينة
ازدهاماً منكراً ، وتصطبخب اصطخاباً بشعاً . وكذلك قلت وسمعت ، ورضيت
وسخطت ، وابتسمت وعبست ، دون أن أحقق من هذا كله شيئاً ، ودون أن
أجد لشيء من هذا كله ذوقاً ، حتى إذا تأذّن صائح السفينة فى المودعين أن قد
آن لهم أن ينصرفوا ، لأن السفينة مبحرة بعد حين ، ثابت إلى نفسى كلها ،
أو ثبت أنا إلى نفسى كلها ، وإذا أنا أجد ما كنت أفقد ، وأعلم ما كنت

أجهل ، وأتبن أن مصدر هذه الظلمة العريضة المتكاثفة ، ومبعث هذا الحزن الثقيل الملح ، ليس إلا شيئاً واحداً ، هو أنى أفارق مصر في وقت لم تكن النفس تطيب فيه عن فراق مصر . في وقت يحتاج المصري فيه إلى أن يشعر بوجوده الوطنى قوياً كاملاً مسيطراً على عقله وقلبه ، مدبراً لعمله ونشاطه ، ملاحظاً لكل ما يقال ، ولكل ما يعمل ، ولكل ما يتناوله النشاط الفردى والاجتماعى . أليس كل شيء في مصر يفرض على المصريين في هذه الأيام ، هذه الملاحظة الدقيقة اليقظة التى لا يفوتها شيء ، أو التى تحاول ألا يفوتها شيء ؟ أليس مصيرها السياسى موضوعاً للأخذ والرد ، معرضاً لأن يقرر في وقت قريب أو بعيد إلى أجل طويل أو قصير ؟ أليس مصيرها الاجتماعى موضوعاً للخصام والجدال ، معرضاً لأن يخطو إلى أمام خطوات تقصر أو تطول ، أو لأن يرجع أدراجه أمدأ بعيداً أو قريباً ؟ أليست الحياة المصرية كلها تُمَخَضُ في هذه الأيام مخضاً عنيفاً كما يَمَخُض اللبن في القربة ، دون أن يتحقق أحد النتيجة الممكنة لهذا المخض العنيف ؟ أليس طبيعياً مع هذا كله أن يقيم المصري في مصر ، متنبهاً يقظاً ، ملاحظاً ما استطاع الملاحظة ، حاملاً ما استطاع العمل ، محاولاً ما وجد إلى المحاولة النافعة سبيلاً ؟ بلى ! ولكنه السأم الذى يصيب بعض النفوس حين تضيق بما حولها من هذا السخف الذى لا ينقضى ، ومن هذا الكلام الكثير الذى لا يغنى ، ومن هذا الخصام العنيف الذى لا يجدى ، ومن هذا النشاط المختلط الذى لا يفيد ، ومن هذا المكر الخفى الذى يفسد كل شيء ، ومن هذا الإخلاص الجلى الذى لا يصلح شيئاً ، ومن هذا الكيد اليقظ الذى يستأثر بالخير ، ومن هذه الصراحة النائمة التى تورط في الشر وتعرض للأذى ، ولا تغنى عن أصحابها ولا عن الوطن شيئاً . أجل ! هو هذا السأم الذى يجده بعض النفوس من هذه الحياة المصرية التى يكرها الماكرون ، ويعجز عن إصلاحها الناصحون ، والتى يقاد فيها الشعب إلى غير ما يريد ، ويساس فيها الوطن على غير ما يجب . هو هذا السأم الذى يملأ النفوس في بعض الأحياء ضيقاً وسخطاً ، ويدفعها إلى أن تود لو تجد من هذه الحياة الثقيلة مخرجاً يتيح لها الراحة الموقوتة من هذا العناء الثقيل البغيض ، الذى يشقى به أصحابه اعظم الشقاء ، دون أن يكون شقاؤهم هذا مغنياً عنهم أو عن غيرهم شيئاً

هو هذا السأم الذي كان يأخذ نفسي بين حين وحين ، ويدفعني إلى أن آتمنى الراحة من هذه الحياة الثقيلة الفارغة ، أتيت له الفرصة ذات يوم ، فبلغ بي ما أراد . تمنيت في ذات يوم أن أستريح قليلا من هذه الحياة الجوفاء الممضة ، ولم ينقض النهار حتى كنت أدعى إلى فرنسا . فشككت غير طويل ، ثم أجبت إلى ما دعيت إليه ، ثم صممت ، ثم مضيت لا أقبل مشورة ولا أحفل بصعوبة . حتى إذا لم يبق في القوس مترع ، ولا إلى التردد سبيل ، تمادت نفسي تذكر الواجب ، وتذكر الحق ، وتذكر العمل ، وتأسى على ما قدمت ، وتتمنى أن تستأنف التفكير ، وتنقض ما أبرمت . ولكن هيهات ! سبق السيف العدل ، ولا بد مما ليس منه يد . وهذه السفينة تترك الإسكندرية موجهة إلى بيروت لتوجه بعد ذلك إلى مارسيليا ؛ فلنصبر النفس على ما يجب أن نصبرها عليه ، ولنحى مع أهل السفينة حياتهم هذه الجديدة التي قد نجد فيها شيئا من سلو وفضلا من عزاء .

ولكل حياة السفينة على ما فيها من جدّة وطرافة ، وعلى ما فيها من اضطراب واختلاط ، لم تتج للنفس سلوا ولا عزاء ، وإن كانت قد جلت بعض هذه الظلمة المتكاثفة ، وألقت بين نفسي وبين الحزن العريض البغيض حجابا رقيقا ، لا أكاد أفكر فيه حتى يزول ، وإذا أنا أستحضر مصر كما تركتها : مفاوضات تجري من وراء ستار ؛ وانتخابات تجري ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب ؛ وخصومات تتصل حول ما كان وحول ما هو كائن وحول ما يمكن أن يكون وحول ما يجب أن يكون ؛ وبؤس يلح حتى يضيق بنفسه ويتئس بطبيعته ، وحتى يشقى الشقاء نفسه لشدة ما يمعن في طبيعته ؛ ونعيم ينتشر وينتشر حتى يضيق به أصحابه ، وحتى يلتمسوا الراحة منه ، بين حين وحين ، بتكلف شيء من هذه الحياة الخشنة التي تريحهم بالجوع من التخمة المتصلة ، وبالظما من الكظة المهلكة ، وبالشظف من اللين الذي يفسد النفوس ويضنى الأجسام . وأستحضر مصر كما يراها الطارئون عليها والزائرون لها من الأجانب بلدا غريبا غير مألوف ، له وجهان : وجه باسم يغرى ويدعو إلى الفتون ، ووجه عابس يعلأ النفوس ضيقا وسخطا وإشفاقا : رخاء يثير حسد الحاسدين وطمع الطامعين ، وشقاء يثير الرحمة في القلوب التي لا تعرف الرحمة ، والثناء في

النفوس التي لم تتعود الرثاء . تَرَفُّ وشظف يسعيان في طريق واحدة ، ويمشيان في شارع واحد ، ويتسلمان للحياة ابتسامتين تتشابهان في ظاهر الأمر ، وتختلفان في حقيقة الأمر : إحداهما تستقبل الحياة ساخرة منها مزدرية لها ، والأخرى تستقبل الحياة راغبة فيها متهالكة عليها . والنيل يجري مع ذلك للناعمين والبائسين جميعاً ، لم يخلق لفريق منهم دون فريق . والشمس مع ذلك ترسل ضوءها وحرارتها للناعمين والبائسين جميعاً ، لم تؤمر بأن تؤثر بهما فريقاً دون فريق . والهواء مع ذلك يملأ الفضاء ويتنفس فيه الناعمون والبائسون جميعاً ، لم يُكَلَّفْ أن يبيع التنفس فيه لفريق دون فريق . الأرض وحدها هي التي خرجت عن هذه القاعدة ، وامتنعت على هذا النظام ، فآثرت بما تحمل من الخير فريقاً من الناس دون فريق ، ولكنها رضيت آخر الأمر أن تكون كالماء والهواء والشمس ، حرة عادلة ، مسوية بين سكانها حين يدركهم الموت : تمنح كل واحد منهم هذه الحفرة الضئيلة التي يأوى إليها ليسترخ ويريح ، لا تفرق بينهم في ذلك قليلاً ولا كثيراً . نعم ! كان أيسر شيء يكفي لأن يرفع هذا الحجاب الرقيق عن نفسي فأستحضر مصر كما هي ، وأذكر أني راحل عنها في وقت لا ينبغي أن يرحل فيه المصريون عن وطنهم ، وإذا أنا أعود إلى تلك الظامة العريضة المتكاثفة وإلى ذلك الحزن البغيض العميق . على أني كنت أتنجب ما استطعت رفع هذا الحجاب ، وأمعن ما استطعت في مشاركة السَّفر في حياتهم هذه الضيقة المختلطة الفارغة .

وقد كانت هذه الحياة غريبة حقاً ، لم أعرفها من قبل على كثرة ما ترددت بي السفن بين الشرق والغرب . فنحن في أعقاب الحرب لم نصل بعد ، ولست أدرى متى نصل ، إلى الحياة اليسيرة المألوفة . ولا يكاد أحدنا يستقبل النهار أو يستقبل الليل متى خرج عن حياته التي ألفها ، حتى يرى ما يثير في نفسه العجب حيناً ، والسخط حيناً ، والرضا حيناً آخر . وقد كان أول عهدنا « بالشمبوليون » في هذه الرحلة مشيراً لهذه العواطف جميعاً ، ولعواطف أخرى لا تكاد تحصى ، فضلاً عن أن يفكر كاتب في تسجيلها . فهذه السفينة التي ألفناها أنيقة مترفة ، قد فقدت كل أناقة وكل ترف ، لكثرة ما عملت في البحر والمحيط أثناء الحرب ، ولكثرة ما تعرضت له من تغيير لتصبح ملائمة لنقل الجنود ، بعد أن كانت مقصورة أو كالمقصورة على نقل المترفين من أصحاب الثراء . قد فقدت زينتها كلها

أو أكثرها ، وأصبحت سفينة كغيرها من السفن ، حُسبُها أن تقل المسافرين لتنقلهم من ثغر إلى ثغر ، وهي مع ذلك قد احتفظت بشيء ضئيل ، ضئيل جداً ، من بقايا هذه الزينة ، فأصبحت أشبه شيء بالاطلال ، ولكنها أطلال حية متنقلة ليست ثابتة ولا مستقرة . وكانت زينة « الشمبوليون » من الطراز المصري القديم ، أليس اسمها يكفي للدلالة على ذلك ! فقد ذهب كثير من هذه الزينة وقيت منها ملامح ضئيلة ، وأصبح هناك ائتلاف موسيقى بين هذه الأطلال المتحركة المتنقلة بين الثغور ، وهذه الأطلال الثابتة المستقرة في المعابد والقبور . كل شيء هنا وهناك يصور البلى ، ويدل على عبث الزمان بالأشياء والأحياء ، ويعيد في الذاكرة قول الشاعر العباسي القديم :

يا دارُ غَيْرِكَ البَلَى وَمَحَاكَ يا ليتَ شِعْرِي ما الذي أبلاكِ !

ونحن نعلم أن المعابد المصرية وغيرها من الآثار قد أبلاها مر الغداة وكر العشى ، وأن زينة الشمبوليون قد أبلاها تقل الجند على ما يكون بينهم من اختلاط واضطراب ، وأبلتها ضرورات الحرب التي لا تحفل بالعرف ولا تحفل بالزينة ، وإنما تحفل بشيء واحد هو التغلب على المصاعب والإفلات من الموت . وفي الشمبوليون كما في كثير غيرها من السفن روعة مؤثرة ، تأتي من هذا التناقض الغريب بين هذه الزينة البالية المهملة التي كأنها الأطلال ، وبين هذه القوة العظيمة التي تملؤها حياة ونشاطا وتمكنها من مغالبة البحر والريح ، لأن أدواتها متينة كل المتانة ، رصينة كل الرصانة ، شديدة البأس عظيمة المراس ، قادرة على مغالبة الطبيعة ، والثبات للعواصف والأنواء . زينة بالية تنمحي شيئاً فشيئاً ، وأداة قوية تزداد بين حين وحين قوة وبأساً ، والناس يضطربون بين هذين المتناقضين ، يأسون لهذا الجمال الشاحب الذي يوشك أن يزول ، ويُعجبون بهذه الأداة القوية التي تغالب الموج والريح . على أن هؤلاء الناس أنفسهم يثيرون في النفس كثيراً من الخواطر المتناقضة ، ففيهم الغنى الذي لا يستطيع أن يحصى ثروته ، وفيهم المعدم الذي لا يجد ما ينفق ، وفيهم متوسط الحال ، كما يقال . وأولئك وهؤلاء سواء حين يصطخب الموج ، وحين تعصف الريح ، وحين ترقص السفينة بين اصطخاب الموج وعصف الريح . وهم سواء كذلك في الخضوع لهذه الضرورات التي فرضتها الحرب من الاكتفاء بالقليل والخضوع للنظام والإذعان

لما لم يتعودوا أن يذعنوا له . هذا الرجل المترف الذي تبحر خديه خطرات
النسيم ويدهى بنانه لمس الحرير مضطراً إلى أن يقنع بحياة خشنة كلها شظف وغلظة ،
ليس له غرفة يستأثر بها ، وليس له سرير يأوى إليه ، قد يسعده الحظ فيظفر
بمضجع رقيق يعلقه في السقف هنا أو هناك ، ويأوى إليه إذا جنه الليل فينام
فيه نوماً متقطعاً ، مترجحاً في نظام إن سكنت السفينة ، مترجحاً في اضطراب
إن لعبت الأمواج بالسفينة أو عصفت بها الريح . حتى إذا أرسل الفجر سهمه
الفضي الضئيل تدلى من مضجعه ذاك الرقيق وضمه إليه كما يضم إليه ما يحمل من
متاع . وقد لا يتاح له هذا المضجع الرقيق ، وإذا هو هائم في السفينة يصعد
حيناً ويصوب حيناً ، يلتمس لنفسه أشباراً يمد عليها جسمه حين يجهد الإعياء .
وقد يلتمس شبراً أو شبرين يجلس فيهما ، أو قل يُقْعَبِي فيهما إقعاء قد عطف
أعلاه على أسفله واستسلم للقضاء وانتظر أن يزوره النوم ، وجعل النوم يداعبه
مداعبة بغيضة يدنو منه لينأى عنه ، وإذا هو كما يقول الشاعر القديم :

لا يذوق النوم إلا غرارا مثل حسو الطير ماء الشَّمَاد

وليس كل الناس في السفينة قادراً على أن يصيب حاجته من الطعام ، فقوم يتاح
لهم الجلوس إلى المائدة ، وقوم يسعون بأنيتهم إلى حيث يلقي لهم فيها خليط من
الطعام يقيمون به الأود ويصدون به عن أنفسهم ألم الجوع . وقسمة الحظوظ بين
هؤلاء الناس لم تبحر على نظام مقرر ولا على قاعدة مألوفة ، وإنما هي قوة غريبة
صمياء قد قسمت الحظوظ بين هؤلاء الناس كما أرادت هي لا كما أراد المنطق ،
ولا كما أراد النظام ، ولا كما أراد ما دفعوا من المال . وليس لهم خيار بعد
أن أبحرت السفينة ، فهم مضطرون إلى أن يقبلوا ويذعنوا . لهم أن يجهروا
بالسخط وأن يضمروه ، ولكن إعلان السخط أو إسراره لا يغير من حظهم
شيئاً . وهم قد قبلوا ذلك وأذعنوا ، وهم قد جهروا بالسخط وخافتوا به وأسروه
فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم جميعاً سمعوا وأطاعوا ، ولم يخطر لواحد منهم
أن يخالف عما كان يصدر إليه من أمر .

وقد كانت الأوامر تصدر إليهم جملة وتفصيلاً ، لا من طريق المنشورات التي
تعلق مكتوبة هنا وهناك كما ألفنا في أوقات السلم ، ولكن من طريق الصباح العام
الذي يعلن الأوامر بواسطة مكبر الصوت ، فيسمعها المسافرون جميعاً على اختلاف

طبقاتهم ومنازلهم في وقت واحد ، ويأخذ كل واحد منهم بين هذه الاوامر ما يعنيه ، فيسمع ويطيع راضياً أو ساخطاً ، ولكنه سامع مطيع على كل حال . وكذلك أتفق المسافرون يوماً كاملاً مضطربين في هذه الحياة المضطربة بين هذه العواطف المختلطة ، إلا السفينة فإنها لم تضطرب ولم تتردد ، وإلا عمال السفينة فإنهم لم يضطربوا ولم يترددوا ، وإنما مضوا بسفينتهم إلى حيث أمروا أن يمضوا لا يحفلون بأحد ولا يحفلون بشيء إلا بالواجب الذي ينبغى أن يؤدوه . حتى إذا بلغت السفينة «حيفا» من الغد كان المنظر الذي يبعث في النفس ألماً أي ألم وغضباً أي غضب ورثاء أي رثاء وبغضاً أي بغض وحباً أي حب أيضاً . فقد كانت السفينة تحمل ألفاً أو نحو ألف من ضعاف اليهود المهاجرين : من الأطفال والصبيان الذين لم يبلغوا الحلم ، ومن النساء الأيامى ، منهن من فقدت كل شيء ولم تحتفظ حتى بهذا الأمل الضئيل الذي يرسم على الشغور هذه الابتسامة الحزينة ، ومنهن من فقدت كل شيء ، ولكن بين أحشائها حياة تثير في قلبها الحزين المكلوم أملاً ويأساً ، ورضاً وسخطاً ، ولذة وألماً . وقد أقبل هؤلاء المهاجرون جميعاً يقودهم رسل من الحلفاء إلى فلسطين ليجدوا فيها أمناً بعد خوف وراحة بعد عناء . ولكن أهل فلسطين لم يستشاروا ولم يستأمروا في إيواء هؤلاء البائسين ، ولكن في الأرض أوطاناً كثيرة أقدر على إيوائهم من فلسطين . وهؤلاء الجنود البريطانيون قد ملئوا ثغر حيفا بالعدد والعدة وبالأس والقوة ، ليحموا هبوط هؤلاء البائسين إلى هذه الأرض التي تُكره على إيوائهم إكراها . وهؤلاء البائسون يهبطون من السفينة في نظام ، ترتفع أصواتهم البائسة المتهالكة بغناء لست أدري . أكان يصور الفرح والمرح وانتصار الفاتحين ، أم كان يصور الحزن والبؤس وانكسار المطرودين ، أم كان يصور هذا كله في وقت واحد . لست أدري ! ولكنني أعلم أنه كان يملاً النفوس غيظاً وحنقاً ورحمة ورثاء ، حتى عمال السفينة أنفسهم كانوا ينظرون إلى هذا كله ساخطين عليه ضيقين به مبغضين له ، يجهرون بالشكوى من تحكم المنتصرين الذين يسخرون سفينة فرنسية لشيء يملأ صدور العرب حرجاً وضعينة دون أن يستطيعوا إباءً وامتناعاً . أليست فرنسا مضطرة إلى أن تصانع المنتصرين من البريطانيين والأمريكيين لتستطيع أن تعيش ! وقد انجلت هذه الغمرة آخر الأمر ، ورفع هذا الحمل الثقيل عن الصدور ، وأبحرت السفينة من حيفا إلى بيروت ، وقد شاع فيها وفي أهلها شيء من المرح

يشبه ما يجده النائم حين يزول عنه الكابوس أو حين تؤمنه اليقظة من حلم بغيض منكر مخيف .

ولم تشرق الشمس من غد حتى كانت الحياة كلها ابتساماً رائقاً رائعاً حين أقبلت السفينة على بيروت ، فإذا السماء الصافية تبسم للأرض المشرقة ، وإذا الجبل الشامخ الرصين يبسم للبحر الهادي الرزين ، وإذا الأحياء المستقرون على الأرض يبسمون للأحياء المقبلين من البحر ، وإذا هؤلاء السفّرة أنفسهم قد امتلأت قلوبهم غبطة وفاضة وجوههم بهجة وبشراً . أليسوا مقبلين على الراحة بعد الجهد ، وعلى النعيم بعد البؤس ، وعلى اللين والخفض بعد الشدة والشطف لكل شيء كان رضا ، وكل شيء كان ابتساماً ، إلا هذه القلوب الخبيثة التي لا تعرف الصفو الخالص ولا النعيم النقي البريء ، وإنما تفسد كل شيء بما تدبر من كيد ، وما تضر من شر ، وما تنظم من مكروه . فلم يكن جميع الذين هبطوا من السفينة يستقبلون حياة نقية بقلوب نقية . كان فيهم من يفكر تفكيراً بريئاً في راحة بريئة ، وكان فيهم من يفكر تفكيراً خبيثاً في راحة خبيثة كان فيهم من يبتغي حياة هادئة وادعة في لبنان الهادي الوديع ، وكان فيهم من أعد للشر عدته فهو يريد أن ينتفع هنا وهناك ، يريد أن يبيع ويشترى ، يريد أن يسرق ويختلس ، يريد أن يغير نقداً بنقد ، وأن يفيد من هذا التغيير قليلاً أو كثيراً ، يجهر بذلك حيناً ويخافت به حيناً ويخفيه في أعماق نفسه في أكثر الأحيان . وكذلك اندفع أهل السفينة إلى الأرض ، وتلقاهم أهل بيروت ، وجرت الأمور بين أولئك وهؤلاء كما تجري بين الناس حين يلتقون في كل مكان .

مزاج من الخير والشر ، وخليط من الطهر والإثم . والأبرياء والغافلون يرون هذا كله ولا يستطيعون له تغييراً ، بل لا يستطيعون حديثاً عنه أو خوضاً فيه ، وإنما يرون وينكرون ، ويقول بعضهم لبعض أو يقولون لأنفسهم إنما هي الحياة تجري كما تستطيع ، وإنما هي طبيعة الإنسان لا تستطيع أن تخلص للخير وحده ، ولا أن تخلص للشر وحده ، وإنما هي مضطرة إلى أن تضطرب بين هذا وذاك ، يدفعها العقل إلى الخير فترغب فيه وقد تصيب منه ، وتدفعها الغريزة إلى الشر فتتورط فيه وقد تغرق فيه إلى الأذقان أو إلى الآذان .

وقد زرت بيروت مرات كثيرة ، ولكني لم أر أهلها يبسمون للحياة في

صراحة ، ويسعدون بها في صراحة ، ويستقبلونها في رضا وأمن وأمل ، كما رأيتم هذه المرة . ولم لا ؟ ألم يظفروا بما لم يظفر به كثير غيرهم من هذه الحرية السياسية ، ومن هذا الاستقلال التام الذي تحلم به الشعوب المستضعفة وتتحرق قلوبها شوقاً إليه ؟ لم لا يستقبل اللبنانيون سفينتنا هذه مرحبين بها باسمين لها ؟ ألم تلم بثغرم العظيم لتجلى المحتلين عن أرض لبنان ؟ ومع ذلك فقد كان ابتهاج اللبنانيين على عمقه وقوته هادئاً كل الهدوء وقوراً كل الوقار متوثباً مع ذلك ، يشعر بأن القوم لا يستقبلون استقلالهم على أنه نعمة سيقى إليهم ، ولا على أنه فوز كسبه بعد الجهد والجد والعناء ، ولكن على أنه المرحلة الأولى من طريق طويلة طويلة جداً ، عسيرة عسيرة جداً ، لأنها طريق الواجب الذي يفرض على الشعب المستقل أن يثق بنفسه وأن يعتمد عليها في احتمال التبعات الثقيل التي لا تحصى . فليس الاستقلال لعباً ولا لهواً ، وليس الاستقلال منحة تهدي ولا نعمة تتاح ، وليس الاستقلال إخلاداً إلى الراحة واستمتاعاً بالحياة ، وإنما الاستقلال ثقة بالنفس واعتماد عليها ، وبذل للجهد ونهوض بالعبء ، وإقدام على العمل في غير أناة ولا تباطؤ ولا كسل : إقدام على العمل لإسعاد البائس وإطعام الجائع وتعليم الجاهل ، وإنصاف المظلوم ، وإقرار العدل ، وتحقيق المساواة . واللبنانيون يشعرون بهذا كله ، ويقدرُونَ هذا كله ، ويروضون أنفسهم على النهوض بهذا كله . وهم من أجل ذلك لا يكاثرون ولا يفاخرون ، ولا يتحدثون عن الاستقلال حديث الغافل المتهاون ، وإنما يتحدثون عنه حديث الرجل الذي يملأ قلبه الرضا ويملا قلبه الحزم والعزم والثقة ، ويملا قلبه في الوقت نفسه الحذر والاحتياط . فهم يتحدثون إليك حديثاً فيه حلاوة الرضا ، ولكن فيه مرارة الصرامة والجد . وهم من أجل ذلك يلقون في نفسك صوراً جديدة غير التي ألفتها منهم حين كنت تزورهم قبل هذا العام .

آنست ذلك عند صفوتهم من الشيوخ والشباب ، كما آنست ذلك عند عامتهم على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ؛ فلم أملك أن تمنيت للبنان كل ما يتمنى لنفسه ، وأن تمنيت لمصر كما يتمنى لها لبنان هذا اليوم الذي تشعر فيه بالسعادة الراضية الحازمة ، وبالأمل الواثق المطمئن .

وقد أتفقنا في بيروت يومين لقينا فيهما من أهل لبنان ما تعودنا أن نلقى من هذه الضيافة الحلوة المريحة الخصبية التي تشعر الضيف بأنه ليس ضيفاً ، وإنما هو

رجل يعيش في وطنه وبين أهله ، لا يجد في ذلك مشقة ولا جهداً ، ذلك إلى هذا المتاع العقلي الذي يجده المصري المثقف حين يلتقي اللبنانيين المثقفين . وقد كادت هذه الزيارة تكون صفواً كلياً ، لولا أنني سألت عن صديق لبناني أديب كانت له في نفسه كما كانت له في نفوس الأدباء الشرقيين جميعاً مكانة ممتازة . سألت عنه لأنني كنت أريد أن أسعى إليه . قلت لصاحبي : كيف حال الأستاذ عمر فاخوري ؟ فقال في هدوء حزين : لقد دفناه أمس يا أستاذ . هنالك أخذ النديّ كله وجوم طويل لم تقل في أثنائه شيئاً ، وإنما قالت قلوبنا في أثنائه كل شيء . وما عسى كنا نستطيع أن نقول ، وقضاء الله أقوى وأمضى وأصرم من أن نملك أمامه شيئاً غير السكوت والإذعان ، وهذا الحزن الذي يفنى القلوب ، ويضعف ثروة العقول . لم أقل شيئاً ولم يقل أصحابي شيئاً ، وإنما اتخذت لهذا الأديب اللبناني العظيم قبراً في ناحية من نواحي قلبي ، كما اتخذ اللبنانيون له قبوراً في قلوبهم ، وكما احترقوا له قبراً في مكان ما من أرض لبنان .

طه حسين

في أفق السياسة العالمية

بريطانيا وحوض البحر المتوسط

لم يكن الإنجليز السكسون يوماً من الشعوب التي سكنت حوض البحر المتوسط ، وليس لهم في هذا البحر مصالح تفوق مصالح الشعوب الأوروبية أو الشرقية التي لها سواحل تلامس مياه هذا البحر ، ومع ذلك فقد حرصت بريطانيا منذ صار لها ممتلكات واسعة في الهند على أن تكون لها السيادة في هذا البحر . وليس معنى السيادة هنا أن تكون للدولة جيوش وأساطيل وقواعد ومطارات فحسب ، فقد توافر لفرنسا من هذه الوسائل في البحر المتوسط أكثر مما توافر لبريطانيا ، وكان لإيطاليا منها في بدء الحرب الأخير شيء كثير ، ولكن الدولتين لم تفيدا من ذلك فتيلة . ذلك لأن للبحر المتوسط بوابتين رئيسيتين تحكمان إغلاقه ، إحداهما عند قناة السويس شرقاً ، والأخرى عند جبل طارق غرباً . وإنما تكون السيادة للدولة التي تملك مفتاحي البوابتين أو أحدهما على الأقل . ولكن بريطانيا لم تكتف بالقبض على مفتاحي البوابتين ، بل أنشأت على طول طريق البحر محطات أو نقاطاً بوليسية للحراسة تشرف منها على حركة الملاحة في البحر وتلوذ بها عند الحاجة . وفي امتلاك إنجلترا لكل من هذه المحطات دلالة على تطور خاص في سياسة بريطانيا إزاء الموقف الدولي العام . أما معقل جبل طارق فاحتلته إنجلترا سنة ١٧١٣ بمقتضى معاهدة «أترخت» التي انتهت بها حرب الوراثة الأسبانية . وكانت إنجلترا قد خشيت عاقبة انضمام قوات فرنسا وأسبانيا ضدها ، بعد أن صار فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على أسبانيا فسارعت باحتلال هذه النقطة الحصينة ، إمعاناً في إيلاء عدوتها أسبانيا من جهة ، ولكي تشرف منها من جهة أخرى على طريق الملاحة إلى الشرق : طريق البحر المتوسط ، وطريق رأس الرجاء الصالح . وكانت إنجلترا في ذلك الوقت قد بدأت تنشر نفوذها في الهند ، فأنشأت شركة الهند الشرقية وباتت الملاحة بين إنجلترا وأملأها في الشرق تتطلب الحماية والتأمين .

وأما احتلال مالطة فكان في سنة ١٨٠٠ وكان نابليون بونابرت قد لفت بجملته على مصر أنظار الدول إلى أهمية موقع مصر الحربى والجغرافى ، وإلى عظم شأن الطريق البرى إلى الشرق . فرأت انجلترا أن تكون لها قاعدة متوسطة بين جبل طارق ومصر ، ولم تجد صعوبة فى الاستيلاء على الجزيرة من يد الفرنسيين ، وكانوا قد احتلوها وهم فى طريقهم إلى مصر . وقد تأيد امتلاك انجلترا لمالطة فى مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ .

ولما افتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٦ وتحولت إليها طرق الملاحة المهمة بين الشرق والغرب ، لم تر انجلترا بدًّا من إنشاء محطة قريبة من منطقة القناة تشرف منها على أملاك تركيا فى شرقى البحر المتوسط . وكانت روسيا تعمل جاهدة فى ذلك الوقت على إضعاف تركيا وطردها من أوربا ، فانبرت انجلترا للذود عنها فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ وكان نصيب انجلترا فى مقابل ذلك أن نزلت لها تركيا عن جزيرة قبرص .

ثم وقعت الأزمة المالية فى مصر فى أواخر عهد الخديوى إسماعيل ، وقامت الثورة العراقية ، فدخلت انجلترا فى شؤون مصر المالية أولاً ، واشترت نصيب مصر فى أسهم قناة السويس ، ثم ما لبثت أن انفردت باحتلال البلاد سنة ١٨٨٢ وظلت من يومئذ تسيطر على القناة .

ولما ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بوادر الوعى القومى فى شعوب الشرق الأوسط العربى ، رأت انجلترا أن تحتفظ بفلسطين وشرق الأردن باسم الانتداب ، لتقوى مركزها فى الدفاع عن القناة من جهة ، ولترقب من جهة أخرى حركة التقدم العربى عن كשב .

والسياسة التقليدية التى سارت عليها انجلترا فيما يخص حوض البحر المتوسط أن تحول دون قيام دولة بحرية قوية تناهض النفوذ البريطانى فى ذلك البحر . وعلى هذا الأساس ظلت انجلترا طوال القرن التاسع عشر تعرقل مساعى روسيا فى التساط على المضائق والتسرب منها إلى المياه الدافئة فى البحر المتوسط . ولم تفتر عزيمة انجلترا وتسترخ قواها إلا فى إبان الحرب العالمية الأولى حين أراد الحلفاء أن يضمنوا بقاء روسيا إلى جانبهم ، فمتهما انجلترا وفرنسا بالقسطنطينية والمضائق إذا ما انتهت الحرب بهزيمة ألمانيا وحلفائها ، وكان ذلك بمقتضى

معاهدة سرية عقدت في لندن بين الدول الثلاث سنة ١٩١٥ . وقد جاءت الثورة البلشفية بعد ذلك ففتحت فيما تحت هذه المعاهدة وكل أثر للسياسة القيصرية العتيقة .

وعلى هذا الأساس أيضاً حالت إنجلترا دون تسلط فرنسا على الجزء الشمالى الغربى من مراكش ، حتى لا يتعرض مركزها فى جبل طارق لآى خطر ، وفضلت أن تكون أسبانيا الدولة الضعيفة نسبياً هى صاحبة النفوذ فى تلك المنطقة التى تواجه جبل طارق ، وفيها ثغران خطيران ، هما سبتة وطنجة . وقد أفلحت إنجلترا فى جعل طنجة ميناء دولياً محايداً لا يجوز تحصينه أو تسليحه . وتطبيقاً لهذه السياسة أيضاً كانت وقفة إنجلترا فى الماضى إلى جانب تركيا ضد محمد على الكبير حين آلت منه رغبة فى محالفة فرنسا ، وكان لمحمد على من القوة البحرية ما يجعله عاملاً خطيراً فى تهديد مركز بريطانيا فى البحر المتوسط لو انضم إلى فرنسا . واقتضت هذه السياسة أيضاً أن تعمل إنجلترا قدر طاقتها على إضعاف النفوذ الفرنسى فى مصر والقناة ، حتى لا يفلت من يدها مفتاح البوابة الكبرى التى اصطنعتها الهندسة الفرنسية وتحكمت بها فى الملاحة بين المحيطين الاطلنطى والهندي . وما فتئت إنجلترا تعمل والظروف تؤازرها حتى أبعدت فرنسا عن الميدان ، وما لبثت هذه أن ارتبطت مع إنجلترا فى سنة ١٩٠٤ بالاتفاق الودى الشهير . ولو أن اتفاقاً مثل هذا كان قد تم فى القرن التاسع عشر بين فرنسا وروسيا بدلاً من إنجلترا لتعرضت سيادة إنجلترا فى البحر المتوسط لأعظم خطر .

وكانت هذه السياسة التقليدية التى اتبعتها إنجلترا فى حوض البحر المتوسط إنجيلاً آمنت به جميع الحكومات الانجليزية التى تعاقبت على الحكم على اختلاف آراء رجالها ومذاهبهم السياسية . وفى عهد حكومة « الهويج » أو الأحرار القدماء أيام الوزير بالمرستون استولت إنجلترا على ميناء عدن وعلى جزيرة يريم ، وكلاهما تتحكمان فى مدخل البحر الأحمر من ناحية المحيط الهندى ، وما البحر الأحمر فى حقيقة الأمر بعد شق القناة ، إلا امتداد للبحر المتوسط . وفى عهد حكومة المحافظين أيام الوزير دزرائيلى (بيكنسفيلد) احتلت إنجلترا جزيرة قبرص . وفى عهد وزارة الأحرار برياسة غلادستون احتل الانجليز مصر ، وأخذ المصريون يجلبون عن السودان تمهيداً لإعادة فتحه بأيدي المصريين والانجليز معاً .

وظلت انجلترا معتزة بمركزها في البحر المتوسط ، لا يورقها هم فاشي ولا يقض مضجعها كابوس نازي حتى أوشك فجر القرن العشرين أن ينبلع ، وعندئذ اختفى الخطر الروسي الذي كان وحده الشغل الشاغل للسياسة الانجليزية . فقد انهمزت روسيا أمام اليابان برًّا وبحرًا في سنة ١٩٠٥ وانعقدت المحالفة الروسية الانجليزية سنة ١٩٠٧ وبدأت ألمانيا تتحدى انجلترا وتحل محل روسيا في مناهضاتها للسيادة البريطانية . وحاول الإمبراطور وليم الثاني أن يمكن لألمانيا في جزء من صرا كش أسوة بفرنسا أو إيطاليا التي كانت تنصب شباكها وقتئذ لاحتلال طرابلس ، ولكن السياسة البريطانية كانت واقفة بالمرصاد ، فحبطت مساعي ألمانيا ولم تقدر شيئًا من زيارة الإمبراطور لميناء طنجة عام ١٩٠٥ ، ولا من إرسالها إحدى سفنها الحربية أمام ميناء أغادير سنة ١٩١١ . وكادت الحرب تنشب في هاتين الأزميتين بين ألمانيا وفرنسا لو لم تسارع انجلترا إلى نجدة فرنسا وإعلان عزمها صريحًا على منع ألمانيا من النزول بقواتها في أي جزء من أرض إفريقية الشمالية . ولما أخفقت سياسة ألمانيا في البحر المتوسط اتجهت نحو الشرق وركزت جهودها في إنجاز مشروع الزحف إلى الشرق من برلين إلى بغداد ومنها إلى الخليج الفارسي ، وكادت ألمانيا تصل إلى مبتغاها لو لم تنشب الحرب العالمية الأولى .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى لم يكن يهدد مركز بريطانيا في البحر المتوسط سوى خطر سلاح الغواصات الألمانية ، وكان خطرًا داهيًا حقًا فاجأت به ألمانيا العالم لا في البحر المتوسط وحده بل في المحيط الاطلنطي أيضًا ، وحيثما وجدت الغواصات مسالك لها في عرض البحار والمحيطات . وقد اضطرت انجلترا أمام هذا الخطر أن تجول ملاحتها من البحر المتوسط والقناة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وأن تشدد النكير على ألمانيا وحلفائها بما فرضته من الحصر البحري على موانئها .

وكان خطر سلاح الغواصات من جانب ألمانيا وتنفيذ مبدأ الحصر البحري من جانب بريطانيا على المحاربين والمحايدين جميعاً من أهم المسائل التي استرعت اهتمام ولسون رئيس الولايات المتحدة ، فما كادت بشائر النصر تلوح في جانب الحلفاء على أثر انضمام أمريكا إلى صفوفهم حتى أعلن على رءوس الملاء مبادئه

الأربعة عشر الشهيرة . وكان مما أعلنه في النقطة الثالثة أن حرية الملاحة مكفولة للجميع في الحرب وفي السلم إلا إذا كان الحصر البحري نتيجة قرار من هيئة دولية لتنفيذ ميثاق دولي .

ومع أن هذا المبدأ لم يواجه أى نقد أو اعتراض من جانب الحلفاء عند ما كانت ربحى الحرب تدور ، فإن شروط الصلح قد أغفلته فلم تشر إليه بشيء ؛ وذلك لتمسك إنجلترا بذلك الحق الذى تستمد منه تفوقها البحرى الذى يتيح لها في زمن الحرب فرصة مضايقة أعدائها بعدم توصيل المؤن والذخائر التى ترد إليهم من حلفائهم أو من الدول المحايدة .

ولما كانت إنجلترا حريصة على التمسك بهذا الحق ، لاعتمادها الكلى في موارد غذائها على واردات مستعمراتها والبلاد الأجنبية ، ولاضطرارها في مقابل ذلك إلى تصدير مصنوعات إلى الخارج ، ولأن الأسطول هو الوسيلة الوحيدة لربط شتات أجزاء إمبراطوريتها الواسعة — فإن الدول المجتمعة في مؤتمر السلم لم تجد مسوغاً لإثارة الخلاف بين بعضها وبعض بسبب النص على مبدأ حرية البحار لا سيما أن تقرير مبدأ حرية البحار لا يهم الدول إلا في أثناء الحرب ؛ وعلى ذلك وضعت معاهدة فرساي وليس فيها قيد يحد من سيادة بريطانيا البحرية لا في البحر المتوسط ولا في غيره من البحار .

وخرجت إنجلترا من الحرب العالمية الأولى وقد زادت مسؤوليتها في البحر المتوسط زيادة كلفتها دماً غالياً ونفقات طائلة في سبيل صيانتها والدود عنه ؛ فقد حملت على عاتقها مهمة الانتداب على فلسطين رغم تعقد شؤونها بسبب مشكلة الوطن القومى لليهود ، وجعلت من ميناء حيفا وطرابلس نهايتين لأنابيب البترول الذى تنتجه العراق من آبار الموصل وكركوك — الأولى لإمداد السفن الانجليزية ، والثانية لإمداد السفن الفرنسية ، وكان هذا أهم ما أفادته إنجلترا من انتدابها في المشرق .

أما فيما عدا ذلك فلم تجن إنجلترا من فلسطين سوى الحوادث الدامية والثورات المتعاقبة وقيام مشكلة قومية تعد من أعقد وأشد ما واجهه العالم من مشكلات الشرق الأوسط . ولو قد بر الحلفاء بوعودهم للعرب في أثناء الحرب العالمية الأولى فأقاموا اتحاداً عربياً مستقلاً يجمع بين فلسطين وغيرها من الدول العربية المجاورة ، لما تفاقم خطر مشكلة الصهيونيين إلى الحد الذى نراه الآن ؛ لأن

اليهود الذين عاشوا مع العرب جيراناً وأصدقاء قروناً طويلة كانوا يستطيعون أن يتفاهموا مع العرب رأساً على شروط إقامتهم دون حاجة إلى حشرهم حشراً في ذلك الإقليم الضيق المجذب من الأرض، حتى أضحت فلسطين أضعف وأخطر حلقة في مجموعة دول الشرق الأوسط.

وظلت الحال كذلك في حوض البحر المتوسط حتى اكفهر جو السياسة الدولية سنة ١٩٣٥ وقامت إيطاليا الفاشية تتحدى بريطانيا وعصبة الأمم بهجومها على أثيوبيا، وباتت الحرب متوقعة بين إيطاليا وبريطانيا. ولكن موسليني كان على يقين بأن بريطانيا وحدها لن تستطيع التعرض لإثارة حرب أوربية لم تتخذ لها عدتها، وبأن الرأي العام البريطاني الجانح إلى السلم لا يرضى أن يخوض غمار حرب طاحنة من أجل سبب ثانوي في أهميته كالحبشة.

وعلى ذلك مضى موسليني في مشروعه غير مكترث بتوقيع العقوبات الاقتصادية ولا بالتهديدات الجوفاء التي كانت تتناقلها الصحف إذ ذاك، كحشد الأسطول الإنجليزي في ميناء الإسكندرية، وإمكان إغلاق القناة في وجه إيطاليا. وقد اضطرت بريطانيا وسائر الدول في النهاية إلى الاعتراف بالإمر الواقع وقيام الإمبراطورية الإيطالية في الحبشة.

ولكن الأزمة الحبشية قد فتحت عيون الإنجليز على الهاوية التي تردت فيها سياسة التأمين الجمعي التي ابتدعتها عصبة الأمم، فأدركوا أنه لا سبيل إلى تفادي الحرب المقبلة حتماً إلا بالاستعداد لها؛ فقد كشفت الأزمة الغطاء عن ضعف بريطانيا وعظم استعداد إيطاليا وخاصة في الجو والبحر؛ إذ تضاعف عدد غواصاتها إلى أربعة أمثاله، كما تضاعفت عدد مدمراتها، هذا فضلاً عن السفن الحربية الصغيرة الخفيفة التي أنشأتها إيطاليا بكثرة خصيصاً للعمل في البحار الضيقة، وفضلاً عن تحصينها جزيرة منتلاريا بين مالطة وصقلية وساحل تونس. وزادت الحال حرجاً في البحر المتوسط عند ما قامت الحرب الأهلية في أسبانيا بين الوطنيين تؤيدهم إيطاليا وألمانيا، والجمهوريين تشدهم فرنسا وروسيا، وكان البحر المتوسط مسرحاً لعبت فيه القوى البحرية دوراً هاماً، فاستطاعت إيطاليا أن تحتل جزيرتي ميورقا وإيبيزا من جزر البليار التابعة لاسبانيا. وقيل في ذلك الوقت إنها تعترم الاحتفاظ بميورقا حتى تقطع على فرنسا

خط مواصلاتها مع أملاكها في إفريقيا الشمالية . وكذلك احتلت ألمانيا ميناء
غرول في شمالي أسبانيا الغربي ، وحصنت ميناء سبته على ساحل مراکش
الاسبانية في مواجهة جبل طارق .

وعلى ذلك لم يبق شك في أن توازن القوى في البحر المتوسط قبيل الحرب
الآخيرة قد اختل ، وأن سيادة بريطانيا في هذا البحر أو على الأقل في القسم
الغربي منه قد أصبحت مهددة بأعظم الأخطار . ولم يعد ثمة شك في أنه إذا قامت
الحرب ، فإن فرنسا ستشغل بمصيرها في أوروبا وتترك بريطانيا وحدها تضطلع بمهمة
الدفاع عن مراكزها في البحر شرقا وغربا . وهيئات للأسطول البريطاني وحده
أن ينال من قوى المحور مجتمعة في بحر ضيق كالبحر المتوسط .

وفعلما ما كادت تندلع نيران الحرب وتنضم إيطاليا إلى حليفتها ألمانيا بعد
كارثة فرنسا حتى أصبح حوض البحر المتوسط في عزلة شبه تامة وخاصة في
قسمه الغربي ، واضطرت بريطانيا أن تحول خطوط ملاحتها حول رأس الرجاء
الصالح ، واستمرت كذلك حتى خرجت إيطاليا من نطاق المحور في صيف
سنة ١٩٤٣ ولقد كان لانضمام فرنسا ، وقيام حكومة فيشي بالاتفاق مع ألمانيا أثر
كبير في ضياع النفوذ البريطاني في حوض البحر المتوسط ، إذ خسرت بريطانيا
أسطول حليفتها القديمة فرنسا وأصبح الطريق إلى مصر واليونان ممهداً أمام
إيطاليا . وما لبثت ألمانيا أن انقضت على البلقان فاكتملت أمامها يوغوسلافيا
واليونان ، ثم هاجم جنودها كريد من الجو واستولوا عليها فجأة بفضل تفوقهم
في الطيران ، وباءت بريطانيا بخسائر فادحة رغم انتصارها البحري الموقت على
الأسطول الإيطالي في موقعي تارنتو وماتپان .

واستغل الألمان تفوقهم الظاهر في البحر المتوسط فأنزلوا على سواحل ليبيا
طائراتهم ودباباتهم وجيوشهم وعتادهم ، وزحفوا شرقاً مطاردين أمامهم القوات
الإنجليزية . وكانت آلهة النصر في ذلك الوقت . تؤثر الألمان وترفرف فوق
رءوسهم وتقودهم من فتح إلى آخر حتى وقف هتار وسط هالة من المجد يفاضل
بين خطتين كلتاها تدفعه إلى عرش السيادة العالمية ، إذ كان عليه أن يختار بين
اختراق تركيا إلى آسيا ، ومهاجمة روسيا من الغرب .

وشاءت الأقدار التي لا تغلب أن يختار روسيا — تلك التي أذلت نابليون من قبل ،
فأمر في ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ أن تضرب روسيا على جبهة يبلغ طولها ألف ميل .

ثم لم يمض بعد ذلك إلا أشهر حتى دخلت أمريكا الحرب ودارت معركة العلمين ، وكانت الحد الفاصل بين الهزيمة والنصر ، فنزلت جيوش الحلفاء فجأة على سواحل إفريقية الشمالية من كاسا بلانكا ورباط على الأطلنطي ومن وهران والجزائر على البحر المتوسط ، وضاعفت أمريكا والمجترات عملهما في إنتاج الطائرات والدبابات وفي مكافحة الغواصات حتى فاق إنتاجهم ما كانت تستطيعه ألمانيا وأتباعها ، وكانت الحرب قد سلخت قرابة أربعة أعوام .

ثم جاءت فترة خشي معها الحلفاء أن تضع ألمانيا يدها على الأسطول الفرنسي الرابض أمام ميناء تولون في البحر المتوسط . وفجأة انقلب أمير البحر الفرنسي دارلان على حكومة فيشي فأمر بضم الأسطول إلى جانب الحلفاء ، ولكن الضباط البواسل ترددوا بين سياستين كلتاها شر ، فأثروا الموت على العار والاستسلام ، وأغرقوا الأسطول .

وبذلك استطاع الحلفاء أن يوالوا انتصاراتهم على طول ساحل إفريقية الشمالية ؛ فكان إيزنهاور الأمريكي القائد الأعلى لجيوش الحلفاء يقف من مراکش شرقاً وألكسندر ومومنتجرى يطويان فيافي طرابلس غرباً ، حتى قضوا في النهاية على قوات المحور عند تونس وبترت ، وأصبح الوثوب إلى جزيرتي پنتالاريا وصقلية ومنها إلى إيطاليا حقيقة متوقعة ، وقد كان منذ شهور قليلة حلم لا يصدقه العيان .

وقد كشفت الحرب الأخيرة عن أمرين على جانب عظيم من الأهمية : أولهما أن الجزر في البحر المتوسط معقل وحصون لا تغلب ، وأن إخضاعها أمر مخوف بأشد الأخطار وبالغ منتهى الصعوبة ؛ فقد ثبتت جزيرة مالطة أمام هجمات الأعداء المتوالية ، كما ثبت الألمان في جزيرة كريد ، والطيان والألمان في جزر الدوديكانيز ، ولم يستطع أحد الجانبين بلوغ مأربه حول هذه القلاع الرواسي . أما الأمر الثاني فاستخدام الطائرات لتكامل عمل الغواصات ؛ فقد ظهر أن تنسيق الجمع بين السلاحين في بحر ضيق المسالك كثير الخلل كالبحر المتوسط لا بد أن يتيح لصاحبه تفوقاً ظاهراً بدت آثاره جلية في أثناء الحرب . وكان تفوق المجترات في شرق البحر المتوسط من أهم العوامل التي ساعدت الحلفاء على الاحتفاظ بسواحل بلاد الشرق وإحباط مساعي الألمان في آسيا .

من ذلك كله يتضح أن القول بأن البحر المتوسط مع قناة السويس هو بمنزلة

بريطانيا وحوض البحر المتوسط

الشريان للإمبراطورية البريطانية وصف مبالغ فيه كثيراً ؛ فالشريان إذا اقتطع أو بتر انعدمت الحياة . وقد برهنت الحربان العالميتان الماضيتان على استطاعة الإمبراطورية البريطانية أن تعيش وتقوى رغم استغنائها عن استعمال هذا الشريان مدة بلغت في الحرب الأخيرة أكثر من أربع سنوات . ذلك لأن هناك طرقاً أخرى تربط إنجلترا بأملاكها وحلفائها ، وأهمها طريق رأس الرجاء الصالح ، وهو لا يستغرق من الوقت الآن أكثر مما كان يستغرقه طريق البحر المتوسط في بدء افتتاح القناة .

وتتلخص الصعاب التي تواجهها بريطانيا في حوض البحر المتوسط ، عدا ما ذكرناه ، في أن أسبانيا لم تنس جبل طارق ، وأنه رغم مرور أكثر من قرنين ونصف قرن على احتلال إنجلترا لهذه القلعة الحصينة ، فإن الشعور الوطني في أسبانيا لا يستسيغ الاحتلال الأجنبي لجزء من أرض الوطن . ولا بد أن تظهر آثار هذا الشعور يوماً ما .

أما قناة السويس فإن عقد الشركة سينتهي في سنة ١٩٦٨ . حينئذ تصبح القناة ملكاً لمصر صاحبة الفضل وسيدة الأرض التي حفرت فيها . ومع أن القناة طريق بحري حر لجميع الدول في السلم وفي الحرب ، فلا بد من تقرير هذه القاعدة في معاهدات الصلح التي ستبرم قريباً حتى يزول أثر المعاهدة المصرية الانجليزية المنعقدة سنة ١٩٣٦ والتي انفردت فيها بريطانيا بميزة الدفاع عن القناة إلى جانب مصر . على أنهم مع ذلك يزعمون أن بريطانيا تفكر في حفر قناة أخرى تصل بين العقبة في شرق الأردن وغزة في فلسطين ، حتى لا تتعرض مصالحها للخطر متى آلت القناة لمصر . وإنا لنستبعد إمكان تحقيق هذا الزعم ، لا لضخامة المشروع وطول القناة وعظم نفقاته من غير مسوغ ، بل لأن الحلفاء مقيدون بتنفيذ المادة السابعة من ميثاق الأطلنطي التي تقول إن الصلح كفيل بأن يمكن للناس جميعاً أن يجتازوا البحار والمحيطات بدون عائق . ومعنى هذا أن تكون المضائق والمسالك المائية جميعاً تحت رقابة مجلس الأمن ، فلا يعقل أن تحفر قناة عالمية جديدة لتكون تحت سيطرة دولة بعينها . على أن مصر ستكون متى آلت إليها القناة حارسة لها بتوصية من مجلس الأمن وبرضاء بريطانيا وسائر أعضاء هيئة الأمم المتحدة .

وليس في مالطة الآن أثر للحركة التي كانت ترمى إلى الانضمام إلى إيطاليا .
وأما في جزيرة قبرص فالسكان موالون للإنجليز ، ولكن الكثرة العظمى منهم
تود الانضمام إلى اليونان أمهم الكبرى . وكذلك الشأن في رودس وجزر
الدوديكانيز التي كانت تابعة لإيطاليا ، ففيها أقليات من الأتراك ، ومعظم السكان
يونانيون جنساً ولغة وديناً .

ولكن يبدو أن روسيا منذ اختل التوازن السياسي في حوض البحر
المتوسط بخروج الطليان من مضمار التنافس البحري ، قد بدأت تحاول تصحيح
الميزان وتطالب لنفسها بقواعد في البحر المتوسط ؛ فقد ضاقت روسيا ذرعا
بتجمد مياه البحار المحيطة بها في معظم شهور السنة ، وتريد أن يكون لها منفذ
إلى البحر المتوسط وقواعد في مختلف أنحائه باسمها أو باسم حليفاتها . فإذا تشبثت
تركيا بمفتاح البوابة الجانبية عند الدردنيل وصمم الحلفاء على إقصاء روسيا عن
الوصاية في ليبيا أو رودس أو جزر الدوديكانيز ، فأكبر الظن أن روسيا ومعها
أمريكا والدول الصغرى لن تهدأ لها نائرة حتى ترى مفاتيح بوابات هذا البحر
قد حطمت ، ومنافذه جميعاً قد أصبحت محايدة وحررة للجميع في السلم وفي الحرب .

محمد رفعت

المعاهدات وميثاق الأمم المتحدة

ميثاق الأمم المتحدة هو الدستور الجديد للعلاقات الدولية الذي صدر بمدينة سان فرانسيسكو في اليوم السادس والعشرين من شهر يونيه لسنة ١٩٤٥ بتوقيع مندوبي إحدى وخمسين دولة بعد مناقشة دامت ثلاثة أشهر لمقترحات ديمبارتون أوكس التي كان قد أعدها ممثلون للولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين خلال مباحثات جرت قرب مدينة واشنطن بين الحادى والعشرين من أغسطس والسابع من أكتوبر لسنة ١٩٤٤ .

وهو مكون من مئة وإحدى عشرة مادة ، وزعت على تسعة عشر فصلا تتقدمها ديباجة . وقد تضمنت الديباجة تقرير إنشاء هيئة دولية تسمى « الأمم المتحدة » كما تضمنت عهداً قطعها الموقعون عن « شعوب هذه الأمم » على أنفسهم إنقاذاً للأجيال المقبلة من ويلات الحرب ، وتوكيداً للإيمان بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية ، ودفعاً بالرقى الاجتماعى قُدُماً ، ورفعاً لمستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح ، وأخذاً لأنفس بالتسامح والعيش معاً فى سلام وحسن جوار ، وضماً للقوى فى سبيل الاحتفاظ بالنسب والأمن الدولى ، وكفلاً لعدم استخدام القوة المسلحة فى غير المصلحة المشتركة ، وتوحيداً للجهود فى سبيل ذلك جميعاً . وعالجت الفصول مقاصد الهيئة ومبادئها ، وعضويتها ، وفروعها ، وجمعيتها العامة ، ومجاس الأمن ، وحل المنازعات حلاً سائماً ، وما يتخذ من الأعمال فى حالات تهديد السلم والإخلال به ووقوع العدوان ، والتنظيمات الإقليمية ، والتعاون الدولى الاقتصادى والاجتماعى ، والمجاس الاقتصادى والاجتماعى ، والأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتى ، ونظام الوصاية الدولى ، ومجلس الوصاية ، ومحكمة العدل الدولية ، والأمانة العامة ، وأحكام متنوعة ، وتدابير حفظ الأمن فترة الانتقال ، وتعديل الميثاق ، وتوقيعه والتصديق عليه .

المعاهدات وميثاق الأمم المتحدة

وينطوى الميثاق فى عمومه على فكرة التضامن العالمى فى سبيل إقرار الطمأنينة واطراد التقدم عن طريق التزامات ترتبط بها أعضاء الهيئة الدولية الجديدة. وقد قام نقاش فى لجنة المشا كل القانونية بمؤتمر سان فرانسيسكو حول الاسم الذى يطلق على «الأدوات» التى تحدد تلك الالتزامات، وإن كان الأمر قد أصابها عن طريق غير مباشر؛ لأن النقاش كان قد دار لمناسبة تسجيل المعاهدات ونشرها، وكان قد دار حول تحديد المعاهدات التى يجب تسجيلها. فأشار البعض إلى وجوب قصر التسجيل على المعاهدات السياسية. وأخذ على ذلك أن كثيراً من المعاهدات التى تبدو فى ظاهرها اقتصادية محضة تنطوى على أغراض سياسية. وانهى رأى اللجنة إلى الاطلاق فى وصف المعاهدات، وفضلت اللجنة عبارة «المعاهدات والاتفاقات الدولية». وهذا الشمول فى التعبير هو الذى سنأخذه نحن أيضاً فى هذا البحث.

ولقد ورد ذكر المعاهدات والاتفاقات فى أكثر من مادة من مواد الميثاق، وفى أكثر من فصل من فصوله؛ لأنه نظر إليها من عدة نواح؛ فلاحت فيه متنوعة، وأصبحت دراستها بالنسبة لأحكامه محل تنسيق وتبويب أوثر أن تكون طريقة عرضي لهما هى طريقة التمييز بالموضوع.

والواقع أن ميثاق الأمم المتحدة قد ميز بين المعاهدات والاتفاقات الدولية من حيث مواضعها ووزعها على ستة أنواع —: الاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية، والاتفاقات الخاصة بأعمال أراء الدول المعادية، واتفاقات الوصاية، واتفاقات حفظ السلم والأمن الدولى، واتفاقات التنظيمات الإقليمية ومعاهدات الدفاع عن النفس.

أما الاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية، فهى التى يضعها المجلس الاقتصادى والاجتماعى مع التوكيلات التى تدعو هيئة الأمم المتحدة ذاتها إلى إجراء مفاوضات بين الحكومات التى تضطلع بمقتضى نظمها الأساسية بتبعات دولية واسعة فى الاقتصاد والاجتماع والثقافة والتعليم والصحة وما يتصل بذلك من الشؤون قصد إنشاء تهيئة لشروط الاستقرار والرفاهية الضرورية لقيام علاقات سلمية ودية بين الأمم تقوم على احترام المبدأ الذى يقضى للشعوب بحقوق متساوية ويجعل لها تقرير مصيرها، وذلك بتحقيق مستوى أعلى للمعيشة، وتوفير أسباب الاستخدام المتصل لكل فرد، والنهوض بعوامل التطور والتقدم الاقتصادى

والاجتماعي ، وتيسير الحلول للمشاكل الدولية الاقتصادية والاجتماعية والصحية وما يتصل بها ، وتعزيز التعاون الدولي في شؤون الثقافة والتعليم ، ونشر احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء ومراعاة تلك الحقوق والحريات فعلا .

وقد قضت المادة السادسة والخمسون من الميثاق بتعهد جميع الأعضاء بأن يتخذوا ما يجب عليهم من عمل مفرد أو مشترك بالتعاون مع هيئة الأمم المتحدة لإدراك المقاصد التي تعقد تلك الاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية لأجل العمل في سبيل تحقيقها ، كما نصت المادة الستون على أن مسؤولية تحقيق هذه المقاصد إنما تقع على عاتق الجمعية العامة كما تقع على عاتق المجلس الاقتصادي والاجتماعي في ظل سلطان هذه الجمعية العامة بمقتضى أحكام واردة في الفصل العاشر من فصول الميثاق .

وأما الاتفاقات الخاصة بأعمال إزاء الدول المعادية فهي تلك التي تقرر إجراءات أو تدابير تتخذ ضد أية دولة كانت في الحرب العالمية الثانية من أعداء أية دولة موقعة على الميثاق . والواقع أن أحكام الميثاق قد أطلقت هذه التدابير من القيود الحظرية ، فنصت المادة السابعة بعد المئة على أنه « ليس في الميثاق ما يبطل أو يمنع أي عمل إزاء دولة كانت في أثناء الحرب العالمية الثانية معادية لإحدى الدول الموقعة على هذا الميثاق إذا كان هذا العمل قد اتخذ أو رُخص به نتيجة لتلك الحرب من قبل الحكومات المسؤولة عن هذا العمل » ، كما استثنت المادة الثالثة والخمسون من عدم جواز قيام التنظيمات الإقليمية بأعمال القسر بدون إذن مجلس الأمن « التدابير التي تتخذ ضد أية دولة من دول الأعداء أو التدابير التي تكون في التنظيمات الإقليمية قد قصد بها منع سياسة العدوان من جانب دولة من تلك الدول » ، وإن كان هذا الاستثناء قد قيد باعتبار التوقيت ؛ إذ مضت المادة تقول : « وذلك حتى يحين الوقت الذي قد يعهد فيه إلى الهيئة بناء على طلب الحكومات ذات الشأن بمسؤولية منع أي عدوان آخر من واحدة من تلك الدول » .

واتفاقات الوصاية هي التي تخضع بمقتضاها أقاليم معينة لنظام الوصاية الدولي الجديد الذي يهدف أساسيا إلى العمل على ترقية أهالي تلك الأقاليم في شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد والتعليم واطراد تقدمها نحو الحكم الذاتي أو

الاستقلال حسبما يلائم الظروف الخاصة لكل إقليم وشعوبه ويتفق مع رغبات هذه الشعوب التي تعرب عنها بكل حريتها وطبقاً لما قد ينص عليه في شروط كل اتفاق من تلك الاتفاقات ، وكذلك إلى كفالة المساواة في المعاملة في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والتجارية لجميع أعضاء «الأمم المتحدة» وأهل الأقاليم المشمولة بالوصاية . على أن تكون هذه الأقاليم واحدة من ثلاث فئات : المشمولة الآن بالانتداب ، والتي قد تقتطع من دول الأعداء نتيجة للحرب العالمية الثانية ، والتي تضعها في الوصاية بمحض اختيارها دول مسئولة عن إدارتها ، وعلى ألا يطبق نظام الوصاية على الأقاليم التي أصبحت أعضاء في هيئة الأمم المتحدة ؛ إذ يجب — على حد نص المادة الثامنة والسبعين — أن تقوم العلاقات بينها على احترام مبدأ المساواة في السيادة .

ويجب أن يشمل اتفاق الوصاية ، في كل حالة ، الشروط التي يدار بمقتضاها الإقليم المشمول بالوصاية وأن يعين السلطة التي تباشر الإدارة فيه . ويجوز أن يحدد في أى اتفاق من اتفاقات الوصاية مساحة استراتيجية قد تشمل الإقليم الذي ينطبق عليه نظام الوصاية بعضه أو كله ؛ على أن تحقق الأهداف الأساسية لهذا النظام بالنسبة لشعب هذه المساحة ، وعلى أن يباشر مجلس الأمن ذاته جميع وظائف «الأمم المتحدة» بالنسبة للمناطق الاستراتيجية بما فيها الموافقة على شروط اتفاقات الوصاية وتغييرها أو تعديلها مستعيناً في ذلك بمجلس الوصاية . أما فيما يختص بالمساحات التي لم ينص على أنها مساحات استراتيجية فإن الجمعية العامة هي التي تتولى مباشرة وظائف «الأمم المتحدة» بالنسبة لها مستعينة بمجلس الوصاية في ظل سلطتها .

ولعل أهم أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية بالنسبة لميثاق هيئة الأمم المتحدة هو نوع اتفاقات حفظ السلم والأمن الدولي . وهيئة الأمم المتحدة إنما تتميز عن «عصبة الأمم» بتنظيمها الوسائل الفعالة لحفظ السلم والأمن الدولي الذي عهدت به للأمم فرع من فروعها وهو مجلس الأمن .

وقد نصت الفقرة الأولى من المادة الرابعة والعشرين من ميثاق «الأمم المتحدة» على أن أعضاءها يعهدون إليه «بالتبعات الرئيسية في أمر حفظ السلم والأمن الدولي ، وبوافقون على أن هذا المجلس يعمل نائباً عنهم في قيامه بواجباته

التي تفرضها عليه هذه التبعات » . كما نصت المادة الخامسة والعشرون على تعهد أعضاء « الأمم المتحدة » بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها ، وحرمت المادة الثانية عشرة على الجمعية العامة ذاتها أن تقدم أية توصية في شأن نزاع أو موقف يكون منظوراً أمامه إلا إذا طلب هو منها ذلك .

وقد نظم الميثاق التبعات الملقاة على مجلس الأمن ، إذ جعله « مسئولاً بمساعدة لجنة أركان حرب عن وضع خطط تعرض على أعضاء الأمم المتحدة لوضع منهاج لتنظيم التسليح ، وإذ جعل له أن يفحص أى نزاع أو موقف قد يؤدي إلى احتكاك دولي أو قد يثير نزاعاً لكي يقرر أمن شأن استمرار هذا النزاع أو الموقف أن يعرض للخطر حفظ السلم والأمن الدولي ، كما جعل لكل عضو من الأمم المتحدة أن ينبهه إلى أى نزاع أو موقف من هذا النوع ، بل جعل « لكل دولة ليست عضواً في الأمم المتحدة أن تنبهه إلى أى نزاع تكون طرفاً فيه » ، وإذ خصه بأن يوصى بما يراه ملائماً من الاجراءات وطرق التسوية في أية مرحلة من مراحل النزاع أو الموقف الشبيه به ، كما ترك له هو بنص المادة التاسعة والثلاثين من الميثاق أن « يقرر ما إذا كان قد وقع تهديد للسلم أو إخلال به أو كان ما وقع عملاً من أعمال العدوان » ، وخوله بمقتضى المواد التالية دعوة المتنازعين للأخذ بما يراه ضرورياً أو مستحسنًا من تدابير مؤقتة ، أو تقرير ما يجب اتخاذه من التدابير التي لا تتطلب استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته ، أو أن يتخذ كما ورد في نص المادة الثانية والأربعين — إذا رأى أن هذه التدابير لا تفي بالغرض أو ثبت أنها لم تف به — « بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدولي وإعادته إلى نصابه » ؛ على أن يكون وضع الخطط اللازمة لاستخدام هذه القوات المسلحة من فسيبه هو بالذات بمساعدة لجنة أركان الحرب « وهي لجنة مؤلفة من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن — الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي وفرنسا والصين — ومسئولة تحت إشراف المجلس عن التوجيه الاستراتيجي لأية قوات مسلحة موضوعة تحت تصرفه ، ولها في سبيل هذا التوجيه الاستراتيجي أن تنشئ لجاناً فرعية إقليمية إذا خولها ذلك مجلس الأمن بعد التشاور مع التوكيلات الإقليمية صاحبة الشأن » .

وهذه القوات التي توضع تحت تصرف مجلس الأمن هي محل هذا النوع من

المعاهدات وميثاق الأمم المتحدة

المعاهدات والاتفاقات التي سميها «اتفاقات حفظ السلم والأمن الدولي» ، وقد نظمت ملاساتها وأوضاعها بمقتضى أحكام المواد الثالثة والأربعين والتاسعة والأربعين والخامسة والأربعين والرابعة والأربعين والسادسة بعد المئة

وقد قررت الفقرة الأولى من المادة الثالثة والأربعين مبدأ تعهد «جميع أعضاء الأمم المتحدة في سبيل المساهمة في حفظ السلم والأمن الدولي أن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن طبقاً لاتفاق أو اتفاقات خاصة ما يلزم من القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات الضرورية لحفظ السلم والأمن الدولي ، ومن ذلك حق المرور» . وفرضت المادة الخامسة والأربعون أن يكون «لدى الأعضاء وحدات جوية أهلية يمكن استخدامها فوراً لأعمال القسر الدولية المشتركة . ويحدد مجلس الأمن قوتها ومدى استعدادها والخطط لأعمالها المشتركة ، وذلك بمساعدة لجنة أركان الحرب وفي الحدود الواردة في الاتفاق أو الاتفاقات الخاصة المشار إليها في المادة الثالثة والأربعين» وقد نصت الفقرة الثالثة من هذه المادة الثالثة والأربعين على أن «تجرى المفاوضة في الاتفاق أو الاتفاقات المذكورة بأسرع ما يمكن بناء على طلب مجلس الأمن ، وتبرم بين مجلس الأمن وبين أعضاء «الأمم المتحدة» أو بينه وبين مجموعات من أعضاء «الأمم المتحدة» ، وتصديق عليها الدول الموقعة وفق مقتضيات أوضاعها الدستورية» . كما وضعت المادة السادسة بعد المئة نظاماً مؤقتاً يعمل به «إلى أن تصير الاتفاقات الخاصة المشار إليها في المادة الثالثة والأربعين معمولاً بها على الوجه الذي يرى معه مجلس الأمن أنه أصبح يستطيع البدء في احتمال مسؤولياته» ، وهو نظام التشاور يجري فيما بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين وفرنسا ويجري بينهن وبين سائر أعضاء الأمم المتحدة ، كلما اقتضت الحال للقيام نيابة عن الهيئة بالأعمال المشتركة التي قد تلزم لحفظ السلم والأمن الدولي» .

وإلى جانب هذه الأحكام فإن المادة التاسعة والأربعين تنص على أن «يتضافر أعضاء الأمم المتحدة على تقديم المعونة المتبادلة لتنفيذ التدابير التي قررها مجلس الأمن» ، كما تنص المادة الرابعة والأربعون على ما يتبادل مع مبدأ التضافر هذا من ضرورة دعوة العضو ، الذي يطلب إليه مجلس الأمن — إذا ما قرر استخدام القوة — تقديم القوات المسلحة وفاء بالالتزامات التي ارتبط بها عن طريق اتفاق من اتفاقات حفظ السلم والأمن العالمي ، إلى أن يشترك في القرارات

التي يصدرها المجلس في ذلك الصدد إذا لم يكن العضو المذكور ممثلاً فيه .
ثم تجبى التنظيمات الإقليمية ، ولا يحول الميثاق دون معالجتها ومن الأمور
المتعلقة بحفظ السلم والأمن الدولي ما يكون العمل الإقليمي صالحاً فيها ومناسبا
مادامت هذه التنظيمات وأنواع نشاطها متلائمة مع مقاصد « الأمم المتحدة »
ومبادئها . ولكن الميثاق حدد هذه المعالجة التي يعترف للتنظيمات الإقليمية بالقيام
بها ، إذ قصرها على « تدبير الحل السلمي للمنازعات المحلية » قبل عرض هذه المنازعات
على مجلس الأمن ، سواء أصدرت تلك المعالجة من تلقاء نفس المنظمة أو بناء على
طلب المجلس ، وإن كان قد احتفظ لنفسه بحق استخدام تلك التنظيمات في ظل
سلطانه كلما رأى ذلك ملائماً في أعمال القسر ، مع حرص المادة الثالثة والخمسين
من الميثاق على النص على أنه « لا يجوز القيام بأى عمل من أعمال القسر بمقتضى
التنظيمات الإقليمية أو على يد التوكيلات الإقليمية بدون إذن مجلس الأمن » إلا
في حالة التهديد التي تتخذ ضد دولة من دول الأعداء على حد ما أشرنا إليه من
قبل ، وذلك كله على أن « يحاط مجلس الأمن في كل وقت إحاطة تامة بما يجرى
من الأعمال أو يزعم القيام به منها بمقتضى تنظيمات إقليمية أو بواسطة توكيلات
إقليمية لحفظ السلم والأمن الدولي » كنص المادة الرابعة والخمسين .

على أن الاتفاقات الإقليمية التي أورد الميثاق بخصوصها تلك الأحكام الواضحة
الدقيقة في مواده لا تحظى بتعريف يحددها ويعين معالمها . وقد لاحظت مصر
هذا النقص ، فضمنت ملاحظتها على مقترحات دمبرتون أوكس مطالبة بإيضاح
ما يجب أن يتوافر في التنظيمات الإقليمية من عنصرى التجاور الجغرافى واشتراك
المصالح ، وتقدم وفدها في مؤتمر سان فرانسيسكو فعلا باقتراح إضافة فقرة
جديدة إلى فقرات المادة ٥٢ من الميثاق يكون نصها :

« تعتبر اتفاقات إقليمية الهيئات الدائمة التي تضم في منطقة جغرافية معينة
عدداً من الدول تجمع بينها روابط التجاور والمصالح المشتركة والتقارب الثقافى
واللغوى والتاريخى والروحى ، وتتعاون جميعاً على حل ما قد ينشأ من منازعات
حلا سلمياً وعلى حفظ السلم والأمن في منطقتها وحماية مصالحها وتنمية علاقاتها
الاقتصادية والثقافية . »

ولكن لم يحظ هذا التعديل بموافقة اللجنة المختصة . . وحتى دول أمريكا

اللاتينية التي كانت قد قدمت اقتراحاً في نفس المعنى نزلت عنه وصوتت ضد الاقتراح المصري . وكانت حجة الولايات المتحدة في دفع هذا التعديل أن كل تعريف تضيق ، وأنه مع التسليم بما في التعريف المصري من الضبط ودقة الوصف فإنه يخشى أن يخرج من التنظيمات الإقليمية ما قد يجب أن يدخل فيها . ويتصل باتفاقات حفظ السلم والأمن الدولي وباتفاقات التنظيمات الإقليمية أوثق الاتصال نوع أخير من أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية ، هو نوع معاهدات الدفاع عن النفس التي ورد ذكرها في المادة الحادية والخمسين من مواد الميثاق ونصها :

« ليس في هذا الميثاق ما يرد أو ينتقص الحق الطبيعي للدول ، فرادى أو جماعات ، في الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة ، وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي . ويبلغ المجلس فوراً التدابير التي اتخذها الأعضاء بمباشرة حق الدفاع عن النفس . ولا تؤثر تلك التدابير بأي حال في سلطة المجلس ومسؤولياته المستمدة من أحكام هذا الميثاق ، في أن يتخذ في أي وقت ما يرى ضرورة لاتخاذ من الأعمال لحفظ السلم والأمن الدولي أو إعادته إلى نصابه . »

وقد كان هذا النوع من المعاهدات هو الآخر محل مناقشة في لجان مؤتمر سان فرانسيسكو ، وكان لمصر موقف بصدده كذلك . ذلك أن حق الدفاع الجماعي قد بسط أثناء المناقشات على موائيق المعاونة العسكرية وبوجه خاص على المعاهدات المعقودة بين الاتحاد السوفيتي وكل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا . فطلبت مصر إيضاح مدى حق الدفاع الجماعي ، وبينت أنه إذا كان هذا الحق يشمل المحالفات العسكرية فإن من الضروري أن يقصر نطاقه على موائيق المعاونة العسكرية التي تعقد بين دول متجاورة ليصبح عليها وصف التنظيمات الإقليمية . وهنا صرحت الولايات المتحدة بأنه كان المقصود أصلاً أن حق الدفاع الجماعي لا ينصرف إلا إلى التنظيمات الإقليمية بالمعنى الصحيح . إلا أنه أثناء المفاوضات بسط نطاقها بحيث شمل المحالفات العسكرية التي تقرر الهيئة الجديدة أنها تتلاءم مع الميثاق .

وبتقريب هذا البيان الذى نقلناه حرفياً من تقرير وزارة الخارجية المصرية عن أعمال مؤتمر الأمم المتحدة للتنظيم الدولى المنعقد فى سان فرانسيسكو والمقدم للبرلمان المصرى فى شهر ديسمبر لسنة ١٩٤٥ ، بتقريب هذا البيان من نص المادة الحادية والخمسين من مواد الميثاق تكون معاهدات الدفاع عن النفس خاضعة صحتها لتوافر الشروط التالية :

- أولاً — أن يكون موضوعها الدفاع عن النفس لا الهجوم ولا الدفاع عن الغير .
- ثانياً — ألا تكون أحكامها نافذة إلا فى حالة الاعتداء الفعلى بقوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة .
- ثالثاً — أن يكون تنفيذ أحكامها عند نفاذها موقوتاً إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى .
- رابعاً — أن يبلغ المجلس فوراً التدابير التى يتخذها المتعاهدون دفاعاً عن النفس .
- خامساً — أن تقر هيئة الأمم المتحدة أن المعاهدة تتلاءم مع الميثاق .

تلك هى أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية المتصلة بهيئة الأمم المتحدة ، وتلك هى أحكام ميثاق الأمم المتحدة فى صدد قيامها ونفاذها . وإن هذه الأحكام لتتطرق بالاتجاه الدولى الجديد ، اتجاه التعاون العالمى والتضافر فى سبيل المشاركة السلمية عن طريق الهيئة الجديدة وتحت إشرافها ، وإخضاع العلاقات بين الشعوب والأمم فرادى وجماعات لاعتبار التفاهم المتبادل الخالى من كل ضغط فى الحظيرة الدولية ، وعدم الانفراد فى معالجة غير الشؤون الداخلية البحتة ، أو على حد تعبير الفقرة السابعة من المادة الثانية من الميثاق « عدم تدخل الأمم المتحدة فى الشؤون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما » ، وكذلك عدم السماح لدولتين أن تحكما بينهما علاقات تتصل بالسلم والأمن الدولى فى غير نطاق الميثاق ودون علم مجلس الأمن ، وبعض الأحياء دون إذنه . وهى لا تعترف مثلاً بمساحات استراتيجية تتصل بها أكثر من دولة واحدة إلا فى الأقاليم المشمولة بالوصاية ليس غير ، وهى أقاليم يطبق عليها نظام دولى تشرف عليه « هيئة الأمم

المتحدة» . ومنصوص على عدم تطبيقه على أعضاء هذه الهيئة المتساوين في السيادة .

وقد شاء الميثاق أن يؤكد ذلك الاتجاه الجديد ويقضى على ما قد يقوم بين الالتزامات الناشئة عنه والالتزامات غيره من الأدوات الدولية من تعارض ، كما حرص على أن يراقب ما قد يعقد بين بعض الدول من اتفاقات تخالف أحكامه ، فنص في مادته الثالثة بعد المئة على أنه « إذا تعارضت الالتزامات التي يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام الميثاق مع أى التزام دولي آخر يرتبطون به ، فأبعده بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق » . ونص في مادته الثانية بعد المئة على أن كل معاهدة وكل اتفاق دولي يعقده أى عضو من أعضاء الأمم المتحدة بعد الحمل بالميثاق يجب أن يسجل في أمانة الهيئة وأن تقوم بنشره بأسرع ما يمكن . وليس لأى طرف في معاهدة أو اتفاق دولي لم يسجل أن يتمسك بتلك المعاهدة أو ذلك الاتفاق أمام أى فرع من فروع الأمم المتحدة » .

وكانت مصر قد تقدمت في صدد تعارض الالتزامات باقتراح النص في صلب المادة المتعلقة به على « أن المعاهدات السابقة التي تتنافى مع الميثاق تعتبر ملغاة أو واجبة التعديل » . واحتدمت المناقشة في هذه المسألة وطالت أكثر مما حدث في غيرها من المسائل ، وانتهى الأمر بصياغة المادة الثالثة بعد المئة على ذلك النحو الذي يؤدي في عموم أسلوبه إلى تحقيق الاقتراح المصري في خصوصه « وما دامت العبرة بالالتزامات المترتبة على الميثاق فإن ما يتعارض معها من التزامات سابقة أو لاحقة لا يكون له شيء من الاعتبار » .

على أن مصر لم يفتها عند مناقشة اختصاصات الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة أن تثير الموضوع عن طريق اقتراح تخويل هذه الجمعية حق التوصية بناء على طلب أى عضو لإعادة النظر في المعاهدات التي أصبحت غير قابلة للتطبيق . وانقسمت الآراء أزاء الاقتراح المصري بين مؤيد ومعارض ومحيد . وحاولت الولايات المتحدة إقامة التوازن بين اتجاهي التأييد والمعارضة ، وأعلنت أن النص على تسوية أى موقف تسوية سلمية أياً كان منشؤه يجب ألا يحمل على معنى نفى حق الجمعية في إعادة النظر في المعاهدات ، بل إذا نشأ عن قيام معاهدة ما موقف ترى الجمعية أنه يضر بالرعاية العامة أو يعكر صفو العلاقات الودية بين الأمم فالجمعية أن تشير بما تراه في هذه الظروف . وطلبت بلجيكا إثبات هذا

للمعاهدات وميثاق الأمم المتحدة

التفسير في المحضر ، وأيدتها مصر في هذا الطلب الذي يحقق ما طلبت على اعتبار أنه يكفل إعادة النظر في المعاهدات .
وبعد ، فلعلنا بهذا البحث أن نكون قد ساهمنا في إنارة الطريق أمام الذين يتلمسون الآن فهم القواعد التي تقوم عليها معاهدة في نطاق ميثاق الأمم المتحدة .

محمود عزمى

أحلامي الضائعة

من هوى نفسى ، وأشواق فؤادى ؟
ألقت الريح بها فى كل واد !
أصبحت صحراء غرقى فى السواد
أذهلت قلبى وألثوت برشادى !

أين أحلامي التى أبدعتها
قد تهاوت كورود غضة
فاذا الدنيا - وكانت جنة -
يا لها من محنة قاسية

صرت أحياء بين آلامى وحيدا
قد دفنت الأُنس فى قلبى وليدا
لا أراها تُبدع اليوم جديدا !
لم أزل أحياء على الدنيا شريدا ؟

أنظري أحلام قلبى ... إننى
فى ربيع العمر ... فى فجر الصبا
وأصاب العقم نفسى ! ويحها
ليت شعرى ما بقائى ، وأنا

هذه الأحلام من عمرى الحزين ؟
تحلم النفس بها فى كل حين
فإليها أبد الدهر حنينى
فرحة الباكي ، وآفاق السجين ؟

كيف أحياء بعد أن ضاعت سُدى
إنها صورة دنيائى التى
صاغها الشوق ، وجلأها الهوى
ليت شعرى كيف أرجو بعدها

مثما يطوى منى النفس الفناء
غير أحلامي بآفاق السماء

رُبَّ ليل قد طواني موجه
لم أجِد لي عاصماً من أمره

أحلامى الضائعة

وحشة الليل ، وأحزان المساء
كلها نور ، وأنس ، وغناء

فتساميت إليها شاكياً
فاذا دنيا كما شاء الهوى

كغبار يرتقى فوق الزحام
يتسامى عن ضلالات الأنام
وهو للحب مشوق مستهام
كلها صفو وأمن وسلام

ونهار يرتقى ضوضاؤه
لذت منه بمكان مفرد
فهفها قلبي إلى أحلامه
فاذا دنيا كما شاء الهوى

تعول الريح ، وضجئى بالنجيب
جمل الدنيا بأحلام القلوب
فهو يحيا فى ضلوعى كالغريب
إذ يعيش القلب فى ليل المشيب ؟

أعورلى يا روح أيامى كما
وارفعى شكواك لله الذى
غلب القلب على أحلامه
كيف يحيا الجسم فى فجر الصبأ

تستبدُّ الوحشة الكبرى بحسنى
وإذا أبقى وحيداً مع نفسي !
وغريباً بين آلامى ويأسى
ثم ألقى فى مهاوى العمر كآسى

آه كم يغلبنى الحزن ! وكم
حينما أمضى مع الناس سدى
ومقيماً بين أهلى هاهنا
ليتنى أجزعُ حزنى مرة

فلتقى ... لكن متى؟ ... بعد الحصاد !
بارد الأيفاع ، مقرر الوهاد !
أبتغى دفئاً لروحي وفؤادى
فهماويت بقلبي فى الرماد !

إيه أحلامى ! وداعاً ، وغداً
حين يبدو حقل عمرى مقفراً
فتلفئت بقلب مرعش
وتراءيت رماداً دافئاً

أحلامى الضائفة

فغدا يُحصر بالأنفاس عمرى !
أصبحوا - فى الموت - يُعَنُون بأمرى
وفريق فى الثرى يحفر قبرى !
فكأنى لا أرى إلا بفكرى
علها تُدنيك من خفاق صدرى
ثم ماذا ؟ لست أدرى ! لست أدرى !

وسألقاك إذا حان الردى
وإذا الناس - وأهلى فيهمو -
ففريقٌ عند رأسى جازعٌ
وتراءيت خيالاً شاحبا
فهفا قلبى ، وامتدت يدي
ثم حالت بيننا أيدي الردى

إبراهيم محمد نجما

رسالة لم تنشر للجاحظ

هذه الرسالة التي يراها القارئ بعد مظهر واضح جلي من مظاهر التطور الذي أتى للنثر العربي ، وتم تمامه على يد الجاحظ في القرن الثالث للهجرة ؛ إذ اقتحم على الشعر أبوابه ، وشاركه في ميادينه ، وجعل ينافس عليها منافسة قوية رائعة . وقد ظل الشعر زماناً مستأثراً بالمعاني الفنية ، منفرداً بالتعبير عنها ؛ إذ كان اللغة الغنائية الوحيدة التي يتغنى بها الرجل في آلامه وآماله ، وفي حبه وبغضائه ، وفي نشواته العصبية المختلفة ، لا تشاركها في ذلك لغة غيرها ، حتى تم للنثر ذلك التطور .

وليس بنا الآن أن نبين كيف حدث هذا التطور ، وكيف انتهى إلى غايته ؛ فلسنا هنا إلا بصدد المقدمة لهذه الرسالة ، والاشارة إلى بعض وجوه الخطر التي تمثلها — هي ونظائرها — في تاريخ « العبارة الفنية » في اللغة العربية ، وكيف استطاع الجاحظ أن ينقل موضوعات الشعر إلى النثر ، وأن يتيح — بذلك — لهذه الموضوعات أفقا أرحب ، وعبارة أسمح ، وتجاولا مع النفس العربية الجديدة — التي صقلتها الحضارة وأرهمها الترف ومدت من جوانبها المعرفة — أدق وأصدق . وبذلك كان الجاحظ يمثل تطور العقل العربي حين لم تعد تكفيه وتقنع رغباته الواسعة تلك المعاني المقصورة ، وتلك الصور المركزة ، وتلك العبارات المقتضبة الموجزة ، فاستطاع أن يستجيب لهذا الاتجاه ويعبر عنه ، حين أمكنه أن يقيم ذلك النحو من « العبارة الفنية » للمتوسطة بين الشعر والنثر : تقف بينهما ، وتصطنع خصائصهما ، على النحو الذي نراه في هذه الرسالة التي كتبها في « رثاء » صديق له .

والرثاء فن شعري ، استأثر به الشعر حتى هذه الفترة . ولكن الرثاء في هذه الرسالة متأثر — بطبيعة الحال — بروح النثر ، ومن هنا كان مختلفاً عما نعهد منه في قصائد الشعراء . فهو يجيء هنا في سياق صورة مفصلة لشاب اخترم في عنفوان شبابه ، يصور فيها الجاحظ « الموت » في جميع حالاته وملابساته ، منذ أخذت بوادره تتدسس عليه إلى أن غيب في قبره . ومن ذلك كانت إثارته « الحزن » بما يرسم أمام الخيال من صورة الموت ، وهي تنطوي بطبيعتها على العناصر الأصلية للحزن . أما رثاء الشعراء فهو — في كثير من حالاته — أشبه شيء بندب النوادب ونواح النوائح ، وكذلك ما يشيره من الحزن ، إنما يجيء من هذه الناحية ويصدر ذلك المصدر . وكذلك نرى الأمر مختلفاً بين الرثاء هنا والرثاء في الشعر ، في ناحية « التأين » أو تمجيد الميت . فالجاحظ إنما يصور ما آثره وفضائله في خلال تلك الصور ، فيجىء بها متسلسلة ، اتشحت بالحداد والتفت بالسواد ، لا مستقلة منتزعة من ذلك الجو ، كما هو الشأن — كثيراً — في الشعر ، مما حمل بعض النقاد على تقرير الفرق بين المدح والرثاء ، بأن الأول ذكر المآثر حاضرة ، والرثاء ذكرها مقرونة بصيغة الماضي .

رسالة لم تنشر للجاحظ

وقد أخذنا هذه الرسالة من كتاب : « المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ » ، وهو مخطوط محفوظ في مكتبة برلين . وقد وردت فيه غير معنونة ، كما هو الشأن في محتويات هذا الكتاب ، وقد تكون هي الرسالة التي يذكرها ياقوت في فهرست كتب الجاحظ باسم : « رسالة في موت أبي حرب الصفار البصري » .
وها هي ذى ، بعد أن صححنا نصها جهد الطاقة . وقدر ما تأذن الروح العلمية في النشر والتصحيح .

طه الحامري

ورد عليّ — أسعدك الله — كتابك ، تذكر فيه بُرءك من شكوك ، وتُسْتَرِيْبُنِي في ترك الكتاب إليك ، وأنت غافل عما جرت به الأقدار ، وأصاب به الدهر ، وقرعت به المنون ، وطرقت به الحوادث . ولم أبطئ بكتابي عنك — أكرمك الله يا أخي — إغفالا لحقك ، ولا قلة منازعة من نفسي لمحاورتك ؛ ولكنه شغلُ البال ، ورَيْبُ الحداث ، وتقلبُ الأزمان .
فإني قد أصبحت كما قال الشاعر :

لم يترك الدهر لي علقاً أضمنُ به إلا اصطفاه بموت أو بهجران

وقد هاجني على الكتاب إليك مُعتلجات الهموم ، مُبِثّاً لك بعض ما في صدري ، استراحةً المكروب ، ونفثاً المصدور ؛ فقد أصبحت رَصداً للمهلك ، وبمدرجة العطب ، وبمشرّب السُموم ، وبمحسني الموت . وأحسب هُلكَ أبي فلان — رحمة الله عليه ورضوانه ، وآتاه الله الرفعة والشرف الأعلى لديه — قد نَمِيَ إليك وبلغك . وإنا لله وإنا إليه راجعون ؛ تأدباً بأمره ، وتعرضاً لموْعوده . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد رأيت تعريفك كُنْه خبره ، فافهم — رحمك الله — واجتهد في أن تكون السعيد الموعوظ بغيره .

وقد كنت عاينت شكْوَه ، وفارقتَه عليه في غرة شهر رمضان . ثم تَزِيد في جَهد العلة وفي حَدَّتْها ، وكان اليأسُ منه والخوفُ عليه ، أقوى من الرجاء له والطمع في سلامته . ثم انحدرت العلة ، وأطمع في الإفاقة ، وتزِيد في الإبطاع ، وتحلّل السُّقم وشدة المرض ، واستبشر مؤملوه العافية له ببرئه . فلم يزل يَتَزَيّد في صلاح الحال ، ورجوع القوى ؛ حتى إذا أكل ما اشتهى ، وركب ومَشَى ، وخرج إلى البستان ، وثابت نفوسنا من الإشفاق ، وزال

عنه القلق والخذار ، وعاوده الأمل والاغترار ، وقال لي في بعض مناجاته ، واستجلابه العافية ، واستلذاذه معاودة الصّحة : « إخالني قد نجوت ، وأراني قد أقلت » مبتهجاً مسروراً ، كما قال الشاعر :

إذا بلّ من داء به خال أنه نجا ، وبه الداء الذي هو قاتله

على أنه — يرحمه الله — في ذلك كمد اللون ، نحيف الجسم ، مضطرب المزاج ، متغيّر عن الاعتدال ، وهو مع ذلك يخرج إلى مسجده ، ويجلس بفنائه .

ثم تغيّرت به العلة ؛ فدخلت عليه ، فاذا نفسه قوية ، وطبيعته جيّدة ، وعلته غير منكّرة ؛ فسألته ، فردّ جواب فسيح الأجل ، قوى الرجاء ، بغير انكشاف بال ، ولا وجل من وشك ارتحال . وظلّ يومه ذلك على حاله من الصلاح . فلما أصبح دعا بسواكه ، فاستنّ به ، فبينما هو يمرّ بالسواك على ثغره أنكرت أمه ضعف يده ، فقالت : « مالك ؟ » ، فقال : « ما أدري ! إني لمنكر نفسي . بادروني بالنزول » ، فبودر به . فلما صار على الدّرج منحدرّاً على قدميه ، عنّ له الموت مُطلاً ، وطرقه ما كان يهرّب منه طويلاً ، وفاجأه الذي راغ منه مجتهداً ، وبغته ما لم يجد عنه مؤثلاً . فسقط سقطّة لم تكن بعدها إقالة ، فشخص لها بصره ، واضطربت جوارحه ؛ واحتُمِل إلى قرار منزله على تلك الحالة الهائلة ؛ لا يسمع الدّعاء ، ولا يحفل بالبكاء ؛ ولا يردّ الجواب ، ولا يعبأ بالأحباب . فدخلت عليه ، وهو كما قال مطيع بن إياس :

وينادونه ، وقد صمّ عنهم ثمّ قالوا — وللنساء نجيبٌ — :
« ما الذي عاق أن تُحجير جواباً أيها الملقول الخطيب الأريب ؟ »

فبُعِث إلى أهل الطبّ والمعرفة ؛ فأتوا ، فرأوا حالاً فانت التلافي ، وخرجت من العلاج ، وسبقت الاستدراك ؛ فعلموهم وانصرفوا ، ولم يقضوا فيه قضاء !

وهو في ذلك مشغول بمجهود نفسه ، وكرب غيره ، ونزعه وشدة نفسه ، والموت يقبضه ويبسطه ، كالثوب عند الطيّ والنشر ، صريعاً مُستسلماً ، أسيراً منجديلاً ، قد خذله الوالد ، والحميم والصديق ؛ فأكثر ما عندهم

الحسرة والتلهُّف ، والاستكانة والنشيج . فكث يومه ذلك ؛ ثم حُمِّ حَمِي
مُدْفِيَّة ، وفاظ في آخرها ، وورد حيث وُعد ، وزَهَق الباطل . فعَجَّوا
وضَجَّوا ، وهتفوا وولولوا . جَهدٌ لعمرِكَ قليل الرَّد .

ولنَّ يرجع الموتى حنينُ المساتِم

فيا للهُ معتبَطاً ما أغضَّ وأطرى ، وأى فتى رحل عنا ، كما قال الهذلي :
فراقٌ كقَيْص السِّنِّ ، فالصبر ، إنَّه لكلُّ أناسٍ عِثرةٌ ومُجبورُ
ثم دخلنا لنغسله ، وهو شلُوهُ على سريره ، طريح على مُغتَسَله ، لَقَى
لوجهه ، تقلُّبه الرجالُ بأَكْفَها ظهراً لبطن ، كما قال يزيد بن خذَّاق :

ورجَّلوني ، وما رُجِّلْتُ من شَعَثٍ وألبسوني ثياباً غيرَ أخلاقِ
ورفَّعونني . وقالوا : أيما رجل ، وأدْرَجوني كأني طيٌّ مخراقُ

ثم أخرج — والله — من طارفه وتليده صفراً ؛ ولو ردَّوه ما كان له فيه
غنى ، ولا قُبيل عنه فدا . ثم أدرج في لفائفه ، وحمل على نعشه ؛ ينقله إخوانه
وخلصانه ، وأرحبَّاءه وأصفياءه ، وأنا أحدهم يا أبا محمد ؛ فما رأيت كذلك
المنظرَ منظرًا ، لو اعتبر به الناس جميعاً لكان عندي عيٌّ ، فكيف بنا ونحن أهل
خاصَّته ومودته .

ولو رأيت أمَّه البائسة مرفوعةً الحجاب ، ظاهرةً للرجال ، قد عزَّها الجزع
فما أبقي ، ورماها فما أشوى ، وجلَّ الخطب أن تتعزِّي ، حَيْرِي ثكلى ، أمٌّ
واحد ، ومفجوعةٌ فاقد ؛ لآته — رحمه الله — كان من أشدَّ الناس عليها حنوًّا ،
والطفهم بها برًّا ؛ حتى لو عددته لملأ الكتاب ، ولما استكثر معه برٌّ طاق بن
حبيب ، ولا بر محمد بن طلحة السجَّاد بأبيه .

ولو رأيت حُرْمه اللأى كان يسترهن : من جارية نفيسة ، وأمة محبوسة ،
وحُرمة مقصورة ؛ قد هتكن أستارهن ؛ وبدت رُخداهن ؛ كقوم حلَّ بهم
السَّباء ، وكُتِب عليهم الجلاء ؛ كما قال الربيع بن زياد :

قد كن يخبأُ الوجوه تستراً فالآن حين بوزن للنظار

رسالة لم تنشر للجاحظ

ولو رأيت ابنته بها ذلُّ اليُتم ، وخشوع الاستكانة ، مبتذلة غير مصونة ،
مكشوفة غير محجوبة ، ظاهرة الوجه والقدَمين .

ولو رأيت أباه ، وإنَّ دموعه لمراقبة ، وإنَّ يديه لترعد ، كأنَّ به أفكلاً من
شدَّة الجزع ؛ فأما علَّة قلبه ونار صدره ، فلا أحسبها تطفأ غابر الأيام : ولو لم
يكن ذلك للولد ، لكان للقائه والحزم في أمره ، والصيانة والبرِّ به .

ولو رأيت ابنه لرأيت عبرة لا ترقأ ، ودموعاً لا تغيض ، سخين العين ،
حرَّان الصدر ، فائض الدمعة ، مسلوب الصبر ، ما يُخالس دموعه ، ولا
يتجلَّد الشامتين .

ولو رأيت نداماه ومؤمِّلِيه حيارى لا يدرون على أيِّ رخلاله يأسفون :
أعلى تحسن عشرته وكرم مجلسه ، أم على طيب خلقه وصدق صفاته ، أم على
نجدته وشهامته ، أم على مداراته ومروءته ، أم على رحمة ومودَّة وأدبه .

وما رأيت سريراً شيعه من المترحم والباكي ، والمتفجع والداعي ،
والمؤبِّن والمُثني ، ما صحبه ؛ حتى أسهل على بعض الحزن ما سمعت من
حسن الثناء ، وطيب النشأ ؛ فمن باكٍ على شيبابه ونضارة لونه ، وجمال وجهه ،
وامتلاء جسمه ، وحداثة سنَّه ؛ ومن مُلثَّ بالحنين ، مكروب بالأسف ،
مُشجَّي بالغصه ، غصَّان بسرعة الاخترام ومعالجة المنية .

وما سمعت مُراجعاً خبره بعد موته في مثل سنَّه ، أجمع لكلِّ مكرمة ،
وأخذ لكلِّ صالحة ، وأضمَّ لكلِّ شاردة ، وأحفظ لكلِّ ضائعة ، وأرعى
لكلِّ مهملة ، وأضبط لكلِّ منفلة ، من الأخلاق البوارع الفواضل ، والأفعال
النفائس الجسيمة ، منه . وكذلك كان - رحمة الله تعالى عليه - فمضى .

كانَ لم يقل يوماً مقالا فتَنَشَنى إلى قوله الأسماعُ وهي رواغمُ

ثم وُضع سريره بفناء مسجد الوَصِي ، فصَلَّى عليه جعفر بن القاسم ، ومن
حضره من النِّسَّاك والعبَّاد والأشراف ، تحفَزه على غير واحدة ، أصغرها
الرحمة له . ثم انطَلِقَ بنعشه إلى حفرة ، خوَّار العود ، قليل الامتناع ؛ كما
قال مالك بن الريب :

مُخذاني فخراني ببردِي إليكما فقد كنتُ قبلَ اليومَ صعباً قياديا

ثم نُضِِدَ عَلَيْهِ اللَّيْنُ ، وَوُسِدَّتْ خِلَالُهُ ، وَأَهِيلَ مِنْ جَوَانِبِهِ التَّرَابُ ، بِعَيْنِ الشَّفِيقِ ، وَمَحَنَةِ الْوَادِّ ، وَحَسْرَةِ الصَّدِيقِ ، وَمَحْضَرِ الْوَارِثِ ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ وَدَّعُوهُ وَانْصَرَفُوا .

وَقَالَ قَائِلُهُمْ حَتَّى مَتَى نَقِفُ .

وَأَنَا أَقُولُ قَوْلًا أَخْرَجَ مِنَ النَّوْحِ بِهِ ، وَلَا أَخْشَى الْكَذِبَ مِنَ الْإِغْرَاقِ فِيهِ :
لَنْ كَانَتْ الْمَنَایَا جَعَلَتْهُ غَرَضًا لِلانْتِضَالِ ، لَقَدْ جَعَلَ الْقِيَامَةَ غَرَضًا لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ . وَلَنْ أَصْبَحَ شَمْلُهُ مَبْدَأًا مَقْسَمًا ، لَقَدْ أَصْبَحَ شَمْلُ حَمْدِهِ مَجْمُوعًا . وَلَنْ كَانَ ابْتِكَرُهُ الْإِزْعَاجُ ، لَقَدْ ابْتَكَرَ الْهَيْمُ الرَفِيعَةَ بِالِاتِّهَازِ وَالِابْتِدَارِ . وَلَنْ شَهْرُ مَوْتِهِ فِي الْمَصْرِ ، لَقَدْ شَهَرَتْ مَكَارِمُهُ فِي الْجَمْعِ . وَلَنْ خَفِيَ جِسْمُهُ فِي التَّرَابِ ، لَقَدْ خَفِيَ نَظِيرُهُ فِي الْأَرْضِ . وَلَنْ اُعْتَبَطَ الْمَوْتُ ، لَقَدْ كَانَ وَدَّهِ لِصَدِيقِهِ غَضًّا . وَلَنْ وَاثِبَ الْمَوْتُ مُغَافِصًا ، لَقَدْ وَاثَبَ الْمَعَالَى مُفْتَرَسًا . وَلَنْ انْقَطَعَ أَثَرُنَا مِنْ زِيَارَتِهِ ، لَقَدْ بَقِيَ عِنْدَنَا مِنْ أَثَرِ نِعْمَتِهِ . وَلَنْ كَانَ عَلَى قَلْبِ الصَّدِيقِ خَفِيفًا ، لَقَدْ كَانَ عَلَى كَاهِلِ عَدُوِّهِ ثَقِيلًا . وَلَنْ خَرِبَتْ مَجَالِسُنَا مِنْ شَخْصِهِ ، لَقَدْ عَمَرَتْ قُلُوبُنَا بِذِكْرِهِ . وَانْثَنَتْ مَسَائِلُنَا لَهُ ، مَا انْقَطَعَتْ مَسَائِلُنَا فِيهِ . وَلَنْ بَكَيتُ عَلَيْهِ لِأَجْدَنِّ مَبْكًى ، وَلَنْ احْتَسِبْتُ لَنِي مِثْلَهُ يُحْتَسَبُ .

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِيَ دَمًا لِبَكِيَّتِهِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

وَلَنْ قَصُرَتْ مَدَّةُ الْإِمْتِنَاعِ بِهِ ، مَا قَصُرَتْ مَدَّةُ الْحُزْنِ فِيهِ . وَلَنْ ارْتَجَلَ عَنَّا وَشِيكًا ، لَقَدْ أَثْوَى فِي قُوبِنَا الْأَسْفَ طَوِيلًا . وَلَنْ كَانَ عَرَضُنَا لِلصَّبْرِ بِمَوْتِهِ ، لَقَدْ عَرَضُنَا لِلشُّكْرِ بِحَيَاتِهِ . وَلَنْ كَدَنُوتُ مِنَ النَّاسِ بَعْدَهُ ، وَقَرُبْتُ مِنْ جَنَابِهِمْ ، تَسْلِيًّا عَنْ بَعْضِ الْكَمَدِ ، وَتَنْفِيسًا عَنْ حَرَارَةِ الْغَلَلِ ، إِنِّي فِي ذَلِكَ لَكَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

فَإِنْ أَغْشَى قَوْمًا بَعْدَهُ أَوْ أَزُورُهُمْ فَكَالَوْحِشٍ يُدْنِيهِمَا مِنَ الْأَنْسِ الْمَحْجُلِ

وَلَنْ أَشْرَ الْبَاغِي ، وَفَرَحَ الْعَدُوِّ ، وَسُرَّ الْحَاسِدِ ، وَطَفَرَ الشَّامِتِ ، وَجَذَلَ الْمُبْغِضِ ، وَاسْتَبْشَرَ الْقَالِي ، مَا تَعَزَّيْنَا فِي ذَلِكَ إِلَّا بِقَوْلِ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيِّرُ بِالْهَدَى ، أَنْتَ الْمَبْرَأُ الْمَوْفُورُ ؟

رسالة لم تنشر للجاحظ

ولئن مجلدت للشامتين ، وتزيت للعُيُوف ، وأصلحت من شعري
وثيابي ، وركوبي ولباسي ، فكما قال الأول : ١

وإني ، وإن أظهرت صبراً وحسبة وصانعت أعدائي ، عليك كموجع

ولئن رُمينا من الدهر بالجلبي ، لقد سهلت علينا مؤونة الصغرى ؛ فنحن
في فقدنا له كما قال الأول :

وكنت أعيرُ الدمعَ قبلك من بكى فأنت على من مات بعدك شاغلة

ولئن قلت : إنه قصّ الجناح ، وجذّم اليد ، وقطع الظهر ، وقصم الناب ،
وحطم الصلب ، وفلّ الحد ، وأوهن المنّة ، وأضرّم الأحشاء ، وعقل
اللسان ، وأهاج المتبلد ، وأعاش الحيرة ، وأمات الذكاء ، ونزع الرغبة ، وأورث
السلوة ، وبرى اللحم ، وهاض العظم ، وأورث الكمد ، وأعقب الأسف ، وهاج
الكآبة ، لأصدّقن ، بل لأقصرن عن نهاية ما بلغ .
فأحمدُ الله ثم الحمدُ لله على نوائب الدهر ، ومكاره الأيام ، ومرارة العيش ،
وتجرّع الشكل ، واعتراض الشجا ؛ اضطبارا واستسلاما ، ورجوعاً الى أمر الله ،
ونسكا بمرأشده .

فإن تكن الأيام فرّقن بيننا فقد بان محمودا أخى يوم ودعا

يا أبا محمد أصلحك الله فقيم التربص والانتظار ، وعلام الفرجة ؟ إنما الدنيا
كأهل دار متى نفر أو لهم تلاحقوا ، فلم يبق بها أنيس . أفما تعلم أن الركب
وقوف : من أتته دابته ارتحل ، غير أن الإياب إلى الله ! أو ما تعلم أننا رهائن
بأنفسنا ، فكيف لانسى في فكاكها ! أو ما تعلم أننا مُنتدبون لخلبة التشمير ،
فما الوأنى والتأخير ! فنشدتك الله تعالى ونفسى في التشدد والتخوف .

فما نحن إلا مثلهم ، غير أننا أقما قليلا بعدهم وترحلوا

بين العلم والأخلاق ؟

اشتدت الحملة على العلم في عصرنا هذا بين كثيرين من المفكرين من غربيين وشرقيين . ولعل السبب في تلك الحملة العنيفة هو ما شاهده الناس من آثار العلم في الحربين الأخيرتين : ذهبت ملايين النفوس ضحية في ميادين القتال ، وفي معسكرات الاعتقال ، في المراكز الصناعية ، وفي المدن الآمنة ، في الجو وفي البحر ، وأخيراً بالقنابل الذرية التي تحمل إلى الناس أضمن موت في أوسع مدى ، من غير تمييز بين المحاربين وغير المحاربين ! فكان طبيعياً أن يتساءل الناس عن المسئول عن تسليح الشعوب بأسلحة الفتك هذه . وكان طبيعياً أيضاً أن يكون أول ما يخطر ببالهم ، جواباً عن هذا التساؤل ، أن القتل والدمار على اختلاف أنواعه ، إنما تم بفضل العلم وببركة جهود العلماء .

فإذا اعترض البعض بأن الحرب أمر شاذ في تاريخ الإنسانية ، وأن زمان السلم مبرأ من ويلاتها ، نهضت الوقائع لتفنيد هذا الرأي : فهذه الآلات التي تزيدها جهود العلماء كل يوم دقة وابتداعاً لم تقدم إلى المجتمع الإنساني حياة السعة والرفاهية والاطمئنان التي طالما وعدوه بها . ويظهر أن في وضع السؤال نفسه سخريّة مرّة . فالعمل في المصانع ، ذلك العمل الذي لا يكاد يترك للعامل وقتاً للتنفس ، إنما يعقب ، في الآونة الحاضرة ، التشرّد والبؤس والبطالة في أرجاء العالم ، حتى ليخطر ببال من ينظر في حال بعض العمال في الغرب أن الإنسان أصبح ، بفضل التقدم العلمي الصناعي ، عبداً للآلة ، بدلاً من أن تسخر الآلة في خدمة الإنسان . ولم يفت حكماء الشرق والغرب أن يلاحظوا هذه الظاهرة العجيبة ، فهذا رابندرائات تاجور يقول : « إن الحياة المادية القائمة على العلم تحلو لبعض الناس ، لأن لها كل صفات الرياضة البدنية : تتظاهر بالجد ، ولكنها خلو من العمق ، وهي لا تحسب للطبيعة الإنسانية العالية حساباً . » وهذا أينشتاين لا يقل قسوة في الحكم على العلم عن حكيم الهند ، إذ يقول :

بين العلم والاخلاق

« لم يستخدم العلم حتى اليوم إلا في استعباد الناس : ففي زمن الحرب يستخدم العلم في تسميمنا وفي تشويهنا ، وفي زمن السلم يجعل حياتنا قلقة مرهقة . كنا ننتظر أن يستعين الناس بالعلوم للانصراف إلى الأعمال العقلية ، فينالوا بذلك أكبر قسط من الحرية . ولكن بدلا من ذلك صيرتهم العلوم عبيداً للآلة . إن السواد الأعظم من العمال ينفقون نهارهم الطويل الرتيب الخالي من البهجة ، وهم في أشد حالات التبرم والضجر ، ولا يمنعهم ذلك من الارتعاد خوفاً على أجورهم الضئيلة . »

ذلك هو الاتهام في قوته . وخلاصته أن العلم مخالف للأخلاق ؛ لأنه يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء ، ويجعل الإنسان عبداً للآلة ، ويزوّد الحماقة والبغضاء بأخطر سلاح .

إننا جميعاً نكره هذه الآثام التي تقترب باسم العلم ، ونتمقت آثار الحرب والموت التي تجهز في ظل المعامل والمختبرات العلمية ، ونشعر بمحض شديد كلما فكرنا في تلك المدنية المادية المنسوبة إلى العلم ، تلك المدنية التي تجعل غاية الإنسانية أن تظفر بالمتع المادية ، وأن توفر لها وسائل الراحة الرخيصة والترف الغليظ . ولكن هل العلم مسئول عن كل ما ينسب إليه ؟ إن الآثام التي اقترفت باسم العلم حق لا ريب فيه . ولكن العلم ليس مسئولا عنها . والذي يوقع الناس في الخطأ بهذا الصدد هو أنهم يخلطون غالباً بين العلم ذاته وبين التطبيقات المستفادة من العلم . ولكن العلم ، لحسن الحظ ، شيء آخر غير التطبيقات العلمية .

العلم الصحيح هو البحث عن الوقائع والقوانين بحثاً بريئاً مترها عن كل غرض سوى المعرفة . ومهمة الباحث ، في علم الطبيعة أو في علم البيولوجيا أو في علم الاجتماع ، مقصورة على جودة التمهيص للوقائع وإقامة القوانين منها . فمهمته مهمة عقلية محضة ، وليس له من قصد إلا تقدم الذهن الإنساني تقدماً غير محدود . وجماع حياة العالم في كلمة المعرفة ، والمعرفة لا أكثر ولا غير .

صحيح أن الغالب في مجال العلم أن يكون الرجل الذي يعرف هو نفسه الذي يعمل ، وأن الذي يكتشف هو عين الذي ينتفع من الاكتشاف . ولكن الحقيقة أنه متى تم للعالم أن يركب جهازاً أو آلة من أجل غاية تتجاوز المعرفة المحضة ، فقد

بين العلم والأخلاق

خرج من مجال العلم ولو لم يخرج من المعمل ؛ لأنه إذا تغير قصده تغيرت عقليته أيضاً ، وأصبح إنساناً له أهواؤه وآراؤه ومصالحه ؛ فليس عجيباً أن يسخر معرفته لخدمة هذه الأهواء والآراء والمصالح .

لكن مما يؤسف له أن الكشف العلمية التي يزيد عددها منذ قرن من الزمان زيادة رائعة ، إنما برزت في مجتمعات لم تتوث من الحكمة إلا حظاً يسيراً ، فنتج عن ذلك أنها لم تسخر تلك الكشف دائماً في غايات سليمة كريمة ، وإنما استخدمتها في الخير حيناً ، وجعلتها في خدمة الشر والعدوان أحياناً . ولكن ليس الذنب في ذلك ذنب العلم ولا ذنب الكشف العلمية ، وإنما هو ذنب المجتمع الإنساني الذي يحمل في نفسه جرائم سوء . قد يستكشف البيولوجي أثر مادة ما في بدن الإنسان ، فيستخدم الطبيب ذلك في العلاج ، ويستخدمه المجرم في القتل . ويستكشف عالم الطبيعة القوانين التي تقوم عليها السينما والراديو ، فيستخدمها بعض الناس لإذاعة الحق والخير والجمال ، ويستخدمها بعضهم لنشر الأكاذيب والآثام والحقائق . وقد استكشف العلماء وسيلة لتحطيم الذرة وحبس طاقتها ، فاستخدمها بعضهم لصنع القنبلة الذرية ، وقد استخدمها آخرون غداً لرفع مستوى الحياة الإنسانية .

وإذن فليس من الإنصاف أن يُرمى العلم بما رُمي به من اتهام ، وأن يحمل عبء ما اقترف باسمه من آثام ، بل الأقرب إلى الإنصاف أن تلقى جميع هذه التبعات على الإنسان .

الحق أن العلم الصحيح يحمل في نفسه مثلاً أعلى ومذهباً أخلاقياً رفيعاً ، لو اهتمدنا إليهما ، واستوحيناها في حياتنا ، لاوتينا نبلاً وسعادة .

يتضمن العلم ثلاثة معانٍ أخلاقية جلية هي قانونه وحياته : الأول هو أن إقدام الفكر وجرائته الفاتحة هما صميم الكرامة الإنسانية . ذلك لأن العالم الصحيح باحث مبرأ من الأغراض كما قلنا : لا يعنيه ، حين يواجه مشكلة ما ، أن يعرف هل يكون حلها نتائج عملية أو لا يكون ، ولا يبالي إلا بأن يستعيض عن جهل بعلم . ولعل أجمل وأروع الكشف العلمية ما تم منها في علم الفلك . فهذه الكشف نماذج للانتصار العلمي ؛ لأنها غيرت فكرتنا عن الكون ، ولأنها جعلت الغلبة للعقل في مجال كان يبدو بعيداً عن متناول العقول . ومع ذلك فلم

بين العلم والأخلاق

ينتج عن هذا الكشف الفلكية تطبيقات عملية من شأنها أن تبدل أحوال معاشنا . ومتى كانت الكرامة الإنسانية في ذلك الجهد الموصول للمعرفة فإن مهمتنا الأولى أن نعمل بحيث يكون للناس جميعاً نصيب في هذه الكرامة ؛ فنيشروهم أن يتعلموا في كل سن ، وفي كل طبقة ، وفي أي جنس ، ونهيهم السبيل إلى أن يتذوقوا الأمور الروحية والذائد العقلية ، وأن يقدروا الحقائق التي قام عليها الدليل .

والمعنى الثاني الذي ينطوي عليه البحث العلمي هو العمل على جمع الكلمة والاتلاف من طريق ذبوع الحقائق العلمية ، وقبول الناس إياها لا باعتبارها حقائق خاصة بطائفة من الطوائف ، أو بوطن من الأوطان ، أو بجنس من الأجناس ، بل باعتبارها نورا يهدي جميع أفراد الإنسان في هذه الدنيا . ذلك أن للعلم ميزة انفرد بها ، وهي أنه واحد في كل مكان وعند جميع الناس ؛ فمجموع ٢ و ٣ = ٥ سواء كنا في القاهرة أو في لندن ؛ ولا يخطر ببال طائل أن ينازع في هذه الحقيقة الرياضية . وكذلك في العلماء إسرائيليون ، وفيهم مسيحيون ، وفيهم مسلمون . وفي العلماء عرب وأمريكان وروسيون . ولكن لا يستطيع أحد أن يزعم أن تكون هناك هندسة إسرائيلية مخالفة للهندسة المسيحية أو الإسلامية ، ولا علم طبيعة عربي متميز من علم الطبيعة الأمريكي أو الروسي ... ذلك أن الحقائق العلمية يمكن أن يقوم عليها البرهان . والبرهان القائم على العقل والتجربة هو الذي يخلق الوحدة والاتفاق بين الناس ، ويدعو إلى الاتلاف عفواً ومن غير إكراه .

مما يؤسف له أن الناس لم يتفقوا إلى الآن إلا على قليل من الحقائق العلمية المتصلة بالمادة وبالحياة . ومن نكد الحال أنهم فيما عدا ذلك يجدون أنفسهم مضطرين إلى البت في مشكلات لم يحسمها العلم إلا مساً رقيقاً . ومن أجل هذا أصبحوا متفقين في بعض الأمور ، ومختلفين أشد الاختلاف في أمور أخرى . ولكن أقل ما يقال إن المثل الأعلى الذي يترسمه العلم يدلنا على الطريق الذي ينبغي أن نسلكه لتلطيف حدة هذا الاختلاف ، وهو أن نزيد عدد الحقائق اليقينية ، وأن نعمل على إذاعتها في الناس ، وأن نطلب إلى العقل في جميع المناظرات مبدأ الوئام والاتفاق .

والمعنى الثالث الذي يتضمنه العلم هو احترام حرية الفكر ، والاعتقاد بأن

الحرية هي الشرط الضروري لكل تقدم . وطرافة العلم أنه بقي دائماً بعيداً عن روح الضغينة والاضطهاد ، وأنه جعل الحرية قانونه ، واعترف بها للجميع من غير استثناء . كثيراً ما نرى من أصحاب العقائد الدينية أو المذاهب السياسية من لا يترددون في استعمال العنف في الدعوة إلى آرائهم أو النيل من خصومهم . كم من نفوس أزهقت من أجل « الصليب » أو من أجل « الهلال » ! ولكن هل أزهقت نفس واحدة من أجل نظرية فيثاغورس أو قانون الأجسام الطافية ؟ وكم من دماء أهدرت من أجل « الفاشية » أو من أجل « الديمقراطية » ولكن لم تهدر قطرة دم واحدة من أجل قانون الجاذبية أو قانون النسبية .

ذلك أن بين العلم والحرية وحدة لا تنقسم عراها . فبينما نرى العقائد والمذاهب تعتمد في الغالب على العنف والاكراه ، نرى العلم يظل دائماً نقي اليدين من الدم المراق ، ونراه مستغنياً عن تأييد السلطات أو مناصرة الأغليات ؛ لأن له من فضائله الخاصة ما يكفل له الغلبة والذیوع ولو بعد حين . وإذن فكرامة الفكر والوثام والحرية هي المبادئ الثلاثة التي تقوم عليها أخلاقيات العلم . ولو أنصتت الإنسانية لهذه المبادئ لذهبت الحروب ، والمظالم الاجتماعية ، واستغلال الإنسان للإنسان ، ولقضى على عهد البؤس والجهل ، ولانتهت جميع ضروب الطغيان التي تزهق حياة الأفراد وحياة الشعوب .

ومن أجل هذا وجب أن نتساءل : أنمضي في استخدام العلم في محاربة العلم ؟ أم تنصت إلى ما يقدمه لنا العلم من هداية أخلاقية ؟ ويجب علينا أن نختار الآن ؛ فقد اهترت أرجاء العالم ولطخ بالدم أديمه في زلزال هو أشد هولاً من كل ما عرف من قبل . وما كادت الإنسانية المكروبة تتنفس من هذه الغمة حتى أخذت تتلمس السبيل إلى درء كارثة جديدة ، وهي عالمة أنه لا بد لتثبيت السلام الدائم ، وتنظيم التعاون بين الأمم ، من الاهتداء إلى مبادئ أخلاقية يدين لها الناس جميعاً بالقبول . والعلم يكفل للناس هذه المبادئ التي توجههم إلى أرفع ضروب النشاط ، وتدعوهم إلى التسامح ، وتجعلهم إخواناً متحابين .

عبدالله أمين

جان پول سارتر ومواقفه الفلسفية

الخيال وموضوعاته

نشر سارتر في أبريل عام ١٩٤٠ أى بعد خمس سنوات من ظهور كتاب « الخيال » بحثاً جديداً سماه « الخيالى^(١) ». ويلاحظ مطالع هذا الكتاب اختلافاً واضحاً بينه وبين الكتاب السابق مع أنه جاء مكمل له : الأول يثير مشكلة والثانى يحلها . والاختلاف ظاهر لا فى الأسلوب وحده بل فى طريقة العرض أيضاً : فى الأسلوب ، إذ بينما كان سارتر يعبر فى « الخيال » كغيره من الفلاسفة تعبيراً فيه دقة عقلية وجفاف منطقي ، نجد أسلوبه فى « الخيالى » أقل دقة من الناحية المنطقية وأكثر تكلفاً من الناحية الفنية ، يعتمد إلى التشبيهات الجميلة وإلى ألوان مختلفة من الجناس والاطناب . ثم فى طريقة العرض : فى نوع الأمثلة التى يختارها ونوع الحجج التى يدلى بها سواء لدعم موقفه أو لزعة مواقف الآخرين ، وفى نوع الكتب التى ينتقدها أو يثنى عليها : فبينما كان « الخيال » يظهر إماماً دقيقاً بالمواقف الفلسفية الرئيسية قديمة أو حديثة إذا بالكتاب الجديد يهمل تاريخ الفلسفة إهمالاً تاماً . وبينما كان سارتر فى « الخيال » يسوق القارئ إلى نتائج نقده سياقة عقلية منظمة ، نجده فى « الخيالى » يصل بالقارئ إلى نتائج لا يعده لها إعداداً كافياً .

التضح لسارتر ولغيره من الفلاسفة المعاصرين أن ثمة ميداناً جديداً للبحث اكتشفته المدرسة الألمانية المعاصرة التى يتزعمها هوسرل : عمل ممثلو هذه المدرسة ، بعد تخطيط عام لموضوع الفلسفة ومنهجها ، على الدخول فى تفاصيل دقيقة طريفة أهمها ما يتعلق بفعل الإدراك الحسى ومشكلاته المختلفة . ولا شك

(١) L'Imaginaire (N.R.F., 1940).

أن هذه الدراسة كانت خير ما يعد البحث في الخيال ، سواء لتقارب مشكلاته من مشكلات الإدراك الحسى أو لما يبدو من التعارض الصريح القائم بين موضوعيهما . ولكن بالرغم من إشارات قيمة وردت بهذا الصدد عند هوسرل مؤسس « الفنونولوجيا » ، يلاحظ سارتر أننا لا نجد عنده بحثاً مستفيضاً في مسألة الخيال ، يمكن موازنته بالدراسة التى قام بها للإدراك الحسى ، والتى جعلته جديراً عند المحدثين باسم فيلسوف الإدراك الحسى ، بل نجده بالرغم من الإشارات السابقة لا يتعدى فى نتائجه تلك التى وصل إليها المحدثون من ديكارت إلى برجسون ، وهى نتائج لا يظهر فيها بدقة كافية التمييز بين الإدراك الحسى والخيال ، مما يترتب عليه كما وضحنا ذلك فى مقال سابق أن تبقى مسألة الحقيقة الخارجية بين المسائل المتعذر حلها . ويخلص سارتر فى كتاب « الخيال » إلى أنه من الضروري القيام بوصف جديد لفعل الخيال وموضوعاته ، يحاكي فى دقته وتفاصيله الوصف الذى قام به هوسرل للإدراك الحسى . هذا الوصف الجديد هو موضوع كتابه « الخيالى » الذى ظهر شهراً واحداً قبل الهدنة .

نلاحظ أن سارتر فى سبيل توضيح خصائص الخيال ، يعمل من ناحية على مقارنته بغيره من أفعال الشعور ، سواء ما كان بينها أدنى منه أو أسمى فى مراتب الحياة العقلية ، ويعمل من ناحية أخرى على تعيين الكيفية التى تمثل بها الموضوعات للخيال ، أو بتعبير آخر ، يعمل على وصف خروج فعل الخيال عن الذات ، واتصاله بالموضوعات ، وتأثيره فيها ، وتغييره من معالمها ، بحيث تصبح متميزة تميزاً تاماً عن الموضوعات الخارجية المحسوسة بالمعنى الدقيق . وقبل أن نتبع سارتر فى وصفه هذا يحسن بنا أن نقول كلمة عامة عما يعنيه بالخيال وموضوعاته ، ولما كان لموقفه من الطرافة والجدة بالنسبة لمواقف الفلاسفة بهذا الصدد وعلماء النفس .

ثمة شبه إجماع عند الفلاسفة على اعتبار الخيال فعلاً تظهر فى الذهن بمقتضاه نسخ الموضوعات المحسوسة ، ثم ترجع هذه له مرات كما لو كانت ترجع للذهن الموضوعات المحسوسة ذاتها . أما سارتر فيعارض هذا أشد المعارضة ، وهو فى معارضته قريب جداً من موقف شائع عند الناس وخاصة بين رجال الفن والنقد الفنى ، وهو أن الخيال يبعدنا أشد البعد عن الحقيقة الواقعية ، وأن موضوعاته غير موجودة على الإطلاق ، تصدر فى الذهن وحده ، عن قدرة الذهن ذاته ،

وإن كان لها من الخصائص ما يجعلها تحاكي موضوعات العالم ، ومن التأثير في النفس ما يجعلها تفوق تأثير هذه الموضوعات في النفس .

وإذا كان سارتر كما ذكرنا في المقال السابق يعرف الخيال بأنه فعل يقصد الموضوعات المحسوسة من حيث إنها غائبة عنا ، فهو لا شك أقرب لهذا الموقف منه إلى موقف الفلاسفة ، ولا شك أنه يعني بالخيال تحرراً من الواقع ، وبالخيالي موضوعاً لا يختلف في شيء عن موضوعات القصص والأحلام . ولكن لا شك أيضاً في أنه يصل في وصفه إلى نتائج إن كانت متنافرة مع مواقف الفلاسفة ، فهي بعيدة أيضاً عما يصل إليه أو يتصوره عامة الناس . والخيال مركب في نظره من جملة عوامل تتحد فيما بينها على نحو غريب . ووصف سارتر لكل من هذه العوامل لا شك مبالغ فيه ، ولا يتفق تماماً مع ما نشعر به في حياتنا النفسية المعتادة . ويفترض الخيال موضوعات غريبة أيضاً . وأقل ما يمكن أن يقال عن الخيال أن له منطقاً غير منطق انفعالات الشعور التي نعرفها سواء كانت إدراكات حسية أو تصورات أو أحكاماً ، منطقاً يدخلنا في عالم جديد غريب نعامل فيه الموضوعات معاملة غريبة شاذة ، بقدر ما كانت معاملتنا للأشياء الواقعية عادية خاضعة لمنطق هذه الموضوعات .

ولا شك أخيراً في أن وصف سارتر إن كان غير متفق مع ما نعرفه في أنفسنا أو عن الفلاسفة من الخيال ، فهو من ناحية وصف شائق له قيمته ، قيمة فنية أكثر منها علمية ، وله ما يبرره فلسفياً من ناحية أخرى ، من حيث إنه جزء لا يتجزأ من فلسفة لا يعرض لها سارتر في بحر « الخيالي » وإن كان يمتح لها تلميحاً في صفحاته الأخيرة .

وسنعرض الآن بإيجاز لمراحل وصفه هذا ، تاركين لفرصة أخرى التكلم عما يرتبط بهذا الوصف من النتائج الخاصة بطبيعة الفن أو بمشكلات الفلسفة العامة .

الخيال والمعرفة

من البديهي أنه لا يمكن لنا تخيل ما نجهله بالمرة ، بل لا بد من أن يكون لدينا عن موضوع ما ، علم معين قبل أن يصبح موضوع خيالنا . ولكن لا بد

من ناحية أخرى أن يكون هذا العلم بحيث نبني عليه خيالاً ، أو بتعبير آخر بحيث ينتقل الذهن فيه إلى مرحلة يصبح فيها خيالاً أو على باب الخيال . وليس من الأمر الهين أن نلمس حالة مثل هذه ، حالة انتقال لا يكاد يقف عندها الذهن ولا يكاد يشعر بها ، ويعجز الوصف السيكلوجي عن البلوغ إليها . وربما كنا أسعد حظاً لو عملنا على مقارنتها بما نعرفه عن أحوال أخرى تماثلها ، وهذا ما يقوم به سارتر في هذا الصدد عندما يقارن بين العلم الذي يسبق الخيال ويُعِدُّه ، وبين حالة من يطالع مثلاً قصة جديدة ممتعة تملك مشاعره .

نجد أن ما يرويه لنا القصص من الحوادث ، له علاقة وثيقة بعالم لا يصفه لنا مباشرة ، وإن كان يشير إليه إشارة مستمرة . ويُشْعِرنا المؤلف لا بما يحدث لشخصيات القصة فحسب بل بتطورهم في عالمهم ، وما يعملون فيه من الأحداث مما يسبب في هذا العالم من تغييرات طفيفة أو جسيمة . زد على ذلك أن ألفاظ القصة وتعبيراتها تعني في الغالب حوادث واقعية لا بمكنات فحسب ، كما هو الأمر فعلاً في ألفاظ وعبارات منشور دوري وما شابه ذلك من الأوراق الرسمية : فلفظة « منزل » مثلاً لها دلالة مختلفة إذا ذُكرت في منشور لوزارة الداخلية خاص بأصحاب المنازل وحقوقهم وواجباتهم أمام القانون ، وإذا ذُكرت في بحر القصة في جملة مثل هذه « غادر المنزل في الساعة العاشرة » . فالاسم يشير في الحالة الأولى إلى علاقة أو علاقات كثيرة مختلفة ممكنة ، على حين ينطبق معنى الاسم في الجملة الأخيرة على شيء واقعي ، وإن كنا عاجزين عن إدراكه أو تصوره . ثمّة فارق واضح إذن بين العلم الذي ينقل من الاسم إلى دلالاته العامة ، والعلم الذي يعطي مباشرة للاسم دلالة واقعية .

ثم نلاحظ عند قارئ القصة أنه غالباً لا يكتفى بدلالة الاسم ، حتى دلالاته الشخصية الواقعية ، فنجد الاسم يمثل له شيئاً معيناً في قيامه الوجودي . أعني أنه يلتقي أثناء مطالعته ببعض عبارات تقوم دون غيرها بخلاصة محسوسة جزئية . فمثلاً عند ما يقرأ « امرأة جميلة » فكأنه يرى بالفعل امرأة جميلة ، وكأن الكلمة المطبوعة رسمٌ يدعو القارئ إلى توقع امرأة جميلة .

هذا شيء عن العلم الذي يسبق الخيال في نظر سارتر ، أو بتعبير أدق الذي يُعدّ الفكر في نظره لتصوير الموضوعات تصوراً خيالياً . ولكنه ينبهنا إلى أن هذا العلم الكامن ، أو على حدّ تعبير أرسطو هذا العلم « بالقوة » ، ليس مانسبته

بالضبط خيالاً ؛ إذ قلما تقوم في ذهن المطالع المنتبه لقصة صوراً خيالية على النحو المألوف ، ولا تطرأ له صور الخيال إلا في الفترات القائمة بين مطالعات للقصة . أو عند من يطالع القصة بقليل اهتمام . وأغلب الأمر أننا إذا عاهدنا أثناء مطالعتنا إلى تصور ما يحدثنا عنه القصصى تصوراً خيالياً ، فلا بد لنا من ترك الكتاب جانباً والاسترسال في الخيال . أما الذي يطالع بانتباه فهو يعلم ما يقع من الحوادث علماً معيناً ، ويقف عند مرحلة معينة من هذا العلم ، ولو أنه قد ينبثق العالم عنده بعد ذلك في صورة خيال رائع أو حلم بعيد القوة .

وما ذكرناه الآن عن مطالع القصة ينطبق على حالات أخرى نعرفها ، مثل تلك التي تكون عند ما نطالع جريدة أو عند ما يقص علينا صديق حدثاً وقع له ، أو عند ما نفكر فيما يجب عمله لتأدية مهمة ما . وحياتنا العقلية والعملية تحمل ألواناً من هذا العلم الواقعي الذي يختلف كل الاختلاف عما نجده في كتب الرياضيين أو الفيزيقيين من ناحية ، وفي منشورات الحكومة وقوانينها من ناحية أخرى . ولكن هذا العلم إن اختلف عن علم كله دلالات جبرية أو منطقية فلم يصبح بعد خيالاً بالمعنى الدقيق ، بل نحن فيه كما يقول سارتر « على حافة الخيال » أو كما يقول سپاير Spair في « فجر الخيال » . ولا بد إذن من عامل جديد ينتقل بنا إلى التصور الخيالي الصحيح .

العاطفة

ما العامل الجديد ؟ ما الحد الأوسط بين العلم والخيال ؟ يرى سارتر أن ما يجعل من موضوع معلوم فحسب موضوعاً حاضراً للذهن بقوته وحيويته دون أن يكون محسوساً ، هو عامل عاطفي . وليس بالأمر العجيب أن نقرر أن العاطفة تقوم بدور هام في تصورات الذهن المختلفة وتكسبها حرارة ونشاطاً غير عاديين . ولكن يذهب سارتر إلى أبعد من ذلك فهو يفترض أن العاطفة ذاتها تصور ، لها ما للتصورات الذهنية المختلفة من الاتجاه نحو الموضوعات ومن التعلق بالموضوعات .

نظر علماء النفس حتى السنين الأولى من القرن العشرين إلى العاطفة على أنها هزة داخلية فحسب ، قد تلتابنا أحياناً تحت تأثير تصورات خارجية ، وتلتابنا

في أغلب الأوقات تحت تأثير عوامل باطنية جسيمة أو غير جسيمة . العاطفة حال فردية داخلية ، إن دلت على شيء فعلي طبيعة الشخص لا على أي موضوع خارج عنه . وقد قامت الفلسفة الألمانية المعاصرة مع هوسرل وشيلر وغيرهما ضد هذا الرأي ، فاعتبرت أن العاطفة من حيث إنها مظهر من مظاهر الشعور تحمل ضرورة ما للشعور من الخصائص الجوهرية ، أهمها أن كل شعور متعلق بموضوع ما ، وأن هذا التعلق ، أو هذا القصد *intentionnalité* يتغير حسب أفعال الشعور المختلفة . فالإدراك الحسي إدراك لموضوع محسوس ، والحكم متعلق بموضوع محكوم عليه ، والرغبة بمرغوب فيه ، والإرادة بمراد . ومن ثم فالحب أيضا موجه إلى موضوع محبوب ، والبغض إلى شيء نبغضه . ولا ينحصر بحث الفيلسوف في التمييز بين أفعال الشعور المختلفة ووصف ما تحمله من الخصائص الجوهرية ، بل عليه أن يصف مع فعل الشعور المقصود ، إدراكا حسيًا كان أو حكما ، كيفية اتجاهه نحو موضوعاته وخصائص موضوعاته من حيث تعلقها بالشعور ، أي كيف تمثل له وما يظهر له من خصائصها .

عنى سارتر بدراسة العاطفة على ضوء المبدأ السابق ، نخصص لها كُتَيْبًا (١) ظهر في سنة ١٩٣٩ ، سنة واحدة قبل « الخيالي » ووضح في البحثين أوجه العلاقة بين العاطفة وموضوعاتها ، وضرورة التمييز بين هذه العلاقة وبين المعرفة الجلية المتميزة للموضوعات . فالعاطفة تتطلب أن يمثل موضوعها لا من حيث إنه هذا الموضوع أو ذاك فحسب ، بل من حيث إن الموضوع يؤثر في الشعور على نحو معين يجعله يُحْمَلُ الموضوع ذاته ألوانًا مختلفة من العاطفة يعبر عنها بالفاظ كالجميل أو الرقيق ، أو الجذاب أو المخيف . وتبدو لنا علاقة الخيال بالعاطفة وثيقة إذا نظرنا على ضوء ما ذكرناه الآن إلى بعض أحوال خاصة : قد نستيقظ في الصباح وبنا حاجة قوية لشيء لا يمكن أن نقول ما هو بالضبط : هل هذه الحاجة جوع أم ظمأ أم رغبة في رؤية شخص ؟ غير أن هذا العجز لا يمنعنا من توجيه ذهننا توجيهًا خاصا . وبينما نحن شاعرون أن ما نرمي إليه ليس أمامنا ولا يمكننا الحصول عليه بالفعل ، نجد أننا نعمل على الحصول عليه بطريقة أخرى تحاكي وتنافي في الوقت ذاته طريقة الحصول على موضوعات

الحس الخارجية . يقوم إذن في مثل هذه الرغبات بمجهود نحو الحصول على موضوع خارجي ، بمجهود يقوى ويشد بقدر ما يضعف أملنا في إدراكه على النحو الواجب ، أي في إدراكه إدراكاً حسيّاً ، ويتضمن إذن هذا المجهود لاستحضار الموضوع غياب الموضوع . وإن فكرنا فيما عرفنا به الخيال من أنه حضور موضوع مع غيابه وفي غيابه ، تحقق لنا أن العاطفة من حيث ذاتها ومن حيث هذه القوة الداخلية التي تحملها وتجسمها وهي الرغبة ، هي دون شك عامل أساسي في قيام خيال في الذهن .

والأمر بديهي إذا فكرنا في أن موضوعات الإدراك الحسي عند حضورها ، بالفعل أمامنا ، كثيراً ما تكتسب ألواناً عاطفية تبقى ملازمة لها في الذهن بعد غيابها عن حواسنا ، حتى إن عودة العاطفة وحدها تبدو بشيرة بعودة الموضوع ، بل تحمل الموضوع ذاته دون أن يتبينه الشعور في وضوح تام . وإذا كان رجوع العاطفة الأصلية على نحو لا يعوق انتباهنا لما في النفس من أحوال ولما يظهر فيها من موضوعات ، انكشف لنا الموضوع الغائب ودخلنا من ثم في مرحلة الخيال ، بالرغم من أن ما يحضر لنا من الموضوعات في هذه الحالة ليس من الوضوح بحيث تتميز عناصره وتنفصل أجزاؤه أمام الذهن ، أو بحيث يتميز خيال معين عن غيره من الخيالات . وقد يبقى الكثيرون في هذه المرحلة الخيالية تتحد فيها تصوراتهم بعواطفهم ، دون أن يشعروا بشبه ما بين موضوعات خيالهم وبين موضوعات العالم الواقعي التي تظهر لهم وللآخرين على حد سواء . ويقول ستندال في هذا المعنى : « أرى صوراً وأتذكر تأثيرها في قلبي ، أما عن علامها وشكلها فلا أعرف شيئاً . أرى سلسلة من الصور دقيقة جداً ، ولكن لا شكل لها غير ما ظهر لي ، بل لست أرى هذا الشكل إلا عن طريق ما أحدثت ذكره من الآثار في نفسي . »

منظور الخيال

إن أعمالنا التفكير في الخيال وفي كيفية مثول موضوعاته في الفكر ظهر كأنه يتضمن تناقضاً صريحاً : يبدو من ناحية أن موضوعاته لا تحمل إلا خصائص حسية ، ويتضح من ناحية أخرى أن ما تتخيله لا ندركه الآن بحواسنا . بديهي

أن موضوعاً ما إما حاضر أو غائب ، ولكن الموضوع الخيالي حاضر غائب ، مائل أمام الذهن بالرغم من غيابه بل في غيابه . إن أعملنا البحث في معنى هذا التناقض وجدنا أنه يرجع إلى ما ذكرنا عن العاملين السابقين وإلى التفاوت القائم بينهما : عامل معرفة وعامل عاطفة ، ما يرمى إليه الذهن وهو على «حافة الخيال» ، ثم ما يحضر له بمقتضى الرغبة والعاطفة .

لنوضح ما نقوله هنا بمثالين أو ثلاثة : بناء «الپانتيون» لمن يدركه بالحس مركب من عدة أجزاء لا يمكن الإنسان أن يدركها دفعة واحدة ، وتتطلب لا لحظات زمنية مختلفة فحسب بل تعدداً لمواقف المتفرج بالنسبة للبناء . وللبناء خصائص حسية كاللون مثلاً تتطلب هي أيضاً تعدداً لمواقف المدرك ، وتحمل في ذاتها اختلافاً بحسب تغير موقعه : فمثلاً إن كانت أعمدة مقدم البناء تبدو للداخل ذات لون رمادي قائم فهي تظهر له من الخلف رمادية ضاربة إلى البياض وهكذا . . . أما ما يمثل للخيال من البناء فغير هذا كله . نعم أريد تصور البناء المذكور كما أدركت ، لكن شيئاً من تفاصيل ما أدركته لا يمثل لي في الخيال . نعم ، قد أتصور مقدم البناء وأعمدته ، ولكني لا أعرف عدد هذه ، ولا أستطيع تقدير المسافة بين كل منها والآخر ، بل لا أستطيع أن أؤكد أن بينها مسافة . أما عن اللون فهو رمادي متجانس لا أميز فيه بين لون الأعمدة من الأمام ولونها من الخلف . ثم لا تتطلب العناصر المذكورة أفعالاً خيالية متميزة ، كما تطلبت فيما سبق إدراكات حسية مختلفة ، بل المقدم والأعمدة والبناء كله خارجه وداخله ، الخلف والجوانب ، كل هذا يظهر للذهن خالياً من التفاصيل ، فقيراً في المميزات ، ولكنه يظهر دفعة واحدة وكلاً متكاملاً .

أريد أن أتخيل صديقي فلان كما هو في منزله الريفي ، ولكني ألقاه في ذهني ، لا في الريف ، ولا في المدينة كما رأيته فيها منذ أسبوع ، ولا في غرفته الخاصة ، إنما ألقاه جامعاً لما كان عليه في الأمكنة الثلاثة ، حزيناً كما كان منذ أسبوع يتنزه في حديقته الريفية ، وهو لا لبس رداءه الداخلي . هناك إذن بين ما أريد تصوره في الخيال وبين ما أتصوره بالفعل تناقض يفسره التفاوت بين علمي بالموضوع قبل الخيال وحضور الموضوع في الخيال .

وقد تذهب غرابة الخيال إلى أبعد من هذا ؛ فكثيراً ما نتخيل شخصاً لا نستطيع تعرفه مباشرة : هل هو الموظف الكبير الذي قابلناه أمس بمكتبه

لأول مرة؟ أم هل هو رجل البوليس الذي أوقف سيارتنا في الطريق؟ ألاحظاً بعد التفكير أن الموضوع الخيالي مزيج من الاثنين . وكثيراً ما نرغب تصور الأول فيتمثل لنا الثاني ، دون أن نرى لذلك سبباً ، وإن كان الأمر يرجع في الحقيقة لعوامل عاطفية لا تتنبه لها في حينها .

يتضح إذن من هذه الأمثلة ومن غيرها أن الخيال يجمع على نحو لا يفهمه العقل بين خصائص منفصلة في الحس لا يمكن إدراكها دفعة واحدة . فإن نظرنا إلى قمع الخياطة استرعى نظرنا قطاع من جسمه الأسطواني أو باطنه المقعر ، ولكن يتمثل القمع في الخيال أسطوانياً في الظاهر والباطن ، عميق القاع في الوقت نفسه . ولكن بين ما يعرض له سارتر مثالان أو ثلاثة على الأقل يذهب به تحليله لها إلى مقارنة موضوعات الخيال بموضوعات الفكر البدائي الذي كان وما زال يؤمن بقوى سحرية قائمة في العالم . ونكاد نلمس في هذه الأمثلة أدلة قوية على أن العقل الإنساني في ناحية من نواحيه على الأقل لا يختلف عن العقل البدائي ولا يمتاز عليه . فإن كنا ننظر للوحة زيتية لمصور شهير تمثل رجلاً عاش منذ قرون ، فسيتجه ذهننا أحياناً من الصورة إلى النموذجها الشخصي ، وقد ننسى إذ ذاك أن هذا الوجه وتقاسيمه وما ينبعث منها من قوة عجيبة ، وأن هاتين العينين اللتين تصوبان لنا نظرة حادة ، قد ننسى أن كل هذا يخص جسماً قد ووري التراب منذ أمد بعيد ، فيبدو لنا أن النموذج الصورة أمامنا رجل « يزور » صورته ويمثلوها حيوية . ويذكرنا هذا الموقف بما كان يعمل به أعداء المسيحية ، في القرون الأولى من انتشارها ، من ضروب الشعوذة سواء بتدنيس الصور المقدسة أو بتكسير الأصنام ، ويذكرنا أيضاً بما يقوم به بعض قبائل الهنود الأمريكيين في سبيل نجاح الصيد من أعمال غريبة كوخز صور الحيوانات المتوحشة على جدران أكواخهم .

ويحدثنا سارتر عن مسرح في باريس يظهر فيه مقلد عجيب للمغنى والمهرج الفرنسي الشهير موزيس شقاليه يخيّل للمتفرجين عند رؤيته أنهم أمام شقاليه ذاته ، كأنه يستحضر شقاليه ، كما يستحضر السحرة أرواح الغائبين ، وكما لو كانت شخصية شقاليه قد « زارت » المقلد دقائق قليلة . موقف غريب للخيال لا يختلف كثيراً عن موقف البدائي الذي يعتمد في بعض الحفلات إلى ضروب عدة من التقليد ، بغية أن يستحضر أرواح حماة القبيلة .

جان پول سارتر ومواقفه الفلسفيه

هذا شيء من طرائف الخيال يدلنا على أنه يختلف اختلافاً واضحاً عن أفعال
الشعور الأخرى وعن الإدراك الحسى والتصورات العقلية ، له منطق ، منطق
أشبه بقواعد السحر والشعوذة منه بقواعد المنطق الذى يخضع له العقل السليم ،
وبقواعد المنطق الواقعى الذى تخضع له موضوعات الإدراك الحسى . إن فعل
الخيال على قول سارتر « رقية ينادى بها الذهن موضوعاته فتنتقاد له كما تنتقاد
للصبية لعبها . »

نجيب بامري

بين جيتى ونابليون

قال المتنبي فى القصيدة التى ودع بها ابن العميد بعد أن أضافه فى أرَّجان :

تفضلت الأيام بالجمع بيننا فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد

وكما تفضلت الأيام بالجمع بين شاعر العربية الكبير أبى الطيب المتنبي والوزير الكاتب الأديب ابن العميد ، فكذلك تفضلت مرة أخرى — على نخلها وشحها — فجمعت بين جيتى كبير شعراء الألمان والشخصية الشائخة المنيفة فى أدبهم ، ونابليون بوتابرت أعظم عبقرية عملية عرفتها العصور الحديثة فى تقدير الكثيرين . ولم يسفر تلاقى هذين الرجلين العظيمين عن نتائج ذات بال ، ولم يأت بخير يذكر ، ولكن مجرد تماس هذين العالمين الضخمين من عوالم الروح : عالم الفكر الواسع ودنيا الخيال الرائع ، وعالم الواقع الحافل ودنيا الأعمال الجليلة ، مما يسترعى النظر ، ويشير الفكر ، ويحرك الخيال ، بل هو حادث لا تسخو به الأقدار إلا فى الفلتات النادرة ، وربما لم يكن له نظير منذ تلاقى الإسكندر وديوجانس .

كان جيتى حينذاك يهدف للستين وقد علت مكانته الأدبية وسارت شهرته مسير الشمس ، وكان نابليون فى الأربعين من عمره وقد بلغ ذروة القوة والنفوذ . وكان جيتى على شهرته وسمو مكانته الأدبية أحد أفراد شعب مغلوب على أمره ، مصدوع الوحدة ، ممزق الأوصال ، ولكن مجده الأدبى كان ثابت الدعائم موطد الأساس ، وكان نابليون فى ظاهر الأمر سيد الموقف ، ورجل الساعة ، قد انتصرت جيوشه المظفرة على الألمان ، وأذاقتهم ذل الهزيمة ، واستباححت حمائم ، ولكن برغم ذلك المظهر الخلاب ، والجاء العريض ، والنفوذ المترامى ، كان يساور نفسه قلق داخلى ، وكان يعلم فى أعماق سريرته أن إمبراطوريته قائمة على كثران من الرمال ، وأنه يبتنى القلاع فى الهواء ، وأن القدر قد يستقبله بمعضلات

يعجزه علاجها . ولم يكن نابليون بحكم طبيعته العملية كثير الإعجاب برجال الأدب ، وكان يعرف صلفهم ، وفرط إعجابهم بأنفسهم . وقد كتب مرة إلى أخيه جوزيف ملك روما : « أنت تكثر من الاجتماع برجال الأدب والاطلاع ، وهم كثيرو الدلال ، ويجب على الإنسان ألا يحلم بأن يتخذ منهم زوجة أو وزيراً » . ولكنه كان في موقف يستدعي الاستعانة برجال الأدب لملء الفراغ ، وتزجية الوقت ، وهكذا يستدل الحرص على الدنيا أعناق الرجال ولو كانوا من طراز نابليون . وكان جيتي يحترم الجندية ويكبر من شأن الرجال العاملين ، ولم يكن جيتي بحكم عظمه في وعمار من المنصرفين عن الدنيا ، المنقطعين لحياة الفكر والتأمل ، ولكنه برغم ذلك كان رجل دراسة واطلاع وتروية وتفكير ، فهو يحترم رجل العمل ويعتبره أسمى منه شأنًا . وقد دفع المتنبي اعزازة بنفسه الى أن يقول :

شاعر المجد خدته شاعر اللفظ — كلانا رب المعاني الدقاق

أما جيتي فكان يرى أن شاعر المجد — وهو هنا نابليون — أجل شأنًا من شاعر اللفظ ، وأن مكانة السيف أجل وأخطر من مكانة القلم . وقبل أن أذكر رواية جيتي عن هذا اللقاء سأشير إلى بعض الملابسات الخاصة التي أحاطت به ، وسيعيننا ذلك على تبين حقيقته وتفسير غوامضه . كان نابليون في تلك الفترة يلقي الشدائد من مقاومة الإسبانيين له وتمردهم عليه ، وقد اضطره ذلك إلى الاحتفاظ بجيش جرار في إسبانيا ، وكانت مقاومة الإنجليز له تزداد عنفاً واتساعاً وإصراراً وعناداً ، وقد اجتذبوا الأتراك إلى صفوفهم ، وبدأت تنتفض عليه هولندية وإيطاليا وسويسرة ، وشرع النمساويون يستأنفون استعدادهم الحربي . وكان نابليون يشعر بأنه في حاجة إلى الإيمعان في استرضاء قيصر روسيا — الإسكندر الأول — والتقرب منه وتقوية اتفاق تلست ، وكان يرمى إلى هدفين : إخافة النمسا ، والاستيثاق من ولاء الإسكندر ، وقد عجم عوده في تلست فوجده صلباً لا تلين قناته ، وكان يكفيه منه أن يلتزم الحياد فلا ينحاز إلى صفوف الأعداء . ولكن هل يصارحه بهذا الغرض المتواضع والمطلب اليسير ؟

استدعى نابليون تاليران قبل ذهابه إلى إرفرت — مسرح هذا اللقاء التاريخي — وقال له :

« إعتقد لي معاهدة ترضى القيصر الإسكندر وتكون موجهة قبل كل شيء ضد إنجلترا ، وعليك أن تذهب إلى إرفرت قبل قدومي بيوم أو يومين ، وأن تزور القيصر مباشرة ، وعليك بوجه عام أن تكثر من زيارته أثناء وجودنا بإرفرت ، وأنت تعرفه معرفة جيدة ، وتفهم كيف تعامله ، وأرسل معه الحديث عن تحالفنا ، وكيف يمكن أن نلمح فيه أصبح العناية التي تعمل لا نقاذ الإنسانية . واجعله يرى أننا نحن الاثنين — الإسكندر وأنا — قد أعدنا القدر لحفظ النظام في أوروبا . وعليك كذلك أن تتحدث إليه عن الرأي العام وكيف نوجهه حتى يرى أن اتفاقنا لا يثير الخوف بل يخففه ويلطفه . ثم قل شيئاً عن تحسين أحوال القارة عامة وعن بركات السلم ، وأشر في خلال ذلك إلى اليونانيين الذي يتطلعون إلينا لتحريرهم . فهذه أفكار إنسانية يجب — كما تعلم — أن يسمعها . وأنا أفوض إليك الأمر يا تاليران تقوياً تاماً فقم به خير قيام . »

وأراد نابليون أن يظهر في إرفرت بمظهر أخاذ الرونق بالغ أقصى حدود الفخامة والروعة ، وكان لا يفتأ يقول لمستشاريه : « يجب أن تكون رحلتى لماعة ألفة ، وأن أقيم في كل مساء بإرفرت حفلة تمثيلية . وإني أريد أن أبهر نظر ألمانيا وأخلب لبها بالروعة والجلال والفخامة . »

وجمع حوله قواده المعروفين الذين اشتهر أمرهم بين الألمان ، وسائر دعايم دولته وحمله ألويته . وكان يعتقد أنه متى وفق في إحداث التأثير اللازم فإنه يستطيع بعد ذلك أن يفعل بأسبانيا ما يريد ، ثم يفرغ لمجاهدة الإنجليز وكسر شوكتهم . وقد دخل نابليون إرفرت يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٠٨ في الساعة العاشرة صباحاً ، فاستقبلته المدينة استقبالا فخماً ، ووقفت الجموع المترابطة في الشوارع والطرقات وفي الميدان الذي كان به القصر المعد لتزوله ، وكان كل إنسان يريد أن يملأ عينيه ما وسعه الإمكان من هذا الرجل الذي ثلّ العروش ، ولعب بالتيجان ، وقهر الجبابرة ، ودوخ الجيوش ، والذي أصبح في يده مصير أوروبا وخيرها وشرها وسعدها وشقاؤها .

ولم يعجب هذا المنظر داهية السياسية الباقعة تاليران فكذب عنه في مذكراته يقول : « لم أر في إرفرت كيف يتملق الدهاء والأوشاب رجل القوة وصاحب السطوة ويزحفون أمامه في التراب فحسب ، وإنما رأيت كذلك كيف ينزل الأمراء الذين لا يزالون على عروشهم عن كبريائهم ، ويسفون ويهبطون إلى الملق الرخيص صوناً لعرشهم ، وإبقاء على سلطانهم ، وكيف يقبّلون اليد التي قد تمتد في أي يوم من الأيام إلى تحطيمهم والقضاء عليهم . »

ومهما يكن رأى السياسى المتشكك الساخر تاليران ، فإن المنظر في إرفرت كان باهراً بديعاً ؛ فقد اجتمع هناك إمبراطور فرنسا وقيصر روسيا وأربعة ملوك وأمراء مقاطعات الراين وكثير من الدوقات والكونتات ، وكان الجميع يرفلون في وشى الدمقس ، وينحطرون في أجمل البرود ، وقد ازدانت صدورهم بالأوسمة اللامعة ، وحفلت المدينة بالجند في حللهم المدبجة ، وستراتهم البراقة المزخرفة ، وانتشر رجال الحرس الإمبراطورى وفرق الفرسان والخيالة ، وفتح مسرح إرفرت ، وكان يقوم الممثل المشهور تالما وفرقته بتمثيل أجمل المآسى الفرنسية في حضرة العواهل والملوك والأمراء ، وكان لا يرى في صحن المسرح سوى الأوسمة والنجوم والنياشين ، وقد وقفت على باب المسرح فرقة من الحرس الملوكي ، وكلما قدم أحد الإمبراطورين يقرع الطبل ثلاث مرات ، وكلما قدم أحد الملوك يكتفى بقرع الطبل مرتين . وقد اتفق أن حضر ملك ورتمبرج في مركبة مطهمة فارهة ، فغر الحارس مظهره فأمر بدق الطبل ثلاث مرات ، فصاح به الضابط المشرف غاضباً : « اسكت فليس هذا سوى ملك ! » .

ولم يكن جيتى راغباً في الذهاب إلى إرفرت ؛ فقد بلغه قبل ذهابه إليها بأيام نبأ وفاة والدته ، ولكن دوق ويمار الذى أظلت جيتى سماءه وحاطه برعايته ، استدعاه . ورأى جيتى من واجبه أن يكون إلى جانبه في أزمته الجازبة وظروفه الحرجة ، وقد وصل إلى إرفرت يوم ٢٩ سبتمبر وحضر في المساء تمثيل رواية « أندروماك » .

وقال نابليون لتاليران بعد اجتماعه الأول بالقيصر في إرفرت : كل شئ على ما يرام ، ولا يجب أن تتعجل ، ولا تنس يا تاليران أن التأخير في مصلحتنا ، فتمهل جهد الطاقة ، ويجب أن تفتن عظمى القيصر الإسكندر وتذهله ، وستسير المفاوضات بعد ذلك في طريق سهل ممهد . وكان نابليون يؤمل أنه ربما استطاع

أن يستميل القيصر ويحمّله على مؤازرته في إرهاب النمسا . ولكن مثل هذا الطلب الهينّ اللين لا يعبر عنه اللفظ ، وإنما يمكن تحقيقه بالمشاهد البارعة ، والمرأى الوضاعة في إرفرت . وكلما طال العرض وامتد الوقت تكاثرت مخاوف النمساويين الذين أبعدوا باحتقار مهين عن حفلات إرفرت ، واعتقدوا أن هناك محاولة جديدة بين الإسكندر ونابليون . وكان لا بد من إنفاق الوقت وتقطيعه ، وتحاشى نابليون في الأيام الأولى الخوض في المناقشات السياسية ، وكان يطيل مدة تناوله فظوره ، ويستقبل خلال ذلك مختلف الأشخاص البارزين ويجاذبهم الحديث في عناية واهتمام .

وفي يوم ٢ أكتوبر استدعى جيتى للاجتماع بالإمبراطور نابليون . وقد روى جيتى عن هذا اللقاء ما يأتي : « دعيت إلى المثلول بين يدي الإمبراطور حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وطلب إلى خادم بولندي قوى البنية أن أنتظر ، ثم دعيت إلى الجناح الذي يشغله الإمبراطور ، وفي ذلك الوقت استأذن داري وسمح له بالدخول مباشرة ، وكان عليّ من أجل ذلك أن أنتظر ، ثم أذن لي بالدخول مرة أخرى ، فدخلت ورأيت الإمبراطور جالسا يتناول طعام الفطور على مائدة كبيرة مستديرة ، وكان تاليران واقفا إلى يمينه على مسافة قريبة من المائدة ، وكان داري واقفا قريبا منه إلى اليسار ، وخلفه برتبيه وسافاري ، فأشار إلى الإمبراطور بالاقتراب فظلمت واقفاً على مسافة مناسبة منه ، وبعد أن أثبت في نظره قال : « أنت رجل » فأنحيت شاكراً . فسألني : « كم عمرك ! » فأجبته : « ستون سنة » فقال : « أنت لاتزال محتفظاً بوثاقة بنيّتك » . وسألني : « هل كتبت ما سي ؟ » فأعطيته المعلومات الكافية في إيجاز . وهنا تدخل داري في الحديث ليلمق الألمان بمعرفته لأدبهم ، وقد تحدثت عنى كحديث أصدقائي في برلين ، وشرع نابليون يتحدث عن ورتز ورواية مجد والدراما الفرنسية ، ثم سألني هل أنت متزوج وهل لك أولاد ؟ وسألني عن بعض تفاصيل أخرى شخصية ، ثم سألني عن علاقتي بالبيت الحاكم وعن الدوقة آمالي وعن الأمير والأميرة وما إلى ذلك وأجبتة الجواب الطبيعي ، وبدأ لي أنه قد سر بحديثي . وفيما يختص بحديثه عن ورتز قال جيتى : « بعد أن أبدى ملاحظات شديدة ضائبة أشار إلى فقرات منها واستفسرني لماذا كتبتها هكذا ، وإن ذلك مخالف للطبيعة ، وبسط رأيه في وضوح تام ، وأصغيت إليه في هدوء وأجبتة مبتسماً إنني لم أسمع هذا الاعتراض

من قبل ولكنى أراه حقاً . والفقرات التى أشار إليها فى الواقع غير طبيعية ، ولكن ربما يتسامح مع الشاعر إذا احتال حيلة تمكنه من الوصول إلى غرضه بأيسر السبل ، ثم عاد إلى موضوع الدراما وأبدى عدم ارتياحه للأجزاء التى يلعب فيها القدر دوراً .

واستمر اجتماعهما حوالى ساعة ، ويقال إنه لما برح جيتي الحجرة التفت نابليون إلى برتنيه ودارى وكرر قوله « هذا رجل » . ولم ينس نابليون فى خلال الحديث أن يقول له : « أظن يا مسيو جيتي أنك لا ترى بأساً فى حضور تمثيل المأسى الفرنسية أثناء وجودك هنا » ، وأعد له تاليران فى المساء محلاً مناسباً خلف الصف الأول حيث كان يجلس حملة التيجان وعلية الأمراء

وتختلف رواية تاليران لهذا اللقاء الأول عن رواية جيتي ، ولم يرد بها ذكر لمسألة « هذا رجل » التى أكثر من ترديدها الألمان مستدلين بها على قوة شخصية جيتي وفراصة نابليون وألمعيته . وتاليران يقول : « فى ذات صباح تناول الإمبراطور قائمة الأجانب الذين قدموا ووقع على اسم جيتي ، فأصدر أمراً باستدعائه . فلما دخل جيتي دعاه الإمبراطور قائلاً : « يسرنى أن أراك يا مسيو جيتي » . فأجابه جيتي : « يدهشنى أن جلالتكم وأتم مسافرون تجدون متسعاً من الوقت للالتفات إلى هذه الأمور الصغيرة » . وقد روى جيتي أن تاليران انسحب قبيل انتهاء الحديث . وربما يرجح هذا الرواية القائلة إن قول نابليون « هذا رجل » كان فى خاتمة الحديث لا فى أوله . ومن الغريب أنها لم ترد كذلك فى رواية ولهم فون همبولدت ، وقد أفضى إليه جيتي بما دار من الحديث بينه وبين نابليون عقب انصرافه من حضرته . ويرى ورنر هيجيان — فى كتابه القيم عن نابليون — أن نيتشه وجندلف وإميل لدفيج قد حملوا هذه الكلمة أكثر مما تحتمل ، وتأولوها تأويلاً بعيداً ، وإذا كانت قد قيلت حقاً فهى ليست أكثر من قولنا « هذا رجل طيب » أو — إذا أردنا المداعبة فى الشناء — « هذا رجل شقى » أو « هذا عفريت » . ويرى بعض الخبثاء أن نابليون قال هذه الكلمة قبل أن يولد له ولى عهد بعامين ، وكان حينذاك حريضاً على أن ينفى عن نفسه تهمة ضعف الرجولة !

وخرج جيتي من لدن نابليون فرحاً مسروراً ، فكتب إلى كوتا مباشرة يقول : « يسرنى أن أقرر أنه لا شئ أجمل وأسمى أو أبعث على الرضا والارتياح

يمكن أن يحصل لي أكثر من المثلون بين يدي إمبراطور الفرنسيين . وبدون أن أذكر تفاصيل ما دار بيننا من الحديث أستطيع أن أقول إن الإمبراطور قد تلقاني بحفاوة لم أحظ بمثله من أي أمير ، وكأنه كان يعطيني ما أستحق إذا اجترأت على أن أقول ما في نفسي .

وبعد ذلك بأيام قلائل دخل نابليون ويمار وأقيمت له احتفالات باهرة ، ومثّلت على مسرحها رواية « موت قيصر » وقام بتمثيل دور بروكس الممثل تالما ، وفي أثناء حفلة الرقص تحدث الإمبراطور طويلا إلى جيتي وويلاند الناقد الألماني المعروف ، وعرض نابليون للأدب القديم والحديث ، ولمس موضوع شكسبير لمساً يسيراً ، ولم يكن يعيل إلى أدبه ، وقد قال لجيتي : « يدهشني أن رجلاً راجح العقل مثلك لا يعيل إلى أصحاب الآراء الحاسمة والألوان الواضحة » . ولم يرد جيتي على ذلك ، واسترسل الإمبراطور بعد ذلك في الحديث عن المأساة وبحث جيتي في النهاية على أن يكتب مأساة عن « موت قيصر » يكشف فيها عن الخطط العظيمة التي كان يريد قيصر تنفيذها لو مد في عمره ، واقترح على جيتي أن يصحبه إلى باريس ، وذكر له أن مجال المشاهدة بها أوسع ، وأنه سيجد هناك مادة عظيمة لخلقها الشعري .

ولم يكن جيتي قد رأى عاصمة كبيرة مثل باريس ولندن ، وكان في دعوة نابليون له ما يغريه بقبولها . وروى المستشار فون ميللر أن جيتي سأله عن النفقات اللازمة لهذه الرحلة ، وعن العادات المتبعة في باريس ، ولكن مشقة مثل هذه الرحلة — في تلك الأيام الخالية — وسنه المتقدمة حالاً دون الاستجابة لهذه الرغبة .

وفي يوم ١٤ أكتوبر تلقى هو وويلاند الإيعام عليهما بوسام الشرف الفرنسي ، ورحل الإمبراطور والقيصر إرفرت .

وقد التزم جيتي الصمت التام بخصوص ما دار بينه وبين نابليون . ولما سجل المحادثة بعد ذلك بأعوام طويلة سجلها موجزة ، وكان كلما سئل عن الفقرات الواردة في ورتز التي أشار إليها نابليون وزعم أنها مناقضة للطبيعة الإنسانية أجاب إجابة ماكرة عابثة ، وطلب إلى السائل أن يستعمل ذكائه ، ويجرب براعته ، في الكشف عن هذه الفقرات ، ولم يكشف النقاب عن هذا السر البائع حتى لصاحبه وصفه إكرمان . وكان يروق جيتي في شيخوخته أن يحيط نفسه بالخفاء

والغموض ، ويجد متعة في الإشراف على المعجبين به وهم يحاولون حل ألغازه وجلاء مسأثيره . وقد رفع الغطاء عن حقيقة المسألة المستشار فون ميلار ، والنقد الذي وجهه نابليون إلى ورتز هو نفسه النقد الذي أثاره هرذر حينما راجع ورتز ، ومضمونه أن حزن ورتز الذي تأدى به إلى الانتحار لا يبدو في القصة أنه منبعث من الحب الخائب وحده ، وإنما قد اشترك معه الإخفاق في الطموح . وقد ذهب هرذر إلى أن هذا عيب فني ، وظن نابليون أن ذلك يخالف للطبيعة الإنسانية ، وقد وافق جيتي الرجلين على ما ذهبوا إليه . ويرى لويز مترجم حياة جيتي المعروف أن الثلاثة لم يصيبوا مقطع الحق ، فإن ورتز كان يشقى من الطموح الخائب المعطل وكذلك من الإخفاق في الحب ، وورتر صورة منتزعة من الواقع ، وقد صورته جيتي على مثال المدعو جيروسلم الذي كان يألم من الطموح المخفق ومن الحب الخائب ، وقد نقل جيتي ما رآه في عالم الواقع إلى عالم الفن . وأنا أشايح لويز على هذا الرأي ، وهو يرينا القيمة الحقيقية للنقد في بعض الأوقات ؛ فهنا ثلاثة من علية الرجال ندّ عنهم الحق ، وأخطأهم التوفيق في النقد . ويزعم كتاب الألمان أن جيتي ترك في نفس نابليون أثراً عميقاً . وأرجح أنهم يبالغون في ذلك ؛ فقد استدعاه نابليون نزولاً على حكم الضرورات السياسية التي كان نابليون يجيد معرفتها . ونابليون على ما يظهر قد نسى الشاعر الكبير بعد ذلك نسياناً يكاد يكون تاماً ، ولم يحرص على استدراجه إلى باريز كما حرص فردريك الأكبر على اجتذاب فولتير إلى برلين . وفي مايو سنة ١٨١٢ — قبل غزور روسيا — جمع نابليون حوله الأمراء الألمان في مدينة درسدن ، وحضر للاجتماع به من برلين ملك بروسيا فردريك وليم وجاء من فيينا الإمبراطور فرانز ، وكان الاحتفال باهراً مشرقاً ، وحضر هناك شارل أجطس مع جيتي ، ولكن نابليون لم يكن في حاجة إليه هذه المرة ، فلم يجتمع به ولم يجاذبه الحديث . وفي عودته من روسيا خائباً مدحوراً مرت به العربة بويمار ، فلما أخرج رأسه من المركبة وسأل : « أين نحن ؟ » وقيل له : « في ويمار يا سيدي » قال : « كيف حال الدوقة ؟ وكيف حال الهر جيتي ؟ » ولعله قال ذلك ليثبت لمن معه معرفته المحلية لويمار كما يقول السائح الأمريكي لزوجته إذا مر بفرانكفورت : « هذه مدينة فرانكفورت المشهورة بالمقائق ! » وقد أقام نابليون في سنت هيلانة سنوات وكان الملل يجعله يتحدث عن أشياء كثيرة ويكرر ذكرها ، ومع ذلك لم يذكر جيتي !

أما جيتى فكان شديد الإعجاب بنابليون كثير التحدث عنه ، وكان مزهواً بالوسام الذى أنعم به عليه نابليون ؛ ففي سنة ١٨٠٩ كتب وليم فون همبولدت إلى زوجته يقول : « لا يظهر جيتى إلا حاملاً وسام الشرف الفرنسى ، وهو يقول فى حديثه عن الشخص الذى حباه به «إمبراطورى» . ولما اضطر إلى أن يخلع هذا الوسام بعد هزيمة نابليون فى ليبزج سعى فى الحصول على وسام من الحكومة النمساوية ليحمله بدلاً من الوسام الفرنسى ! » ، وهو مظهر ضعف فى هذا الرجل العظيم يؤسفنى أن أقرره . وقد كان فى جيتى تعلق غريب بالرمميات ، وحرص شديد على ترضى أصحاب السلطان . وقصته مع بيتهوفن ذائعة معروفة . لا ينقض حقيقتها الدفاع المتهافت الذى رأى لويز كاتب سيرته ومؤرخ حياته أن يلزم به نفسه إلزاماً ليس له ما يسوغه ؛ فإن علينا أن نفهم الناس كما هم لا كما يجب أن يكونوا . والحياة أعرف منا بأبنائها ؛ فهى تخلع عليهم ما تشاء من الصفات والمواهب ، وتجردهم مما تشاء لحكمة قد نجعلها . وقد ذهب مرة لزيارة جيتى لفيف من صغار الضباط الناشئين ، فتلقاهم بمخافة بالغة كادت تسف إلى الملق والعبودية . ولما تفضل بزيارته ملك باقاريا كاد يحن من نشوة الفرح حتى قال : « يلزم الإنسان مجهود لى يحتفظ بتوازنه ولا يأخذه الدوار » . ولم يكن هذا الرجل سوى الملك لويز المعروف بالشذوذ وغرابة الأطوار ، والذى كان دريئة لسخرية الشاعر هينى . وقد تلقى الملك لويز هذا عرشه من فتات مائدة نابليون ، فليس كثيراً على جيتى الذى كان يفخر بتنزه إلى زيارته أن يفرط فى الإعجاب بنابليون ويمعن فى الولاء له وهو قاهر بلاده وسالب حريتها . والواقع أن جيتى كان فى حاجة إلى جرعة من كبرياء المتنبي واعترازه بنفسه تلقاء أصحاب السلطان وحملة التيجان ، وقد صحبهم وكاد يفنى فيهم . أما المتنبي فقد قال بعد صحبته لهم فى شيء كثير من المرارة والغضب :

صحبت ملوك الأرض مغتبطاً بهم وفارقتهم ملآن من حنق صدرى

على أرفهم

الملكة شجرة الدر^(١)

٨

كانت تولية شجرة الدر للملك حركة جريئة ولكن خطيرة في نفس الوقت . ذلك أنه بالرغم من كل ما عُرف عن الملكة الجديدة من أصالة في الرأي ، وقوة في الخلال ، ومقدرة في تدبير الشئون ، وبالرغم مما أسدته إلى المملكة من جليل الخدمات ، وما أحرزته من نجاح في إجلاء الفرنج ، فإن فريقاً كبيراً من الأمراء والعلماء في مصر والشام لم يَرُقْ لهم أن يستظلوا بلواء امرأة ، وسرعان ما ظهرت بوادر الانتفاض الأولى في الشام حيث أبي نائب السلطنة في دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور وكثير من الأمراء أن يقدموا عهد الطاعة للملكة الجديدة ، وأرسلوا إلى صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف حفيد السلطان صلاح الدين الأيوبي يطلبون إليه القدوم إلى دمشق ، فاستجاب لدعوتهم وقدم إلى دمشق وتسلمها ، وقبض على الأمراء الصالحية أنصار شجرة الدر . وكان لهذه الأنباء في بلاط القاهرة أعظم صدى ، فجدد الأمراء والمماليك عهد الطاعة لشجرة الدر وعز الدين أيبك ، وبادروا إلى تجهيز القوات لإرسالها إلى الشام . ولكن شجرة الدر أخذت تشعر بحرج الموقف وبضعفها كأمراة ، ورأت أن تزوج من الأمير عز الدين أيبك فتقوى بذلك مركزها كملكة ، وتدعم عصمتها وهيبتها كأمراة ، وتم هذا الزواج بالفعل في ١٩ ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ . ولكن الظاهر أن هذه الخطوة لم تحدث أثراً في تهدئة الأمور ولم ترض الأمراء الناقين . فعندئذ رأت شجرة الدر أن تُقدم على الخطوة الحاسمة ، وأن تفتدي سلام المملكة ووحدتها بذلك العرش الذي رفعها القدر إليه ، فاتفقت مع الأمراء المماليك على أن تخلع نفسها ، وأن يتولى العرش

(١) الكاتب المصري عدد ٧ (أبريل ١٩٤٦) ، عدد ٨ (مايو ١٩٤٦) .

الملكة شجرة الدر

مكانها زوجها الأمير عز الدين أيبك . ونفذ هذا المشروع في نهاية ربيع الثاني ، وجلس عز الدين أيبك على عرش مصر باسم الملك المعز ، وانتهت بذلك سلطنة شجرة الدر ، وكانت قصيرة المدى ، ولم تدم أكثر من ثمانين يوماً من عاشر صفر إلى آخر ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ .

ورأى المماليك فوق ذلك إرضاءً لبني أيوب وتهديئة لثورتهم ، أن يضموا إلى جانب المعز على العرش شخصاً من بيت الملك ، فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف موسى من عقب الملك العادل ، وهو يومئذ طفل في نحو السادسة ، وأخذت له البيعة في اليوم الثالث من جمادى الأولى . وبذا جلس على عرش مصر ملكان ، وخرجت الأوامر والمراسيم باسم الملكين الأشرف والمعز ، وكانت تحمل صورة التوقيع الآتي : « رسم بالأمر العالي المولوى السلطاني الملكي الأشرفي والملكي المعزى » .

على أن كل هذه الخطوات لم تحقق الغاية المنشودة ، فلم تهدأ نائرة المعارضين ولم يعترف أمراء بني أيوب بالملك المعز ، واستمرت الخصومة حول عرش مصر على اضطرارها ، وسير الملك الناصر صلاح الدين صاحب دمشق جنده إلى مصر يحاول انتزاعها من المماليك . فسار إليهم الأمير فارس الدين أقطاي في قوة منتخبة من الجند المصريين ، وشتت شملهم بالقرب من غزة ، وعاد إلى القاهرة ظافراً (٥ رجب ٦٤٨) . ولكن هذا الإخفاق لم يثن الملك الناصر عن مشروعه ، فجمع قواده مرة أخرى ، وسار بنفسه إلى مصر ، ومعه عدة من أمراء بني أيوب ، وذاع خبر مسيره في القاهرة ، فاضطربت الأمور وقبض على كثير من المعارضين وأنصار بني أيوب ، وسار الأمير فارس الدين أقطاي للقاء المهاجرين ثم تبعه المعز في بقية العسكر ، والتقى الفريقان على مقربة من مدينة الصالحية ، ونشبت بينهما معركة كبيرة ، رجحت فيها كفة الشاميين أولاً ، ولكن المماليك ثبتوا ودارت الدائرة في النهاية على الشاميين فهزموا هزيمة شديدة ، ومزقت قواتهم ، ووقع عدة من أمراء بني أيوب في الأسر ، وكان ذلك في أوائل ذي القعدة سنة ٦٤٨ هـ .

فعاد الملك الناصر منهزماً بقلوبه إلى دمشق واعتصم بها . واستقر الملك المعز في ملك مصر ، وأخذ يعمل على توطيد عرشه ، واستقرت الأمور نوعاً ، ثم عقد الصلح بينه وبين خصمه القوي الملك الناصر في سنة ٦٥١ هـ على أن يستقل المعز

باليار المصرية وغزة وبيت المقدس ، ويستقل الناصر بما بقي من أراضي المملكة المصرية في الشام والمشرق ، وأفرج المعز عن أولاد الناصر ، وسائر الأمراء الأيوبيين المأسورين لديه ، وصفت العلائق نوعاً بين القاهرة ودمشق ، واستطاع المعز أن يتفرغ للشئون الداخلية .

ماذا كان موقف شجرة الدر خلال هذه الفترة المضطربة ؟ لقد عادت شجرة الدر بعد أن خلعت نفسها من الملك امرأة وزوجاً فقط ، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط . وكان المعز أميراً عاقلاً حصيف الرأي والخلال ، طاغية ظلوماً في الوقت نفسه ، ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التي رفعتة إلى الملك ، ويذعن لأمرها ووحيتها ؛ وكانت شجرة الدر من ورائه تحميه وتحمي عرشه من كيد خصومه الأقوياء . وكان الملك المعز يعيش في توجس دائم من دسائس زعماء البحرية زملائه السابقين ، ويخشى من غدرهم على نفسه وعرشه . وكان الخطر ماثلاً في الواقع ، وكان ثمة عدة من هؤلاء الزعماء ، وفي مقدمتهم الأمير فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري وقلاوون الألفي ، يتربصون به ويتحدونه بلا انقطاع ؛ وكان فارس الدين أقطاي يترجم هذه الكتيبة الخطرة من خصوم الملك المعز ويناوئه كلما سنحت الفرص ؛ وكان كلما قصد إلى القلعة سار إليها في موكب عظيم من الفرسان كأنه ملك متوج . وحدث أن خطب فارس الدين أقطاي ابنة صاحب حماة ، وطلب إلى الملك المعز إسكانها في القلعة في جناح من القصر الملكي ، لأنها من سلالة ملوكية ، فخشي المعز عاقبة هذا الطلب ، وتظاهر بالموافقة عليه ، ولكنه اعترم في الواقع أن يتخلص من هذا المنافس الخطير ؛ وبينما كانت العروس في طريقها إلى مصر في موكبها الفخم دبر الملك المعز أمره واستدعى الأمير فارس الدين أقطاي ذات يوم إلى القلعة ، وأعد له في الوقت نفسه كميناً لقتله ، وجاء أقطاي إلى القلعة مطمئناً ، وما كاد يجوز الأبواب حتى أغلقت ومنع مماليكه من اللحاق به ، وانقض عليه القتل ، وفي مقدمتهم المملوك قطز الذي تولى ملك مصر فيما بعد ، وقتلوه وألقوا برأسه من فوق السور إلى مماليكه الذين احتشدوا أمام القلعة لحمايته (٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ) . فلما رأى أعيان البحرية ذلك خشوا أن تدور الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار ، وسار بعضهم إلى الشام وقصد بعضهم إلى قيصر الروم ، وتفرق بذلك جمعهم ، وأمن الملك المعز شر الفتنة إلى حين .

الملكة شجرة الدر

وعهد الملك المعز بعد ذلك إلى خلع الملك الأشرف موسى ، وهو الملك الطفل الذي أراد أن يتدرع بتوليته في وجه بني أيوب وأنزله من القلعة وردده إلى منزله السابق بين أهله ، واستقل المعز بتوقيع الأوامر والمراسيم . وهكذا عمل الملك المعز على توطيد عرشه شيئاً فشيئاً ، ولاح له أنه أمن شر خصومه من البحرية بعد أن مزق جمعهم وحطم شوكتهم ، بيد أن الخطر كان يجثم في ناحية أخرى وكان أقرب إليه مما يتصور .

٩

كانت شجرة الدر خلال ذلك هي الروح المسيطر على كل شيء في البلاط والدولة ، وكان الملك المعز يعاني من هذا الطغيان الأدبي المرهق ، ولا يرى سبيلاً للخلاص منه . وكانت شجرة الدر بالرغم من هذا السلطان القاهر تجميع بكل ما تجميع به المرأة من صنوف الضعف والأهواء الخطرة ، وكانت قد جاوزت يومئذ طور الشباب النضر وأشرفت على الخمسين من عمرها ، ولكنها كانت مع ذلك تضطرم بنار الغيرة المحرقة ، ولم يهدئ من ثورة غيرتها أنها أرغمت المعز غير بعيد على طلاق زوجه الأولى وأم ولده على ، ومنعته من زيارتهما أو الاتصال بهما^(١) بل استمرت المناظر العاصفة تحدث بين الزوجين لأقل كلمة أو بادرة ، حتى غدا القصر وغدت الحياة المشتركة ، في نظر الملك المعز جحيم لا يطاق .

وهكذا لبثت الوحشة بين المعز وشجرة الدر في ازدياد . ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية النكدية فكر في أن يضع لها حداً ، واعتزم أن يختار له زوجة أخرى ، وبعث بالفعل إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته وكانت رائعة الحسن . ولعله لم يكن في الوقت نفسه بعيداً عن التفكير في التخلص من شجرة الدر والتحرر من نيرها المرهق بإزالة شخصها من الوجود . وتحدثنا الرواية في هذا الصدد بأنه كان للملك المعز منجم أخبره أنه سيموت قتيلاً على يد امرأة ، فلم يشك في أنها هي شجرة الدر ، وفكر في أن يكون البادئ بالفعل . ولكن شجرة الدر كانت ساهرة ترقب حركاته ومشاريعه . وحدث حادث

١ (١) السلوك في دول الملوك ج ١ (٢) ص ٤٠١ .

للملك شجرة الدر

ترتب عليه افتضاح المعز . ذلك أنه قبض ذات يوم على عدة من المماليك البحرية وسيرهم إلى القلعة لاعتقالهم في « الجب » وعلى رأسهم أيديكين الصالحى أحد غلمان الملك الصالح ، فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيه شجرة الدر ، وكانت تجلس فيه عندئذ ، انحنى أيديكين احتراماً ، وصاح بالتركية « والله ياخوند ماعملنا ذنباً يوجب مسكنا ، ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ماهان علينا لأجلك ؛ فإننا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم . فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ماترين » . فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه : « قد سمعت كلامك » . ولما زج أيديكين وزملاؤه إلى الجب قال لهم : « إن كان حبسنا فقد قتلناه » .

وثارت شجرة الدر سخطاً وكبرياء ، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها بدسائس القصر أنها إذا لم تبادر إلى التخلص من زوجها الملك المعز فإنه سيعاجلها بالتخلص منها .

وأرسلت شجرة الدر سرّاً إلى الملك الناصر صاحب دمشق بهدية ورسالة تنبئه فيها أنها اعتزمت التخلص من الملك المعز ، وتعدده بالزواج منه وتمليكه عرش مصر ؛ فلم يلتفت الناصر إلى عروضها لما يعلمه من روعة دسائسها وخطر الاتصال بها .

ووقف بدر الدين ملك الموصل على هذا السر الرهيب ، فأرسل إلى الملك المعز يحذره من مشاريع زوجه وغدرها ، ولم يكن المعز بحاجة إلى التحذير ؛ فقد كان يشعر فى الواقع بالخطر الذى يترتب به ، وكان يتحوط لنفسه من شجرة الدر وغلمانها أينما ذهب . وأخيراً اعتزم أن يخرجها من القلعة مبالغاً فى الاطمئنان ، وأن يسكنها فى دار الوزارة ، ثم غادر القلعة وأقام أياماً فى مناظر اللوق بعيداً عنها يدبر أمره ويعد العدة لتنفيذ مشروعه الأخير .

وشعرت شجرة الدر من جانبها بأن الفرصة تكاد تفلت من يدها ، وأنها إذا لم تبادر فوراً إلى العمل انهار مشروعها كله ؛ فلم تضع وقتاً ، ولجأت إلى دهاء المرأة وخديعتها ، وبعثت إلى الملك المعز فى مقامه باللوق تتلطف به ، وتستحلفه الصفح والصلح ، وتدعوه إلى قصر القلعة ، وتؤكد له كل عهد بالولاء والاخلاص . فما الذى جال بخاطره عندئذ ؟ وهل كانت ما تزال تجذبه نحو تلك المرأة الساحرة بقية من صباغة الماضى ؟ وهل نسى عندئذ ما كان

للكة شجرة الدر

يخالجه من ريب في نياتها الخطرة؟ وهل آمن عندئذ بأنها سوف تعود حقاً إلى صوابها وولائها وتتخلى عن مشاريعها السوداء؟ وعلى أى حال فإن الملك المعز لم ير بعد التفكير بأساً من أن يستجيب لدعوة زوجته المغربية، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ^(١) وقد أنفق المعز عصر ذلك اليوم في لعب الكرة مع بعض خاصته، وما غربت الشمس حتى غادر المعز في ركبته ميدان اللوق إلى القلعة ودخل القصر مجهداً متعباً.

فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة بالغة، وغمرته بالابتسام والمداعبات، فاستسلم المعز إلى حفاوتها الغادرة، ولم يتخذ لنفسه أى تحوط. وكانت شجرة الدر قد قررت أمرها واختارت نفس الوقت والساعة لتنفيذ جريمتها؛ وكانت قد رتبت لاغتيال المعز خمسة من غلمانها هم نصر العزيزي ومحسن الجوهري ومملوك يدعى سنجر وخادمان من ذوى البأس والشدة. فاستراح المعز قليلاً، ثم قصد إلى الحمام ليلاً ليغتسل وهو آمن مطمئن، ولكن ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذى أصدرته شجرة الدر. وتنقل إلينا الرواية عن مصرعه روايات مثيرة، فيقال إن القتلة أخذوا بأنثييه وخنقوه في نفس الوقت حتى زهق، وفي رواية أخرى أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه. وتضيف الرواية إلى ذلك أن المعز حينما انقض عليه القتلة وشعر بأنه هالك أخذ يستغيث بشجرة الدر ويتضرع إليها أن تنقذه، وأن شجرة الدر تأثرت بتضرعه وطلبت إلى الغلمان أن يتركوه، فصاح بها محسن الجوهري مغضباً: «إذا تركناه فانه لا يبقى علينا ولا عليك». وهكذا تمت الجريمة وقتل الملك المعز أروع قتلة بتدبير زوجته الغادرة الخؤون بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين وكان قد أشرف على الستين من عمره (١٠ أبريل سنة ١٢٥٧ م). وبادرت شجرة الدر في الحال إلى العمل لاتقاء عواقب الجريمة، فأرسلت

(١) يقول لنا المقرئى إن ذلك اليوم وهو اليوم الذى قتل في مساءه الملك المعز كان يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (السلوك ج ١ (٢) ص ٤٠٣) ويقول لنا أبو الفدا (ج ٣ ص ١٩٢) وكذلك صاحب النجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٣٧٥) إن ذلك كان يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول. وقد رأينا بعد مقارنة التواريخ والحوادث أن نأخذ بالرواية الثانية باعتبارها أقوى وأرجح.

الملكة شجرة الدر

فيلًا إلى القاضي ابن مرزوق واستشارته في الأمر بعد أن نبأته بموت الملك المعز ، فاعتذر ولم يبد رأياً . وأرسلت في نفس الوقت تعرض السلطنة على بعض الأمراء الصالحية مثل الأمير عز الدين أيبك الحلبي ، وجمال الدين العزيزي ، فلم يرضها أحد منهم رهبة وروعاً . وهكذا أخفقت شجرة الدر في محاولتها أن تقيم على وجه السرعة في السلطنة أميراً تستتر وراءه في الحكم . وأذيع في صباح اليوم التالي أن الملك المعز مات بالليل فجأة ، فحدث أيما هرج واضطراب ، ولم يصدق معظم الناس هذا النبأ ، وذاعت مختلف الإشاعات وكثرت الظنون والريب . وركب المماليك إلى القلعة وعلى رأسهم الأمير بهاء الدين الأشرفي مقدم الحلقة وحاصروا القصر ، وقبضوا على الخدم والحريم ، فأقر بعضهم بحقيقة ما وقع . أوفى الحال استدعى كبير الوزراء شرف الدين الفانزي (١) ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور على ولد الملك المعز على العرش مكان أبيه ، وكان يومئذ صبياً في نحو الخامسة عشرة ، ووافق الأمراء الصالحية على توليته اتقاء الفتنة ، وأخفقت جهود الأمراء المتوثبين لاغتصاب العرش .

وأراد الأمراء المعزية القبض على شجرة الدر ، وكانت قد امتنعت بمجاحها في القلعة مع نفر من خدمها وجواريها ، وحاولوا اقتحام الدار فمنعهم الأمراء الصالحية ، وكادت تقع بين الفريقين فتنة لولا أن تعهد الأمراء المعزية آخر الأمر بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها . وفي اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكي واعتقلت مع بعض جواريها في البرج الأحمر أمنع أبراج القلعة يومئذ ، وكان يقع في الناحية الجنوبية منها ، وقبض على الخدم الذين اشتركوا في الجريمة ، وفي مقدمتهم محسن وسنجر وصلبوا على باب القلعة ، ولم ينج منهم سوى نصر العزيزي الذي استطاع الفرار إلى الشام ، وقُتِل عدة كبيرة من الغلمان والطواشية ، وقبض على الوزير صاحب بهاء الدين رَحْنًا وزير شجرة الدر السابق بتهمة الاشتراك في الجريمة ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل . وأما شرف الدين الفانزي فقد قبض عليه بعد أن تولى الوزارة للملك

(١) هو الوزير شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفانزي ، وكان قبطياً فاسلم وتقدم في وظائف الدولة حتى ولى رئاسة الوزراء للملك المعز ، وولى الوزارة من بعده لولده المنصور أياماً قلائل ، ثم قبض عليه وتوفي قتيلاً في جمادى الأولى سنة ٦٥٥ هـ .

الجديد أياماً ، ثم قتل في سجنه بعد ذلك بقليل . وأحاطت المماليك المعزية بالقصر السلطاني ، ووضعوا أيديهم على جميع مافيه ، واقتسموا جوارى شجرة الدر ومتاعها ، وسادت في القصر والبلاط أسباب الدعر والإرجاف مدى حين .

١٠

ولبثت شجرة الدر في معتقلها بالبرج الأحمر أياماً وهي تعاني أمر ضروب التوجس والروع . وقد كانت بلا ريب تشعر بمصيرها المحتوم . وأى مصير كان ينتظرها سوى الموت في أعنف صورة ؟ ولم يك ثمة سبيل للفرار وأعين المماليك المعزية ترقبها بمنتهى الحذر . وكان المماليك المعزية يخشون هذه المرأة الخطرة بالرغم من محنتها واعتقالها ، ويعتقدون أنه لا ضمان لاستقرارهم في العرش والسلطة سوى إزالتها من الوجود . وكان الملك الفتى المنصور وأمه يضطربان ظمناً للانتقام من الزوج القاتلة . وهكذا كان القدر الصارم يترصد بشجرة الدر ويدنو منها سراعاً ، وكان الأمراء المعزية يترقبون الفرصة للعمل ويطالبون جهاراً بتسليم شجرة الدر ومعاقبتها على ما أثمت ، والمماليك الصالحية من جانبهم يحاولون إنقاذ شجرة الدر وحمايتها ، بيد أنهم كانوا الفريق الأضعف ، فلم تمض أيام قلائل حتى وهنت معارضتهم وانحنوا أمام العاصفة . وفي يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الثاني ^(١) نفذ المماليك المعزية إلى البرج الأحمر بأمر الملك المنصور وأمه ، وقبضوا على شجرة الدر وحملوها إلى أم الملك المنصور لكي تتولى عقابها بنفسها . وهنا يقول لنا المقرئى : « فضر بها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت وألقوها من سور القلعة إلى الخندق .

(١) تختلف الرواية الإسلامية في تاريخ مقتل شجرة الدر كما اختلفت في تاريخ مقتل زوجها الملك المعز . فيقول لنا المقرئى إنها قتلت يوم السبت ١٨ ربيع الأول أعني بعد مقتل المعز بثلاثة أيام وفقاً لرواية (السلوك ج ١ - ٢ - ص ٤٠٤) . ويقول صاحب النجوم الزاهرة نقلاً عن أكثر من رواية إن مقتل شجرة الدر كان يوم السبت ١١ ربيع الثاني . وذلك لسبعة عشر يوماً من مقتل الملك المعز (ج ٦ ص ٣٧٧ و ٣٧٨) . ويقول أبو الفدا إنها قتلت في يوم ١٦ ربيع الثاني . ويقول ابن إياس إنها قتلت في يوم ٢٥ ربيع الثاني (ج ١ ص ٩٢) . وقد أخذنا نحن برواية صاحب النجوم الزاهرة باعتبارها أقوى وأرجح .

الملكة شجرة الدر

وليس عليها سوى سراويل وقيص ، فبقيت في الخندق أياماً ، وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها . ثم دفنت بعد — أيام وقد أنتنت وحملت في قفة — بتربتها قرب المشهد النفيسى .^(١) وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما أيقنت بهلاكها كان من قوة نفسها أن أخفت جملة من المال والجواهر ، وانتقت فوق ذلك طائفة من الجواهر والحلى النفيسة وحطمتها وسحقها في الهاون حتى لا تقع في أيدي أعدائها^(٢) .

وهكذا زهقت شجرة الدر أول وآخر ملكة لمصر الإسلامية ، تلك التي لبثت مدى أعوام طويلة زينة البلاط المصرى ، وصاحبة الحول والسلطان فيه ، وزهقت بنفس الأسلوب المروّع الذى زهق به زوجها الملك المعز ، وكان القصاص مثيراً ولكن عادلاً ، وكان الفصل الأخير من مأساة قصر متعددة الفصول والنواحي ، بدأت رائعة باهرة ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة . وكانت شجرة الدر ، بإجماع الروايات المعاصرة والمتأخرة ، شخصية عظيمة تمتاز بخلال ومواهب غير عادية . وكانت إلى جانب جمالها الرائع وسحرها الوافر كامراً وحظية ، تتمتع بصفات باهرة قلما تجتمع في حسناء وافرة السحر ، فقد كانت قوية النفس صارمة العزم وافرة الحرمة والحشمة ، تعيش في جو من

(١) دفنت شجرة الدر في التربة التى أنشأتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة في سنة ٦٤٨ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤) وما تزال هذه التربة قائمة حتى اليوم ، وهى توجد داخل مسجد صغير أصله مدرسة أنشأتها شجرة الدر بجوار تربتها بشارع الخليفة ، وتعرف اليوم باسم جامع شجرة الدر أو جامع الخليفة . وعلى التربة قبة من طراز عباسى كتب في جنباتها ما يأتى :

«بسم الله الرحمن الرحيم . عز الست الرفيع والحجاب المنيع ، عصمة الدنيا والدين ، والدة الملك خليل بن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى المظفر أيوب بن مولانا الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين قدس الله روحه ونور ضريحه ، التى خطبت الأقلام بمناقبها على منابر الطروس ، وشهدت لها المفاخر بالمجد الثابت فى أعلى العز بين الورى ، وأصبحت شمس المملكة بها طالعة ، وآراء الأمراء لأمرها مطيعة وسامعة ، وأعز الله أنصارها ، وضاعف اقتدارها ، وأعلى منارها ، وجعل النيرين فى الملاء الأعلى خدامها ، ولم تزل مؤيدة منصوره على مر الليالى والأيام بمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام » . (ورد هذا النص ضمن بحث عن العمارة الإسلامية فى العصر الأيوبي للاستاذ حسن عبد الوهاب ونشر بمجلة العمارة عددى ٧-٨ لسنة ١٩٤٠) .

(٢) السلوك ج ٢ ص ٤٠٤ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

المهابة والجلال ، ولم تكن فقط جارية القصر الاثيرة تسيطر بأثوتها ودلالها ولكنها كانت تسيطر أينما حلت بقوة عقلها وذكائها وروحها . وقد لبثت منذ تولى سيدها وزوجها الملك الصالح ملك مصر زهاء ثمانية عشرة عاماً أبرز شخصية في البلاط وفي الدولة ، يغلب رأيها كل رأى وتقوذا كل تقوذا . ولم يكن تبوؤها العرش لفترة قصيرة المدى إلا عنوان الذروة في هذا المجد العريق الذى شادته حولها خلال أعوام طويلة من السلطان غير المتوج . وقد كان لصائب رأيها وثابت جنانها وتوجيهها الجرىء أثناء غزو الصليبيين لمصر أعظم الأثر في إنقاذ مصر من كارثة مروعة ، وتحويلها إلى نصر حاسم باهر . ولم تفقد شجرة الدر شيئاً من سلطانها القاهر حينما خلعت نفسها وتخلت عن عرشها للملك المعز ، ولكنها لبثت من ورائه سيدة الموقف وصاحبة الرأى ، وكانت حتى فى تلك الآونة التى بدأت تغالبها فيها الظروف ، وأخذ يخبو نجمها المتألق ، أقدر من يسوس طوائف المماليك المتمردة ويهدى ثورتها .

وكانت هذه المرأة العظيمة التى رفعها القدر إلى عرش مصر تتمتع فوق ذلك كله بخلال شخصية جليلة . فقد كانت بالرغم من جلالها وسحرها ، سيدة متينة الخلق ، وافرة العفاف والصون ، تقية خيرة ، تعشق أعمال البر وتقف عليها الكثير من مالها . وكانت الغيرة العنيفة هى أظهر ما فيها من ضعف المرأة ، وهى التى أضلتها ودفعتها فى النهاية إلى الخاتمة المؤسفة .

وجلس بعد الملك المعز على عرش مصر حداث يافع ، هو ولده الملك المنصور على ، ولم يكن أصلاً من يتولى الملك ، ولكنه كان مرشح المماليك البحرية ودرعهم لإقصاء بنى أيوب عن العرش . ومع ذلك فلم تهدأ الخواطر ولم تستقر الأمور بولايته ، ولبثت الدسائس والمنافسات بين مختلف الزعماء على اضطرامها . وكانت مصر أثناء هذا المعترك الدموى حول عرشها تواجه فترة من أدق فترات تاريخها . وكانت غزوات التتار البربرية تنساب نحو الشرق بسرعة ، وصروح العالم الإسلامى القديم تنهار تحت ضرباتهم تباعاً . وبلغ الخطر المروع ذورته حينما انتقض التتار بقيادة عاهلهم هلاكو على بغداد واستولوا عليها ، وقضوا على الخلافة العباسية وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين بها ، وذلك فى صفر سنة ٦٥٦ هـ (فبراير سنة ١٢٥٨ م) وأخذ الشرق الإسلامى كله يرتجف فرقاً

لاقتراب الخطر الداهم ، وكانت مصر أشد شعوراً من غيرها بالخطر ؛ لأنها كانت دائماً كعبة الغزاة من المشرق . وسرعان ما كشف هلاكو عن نياته نحو الشام ومصر ، فأرسل رسله إلى أمراء الشام يدعوهم إلى الخضوع والتسليم العاجل ، وأخذت جيوش التتار تعبر الفرات متجهة نحو الشرق ، ولم يك ثمة شك في النتيجة المروعة إذا سمح لهذا السيل المخرب أن ينساب إلى ربوع مصر الخضراء .

في تلك الآونة العصيبة ظهر الأمير سيف الدين قطز أقوى الزعماء البحرية في ميدان الحوادث ، وكان يتولى نيابة السلطنة ويقوم للملك المنصور بتدبير شئون المملكة ، وكان يرقب سير الحوادث في المشرق بجزع ، ويرى وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر في هذا الظرف الدقيق خطراً يهدد كيانه ، فاتهز أول فرصة وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه وزجهم إلى برج القلعة ، ونادى بنفسه ملكاً (٢٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧) ، وأعلن إلى زملائه الأمراء في صراحة أنه لا ينبغي للملك لذاته ، ولكنه يريد التأهب لرد التتار وإنقاذ مصر من شرهم ؛ فإذا تم القضاء على هذا الخطر فلهم أن يختاروا غيره للملك من شاءوا .

ووصل التتار إلى الشام في أوائل سنة ٦٥٨ هـ واستولوا على حلب وأعلنت دمشق خضوعها لهم . ولم تمض أشهر قلائل حتى سيطروا على سائر جنابات الشام ، ثم انسابوا نحو الجنوب بسرعة مدهشة ، ووصلوا إلى فلسطين ، وأرسل هلاكو رسله إلى ملك مصر يطلب إليه الخضوع والتسليم ويهدده بالويل . وكانت مصر تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء الغزاة ، وبذل الملك قطز جهوداً عظيمة في حشد الجند وإتمام الأهبة . فلما وصل رسل هلاكو أجاب قطز بالقبض عليهم وإعدامهم وتعليق رؤوسهم على باب زويلة ، ثم سار من فوره على رأس قواته إلى فلسطين ، وبادر بقاء الغزاة في عزم وثقة . وكان التتار قد وصلوا عندئذ إلى أسوار غزة فردهم جند مصر بقوة ، واشتبكوا معهم في معركة عظيمة حاسمة في عين جالوت على مقربة من بيسان ، وذلك في منتصف رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) . وفي عين جالوت أحرزت مصر نصراً باهراً ، واستطاعت أن ترد الغزاة البرابرة على أعقابهم ، وكان يوماً عظيماً لمصر والإسلام . ولم يمض قليل حتى استطاع الملك المنصور

الملكة شجرة الدر

قطر أن يستخلص الشام من التتار ، وأن يردهم نحو المشرق منهزمين مدحورين .
وكان لمصر فضل القضاء على خطر التتار ، كما كان لها من قبل فضل القضاء على
سيل الغزوات الصليبية ، وكانت في عين جالوت تقوم برسالتها التاريخية في
حماية الإسلام والمدنية الإسلامية .

محمد عبد الله عناه

عودة الأسير

كنت على موعد مع الطبيعة ؛ فإنها تربطني بها صلات ووشائج ، وبيننا ألفة ومودة . وحين تضطرب الأمور وتلتوى أو يضيق الصدر منى ، ألتجأ إليها كالمثقل بالخطايا حين يفرع إلى معبده وقد بهظه حماتها . وهناك أبشها شجونى وأحكي لها آلامى ، فتخفف عني وتهدي من روعى وترد إلى ثقى . والطبيعة تهب سرها لمن يحبها ، فتكشف له عما يستغلق على غيره من معان خفية تكمن خلف مظهرها ، وتفسر له ما يدق ، وتوضح ما يستبهم .

وذهبت فى ذلك اليوم الى حيث ألقاها وأتردد بها ، واستلقيت على ظهري أتأمل السماء وكانت غائمة ، وأنا أحب السماء الغائمة ، فكأننى إذ أشهدا أقرأ فى سفر الحياة وأستطلع أسرار الكون ، وأتزود بالحكمة والمعرفة . وكانت الغيوم تتباعد وتتداني ، وتتجمع وتتفرق ، وتقبل وتدبر ، وتسرع وتبطئ ، وتكبر وتصغر ؛ وهى فى كل ذلك منسجمة متسقة مؤتلفة ، وكأنها تعرض أشتاتاً من الصور وألواناً من القصص . وكانت تصاحبها موسيقا الطبيعة ذات المعانى العميقة والرموز الغامضة ، صاخبة متفجرة تارة ، وهادئة وادعة أخرى ، فتضفى عليها حلة من الرهبة والخيال ، وتسميها بطابع الشعر والفلسفة .

ورأيت فيما رأيت « مارس » العنيد وهو عائد من رحلته الدموية فى مركبته الرهيبة وسط الحرائق والانقاض والأشلاء . وساد السكون فترة ثم خرجت الملائكة تنفخ فى الصور ، مبشرة بالأمان ، ناشرة ألوية السلام

ورأيت أبواب السجون وهى تنفرج فى بطء وثاقل ، وجوع الأسرى وهى تنطلق من بينها ، بوجوه مكفهرة عليها غبرة ، ورءوس حاسرة وثياب خلقة ، وكانوا يسرون بخطوات وثيدة ، كأن أقدامهم تنوء بهم ، وكانت أبصارهم شاردة وتقاضيعهم جامدة لا تنم على شئ

إن ضوء الحرية ليبهـر بعد ظلمة الأسر . وإن الرئتين لتعجزان عن الامتلاء بالهواء الذي كانتا محرومتين منه . وكأنما تابوا إلى أنفسهم بعد حين ، وأدركوا أن كل شئ قد تغير : منظر الشمس والضوء والوجوه ، وكذلك مظهر الأشياء والأشخاص والحيوان ، والأصوات والألوان . . . فكل شئ زاد . وكل شئ رق .

وبدءوا يشعرون بالدعة والراحة وقد توسدوها فجأة ، وأخذت الأجساد تعيش والأرواح تتنبه . وهم يستطيعون الآن وبدون أن يخشوا شيئاً ، أن يرفعوا أصواتهم وأن يبتسموا ، وأن يشاهدوا وأن يستمعوا ، وأن يفكروا كما يروق لهم ، وأن يكتبوا ما يسبح في خاطرهم ، وأن يتلقوا الرسائل ولا يشاركون أحد في قراءتها . وها هم أولاء يتنفسون ، وها هي ذى قلوبهم تنبض ، وها هي ذى أرواحهم التي أعتقت تستطيع أن تنطلق في الأفق الواسع حيث تخلق وتزفر .

ورأيت كلا منهم يتجه إلى أهله وذويه بجسده وقلبه وروحه ، وهؤلاء يستقبلونه بأجسادهم وقلوبهم وأرواحهم . وقد كانوا منذ أشهر قانطين من أوبته لا يستقرون من القلق عليه ، تنتابهم الهواجس وتشجيهم الأحزان . هم أيضاً كانوا سجناء ، وكان سجنهم تلك الفكرة الواحدة الثابتة ، تلح عليهم وتأخذ بخناقهم . وها هم أولاء قد أرخى خناقهم ، وفك أسرهم معه . هم أيضاً تغير الحاضر حيالهم ، وأضاء المستقبل أمامهم ، واستعادوا ثقتهم ، وصار كل شئ يبدو جيلاً أمام أعينهم . فهذا التحرير بدء لسيرة جديدة ، وهو إذ ينبئ بانتهاء الساعات المريرة يكاد يمسخ ذكرى الآلام الماضية .

وظفقت أتأمل وجوه العائدين من هناك وقد اقتربوا من أرض الوطن . وخيل إلي أنهم يتهيبون هذا اللقاء ويشفقون منه بقدر ما كانوا يرغبون فيه ويتلهفون عليه . لقد كان يدور في قلوبهم التي طالما هفت إلى هذه اللحظة ، صراع مرير أشد هولاً من كل المعارك التي خاضوا غمارها . وكانت عيونهم تنطق بهذا الاضطراب الذي كان يعصف بهم ، ويملاً بالرهبة جوانحهم . . . كيف يجد بعضهم بعضاً ؟ هل القلوب تغيرت ؟ والأجساد ، الأجساد التي قاست

وتعذبت . . . والوجوه ، الوجوه العزيزة الطيبة ، التي كانت لكل منهم الأفق والسماء والوطن . . . ماذا أصابها ؟ ماذا فعلت الحرب بها ؟ ترى هل أضحت كالأرض التي يطوونها ، أو الأقطار التي يجاوزونها ، وهي قد دكت آثارها ، وذهبت بمعالمها .

وسمعت أحدهم يسأل : « ألا زالت أعين طفلي جميلة كما كانت ؟ وابتسامة امرأتى . . . »

وكان للأسرة صديق أريب رأيته يسارع مستبقاً هذا اللقاء الرهيب ويقول للعائد المسكين : « خذ حذرك ، فستجد أمك وقد تغيرت قليلاً . لقد ضعف منها البصر . واضبط نفسك فإن أباك لا يقدر على الحراك وقد بانت عليه نهكة المرض . » ورأيته يعود سريعاً أيضاً وينذر الأسرة الشقية : « ستجدونه وقد تغير قليلاً . لقد وخطه الشيب . وإياكم وإظهار جزعكم ، فقد ترون له ساقاً من خشب بدلاً من التي فقدتها . ولكن هذا أمر هين ، فستصنع له أخرى ، ويثوب إلى حالته الأولى . ثم لا تنسوا اضطراب النفس ووعناء السفر . »

وأخيراً حلت اللحظة القاسية ، ورأيت الزوجة تشخص ببصرها وتساءل في ارتياب : أين هو ؟ ولم يطل هذا الارتياب لحظة ، ولكن من يدري كم سيبقى أثره ، وكم سيدوم عنفه ؟

ولقد جرف الفرح باللقاء كل شيء أمامه كالعاصفة ، فتبددت الحيرة أمام نشوة الحوزة ، وانقشع الدهول وتلاشى الذعر أمام الشعور بالحياة والتحقق من استمرارها . ورأيت كلا منهم يخال ليظهر بمظهر المبتهج ، ويتصنع الاغتياب ، ويحمل نفسه على الضحك . وكانوا يتبارون جميعاً في النوادر والفكاهات والملح . ورأيت الرجل يرفع عكازه في الهواء ويرقص به على قدمه الواحدة لكي يطرب منه الآخرون .

لشد ما كذبوا جميعاً . . . ولكن ما كان أروع من كذب !

والتفت الزوج إلى زوجته وقال : « هه ! لقد عدت حطاماً ! هذا كل ما بقي مني ! » فقالت له : « صه ! إنك لازلت كما كنت . » والتفت الأب إلى ولده العائد من الأسر وقال : « ونحن يا ولدي ، لقد انتهينا . . . » فقال الابن : « حاشا . . . ما كنت أتوقع أن أراك بهذه الصحة والعافية . »

يا للأكذوبة السامية ! ويا للمهزلة الفائقة !
ورأيت مثل هذه الأكاذيب وهذه المهازل تؤدي في كل الأسر التي عاد
أبنائها ، على هذا النحو من البسالة والنبالة والسمو والكرم . ولقد عرف
بعضهم بعضاً في لمح البصر ، ولكن هذه اللحظة التي كانوا يصبون إليها جميعاً ،
كانت تخزن لهم الآلام والهموم . كانت تبدو على جميع الوجوه — المقيم منهم
والعائد — آثار العذاب وسمات الشقاء وشواهد الهم وعلامات الهرم ؛ لأن
الجميع حتى الذين لم يبرحوا مكانهم ، حاربوا حربهم وعانوا مرارة الذل والأسر .
ولم يقر أحد منهم بشيء في مبدأ الأمر ، بل كانوا يكتبون آهاتهم ، ويحجزون
أنفهم ، ويخفون لوعتهم بالعناق ، ويخنقون غصصهم تحت سيل من القُبَل .
بيد أن ذلك لم يدم طويلاً ؛ إذ لم يكن هناك مناص من الاعتراف بما أحكم
إخفاؤه من الأسقام والعلل ، والبوح بما كان يدارى بالصمت والكتمان :
بالعمى والصمم والجراح التي شوهت والأعضاء التي بُترت ، وكل ما كانوا
لا يجرءون على الكشف عنه أو الاعتراف به . وهو الآن لا يمكن أن يبقى
مستوراً أو خافياً ، فالحقيقة تأتي ، وها هي ذي تقترب وتلح وتصرخ ثم تنفجر .
رباه أي محنة كانت ! وأي شقاء !

نعم لم يكشف القناع عن وجه الحقيقة سريعاً ، ولكنها حين غدت سافرة بدت
بشعة . وعندئذ أخذ سيل الحكايات يفيض ، والاعترافات تتدفق ، والدموع
تنهمر ، والزفرات تتصاعد . وعندئذ فقط بدت آثار الضيق الجسماني وأمارات
الانكماش الذاتي والانتقباض المعنوي . تلك الآثار والأمارات التي لم تُرَ في مبدأ
الأمر أو لم ينبغ أحد رؤيتها . بدا التغير في المظهر والتقاطيع : في الجباه التي
تغضنت وتقبضت ، والحدود التي غارت وشحبت ، والعيون التي خمد نورها
وذهب بريقها ، والصوت الذي تبدلت نغمته وانثامت رتته ، والشعر الذي اغبر
واصفى ، والجلد الذي قحّل وذبل ظهر التبدل في الحركة والنظرة : في
ذلك التراخي والفتور اللذين يستوليان على الشخص بأكمله ، وذلك الدهول
العجيب المشابه للتأمل الدائم عند من أصابته الحرب بروضتها ، وتلك النظرة
الغريبة الخاوية التي تنبئ بانقشاع الأوهام لدى العائدين منها . وكُشف عن
الجروح المخفاة تحت الأغشية ، والندوب المستورة تحت الأردية . وأظهرت
البسات مكان الأسنان التي سقطت ، وبان الهزال وزاد تحت الملابس التي اتسعت .

ورأيت الزوجة تمدق في الزوج وتقول : « يا إلهي ! أي آخر أعدته إلى ! » وأخذ الزوج يقابل بين الصورة الجميلة التي رحل بها ولم تبرح مخيلته ، وبين الصورة المائلة أمام عينه وقد زایلها ميعتها ، وأثر فيها الجوع والخوف والحرمان والسقم .

ولقد اشتد الحنان لهم والشفقة بهم ، وزاد الإحساس بالإكبار وبالاحترام تجاههم . ولكنني رأيت فيهم من وجد أن القلوب تحولت ، وأن الحياة تبدلت ، وأن صروفها عصفت بكل ما كان يعتز به ويغار عليه . فأسف لعودته ، وتمنى لو أنه كان لقي حتفه كخلائه في ساحة الشرف . ولكن واسفاه ، حتى الموت لم يظفر به كل من يطلبه !

ورأيت فيهم من لا يجد له عزاء عن تركه السلاح ؛ فقد راض نفسه على الكفاح ، وصارت الحياة عنده تبدو بدونه تافهة . وفيهم من بدأ ينسج خيوط حياة جديدة أجمل وأفضل ؛ والإنسان لا يبدأ التفكير في حياة جديدة إلا من فوق الخرائب ولانقراض . وفيهم من وجد أن أحب الناس إلى قلبه وأقربهم إلى نفسه ، قد أودى بهم فعل الإنسان بأخيه الإنسان ، فأخذت مراحل العداوة تغلي في صدره من جديد ، وامتلات نفسه بالسخائم والأحقاد ، وتملكته الرغبة في الأخذ بالثأر . وفيهم من استسلم للقضاء وتذرع بالصبر وخضع . وفيهم من تمرد على كل القيم المعنوية العزيزة على الإنسانية ، كحب الوطن ، والدفاع عن المثل العليا ، والتضحية . وفيهم من دب إليه ديب الشك في الحضارة القائمة وفي عظمة الفكر الإنساني الذي لم يبدع شيئاً إلا كان له شأن في كل ما نزل به . وفيهم من استبد به اليأس ، فهو لم يعد — واحسرتاه — يصلح لأمر

وولّى النهار ، واختلطت الظلمة بالنور ، وتعاقبت أمام ناظري هذه الصور الكئيبة والبقايا المحطمة ، كأنها أرواح معذبة ، أو خيالات حائرة ، توامض في لوحات معتمة ثم تنسل وتختفي . وأسبل الليل ستره على الكون ، ولم أعد أرى شيئاً . وخفتت الأصوات ، وهجعت الأطيوار ، وهدأت الأشباح ، وهدبت الأشياء . ولم يكن يُسمع غير رذاذ لا يرى ، كان يتساقط على أوراق الخريف الميتة وكأنه يهمس إليها ، وكان كل شيء يبدو وكأنه ينصت .

هل كان ذلك وحى قصة ؟ هل كان حلما ؟ هل كانت تخیلات وتصورات ؟
أم كان ذلك صدى لإحدى مقطوعات موزارت أو أثر لوحة من لوحات
رافائيل . . . ؟ لست أدري ، ولكنى شهدت وسمعت . وقت ألتعر في خطاي ،
شارد اللب ، ذاهل البصر . وطرقت مسمعى زقزقة عصفور صغير ضعيف
كصوت الحق ، كان يرتعد مبتلا على فنن ، وكأنه هاتف يهتف : « ليت من
يدفعون بهذه المخلوقات التعسة إلى كل هذا الهوان ، يدركون أن الإنسان
لا تشفى آلامه ، ولا تؤسى جراحه ، عند ما ينقشع دخان البارود أو تتعالى
أهازيج النصر . »

عبد القادر السماوي

أريتريا مشاهدات وآمال

٢ (١)

الثقافة : يهر المتنقل بين ربوع أريتريا ما قام به الطليان من أعمال إنشائية ومبان جميلة ومدن جديدة وطرق ممهدة . ولكن المتطلع إلى ما وراء ذلك يرى عجباً : يرى أمة أوربية قد استعمرت بلاداً طيلة نصف قرن دون أن تؤثر ثقافتها في الشعب ، أو ترفع إدارتها مستوى المعيشة إلى الدرجة التي تناسب تلك المدة . فالثقافة الإيطالية لا تعدو كثيراً لغة إيطالية يتكلمها الناس لقضاء حاجاتهم . وقد يثار ضحكك وإعجابك عندما تسمع هؤلاء الناس وقد بسطوا اللغة تبسيطاً مخلاً ، فهم يعبرون مثلاً ، في تصريفهم الأفعال ، بضمائر الرفع المنفصلة مع إسنادها إلى المصدر فيقولون : « أنا ذهاب ، أنت ذهاب ، هو ذهاب الخ » . وقد سألت بعض الأريتريين عن السبب الذي من أجله لا يعلمهم الطليان ، فكان ردهم أن الطليان كانوا قد بدءوا في تعليمهم ، ولكنهم وجدوا أكثر الذين يتعلمون من الأريتريين يهربون إلى أثيوبيا ويستقرون فيها ، فرأى الطليان أن المجهود الذي يبذلونه لتعليم الأريتريين يعود بالفائدة على أثيوبيا . وكذلك لاحظ الطليان أن تعليم هؤلاء الناس ، يحمي فيهم النزعة القومية ، ويشير فيهم حب الاستقلال والرغبة في التخلص من العبودية . وعلى هذا كف الطليان عن تعليمهم وقصروا جهودهم على التعليم الذي يسمح باستغلال هؤلاء الناس لمصلحة إيطاليا فحسب ، سواء كان ذلك من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الدينية . وليس من السهل أن يصدق الإنسان هذا القول ، ولكنها الحقيقة المموسة . فكان

هؤلاء الطليان في مأدبة جمعت ألوان الطعام المختلفة الشهية في قصر نخم يقف خارجه بعض الأطفال ، وهم يرمقون ألوان الطعام ، ويشتهون أن يتذوقوها وليس لهم إلى ذلك سبيل ، بل ربما لم تتحرك فيهم شهوة لأنهم لا يفقهون ما يرمقون .

سألت نفسي عن السبب الحقيقي في تلك الظاهرة الغريبة ، فعلت ذلك بأن الإيطالي المستعمر لم يحاول أن يفهم الشعب الأريتري ولم يقدر أنه قد تأصلت فيه ثقافات مختلفة على مر الزمان ، فعامله معاملة الشعوب البدائية وقام بدعايته ممتنناً عقلية الشعب الأريتري ضارباً بشعوره وثقافته عرض الحائط ، بل قل لم يفهمها . من ذلك أنك تجد كتب المطالعة الأولية باللغة الإيطالية تحت على حب إيطاليا وتعظيمها ، وتجد رجال الدين من الكاثوليك يتوددون إلى الشعب بوضع صليب كبير في الكنيسة عليه المسيح مصلوباً في صورة رجل أسود ، وما إلى ذلك . وأما الناحية الاجتماعية فقد نزل الإيطالي إلى ميدان الأعمال اليدوية ، فبعد أن كان الأريتري ينظر إلى الأوربي بعين الاحترام انقلب شعوره إلى ضد هذا حين رأى الأوربي يقوم بتمهيد الطرق والبناء والحمل وجر العربات وغير ذلك . هذا ، وبالرغم من أن الحكومة الإيطالية كانت تحرم على الطليان الاختلاط بالأهالي فعمدت في سياستها إلى تقسيم الأحياء والمناطق والمواصلات إلى قسمين : قسم للطليان وقسم للأريتريين ، سقطت هذه القيود ، إذ سقطت أريتريا وأثيوبيا من يد الطليان ، فكنت ترى الأثيوبي أو الأريتري يستخدم الإيطالي . وقد انقلبت طبقة المحكومين إلى طبقة حاكمين ، والحاكمين إلى محكومين بين عشية وضحاها ، والطليان راضون بهذا قانعون . بل كنت ترى أكثر من هذا ، ترى فئة من الطليان وقد تزوجوا من أثيوبيات أو أريتريات أو اتخذوا منهن خليات ونزلوا إلى المستوى الذي يعيش فيه هؤلاء النساء فعاشوا عيشتهن وسكنوا مساكنهن . وقد كنت أذكر هذا لصديق من الفرنسيين ، فدهش وقال إن هذه الحال وما يمثّلها قد شاهدناها أيام كان الطليان وعرب شمال أفريقيا يعملون معاً في فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى ، بل قد أذهلنا أن نرى أهالي شمال أفريقيا من العرب يعنون بلباسهم ومسكنهم وتعليم أبنائهم على خلاف زملائهم الطليان الذين لم يوجهوا أي اهتمام إلى تعليم أبنائهم فضلاً عن رفع مستوى معيشتهم . تلك ظواهر في أخلاق هذا الشعب المستعمر جعلته يحقق في حمل الثقافة والحضارة إلى الشعب

الأريتري الذي يحفظ بين طياته ثقافة مصرية متمكنة ، تلك الثقافة التي جعلته يثبت أمام الجهود الثقافية التي ركزها الطليان في الدعاية لحب إيطاليا أو التي ركزوها في الدين منذ احتلالهم للبلاد ، والتي كانت مظهرها الدعاية للمذهب الكاثوليكي . وليس أدل على الإخفاق من عدد الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية من بين الأريتريين . وأما مظاهر المدنية التي تراها في أريتريا فهي لصالح المستعمرين لاستغلال البلاد إلى أبعد حدود الاستغلال .

الربيع : دخلت المسيحية أريتريا على يد فرومنتيوس في القرن الرابع الميلادي حين رست به السفينة في ميناء عدول ، فأمكنه أن يدخل المسيحية في المراكز التجارية أولاً حيث يكثر الأجانب من مصريين ويونان نزحوا من مصر ، ثم عاد فرومنتيوس إلى مصر حيث رسمه البطريرك القبطي مطراناً على تلك الجهات (أى الحبشة) والمقصود بها أريتريا الحالية ومقاطعة التيجري تقريباً . ويقوم المسيحيون في أريتريا شعائرهم الدينية حسب طقوس الكنيسة القبطية . ويلاحظ في القداس استعمال السيستم والطبل . وهم يتبعون مطران الحبشة من الناحية الدينية . وقد حاول الطليان أن يستقلوا بالكنيسة القبطية في أريتريا ولكنهم أخفقوا في ذلك ، إلا أنهم استطاعوا بعد أن استولوا على أتيوبيا أن يفصلوا الكنيسة الحبشية عن القبطية في ديسمبر عام ١٩٣٧ ، فعينوا بطريركاً حبشياً مركزه أديس أبابا ، فصارت أريتريا تابعة لهذا البطريرك . ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه بعد رجوع الإمبراطور إذ أصبح الرئيس الديني لأريتريا المطران القبطي الموجود في أديس أبابا . غير أن التطورات الأخيرة بين الكنيستين القبطية والأتيوبية قد غيرت الموقف . فقد وافق المجمع المقدس في مصر على أن يرسم على أتيوبيا مطران أتيوبي ، ولم يتعرض القرار للصلة الدينية التي بين مصر وأريتريا . ويخيل إلى أن هذه المسألة لم توجه إليها العناية الحريّة بها . ومما يذكر بعد هذا أنه كان لأريتريا أسقف يرسم من الأقباط إلى عهد قريب ، وكان يساعده في تادية مهمته عدد من الرهبان الأقباط يحملون معهم ثقافتهم المصرية العربية ، وقد أخذ عدد هؤلاء الرهبان يتضاءل منذ الاحتلال الإيطالي لتلك البلاد إذ لاحظ الطليان خطرهم الثقافي . وقام الطليان ببناء أسقفية كاثوليكية كبيرة في أسمرا محاولين بذلك منافسة المذهب الأرثوذكسي من جهة والتأثير

في الناس بالمظهر الخارجي للدين من جهة أخرى ، وقد ذكرنا أنهم أخفقوا في ذلك . ويبدو لي أنه قد حان الوقت الذي يجب أن ترسل فيه مصر إلى أريتريا أسقفا مصريًا يكون تابعًا للبطريرك القبطي مباشرة أو للمطران الأثيوبي ، ويحسن أن يصبح هذا الأسقف عدد من الرهبان والقسوس المصريين المتعلمين ليكونوا يداً تساعد على استمرار الثقافة المصرية المتمكنة في نفوس الأريتريين بل على إحيائها ، وخاصة بعد أن ثبت إخفاق الثقافة الإيطالية هناك .

وهناك تيار آخر حمل الثقافة المصرية إلى تلك البلاد . فقد قامت الدعوة للدين الإسلامي منذ ظهوره ، فاعتنقته القبائل التي تسكن شواطئ أريتريا ، ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجري وفي جزء من قبيلة البلين وفي معظم البجة وكذلك في كل القبائل المتفرقة المسماة جبرت وقبيلتي الدنا كل والساهو . ومسلمو أريتريا من السنيين ، وهم على المذهب المالكي أو الشافعي . وهناك من الطرق الصوفية : الميرغنية ومركزها مصوع وكيرين ، والقادرية وهي منتشرة بين القبائل البدو ، والسمانية في جبرت ، وكذلك الأحمدية والصالحية ، وتقل الشاذلية والرافعية والحدادية والتيجانية . وقد حمل المسلمون في أريتريا ثقافة مصرية أتتهم عن طريق اختلاطهم بالسودان وكذلك عن طريق الأريتريين الذين يتعلمون في رواق الجبرتي في الأزهر ثم يعودون إلى بلادهم حيث ينظر إليهم بعين التقدير والتعظيم .

ولكن جهود مصر في تنظيم هذه الثقافة التي استمرت طوال هذه الأجيال قد ضعفت أو هانت ؛ فطلبة رواق الجبرتي مثلاً في حاجة إلى تشجيع حتى يحملوا هذه الثقافة صادقة كاملة إلى مواطنيهم ؛ وإنك لتلمس استعدادهم في هذا المساء يدعو إلى الاطمئنان .

العادات : يسترعى نظر المصري في تلك البلاد إما عادات غريبة عنه وإما عادات مماثلة لما ألفه . فما يستوقفه تسمية الأشهر العربية هكذا : رجب — مداجن — رمدان (أو صوم) — فطر أول — فطر ثاني — حج أول — حج ثاني — شفر — ربيع أول — ربيع ثاني — جماد أول — جماد ثاني . وهم لا يتزوجون في رجب ومداجن ورمضان وشفر لأنها أشهر فردية ، وقد يسمح لمن أراد أن يتزوج على وجه السرعة في هذه الأشهر على ألا يكون له إخوة .

ولا يكون الزواج إلا في الأشهر الزوجية وهي الأفاطر والحاجج والأربعاء والأجداث ، كما يسمونها .

والختان معروف عندهم ، فهو للذكور والإناث عند المسلمين والمسيحيين على السواء .

وترى الصبيان يخلقون شعورهم بعد أن يتركوا خصلة من الشعر إما في وسط الرأس وإما على جانبيه وإما مثل عرف الديك أي من مقدم الرأس إلى آخره ، ولكل شكل منها اسم في لغتهم ، وهذا يماثل ما نسميه في مصر بالشوشة والقصة والزعرور وغيرها . ويخلق كذلك البنات شعورهن بعد ترك خصلة من الشعر على الرقبة أو على السوالف أو حول الرأس أو في مقدم الرأس وفي آخره معاً ، وتعرف الأبنكار بترك هالة من الشعر على رءوسهن بعد حلقه .

وللأريتريين معتقدات في قوة الشعر السحرية ، لذلك يجمعون شعورهم بعد قصه أو حلقه فيخفونه تحت شجرة أو في مكان أمين ، خوفاً من أن تذهب به الريح أو يطأه إنسان فيقف نمو الشعر أو يفقد صاحبه عقله « ينشعر » أو تقتشت أسرته كما تشتت شعره . ويعتقدون أن الحظ يأتي من الشعر فيقولون في تعبيرهم : هذا شعره سعد وذاك شعره نحس .

وهم يحتفظون بأظافرهم بعد تقليمها فيدفنونها خوفاً من أن يسألوا عنها يوم الحشر .

وترى الطفل إذا سقطت سننه أخذ قطعة من الصوان وقطعة من الفحم ورمأها مع سنه وهو يقول : أيها الضبع خذي سني الجميلة وأعطني سنك القبيحة . وهذا يذكرنا بما يقوله الأطفال في مصر : « يا شمس يا شمسوسه ، خذي سنة العروسه ، وهات سنة الجموسة » . ولهم في مأكلهم عادات غريبة . لا يأكلون الأرنب ولا قلب الحيوان ، ومنهم من يحرم أكل لسان الحيوان أو رثته أو معدته . ويختلف المسلمون والمسيحيون في ذبح الحيوان ، فيوجه المسيحيون رأس الحيوان عند ذبحه صوب الجنوب كما يتوجهون في صلاتهم ، ولا يأكلون ذبيحة المسلمين كما لا يأكلون لحم الجمل أو الجراد .

أما المسلمون فيوجهون رأس ذبائحهم جهة الشمال الشرقي أي جهة القبلة ، ولا يأكلون ذبيحة المسيحيين ولا لحم الخنزير . وقد قلت لأحد فقهاءهم إن تحريم ذبيحة المسيحيين يخالف الشرع الاسلامي ، وإن الآية صريحة في سورة المائدة

«أليوم أحيل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم» فقال إننا نعتبر المسيحيين هنا مسلمين قد ارتدوا؛ لذلك لا نخالف الشرع إذا لم نأكل ذبائحهم.

ويصنع الأريتريون خبزهم من الذرة أو القمح أو الشعير بدون خيرة على الطريقة المعروفة عند البدو في مصر، فيعجنونه على قطعة ملساء من الحجر أو قطعة من الجلد أو الخشب. وهم يصنعون الخمر إما من الشهد وإما من الذرة أو الشعير. ولهم تقاليد معقدة في حالات الموت: فهم يندبون الراحل بالطبل والرقص ويعددون صفات الميت، ويختلف المآتم باختلاف مركز الميت وسنه. وقد ذكر لي بعض الأريتريين أن الرعاة إذا مروا بمقابر يلقون عليها بعض الطعام واللبن على ثلاث دفعات، وإذا مروا على مقابر أقاربهم يحاجون البقرة ويلقون ببعض لبنها على القبر ذاكرين اسم الراحل ثم يشرب الأطفال ما تبقى من اللبن. وهم يكررون حلب البقر على حسب عدد الراجلين ثم يذكرون في كل مرة اسم الراحل. ولست في حاجة هنا أن أبين مدى اعتقاد الأريتريين في الأحجية والسحر والسحرة. ومما يلفت النظر أسماء الناس فلكل اسم معنى، وتغلب على الاسم صيغة الجملة فتسمع بين أسماء الأعلام المذكرة: «حوار شيك» أي حمار الشيخ، و«اتجاوها» أي أتى في الفجر، و«هامرا باي» أي أضعف الأعداء، و«هارابا» أي أطعم الغريب، و«جبيب» أي غطاء (الأم) و«هاداما» أي هرب (الأعداء) و«بديهو» أي لقيًا. ومن بين الأعلام المؤنثة «أرهبت» أي أراحت «وقربا» أي سعيدة. وقد ذكروا لي أن الأم تطلق عادة على كل من أولادها إسماً ثانياً يكون صفة.

والشعب الأريتري على اختلاف قبائله شعب فيه أمانة مشهورة، وتروى في العبادة، وهدوء في الطبع، وصدق في المعاملة، وإخلاص في العمل. وأشكالهم في جملتها لطيفة: وجوههم سمحة، ولون بشرتهم أسمر مشرب بحمرة، وأجسامهم مستوية. وقد اشتهرت نساء قبيلة بلين بمجاملهن، وتراهن يسترن النصف الأسفل من أجسادهن بقطعة من قماش ملون يضممنها حول خصورهن. وتسير المرأة من نساء البلين بخطوات هادئة رزينة متناسقة، وهي نفور بجسمها النحيل السمري المستقيم كالتمثل المنحوت، وذراعاها سبطتان، وخصرها لا يتحرك في سيرها ولكنه بعيد عن الجمود. وملامح وجهها مستوية رقيقة فيها خفر يضم

سر الجاذبية غير المتكلفة . وقد قال لى أحد أدباء الطليان هناك إن ممثلات السينما فى هوليوود يمكنهن أن يتعلمن من نساء البليين الكثير من سر الجاذبية الجنسية .

الأدب الشعبي : يغرم أهل أريتريا بالأحاجى « والفوازير » . وهذا يندر فى لغات أتيوبيا ، ولكننا نعهد مثله فى مصر . ولهم غرام أيضاً بقصص الحيوانات أو بشرح الأمثال على ما هو معروف فى الأدب العربى . فعلى مقربة من مصوع جبل منفرد على الشاطئ اسمه جادام . ويقول أهل أريتريا إن الجبال أرادت أن نعتد مجلساً فقالت لنذهب إلى الشاطئ ، ولما هموا بالذهاب سبقهم إلى ذلك جبل جادام ، فوصل بمقدمه إلى البحر فطغى عليه وكان مؤخره لا يزال ثابتاً فى الأرض ، فلم يتمكن الجبل من الحركة ، فصاح بزملائه : ليقف كل منكم فى مكانه فوقفت حيث تراها إلى اليوم ؛ ولذلك تجمد جبل جادام يسبق الجبال إلى الشاطئ . ويقولون فى الأمثال : « لا ترتكب خطأ فإنه يجب أن يقف كل فى مكانه كما قال جبل جادام » ويقال أيضاً : « أخطأنا كما أخطأ جادام » .

أما قصص الحيوان عندهم فلا تخلو من مغزى اجتماعى أو سياسى . وإليك مثلاً قصة قصيرة : « يحكى أن رجلين التقيا على قارعة الطريق فتبادلا التحية ، وسرعان ما وضع حمار كل منهما فيه على فم الآخر ، فاستغرب أحد الرجلين وسأل الآخر عن سبب ذلك ، فقال له إن الحمير أرسلوا حماراً قويا إلى الله عز وجل ليحمل شكواهم ويخلصهم من نير الانسان ، لذلك يتساءل الحمير كلما تلاقوا أرجع رسولهم أم لا . المغزى : أن كل مخلوق يتطلع إلى الحرية » . وأما غرامهم بالشعر فعظيم ، وهم يعرفون من أنواعه الرثاء والغزل والمدح والهجاء وشعر الحوادث السياسية . وإليك بعض ما قاله شعراؤهم فى المصريين .

فهذه مقطوعة شعرية نطهها رجل ثرى من أهل أريتريا أيام حكم الرأس أولا وقد قبض عليه الرأس ووضع فى الأغلال ولكنه هرب ، وقد تحير إلى أى الفريقين ينضم : الأحباش أم المصريين ، فقال يناعجى ابنه موسى ويذكر له أنه سينضم إلى المصريين :

« يا موسى يبحثون عن أبىك كل يوم
يقولون لك هو سجين يصنف فى الأغلال

يقولون لك قد قتل وطعن بالخناجر
إن أباك ذاهب إلى جندار مع الخيول الصهباء
إن أباك ذاهب إلى مصر مع السودان الأحماد . »

ثم هذه قصيدة أخرى نظمت أيام كانت قبائل التيجري موزعة بين الأحباش
والمصريين ، وكان الشاعر مع المصريين يعمل في حصن كيرين ، وكان له صديق
انضم إلى الرأس ألولا ، فقال الشاعر القصيدة يخاطبه ، وهو يمتدح المصريين
ويذم الخصم ، ثم يشير إلى ضعفه إذ لا يستطيع أن يثأر من أهله ويناقض شاتميه
ثم يرد التهمة الموجهة إلى خطيبته :

« إن سيدى حاكم مصوع والمكوس (الجمارك)
أما سيدك فخدأة على الشجرة
إذا طارت خطفت المصارين والأحشاء
قد تركتم لنا من الفزع قبائل المنسع والهيجات
وكل من تركهم « ألولا » خلفه نحكمه نحن
ما ذا يعطيكم لتأكلوا سوى الخبز وحده !
يقوم بيني وبينكم بحر واسع
فسيدى يعطى الكساء الجديد إذا بلى القديم
ويجزل العطاء فيملاً يدي بالنقود
متى قلت إني عريان أو إن لباسي ممزق .
هل آخذ ثأري منكم أو أتركه ؟
تعال إلينا فنحن أثرياء
فخمية سيدى لا تقدر فضلا عن سخائه
إن ثأري جائع لكنه لا يرغب في الطعام
إن ثأري ظمآن لكنه يأبى الارتواء
لا يخرج ثأري إلى أبعد من الكلام إلى الناس
ثأري ضعيف لا تقوم له قائمة
فالضعيف يتكلم حين لا يسمعه أحد

يقولون (أى أصحاب الرأس أولا) إني سكران كأتى نمل من الحمر
يقولون إني مجنون كأتى اقتحمت منازلهم
ولكنهم خاطئون فلم أشرب الحمر ولا طرقت منازلهم .
بلغ سلامى يا صديقى إلى الحبيبة إذا مررت بها
ليس جهاها الذى أعلنى وأسقمنى
بل كما لها فى قولها وتماها فى فعلها
ليست عبدة بشعر مجعد سلاحها الكذب
ليست بغيا تجلس أمام كل بيت
إذا أحببت رجلا أنفت مطاردته
وإذا لم تحب الرجل رفضت جميع ماله
هم يقولون إنها بغى كذبا وظلما
إنها قابعة فى دارها فى عيش رغد
أنا مطمئن اليها واثق بها
لذلك أنا ذاهب الآن إلى عملى فى الحصن حيث الضباط . »

مراد لامل

ليلة في فرسوفيا

في إحدى ليالى شهر أغسطس أو سبتمبر ، حين تكون الحرارة في القاهرة قد بلغت أقصاها ، ويحتم على قلوب الناس هم من السعير الملهب ، وفي تلك الأيام الخالية حين كان اسم هتلر يتلألأ في سماء ألمانيا ، بل في تلك السنة التي استضافت فيها ألمانيا أبناء العالم من شرق وغرب ، أعني سنة الألعاب الأولمبية ، كان أربعة رجال من بنى البشر يخرجون مسرعين في جنح الليل من بناء جديد أشبه ما يكون بشكنة ، لكنه كان في الحقيقة مدرسة ، قاصدين إلى غاية يعلمها اثنان منهم على الأقل ؛ لأنهما كانا واثقين في سيرهما ، ويسير إليها الآخران واثقين في الصحبة .

كان الرجال الأربعة يرتدون معاطف لم يبللها المطر ، في تلك الليلة من شهر أغسطس أو سبتمبر ، ولكن البرد كان ينفذ إلى لحومهم بل إلى عظامهم بل إلى أفئدتهم ، فهم لم يكونوا في القاهرة ، ولا في برلين ، بل في فرسوفيا عاصمة الدولة البولونية .

كان الأربعة في سماتهم مزيجاً عجيباً من بنى البشر . ثلاثة قصرت قاماتهم على تفاوت في القصر ، وامتلأت أبدانهم على تفاوت في الامتلاء ، والرابع طويل القامة نحيل الجسد . كان أحدهم قصير القامة ضخيم الوجه ذا لون أبيض أوربي مشرب بالصفرة ، وعينين خضراوين يتلألآن بشيء من حب الفكاهة والطبينة أيضاً ، وهو حليق الشاربين والرأس ، أو ما بقى من شعر الرأس ، فقد أعمل فيهما الموسى ، ولذلك بدا الرأس ضخماً متكوراً . وكان الطويل النحيل أبيض اللون أيضاً ولكنه ذو شعر غزير ، أو أن الشعر كان غزيراً ، فهو حليق اللحية ، ولكن الشعر ترك أترأ أخضر . وقد تدلى من كل جانب من فمه شاربان لونهما يميل إلى الصفرة . أما شعر الرأس فقد وقف عند الجبهة على باب الزوال وضاع الكثير من لمعته وحيويته . والشعر في هذه المرحلة يستجيب إلى الهواء

ليلة في قرسوفيا

في سرعة أو في صعوبة ، فهو إذا عث به الهواء فقد تلك الاستجابة المتناسقة التي هي دليل الشباب .

أما الرجلان الآخران فسحنتهما تدل دلالة كافية على أنهما غريبان عن تلك البلاد ، أحدهما أبيض اللون — أجل — ولكن في بياضه حمرة عميقة قلما تشاهد في أهل الشمال من أوربا ، وهي إن شوهدت هنالك ، اتخذت بريق طيف من أطراف اللون الأحمر التي نراها في الحمر الأوربية وفي النبيذ بنوع خاص ، ودلت على أن صاحبها يكثر من الشراب حتى تأثرت به بشرة وجهه . أما هذا اللون في هذا الرجل فكان فيه شيء آخر يميزه ويدل على أنه من لفح شمس قوية ، قد تكون شمس جنوب أوربا ، أرض تلك الأعناب الخضراء الزاهية التي تجدها ممتدة إذا سار بك القطار من نابولي إلى روما ، أو تلك الأراضي الساحرة القائمة حول خليج سورت حيث تجتمع زرقة الماء بزرقة السماء تغشي الاثنتين غلالة من نور لا تقطع اتصالها إلا الأرض الأرجوانية . ويزيد في جمالها ذلك الدخان الأبدي المتدفق من المارد الرابض في جوف الأرض . أو ربما كان ، إذا لم يكن من أهل تلك البلاد ، من أهل إقليم أوربي في الجنوب من أوربا أيضاً ، إقليم حدائق البرتقال ، ذلك الذي عرف العرب فترة طويلة ولكن إلى حين . ذلك أول ما يفكر فيه الأوربي إذا ما رأى شخصا قريبا إلى لون بشرته ، فهو لا ينتقل بالفكر إلى قارة أخرى ولو إلى الشاطئ الآخر من البحر المتوسط ، فذلك العالم بصحرائه ونخيله وجماله بعيد عليه .

كان هذا الرجل الثالث ذا شارب قصير ، وكان أصلع الناصية وكان بياض الشيب قد طغى على البقية الباقية من شعرة ، وقد وضع على عينيه منظارا يخفي لونهما المائل إلى خضرة ، خضرة زيتية عميقة . أما الرجل الرابع فلا يجهل الناظر إليه أنه من أرض إفريقية ، ومن تلك الأرض التي عرفت الفراعنة ، فلونه الأصفر مزيج من اللبن والبن وجسده الممتلئ يوحي بفكرة عامة عن تمثال « شيخ البلد » المعروف من رسومه بأوربا .

خرج الرجال الأربعة يهرولون في ضوء مصابيح خافتة ، يتقدم البولونيان الجماعة ، وركبوا سيارة أجرة ، فسارت بهم تشق طريقها بين شوارع بعضها واسع وبعضها ضيق إلى أن وصلت أمام بناء نفخ شاهق ، أول ما يلتفت النظر إليه باب كبير من الحديد المذهب . وأمام هذا البناء ساحة كبيرة مرصوفة يحيط بها سور

قصير ، وفي هذه الساحة صفت هوائد عدة . وأسرع البولونيان إلى مأددة منها على مقربة من السور في الجانب الآخر وتبعهما المصريان ، فإذا النهر يجري تحت تلك الساحة ، وإذا هم يشرفون على منظر ساحر .

جلس الأربعة ، وأسرع المضيفان فطلبيا من الخادم شيئاً لم يتميز المصريان منه إلا كلمة « فودكا » ؛ فقد ألفا هذه الكلمة منذ وطئت أقدامهما تلك المدينة التي تكاد تكون روسية في مشربها . وجاء الخادم بعد قليل بزجاجة كبيرة مليئة بالفودكا ، وأربعة أقداح ، وجلس الأربعة إلى الشراب ودار بينهم الحديث .

كان هذا البناء الفخم ناديا لرجال الجيش يسكرون فيه ويرقصون ، ولا بأس من دخول بعض الضيوف إليه . وأكثر الضيوف عادة من النساء . ولم يلبثوا إلا قليلا حتى كانت أنغام الجاز تتراعى إليهم بطيئة ساحرة أحيانا ، فإذا هي تانجو أو رومبا ، أو سريعة أخاذة فإذا هي فوكس تروت . وأخذت الفودكا تتمشى في مفاصلهم سريعا ، فتبدل الجو البارد إلى دفء أشبه شئ بدفء إفريقية ، ولعلت مياه النهر أمامهم فذكرت اثنين منهم بنهر آخر بديع ولكنه عظيم ، وبدأ ينسيان العالم إلا تلك الجلسة السعيدة ، غابت عنهما معالم الزمن . وهل لدى الإنسان ساعات أسعد من تلك التي ينسى فيها الزمن !

كان الحديث يدور بين الأربعة متقطعا ؛ إذ لم تكن لديهم رغبة في البحث العميق ، ولم ينتظم غير ملء الأقداح كلما أفرغ أحدهم في جوفه تلك النار المذابة . حتى إذا أتى الأربعة على الزجاجة قال أحد البولونيين : هيا بنا . وقام المصريان — في شئ من التردد — من تلك الجلسة اللذيذة .

ركب الأربعة عربة يجرها جواد أعجمي ، فسارت بهم على مهل في الشوارع الضيقة والمتسعة لتلك المدينة القديمة ، وربما سارت في ذات الشوارع التي اخترقوها . ولكن كيف يعرفها الأجنيان ! إذ لم يقيا في العاصمة البولونية قبل ذلك إلا بضعة أيام . ولو أنهما عملا على تعرف الشوارع لما تيسر لهما ذلك الآن . وكيف يستطيعان وقد ملأت الفودكا رأسيهما بنشوة أضفت على العالم من حولها غلالة شفاقة لا تكاد تتميز منها الأشياء ، ولكنها لامعة .

سارت بهم العربة إلى أن وقفت أمام كومة من الظلمة هي بناء شامخ له باب ضيق عليه حارس ، ونزل الأربعة مسرعين ودخلوا في طريقة طويلة سالموا في آخرها معاطفهم إلى فتاة جميلة . ومن باب قصير دخلوا إلى ردهة واسعة .

كانت الردهة غاية في الإناقة ، وقد صفت حولها موائد للجالسين ، وفي وسطها مكان فسيح من الخشب يستعمل ساحة للرقص أحياناً ، وللعرض أحياناً . وكانت الردهة مضاءة بنور أبيض ضئيل يحاكي ضوء القمر في هدوئه وفي خفوته ، وكان هذا النور الخافت يترامى من مصابيح رسمت على شكل أقمار ونجوم ، في قبة الردهة التي كان لونها أزرق صافياً يحاكي لون السماء . وكانت الموسيقى تعزف رقصة تانجو ، في حين أخذ اثنان من الراقصين يقومان بعرض الرقصة .

جلس الأربعة إلى مائدة ليست في الصف الأول من المتفرجين ، لجميع الموائد في ذلك الصف كانت مشغولة ، وجاءت في الحال زجاجة الفودكا الكبيرة والاقداح الأربعة .

كان المصريان يشعران أنهما احتسبا فوق طاقتهما من هذه الحمر الشديدة ، ولكنهما في سبيل مجارة مضيفيهما ، أو لأنهما خافا أن يضطرا إلى نوع آخر من الشراب ، أو بسبب ما تجره الحمر من فقد الإرادة ، لم يعترضا على الفودكا . امتلأت الكؤوس وأخذ الغريبان يجيلان النظر فيما حولهما ، فإذا الحاضرون على ما يظهر من رجال الطبقة الممتازة ، وإذا مجموعة من الرجال في ثياب السهرة الأنيقة ، ومجموعة من النساء في أغلى الثياب وأبدعها زياً ، غير أن العجيب في هذا الجمع أن أجل السيدات وأكثرهن فتنة كن يجلسن عادة مع رجال متقدمين في السن ، أبيض شعر الرأس منهم أو فقدوه . وهكذا كان حظ هؤلاء النساء الطامعات في الزينة والثراء . إن من حظهن أن يبذلن شبابهن لأكثر الرجال قدرة على إرضاء رغباتهن في المال ، وهؤلاء يكونون عادة من الرجال الذين أنفقوا زهرة شبابه في جمع الثروة ، فإذا نالوا شيئاً منها ، كان شبابه قد ذهب ، وهم على الأقل يستطيعون أن يتعلقوا بأذيال الشباب ، بأن يصبحوا هؤلاء الفتيات الجميلات . وهكذا ستظل الحال دائماً ما دام الذهب هو المسيطر على الأمور . وستجد دائماً رجالاً أثرياء يتمتعون بشباب الفتيات ، وفتيات جميلات يبعن شبابهن من أجل المال .

كان الرجال الأربعة قد ملئوا خمراً بحيث غشيت أبصارهم غشاوة من أثر الحمر ، وكانهم ينظرون إلى الحاضرين من خلال ضباب ، وصاروا يتكلمون بأحاديث متقطعة أكثرها دعوة واستحسان للمزيد من الشراب ، تقطعها ضحكات صغيرة على عبارات تافهة . غير أن أحد المصريين كان لا يزال فيه بقية من قوة الملاحظة ،

ولم يكن يستطيع أن يحول نظره وبقية أفكاره عن اثنين جالسين بحيث لا يرى منهما غير الظهر ، إلا إذا التفقا قليلا إلى الخلف . كان الرجل بدينا ذا رأس أملس إلا من حفاف من الشعر الأبيض ، على أنه يرتدى ثياب السهرة السوداء من خير الأقمشة ، وقيصره وياقته غاية في النقاء ، وهو حليق اللحية والشارب ، وقد غصنت وجهه التجاعيد من كل جانب ، ولا سيما في أسفل الرقبة . وإلى جانبه فتاة شقراء هيفاء أنيقة ، وقد ارتدت ثوباً من الحرير الأزرق ، وتعرض ظهرها إلى ما يقرب من الخصر . من وهو ظهر جميل في تكوينه جمالا يفوق التصور . وقد فكر المصري لعل هذا الظهر هو الذي سلب لب صاحبها ، ثم ابتسم لفكرته .

كان الرجل يدخن سيجاراً غليظاً ورأسه إلى الوراء وأمامه الكأس الالامعة ، أما الفتاة فكانت منحنية إلى الأمام قليلا ، وقد وضعت رجلا على رجل وأخذت تدخن سيجارة ، وأمامها الكأس .

ولقد كان ظهرها في جماله والحنائه القليل كأنه يتكلم . إنه لا شك يعبر عن سأم ، سأم قليل ليس معناه أنها ستحاول أن تغير من هذه الحياة ، بل معناه أنها ستظل ترتاد هذه المنتديات الليلية ، فهي مسكن يقيها شر التفكير في حياتها . ومن قال إن المسكن من الأدوية يشعر بالصحة ! إنه يخفي الألم الكامن .

كانت المناظر تتتابع ، فمن راقصة تكاد تكون عارية تعرض فنها ، إلى مغن هرم حسن الصوت اكل منهما يعرض فنه ثلاث مرات ، وبين هذا وذاك أدوار الرقص يشترك فيه بعض الحاضرين . غير أن هذا السيد لم يقم بمراقبة زوجته أو صديقته ، واستمر جالسين : هو يدخن سيجاره ، وهي بظهرها الحلو الجميل المنحني قليلا تدخن سيجارة ، أو ترتشف جرعة من الكأس . وليس ثمة شك في أنه لو طلب إليها المراقبة لاتصبت بقامتها الهيفاء ، ولخاصرت هذا الجسد البدين . إنه جزء من واجبها !

عاد دور العرض ، وكان الرجل الخمور لا يزال ينظر إلى الجسد البدين ، وإلى جانبه الظهر الجميل المنحني قليلا ، يمثل السامة والملل ، فإذا بهذا الظهر ينتصب فجأة ليرقب شيئاً ، وإذا بصوت يحدثه الحرير من تغير أوضاع الجلوسات بين مئات من النساء لا ريب في أنهن أخذن ينتبهن باهتمام إلى العرض .

التفت الرجل فإذا فتى قوى الجسم ذو شعر أصفر غزير ولكنه قصير ،
ترتدى ثياباً زرقاً على مثال شباب الفلاحين الروس ، ولكنها من الحرير
الازرق الفاتح البراق ، وهو جميل الصورة جداً ، غير أن كل حركة في جسمه تتم
عن رجولة .

وعزفت الموسيقى في قوة وحرارة رقصة روسية ، وأخذ الشاب ينثني على
ساقيه ثم يقفز ، وكان سريعاً رشيق الحركة ، وكانت الموسيقى خاطفة وقصيرة ،
وانتهى الرقص سريعاً ، وخرج الفتى بين تصفيق حاد ، أغلبه من النساء الجميلات .
لم تمض فترة حتى عادت الموسيقى الى عزف رقصة روسية من نوع
« الجوپاك » وعاد الفتى الى الرقص ، وكان سريعاً ورشيقة وقويا ، وكان اهتمام
النساء واهتمام الظهر الجميل بادياً للرجل المصرى ، حتى كاد يرفع عن عينيه شيئاً
من غشاوة الحمر .

وعلى حين فجأة وإثر قفزة هائلة من الراقص ، دوى فى أرجاء المكان صرخة
امرأة وشهيق .

وهب الجالسون الأربعة ؛ إذ قال أحد البولونيين منهم : « هيا بنا » . وهرول
الأربعة إلى الخارج يترنحون ، ولم يستطع المراقب منهم أن يتبين وسط الدخان
والحمر إلا أن صاحبة الظهر الجميل لم تكن هى الصارخة .

من محمد

الكنيسة الشرقية

إنه لمن دواعي الاغتراب وآيات التوفيق أن تتشعب الحركة الثقافية في الشرق الأدنى فتتناول كل يوم ناحية جديدة من الفكر الانساني . ولما كان للأبحاث التاريخية القديح المعلى فيما يتوفر عليه قادة الرأى من مواضع النظر رأينا الإيدلاء بكلمة عن الكنيسة الشرقية وتطورها على مر الأجيال .

تقول الكنيسة الشرقية ، وسرعان ما يدفعنا الحرص على نفي اللبس أن نعرفها بأنها ليست مقصورة على كنيسة معينة من حيث العقائد والطقوس والمذاهب والادارة إلى غير ذلك من شتى العناصر الجوهرية أو الثانوية ، بل هى الكنيسة الشرقية فى أعم معانيها ، أى مجموعة الكنائس المسيحية التى نشأت فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، فنمت وشبت على سواحلها ثم امتدت إلى العراق وفارس والحبشة ثم إلى أوروبا الشرقية وحتى إلى الهند والصين . تلك الكنائس التى بقيت ، مع اختلافها فى بعض المناحى المذهبية أو مناط الإمامة الروحية ، متحدة اتحاداً تاماً فيما يتصل بنواة العقائد المسيحية

من خصائص البحث العلمى فى القرن التاسع عشر الرجوع إلى المصادر التاريخية والعناية بدرس التيارات المذهبية فى نشأتها . ولا غرو أن الوقوف على العوامل الأولى التى تأثر بها مذهب من المذاهب الروحية وطبيعة البيئة الاجتماعية التى أسلست له قيادها ثم وسمته بعقليتها خير معوان على تميز عناصره الفعالة وتحديد علاقته بما تقدمه من المذاهب التى تفرع عليها . فى رأى « تين » أن العبقري وليد جنسه وبيئته وزمانه ليس إلا . ويزعم هيجل أن تاريخ الفكر سلسلة متصلة لتفاعل مذهبين متناقضين يأتلفان فى مذهب جامع الأضداد . وجلى أننا مع نبذنا ما يطبع هذه الآراء من الجبرية المتطرفة يحق علينا درس الكنيسة الشرقية فى نشأتها لنستوعب بعض خصائصها الحاضرة . وقد جلت أبحاث ليف

من المؤرخين مثل دوشين Duchesne وهرنك Harnack وباتيفول Batiffol وفستجيير Festugière ما تميزت به هذه النشأة ؛ ونورده ملخصاً فيما يلي :

أولاً أن المسيحية — أو بالأحرى المسيحية المطلقة — قد نشأت في القدس (الجليل واليهودية) . تلك ملاحظة بليغة المعنى على سذاجتها ، فهي تنبئ عن ارتباط المسيحية بعقائد العهد القديم . فلا ننسى أن تعليم المسيح جاء مكماً لتعليم موسى وسائر الأنبياء ، وأن العهد الجديد ليس في نظر المسيحيين إلا اكتمالاً لتطور العهد القديم أو تحقيقاً لأمانيه على صورة واقعية عملية لا مجرد مثالية . كانت هناك الكتب المنزلة ، كانت النبوءات المدوية ، كانت الصلوات القائمة والطقوس الصارمة . وعاش المسيح طوال السنين في ذلك العهد يدين بدينه ويلتزم كل فريضة من فرائضه . فالكنيسة الشرقية منذ نشأتها مشبعة بهذه الروح الشرقية التي طبعت العهد القديم بطابعها الخاص . ولا تبرح ذاكرة سلالتها معتزة بشرف نسبها .

غير أن هذا النور الذي انباج في الشرق قد فاض على عالم ساد نظام روما فترعرت الكنيسة الشرقية في محيط روماني . سيطرت الإمبراطورية الرومانية على العالم المتحضر ولا سيما إقليمه الشرقى وفيه سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى . ولم تكن هذه البلاد الرومانية أشلاء لجسم عديم الحياة بل كانت تؤلف وحدة جغرافية اقتصادية سياسية متماسكة الأطراف . وحسبنا دليلاً على انتظامها في تلك الوحدة الحية ما بقى إلى يومنا من شبكات الطرق الرومانية التي كانت تمتاز العالم المتمدن منتهية إلى روما قلبه النابض . فلم تكن الكنيسة الشرقية منعزلة عن الغرب ، بل ظلت متصلة به أوثق اتصال . توفد إليه أعلامها وتبادل به أسباب الحضارة . فقد انتشرت التجارة بين مختلف الأقطار ، وكانت الجيوش الرومانية تحتل حواضر البلاد الشرقية ، والموظفون الرومانيون يتقاطرون إليها يزودونها بالنظم الاقتصادية والسياسية . فلا عجب أن تتأثر الكنيسة الشرقية بتلك النظم وما يسمها من الحزم والدقة .

وهناك عامل آخر جدير بالاعتبار ، هو البيئة اليونانية التي درجت فيها الكنيسة الشرقية . وقد أفرد الأستاذ فستجيير Festugière في تحليل

هذه البيئة ومقارنته روحها بالنفسية الجديدة صفحات ممتعة تجلو سر الحقبة الممتازة من تاريخ الثقافة العامة . وفي الواقع أن إسكندر الكبير ضرب بسهم وافر في خلق روح شاملة تعلو الفروق الجنسية والتزعات القومية ، روح وئام وإخاء انتشرت في القرون الثلاثة السابقة لعهد المسيح وسميت بالهلنسية hellénisme لما يطبعها من الثقافة اليونانية . وإذا شئنا إجمال خصائصها بكلمات معدودة قلنا إن قوامها تحقيق المثل الأعلى للإنسان من حيث هو إنسان في حمى النظام الذي تصطنعه المدينة اليونانية . ولا يخفى أن الشخص والمدينة كانا محوري الهلنسية . ولا يتسع المقام هنا للإفاضة في تحليلها . فنجترى بالإشارة إلى أن المسيحية على العموم والكنيسة الشرقية على الخصوص قد تلقت هذا التراث القديم وأفرغته في قالب جديد أو ثقفت فيه روحاً جديدة هي رسالة المسيح الفائقة الطبيعة . وقد غرّ هذا الاصطباغ بالهلنسية بعض الباحثين فتوهموا أن الثقافة المسيحية مجرد طور من أطوار الثقافة اليونانية ، ولا سيما من الناحية الفلسفية . ولا يخلو هذا الحكم من تحيف لأصلية الرسالة المسيحية وتفوقها في جوهرها على كل ما سبقها من المبادئ النظرية . غير أنه يجب الاعتراف بالآثر اليوناني في الكنيسة الشرقية بل في الكنيسة جمعاء . وفي الحق أن المدن التي طافها الرسل لنشر الرسالة الجديدة كانت مدناً يونانية ولغة التخاطب والفكر كانت اليونانية . وقد ظل التعبير بهذه اللغة شائعاً حتى أوائل القرن الثالث ، وكان جميع آباء الكنيسة الأولين حتى أكليمينضس الروماني Clément de Rome يكتبون بها . فلا يغيب ذلك عن ذهننا حين ننظر إلى كنيسة الإسكندرية في القرنين الثالث والرابع بل إلى بعض الكنائس الشرقية في أيامنا هذه وما يتخلل أدعيتها من العبارات اليونانية .

ويجمل التنويه في هذا المقام بأمرين : أولاً ، ما عانتها الكنيسة الشرقية كشقيقتها الكنيسة الغربية من ألوان الاضطهاد في نشأتها الأولى إذ كانت الوثنية في عنفوانها . ولئن تأتى للمسيحية أن تخلع الأصنام من معابدها وتبث الروح الجديد في مجتمع يدين بأديان من طقوسها ما يندى لها الجبين فلم يتم لها هذا النصر إلا بما سفك شهادتها من دمائهم في كل بقعة من الإمبراطورية الرومانية . وكان للشرق في هذا الاستشهاد نصيب مجيد : ثانياً ، أن الرسالة المسيحية لم تظهر على صورة فلسفة نظرية لا يدركها إلا الخاصة من أعلام الفكر

الكنيسة الشرقية

بل كانت موجهة إلى عامة الشعب من جهلاء وبؤساء ، تبعث في قلوبهم النور مع الرجاء . ولا أدل على تأثيرها في تلك النفوس الساذجة من رسائل القديس بولس ولا سيما رسائله إلى أهل كورنتيا .

ذلك شأن الكنيسة الشرقية من حيث نشأتها . أما نموها وانتشارها على سواحل البحر المتوسط فصفحة مجيدة من تاريخ الفكر في الشرق الأدنى . كانت الكنيسة الشرقية حلقة الاتصال بين التعاليم المسيحية والثقافة القديمة من يونانية ولاينية . وقد تركت هذه الحركة الفكرية والدينية معاً في بعض مراكز هامة ، أخذ كل منها يوجه الفكر وفقاً لمزاياه الإقليمية والتاريخية . فأولى الكنائس شأنًا من حيث النظر في مضمون الوحي والرسالة المسيحية هي دون مرآة كنيسة الإسكندرية . ولا غرو فقد كان للإسكندرية قبل المسيح تاريخ مجيد من الناحية الدينية نفسها ؛ إذ تلاقي فيها الوحي الإلهي والحكمة اليونانية بأعمال المثقفين من اليهود ولا سيما فيلون الإسكندري . والواقع أن ترجمة العهد القديم إلى اليونانية ومحاولة شرحها شرحاً رمزياً على نمط التفاسير اليونانية القديمة مما أنهج السبيل إلى قبول المسيحية في معشر المثقفين . وتاريخ مدرسة الإسكندرية القديمة أشهر من أن يحتاج إلى التعريف . فلا يخفى أن الإسكندرية كانت في القرنين السابقين للمسيح المركز الحقيقي للثقافة العامة في البلاد المتمدنة . أما ما يخلق بنا الإشارة إليه فهو أن الإسكندرية أصبحت أيضاً في القرون الأولى بعد المسيح مركزاً هاماً للتفكير الديني . ولا نغنى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة فحسب ، بل كذلك تعاليم كنيسة الإسكندرية والجامعة Didascalée التي أنشأها أكليمنضس الإسكندري ، وكان نبراسها أورجينس Origène . وقد بلغت أوج المجد في القرنين الرابع والخامس على عهد القديس أثناسيس Athanase . وكيرلس Cyrille . فما أحرانا أن نتعمق تاريخنا الثقافي والديني في هذه الحقبة وهي حافلة بمفكرين ، مجددين ذوى رأى وإقدام يقدرون الحق قدره ويرتضون الاضطهاد في سبيل الدفاع عن عقائدهم مضحين بحياتهم إخلاصاً لإيمانهم . فمن ذا الذي يتتبع القديس أثناسيس مثلاً في نضاله عن العقيدة التي قررها مجمع نيقية Nicée ولا يأخذه العجب .

لقد ذاع صيت الإسكندرية بشهادتها وعلمائها ، وتمجدت الكنيسة المصرية

الكنيسة الشرقية .

قاطبة برهبانها وأديارها . فهناك القديس أنطونيوس الشهير ، وهناك مئات بل ألوف من النساك الذين ملأوا الديار المصرية صوامع تفوق الحصر . كانت معينا لا ينضب للحياة الروحية الحققة . ولقد أثرت هذه الروح الدينية المصرية في النصرانية بأسرها ؛ إذ تلقت المسيحية عنهم « آباء البرية » طريقة خاصة للتأمل والتعبد والتنسك مازالت مثالا يحتذى . وما الأديرة القائمة في مصر حتى الآن إلا آثار لما كانت عليه الحياة الروحية في الكنيسة المصرية طيلة القرون الستة الأولى . وعلى الكنيسة القبطية اليوم ، وهي وريثة كنيسة الإسكندرية ، إحياء هذا المجد ورده غرة في جبينها .

وإذا انتقلنا إلى سورية ألفينا مركزاً آخر للكنيسة الشرقية في مدينة أنطاكية ، تلقت كالاكندرية التراث اليوناني بتغذيتها بالثقافة اليونانية . وقد اتخذها أباطرة الرومان مقراً لهم حيناً بعد حين . وفي هذه الحاضرة بدأ المسيحيون نشر دعوتهم بين الأمم غير الإسرائيلية ، وفيها لقبوا لأول مرة بلقب « أتباع المسيح » christianoi . وقد طارت شهرة أنطاكية لإقامة القديس بطرس زعيم الحوارين فيها قبل انتقاله إلى روما حيث استشهد . وامتازت أنطاكية من الوجهة الفكرية بصبغتها الوضعية ؛ فكانت أشد ميلاً إلى التعليم الأرسطي . فبينما كانت الاسكندرية متشربة بروح الأفلاطونية ، نازعة إلى التفسير الرمزي ، تمسكت أنطاكية بالتأويل الحرفي الأقرب إلى النص ، وأنعمت النظر في إنسانية المسيح وميزاتها البشرية على تقيض الاسكندرية ومدرستها اللاهوتية . وهذا التباين في الاتجاه العقلي من الأسباب التي أدت إلى الخلاف الذي نشب بين الكنيستين . وأشهر ممثل لكنيسة أنطاكية القديس يوحنا فم الذهب ، فهو أعظم خطباء القرن الرابع ؛ فقد توفّر على إلقاء المواعظ طيلة حياته الأسقفية واضطهد لصراحته في الرأي وثباته على العقيدة .

أما كنيسة أورشليم فلم تنل من الشهرة الثقافية ما نالته الاسكندرية وأنطاكية . نعم كانت أورشليم مصدر الدعوة المسيحية ، وفيها أخذ الرسل ينشرون الدعوة بين اليهود . بيد أنها لم تكن من المدن الهيلينية الأصلية لتمسكها بتقاليدها اليهودية ونفورها أشد النفور من كل محاولة لصبغها بصبغة يونانية . فعذّب ذبوع الديانة المسيحية فيها ظلت ردحا من الزمن تنزّو إلى اليهودية

الكنيسة المشرقية

بشيء من العطف حتى اكتمل تطورها النفساني من حيث إخلاصها للرسالة المسيحية الصرفة .

ولسورية والأصقاع المجاورة فضل آخر على الكنيسة الشرقية ، هو إنماء ثروتها الفكرية بثقافة اللغة الآرامية السريانية ، تلك الثقافة التي أنجبت أعلاماً من طراز أفرهاط وأفرام ويعقوب . والقديس أفرام هو الإمام الأكبر للكنيسة السريانية ، شرقياً وغربياً ، فسر الكتاب المقدس وألقى المواعظ ووضع الأناشيد إلى غير ذلك من الأعمال الروحية . ويقترن بذكره اسم ناسك آخر تضوّعت تقواه في الأقطار السورية هو القديس مارون أبو الطائفة المارونية .

وأخيراً نتوجه بأنظارنا إلى الكنيسة التي أصبحت بعد القرن الرابع مركز الدائرة من الكنائس الشرقية قاطبة أي كنيسة القسطنطينية . استظهر قسطنطين الكبير على أعدائه فاعتنق الدين المسيحي ، وشاء أن تكون روما رأس المسيحية . فغادرها ليؤسس مدينة جديدة تصبح رمزاً للإمبراطورية الحديثة . فبنى القسطنطينية على ضفاف البوسفور ، وانتقل إليها مع حاشيته . وكان لهذا الحدث خطورته في تاريخ الكنيسة الشرقية ؛ إذ تحولت به نقطة الارتكاز الثقافية من الغرب إلى الشرق . كان قسطنطين يحاول أن يفصل الشؤون الروحية عن الشؤون المدنية على ما يقتضيه المذهب المسيحي . ولكن السلطة المدنية أخذت من بعده تفتت على حقوق السلطة الروحية مما أنزل أحياناً الكنيسة ورؤساءها منزلة التابع للإمبراطور البيزنطي ، فأدى هذا الاغتصاب إلى اعتقاد أن الدين والجنسية قد توحدوا ، فعانت الكنيسة الشرقية — ولا تزال بعض أقسامها تعاني إلى اليوم — صعاباً جمة من جراء هذا الاعتقاد الفاسد .

أصبحت القسطنطينية أعظم مدينة في الإمبراطورية ودعيت روما الثانية . فكما أصبحت خليفتها من الوجهة السياسية ، حاولت شيئاً فشيئاً أن تصبح أيضاً خليفتها أو على الأقل نظيرتها من الوجهة الروحية ؛ فوفقت في ذلك بعض التوفيق إذ أصبحت في القرن الخامس إحدى البطريركيات الشرقية الأربع (وهي أورشليم وأنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية) .

ولابد من الإشارة في هذا الصدد إلى النزاع الذي شجر بين الكنيسة الشرقية

الكنيسة الشرقية

والكنيسة الغربية في القرن التاسع وأدى إلى انفصال الجزء الأكبر من الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية لأسباب لاهوتية في معظمها — منها الخلاف على الإمامة الدينية التي أنكرها «الارثوذكس» على بطريرك روما أي البابا. وعلى كل حال يجب الاعتراف بجلال الثقافة البيزنطية، وكان مصدرها كنيسة القسطنطينية. فقد عاشت هذه الكنيسة في كنف الإمبراطورية أحد عشر قرناً (من القرن الرابع إلى القرن الخامس عشر) بثت فيها روح حضارة مكينة، لها مزاياها الفنية وخصائصها الأدبية والروحية. فهناك كنائس من الطراز البيزنطي قد انتشرت في سورية وفلسطين ومصر. وهناك أدب بيزنطي متشعب الأطراف، حافل بألوان الفكر. وهناك تصوير بيزنطي تزييه الروح الدينية البيزنطية. وهناك شرع محكم الوضع من وحي بيزنطي يرقى عهده إلى جوستينيان. وهناك موسيقا بيزنطية تتجلى إلى اليوم في أناشيد القداس وسائر الترانيم الكنسية، وهناك على الأخص كنيسة شرقية بين ظهرانيتها تعد سليله الكنيسة البيزنطية. وقد احتفظت بلقب «الروم» لا تمسكاً منها باللغة اليونانية — فكثير من الصلوات الآن تتلى بالعربية — ولكن إشارة إلى مصدرها واتصال طقسها وروحيتها بالكنيسة البيزنطية. إنه، والحق يقال، مما يثير العجب أن نرى في القرن العشرين كنيسة مثل كنيسة «الروم» قد أصبحت عربية من حيث اللغة والمشارب والعقلية وهي تحتفظ مع ذلك في غيرة فائقة بطقس مجيد عريق متشعب بالشرقية البيزنطية يردد في نغمات ألحانه شعور الملايين من المؤمنين الذين استوطنوا الإسكندرية أو القسطنطينية أو ضفاف العاصي أو ربوع لبنان . . .

هذه لمحة سريعة لم نعرض فيها لاتصال الكنائس الشرقية بالعرب الفاتحين أو لنشاطها في محيط الخلافة الإسلامية. وكان بودنا لو يتسع المجال للإفاضة في الحديث عن حالة الكنيسة الشرقية عند الفتح الإسلامي في الشام ومصر، وعن آثار الكثيرين من أبنائها في عصر الأمويين والعباسيين، ولا سيما من نقلوا العلوم اليونانية إلى السريانية والعربية، وتوفروا على الأبحاث التاريخية. وخير ما نختتم به هذا العرض الموجز أن الكنيسة ولدت ونمت في محيط روماني، واستوحت الثقافة اليونانية وارتوت من منهل إسرائيل مع اهتدائها بالنور

الكنيسة الشرقية

الذي تشعه رسالة المسيح الفاتحة الطبيعة . فهي في قسميها الشرقي والغربي كنيسة واحدة نمت إلى أصل واحد وتستمد الحياة من مصدر واحد . على أن كنيسة الشرق الأوسط صارت عربية بترعرعها في بلاد عربية . وهي فوق تشبعها بالروح الشرقية والعقلية الشرقية مصرية في مصر ولبنانية في لبنان وسورية في سورية وفلسطينية في فلسطين ، ومن ثم كانت الوسيط الطبيعي للتفاهم بين هذه الأقطار الشرقية والبلاد الغربية على اختلاف ما يفرق الشرق والغرب من أساليب التفكير .

الإب ترواني

تمرد...

أنا صَبٌّ بعدائي أنا صَبٌّ باكتئابي
أنا صَبٌّ بلظى سُخْطِي ، حَفِيٌّ باصطخابي
أنا مرتاح إلى ثورة نفسي ، واضطرابي
أنا راض بانفرادي مستخفٌ باغترابي
أنا مسرور بتجديفي ، وشكِي ، وارتيابي
أنا جذلان بما أسقاه من سُمٍّ وصاب
أنا هيمان بآلامي ، وجرحي ، واحترابي
إنها مبعث إقدامي ، وهزئي بالصعاب
إنها تريق إحساسي وفكري وشبابي
إنها زادي ، في الصحراء ، إن شحَّ سراي
أنا لا أسأم إنشادي ، في القفر اليَبَاب
أنا لا يرعبنى الليل ، وإن طال السُرى بي
أنا لا تفضحني الشكوى ، ولو فاض مصابي
إن شكواي بنُشائي ، وشُهبي ، وحرابي

*

أنا للكوخ ، وللسرداب ، لا للقصر ، فني
وتخفق الريح ، في الأسبال ، ترجيعي ولحني
لاحتضار النور ، في ليل المساكين ، أغني
وتخلف القوت ، في بطن الفقير المتمني

ولأَنّات الحزاني أهدم الدنيا وأبني
 لا بتسام اليأس المسلول ، إشفاق وحزني
 لا لتكشير الذي يَألم من عجز وُجُن
 للهات المَرهق المكدود ، تسبيحي ويُعني
 أنا للبؤس ، وفي البؤس ، أعاصيري ومزني
 وعلى الغُبن ، وفي الغُبن ، نصالي ومجني
 أسكب القلب ، بأقداح المُعني لا المُعني
 أخلع الروح على المضي ، وأرمي المتجني
 قلمي مني ، ولن يُشتق ، إلا البأس ، مني
 أصيد ، في الحق يمشي لم أخنه أو يخنني

*

أنا عرييد ، على الباطل ، كالسيف الأغر
 لا يَفْلُ الظلم من حدي ، ولا يُطفئ جهرى
 مشحذى مقرعة الباغى الذي يوغر صدرى
 ويريق بسمة الحق ، دجى الظلماء تغرى
 أنا لا أبكى ، من العبء الذى يقصم ظهري
 لا ولا أكسر جفنى لمن يغصب زهرى
 بل أَرعد العُدّة الكبرى لمن يعنيه قهرى
 وتراى أطم الجانى ، ولا أوليه عذرى
 أنا غريد ، وإن لَحّت غراباً وسط فقر
 وتروى حرّ ، فلن أطرب إلا كل حر
 أنا ناي ، فى فم المظلوم ، لا يبطل سحرى
 ترتى أشجائه الحرّى ، بأضلاعى ، وتسرى
 وهى ، فى مجرى دمائى ، حرة حمراء تجرى
 فأزجّيه ، إلى الدنيا ، زئيراً من هزبر

أنا بحر أترع الآفاق ، من سيلي ورفدي
أحبك السحب ، وأرويهن ، من يرق وورعدي
وأريها كيف تطفى الثورة الهوجاء عندي
ألتقي البر ، وأسقيه أجاجي دون شهدي
إن هذا البر قد أنتن ، فليغسله قدتي
إن هذا البر موبوء بما يضني ويردي
لم يكن مستوطن الأزهار : من رند وورد
إنه مستنقع الآفك ، والطاغى الآلة
ويل هذا الآسن المغلول ، كم يحفز حقدي
سوف يهتز ، على طمئي عباب غير وغد
هو جاري ، ولقد أصدق ، للجيران ، عهدى
سوف أغزوه ، بتيارى ، وأبنى فيه مجدى
وسأحي ، فيه ، برّ الناس : من رنّ وعبد
مرحباً بالبر ، لم يحكه سوطُ المسببة

[حمص]

مذير الحسامي

ESQUISSE D'UNE
PSYCHOLOGIE DU CINEMA
André MALRAUX

خلاصة من بسيكولوجيا السينما

[نلفت إلى هذا المقال المنتع جميع القراء الذين يعنون بدقائق
السينما لا سيما من النواحي التي عني بها الكاتب الكبير وهي
نواحي الانشاء والاخراج والعرض] .

١

لو أن جيوتو أو حتى كلويه جاب المعمورة من طرف إلى طرف ، لما صادف
تصويراً ينكره أو يحده — رغم كل الفوارق — غير مألوف لديه ، ولسهل
التفاهم بينه وبين مصوري الفرس والصينيين ؛ فإن مشا كل التعبير عن المرئيات
بالتصوير كانت واحدة بالنسبة للجميع .

ولو حذا جذوها روين أو ديلاكروا لبدا له كل تصوير يصادفه عتيق
الطراز ، ولاستعصت لوجاته هو على فهم المصورين من غير الأوربيين ؛
فإن وسائل تعبيره عن المرئيات تباين وسائلهم . ذلك أن مصوري الفرس
والصينيين كانوا لا يأبهون ترفعاً بأصول الرسم المنظور من حيث وجوب إظهار
العمق ، واتساق الأبعاد ، وتوزيع الضوء ، وتعبير الظاهر عن الباطن ، وكانت
أوروبا وباقي العالم المتمدن قد أقلعت عن مثل هذا الفهم لوظيفة التصوير . وما أوفى
عهد طراز « الباروك » على نهايته حتى استتب فرق أساسي بين فن الغرب وفنون
باقي العالم ، المعاصرة منها والسابقة ، فإن التصوير في الغرب أصبح وليد عالم له
أبعاد ثلاثة .

وقد تضافرت أسباب عدة على إحداث مثل هذا التجول ؛ فلم يكن الناس
جميعاً قد ألفوا إلا تصويراً يحتمل — بقدر ما — على التعبير عن المرئيات بالرمز

المستتر ، فجاءت المسيحية واستحدثت أسلوباً لم يكن معروفاً من قبلها وهو أسلوب التعبير الدراماتيكي . حقاً أن طقوس البوذية تعرف المناظر التمثيلية ، ولكنها خالية من عنصر الدراما . وأمريكا قبل كشفها كانت تقتصر في الدراما على تصوير أشخاص فرادى لا يضمها معاً منظر تمثيلي . ولم يؤد الضعف الطارئ على المسيحية إلى إضعاف معنى الدراما عند الغرب ، بل — على العكس من ذلك — عمل على تقويته ، كما عمل في الوقت ذاته على أن يخصصها بمعنى أرقى وأكثر تعمقاً ، وهو الأساس الكامن للمظاهر التالية : هذا الشعور بعالم الروح ، وهذه الرغبة في إبراز أجسام المرئيات وأحجامها ، وهذه الحاجة الشديدة إلى الاستناد على دنيا الواقع المحسوس ، وإنها لحاجة أصبحت من خصائص الغرب الأصلية ومرتبطة بغزوه السياسي للعالم كله . فقد جعلت أوروبا إبراز أجسام المرئيات بديلاً عن اتساق ألوان اللوحة ، والتاريخ عن سرد الوقائع ، والدراما عن التراجم ، والقصة عن الحكاية ، وعلم النفس عن الحكمة ، والعمل عن التأمل ، أو بكلمة عامة ، جعلت الإنسان بديلاً عن الآلهة .

ولا جرم أن تقديرنا اليوم لهذه المسائل يدفعنا إلى الزلل ؛ فإن التصوير في العصر الحاضر ، أغلبه أيضاً وليد عالم من بعدين اثنين . وهذه مشكلة غير مقصورة على عالم الفنون الجميلة وحده ، بل هي أعمق من ذلك بكثير ؛ فإنها مشكلة المدنية ذاتها ، في أساسها بالإنسان والكون كله . فوسائل البشر في التعبير تتراوح بين قطبين ، نجد في أحدهما التمثيل الصامت الذي لا ينطق فيه إلا ملامح الوجه والحركة ، ورقص أهل الصين وجاوا ، وتمثيل قدماء اليونان ، وترتيل المنشدين في المعابد ، ووجوههم تتخفى وراء قناع . وفي القطب الآخر نجد أدباً لعل حروفه إشارات الاختزال ، وقلمه آلة كاتبة ، وجتوه ضجيج الليالي الصاخبة ؛ إذ روحه يظهر كاللمبة الغابرة ، ويملاً شاشة مساحتها خمسة أمتار : إنه هو الفيلم .

والرجل الذي لا يتذوق جمال فن التصوير لذاته ، إذا دخل اليوم أحد متاحفه ، شعر بأنه يستعرض سلسلة من محاولات تشابه محاولات العلم في إدراك كنه الأشياء وتصويرها ، ولألفي نفسه أكثر فهماً وتصديقاً لروبين منه لجيوتو ، ولبيوتشلي منه لسيمايو ، ولوجد التصوير وسيلة لخلق العالم من جديد كما تدل عليه حواسنا . وقد ظل فن التصوير من القرن الثالث عشر إلى عصر الباروك يجدد

وسائل تعبيره ؛ فقد كان للتصوير الأوربي منذ أقدم العصور إلى عهد الباروك غرض مزدوج ؛ فهو بجانب ما يقدمه إلينا ونراه فيه ، يجاهد في التعبير عن الأشخاص والأشياء والمناظر الخيالية بوجه أخص بطريقة تحملنا قوتها واقتدارها على تصورهما وتصديقهما . وهذا المزج بين ما نسميه اليوم فن التصوير وبين وسائل التعبير ، هو الذي يحدو بزائري المتاحف في أيام العطلة إذا ماتأملوا لوحة من اللوحات (إذا كانت قد رسمت بعد عصر النهضة) أن يقولوا عن أشخاصها « يا لله ! كأنهم يهتمون بالكلام وينطقون ! » . وهذا هو أيضاً ما كان يدفع سكان فلورنسا إذا ما تحدثوا عن لوحات بوتشيللي إلى القول عن أشخاصها بأنهم « أقرب إلى الصديق من الأحياء أنفسهم ! » . ولعل روعتهم من رؤية صور العذراء كما رسمها خلفاؤه لا تقل عن روعة أهل العصر الحاضر إذا ما طلع عليهم التلفزيون وعم بينهم فجأة .

ولكن حينما أوشك عصر الباروك على أن ينتهي ، حدث في تاريخ الفنون حادث جديد لم يسبق له مثيل من قبل ؛ ذلك أن التصوير كف عن ابتكار وسائل جديدة للتعبير ، وأصبح — كما نعرفه اليوم — فناً غاية التصوير لذاته ، وتختص به طائفة من الفنانين . فلم ير العالم منذ ذلك الحين ولن يرى تقاطر الناس إلى لوحة وهم يتلهفون على رؤيتها ، ومالت الخطوط والألوان يوماً بعد يوم إلى التعبير عن روح المصور وحده . وبينما أخذ التصوير الحديث يزدهر ازدهاراً لا تلحظه العيون ، إذا بالتطلع إلى ابتكار وسائل جديدة للتعبير يُمسَخُ شغفاً محموداً مسلوب القياد بالحركة وأوضاعها . ولم يكن الانتباه إلى الحركة وأسرارها وليند كشف فني . وإذا عيب على عصر الباروك أنه رسم أشخاصه جامدين كالغرقى ، فإن التطور الذي استحدثته العصر الحديث لا يعس طريقة تصوير الأشخاص في ذاتهم ، فإنما هو أشبه ما يكون بتصوير الشخص الواحد في حركات متتابعة . وإذا أصبح فن التصوير يهتم بالحركة والعواطف ويستلهم المسرح فلا غرو إذا انتهى به المطاف إلى السينما .

ولما اخترعت آلة التصوير في منتصف القرن التاسع عشر تخلى التصوير الأوربي بصفة صريحة قاطعة عن ميدانين كان يختص بهما من قبل وحده : أولهما

ميدان التعبير عن العواطف ، وثانيهما الاستعانة بالخيال ، وأصبح من جديد فناً هم الوحيد في التعبير عن المرئيات إبراز هيئة أجسادها ، وغلب عليه مرة أخرى الخضوع لمقتضيات عالم من بعدين اثنين . حياة الفرد منا اليوم ، وما تتضمنه من أحداث ، كالولادة والزواج وغير ذلك ، أصبح تسجيلها وفقاً على آلة التصوير . وهذه الآلة وهي تتصدى لتصوير الحياة قد تطورت في الثلاثين سنة الماضية من آلة بدائية جامدة لها عين واحدة إلى آلة متوتبة يقظة لها ألف عين . وإذا كان هذا شأنها أصبحت تواجه — واحدة بين أخرى — نفس المشكلات التي عاناها فن التصوير ، إلى أن انتهت هي حيث انتهى هو أيضاً . ومما يزيد في غلّ يدها أنها عاجزة عن الخيال ؛ فهي قد تلتقط قفزة سريعة لراقصة في الهواء ، ولكن هيات لها أن تصوّر لنا مثلاً دخول الصليبيين إلى بيت المقدس . هذا مع أن البشر دائبون على التخيل ، ويهيمون بأن يصوروا لأنفسهم كل شيء ، من أوجه القديسين إلى أسخف مشاهد التاريخ ، وسواء لديهم أو كانت هذه الحوادث التي يجري وراءها خيالهم مما يعلمون أو مما لم يروه قط .

فهذه المجهودات التي تتابعت طيلة أربعة قرون لاقتناص الحركة وقفت بالآلة حيث وقفت بريشة المصور من قبل . ومع أن السينما قادرة على تصوير الحركة ، فإن الخطوة التي خطتها في هذا السبيل لم تزد على إبدالها بالإشارات الثابتة بإشارات متحركة ، ولم يكن مفرّاً إذا ما أريد أن يستمر بذل الجهد في ابتكار وسائل جديدة للتعبير ، وإطلاقها من قيد العصر الباروكي ، من أن تتمتع آلة التصوير باستقلالها عن المنظر الذي يراد رسمه . وليست المشكلة مبعثها حركات شخص ممن يظهرون في هذا المنظر، بل مبعثها وجوب تتابع اللقطات . (واللقطة هي الوحدة السينمائية ، وتتغير كلما غيرت آلة التصوير مكانها أو زاويتها ومن تتابع اللقطات تنشأ عملية تقطيع الفيلم إلى أجزاء بحيث لا يكمل إلا إذا ضم بعضها إلى بعض . ومتوسط زمن اللقطة الآن هو عشر ثوان) . وهذه المشكلة لم يتسن حلها في ميدان الصناعة بإبدال آلة التصوير العاجزة بأخرى أكثر منها قدرة ، بل كان حلّها في ميدان الفن ، حينما ابتكرت طريقة تقطيع الفيلم .

وحين ظلت السينما لا تخرج عن كونها وسيلة لإظهار أشخاص وهم يتحركون فإنها لم تزد في عين الفن عن الفونوغراف وآلة التصوير البسيطة ؛ فقد كان عمل السينما مقصوراً على تصوير منظر لا يتعدى حيزاً محدوداً ، هو في الغالب أرض

مسرح - في الحقيقة أو في الوهم - يتحرك فيه الممثلون ويؤدون أدوارهم في مسرحية عاطفية أو هزلية ، وتكتفى آلة التصوير بتسجيل كل ما يقع أمامها . -
 - حين تم القضاء على قيد الحيز المحدود ولدت السينما باعتبارها وسيلة للتعبير لا لإظهار المرئيات فحسب . فلما حدث أن جال في أذهان صانعي الأفلام تقطيعها إلى لقطات إذا بهم يعدلون عن تصوير القصة كما تتوالى حوادثها من البداية إلى النهاية ، إلى تصوير أشكال سريعة متتابعة لمنظر واحد ، فتقترب آلة التصوير أحيانا من الممثل فتملأ صورته الشاشة - إذا دعت الضرورة لذلك - ثم تبتعد عنه وهكذا . وأهم من ذلك كله أنهم استغنوا عن المسرح الثابت بتخصيص مجال محدود للممثل - وهذا المجال مرتبط بمساحة شاشة العرض - فيدخل الممثل هذا المجال ويخرج منه ، ويكون مخرج الفيلم حراً في اختيار هذا المجال دون أن يفرض عليه فرضاً ، فوسيلة السينما في تصوير المرئيات هي آلة التصوير المتحركة ، ووسيلتها في التعبير هي تتابع اللقطات .

وتزعم إحدى الروايات التي لا يعلم صدقها إلا الله أن « جريفت » هام بجمال ممثلة وهي تؤدي دورها في منظر من أحد أفلامه ، فلم يسعه إلا أن يصور من جديد - وعن قرب - المنظر الذي خلب لبه ، وأثبتته في الفيلم مكان الآخر ، وهكذا ولدت على يديه « اللقطة المكسرة » . وهذه الرواية التي تثير الابتسام تبين كيف كانت تعمل موهبة أحد كبار المخرجين في طفولة السينما ، وكيف أنه لم يكن يعنى بالتأثير في الممثل (كأن يطلب منه تغيير طريقة تمثيله) عنايته بابتكار طريقة جديدة تزيد الصلة بين الممثل وجمهور النظارة بتكبير وجهه على الشاشة . ومن هذه الرواية نفهم مسألة نحن نعلمها وننساها ، وهي أن أبسط آلة تصوير ثابتة كانت منذ زمن غير قصير قد ألقت التحايل على رسم الأشخاص ، فتصورهم تارة وهم وقوف ، إذ تصور منهم نصفهم الأعلى ، وتارة أخرى تقتصر على تصوير الوجه فحسب . وهذه الخطوة الجريئة في تصوير النصف دون الكل ، كانت ذات أثر حاسم في السينما ؛ لأنها كانت إذا أرادت اتباعها وجدت نفسها مقيدة بآلة تصوير ثابتة ، ومجال رسوم الممثل ثابت هو أيضاً ، فلم يكن لها مفر من أن تصور المنظر كله على هذا النسق ، ولكنها خرجت من هذا المأزق حين ابتكرت طريقة تقطيع الفيلم وتتابع اللقطات .

فلما استتب تقسيم الفيلم إلى لقطات متتابعة أو - بمعنى آخر - حين توافرت

للمصور السينمائي حرية العمل واستقلاله عن المنظر الذي يراد تصويره ، تيسر للسينما أن تصبح هي أيضاً من وسائل التعبير ، وهكذا ولدت السينما باعتبارها فناً من الفنون . ومنذ ذلك الحين أصبح في إمكانها التعبير عن المعاني بالتصوير ، وفكّ تتابع الصور التي تختارها جهودها القديم .

٣

لم يكن مفرّ للسينما الناطقة أن تجد لهذه المشكلة علاجاً جديداً ، ليس هو - كما يقال - وصولها بالفيلم الصامت إلى درجة الكمال ؛ فباطل الادعاء للسينما الناطقة بكمال السينما الصامتة ، بطلان الادعاء للمصنّع بكمال ناطحات السحاب . فان ناطحات السحاب لم تر النور إلا بفضل اختراع الأسمنت المسلّح والمصعد معاً . وكذلك السينما الحديثة ، ليست وليدة الفوز بإسماع النظارة حديث الممثلين في السينما الصامتة ، بل هي وليدة القدرة على التعبير بالصورة والصوت معاً . فما أهون شأنها - مثلها في ذلك مثل السينما الصامتة من قبل - إذا ما هما اقتصرا في وظيفتهما - كآلة التصوير الثابتة - على تسجيل المرئيات . ولا تصبح السينما الناطقة فناً من الفنون إلا إذا أدرك مخرجو الأفلام أن الأصل الذي يجب أن ينتسب إليه الصوت في أفلامهم هو الراديو لا اسطوانات الفونوغراف .

فإذا كان موضوع تمثيلية الراديو هو حكاية محادثة جاني دارك ، أو جلسة مجلس النواب الفرنسي التي شهدت سقوط روبسبير مثلاً ، لزم أن يفهم المذيعون أنهم يمثلونها كأنما هي قصة جديدة موضوعة ، وأن نصها تتحكم فيه الشروط الواجب توافرها في فن الاذاعة . فليس الغرض إذن اختيار ممثلين لتلاوة ماورد في محضر الجلسات ، بل الغرض استخلاص بعض المواقف من هذه المحاضر ، والتحايل على نظم أجزائها معاً في وحدة متماسكة وإخراجها إخراجاً فنياً ؛ فان المحضر الأصلي للجلسات لو تلى علينا كما هو لأمسنا طوله وانصرفنا عن سماعه ، كما يملنا كل حديث غابر إذا ما تلى علينا نصه الكامل .

ونحن أميل إلى الظن بأن بعض الحوادث تولد فإذا هي دون غيرها محط أنظار الناس واهتمامهم كرهاً لا اختياراً ؛ فان في حياة روبسبير منذ الليلة التي سقط فيها ، لحظات فذة ، ينتفع بها كل فن على طريقته . والنظرة الأولى لهذه

المسألة تحملنا على الاعتقاد بأنه ما من شيء وما من حياة إنسان إلا وجدنا فيها جزءاً يصلح لأن يكون المادة الأولية التي ينتفع بها كل فن من الفنون في عمله ، وأجزاء لا تصلح ، فهي بالتالي تولد ميتة إلى الأبد . ونحب ألاَّ يُخلطَ هنا بين تلك اللحظات التي لها وحيها ومعانيها والتي يمكن أن نسميها لحظات فنية ، وبين تلك الكلمات المأثورة التي يسجلها التاريخ لأصحابها ويتناقلها الناس . والحوادث إذا اختلطت وتشابكت وغابت معالمها الفردية في لجة صاخبة ، لا تخلو من لحظات فذة يتولى كل فن تحديد ما يهمه منها إذا ما أراد التعبير عن تلك اللجة الصاخبة . فما هي اللحظة الفذة في سقوط روبسبير ؟ هذا سؤال تختلف الفنون في الإجابة عليه . فقد تكون تلك اللحظة الحاسمة — في نظر الراديو — هي صوته ، وهو يخفت حين خرّ منهزماً . وقد تكون في نظر السينما . ما عساه يكون شعور أحد الحراس وهو واقف شارد الذهن ، منصرف في اللحظة الرهيبة ذاتها إلى طرد بعض النسوة البدينات عن حجرة الجلسة أو إلى البحث عن قدّاحته .

وقد شاهد القرن العشرين لأول مرة مولد فنون لاغنى لها عن آلة تعبر بها . وليست العبرة فيها أنها قادرة على أن تقدم للناس صوراً معينة تنقلها عن مصدرها ، بل إنها في الأصل لم تنشأ إلا لهذا الغرض ذاته وله وحده . وقد أصبح من المستطاع نقل بدائع الرسم واستنساخها ، وقد لا يشرف هذا القرن على نهايته حتى يصبح في الإمكان أيضاً نقل الصور الفنية واستنساخها دون أن تفقد جمالها . ولكن لا الرسم ولا اللوحات الفنية قصد فيها إمكان استنساخها ، فليس لها من غاية إلا أن توجد هي بذاتها ولذاتها . فإذا تضمنت المسرحية مثلاً منظراً ووجدته السينما يصلح لها لو قام ممثلوه الأصليون بتمثيله لها ، لكان في هذا وحده القضاء على قيمته الفنية ، بل هذا المنظر أقل قيمة من اللوحة المعدنية التي تبكى تقوشها من استعمالها في طبع صور منها على الورق . فكأنما هذا المنظر خلق لأن تسجله السينما ، ولا غرض له سوى ذلك ، شأنه في هذا شأن مسرحية الراديو فإن الحوار يقصد فيه إلى تسجيله أولاً على أسطوانة ، ثم إذاعته بعد ذلك .

ولكن مقدرة الأصوات المسجلة على التعبير ، وهي ضعيفة ما اقتضت على الفونوغراف والراديو ، تصبح لها قوة فائقة ، إذا ما ارتبطت بالصورة وعادتها . وإذا اخترعت السينما المجسمة فلن تأتي بمحدث جديد ، بل سيكون

فيها خطوة تخطوها السينما في طريق تطورها إلى السكال . ولا جرم أن مكان السينما الناطقة من السينما الصامتة ، كمكان اللوحة الفنية من الرسم التخطيطي . ولم يدرك الناس في مبدأ الأمر حق الإدراك أن الصوت هو أيضاً وسيلة للتعبير قائمة بذاتها ، وبدأت السينما — حينما استعانت بالصوت — كأنما قد رجعت بفن السينما كله إلى عهده البدائي . فكما كان قدماء المخرجين لا يحاولون إلا تصوير المناظر المسرحية ، فكذلك السينما الناطقة سارعت وهي متلهفة إلى تصوير المسرحيات . فالحوار فيها مُقرّر ، وطولها مناسب ، والكر كل هذا لم ينتج إلا أفلاماً هزيلة لا تسر ولا ترضى .

٤

وفي البلاد التي لا يزال فيها المسرح متمتعاً بتأثيره وحيويته (كروسيا وألمانيا والولايات المتحدة) نجده لا ينفك في العشرين سنة الماضية من استهواء السينما وجذبها إليه . ونجد كبار المخرجين السينمائيين يحاولون في مبدأ الأمر تحويل المسرحيات بحيث لا تصبح سلسلة من حوار متصل ، بل المسرحية أشخاص يتبادلون أطراف الحديث ؛ فكانت موهبة المخرج ميرهولد ، ترمى إلى ابتداع عالم وجوّ يحيط بحوار أبطال المسرحية ، وقد استعانت السينما الناطقة بهذه الأحاديث فوجهتها إلى خير وجهة ، وأحاطتها بإطار زخرفي « الديكور » لا يعجز عن تصوير السماء والبحر وكل ما يجول بخاطر المخرج .

والمسرح يستمد حياته من قدرته على التعبير عن العواطف ، ولا يتوسل في عمله إلا بالحديث والإشارة . فلما دهمه خطر السينما الناطقة إذا به ينقلب إزاءها إلى فن أشل كما كانت السينما الصامتة من قبله . فالممثل المسرحي ما هو إلا رأس صغير تائه في ردهة فسيحة . ولعمري إنها مزية لا تقوّم ؛ وإن هذه اللحظات التي لم يستطع المسرح إلا التعبير عنها بالصمت ، قد تلقفتها السينما الصامتة هي أيضاً من قبل واستخدمت وجه الإنسان وصوره المختلفة المتباينة في التعبير عنها .

وتكبير الأحجام على شاشة العرض يتيح للممثل أن يقلع عن المبالغة في الحركة والإشارة ، وعن هذه الإيماءات الرمزية التي لا مفرّ المسرح من التمسك بها إن

أراد أن يظل قريباً إلى أفهام النظارة . فإذا قارنت بين المسرحية والسينما الناطقة وجدت المسرحية لاالسينما أقرب شيء إلى التمثيل الصامت الذي يعتمد على الحركة والإشارة . ومكبر الصوت رغم وجوده ، أو إن شئت فقل بفضل وجوده ، هو الذي يجعل صوت الممثل إذا أسرع في حديثه أو هبط إلى حدّ الهمس أقرب إلى إقناعك والتأثير فيك من صوت أروع الممثلين في المسارح الفسيحة . فأهم مشكلة تواجه مؤلف فيلم ناطق هي أن يعرف متى يجب أن يتكلم أبطاله . أما المسرح فلا يعرف هذه المشكلة ، ولا تنس أنه يجب أن يتصل فيه الحديث دون انقطاع .

ويستمر الحوار في المسرح إلى أن تأتي فترة الاستراحة . ولعمري إن هذه الفترات من النعم التي يمتاز بها المسرح ؛ فإسدال الستار يوحى بأنها تخفى وراءها وقوع حوادث أخرى في المسرحية . وينقل المؤلف المسرحي خبر هذه الحوادث إلى النظارة بالتلميح إليها . وكما نجد القصة المطبوعة حين تصل حوادثها إلى طريق مسدود ، تلجأ إلى ترك صفحة بيضاء لتفصل بين الفصل السابق واللاحق ، كذلك تلجأ المسرحية إلى فترة الاستراحة . أما السينما فحزومة من أمثال هذا التحايل .

ولعل محترفي السينما يجيبون على ذلك بأن لهم وسائلهم أيضاً في الارتفاع بهذا التحايل ؛ وذلك لأن يدهم مطلقة في ترتيب المناظر ، والمنظر لا ينقطع فجأة بل « يذوب » أمام النظارة شيئاً فشيئاً . وهذا « الذوبان » وحده يوحى إلى النظارة بمرور الوقت بين المنظر السابق واللاحق . وهذا حق ، ولكن لا يتم به كل المعنى الذي نقصده ؛ فهذا « الذوبان » يوحى بمرور وقت لا تقع فيه حوادث . (ولا ينطبق هذا القول على فيلم الملاك الأزرق الذي يجب دراسته بعناية) . وإذا كانت فترة الاستراحة في المسرح توحى بمرور وقت تقع فيه حوادث ، فإن « ذوبان » المناظر — على العكس من ذلك — لا يفلح كثيراً في التلميح بمرور وقت تقع فيه حوادث ، إذا كانت هذه الحوادث تفيد تحولا طارئاً على حياة أبطال الفيلم .

ولكن من جهة أخرى نجد المسرح عاجزاً عن الارتداد إلى ما سلف من زمن . فهيئات البطل أن ينتقل أمام النظارة من عهد الرجولة إلى عهد الصبا ، في حين أن هذا الارتداد لا يستعصى على السينما . وقد لا تكون هذه الحيلة آمنة من

للتعثر أو قاصرة عن بلوغ غايتها ، ولكنها على كل حال لا تستعصى على السينما .
والخلاصة أن المناظر المتتابعة في السينما هي بمثابة الفصول في القصة المكتوبة ،
ولكن السينما لا تعرف الفواصل العريضة التي نجدها بين فصول القصة المكتوبة
أو المسرحية .

أما الفيلم الصامت فلم يضره انقسامه إلى فصول ، على حين أن السينما
الناطق لا يتأتى لها هذا الانقسام ولا تعرفه . ووجوب إحكام الصلة بين مناظر
الفيلم الناطق هو من أهم العوائق التي تصادف عمل المكلفين بضم أجزاء الفيلم
بعضها إلى بعض . فالفيلم الناطق يستنكف من الفراغ الخالي من الحوار ، ويضع
اتصال الحديث في المحل الأول من عنايته .

وإذا أصبحت الرواية أهم عناصر الفيلم الناطق ، فإن غريمه الأول ليس
هو المسرح ، بل القصة المكتوبة .

٥

والرواية لا تستعصى على السينما ، وهذا هو سر قوتها ، شأنها في ذلك شأن
القصة المكتوبة . وكان الفيلم الصامت كثيراً ما يستمد موضوعاته ، قبل اختراع
السينما الناطقة ، من القصة المكتوبة .

وفي استطاعتنا أن نحلل الأسلوب الفني الذي يتبعه كبار الكتاب في إخراج
قصصهم . فمنهم من يهتم برواية الوقائع ، ومنهم من يعنى بتصوير الشخصيات
وتحليلها أو التنقيب عن أسرار الحياة . وسواء عمد الكاتب إلى توليد المعاني
والإسهاب في التفاصيل - كبروست - أو إلى تركيزها وبلورتها - كهيمنجواي -
فإن الرواية لا تنفك عملهم وهمهم الأول . والمعنى الفني للرواية هو تلخيص
الوقائع وإخراجها ، أو بمعنى آخر ، تجليتها للقارئ حتى يراها كأنها تحدث
أمامه . وإذا ذكرت هذا الأسلوب الفني الذي يتبعه الكاتب في إخراج قصصه
فإننى أعنى به طريقة اختياره - سواء جاء هذا الاختيار عفواً لأنه وليد طبع
الكاتب ، أو جاء عمداً لأنه وليد التأمل والدراسة - أقول : طريقة اختياره
لوقائع الحياة التي تثير اهتمامه دون غيرها ، ووسائل التعبير التي يستعملها ليضفي
على هذه الوقائع ما ينسب إليها من أهمية خاصة .

وأدل بينة على الأسلوب الفني عند أكثر الكتاب هي طريقة انتقاهم من الرواية إلى الحوار .

وحوار القصة له أغراض ثلاثة :

أولها هو العرض والشرح . وهذه هي طريقة الأدب الانجليزي في نهاية القرن التاسع عشر ، وزعماءها هنري جيمس وكونراد . وهي ترمي إلى القضاء على سخر الكتاب الذين يدعون لأنفسهم رأياً قاطعاً في فهم أسرار الحياة كلها ، ويفرضون رأيهم على القارئ ، وقلماء تلجأ السينما إلى حوار هذه المدرسة الانجليزية ، كما تشيح عنها القصة الحديثة أيضاً .

وثانيها إبراز شخصية أبطال القصة وملاحظهم . فنجد ستانداال في تصويره لشخصية بطله جوليان سوريل يستعين في الإبانة عنها بأفعاله أكثر من استعانتة بمدلولات صوته وأنغامه . فلما حلّ القرن العشرون زادت مدلولات الصوت وأنغامه أهمية في نظر القصة ، وأصبح بيان نغمة الصوت من وسائل وصف الشخصية ، بل إن وجود الشخصية ذاتها أصبح مرتبطاً بها . فاعل قصصه ونحن نستسيغ قراءتها - تصلح للإذاعة ، حيث لا يرى السامع وجه الممثل ، أكثر من صلاحيتها للمسرح .

وإذا كانت القصة تُعنى بأنغام الصوت في حوار أبطالها فإن السينما والمسرح أقل منها عناية بها ، ذلك لأن الممثل يجب أن يكفي وحده لإبراز الشخصية . وأخيراً نجىء إلى الغرض الأساسي للحوار ، أعنى به الحوار الذي تهض بفضلله مناظر القصة . وليس لتطور هذا الحوار أصول مرسومة ، بل هو يتشكل طبقاً لما يريد منه كل فنان موهوب ، فهو تارة درامتيكي ، وتارة إشارات توحى بالمعاني ، وتارة ألغاز مستترة ، قد انبثت صلتها فجأة بالعالم أجمع كشأن دستويفسكي ، أو يكون مرتبطاً بالسكون كله ، كشأن تولستوى ، ولكنه مهما اختلفت صورته - يرمى إلى أن يحس القارئ بالمنظر إحساساً عميقاً حتى كأنه يراه أمام عينيه في عالم له أبعاد ثلاثة .

وقد انتبه الفيلم لهذا الحوار وأدرك لخصائصه وشدة تأثيره ، فاستمدت منه السينما اليوم بعض قوتها . فنحن نرى مخرجي الأفلام الحديثة ينتقلون - بعد أن يلتزم الفيلم فترة طويلة من الصمت - إلى الحوار ، كما يفعل القصصي حينما ينتقل إلى الحوار بعد أن يفيض في روايته بالوقائع والتحدث عن الأبطال .

وللقصصى وسيلة أخرى للتعبير ، وهى ربطه للحظات الحاسمة فى حياة أبطاله بالجو الذى يعيشون فيه أو ربطها بالكون كله . وهذه هى خلة كوزراد التى لا يحيد عنها فى قصصه . وقد انتفع بها تولستوى فى تصوير منظر من أروع مناظر الأدب القصصى فى العالم كله ، حين وصف إصابة الأمير أندريه بجرح فى موقعة استرليتر (فى قصة الحرب والسلام) . وقد استعانت بها السينما الروسية خير استعانة إبان ازدهارها . ولكن هذه الوسيلة تتضاءل وتختفى كلما زادت أرباح السينما . . .

على أن القصة المكتوبة لا تزال تحتفظ — فيما يبدو — بمزية تفوق بها الفيلم ، عنى مقدرتها على الانتقال إلى تحليل نفسية أبطالها . ولكن يبدو على القصة الحديثة — من ناحية أخرى — أنها تنصرف شيئاً فشيئاً عن الاهتمام بتحليل نفسية أبطالها فى اللحظات الحاسمة عند الأزمات . وقد لا يقل عن التحليل النفسى فى قوته الفنية وإفصاحه عن الضمائر ، هذا التعبير الدرامتيكى عن لواعج النفوس ، الذى نجده عند شكسبير ، كما نجده ، بقدر كبير ، عند دستوففسكى ، حين يستعين فى تلميحته إلى الأسرار ، إما بأفعال أبطاله ، وإما باعترافات يفضون بها ، مترددة بين الإفصاح والكتمان (ومثل ذلك تصويره لسمرديا كوف وستافروچين) .

وأخيراً فإن روح كل حى تنطوى على سر خفى يستعصى سبر غوره وإدراكه ، وقد تستطيع السينما استدراجه على الشاشة بفضل تكبيرها لوجه الإنسان حتى تستبين كل خواجه . ولكنه مع ذلك لو بقى هذا السر الخفى مجهولاً ، فقد يساعد على أن تصبح القصة الفنية مناجاة يتوجه بها العبد إلى ربه يسأله — فى حيرته — أن يكشف له عن سر الوجود . فهذه القصص تصور الفكر البشرى وهو غارق فى التأمل ، وهذا هو سر عظمة قصص تولستوى الكبرى . وقد غزت السينما منذ طفولتها الساذجة إلى الأفلام الصامتة الأخيرة ، ميداناً فسيحاً وانتزعته لنفسها . فما الذى كسبته بعد ذلك ؟ حقاً إنها ارتقت بالإضاءة وطريقة الرواية والصنعة ، ولكن ما الذى كسبته من الفن ؟ وأعنى بالفن هنا التعبير عن الروابط التى قد تكون خفية ولكنها بادية الأثر ولا مفر من الإيمان بها — هذه الروابط التى تربط بين الأحياء بعضهم وبعض ، أو بين الأحياء والأشياء ، ولم تتهيب السينما الصامتة ، إبان ازدهارها ، من النزول

إلى هذا الميدان ، ولكن السينما الأمريكية في العصر الحاضر — وتهتدي بهديها
السينما في البلاد الأخرى — تعنى قبل كل شيء — ولها العذر فقد أصبحت
هى أيضاً صناعة كسائر الصناعات — بزيادة مقدرتها على توفير التسلية واللهو
للنظارة . فهى ليست أدباً ، بل صحافة . ولكن عمل الصحافة التى قنعت به
السينما الأمريكية يدفعها ، شاءت أو لم تشأ ، إلى ميدان لا يخلو من الفن أبدأً ،
أعنى به ميدان الخرافة والأوهام . وحياة السينما فى العهد الأخير تستند كلها
على التحايل فى الارتفاع بهذه الخرافة والأوهام .

وأول مظهر لهذا التحايل هو فى العلاقة التى تقوم اليوم بين قصة الفيلم وبين
نجوم السينما ، رجالاً ونساءً ، بل النساء هن أفضل فى الدلالة على أغراضنا من
الرجال ؛ فكل حسناء أصبحت نجماً سينمائياً لا يفرض فيها أن تكون ممثلة تؤدى
دورها فى فيلم سينمائى ، بل لا يلزم عليها إلا أقل قسط من المقدرة الدرامية ،
ويكفيها أن وجهها يصلح للتعبير عن إحدى الغرائز العامة بين البشر والرمز
إليها وإبدائها . فلك أن تقول عن سارة برنارد إنها ممثلة ، ولكن لا يصدق هذا
القول على مارلين ديتريش ، فما هى إلا من شخصيات الأساطير التى أحيطت
بالخرافة والأوهام .

وقد استقر هذه الوضع حتى إن نجوم السينما — رجالاً ونساءً — يذكرون
إدراكاً خفياً تلك الشخصية الأسطورية التى حلت فى كل واحد منهم ؛ ويصرون
على تمثيل قصص سينمائية تعين على بقاء هذه الأسطورة ودوامها . وأصبح
الجمهور يفضل الصورة المكبرة ، يعرفهم معرفة لم يفز بها ممثلو المسرح من قبل .
وأخذت المقدرة الفنية تسير فى اتجاهين متضادين ؛ فالممثلة الكبيرة هى التى
تحسن أداء عدة أدوار لشخصيات متباينة ، أما النجم السينمائى فحسناً تنفخ
الحياة فى عدة أفلام متشابهة متلاحقة .

وفى التمثيل الصامت فى المسرح الإيطالى القديم نجد الشخصية الواحدة
يتكرر ظهورها فى عدة أدوار متباينة . أما رواد السينما الهائمون بها فيعلمون
اليوم أنه ، رغم المحاولات التى تبذل لتحويل الشخصيات المألوفة لديهم ، وتصويرها
بصورة جديدة ، فإن الممثل هو الذى يطغى بشخصيته المعهودة لديهم على الفيلم .
فهم يرون جريتا جاربو ملكة ، وجريتا جاربو محظية ، وجريتا جاربو جاسوسة
وهكذا ، ومثلها فى ذلك مثل سائر النجوم .

وشارلي شابلن أصدق دليل على قولي . فقد رأيت في بلاد الفرس فيلماً لا أصل له ، اسمه حياة شارلو . والأفلام في بلاد الفرس تعرض في الهواء الطلق ، وأبصرت على الجدران التي تحيط بالنظارة قطعاً سوداء جائمة تصوب أنظارها . وقد مكر أصحاب السينما وضموا أفلام شارلو القصيرة بعضها إلى بعض وقدموا لنا فيلماً طويلاً أثار الدهشة ، إذ رأينا أماننا الشخصية الخرافية على حالتها الصافية الناصعة لا تشوبها شائبة .

وقد استحدثت السينما خرافات عدة كـ فيلم نبلونجن لرينيه كلير الذي أعجب به العالم كله ، وفيلم المليون ، لرينيه كلير أيضاً ، وهو يروي خرافة الفتاة الفقيرة سندريلا في ثوب جديد أكثر نضوجاً ، وفيلم الملاك الأزرق ، وأنا هارب من السجن وغيرها . ولكن لا يزال أمامها مجال كبير لدراسة خرافات أخرى كتصوير العدالة الاجتماعية ، والفردية ، والغريزة الجنسية فان السينما لم تنفذ مواضعها بعد .

إن السينما تخاطب الجماهير ، والجماهير تهيم بالخرافات والأساطير إن خيراً وإن شراً . وإذا أردنا نحن نسيان الخرافات فكفى بالحرب تذكيراً بها . فإن رواد المقاهي الذين يرسمون الخطط الحربية أقل عدداً من هؤلاء الذين يؤكدون بأنهم علموا من مصدر ثقة أن العدو ينكل بالأطفال جوعاً . وما كذب الصحافة الصفراء إلا نوع من انصياعها لاستهواء الخرافة .

والخرافة تبدأ بالكلام عن الجن والعفاريت ، وتنتهي بالتحدث عن القديسين . وإن الجماهير لتؤثر أن تصم أذانها عن محدثها عن الجانب الطيب في حياتها ، ولكنها لا تغمى عنها في أحوال كثيرة . وهذا سؤال يجول في خاطري : ترى كم كان مبلغ فهم الجماهير لمواعظ القديس سان برنارد ؟ وهل فهمت منها غير ما قاله ؟ ربما ، أو إن شئت فقل : حتماً . ولكن كيف يكون لنا أن نبخس من قيمة ما فهمته في اللحظة التي كان يتغلغل صوت هذا الواعظ المجهول إلى أعماق قلوبهم ؟ ولا تنس من جهة أخرى أن السينما صناعة كغيرها من الصناعات .

أنسليم مالرو

نقلها عن الفرنسية يحيى حقي

المملوك

المملوك لفظ لا يحتاج إلى إيضاح — فهو عبد يباع ويشترى — إلا أنه اصطلاح على إطلاقه على فئة من العبيد كان الحكام يشترونهم لتكوين فرقة خاصة من جيوشهم . وأول من أقدم منهم على ذلك هو الخليفة العباسي محمد المعتصم بالله من سنة ٢١٨ إلى ٢٢٧ هـ (٨٣٣ — ٨٤٢ م) ، فقد أولع باقتناء المماليك الأتراك حتى بلغت عدتهم عند وفاته ثمانية آلاف ، وقيل ثمانية عشر ألفا ، وبني من أجلهم مدينة سمرقند رأى — أو سامرا — ثم أخذ المملوك منذ ذلك العهد ، في معظم البلاد الإسلامية ، يعززون جيوشهم بالمماليك الأجانب ، بل يكونونها جملة منهم .

فاذا كان الملك الصالح أيوب لم يحدث بدعة في التاريخ ، فإن جيش المماليك الذي كوّنّه في مصر في منتصف القرن الثالث عشر وخصص له جزيرة الروضة هو أساس قيام حكم تلك الدولة التي انتزعت الحكم من أسرته ، والتي تتابع منها على تبوء عرش الديار المصرية سبعة وأربعون سلطانا ، كان اثنان وعشرون منهم أرقاء ، قبل أن يرقوا إلى السلطنة ، والخمسة والعشرون الآخرون من ذرائعهم .

وأصل كثرة هؤلاء المماليك من بلاد القفجاق أو القفجاق ، شمالي البحر الأسود والقوقاز ، وهي بلاد كان أهلها في ضيق من العيش ، وكانت قاعدة مملكتهم ، « فرصة عظيمة للتجار ورقيق الترك » . وقيل عن هؤلاء الأتراك إنه « ليس لهم تمسك بدين ولا رزانة في عقل ، ومع ذلك فهم من خيار الترك أجناسا ، لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغدر مع تمام قناعاتهم وحسن صدورهم وظرافة شمائلهم » .

ومن هؤلاء الأتراك أكثر الصالح أيوب شراء عبيده حتى أصبح منهم معظم الجيش المصري . فلما انتهى الملك إليهم « مالت الجنسية إلى الجنسية ووقعت

الرغبة في الاستكثار منهم ، حتى أصبحت مصر بهم آهلة المعالم ، وحمد الاسلام موافقهم في حماية الدين حتى إنهم جاهدوا في الله أهليهم .
غير أنه لما قام السلطان الملك الظاهر برقوق وكان من جنس الجركس أكثر من المماليك الجراكسة حتى صار منهم أكثر الأمراء والجند ، وقلت المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم في أواخر هذا العصر إلا القليل من بقاياهم وأولادهم .

وتجارة الرقيق في ذلك العهد كانت تجارة رائجة ، وكان اقتناء الرقيق أمراً مهلاً ، وكانت مراكز هذه التجارة منتشرة في جميع البقاع ، فلم تقتصر على بلاد الشرق وبلاد الترك والشركس والمغول والأروام والأكراد والفرس وغيرها من بقاع آسيا الصغرى والقرم والجزيرة ، بل تعدتها إلى بلاد الغرب ، حتى إن التجار الأوربيين كانوا ينافسون تجار البلاد الآسيوية أشد المنافسة ، فكان يباع بمصر رقيق أتى التجار به من أسبانيا وفرنسا وإيطاليا ، ومن الصرب وصقلية وألبانيا وهنغاريا .

وكانت هذه الجموع تخفى بينها قوماً جُبِلُوا على الشر ، أو تشربوا بالمطامع والجشع ، أو أضمرُوا الحقد ، أو ألّفُوا المغامرة ، أو تطلّعُوا إلى الوثوب . وكانوا على كل حال مرتعاً للفساد ، سواء في ذلك أولئك الذين حكم عليهم بالبقاء أجناداً ، وأولئك الذين كتب لهم أن يرقوا من الرق إلى الإمارة أو إلى السلطنة .

وقد انتشرت الفوضى في أيامهم ، بل إن النظام الذي وضع لهم كان مبعثاً لهذه الفوضى . إذ كان الأمير منهم يعمل جهداً لزيادة عدد مماليكه ، حرصاً على نفسه ودفاعاً عن سلامته . وكثيراً ما كان الأمير يترك هؤلاء المماليك يسلبون الناس أقواتهم ، عوضاً عن الأجور التي كان يجب عليه دفعها لهم ، أو استغلالاً لمركزه في وظيفته ، ليستولى على الأموال أينما تيسرت له ، وكيفما اختار الوسائل إلى ذلك ، إما طمعاً منه في الوصول إلى وظيفة أعلى مركزاً وأوسع إيراداً ، عن طريق الرشوة أو عن طريق الشراء ، وإما ادخاراً ليوم تقرر عليه الضرائب الباهظة ، أو المغارم القادحة . وكان مما يشجع هؤلاء المماليك على أعمال السلب والنهب والفساد والقتل ، أنهم كانوا يعيشون عيشة عابرة مخيفة لا ثقة بغد فيها ولا أمان ، فلم يتركوا فرصة تمر دون استغلال طباعهم وإرضاء أطماعهم . وكثيراً ما قاسى سكان القاهرة الأهوال من اضطرابات المماليك

وأعمالهم الوحشية ، وكثيراً ما كانت شوارع القاهرة ميداناً لمعاركهم وحروبهم عند ما كانوا يستضعفون سلطانها ، أو عند ما كانت تقع المنافسة بين عظيمين من أمرائها . وكل هذا أحاط عصر المماليك بسلسلة ممتدة من القوضى ، وجعل القاهرة أشبه ببلد رزىء بالهزيمة ، وتدفق فيه الغزاة ، فاختلطت الجماهير فيه بالأجناد ، وأعملوا السلب والنهب في الحوائث والمتاجر والبيوت .

والغريب أن هؤلاء المماليك كانوا يستطيعون الجمع بين القسوة والوحشية ، والعطف الانساني ، وبين الجبروت التعسفي ، والخضوع الرباني ؛ وذلك إما عن عقيدة راسخة ، أو عن سياسة كمينية ، كما كانوا يتصفون على السواء بالجد والفكاهة ، وبالنظام والثورة ، وبالخوف من الحكام والشجاعة الفائقة أمام العدو .

كانت أطماع هؤلاء المماليك لا تقف عند حد . والمدحش أنهم حققوا هذه الأطماع جميعاً وجعلوا من مصر عاصمة إمبراطورية شاسعة الأطراف ، وزعيمة البلاد الاسلامية ومقر خلافة المسلمين . وقد حق لسلاطينهم إلى حد كبير أن يحملوا تلك الألقاب الخلابة التي كانوا يتخذونها في مكاتباتهم ، ومن بينها « السلطان الأعظم ، وسلطان الاسلام والمسلمين ، سلطان العرب والعجم والترك ، فاتح الأقطار ، فاتح الممالك والأمصار ، إسكندر الزمان ، مملك أصحاب المنابر والتخوت والتيجان ، ملك البحرين ، سيد الملوك والسلاطين ، ولي أمير المؤمنين »

أما كيف أن الملوك كان يثب إلى السلطنة ، فقصته في تسلسل درجات رجال الجيش ونظمها .

كان للأمرء كما كان للسلاطين ممالك . أما ممالك الأمير فكانوا عرضة لأن يختار السلطان أحدهم أو بعضاً منهم فيشتريه . وأما ممالك السلطان فكانوا ملكاً خاصاً به ، يتوارثهم خلفه ، أو خلفاؤه من السلاطين ، وكتب على الواحد منهم أن يظل في عبودية الرق مدى الحياة ، ما لم يعتقه السلطان ، ويدخله في إحدى طائفتي المماليك السلطانية ، أو المماليك البحرية ، ويقطعه اقطاعاً من الأراضي يتصرف فيها تصرف المتنظر عليها ويستغلها لنفسه .

وكان الجيش المصري مكوناً من ثلاث طبقات أو طوائف : طائفة أجناد الحلقة ، وهم كثرة الجيش وعامته ، وكان لكل أربعين نفساً مقدم منهم ،

ليس له عليهم حكم ، إلا إذا خرج العسكر ، فهم أشبه باحتياطي الجيش أو بالجيش المرابط . والطائفة الثانية طائفة البحرية ، وكانوا أشبه بحرس السلطان وأولى الخطوة عنده . ثم طائفة المماليك السلطانية ، وهم أعظم الجند شأنًا ، وأشدّهم إلى السلطان قربًا ، وأوفرهم إقطاعًا . ولهؤلاء أمراؤهم أو ضباطهم ، يختارون منهم ، أو يؤمّنون عليهم ، أمراء المئين ، وأمراء الطبلخاناه ، وأمراء العشرات ، وأمراء الخمسات .

أما أمراء المئين ، فكانت عدة كل منهم في الغالب مائة فارس على الأقل ، وكان للأمير منهم التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء ، وهذه الطبقة كانت أعلى مراتب الأمراء ، ومنهم كان أكبر أرباب الوظائف والنواب ، وكانوا في الغالب أربعة وعشرين أميراً مقدّماً .

وأما أمراء الطبلخاناه (والطلبخاناه ، ومعناه بيت الطبل ، يشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات) فكانت عدة كل منهم في الغالب أربعين فارساً على الأقل ، ومنهم كانت المرتبة الثانية من أرباب الوظائف ، والكشاف بالأعمال ، وأكبر الولاة .

وأما أمراء العشرات ، فكانت عدة كل منهم عشرة فوارس على الأقل ومن هذه الطبقة كان صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف .

وأما أمراء الخمسات فكان عددهم قليلاً ، وكانوا في الغالب أولاد المتوفين من الأمراء ، رعاية لسلفهم ، وكانوا في الحقيقة كبار الأجناد .

وهكذا كان الجيش المصري مقسماً إلى فرق من ألف فارس ، عليها مقدّم أو أمير ألف ، وكل فرقة مقسمة إلى طواير من أربعين فارساً ، أو عشرين ، أو عشرة . ولم تكن زيادة عدة الأمراء سبباً لارتفاع مرتبتهم ، فكثير منهم كانت عدة فوارسه أكثر من المصطلح عليها ، ولا يعد إلا في أمراء طبقته ، إلا إذا رفعته الخطوة أو الإقدام أو الظروف ، إلى إمارة أعلى من إمارته . وكان الباب مفتوحاً للارتقاء ، لا إلى إمارات الجيش فحسب ، بل كذلك إلى وظائف الدولة إذ كانت الحكومة حربية ، ووظائفها تسند إلى أرباب السيوف ،

وأجل وظائف السلطنة ما كان يعبر عنها بالنيابة ، وعن صاحبها بالنائب الكافل ، أو بكافل الممالك الإسلامية . وكان يرجع إليه في جميع أمور المملكة ، ويحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ، ويعين أرباب الوظائف ، ما جل منها

وما صغر ، وكان يكاتب نواب الممالك ، فيما كانوا يكاتبون فيه السلطان ، فكان النائب الكافل هو السلطان الثانى للمملكة ، بل إنه كثيراً ما كان السلطان الفعلى لها . وقد مر أكثر سلاطين الممالك — ممن لم يرثوا الحكم عن آبائهم — بهذه الوظيفة أو بوظيفة الأتابك ، أو أتابك العساكر ، التى كانت تلى وظيفة النائب مباشرة فى الرفعة وعلو المقام ، وكان صاحبها أكبر الأمراء المقدمين من بعده ، وكان له قبل إنشاء وظيفة النيابة ، ما للنائب الكافل من الشأن فى تدبير أمور المملكة .

وكان الأمراء المقدمون يقلّدون وظائف الدولة الهامة ، التى كان من بينها رأس النوبة ، والامير أخور والدوادرية ، والحجوية ، والامير جندار ، والاستبادرية ، والجاشنكيرية ، والخازندارية ، وغيرها من وظائف الشرطة وولاية الأقاليم ، ووظائف الممالك التابعة لمصر وولاياتها ، فى دمشق وصفد وحلب وحماة وطرابلس والكرك .

ولكل من هذه الوظائف اختصاصات محدودة ، ومزايا عديدة ، وإقطاعات واسعة ، كما أنه جرت العادة أن يكون لكل منها نواب من أمراء الطبلخاناه ، وأتباع كثيرون من أمراء العشرات ، وجند لا حصر لعددهم .

وكان للسلطان دواوين عدة ، تموج بطبقات من الموظفين ، ممن كانوا يسمونهم حملة الأقلام ، وتتبعهم طبقات عدة أخرى من الخدم أو الجند أو الحاشية . وأهم هذه الدواوين تسعة ، وأجلها وأرفعها رتبة ديوان الوزارة ، وكان ناظرها يلى السلطان مرتبة ، حتى أحدثت النيابة والأتابكية ، فتأخرت مرتبتها ، واقتصر اختصاص الوزير على النظر فى أموال الدولة ، وصار يتبعها كبراء من الموظفين ، منهم ناظر الدولة أو صاحب الشريف ، وكان مشاركاً للوزير فى هذا الاختصاص المالى . ومستوفى الصحبة ، وله ديوان تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية فيه . ومستوفى الدولة ، الذى كان يتولى مراجعة أبواب مصروفات الدولة وإيراداتها .

أما الدواوين الأخرى فكانت تختص بكتابة السر ، ونظارة الخاصة السلطانية ، ونظارة الجيش ، ونظارة الخزانة ، ونظارة البيوت والحاشية ، ونظارة بيت المال ، ونظارة الإصطبلات ، ونظارة دور الضيافة والأسواق . ولا شك أن أهمية هذه الوظائف كانت تتغير بتغير السلاطين ، ومنها ما لم

تمكن حددت اختصاصاته ، ولكنها استقرت على هذا النظام تقريباً ، بتولى الممالك الشراكسة سلطنة مصر .

وترسم من درجات هذه الوظائف صورة واضحة لما كانت تستند عليه حكومة الممالك ، وتبين كيف أن النظم الحربية جعلت لأمراء الجند سلطة تامة على جميع مرافق الدولة ، ومهدت لصغارهم سبل الترقى في درجات الوظائف ، وهيات لبعضهم فرصة الوثوب الى السلطنة .

وقد جرت العادة أيضاً أن يكون لكل أمير من كبار الأمراء ، أمراء المثنيين او امراء الطبلخانات ، بيوت خدمة ، مثل بيوت خدمة السلطان ، من طشت خاناه ، وفراش خاناه ، وشراب خاناه ، وركاب خاناه ، وزرد خاناه ، ومطبخ وطلبخاناه . وبينما كانت البيوت السلطانية تسمى بالبيوت الشريفة ، كانت بيوت الأمراء توصف بالكريمة .

ولكل بيت من هذه البيوت مهتار ، أى كبير ورئيس مسئول عنه ، وتحت يده رجال وغلما ن ، ولكل منهم وظيفة تخصه . وللأمير فوق هذا موظفون من حاشيته العساكر تشبه وظائفهم وظائف السلطان نفسه ، وتتخذ ألقابها مثل رأس نوبة ، ودوادار وأمير مجلس وجدار وأمير أخور وغيرها .

وكذلك كان لكل أمير ، مثل ما كان للسلطان ، حواصل من إصطبلات وخيول ومناخات الجمال ، وشون الغلال . وكان الأمير منهم اذا خرج يخرج في موكب حافل ، تتقدمه أكابر عساكره من أرباب الوظائف عنده ، وتسير من خلفه مماليكه وغلما نة . واذا جلس نُصِبَ خلف ظهره ستار أو بشتميخ من الجوخ الأحمر المزهر بالألوان والمطرز عليه رنك ذلك الأمير وألقابه .

والرنك ستار الأمير وعنوان المجد ، تنوعت أشكاله ، وجرت العادة أن يكون دائرة تحصر في داخلها رسم صقر أو أسد أو سيف أو دواة أو فرنسية ، وهى زهرة اللوتس شعار ملك فرنسا ، وكان الأغلب رسم الكأس أو الدواة . وقد تكون منقسمة إلى قسمين أو ثلاثة ، بكل منها رسم خاص . وهذه الرنوك مختلفة الألوان ، يجعل الأمير ما يختاره منها ، دهاناً على أبواب بيوته واملاكه أو طرازاً على أقمشة خيوله وجماله ، أو نقشاً على سيوفه وأقواسه ، أو طبعاً على أوانيه من زجاج ونفخار .

وحياة الأمراء الممالك كلها مظاهر خلافة . كان من عاداتهم فى القاهرة ،

أنهم يركبون في مناسبات مختلفة في مواكب طنانة ، مع النائب الكافل أو مع حاجب الحجاب ، أو في حاشية السلطان ، وكانوا يلبسون الملابس الثمينة الظريفة ، ويتحلون بالعدد والسيوف الفاتقة الثمينة ، فالملابس مطرزة مزركشة ، والمناطق مطلية بالذهب أو الفضة مرصعة ، ولا يركبون إلا الخيل المسومة ، أما البغال فلا يركبونها بحال ، بل يركبها غلمانهم خلفهم .

وإذا استعرضنا الألقاب التي كانوا يتخذونها ، أو التي كانت تطلق عليهم في المكاتبات الرسمية ، زدنا اقتناعاً بما كان يربط المملوك بالسلطان ، من صفات مشتركة وصلات ممتدة .

فقد كان النائب الكافل تطلق عليه ألقاب رنانة منها : الجنب الكريم ، والعالى الأميرى ، عز الاسلام والمسلمين ، وسيف الأمراء فى العالمين . وكان رسم المكاتبه للأمراء مقدّمى الألف ، لا يختلف عن رسم المكاتبه للنائب الكافل ، إلا فى استبدال الجنب العالى أو المجلس العالى بالجنب الكريم وحسام أمير المؤمنين ، بسيف أمير المؤمنين .

وكان لكل طبقة من الأمراء ألقابها الخاصة ، فاذا وصلنا الى الجندى المملوكى نفسه رأيناه يلقب فى المكاتبات الرسمية بالأمير الاجل .

كان للجندى المملوكى إذن مرتبة جليلة ، تميزه عن سكان البلاد وأهلها ، بل تميزه عن طبقات عدة من موظفى دواوين السلطان ، من طبقات أرباب الأقلام . وبينما كان هؤلاء كما كان لأرباب الوظائف الدينية مرتبات شهرية محدودة تصرف اليهم كان للمملوك ، منذ اليوم الذى يعتق فيه ، إقطاع من بلاد المملكة وأراضيه ، يستغله كيف شاء ، ويسخر فيه من عامة الشعب وفلاحيه من أراد ، ويتصرف فى ذلك تصرف المالك والسلطان .

وتختلف قيمة الإقطاع باختلاف مرتبة المملوك ، فكان للأمراء المقدمين إقطاعات ، يخص كل واحد منهم ما قد تبلغ قيمته مائتا ألف دينار أو تزيد . وكانت تبلغ قيمة إقطاع الواحد من أمراء الطبلخاناه ثلاثين ألف دينار ، أو أكثر . وكان يقطع كل من أمراء العشرات أراضى تصل قيمتها الى تسعة آلاف دينار . أما مقدمو الحلقة فكان يبلغ إقطاع الواحد منهم ألفاً وخمسمائة دينار . وأخيراً كان الجندى المملوكى نفسه يفوز يوم إعتاقه ودخوله فى زمرة الممالك السلطانية ، بإقطاع قيمته مائتان وخمسون ديناراً ، أى ما كان يعادل راتب

الوزير في الشهر الواحد ، وذلك بخلاف ما كان يحق له من الرواتب الجارية ، من لحم وتوابل ، وخبز وعلف ، وزيت وكسوة وشمع ، وبخلاف ما كان يُمنَحُه في مناسبات زواجه أو مواليده ، وبخلاف ما كان ينتظره من حظوظ الانتقال الى مرتبة العشرة ، أو الطبلخاناه ، والفوز بما كان يخصها من الاقطاعات .

سردنا من أحوال المماليك ، وألقاب أمراءهم ودرجات وظائفهم ، وقيم إقطاعاتهم بعض ما يدلنا على أن المملوك كان في الحقيقة سلطاناً مصغراً أو مختصراً ، أو أنه كان له في حدود إقطاعه ووظيفته ، تلك السلطة المطلقة التي كانت للسلطان في حدود مملكته ، كما كان له بعض ما كان للسلطان نفسه من ألقاب ومزايا وبيوت . غير أنه في كل هذا ، ومهما بلغت مرتبة وظيفته من العلو ، كان رهن إشارة السلطان ، ومملوكاً من ممالكه ، وعرضة لأن يفقد جميع ما كان حظى به في إمارته ، فقد كان السلطان يستطيع إذا شاء أن يسترد منه إقطاعه ، أو يقصيه عنه ، ليتصرف فيه . وكان السلطان يستطيع فوق هذا أن يفتك به ، ويقضى على أسرته وخاصته وأتباعه . ولم يكن السلطان نفسه أسعد حالاً من مملوكه ، فقد كانت الغلبة في السلطنة لأشد الأمراء قوة وأكثرهم حيلة ، فكان السلطان في هذا شبيهاً بمملوكه ، يعوزه الاطمئنان الى غده ، والثقة بالاحتفاظ بسلطنته .

وكان الإقطاع يتبعه الارتقاء الى الإمارة ، وكانت أهميته بنسبة درجة الأمير . ولكل منشور أو أمر باقطاع صورة يكتب بها ، كانت تختلف حالها ، باختلاف مراتب أصحابها . وكانت صيغة المنشور الذي يُمنَحُه الجندي المملوكي والذي كان ينتظم به هذا الجندي في سلك الأمراء ، تنص على أن هذه المنحة كانت الخطوة الأولى للترقي « في درج السعادة » والبلوغ بالمملوك الى « رتبة السيادة » فهي تعبر أصدق تعبير عما كان يحتاج نفوس هؤلاء المماليك من الطموح الى أعلى المراتب ، وترسم الخطوة التي أحكمها المماليك ، للتدرج من الرق والعبودية ، الى الحكم والسلطنة .

أحمد فكري

زورق في حجب الظلام

الشاطئان تناجيا والفرقدين
والموج يعث جاريا بالضفتين
الماشقان تلاقيا في زورقين
فتجافيا وتناثيا عن كل عين

في مكن بين الغصون
جمعا وإن أبت السنون
لم يرهبا حتى المنون
وتشاكيا رجم الظنون

وتراحما بعد الوطر في زورق
والنهر يضحك والقمر في المشرق
وإلهما مال الشجر بتشوق
غفت المدينة والقدر فلنلتق

فسرى التهامس في الزهور
وجرى التناجي في الطيور
قد فاز في الدنيا الحسور
ومشى على هام الدهور

زورق في حجب الظلام

يا مـى هاتى قبلةً من وجنتيك
ولتمنحيني جذبةً من معصيك
ألقى حنيني دمةً في عارضيك
شعنت فظنت نجمةً هبطت عليك

وصعت فيها العسجد
لتزين خدًا وردًا
يغشى العيون إذا بدا
فتظنه متوقدا

فتمنت الأيام ليلاً دائماً
والنوم يرعى كل عين — سائماً
فيظل طول الدهر حياً نائماً
والساع لا تلقاه طياً هادماً

إذا ذاك يصفو عيشها
تزهو على رغم المها
وتضمه ويضمها
صب بيت مولها

من ههنا وههنا

عمر فاخوري

بالغا مرتبة الكمال، وإما ألا يكون البتة .
بذكاء متلهب وعقيدة صادقة يشور عمر
فاخوري على الجود والدعوى وعلى التلفيق
والارتجال . إنه لمثل الدراية والأمانة يضرب
لأهل الغرور والزور .

ثم إن داعياً في نفس عمر دعاة إلى شؤون
السياسة، لا السياسة الصاخبة ولا المفرضة،
ولكنها السياسة التي يتغذى بها الإيمان بحقوق
الإنسان . هل تسمع إلى قوله في كتابه
« لا هوادة » : « الشباب البصير الواعي
وعياً قومياً صحيحاً مادياً، إذا أمكن القول،
لا يؤخذ بالترهات والأباطيل . . . هو ليس
من المشتغلين بالسياسة مهنة أو تكسباً، ولا
تطرفاً أو تزيداً، بل ببساطة طواعية،
و « حياتياً » إذا صح التعبير . » على هذا
النهج نشط الفاخوري وعمل للشعب ووقف قلبه
لديمقراطية، للسواد الأعظم من بني وطنه .
وعنى سليم في الأدب وكذلك في الوطنية،
مع قلم متمكن متصرف، يجريه فكر فطن
مستحصف .

رحمك الله، يا أخى في الفن الأسمى ! لقد كنت
من أنفذ الكتاب بصراً وألمهم بصيرة في
لبنان، وفي غير لبنان .

كل شيء فيه كان يشف عن الرقة : نحيف،
ممشوق، مقتضب الحركة، ناعم الطرف،
خافت بصوته، ومن وراء « نظارته » كان اللحظ
يثب إلى الدقائق من كل فن . كان شحذ حسه
وبرى فهمه، وكان وسع أفقه وكبر قلبه وهو
يتلقى لطائف العرفان في باريس، في السربون
خاصة : لطف مكتسب وافق رقة مستقرة،
خرج من امتزاجهما ذوق رهيف وإدراك
صحيح .

عرفته في بيروت، ولكنني لم أجلس إليه
سوى مرات في كل رحلة . كان في شغل شاغل
وهم لازم . كان الفنان الحيران التلق . يقرأ
ويكتب أحسن ما تكون القراءة والكتابة .
لمست فيه الفضيلة العظمى : الاخلاص للفن،
والمقدرة الكبرى : التعبير الفائر .

إسمه يقول في « الفصول الأربعة » :
« الأديب في بلادنا صورة رجل من ورق
وحبر، لا نكاد نجد فرقاً إلا في لون الحبر
ونوع الورق »، ثم : « يجب على الفنان أن
يتصل بهذا الوجود فلا يستمد على الحفظ
والقراءة »، ثم : « لا يهتم الأديب إلا أن يخرج
آية فن باقية على الزمان »، ثم : « إن الشعر
لا يحتمل أوساط الأمور، فلما أن يكون

بشر فارس

معرض الفكر الحديث الأول ببغداد

وأما المستر كينث وود (وهو رسام إنكليزي) فقد أخرج في هذا المعرض كثيراً من الصور التي تمثل انطباعاته عن العراق الذي عاش فيه حوالي ثلاث سنوات، إلا أنه لم يستطع التحرر من إنكليزيته (من حيث الألوان) ولا من تأثيره السطحي بأقاصيص ألف ليلة وليلة... فان العراقي حين يقف أمام صورته يعجب ويأخذه الدهول... ومع كل هذا ففي صور هذا الفنان انسجام وترباط يستحق عليهما التقدير...

وجواد سليم (وهو عراقي) لم يعرض إلا تمثالا خشبياً واحداً، على حين عرض ما يقرب من أربعين صورة وتخطيطاً... وفي كلها يريد أن يخبرنا عن جهاده المتواصل من أجل خلق الشخصية العراقية بفنه دون الانسهار في تأثير بيكاسو وماتيس ولوتريك، إلا أنه ما يزال في طريقه، كما أعتقد، غارقاً في ذلك التأثير... وقد عرض بعض الانكليز والبولونيون والعراقيون الآخرون صوراً تختلف روحاً وطريقة، إلا أن أكثرها يميل إلى التجديد والابداع والانطلاق من القيود الأكاديمية (ما عدا الانكليز فهم ما يزالون ينقلون الطبيعة كما تنقلها الكاميرا).

هذا وقد اقترح المعرض معالي وزير المعارف العراقية السيد نجيب الراوي الذي يدأب على تشجيع الفن والفنانين... وزاره عدد كبير من الشخصيات البارزة في بغداد ممن يهتم بالفن، ومن الجاليات الأجنبية. كما كان إقبال الجمهور على زيارة المعرض عظيماً جداً، مما دل على كثرة اهتمام الشعب العراقي بالفن، وقد كتبت الصحف العراقية كلها تلهج بابداء تهنيتها للاستاذ جميل حمودي لنجاح معرضه الأول هذا.

أقامت مجلة «الفكر الحديث» في بغداد معرضاً واسعاً للرسم والنحت والعمارة اشترك فيه جمع من الفنانين العراقيين والأجانب من بولونيين وإنكليز...

وقد كان من أبرز العارضين فيه، الاستاذ جميل حمودي صاحب مجلة «الفكر الحديث» ورئيس تحريرها ومنظم هذا المعرض الفخم، برسومه وتماثيله التي نحا فيها نحو الانطباعية الحديثة post impressionism والسريالزم surrealism وقد كان في بعض تماثيله الخشبية مثل «رأس قتاة» و «نحت» من الصفات الجديدة المبتكرة ما يجعله في صف واحد مع الفنانين العالميين الحديثين؛ فانه حقق فيهما أفكاره وآراؤه الخاصة في الفورم والصبغة الفنية المطبوعة بطابعه العميق. كما بلغ بتمثال أبي العلاء المعري مرتبة رفيعة في القدرة على الاخلاص للفكرة وإجادة العمل الفني في نفس الوقت، مما يدل على سعة مقدرته واطلاعه... ولا ريب في أن الاستاذ جميل حمودي من أعمق الفنانين العراقيين تفكيراً واطلاعا على الموجات الفنية والفكرية في العالم.

كذلك الاستاذة نزيهة سليم كانت في هذا المعرض من الخارجين إلى أجواء ملونة أكثر انطلافاً، حتى لكأنني وأنا أتساق مع صورتها «في غرفة الصف» التي تمثل التلميذات إبان الدراسة، أكتشف شيئاً جديداً من الأحاسيس وأصبح في بحر خضم من الروح الطفولي الحبيب. والمسيو ماتوشاك (وهو رسام بولوني) قد أثار في نفسي العجب ورسم على وجهي الاستفسار؛ فقد كانت في رسومه فلسفة يصعب أن يدرك كنهها إلا بالدرس والتعمق. وقد أظهر في جميع رسومه تأثيره العميق بالجو والحياة في العراق...

من هنا وهناك

الذي نريده فصلاً في تاريخنا الحديث ليشجعنا
على أن نتقارب نحن العرب ونزيد التفاهم بيننا .
فليكن ذلك عن طريق الفن أيضاً !

وأخيراً أحب أن أسألك : لماذا لا يتفضل
إخواننا الفنانون المصريون فيقيموا معرضاً
لا تاجهم في بغداد . . . إن هذا العهد الجديد

صاحب الصباغ

[بغداد]

الشاشة البيضاء في مصر

صريحة ، حاسمة ، تقيم الآود وتثبت الايمان
بالفضيلة وتذهب بأوهام الشك من العقول
الضئيلة والنفوس الخاوية ؟ إنهم ولا شك
قد رغبوا في هذا كله أو في شيء من هذا كله
وحاولوه ، وما ينكر أحد أنهم ينفقون كثيراً
من الجهد والمال فيما يفعلون ، وأن فهم كثيراً
من أصحاب الرغبة الصادقة في أداء هذه
الرسالة على وجهها ، ولكن أحداً لا يستطيع
أن يقول بحق إنهم كانوا موفقين في كثير
مما اختاروا وقدموا للناس ، أو أن في رواية
السينما المصرية شيئاً يستحق أن يخرج له من
البيت ، أو يدخل إليه من الطريق ، وفيها
من صور المآسى والمهازل ما يقطر دماً ،
وماء حياة .

وفي السينما المصرية حب وغناء . والحب جميل
إلا أن يكون حب اللبس والتشهي ، وصناعة
الأجساد ؛ فهو جميل في النيرة والاثارة
فتضفيه على أخيك وصاحبك وجارك والناس
جميعاً ، وجميل في الآثرة والاثانية فتضفيه على
نفسك بكسب المحامد في بذل النعمة وإسداء
المعروف . والثناء جميل في حلاوة الصوت ،
وعذوبة اللحن ، ولطف الأداء ، وشرف
المعنى ، لا أن يكون غناء تمجيد الأذن ،
وتستحي منه العذاري ، ويعافه اللسان الغفيف .
وفي السينما المصرية نقص وبها حاجة إلى
الانارة في الإنتاج ، ولست هنا في مقام نقد

بل هي السوداء إن لم يكن شر من
السواد ، فما استطاع الذين شاءوا تجنب
مصر ويلات الحرب وعملوا له ، أن يجنبوها
ذلك البلاء المطبق في سوق الأرزاق وسوء
الأخلاق .

وبينما كان الناس هناك في روع القتال
وهوله ، كان عبيد المال من أشباه الناس
يمسكون القوت ، ويرسلون العذاب على الناس
ألواناً من العوز وفحش النلاء ، حتى اكتسوا
من عزي الكريم وشبعوا من جوعه . ثم
طاق بهؤلاء وهؤلاء طائف من أصحاب
الوجوه المستعارة جاءوا برسالة الفن ، وعز
عليهم ألا يكون للسينما في مصر مكانة كما لها
في أخوات مصر من ممالك النور ، وعز عليهم
كذلك أن تسير قنوات من الذهب والفضة
بين الأكل والمأكول فلا يذهبون منها
بنصيب .

وبعد ، فبأي خير جاء القائلون بالامر في
صناعة السينما المصرية ؟ وماذا قدموا لهذا
الشعب المسكين ، الصادى إلى المعرفة ، المتطلع
إلى النور ؟ أتراهم بينوا للناس صوراً واضحة
من الخير في شتى مذاهبه ، يتأسى بها روادهم
الكثيرون من صغار وكبار في جميع الطبقات ؟
أم تراهم عمدوا إلى عقد المجتمع ومشكلاته
فتناولوها بأساليب مختلفة : من التهويل
والتهوين ، ووضعوا لها حلولاً حازمة ،

من هنا وهناك

رواية بعينها ، أو التعرض لشخص بذاته ، وإنما هي رغبة صادقة في الإصلاح ، ونداء من قريب ، إلى هؤلاء الذين يتصدون لهذا الامر في مصر ، أن يحسنوا الاختيار ، ويرفعوا عن الاسفاف ، وأن يقتصدوا فيما يأخذون عن الغرب ، إلا ما سبقوا إليه من

عدة أو صناعة ، فهم يرون أن حضارة الغرب لم تجعل منهم أمة صالحة فاضلة ، وهم يعلمون أن حظ الشرق من الدين والفكر والآداب عظيم ، وأن كل ما في الغرب أو كثيراً منه هو بعض هذا التراث ، مطبوراً في الجليد أو تراب الفحم ، محروماً من ضوء الشمس ووضوح النهار .

عبد اللطيف إبراهيم

« جنابة »

الرحلاوى لنفسه أن ينشر قصة واحدة بعنوانين في مجلتين لها مكاتهما في الأوساط الأدبية . فلذا جئكم برسالتى هذه مستفسراً عن هذا النمط من الأدب . هل الأستاذ الرحلاوى بعث بقصته لكم كما بعث بها لمجلة « الرسالة » ؟ أم أنكم نقلتموها من « الرسالة » بعد أن غيرتم عنوانها ؟ وهل يجوز هذا ؟ أما أنا — مع قلة معرفتى بالأدب — فأنى أستنكر هذه الطريقة من « الكاتب المصرى » التى انفردت دون سواها بالأبحاث الجديدة . نعم أستنكرها من المجلة لأنها الوحيدة التى نقلت آداب الغرب إلى اللغة العربية قبل أن تقرأ بلنتها الأصلية . فكيف أجازت لنفسها نقل قصة أكل الدهر عليها وشرب ؟ هذا وتفضلوا بقبول فائق احترامى يا سيدى العميد ؟

على إبراهيم الخطاوى

سيدى عميد الأدب العربى
محبة واحتراماً . وبعد ، ماكدت أتهى من تلاوة الشطر الثانى من قصة « جنابة » للأستاذ حبيب الرحلاوى فى العدد السابع من مجلة « الكاتب المصرى » ، حتى تذكرت قراءة هذه القصة فى مجلة « الرسالة » . فرجعت من ساعى لمجلات « الرسالة » أبحث فى فهارسها ، ولكن دون جدوى ؛ إذ لم أجدها أثراً فى الفهارس . وقد غلبنى حب الاطلاع ودفعنى الاستفسار ألا أكتفى بالفهارس فقط ، بل صرت أقلب صفحات مجلدات « الرسالة » واحدة بعد الأخرى ، مراعيّاً نظام التسلسل فيها . نعم بقيب أقلب الصفحات أكثر من ساعة متحملاً الجهد والعناء ، حتى وجدتها منشورة فى عدد (٦٠٤) من المجلدة الثالثة عشرة ، تحت عنوان « الجارم البرئ » فعجبت لهذا التغير فى العنوان ؛ إذ كيف أجاز الأستاذ

[عراق نعمانية]

يؤكد سكرتير تحرير المجلة أنه لا يزال يحتفظ بأصل القصة التى كتبها الأستاذ حبيب زحلاوى ، وأنه كان له فيما مضى من الثقة بأدب الأستاذ ما جعله يعمل على نشر هذه القصة ، والأستاذ حبيب زحلاوى يحترف مهنة التجارة وهو على علم بأصولها ، فلما رآه فى التاجر الذى يبيع السلعة الواحدة مرتين ؟

شرايت

شهرية العلم

اختفاء البكتريا

أظهرت شيئاً آخر ؛ إذ أن جميع مستعمرات الستيفيلوكوك حول العفن ، وكانت قد نمت جيداً قبل ذلك ، قد اختفت . وبدأ كأن شيئاً قد أذابها .

ولقد أثارت هذه الظاهرة اهتمامي أكثر من المشكلة التي كنت مشغولاً بها ، وكنت رأيت قبلاً ميكروبات تذوب ، وقد كنت شرحت منذ بضع سنوات أن أشياء بسيطة مثل دموع الانسان أو بياض البيض قد تذيب كميات كبيرة من الجراثيم في بضع ثوان حتى إن ما كان من قبل شيئاً معتماً معلقاً مثل الحليب صار شفافاً ، غير أن الميكروبات التي تذيبها الدموع أو بياض البيض لم تكن من النوع الذي يسبب الأمراض . ولكن هنا مع العفن وجد ميكروب يسبب المرض في طريق الذوبان ، وليس هذا أمراً يجوز تجاهله

ثم لمست سطح مزرعة العفن بسلك بلاتين معقم ، وأخذت بضعة بذور ونقلتها إلى أنبوبة مزرعة جديدة ، وهكذا توافر لي عفن ينمو نقياً وأمكنني أن أعيش به وقت الفراغ كما أريد . وأول ما فعلت هو أنني نقلت بضعة بذور من مزرعتي الجديدة (العفن) إلى طبق مزرعة جديدة وتركتها تنمو مدة خمسة أيام ، ثم مددت من مستعمرة العفن إلى حافظته تشكيلة من الميكروبات المختلفة ثم أودعت الطبق في جهاز التفريخ ولما نظرت في اليوم التالي كانت النتيجة تدعو لكثير من الاهتمام ،

كنت في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ ألعب بمكروب مرض عادي وهو ستيفيلوكوك ، وهو للميكروب الذي يسبب الاخرجة والدمامل وأمراضاً أخرى ، ولم أكن مشغولاً في بحث صديق ، فقد قال بعضهم إنه يمكنه بطريقة ما أن يغير مظهر مستعمرات هذا الميكروب فأردت أن أعرف أهذا حقيقي . وتستنبت تلك للميكروبات في أطباق زجاجية مسطحة على مادة زرع تشبه الجلوتين (الهلام) ، وتغطي الاطباق بغطاء لكي يدرأ عنها التلوث بميكروبات الهواء . وفي أثناء بحوثي اضطررت أن أنزع الغطاء لكي أخص نموها تحت الميكروسكوب ثم غطيت الطبق ثانية وأزحته جانباً لفحصه بعدئذ . فكان نزع الغطاء هذا السبب في حدوث متاعب بسبب التلوث من الهواء . وفي الواقع حدثت المتاعب إلا أن البنيسلين نتج من أحدها .

وهذا هو ما حدث : كان لدى طبق منبت مغطى بمستعمرات من الستيفيلوكوك ، وفي أحد الفحوص وقعت بذور *spores* من البنيسليم *penicillium notatum* من الهواء في الطبق وهذه وجدت وسطاً مناسباً فنتت . ولما رأيت المزرعة عقب ذلك بحوالي خمسة أو ستة أيام كان بها مستعمرة من العفن . ولم يكن هذا غريباً ؛ فقد تصادف كل بكتريولوجي مثل تلك المتاعب ، فكان يرمى المزرعة مصحوبة بالنموت اللائقة بها . إلا أن تلك المزرعة بالذات

بعضة ميكروبات لم تكن تنمو في أية جهة بجوار العفن وميكروبات أخرى نمت لناية العفن .

والآن بدأنا معرفة شيء عن العفن ، وكان من الواضح أنه في نموه أنتج شيئاً انتشر في مزرعته .

فكان لهذا الشيء تأثير في بعض الميكروبات دون بعضها الآخر . وهكذا أخذت أهمية المسألة تزداد أكثر فأكثر .

والشيء التالي الذي فعلته هو أني زرعت العفن على مزرعة سائلة بدلا من الهلام الجامد فزرعت بعضة بذور على سطح السائل وفي بعضة أيام صار سطح السائل مغطى بنمو سميك متعرج من العفن يشبه اللباد ، واتخذ السائل الذي تحته لونا أصفر فاقعا . ثم أخذت بعض السائل الأصفر واختبرت خواصه بنفس الطريقة التي اتبعتها قبلا ، وذلك بأن نزلت قطعة من الهلام من طبق مزرعة وملأت الحفرة التي نشأت بالهلام المحتوي على سائل من مزرعة العفن ، ثم طعمت طبق المزرعة بميكروبات مختلفة بعدها من الحفرة المذكورة إلى حافة الطبق وكانت النتيجة مماثلة تماماً لما حدث في المشاهدة السابقة ، فبعض الميكروبات لم تكن لتنمو بجوار الحفرة والأخرى نمت حتى وصلتها . وهذا يرينا أن المادة المطهرة أياً كانت التي كونها العفن لم تكن ضمن نفس مادة العفن بل وجدت في السائل الذي نمت فيه .

وبالمصادفة أن الطريقة المذكورة هي المتبعة الآن عادة لمعرفة الجرثومة المسببة للعدوى في مريض ما أي حساسة للبنيسلين . فإذا كانت الجرثومة لا تنمو لغاية البنيسلين فهي حساسة لتأثيره ويصبح الأمل عظيماً في أن يكون العلاج بالبنيسلين ناجحاً . أما إذا كانت الجرثومة تنمو لغاية البنيسلين فإن الأمل يكون قليلاً في العلاج بالبنيسلين .

ومما تقدم نكون قد حصلنا على مادة تمنع

نمو بعض الجراثيم التي تنتقل لنا العدوى عادة . ثم اختبرت منتخباتاً صغيراً من أنواع العفن الأخرى ولكنها لم يكن لها أي مفعول كهذا . ثم اختبرت درجة قوته بعمل تخفيفات ، لأرى إلى أي حد يمكن أن يُخفف قبل أن يفقد مفعوله في منع نمو جرثومة حساسة . وقد اختلفت أنواع النمو ، إلا أن أحسن ما وصلت إليه أمكن تخفيفه ١٠٠٠ ضعف قبل أن يفقد قوته المنعية . ويمكن أن تقارن هذا بحامض الكربوليك وهو مطهر قديم نموذجي . فإذا خففنا حامض الكربوليك أكثر من ٣٠٠ ضعف فإنه لن يمنع نمو الجراثيم . إذن فإن العفن أنتج مطهراً كانت قوته ثلاثة أضعاف قوة حامض الكربوليك على كثير من الجراثيم .

وإلى هنا سئمت الكلام « عن سائل العفن » . لذا سميت النتائج « بنيسلين » لأن العفن الكامل التطور أو النمو يشبه قلم أوفرشاة مما يسمى بنيسلين .

ثم حقنت بعضة حيوانات بقليل من البنيسلين فوجدت أنه على ما يبدو لم يكن له أي خواص سامة ، وهذا يختلف عن كافة المواد المطهرة المعروفة . وهذه نقطة في غاية الأهمية .

لأنني قبل ذلك بحين كنت تقدمت بطريقة أثبت فيها أن المواد الكيميائية المطهرة المعتادة كانت أكثر تسميها لخلايا الدم منها للبكتريا .

ودم الانسان مهم فيما يختص بالبكتريا ، فهو يحتوي على خلايا الدم البيضاء leucocytes وهي مبيدة قوية للجراثيم ، وهي تتكون في نخاع العظم وتسير في الدورة وعندما تنفذ الجراثيم إلى الجسم وتبدأ في النمو تخرج خلايا الدم البيضاء من الأوعية الدموية إلى النقطة التي بها العدوى وتبذل جهودها في أن تهزم الجراثيم بأن تأكلها وتهضمها .

فإذا كانت الجراثيم قليلة والخلايا لا تأكل منها الكثير أمكنها أن تهضمها جيداً ، إلا أن الخلايا مهمة — مثل الكثيرين منا — ، وهي على

كربوليك بنسبة ١-٦٠٠ فان جميع الميكروبات تقتل حية ؛ وذلك لان محلول حامض الكربوليك بنسبة ١-٦٠٠ سيميت خلايا الدم دون أن يعوق نمو الجراثيم . ووجدت نفس الشيء في جميع المطهرات المستعملة ، وأول مادة جربت بها وأثرت في الجراثيم أكثر من خلايا الدم كانت البنيسلين ؛ وقد كان في هذا خاصة ما أقنعني أنه سيحتل المكان اللائق به في علاج المرض الجراثيمي .

وفي ذلك الوقت كان لدينا بنيسلين خام، بيد أنه يجدر بنا أن نوضح لكم مقارنة بين مفعول البنيسلين النقي في خلايا الدم والجراثيم ومفعول المطهرات الأخرى المعروفة فيما يأتي :

استعداد لأن تأكل كمية أكثر جداً مما يمكنها هضمه ، وفي هذه الحالة تستمر بعض الجراثيم في النمو في الخلايا ، وعندئذ تباد الخلية لا الجرثومة . فإذا تلبت الجرثومة على الهجوم الأولى للخلايا فحينئذ ينتج خراج أو دمل أو طلوع أو أردأ من ذلك ؛ لأنك إذا أخذت قيقاً من خراج ما ، وجدته عبارة عن تجمع من خلايا الدم البيضاء في سوائل تحتوي على جراثيم .

إذا أخذت دماً وفرخته في أحوال مناسبة مع الستافيلوكوك (جرثومة الدمل أو الخراج) فان ٥ ٪ أو أقل من الجراثيم تبقى حية ، فإذا أضيف إلى هذا الدم المغذى بالجراثيم حامض

التخفيف يؤثر في

النسبة	الستربتوكوك جرثومة سبجية	كريات الدم البيضاء	
١-٤	١-٣٠٠	١-١٢٠٠	حامض الكربوليك
١-٤	١-٢	١-٨	T. C. P.
١-٥	١-١٠٠٠	١-٥٠٠	أكروفلافين
١٠٠٠	١-٢٠٠٠	١-٢٠٠	سلفا نيلاميد
١٠٠٠-٨٠٠	١-٨٠٠٠	١-١٠٠	بنيسلين

في علاج العدوى داخل الجسم مع أنها قد تكون قوية جداً خارجه .

وثمة ملاحظة أخرى أبديناها في تلك الأيام ولكنها لم تنشر إلا في الوقت الحاضر وهي عبارة عن مقارنة أخرى بين البنيسلين وبعض المطهرات القديمة ؛ فقد ثقبنا أقراصاً من طبق به مزرعة هلامية ، وفي الثقوب الناتجة وضعنا أقراصاً من ورق النشاف منقوعة في مطهرات مختلفة ، ثم ملأنا الثقوب بهلام جديد ، ولما تجمد الهلام زرنا جراثيم على كل سطح الطبق . ولكيما يؤثر المطهر في الجرثومة يجب أن ينتشر مجتازاً حوالى $\frac{1}{16}$ بوصة من الهلام ، فكان البنيسلين هو الوحيد الذي فعل ذلك ،

وإني أوجه التفات القراء إلى الرقم ١-٨٠٠٠-٨٠٠٠٠ فانه بالطبع يمثل البنيسلين النقي (لا النوع الخام الذي كنا نتداوله منذ ١٥ سنة مضت) . ولكن هل تدركون ما هو المعنى الحقيقي لجزء من ثمانين مليوناً ؟ ولما كنت أسكتلندياً فسأقرب المسألة لأذهانكم فأقول : هذا يمثل نقطة من الماء في ٦٠٠٠ زجاجة ويسكي ، ولو أنه من الصعب في يومنا هذا أن تتصور ٦٠٠٠ زجاجة ويسكي .

وهذا الجدول يبين أحد الفوارق بين المطهرات القديمة والمطهرات الحديثة ؛ فان المطهرات القديمة التي تتلف خلايا الدم بسهولة أكثر من إتلافها للجراثيم لم تكن ذات تأثير

بل المحلول الخفيف منه أوقف نمو الجرثومة في مساحة قطرها بوصة ، وأجرى كل هذا في سنة ١٩٢٨ — ١٩٢٩ — ١٩٣٠ ، وقد تنساءل لماذا لم تستمر تلك البحوث إذا كانت فائدتها بهذا المقدار ؟ ولكن الذي غلبنا فعلا هو عدم ثبات البنيسلين ، بحيث إذا أنمينا مزرعة منه لمدة عشرة أيام فإنها تكون فعالة جدا . أما إذا تركت لمدة خمسة أو ستة أيام أخرى فربما اختفت فاعليتها تماما . ثم إنى بكتريولوجى فقط ولست كيميائيا ، ولم تنجح مجهوداتى ومجهودات زملائى البكتريولوجيين في مستشفى سانت مارى في تركيز أو تثبيت للمادة الفعالة ، وقد كان ينقصنا كيميائيون ماهرون لمساعدتنا .

وعقب ذلك بحوالى سنة تناول مشكلة استخراج البنيسلين كيميائى ماهر جدا وهو الأستاذ ريكسترك بلندرة ، فانه أنعمى العفن في سائل بسيط يحتوى على أملاح قليلة وقليل من السكر ، وقد أمكنه أن يبرهن على أن العنصر الفعال يمكن إذابته في حامض الاثير . وكل التجارب عن البنيسلين كانت بكتريولوجية ، إلا أن معاوته البكتريولوجية لم تحقق أمله فترك المسألة واشتغل ببحوث أخرى .

وكنا في مستشفى سانت مارى ينقصنا الكيميائى ، وكان ريكستريك ينقصه البكتريولوجى وهكذا ظلت المسألة ساكنة ثمانى سنوات ، إلا أننا داومنا عمل المزارع طيلة ذلك الوقت في مستشفى سانت مارى . وإنى أحتفظ فعلا بالمزرعة الأصلية التى لاحظنا فيها تأثير البنيسلين وما زالت عتدى في معمل ذلك المستشفى ، وفى خلال ذلك كنا نستخدم البنيسلين الخام في معمل سانت مارى ، وهذا لغرض سهولة عزل جراثيم معينة من الجسم . وكان المعتاد أن عزل باسيل السعال الديكى هو من الصعوبة بمكان ، إذ أنه يكون في الجسم غالبا مصحوبا بجراثيم أخرى . وباسيل السعال الديكى غير حساس

للبنيسلين في حين أن كل مسببات التلوث التى تصاحبه حساسة تقريبا له ، ولذلك فأننا إذا وضعنا قليلا من البنيسلين على المزرعة فإن الجراثيم الملوثة لا تنمو ، على حين يستمر باسيل السعال الديكى في النمو .

وقد قرر فلور وشين في سنة ١٩٣٨ في أكسفورد أن يقوموا بأبحاث في المطهرات التى تنشأ في الطبيعة . وكانت أبحاثهما مبنية على Iysozque وهى المادة المذيية للبكتريا في الدموع وبياض البيض التى وصفها في سنة ١٩٢٢ ، وبعد دراسة المراجع وصلا إلى أنه قد يكون من المفيد أن يحاولا تركيز البنيسلين ، وقد استخدمنا مزرعتى ومزرعة ريكستريك وطريقة استخراج مثل ما اتبعه ريكستريك تقريبا من قبل ، إلا أن كل الفرق كانت في طريقة الاستخراج ، فنجحنا في تركيز العنصر الفعال وتجفيفه في شكل مسحوق أصفر ، وقد جربنا مفعوله على البكتريا فأيدا نتائجي القديمة ، وحققنا به الحيوانات واثبتنا أنه حتى المادة المركزة منه كانت بلا ضرر وكانت أيضا لا تضر الدم .

ثم إنهم أعدوا الجرذان بوضع جراثيم معينة كالستربتوكوك والسنتفيلوكوك vitrion septique التى تسبب دائما موت الحيوانات ، وقد عالجوا بعضها ببضعة مليجرامات من مسحوق البنيسلين والبعض الآخر لم يعالجوه ، فالتى لم تعالج ماتت كلها في مدة سبع عشرة ساعة وعاشت كل الحيوانات التى عولجت ، فبرهن هذا على قوة البنيسلين الباهرة .

ثم جرب في الانسان ، وإن لم تكن النتائج الأولى ذات حظ كبير من التوفيق ، فإنها أظهرت بوضوح أن البنيسلين كان عاملا قويا ضد بعض أنواع العدوى العادية المعروفة . وقد وسعوا مدى صناعته في أكسفورد ولكن في ذاك الوقت (سنة ١٩٤٠) كان صانعو الادوية بالجلترا مشغولين جدا

بالمصادفة أن جميع البنيسلين الموضوع في ذلك الوقت حضر من نسل بذور العفن التي لوئت طبق مزرعتي في مستشفى سانت ماري في سنة ١٩٢٨ .

فأولا صنع كل البنيسلين بأنماء العفن على سطح المزرعة في زجاجات — ألوف منها — ولكن عقب ذلك ابتكرت طريقة بأنماء في قاع مزارع في أحواض . وأظن أن أكبر أحواض استخدمت لهذا الغرض كانت سعتها ١٥٠٠٠ جالون ، وهذا مما ساعد الانتاج كثيراً جداً وأمكن به معالجة كل مصابي الحرب على شاطئ المحيط الاطلانطيقي فأنقذ حياة رجال كثيرين لولاه كانوا من الهالكين .

بالمجهودات الحربية لدرجة لا تسمح لهم بالوقت الذي يحاولون فيه الانتاج على نطاق واسع ، فطار فلورى إلى أمريكا ، وبفضل مساعدة الدكتور ريتشاردز اتصل بالدكتور كوجهل من بيوريا وبضعة مصانع أمريكية للأدوية فزودهم بجميع المعلومات التي توصل إليها ، وبقي بأمريكا أحد معاونيه الدكتور هيتلى ليشاعدهم في بداية تحضير البنيسلين .

وهنا كان أول ما ظهرت الولايات المتحدة في منظر البنيسلين ، إلا أنهم شرعوا في العمل فتطورت طرق الصناعة إلى أن صار الانتاج الآن موازياً تقريباً للطلب . وقد توصلوا أيضاً إلى تحسين المزارع التي ينمو فيها العفن حتى زاد الانتاج حوالى عشرة أضعاف . وحدث

سير الكسندر فلمنج

تقلاها عن الانجليزية دكتور عيسى حمدى المازنى بك

شهرية السياسة الدولية

شهر حافل

حفل الشهر الذى يتقضى ساعة كتابة هذه الشهرية فى العشرين من مايو بالحوادث الدولية، وقد عقدت خلاله الدورة الثالثة من دورات مجلس الأمن الدولى بمدينة نيويورك، واجتمع مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة فى مدينة باريس، وأذيع تقرير لجنة التحقيق الانجليزية الأمريكية عن فلسطين، وجرت المفاوضات بين رئيس الوزارة الإيرانية وزعيم الوطنيين فى أذربيجان.

فى مجلس الأمن

وكان جدول أعمال مجلس الأمن متضمناً الموقف الإيرانى السوفيتى، ومسألة الحكم فى إسبانيا، وكذلك النظر فى طلبات الانضمام إلى هيئة «الأمم المتحدة»، واللائحة الداخلية. وكان الموقف الإيرانى السوفيتى معلقاً، وكان تعليقه راجعاً إلى أن الاتحاد السوفيتى كان قد أعلن أن جلاء الجيش الأحمر عن الأراضى الإيرانية سيتم فى السادس من شهر مايو من ناحية، وإلى أن مندوب الاتحاد السوفيتى كان قد أعلن أنه لن يحضر جلسات يعرض فيها المجلس لذلك الموقف ما دام قد رفض رأيه فى عدم الاحتفاظ بالموضوع فى جدول الأعمال. وكان المجلس قد قرر الاحتفاظ به إلى أن تخطر الحكومة الإيرانية بتمام الجلاء. فلما انتضى اليوم السادس قرر المجلس أن يعرض للموقف فانسحب الرفيق جروميكو المندوب السوفيتى من الاجتماع تنفيذاً لسابق إخطاره، وقرر المجلس فى غيبته أن يؤجل عرضه إلى اليوم العشرين حتى أن تصل إليه خلال الأسبوعين ما يؤكد له الجلاء. واليوم ينتهى الأسبوعان ولم يلح فى الاتفاق شئ مادم جديد اللهم إلا

أما الموقف الأسباني وهو الذى نشأ عما تقدمت به بولاندا من اقتراح إعلان «النظام الفرنكى» — الذى تحكم به أسبانيا الآن — مهدداً للسلم والأمن الدولى، بحيث ينبغي أن تتخذ قبله الاجراءات المنصوص عليها فى ميثاق الأمم المتحدة من قطع العلاقات وتوقيع العقوبات الاقتصادية، ثم الالتجاء إلى وسائل العنف بمواقفه.

شهرية السياسة الدولية

فرعية للدرس وتقديم التقرير . . .
وكانت اللأئحة الداخلية هي آخر ما عرض
له المجلس فنظرها وأقرها في وقت قصير ،
وقد كان في حاجة قصوى إليها . إذ عمل طوال
الدورات الثلاث الأولى دونها فكان حل
الرؤساء ثقيلا إذ كان عليهم أن يبتكروا
الحلول من تلقاء أنفسهم ،

وقد تميزت تلك الدورة الثالثة بأن ألقى
رئيسها — وكان هو مندوب مصر الدائم
حافظ عفيفي باشا — خطابا ختاميا على غير
العادة المتبعة . والعادة المتبعة هي أن يشكر
أحد الأعضاء الرئيس الذي تنتهي دورته ، فيرد
الرئيس بكلمات قليلة عامة ويسلم الرئيس الجديد
زمام المجلس . وقد تقدم المندوب البريطاني
يشكر الرئيس لمناسبة انتهاء دورة رئاسته ،
لكن عفيفي باشا بدل أن يقتصر على مجرد
الشكر وعموم التعبير ألقى خطابا سجل فيه
الشعور بخيبة الأمل ، إذ تتطاحن الدول الكبيرة
بعضها مع بعضها الآخر ، وإذ لا تزال تتنافس
في سبيل السيطرة دون عناية بمبدأ المساواة مع
الدول الصغيرة ، وإن كان قد رجا آخر الأمر
ألا ييأس الناس يأسا ، فالمجلس لا يزال مبتدئا ،
والمبادئ التي قامت الحرب العالمية الثانية من
أجل تحقيقها قد تعود من جديد إلى الإيما . . .

إذا اقتضتها الحال . وقد تنلب مجلس الأمن
في دورته المنقضية على صعوبة هذا الموقف
الأسباني بأن أحاله إلى لجنة دراسة وتحقيق
قدمت إليها الأسانيد والمذكرات التي أخذت
تكشف عن اتصالات وثيقة طوال الحرب
العالمية الثانية بين فرانكو وهتلر وبين
الادارة الأسبانية والسياسة الألمانية . لكن
نتيجة تلك الدراسة وذلك التحقيق لم تبلغ
بعد إلى هيئة المجلس ، وسيكون أمرها محل
نظره بلا ريب خلال الدورة الرابعة التي بدأت
منذ يومين .

وكان جدول الأعمال متضمنا كذلك مسألة
قبول أعضاء جدد في هيئة الأمم المتحدة ،
وكانت ألبانيا بالذات محل طلب من طلبات
القبول . ودخول ألبانيا تحبذه روسيا ، وتتأني
فيه — إن لم تعارضه معارضة — بريطانيا
العظمى ، إذ لا ترضى عنه اليونان « الحالية »
وثيقة الصلة بها . وقد أثارت أستراليا اعتراضا
شكليا إذ رأت أن طلبات الانضمام يجب أن
تعرض على الجمعية العامة للأمم المتحدة قبل
أن تعرض على مجلس الأمن . لكن مجلس
الأمن قرر باجماع العشرة الأعضاء — غير
أستراليا — أن الأمر من اختصاصه ،
ولكنه أحال طلب ألبانيا بالذات إلى لجنة

مؤتمر وزراء الخارجية

الايثالية والحدود النمسية ، هي أهم ما يتصل
بشؤون تلك المعاهدة .

فلما جاء دور المستعمرات ، وبدأ الحديث
لمناسبتها بطرابلس الغرب — برقة وطرابلس
وفزان — تقدمت روسيا باقتراح منحها
الوصاية على طرابلس مقابل منح إنجلترا
وأمريكا الوصاية على برقة ، ومع استعدادها
لأن يكون إيتالي وكيلا لحاكم طرابلس

وعقد مؤتمر وزراء الخارجية للولايات
المتحدة والملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي
وفرنسا في قصر لوكسمبور بباريس في
الخامس والعشرين من شهر أبريل وتتابع
اجتماعاته ثلاثة أسابيع سويا .

وكانت « المعاهدة الايتالية » هي أول المسائل
الواردة في جدول أعماله ، وكانت مشا كل
للمستعمرات والتمويضات وتريستا والحدود

شهرية السياسة الدولية

نهضتها الاقتصادية التي تريدها لها أميركا وبريتانيا العظمى .

وكانت مسألة الحدود بين إيطاليا وفرنسا هي التي أصاب حلها التوفيق دون عناء ، فأدخلت بعض المناطق الايتالية ذات الصبغة الفرنسية الواضحة من حيث اللغة ومن حيث الميول الشعبية في الأراضي الفرنسية ، وكذلك بعض المناطق التي تصحح مواقع فرنسا الاستراتيجية .

وظلت مسائل الرور والادارة الألمانية ومعاهدات النمسا والمجر ورومانيا وبلغاريا دون عرض وبالتالي دون حل إلى أن يعود المؤتمر إلى الانعقاد في الخامس عشر من شهر يونيه . لكن النمسا وإيطاليا قد دعيتا لا يفاد مندوبين عنهما للتقدم بوجهات نظرهما فيما يختص بالحدود بينهما إلى وكلاء وزراء الخارجية الذين يعملون هذه الأسابيع .

على أن أمراً جلياً بالنسبة لإيطاليا قد تم وهو تعديل شروط الهدنة القاسية إلى ما هو أقل قسوة وأكثر فسحاً لميادين النشاط والعمل خلال فترة الانتقال من الوضع غير العادي الذي نشأ عن الاستسلام إلى الوضع العادي الذي يتلو توقيع المعاهدة في مؤتمر الصلح الذي لم يحدد بعد مواعده .

السوفييتي . فتقدمت بريتانيا العظمى باقتراح إعلان استقلال « طرابلس الغرب » دولة موحدة تضم طرابلس وبرقة . ولم يكن في الواقع هذا الاقتراح البريتاني إلا اقتراحاً « مسرحياً » إذ لم تمض على إذاعته ساعات حتى عاد مستر بيغن وزير الخارجية البريتانية يستمسك بالوصاية على برقة ، ثم يقول إن إنجلترا وعدت السنوسيين بعدم عودة الايتاليين إلى بلادهم بحال ، ثم راح يجمع بين برقة وطرابلس في السنوسية والوعد بعدم الاعداد إلى إيطاليا . ولم يصل المؤتمر في هذا الصدد إلى حل وأرجع الموضوع إلى مجلس وكلاء وزراء الخارجية يدرسونه من جديد ويتقدمون في شأنه بمقترحات جديدة .

وكذلك كان الحال بالنسبة لتريستا التي تستمسك روسيا بضمها إلى يوجوسلافيا ، وتستمسك أميركا بضمها إلى إيطاليا . ويلوح في الأفق اتجاه جعلها ميناء حراً لإيطاليا ويوجوسلافيا وأوروبا الوسطى جميعاً .

أما التعويضات فقد أبدت روسيا تساهلاً بالنسبة لما كانت تطالب به نصيباً لها واكتفت بثلاثمائة مليون من الدولارات ستدفع إليها من قيمة ما تصدره الولايات المتحدة لإيطاليا من الإعانات ، حتى لا تثقل كاهلها فتحول دون

تقرير فلسطين

الصهيونية على بلادهم وإخراجهم من ديارهم .

وقد كان لاذاعة ذلك التقرير اسوأ الأمور في البلاد العربية جميعاً ، فقامت حكوماتها وهيئاتها تحتج وتضرب إعلانياً عن استنكارها ورفضها ، وتوج ذلك كله بالاجتماع لرؤساء الدول العربية يتلوه انعقاد دورة استثنائية خاصة لمجلس جامعة هذه الدول .

أما تقرير لجنة التحقيق الاميركية البريتانية عن فلسطين فلم يرض أحداً رغم صدوره باتجاع الآراء . وهو لم يحقق للصهيونية حلم الدولة اليهودية من ناحية ، وهو لم يدع مجالاً لآمل عند العرب من ناحية ثانية ؛ إذ اوصى بفتح باب الهجرة ورفع القيود عن نظام بيع الأراضي ، وهما الوسيلتان اللتان يألم منهما العرب ويعتبرونهما أداة استيلاء

أذربيجان

وتبقى مسألة أذربيجان ، وقد بلغت من التطور أن دارت لمناسبتها مباحثات بين رئيس الوزارة الإيرانية وزعيم الحركة الأذربيجانية ورئيس حكومتها الفعلية قصد الوصول إلى حل يوفق بين الأوضاع الدستورية الإيرانية والمطالب القومية لأهل تلك المنطقة ، وهي — على حد ما عبر عنه الزعيم الأذربيجاني نفسه — غير انفصالية ، إذ تعترف بالبقاء في نطاق الدولة الإيرانية الكبرى على أن تحظى بالاستقلال الذاتي متميزة

بلغتها في مدارسها وفي جيشها وفي إداراتها . وأغلب الظن أن الأمور متجهة إلى التغلب على الصعوبات والتفاهم ، رغم ما يقيمه «الرجعيون» في نظر رئيس الوزارة الإيرانية من عقبات ، وهم يذهبون في إقامة هذه العقبات إلى حد الاستعانة بسفارات بعض الدول الأجنبية في طهران ، في حين أن قوام السلطنة يريد أن يعادل بين موقف إيران من إنجلترا وأمريكا والاتحاد السوفيتي دون أن يكون لدولة أجنبية أي تدخل في شؤون بلاده .

محمود عزمي

شهرية المسرح

أول بحثي تأليف سليمان نجيب بك

وسليمان نجيب بك في غنى عن تقديمه للجمهور المصرى الذى عرفه منذ زمن بعيد ممثلاً ومؤلفاً . وما هو ذا الآن يقدم لنا على مسرح دار الاوبرا الملكية مسرحية باللغة العامية من تأليفه أسماها « أول بحثي » . ولا أرى مسوغاً لالتجاء المؤلف إلى اللغة العامية في هذه المسرحية ؛ فانها لم تساعد مطلقاً على إتقان الحوار اللهم إلا في الفصل الثانى ، ولم تساعد على صيغ هذا الحوار بالفكاهة الحلوة أو النكات المستحبة . وقد ذهب المؤلف أحياناً إلى استعمال ألفاظ كنا نود ألا نسمعها على مسرح دار الاوبرا الملكية ومن الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى .

و« أول بحثي » مسرحية في ثلاثة فصول ، تزجى إلينا قصة رجل طلق امرأته بعد أن أنجب منها ولدين — أحدهما متزوج — ليتزوج هو أيضاً من امرأة لعوب لم يرق له العيش معها ، فأراد الطلاق منها ، ولكنها خلقت له مصاعب عدة لم تنقذه منها إلا زوجته الأولى . ولست أرى في القصة شيئاً من الطرافة ؛ إذ أننا رأينا هذا الموضوع أو ما يشابهه في كثير من الأفلام الأمريكية حتى مللناه .

وحوار الفصل الأول مفكك لا تربطه أية صلة . فالأشخاص يتنقلون من موضوع إلى آخر دون أن يدفعهم إلى ذلك أى دافع . ولم يكن هذا التنوع في الحديث من مستلزمات القصة ، ولكنه نتيجة ضعف التأليف . من ذلك هذا الدرس الذى يلقيه الابن الأكبر على امرأته من وجوب الحضور إلى المسارح

قبل رفع الستار ؛ لأن التأخير يقلق الجمهور والممثلين .

وجاء الفصل الثانى متقناً تمام الاتقان ؛ فالحوار لذيذ ممتع مطبوع بروح الفكاهة والمرح .

وبانتهاء الفصل الثانى كان لا بد أن تنتهى المسرحية ؛ إذ يتبادر إلينا منه أن الزوجة المطلقة لا بد عائدة إلى زوجها ما دامت تستجيب لدعواته إلى العشاء والذهاب إلى السينما . ولكن المؤلف أضاف فصلاً ثالثاً ليس له شأن في حوادث المسرحية مطلقاً بل يعتبر إطالة لا تستساغ .

وقد لاحظنا أن الممثلين والممثلات داعبون على الاستهتار بجمهورهم ؛ فلم يكن أحدهم قد استذكر دوره ، فزاد ذلك الحوار تفككاً . لقد كانت تمضى بين السؤال وجوابه دقيقة يتمكن فيها الممثل من الاستماع إلى الملقن ، فليعلم أعضاء الفرقة المصرية أن الجمهور المصرى غير مشغوف بصوت الملقن ، وأنه لا يذهب إلى المسرح ليستمع إلى الملقن بل ليستمع إلى الممثلين أنفسهم . فعلى هؤلاء الممثلين التزامات نحو هذا الجمهور ، والاستهتار بهذه الالتزامات معناه الاستهتار بالفن نفسه .

فالممثلون هنا يقتربون خطيئة مضاعفة نحو الفن والجمهور . وهذه الخطيئة المضاعفة لا تؤدي إلا إلى انهيار المسرح المصرى انهياراً لن تقوم له بعده قائمة .

ولا أجد مناصاً من الشاء على اثنين من الممثلين هما فاخر فاخر ، والسيدة إحسان شريف ، فكلاهما قام بدوره خير قيام فلا تكلف

شهرية السينما

في تمثيله ولا تصنع على الإطلاق . أما الآخرون فمنهم من كان لا يمثل مطلقاً مثل سراج منير ، ومنهم من أثار سخطنا بصوته الذي تنفر منه الآذان مثل زينب صدقي ، ومنهم من لازم أسلوباً تمثيلاً لا يقبله الذوق لمخالاته في التكلف مثل فؤاد شفيق .

شمس طاهر

شهرية السينما

زوار المساء (انتاج چاك حايك) (١)

وفصل بين العاشقين بأن تسبب في سجن الفتى . ولكنهما واصلا الحب واللثام حتى في السجن . والفتاة بائسة لأن عشيقها حرم الحرية والنور ؛ فيستغل الشيطان بؤسها لينزع منها العهد بأن تكون له إذا ما أطلق الحرية للفتى وأنساه عشيقته ، فعاهدته على ذلك . ويخرج الفتى من سجنه وقد نسي فتاته ، ولكن شيئاً خفياً يدفعه إليها ، وهو لا يدري له كنها . وما تكاد الفتاة تلحق به حتى يعرف أنه يحبها . لقد أخفق الشيطان للمرة الثانية في فصل العاشقين وإخماد جذوة الحب في قلوبهما . وبينما هما متعانتان يحاول للمرة الأخيرة أن يخمدا هذه الجذوة فيجولها إلى تمثالين من حجر . ولكن ما هذا الصوت الذي يسمعه ؟ يقترب منهما فتبين أنه دقات قلوبهما .

وقد أتى المخرج بأسلوب جديد في إخراج الرواية يلائم صبغتها الخيالية تمام الملاءمة . عند ابتداء الشريط تكون الشاشة سوداء إلا ركناً صغيراً منها على هيئة دائرة تأخذ في الكبر شيئاً فشيئاً حتى تملأ الشاشة . وهذه النقطة المضيئة ما هي إلا فارسات متجهان

تفرد الآن الأفلام الفرنسية بتقديم آيات فنية رائعة ، فيها من الابتكار والتجديد ما يبوئها المكانة الأولى في عالم التمثيل . وليس الابتكار والتجديد في أسلوب القصة فحسب بل في الإخراج والتصوير أيضاً . وفيلم « زوار المساء » هو البرهان القاطع على هذا التقدم الهائل الذي يحمل لواء الفن السينمائي الفرنسي ، مما جعل الأفلام الأمريكية تبدو الآن قليلة الشأن ركيكة الأسلوب ، متخاذلة باهتة .

و « زوار المساء » تجذب المرء بقوة تعبيرها وتفرد . فالفكرة في القصة بسيطة جداً ، وهي أن الحب أقوى من كل شيء . فهو قوة لا تقهر مهما كان السلاح الذي يحارب به . فتاة أحبت فتى ما هو إلا رسول الشيطان إلى الأرض ؛ وقد قطع على نفسه عهداً ألا يقع في شرك الحب . ولكن الحب كان أقوى من عهده ؛ فأحب الفتاة وأولع بها حتى نسي عهده ونسى المهمة التي من أجلها أوفده الشيطان إلى الأرض . ولكن هذا الكلف الشديد أغضب الشيطان ، فحضر بنفسه إلى الأرض

النظارة . ولم نؤد حقه من الشاء إن لم نتكلم
عن المنظر الختامى حينما يحول الشيطان العاشقين
إلى تمثالين من حجر ، فيسمع دقات قلبهما
فيجن جنونه ، يأخذ في الصياح : « إن قلبهما
يخفق يخفق . . . يخفق . . . » ويكرر
كلمة يخفق على وزن دقات القلب . وهذا يدل
على براعة فنية فائقة في التمثيل .

ومدام مارى ديا والممثل الجديد ألان كونى
أهل للشاء أيضاً . فقد وفقنا كل التوفيق في
أداء دورى العاشقين اللذين انتصرا بحبهما
على الألعيب الشيطان .

وقصارى الكلام أن هذا الفيلم قد جاء آية
فنية رائعة موفقة قصة وإخراجاً وتمثيلاً .
ولا عجب في ذلك فإن فرنسا هى مبعث الفن
والذوق المترف في العالم بأسره . ونود لو أن
الانتاج السينمائى الفرنسى يلزم دائماً هذا
الأسلوب الرفيع .

نحو قصر من قصور العصور الوسطى . وقد
راقنا أيضاً وقف الحركة في المنظر الذى أراد
فيه رسول الشيطان أن يستأثر بالفتاة التى
أحبها ، فوقفت زميلته الحياة في القصر . وقد
كانت هناك مأدبة والمدعوون يرقصون على
أنغام الموسيقى ، فترى الراقصين قد ثبتوا فجأة
بيناهم يتحركون والموسيقى تقف فجأة كأن
أسطوانة مسجلة وقفت وهى تدور . وأخيراً
نذكر منظر المباراة الذى يظهره الشيطان على
سطح جدول ماء فيبدو كأنه صور متحركة
على شاشة دار للعرض .

وقد قام مسيو جول بيرى بدور الشيطان ،
فأدهشنا برشاقتة أولاً ؛ لأن مسيو جول بيرى
رجل مسن ، وما كنا لتصور أنه يستطيع
أن يأتى بهذه الحركات الرشيقة ، وهذا
التلاعب في نبرات صوته ، وهذه النظرات
والضحكات الشيطانية التى كثيراً ما ارتعد لها

لص غابة شروود (كولومبيا) (١)

الشخصية الخرافية التى تمثل روح الشعب
الانجليزى وطموحه إلى الحرية وتمسكه
بحقوقه . فينسحب اللورد إلى غابات شروود
ويستدعى ابنه وهو شاب شجاع ماهر في شؤون
الحرب ، فهو فارس رشيق ورام حاذق .
وفي هذه الغابات يدبرون حملة على الوصى
لرد العرش إلى الملك الطفل وإنقاذه من
مشروعات الوصى الشريرة . وتنجح المؤامرة
فعلاً ويصل ابن روبن هود إلى دخول القصر
ويبارز الوصى ويقتله ويرد إلى الملك عرشه .
والقصة لا تخلو من مغامرات غرامية .
فوصيفة الملك تكلف كلفاً شديداً بهذا
الشاب الباسل المخلص لوطنه وللمسكه . وينتهى

من البعث أن يحاول مشاهد هذا الفيلم
أن يبحث عن حقيقة تاريخية في حوادثه أو
أن يحدد العصر الذى تجرى فيه هذه
الحوادث . فالخرج حرص كل الحرص على أن
ينحى اسم الملك أو الوصى ما استطاع إلى ذلك
سبيلاً ، وحرص أيضاً على ألا يذكر تاريخاً
ما تيسر له ذلك . وكل ما أدلى به من حقائق
هو أن الفيلم يجرى في غابة شروود في عصر
وصى طاغية اغتصب الملك من ملك ما زال
طفلاً ، وعبث بالدستور الانجليزى المجناكارتا
عبثاً جعل اللورد منتجدون يشور هو وأعوانه
على هذا النظام الاستبدادى . واللورد
منتجدون ما هو إلا روبن هود ، تلك

شهرية السينما

الفيلم بأن يأمر الملك العاشقين بالزواج .
والفيلم بالألوان الطبيعية ، وتجرى حوادثه
في الغابات . فكان من المتيسر على المخرج
أن يستغل هذه الناحية ليقدّم لنا صوراً
جميلة فنية ، ولكنه أهمل هذه الناحية إهمالاً
تاماً ، ولم يوجه اهتمامه إلا إلى الحوادث
دون الديكور ، فأهمل تصوير المناظر
الطبيعية على حين صرف عنايته إلى تصوير
المبارزات وعدو الفرسان في الغابات ودهاء
المنيرين على قصر الملك ، وما شابه ذلك من
أعمال البسالة .
ولا يمكن الكلام عن التمثيل في هذا

الفيلم . فقد آثر المخرج أن يختار شاباً وسيم
الطلعة ، قوى البنية يتقن ركوب الخيل
والمبارزة والغزل ، واختار فتاة جميلة
لا مميزات لها إلا فتنتها فقط .
وقصارى الكلام أن هذا الفيلم إنتاج
رخيص لم يكلف أى عناء أو مشقة في اختيار
الحوادث أو في الإخراج أو في التمثيل . فالسينما
الأمريكية أنتجت مئات من الأفلام المماثلة .
فما على المخرج إلا أن يسلك الطريق التي
سلكها من قبله كثير من المخرجين . والقصة
تافهة تعيد في ركافة حوادث قصة روين هود
أو غيرها من قصص البطولة والمغامرات .

مشمى لامل

من كتب الشرق والغرب

وحدة العالم وحرية الشعوب

في مختلف الأمم الحليفة والمحايمة . فطاف باثنتي عشرة مملكة ، وزار طائفة من الحكام والقواد . ثم عاد إلى وطنه وتوفر على تأليف كتاب يضم مشاهداته وملاحظاته ومخاوفه وآماله وآراءه واقتراحاته لتوطيد سلم دائم يقوم على دعائم راسخة تقي الإنسانية وبأل حرب عالمية ثالثة قد لا تبقى ولا تذر . تأمل المستر ويلكي طويلاً في مشاكل الدول المختلفة ، وأمعن في فحص الأسباب التي تؤدي عادة إلى اندلاع نار الحروب منذ العصور النابرة ، فتبين له أن طبيعة الإنسان واحدة وغرائزه واحدة وأطباعه واحدة في جميع بقاع المعمورة رغم بعد المسافات واختلاف الأمزجة والاهواء ، وتباين طبيعة الاصقاع والاقطار ، كما بدا له وهو يحلق في الفضاء على متن طائرته . أن بلا الله واسعة الأرجاء ، ولكنها متصلة الملمقات بعضها قريب من بعض ، لا يفصل بينها إلا طمع الانسان وبفضاؤه ، وأن العالم الذي نعيش فيه عالم واحد تتطنه شعوب مختلفة ولكنها كأعضاء جسم واحد إن سقم عضو منه تأثرت بهذا السقم بقية الأعضاء . لذلك خلع المستر ويلكي على كتابه عنواناً جليلاً « عالم واحد » One World وما كاد ينشر هذا الكتاب في عام ١٩٤٣ حتى تهافت عليه جمهور غفير من القراء في جميع أنحاء الأرض ، وقد نقل إلى بعض اللغات الأجنبية منها الفرنسية ، وبيعت منه ملايين النسخ في الولايات المتحدة الأمريكية نظراً لمكانة واضعه وثاقب فكره ، وخطورة

الف الروائي الفرنسي جول فرن قصة في أوائل القرن التاسع عشر وسماها « الطواف حول العالم في ثمانين يوماً » . واعتقد المسكين أنه روى إحدى الأساطير العجيبة ، وأخذ قراؤه هذه القصة مأخذ الخرافة التي تدعو للرء عند المطالعة إلى ترك الاعنة للخيال الخصب يسبح في عالم الأوهام . ونرى اليوم أن جول فرن أخطأ في التقدير وأن أوهام بني زمنه أضحت دون الحقيقة بمراحل ، إذ قام المستر وندل ويلكي في شهر أغسطس من سنة ١٩٤٢ برحلة سياسية حول العالم استغرقت خمسين يوماً قضى منها ثلاثين يوماً على الأرض والباقي في أجواز الفضاء .

أما وندل ويلكي فهو أحد الشخصيات الأمريكية المعروفة في محيط السياسة ، وقد كان رئيساً للحزب الجمهوري في أمريكا وتقدم لانتخابات رئاسة الجمهورية في عام ١٩٤٠ فخذله فيها المستر فرانكاين روزفالت . على أن هذا الأخير كان يطمئن إلى كفاية خصمه ويقدر مواهبه ، ولذا وكل إليه مهمة سياسية دقيقة في ظروف خطيرة جد الخطورة ، إذ كانت أمريكا وقتئذ مشتركة في الحرب وكانت انتصارات اليابان تتوالى بلا انقطاع بسرعة فائقة لاسيما بعد كارثة « بيرل هاربور » كما أن زحف الألمان في أوروبا وأفريقية كان ينذر بشر مستطير .

غادر المستر ويلكي أمريكا مزوداً بارشادات الرئيس روزفالت قاصداً تقصى حقيقة الأحوال باتصاله الشخصي برجالات الحرب وقادة الشعوب

الأقل . وقد غاب المستر ويلكى على مصر عدم وجود طبقة متوسطة فيها إذ لم ير سوى أقلية مفرطة في الثراء وأغلبية مفرطة في فقر مدقع .

ثم ذكر أن ما راعه في بلاد الشرق الأوسط التي مر بها تهافت الناس على سؤاله : « هل تنوى أمريكا الدفاع عن نظام يجعل سياسة البلاد الشرقية خاضعة لرقابة دول أجنبية دون أى سبب اللهم إلا أنها نكبت بوقوعها في نقط استراتيجية على مفترق الطرق الحربية والتجارية الهامة ؟ » وعلق المستر ويلكى في كتابه على هذا السؤال قائلاً : إنه يرى لزوماً عليه من الوجهة المثالية الاعتراف بأن هذا النظام لا يستقيم مع المبادئ التي تدافع عنها أمريكا في الحرب، وأنه كلما أمعنت الدول في تقرير هذه المبادئ زادت حالة التوتر والهيّاج التي تهدد هذا النظام .

ثم غادر رحالتنا الشرق الأوسط وعم شطر تركيا، فراعته فيها تقديمها الاجتماعي والصحي في فترة وجيزة لاتعدو العشرين عاماً . وأعجب بقوة الشعب التركي وعزمه على الوقوف موقف الحياد التام من الصراع الدامي الذي أنك الدول الأوروبية، ولكنه أظهر جهلاً تاماً بعلم الجغرافيا حين ذكر أن عدد سكان تركيا ستون مليون نسمة .

وقد أفرد وندل ويلكى لروسيا السوقية ستين صفحة من كتابه ولذا لم نتحدث عنها في شيء من الأفاضة .

بدأ المؤلف وصفه بقوله إنه لم يمكث في روسيا إلا خمسة عشر يوماً، وإنه لم تتأت له فرصة زيارتها من قبل، ولكنه قرأ عنها كثيراً، وسمع عنها أخباراً كثيرة متناقضة كل التناقض متباينة كل التباين . ولذا سره أن يرى بعيني رأسه بعض الحقائق عن هذا البلد العجيب الذي جعل العالم بأسره في حيرة من أمره، وزاد سروره عندما علم أن الحكومة

المسائل التي تناولها بالبحث والتعقيب، ورجاحة الحلول التي وفق لها بعد التمحيص والتنقيب . ومما يبعث على الأسف حقاً أن المنية لم تمهل المستر ويلكى طويلاً بعد وضعه كتابه إذ توفي في العام التالي - ١٩٤٤ - فلم يقدر له أن يحيا ليلمس بنفسه ما سوف تحققه الأيام من آماله وأحلامه التي كشفها في كتابه بشأن عالم الغد . ولعل الله أن يكون قد أراد به خيراً .

والآن أعرض بعض مشاهدات المستر ويلكى عرضاً موجزاً، وأبدأ بالقول إنه لم يوفق في كل ما عن له من ملاحظات، ولم ينجح في بعض الأحيان من الزلل؛ إذ قد سرد بعض وقائع خاطئة ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنه لم يطل المقام في كل بلد حل به .

استهل وندل ويلكى رحلته بمصر، فاتصل ببعض الشخصيات العظيمة وتحدث مع أولى الأمر من المصريين وزار بعض رجالات الانجليز والأمريكيين بين قائد ووزير مفوض . ولا تهمنا أحاديثه الخاصة أكثر مما ذكره عن الشعب المصري وعن حالة البلاد الاجتماعية والصحية والثقافية كما بدت له؛ إذ لم يخف عليه سوء الحالة الصحية في مصر وتفشي الأمراض فيها تفشياً خطيراً بين بلهارزيا وتراكوما، ولم تخف عليه حالة الفقر وما يجره في أذياله من جهل ومرض ودعة وتمسك بأساليب عتيقة في التربة والزراعة والصناعة يرجع بعضه إلى سوء توزيع الثروة العقارية وبعضه الآخر إلى الاستعمار وشعور الشعب أنه ليس سيداً في بلده . ولكن المستر ويلكى أخطأ بلا شك حين ذكر أن ليس بمصر قاطبة مدرسة وطنية يمكن لمصري أن يفخر بها عدا مدرسة للبنات تديرها سيدة أمريكية لتعليم اليتيمات . ولعل مرشده لم يفتن لدعوته إلى زيارة جامعة فؤاد الأول على

من كتب الشرق والغرب

السوفيتية منحت الحرية التامة في التجول أينما يشاء وارتداد ما يشاء من الأماكن سواء في ذلك المصانع الحربية ، ومصانع الغزل والعزب الزراعية والمدارس والمستشفيات والمكاتب ، وخطوط القتال ، كما أتيح له أن يستفسر في صراحة تامة عن أية ظاهرة تثير دهشه ، وأن يلقي ما يروقه من الأسئلة لمراقبيه .

وقد أطال المستر ويلكى الحديث عن شجاعة الجندي الروسي وبسالته وحسن بلائه في فنون الحرب الحديثة ، كما أشاد باخلاص الشعب وتفانيه في الدفاع عن وطنه رجالاً ونساء وأطفالاً ، وأظهر إعجابه بالعمل الروس الذين يشتغلون في المصانع الحربية والمدنية لأعداد الأسلحة والأغذية والملابس اللازمة لتزويد الجنود بكل ما يحتاجون إليه في صراعهم الجبار مع العدو . ونوه بفضل هؤلاء العمال الذين دأبوا على عملهم لا يأبهون لأخطار الغارات ولا يكون ولا يملون ، كما نوه بفضلهم في نقل بعض المصانع من أسسها بكامل عددها وآلاتها من مدينة إلى أخرى كلما أوغل الألمان في غزوهم ، ومنها ما نقل مسافة تزيد عن ١٦٠٠ كيلومتر .

وقد دار بينه وبين شاب يافع يشغل مركز مدير الإنتاج في أحد مصانع الطائرات حوار طريف مفيد ، أنقله لأنه يلقي ضوءاً على النظام الاجتماعي في روسيا السوفيتية وطرق المعيشة في هذا البلد الذي ظل العالم في جهل تام عما يحدث فيه أعواماً طوالاً . بادره المستر ويلكى بالسؤال الآتي :

— ما النسبة بين أجرك بصفتك مديراً لإنتاج هذا المصنع وأجر العامل العادي ؟
— أجرى عشرة أمثال أجر العامل .
— كنت أظن أن الشيوعية معناها المساواة في الأجور !
— ليست المساواة ضمن المبادئ

الاشتراكية المطبقة حالياً في روسيا . ثم استرسل في شرح هذه النقطة فذكر أن شعار الاشتراكية الستالينية هو : « من كل شخص حسب كفايته ، ولكل شخص حسب أعماله » وأن هذا الشعار سوف يتحول إلى : « من كل شخص حسب كفايته ولكل شخص حسب حاجاته » عند ما تتم المرحلة الشيوعية لتقدمهم . وأردف قائلاً إنه حتى في هذه المرحلة الأخيرة لن تكون المساواة الكاملة لازمة أو مرغوباً فيها .

— لعلك تخرج جزءاً من إيراداتك الضخم ؟
— نعم كلما أقلعت زوجتي عن الأسراف .
— وكيف تنتفع بما تدخره من المال ؟
— ابتعت منزلاً جديلاً بجزء من رصيدي .
— وماذا تصنع بالجزء الباقي ؟
— اشترت أيضاً منزلاً بسيطاً في الريف أقضى فيه مع أسرتي أيام العطلة .
— وماذا تفعل بما يبقى لك من المال بعد ذلك ؟

— أشتري به سندات الحكومة وهي سندات لا تعطى حاملها ربها أو فائدة .
— ولماذا لا تستغل نقودك في أوراق مالية تأتي لك بفوائد رابحة ؟
— اتقصد يا مستر ويلكى أن أستغل رأس المال ؟ إن هذا محال في روسيا ، وعلى كل فهو عمل يناهز مبادئ .
— إذن ما الذي يحفزك إلى العمل بهذا الجد ؟

— إنني أشرف على هذا المصنع ، وفي يوم من الأيام سوف أصبح رئيساً له . أترى هذه النباشين ؟ إنني فخور بها لأن الحكومة منحتني إياها لجودة إنتاجي وربما يكافئني الحزب في يوم ما بأسناد منصب حكومي رفيع إلى .
— ومن يعولك في شيخوختك ؟
— إنني أعول على ما ادخرته من المال وإلا فالحكومة سوف تعولني .

— ألا تتمنى ان تهبي لأبنائك بداءة
خيراً من بداءتك في الحياة ؟ ألا ترغب في
إبعاد شبح العوز عن زوجتك إذا ما توفيت
قبلها ؟

— هذه أفكار رأسمالية يامستر ويلكى
إنى بدأت حياتى عاملاً ، وسوف يبدأ أولادى
حياتهم مثلى . أما زوجتى فهى تعمل وسوف
تدأب على العمل ما مهدت لها صحتها ذلك
أما إذا عجزت عن العمل فالحكومة تعولها .
وهنا وجه إليه المستر ويلكى سؤالاً طالما
رددته الدول الغربية لتثبت أن نظام
السوق لا يمنح الفرد حرية القول والفكر :
— افرض جدلاً أنك تخالف نظريات
الدولة السياسية أو الاجتماعية فهل لك سبيل
لإبداء آرائك والدفاع عنها ؟

عندئذ أنكر الروسى إمكان حصول مثل
هذا الفرض وهز كتفيه ولم يجب . فأردف
المستر ويلكى :

— أستخلص من موقفك أنك لا تتمتع
بأية حرية !

هنا احتد الشاب وأجاب فوراً :

— أنت عاجز عن الفهم يامستر ويلكى .
إنى أتمتع بحرية لم يرها والداى طوال حياتهما
إذ كانا فلاحين استعبدتهم الأرض فلم ينالا
أى قسط من التعليم ، وإذا مرضا لم يجدا من
يعنى بأمرهما . أنا أول شخص من سلالة
أجدادى العريقة سنحت له فرصة التعليم
والتقدم والعمل لانجاز فكرة وهذا ما أسميه
الحرية . قد لا يعنى هذا الحرية فى نظرك ،
ولكن لا تنس أن نظامنا يجتاز مرحلة
التطور وسوف نحظى فى يوم ما بالحرية
السياسية أيضاً .

والآن أعود إلى رحلة ونديل ويلكى
لأروى زيارته لأحدى «العزب الاجتماعية» .
لقد تغير نظام الزراعة فى روسيا إذ صارت
الأراضى الزراعية ملكاً للدولة . أما هذه العزب

فعلى رأس كل منها مدير ، ولكل عزبة الحق
فى أن تستأجر من مخازن الحكومة الآلات
الزراعية الحديثة وجميع أنواع المعدات
الميكانيكية اللازمة لفلاحة الأرض فلاحة علمية
على أن تدفع قسمة الايجار للحكومة بتسليمها
حصة من المحصول ، وأما باقى المحصول فيوزع
على أعضاء العزبة كل حسب أيام عمله . ولكل
فلاح الحق فى أن يستبدل بنصيبه من المحصول
أية سلعة يريد لها من متجر قريب من العزبة ،
كما له الحق فى بيع نصيبه إن أراد ، إلا أن
الحكومة تشجع الفلاحين على أن يكون البيع
لها مباشرة . وقد لاحظ المستر ويلكى أن
لدى الفلاحين رصيذاً من المال غير قليل وأن
الغذاء لديهم وفير ، فخطر له أن يسأل
بعضهم أيتمنون امتلاك قطعة أرض لأنفسهم ؟
فلم يفقهوا لسؤاله معنى وأجابوه أن أجدادهم
لم يملكوا أرضاً فى حياتهم .

ثم ختم ونديل ويلكى جولته فى روسيا
بمقابلة المارشال ستالين ، فألفاه رجلاً
بسيطاً هادئاً الطبع شديد المراس لا يأبه
إلا للحقائق ولا يسبح فى الخيال والأوهام ،
ملماً بكل تفاصيل القتال وبكل ما يحدث
فى روسيا وفى العالم الخارجى . وقد
قال له ستالين ذات مرة فى سداجة مؤثرة :
« يامستر ويلكى إنى نشأت نشأة فلاح فى
مقاطعة جيورجيا ولا أعرف الكلام المنق ،
وغاية ما أستطيع أن أؤكد لك هو أنى أميل
إليك كثيراً » . ثم قابل الضيف الأمريكى
رهطاً من رجال روسيا المسئولين ، ذكر منهم
مولوتوف وزير الخارجية وفيشنيسكى
ولوزوفسكى مدير قسم الأخبار والمارشال
فوروشيلوف وزير الدفاع الأسبق والسيدة
ميكويان وزيرة التموين ورئاسة إدارة العلاقات
الاقتصادية بين روسيا والبلاد الأجنبية ، وقد
ألفاهم جميعاً رجالاً مثقفين ملينين بالمشاكل
الدولية المأماً تماماً ، ولا يشبهون البتة لاشكلاً

ولا لغة ذلك المظهر القبيح الذى يصوره الرسامون الهزليون للبلاشفة .

فادر وندل ويلكى روسيا الاوربية واستقل طائرته قاصداً أصقاع سيبيريا — روسيا الاسيوية — المترامية الأطراف التى يغطيها الجليد فى أكثر شهور السنة لزيارة إحدى مقاطعاتها وهى جمهورية «ياكوتسك» الاشتراكية المستقلة الداخلة ضمن اتحاد الجمهوريات السوفيتية . أما هذه المقاطعة فيقطنها قوم ينحدرون من المغول فروا إليها أيام غزو جنكيز خان . وكان معظمهم فى الزمن السالف يتعيش من صيد الفراء والبحث عن مناجم الذهب ، لا يسكنون إلا أكواخاً من الطين تشاركهم فيها بهائمهم ، وكانت المجاعات والأوبئة تقتك بهم فتكا ذريعاً حتى انقرضوا تدريجياً أو كادوا . ولجمهورية ياكوتسك فى عهد القياصرة شهرة بالزهرى والسل والفراء ولذا جعلوها مأوى للمجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة والسجناء المنفيين لجرائم سياسية .

قدم الضيف الأمريكى عاصمة تلك المقاطعة على متن طائرته ، فألفاها مدينة جميلة استهوتها لغرابتها ، فسأل رفيقه رئيس مجلس قوميسيرى الشعب : هل بالمدينة مكتبة عامة ؟ فتداه إلى مكتبة نظيفة واسعة الأرجاء مضاءة بالكهرباء تحوى خمسمائة وخمسين ألف مجلد على حين لا يربى عدد سكان المدينة على الخمسين ألفاً . وقد دلت إحصائيات المكتبة على أن عدد مرتاديها خلال التسعة الشهور الأخيرة نيف ومائة ألف شخص جاء بعضهم من المدن الزيفية المجاورة . ثم استفهم الزائر عن الملائم بهذه المدينة ، فدعاه رفيقه الروسى إلى مشاهدة مسرحية غنائية راقصة من نوع الأوبرا على مسرح فخم كامل المعدات ، فأعجب الضيف بالرقص والنساء عجائباً عظيماً . وسأل مرة أخرى عن نصيب الشعب من التعليم فى هذه الجمهورية النائية فأجابه الرفيق

موراتوف حاكم البلد أن اثنين فى المائة فقط من سكان هذه الجمهورية كان لهم إلمام بسيط بالقراءة والكتابة قبل عام ١٩١٧ وأما الآن فقد انعكست هذه النسبة تماماً . ثم أردف مبتسماً : «إنى تلقيت أوامر من موسكو تقضى «بتصفية» هذه البقية الباقية من الجهلة وهى اثنان فى المئة» . ثم طاف المستر ويلكى بدار السينما وهى دار مشيدة بالأسمنت المسلح على أحدث طراز . كما طاف بدار مركز الحزب الشيوعى بهذه المدينة فأبدى إعجابه ببنائها ونظامها ، حتى لقد حدثه رفيقه الروسى متباهياً : «لا يغربن عن بالك يامستر ويلكى أن هذه الجمهورية أنشئت فى عام ١٩٢٢ بعد أن أخذت الثورة ، واليوم أصبحت ميزانية هذه الجمهورية ثمانين ضعفاً لما كانت عليه فى عام ١٩٢٢ ويشعر بهذا البون العظيم جميع السكان بقلوبهم ومعدتهم . كانت مقاطعة ياكوتسك فيما مضى بقعة بيضاء على جميع خرائط العالم ، وأما اليوم فإن مناجم الذهب فيها بلغت لوفرة إنتاجها شأواً عظيماً وضعها فى المرتبة الثالثة من مناجم روسيا التى تنتج معادن غير الحديد . وقد عثر المستكشفون فى أرض هذه الجمهورية على ثروات معدنية جديدة ، منها الفضة والنحاس والرصاص ، كما وجدوا فيها آباراً للبترول .» ولم يفت المستر ويلكى أن يشير إلى أهمية الدور الذى سوف تلعبه روسيا فى السياسة الدولية بعد الحرب ، فألح فى التعاون معها كي يستقر السلم . وأظهر إعجابه بتلك الدولة الفتية المتوثبة منوهاً بنجاحها الباهر فى إقامة نظام رائع للصحة العامة جعل من الروس قوماً أصحاء أشداء يعدون فى طليعة الأمم فى هذا المضمار ، فضلاً عن انتشار التعليم بينهم انتشاراً عم جميع طبقات الشعب بلا تمييز بعد أن كان يتخبط فى ظلام الجهل الحالك أجيالاً عدة . وقد أشاد المستر ويلكى كذلك بحب الروس لوطنهم وتقائهم فى الذود عنه والتضحية

بجياتهم في سبيل توطيد أركانه وإعلاء شأنه .
وختم حديثه عن رحلته قائلاً إن روسيا أضحت
اليوم أمة غنية قوية يجب أن يقام لها وزن
في عالم المستقبل . وشهد أنه رغم عدم
ميله إلى النظام الشيوعي لا يسعه إلا الإقرار
بأن هناك أشياء كثيرة في روسيا تستحق
الاعجاب ؛ ولذا فهو يحث الشعب الأمريكي على
التقرب من الشعب الروسي لإدراك عقليته إذ
يرى أن أمريكا وروسيا في الوقت الحاضر
قوتان جبارتان لا تدانیهما في قوتيهما دولة
ثالثة ، قوتان إن اتحدتا تمخض العالم عن سلم
ثابت راسخ ، وإن تنازعتا تردى العالم في
كارثة فاجعة .

طال بي الحديث ولما أنه من سرد
مشاهدات المستر ويلكى خلال رحلته حول
العالم ، ويضيق على المجال لتناول جولته في
بلاد الصين الشاسعة التي عرج عليها وهو في
طريق الأوبة إلى الولايات المتحدة . ولئن
فاتني أن أتحدث عن الشرق الأقصى لا يفوتني
أن أشير إلى خاتمة الكتاب الذي أعرضه ،
وهي خلاصة أفكار مؤلفه لما فيها من مغزى
وعبرة ونصح .

عندما أفاق العالم من ذهول الحرب العالمية
الأولى ظن المتفائلون أنها آخر حرب يشهدها
البشر فأغرقوا في خيالههم الحادع ، ولم يعمل
أحدهم شيئاً نافعاً لملافاة وقوع كارثة أخرى .
واتضح لذوى البصيرة النافذة من المفكرين
أن الحرب الأولى كانت نزاعاً بين دول
مستعمرة لم تغد منها الانسانية قتيلاً ، فهي
حرب لم تحمل في ثناياها أى مبدأ جديد من
تلك المبادئ السامية التي تتمخض عنها المثالية
والتي تدفع الأمم إلى التقدم الفكري والتحرر
من الأوضاع العتيقة البالية التي لا تتماشى مع
تطور الأذهان ، كالاستعمار والاستغلال
الاقتصادي ، وهما صورتان بشعتان من صور

الاستعباد الحديث في القرن العشرين ، إحداهما
استعمار خارجي والآخرى استعمار داخلي .
ومن المشاهد في التاريخ أن الأمم تخطو
خطوات واسعة إلى الأمام في شتى الميادين
العلمية والاجتماعية والطبية بعد الحروب أو
الثورات أو القلاقل ؛ لما ينجم عن هذه الأحداث
من انتقالات شاملة في تحديد القيم الروحية
والعقلية . لقد قال كارل ماركس عن
الثورات إنها « قاطرات التاريخ » أى إنها
تجر وراءها التاريخ وتقذف به مسرعة في
أحضان المستقبل . فإذا ما أخفقت الحرب أو
الثورة في تقريب الإنسان من مثله العليا
ذهبت جميع التضحيات التي تلازمها أدراج
الرياح ، وأصبحت الحرب أو الثورة حدثاً
تاريخياً أجوف لا طائل تحته .

والآن أعود إلى الكلام عن الأهداف
التي يتوخاها وندل ويلكى في الحرب العالمية
الثانية والتي يأمل أن تحققها حتى لا تكون
الملايين من ضحاياها قد فاضت أرواحهم عبثاً .
أما هذه الأهداف فيمكن تلخيصها في كلمة
واحدة موجزة وهي « الحرية » . ومن
الحقائق المرة المؤلمة أن شعوب العالم تتشوق
منذ الأزل بهذه الكلمة البسيطة الحلابة .
والجميع يتحدث عنها ، ولكن بعضهم يتحدث
عنها ليسلبها ، وبعضهم الآخر ليستردها بقوة
السلاح إن لم يكن من ذلك مفر ؛ إذ لم
يسجل التاريخ على قدمه أن دولة غاصبة أهدت
إلى شعب منسوب حريته على « طبق من الفضة »
كما يقول الغريون ليتناولها لقمة سائغة
عذبة المذاق .

وقد جاء على لسان المستر ويلكى قول
أرى أن أرتله لما فيه من سخرية . ولعل تلك
السخرية حقيقة واثمة فيكون الأمر أدهى
وأمر : « إنى لا أزال أخشى أن أرى هذه
الحرب تدنو من نهايتها قبل أن تستبين
الشعوب الأسباب التي دعته إلى القتال

النظام الاستعماري ، وسواء راقنا هذا الكلام أو لم يرقنا ، فهذه هي الحقيقة التي لا مرء فيها .

وليت المستر ويلكي استرسل في دفاعه عن الحرية إلى النهاية الطبيعية التي يقودنا إليها المنطق السليم ، فيجزم بشدة أن الدول المستعمرة خلق بها أن تجلو عن البلاد التي تحتلها جيوشها على الفور أو بعد أن تضع الحرب أوزارها مباشرة . ولكنه وقف في منتصف الطريق المؤدى إلى الحرية الحقة — وكأنه ندم على اندفاعه في هذا التيار الجماشي الجارف — وعرض حلاً لوضع حد للاستعمار لا يشبع ولا يقنع ؛ إذ اقترح أن تندمج الدولة المحتلة مع الدولة المستعمرة اندماج الماء بالراح أي اندماج بريطانيا العظمى مع البلاد المكونة لها يسميه الانجليز كومونولث . ولعله يخشى أن تخرج الأمم المحتلة فجأة من ظلام الاستعمار الموحش إلى نور الحرية الساطع فتبهز أنظارها أو يعلوها غشاء يجعلها تفضل وتتكب سواء السبيل ؛ فلهذا استصوب أن تسندها الدولة المستعمرة لئلا تتعثر في حبورها وهي حديثة عهد بالاستقلال فتزل قدمها وتهوى إلى الحضيض . ومن الغريب أن المستر وندل ويلكي لم يلفظ كلمة « الاستقلال » وإنما كل ما جادت به نفسه السمحة لم يعد لفظ « الحكم الذاتي » . وهناك ، على ما هو معلوم ، دول تتمتع بالحكم الذاتي دون أن تنقسم العرى بينها وبين الدولة الراعية — أو الدولة الوصية كما يقال الآن في لغة هيئة الأمم المتحدة — انفصاما كاملاً . وما أبغض إلى النفس من أنصاف الحلول !

بعد أن فرغ المستر ويلكي من التحدث عن الاستعمار الخارجي ومجافاته للمثل العليا التي يأمل أن تحققها الحرب حتى لا يكتب لها الاخفاق كسابقاتها ، تناول موضوع الاستعمار

والآمال التي تعقدها على الفترة التي تعقب الحرب . « هذا ما يخشاه المستر ويلكي . وأما ما لا أخشى التصريح به فهو أن هذه الحرب الأخيرة إن هي إلا حرب استعمارية كسابقتها أفادت منها الدول المستعمرة كل الافادة ، ولم تغنم منها الشعوب المهضومة أي غنم إلا ماحاق بها من خسائر مادية فضلاً عن خسائر الأرواح في بعض الأحوال . وإلا فما الذي غنمته الهند مثلاً من إقحامها في هذه الحرب رغم أنقها ؟

لقد أبرز ويندل ويلكي هذه الحقائق سافرة ، وأثنى على الجريبات الأربع أو الخمس وعلى ميثاق الاطلنطي وعلى كل العهود التي قطعتها على نفسها الدول الخليفة إبان المعمة ، وحذر تلك الدول من العواقب الوخيمة التي تحيق بالعالم إن هي نكثت وعودها ، وقال تلك الجملة الرائعة « إن الحرية كلمة لا تتجزأ » . وذكر حديثاً أدلى به إليه أحد أرباب العقول الراجحة في الصين بصدد حيوط المفاوضات التي أجرتها إنجلترا مع الهند أثناء الحرب توطئة لمنحها نوعاً من الحكم الذاتي — تلك المفاوضات التي قام بها وزير التجارة الحالي في بريطانيا العظمى السير ستافورد كريس ، قال هذا الصيني للمستر ويلكي : « يوم أجلت مطالب الهند الشرعية للحصول على الحرية لم تهو إنجلترا وحدها في عيون شعوب الشرق الأقصى ، وإنما هوت معها الولايات المتحدة أيضاً » .

ثم تناول الكاتب الأمريكي الحديث عن طموح شعوب الأرض قاطبة لنيل حقها الشرعي في الحرية والاستقلال قائلاً : « لقد أدرك العالم أن سيطرة شعب على شعب آخر ليس هو الحرية ولا هو ما ينبني الدفاع عنه بقوة السلاح . ففي أفريقية وفي الشرق الأوسط وفي كل العالم العربي وفي الصين وفي سائر بلدان الشرق الأقصى الحرية معناها إلغاء

الداخلي أو الاستغلال الداخلي الذي لا يخلو منه دولة من الدول الرأسمالية ، وله نواح متنوعة ، منها ما هو خاص بأمريكا كمشكلة الزنوج فيها ومعاملة الأمريكيين لهم معاملة شاذة قاسية لا مسوغ لها إلا اختلاف لون البشرة ، ومنها ما هو عام يشمل الدول كافة . وقد قال المؤلف في سياق الحديث عن هذا النوع من الاستعمار أو الاستغلال : « نداءؤنا بأهدافنا التي نرعى إليها من وراء هذه الحرب كشف لنا القناع عن ظلمنا . عندما نتحدث عن الحرية وتكافؤ الفرص لجميع الأمم تظهر لنا مفارقات مجتمعا المضحكة ظهوراً جلياً لا نستطيع معه سترها أو تجاهلها . إذا أردنا أن نتحدث عن الحرية وجب علينا أن ندرك هذا اللفظ على صحته ، وهو أن لغيرنا أن يتمتع بالحرية كما تتمتع نحن بها سواء . فالحرية يجب أن تمنح للجميع داخل حدودنا وخارجها ، فنصون مثلاً حقوق الأقليات التي لا غنى للكثرة عنها ، إذ تعد الحافز القوي الذي يدفع عناصر كل أمة إلى المنافسة والابتكار في شتى الميادين . »

وهناك حرية لا تقل شأنًا عن الحرية السياسية ، وهي حرية الدولة الاقتصادية ، فلكل دولة الحق كاملاً في توجيه اقتصادها الوجه الذي تراه ملائماً لمصالحها دون التقيد بشروط أو اتفاقات اقتصادية تملى عليها ودون ربط عملتها قسراً بعملة أجنبية بحيث يصبح

كل الغنم في كفة والغرم في الكفة الأخرى من الميزان . ويقترح المستر ويلكي في هذا الصدد إلغاء الحواجز الجمركية التي تشل التجارة الدولية أو تعوق ازدهارها الطبيعي . على أن هناك نوعاً من الاستعمار الداخلي لم يشر إليه الكاتب ، ألا وهو استغلال بعض طبقات الشعب للطبقات الأخرى أو استغلال الطبقة المالكة للطبقة العاملة استغلالاً قاصحاً . كما أنه لم يتناول موضوع تحرير الفرد من العوز والجهل والمرض والبطالة ، وهو الأمر المعروف باسم « الحريات الأربع » . ولعل سر ذلك تجنب المؤلف هذه النقطة الشائكة ماجاء على لسانه في سياق حديث آخر : أنه لا يميل إلى المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية . ولا غرابة في ذلك إذ هو أحد الأثرياء المعدودين في أمريكا ، وأمريكا حصن منيع للرأسمالية المتطرفة .

وخلاصة القول أن وحدة العالم توحى إلى المرء التضامن والارتباط الوثيق . وبلاد الأرض قاطبة تصبو إلى الحرية التامة بعد أن أهدرت هذه الكلمة لفظاً ومعنى أجيالاً طوالاً . والحرية إما أن تمنح للجميع أو تمنع عن الجميع ؛ إذ أصبحت الحياة لا تنطق في عالم أقله سادة وأكثره عبيد . فان حققت الحرب هذه الأمان التي تمجيس بها الصدور ، ردد الناس قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ، وإلا فعلى الأرض العفاء .

فؤاد وصفي أهر الدهب

من وراء البحار

روسيا وسياستها الخارجية

وهو الطريق الذي سلكته فرنسا مرة وألمانيا مرتين ، وتعمل له روسيا الآن . لقد تمكنت روسيا بفضل شجاعتها من جهة ، وبفضل بعد نظرها ووحدة غرضها من جهة أخرى ، وبفضل الكوارث السياسية التي حلت بالإنجلترا أثناء الحرب ، من أن تكون العامل الأساسي في طبيعة السلم ، ولا تزال كذلك ، فهي الوحيدة بين الدول الكبرى المنتصرة التي حصلت على ما هو أكثر من هزيمة العدو المشترك ، فهي تهاجم الأعداء والحلفاء والمحايدين - الأعداء بالقوة الحربية وقد وصلت في أقل من خمس سنوات إلى فتوح من أكبر ما عرف في التاريخ ، ولكن هذه الفتوح في بدائها ولا تنتهي حتى تكون لروسيا السيادة على أوروبا ، وحتى تحقق وحدة نفوذها في آسيا ، وحتى تبلغ من القوة مبلغاً تتدخل به في أمور العالم بأسره .

ولقد أرادت الحكومة الانجليزية أن تنهى الحرب عن طريق الشرق ، ولكن روسيا عارضت وأبت إلا أن يهجم الانجليز من الغرب ، وبهذه الطريقة تمكنت من أن تفرض سلطانها على شبه جزيرة البلقان ماعدا اليونان ، وهذه أيضاً لا تزال مهددة . وفي طهران كسبت روسيا السلم ، وخسرت بريطانيا . ولقد صارت إحدى عشرة دولة خاضعة لروسيا ، وهن فنلندا وأستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر ويوغوسلافيا وألبانيا وبلغاريا . ولقد استطاعت روسيا أن تضم أراضي كبيرة من ألمانيا ، وبلغت من النفوذ

يهم مستر قويجيت في مقالاته التي ينشرها بمجلة « القرن التاسع عشر وما بعده » يتتبع سياسة روسيا الخارجية وما تنطوي عليه من أخطار نحو الإمبراطورية البريطانية . ولقد ظل طوال سني الحرب يكتب في حماسة في ذلك الموضوع حتى أثار عاصفة من النقد في بعض الصحف فحلت عليه ، وأدى ذلك إلى قضية قذف شغل بها الناس منذ سنتين .

وهو الآن يعاود الكتابة في سياسة روسيا . ففي العدد الأخير من تلك المجلة (عدد أبريل سنة ١٩٤٦) عاد يشرح خطر هذه السياسة على إنجلترا ، فهو يقول : إن إنجلترا حاربت نابليون دفاعاً عن سلامتها ، وقد قال وليم بيت رئيس الوزارة في ذلك العهد إن إنجلترا تحارب « مذهباً مسلحاً » . ولكن الواقع أن إنجلترا لا تحارب من أجل المثل العليا ، وإنما تقصد السلامة ، ولو ضمنت سلامتها قبل التغلب على نابليون لما ترددت في مصالحته . ولقد ضمنت السلامة بعد التغلب عليه مدة قرن كامل . وفي سنة ١٩١٤ دخلت إنجلترا الحرب من أجل السلامة أيضاً . وفي سنة ١٩١٩ تدخلت في الحرب الروسية الأهلية وقيل إنها فعلت ذلك من أجل المبادئ ، ولكن الحقيقة أنها تدخلت إذ كانت تخشى اتفاق روسيا وألمانيا حين بدا لها أن ألمانيا ستقلب شيوعية .

ومما لا ريب فيه أن هنالك طريقين لضمان السلام : أولهما توازن القوى ، وهو الطريق الذي تسلكه إنجلترا . وثانيهما تفوق القوى

في النمسا أنها تستطيع من هذا البلد أن تكون لها الكلمة العليا في مستقبل أوروبا .

لقد حققت روسيا أحلامها داخل بلادها كما حققتها في الخارج ، ونحن نعلم أن الكثيرين من أبنائها ، منهم دستويشكي الكاتب الشهير ، كانوا ينادون باتحاد الشعوب السلافية تحت زعامة روسيا ، ولقد أدت السياسة الحالية إلى تحقيق هذا الحلم . وليس الغرض الذي ترمى إليه روسيا هو تحقيق السلام ، ولا هو غرض أدبي كما يفهم في غرب أوروبا . وإنما قوة هذا الغرض ناشئة عن الحيوية الكبيرة في الروس ، وما ينطوون عليه من ذكريات تاريخية . فروسيا في عهد القيصرية في ميولها الاستعمارية واعتقادها بأنها منقذة البشر ، وروسيا لينين التي تعتقد في الثورة العالمية ، يتلاقيان الآن تحت ستالين في صعيد واحد .

لقد كانت الثورة الروسية بعد انتصارها في أكتوبر سنة ١٩١٧ تقاوم كل نوع من الاستعمار ، بما فيه الاستعمار الروسي نفسه ؛ فقد كان القائمون بها يعتقدون اعتقاداً قاطعاً بأن الثورة لا تلبث أن تشتعل العالم بأسره ، وكانوا يراقبون في اهتمام أمرين : الثورة الألمانية ، والثورة على الحكم البريطاني في آسيا . وانتظر لينين في لهفة نجاح الثورة في ألمانيا ، ومعنى ذلك حدوث انقلاب شيوعي في سائر انحاء أوروبا . ولكن الثورة لم تنجح لأن العمال الألمان كانوا لا يرغبون في

دكتاتورية من أي نوع . وكذلك الثورة على الحكم البريطاني لم تنجح ، لأن الطبقة الحاكمة البريطانية أظهرت مرونة لم تكن متوقعة ، ومع ذلك ظل ستالين حتى سنة ١٩٢٥ يداعبه هذا الأمل .

لقد كان ستالين مخطئاً في أنه ظن وتوقع هذا الحادث في سنوات قليلة . ولكن هل يكون مخطئاً لو توقع حدوثه في عشرين سنة عند ما تصبح روسيا قوية بحيث يكون لها أصعب في تسيير الأمور ؟

لقد حاولت بولندا في سنة ١٩٢٠ أن تقضي على خطر الروس ، وكان من الطبيعي أنها لا تنجح . والآن قد عاد إليها الروس فاتحين ، وفرضوا عليها الثورة ، وروسيا حازمة الآن على ألا تقف بولندا في سبيل أغراضها في أوروبا ، ولن تسمح روسيا لبولندا بقطرة من الاستقلال الحقيقي . ويمكن لروسيا الآن أن تسيّر في الطريق الذي لم تنجح فيه من قبل وهو التحالف الثوري بين روسيا وألمانيا . وهي تستطيع أن تفرض إرادتها في شرق ألمانيا وأواسطها ، ولكنها الآن لا تستطيع أن تفرض هذه الإرادة في غرب ألمانيا ، لذلك نزلها تنادي بالوحدة الوطنية الألمانية ، لأنها تريد أن تجعل من ألمانيا تابعة . وهذا التحالف الذي تسعى إليه روسيا ، ويفرض على أوروبا الثورة ، يهدد الامبراطورية البريطانية بالزوال .

الحياة في برلين

في العدد الأخير من مجلة «هورايزن» الانجليزية (عدد مارس) رسالة كتبها كلاريسا تشرشل تصف فيها الحياة في برلين ، فقد كانت قادمة إليها من وستفاليا حيث منطقة الاحتلال الانجليزية . وكان القطار يقطع

أحياناً جسوراً وضعت عليها لوحات بيضاء تدل على أنها مؤقتة . ولكن القطار يمر في منطقة روسية حينئذ يتغير منظر هذه اللوحات إذ كانت اللوحات الروسية مليئة بالعبارات التي تنتهي بعلامات التعجب ، وهي تحمل على

الغالب النداءات المألوفة لدى حكومة السوفيت وقد وضعت حولها رايات حمراء عدة .

والقادم إلى برلين من الضواحي قد يجد في منظرها ، فلا تزال البيوت قائمة ، يدل منظرها الخارجي على أنها سليمة ، ولكنها في الحقيقة ليست إلا مجرد قشور مجوفة من الداخل ، أما وسط المدينة فهو أشبه ما يكون بمنطقة جوية أخرى ، فكأنه جبل عال لا تعيش فيه الأحياء ، ويقل فيه الزرع حتى ينعدم .

ولقد اتخذت اللجنتان البريطانية والأمريكية مقراً لها ولرجالها في المنازل السليمة بالضواحي . ويسمح لأصحاب المنزل من الألمان بأن يقيموا في الدور الأرضي إذا كانوا من المعروفين بعنائهم للنازيين ، أما غير هؤلاء فيطردون طرداً . وكلما زادت أعمال اللجنتين وزاد عدد الموظفين فيهما زاد عدد الألمان الذين يطردون من منازلهم فينضمون إلى الآلاف من الألمان الذين لا يجدون مأوى إلا في المنازل المحطمة وتمتت سلامة البيوت أو في الخرائب .

ومن المشاكل الكبيرة لدى الألمان في برلين أمر التدفئة . لذلك تجدهم يدورون في الغابات المحيطة بالمدينة ليحصلوا على شيء من الوقود . ولقد أتى الألمان على الأشجار في ثيرجاردن ، حتى لم يبق من هذه الحديقة العظيمة غير التماثيل التي أنشئت تحيط بها الأشجار ، وهي الآن قائمة وسط ميدان كبير من الطين . ويحاول كل ساكن في برلين لديه شيء من القوة أن يحصل على عمل في تنظيف المدينة ، فإن ذلك يضمن له بعض القوت .

ولقد نشأت في كثير من بلدان أوروبا السوق السوداء حيث يحصل فيها الناس على ما لا يستطيعون الحصول عليه من طعام ، ولكنها تكون عادة مستخفية ، أما أن يظهر

المتعاملون في السوق السوداء جهاراً في رابعة النهار كما في برلين ، فتلك حال تدل على منتهى اليأس ، فأنك ترى جماعات المتعاملين واقفة في الساحة الفضاء التي كانت ثيرجاردن فيما مضى ، يطل عليهم ذلك الأثر الذي أقامه الروس ليخلدوا ذكرى انتصارهم على برلين وأقاموا فوقه تمثالاً من البرنز يمثل بطلاً من رجال الجيش الأحمر ، فهذه الكتل البشرية لا بد إذا ما أزيح الضغط عليها أن توجه نشاطها بعد اليأس ، إلى أن تسلك أقرب طريق لأحياء ألمانيا كأمة من الأمم .

وبين هذه الخرائب نجد حياة تنافية تحاول أن تقف على قدميها ويساعدها الحلفاء . فقد قامت فرق المشاة وجوقات الأوركسترا ، تعمل بعد أن ظهرت من العناصر النازية ، يساعدها المحتلون . فقد عمل الروس على تمثيل أوبرا «أورفيوس» للموسيقار جلوك في الخريف الماضي بمعهد أوبرا الدولة ، كما مثلت الأوبرا الروسية «أوجين» أو «نيجين» ومثلت كذلك أوبرا «ريجوليتو» .

وفي مسرح دويتش مثلت رواية «ناتان الحكيم» ، وقام الممثل بول فيجنر بالدور الرئيسي ، ومثلت كذلك رواية «فاوست» . وتعمل فرقة الفلهارمونيك الشهيرة الآن تحت قيادة موسيقار روماني شاب اسمه سليبيداك إذ أن رئيسها ليوبورخارت الذي خلف فورتفنجلر أصيب خطأ برصاصة من حارس قضت عليه . ولقد أقيمت عدة معارض في التصوير والنحت ولكن لم يظهر فيها ما يلفت النظر بنوع خاص .

وفي كل منطقة من المناطق المحتلة عدد من الصحف والمجلات ، منها ثلاثة تعنى بالأمور الأدبية أولها «ديراوث باو» التي تصدر في المنطقة الروسية تحت رقابة الميجر شليجلوف الكاتب المسرحي الروسي ، وهي حرة الآراء وتدل آراؤها على نظر بعيد في مشاكل ألمانيا

من وراء البحار

الحاضرة والمستقبل من الوجهة الثقافية .
والثانية نيواوتليسي وهي تصدر في المنطقة
البريطانية . أما الثالثة فتصدر في المنطقة
الأمريكية .
وليس هناك حياة ثقافية بالمعنى المعروف
إذ أن تبادل الآراء غير قائم . وقد ابعث جميع

رجال الأدب والفن ذوي النزعة النازية ،
وتتشدد بعض سلطات الاحتلال في ذلك
مثل الأمريكان مثلاً إذ يعتقلون كل من
يظنون فيه ميلاً للنازية ، ويعهدون إليه
بأعمال يدوية مهما يكن من مواهبه الفنية
والأدبية .

موكب النصر في لندن

تسكلم ريتشارد جننجر في ملاحظاته
الطريفة بمجلة « القرن التاسع عشر » عن
العرض العسكري الذي يقام احتفالاً بذكرى
النصر في لندن، فقال : لقد حذرنا بأنه لا يأتي
الصيف حتى يكون ملايين من الرجال والنساء
والأطفال الذين لاشك في براءتهم في مجاعة
بجعات واسعة من أواسط وشرق أوروبا ،
ونحن نعلم أنه حتى الآن لا توجد أمة أوربية
لم تسلم من الخوف وخيبة الأمل الذي يقبع
تلك الحالة الشاذة التي نسميها الحرب الاجتماعية .
فلايين من الناس بلا مأوى ، وأولئك الذين
نجوا من وبال الغزو يعيشون كمنقط صغيرة
من الثبات النسبي في محيط من الفوضى هو
في احتياج إلى مجهود هائل ليعود إليه شيء من
النظام . ففي كل مكان نرى الكراهية
والارتباب . وقد تزيد صعوبات إنجلترا نفسها
وقد يزيد ما هي فيه من حرمان . فهل من

المستطاع وهل من المتصور أنه في مثل هذا
المأزق الذي يقف فيه العالم يوافق شخص
ذو تفكير أو شعور إنساني أو يصفق لعرض
النصر المقترح الذي سيحدث في وقت يقام فيه
عيد القديسين الذي هو من أجل وأهدأ
أعياد الكنيسة ؟ وهل يرضى عن ذلك رجال
الدين ؟ وما رأى الناس ؟ ولماذا لا نأخذ الرأي
بطريقة جلوب لكي نتحقق من الرأي العام ؟
لقد احتج بعض أعضاء البرلمان على الضغط
الذي ينشأ بسبب هذا العرض على النقل وإدارة
الآمن وحال الطعام . ولاشك أن وجود عدد
هائل من الناس في مدينة كبيرة قد يسبب
كوارث كثيرة كالتى حدثت في حادثة بولطن
منذ شهرين . الواقع أنه من الواجب أن يقضى
هذا العيد في التفكير والصلاة من أجل السلم ،
لا أن يقضى في عرض جدير بأن يطلق عليه
— على طريقة القرون الوسطى — رقصة الموت .

باريس تستعد للصيف

ينتظر في هذا الصيف كما تقول الأنباء
الرئيسية أن تعرض خمائة من صور كبار
اللاهورين الفرنسيين من القرون الوسطى إلى
القرن التاسع عشر ، ويقام هذا المعرض في
القصر الصغير ، وذلك بمناسبة مؤتمر الصلح
الذي يعقد في قصر لوكسمبرج . وستبذل
السلطات كل ما تستطيع كي تتخذ باريس
مظهرها قبل الحرب ، وتكون الفنون عنصرأ
أساسياً في هذه النهضة .
وتشارك المتاحف الباريسية في شرف عرض

من وراء البحار

زهرة مجموعاتها الوطنية . وسيكون متحف اللوفر بطبيعة الحال هو المركز . وتجمع مجموعات القماش المصور النادر في متحف الفن الحديث ، وتعرض في متحف الأورانجرى الصور التي سرقها الألمان ثم أعيدت إلى فرنسا ، وفي متحف جي دي يوم تعرض صور المدرسة الفرنسية من عصر أصحاب مذهب اللامعة . وستكون الصور التي تعرض في المتحف الصغير على نوعين : تلك التي تمثل الفن النبيل فتمثل الزارع والفرسان والقديسين وتلك التي تمثل الفن الطريف كصور الآلهات ونبات الغاب .

فالقسم الأول سيحتوى على صور لكلوى وشاردان ودافيد وأنجر إلى دي لاكروا وكورييه ، والقسم الثانى سيحتوى على صور ساحرة من فونتنبلي وصور لليزيد وليبيان وينتهى إلى قاتو وفراجونارد .

ظفر حديثا

أرض البشر تأليف الطوان دي سانت إكسوپرى ترجمة مصطفى كامل فوده
(دار الكاتب المصرى)

يعملون على خطوط الطيران ، فينقلون الناس والأثقال كل ليلة من قطر قريب إلى قطر بعيد ، فهي قصة معيشتهم وانتطاعهم إلى عملهم ، وارتباطهم بالمواعيد ارتباطاً أشبه بالأسر ، وركوبهم متن الجو ، حيث لا مساومة في الأخطاء ، فأقل خطأ يرتكبه الطيار معناه الفناء والعدم ، أو الأبدية إن شئت لذلك اسما آخر .

وهي قصة الآلة التي اخترعها الانسان في صلفه غير مكتف بأن يسيطر على جوانب الأرض التي جعلت له ولغيره من المخلوقات ، وأن ينفذ إلى أقصى جوانب المعمورة ، حتى لم يكد يترك السبيل لهذه المخلوقات لتعيش في أى جهة من الجهات إلا إذا ذلت له من قيادها ، ونزلت عن حريتها ، وغير مكتف بأن يركب متن البحار حتى صار الآلاف من بنى البشر يعيشون فوق ظهر البحر لا يكادون يعرفون اليابسة ، وحتى كاد الانسان يسخر أحياء الماء لأوامره ، فهو الآن يريد السيطرة على طبقات الجو . وقد ذهب في ذلك شوطاً بعيداً في السنوات الأخيرة .

ولكن قصة «أرض البشر» وكنت أفضل تسميتها «أرض الرجال» أى الرجال المتنازين بالصلافة والقوة ، وهي أحب صفات الرجولة ، إنما هي قصة أولئك المخامرين الأوائل الذين كانوا يطيرون في آلات لم تبلغ بعد ما بلغت آلات الطيران الحالية من الاتقان . فالانسان في هذه المرحلة لا يكون قد سيطر على وسائله

عند ما أخذ انطوان دي سانت إكسوپرى ينشر قصصه ، واتخذ حياة الطيران ، والطائرة ، وعيشة العاملين في الطيران موضوعاً لهذه القصص ، انتقل بفن الطيران إلى عالم الأدب . والواقع أنه من الصعب خلق أدب يدور حول المخترعات الميكانيكية ، فالأدب كالفن يقوم أولاً على المشاعر والعواطف ثم يقوم على المؤثرات الطبيعية التي تحيط بنا وتتصل بحياتنا اتصالاً لا يمكن تجاهله ، والعوامل الطبيعية هي جزء من المقدورات التي لا معدى للانسان عنها ، ولا يستطيع أن يتجاهلها في حياته ، لذلك كان تأثيرها بها شديداً ، وهو أشد في الأزمنة الأقل حضارة . ولذلك كان الأدب الذي نشأ في تلك الأزمنة شديد الاتصال بالطبيعة ، وهو في الأزمنة الأخيرة ، بعد أن سيطر الانسان على العالم الطبيعي أقل اتصالاً بالطبيعة ، ولكن الطبيعة خلقت في كل وقت أدبا ، أو كان لها فيه أثر .

أما الآلات فلم تخلق أدبا ، أو يصعب أن تخلق أدبا . على أن سانت إكسوپرى أحب العمل الذي اتخذته مهنة وعمل فيه فأخرج أول قصص يعد في مضاف القطع الأدبية عن الانسان وهو في جو الطيران ، حيث يستنشق ذلك الهواء النقي الذي يرق كلما ارتفع الانسان في الجو .

فما هي قصة «أرض البشر» التي نقاها الاستاذ مصطفى كامل فوده اليوم ، وأخرجتها دار الكاتب المصرى ؟ إنها قصة أولئك القوم الذين

وقد نشرتها دار الكاتب المصري في طبعة لا تقل إتقاناً عن خير الطبقات الأوربية . ولا ريب عندي في أن الدار ترمي إلى أن يكون إخراج الكتاب العربي في مستوى الكتب الأوربية . وإني لأرجو مخلصاً أن تنافسها في ذلك دور النشر الأخرى ، فإن تلك المنافسة تعود بالخير على الكتاب العربي ، وتوجد فناً جيلاً جديداً كان إلى وقت قريب غير قائم .

كل السيطرة ، بل هو مسير إلى مجاهل ، باذل نفسه في سبيل نفع الانسانية ، أو ما يعتقد أن فيه نفعاً .

ولقد وفق الأستاذ مصطفى كامل فوده في نقل هذه القصة كل التوفيق ، فاختيارها دليل على سلامة الذوق ، إذ أنها تدخل إلى الأدب العربي عنصراً من أحدث ما ظهر في الأدب الأوربي وهو أدب الطيران ، كما أنه نقلها في عبارة جميلة وأنيقة فيها كل مزايا المؤلف ومميزاته .

الفن ومزاهبه في الشعر العربي تأليف الدكتور شوقي ضيف (مكتبة النهضة المصرية)

فهو يقسم موضوعه إلى ثلاثة أقسام : مذهب الصنعة ، ومذهب التصنيع ومذهب التصنع . ثم يبتدئ بوصف مذهب الصنعة ثم يطبقه على النثر الجاهلي ثم النثر في الصدر الاسلامي ثم النثر العباسي فيتناول زعماء النثر في كل من هذه العصور واصفا حياتهم ، مبينا مميزات نثرهم ، فيتكلم عن عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ .

ثم يعود إلى مذهب التصنيع فيصفه ويبين أثره في الحياة العربية ودواوين الخلافة العباسية والامارات الفارسية ، ويتكلم عن ابن العميد وابن عباد وأبي إسحاق الصابي ، ثم يتكلم عن الخوارزمي وبديع الزمان وقابوس ابن وشكير .

ثم يأخذ في مذهب التصنع واصفاً حياة أبي العلاء ومؤلفاته والحريزي وتعقيداته والحصكفي .

وفي قسم آخر يتكلم عن مذاهب النثر في بلدن إسلاميين لها شخصية قائمة بذاتها وهما الأندلس ومصر .

وإننا لنعتقد أن هذا الكتاب جدير بأن يجد مكاناً في مكتبة كل أديب أو متأدب .

ليس عندي ريب في أن الدكتور شوقي ضيف أسدى إلى القراء والأدباء أيضاً ، يداً بتأليفه هذا البحث الطريف بعد أن ألف كتابه في « الفن ومزاهبه في الشعر العربي » ؛ فإن هذه البحوث ذات قيمة خاصة في هذه الأيام التي ترى نهضة في التأليف ليس لها مثيل في الأدب العربي منذ مئات السنين ، وهو بهذا البحث يذل للقارئ المعصر ، وللمؤلف المعصر دراسة النثر العربي في أيام تراث الأجداد .

ولا ريب في أن الشعر العربي قد ظفر بالناية والبحث منذ قديم الزمن ، وبعض الكتب التي وضعت في نقد الشعر في زمن ازدهار الحضارة العربية ، لا يزال يقرأ حتى الآن ، ولا يزال من السهل على الكاتب المعاصر دراسة الآراء القديمة في الشعر . أما البحوث في النثر قليلة لا تغني ، وهي فوق ذلك عسيرة على القارئ المعاصر ؛ لذلك كان كتاب الدكتور شوقي ضيف هدية ثمينة للمكتبة العربية .

وهو على ما فيه من بحوث وآراء جديدة في عدة مواضع منه قد قسم وبوب خير تبويب ،

من أوقات غدوهم ورواحهم للعمل ، أوقاتاً للقراءة ، فيستفيدون من هذه الأوقات . وكان هذا الكتاب من أجدر الكتب بأن يكون دائماً مع راغبيه في غدوهم ورواحهم .

وكنا نود أن يكون إخراج الكتاب أنيقاً جديراً بأهمية موضوعه ، فانه مما يؤسف له أن أخرج في حجم كبير متعب بحيث لا يسهل حمله لقراءته ، مع أن أكثر الناس يقتطعون

اللقاء تأليف ميخائيل نعيمة (مكتبة صادر بيروت)

وهو اليوم ينشر قصة « اللقاء » وليست هي الأولى بين ما نقرأ له من قصص ، فقد قرأنا له « الآباء والأبناء » من قبل . وهاتان القصتان من كاتب في مقدرة ميخائيل نعيمة لا يمكن إلا أن تكونا جديرتين بالقراءة . ولكننا نعتقد أن المقام الأول لتفوق الأستاذ ميخائيل نعيمة هو في النقد قبل أن يكون في القصص . وإذا كان قد أحسن كل الاحسان في كتابه عن « جبران خليل جبران » فذلك لأن كتابة حياة شخص تتطلب قوة في النقد أكثر مما تتطلب مقدرة في الرواية .

ولسنا نريد أن نقول إن قصة « اللقاء » خالية مما يجذب القارئ ، فحسبه أنه لا يستطيع أن يتركها قبل إتمامها ، وإنما نريد أن نأخذ عليها شيئاً من الاغراق في الخيال ، وقد تأخذ عليها كذلك أنه ليس بين أشخاص القصة من هو جدير بالحب أو بالعطف من القارئ ، حتى تلك الفتاة التي سحرت بالخان كمنجة ولم تقم من نومتها إلا إلى القبر .

عند ما ظهرت منذ عشرات السنين تلك المجموعة من النظم التي سميت « شعراء العرب في القرن العشرين » اتجهت أنظار العالم العربي إلى ذلك الأدب الوليد الذي نشأ في بلاد غربية هي أمريكا بين نخبة من الشبان الذين هاجروا من أرض لبنان في سبيل ابتغاء الرزق ، فلم يثمنهم جهدهم للمادى عن الاتصال الروحي ببني وطنهم . ونفخت الحياة الجديدة والآفاق الواسعة التي رأوها فيهم روحاً جديدة كانت نسمة حياة هبت على التقاليد الراسدة فأنعشتها ، وما زالت تعمل على إنعاشها . وقد تلاً في طليعة هؤلاء المجاهدين اسم جبران خليل جبران ، وأقبل الشباب في أقطار البلاد العربية ينهلون من أدبه . وثمة اسم آخر يقتزن بهذه النهضة الأدبية هو اسم ميخائيل نعيمة الذي نشر وقتئذ كتابه « الغراب » وهو مجموعة مقالات في النقد ولكنها كتبت بأسلوب جديد وبروح جديدة ، وتناولت موضوعات شيقة بما يكتب فيها كتاب الغرب ، فكانت نبراساً للشباب العربي في تناول موضوعات النقد .

الأوثان بقلم ميخائيل نعيمة (مكتبة صادر بيروت)

في أسلوب طريف وآراء مبتكرة . ونحب ألا نترك هذين الكتائين دون أن ننوه بالمجهود الظاهر في إتقان الطباعة والثوب الجميل التي ظهرت فيه قصة « اللقاء » بصفة خاصة وما فيها من صور جميلة متقنة .

أما كتاب « الأوثان » فهو تحفة من تحف الأستاذ ميخائيل نعيمة ، وهو مجموعة آراء له في الأوثان التي يعبدها العالم الحديث . فقد تكلم عن المال والقوة والسلطان والرأى العام والقومية والكلمة السوداء والعلم ، كل ذلك

التاريخ الانجليزي تأليف ا. ل. زواس ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة (مكتبة النهضة)

زواس ، وهو الذي رأى الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ التاريخ بجامعة فؤاد الأول أن ينقله إلى اللغة العربية ، ليوفى ، كما قال في مقدمته ، ديناً لانجلترا عليه هو دين تشقنه في جامعاتها .

فالكتاب إذن في ثوبه العربي خير مقدمة لمعرفة لاتاريخ انجلترا ، وإنما اللغات من هذا التاريخ الذي لا يمكن أن يستوعبه هذا الكتاب الصغير . ولعل مؤلفه بالغ في الاختصار ، أو لعل مؤلفه بالغ في محاولة إظهار وجوه مختلفة من نواحي التاريخ الانجليزي ومميزات كل عصر من العصور المختلفة ، فأهل النواحي الأخرى . فتاريخ انجلترا كما أشرنا يمكن أن يدرس من وجهات كثيرة متعددة ، وتوجد في كل ناحية من هذه النواحي سلسلة غير منقطعة من الآثار والمستندات والوثائق تمتد إلى آلاف السنين . فقد تريد أن تدرس تجمعات الشعوب التي تكون منها سكان الجزيرة واختلافاتها ، أو انجلترا في القرون الوسطى وتأثير النظام الاتطاعي فيها ، أو استتباب الانظمة الدستورية ، وتاريخ انجلترا خير تاريخ يدرس من هذه الجهة ، أو توسع انجلترا فيما وراء البحار ومحاولتها السيطرة على العالم ، أو تحولها الصناعي أو نمو الأدب والعلم فيها ، كل هذه الأمور جديرة بالدرس ، وفي تاريخ انجلترا مجال متسع متواصل .

إذن نحن نرحب بنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية أكبر ترحيب وإن كان قطرة في محيط من الدراسات الشيقة المفيدة . وقد أسدى الأستاذ يدأ لقراء العربية بنقله ، بقدر ما أوفى بدينه . ولا ريب في أن الثبت الذي وضعه تلميذه الأستاذ أحمد عيسى للرجوع إلى مواضع

قد تكون العناية بالاطلاع على تاريخ انجلترا بين جمهور القارئ في بلاد الشرق أقل من العناية بتاريخ أهم كبيرة أخرى مثل فرنسا . وربما كان لدى القراء بعض العذر ، ففرنسا دولة تعيش قريبة من الدول الشرقية وعلى شواطئ بحر واحد ، وفرنسا تحتل قسماً من أهم أقسام القارة الأوروبية ، وفي تاريخها حادث واحد كان له رجة عالمية ولا يزال دويه يتردد في أنحاء المعمورة ويؤثر في الأجيال المتعاقبة من بني البشر ، هذا الحادث هو الثورة الفرنسية . ولقد تدخلت فرنسا في حياة الشرق في الأزمان الحديثة تدخل كبيراً وأصاب الشرق منها خير قليل وشر كثير . على أننا لو أمعنا النظر قليلاً لوجدنا أن انجلترا أكثر تدخلًا في أمور الشرق والعالم ، وشرها في العالم أكبر ، فكان تاريخها جديراً بالعناية والدرس .

والواقع أن تاريخ انجلترا ، إذا كان للتاريخ قيمة ، حافل بسلسلة غير منقطعة من الحوادث ، يستطيع منها الباحث أن يتف على معلومات في الاتجاه الذي يبحث فيه يصعب أن يعثر على مثلها في تاريخ الأمم الأخرى . ولعل تكييف تاريخها ناشئ من مركزها الطبيعي كجزيرة منفصلة قد تستطيع أن تتأثر بتأثير الدول الأوروبية الأخرى إذا رغبت في ذلك وأن تؤثر في دول القارة الأوروبية إذا ما أرادت .

ولقد أراد المجلس البريطاني ، وهو الهيئة التي أنشئت في السنوات العشر الأخيرة لنشر الثقافة الانجليزية ، أن يصدر كتاباً باللغة الانجليزية من قلم مؤرخ معروف عن روح التاريخ الانجليزي ، فكان كتاب الأستاذ

الكتاب مفيد . وحبذا لو أضاف المترجم القائمة المختصرة من الكتب التي يرجع إليها الموجود في الكتاب نفسه . ولقد أشار المترجم في مقدمته بأنه فسر بعض المواضع التي ظن أنها تكون غامضة على القراء بدلا من

أن ينقلها إلى اللغة العربية . ونحن لا نوافق على هذه الطريقة ، بل نرى أنه ليس من حق المترجم أن يفعل ذلك ، وعليه أن يحترم الأصل ويضع التفسير الذي يراه في حاشية بسيطة في ذيل الصفحة .

حسن محمود

الحكومة المصرية في السودان للأستاذ محمد احمد محجوب (مطبعة مصطفى البابي الحلبي)

بالمؤلف ؛ لأنه كل ما بلغت إليه من المعرفة بالمؤلف ؛ وقد كنت في شئ عن ذكر ذلك لولا أن له هو أيضا دلالة على موضوع الكتاب ؛ أما موضوع الكتاب فهو الحكومة المحلية في السودان كما يدل عليه عنوانه ، وقد بدأه المؤلف بمقدمة يقول في قائمتها :

« إن الاهتمام بشئون الحكومة المحلية في السودان في السنوات الأخيرة ، وصدور القوانين واللوائح الخاصة بتنظيم عمل الحكومة المحلية وسلطاتها وواجباتها ، وإنشاء المجالس ذات الصبغة التمثيلية والسلطات التنفيذية ، جعلت اهتمام الناس بأمر الحكم « الذاتي » المحلي يتزايد يوما بعد يوم » .

ويمضي في مقدمته ذاكرة الدوافع التي حدثته إلى تأليف هذا الكتاب ، ونهجه في البحث ، وطريقته في تناول الموضوع ، ثم يقول :

« إنه عمل متواضع أتقدم به كلبنة في أساس نهضتنا القومية وجهادنا في سبيل ترقية بلادنا ونيل استقلالنا كشعب يحكم نفسه بنفسه . . . وإني لأتمنى مخلصا أن يحفل به أبناء مصر حكومة وشعبا وأن يوليه إخواننا في الشرق العربي عنايتهم . . . »

فاذا فرغ المؤلف من مقدمته مضى في بحثه فوصف البلاد وسكانها ، ثم استعرض تاريخها

هذا كتاب وضع في سنة ١٩٤٤ ، وطبع في سنة ١٩٤٥ ، وألقي إلى في سنة ١٩٤٦ ، وإنما ذكرت هذه التواريخ المتعاقبة لما لها من الدلالة في مثل الموضوع الذي يعالجه هذا الكتاب ، وهو موضوع يشغل بال المصريين والسودانيين على السواء في الوقت الحاضر ، بل لعله الموضوع الأول الذي يشغل بال المصريين والسودانيين في الوقت الحاضر ؛ لأنه يتناول طرفا مهما من قضية السودان التي تدور بشأنها المفاوضة في الوقت الحاضر بين مصر وبريطانيا ، أو التي نأمل أن تدور بشأنها المفاوضة ؛ فهو إذن كتاب يظهر في أوانه ، لأنه يلقى ضوءا على بعض الحقائق ، أو بعض الأباطيل ، التي ينبغي أن يلم بها للمفاوضين المصريين ، أو المصريون عامة ، حين تتناول مباحثهم نظام الحكم في السودان إن قدر لهذا الموضوع أن يكون موضع البحث والمفاوضات في هذا الأوان !

أما مؤلف هذا الكتاب فهو سوداني فيما يبدو ، وأحسبه من أهل الجنوب ، عرفت ذلك من طريقته في عرض الموضوع ، وأسلوبه في البحث ، ومنهجه في الاستدلال ؛ وثمة استنتاج آخر وصلت إليه من طريقته وأسلوبه ومنهجه ، هو أن مؤلف ذلك الكتاب موظف في حكومة السودان . . . وحسبي هذا تعريفا

فيها المؤلف لشيء من حديث السياسة العليا
يقول صريح ، وإن لم ينفل عن الإيجاء
والتلميح والاستخفاء في كثير من المواضع
وراء الضباب ، وهو مسلك لعل له ما يفهمه
من موظف في حكومة السودان الانجليزي ...
المصري ! وفي الوقت الحاضر !
ولكنه على كل حال كتاب في أوانه .

وتطور نظام الحكم فيها ، ثم انتقل إلى نظام
الحكومة المحلية في السودان ، وعقد فصلاً
لتعريف بنظام الحكومة المحلية في إنجلترا ،
وقارن بينه وبين النظم المحلية في بلاد أخرى ،
ثم عرض صورة للحكومة المحلية في السودان
كما يود أن تكون ...
تلك هي خلاصة مباحث الكتاب ، لم يحرص

بين العلم والأدب للأستاذ قدرى حافظ طوقان (المطبعة التجارية بالقدس)

غاياتها وما تنتهى إليه . فمن أين يبلغ الأديب
منزله في التعبير عن صور الحياة إذا لم يلمس
من العلم أسبابه للنفاذ إلى علوها والاستشراق
إلى غاياتها القريبة أو البعيدة ؟
وإنما كان توهم الخلاف بين العلم والأدب
نتيجة لتلك الكتب الأعجمية التي يرميها بها بعض
الباحثين في العلم في لغة لا يكاد يسيغها من
القراء غير أهل التخصص المنقطعين لفنها ، بل
لا يكاد يسيغها المتخصصون المنقطعون لفنها إلا
لأن عندهم من مقدمات العلم ما يتيح لهم أن
« أن يستنتجوا » ما يريد كاتبها أن يقول ؛
ثم نتيجة لبعض الكتابات الأدبية التي كان
يلتزمها كتاب العربية في جيل مضى ويصرفون
همهم في إنشائها وتجييرها إلى العناية بصقل
اللفظ ورنين المقاطع ومحسنات البديع ثم
لا شيء وراء هذه الموسيقى وذلك الرنين وتلك
الزخارف مما يصحح أن يسمى أدبا . من تلك
الكتب الأعجمية . لبعض الباحثين في العلم ، ومن
هذه الكتابات التي لا تصور حياة ولا تصف
حقيقة ولا تنفذ إلى أعماق نفس إنسان ،
نشأ توهم الخلاف بين العلم والأدب وليس
ثمة خلاف .

ومعذرة إلى القارئ ، فلعل قد بدت
هما قصدت إليه حين همت أن أعرض هذا
الكتاب ، ولكن في بعض ما قدمت من بيان

إجتم إلى عنوان هذا الكتاب اسم مؤلفه
تصرف موضوعه ؛ فهذا الكتاب عنوانه
« بين العلم والأدب » ومؤلفه هو الأستاذ
قدرى حافظ طوقان ، وهو أديب من أدباءنا
الثلاث الذين جمعوا بين العلم والأدب ، فكان
إتاجهم الأدبي باباً من أبواب العلم ، وكانت
مباحثهم العلمية فناً من فنون الأدب ؛ وما أقل
أهل البيان في العلماء ، وأقل منهم الذين يعنون
بالعلم ويتعمقون نظرياته من أهل الأدب !
هل كان ذلك لأن بين العلم والأدب عداوة
فلا يجتمعان ؟ فكيف كان في الأمة العربية
أمثال الخوارزمي ، والبيروني ، وابن سينا ،
وابن الهيثم من أهل العلم وذوى البيان ؛
وكيف كان فيهم من مشاهير هذا العصر
أمثال فلان وفلان وقدرى حافظ طوقان ؟
وهذا الكتاب الذي تعرضه اليوم هو
برهان جديد على أن العلم والأدب قد يلتقيان
فيكون كل منهما تماماً لصاحبه وزينة له وزيادة
في معناه ؛ بل هو برهان — إلى براهين
كثيرة — على أن العالم الذي لا يحسن البيان
ليس حقيقاً بصفته بين أهل العلم ، وعلى أن
الأدب الذي لم يأخذ بحظه من العلم هو أديب
ناقص الاداة فارغ المعنى سطحي التفكير ؛ فقد
قلنا العلم اليوم في كل ناحية من نواحي
الحياة وكشف عن علوها المستورة وأبان عن

ونشرها في مناسباتها في مجلات مصر والشام أو أذاعها من محطة الشرق الأدنى ثم جمعها بين دفقي هذا الكتاب .

هو كتاب قديم إذن وإن لم تخرجه المطبعة إلا منذ بضعة أشهر ، ولكنه بطرقة موضوعاته وأسلوب كتابته سيظل جديداً في يد كل قارئ من قرائه في كل بلد من بلاد العربية التي عرفت كتابته الأدبي العالم .

العلاقة بين العلم والأدب ما قد يغنى عن التعريف بكتاب الأستاذ طوقان ، فما هو إلا فصل من ذلك الباب ، وعنوان من ذلك الكتاب .

بضع وثلاثون مقالة أنشأها كاتبها في فترات متباعدة بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٤٥ تناول فيها بعض مباحث العلم بأسلوب الأدبي وعقل العالم مع سلامة اللغة ودقة التعبير ،

عصر المنصور الموحدي للأستاذ محمد الرشيد ملين (المطبعة المحمدية بالمغرب)

ابن رشد ، وكان عصر من العصور الذهبية في المغرب والأندلس .

وقد قسم المؤلف كتابه بعد المقدمة ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الحياة السياسية ، وفيه خمسة فصول ، بسط فيها المؤلف حروب المنصور وفتوحه في المغرب وفي أسبانيا .

والقسم الثاني : الحياة الفكرية ، وفيه أربعة فصول ، بسط فيها بعض مظاهر الثقافة في عصر المنصور ، وتحدث عن اللغة والنحو والأدب ، والشعر والشعراء ، والعلم والعلوم في ذلك العصر .

والقسم الثالث : الحياة الدينية . ثم ألحق بذلك خاتمة في بضع صفحات تصور آخر حياة المنصور .

وقد عني المؤلف بذكر مصادر بحثه ، كما أثبت في آخره طائفة من القهارس الوافية للموضوعات والأعلام وأسماء المدن ، فجاء وافياً بحاجة كل قارئ يريد أن يقف على تاريخ هذه الحقبة من تاريخ المغرب في العديتين . وأسلوب المؤلف أدبي رشيق يمتع قارئه ويشوقه ، ولغته سائغة عذبة لا يكاد القارئ يشعر معها بمرور الزمن .

هذا الكتاب — كما يقول مهيدي — هو أحد المؤلفات التي أخرجتها المطبعة المنيرية في هذه السنة ، وهو أثر من آثار النشاط الفكري بالمغرب . وفي المغرب اليوم نشاط فكري يراه بتشجيعه وعنايته صاحب الجلالة السلطان محمد بن يوسف ، وفي مطبعته المحمدية أذن جلالته بطبع هذا الكتاب ، وعن دار التأليف والنشر السلطانية كانت إذاعته .

وهو حلقة أولى من سلسلة بحوث يقصد منها إطلاع شباب البلاد العربية على المستوى الفائق الذي بلغته المدنية بالمغرب في عصوره الذهبية ، متدرجة مع التاريخ حتى تبلغ عصر السلطان محمد بن يوسف الجالس على عرش المغرب اليوم .

أما مؤلف هذا الكتاب فهو الأستاذ محمد الرشيد ملين مدير المطبعة المحمدية السلطانية . وأما موضوعه فهو عصر المنصور يعقوب بن عبد المؤمن سلطان الموحدين بالمغرب والأندلس . وقد تولى المنصور عرش الموحدين بعد أبيه يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٥ الهجرية ، ونزل عن العرش طائفاً لولده محمد الناصر سنة ٥٩٥ وسنة يومئذ ٤٨ سنة فانتقطع للعلم ودراسة الفلسفة وصاحبه يومئذ الفيلسوف

مصادر البحث ومقيم في جوه ؛ فلا عجب أن يكون كتابه — كما أراه — شيئاً جديداً من تاريخ تلك البلاد يلبنى أن يعرفه كل عربي .

على أن أحسن ما يلبنى أن أنوه به حين أذكر هذا الكتاب ، هو دقة المؤلف في البحث وحرصه على التجري ، وهو إلى ذلك مغربي يؤرخ حقه من تاريخ بلاده ، فهو قريب من

همزات الشياطين للأستاذ عبد الحميد جودة السحار (مطبعة مكتبة مصر)

امرأة فسولت له نفسه ما سولت حتى أزلته ثم فاء إلى الندم والتوبة .

والقصة الثانية عنوانها « على القبر » وفيها يصف كيف يتنلب الشيطان على عوامل الموعظة والعبرة فينفذ إلى سرائر المشيعين يداعب أمانهم ويوتنظ شهواتهم وواعظ الموت لا يزال ماثلاً أمام أعينهم !

وعلى هذا النسق ترى صوراً شتى من همزات الشياطين في كل ما تقرأ من الأقاصيص في ذلك الكتاب ، وعدتها اثنتا عشرة أقصوصة .

وقد يحس القارئ في بعض ما يقرأ من هذه الأقاصيص أن المؤلف قد أسرف في التحليل إسرافاً فيه بعض الملالة ، وبالغ في وصف بعض البديهيات مبالاة لم تكن إليها حاجة ، ولكن ذلك لا يصرف القارئ عن متابعة الموضوع بشوق ولذة .

وقد يحلو لبعض القراء أن يحاول تطبيق ما قرأ في صدر الكتاب عن فن القصة على ما يطالع بعد ذلك من أقاصيص المؤلف فلا تستقيم له القاعدة ولا يستبين سبيل القياس ، ولكن ذلك لا ينقص كثيراً من قيمة البحث الذي صدر به المؤلف كتابه ، ولا يغض من قدره كقاص يحاول فناً من فنون الأدب لا يخضع دائماً للقواعد الموضوعية ولا يتقيد بالتقاليد !

هذا كتاب قصص ، أو هو كتاب في القصة ؛ فن شاء فليتخذ له لونا من ألوان الانشاء الأدبي يستمتع بما ساق مؤلفه من أقاصيص شائقة ليست بعيدة مما نراه حولنا من صور الحياة أو نحسه في ذات أنفسنا من صور العاطفة ، ومن شاء فليتخذ كتاباً يعرف فيه من أوليات فن القصة ما يريد أن يعرف ، ليكون قاصاً يلتزم القاعدة في هذا الفن كما يريد أن يكون مؤلف هذا الكتاب ، أو ليكون ناقدًا يزن ما يقرأ من قصص المؤلفين بميزانه .

فقد صدر المؤلف كتابه يبحث بمبسوط جعل عنوانه « بين الرواية والأقصوصة » يتحدث فيه عن معنى الرواية في اعتبار أهل ذلك الفن ، والشروط التي يرى أن تتوافر فيها ، ومراحلها من حيث تبدأ إلى حيث تنتهي ، ثم عن الفرق بينها وبين الأقصوصة ، وغير ذلك مما قد يحتاج إليه القاص ، أو الناقد .

ثم أردف هذا البحث بطائفة من الأقاصيص لعله كان موقفاً حين اختار أن يكون عنوانها على الجملة « همزات الشياطين » فكأنها تصوير لبعض ما يصطرع في عواطف الناس من نوازع الخير والشر وما يتجاذبهم من دوافع الهوى وعوامل الفضيلة . فالقصة الأولى وعنوانها « وسوسة الشيطان » تصور شاباً قد نشأ على الخير والفضيلة ، ثم بدت في حياته

في مجلات الشرق

بركة الوالدين !

غمارها ، وعرض الأوسمة التي نالها ، وانتظار
الآجل ! وهو بالحقيقة ميت لم يدفن بعد ،
جميع حياته وراءه وليس أمامه إلا القبر . فعلى
الشباب العربي أن يولي وجهه نحو المستقبل ،
وأن يعقد النية على أن يكون مستقبل العرب
خيراً من ماضيهم ، وإذا اقتضت الحال أن
يخرج على الجيل القديم في بلده فليفعل ؛
لأن بركة الأجيال القادمة خير من بركة
الوالدين . . . »

في عدد مايو الماضي من مجلة « الأديب »
— بيروت — مقال بقلم الدكتور نبيه أمين
فارس عنوانه « رسالة الشباب العربي »
يقول فيه :

« يعيش الشباب العربي اليوم في بيئة تعودت
النظر إلى الماضي والتغنى به دون أن يستفيد
من وحى التاريخ شيئاً . وهو أشبه بجندى
تجاوز السن فأحيل إلى التقاعد ؛ لا عمل له
سوى التحدث عن المعارك الحربية التي خاض

تعريب الأدب العربي !

يشب على عقيدة عربية راسخة . ومن واجبنا
أن نهيب للنشء الجديد رواية من طينة
عربية . . . ويألت كتابنا وراء الترجمة والنقل
يعنون بالرواية العربية ، لاسيما تلك التي تنسج
لحمتها من حياة العرب في هذا العصر . وتاريخ
العرب قديمه وحديثه مفعم بالوحى والالهام ،
ينتظر مصطفى من أرباب الأقلام ليحطم
الآصنام ، ويحرر أدب قومه من ربة الأجانب
وتفكير الأعجم ! »

ويمضي الدكتور نبيه في مقاله ذاك عن
رسالة الشباب العربي حتى ينتهي إلى أن
يقول :

« لقد حان الوقت لتعريب أدبنا ولانشاء
رواية عربية حديثة منبعثة من الحياة العربية ،
ولن نرضى بعد الآن بماجدولين وسيرانودي
برجراك والبؤساء وغيرها من روايات
الأجانب . ومن الصعب أن نرتجى من نشء
لم يترعرع إلا على مثل هذه الروايات أن

كيف يكتب أندريه جيد . . .

أسرة مجلة « الأدب الجديد » الناشئة في
بيروت أن يصف لقراءها طريقته في
الكتابة .

زار الأديب الفرنسي الكبير أندريه جيد
لبنان ، فاحتفت به الأوساط الأدبية تقديراً
لمسكاته في الأدب العالمي . وقد طلبت إليه

بدونها لا يعطى شيئاً ، بينما الفكرة هي كل شيء وكثيراً ما تتأخر تلك الفكرة فعلينا حينئذ أن نتمسك بالصبر اللانهاى ، لأنه يجب ألا نتزعجها انتزاعاً بل ندعها تأتى مختارة

« فالفكرة المفضلة تأتى عند ما يختفى غيرها .
« في بعض الأحيان أنتظر مجيئها ساعة ،
فان تخلفت أكون قد أضعت ساعة من الزمن .
« الأشياء القائمة بالجمال هي التي يوحى بها الجنون ويكتبها العقل

« يجب البقاء بين الاثنين : قريبين من الجنون عند ما نحلم ، ومن العقل عند ما نكتب ! »

فكتب إليها يقول :
« حبذا لو تنبسط فكرتى
« أبقى في غرفتى دون أن أعمل شيئاً
وبودى أن أعمل كل شيء
« أملك عشرين كتاباً ابتدأت في مطالعتها
جميعاً وما انتهيت من أحدها أقرأ ثلاثة
أسطر ثم أفكر

« في غرفتى سرير واطىء وطاولة صغيرة
مربعة وكرسی

« أتخيل نائماً ، وأؤلف ماشياً ، ثم
أكتب واقفاً ، وأنتقل ما كتبت في أوراقى
جالساً

« الخيال عندى لا يستبق الفكرة فهو

روحية الشرق . . .

نستطع أن نقر لأنفسنا بهذا الفضل . لقد عرف أجدادنا الروحية العميقة ، وأنشأوا بما بعثت فيهم من قوى بناء شامخاً وحضارة مجيدة . أما اليوم فانك لن تجد لهذه الروحية فينا أثراً باقياً تستطيع الوقوف عنده ، بل ترانا بالعكس غرقى في خضم من المادية واسع عميق ، وفي نوع من العيش الفردى والتعامل الاجتماعى هو أبعد ما يكون عن خلوص الروح وتقاوة النفس . وأعظم دليل على ما أقول تأخرنا الشائن في شتى الميادين ، هذا التأخر الذى ما كان ليسطو علينا ويمنعنا عن كل حيوية منتجة لو أننا نعمنا بنعمة الروح واهتدينا بقبسها الوضاء . فلنتضع إذن ، وللسع إلى أن نتمى في نفوسنا الخلق الكريم والجد ، وتقدير المسئولية ، وسواها من الصفات الروحية ، التي بدونها لا يكون أى تنظيم ، بل لا يكون أى خلق ، إذ ما التنظيم في النهاية سوى نوع من الخلق وشكل من الابداع . »

ويتحدث الدكتور قسطنطين زريق عن « علل التنظيم » في الجزء السابع من السنة الثانية لمجلة « عالم الغد » التي تصدر في بغداد فيجعل أول عوامل التنظيم في الانسان هو العقل ، ولكن الشخصية الانسانية ليست عقلاً كلها ، بل إنها تضم إلى جانب العقل عنصراً آخر ليس في جوهره منظماً وإنما هو الذى يولد الدافع للتنظيم . هذا العنصر الذى يسمونه « الروح » . وحين ينتهى الكاتب من تحديد هذين العنصرين من عناصر التنظيم يقول : « وقد يخطر للبعض أننا إذا كنا في مجتمعنا العربى مقصرين في العنصر العقلى من العنصرين الانسانيين اللذين يخلقان التنظيم ، فليست الحال كذلك فيما يختص بالعنصر الثانى ، أى الروح ؛ كيف لا وقد اعتدنا أن نصف أنفسنا كعرب أو كشرقيين بأننا أغنياء بالفيضان الروحى ، وأن تقابل روحيتنا هذه بمادية الغرب . على أننا إذا أنعمنا النظر وتفحصنا حالنا الحاضرة باخلاص وتجرد لم

السعادة فن

كل منهما وردة جميلة على غصن شجرة صغيرة
فيهم أحدهما ليقطفها فيخزّه شوكة ،
فيقول : ما أقسى الدنيا وما أتعسها حق
الورد قد أحيط بالشوك فلا نستمتع به ! وأما
الثاني فيقول : لله در الحياة ! ما أبهجها
وأحلاها ، فحق الشوك قد وضع بينه
الورد !

« وقد روى أن أحدهم من بكتب ملق في
الطريق رث الهیئة قبيح الشكل ، وكان جميع
المارة يشتمون منه ، فنظر إليه وقال :
ما أشد بياض أسنانه ! »

وفي العدد الثاني من مجلة « البطحاء »
البغدادية يحاول الأستاذ دانيال يوسف أن
يتحدث عن « السعادة والحياة » فيسأل
أين يجد الإنسان السعادة ؟ ولكنه قبل أن
يجد جواب سؤاله يعود فيسأل : ماهي السعادة
نفسها ؟ ويتردد بين السؤالين في حيرة ينتهي
بها إلى أن يقول : « السعادة فن : ليست
السعادة فيما نملك ، أو ما نرى ، أو ما يحيط
بنا ، وإنما هي في كيف نحسن استعمال
ما نملكه ، ونحس بالجمال فيما نرى ، ونحظى
بما يحيط بنا ، فقد يدخل اثنان حديقة ويرى

بين جيلين

للمناهج ، يتعلمون ليحملوا شهادات لا ليسدوا
فراغاً ستركه الباقية المناضلة حتى الساعة ، ولولا
هم ، لخلت الساحة . يتعلم هؤلاء الناشئون
ليجعلوا من شهاداتهم مفاتيح لأبواب
« السراي » لا أسواراً تحمي ثقافتنا وتنميتها ؛
فإذا يحل بناء متى خلت الجبهة من الأبطال ؟
إن الله قائم الأعماق خاوي الخترق : المشاتل
خالية من الفرسات التي يعدها البستاني لتعمل
حل الشجرات التي تنقرض ! »

ويعض الكاتب فيما يصف من إنتاج أدباء
الجيلين ، وفي المجاعة الأدبية التي يتوقع أن
تحل بلبنان ، ثم ينشئ حواراً لطيفاً بينه وبين
« الكلمة » التي نبأ بها موضعها في كلام
أولئك الأدباء ، فلا هم وضعوها حيث أرادت
اللغة أن تبين عن معناها صريحاً ولا هي
كشفت عما يريدون لها من معنى يقتسرونها
على أدائه .

ويعيب الأديب مارون عبود في عدد ٣٠
أبريل من مجلة « الطريق » — بيروت —
على الأدباء الشيوخ في لبنان جودهم بعد
نشاط وقتورهم بعد حرارة ، ويعيب على
أدباء الشباب ثمة عجزهم وضعف أداتهم وعدم
إحسانهم استعمال « الكلمة » في موضعها من
الكلام ، فيقول :

« إننا لمقبلون على سنوات عجاف ، على
قحط وجذب أدبيين ؛ فالمحاربون القدماء ألغوا
سلاحهم ، والنازلون إلى الساحة في أيديهم
مخاريق لاعبين : ألفاظ معدودات ملمومات
من هنا وهناك يرون كل الشعر فيها ، تعاير
والألفاظ لا تتجاوز حبات المسبحة ، وهم
يتسلون بها مستخبرين آلهة الشعر ، والفن
لا يقوم على الخبرة ... »

« أما الجيل الطالع — رجال اليوم
وغد — فيتخطونهم وأساتذتهم في ظلمات

الآبوة حرفة !

نيت أن يقتبس من العلم ما يشاء . . .
« وفي البيت العلمي يعنى بالأطفال خير
العناية ، وما الطفل إلا مخلوق صغير عاجز
يمكن لمستقبله أن يصلح أو يشوه تبعاً لضروب
العناية التي تلقاها صغيراً . وقد تحب الأمهات
أطفالهن بالفريزة ، ولكنهن لا يفقهن شيئاً
بالفريزة عن علم العناية بالطفل . . .

« المحاماة حرفة ، والطب حرفة ، والرأى
الحديث هو أن الآبوة أو الأمومة حرفة
أيضاً . . . الأمهات العصريات النبيهات يدرسن
حرقتهن ، والآباء العصريون الأذكياء
يدرسون حرقتهن ، وإن المجلات لثنتن ،
والجمعيات لتؤسس ليزداد الوالدان علماً
بصناعتهم ، وبهذه الصورة ينساب العلم إلى
البيوت بلا انقطاع . . . »

وفي عدد أبريل من مجلة « المعلم الجديد »
التي تصدرها وزارة المعارف العراقية بحث
الأستاذ سيلي Seeley ترجمة الأستاذ محمد
عزيز ، يتحدث فيه عن « سياسة الطفل في
مملكة البيت » وعن « تشجيع اللعب »
و « المكافأة والعقاب » و « عوامل الفساد »
و « تعويد الصديق » و « التدريب على
الاستقلال » فيقول عما يسميه « البيت
العلمي » :

« من أشد الأماكن افتقاراً إلى مثل هذا
العلم هو البيت ، ففيه الرجال والنساء ، وفيه
الكبار والصغار ، وينبغي لهؤلاء جميعاً أن
يتعلموا كيف يعيشون معاً في هناء وتعاون .
والكثير من البيوت لا ينتفع بالعلم في هذا
الشأن ، على حين أن من الميسور لكل

دراسات عن المسرح العربي

وزارة المعارف المصرية بين سنتي ١٩٢٥ ،
١٩٣٢ قد أخفقت إخفاقاً تاماً ، فمن ذلك أن
القطعة المسرحية التي فازت بالجائزة الأولى من
الوزارة سنة ١٩٣٢ وهي مسرحية « سميرة »
تأليف رشاد حافظ ، قد رفض تمثيلها عامة
مديرى الفرق التمثيلية ، والمؤلفون الذين
ظفروا بالجوائز الثانية لم يكونوا أسعد
حظاً . . . »

ويتحدث الكاتب عن معهد التمثيل الذي
أنشأته وزارة المعارف في وقت ما ثم أغلقه
حمدي عيسى باشا لاعتبارات تتصل بالتقاليد .
وهو بحث ممتع طريف فيه رواية المؤرخ
ورأى الباحث المدقق .

توالى مجلة « الثريا » التي تصدر في تونس
« دراسات عن المسرح العربي » بقلم الأديب
التونسي الأستاذ عثمان السكعك . وفي عدد
فبراير من هذه المجلة يتحدث الأستاذ السكعك
عن تاريخ المسرح المصري الحديث وعن
تمثيلات المؤلفين المصريين والقائمين على فن
التمثيل في مصر ، فيتحدث عن المرحوم محمد
تيمور ، وعن جورج أبيض ، وزكي طليمات
وروايات شوقي ، ومسرحيات توفيق الحكيم
ومترجات خليل مطران ، وعاميات إبراهيم
رمزي ، كما يتحدث عن مجهود وزارة المعارف
للمصرية فيقول :

« إن مباريات القطع التمثيلية التي نظمتها



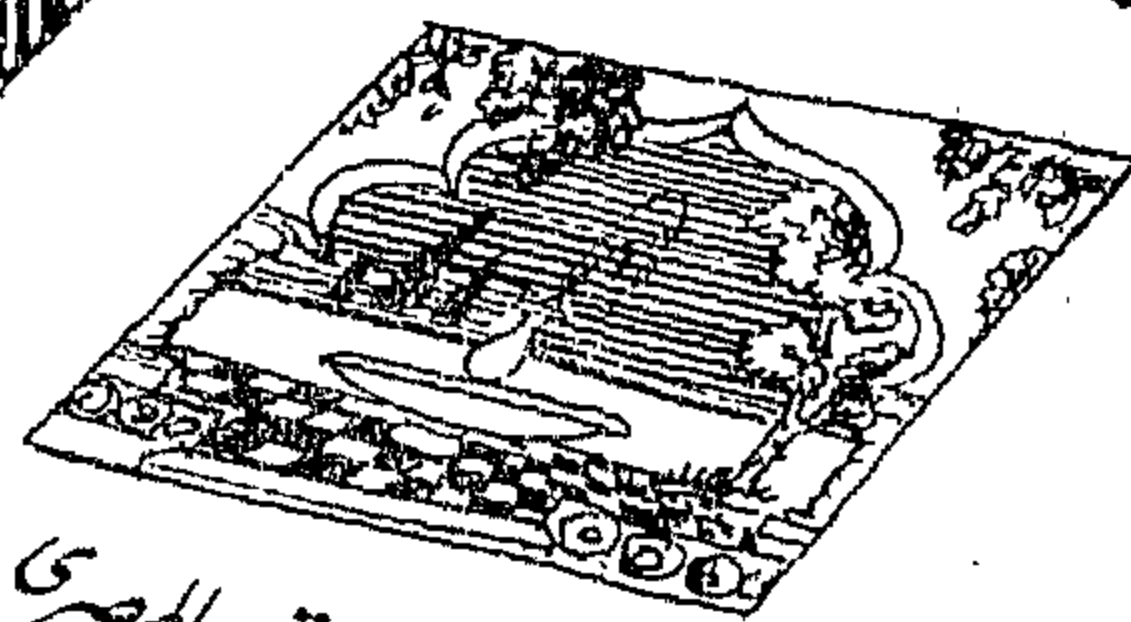
حكايات فارسية

كتاب يحمل الى قراء العبرية
عبيرا رقيقا حسن الموقع في
النفس من هذه الحياة الفارسية
المتأثرة بما فيها من رقة
وفطنة وفكاهة

من حولنا

جهل منه الناس في أضراره والآمر ،
يرى كل قارئ في مرآة صورة من نفسه ،
أو صورة من حوله ، في إطار قصص
رائع في بيانه وفي فنانه

حكايات فارسية



دار الكاتب المصري

٢٠

البريد ١٦ مليما

من حولنا



دار الكاتب المصري

في ثوب أنثى خلاب

٢٥

البريد ٢٠ مليما



آلة فنية خالدة
للكاتب الشهير أوسكار وايلد

صورة
دوريات
مصرية



صراع بين الأمم والضمير
صورة تهرم بيننا صامها
محتفظ بشبابه
نقد للحياة الاجتماعية الإنجليزية
في مزاج من الرزل والجهد

اوسكار وايلد
صورة
دوريات
مصرية



والبريد ٢٤ طما

اوسكار وايلد
شبح كاتريفل
تغريب بوليس عوض

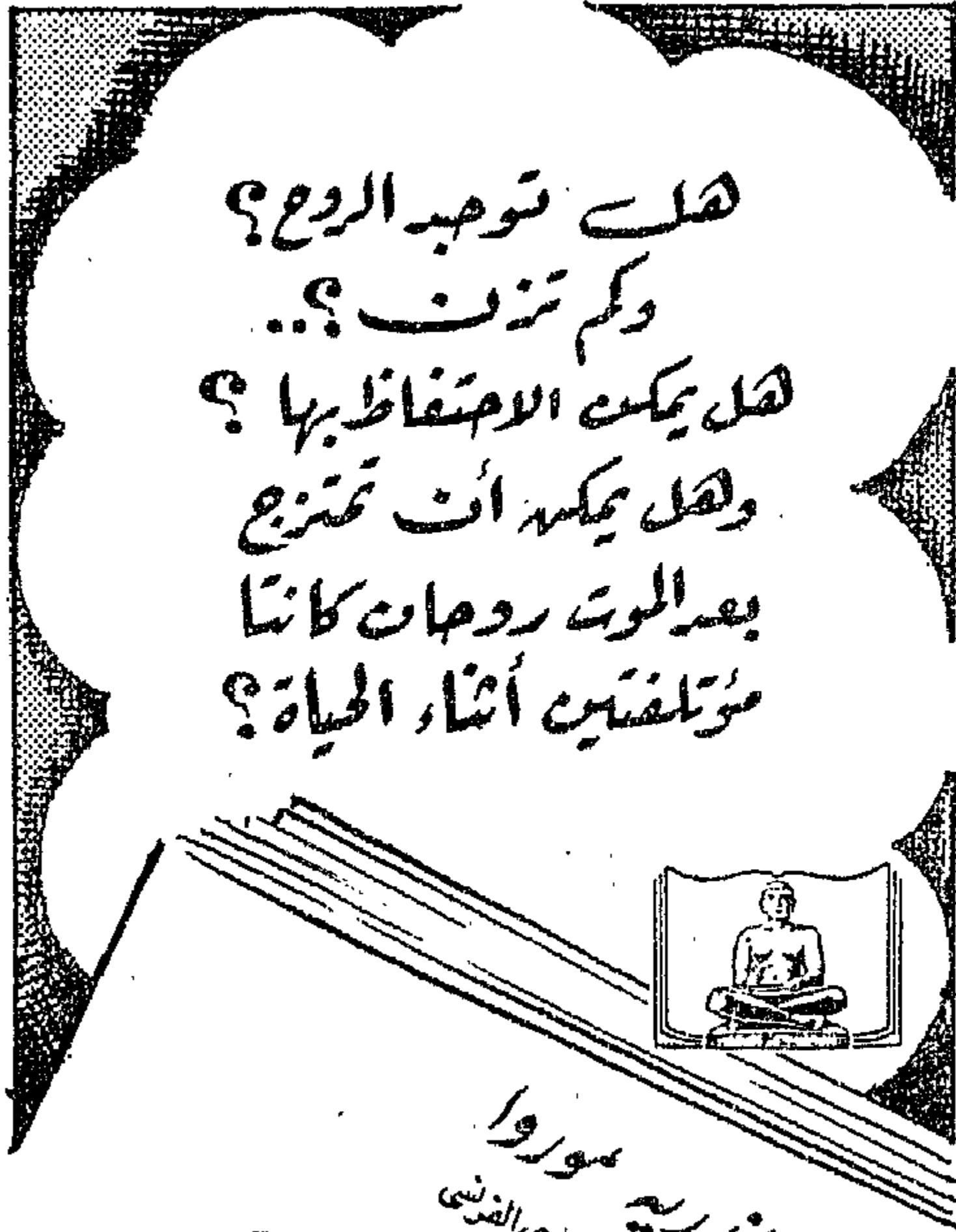


مظهر آخر لفت أوسكار وايلد

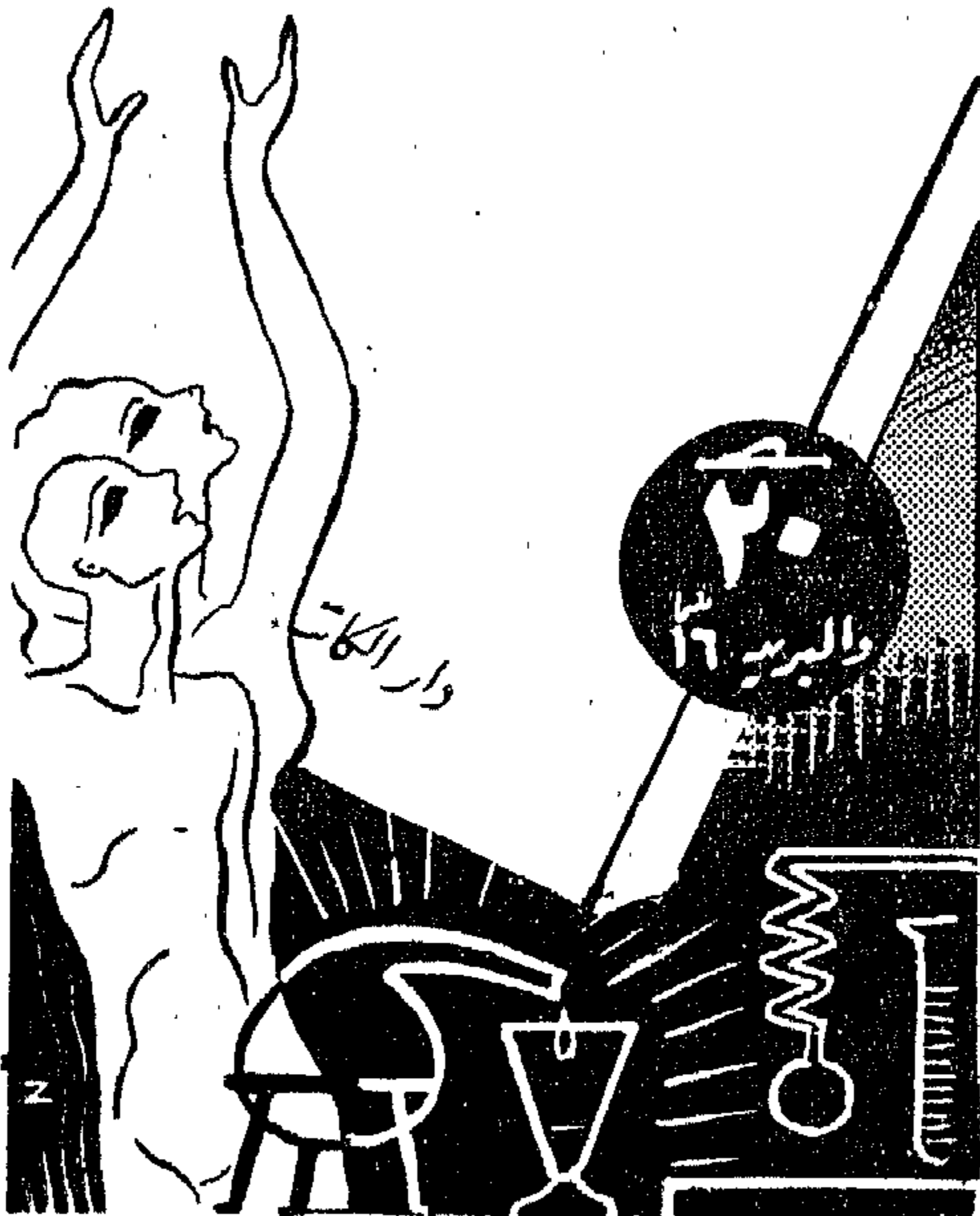
مغامرات شبح يجول في ابهاء مصر عتيق
موازنة بين العقل الإنجليزي
المحافظ والعقل الأمريكي المجدد
قصة فلكسية مرمية



كتابات مزيانة
بصور مختارة
من أفلام
٢٠٢٢ ج ٣٠



اندرية موروا
عضو الجمع القوي القوي
وان الأرواح
تغريب عبدة الخليم



موريس باريس
عضو الجمع القوي القوي

جنت على نهر القاصي

تغريب
محمد بن الجيد بن عبد الجيد بن عبد الجيد





ليون دوديه

كايخسرو وحياة العاصفة

تقريب حسن محمود

طبعة فرنسية بالصورة

وصفحة ملونة تبين كيف كان لهذا الزعيم بعد خطبه

٣٥ والبريد ٢٤ مليناً



Une traduction de mes
livres en votre langue...
à quels lecteurs pourra-t-
elle s'adresser ?

André Gide

ترجمت كتبى الى لغتكم ؟ ... الى اى قارى
يمكنه ان تراه ؟ رأى الغرباء بكلمة انه بلى ؟
ذلك ان واحدة من الفضائل اليهودية في العالم
المسلم نجا الى ، انه هو الانسانى الروح يحمل
من الاصول اكثر مما يثيره بطلان ، انظر انا ؟

اندرى جيد

اجهدوا للدخول من
الباب الضيق
(انجيل لوقا : ١٣-٢٤)

اندرى جيد

الباب الضيق

تقديم
نزيه الحكيم

مقدم لاندريه جيد وطم حسين

لم تخطئ انت ، وانما
دفعت الى الخطأ . لقد خاطت
كثيراً من المسلمين ولكنك لم تخاط
الاسلام ... فلو قد تعمقوا
الدين تعمقاً دقيقاً لأظهروك
على ما يثير القرآن من مسائل وما
يعرض لها من هرب .

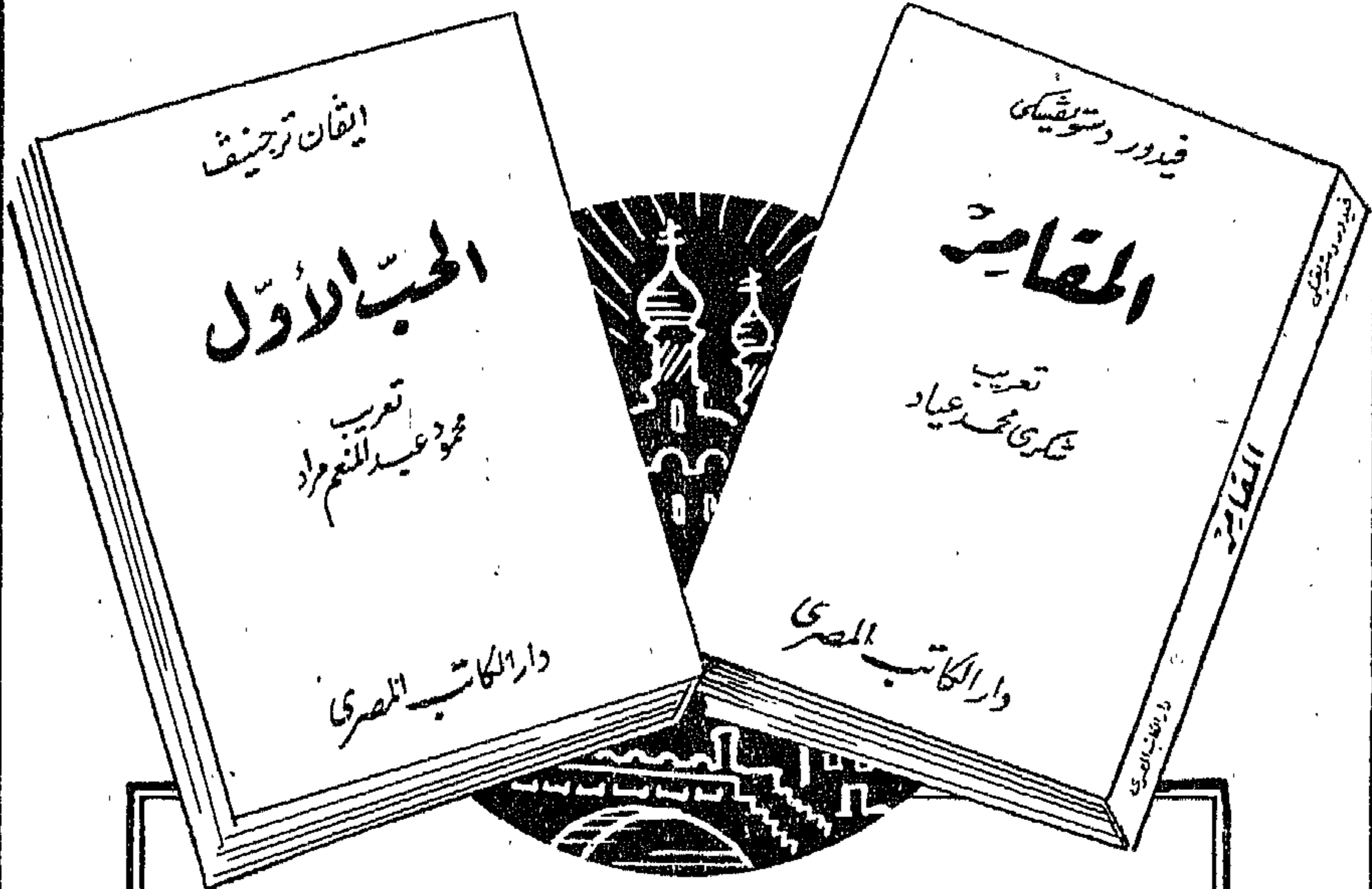
طه حسين

١٨ قرشا والبريد ١٢ ملياً





قصّان من الأدب الروى الرفيع



قصة مازميت
تصور قلب شاب ناسى
يندفع الى الحب فى غير احتياط
ولا تحفظ وما يصيبه مدياس
حينما يعلم انه كان يحب عشيقته ايسه

السن ١٥
البريد ١٢ ملئاً

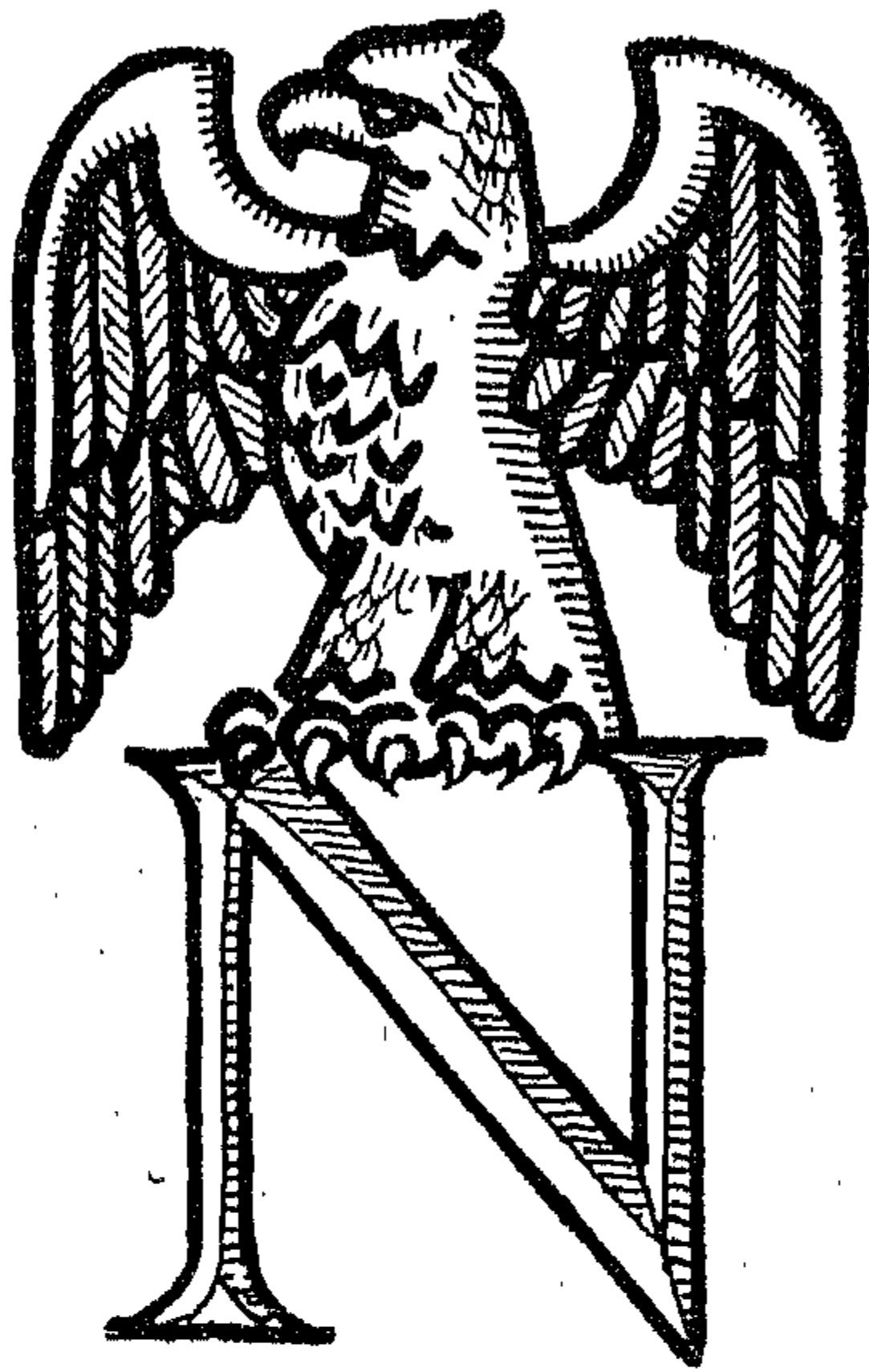
قصة شاب ممتهن
يبدأ القمار لقي من هذا
الراء فى حياته شراً عظيماً
وهى قصة عنيفة تسانر
بحاجة القارئ الى الاستطلاع

السن ١٨
البريد ١٦ ملئاً

كتاب اميل لودفيج الخالد

نابليون

ترجمه عن الألمانية
عجمود ابراهيم الدسوقي



يظهر قريبا



العقيدة والتشريع

في الإسلام

تاريخ التطور العقدي والتشريع في الديانة الإسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى	عبد العزيز عبد الحق	علي حسن عبد القادر
المدرس بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر	المدرس بكلية الشريعة بالجامع الأزهر	دكتور في العلوم الإسلامية مدير المركز الثقافي الإسلامي بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفرق — الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخيم يقع في ٤٠٠ صفحة

الثن ٨٥ قرشا (البريد ٤٠ مليا)



VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTÉRATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ÉCRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

GUSTAVE FLAUBERT
LETTRES INÉDITES OU AUTHENTIQUES A DU CAMP

JULES SUPERVIELLE
ELEMENTS D'UNE POÉTIQUE

ALBERT CAMUS
LA PESTE BROUILLE LES CARTES

EDITH BOISSONAS
POÈMES

HENRI CALET
LE DIEU DES FLANDRES

JEAN GRENIER
LA POÉSIE DE L'ESPACE

NICOS ENGONOPOULOS
BOLIVAR
(traduit et présenté par Robert Levesque)

GEORGES SCHEHADE
MONSIEUR BOB'LE

N. BALADI, ETIEMBLE, E. FORTI, M.G.,
G. HENEIN, KARAM, H. EL KAYEM, E. SIMON.

EXPOSITION SALINAS,
REVUE DES LIVRES, NOTULES, LES REVUES,
BULLETIN.

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTÉRATURE ET D'HISTOIRE

SOMMAIRE DU NUMERO DE MAI

- ANDRE GIDE Extrait d'une conférence.
TAHA HUSSEIN André Gide à travers son *Journal*.
BERNARD GUYON Réflexions sur l'art de Péguy (*à suivre*).
MAURICE BEDEL Les savants dans la guerre.
F. BENOIT L'amour sans Bandeau.
JEAN DUPERTUIS Ecrivains et leur Peuple: II. Maxime Gorki (*fin*).

CHRONIQUE DES LIVRES

Jean DUPERTUIS

تباع كتب دار الكاتب المصري في المكتبات الشهيرة

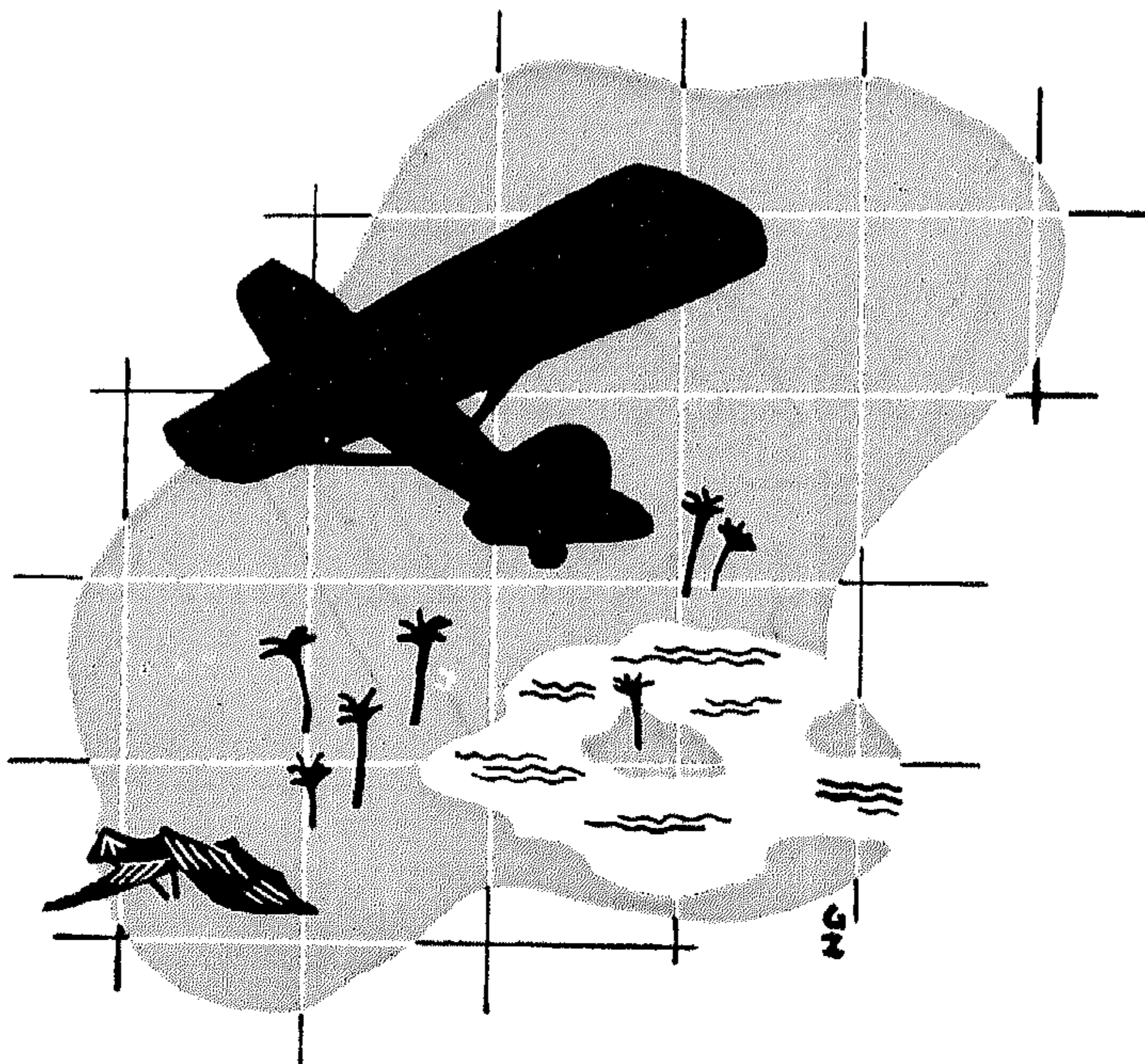
واذا أردتم ان
تصلكم كتبنا

رأساً بالبريد فارسلوا إلى الدار ثمت
ما تختارون منها مع إضافة
أجرة البريد المحددة

انطوان دی سانت اکسوپری

أرض البشر

تعريب مصطفى كامل فوده



الثمن ۲۵ قرشاً
(البريد ۲۰ ملياً)



طبعة مزينة بالصور



في أرجاء العالم العربي

مَدِينَةُ جُوسْتِنْيَانِ

فِي الْفِقْهِ الرَّومَانِيِّ

INSTITUTES DE JUSTINIEN

يتبعها

نظام للموارث وضعه جوستنيان

ويليها

بعض قواعد وتقريرات فقهية رومانية

وبعض تقديرات أخلاقية

تأليف

عبد العزيز فهمي

رئيس محكمة النقض والابرار سابقا

تحت الطبع



آية فنية خالدة للكاتب الشهير أوسكار وايلد



صور
دورجان
وإلى

صراع بين الأمم والضمير
صورة تهرم بينما صاحبها
محتفظ بشبابه
نقد للحياة الاجتماعية الإنجليزية
في مزاج من الزلل والمجد



والعدد ٣٠

أوسكار وايلد
صور
دورجان
وإلى
تغريب لويس عوض



أوسكار
وايلد

صورة
دورجان
وإلى

دار
الكاتب
المصري

أوسكار وايلد
تغريب لويس عوض

تغريب لويس عوض



مظهر آخر لفن أوسكار وايلد

مغامرات شبح يحول في ابصار دهر عتيق
موازنة بين العقل الإنجليزي
المحافظ والعقل الأمريكي المجدد
قصة فلاحية مرحة



كنايان من زمان
بصور مختارة
فمن أفلام
م. ج. م.





ليون دوديه

كايخسرو وحياته العاصفة

تعريب حسن محمود

طبعة فرنسية بالصورة
وصفة ماونة تبين كيف كان لهذا الزعيم بعد فطيم

٣٥
والبريد ٢٤



انقلبت الطائرة في جبال لا ترجع
أحدًا في الشتاء ... هل لطيار
شجاع يكافح الموت باسم ما فيه
من خليقة ، مخرج من مصيره
الميثوس ؟



كتاب يعد فتحًا جديدًا في الأدب

أرض البشر

للكاتب الطيار انطوان دي سانت اكسيري

أرض البشر تلك الهبابة من الشرى التامر
بين الأبرام السماوية ، تلك الأرض العذبة
بأعجابنا فلنراها وهدمها تكونت الرمال

يقول بارك ، وقد أخذته نشوة الحرية :
« لست بارك . أنا محمد بن الحسين ... »
وأخذ يقلد الرجل الحر كما يقلد طفل
أحد المستكشفين .



كيف تكون طلمة عبد على أبواب الحياة ؟



الصحرَاء ؟ لقد هـى لى ذات يوم أن
أمسها فى صميمها . كنت أظير فى
سماء مصر على نخوم ليبيا ووقت فى
الرمال كما يقع المرء فى شرك . وظننت
أنى مائت . وهالك القصة ...

رائد من الرعيل الأول
للطيارين ينظر إلى الكون خلال
تجربته نظرة الشاعر الفيلسوف،
يصلنا بالآفاق الشاسعة
ويضعنا فى صميم الخطر
وفى صميم العمق

تعريب مصطفى كامل فوده
طبعة فريضة بالصورة



والبريد
٢٥

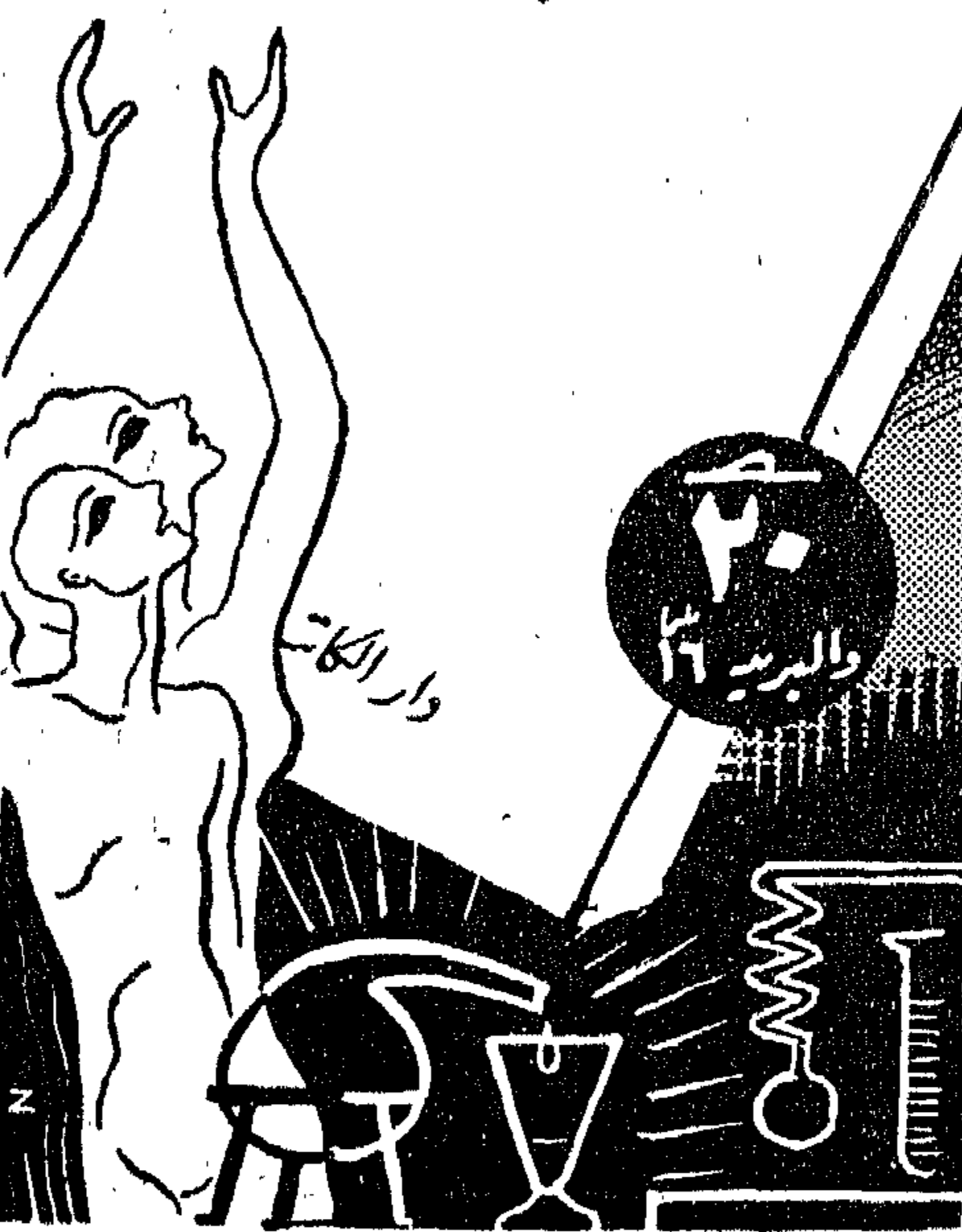
هل توحيد الروح؟
وكم تزدت؟..
هل يمكن الاحتفاظ بها؟
وهل يمكنك أنت تخرج
بعد الموت روحك كأننا
مؤلفين أثناء الحياة؟



اندرية موروا
عضو الجمع النوى الفرنسى

وان الأرواح

تغيرت عقيدة العالم



دار الكائنات
والبرية ١٦



غرام أقرب إلى
العبادة في
عصر الصليبيين
البواسل

موريس يارس
عضو الجمع النوى الفرنسى

جنة على نهر القاصي

محمود عيسى
تغريب
محمود عيسى وعبد الجبار عابدين



البرية ١٦
١٨
١٩

حكايات فارسية

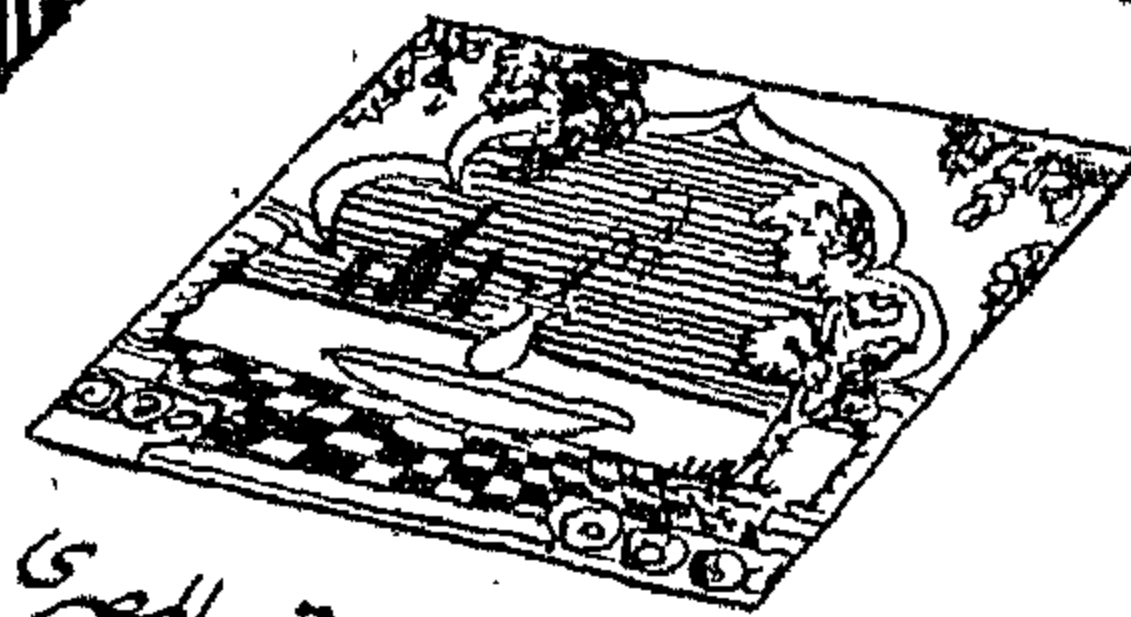
كتاب يحمل الى قراء العبيية
عبيرا رقيقا حسن الموقع في
النفس من هذه الحياة الفارسية
المتأززة بما فيها من رفقة
وفطنة وفكاهة



من حولنا

جميل منه الناس في أفراده والآله ،
يرى كل قارئ في مرآة صورة منه نفسه ،
أو صورة منه حوله ، في إطار قصصي
رائع في بيانه وفي فننه

حكايات فارسية



دار الكتاب المصري

٢٠
البريد ١٦ مليما

من حولنا



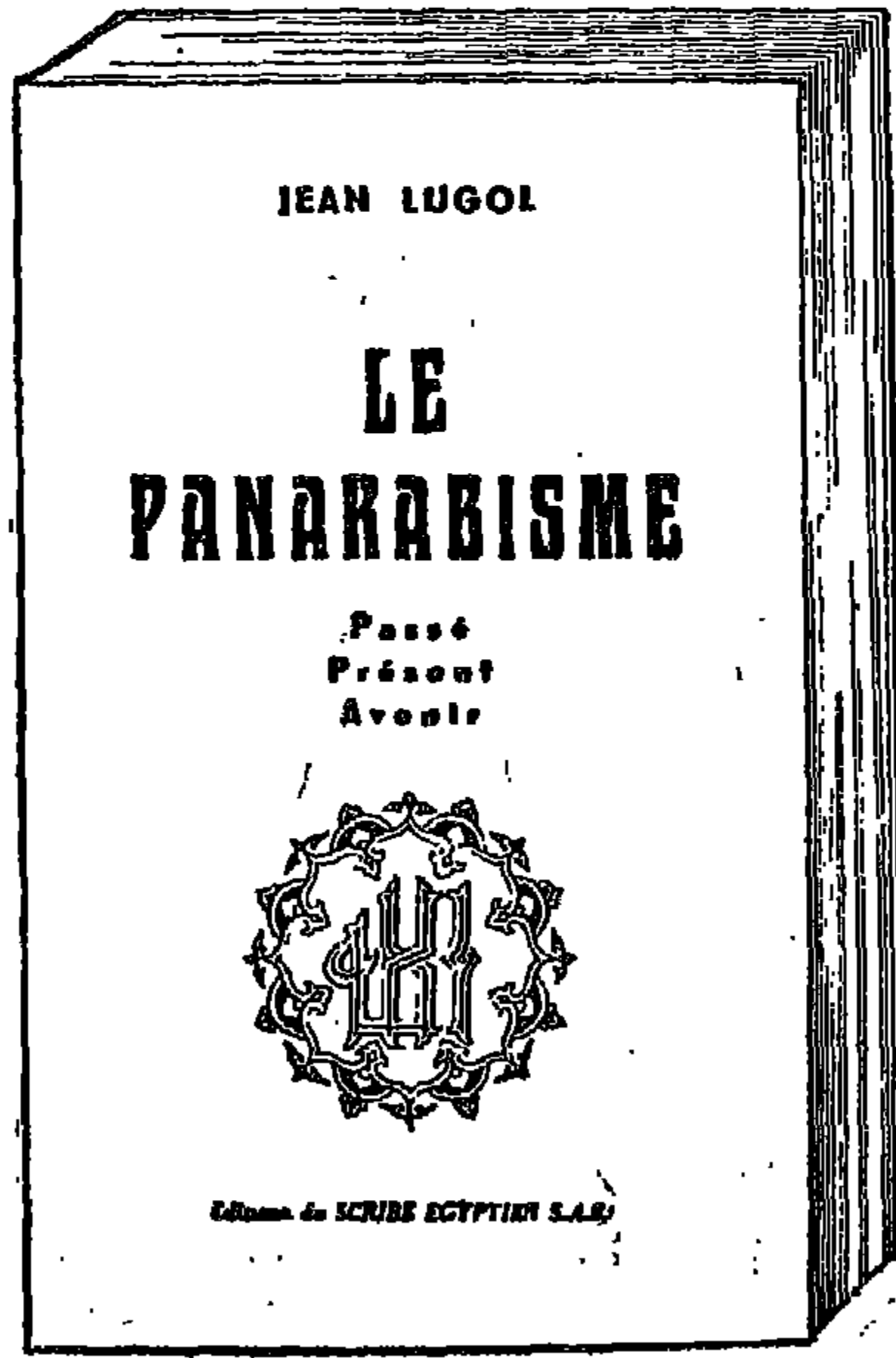
دار الكتاب المصري



٢٥
البريد ٢٠ مليما



الى قراء اللغة الفرنسية



إن نهضة العالم العربي التي تعد من أهم حوادث الحرب العالمية الثانية تمتد إلى ألف سنة من تاريخ الشرق . فهي تأتيء بنظام سياسى جديد للمستقبل . ولا يستطيع أحد أن يتجاهل هذه المشكلة التي تعد — فى وقت واحد — مشكلة دينية وأخلاقية وسياسية واجتماعية واقتصادية والتي ما فتئت — منذ أبعد الأزمان حتى أيامنا هذه — تشغل اذهان الناس .

ومسيو جان ليجول — الموظف فى عصبة الأمم سابقاً والصحفى الذى استوطن مصر منذ زمن بعيد ، مؤلف عدة كتب عن مذهب التوحيد والحضارة وعن مصر والحرب العالمية الثانية الخ — قد رسم صورة عظيمة للحضارة العربية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وإنه لمن الضرورى لكل شخص أن يقرأ هذا الكتاب الذى يقوم على وثائق صحيحة والذى كتب فى روح سمحة .

كتاب ضخم يقع فى ٣٠٠ صفحة

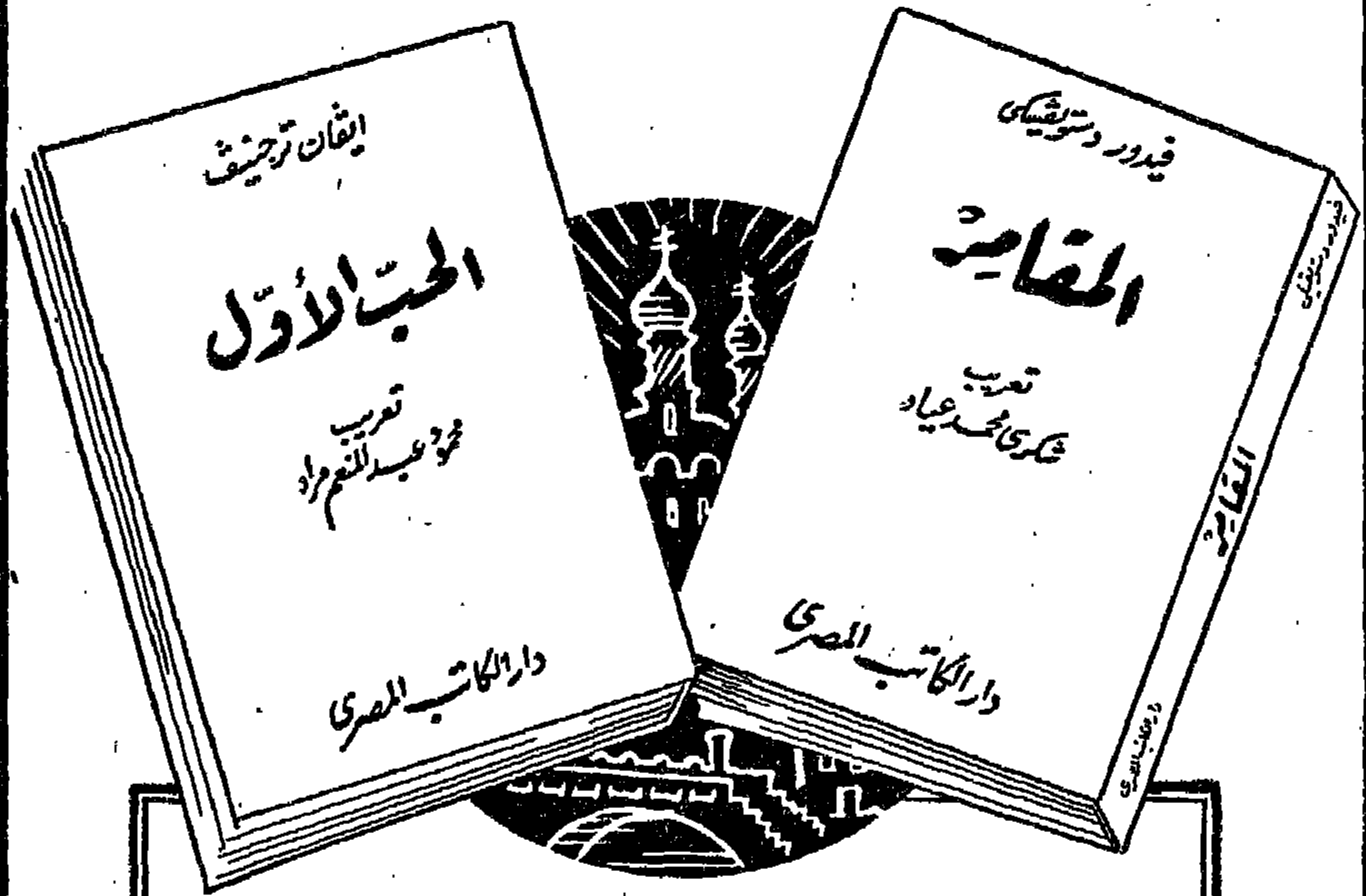
الثمن ٨٠ قرشاً
البريد ٣٦ ملياً



طبعة مزينة بعدة صور
وخرائط



قصص من الأدب الروسي الرفيع



قصته مازدهت
تصور قلب شاب فاشئ
يندفع إلى الحب في غير احتياط
ولا تحفظ وما يصيبه منه ما ليس
مبيناً يعلم أنه كان يحب عشيقته أثير

التمن ١٥
البريد ١٢ ملئاً

قصة شاب ممنوع
يداء القمار لقي من هذا
الداء في حياته شراً عظيماً
ولهي قصة عنيفة تسائر
بحاجة القارئ إلى الاستطلاع

التمن ١٨
البريد ١٦ ملئاً

Une traduction de mes
livres en votre langue...
à quels lecteurs pourra-t-
elle s'adresser ?

André Gide

ترجمہ کبھی الی لغتکم ؟ .. الی ای خارجی
حکمہ ان کتاب ؟ وای الرغبات بیکہ انہ تبلی ؟
ذلک ان واحدہ نہ الفضائل الجہویۃ فی العالم
المسلم نیاید الی ، انہ وهو الانسان فی الروح یحمل
من الاھویۃ اکثر مما یشیر الیہ . انخطئ انا ؟

اندریم چید

اندریم چید

الباب الضيق

تغریب
نزیہ الحکیم

مقدمہ لاندريم چيد وطم حسين

اجهدوا للدخول من
الباب الضيق
(انجيل لوقا : ١٣-٢٤)

لم تحطئ انت ، وانما
دفعت الی الخطأ . لقد خالطت
كثيراً من المسلمين ، ولكنك لم تحاط
الاسلام ... فلو قد تعمقوا
الدين تعمقاً دقيقاً لأظهروا
على ما یشير القرآن من مسائل وما
يعرض لها من جواب .

طه حسين

١٨ قرشا والبيرة ١٢ مليماً



الكاتب المصري



يوليه ١٩٤٦

شعبان ١٣٦٥

مجلد ٣ — عدد ١٠

بين العدل والحرية

مسألة واحدة تلقى في كل مكان متحضر وفي كل بيئة مثقفة، يلقيها بعض الناس على بعض، ويلقيها الأفراد على أنفسهم عن إرادة وتعمد واختيار حيناً، وعلى غير إرادة ولا شعور ولا اختيار حيناً آخر.

يلقيها بعض الناس على بعض ويلقيها الأفراد على أنفسهم، عامدين إلى الدرس والتحليل، محاولين أن يجدوا لها جواباً، شاعرين بذلك مرادين له؛ وتلقيها الحياة العاملة على الأفراد والجماعات في كل لحظة وعند كل فرصة، ويعجز الناس في كثير من الأحيان عن أن يجدوا لها حلاً حاسماً حازماً، أو جواباً قاطعاً ساطعاً. وهم من أجل ذلك يضطربون في حيرة متصلة، تظهر آثارها واضحة في أقوالهم حين يتحدثون، وفي أعمالهم حين يعملون.

أيمضى العالم إلى تحقيق العدل أم إلى تحقيق الحرية؟ هذه هي المسألة، أو قل هي المشكلة التي ألقاها القرن التاسع عشر على بعض العقول في أوروبا، والتي جعلت تتسلط على هذه العقول قليلاً قليلاً حتى شغلتها واستأثرت بها، ثم تجاوزتها إلى عقول أخرى، ثم جعلت تنتزل شيئاً فشيئاً من الطبقات المفكرة الممتازة إلى الطبقات الوسطى ثم إلى الطبقات الدنيا، ثم استأثرت بالتفكير السياسي كله في أواخر القرن الماضي حتى انقسمت لها أوروبا شيعاً وأحزاباً. ثم عظم استئثارها بالحياة الأوروبية في أوائل هذا القرن، ولا سيما في أعقاب الحرب العالمية الأولى، حتى اضطربت لها أوروبا اضطراباً شديداً، واضطرب

لها العالم خارج أوروبا اضطراباً شديداً أيضاً كان من آثاره أن ثارت الحرب العالمية الثانية ، وصبت على العالم ما صَبَّتْ من الشر والهول .

وقد انتهت الحرب العالمية الثانية كما انتهت الحرب العالمية الأولى دون أن تجد إحداهما جواباً لهذه المسألة أو حلاً لهذه المشكلة ، وإنما كانت نتيجة الحربين أن المسألة ظلت قائمة ولكنها ازدادت شدة وإلحاحاً ، وأن المشكلة ظلت قائمة ولكنها ازدادت صعوبة وتعقيداً . والله وحده يعلم أَيْحْتَاجُ العالم إلى حرب ثالثة لتجيب على هذه المسألة وتحل هذه المشكلة ، أم يستطيع السلام المنظم أو غير المنظم أن يخرج الإنسانية من حيرتها ويسلك بها إحدى الطريقتين : طريق الحرية أو طريق العدل .

ومن الخطأ أن نظن أن هذه المسألة حديثة لم يعرفها الإنسان إلا حين ألقاها القرن التاسع عشر ، وإنما هي مسألة قديمة عرفها الإنسان منذ عصور بعيدة جداً . وقد يستطيع الفلاسفة الذين يدرسون التاريخ ويحللونه أن يستقصوا أصل هذه المسألة ، وأن يتتبعوا تطورها منذ فرضها العقل على الإنسان المتحضر فيما يسمونه فجر التاريخ . وليس من شك في أن الفلاسفة قد فعلوا فدرسوا الحضارة منذ نشأتها ، واستقصوا أمر الصراع بين الحرية والعدل في أطوار الرقي الإنساني على اختلافها ، ثم انتهوا إلى ما انتهى إليه العالم الآن من هذه الحيرة المتصلة والاختلاط الشديد : فمنهم من آثر الحرية ؛ لأنها تحقق كرامة الإنسان وتتيح له أن يكمل نفسه ويظفر بشخصيته موفورة تامة ، وفريق منهم آثر العدل لأنه يرضى حاجة الإنسان إلى المساواة ، ويتيح له حظاً من الإنصاف يعصمه من استعلاء القوى على الضعيف ، وتحكم الغنى في الفقير ، وتفوق القادر على العاجز . وفريق آخر حاول أن يلائم بين العدل والحرية ، فلم يبلغ من هذه المحاولة شيئاً ذا خطر ؛ لأن العدل المطلق والحرية المطلقة لا يستطيعان أن يلتقيا إلا إذا قيدت الحرية وقيد العدل ، وانتقص كلاهما من أطرافه فشوه خلقه تشويهاً ما . هنالك يستطيعان أن يلتقيا لقاء لا يخلو من تشويه تتأثر به الحياة الإنسانية نفسها ، فتدفعها الحرية إلى العمل والنشاط ، ويدفعها حب العدل إلى الاختلاف والاختصام ، وتنتهي إلى هذا التطور الذي نشهده الآن كما شهدناه في العصور المختلفة ، والذي يبيت فيها العداوة والبغضاء ويعلوها شراً ومكرراً وكيداً ، ثم يدفعها حيناً بعد حين إلى حرب من هذه

الحروب التي لا تبقى ولا تذر ، والتي تزداد على مر الأيام بشاعة ونكراً .
ومن الخطأ كذلك أن نظن أن هذا الصراع بين الحرية والعدل مقصور على
بيئة إنسانية دون بيئة ، أو على مكان من العالم المتحضر دون مكان ، وإنما الواقع
الذي نستطيع أن نلاحظه في كل وقت هو أن هذا الصراع قائم في البيئات
الإنسانية المثقفة كلها ، وفي أجزاء العالم المتحضر كلها أيضاً ، يقوى ويعنف
حيث ترقى الحضارة وتتفوق ، ويضعف وتخف وطأته حيث تركد الحضارة
وتميل إلى الجمود ، ولكنه موجود دائماً ومتصل على كل حال . ويكفي أن
ننظر إلى العالم المتحضر الذي نعيش فيه اليوم لنتبين أن الصراع بين الحرية
والعدل عنيف إلى أقصى غايات العنف في أوروبا وأمريكا ، وأن عنفه في هاتين
القارتين أشد منه في القارات الأخرى ، وإن كان يختلف قوة وضعفاً باختلاف
الأمم والشعوب . وليس المهم أن ندرس هذا الصراع بين العدل والحرية درساً
مفصلاً مستقصى ، فذلك شيء لا سبيل إليه بل حاجة إليه الآن ، وإنما المهم
أن نلاحظ مظاهر هذا الصراع في أوروبا وأمريكا وفي بلاد الشرق الأدنى خاصة ،
لنتبين إلى أي طريق نحن مسوقون ، وإلى أي غاية نحن مدفوعون . وليس من
شك في أن إلغاء المسافات في الزمان والمكان قد جعل شرقنا الأدنى متصلاً
بأوروبا وأمريكا اتصالاً يومياً دقيقاً ، بحيث لا نستطيع أن نقلت مهما نحاول
ذلك ، من التأثير بما يحدث في هاتين القارتين من الأحداث والخطوب ، وما
يثار فيهما من المصاعب والمشكلات . ومن المحقق أن الشرق الأدنى لو استؤمر
حين أثرت الحرب العالمية الأولى لآثر العافية ، ولتقنى أن يلتزم هذه الحيدة التي
تجنبه أخطار الحرب وأهوالها . ولكنه لم يستأمر ولم يكن من الممكن أن
يستأمر ؛ لأنه كان ميداناً من ميادين الحرب وغرضاً من أغراضها . وهو كذلك
لم يستأمر حين أثرت الحرب العالمية الثانية ولم يكن من الممكن أن يستأمر ؛ لأنه
كان ميداناً من ميادين الحرب وهدفاً من أهدافها . وأكبر الظن أنه لن
يستأمر إذا أثرت حرب عالمية ثالثة ؛ لأنه سيكون من أهم ميادين الحرب ومن
أعظم أغراضها خطراً .

فينبغي للشرق الأدنى إذن أن يوطن نفسه على أنه جزء من هذا العالم
المتحضر الحديث الذي يضطرب أشد الاضطراب بهذا الصراع العنيف المتصل
بين الحرية والعدل ، متأثر سواء أراد أو لم يرد بهذا الصراع وبما يكون له من

أثر في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والخير أن يوطن نفسه على ذلك وأن يعد له عدته ، وأن يقبل عليه مريداً لهذا الإقبال لا مكرهاً عليه إكراهاً . ولم يخطئ الشاعر حين قال :

إذا لم يكن إلا الأسنّة مركبٌ فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

وليس للشرق الأدنى بد من أن يركب هذه الأسنّة ، فإذا أراد أن يحميد عنها أو أن يتجنب ركوبها ، فلن يجد إلى ذلك سبيلاً . وحسبُه أن يعلم أن هذا ليس مقصوداً عليه ، وإنما هو المصير المحتوم لكل جزء من أجزاء العالم بعد أن ألغيت مسافات الزمان والمكان . والناس يقولون في كثير من الصواب إن العالم الآن موضوع للنزاع بين قوتين عظيمتين تريد كل منهما أن تسيطر عليه وتنشر فيه سلطانها ، وتخضعه لما يقتضيه ذلك من مذاهبها في السياسة ونظمها الاجتماعية المختلفة . وهاتان القوتان قد تعاوتتا أثناء الحرب العالمية الثانية ، فاتفقتا ما ظلت الحرب قائمة حتى كسبتا النصر ، ثم لم تستطعا أن تمضيا في الاتفاق فعجزتا عن تنظيم السلم . وقد انتهت الحرب في أوروبا منذ عام وبعض عام وما زال المنتصرون عاجزين عن أن يقرروا السلم وينظموه ؛ لأنهم عاجزون عن أن يتفقوا فيما بينهم . وليس الخلاف بينهم مقصوداً على تقسيم الغنائم وتوزيع الأسلاب ، ولكنه أبعد من ذلك مدى وأشد من ذلك عنفاً ؛ لأنه يتجاوز الدول المنتصرة نفسها لما تملك من حول وطول ومن قوة وأيد ، إلى الشعوب التي تمثلها هذه الدول . فالشعوب نفسها مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف ، يريد بعضها أن يسلك طريق الحرية على أن يكون العدل تابعاً للحرية لا متبوعاً . ويريد بعضها الآخر أن يسلك طريق العدل على أن تكون الحرية نافذة تتحقق إن سمح العدل بتحقيقها ، ويضحي بها إذا لم يكن بد من التضحية بها في سبيل العدل الشامل والمساواة الكاملة بين الناس .

ثم تختلف الشعوب في حياتها الداخلية نفس هذا الاختلاف بين الدول ، فتكون فيها الأحزاب المتباينة التي يذهب بعضها مذهب الحرية الكاملة ، ولا يتردد في التضحية بالعدل إذا اقتضت الحرية هذه التضحية . ويذهب بعضها مذهب العدل الشامل ، ولا يتردد في إهدار الحرية إذا اقتضى تحقيق العدل إهدارها .

وكذلك يشهد العالم هذا المنظر الرائع الغريب : دول تختلف فيما بينها تختصم حول الحرية والعدل ، وأحزاب تختلف فيما بينها تصطرع حول الحرية والعدل ، وأفراد يختلفون فيما بينهم يتمارون في الحرية والعدل . والحياة تمشي متعثرة في طريقها لا تكاد تخطو خطوات إلى أمام حتى تضطر إلى أن تنحرف إلى يمين أو إلى شمال ، وقد تضطر أحيانا إلى أن ترجع القهقري ، وتعيد للناس نظما كانوا يظنون أنها قد ذهبت إلى غير رجعة ومضت إلى غير مأب . وقد يبلغ من اضطراب الشخص الواحد أن يذهب إلى مذهب الحرية إذا أصبح ، فلا يكاد يمسي حتى يذهب مذهب العدل . وقد يبلغ من اضطراب الشعب الواحد أيضا أن ينحرف اليوم إلى يمين ليؤيد الحرية ، فإذا كان الغد انحرف إلى شمال ليؤيد العدل ، وهو بهذا التذبذب بين اليمين والشمال لا يحقق حرية ولا عدلا ، وإنما يعمى في الاضطراب ويفرق في الارتباك إلى أذنيه ، وقد يُغرق معه أمما وشعوبا أخرى ؛ لأنها خاضعة له أو متأثرة به قليلا أو كثيرا .

هذه كلها حقائق يسيرة قريبة يلاحظها الإنسان حين يقرأ صحف الصباح وحين يقرأ صحف المساء ، وكل مافى الأمر أنه ينظر إليها نظرة سريعة غير متعمقة ولا مستأنية ، ينظر إليها كما ينظر إلى أحداث الحياة اليومية التي يعيها مر الغداة وكر العشي . فالشعب الإنجليزي مثلا حين تخلص من سلطان المحافظين في العام الماضي وألقى بمقاليد الأمر إلى العمال ، لم يزد على أن انحرف من طريق الحرية المحافظة إلى الشمال حيث العدل ، أو قل - إن شئت - حيث الطموح إلى العدل ، وحيث التضحية ، أو قل - إن شئت - حيث الاستعداد للتضحية بكثير من حرية الفرد والجماعة في سبيل تحقيق هذا العدل . ولكن الشعب الإنجليزي نفسه حين يضطر حكومة العمال إلى أن تلتزم سياسة محافظة خارج بريطانيا العظمى ، فلا تفرط في شيء من مستعمراتها ، ولا تتخلى عن قليل من مصالحها في البلاد التي تخضع لنفوذها قليلا أو كثيرا ، وإنما تستمسك بالإمبراطورية كما تلقتها من حكومة المحافظين ، وتحافظ على مصالحها في أقطار العالم كله على نفس النحو الذي كان يصطنعه المحافظون - أقول إن الشعب البريطاني حين يضطر حكومة العمال إلى أن تسلك هذه الطريقة لا يزيد على أن يتراجع فينحرف من شمال إلى يمين ، ويضحى بشيء من العدل ليستبقى حرته تلك التي أتاح له أن يستذل ويستغل جزءا عظيما من الأرض . والشعب البريطاني

حين يتخلص من سلطان المحافظين ويجعل أمره إلى العمال ، ويتيح لرئيس وزرائه ووزير خارجيته أن يتحدثا عن حق الشعوب في تقرير مصيرها ، وعن حق العالم في أن يخلص من الاستعباد والاستبداد ، يخطو خطوة إلى الشمال في سبيل العدل الدولي ، ولكنه لا يلبث أن يعود أدراجه ويخطو خطوة إلى يمين في سبيل الاحتفاظ بحريته القديمة التي كانت تتيح له أن يتحكم في مصير الشعوب ، وإذا هو يذهب في سياسته مع اليونان ويوجوسلافيا نفس المذهب الذي كان يذهب به المحافظون . وهذا الشعب البريطاني نفسه يخطو خطوة إلى شمال حين يعلن رئيس وزرائه ووزير خارجيته أنه يريد الجلاء عن مصر بلا قيد ولا شرط ، ثم لا يلبث أن يعود أدراجه بتأثير المحافظين ، وإذا هو يشترط للجلاء شروطا تلغيه ، ويقيده بقيود تمنعه من الحركة والنشاط ؛ لأنه يضحى بالعدل الدولي في سبيل حريته التي تتيح له أن يتحكم في مصير مصر ، فلا يجلو عنها إلا حين يريد وبالشروط والقيود التي يريد أن يعرضها . وهذا الشعب البريطاني نفسه يخطو خطوات إلى الشمال حين « يؤتم » طائفة من المرافق البريطانية ، ثم يتردد ويتراجع حين يعرض لتأميم طائفة أخرى من المرافق . يلغى حرية الأفراد والجماعات في سبيل العدل ، ولكنه يلغىها بمقدار لأنه لم يؤمن بالعدل إيمانا كافيا ، ويحتفظ بهذه الحرية للأفراد والجماعات بالقياس إلى بعض المرافق الأخرى ؛ لأنه لم يؤمن بالعدل إيمانا كافيا أيضا . فهو مذذب بين الطموح إلى العدل والاحتفاظ بالحرية ، وكل المصاعب التي يلقاها وكل المشكلات التي تأتلف منها حياته إنما تأتيه من هذا التذبذب بين العدل الذي يقتضيه التضحية بحرية التسلط على الأمم والشعوب والتحكم في مصير الدول والأقطار ، وبين الحرية التي تحتفظ له بالقدرة على أن يتحكم في مصير هذه الأمم والشعوب .

والشعب الفرنسي يذهب هذا المذهب نفسه ، فهو يتذبذب بين الحرية والعدل ، يُقبل على انتخاباته العامة في أكتوبر الماضي فيندفع اندفاعا قويا إلى شمال ، ويؤلف الكثرة في جماعته التأسيسية من الشيوعيين والاشتراكيين ، وإذا هو يؤتم طائفة من مرافقه ، ثم لا يلبث أن يأخذ الخوف ويملكه الدعر ، وإذا هو يرفض الدستور الذي وضعته له هذه الجماعة التأسيسية الشمالية ، فإذا طلب إليه أن ينتخب جماعة تأسيسية أخرى انحرف إلى يمين فألف كثرتها من المعتدلين

وجعل اليساريين لهم تبعاً أو شيئاً يشبهه التبع ، ودل بذلك على أنه يريد العدل ولكن بمقدار ، ويحرص على الحرية أكثر مما يحرص على أى شىء آخر . وقد أنسى أشياء كثيرة قبل أن أنسى حديثين دار أحدهما بينى وبين رجل من عامة الشعب فى مارسيليا قبل رفض الدستور بيوم واحد . فقد قال لى هذا الرجل إنه سيرفض الدستور إذا كان الغد لأنه لا يريد دستوراً يسارياً ، ولكنه سيصوّت لليساريين بعد ذلك ؛ لأنه يريد الإصلاح الاجتماعى ، ولا يريد برلماناً رجفياً أو حكومة مسرفة فى الاعتدال . ودار الآخر بينى وبين أستاذ من أساتذة السوربون فى باريس بعد أن رفض الدستور بيومين . وهذا الأستاذ يسارى الميل متطرف فى حبه لليسار ، ولكنه رفض الدستور مع أصحاب اليمين . فلما كلمته فى ذلك قال : نعم رفضت الدستور لأنى لا أريد أن أخضع للرقابة فيما أنشر من الكتب وما أذيع من الفصول وما ألقى من الدروس والمحاضرات . فهو إذن يريد العدل ولكن بشرط ألا يقيد هذا العدل حرّيته حين يكتب أو يقول . وصاحب الصناعة يستطيع أن يقول كما قال هذا الأستاذ ذاته ، رفض الدستور اليسارى لأنه لا يريد أن يخضع للرقابة فيما تنتج مصانعه وفيما تغل عليه من ربح . وكذلك يتردد الفرنسيون كما يتردد جيرانهم البريطانيون بين العدل والحرية : يطمحون إلى العدل ولكنهم يخافون منه إذا كمل وشمل كل شىء ، ويحرصون على الحرية ولكنهم لا يكرهون تقييدها حين تضطرهم الظروف إلى ذلك . وقل إن شئت إنهم يؤثرون الحرية على كل شىء ، ولا يضحون بقليل منها إلا ليحتفظوا بما يستطيعون أن يحتفظوا به . فهم يتحدثون عن العدل كما كان مستر تشرشل يتحدث عن استقلال الشعوب أثناء الحرب . يتحدثون عن العدل على أنه من هذه المُشَلِّ العليا التى يتوق الإنسان إليها ويمجد فى تحقيقها ، ولكنه لا يبلغها لأنها من الظرف والالطف والأناقة بحيث تحسن الدلال وتمتنع على الطامحين إليها والطامعين فيها ، تعريهم بنفسيها وتدعوهم إلى محاسنها ، ولكنها تنأى عنهم كلما دنوا منها ، وتركهم يتمثلون قول جميل لبثينة :

وَمَنْيْتِنِي حَتَّى إِذَا مَا مَلَكَتْنِي بِقَوْلِ يُحِلُّ الْعُصَمَ سَهْلَ الْبَاطِحِ
تَنَاءَيْتَ عَنِّي حِينَ لَا لِي حِيلَةٌ وَغَادَرْتَ مَا غَادَرْتَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ

وهم يحبون من المثل العليا هذا التدلل والامتناع، وهم يشمتعون بلذة هذه النار التي تضطرم بين جوانحهم وتحرق قلوبهم شوقاً إلى العدل، وهم يكرهون أن تتمد هذه النار وأن تبرد جوانحهم، وأن يبلغوا العدل فيطمئنوا إلى أنهم بلغوه. وهم يحبون الحرية على نحو آخر، يحبون أن يأخذوها بين أيديهم ويضموها إلى صدورهم ويستمتعوا منها بأعظم حظ ممكن، لا ينالون منها حظاً إلا طمعوا في حظ أعظم منه، ولا يفقدون منها شيئاً إلا تقطعت قلوبهم عليه حسرات. ذلك لأن هناك فرقاً خطيراً جداً بين الاستمتاع بالحرية والاستمتاع بالعدل. فالاستمتاع بالحرية يثير هذه اللذة المتعبة؛ لأنه يدفع إلى العمل والنشاط، ويغري بالكد والجهد، ويمنع الإنسان من أن يريح ويستريح. أما الاستمتاع بالعدل فريح حقاً؛ لأنه يقتل الطمع ويغري بالرضا ويزين القناعة في القلوب، أو قل يفرض القناعة على القلوب فرضاً. فأى غرابة في أن يكون الإنسان أشد إيثارة للحرية التي تملؤه قوة ونشاطاً وتدفعه إلى الأمل والعمل وتمسكه في هذا القلق الحلو المتصل الذي لا يعرف الرضا ولا يجب الاطمئنان، منه للعدل الذي لا يثير قوة ولا نشاطاً، ولا يدفع إلى مزيد من أمل أو عمل، والذي يملأ القلوب أمناً ورضاً ويعصمها من القلق والخوف.

والأمر في سائر أوربا الغربية كالأمر في فرنسا وبريطانيا العظمى: حب مؤكد للحرية، وحرص مصمم عليها، وطموح إلى العدل كما يطمح العشاق العذريون إلى من يعشقون.

وحسبك أن تنظر إلى بلجيكا وهولندا، فهما كبريطانيا العظمى وفرنسا تمجدان العدل وتغنيان بمحاسنه، ولا تكرهان أن تحققا منه شيئاً في الأرض البلجيكية والهولندية مختارتين أو مضطرتين، ولكنهما في الوقت نفسه تؤثران الحرية أشد الإيثار: تؤثرانها في السياسة الخارجية؛ فالعدل لم يُخلق لاندونيسيا مثلاً ولا لكونجو البلجيكية، كما أنه لم يخلق للمستعمرات البريطانية والفرنسية وللشعوب الضعيفة بوجه عام. وهو إن كان قد خُلق لأوربا، فإنما خلق لها لتصيب منه بمقدار كالمالح الذي يصلح قليله الطعام، فإذا كثر فسده الطعام فساداً شديداً. ولذلك تحتفظ بلجيكا وهولندا، كما تحتفظ فرنسا وبريطانيا العظمى، بحرية واسعة شديدة السعة للأفراد والجماعات، وتحاولان

تحقيق شيء من العدل ؛ لتُسكتا هؤلاء الطامعين فيه المطالبين به الذين لا ينفكون يجأرون بطلب العدل الاجتماعى حين يمسون وحين يصبحون .

وليس من اليسير أن نتبين ميول ألمانيا المنهزمة ؛ فبى لم تظفر بعد بهذا القدر اليسير من الحرية لتعرب عما تريد فى مستقبلها القاتم ، ولكنها على كل حال قد قُسمت بين المنتصرين يحتل كل منهم جزءا من أرضها . وهؤلاء المنتصرون يهيئون الشعب الألمانى أو يحاولون تهيئته لما يحبون ويألفون من مذهب فى السياسة والاجتماع . فأوروبا الغربية وأمريكا تهيئان جزءا من الشعب الألمانى أو تحاولان تهيئته لهذه الديمقراطية التقليدية التى تؤثر الحرية على العدل ، وتتخذ الإصلاح الاجتماعى وسيلة إلى إرضاء الطبقات البائسة من جهة ، وإلى الدفاع عن نفسها والاحتفاظ بما بقى لها من الساطان والقوة من جهة أخرى . ولكن روسيا السوفيتية تحتل جزءا عظيما من ألمانيا ، وهى تهيئه أو تحاول تهيئته لمذهبها فى السياسة والاجتماع . ومذهبها واضح معروف ؛ فبى تؤثر العدل والمساواة وإلغاء التنافس والتراحم والتفوق والامتياز على الحرية وما تستتبع من اضطراع بين الأفراد والجماعات واستباق ، إلى تحقيق المنافع واستئثار بهذه المنافع إذا تم تحقيقها .

وهذا الخلاف العنيف القائم بين هاتين القوتين : قوة الحرية فى أمريكا وغرب أوروبا ، وقوة العدل فى روسيا ، هو الذى جعل حياة المنتصرين عسيرة منذ وضعت الحرب أوزارها فى الشرق والغرب ، وهو الذى حال بينهم وبين الاتفاق حين اجتمعوا فى أكتوبر الماضى ، وحين اجتمعوا فى أبريل ومايو ، ويوشك أن يحول بينهم وبين الاتفاق حين يجتمعون بعد أيام قليلة فى باريس .

وليس الستار الحديدى الذى يقال إن روسيا قد ألقتة من دون جزء عظيم من أوروبا الشرقية والجنوبية إلا سوراً منيعاً يحول بين الحرية والعدل ، وبين أن يلتقيا وجها لوجه ويصطدما فى ميدان واحد . فأوروبا الغربية خاضعة للحرية وما تستتبع من تنافس وخصام ، وأوروبا الشرقية خاضعة للعدل وما يستتبع من تسلط وقهر وكبح لجراح المنافع والأطماع . وإذا أجرت الأمة اليونانية انتخاباتها بأعين الإنجليز والفرنسيين والأمريكيين وكانت نتيجة هذه الانتخابات ميامنة لا مياسرة ، قال الروسيون : إن هذه الانتخابات لم تجر حرة ولم تكن بمأمن من تدخل الديمقراطية الغربية ، وما يسندها من رأس المال . فإذا دبرت بلغاريا

ورومانيا والمجر ويوجسلافيا وتشكوسلوفا كيا شؤونها بالانتخابات أو بإقامة الحكومات المؤقتة ، وكانت نتيجة هذا كله انحراف هذه الأمم إلى اليسار ، قال الإنجليز والأمريكيون والفرنسيون معهم : إن هذه الأمم ليست حرة في تقرير مصيرها ، وإنما هي متأثرة بالسلطان الروسي العنيف في كل ما تعمل وفي كل ما تقول . وليس لهذا كله معنى إلا أن الشعوب الصغيرة في أوروبا قد اضطرت هي أيضاً إلى التذبذب بين مذاهب الأقوياء من أنصار الحرية والعدل ، فهي في غرب أوروبا منجازه إلى الحرية ؛ لأن الأقوياء من المنتصرين هناك ينحازون إليها ، وهي في شرق أوروبا وجنوبها منجازه إلى العدل ؛ لأن الأقوياء هناك ينحازون إليه . والواقع أن إرادة هذه الشعوب لم يتح لها ما ينبغي أن يتاح لها من الفرص لتظهر جلية لا يشوبها لبس ولا غموض . وقد يكون الموقف الأسباني من أوضح الأشياء دلالة على هذه الخصومة بين العدل والحرية . ويجب أن نلاحظ أن التسلط والقهر هما الأدوات اللتان يصطنعهما العدل كما تصطنعهما الحرية ، يدافع بهما كل منهما عن نفسه ، ويثبت بهما كل منهما سلطانه . فالجيش البريطاني هو الذي أيد الحرية في اليونان على حساب العدل ، والجيش الروسي هو الذي أيد العدل في شرق أوروبا على حساب الحرية . وليس لأحد من المنتصرين جيش في أسبانيا الفاشية ، ولو قد وجد هذا الجيش لانحازت أسبانيا الفاشية إلى مذهب الحرية إن كان الجيش بريطانيا أو أمريكا ، وإلى مذهب العدل إن كان الجيش روسيا . ولكن أسبانيا ليست محتلة ؛ ولذلك كان موقفها دليلاً واضحاً على اشتداد الخصومة بين هذين المذهبين . فأما أنصار العدل وهم الروسيون والفرنسيون حين كان الأمر في فرنسا إلى اليسار ، فيريدون إلغاء النظام الفاشي في أسبانيا وإن أدى ذلك إلى التدخل العسكري في الشؤون الأسبانية . وأيسر ما يطلبونه أن تقطع العلاقات السياسية بين جميع الدول المنتصرة على اختلاف مذاهبها وبين أسبانيا الفاشية ، وأن تعترف الدول المنتصرة بالحكومة الأسبانية المنفية التي أقامت في أمريكا اللاتينية حيناً وتريد أن تنتقل إلى فرنسا في هذه الأيام . وهم يعتمدون فيما يطلبون على أن الديمقراطية المنتصرة لا ينبغي أن تسمح للفاشية بالبقاء ، وعلى أن نظام الأمم المتحدة وميثاق سان فرانسيسكو يفرضان ذلك فرضاً ، وعلى أن أسبانيا الفاشية قد ظاهرت ألمانيا وإيطاليا لأنها مدينة لها بالوجود . ولكن البريطانيين والأمريكيين يؤمنون

هنا بحرية الشعوب إيماناً يوشك أن يكون تعصباً . فالشعب الأسباني حر في اختيار الحكومة التي تسيطر على أمره ، وما ينبغي للسلطان الخارجى أن يتدخل فى الشؤون الأسبانية الخالصة ، ولا أن يفرض على أسبانيا حكومة وإن كانت ديمقراطية ، ولا أن يخلص أسبانيا من حكومة وإن كانت فاشية قد حاربت الديمقراطية وأعانت عليها ما وجدت إلى ذلك سبيلاً .

ونتيجة هذا كله أن الشعب الأسباني نفسه منقسم فى ظاهر الأمر على الأقل : فريق منه يريد أن يعود إلى النظام الجمهورى اليسارى ، وفريق آخر يريد أن يحتفظ بالنظام الفاشى الميامن . فأما قبل الحرب فقد أقيمت ألمانيا وإيطاليا فى غير تردد على تأييد النظام الفاشى فى أسبانيا بالسلاح ، وأما بعد الحرب وبعد انتصار الديمقراطية ، فإن بريطانيا العظمى وأمريكا تابيان حتى قطع العلاقات السياسية مع الفاشية الأسبانية التى أعانت على الديمقراطية ودبرت لها ألوان الكيد . فالأمر كله إذن إنما يرجع ، قبل كل شيء وبعد كل شيء ، إلى الصراع بين هذين المذهبين : مذهب الحرية الذى يعتمد على رأس المال ، ومذهب العدل الذى يعتمد على الشيوعية .

وكما أن روسيا ألقت ستاراً حديدياً من دون الشرق الأوروبى والجنوب الأوروبى ، فإن بريطانيا العظمى وأمريكا تلقيان ستاراً حديدياً آخر من دون الغرب الأوروبى . وكل هذا قد يكون له خطره فى مستقبل العالم ، ولكن هناك ما هو أشد خطراً من هذا كله ، وهو أن الشعوب نفسها منقسمة فى حياتها الداخلية أشد الانقسام ، ينحاز فريق منها إلى الحرية فيتبع بريطانيا العظمى وأمريكا ، ويستعين بهما على خصومه إن احتاج إلى ذلك ، وينحاز فريق آخر إلى العدل فيتبع روسيا ، ويستعين بها على خصومه إن احتاج إلى ذلك . وينشأ عن هذا أن تصبح كلمة الاستقلال من الكلمات الجوفاء التى لا تدل الآن على معنى محقق فى حياة هذه الشعوب .

وقد كان من المضحك حقاً أثناء الصراع الانتخابى فى فرنسا أن يتهم أنصار الحرية خصومهم بأنهم يتلقون الأمر من موسكو ويريدون أن يجعلوا فرنسا ذيلاً لروسيا ، وأن يتهم أنصار العدل خصومهم بأنهم يتلقون الأمر من واشنطن ويريدون أن يجعلوا فرنسا ذيلاً لأمريكا . والواقع أن أولئك وهؤلاء كانوا يسرفون ، ويعلمون أنهم يسرفون . فقد أصبحت فكرة العدل أساساً

لمذهب من المذاهب يوشك أن يكون ديناً ، وأصبحت فكرة الحرية أساساً
لمذهب من المذاهب يوشك أن يكون ديناً أيضاً . فالدين ينحازون إلى هذا
المذهب أو ذاك ويؤمنون بهذا الدين أو ذاك ، مضطرون بالطبع إلى أن يظاهروا
شركاءهم في الرأي وإخوانهم في الدين . فأنحياز أنصار العدل في فرنسا إلى روسيا
كانحياز أنصار الحرية فيها إلى أمريكا ، ظاهرة طبيعية يمكن أن تقاس إلى انحياز
المسلمين في وقت من الأوقات إلى عاصمة الخلافة ، وإلى انحياز النصارى في وقت من
الأوقات إلى عاصمة المسيحية في روما .

على أن هذا الاختلاف بين المذهبين لم يلبث أن تعقّد بعد الحرب العالمية
الأولى بظهور مذهب وسط يريد أن يحتفظ بالحرية وأن يحقق العدل في الأرض ،
ولكنه لم ينظر إلى الحرية من حيث هي ولا إلى العدل من حيث هو ، وإنما نظر
إليهما جميعاً من ناحية خاصة هي ناحية الدين . فأنصار العدل من الشيوعيين
والاشتراكيين يعتمدون قبل كل شيء على المادية التي تبحّد الديانات جحوداً
تاماً ، وتنظر إلى الحياة الاجتماعية على أنها نتيجة لازمة لتطور تاريخي محتوم .
وأصحاب الحرية ، ولا سيما منذ الثورة الفرنسية ، لا يكادون يحفلون بالدين ،
ولا يكادون يلقون إليه بالاً . فإذا أمكن أن ينشأ مذهب ثالث بين هذين
المذهبين يلائم بين الحرية والعدل من جهة وبين الدين من جهة أخرى ، ويتخذ
الدين أساساً لحياة إنسانية جديدة ترتفع عن المادة ، وترقى إلى المثل العليا ، وتؤمن
بأن في الإنسان قوة لا تستطيع أن تحيا ولا أن تثمر ولا أن تتيح للإنسان
حظه من الرقي إلا إذا اتصلت بمصدرها القدسي الأول من طريق الإيمان والثقة
والأمل — أقول إذا أمكن أن ينشأ هذا المذهب كان في نشوئه الخير كل
الخير ، لأنه يصلح ما أفسدت الثورة ، فيرد إلى الدين مكانته في القلوب وسلطانه
على النفوس ، ويعصم الناس من المادية الجامحة والإلحاد المتمرد ، ويكفل لهم
في الوقت نفسه نصيباً معتدلاً من الحرية ، ويتيح لهم في الوقت نفسه سعياً
متصلاً إلى تحقيق العدل في الأرض .

وكذلك نشأت الاشتراكية المسيحية التي لا تقيم العدل على الجبر التاريخي ،
ولا تجعل الإصلاح نتيجة للتطور المادي ، ولا تلغى حرية الفرد ولا حرية
الجماعات ، وإنما تقيم أمور الناس على التعاطف والتعاون والحب ، وتجمع قلوبهم
حول هذه المثل الإنسانية والإلهية العليا .

وليس من شك في أن أهوال الحريين العالميتين كان لها أعظم الأثر في إنشاء هذا المذهب وانتشاره وانتصاره في بعض الأقطار . فهذه الأهوال التي صبغت الحرب على الناس ، وهذه الكوارث التي تغلغلت في حياة الأفراد والجماعات ، وهذه القسوة التي قطعت ما بين الناس من أرحام أمر الله أن توصل ، كل هذا قد زهد الناس في الإيمان بسلطان العلم وتفوقه ، وصرفهم عن هذه الفتنة التي ملأت قلوبهم وملكت أمرهم في القرن الماضي ، واضطروهم إلى التفكير في العلم أن ليس كل شيء وفي أن العقل ليس كل شيء ، وفي أن الإنسان لا يأترف من العقل والجسم فحسب ، ولكن له ملكات أخرى لا ينبغي أن تهمل وحاجات أخرى لا ينبغي أن تزدري . ومن أهم هذه الملكات ملكة الشعور ، ومن أهم هذه الحاجات الحاجة إلى الإيمان بقوة قدسية مدبرة لشؤون الإنسان تسمو به إلى الخير ، وتنهاه عن الشر ، وتناهى به عن الموبقات . وقد أعان على انتشار هذا المذهب وانتصاره بعد الحرب العالمية الثانية ، أن أتيح حق الانتخاب للنساء في أكثر الشعوب الأوروبية بعد أن كان هذا الحق مقصوراً على الرجال ؛ ولذلك انتصرت الاشتراكية المسيحية في فرنسا أخيراً بانتصار الحركة الجمهورية الشعبية على حساب الاشتراكيين الماركسيين ، وانتصرت الديمقراطية المسيحية في إيطاليا على حساب الاشتراكية الماركسية أيضاً ، وأصبحت هذه الاشتراكية المسيحية الجديدة قوة لها خطرهما في الحياة السياسية لأوروبا الغربية بوجه عام . ولست أدري أيتاح لهذه الاشتراكية المسيحية فوز متصل أم هي أعقاب الحرب لا تكاد تمضي عليها الأعوام حتى تعود الحياة الأوروبية إلى طبيعتها ، ويستأنف الصراع عنيفاً بين هذين المذهبين : مذهب الحرية ومذهب العدل . ذلك أن هذا المذهب الاشتراكي المسيحي جميل رائع في نفسه ، مثله في ذلك مثل مذهب العدل ومذهب الحرية ، ولكنه لا يكاد يخرج إلى الوجود اليومي ويعالج مشكلات الحياة الطارئة حتى يصيبه ما يصيب المذهبين من هذه الأعراض التي تبغضه إلى فريق من الناس وتحببه إلى فريق .

فالاشتراكية المسيحية لا تلغى رأس المال ، وإذن فسيطمئن إليها رأس المال ، وسينقر منها طلاب المساواة الخالصة والعدل المطلق . والاشتراكية المسيحية لا تنكر الإصلاح الاجتماعي وإنما تدفع إليه دفعاً وقد تتطرف فيه أحياناً ، وإذن فسيستغلها المتطرفون لتحقيق بعض ما يريدون ، وسيشفق منها المحافظون ، لأنها

تكلفهم أكثر مما يريدون أن يتكلفوا . والاشتراكية المسيحية بحكم عنوانها واستمساكها بالدين مضطرة إلى مصانعة الكنيسة أو قل إلى طاعة الكنيسة وإرضائها ، وإذن فسينفر منها جمهور ضخيم من الأوروبيين ومن المفكرين الذين قطعوا ما بينهم وبين الكنيسة من الأسباب منذ وقت طويل . وخذ مثلاً واحداً لهذا الموقف الوسط الذي يضطر الاشتراكية المسيحية إلى الحرج في بلد كفرنسا ؛ فهذه الاشتراكية المسيحية تطالب بحرية التعليم التي يطالب بها المحافظون الغلاة . وحرية التعليم هذه ينكرها عدد ضخم من الفرنسيين الذين ناصروا الفصل بين الكنيسة والدولة ، والذين حملوا الجمهورية الفرنسية الثالثة على أن تجعل التعليم من شأن الدولة خاضعاً لسلطانها ملتزماً للحييدة الدينية الكاملة . فليس بدُّ إذن من أن تجد الاشتراكية المسيحية كثيراً جداً من العناء حين تعالج هذه المسألة ؛ لأن أنصار العدل الماركسي لم يضعفوا ولم يستيئسوا ، وإنما هم محتفظون بقوتهم التي تزداد انتشاراً وانتصاراً من يوم إلى يوم . فالاشتراكية المسيحية في حقيقة الأمر توشك أن تكون طوراً من هذه الأطوار الانتقالية التي تطمئن إليها الشعوب حين تجهدها الحرب وتكلفها الأزمات من الجهد والمشقة ما لا تطيق . فإذا ما استجمت واستردت قوتها ونشاطها ضاقت بالمواقف المتوسطة واستأنفت الصراع بين القديم والجديد ، بين المحافظة والتطرف ، أو قل — إن شئت — بين الاستمساك بالحرية والطموح إلى العدل .

والشيء الذي ليس فيه شك هو أن طبيعة الإنسان تدفعه دائماً إلى الترقى ؛ فهو لا يبلغ من الرقي طوراً حتى يسمو إلى طور خير منه « وحاجة من عاش لا تنقضى » كما يقول شاعرنا العظيم . والحضارة الإنسانية المادية مسرعة إلى التطور وإلى تيسير الترف وإذاعته وجعله في متناول الناس جميعاً . فليس للإنسانية بدُّ من أن تلتقي على نفسها دائماً هذا السؤال : لماذا يتاح النعيم لفريق من الناس ويحظر على فريق آخر ؟ لماذا يفرق بين الناس في الاستمتاع بالحياة على حين يسوَّى بينهم في الدخول إلى الحياة والخروج منها ؟ لماذا يعمل العامل ويزرع الزارع ويملاأ كلاهما الأرض بأسباب الترف ووسائل النعيم لينتفع بنتيجة هذا العمل فريق من الناس لا يعملون ولا يزرعون ولا يبذلون جهداً ولا يهتمون في الحياة عناء ؟ ولماذا يتباح الفراغ لقلّة من الناس ويفرض العناء على كثيرتهم ؟ هذه الأسئلة أُلقيت على الناس منذ أقدم العصور ، ولكنهم لم يحققوها في أنفسهم

بين العدل والحرية

كما يحققونها الآن ، وهم يعتقدون مصيبين أو مخطئين ، راضين أو كارهين أن العدل يجب أن يكون هو الغاية الأخيرة للحياة ، وأن المساواة الصحيحة في تمكين الناس من أن ينتفعوا بهذا العدل هي الوسيلة إلى تحقيق هذه الغاية الكبرى . فإذا ذكرت لهم الحرية وما أثرها ومحاسنها — وما أكثر ما للحرية من ما أثر ومحاسن! — فسيقولون لك إن الحرية لن تطعم الجائع ولن تكسو العارى ولن تسقى الظمآن . وسيقولون لك إن الرجل البائس لا يستطيع أن ينتفع بحريته ، لأن الحرية لا تغني إلا مع الاستطاعة . وسيقولون لك إن الحرية خير ما في ذلك شك ، ولكن بشرط أن تمنح للناس بعد أن تتحقق بينهم المساواة ويستقر بينهم العدل ويصبح بآمن من كل عبث ومن كل طغيان . وسيقولون لك إن الحرية إذا منحت للناس قبل أن يستقر بينهم العدل أثارت بينهم التنافس وأذاعت بينهم البغض وأشاعت فيهم الطمع والحسد والحقد وجعلت بعضهم لبعض عدوًّا . وسيستدلون بالتاريخ كله على هذا كله . وسيقولون يجب أن يتحقق العدل أولاً وأن يتساوى الناس في الارتفاع بالحياة كما تساوا في الدخول إليها والخروج منها . فإذا تم لهم ذلك فامنحهم الحرية إن شئت . فلن تعرضهم للشر ، ولن تثير بينهم كيداً ولا مكرراً ولا غدرًا ولا عداً .

وقد تعرض عليهم بأن تحقيق العدل الذي يريدونه ، والمساواة التي يطمحون إليها ويطمعون فيها ، يدعو إلى كثير من الشر ، وأول هذا الشر إلغاء الحرية وإنزال القوى عن قوته والمتفوق عن تفوقه والغنى عن غناه ، وجعل الناس على ألوان من الحياة متشابهة بغیضة لتشابهها ، وأخذهم بالعنف حتى يحملوا على الجادة ويهتدوا إلى الصراط المستقيم . وقد تضرب لهم الأمثال بما يجري هنا وهناك في البيئات التي حاولت تحقيق العدل والمساواة من العنف المنكر والتسلط الذي لا يطاق ، ولكنهم سيجيبونك دائماً بأن الإنسانية مريضة ، وبأن شفاء المريض لا يكون بمداعبته وتدليله ، وإنما يكون بحمله على تعاطي الدواء مهما يكن مرًا بغيضا ، وبحمله أحيانا على ما هو أشق مشقة وأجهد جهدا وأثقل ثقلا من الدواء المر البغيض .

فالإنسانية بين اثنتين: إما أن تريد الشفاء ، فتسلك إليه طريقه المستقيمة، وإما أن تؤثر المرض ، فتشقى بالآلامه وأثقاله حتى يدركها الفناء . وكذلك ستظل الإنسانية مضطربة بين هذين المذهبين : مذهب العدل وما يقتضى من وسائل قد تكون

بين العدل والحرية

منكرة في كثير من الأحيان ، ومذهب الحرية وما يستتبع من نتائج ليست أقل من وسائل العدل نكراً . ومن يدري ! لعل يوماً من الأيام قريباً أو بعيداً يرى ذلك الفيلسوف الذي يبتكر للإنسانية مزاجاً معتدلاً من الحياة يتحقق فيه العدل من غير عنف ، وتتحقق فيه الحرية من غير ظلم ، ويذوق الناس فيه سعادة لا يشوبها بؤس ولا شقاء . ويرحم الله عمر ، فقد أراد أن يحمل المسلمين على ذلك ، ومضى بهم في سبيله قدماً ، وحقق لهم منه شيئاً كثيراً . ولكن الشاعر الذي رثاه لم يخطئ حين قال :

عليك سلاماً من إمام ، وباركت	يد الله في ذاك الأديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناحي نعمة	ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها	بوائق في أكمامها لم تفتقر

طه حسين

باريس ، يونيو ١٩٤٦

في أفق السياسة العالمية

مشاكل البلقان

تناول مستر بيثن وزير خارجية إنجلترا فيما تناوله من الشؤون الخارجية في بيانته الأخير الذي ألقاه في مجلس العموم في أوائل شهر يونيه ، مسألة تريسته ، وقال بشأنها إن أخشى ما يخشاه « أن تصبح تريسته بيداً تحركه أيدي اللاعبين على رقعة الشطرنج الدولية » . ولكن هل بقي إقليم أو ميناء في شرق أوروبا أو في منطقة البلقان ليس للدول فيه أصبح ظاهرة أو خفية تحرك سياسته يمينا أو يساراً وفق الآراء والمبادئ التي تدين بها الدولة التي تحركه ؟

لقد قست الطبيعة والظروف على شعوب البلقان ، ففرقت بينهم في الجنس واللغة والثقافة والمذهب الديني ، كما فرقت بينهم سلاسل الجبال والمرتفعات التي تقطع شبه الجزيرة طولا وعرضا ، وجعلت المواصلات فيما بين البلاد أمراً بالغاً منتهى الصعوبة ، اللهم إلا البلاد التي جمع بينها نهر الدانوب وفرقتها يد السياسة ! وإذا كان معظم سكان البلقان ينتمون إلى العنصر السلافي ، فإن في هذه البلاد خليطاً عجيباً من مختلف الشعوب والنحل ، فمنهم الأتراك والأرمن وأوالبانيون والإغريق والمقدونيون والرومانيون والصرب والكروات والسلوفين والبغار ، ومن هؤلاء جميعاً الأرثوذكس والكاثوليك والمسلمون واليهود . وكان من نتيجة هذه الخلافات الجنسية والدينية أن استفحلت أسباب العداوة والكراهية المحلية بين هذه الشعوب ، ثم كان تنازع الدول الكبرى فيما بينها لمد سلطانها وبسط نفوذها على هذه الأقاليم ؛ فأودى ذلك نهائياً بطمأنينتها وأمنها ، وجعل منها ، كما يقولون ، برميلاً جافاً من البارود يوشك في كل لحظة أن ينفجر ، فلا تقتصر ناره على الأرض المجاورة ، بل تتعدى الحدود وتتصلب ألسنتها بالمحيط الدولي ، فتشتعل نيران حرب كبرى .

ولقد انفجر البارود في صيف سنة ١٩١٤ في سراييفو إحدى مدن الصرب ، فقامت على أثر ذلك الحرب العالمية الأولى . ومن ألبانيا اندلعت في ربيع

سنة ١٩٣٩ إحدى شرارات الحرب العالمية الثانية حين هاجمها مسوليني في يوم الجمعة الحزينة من ذلك العام ، وشرّد مليكها وأسرتة ، ووضع تاج ألبانيا على رأس ملك إيطاليا المثقل بالسنين والتعبات . وإذا سارت الحال في البلقان على النهج الذي تقضى إليه سياسة الدول الكبرى في هذه الآونة ، فأكبر الظن أن حرباً بل حروباً أهلية وعالمية أخرى ستستعر من جديد ، وتأخذ سبيلها من هذه الأقاليم المنكودة .

ولقد يدهش الباحث إذ يعلم أن البارود الذي ينفجر في البلقان بين آونة وأخرى ليس من صنع أهل البلقان ، ولا هو من منتجات هذه الأقاليم التي يعيش معظم أهلها على الزراعة والصناعات الزراعية ، ولكن الدول الكبرى هي التي تصدر البارود إلى هذه البلاد ، حتى إذا انفجر وتناثر شرره استنكرته وأنحت باللائمة على شعوب هذه البلاد ، ونسبتهم إلى الشر والعدوان . والحق أنه لا عيب في هذه الشعوب إلا فقرها المدقع ، وجهلها المروع ، وجهها الملتهب للحرية والاستقلال

على أن الدول لم تقتصر على تصدير البارود إلى شعوب البلقان ، بل كانت تصدر إليها كذلك التيجان والملوك كلما أفلح شعب منها بفضل مساعدة تلك الدول في التخلص من نير الأتراك ، وأنشأ له حكومة وطنية . وعلى ذلك اعتلى عرش اليونان الملك جورج الأول من أمراء الداخرقة ، وكانت زوجته أميرة روسية ، وأخته زوجة ولي عهد إنجلترا الذي خلف والدته الملكة فكتوريا باسم إدورد السابع . وحكم رومانيا الملك شارل الأول أمير أحد فروع أسرة هوهنزلرن الألمانية . وجلس على عرش بلغاريا أمير ألماني آخر باسم الملك فردينند . وكذلك اختير لألبانيا في أول عهدها بالاستقلال سنة ١٩١٣ الأمير ويد الألماني . أما مملكة الصرب ، وهي يوغسلافيا الحديثة ، فهي الدولة البلقانية الوحيدة التي لم تنتفع بهذه الواردات المتوجة ، ورفعت إلى عرشها أميراً اختارته من بين أسرها العريقة . وكان آخر ملوكها بطرس الثاني الذي نجى عن العرش في سنة ١٩٤٥ .

ومن العجيب أن هذه الشعوب قد خضعت للحكم التركي أو الحكم النمساوي مدة تتراوح بين أربعة قرون أو خمسة ، فلما همت في القرن التاسع عشر أن تتحرك للشورة وطلب الاستقلال بدأت الدول تتدخل وتمدها بالنار والحديد وبالرجال ثم بالتيجان ، حتى إذا ما تنسمت نسيم الحرية ونعمت بتحقيق أمانيتها وظفرت

بالاستقلال السياسى ، بدأت تحس ثقل تبعاتها وتشعر بالفراغ العظيم الذى أحدثته زوال الحكم التركى أو النمساوى من محيطها ، ف راحت تتخبط وتتعثر فى مختلف المشاكل والصعاب إما داخل حدودها وإما بين بعضها وبعض . ذلك أن كلا منها قد حرص فى عهد الاستقلال على توسيع حدوده على حساب جيرانه ، ثم وطن كل منها نفسه — فيما عدا تركيا واليونان طبعاً — على الوصول إلى ميناء يطل على مياه البحر المتوسط من قرب أو بعد .

لذلك ما كادت تنتهى حرب الاستقلال البلقانى ضد تركيا سنة ١٩١٢ حتى قامت الحرب البلقانية الثانية سنة ١٩١٣ بسبب توزيع الأسلاب بين المنتصرين فى الحرب الأولى ؛ فهاجمت بلغاريا حليفتيها الصرب واليونان ، وما لبثت رومانيا أن تدخلتا وتركيا فى الحرب ، فاستردت تركيا أدرنة ، واحتلت رومانيا دبروجة ، وخسرت بلغاريا معظم ما كسبته فى الحرب الأولى . ومن ذلك نشأ العداء والكراهية بين بلغاريا وسائر دول البلقان ، ذلك العداء الذى استحكم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ؛ وكانت بلغاريا تحارب فيها إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، فكان جزاؤها أن حرمت المنفذ الذى طالما منته به نفسها على بحر إيجه ، كما فقدت جزءاً كبيراً من تراقيا لليونان ، ومن مقدونيا ليوغسلافيا . وكان من يواعث الأمل على استقرار الحال بعض الشئ فى البلقان عقب تلك الحرب أن روسيا كانت من غمرات ثورتها الكبرى فى شغل شاغل عن البلقان وعن أوروبا عامة ، وكانت تركيا قد تراجعت إلى آسيا الصغرى ، فنقلت عاصمتها من اسطنبول إلى أنقرة ، واشتغلت هى كذلك بنهضتها الكمالية . وبذلك أتيحت لدول البلقان فترة استجمام ساعدتها على النهوض بشؤونها الداخلية ، وترقية مرافقها الصناعية والعمرانية وجمع كلمة مواطنيها على رغم اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم . وقد ظهرت دلائل هذا التقدم جلية فى رومانيا ويوغسلافيا بصفة خاصة ، حيث كشفت منابع البترول وقامت فيها نهضة صناعية وحرية كبرى ، فارتفع مقام رومانيا إلى مصاف الدول المهمة ، وأصبح ليوغسلافيا على البحر الأدرياتي موانئ وقواعد حربية تنافس بها إيطاليا .

وكذلك نهضت تركيا واليونان ، وسوت الحكومتان ما كان بينهما من خصومات وعداء مستحكم بفضل السياسة التى اتبعتها أتاتورك بعد هزيمة اليونان فى آسيا الصغرى ، وإنشائه تركيا الجديدة ؛ فقد قرأ رأى الزعيم التركى على

اقتلاع أسباب النزاع بين الشعبين المتجاورين من جذورها ، وذلك بتبادل الأقليات بينهما ، فتفتح اليونان أبوابها لمليون وربع مليون من الإغريق المتوطنين في تركيا مقابل نصف مليون من الأتراك تستردهم تركيا من اليونان . وقد فعل هذا التبادل — على رغم ما لاقاه المتبادكون من صنوف الآلام والمتاعب الجسمية والعاطفية — فعل السحر في تحسين العلاقات بين الشعبين ، حتى أصبحا كأنهما أسرة واحدة متفقة المصالح والأهداف .

وقد بدت آثار هذا التضامن بين الحكومتين في سياسة البلقان الجديدة . وذلك أنه ما كادت تختفي روسيا من الميدان السياسى في البلقان والبحر المتوسط عقب ثورتها ، حتى انبرت إيطاليا الفاشية تريد أن تحل من دول البلقان محل روسيا ، فتتشر نفوذها السياسى في ربوع البلقان وشرق البحر المتوسط . وفعلاً بدأت تعقد معاهدات الصداقة بينها وبين دول البلقان . ولكن سرعان ما بانّت نيات إيطاليا التوسعية عند ما احتلت جزيرة كرفو التابعة لليونان في سنة ١٩٢٣ على أثر حادث وقع على الحدود بين ألبانيا وإيطاليا ، وقتل فيه رئيس البعثة الإيطالية في اللجنة التى كانت تعين الحدود بين الدولتين . ولم تنسحب إيطاليا من الجزيرة إلا بعد تدخل مجلس عصبة الأمم وقيام اليونان بدفع غرامة فادحة لإيطاليا . وقد تحققت مخاوف البلقان من ناحية إيطاليا عند ما أذيعت شروط معاهدة تيرانا بين إيطاليا وألبانيا سنة ١٩٢٦ ، وكان فخواها أن تصبح ألبانيا في حقيقة الأمر إحدى ملحقات إيطاليا ، فتنشئ فيها الطرق والقلاع والموانئ لتثب منها عند الحاجة على يوغسلافيا أو اليونان ، ولتستطيع أن تتحكم في مضيق أترنتو عند مدخل البحر الأدرياتي ، فيبقى الأسطول اليوغسلافى الحربي والتجارى تحت رحمة إيطاليا .

عند ذلك تفتحت أعين دول البلقان ، وأدركت أنه إذا لم تتحد وتعتمد على نفسها ، فإنها ستستمر العوبة في أيدي الدول الكبرى تتقاذفها كيفما شاءت . وخفاة وضح لشعوب البلقان أن هناك مسائل ومصالح تهمهم جميعاً ، وأنهم قد وصلوا من النضج السياسى إلى درجة خليقة بأن يجعلهم يقفون صفّاً واحداً أمام مطامع الدول وعدوانها عليهم . وعلى ذلك أنشأوا بفضل مساعى تركيا واليونان الميثاق البلقانى سنة ١٩٣٤ بين تركيا واليونان ويوغسلافيا ورومانيا ولم تشذ إلا ألبانيا وبلغاريا ، إذ كانت الأولى في سياستها تابعة لإيطاليا ، وكانت الثانية

تطمع في إعادة النظر في معاهدات الصلح ، على حين قد نص الميثاق على حفظ الحالة الحاضرة في البلقان . وكان عقد الميثاق أكبر صدمة سياسية أصابت سياسة الدول الطامعة بصفة عامة وإيطاليا بصفة خاصة ؛ فلأول مرة في تاريخها وقفت دول البلقان على قدميها تنادى أن البلقان للبلقانيين .

وقد كان الميثاق خير درع لدول البلقان في أزمة الحبشة سنة ١٩٣٥ ، فوقفت كتلة واحدة إلى جانب العصبة وبريطانيا ضد الطغيان الفاشي . وكذلك وقفت دول البلقان تناصر تركيا في سنة ١٩٣٦ عندما دعت مؤتمر الدول في منترو ليقرر النظام الجديد للمضاييق في مصلحة تركيا . ولكن وأأسفاه لم تمض إلا سنوات قليلة على الميثاق حتى قامت الحرب العالمية الثانية . فالترمت دول البلقان الحيدة في أول الأمر ، ثم لم تلبث فرنسا أن انهارت ودخلت إيطاليا الحرب ، وحسب مسؤوليني أن الفرصة قد سنحت أخيراً لتحقيق مطامع إيطاليا الفاشية غرباً وشرقاً ، فسير قواته من ليبيا ضد بريطانيا في مصر ، وتحركت كتائبه من ألبانيا ضد اليونان ، فوقف الإغريق أمام المعتدين وقفتهم التي استرعت إعجاب العالم . وتحرج مركز المحور في البلقان ، فحلت ألمانيا وجهها من الغرب إلى الشرق وأنزلت جحافلها ودباباتها وطائراتها تكتسح دول البلقان واحدة بعد أخرى حتى لم ينج منها سوى تركيا . واقتقد الناس ميثاق البلقان فجعلوا ينقبون عنه فلم يفوزوا بطائل وسط جلبة المدافع وهزيم القنابل وضجيج الطائرات . وماذا يغني الميثاق ؟ ولو أنه كان اتحاداً لا مجرد عهد ووعد لما أبتقت منه الحرب الخاطفة التي حالفت الألمان في سني الحرب الأولى أي أثر ، وهي التي داست الموائيق والمعاهدات ، وبددت المحالفات ومزقت الجيوش شرمزق !

وبذهاب ميثاق البلقان وانتهاء الحرب ، سارت دول البلقان سيرتها الأولى وعادت مسرحاً لأسباب الكراهية المحلية والمنافسات الدولية . وقد تعقدت مشاكلها في هذه المرة على أثر عودة روسيا أهم السلافة الأرثوذكسية الكبرى وظهورها على مسرح السياسة في دور البطولة العالمية . وإذا ما اجتمعت الأمم بفراخها فعسير عليها أن تدع لأحدها حرته أو استقلاله ، بل إن غريزة الأمومة فيها لكفيلة أن تدفعها يوماً إلى احتضانهم وضمهم إليها وحمايتهم من الأيدي التي تمتد إليهم ، ولو كانت تمتد لإطعامهم !

وفي هذه المرة لا تريد روسيا أن يفلت منها زمام البلقان كما أفلت في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فهي تعتبر نفسها زعيمة الشعوب السلافية حقاً وصدقاً وتعتبر البلقان منطقة نفوذها الخاصة . وقد نزلت أخيراً عن عدائها للكنيسة ورجالها ، فاستعادت زعامتها الأولى للأرثوذكسية التي تنتمي إليها الكثرة العظمى من سكان البلقان . وتريد روسيا أن يكون مقامها في البلقان شبيهاً بمكانة الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية ، مع فارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا تتمتع باستقلالها وسيادتها ، أما حكومات البلقان فتريدها روسيا على أن تكون وفق نظامها الشيوعي وعلى هواها .

وتحتاج روسيا إلى ألوف مؤلفة من عمال البلقان ؛ ليعوضوها عما فقدته من ملايين الشبان في الحرب الأخيرة ، كما أنها تريد أن تعمل لكسب أسواق البلقان في التجارة كما كسبتها منهم ألمانيا قبل الحرب الأخيرة ، حتى بلغ ما تصدره ألمانيا لرومانيا ويوغسلافيا ٤٠ ٪ من وارداتها . ولا يتحقق لروسيا ذلك التفوق الاقتصادي إلا إذا نهضت بصناعاتها وأنتجت مثل ما كانت تصدره ألمانيا للبلقان من عدد وآلات ثقيلة وخفيفة ومصنوعات مختلفة . ولا سبيل إلى هذه النهضة إلا إذا توافرت لروسيا الأيدي العاملة التي لا يتم تدريبها إلا بعد سنوات طويلة . وفي هذه الأثناء إما أن تخضع روسيا لقيام مبدأ حرية التجارة في البلقان ، وإما أن تأباه فتعرض شعوبه وحكوماته لكارثة اقتصادية محققة .

وكما أن روسيا تريد أن ترث ألمانيا في مركزها الاقتصادي في البلقان ، فإنها تعمل كذلك جاهدة على أن تكون وريثة إيطاليا في البحر المتوسط ، حتى يصحح التوازن الدولي في حوض هذا البحر بعد أن اختل بذهاب قوة إيطاليا البحرية فلا تطغى فيه بريطانيا وفرنسا دون مقابل . لذلك بدأت روسيا تطالب بنصيبها في قواعده الاستراتيجية ، فلم تكتف بالجلوس إلى جانب إنجلترا وفرنسا وأمريكا في منطقة طنجة الدولية كما تقرر في العام الماضي ، بل جعلت تطالب بالوصاية على طرابلس أو جزر الدوديكانيز ، ورفضت أن تجدد معاهدتها مع تركيا حتى تجاب إلى طلبها فيما يخص المضائق ، ويقولون إنها تطالب الآن بقاعدة حربية في منطقة المضائق ، وبمقعد لها في مجلس إدارة شركة قناة السويس ، كما كانت تريد أن تفعل إيطاليا الفاشية من قبل .

وتحقيقاً لهذه السياسة أيضاً وقفت روسيا تسند جمهورية يوغسلافيا الناشئة

في مطالبتها بضم تريسته ومنطقة فنيزيا جوليا على البحر الأدرياتي ، وقد احتلت منها ميناء فيومي وما جاورها من الأراضي . ويبدو أن ما نال الطليان من الخزي والهوان في الحرب الأخيرة سيقول من أمل إيطاليا في الاحتفاظ بهذا الإقليم ، لاسيما أن الكثرة الطليانية في هذه البقاع ليست في الحقيقة إلا كثرة اصطناعية حديثة العهد غير متأصلة في صميم البيئة ، وأن عدداً كبيراً من هؤلاء الطليان قد اعتنقوا أخيراً كغيرهم من العمال في المدن والموانئ في أنحاء أخرى مبادئ الحزب الشيوعي ، وأصبحوا لا يرغبون في العودة إلى الحكم الإيطالي الذي ناواً الشيوعية في الماضي . وقد أكد مستر بيتن في خطبته الأخيرة أنه لا مناص من تحويل تريسته إلى ميناء دولي حر للجميع ، تستفيد منه يوغسلافيا وسائر دول أوروبا الوسطى .

وتهدف حكومة السوفيت في مناصرتها ليوغسلافيا إلى السيطرة على البحر الأدرياتي الموصل للبحر المتوسط بعد أن أصبحت يوغسلافيا وألمانيا جمهوريتين تسيران على النهج الشيوعي .

وكذلك تقف حكومة السوفيت إلى جانب بلغاريا العزيزة عليها . فعلى الرغم من أن بلغاريا قد تعاونت مع ألمانيا ، فإن صلات الدم الوثيقة التي تربط بلغاريا بروسيا ، لم تنقصم عراها حتى في أحلك ساعات الحرب عندما كانت ألمانيا تسيطر على بلغاريا . واستناداً إلى هذه الصلة تطالب بلغاريا بتحقيق حلمها في بحر إيجه وفي تراقيا ومقدونيا على حساب اليونان . ولم تشأ بريطانيا بعد الحرب الأخيرة أن تجازف بترك اليونان حرة تتنازعها عوامل البلشفية من جهة والرجعية من جهة أخرى ، فأبقت فيها قواتها خوفاً على مصالحها الحربية في البحر المتوسط . ومع أن الأمل كبير في أن تحتضن اليونان جزر الدوديكانيز ورودرس فأكبر الظن أن إنجلترا ستظل محتفظة بقبرص . وليس من شك في أنه إذا انجلت القوات البريطانية عن اليونان بعد استفتاء الشعب في موضوع الملكية ، فإن النفوذ الشيوعي سيطغى على البلاد ويصبح مصير البلاد مربوطاً بعجلة السوفيت . لذلك تعتبر مسألة نظام الحكم في اليونان من أهم أسباب النزاع الدولي الحالي . أما في رومانيا فقد استردت روسيا إقليم بيسارابيا وأصبحت الحكومة فيها موالية للسوفيت ، وكذلك في ألبانيا قامت حكومة جمهورية موالية لروسيا برئاسة أنور حجة ، بعد أن ألغيت فيها الملكية في أوائل هذا العام .

وأخيراً تبقى روسيا وجهاً لوجه أمام تركيا ، وهي بحكم موقعها عند أهم النقاط الاستراتيجية في البحر المتوسط ، ولأن حكومتها الفتية الحالية تمثل أقوى شعوب البلقان وأشدّهم مراساً وأكثرهم عدة وعدداً في الحرب ، فضلاً عن ارتباطها بأواصر الصداقة مع أمريكا وبريطانيا — لهذه الأسباب جميعاً تعتبر تركيا المحور الذي يدور عليه مصير البلقان والشرق الأوسط الذي «تبلقن» أخيراً ، وشاكل صنوه في أخطاره ومناقساته . فإذا لم تسوِّ العلاقات بين تركيا وحكومة السوفيت بشأن المضايق وحدود تركيا الشمالية الشرقية ، فإن برميل البارود قد يزود هذه المرة بمواد أشد فتكاً وأعم خراباً من البارود ، وحينئذ يتاح للدول أن تجد حلاً نهائياً لمشاكل البلقان وغيرها .

ولعل للموضوع بقية في فرصة أخرى .

محمد رفعت

القضية المصرية

وهيئة الأمم المتحدة

في مصر وسائر بلاد العربية ، وفي بريطانيا العظمى وسائر أجزاء الإمبراطورية ، وكذلك في تركيا واليونان ، وفي الهند وإيران ، اهتمام بمصير المفاوضات التي بدأت في القاهرة بين ممثلي الحكومتين المصرية والبريتانية قصد الوصول إلى تسوية ما بينهما من خلاف على ما تريد مصر أن تحققه من « مطالب قومية » وما تريد إنجلترا أن تحتفظ به من « مصالح » في هذا الجانب من العالم . ويُعنى الساسة وأولو الرأي في تلك البلاد وفي غيرها أيضاً بما قد ينشأ من إخفاق المفاوضات : هل ترفع مصر أمرها إلى هيئة الأمم المتحدة ؟ وهل تختص الجمعية العامة لهذه الهيئة أو مجلس الأمن الدولي بالنظر في ذلك الأمر إذا رفع إلى واحدة من جهتيهما ؟

وقد رأيت في طريقة تقديم بحثي هذا الموضوع أن أبدأ بتحديد الخلاف بين وجهتي النظر المصرية والبريتانية إلى القضية المصرية ، وأن أثني بتكليف العلاقة بين هذا الخلاف وهيئة الأمم المتحدة ، ثم أعالج مسألة الاختصاص ونوع النظر عن الطريق العادي أو على وجه الاستعجال ، وأدلى بعد ذلك بالنصوص المستمدة من ميثاق سان فرانسيسكو ، والتي يستند إليها من يعرض للحكم في الخلاف . أما القضية المصرية فهي من وجهة النظر المصرية قضية استكمال لاستقلال مصر ، وحرص على مطلق سيادتها على أراضيها جميعاً . وقد انتهت مصر أفراداً وهيئات ، شعباً وأحزاباً وحكومات ، إلى التعبير عن وجهة نظرها بأبسط عبارة : « الجلاء ووحدة وادي النيل » ، جلاء الجنود الأجنبية جلاء ناجزاً لارجعة فيه عن البر والبحر والجو ، ووحدة الوادي بالنظام الذي يرتضيه أهله المصريون والسودانيون وحدهم .

وهي من وجهة النظر البريتانية قضية اعتبار مصر منطقة استراتيجية

بريتانية لحماية المواصلات الإمبراطورية وللمحافظة على السلم في الشرق الأدنى أو الأوسط ، واعتبار السودان إقليماً مفتوحاً مملوكاً بحق الفتح المزدوج وخاضعاً للسيادة المزدوجة ، وإدارته مشاركة ثنائية لبريتانيا العظمى فيها حصة الأسد . ومصر تصدر عن حق استقلالها وسيادتها المعترف بهما دولياً ، وبريتانيا تعتمد على واقع قوتها المسلحة واحتلالها العسكرى ، وتحاول الاستناد إلى أداة دبلوماسية هي معاهدة سنة ١٩٣٦ التى تقول بالمفاوضة فى سبيل تعديلها ، ومصر تدفع هذا الاستناد باعتبار تلك المعاهدة باطلة أو « غير ذات موضوع » ، وتلوح بأن الاتفاقية الدولية المعقودة فى أكتوبر من سنة ١٨٨٨ هى وحدها المقررة لنظام الملاحة فى قناة السويس والمحافظة عليها ، وبأن المحافظة على السلم لافى الشرق الأدنى وحده بل فى العالم كله قد أصبحت من اختصاص هيئة الأمم المتحدة ، لا من شأن دولة واحدة مهما عظمت . وهكذا يتحدد الخلاف بين وجهتى النظر المصرية والبريتانية إلى القضية المصرية .

أما تكييف العلاقة بين هذا الخلاف وهيئة « الأمم المتحدة » فيرجع إلى أن مصر وبريتانيا العظمى عضوان فى هذه الهيئة ، وهما مرتبطتان على حد سواء وبعدد الالتزامات الواردة فى ميثاق سان فرانسيسكو . وبين هذه الالتزامات تلك التى تضمنتها أحكام المادة الثانية من الميثاق من إقامة العلاقات « على مبدأ المساواة فى السيادة بين جميع الأعضاء » ، (فقرة ١) ، و « امتناعهم فى علاقاتهم الدولية عن أن يهددوا بالقوة أو أن يستخدموها ضد سلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لأية دولة أو على أى وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة » (فقرة ٤) ، و « عدم التدخل فى الشؤون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما » (فقرة ٧) ، وتلك التى تقضى بها الفقرة الأولى من المادة الرابعة والعشرين من أن « يعهد الأعضاء إلى مجلس الأمن بالتبعات الرئيسية فى أمر حفظ السلم والأمن الدولى ، ويوافقوا على أن هذا المجلس يعمل نائباً عنهم فى قيامه بواجباته التى تفرضها عليه هذه التبعات » . وكذلك ما أشارت إليه الفقرة الأولى من المادة الخامسة والثلاثين من « تنبيه كل عضو من الأمم المتحدة مجلس الأمن أو الجمعية العامة إلى أى نزاع أو موقف قد يؤدى إلى احتكاك دولى أو قد يثير نزاعاً . » ثم ما نصت عليه المادة الثالثة بعد المئة من

أنه « إذا تعارضت الالتزامات التي يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام هذا الميثاق مع أي التزام دولي آخر يرتبطون به ، فالعبرة بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق . »

وبهذا كله تتكيف العلاقة بين الخلاف المصري البريتاني وهيئة الأمم المتحدة ، وهي علاقة حتمية تفرضها النصوص التي تقضى بالمساواة في السيادة والتنبية إلى المنازعات ، وإنابة مجلس الأمن ، وجبّ التزامات الميثاق لسائر الالتزامات التي تعارضها . ويبرز حتمية هذه العلاقة ما يبدو في مصر من دلائل الجد لمنع الاعتداء على سيادتها ، والبلاد العربية متضامنة مع مصر في موقفها معلنة هذا التضامن في قرار لمجلس جامعة الدول العربية صدر عن اجتماع بلودان .

ونصل الآن إلى مسألة الاختصاص : وأمرها واضح جلي ؛ فقد نصت المادة العاشرة من الميثاق على أن « للجمعية العامة أن تناقش أية مسألة أو أمر يدخل في نطاق هذا الميثاق أو يتصل بسلطات فرع من الفروع المنصوص عليها فيه أو وظائفه » .

والقضية المصرية — على حد تكيف العلاقة بين الخلاف المصري البريتاني وهيئة الأمم المتحدة — أمر يدخل في نطاق الميثاق ؛ إذ فيها مساس بسيادة عضو من أعضاء هذه الهيئة ، وفيها استخدام للقوة ضد سلامة أراضي هذا العضو واستقلاله السياسي على وجه لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة ، كما أن فيها اتصالاً بسلطات فرع من الفروع المنصوص عليها في الميثاق ووظائفه ، وهو فرع مجلس الأمن ، ووظيفته سهره وحده على حفظ السلم والأمن الدولي .

ونصت المادة الحادية عشرة في فقرتها الثانية على أن « للجمعية العامة أن تناقش أية مسألة تكون لها صلة بحفظ السلم والأمن الدولي يرفعها إليها أي عضو من أعضاء الأمم المتحدة » ، كما نصت في فقرتها الثالثة على أن « للجمعية العامة أن تسترعى نظر مجلس الأمن إلى الأحوال التي يحتمل أن تعرض السلم والأمن الدولي للخطر » .

ولا شك أن للقضية المصرية صلة بحفظ السلم والأمن الدولي . وبريتانيا تبني وجهة نظرها إلى مصر على زعم أن لها حق حفظ السلم والأمن الدولي في الشرقين الأدنى والأوسط . ولا شك كذلك أن القضية المصرية من الأحوال التي يحتمل أن تعرض السلم والأمن الدولي للخطر بما قد يترتب على جد المصريين

في دفع الاعتداء على سيادتهم ، وتضامن شعوب البلاد العربية معهم في جدتهم . وكذلك نصت المادة الرابعة عشرة على أن « للجمعية العامة أن توصي باتخاذ التدابير لتسوية أى موقف أيا كان منشؤه تسوية سلمية متى رأت أن هذا الموقف قد يضر بالرفاهية العامة أو يعكس صفو العلاقات الودية بين الأمم ، ويدخل في ذلك المواقف الناشئة عن انتهاك أحكام هذا الميثاق الموضحة لمقاصد الأمم المتحدة ومبادئها » . وقد سبق أن أوضحنا ما في موقف بريطانيا من مصر من انتهاك لأحكام الميثاق ، إذ تعتدى على سيادة دولة هي عضو مثلها في هيئة الأمم المتحدة ، وتتدخل بهذا الاعتداء في شؤونها الداخلية ، وتزعم لنفسها حق حفظ السلم والأمن الدولي ، وحق اعتبار منطقة من دولة مستقلة منطقة استراتيجية .

وأحكام جميع تلك المواد التي ذكرناها ناطقة في وضوح وجلاء باختصاص الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بالنظر في الموقف الذي تقفه بريطانيا العظمى من مصر .

ومن ناحية أخرى فقد نصت المادة الرابعة والثلاثون من الميثاق على أن « لمجلس الأمن أن يفحص أى نزاع أو أى موقف قد يؤدي إلى احتكاك دولي أو يثير نزاعا لكي يقرر أمن شأن استمرار هذا النزاع أو الموقف أن يعرض للخطر حفظ السلم والأمن الدولي » .

ونصت الفقرة الأولى من المادة السابعة والثلاثين على أنه « إذا أخفقت الدول التي يقوم بينها نزاع من النوع المشار إليه في المادة الثالثة والثلاثين في حله بالوسائل المبينة في تلك المادة وجب عليها أن تعرضه على مجلس الأمن » . وهما نصان صريحان ينطقان باختصاص مجلس الأمن فوق اختصاص الجمعية العامة ، بل إن النص الثاني منهما يقضى بوجوب اختصاص مجلس الأمن ، إذ حتم رفع الأمر إليه في حالة إخفاق الأساليب الودية تحتيما .

على أن نظر مجلس الأمن للقضية المصرية الذي تنطق النصوص صريحة باختصاصه به يجب أن يجيء على وجه الاستعجال ؛ إذ أن مصر قد استنفدت وسائل الإجراءات التمهيدية التي كان يصح لمجلس الأمن أن يدعوها إلى اتخاذها وفقاً لأحكام المادة الثالثة والثلاثين من الميثاق ، وهي توجب « على أطراف أى نزاع من شأن استمراره أن يعرض حفظ السلم والأمن الدولي للخطر أن يلتمسوا

حله بآدى ذى بدء بطريق المفاوضة والتحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية ، أو أن يلجأوا إلى التوكيلات والتنظيمات الإقليمية أو غيرها من الوسائل السلمية التى يقع عليها اختيارها . ويدعو مجلس الأمن أطراف النزاع إلى أن يسووا ما بينهم من النزاع بتلك الطرق إذا رأى ضرورة لذلك : «
وقد سايرت مصر بريتانيا العظمى فى التماس حل نزاعهما بطريق المفاوضة . فتبين اتساع الهوة بين الطرفين ، بل صرخ سوء النية من الجانب البريتانى وتجلت استحالة المعالجة ، وهو يزعم أن منطقة قناة السويس أرض بريتانية ، وهو يقرر الجلاء ويعلقه فى الوقت نفسه على شروط يتفنن فى أوضاع ملابساتها تفننا يجعل ذلك الجلاء المقرر مجرد حبر على ورق . وقد قضى هذا الموقف العجيب من الناحية البريتانية على استساغة الالتجاء بالوسائل الأخرى الواردة فى تلك المادة ، وسائل التحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية ، فقد فقدت الثقة بإمكان الإنتاج ، ولم يبق إلا أن يتجه مجلس الأمن حين يرفع إليه النزاع الاتجاه المنطقى الوحيد المنصوص عليه فى الفقرة الثانية من المادة السابعة والثلاثين وهو اتجاه « التوصية بما يراه ملائما من شروط حل النزاع » .
وإذن فيكون مجلس الأمن الدولى مختصا بنظر القضية المصرية وبنظرها على وجه الاستعجال .

أما صميم الموضوع محل العرض على المنظمة الدولية الجديدة ، وهو النزاع الذى سبق أن رسمنا حدوده — والمنازع فيه انجلترا والمنازع مصر — فيرجع إلى أن انجلترا تزعم أن لها فى هذا الركن من العالم حق حفظ السلم والأمن ، وتقول مصر بل إن حفظ السلم والأمن الدولى قد أصبح الآن من اختصاص هيئة الأمم المتحدة مجتمعة دون انفراد دولة مهما عظمت ، وتستند للتدليل على صحة ما تقول إلى نصوص قانونية صريحة واردة فى الميثاق .

فقد ورد فى ديباجة هذا الميثاق على لسان شعوب الأمم المتحدة قولها :

« وأن نضم قوانا كي نحفظ بالسلم والأمن الدولى »
« وألا نستخدم القوة المسلحة فى غير المصلحة المشتركة »

كما جاء فى صدر المادة الأولى من الميثاق : « مقاصد الأمم المتحدة هى :

١ — حفظ السلم والأمن الدولى »

وقد سبق أن ذكرنا نص الفقرة الأولى من المادة السابعة والعشرين التي تقول :

« رغبة في أن يكون العمل الذي تقوم به الأمم المتحدة سريعاً فعالاً ، يعهد أعضاء تلك الهيئة إلى مجلس الأمن بالتبعات الرئيسية في أمر حفظ السلم والأمن الدولي ، ويوافقون على أن هذا المجلس يعمل نائباً عنهم في قيامه بواجباته التي تفرضها عليه هذه التبعات . »

ونضيف الآن نص المادة السادسة والعشرين وهو :

« رغبة في إقامة السلم والأمن الدولي وتوطيدهما بأقل تحويل لموارد العالم الإنسانية والاقتصادية إلى ناحية التسليح ، يكون مجلس الأمن مسئولاً بمساعدة لجنة أركان الحرب المشار إليها في المادة ٤٧ عن وضع خطط تعرض على أعضاء الأمم المتحدة لوضع منهاج لتنظيم التسليح . »

ولا تحتاج هذه النصوص لأي تعليق ، وهي كلها ظاهرة صريحة ناطقة بأن إقامة السلم والأمن الدولي وحفظهما إنما تختص به الأمم المتحدة مجتمعة ويختص بهما مجلس الأمن نيابة عن أعضاء هيئة الأمم المتحدة ، بل إن منهاج تنظيم التسليح في العالم يُسأل عن وضع خطته مجلس الأمن بمساعدة لجنة أركان الحرب التابعة له ، وهي لجنة مؤلفة من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن : المملكة المتحدة ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي ، وفرنسا ، والصين ، بالاشتراك ، لا باستئثار واحدة أو أكثر منهن دون الآخرين .

ولم يكتف الميثاق بتقرير ذلك المبدأ العام الذي يعهد بحفظ السلم للأمم المتحدة ومجلس الأمن بمخاطبة ، بل راح ينظم الوسائل التي يلجأ إليها وتلجأ إليها معه الدول المنضمة إلى هيئة الأمم المتحدة في سبيل حفظ السلم والأمن الدولي . فجاء في المادة الثالثة والأربعين :

« يتعهد جميع أعضاء الأمم المتحدة في سبيل المساهمة في حفظ السلم والأمن الدولي ، أن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن ، بناء على طلبه وطبقاً لاتفاق أو اتفاقات خاصة ، ما يلزم من القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات الضرورية لحفظ السلم والأمن الدولي ومن ذلك حق المرور . »

« ويجب أن يحدد ذلك الاتفاق أو تلك الاتفاقات عدد هذه القوات وأنواعها ومدى استعدادها وأما كنهها عموماً ونوع التسهيلات والمساعدات التي تقدم . »

وجاء في المادة الخامسة والأربعين :

« رغبة في تمكين الأمم المتحدة من اتخاذ التدابير الحربية العاجلة يكون لدى الأعضاء وحدات جوية أهلية يمكن استخدامها فوراً لأعمال القسر الدولية المشتركة . ويحدد مجلس الأمن قوة هذه الوحدات ومدى استعدادها والخطط لأعمالها المشتركة ، وذلك بمساعدة لجنة أركان الحرب ، وفي الحدود الواردة في الاتفاق أو الاتفاقات الخاصة المشار إليها في المادة الثالثة والأربعين . »

وجاء في المادة السادسة والأربعين :

« الخطة اللازمة لاستخدام القوة المسلحة يضعها مجلس الأمن بمساعدة لجنة أركان الحرب . »

وجاء في المادة السابعة والأربعين :

« تشكل لجنة من أركان الحرب تكون مهمتها أن تسدى المشورة والمعونة إلى مجلس الأمن ، وتعاونته في جميع المسائل المتصلة بما يلزمه من حاجات حربية لحفظ السلم والأمن الدولي ، ولاستخدام القوات الموضوعة تحت تصرفه وقيادتها ولتنظيم التسليح ونزع السلاح بالقدر المستطاع »
« ولجنة أركان الحرب (المشكلة من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن) مسئولة تحت إشراف مجلس الأمن عن التوجيه الاستراتيجي لأية قوات مسلحة موضوعة تحت تصرف المجلس . »

وجاء في الفقرة الأولى من المادة الثامنة والأربعين :

« الأعمال اللازمة لتنفيذ قرارات مجلس الأمن لحفظ السلم والأمن الدولي يقوم بها جميع أعضاء الأمم المتحدة أو بعض هؤلاء الأعضاء ، وذلك حسبما يقرره المجلس . »

ونصت المادة التاسعة والأربعون على أن « يتضافر أعضاء الأمم المتحدة على تقديم المعونة المتبادلة لتنفيذ التدابير التي قررها مجلس الأمن . »

وليس أبلغ من ذلك كله في الدلالة على حصر مهمة حفظ السلم في مجلس الأمن وتضامن أعضاء الأمم المتحدة جميعهم في سبيل تنفيذ ما يقرره هذا المجلس في ذلك الصدد .

بل إن المادة الحادية والخمسين التي فتحت الباب لمعاهدات دفاع خاص قد أخضعت هذه المعاهدات لسلطان مجلس الأمن . وقد نصت المادة على أنه :

« ليس في الميثاق ما يرد أو ينتقص الحق الطبيعي للدول ، فرادى أو جماعات ، في الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة ، وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي . ويبلغ المجلس فوراً التدابير التي اتخذها الأعضاء لمباشرة حق الدفاع عن النفس ، ولا تؤثر تلك التدابير بأي حال في سلطة المجلس ومسئوليته المستمدة من أحكام هذا الميثاق ، في أن يتخذ في أى وقت ما يرى ضرورة لاتخاذ من الأعمال لحفظ السلم أو الأمن الدولي أو إعادته إلى نصابه . »

ومعنى هذا أن تلك المعاهدات يجب :

أولاً — أن يكون موضوعها الدفاع عن النفس ، لا الهجوم ولا الدفاع عن الغير .
ثانياً — ألا تكون أحكامها نافذة إلا في حالة الاعتداء الفعلي بقوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة .

ثالثاً — أن يكون تنفيذ أحكامها عند تفاذها موقوتاً إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي .

رابعاً — أن يبلغ المجلس فوراً التدابير التي يتخذها المتعاهدون دفاعاً عن النفس .

خامساً — أن تقرر هيئة الأمم المتحدة أن المعاهدة تتلاءم مع الميثاق . وحتى التنظيمات الإقليمية التي اعترف لها بحق تدبير الحل السلمي للمنازعات المحلية قد أخضعها الميثاق لرقابة مجلس الأمن ؛ إذ نصت المادة الرابعة والخمسون على أنه :

« يجب أن يحاط مجلس الأمن في كل وقت إحاطة تامة بما يجرى من الأعمال أو يزعم القيام به منها بمقتضى تنظيمات إقليمية أو بواسطة توكيلات إقليمية لحفظ السلم والأمن الدولي . »

وهكذا يتداعى الأساس الذى تقيم عليه انجلترا دعواها المريضة فيما يتعلق بحفظ السلم فى الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط .

ثم تزعم انجلترا أن لها حق تنظيم الدفاع عن شريان مواصلاتها الإمبراطورية وأنها فى سبيل ذلك تعتبر منطقة القناة أو مصر كلها منطقة استراتيجية . ولا ينص الميثاق على المناطق الاستراتيجية إلا فى صدد الأقاليم الخاضعة لنظام الوصاية .

وقد نصت المادة الثانية والثمانون على أنه :

« يجوز أن يحدد فى أى اتفاق من اتفاقات الوصاية مساحة استراتيجية قد تشمل الإقليم الذى ينطبق عليه نظام الوصاية بعضه أو كله . »

ونصت المادة الثامنة والسبعون من ناحيتها على أنه :

« لا يطبق نظام الوصاية على الأقاليم التى أصبحت أعضاء فى هيئة « الأمم المتحدة » ، إذ يجب أن تقوم العلاقات بينها على احترام مبدأ المساواة فى السيادة . »

وحتى تلك المساحات الاستراتيجية التى لا يمكن قيامها إلا فى إقليم خاضع لنظام الوصاية يقوم عليها مجلس الأمن بحكم الفقرة الأولى من المادة الثالثة والثمانين التى تقول :

« يباشر مجلس الأمن جميع وظائف الأمم المتحدة المتعلقة بالمناطق الاستراتيجية . »

وإذن فلا سند لانجلترا فى هذا الزعم الثانى الخاص بالمنطقة الاستراتيجية بل إن كل النصوص صارخة بصفاءة القائلين به .

بقى أن انجلترا تذكر أنها ، إذ تحافظ على السلم فى هذا الركن من العالم ، وإذ تقيم فيه بمفردها مناطق استراتيجية ، إنما تعمل ذلك بصفة موقوتة ، لأن « هيئة أركان الحرب التابعة لمجلس الأمن لم يتم تأليفها بعد ، ولم تنظم وسائل محافظتها على الأمن بعد » .

وقد نسيت المجلترا أن الميثاق قد احتاط لهذا الظرف فنص في مادته السادسة بعد المئة على ما يأتى :

« إلى أن تصير الاتفاقات الخاصة المشار إليها في المادة الثالثة والأربعين معمولاً بها على الوجه الذى يرى معه مجلس الأمن أنه أصبح يستطيع البدء فى احتمال مسئولياته وفقاً للمادة الثانية والأربعين ، تتشاور الدول التى اشتركت فى تصريح الدول الأربع الموقع عليه فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٤٣ هى وفرنسا وفقاً لأحكام الفقرة الخامسة من ذلك التصريح ، كما تتشاور الدول الخمس مع أعضاء الأمم المتحدة الآخرين ، كلما اقتضت الحال ، لقيام نيابة عن الهيئة بالأعمال المشتركة التى قد تلزم لحفظ السلم والأمن الدولى . »

ولكن انجلترا لا تعدم — على الرغم من ذلك كله — أن تحتاج مصر بقيام معاهدة ١٩٣٦ التى أغدقت عليها أحكامها العسكرية ما أغدقت مما تريد أن تستمسك به استمساكاً . وتنسى انجلترا هذه المرة أيضاً أن المادة الثالثة بعد المئة من الميثاق قد قضت على هذه المعاهدة وهى لم تشمل إلا التزامات متعارضة التعارض كله مع الالتزامات الجديدة التى يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة . والمادة تقول :

« إذا تعارضت الالتزامات التى يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام هذا الميثاق مع أى التزام دولى آخر يرتبطون به ، فالعبرة بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق . »

وإذن فايست الملابس والنصوص قاضية باختصاص هيئة الأمم المتحدة ، جمعيتها العامة ومجلس الأمن فيها بالنظر فى النزاع المصرى الإنجليزى ، وبنظره على وجه الاستعجال فحسب ، بل إن تلك الأساليب والنصوص لتقضى كذلك بالاطمئنان إلى أن قرار الأمم المتحدة إذا رفع إليها النزاع سيكون حتماً فى صالح مصر .

محمود عزمى

سوانح الخروب

على النيل

ويح نفسي من طائف التذكار
ويح نفسي لدى الأصيل وقد أذ
ويح نفسي وقد جلست على النية
شد ما كان من عبادتنا النية
هو هذا النهر العظيم الذي أسه
قد حرمت الجلوس في شاطئيه
وعلى شطه البعيد مصابيه
تتقرئين في حشاه تعاريه
وتصبيخين للخير يناغيه
لا تملين لو أقمت الليالي
ويح نفسي ، يا ويحها ، ما على الآه
أرفق النهر ، لو يرى النهر ساه
كيف أمست زوجي؟ وفي أي حال؟
ما أراها في جنة الخلد إلا

ساعة الشجر عند موت النهار
كرنيك أنطفاء هذى النار
لوحيداً ، وكنت من قبل جازي
ل كائننا في غابر الأعصار
لاك حباً من سائر الأنهار
وسراج الظلام في الأفق سار
مع تراءت في لجه الموار
ج سطور مهتررة الأنوار
لك بلحن من عالم الأسرار
أبدأ ها هنا بذاك الجوار
مدار لو عشت — ما على الأقدار !
فائب الحس شارد الأفكار
أين صارت بعد امتناع المزمار ؟
عند نيل في جنة الخلد جار

عبد الرحمن صدقي

بين الحرب والجغرافيا

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

أوروبا قارة صغيرة ؛ بل إن كثيراً من الجغرافيين لا ينظرون إليها إلا على أنها شبه جزيرة كبير يمتد من قارة آسيا ويتفرع عنها . وهي فوق ذلك تقع في منطقة متطرفة في أقصى شمال غرب العالم القديم ؛ ولم يبرز شأنها وتتضح قيمتها بين القارات الأخرى إلا منذ عهد النهضة الحديثة . فهي فيما عدا أطرافها الجنوبية في بلاد اليونان وإيطاليا وأسبانيا لم تلعب دوراً يذكر في تاريخ العالم القديم أو الوسيط ؛ بل هي من حيث تاريخها الثقافي العام بقيت عالة على غيرها ، لا سيما بلاد الشرق التي ظهرت فيها الأديان السماوية وألوان الفكر والثقافة القديمة والوسيط ، ثم انتشرت إلى أوروبا . ومع ذلك كله فنذ عهد النهضة الحديثة وظهور الصناعة التي تعتمد على الآلات والقوى المحركة برزت أوروبا فجأة ، وقفزت إلى القمة ، فأصبحت القارة المسيطرة على الشؤون العالمية ، بل القارة الأولى من حيث توجيه حياة العالم في ميادين الحضارة المادية والعلاقات الدولية بين الأمم والشعوب .

وليس هذا مجال الإفاضة في أسباب بروز أوروبا المفاجئ ؛ ولكن يكفي أن ننظر نظرة عامة إلى تطور مدنية الإنسان على سطح الأرض ، فنجد أن المدنات القديمة كانت في جملتها قائمة على أساس الزراعة كما هي الحال في مصر والعراق والصين ، أو على أساس التجارة كما هي الحال في اليونان القديمة . ومع أن الصناعة كانت مزدهرة في تلك الأيام ، فقد كانت كلها تقوم على المهارة الفنية والحذاق الشخصي أكثر مما تقوم على استغلال قوى الطبيعة الآلية . وقد سخر الإنسان بعض تلك القوى الطبيعية في العصور القديمة والوسيط ، كالريج والمياه الجارية ومساقط الماء ؛ ولكنه كان تسخيراً محدوداً يقوم على استغلال القوى في حالتها الطبيعية . أما في عهد النهضة الصناعية الأوروبية ، فقد تعلم الإنسان لأول مرة أن يحول الحرارة إلى طاقة ، وأن يستخدم تلك الطاقة كقوة محركة تدار

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

بها الآلات التي تعمل في الإنتاج أو في النقل والحركة . وقد وضع هذا الاختراع — أو السلسلة من الاختراعات — في يد الإنسان سلاحاً سخر به موارد الطبيعة والقوى الطبيعية على نحو لم يكن ميسوراً من قبل ، وفي نطاق تغير معه كل شيء في الصناعة والإنتاج ، وفي الاتصال والتبادل ؛ بل تغيرت معه أسس الحياة الاقتصادية في ميادين الصناعة والزراعة والتجارة جميعاً ؛ وأصبح هذا العصر الجديد يسمى بحق « عصر الآلات » .

وكان من حظ أوروبا أن كثرت بها موارد القوى ، وأهمها الفحم الحجري ، وكذلك المعادن التي تستعمل في الصناعة ، وعلى رأسها الحديد . وبذلك توافرت العناصر التي تقوم عليها المدنية الصناعية الحديثة ؛ وأصبحت أوروبا بحق أسبق القارات وأولاهها في ميدان الصناعة ؛ وكان ذلك مصدر خير كثير بالنسبة لأهلها ، وإن كان قد أدى إلى انقلاب خطير في حياتهم . ولكن الشيء المهم على كل حال أن النهضة الحديثة قد صحبها ونتج عنها نشاط خطير بين أُمم القارة التي تسابقت في ميادين الصناعة وما يتصل بها ويترتب عليها من توسع استعماري وتكالب من أجل مناطق إنتاج المواد الخام التي تغذي المصانع بما لا تنتجه أوروبا ، ومن أجل أسواق التجارة التي تصرف فيها المصنوعات . وهكذا اتسعت رقعة الاختلاف ، ولم تقتصر على أرض أوروبا ، وإنما تعدتها إلى ما وراء البحار ؛ وانهى ذلك إلى أن أصبح لعدد من أُمم أوروبا مصالح مادية فيما صار يعرف بالمستعمرات ومناطق النفوذ . وقد بدأت تلك المصالح في كثير من الأحيان تجارية واقتصادية خالصة ، ثم صارت بالتدريج سياسية وعسكرية . وهكذا تشابكت المصالح ، وتعددت أسبابها بين المناطق المعتدلة الباردة في أوروبا والمناطق الحارة والدفئة بل والمعتدلة في غيرها من القارات ، واشتد اتصال تلك المصالح بحياة أوروبا ومشكلاتها الدولية على مر الزمن ؛ حتى إذا ما بلغ التسابق من أجل التوسع الاستعماري الأوروبي ذروته في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ، كان ذلك نذيراً بما انتهى إليه الأمر في الحرب العالمية التي بدأت عام ١٩١٤ ، والتي نستطيع أن نقول إن العالم لا يزال في أعقابها حتى اليوم .

والحق أن أوروبا بنهضتها الصناعية ، ومواردها الغنية في الإنتاج الآلي ، ومصالحها المادية المتشابكة في أقصى الأرض ، وأطماعها الاستعمارية فيما وراء البحار ، ثم برغبتها الملحة في إشباع هذه الأطماع ، وإضافة ثروة العالم إلى ثروتها

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

واستكمال مواردها من موارده . . . كل ذلك قد جعل أوروبا المسئولة الأولى والأخيرة عن هذه الحرب التي استعمر لهيبتها فشمّل العالم ، والتي اضطربت نيرانها وامتدت ألسنتها في نترتين ، إحداهما ما بين عامي ١٩١٤ ، ١٩١٨ والأخرى ما بين ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ . وقد شبهناها في مقال سابق* بالجوئتين في عراق واحد غنييف ؛ لم تكن أولاهما حاسمة ، في حين قضت الثانية على أحد الخصمين قضاءً يبدو كأن لا قيام له من بعده إلى سنوات عدة قادمة .

وقد عالجنا في المقال السابق خطط تلك الحرب وآثارها وتتايجها في إقليم من العالم يهمنا بصفة خاصة ، هو الشرق الأوسط ، الذي يربط إلى حد كبير ما بين أوروبا ومصالحها الاستعمارية في الشرق وحول البحار الدفيئة في الجنوب . ويعيننا الآن أن نعالج دوافع تلك الحرب واتجاهاتها في أوروبا ذاتها . . . تلك القارة الصغيرة التي ساهمت بمواردها الطبيعية ونشاط سكانها في تقدم المدنية المادية الحديثة مساهمة فعالة ، جعلت لها ولأهلها المكانة الأولى بين القارات وبين الأمم ، ولكنها مع ذلك كانت — ويغلب على الظن أنها ستبقى إلى جيلين أو أجيال أخرى قادمة — مصدر بلاء وحروب عالمية تكتوى بنيرانها الإنسانية حتى في أبعد البلاد عن أوروبا ، بل وفي الجزر النائية التي لا يكاد أهلها يعرفون عن أوروبا أكثر من أنها موطن ذلك الرجل الأبيض ، الذي هبط عليهم من حيث لا يشعرون ، والذي أقحم نفسه في شئونهم وحياتهم من حيث لم يدعه أحد . ولكننا قبل أن نستعرض مختلف أجزاء تلك القارة وأممها المحاربة وميادينها العسكرية ، ينبغي من الناحية الجغرافية والبشرية العامة أن نميز بين جنوب القارة وشمالها . ففي الجنوب يسود مناخ البحر الأبيض المتوسط ، وهو مناخ معتدل منتظم يمكن التنبؤ بتقلباته في غير كثير من العناء . ولا يفرض هذا النوع من المناخ على من يعيشون فيه أن يكونوا مكافئين بطبيعتهم ؛ إذ هم يستطيعون مثلاً أن يقضوا معظم أشهر الصيف في العراق ، وهم يستطيعون بقليل من الجهد أن يتقوا برد الشتاء وأمطاره المتوسطة أو القليلة ، كما أن أشعة الشمس ودفع الهواء ورقته وجفافه تبعث كلها فيهم روح المرح وشيئا من روح الاسترخاف بالحياة . فأما شمال القارة وشمالها الغربي فمناخه بارد مطير

دوافع الحرب واهدافها في أوروبا

كثير القلب ، تتنازعه مؤثرات المحيط الماطفة ، ومؤثرات القارة المتطرفة . وقد ترتب على ذلك ، وعلى كثرة الزواجر والأعاصير بصفة خاصة ، أن أصبح ذلك المناخ قاسياً غير معتدل ولا مضمون ؛ فهو كثير التقلبات من يوم إلى يوم ، بل من ساعة إلى أخرى . وقد علم ذلك المناخ سكان الإقليم الحذر وبعد النظر ، كما علمهم الكفاح من أجل الحياة ؛ إذ لا يمكن أحداً أن يعيش في العراء ، ولا أن يتقن أخطار الطقس وتقلبات الجو من غير مسكن صالح متين البناء ، ومن غير ملابس وغذاء كافيين ، في ذلك المناخ الشمالي الذي لا يعرف حياة الكفاف ولا يسمح بها . لذلك استلزم قيام المدنية في هذا القسم من أوروبا أن تتعلم الشعوب هناك الكفاح والنضال ضد الطبيعة القاسية . وقد انعكس ذلك في حياتهم وفي حروبهم بصفة خاصة . ولعل ذلك يتضح لنا في صورة جليلة إذا ما نحن قارنا ما حدث خلال هذه الحرب المنتهية في حالة العناصر اللاتينية من جهة ، والعناصر الانجلو جرمانية والصقلبية الشمالية وغيرها من سكان شمال أوروبا من جهة أخرى . فقد كان كفاح الأولى على الجملة فاتراً في روحه محدوداً في مداه ، وتمثل ذلك بصفة خاصة في حالة الإيطاليين ، على حين صابر أهل الشمال وجاهدوا حتى النهاية المرة . ولو أن البريطانيين مثلاً كانوا من عنصر اللاتينيين وعجيتهم ما كابروا في ساعة المحنة الكبرى ، عند مارق حبل الأمل حتى كادت شعرته تنقطع . كذلك لولا روح المغامرة وطبيعة الكفاح ما وقفت فنلندة في وجه روسيا مرتين في هذه الحرب ، وما ثابرت وصابرت حتى النهاية أو ما يقارب النهاية . بل لولا هذه الروح وتلك الطبيعة ذاتها ما كابروا أهل بولندة وضخوا إلى آخر رفق ، ولما ثبت الروس أنفسهم في كفاحهم الطويل ضد خصمهم المكافح وعدوهم الجبار العنيد .

وإذا نحن تتبعنا أثر العوامل الجغرافية في مختلف أقطار أوروبا وشعوبها ، لاسيما تلك التي كان لها دور خاص في هذه الحرب ، فإننا نجد في هذه الدراسة ما يعين على تفهم كثير من أحداث الحرب واتجاهاتها الكبرى ، تفهما صحيحاً ، تبرز به علاقة الحرب بالميدان الذي تجري فيه ، كما يبرز الدور الذي قام به كل شعب من الشعوب المحاربة الكبرى ، ومقدرته على النضال والمصابرة في الكفاح . وقد يكون من المفيد أن نختار أمثلة من مختلف الأقطار والأمم ، حتى نخرج بصورة عامة تمثل القارة في مجموعها تمثيلاً صادقاً وشاملاً في الوقت نفسه .

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

ويمحسّن أن نبدأ بالجزر البريطانية وسكانها ، لا شىء إلا لأن هذه الجزر الصغيرة قامت بدور أساسى وخطير في الحرب . وهى إنما كتب لها أن تقوم بما قامت به في تاريخ أوروبا الحديث ، وفي رصلات القارة بالعالم الخارجى ؛ لتوافر عدد من العوامل الجغرافية مكنت لبريطانيا من أن تلعب ذلك الدور الممتاز . فهى جزيرة أو جزر غنية بثروتها المعدنية لاسيما الفحم الذى قامت على أساسه نهضتها الصناعية ، ويفصلها عن القارة بحر الشمال وبحر المانش ومياههما الضيقة التى لم « تقطع » صلة بريطانيا بالقارة ، وإنما « نظمت » تلك الصلة ، وظهر هذا التنظيم في نواح متعددة ؛ منها أن بريطانيا عندما أُعمرت بالسكان من القارة لم يهاجر إليها كل من هب ودب ، وإنما كانت موجات الهجرات تأتى من الشرق أو من الجنوب الشرقى إلى شواطئ القارة في مقابلة الجزر البريطانية ، فلا يفكر في استمرار المهاجرة بالبحر إلا العناصر المخاطرة ، لاسيما أن الملاحة في مضائق المانش لم تكن سهلة على مدار العام ، وإنما زاد من صعوباتها شدة التيارات البحرية ووجود الأعاصير الشتوية . ولذلك كان البحر للهجرات البشرية بمثابة المصفاة ؛ فلم يصل بريطانيا على الجملة إلا العناصر التى لم يغلبها البحر ولم يحل بينها وبين أن تستكشف ما وراءه ، فتركت القارة إلى الجزر التى يحيط بها البحر من كل جانب . وهكذا وصلت هذه الجزر موجات متتابة من السكتيين القدماء والنرمانديين والأنجلوسكسونيين والنورس وغيرهم من مخاطرى البحار الذين تجمعوا في تلك الجزر وأخذ بعضهم يخاطب بعضاً ، حتى تألف منهم هذا العنصر البريطانى المختلط والمنوع ، في إنجلترا وبلاد الغال وأسكتلندة وإيرلندة وما يقع بين الجزيرتين الكبيرتين وخولهما من جزر صغيرة . وكما كانت طبيعة هذا العنصر وحبه للمخاطرة عاملاً فعالاً في تاريخه الحديث ، عندما حانت الفرصة للتوسع والاستعمار فيما وراء البحار ، فانطلقت ذرية أولئك المخاطرين القدماء إلى أقاصى الأرض في أميركا وأستراليا وجنوب إفريقيا وغيرها على نحو لم يسبق له مثيل في تاريخ انتشار الشعوب . كذلك كان اختلاط السلالات في بريطانيا عاملاً من عوامل القوة في المجتمع البريطانى ؛ إذ أنه أدى إلى تنوع الملكات ونواحي الاستعداد الفطرى ، فتشعب نشاط سكان بريطانيا في الصناعة والتجارة والحرب وغيرها من ميادين العمل والإنتاج والكفاح .

كذلك كانت الجزر البريطانية مدرسة بحرية تعلم فيها السكان حياة البحر

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

خلال أجيال طويلة متعاقبة . فلما جاء العهد الحديث ، وبرزت أهمية البحار في المواصلات العالمية، صارت بريطانيا سيدة هذه البحار وصاحبة الأسطول الأول في التجارة والحرب على السواء . بدأت بهزيمة أساطيل الأسبان وغيرهم من العناصر البحرية الأوروبية ، ثم تحكمت في المواصلات البحرية بين أوروبا وأمريكا بحكم موقعها الجغرافي بين الاثنتين من جهة ، ومقدرة ملاحيتها وتجارها من جهة أخرى . ثم صارت بعد ذلك القوة البحرية الأولى غير منازعة ، حتى أخذت عنها أمريكا زعامة البحار وسيادتها بالتدريج خلال الجيل الأخير ، ولأسباب تتصل بموارد الولايات المتحدة وكندا في المادة وعدد السكان ، أكثر مما تتصل بضعف بريطانيا أو انحلال قواتها البحرية .

وفوق ذلك فقد نظم البحر الذي يقوم بين بريطانيا واليابس الأوروبي علاقات تلك الجزر بأوروبا من ناحية الحرب ذاتها ، فجعل غزو تلك الجزر صعباً . ولذلك لا يذكر التاريخ إلا عدداً قليلاً من الغزوات إلى بريطانيا في العصور القديمة والوسيطة ؛ منها غزوة يوليوس قيصر عامى ٥٥ ، ٥٤ ق . م ، وغزوة وليم الفاتح عام ١٠٦٦ م . كذلك شاركت بريطانيا في العصر الحديث في مشكلات القارة وحروبها الكثيرة ، ولكن الحرب كانت تقع دائماً خارج أراضيها ؛ فهي تلقى أعداءها إما على البحار وإما فوق أراضي القارة في الأراضي الوطيدة وفرنسا وأسبانيا وغيرها . فأرضها لم تكن في يوم من الأيام ميدان حرب أوروبية ؛ لذلك لم يصيبها ما يصيب تلك الميادين من دمار وتخريب . حتى في هذه الحرب التي انتهت منذ عام لم يكن ما أصاب بريطانيا من جراء تغير الأحوال وظهور أثر الهجوم الجوى في الحرب إلا جزءاً يسيراً مما أصاب أرض القارة ومدنها ومواصلاتها ومرافقها المختلفة في الحياة المدنية . وهكذا استطاعت بريطانيا بفضل هذه الميزة أن تخرج من كل حرب سليمة المرافق ، قادرة على متابعة حياتها العادية وإنتاجها الاقتصادي ؛ على عكس غيرها من الأمم والأقطار التي اكتوت مدنها وقراها ومصانعها بل حقولها بنيران الحرب في الميدان ، فكانت بريطانيا بذلك أسبق إلى النهوض في السلم ؛ لأنها كانت تخرج في أعقاب الحروب — فيما عدا هذه الحرب الأخيرة — دون أن تمس أرضها بشيء .

إلى هذه الأسباب جميعاً يمكن أن نرجع ما أصاب بريطانيا في تاريخها الحديث من نجاح وتوفيق في حروبها الأوروبية ؛ لا سيما أن عامل الزمن كان إلى

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

جانبا ، فهي قد سبقت غيرها من أمم أوروبا الكبرى في التوسع الاستعماري ، وهي قد استطاعت أن تبني إمبراطوريتها المترامية الأطراف قبل أن تظهر بعض الأمم الأوروبية الكبرى إلى الوجود ، وقبل أن تبرز حاجاتها وأطماعها الاستعمارية . وقد ترتب على هذه الأسبقية في الميدان الاستعماري أن تجمع لبريطانيا من الموارد المادية والمواقع العسكرية العالمية ما كان لها عوناً وسنداً في السلم والحرب على السواء . ثم إنها بتوسعها هذا في آفاق الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، قد قطعت الطريق على غيرها من أمم أوروبا ، التي طلع عليها العهد الحديث بمواصلاته السريعة وعلاقاته الدولية المعقدة ومقتضياته الاقتصادية الملحة ، فألفاها - أو ألغى كثيراً منها - محصوراً داخل نطاق من الحدود السياسية التي لا تسمح بالتوسع إلا على حساب الأمم المجاورة ، وإلا في مدى ضيق تراق من دونه دماء الألوف بل دماء الملايين . . . فأرض أوروبا التي تقاس بالشبر ليست نهباً رخيصاً كما هي الحال في أرض المستعمرات !

ولعل أظهر مثال لهذه الدول الأوروبية التي جاءت متأخرة في نشأتها القومية وتوسعها هي ألمانيا ، التي لم تستكمل وحدتها إلا أيام بسمرك . وقد دخلت بعد ذلك ميدان الاستعمار ، فنالت بعض الأراضي في شرق إفريقيا وغربها وبعض جزر المحيط الهادي ، ولكنها لم تكن لتناظر بذلك ما سبقتها إليه دول أوروبا الغربية ، حتى الدول الصغيرة مثل هولندا والبرتغال ، التي وصلت الميدان مبكرة واحتفظت بما وضعت أيديها عليه من غنائم رخيصة . أما ألمانيا مع قوتها في الموارد وتعدادها في الرجال فقد جاءت متأخرة ، واضطرت من أجل ذلك إلى أن تناضل في توسيع مجالها الحيوي في أوروبا ذاتها ، وكان عليها ، منذ أن حددت علاقاتها السياسية بالنمسا ، واتخذت كيانها السياسي البروسي المستقل ، أن تبذل جهد المستبث لتدفع حدودها السياسية ومناطق نفوذها الاقتصادي ناحية الغرب أو ناحية الشرق . فأما في الغرب فقد كان التوسع عسيراً ، فدول أوروبا الغربية قد سبقت ألمانيا ذاتها إلى الاستقرار السياسي ، وإلى شيء كثير من التقدم الاقتصادي الذي لا يفيد معه أن تحاول ألمانيا السيطرة على مرافقها الحيوية . وأما في الشرق فقد كان الميدان مفتوحاً أمام ألمانيا في اتجاهات ثلاثة : الأول ناحية روسيا الشرقية وسواحل البلطى حيث كان الفرسان التيوتون قد توسعوا من قبل ووطدوا نفوذهم الاقتصادي ، فامتلكوا المساحات الواسعة

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

من الأراضي وسحقوا السكان الأصليين مأجورين في تلك المزارع التي تذكرنا الحالة فيها بجهد الإقطاع. والاتجاه الثاني في ناحية بولندة والروسيا ؛ وقد استقر الألمان المتزايدون في العدد في كثير من بقاع بولندة الغربية ، كما أن جماعات منهم رحلت إلى قلب الروسيا القديمة وجنوبها ، واستقرت هناك تعمل في الصناعة وغيرها من نواحي الإنتاج . ثم الاتجاه الثالث ناحية بوهيميا وبعض أراضي النمسا والمجر القديمة في اتجاه البلقان . ومن الممكن اعتبار توسع الألمان في هذه الاتجاهات الثلاثة جميعاً استعماراً بالمعنى الفعلي للكلمة ، وإن لم يطلق عليه ذلك اللفظ تمييزاً له من حركة الاستعمار المعروفة في خارج القارة الأوروبية .

وهكذا حاولت ألمانيا أن تستفيد من موقعها الجغرافي في قلب القارة الأوروبية ، ومن احتكاكها الاقتصادي والسياسي بالدول المجاورة ، لا سيما في الشرق والجنوب . ولكنها عندما عمدت إلى التوسع المسلح وجدت نفسها مضطرة إلى أن تحارب في أكثر من جبهة واحدة ؛ ففي الغرب كانت أمم قديمة ذات مقدرة تقليدية على الدفاع ، ولا يمكن قهرها بصفة دائمة ؛ وفي الشرق والجنوب كانت بلاد فسيحة وجبهات لا تحدها معالم واضحة ، وإعمر هي ذات شعب كثيرة تستنفذ الجهود ، ولا يسهل معها التركيز في الهجوم ، ولا حتى في الدفاع . فأما الروسيا ، وهي ثلاثة الدول الكبرى في النضال الأوروبي الأخير ، فكانت تحتل شرق أوروبا ، وتمتد وراء ذلك في آسيا . والروس كثرتهم من الصقالبة ، الذين امتازوا في كل تاريخهم بأنهم شعب برى لا يحب البحار ولا يسعى إليها إلا مكرهاً ، قد تحاشى عبء ما انتشر وعمر شرق القارة أن يقرب البحار ، ولم يحاول التسلط على المنافذ البحرية إلا متأخراً . فالصقالبة الجنوبيون في يوجوسلافيا مثلاً قد تجنبوا ساحل دلماشيا القديم وموانئه التي احتلها الطليان ، مثل تريستا وغيرها . والصقالبة الشماليون قد ابتعدوا عن سواحل البحر البلطي التي تقدم إليها التيوتون والفنشيون وغيرهم من سكان الولايات البلطية . والروس الجنوبيون وإن كانوا قد أطلوا على البحر الأسود ، فهم لم يشتغلوا فيه كثيراً بالملاحة ، ولم توفق جهودهم التاريخية في أن يضعوا أيديهم على منافذه إلى البحر المتوسط . لذلك كله فإن هؤلاء الصقالبة لم يشاركوا بشيء يذكر في توسع أوروبا البحرية نحو المستعمرات ، ولم ينشأ بينهم وبين أمم أوروبا الغربية ذات الصبغة البحرية من الاحتكاك مثل ما نشأ بين هؤلاء الآخرين

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

وبين الألمان . . . ذلك الاحتكاك الذي ترتب على محاولة ألمانيا تقوية أسطولها وتمكين مصالحها فيما وراء البحار ، مما انتهى إلى الحرب بينها وبين بريطانيا آخر الأمر .

على أن مجال التوسع البري كان مفتوحاً أمام روسيا نحو الشرق . وقد بدأت بمد سكة حديد سيبيريا المعروفة ، ثم انتشر القوزاق وغيرهم واستعمروا سهول سيبيريا وآسيا الداخلية ، حتى وصل الروس إلى منشوريا والولايات البحرية المطلة على المحيط الهادى حيث احتكوا باليابان في مطلع القرن . وكذلك حاولت روسيا أن تتوسع بالبر نحو الجنوب الشرقى إلى أرض إيران ، وفي اتجاه أفغانستان والهند ، حيث اصطدمت بالنفوذ البريطانى اصطداماً لم يُلطف من حدته إلا اتفاق عام ١٩٠٧ على تقسيم مناطق النفوذ في إيران .

وأما فرنسا ، وهى رابعة الأمم الكبرى في أوروبا ، فتقع عند الطرف الآخر من اليابس الأوربى من ناحية الغرب ، حيث تنتهى الطرق الآتية من البحر المتوسط ذى المدنية العريقة والحياة المستقرة القديمة ، وتلك الآتية من قلب القارة الذى لم تنفذ إليه المدنية إلا حديثاً ، والذى لم يكد يستقر بالحياة حتى فاجأته النهضة ، وما جاء فى أعقابها من اضطرابات وحروب وقلقلة فى الحدود السياسية والعسكرية بين الأمم . وتنتهى تلك الطرق جميعاً إلى الشواطىء المواجهة لبريطانيا التى تتحكم فى المداخل البحرية إلى اليابس الأوربى ، وفى صلات أوروبا بما وراء البحار . وقد ساهمت فرنسا فى وقت متقدم فى حركة التوسع الأوربى إلى المستعمرات ، وحاولت فى ذلك أن تنافس بريطانيا حيناً ، وأن تجاريها حيناً آخر ، ولكنها لم تفز من توسعها إلا بنصيب أقل كثيراً من نصيب سيدة البحار . ذلك أن فرنسا كانت ، بحكم موقعها الجغرافى بين القارة والبحر ، تتجاذبها سياسة الاستعمار من جهة ، وسياسة المشاحنات القارية والارتباطات الدولية الأوربية من جهة أخرى . وهى فوق ذلك كانت بحكم موقعها الجغرافى أيضاً ميدان حرب سعت إليه جيوش الأعداء والحلفاء على السواء ، من الشرق أو من الغرب أو من وراء البحار . وتمثل ذلك على الخصوص عندما بدأ الطموح يدفع بالعنصر الجرمانى إلى التوسع نحو الغرب ونحو البحار ، فاصطدم أولاً بفرنسا ذاتها اصطداماً ناجحاً فى عام ١٨٧٠ ، ثم بفرنسا وبريطانيا معاً اصطداماً غير ناجح فى الحرب العالمية الأخيرة بجولتها فى أعوام ١٩١٤ - ١٩١٨ ثم ١٩٣٩

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

— ١٩٤٥ . ولعل الطريف في هذا الصدام الأخير بشقيه أن فرنسا ناءت منه بالجل الأكبر من حيث التخريب ؛ فكانت أرضها ميدان قتال عنيف خلال سنوات طويلة ، عند ما اكتسحتها جيوش الألمان في حروبها الخاطفة وغير الخاطفة ضد الحلفاء ، وعند ما اتخذتها بريطانيا وحلفاء الغرب ميداناً يقاتلون فيه أعداءهم على القارة ، وينفذون منه إلى الأراضي الوطيئة وغرب ألمانيا من جهة ، وإلى حدود إيطاليا وشمالها من جهة أخرى .

تلك أهم أمم أوروبا ، والعوامل الجغرافية والبشرية التي كيفت توسعها الحديث ، ووجهته توجيهاً كان له أبعد الأثر فيما قام في تلك القارة من مشكلات خلال النصف الثاني من القرن المنصرم ، وهذا القرن الذي نعيش فيه . ولكن هناك أمماً أخرى أثرت فيها عوامل مماثلة أو مختلفة ؛ منها الأراضي الوطيئة التي كانت على الدوام حلقة الاتصال بين ألمانيا من جهة ، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى . فكانت طريق التوسع العسكري من جانب ألمانيا ، وجرت على أراضيها ، لاسيما سهل الفلاندر ، معارك تاريخية متكررة ؛ ولذا استمسكت بريطانيا باستقلالها ، ونادى بعض البريطانيين بأن حدود بلادهم العسكرية إنما تقع على ضفاف الرين .

وغير الأراضي الوطيئة هناك بلاد البلقان ، التي تتعقد فيها الطبيعة وتتعدد تبعاً لذلك حياة السكان وأحوالهم ، بحيث أصبح شبه الجزيرة يعرف بمتحف الأجناس والثقافات في أوروبا . فهناك تختلط السلالات ولا يمتزج بعضها ببعض ، وتتكاثر الثقافات ولا يتسق بعضها مع بعض . وهناك تتشابك الحدود السياسية فلا تتمشى مع حدود الطبيعة ، ولا حدود الجنس ، ولا حدود الثقافة ، ولا حدود المصالح الاقتصادية . وهناك تتنازع تيارات النفوذ الدولي ، فتسعى كل من ألمانيا والروسيا وإيطاليا وحتى دول الغرب لأن تكون لها يد وتوجيه في شئون البلقان . ولذلك كله كان هذا الركن من أوروبا موطن اضطراب دائم ومصدر مشاحنات ومنازعات ، كثيراً ما انتهت إلى إشعال الحرب بين الأمم الكبيرة . أما إيطاليا فكانت تمثل دولة حديثة ، بل آخر الدول الحديثة ظهوراً في الميدان الأوروبي . وكانت بحكم موقعها الجغرافي ذات أهمية خاصة في كل كفاح ينشأ على القارة ، ويعتمد إلى حوض البحر المتوسط . وقد جاء دورها في الاستعمار الخارجي متأخراً ، فلم تصب إلا ما تبقى وزهد فيه الآخرون . ولكنها في العهد الفاشستي انتهزت بعض الفرص فوضعت يدها على الحبشة ، وأحيت آمالها في

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

التوسع نحو البلقان ، بل سرى الخيال بساتها وقادتها إلى أن يفكروا في استعادة مجدها الروماني القديم . ومع ذلك كله فإن إيطاليا على الجملة لم تكن موفقة فيما ساهمت فيه من حروب حديشة على أرض القارة . وربما كان مرجع ذلك ، أو أحد مراجعه ، أنها حاولت أكثر مما تستطيع ، فحشرت نفسها بين جبابرة الحرب حشراً ، وكانت في ذلك كالمهر يحكى الأسد . وقد ينفعنا في هذا الصدد أن نلاحظ نقطة ضعف خطيرة في تكوين هذه الدولة القومية ؛ فهناك فارق كبير بين شمال إيطاليا حيث الثروة الزراعية والصناعية ، وحيث مستوى المعيشة والثقافة لا يكاد يفرق عنه في بقية أجزاء أوروبا الغربية ، وبين جنوبها حيث الجفاف والفقر والمرض ، وحيث ينحط مستوى المعيشة إلى حد لا تعادله إلا حال أفقر أجزاء القارة . وقد أدى التفاوت بين الشمال والجنوب في هذه الدولة الناشئة إلى عدم الاتساق والتكافؤ بين شطرى الوطن الواحد ، بل بين شطرى الشعب الواحد . وكان ذلك عامل ضعف خطير كامن في كيان إيطاليا والأمة الإيطالية ؛ لعله أن يكون — إلى جانب فقر البلاد العام من حيث مقومات الحياة الصناعية الناهضة — مصدر ما انتهى إليه الأمر ساعة المحنة من تصدع وتفكك وانحلال .

من هذه الأمم جميعاً وغيرها من الأمم الصغيرة والمتوسطة تألفت قارة أوروبا ، فجاءت قارة معقدة التركيب متنافرة التكوين من النواحي الطبيعية والبشرية على حد سواء ؛ فلا هي مؤلفة من أمم متميزة ، لكل منها توجيهها الجغرافي ، وطابعها الثقافي والحضاري الذي تختلف به عن بقية الأمم ؛ كما هي الحال في آسيا حيث الصين والهند وجنوب غرب القارة (العالم العربي) ، وهي كلها مناطق لكل منها حياتها وحضارتها وتاريخها واتجاهاتها العامة ؛ أو كما هي الحال في أمريكا الشمالية حيث الولايات المتحدة وكندا من جهة والمكسيك من جهة أخرى . ولا هي مؤلفة من عدد من الأمم المتجاورة التي يسود بينها نوع من الرباط الثقافي والوحدة الفكرية ، وإن خالفت بينها الحدود والفوارق السياسية ، كما هي الحال في أمريكا اللاتينية . وإنما هي قارة تراجعت فيها القوميات ، وتنافرت الأهداف السياسية ، وتداخلت الحدود تداخلاً يندر معه أن يتمشى حد سياسي لإحدى الدول مع حدها الطبيعي العسكري ، أو مع حدها الجنسي أو الاقتصادي .

وزاد من التشاحن وحدته أن التقدم الحديث قد صاحبه أمران متنافران أشد التنافر تربيت عليهما نتائج متعارضة أشد التعارض : أحدهما نمو روح القومية

دوافع الحرب واهدافها في أوروبا

الضيقة التي تقوم على أساس الجنس حيناً ، وعلى أساس الرباط التاريخي أو السياسي حيناً آخر ، والتي تدفع الأمم الناشئة إلى الانانية والآثرة ، وإلى أن تنطوى على نفسها ، ولا ترعى إلا مصالحها الخاصة بصرف النظر عن مقتضيات الجوار أو حتى عن بعض المقتضيات الإنسانية التي تهذب مراعاتها من نفوس الأمم كما تهذب من نفوس الأفراد . وثانيهما ذلك التقدم المادي وما صحبه من نمو في وسائل المواصلات ، وازدياد مدهش في سرعتها أدى إلى تشابك الأقطار وتداخل المصالح ؛ بحيث أصبح من غير الممكن لامة أن تعيش داخل حدودها أو أن تنطوى على نفسها ، لا سيما تلك الأمم التي تقوم في داخلية قارة كأوروبا . والظاهر أن هذا التناقض والتنازع بين المصالح القومية والمصالح الدولية كان أكبر مما تستطيع النفس البشرية في أوروبا أن تتغلب عليه ؛ خصوصاً أن أوروبا ، بل الأوروبيين الشماليين كما نعرفهم ، كانوا ولا يزالون مجذبين فيما يتصل بكثير من القيم الإنسانية الصحيحة ، وما تقتضيه من تهذيب للنفس ورياضة للروح ؛ فقد قفزت بهم المدنية المادية الحديثة إلى القمة في بضعة قرون قليلة ، ووضعت في أيديهم سلاحاً من المادة والعلم والمعرفة بأسرار الطبيعة لم يكونوا مؤهلين لأن يتحكموا فيه ، ولا أن يوجهوه الوجهة الإنسانية الخيرة . وكان مثلهم في ذلك كمثل الصبي ، وضع في يده سلاح خطير لا يدرك قيمته ولا يحسن استعماله ولا توجيهه وجهة الخير والحق . ولذلك فهم قد سَخَرُوا العلم في التدمير والتخريب كما سَخَرُوهُ في البناء والتعمير سواء بسواء . . . ولعل السر الأول في ذلك أن التقدم المادي في الحضارة الأوروبية الحديثة لم يكن له ما يناظره من ناحية الروح . فأوروبا ذات المدنية المادية المزدهرة لم تطلع علينا في عصرها الذهبي بوحى ديني جديد أو حتى بفلسفة إنسانية من ذلك النوع الذي يلهم الأرواح ويهدي النفوس ، بل يحد من ظغيان المادة ، ويعاون على التحكم فيها بوازع من دين ، أو رادع من عقل أو من ضمير .

ومهما يكن من شيء ، فقد كانت النتيجة أن دخلت هذه القارة في حروب متصلة منذ طلع فجر نهضتها الصناعية الحديثة . وكانت هذه الحروب من نوعين ظاهرين ، وإن لم يتيسر دائماً فصل أحدهما عن الآخر : أولهما يتصل بتلك الحدود السياسية التي تفصل بين أمم القارة ، والتي قلل من قيمتها ما كان من تقدم في المواصلات ، وزيادة في الاحتكاك والاتصال ، وتشابك في المصالح بين

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

الشعوب . ولم تستقر حدود أية دولة من دول أوروبا الحديثة أكثر من جيل أو بعض جيل . وقد تتابعت الحروب سريعة في معظم أنحاء القارة ، وترتب عليها ظهور دول واختفاء أخرى أو اندماج بعضها في بعض . وأغلب الظن أن هذا النوع من الحروب التي تقوم من أجل تعديل الحدود بين دول أوروبا لن ينتهي أمره قبل أجيال ، وأن أوروبا لن تخلص منه حتى يجيء اليوم الذي يدرك فيه أهلها أن الحروب السياسية في مثل هذه القارة التي تضيق بالسكان لا يجب أن تقوم عقبة في سبيل تحقيق الاتحادات الاقتصادية التي تقضى بها طبيعة الأشياء ، وتحتّمها مقتضيات الحياة المادية المعقدة في هذا الركن المضطرب من العالم . وأما النوع الآخر من الحروب التي انتابت أوروبا في عهدها الحديث فذلك الذي يتصل بالتوسع الاستعماري فيما وراء البحار ، والسيطرة على تجارة العالم والتحكم في علاقات الأمم بعضها ببعض ، لاسيما علاقات أوروبا بغيرها من القارات . وقد تمثّل هذا النوع بصورة واضحة فيما كان من نزاع بين الجرمان والبريطانيين خلال الأربعين سنة الأخيرة أو أزيد من ذلك . فقد ضاق مجال الحياة والنشاط بالألمان في وسط القارة ، فوطدوا النية على انتزاع السيطرة العالمية من بريطانيا ، أو مشاركتها فيها على الأقل ، وأخذوا في بناء قوتهم البحرية استعداداً لذلك . ولكن بريطانيا لم تكن من الغفلة بحيث تترك الأمور تسير إلى غير مضيرها المرسوم ، فقابلت خطة ألمانيا بمثلها ، حتى إذا ما جاءت الحرب كانت الظروف مواتية لبريطانيا من ناحية القوة البحرية على الأقل ، وانتهى الصراع المروع الذي بدأ في عام ١٩١٤ بهدنة موقوتة في عام ١٩١٨ ثم بنصر أكيد في عام ١٩٤٥ . وبدأت بريطانيا وكأنها قد احتفظت وحلفاءها الناطقين بالإنجليزية في أمريكا بسيادة البحار والسيطرة على علاقات أوروبا بالمستعمرات فيما وراء البحار . ومع ذلك فمن يدرينا ! فقد تكون هذه الحرب التي انتهت منذ عام خاتمة دور من أدوار التاريخ الأوروبي بين الجرمان والبريطانيين من أجل السيطرة العالمية ، وفاتحة دور جديد بين الصقالبة والناطقين بالإنجليزية في بريطانيا وأمريكا ! لقد استغرق الدور الأول أربعين عاماً أو تزيد بين استعداد للحرب ونضال مسلح دام زهاء عشرة أعوام في الجولتين ، بل لقد انقلب هذا النضال بجولتيه إلى حرب عالمية مروعة شارك فيها أكثر من ٩٠ ٪ من سكان العالم ، وقضى فيها أو بسببها ما يناهز خمسة وعشرين مليوناً من الأنفس .

دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا

أفيخبيء القدر للعالم أن تبتليه أوروبا بحرب عالمية جديدة يستغرق الاستعداد لها جيلاً آخر، ويطول النزاع المسلح فيها إلى أكثر من جولة واحدة؟ لعل أشد ما تهلع له النفوس أن النزاع الجديد — إن وقع — فسيكون بين قوتين مختلفتين في الاستعداد تمام الاختلاف؛ فأحدهما تستند إلى الأساطيل والقواعد البحرية، وهي ضرورية للسيطرة العالمية والتحكم في المواصلات، ولكنها لا تكفي لاكتساح اليابس واحتلال ظهر القارات، على حين تستند الأخرى إلى الجيوش البرية التي هي أداة ضرورية لاكتساح الميادين واحتلال المواقع، ولكنها لا تستطيع بدون الأساطيل أن تسيطر على المواصلات العالمية. ومعنى هذا أن الحرب التي ينتظر أن تطالعنا بها أوروبا في المرة القادمة ستكون بين قوتين غير متناظرتين ولا متكافئتين؛ ولن تستطيع إحدهما — بحكم تكوينهما — أن تتمكن من الأخرى دون استعداد شامل وتضحية بالغة. وإذا لم يلجأ المتحاربون في نضالهم المقبل إلى أسلحة ذرية لا يمكن أن يتنبأ أحد بنتائج استخدامها بالنسبة لهم وللإنسانية جمعاء، فإن الحرب لابد أن تطول... وهي لا ينتظر أن تنتهي بأحد الفريقين إلى نتيجة فاصلة في جولة واحدة على أية حال!

سليمان هزني

النقد والفن

نحن نعتمد على الألفاظ في تصوير خواطرنا ، وإبراز المعاني التي تمجول في أذهاننا ، والأحاسيس التي تختلج في نفوسنا .

ويوماً ما كان أسلافنا يؤدون هذه الأحاسيس وتلك المعاني ، بالإشارات والأصوات المبهمة ، أو بالإشارات والألفاظ جميعاً .

وقد يصل حقدتنا إلى طريقة أخرى للتفاهم غير الألفاظ المنطوقة أو المكتوبة ! فقد يتم التفاهم بينهم مثلاً عن طريق الاتصال الشعوري والفكري المباشر — وشيء من هذا يقع الآن في التنويم المغناطيسي والإيحاء !

أردت أن أقول — بهذه المقدمة — إن الألفاظ التي تتخذها اليوم للتفاهم إنما هي وسيلة لا غاية ، وإنها رموز ظاهرة لمعان وأحاسيس مضمرة ؛ وإنها تستمد قيمتها الحقيقية من قيمة ما ترمز إليه ، بقدر ما تستطيع الكشف عما ترمز إليه .

والألفاظ — في هذا — كالعملة الورقية المضمونة برصيد من الذهب . ونحن نتعامل بها حسب ما ترمز إليه من الرصيد . ولا بد لكي نثق بها وتداولها أن تكشف لنا عن هذا الرصيد الذي تساويه !

والألفاظ التي نتعامل بها الآن لم نضعها نحن ، ولم نشترك في وضعها ، وقد تم هذا في عصور سحيقة ، تعد بالقياس إلينا ، في طفولة الإنسانية . فكان من أثر هذا أننا نراها اليوم ألفاظاً غامضة ، مجملة الدلالة ؛ وكثير منها ليس له في أذهاننا معنى دقيق محدد .

وقد لا يظهر هذا في « أسماء الذوات » ؛ ولكنه يظهر واضحاً في « أسماء المعاني » حيث تصلح اللفظة الواحدة للدلالة على عشرات الصور والحالات المتعلقة بالمعنى الواحد ، تختلف في اللون والدرجة ، ويبقى اللفظ الدال عليها واحداً في جميع الأحوال .

خذ مثلاً كلمة « الحب » . فانظر : كم من الصور تثطوى تحتها ، وكم من الأحاسيس تعبر عنها . وهى لفظة واحدة لا تفرق بين حالة وحالة ، إلا فى سياق معين تقاس به مقدرة القائل على الأداء ، وتكشف فيه اللفظة عن رصيدها المذخور من الحس والشعور .

ما مدلول لفظة « الحب » ؟

أولاً — بالقياس إلى ما يُحِبُّ : تراه حب الحياة ، أم حب الطبيعة ، أم حب الجمال الحى ، أم حب الوطن ، أم حب الأسرة ، أم حب الأصدقاء ، أم حب النفس ، أم حب المجد ، أم حب المال ، أم حب الجنس ، أم حب الفن ، أم حب الدين . . . الخ ما يصح أن يكون محبوباً فى الحياة ؟

وثانياً — بالقياس إلى نوع الحب : تراه الحب البرىء أم الحب المشوب ؟ وحب الألفة الوثيدة ، أم حب المفاجأة الهاجمة ؟ وحب الأثرة والغلبة أم حب التضحية والإيثار ؟ وحب الاستعلاء والسيطرة أم حب التفانى والامتزاج ؟ وحب الشهوة العارمة أم حب القداسة المتصوفة . . . أم هو الحب الذى تتداخل فيه شتى هذه الظلال والألوان ؟

وثالثاً — بالقياس إلى درجة الحب وحالته : تراه الحب الصاعد إلى الآفاق أم الهابط إلى الأعماق ؟ وهو المقبل يكسب كل يوم ويربى أم هو المدبر يخسر بالزمن ويذوى ؟ وهو الثائر العنيف أم الهادئ الراضى ؟ وهو المكروه المملول أم المتطلب المرجو ؟ أم هو الحب الذى فيه من هذا وفيه من ذاك ؟ كل هذا وعشرات من أمثاله تجعله لفظة « الحب » الواحدة ، ويفصله الإحساس الواسع ، المجرب لهذه الصنوف والأشكال .

ومثل الحب ، البغض ، والغيرة ، والحنان ، والقسوة ، والمروءة ، والنذالة ، واللذة ، والألم . . . إلى آخر « أسماء المعانى » التى تجمل مدلولاتها هذا الإجمال ، وتتسع بعد ذلك لعشرات من الصور والأحوال .

وبديهي أن واضعى اللغة الأوائل لم تكن خواطرهم تزدهم بكل هذه الصور ؛ لأن أحاسيسهم وأذهانهم لم تكن مرت بتجارب كالتى مرت بنا . فكانت اللفظة الواحدة تشع فى أذهانهم صورة واحدة ، أو عدة صور ، مقيدة على كل حال ، بمدى تجاربهم فى عالم الحس والخيال .

والذين جاءوا من بعدهم لم تحفزهم حاجة ملحة إلى وضع ألفاظ جديدة ،

مفصلة على قد كل حالة من الحالات ؛ لأنهم وجدوا في إيهام الالفاظ الموضوعه من قبل وإجمالها ومروتها مايساعدهم على تحميلها صوراً وأشكالاً وحالات جديدة لم تخطر على قلوب واضعيها الأولين .

بل لعلمهم — وبخاصة رجال الفنون — قد ارتاحوا إلى هذا الغموض المبهم ، ووجدوا فيه من الجمال ما يتسق مع خواطرهم وأحاسيسهم — وفيها قسط من الغموض والإيهام لا مفر منه بحكم أن مشاعرهم وأخيلتهم هي الأصل في العمل الفني وهي غامضة إلى حد ما — لا بل زادوا على هذا أن جعلوا كثيراً من « أسماء الذوات » « أسماء معان » على نحو من المجاز ، مثل كلمة « كتابة » وأصلها « القيد » . وكلمة « شرف » وأصلها « المرتفع » . كما جعلوا بعض أسماء المعاني ، لمعانٍ أخرى اصطلاحية ، مثل كلمة « صلاة » وأصلها « الدعاء » وكلمة « زكاة » وأصلها « الطهارة » وذلك — فيما يبدو — كان تفادياً من وضع ألفاظ جديدة !

ولعل القدرة على وضع الالفاظ كانت خاصة في طفولة الإنسانية ، وفي الشعوب البدائية ، ثم ماتت أو فترت بعد عهد معين من الرقي والتطور ؛ فأصبحنا الآن نعاني صعوبة جديدة في وضع ألفاظ جديدة لما يعرض لنا من شؤون الحياة !

وأنا أزعم أن اللفظ الذي لم ينبعث من فم القائل إلا بعد وجود صورة معينة يرمز إليها في ذهنه هو كذلك لا ينشئ في ذهن السامع صورة لا عهد له بها من قبل ، ولكنه يقتصر على استدعاء الصورة أو الصور الكامنة في نفسه ، والتي يرمز لها هذا اللفظ عنده .

وقد يختلط علينا الأمر في بعض الأحيان ، فنحسب أن لفظاً معيناً قد أنشأ في أنفسنا إنشاءً ، صورة لا عهد لنا بها البتة . وتفسير هذا أن هذه الصورة لا بد أن يكون لنا بها صلة سابقة ، نتيجة لتجربة شخصية أو إنسانية ، ثم خفيت علينا وبعدت عن وعينا ، حتى استدعاهم ذلك اللفظ حين سمعناه أو قرأناه . فـ كلمة « الجبل » مثلاً ، لا تدل على شيء البتة في ذهن من لم ير جبلاً أو مرتباً ما يقرب إلى ذهنه صورة الجبل . وقد تصور له شكلاً من الأشكال ، هو أبعد ما يكون عن شكل الجبل المعروف ، كما يقع كثيراً للكفوفين وللأطفال .

وهذه الكلمة نفسها تشع في ذهن من رأى جبلا واحداً ، صورة واحدة هي صورة الجبل الذي رآه ، على حين هي تشع خمس صور لمن رأى خمسة أجيال مختلفة الأشكال ، وتشع عشر صور لمن رأى عشرة أجيال مختلفات . وهكذا . ومثل هذا كلمات : قط ، وكلب ، وحصان ، وشجرة ، وزهرة ، ونبات . . . إلى آخر أسماء الذوات .

أما المعنى الذهني المجرد ، المنتزع من جميع الأشكال ، والذي لا يتقيد بشكل من هذه الأشكال ، فلا يكاد يقيم في الذهن لحظة ، ثم يأخذ الخيال في استعراض الشكل أو الأشكال ، التي يستدعيها هذا اللفظ في الحال .

وإذا صح هذا في « أسماء الذوات » وهي قريبة الإدراك ، سهلة التصور ، والاختلاف فيها محدود ، لأنها موكولة — في الغالب — إلى الحواس ، فكم يكون مقدار الاختلاف في إشعاع ألفاظ المعاني : كالحب والبغض ، والمروءة والندالة ، والذكاء والغباء ، واللذة والألم ؛ ثم كم يكون الاختلاف فيما تشعه — بعد ذلك — النصوص التي تتولى تصوير عاطفة من العواطف ، أو خيالا من الأخيلة ، أو حالة من الحالات النفسية على وجه الإجمال .

وقد يكون هذا الاختلاف نعمة جميلة في عالم الفنون ، بما يبدد من أنماط القول وصور الأداء ، وبما يعرضه من عوالم النفوس ، وغرائب الشخصيات . ولكنه — مع هذا أو بسبب هذا — يخلق لنا عناء بعد عناء ، بتعارض الآراء في الأثر الأدبي الواحد ، بل الأداء الفني الواحد ، بالقياس إلى ما يشعه من الصور في الأذهان ، وما يستحضره من الحالات في النفوس . وهنا يأتي دور الناقد الذي كثيراً ما يكون شاقاً بسبب هذه الملاحظات !

وهنا نصل إلى النتيجة الأولى من هذا البحث ، وهي مناقشة مدى حق القارئ في نقد ما يلقى إليه من الأعمال الفنية ، والحكم عليها حكماً موضوعياً على قدر الإمكان .

ليس الناس سواء في تجاربهم الحسية والنفسية في الحياة . وبعضهم — ولا شك — أغنى من بعض في رصيد هذه التجارب .

وأسباب الغنى والفقر في هذا الرصيد كثيرة متنوعة ؛ فقد ترجع إلى سعة الطبيعة النفسية أو ضيقها ، وقوتها أو ضعفها ، وعمقها أو سطحياتها . . . وقد

تُرجع إلى اللون الذي تصطبغ به هذه الطبيعة ، فتعش لهذا اللون من الإحساس أو ذاك وتتفتح لمظاهر من الحياة دون الأخرى ، كأن تتفتح لمظاهر الضخامة والعنف والجموح في الكون ، وتنقبض عن مواطن الدعة والخفاء والهمس — وإن كان كل لون من هذه الألوان يختلف في النفوس مع اتفاقها في الأساس . وتبعاً لهذا الاختلاف في الرصيد النفسي المخزون ، تكثر الصور التي يشعها اللفظ أو التعبير عند القارئ أو تفل أو يقوى أو يضعف استعداده لتلقى صور النفوس وأنماط الشخصيات ، ويتسع أو يضيق إدراكه لأطياف الجمال التي تموج بها الفنون كما تموج بها الحياة .

ونخلص من هذا إلى النتيجة الأولى التي أعنيها من مقدمات هذا البحث ، وهي : أن حق الناقد في الحكم على صحة الحالات النفسية والصور الفنية ، رهن بالنسبة بين رصيده ورصيد الفنان من الآفاق النفسية ، والتجارب الفنية على السواء . ذلك أن الفنان قد تزر نفسه بصور وحالات ليست شائعة ؛ لأنها من خصوصياته أو امتيازاته ، وقد يختار من صور الأداء ما يتسق مع صور الإحساس ، فيجىء ناقد لم تهياً طبيعته لإدراكها ، أو لم يقرأ لها نظيراً في الأنماط السابقة ، فيرى خطأ في التصور والإحساس ، أو انحرافاً في التصوير والأداء ، في حين هي من مطالب الحياة الأصلية في ذلك الفنان ، للتنويع في الأنماط والألوان !

ونسلم أحياناً أن هذا الأثر الفني أُر ذاك صعب الفهم عند الكثيرين ، فيجب أن نقف هنا لنسأل عن نوع الصعوبة .

فهناك صعوبة منشؤها طريقة التعبير والأداء ، وصعوبة منشؤها طريقة التصور والإحساس .

والصعوبة الأولى سهلة ميسورة الحل ؛ وعلاجها هو المعجم والدراسة اللغوية ، والاطلاع على طرق التعبير المختلفة . أما الصعوبة الثانية فهي العسيرة حقاً ؛ لأنها تتعلق بما هو أعمق من الألفاظ والعبارات .

ذلك أن خصوصية الصور النفسية والحالات الوجدانية قد تبتاج إلى طبائع خاصة ذات رصيد إنساني وفني ضخيم ، يؤهلها لاستيعاب ما ترمز إليه النصوص ، التي قد تكون سهلة التركيب واضحة الأداء .

وهنا نصل بالحديث إلى النتيجة الثانية لمقدمات هذا البحث ، وهي أن صعوبة الفهم أو سهولته ليست راجعة في الحقيقة إلى غرابة اللفظ ووعورة التركيب ؛ فهذه صعوبة سهلة ، حلها ميسور ، ومرجعها — كما قلت — إلى المعجم وإلى التمرس بالأساليب . إنما الصعوبة التي تحتاج إلى الطبيعة وإلى التجربة معاً ، هي صعوبة التصور والإدراك ، بسبب نقص الرصيد النفسى من التجارب الحسية والذهنية والروحية ، وفقر الطبيعة من الذخيرة الموهوبة ، التي تهيئها للفن الرفيع .

وإنك لتجد في بعض الأحيان من يجادلناك في نص أدبى ، يقول لك : مامعنى هذا ؟ فإذا حاولت تفسيره له لم تجده قاصراً عن فهم ألفاظه وتراكميه ، ولكنه عاجز عن تمثيل الحالة النفسية التي يرمز إليها هذا النص . فإذا حاولت أن تدله على موضع النقص في استعداده الفنى لم يجد إلا أن يقول لك : إذا كنت أنا دارس اللغة وآدابها لا أفهم هذا القائل ، فامن يقول !

إن المدى لبعيد جداً ، بين معرفة مدلول الألفاظ اللغوى في النص الأدبى ، واستحضار الصورة النفسية التي يشعها . وهذا كهذا ضرورى للإدراك الصحيح . وأضرب هنا مثلاً قد يكون ضرورياً للإيضاح :

يقول القرآن الكريم : « والصبح إذا تنفس »

فماذا تعنى هذه الألفاظ عند الكثيرين من دارسى اللغة العربية ؟

إنها تعنى « استعارة تصريحية أصلية » فى الصبح ، الذى شبهناه بإنسان ، وحذفنا المشبه به ، ورمزنا إليه بشئ من لوازمه ، وهو « تنفس » ! أو هى تركيب جميل ذو إيقاع موسيقى ، حين نقرنه إلى الآية قبله : « والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . »

فأين هذا مما يشعه هذا التعبير فى النفس الشاعرة ، من الحياة المفاضة على الطبيعة ، والأنس بهذه الحياة التى تتنفس فى كل حى : من الزهرة المتفتحة للندى ، إلى الطير المتيقظ من الكرى ، إلى الإنسان المتطاع إلى الضياء ؟ وأين هو من الحركة الوثيدة المستشرقة للضوء والحياة ، تصورها لفظة « تنفس » بجرسها الخاص ، ويصورها إيقاع التعبير كله ، وكأن كل كائن فى هذا الوجود يفتح رئتيه لنسيم الصبح البليل ، وينفض الكرى عن عينيه فى استبشار وديع ؟

إن الفرق بين النظرة الأولى والنظرة الثانية ، هو الفرق بين اللفظ الجامد والمعنى الطليق . وهو الفرق بين الدمية الميتة والحورية الراقصة في سباحات الخيال . . . وهو نفسه الفرق بين تصور « البلاغيين » للجمال الفني وتصور الفنان !

ويقول توماس هاردي في خسوف القمر (١) :

ظلك — أيتها الأرض — من القطب إلى المحيط — يدب الآن على شعاع القمر الضئيل في سواد لاشية فيه ، وسكينة لا يخالجها اضطراب : وإني لأنظر إليه فأعجب : كيف يستوى هذا الظل المنسوق ، وذلك الجرم الذي أعرفه لك موّاراً بالقلق والحيرة ، وكيف تتفق هذه الصفحة الراضية كأنها الطلعة الإلهية ، وأقطار عليك — أيتها الأرض — تموج الساعة بالأحزان والكروب ؟ « وأسأل : أهذا الشبح الصغير كل ما طرحه الفناء الزاخر من الظلال على ساحة الفضاء ؟ حكمة الله أراد بها عالم الإنسان ، متجمعة كلها في حيز هذا القوس المرسوم . كذلك يكون مقياس الكواكب لما تبديه الأرض ، ويكشفه عليها الزمان : من أمة تنحر أمة ، ورءوس تغلى بالهواجس ، وأبطال خالين ، ونساء أجمل من طاعة السماء . »

وليس في هذا الكلام — في نصه العربي هنا — صعوبة في اللفظ ولا في المعنى . ولكن الصعوبة الحقيقية في إدراك صدق هذا الكلام وجماله ولحمة السخرية العميقة البادية عليه في هدوء ورزاق . . . السخرية من ضجة الحياة والأحياء في هذا الكوكب الأرضي ، حتى ليحسبون الكون كله مشغولاً بهمومهم الكبيرة لديهم ، الهينة لديه إلى حد ألا يحس بها ولا بهم إلا بمقدار ما يرتسم هذا الظل الضئيل للأرض على وجه القمر ساعة الخسوف . . . السخرية ببعدهما بين « هذا الظل المنسوق ، وذلك الجرم الذي أعرفه لك موّاراً بالقلق والحيرة » كما يقول الشاعر الساخر العظيم .

إن الصعوبة الحقيقية هنا هي هذا التصور النادر لصغر الكوكب الأرضي وما فيه ومن فيه ، وتصويره على هذا النحو في قالب فني ياتي هذه الظلال النفسية : ظلال السخرية العميقة ، والابتسامة الباهتة على شفتي فنان !

(١) ترجمة الأستاذ العتاد .

ويقول تاجور شاعر الهند العظيم :

« لقد أمسكت بيديها ووضعتهما على صدري .
وحاولت أن أملأ ذراعي من وداعتها ، وأن أسلبها بسمتها العذبة
بقبلاقي . آه ! وأن أشفي هيمان عيني من نظراتها العميقة .
آه ! ولكن أين هي ؟
من ذا الذي يستطيع أن يتزع زرقاء السماء ؟
وحاولت أن أمسك بالجمال ، فأفلت مني ، ليترك بين يديّ الجسم وحده ،
وأعود حيران متعبا .
كيف ينبغي للجسد أن يلمس الزهرة التي لا يقدر على لمسها غير
الروح ؟ » (١)

وليس في الألفاظ ولا معانيها هنا صعوبة ؛ إنما الصعوبة في إدراك هذه
الصوفية العميقة السمحة الشفيفة ، صوفية الروح الوديع التي تسخر في رحمة
حنون من محاولة الملك العنيف والاحتجاب الغليظ ، للجمال الوديع والروح
المشاع . صوفية الفناء السمع في الروح العام بلا احتجاز ولا تملك ولا امتياز !
ولا يفوتني أن أنوه هنا بطريقة الأداء ، وجمال تصويرها لهذا الشعور
الفريد . فتاجور قد اختار هنا أن يصف لنا « التجربة » التي قام بها ، وأن
يطلعنا على نتائجها ، واحدة واحدة ، وأن يقف معنا هو وتجربته ونتائجها ؛
لنشاركه في كل خطوة فيها ، ولتتلى مشاعرنا بالحقيقة الشعورية التي اهتدى إليها ؛
حتى إذا وصل إلى الغاية ، فقال :

« كيف ينبغي للجسد أن يلمس الزهرة التي لا يقدر على لمسها غير الروح ؟ »
كنا قد وصلنا معه إلى هذه الشفافية الروحية الصوفية . ولو أنه ألقى بها إلينا
معاني مجردة لحرماننا لذة مشاركته في هذه التجربة الفريدة .

ولطريقة الأداء قيمتها إذن في تصوير الأحاسيس الرفيعة ، وإشاعة الشعور
بها في نفوس الآخرين بمقدار ما تطيق هذه النفوس تصور تجارب الآخرين .

(١) ترجمة الأستاذ لطفى شلش .

ونتيجة ثالثة أحب أن أخرج بها من مقدمات هذا البحث : إن الطبائع الفنية الممتازة ، والنفوس الفنية الموفورة الرصيد ، أقل عدداً في هذه الحياة من الطبائع الشائعة المكرورة والنفوس المحدودة التجارب .

وينشأ من هذا أن الفن العادى المريح ، الذى لا يكلف النفوس عناء فى التصور ، ولا جهداً فى الإدراك ، أشد سيورة من الفن الممتاز — ما لم تتدخل فى الأمر عوامل أخرى غير العوامل الفنية البحتة ، كالعوامل السياسية والاجتماعية الخاصة ؛ لأن كثرة القراء فى كل جيل يعجبها الفنان المريح الذى لا يعلو على طبائعها كثيراً ، بل يشايعها فى تصورها وإحساسها بالحوادث والأشياء ، وتجذب فيه صدى تجاربها النفسية المحدودة ، وطبائعها الشعورية الشائعة .

ولكن الخلود لا يكتب إلا لذوى الطبائع الضخمة الذين قد يلمون فى الطريق بما هو شائع مشترك فى النفس الإنسانية ، ثم يخلقون فى آفاقهم الخاصة ، حيث يرقبهم الناس ، كما يرقبون الأفلاك البعيدة ، يتلقون منها الحرارة والضياء ، وهى بعيدة عنهم فى أجواز الفضاء !

وحكم جيل واحد قد لا يكفي ؛ فلا بد من تتابع الأجيال فى كثير من الأحوال ، لتبين البهرج الزائف الرخيص ، من المعدن الأصيل الثمين .

وحين نستوفى الحديث عن أنماط النفوس ، ونماذج الأحاسيس نرتد إلى التعبير نفسه . ففي ميدانه كذلك تتفاضل المواهب ، ويكون للنقد مجال . وقد أشرت فى تعليقي على مقطوعة تاجور إلى قيمة « طريقة الأداء » فى الفنون الأدبية التى قد تكون « الطريقة » فيها حاسمة فى تقدير قيمة العمل الفنى ومستواه .

ولكن هذا بحث آخر لا يتسع له هذا الفصل الآن .

سير قطب

جيمس چويس

ولد جيمس أوجستين ألويسيوس چويس في دبلين سنة ١٨٨٢ لأسرة إيرلندية كاثوليكية أصيلة ، وتلقى علومه الأولى بها في كليتين من كليات الجزويت هما كلية كلونيجوس وود ثم كلية بلقدير ، وأتم علومه في الجامعة الملكية القديمة . ومع أن أعوام الطلب الأولى عند الجزويت قد تركت في نفسه وفي تفكيره آثاراً عميقة لازمته بقية حياته ، فإننا لا نعرف عنها ما يستحق السرد سوى أنه نشر وهو بعد في التاسعة كتيباً عنوانه : « حتى أنت ياهيلي ! » دافع فيه عن الزعيم الإيرلندي الكبير پارنل ، واتهم فيه هيلي بالخيانة الوطنية والتآمر لإسقاط الزعيم . أما في الجامعة فقد عرف چويس بسعة الاطلاع وشدة الصلف والتهتك الأخلاقي في وقت واحد . والنوادر عن شدة صلفه لا تعد ، منها أنه التقى ذات مرة بالشاعر الإيرلندي العظيم و . ب . ييتس فاجترأ عليه قائلاً : « لقد التقينا بعد أن فات الأوان ، فقد تقدمت بك السن ، ومحال أن تتأثر بأدبي » . ومنها أن الكاتب آرثر سايمونز حدثه ذات مرة عن بلزاك فضحك چويس ضحكة الساخر وأجاب : « عجيباً لكم ! ألا زلتم تتحدثون عن بلزاك ! » ومنها أنه أراد التردد على العلامة إدوارد داودن أستاذ الأدب المشهور ، فلما قال له قائل إن داودن قد لا يرتاح إلى صحبته أجاب هازئاً : « ومن يكون داودن هذا ! إنه مجرد أستاذ صغير ، أما أنا فشاعر ! لقد نظمت أحسن قصيدة غنائية منذ شكسبير . » وبعد أن تخرج چويس في كلية الآداب سنة ١٩٠٢ انتقل إلى باريس ليدرس الطب بها . ولا يعرف عن أيامه في باريس إلا فقره المدقع . ثم جاءه أن أمه تحتضر فعاد إلى دبلين ليستأنف حياة الفقر والفجور ، واشتغل فيها بالتدريس قليلاً ، ولكنه ما لبث أن نزع إلى القارة الأوربية عام ١٩٠٤ ومعه زوجة ، نزع إلى پولا ثم تريستا وفيهما اشتغل بتعليم اللغة الإنجليزية في مدارس برليتر . وفي تريستا أقام نيفاً وعشر سنوات كتب فيها مجموعة من الأقاصيص هي « أبناء

دبلين» ، وقصة ترجم فيها لنفسه هي « صورة الفنان في شبابه » ، ومسرحية هي « المنفيون » . وفي ترستا بدأ قصته الخالدة « يوليس » ، تلك القصة التي أتمها بين زيوريخ وباريس في سنى الحرب العالمية الأولى وما بعدها . فلما أتمها ونشرها عام ١٩٢٢ هيجت عليه الخواطر وألّبت عليه السلطات . وأقام في باريس في عزلة عن الناس يقرأ ويكتب حتى حضرته الوفاة عام ١٩٤٤ .

وهكذا حكم جويس على نفسه بالنفى مختاراً طول حياته ، ولم يعد إلى دبلين ، مسقط رأسه ، إلا مرة واحدة عام ١٩١٢ لينشر مجموعة أقاصيصه « أبناء دبلين » فقد تخرج الناشرون من نشرها ؛ لما بها من إشارات مسيئة إلى الملكة فكتوريا والملك إدوارد السابع ، ولما بها من وصف صريح لحوانيت دبلين وحاناتها ومطاعمها وذكر لها بأسمائها . ولقد طلبوا إليه أن يطهرها من كل ذلك فما رضى . فنشرها جويس أثناء زيارته تلك على نفقته الخاصة . ولكن الناشر الجبان أعدم النسخ الألف بعد طبعها ، ولم يبق إلا على نسخة واحدة أعطاها المؤلف ، فخرج جويس من إيرلندا بين الغضب والفرح لنجاته من « ضباب الحضارة الأنجلوسكسونية » معلناً في أصدقائه أنه راجع إلى القارة الأوروبية ، « راجع إلى المدنية » .

ولكن « أبناء دبلين » رأت النور عام ١٩١٤ حين توسط له الشاعر العظيم عزرا باوند لدى الناشرين . وكذلك توسط له باوند عند مجلة « الأيجويست » فنشرت له « صورة الفنان في شبابه » تباعاً في العام نفسه . أما « يوليس » فقد دخل جويس زيوريخ بجزء منها أثناء الحرب العالمية الأولى ، فحسبها الرقيب لغرامة أسلوها نوعاً من الشفرة جديدة يحمل الرسائل الحربية ، وأوشك أن يصادرها ويستوقف صاحبها لولا أن توسط الوسطاء . وقد كان إتمامها بدء متاعب جويس الحقيقية ؛ فقد نشرتها له مجلة أمريكية تدعى « ليتل رقيو » تباعاً ، ولكن مصلحة البريد في الولايات المتحدة أمرت بإحراق مجلة أعداد منها لما فيها من خروج على الآداب العامة . وقاضت المجلة « جماعة محاربة الرذيلة » فحكم على أصحاب المجلة بغرامة قدرها مائة دولار . وظهرت في باريس الطبعة الأولى من « يوليس » عام ١٩٢٢ ، وتلتها طبعة في لندن صودرت . وتولت جيمس ساوتهمبتون ونيويورك تفتيش المسافرين ، وجمع الداخل والخارج منها لإحراقها . أما الصحافة فلم تكن أقل نشاطاً من السلطات ؛ فكتبت عن « فضيحة يوليس » وحذرت

الناس من ذلك « الكتاب اللعين ». ولقد حسب الإنجليز في مبدأ الأمر أن « يوليس » إن هي إلا كتاب جديد في الأدب المكشوف لا وزن له ولا خطر حتى دلهم عليه ناقد فرنسي يدعى فاليري لاربو في مقال كتبه عام ١٩٢٢ .

هذا هو جيمس جويس الذي اختلفت في وصفه الآراء : فمن قائل إنه إمام القصة في القرن العشرين، ومجددها الذي استحدث قلباً ومادة وغاية للكاتبين، إلى قائل بأنه دعى متهوس، بل منحل متعفن، بل قرحة في جسم المجتمع . هذا هو جيمس جويس الذي قال فيه ت. س. إليوت إنه أعظم من ملك ناصية اللغة الإنجليزية منذ ملتون . وقال فيه برنارد شو : « أنا لا أستطيع أن أسطر الكلمات التي استخدمها مستر جويس ، فقلمي المترمت يمتنع عن رسم الحروف ، ثم إنني لا أجد في وقاحاته الطبية الصبائية أو في تفاهاته التي يعثر بها ما يستحق الاهتمام .

وقد ألقى شو بنسخته من « يوليس » في نار المدفأة قائلاً : « إن هذا الكتاب يثبت أن رجال دبلن وغلماها لا يزالون على ما كانوا عليه في أيام من قذارة في التفكير لا سبيل إلى إزالتها ، هذا كل ما هنالك » . هذا هو جيمس جويس الذي أفسح له أرنولد بنيت مكاناً بين الخالدين ، واستجار منه د. ه. لورانس قائلاً : « يا إلهي ! إن جيمس جويس خليط متعفن لا انسجام فيه ، فما به إلا مقتطفات من الكتاب المقدس وغيره من الكتب طبخت معاً كما تطبخ بقايا الكرب وحثالة المأكولات في حساء قوامه العهارة المقصودة التي لا فن فيها ، فيا لأدبه من أدب غث مألوف قد أضنى تأليفه صاحبه فاستخفى في زى أدب جديد ، بل استخفى في زى الأدب الجديد . إن الملل يقتلني حين أقرأ جيمس جويس ؛ فهو مليء بالادعاء ، وهو مليء بالافتعال والتبليت ، وهو خال تماماً من كل تلقائية أو حيوية حقيقية » . ولكن الجدل في حقيقة جويس ومكاته رغم ذلك كله قد انتهى الآن إلى ما يشبه الإجماع على أنه صاحب منهج في القصص جديد ، وصاحب أسلوب في الإنشاء جديد . ولقد يكون منهجه فاسداً ، ولقد يكون أسلوبه أضعف من أن يثبت أمام عصاف الزمان ، ولكن ما من شك في أن منهجه وأسلوبه قد تركا أثراً ملموساً في بعض من كتبوا بعده ، الشعراء منهم والنثرين . وما من شك في أن أدبه ظاهرة من ظواهر النصف الأول من القرن العشرين . وقد يكون جويس نقطة تحول في فن الكتابة كما يصفه ممجدوه ، وقد لا يكون ، ولكنه مرحلة في تطور الأدب على أقل تقدير .

ولقد تطور جويس ذاته كما يتطور كل فنان ؛ فهو من ناحية لم يهتد فجأة إلى منهجه وأسلوبه اللذين اشتهر بهما في « يوليس » ، بل تعهدا منذ شبابه الأول حتى أينعا وأثمرا . وهو من ناحية أخرى لم يبدأ حياته الأدبية بذلك المنهج وذلك الأسلوب بل بدأ كما يبدأ غيره من أصحاب المدارس بين القديم والجديد . فقد بدأ بمجموعته « أبناء دبلين » وهي مجموعة توشك أن تكون أقاصيص ، وتوشك أن تكون لوحات قلمية وصف فيها مسقط رأسه وصفاً مفصلاً لا يؤتاها إلا أصحاب المذهب الطبيعي في القصة . ومنها يتبين أن جويس كان يعيش في دبلين بروحه مع أنه قضى كل حياته في الخارج ، فشارع من شوارعها الخلفية المهمة أقرب إلى فؤاده من الشانزليزية العظيم . أما قصته « صورة الفنان في شبابه » فهي قصة كتبها في عشر سنوات ما بين ١٩٠٤ و ١٩١٤ وترجم فيها لنفسه أيام كان حدثاً يتلقى العلم منتحلاً لنفسه شخصية وهمية هي شخصية ستيفن ديدالوس .

ولقد اختار جويس المتغطرس لنفسه اسم ديدالوس لأن ديدالوس كان في أساطير اليونان أقدم الفنانين ومعلمهم جميعاً ، وهو الذي بنى اللبرنت ، قصر التيه . وجويس يناديه في ختام « صورة الفنان » قائلاً : « هاأنذا أخرج للمرة الأولى بعد المليون لأواجه حقائق الحياة ، ولأصوغ لقومي في مصر روحى ضميراً لا زال خاماً . فيا أبت القديم ، ويا سيد الصانعين ، ألهمنى الآن وسدد خطاى إلى أبد الآبدين » .

فالقصة إذاً سجل لجميع الأطوار الأولى في نموه النفسى والعقلى ، وهي وصف مجيد للصراع الذى نشب في كينوته بين الشخصية الفنية والشخصية الدينية ، وهي رسم لبيئته الأولى أيام كان يعيش بين أبيه الغليظ الطبع الذى لا يحذق أمراً ما وأمه الوديدة الرقيقة الفؤاد التى عوضته عن جفوة أبيه شيئاً كثيراً ، وهي عرض للمؤامرة الكبرى التى كان يدبرها عميد كلية بلقدير لاختطاف روحه وضمه إلى خدمة الكهنوت ، وهي تحليل لنضوجه الداخلى في طريق الدين من ناحية ، وفي طريق الفن من ناحية أخرى . ولقد كان جائزاً أن يقتل الدين الفن في نفس جويس لولا أن عميد كلية بلقدير كان مسيحياً أكثر من المسيح وكاثوليكياً أكثر من البابا . فجويس الصغير يكتب موضوعاً من مواضيع الإنشاء فيه تحرر وانطلاق ، فيتهمه عميد كلية بلقدير بالكفر ويلزمه بأن

« يعترف » بكفره . وجويس الصغير يخطئ خطيئة الجسد ، فيهدده عميد كلية بلقدير بالويل والثبور وعظائم الأمور ويلزمه بأن « يعترف » بخطيئته ، ويصف له في خطبة جميلة رنانة أهوال الجحيم الذي ينتظره وصفاً تقشعر له الأبدان ، فتقضى هذه الخطبة على ما بقي في نفس الفنان من حب للدين ويعصى ويستكبر كما عصى إبليس واستكبر ، ويصبح صبيحته حين أبي أن يخدم عرش الله : « نون سرفيام ! نون سرفيام ! » « لن أخدم ! لن أخدم ! » . وهكذا قتل الفن الدين في نفس جويس ، وهكذا تنطلق نفسه ويتحرر عقله في الجامعة ، وهكذا يتمرّد على ديانة أمته وثقافة أمته ، ويسعى إلى الفرار منهما بعد الجامعة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ويلتمس النجاة في آفاق أرحب وثقافة لا تحد بلغة أو وطن أو جيل ، فيتعلّم ثمان عشرة لغة ، ويتمثل ثقافات وحضارات بأئدة وحية . فخير ما يقال في وصف « صورة الفنان في شبابه » أنها مفتاح شخصية جويس ، كما أن « السونيتات » المشهورة مفتاح شخصية شكسبير .

ولكن هذه الثورة على الدين قد تركت في نفس جويس آثاراً لازمتها بقية عمره ، فهو رغم هذه الثورة كان يغضب أحياناً إذا امتهن الدين في حضرته ، وكان يبالغ هو نفسه في امتهان الدين أحياناً أخرى . فنفسه بعد هذا الصراع المشهود لم تخرج صافية كلها دين وقيود أو كلها فن وانطلاق ، بل خرجت مثلاً في القوضى وتجلت فيها آثار المعركة من خرائب وأشلاء ودخان وعتاد مهشم وعتاد متروك . فحين زار ستيشن ديدالوس دبلين أول مرة بعد هجرته ، طلبت إليه أمه المحتضرة أن يجثو بجوارها ويصلي إلى الله من أجلها فأبى ، ولكنه أحس بعدئذ بأنه قد أخطأ ، وظل شبح أمه يطارده إلى يوم مماته . والعقد في نفس جويس كثيرة تنتظر من يحللها ويردها إلى ما عصف بطفولته وبقاعته وشبابه الأول من نقائص لم تتم تصفيتها، وصراعات لم تنجل نهائياً .

ومن النقاد من يعدّ « صورة الفنان في شبابه » مقدمة لقصة « يوليس » ، ومنهم من يرى أنها عمل ذو شخصية مستقلة . وكيفما كان الأمر ، فإن ستيشن ديدالوس بطل « صورة الفنان » لا ينتهي بانتهاء سيرته بل يظهر مرة أخرى في « يوليس » ، وهو في « يوليس » ليس محور القصة بل أحد أشخاصها البارزين . وقصة « يوليس » ليست قصة بالمعنى المألوف الذي تعودده الناس ، روعى فيها

التسلسل الزمني والتتابع المنطقي ، بل قصة لم يراع فيها شيء من ذلك كله ، قصة اختفى فيها كل تقدير معروف للزمن ، واختلطت فيها حوادث الحاضر بحوادث الماضي اختلاطاً تاماً ؛ لأن كاتبها لم يفهم الزمن فهماً لنا له بأنه ينقسم إلى أيام تنقسم إلى ساعات تنقسم إلى دقائق تنقسم إلى ثوان ، بل رفع كل هذه الحدود وجعل الوعي بالزمن مقياس الزمن ؛ وقدّر الوقت بما يحدث فيه من حوادث وما يجري فيه من أفكار ؛ فرب دقيقة لها مقام ساعة ، ورب ساعة لها مقام دقيقة . وهو لم يجد أن أحداث الحياة وخواطر الإنسان تتبع دائماً في تعاقبها أو في تولدها نهجاً منطقياً تخرج به النتائج من العلة خروجاً حتمياً ، بل وجد أنها كثيراً ما تتبع نهجاً غير منطقي قد لا تتصل فيه النتائج بالعلة .

« يوليس » القصة الضخمة التي تربى كلماتها على ربع مليون كلمة (٤٣٠ و ٢٦٠ كلمة) ، « يوليس » التي كتبت في سبع سنوات (١٩١٤ — ١٩٢١) تصف حياة ثلاثة أشخاص من أبناء دبلين في يوم واحد بين يقظتهم في الصباح ونومهم في أعجاز الليل ، أو على التحديد في ثمان عشرة ساعة وخمس وأربعين دقيقة . وهؤلاء الأشخاص هم يهودى مكتهل يشتغل بعمل الإعلانات يدعى ليوبولد بلوم وهو يوليس بطل القصة . ثم زوجته ماريون بلوم وهي مغنية محترفة شهوانية امترج فيها دم اليهود الأسبان ودم الأيرلنديين . ثم مدرس إيرلندى شاب يدعى ستيشن ديدالوس واسع العلم دائم التفكير . وذلك اليوم الذى تصفه قصة « يوليس » (١٦ يونيو ١٩٠٤) لم يكن يوماً حافلاً في تاريخ أحدهم أو في تاريخ دبلين أو في تاريخ إيرلندا ، بل كان يوماً عادياً كسائر الأيام لا يختلف عن سابقه أو لاحقه في شيء مذكور . فهو يبدأ في الساعة الثامنة صباحاً ، ونحو الضحى يدفن رجل من أهالى دبلين ، وفي الساعة الرابعة تحدث خيانة زوجية في بيت مستر بلوم ، وقبل انتصاف الليل يولد طفل وتمطر السماء ويقع الرعد فيها . وفيما عدا ذلك يطعم أشخاص القصة ويشربون البيرة ويفكرون ويتأملون ويتذاكرون ويغنون ويتجادلون في السياسة الأيرلندية وسواها من الموضوعات المألوفة ، ويراهنون على جواد خاسر . فهو يوم عادى كسائر الأيام لا يختلف عن سابقه أو لاحقه في شيء مذكور .

ولكن يوليس هو أوديسيوس بطل ملحمة « الأوديسا » التي تركها لنا الشاعر اليونانى هوميروس . فما صلة هذه القصة التافهة بملحمة « الأوديسا » ؟ وما وجه الشبه بين مستر بلوم والبطل يوليس ؟

إن «الأوديسا» تبدأ بمغامرات تليماك في بحثه عن أبيه يوليس . وهكذا تبدأ قصة «يوليس» ؛ فستيقن ديدالوس حين يعود من باريس ليودع أمه المحتضرة في دبلين يجد أن أباه الغليظ النفوذ قد آلت حاله إلى ما هو أسوأ من غلظة النفوذ ، فقد صار إلى رجل سكير لا تقع فيه ، فيتأكد في نفس ستيقن ديدالوس إحساسه القديم بأن أباه هذا لا يصلح أن يكون أباً . وما إن يمضي على موت الأم عام واحد حتى تتفكك أسرة ديدالوس ، فالأب يغشى حانات المدينة في وقت لا يجد أبناؤه وبناته فيه ما يقتاتون به . وتشتد الجفوة وتكون القطيعة ، ويبدأ بحث ستيقن ديدالوس عن أب له جديد . وهو في كل ذلك يحس بأنه غريب بين قومه ، فهو تليماك الباحث عن يوليس . ولكن «الأوديسا» لا تحدثنا عن الولد الذي يبحث عن أبيه فحسب ، بل تحدثنا كذلك عن الوالد الذي يبحث عن ولده ، تحدثنا عن يوليس الباحث عن تليماك . كذلك نجد في قصة جويس أن يهوديًا مجريًّا الأصل بدبلين يدعى بلوم له زوجة تخونه بلا انقطاع ، تخونه بمناسبة وبغير مناسبة ، وهو يعلم بذلك حقاً ولا يتدخل في شئونها ؛ لأنه لا يعاشرها معاشرة الأزواج . وهو لا يعاشرها معاشرة الأزواج ، لأنها انجبت منه طفلاً هزيلة مالبت أن مات بعد ولادته ، فثبت في روع بلوم أنه ناقص الرجولة عاجز عن إنجاب الأبناء الأصحاء . فبلوم لا يحس بالغربة بين أبناء دبلين فحسب بل يحس بالغربة في داره كذلك ، وهو يوليس الذي يبحث عن تليماك . فكلهما إذاً تعذبه مشا كل أسرته . ويبدأ يوم ستيقن ديدالوس في الساعة الثامنة صباحاً ويمتليء خاطره بصورة أمه ؛ لأن الذكرى السنوية لوفاتها قد دنت ، ويعضه الندم حين يذكر ما كان من إبانة الصلاة من أجلها . ثم ينصرف إلى المدرسة حيث يلتقي درساً في التاريخ الروماني ، وفي المدرسة يرى تلميذاً غريباً يعجز عن حل مسائل الحساب ، فيتذكر أيام صباه وما كان من حماية أمه له . وبعد المدرسة يبدو له أن يكفر عن جريمته الماثلة أبداً في خاطره فيعترم زيارة خال له هو يزدرية ، لعل تلتطفه مع خاله يمسح خشونته نحو أمه ويخفف عنه وزره . ولكنه يعدل عن تلك الزيارة الثقيلة بعد صراع نفسي شديد . ثم يحاول أن ينظم قصيدة ، ولكن الوحي لا يسعفه فينصرف إلى المكتبة . وفي المكتبة يتحدث طويلاً عن الصلة بين شكسبير وأبيه ، وما هذا الحديث إلا إسقاط لشعوره النفسي .

كذلك يبدأ يوم بلوم في الساعة الثامنة صباحاً . فهو يخرج ليشتري كلية ليطهيها ويحملها إلى مسز بلوم لتفطر بها وهي في فراشها . ثم يعثر على خطاب موجه إلى زوجته من رجل يدعى بويلان يحدد فيه موعداً لزيارتها في الساعة الرابعة . وبلوم يعلم أن بويلان هذا عشيق من عشاق زوجته ، فتتبلبل لذلك خواطره طول اليوم . ويخرج ليدفن صديقاً ، وفي الشارع وفي المطعم وفي الفندق يسعى جهده أن يتجنب بويلان كلما لقيه ، وأن يصرف المتحدثين عن الكلام عنه . وفي بار الفندق يدخل عليه بويلان ويشرب كأساً من الخمر وينصرف ليفي بموعد الساعة الرابعة مع مسز بلوم ، وفي البار يسمع بلوم الناس يلغون في عرضه ، وفي الحانة يدور حديث الشاربين حول بويلان مرة أخرى ، فيسعى بلوم إلى صرفهم عنه فلا يوفق ، فينشرب بينه وبينهم شجار يفضي آخر الأمر إلى عراك . وفي المساء يقصد بلوم إلى مستشفى من مستشفيات الولادة ليغود زوجة صديق له ، وفي المستشفى يلتقي بستيثن ديدالوس بين جماعة من الأطباء يشربون ويتفكهون بالوضع وبالأمومة . ولقد كان ستيثن ديدالوس يجد في سمرهم ذلك ما يؤذي نفسه ويذكره بخطيئته نحو أمه ، ولكن المكابرة تغلبه كالعادة فيمنعن بالهزء من الولادة وتجريح الأمومة أكثر مما يفعلون . ثم يخرج الجمع إلى حانة ، ولكن ستيثن ديدالوس وصديقه بك موليجان يختلفان في أمر مفتاح البرج الذي يسكنان . وينتهي الأمر بستيثن ديدالوس أن يجد نفسه بلا مأوى ، فيمضي مع صديق له إلى بيت من بيوت الدعارة ويتبعهما إلى الماخور بلوم . ويستبد السكر بيوليس وتليماك فيتمثل الأول صورة زوجته وعشيقتها ، ويتمثل الثاني صورة أمه الميتة وقد عادت إليه في أ كفانها تستعطفه أن يرضى من أجل روحها ، ولكنه يأبى من جديد ، وتتملكه عاصفة هوجاء من العواطف المتضاربة ، فيهوى بعصاه على النجفة ويهشمها ثم يندفع إلى الخارج . وفي الطريق يتشاجر مع اثنين من جنود الاحتلال الإنجليز ، ويكون من ذلك أن يهوى على الأرض مغلوباً على أمره . ويلحق بلوم بستيثن ديدالوس ، وفيما هو منكب عليه يعينه على النهوض يرى في صفحة وجهه صورة ولده المتوفى كما كان يرجو له أن يكون ، فتياً ، واسع الثقافة ، مصقول النفس ، مرهف الإحساس . وهكذا يتعرف الوالد على ولده ، وهكذا يلتقي يوليس وتليماك . ويستصحب بلوم ستيثن ديدالوس إلى داره ويلج عليه أن يقضى ليلته في ضيافته ، بل أن يقيم معه نهائياً ، ولكنه يرفض . ويسترد

بلوم ثقته بنفسه وإحساسه برجولته بفضل لقائه مع ستيقن ديدالوس ، وبفضل ما كان من إنقاذه إياه ، فإذا هو يتبدل من حال إلى حال ، وإذا هو يأمر زوجته بأن تعد له طعام الإفطار في الصباح بعد أن كان يعدده هو لها ، وإذا هو يقبّلها قبلة الزوج بعد فترة دامت أعواماً وأعواماً . وهكذا يعود ليوبولد بلوم إلى ماريون بلوم بعد مغامرات مشهودة في شوارع دبلين وأزقتها ، كما عاد يوليس إلى زوجته پنلوب بعد غيبة طويلة جاب فيها الأقطار وذرع البحار .

ولقد استطاع بعض النقاد من أمثال ستيوارت جلبرت ولثين ، وإدموند ولسون ، ولويس جولدنج ، بدرجات متفاوتة ، أن يجدوا لكل حلقة في قصة « يوليس » نظيراً يقابلها في « أوديسا » هوميروس . فاشترك بلوم في دفن صاحبه يقابل نزول يوليس إلى حاديس ، مملكة الموت ، وشجار بلوم مع شائثيه يقابل صراع يوليس مع العمالقة ، وذهاب بلوم إلى البغى بيلا كوهين ونجاته منها يقابل مغامرة يوليس مع الساحرة سيرسيه التي تحول البشر إلى عجماوات وإفلاته من قبضتها ، وهكذا وهكذا . ولقد كان بعض النقاد يرون أن قصة « يوليس » مجرد قطاع من الحياة الواقعة ، ولكن هؤلاء لم يتنبهوا إلى ما فيها من تصميم محكم ترسم فيه جويس خطى هوميروس مستخدماً الرمز في تصويره لكل حلقة من حلقات « الأوديسا » ، وحاول أن يبني الحاضر على أساس الماضي ، وأن يوازن بين طبيعة الحياة وأبطالها في واقع اليوم ، وطبيعة الحياة وأبطالها في خيال الماضي .

ولقد اختار النقاد في علة اختيار جويس لشخصية البطل الجوّال يوليس محورا للمحمته النثرية إن صح هذا التعبير ، فالملاحم لا تكتب نثراً ، ومنهم من ذهب إلى أن هناك شبهاً بين شخصية جويس وظروفه ، وشخصية يوليس وظروفه . فجويس في غربة متضلة روحية وجسمية معاً ، وكذلك كان يوليس الهومري ، والتجوال قوام الحياة عندهما جميعاً . كذلك اختار النقاد في علة اختيار جويس لشخصية رجل يهودي ليقوم بدور يوليس في هذه « الأوديسا » الجديدة ، فمنهم من وجد شبهاً بين هذا اليهودي التائه ، وبين ذلك اليوناني التائه . ومنهم من وجد شبهاً بين الغربة الروحية التي يعيش فيها جويس بين الأيرلنديين ، والغربة الروحية التي يعيش بلوم فيها بينهم . ومنهم من يشير إلى اهتمام كتاب القصة المعاصرين بشخصيات اليهود ، فارسيل بروسست الذي تعلم جويس منه شيئاً كثيراً كتب عن شخصية سوان ، وتوماس مان كتب عن شخصية جوزيف ، فلعل اختيار جويس

ليهودى ضدى لتفاقم المشكلة اليهودية فى أوربا . ومهما يكن من شئ ، فلا شك فى أن يوليس الهومرى هو أقرب أبطال الخيال إلى شخصية مستر بلوم ؛ فهو ليس كأخيل أو هكتور أو أنياس بطلا بالمعنى المألوف فى الأساطير ضارباً بالسيف فاتكاً بالأعداء غازياً لقلوب العذارى ، بل هو بطل من طراز حديث ، بطل بطولته فى أصالة رأيه وفى مكره ؛ فمكره وأصالة رأيه ينقذانه من كل الأخطار التى يستهدف لها . وهكذا الشأن مع بلوم فهو ما كره وأصيل الرأى . وما من شك فى أن قصة جويس التى نسج فيها الواقع على نول الخيال تفجعنا فى الواقع كما تفجعنا فى الخيال ؛ فهى تجرد الحياة من سحرها الذى أسبغه عليها الشعراء ، وهى تشكعنا فى الخيال ومنطقه . هى تترجم تجوال البطل فى بلاد واق الواق وفى بلاد تركب الأفيال إلى تجوال اليهودى المشتغل بعمل الإعلانات فى شوارع دبلين . فما أبعد الواقع عن الخيال ! وبنلوط امرأة صبور تطول غيبة زوجها يوليس أعواماً طوالاً ولكنها تثبت على وفائها له ، وينتهى إليها أنه قد مات فى بلاد الغربية فلا تصدق ما يقال ، ويأتيها الخطاب عداداً فتصرفهم إن بالحسنى وإن بالمكروه ، وتتخذ من مغزلها تعلقة لاستمهاهم ، فتغزل المطارف ثم تنقض خيوطها من جديد زاعمة انها سوف تبت فى الأمر حين تفرغ من غزلها ولكنها لا تفرغ من غزلها أبداً . هذا فى خيال الشعراء . أما فى واقع القصصيين فمستر بلوم تخون زوجها خيانة متصلة ، وتصطفى العشاق فى إسراف يدهش أهل المدينة . ولقد نجد لماريون بلوم فى هجران زوجها إياها بعض العذر كما كان لليهودى نفسه يفعل ؛ ولكنها تعود إلى التفكير فى خيانتها من جديد بعد أن رجع إليها وانتهت غيبته ، فما أبعد الواقع عن الخيال !

لكن كل ما تقدم لا يقربنا من فهم جويس الحقيقى ، جويس ذى المنهج الجديد والأسلوب الجديد . فلا بد لفهم جويس من الكلام عن المنهج وعن الأسلوب اللذين استحدثهما فى الأدب الانجليزى ، فكيف أمكن لجويس أن يتفق ربع مليون كلمة فى سرد هذه القصة البسيطة المثلثة الأطراف ، قصة ليوپولد بلوم وماريون بلوم وستيقن ديدالوس ؟ ومن أين له بكل هذه المادة إذا كان قد حدد لنفسه أربعاً وعشرين ساعة عادية فى حياة هؤلاء الأفراد العاديين ؟

الواقع أن الإجابة على هذا السؤال تلتبس فى منهج جويس وفى أسلوبه . أما المنهج الذى اتبعه فهو منهج « المنولوج الداخلى » كما يسميه النقاد ، أو منهج

« تيار الوعي » كما يسميه علماء السيكولوجيا المشتغلون بالتحليل النفسى .
وأما الأسلوب فيقوم على ما يسمونه « تحرير الألفاظ » .

وجويس ليس مبتكر منهج المنولوج الداخلى أو تيار الوعي بل مكمله .
ومبتكره الأول كاتب فرنسى مغمور يدعى إدوار ديچاردان ، وهو أحد صغار
الرمزيين ، وصاحب قصة « لقد قطعت أشجار الغار » التى ظهرت سنة ١٨٨٧ ،
وهى قصة شاب باريسى دعا إحدى الممثلات إلى العشاء لا أكثر من ذلك ،
وهى تسجل الخواطر التى جالت بذهن ذلك الشاب وبذهن تلك الممثلة فى ذلك
اللقاء . فهى إذا قصة خالية من الحوادث كل الخلو ، قوامها الأفكار والذكريات ليس
غير . وفى شرح منهجه كتب ديچاردان يقول : « المنولوج الداخلى يتصل بالشعر
من حيث إنه ذلك الكلام الذى لا يسمع ولا يقال ، وبه تعبر الشخصية عن
أفكارها المكنونة (أى ما كان منها أقرب إلى اللاوعى) دون تقييد بالتنظيم
المنطقى ، أو بعبارة أخرى فى حالتها الأولى . وسبيل الشخصية إلى هذا التعبير
هو الكلام المباشر الذى يكتفى فيه بالحد الأدنى من قواعد اللغة على نحو يدل
على أن الخواطر قد سُجِّلَت كما ترد إلى الذهن تماماً . » فالإنسان حين يتكلم مع
غيره من الناس يلتزم أصول اللغة حتى يفهم الناس ما يقول . ولكن الإنسان
لا يتكلم مع الناس طول الوقت ، بل إن الكلام لا يشغل من حياتنا اليومية
إلا جانباً يسيراً ، وما بقى لنا من الوقت نقضيه فى التفكير بجميع درجاته وألوانه ،
من التأمل إلى الملاحظة العابرة ، ومن استحضار ذكريات الماضى إلى بناء صور
المستقبل . نخطو الإنسان لا تقل أهمية أو دلالة عن كلامه أو أعماله ، وتسجيلها
واجب على الفنان محتم . والفنان الذى يتوخى الأمانة فى نقل الواقع يحتفظ لكل
شئ بنسبته فى الحياة ، ولو قد فعل ذلك لوجد أن الخواطر وحدها تشغل تسعة
أعشار قصته . أما الكلام والأفعال والحوادث فلا تستهلك إلا العشر الباقى .
وهذه طبيعة الحياة ، فكل من يتصدى لوصف الحياة كما هى ينبغى أن يلتزم هذه
القاعدة . وهذه الخواطر التى يحدث بها الإنسان نفسه ، هذا المنولوج الداخلى
الصامت ، لا يردُّ إلى الذهن فى صورة مرتبة مبوبة تتبع فيها العلة النتيجة ، ويجرى
فيها الكلام طبقاً لأصول الكلام ، ويسبق فيها الماضى البعيد الماضى القريب ،
بل يرد متقطعاً مضطرباً أشبه شئ بشريط السينما إذا امتحن على مهل ، فهو خال
من التابع المنطقى ، متوقف على التابع العاطفى أو الضرورات الآلية كالتداعى

اللفظي مثلاً . وفي عالم الذكريات يتداخل الماضي والحاضر والمستقبل ، ويفقد الزمن معناه كذلك . وما يقال في الكلام يقال كذلك في الانفعالات والإحساسات والصور الذهنية ؛ فمن الأمانة أن تسجل كل هذه الأشياء على وضعها الأصلي فتعفى من الصياغة النحوية والصياغة المنطقية معاً . ولقد وصف الناقد الفرنسي الكبير ريمى دى جورمون قصة ديجاردان هذه بأنها « قصة نقلت إلى الأدب منرج السينما قبل أن تظهر السينما » . وهذا المنهج الذى اهتدى إليه ديجاردان سار عليه مارسيل بروست فى قصته « البحث عن الماضى » وأتقنه ، ولكن جويس هو الذى وصل به إلى حد الكمال . وأوضح مثل على هذا هو نهاية « يوليس » بعد عودة بلوم إلى زوجته روحياً وجسماً . فبعد هذه العودة نرى مسز بلوم مستلقية فى فراشها وقد زال عنها النوم ، تراها تسترجع حوادث الماضى وتستحضر ذكرياتها الداعرة ، وهى تفعل كل ذلك فى منولوج صامت واحد تتداعى فيه الأفكار بلا ترابط ولا نحو ولا منطق ولا تقيد بالترتيب الزمنى ، ويسجلها جويس فى اثنين وأربعين صفحة لا يستخدم فيها علامة واحدة من علامات الترقيم ، فهى نموذج من تداعى المعانى اللامترابط الذى كان الشغل الشاغل لعلماء السيكولوجيا من أتباع مدرسة فرويد فى التحليل النفسى . ولقد أخذ جويس عنهم شيئاً كثيراً أيام انتقل إلى زيوريخ مركز تلك المدرسة إبان الحرب العالمية الأولى . وماريون بلوم تستعرض الآن أيامها فى جبل طارق :

« وأنا أحب الأزهار وأتمنى أن يضيق البيت بالورود . يا إله السموات ما رايت كالطبيعة شيئاً : الجبال الوحشية ثم البحر وأمواجه المتدافعة ثم الريف الجميل بحقوله ذات القمح والشعير وسائر ضروب النبت والقطعان الكبيرة ، ينعش الفؤاد مرأى الأنهار والغدران والأزهار من كل شكل ولون ورائحة ، تتفتح فى كل مكان حتى فى شقوق الأرض البنفسج والأزهار الصفراء الباهتة . وهذه هى الطبيعة ، فمن ينكرون وجود الله فعلمهم الغرير لا يساوى خردلة . وكثيراً ما سألت الملحدين إن كان هذا اسمهم أن يخلقوا شيئاً إذا استطاعوا ، فإذا دنت وفاتهم يطلبون القسيس بالحاح . ولم يفعلون ذلك ؟ لأنهم يخافون نار الجحيم لفساد ضمائرهم . نعم أعرفه حق المعرفة أعرف الشخص الذى كان فى الكون قبل الخليفة . الشخص الذى خلق كل ذلك الشخص الذى هذا لا يعلمونه وما لا أعلمه أنا فالأمر هين

فليحولوا غداً دون إشراق الشمس إذا استطاعوا . إن الشمس تشرق من أجلك يا فاتنتي ، هذا ما قاله لي يوم كنا نرقد بين الأزهار في هاوث ، وكان في رأسه في سترته الرمادية المصنوعة من الخيش وقبعته المصنوعة من القش ، في ذلك اليوم أوحيت إليه أن يعرض على الزواج ، نعم أعطيته أولاً قطعة من الكعك كانت في فمي وكانت السنة سنة كبيسة كهذه السنة ، منذ ستة عشر سنة يا إلهي ! بعد تلك القنبلة الطويلة كدت أفقد وعي ، نعم قال إني زهرة الجبل ، نعم نحن كلنا أزهار الجبل نحن النساء ، فحسن المرأة زهرة ، وهذه هي المرة الوحيدة التي صدق فيها طول حياته ، والشمس تشرق من أجلك اليوم يا فاتنتي ، نعم هذا سر ميلي إليه ، فقد أدركت أنه يفهم قدر النساء أو يحس بحقيقتهم ، وأدركت أنني سأستطيع أن أنفذ مشيئتي فيه دائماً ، أعطيته كل ما أراد من متعة ، واستدريجته حتى سألتني أن أقول نعم ، ولم أجب أول الأمر بل تطلعت إلى البحر والسماء أفكر في شتى الأشياء ، لم يكن يدرى بملقى ولا بمستر ستانهوب ولا بهستر ولا بأبي وكايتن جروفر العجوز والبحارة الذين كانوا يلعبون القفزة وأنا أقول طأطأوا ويسموننا غسل الأطباق ، والديديان الواقف أمام دار الحاكم وحول خوذته البيضاء ، مسكين شوته الشمس أو كادت ، والبسات الآسبانيات يضحكن لابسات الشيلان والدوايب الطويلة ، والمزاد في الصباح يشهده اليونانيون واليهود والعرب وكل جنس وملة من أقصى أوروبا إلى أقصاها ، وشارع الدوق وسوق الدجاج ولغط الدجاج أمام حانوت لاربي شارون ، والحمير المسكينة يكاد يغلبها النعاس والفتيان الذين لا تعرف لهم صناعة ناعمين في الظل على درج السلم ، والعجلات الكبيرة في عربات الثيران والقلعة القديمة التي بلغ عمرها آلاف السنين ، نعم وأولئك المغاربة ذوو الوجوه الوسيمة كلهم معممون كأنهم الملوك يسألونك أن تشرفهم بالدخول في حوانيتهم الصغيرة ، وروندا والنوافذ القديمة تطل خلصة وأخفت خشب النافذة حتى يقبل عاشقها الأسياخ الحديدية ، والحانات التي لا تفتح تماماً ولا تقفل تماماً أثناء الليل ، وصاجات الراقصات وليلة أن فاتتنا الباخرة في الخسiras والجارس يتجول بمصباحه منشرحاً ، والسيل المدرار ...

يا لي ويا لي البحر البحر آناً قرمزي كأنه النيران والشفق العظيم ، وأشجار التين في حدائق الأاميدا ، نعم والشوارع الضيقة الغربية كلها والبيوت الوردية والزرقاء والصفراء وحدائق الورد والياسمين والجيرانيوم والصبار وجبل طارق واقفاً

كالبنات هناك ، كنت زهرة الجبل ، نعم هناك كنت أضع في شعري وردة كما
تفعل بنات الأندلس ، وهل ألبس ثوباً آخر ؟ نعم كم قبلني تحت الحائط المغربي
قلت لا فرق بينه وبين سواه فلا تزوجه ، ثم سألته بعيني أن يسألني مرة أخرى
نعم ثم سألتني مرة أخرى نعم سألتني أن أقول نعم يا زهرة الجبل ومانقته أول مرة
وجذبتني نحوي ليحس ثديي وينشق عيرها وكان قلبه يركض ركض مجنون وقلت
نعم قلت نعم سأزوجك نعم . »

وكما حرر جويس المعاني من قيد النحو والمنطق والتناسك الزمني كذلك
حرر الألفاظ من قيد المعاني ومن قيد العرف ومن كل قيد معروف . فهو
يبيع لنفسه أن يدغم كلمة في أخرى وأن ينقل حروف كلمة إلى كلمة أخرى ، وأن
يشترك ما شاء من الألفاظ التي يروقه جرسها سواء أكانت ذات معنى أم كانت
ليست بذات معنى ، فللجرس عنده المقام الأول ، والمعنى عنده ليس ذهنياً فقط
بل هو لفظي كذلك ، والبلاغة الموسيقية التي يتصف اللفظ بها تغني عن كل بلاغة
في المعنى . وعلى الجملة فهو يجعل الألفاظ تقف على رؤوسها كما يقولون . ومن هنا
كثرت في أسلوبه الألفاظ الجميلة المنحوتة من أصل معروف أو من أصوات
غير معروفة وأغلبها يشبه هذيان المجانين . وجويس ليس أول من أقدم على هذا
الكلف بالأصوات المجردة في الأدب ، فقد سبقته إلى ذلك مدرسة الرمزيين في
فرنسا ، وقد كان إمامها ستيفان مالارمييه يقول : « إن الشاعر يستسلم لسلطان
اللفظ » ، وكذلك كان ريمبو يقول : « لقد رضت نفسي على الهذيان الخفيف .
ثم ذهبت أعبز عن هذا الهذيان السحري بهذيان لفظي . . . وانهت بي الأمر
إلى تقديس خيالي المخبول . » أما جويس فقد التقى مرة بـ ستيفان زقايج في
زيوريخ فأنكر أمامه كل صلة له بالإنجلترا وأصر على أنه إيرلندي صميم ، فهو
يكتب بالإنجليزية حقاً ، ولكنه في الواقع لا يفكر بها ولا يريد أن يفكر بها ،
قائلاً : « أتمنى أن تكون لي لغة أعلى من جميع اللغات ، لغة يضيف إليها كل
شعب من عنده شيئاً ، فما من مرة فكرت فيها بالإنجليزية إلا وجدت نفسي
حبيساً في تقاليد الإنجليز » . وهذا وصف ما جرى في غرفة النوم حين عاد بلوم
يوليس إلى ماريون ينلوب أخيراً بعد تجواله ، وذهب يقص عليها ما صادفه في غيبته
من أمور . والسرد يبدأ بلغة الملاحين ، وينتهي بفقرة من « أوديسا » هوميروس :
« في أي اتجاه كانت السامعة ترقد ، والسارد في أي اتجاه كان يرقد ؟ »

« السامعة : الجنوب الشرقي مائة نحو الشرق . السارد : في الشمال الغربي ، مائلا نحو الغرب : على خط عرض ٥٣ شمالا ، وعلى خط طول ٦ غربا بزاوية قدرها ٤٥ درجة بالنسبة إلى خط الاستواء الأرضي .

« أكانا ثابتين أم كانا يتحركان ؟

« كانا ثابتين كل بالنسبة إلى الآخر ، وكانا يتحركان معاً نحو الغرب وإلى الأمام وإلى الخلف على التعاقب تبعاً لحركة الأرض الدائمة في مسالك تتغير أبداً في فضاء لا يتغير أبداً .

« وكيف كان وضعهما ؟

« السامعة : ترتاح في خط أفقي تقريباً على جانبها الأيسر ، يدها اليسرى تحت رأسها ، وساقها اليمنى تمتد في خط مستقيم وترتكز على ساقها اليسرى ، وهي منحنية على طريقة جيا - تلوس ، أمنا الأرض ، مسترخية بعد أن أخصبت .

« السارد : يرقد على جانبه الأيسر ، ساقاه محنيتان وسبابه يده اليمنى وإبهامها ترتاحان على وسط أُنْفِه على طريقة ترى في صورة فوتوغرافية صورها يرسى أَيْچون للرجل الطفل وهو متعب ، للطفل الكامل النمو داخل الرحم .

« الرحم ؟ وماذا أَلْعَبُه ؟

« إنه متعب بعد طول السفر .

« مع رفاقه . ومن رفاقه ؟

« السندباد البحري . السندباد البحار والصندباد الصياد والخندباد الخياط والنندباد النجار والخندباد الحداد والفندباد الفلاح والبندباد البناء والهندباد الهجاء والرندباد الرقاص والكندباد الكشاف والدندباد الدساس والطندباد الطحان والزندباد الزمار والسجندباد السجان والغندباد الغثغاء .

« متى كان ذلك ؟

« حين مضى إلى الفراش المظلم فوجد مربعاً حول بيضة الفرخ ، فرخ الرخ ، رخ السندباد البحري في ليلة الفراش ، فراش كل فرخ ، فرخ كل رخ ، رخ مظلمباد النوار .

« وأين كان ذلك ؟

« وكانت هذه آخر كلمة في قصته ، فقد عالج النوم الجميل الذي تسترخي به أطراف الرجال ، وأبرأ النوم روحه من همومها .»

وهذا الأسلوب يفسر قول العالم السيكولوجي الكبير يونج : «إن «يوليس» قصة لا بداية لها ولا نهاية ، وإن في الإمكان قراءتها من أولها إلى آخرها وقراءتها من آخرها إلى أولها . ولكن جويس وأنصاره لا يرون هذا الرأي ، وإنما يرون «يوليس» عملاً فنياً محكماً يقوم على تصميم دقيق . وفي هذا يقول جويس لماكس أيسمان : «إن ما أطلبه من قارئ هو أن يخصص كل حياته لقراءة أعماله .»

وسواء اتفقنا على أن جيمس جويس إمام من أئمة القصة أم لم نتفق ، فلا جدال في أنه ظاهرة اجتماعية لا يمكن تجاهلها ؛ فأدبه ينتمي في صلبه إلى النصف الأول من القرن العشرين دون سواه ، وهو يدل على الطور الحضاري الذي تمر فيه أوروبا الآن أصدق دلالة .

ولكن جويس من ناحية أخرى إيرلندي وكاثوليكي ، فالصراع الذي نجده في أدبه صراع بين القديم والجديد في بلد محلي الثقافة متأخر الاقتصاديات . وثورته على الكاثوليكية ثورة على ثقافة إقطاعية ، وثورته على إيرلندا ثورة الفنان العالمي الذي تمددت نفسه فتجاوزت تخوم الأقاليم . فبعض المشاكل التي اضطربت لها نفس جويس كل هذا الاضطراب لا تمت إلى التطور العالمي في جيلنا هذا ، وإنما هي مشا كل ثانوية محلية فرغت الإنسانية الكبرى من حلها أيام حركة الرنيسانس . وثورة جويس من هذه الناحية ثورة فاوستية ، كما يقولون . والثورة الفاوستية في جوهرها هي ثورة القوة الفردية الكامنة التي ترقى إلى النمو الفكري والاجتماعي ، على القوة الخارجية المكبلة التي ترقى إلى الاستقرار الفكري والاجتماعي ، وهذه ثورة البورجوازية الأوروبية على الإقطاعية الأوروبية ، وهي ثورة تمت منذ قرون ، وظهورها في أدب الإيرلنديين المعاصرين لا دلالة له إلا أن إيرلندا متخلفة في ركب المدنية . ولقد يثور الفرد المتحضر الآن في صباه على الأفكار والقوانين الاجتماعية القائمة ، ولكن تلك الثورة لا تترك في نفسه كل هذه الرواسب والعقود النفسية التي لازمت جويس مدى الحياة ، بل تنجلي عن تحرر تام يتبعه الاهتداء إلى مجموعة من القيم الإيجابية الجديدة . وكثرة هذه الرواسب والعقود في نفس جويس إن دلت على شيء فهو أن الصراع بين الداخل والخارج فيه كان صراعاً مخيفاً متلفاً . وهذا الصراع

المخيف المتلف إن دلّ على شيء، فهو أن البيئة الأيرلندية بيئة متحجرة تنوء على الفرد بكلّها فتحطم شخصيته تحطيماً .

ولكن جويس في صميمه يعبر عن الطور الحضارى الذى تمر فيه الإنسانية في جيلنا هذا . فأدبه أدب فردى ذاتى انطوائى مسرف فى الفردية والذاتية والانطوائية . وهو لا يصور ما يحدث فى المجتمع من حوادث ، بل يصور ما يتولد فى نفس الفرد من أفكار . والخواطر الشخصية مهما بلغت تفاهتها أقدم عند جويس من الأفعال مهما بلغت خطورتها . فموضوع « يوليس » هو ذهن الإنسان بعد عزله عن المجتمع ، لا سلوك الإنسان فى صلاته بالمجتمع . والمشاكل التى تشغل أبطال « يوليس » مشاكل شخصية لها أهميتها حقاً ولكن ليس لها ما يقابلها فى الحياة العامة . وهى على خطورتها بالنسبة إلى أصحابها لا تتصل بمشاكل الرجل العادى فى حياته العادية أو فى تفكيره العادى . فهى مشاكل خاصة لنماذج بشرية خاصة ، مشاكل لا يشترك فيها إلا الأقلون . والعدم حساسية جويس الاجتماعية أمر يلفت النظر ؛ فليس فى أدبه أى صدى للحرب العالمية الأولى ، وهو الذى عاش فى أثنائها فلم تكتو روحه بشررها ، وهو الذى عاش بين قصف المدافع أصم لا يسمع الزئير ، بل ذهب يكتب ، وكأنه يعيش على كوكب آخر ، عن مدير الإعلانات ومتاعبه الزوجية ، وعن زوجته المستهترّة وعهارتها وعن ولدها المتبنى ، وهو حالة مرضية أولى بها الأطباء النفسيون . وليس معنى هذا أن فردية جويس تغض من قيمته الفنية ؛ فهو فنان ضخم قل نظرائه بين القدماء والمحدثين . وأقل ما يقال فى تقديره أنه الفنان بمعنى الكلمة ، الفنان الذى أخلص لفنه ، فابتعد به عن الأيديولوجيات وزعازعها ، والفلسفات الاجتماعية ودواماتها ، فلم يمزج أدبه بوجهة نظر ، ولم يدس السم فى أعماله للجيل الجديد كما فعل عبقرى رجعى مثل ت. س. إليوت أو مشعوذ قدير مثل أولدس هكسلى ، أو محمود هائج مثل د. ه. لورانس . وإنما أخلص جويس لفنه وحده ، وهذا يجعله أهون الفردين خطراً وأقلهم جناية على روح الإنسان . فإذا لم تكن للفنان رسالة بنائية فى الحياة ، فخير له والناس أن يعنى المجتمع من الهدم . و« يوليس » مجرد سمسوجراف يسجل الاضطرابات المرضية التى تعانيها البورجوازية الأوروبية فى فترة اضمحلالها ، ويصور حطام مؤسساتها بعد أول زلزال .

وأذب چويس مظهر آخر من مظاهر الثورة على العقل التي شاعت في ثقافة أوروبا منذ نهاية القرن الماضي . وهو كذلك ؛ لأن فيه انسحاباً من الوعي إلى اللاوعي ، وهو انسحاب لا تلجأ إليه إلا النفس المهزومة . والإحساس بالهزيمة ظاهرة من الظواهر المألوفة بين فلاول المفكرين والفنانين الفرديين . وما منشؤه إلا الشعور بأن عصر الفرد قد انتهى إلى غير رجعة ، وبأن القيم الاجتماعية الجديدة لا سبيل إلى قهرها . ومن لم يرض بحاضره عاش في ماضيه ، ومن لم يرض بما يجري حوله انطوى على نفسه . ومن لم يرض بواقعه دخل في قوقعة اللاوعي واعتصم بها خوفاً وإشفاقاً . مفكرو البورجوازية وفنانوها اليوم واثقون من أن الأرض تسوخ تحت أقدامهم . ولقد فقدوا صفة الكفاح التي كانت لأسلافهم من المفكرين الفرديين والفنانين الفرديين ، فانفصلوا عن تيار الحياة وانزوى كل في برجه العاجي ينعمى حطام حضارته التي تنهار ، أو يكتفى بتصويره . وچيمس چويس بهذا المقياس نهاية حضارة تبديد ، لا بداية حضارة تنمو . ولعل خير ما قيل فيه هو حكم الكاتب الروسي ميرسكى عليه بأنه قد شيد لنا هرمًا شامخاً جميلاً حقاً ، ولكن العالم الجديد ليس بحاجة إلى أهرام ، بل إلى خزانات كيخزان الدينير.

لويس عوض

كتاب اليتيمة

لابن المقفع

لا أقصد في هذا الفصل أن أتحدث عن ذلك الكتاب الذي نشره الأمير شكيب أرسلان ، في أواخر القرن التاسع عشر ، باسم الدرة اليتيمة ، تبعا للمخطوطة التي نشره عنها ، ثم نشره الاستاذ كرد علي ، بهذا الاسم أيضا ، في مجموعة رسائل البلغاء ؛ فليس هناك شك في أن الاسم الصحيح لهذا الكتاب هو الأدب الكبير أو الآداب ، كما كان ابن قتيبة يسميه فيما ينقل منه في كتابه « عيون الأخبار »

وإنما أعني كتاب اليتيمة الذي كان يطلق عليه هذا الاسم في العصر الذي وضع فيه ، والذي تعرض لما تعرض له معظم كتب ابن المقفع من طغيان العصور وآفات الزمن ، فضايع فيما ضاع من ذلك التراث الأدبي ، ثم انقرض من دونها بكثير من الغموض والابهام ؛ إذ اختلفت فيه كلمة العلماء ، واضطربوا في صفته ، وبيان موضوعه ووجهته . وفي هذا ما يضاعف شقة الباحث الذي يلتمس تبين صورة له ، ورسم شيء من خطوطه وملاحجه ، ووضعه في مكانه بين آثار ابن المقفع الأخرى ، وتعرف الصلات التي تربطه بالتيارات السياسية والأدبية والعقلية في عصره ، ولا سيما إذا علمنا أنه كان من أجل كتب ابن المقفع خطرا وأكبرها منزلة ، وقد أتيح له من الشهرة وذيوع الصيت ما جعله حديث الأدباء ، ومضرب المثل في البراعة وجودة الأداء ، كالذي نراه في ذكر أبي تمام له في إحدى مدائحه للحسن بن وهب ، إذ يقول :

ولقد رأيتك والكلام لآلى	تؤم ، فبكر في النظام وثيب
فكأن قسا في عكاظ يخطب	وكأن ليلى الأخيلية تندب
وكثير عزّة يوم بين ينسب	وابن المقفع في اليتيمة يسهب

وكما نراه في صفة أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور له ، إذ يقول :
« ومن الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه ، وهي أركان البلاغة ،
ومنها استقى البلغاء ؛ لأنها نهاية في المختار من الكلام ، وحسن التأليف والنظام ،
الرسالة التي لابن المقفع ، وهي اليتيمة ؛ فإن الناس جميعا مجمعون على أنه لم يعبر
أحد عن مثلها ، ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها » . وكذلك يجعله ابن النديم
أحد كتب خمسة ، يقول إنها الكتب المجمع على جودتها .

وقد استطارت هذه الشهرة إلى القرن الحادي عشر للهجرة ، فرى حاجي
خليفة يصفه في « كشف الظنون » بأنه كتاب لم يصنف في فنه مثله . وسواء
أكان حاجي خليفة يتحدث بهذا عن « اليتيمة » التي نعيها والتي يذكرها طيفور ،
أم يتحدث عن كتاب آخر من الكتب التي نحت هذا الاسم ، ونسبت إلى ابن
المقفع ، كما زجح ، فأكبر الظن أنه بعبارته هذه يردد صدى تلك الشهرة التي
استفاضت بين الناس .

وقد كان جديراً بهذا الذي أتيح لكتاب « اليتيمة » من ذبوع الصيت وارتقاع
المرتلة وما يتبعهما من الحرص عليه ، أن يقيه عوادي الأيام . ولكننا نحسب
أن هذا نفسه كان من أول الأسباب التي جنت على هذا الكتاب وعرضته
للضياع ؛ إذ كان هو الذي زين للوراقين أن يستغلوا هذا الاسم الذائع الرفيع :
« اليتيمة » فيطلقوه على غير مسماه من كتب ابن المقفع . بل لعلهم لم يكتفوا
بذلك ، فذهبوا يطلقونه على ما شاءوا من الكتب التي يرجون لها الرواج .
وأكبر الظن عندنا أن الكتّابين الذين يذكرها حاجي خليفة في سياق كلامه
عنه : « عظة الألباب » و « التهمة » ويذكر أنهما مختصران له ، ويصف أحدهما
بأنه « مشتمل على الحقائق والمعاني وأخبار السادة الصالحين » إنما جاء من هذه
السبيل ، وأنهما لا يمتان ليتيمة ابن المقفع بسبب .

وبهذا الذي صنعه الوراقون ، وهو أمر معروف فيهم ، إلى جانب ما سنشير
إليه بعد قليل ، اختلط الأمر في كتاب اليتيمة ، وتنكرت معالمه ، فلم يكن شيء
أيسر بعد ذلك من أن تذهب « اليتيمة » الحقيقية في غمرة الأيام والأحداث .
ويكفي أن نعلم أنه في القرن الرابع وحده كانت « اليتيمة » تطلق على كتب ثلاثة
مختلفة ؛ فابن النديم يصفها في الفصل الذي كتبه عن ابن المقفع بأنها « في الرسائل » .
ويفهم من هذا الوصف ، ومن جعله الكلام عن ابن المقفع في الباب الذي جعل

عنوانه : « تسمية الكتاب المترسلين ممن لرسائله كتاب مجموع » أن اليتيمة هو الاسم الذي أطلق على مجموع رسائل ابن المقفع . ويذهب القاضي أبو بكر الباقلاني (من علماء ذلك القرن) إلى أن « اليتيمة » أو « الدرة اليتيمة » تطلق على كتابين : أحدهما في الحكم والآخري في الإلهيات ؛ وذلك حيث يقول في كتابه : « إعجاز القرآن » في الفصل الذي عقده للكلام « في الدلالة على أن القرآن معجز » :

« وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى « الدرة اليتيمة » وهما كتابان : أحدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل ، فليس فيها شيء بديع من لفظ أو معنى . والآخري في شيء من الديانات وقد تهوَّس فيه بما لا يخفى على متأمل . وكتابه الذي بيناه في الحكم منسوخ من كتاب بزرجمهر في الحكمة . »

وإلى هنا نرى أن كتاب « اليتيمة » يوصف مرة بأنه في الرسائل ، على لسان ابن النديم ، وأخرى بأنه في الحكم ، وثالثة بأنه في الإلهيات ، على لسان أبي بكر الباقلاني .

وفي ذلك النص الذي أوردناه للقاضي أبي بكر ما لعله يشير إلى بعض الأسباب والملايسات التي كانت تدفع إلى الخلط ، إلى جانب ما ذكرنا ، وهي ترجع إلى نشاط « الزنادقة والملاحدة » في توهين أمر الإسلام بالطعن على القرآن وإنكار إعجازه . وهو نشاط بلغ غاية بعيدة في القرن الثالث والرابع ، فكان من سبيلهم إلى هذا أن يتلمسوا الآثار الأدبية التي يصح عندهم أن يقال إنها في معارضة القرآن . فلعلهم وجدوا في الكتابين اللذين ذكرهما الباقلاني ما يسد هذا الموضع ويعنى ذلك الغناء . وإن كان كتاب « اليتيمة » أولى باسمه وبذووع صيته منهما في ذلك ، فلم يكن لهم بد ، تماما على ما يقصدون إليه ، من أن يتزعا عنهما اسميهما ويخلعوا عليهما ذلك الاسم ؛ إذ كان أليق بغرضهم وأكثر اتساقا مع الدعوى التي يدعونها . فهذا — فيما نحسب — سبب من أسباب الخلط في شأن ذلك الكتاب ، على النحو الذي نراه في القرن الرابع .

فإذا كان القرن الخامس وجدنا وصفاً رابعاً له عند أبي القاسم ضاعد بن أحمد الأندلسي ، في كتابه « طبقات الأمم » ؛ فقد عرض لهذا الكتاب في جملة عرضه لكتب ابن المقفع ، فقال : « . . . وله تأليف حسان ، منها رسالة في الآداب

والسياسة ، ومنها رسالته المعروفة باليتيمة في طاعة السلطان . وقد جاءت هذه العبارة بنصها أيضاً في كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة (من علماء القرن السابع) . وإذن فكتاب اليتيمة عند صاعد الأندلسي ثم عند ابن أبي أصيبعة الدمشقي ليس بمجموع رسائل ، ولا هو كتاب في الحكم أو في الإلهيات ، وإنما هو كتاب آخر يعالج موضوعاً معيناً أدنى إلى أن يكون من موضوعات السياسة ، هو « طاعة السلطان » .

وهكذا نرى إلى أى حد تضطرب الأوصاف المتعلقة بهذا الكتاب ، حتى يكاد يضيع الحق بينهما .

وبعد فما عسى أن تكون الوسيلة في مثل هذه الحالة إلى تحقيق هذه القضية والفصل فيها ، أو على الأقل ترجيح أحد هذه الأوصاف على سائرهما ، إلا أن تكون محاولة الكشف عن بعض النصوص من هذا الكتاب ومقارنتها ؟ ونحن نملك حتى الآن — قدر ما أتيج لي معرفته — قِطْعاً ثلاثاً منسوبة إلى كتاب « اليتيمة » ، ترجع اثنتان منها إلى القرن الثالث في المشرق ، وترجع الثالثة إلى القرن الخامس في الأندلس . ونستطيع أن نطمئن إلى أن القطعتين الأوليين — على الأقل — صحيحتا النسبة إلى « يتيمة » ابن المقفع قبل أن تعبت بها أيدي المزورين من الوراقين وغيرهم ؛ فأولاهما جاءت في كتاب المنظوم والمنثور لطيفور ، والثانية في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة . وكلا الرجلين عالم أديب صحيح البصر فيما يروى ، إلى جانب قربه — شيئاً ما — من عهد المؤلف . وسنرى أن القطعتين تتواردان على موضوع واحد ، مما يقوى رأينا في الاطمئنان إليهما ، وصحة الاستشهاد بهما . كما سنرى بعد أيضاً أن القطعة الثالثة — وقد جاءت في كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر النمرى — بعيدة عن التهمة ومظنة الشبهة . ولعلنا نستطيع بهذه القطع ، إلى جانب الفصل في قضية اليتيمة ، أن تتمثل شيئاً ما ، صورة من هذا الكتاب .

أما القطعة التي أوردها طيفور فقد نص في المقدمة لها على أنها من صدر كتاب « اليتيمة » ؛ فلنا بذلك أن نعتبرها نوعاً من المقدمة له ، يشرح فيها غرضه ، ويبين فيها طرفاً من الدوافع والملايسات التي حفزته إلى كتابته . وكذلك نجد الأمر في هذه القطعة ، فلا نخطئ فيها هذين الجانبين ، كما لا نخطئ فيها أسلوب

ابن المتفجع بأخص خصائصه . ويستطيع القارئ أن يرجع إليها في مجموعة « رسائل البلغاء » .

وأول ما يلاحظ في هذه « المقدمة » أنها قد بنيت بناءً محكم الترتيب ، فأولها في أخلاق الناس أو « الرعية » في ذلك العهد ، ووسطها في الكلام عن علاقة ما بين الراعي والرعية ، وآخرها في الكلام عن راعي الناس في ذلك الوقت ، أو الإمام . فهو قد جمع فيها أطراف النظام السياسي ، وتكلم عن كل طرف على النحو الذي يسوق الكتاب له .

فأما كلامه عن « الرعية » فهو وصف بليغ — وينبغي أن يكون صحيحاً دقيقاً أيضاً — لأخلاق الناس وسلوكهم في هذه الفترة المضطربة ، في أول عهد الدولة العباسية . بل لعله من خير ما يوصف به الناس — بوجه عام — في مثل هذه الفترة من فترات الانقلاب السياسي ، حين تترايل الأخلاق ، ويشيع في الناس الشك والقلق وسوء الظن ، وتزول من بينهم الطمأنينة ، ويكثر فيهم الإنكار والتوثب والجموح ، ويعيث فيهم الفساد في جميع نواحيهم : « فقائلهم باغ ، وسامعهم عياب ، وسائلهم متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير سليم من الهزل والاستخفاف ، ومستشيرهم غير موطن نفسه على إنقاذ ما يشار به عليه ، ومصطبر للحق مما يسمع ، ومستشارهم غير مأمون على الغش والحسد وأن يكون مهتاكاً للستر ، مشيعاً للفاحشة ، مؤثراً للهوى . والأمين منهم غير متحفظ من ائتمان الخونة ، والصادق غير محترس من حديث الكذبة ، وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة . يتقارضون الثناء ، ويترقبون الدول ، ويعيبون بالهمز . يكاد أحزمهم رأياً يلفته عن رأيه أدنى الرضا وأدنى السخط ، ويكاد أمتنهم عوداً أن تسحره الكلمة ، وتسكبه اللحظة . » إلى آخر هذا الوصف الذي يعتبر وثيقة من أحسن الوثائق التي تصور لنا حالة الشعب النفسية في تلك الفترة .

وأما كلامه عن علاقة ما بين الراعي والرعية وصور هذه العلاقة ، فقد بناءً على نوع من التقسيم المنطقي ، مداره هذان الطرفان مضروبين في حالتى الصلاح والفساد ، على نحو يذكرنا بما هو شائع في كثير من كتب المتأخرين ، فتكون الحالات أربعة مرتبة هذا الترتيب : فخيرها ما اجتمع فيه صلاح الراعي والرعية ، فيؤدى الراعى إلى الرعية حقهم في الرد عنهم وتدير شؤونهم ، وتؤدى الرعية

إلى الراعى حقه فى المودة والمناصحة والطاعة . ثم تلى هذه الحالة أن يصالح الإمام وتفسد الرعية . ثم عكس هذا : أن تصالح الرعية ويفسد الراعى . ثم شرها جميعاً وهو ما اجتمع فيه فساد الراعى والرعية .

والذى يعنى ابن المقفع من هذه الحالات الأربع هو الحالة الثانية . فأما الناس أو الرعية فهم هؤلاء الذين تحدث عنهم ووصف الفساد الشائع فيهم فى أول هذا الفصل . وأما الإمام فقد خصه بالقسم الأخير منه ، وقد جعل يردد الكلام فيه بين ناحيتين : سيرته التى يسير بها فى رعيته ، ومعدنه الذى يرجع إليه ويمت به . فيقول فى الأولى مثلاً : « ... قد رأينا حظه من الله عز وجل فى التثبيت والعصمة ، فلم يبرح الله يزيد خيراً ، ويزيد به رعيته مذكراً ، فعندنا من هذا وثائق من عبر وبيانات » . ثم ينتقل من هذا إلى أسلوب من الرجاء ، ليكون له بذلك أسلوب آخر فى الإقناع ، فيقول : « ونحتسب من الله عز وجل ألا يزال إمامنا يسارع فى مرضاة ربه ، بالاستصلاح لرعيته ، والصبر على ما يستنكر منهم ، وقلة المؤاخذة لهم بذنوبهم ، حتى يقرب الله له بصلاحه قلوبهم ويفتح له أسماعهم وأبصارهم ، فيجمع ألفتهم ، ويقوم أودهم ، ويلزمهم مرشد أمورهم ، وتتم نعمة الله على أمير المؤمنين بأن يصلحوا له وعلى يديه ، فيكونوا رعية خير راع ، ويكون راعى خير رعية ، إن شاء الله وبه الثقة » . وأما الناحية الثانية ، وهى معدن الإمام « فإن أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسبة ، وأولاهها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبي الرحمة ، وإمام الهدى ، ووارث الكتاب والنبوة والمهيمن عليهما ، وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ثم هو باعته يوم القيامة مقاماً محموداً . شرع الله به دينه ، وأتم به نوره ، ومحقق به رءوس الضلالة وجبايرة الكفر ، وخوثة الشفاعة ، وجعله فى الرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم . »

فهذا تحليل الفصل الذى اعتبرناه « مقدمة اليتيمة » حاولنا فيه أن نبرز خطوطه الرئيسية وقسماته البارزة . ومنه يتبين لنا مبلغ ما فى ذلك رأى السائد عن « اليتيمة » — وهو رأى المستوحى من الباقلانى — من مجانية للصواب ، وأن ذلك الوصف الذى وصفه صاعد الأندلسى به ، وهو « طاعة السلطان » ، وهو الوصف الذى لم يكده أحد يلتفت إليه ، هو الحق الذى لا ريب

كتاب القيمة لابن المقفع

فيه . كما تثبت لنا منه أيضاً بعض الدوافع التي حفزت ابن المقفع لكتابته ، وهي تلك الفتن والثورات التي غمرت العالم الإسلامي في تلك الفترة ، والتي كانت تربص بالدولة وتتوئب عليها ، ولا سيما في مدينة البصرة حيث كان يقيم ، فكتب كتابه هذا — وهو يشعر بالخطر الذي يهدد هذه الدولة الصديقة — مدافعاً مناخاً محتجاً عنها خاصة وعن السلطان عامة ، يدعو الناس إلى الهدوء ، ويرغبهم في الطاعة ، ويبيصّرهم مغبة المعصية ، ويسلك في هذا الإقناع السبل المختلفة ، بين اللين والشدّة ، وبين مخاطبة العقل واستثارة العاطفة الدينية ، إلى غير ذلك مما نرى نحواً منه في قطعة طيفور هذه ، ونحواً آخر في القطعة الثانية ، وهي قطعة ابن قتيبة (١) .

وهذه القطعة مبنية على افتراض يدعو إليه الإقناع ، وهو أن في السلطان شراً إلى جانب ما فيه من خير . ولعل هذا الافتراض كان من بعض نواحيه أثراً من آثار الدعوة التي كانت طائفة من الخوارج يبشّونها ، منكرين وجوب الإمامة ذاهبين في تأكيد رأيهم وتأيد دعوتهم المذاهب المختلفة ، من بيان الشرور التي صحبت الإمامة وما زالت تصحبها ، فكان لا بد لابن المقفع من أن يتأتى للرد على هذا في ترفق وكياسة ، مستعيناً ببلاغته وثنويته جميعاً ، فكتب هذا الفصل الذي نقله ابن قتيبة في أول كتاب السلطان ، وأخذ يضرب فيه الأمثال لقليل مضار السلطان في جنب منافعه ، بامتزاج الخير والشر في جميع ما أفاء الله على أهل هذه الدنيا . فالسلطان عنده نعمة من نعم الله التي أتاحها لعباده ، وقدّر لها خيراً كالغيث والرياح والصيف والشتاء والليل والنهار . وما قد يصحب السلطان من أذى وضر فإنما هو بقدر ما لا بد منه في سنن الكون ونواميس الخليقة ، على نحو ما في «الغيث الذي هو سقيا الله وبركات السماء وحياة الأرض ومن عليها ، وقد يتأذى به السفر ، ويتداعى له البنيان ، وتكون فيه الصواعق .. وتدر سيوله فيهلك الناس والدواب ، وتموج له البحار ، فتبشتد البلية منه على أهله .

(١) لا ريب عندنا في أن هذه القطعة صحيحة النسبة إلى قيمة ابن المقفع ، وإن كان ابن قتيبة قد أغفل في إسنادها النص عليه ، إذ اكتفى في ذلك بقوله : « وقرأت في القيمة » إذ كان صاحبها في ذلك الوقت متعيناً كما يظهر . ذلك أن الثعالبي يورد في كتابه « ثمار القلوب » فقرات من هذه القطعة ، مع النص على أنها من قيمة ابن المقفع . وهذا دليل مادي يضاف إلى ما يشهد به أسلوبها وموضوعها .

فلا يمنع الناس إذا نظروا إلى آثار رحمة الله في الأرض التي أحياها ، والنبات الذي أخرج ، والرزق الذي بسط ، والرحمة التي نشر ، أن يعظموا نعمة ربهم ويشكروها ، ويأثروا ذكر خواص البلايا التي دخلت على خواص الخلق » إلى غير ذلك من الأمثال التي يشرحها في براعة وجمال . وإذا كانت هذه سنة الله في خلقه ، فليس في هذا الأذى الذي قد يحسه الناس في السلطان ما يدعو إلى الشك في أنه نعمة من نعم الدنيا ، أو يدعو إلى الخروج عليه أو التحلل من طاعته . وأما القطعة الثالثة فقد أوردها ابن عبد البر في سياق الأقوال المختلفة في كراهية الرأي ووجوب الرجوع في أحكام الدين إلى السنة والأخذ بالآثار الصحيحة ، وكان ذلك مذهب عامة أهل البصرة ، ووجهها من أوجه الخلاف بينهم وبين الكوفيين . وقد يبدو أول الرأي أن هذه القطعة بعيدة عن موضوع اليتيمة الذي رأينا ، وملاساتها التي لاحظنا ، وذلك إذ يقول فيها :

« ولعمري إن لقولهم ليس الدين خصومة أصلا يثبتته . وصدقوا ، ما الدين بخصومة . ولو كان خصومة لكان موكولا إلى الناس يثبتونه بأرائهم وظنهم . وكل موكل إلى الناس رهينة ضياع . وما ينقم على أهل البدع إلا أنهم اتخذوا الدين رأيا ، وليس الرأي ثقة ولا حتما ، ولم يجاوز الرأي منزلة الشك والظن إلا قريبا ، ولم يبلغ أن يكون يقينا ولا ثبता . ولستم سامعين أحدا يقول لأمر قد استيقنه وعلمه : أرى أنه كذا وكذا . فلا أجد أحدا أشد استخفافا بدينه ممن اتخذ رأيه ورأي الرجال دينا مفروضا . »

ولكن هذا لا يكفي في حملنا على الشك في نسبة هذه القطعة إلى اليتيمة التي يذكرها صاعد ، معاصر ابن عبد البر ومواطنه ، إذ ينبغي أن نلاحظ أولاً أنها مقتضبة من سياقها في الكتاب ، وأنها لا يبعد أن تكون استطرادا . ومع ذلك فإننا نزع أن الصلة بينها وبين « طاعة السلطان » ماثلة ، فإن دعاة الثورة وشق عصا الطاعة إنما يعتمدون في دعوتهم على آراء في الدين يرونها . فهذه القطعة — فيما أحسب — مفتلة من فصل كتبه في تهجين ذلك المذهب الذي يذهبون إليه . ومهارته تظهر في اصطناع قول البصريين فيما يرمى إليه من الدعوة إلى الطاعة ، والبصريون هم في ذلك الوقت أشد الناس مجافاة للدولة ومحاداة لها وإنكارا عليها . ولكن ابن المقفع يخالف البصريين في شيء خطير ، وهو

أنه إنما يسلب الناس حق الرأي لا إنكاراً للرأى في ذاته ، ولكن ليهب ذلك الحق للدولة . فعنده أن للإمام وحده حق الحكم بالرأى فيما لم يكن فيه أثر . وبعد ، فهذه صور من كتاب «اليتيمة» نرجو أن يكون فيها بعض البيان عنه ، وإزاحة لما تغشاه من غموض وإبهام . على أنا نستطيع بجانب ذلك أن نتمثل نواحي أخرى منه ، إذا نحن نظرنا في رسالة الصحابة له . فقد عرض في خلالها لهذا الموضوع الذي بنى عليه كتابه هذا ، وهو طاعة السلطان ، فأورد الآراء التي كان الناس من الفقهاء ومن إليهم يقولون بها في هذا الصدد ، كقول بعضهم : إن أمرنا بالإمام بمعصية الله فهو أهل أن يعصى ، وإن أمرنا بطاعة الله فهو أهل أن يطاع . وكقول الآخرين : بل نطيع الأئمة في كل أمورنا ، ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته ، ولا يكون أحد منا عليهم حسيباً ، هم ولاة الأمر وأهل العلم ونحن الاتباع وعلينا الطاعة والتسليم . ثم وقف بين هذين المذهبين يناقش كلا منهما ، ويبين ما يترتب عليه من توهين السلطان وتهجين الطاعة ، حتى ينتهي إلى الرأي الذي يراه في هذه المسألة ، وهو الفصل بين طائفتين مختلفتين من أمور الدين : أولاهما الفرائض والحدود كالصلاة والصيام والحج وحد السرقة ، وهذه أمور لم يجعل الله لأحد عليها سلطاناً ، فلا طاعة للإمام لو أنه نهى عنها أو أراد تعطيلها . والآخرى شؤون الدولة وتديرها ، كالغزو والقول ، والجمع والقسم ، والاستعمال والترك ، فهذا مما جعل الله أزمته بيد الإمام ، فمن عصاه فيها أو خذله فقد أوتغ نفسه .

وأكبر الظن أن هذا الذي عرضه في رسالة الصحابة كان من الموضوعات التي تناولها بالبيان والتحليل في كتاب «اليتيمة» . فإذا صح هذا الفرض كان هذا الجزء من رسالته مما يزيدنا بهذا الكتاب معرفة ، ولا سيما إذا صح ما تفترضه أيضاً ، وهو أن الظروف التي لا يست رسالة الصحابة وأوحت كتابتها ، هي الظروف التي لا يست كتاب «اليتيمة» ، ودفعت ابن المقفع إلى وضعه .

طه الطاهرى

العابد المثالي

« الفجر »

عابد في ثيابه البيضاء
مستمد من قلبه الوضوء
عبرى الأطياف والألاء
كسرى المستهام في الظلماء
فاذا خاف جد في الاختفاء
ها لروح الطبيعة العذراء
من قلوب العشاق والشعراء
راء ، والروح ساج في الفضاء
في قصيد يزهو بحسن الأداء
لعهود قد أمعنت في التناي
ثم أبكى ، وياله من بكاء !
ب إليه كالجدول المترائي
كل ما فيه من بديع الرواء
عن غرام محب وغناء
ه ، فيغضى وينثنى في حياء
ت فيتر هزة الحسناء
لم بين السجائب الشهباء

من وراء الظلام أقبل يسرى
وعلى وجهه يرف صفاء
أينما سار فالظلام ضياء
جاء يسرى ، والبدر في الأفق يسرى
تارة يأمن العيون فيبدو
ورياح المساء تبغث نجوا
فتشير الحنين في كل قلب
وأنا جالس على الربوة الخضر
ساهر أنظم الحياة بروحي
وأبث الوجود أشواق نفسي
وأغنى ، وياله من غناء !
ظل يسرى حتى أتى الغاب فأنسا
ومضى في رحابه مستشفيا
وقفة عند أيكة تتجلى
عند غصن يداعب النور عطفي
وتريق الندى عليه النسيان
عند زهر يلوح كالشفق الحيا

العابد المثلث

عند نهر كأنه الأمل البسّا (م) م يبدو في ظلمته البأساء
 نام في روعة العروس تعرّت
 وعلى الجدول الذي راح يصغى
 وقف العابد التقيّ يصلى
 ويناجيه في خشوع عميق
 قال : يا خالق الوجود جميلاً
 إن هذا الجمال يغمر نفسي
 إن هذا الجمال يسمو بروحي
 فأراني بها هزاراً طليقاً
 هزّ أشواقه نداء خفيّ
 عائداً للخفاء موطنه الناء
 كسفين أضلّه البحر دهرًا
 وأراني بها شعاعاً طليقاً
 هائماً ساجناً إلى الشاطئ الثا
 إن هذا الجمال لحن عميق
 أنت أبدعته فكان نشيداً
 هو بين السهول همس ونجوى
 كل مافي الوجود روح جميل
 ساحر قاتن خريفاً وصيفاً
 غير أن العيون لا تسبر الآء
 وأنا أبصر الوجود بروحي
 يا إلهي لأنت نبع حياتي
 فلك الشكر يا بديع البرايا
 يا إله الوجود تلك صلاتي
 فتقبّلهما مناجاة روح
 واعف عني إذا تبينت عجزى
 واغفر لي أن لم أحط بك علماً
 ووداعاً يا أيها الغاب حتى

فبدا نور جسمها الوضاء
 في زهول إلى حديث المساء
 للإله العظيم رب السماء
 كني في ساعة الإيحاء
 لقلوب إلى الجمال ظماء
 بضياء الهدى ، ونور الصفاء
 في رجاء طليقة الأرجاء
 لايني طائراً صباح مساء
 فهنا هائماً وراء النداء
 نى ، وقد جاء من ضمير الخفاء
 وهده السرى إلى الميناء
 يتسامى بالشوق نحو العلاء
 نى على موجة من الأضواء
 ساحر الجرس ، قاتن الأصدا
 هز روحى وخافقى ودمائى
 وهتاف فى القمة العليا
 رائع فى الظلام أو فى الضياء
 مشرق فى الربيع أو فى الشتاء
 حاق . . . بل تستقر فوق الماء
 فأرى كل ما به من بهاء
 وحياتى من أعظم الآلاء
 ولك الحمد مبدع الأشياء
 ملؤها نشوتى ، وهذا دعائى
 برئت من نوازع الأهواء
 فأنا من عبادك الضعفاء
 أنت فوق النبى ، وفوق الذكاء
 يأذن الله بيننا باللقاء

العابد المثالي

ومضى العابد التقى من الغما ب إلى أفقه العميق النائي
واختفى في فضائه كشعاع أدركته غياهب الظلماء
فاستفاق الوجود من نشوة الحب (م) وهبت عناصر البغضاء
واستسر الهدوء في الضجة الكبة رى، وغاب السكون في الضوضاء

إبراهيم محمد نجا

چان پول سارتر ومواقفه

الخيال والوجود

إن نظرة نلقيا على موضوعات الخيال تدلنا على أن هذه الموضوعات ليست قائمة في عالم الواقع الذي تدركه الحواس ويحوي ما يحيط بنا من أجسام وحيوان وأناس مثلنا. بل إن عالم الخيال لا يشترك في حياة «الأناس»، ولا يشترك تطوره، إن صح التكلم عن تطور، في تغير «الأناس». ولعل أقوى دليل على «عدم» موضوعات الخيال كونها لا تبدو قائمة في زمن ما: فلا يمكننا أن نلاحظ موضوع خيال في تغير زمني متصل، بل غاية ما ندركه لحظات تتصور فيها الحوادث الخيالية، وهذه اللحظات الخيالية، حتى إن بدت متقاربة فهي مع ذلك متفرقة متميزة، لا يربط بينها إلا اتجاه الفكر للحوادث المتخيلة، وربطه المستمر بين أجزاء الحادث الخيالي، وأقل تفكير في حلم من أحلامنا يؤيد ذلك تمام التأييد. وقد يعترض بأننا نشعر عند مطالعتنا لقصة من القصص بأن حوادثها تقوم في الزمن، وأن منها ما يعطينا شعوراً بالزمن شديد القوة والحيوية. قد يتعذر الإجابة على الاعتراض إن لم تفكر في أن القصص لا يوحى إلينا بالزمن مباشرة بل يعمل على التأثير فينا، وعلى إثارة اهتمامنا بحوادث القصة، حتى ينتقل زمننا الشخصي إلى هذه الحوادث فيربط بينها، ويعطيها وحدة أو شبه وحدة. وليس من شك في أننا عندما نطالع فصول قصة رائعة مثل إحدى قصص دوستويفسكي أو سارتر نفسه (في الغثيان مثلاً) نحس بكثافة زمنية للحوادث. وهذا الإحساس ذاته نتيجة اجتماع شعورين، شعور المؤلف بالزمن وشعور المطالع به. وتقوم في هذا الزمن المزدوج حوادث لها قوة، إن لم تخال في حقيقتها قوة الحوادث الواقعية، فهي قد تفوقها من حيث تأثيرها في العواطف. وما ذكرناه في المقال السابق عن صلة الخيال بالعوامل العاطفية يؤيد ذلك.

والموضوعات الخيالية غير موجودة في المكان أيضاً، أو أن مكانها غير المكان النسبي الذي تتعين فيه مواقع موضوعات الحس في كسباتها أو تغيراتها المتبادلة. مكان الموضوعات الخيالية مطلق، أقصد أن تعييناته المكانية خاصة به، جزء منه، لا تنفصل عنه، لهذا الموضوع مكان كما لموضوعات العالم راحة أو لون أو طعم. ومكانه مطلق بمعنى أدق؛ لأنه لا يتعين بالنسبة لموضوعات أخرى قريبة منه أو بعيدة عنه، يتجه نحوها أو تتجه نحوه. فعندما أتخيل صديقاً لي أقرر أنه قصير أو طويل أو سمين، على الإطلاق، لا أقارنه بموضوع آخر أكبر أو أصغر، أسمن أو أنحف، كما لو كان الطول أو القصر أو غيره من الصفات المكانية منسوبة له كما يُنسب الأحمر للطربوش. وإذا كنت أتخيله سائراً في الطريق، فهو لا يتقدم في تصويري، ولا يتأخر بالنسبة لغيره من الناس أو الأجسام. وإن تخيلته في غرفته فكأنه جزء منها، أو كأن غرفته جزء منه تلتصق به ولا تنفك عنه.

هذا معنى قول سارتر إن موضوعات الخيال خارجة عن الوجود، وأن لا زمن ولا مكان لها. ويرى سارتر بالإجمال أننا نلمس في الموضوعات الخيالية شاهداً على أن ثمة عدما هو موضوع الشعور، وأن الحوادث الخيالية هي هذا العدم، أو مظهر واضح له، إن أمكن وجود مظهر لما لا وجود له. وليس الخيال إلا فعلاً يسجل الاعتراف بهذا العدم.

هل تحوى النفس إذن فعلين متناقضين: الخيال والإدراك الحسى؟ وهل هناك موضوعات يكفي أن تتمثل للذهن حتى تختفى موضوعات الواقع؟ وكيف يصح هذا التناقض ولا يحدث عنه في النفس خلل وفي العالم اضطراب شديد؟ ولكن ربما كان الخيال شيئاً غير أساسي في النفس، وفعلاً طارئاً عديم الأهمية إذا ووزن بالإدراك الحسى، وعرضاً في جوهر النفس ليس له ما يؤثر فيها أو ما يخل بتوازنها. وربما كان الموضوع الخيالي أيضاً يعرض لنا دون أن يحدث بذلك في العالم اضطراباً أو خللاً، هو على هامش الوجود، تعرض له النفس وتقصده في لحظات زائلة، عندما تكون النفس ذاتها على هامش وجودها الشخصي تلهو به وتلعب في لحظات فراغها، كما تلهو الصبية وتلعب. أليس موضوع الخيال عدماً، أي لا شيء، أي ما ليس وراءه شيء — أي باطلاً وعبثاً، يجب ألا نقف عنده، ولا نعيده أي التفات، وألا ننخلق منه مشكلات؟

إذا كان الخيال على هامش النفس وكانت موضوعاته على هامش العالم، أعراضاً طارئة لا أهمية لها، فليس ثمة ما يسوغ قيام الخيال في النفس، أقصد أننا لسنا في حاجة إلى مبادئ فلسفية تفسره. وليس صادراً عن جوهرها من حيث هي مدركة، وليست موضوعات الخيال صادرة عن جوهر العالم من حيث إن العالم موجود، وإن النفس تدركه. ويصح إذن في هذه الحالة أن نهمله كفلاسفة وألا نعتدّ به، كما لا نعتدّ من حيث نحن فلاسفة بأعراض النفس الغريبة وأعراضها. أما إذا كانت هناك شروط تسوغ قيام الخيال وتفسر موضوعاته، إذا كان هناك ما يجعل الخيال وموضوعاته أشياء «ممكنة» على حدّ تعبير كنت، فيصبح ثمة مجال للسؤال كما فعلنا: كيف يمكن قيام الخيال وموضوعاته، دون أن يؤثر في النفس، ويحدث فيها وفي العالم خللاً أو اضطراباً؟

ستدل من التفكير فيما بيناه من عوامل الخيال ومن طبيعة موضوعاته وكيفية مثولها للنفس، أن ثمة شروطاً فلسفية تفسره وتجعله «ممكناً» بين أفعال الشعور، وخاصة ما ذكرناه من أن موضوع الخيال غير قائم في الوجود. وهذا معناه على الأقل شيئان: (أولاً) أن الخيال يحمل عامل إنكار، بل إنه في ذاته فعل سالب إن لم يكن حكماً سالباً بالمعنى الدقيق. فنحن عندما نتخيل تنفي عن موضوع خيالاتنا خصائص الوجود كما تمثّل لنا في الإدراك الحسي. الخيال إنكار إذن أو تصور مقترن بإنكار. (ثانياً) الخيال يحررنا من شرائط الوجود العالمي، فهو إذن شرط لحرية النفس؛ إذ أننا عندما نفكر في الخيال، فنحن تقطع ارتباطنا بالعالم الموجود، ومن ثمة لا نخضع لقوانينه. وفي الخيال نشعر بأن موضوعاته، حتى ما كان من بينها قابلاً للإدراك حسي فعلي، تصدر عن النفس لا عن الخارج، ثم تختفي في النفس بإرادتها.

نصل إذن إلى تفسير الخيال تفسيراً فلسفياً، وإلى وضع شروط «إمكانه» عندما نلاحظ أنه يقوم من ناحية على قدرة في النفس على النفي، ومن ناحية أخرى على حرية النفس، وبتعبير آخر على قدرة النفس على إنكار العالم بجملته، وعلى التحرر من العالم بجملته. يتطلب الخيال إذن استطاعة النفس الابتعاد عن العالم، واتخاذ مركز تشعر النفس فيه بأنها في معزل عن العالم، مركز يمكنها منه أن تنكر العالم بالنسبة إليها، وأن تنكر ذاتها بالنسبة إلى العالم. العالم في هذا المركز

معدوم بالاضافة إليها ، وهى فى هذا المركز معدومة بالاضافة إلى العالم . وهذا معنى ما يقرره سارتر من أن الخيال فعل معدوم ، للعالم والعدم يتطلب موضوعاً . يبدو إذن أن التناقض بين الخيال وبين الإدراك الحسى أمر لا مفر من الاعتراف به . ولكن علينا أن نسأل مرة أخرى : كيف يصح الإقرار بهذا التناقض دون أن يحدث عنه فى النفس اضطراب وفقد توازن ؟ وكيف يصح قيام تناقض صريح بين فعلين ، مثل الإدراك الحسى والخيال ، يسيران جنباً إلى جنب ، أحدهما يفترض قيام الآخر ، وتحاكى موضوعاته موضوعات الآخر ؟ أظن أن الأمر يحتاج إلى مراجعة آرائنا عن الإدراك الحسى وعن الشروط التى يقوم عليها . الإدراك الحسى تقرير للواقع ، تقرير لموضوع فى العالم من حيث إن هذا الموضوع حاضر أمام الذهن حضوراً فعلياً . ولكن كى يحتفظ هذا التقرير بقيمته ، وكى يقوم إدراك حسى بالمعنى العام ، يجب أن نفترض ، بين فعل الإدراك وبين الموضوع المدرك ، تميزاً دقيقاً . وواضح أننا فى إدراكنا الحسى لشيء واقعى لسنا مختلطين بالشيء ، وأتينا نميز ضمناً ، عن الشيء ذاتنا المدركة ، لا فى طبيعتها فحسب ، بل فى شرط وجودها أيضاً . ومعنى هذا أن الإدراك الحسى يتضمن إمكان قيام النفس بمعزل عن العالم الذى تدركه أو عن موضوع منه . ولكن ما هذا الشرط الضمنى للإدراك إلا ما ذكرناه بالذات عن الخيال ؟ يفترض كل من الخيال والإدراك عالماً واقعياً ، ويتخذ الإنسان لذاته فى كل منهما موقفاً إزاء العالم وموضوعاته ، ويميز ذاته فى كل منهما عن هذا العالم .

لا يذهب إذن الاختلاف بينهما إلى حد يمنع اتفاقهما ومشابهة موضوعات أحدهما لموضوعات الآخر ، ولا إلى حد يحدث اضطراباً فى النفس وفقداناً لتوازنها . وإذا كان الخيال يفترض العدم فى موضوعاته ، عدم العالم بالنسبة للنفس التى تتخيل ، فإلى حد ما يفترض الإدراك هذا أيضاً ، ولا يمكن كما ذكرنا ، إدراك العالم أو موضوع فيه إلا إذا كنا قادرين على اتخاذ حركة تراجع وانسحاب بالنسبة له ، وما معنى هذا التراجع إلا أننا فى الإدراك لا نقرر على الإطلاق أننا والعالم شيء واحد ، بل إننا نعتبر العالم عدماً بالنسبة للنفس . وهذا بالضبط ما يقوله هيدجر إن : « العدم قائم فى جوهر الوجود » .

ولكن واضح أن النفس لا تقرر هذا العدم تقريراً صريحاً فى الإدراك الحسى كما تفعل فى الخيال . وواضح أن النفس عند اتحادها بالعالم فى الإدراك الحسى ،

عند اتخاذها ، على قول سارتر ، الموقف الواقعي ، تقترب من العالم أشد الاقتراب . فتراجعها عن العالم في الإدراك بالقوة لا بالفعل ، وتجاوزها له ، بالقوة لا بالفعل . وواضح أخيراً أن الخيال انقلاب النفس من حالة القوة إلى حالة الفعل ، فتتخلى النفس عن مقتضيات العالم ، عندما تطغى هذه على النفس وتفقدها حريتها .

إذا كان الخيال يعني مجهود النفس للتخاض من مقتضيات الوجود ، ولإعطاء الحرية أتم معانيها ، فالن دون شك هو أقصى مراتب الخيال ، وهو أكثر أفعاله استقراراً وانتظاماً . للن على الأقل ما للخيال من خصائص ، ولآيات الفن ما لموضوعات الخيال من المميزات . فالننان لا يعمل كما يدعى البعض على تحقيق فكرة مثالية أو على إنزالها إلى ميدان الواقع ، وصبغها بألوانه ، بل يجهد الننان ، ما استطاع ، أن يخرج ذاته ومصنوعاته من الواقع . النظر إلى هذه اللوحة لماثيس المصور الفرنسي المعاصر ، تجد اللون الأحمر فيها يكتسب قيمته الفنية بقربه من صوف سجادة ، ثم لاحظ كيف يتخذ اللون الأخضر الذي يغطي الخائط فيها لمادناً جافياً جامداً ، وذلك بمجاورته للأحمر المذكور . والحقيقة أن ألوان اللوحة تكتسب معناها ومغزاها من موقعها في كل غير موجود أمامنا ، في كل قائم في العدم . واللوحة التي أمامنا وألوانها وتركيب هذه الألوان فيما بينها تمضي بذهننا إلى كل في العدم يوحى لنا المصور به ، ويريد منا أن نشاهده في اللوحة .

أنت في دار من دور الموسيقى تتوقع سماع السيمفونيا السابعة لبيتهوفن : قبل ما تبدأ الجوقة ، فأنت مثل غيرك من الناس تشعر بمرور الوقت شعوراً واقعياً يتفاوت حسب ملابسات خارجية أو حسب حالة نفسك ، ولكن ما تبدأ الجوقة بالعزف ، حتى تأخذك النغمة من الواقع ، وتنتقل بك إلى عالم آخر هو عالم السيمفونيا السابعة ذاتها . وهذه السيمفونيا التي تنصت لها في روعة وخشوع لا تبدأ بالمعنى الدقيق في هذا الوقت أو ذاك ، ولا تمر أجزاؤها بلحظات الزمن الذي يقدره الناس بشعورهم أو بساعاتهم . وللسيمفونيا السابعة نهاية ، ولكن هذه النهاية لا تسبق لحظة أخرى هي التي ستجد نفسك فيها عندما تترك مع المستمعين دار الموسيقى ، بل لا تقوم هذه النهاية إلا بالنسبة لابتداء السيمفونيا وأجزاءها المختلفة ، ولا علاقة زمنية لها بزمنك أو زمن الآخرين .

تأمل فيما تشعر به عند خروجك من المسرح من الاشمزاز . كنت في عالم آخر تملك نفسك حتى عجزت ، عند زواله ، عن اتخاذ ما يناسب العالم الواقعى من المواقف . هذه وأمثلة أخرى غيرها تؤيد فكرة سارتر في أن الفن كجميع مظاهر الخيال يفترض انعدام العالم .

أخيراً يؤدي بنا التفكير في الصلة الوثيقة بين الفن والجمال إلى القول بأن الجمال غير متحقق في الوجود ، وأن العالم في ذاته غير جميل ، وأننا لا نشعر بالجمال إلا بقدر ما نتراجع عن العالم ، وبقدر ما يدخل العالم بالنسبة لنا في العدم . ويقول سارتر إننا لا نستطيع القول عن امرأة إنها جميلة إذا كنا نراها أو نلمسها ، بل جمال المرأة يصبح حقيقة لا يدركها لا تلمس ، ولا عين لا تبصر .

هذا بإيجاز ما يراه سارتر في الخيال وفي صلته بالإدراك والوجود ، وهذا ما يخلص له من النتائج في الفن والجمال . ولسنا نرمي إلى التعرض لهذه النتائج بالفحص والتحصيل ، ولا إلى تخطيط سارتر فيما يدعيه من انفصال قيم الفن والجمال عن الحياة والواقع ، ولا إلى مناقشة موقفه من الوجود والعدم بالرغم مما لهذا الموقف من الخطر والأهمية . ولكننا نكتفى بالإشارة إلى المسألة الرئيسية التي يعالجها في كتاب « الخيالى » . ويبدو لنا أنه إذا لمسنا ضعف موقفه من الخيال وضعف منهجه في معالجة الخيال ، لمحا ولو عن بعد ، موقفه إزاء المشكلات الأخرى المتعلقة بالفن وبالفلسفة البحتة .

فلاحظ أولاً أن سارتر لم يميز بين نوعين من الخيال : واحد يسترجع ما أعطاه الحس مرة أو مرات ، ويقرب من الذاكرة إلا في أنه غير مصحوب بتعرف ولا بتعيين : وآخر يصنع موضوعاته صنعا ، ويؤلفها تأليفاً . لا يميز بين نوعين من الصور ، صور راجعة وصور جديدة . وإن كان كثير مما يذكره سارتر ينطبق على الخيال المخترع ، فلا شك في أن أغلبه لا ينطبق بأى حال من الأحوال على الخيال الآخر ، وهو صورة أو تصور طبق الأصل لما أعطاه لنا الإدراك الحسى . ولا شك أن سارتر بإهماله هذا التمييز يقنع القارئ الساذج بمجدة ما وصل إليه من النتائج ، وباتساع الميدان الذى عملت بحوثه على اكتشافه .

هناك ثانياً نواح في وصف سارتر لا نرى بالضبط صلتها بفعل الخيال . فما يذكره خاصة عن الشبه القائم بين مظاهر الخيال ، وضروب السحر والشعوذة أو تصورات البدائيين شيء قد كان يجدر به عدم الاسترسال فيه . وأغلب الظن

عندنا أنه طرّق هذه الأبواب . لأنها من ناحية تسمح له بإنشاء أدبي يقبل عليه الجمهور ويحبه ، ولأنها متصلة من ناحية أخرى ببعض نظريات رائجة في هذه الأيام ، يفترض صحتها دون أن يعرض لها بالتفصيل ، ودون أن يناقش قيمتها على الإطلاق .

يقول سارتر إن الخيال إنكار هو مظهر لحرية النفس ، وإن موضوعه العدم . ويدعى أن هذا التفسير قد أعانته في حل المشكلة القائمة بصدد صلة الخيال بالإدراك الحسى . ولكن لا يسعنا إلا أن نلاحظ هنا أن ما اعتبره سارتر شرطاً لازماً لفعل الخيال ، عاد فصرح بأنه لازم أيضاً للإدراك ، بل قبل ضمناً أنه شرط لازم لجميع أفعال الشعور أيا كانت : ففي كل فعل من أفعالها تنكر النفس أنها والعالم شيء واحد ، وفي كل فعل تقرر ضمناً أو صراحة حريتها . أى إن الشرط المذكور لا ينطبق على فعل الخيال فحسب ، بل هو عام مشترك بين جميع أفعال النفس . لا يميز سارتر إذن الخيال عن غيره ، ولا يفرقه في ذاته ، ولا يعيّنهُ بالمعنى الدقيق ؛ فهو لا يفسره من حيث هو خيال .

وجملة القول : عمل سارتر على إعطائنا وصفاً سيكولوجياً دقيقاً للخيال ، ووفق في ذلك أتم التوفيق . ونجح سارتر في معالجة المسائل المتصلة بالخيال بطريقة جذابة مشوقة ، وعبر عن آرائه بأسلوب جميل رائع ، ونظم أفكاره تنظيمًا لبقاً دقيقاً : ثم إنه حاول إيجاد تفسير فلسفي للخيال ولموضوعاته ، فلم يوفق في ذلك ، ولم يحصل بالفعل على شيء دقيق . وربما أمكن ردّ عدم توفيقه هذا إلى ما ينتص سارتر من مميزات الفيلسوف الحقيقي ، أى الدقة في التحليل والتمييز ، والقدرة على رؤية الأشياء كما هي في ذاتها ، وعلى الفحص عن المسائل في أعماقها ، والجهد المتصل بلوغ الحقيقة المجردة مهما كان السبيل إليها وعراً عسيراً .

نجيب بامري

مأساة بني سراج

ألنى بعض كتاب الغرب المحدثين مستقى خصبا لأقلامهم وخيالهم فى بعض حوادث التاريخ الإسلامى التى تمتاز بروعتها ولونها المشجى، وهم يجدون فيها مجالهم بالأخص متى كانت تحتوى على عنصر نسوى أو غرامى . فنجد مصرع البرامكة وقصة العباسة أخت الرشيد مثلاً تقدم مادة طيبة لكتاب مثل لا هارب^(١)، ونجد حوادث سقوط غرناطة ومصرع دولة الإسلام فى الأندلس تقدم مادة غزيرة لطائفة كبيرة من الكتاب والشعراء الأسبان يصوغونها فى ألوان زاهية من الفروسية وفى أساليب شعرية وغنائية مشجية . ويقتفى أثر هؤلاء بعض الكتاب الغربيين مثل واشنطن إيرفينج الكاتب الأمريكى، إذ يقدم لنا طائفة ممتعة من القصص المتعلقة بحمراء غرناطة^(٢) وشاتوبريان الكاتب الفرنسى إذ يقدم لنا قصته المعروفة: «مغامرات آخر بني سراج»^(٣). ومن الغريب أن تجذب هذه الألوان المؤثرة الزاهية معاً كتاب الغرب قبل أن تجذب كتاب المشرق، فلا يتخذونها مادة للقصص التاريخى الرفيع، والمسرحيات الممتعة المليئة بالعبر. وسوف نعرض فى هذا الفصل لصفحة من هذه الصفحات الإسلامية المشجية، وهى مأساة بني سراج التى ألهمت قلم شاتوبريان. بيد أنه يجدر بنا، قبل أن نعرض لجانبها القصصى الذى غلب على كتاب الغرب، أن نحاول أن نلقى شيئاً من الضياء على أصلها التاريخى.

ومن بواعث الأسف أن الرواية العربية لا تقدم إلينا فى هذا الموطن مادة تذكر، شأنها فى معظم المواطن والحوادث التى ترتبط بسقوط غرناطة . وكل ما هنالك أنها تشير إلى بني سراج إشارة عابرة، فيذكر لنا المقرئ عند حديثه عن

(١) فى مسرحيته *Les Barmécides* .

(٢) *Tales of the Alhambra* .

(٣) *Les Aventures du dernier Abencérage* .

أصول الأسر العربية القديمة التي نزحت إلى الأندلس أن بنى سراج ينتمون إلى مذحج وطبي من البطون العربية العريقة التي وفد بنوها منذ الفتح إلى الأندلس وكان منزلهم بقرطبة وجنوبي مرسية^(١)، ولا نجد بعد ذلك ذكراً لبنى سراج خلال حوادث التاريخ الأندلسي إلا في مرحلته الأخيرة، أعني مرحلة الانحلال التي انتهت بسقوط غرناطة وسقوط دولة الإسلام في الأندلس. ففي هذه المرحلة تشير الرواية غير مرة إلى الدور الذي لعبته الأسر القوية العريقة في تاريخ مملكة غرناطة، وتخص بالذكر بنى سراج وبنى الزعزى، وتنبه بما كان بينهما من التنافس في اجتناء السلطان والنفوذ، وما كان لذلك من أثر في تطور الحوادث. وقد كان هذا التنافس طبيعياً بين الأسرتين؛ فبنو سراج يمثلون العصبية العربية القديمة، وبنو الزعزى من أصول البربر؛ والخصومة بين العرب والبربر شهيرة في التاريخ الأندلسي. وكان بنو سراج في أواخر أيام مملكة غرناطة يحتلون المقام الأول في النفوذ، وينافسون بنى الأحمر ملوك غرناطة في البذخ والجود والبهاء، ولهم شهرة خاصة في ميدان الفروسية. وكان بنو الأحمر يتوجسون أحياناً من منافسة هذه الأسر القوية ولا سيما بنى سراج. ولما ارتقى السلطان سعد الملقب بابن إسماعيل النصري عرش غرناطة حاول أن يقضى على نفوذ بنى سراج بوسائل عنيفة سافرة فلم يستطع، لوجهة الأسرة، ورسوخ مكاتها، ونشبت من جراء ذلك فتنة خطيرة في غرناطة (سنة ١٤٦٢ م) كادت تحتل عرشه. وكان تنافس الأسر والعرش من نذر الانحلال والتفكك التي أودت غير بعيد بمصير مملكة غرناطة.

وفي عهد خلفه السلطان أبي الحسن ظهر بنو سراج على مسرح الحوادث مرة أخرى. وكان السلطان أبو الحسن قد أقضى زوجه الشرعية الأميرة عائشة الحرة وولدها محمداً ويوسف وزجهما إلى أحد أبراج الحمراء نزولاً على تحريض زوجه الأسبانية الحسناء إيزابيلا دي سوليس التي تعرفها الرواية الإسلامية باسم «ثريا». وانقسمت غرناطة عندئذ إلى فريقين خصمين، يؤيد أحدهما السلطان وزوجه الأسبانية، ويؤيد الآخر الأميرة الشرعية وحق ولدها في العرش. وكان بنو سراج في مقدمة الفريق الثاني وقد اضطلعوا بأكبر دور في مناصرة الأميرة عائشة ومعاوتتها مع ولدها على الفرار من سجن الحمراء (سنة ١٤٨٢ م)؛ وبذا

(١) راجع فتح الطيب ج ١ ص ١٣٨.

مأساة بني سراج

استطاعت أن تحشد أنصارها في وادي آش، وأن ترفع لواء الثورة . ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبني سراج هذا الموقف قط. ويقال إنه عمد فيما بعد إلى تدمير كمين مروع لإهلاكهم في أحد أبرياء الحمراء، وهو البهو الذي عرف فيما بعد، وما يزال حتى اليوم يعرف بهو بني سراج .

يبد أن الرواية تختلف هنا، فتنسب تدبير هذا السكين وتنسب المأساة كلها إلى عصر السلطان أبي عبد الله محمد ولد السلطان أبي الحسن وخلفه في العرش، وهو الذي سقطت على يده غرناطة وانتهت دولة الإسلام في الأندلس . وهنا تتخذ الرواية لون القصص المغربي، وتقول لنا إن المأساة ترجع إلى أسباب غرامية خلاصتها أن محمد بن سراج (أو ابن حامد) عميد بني سراج وهو من أكابر الفرسان والسادة، هام بحب أميرة من البيت المالكة، فوجد عليه السلطان وقرر سحق الأسرة كلها. وتنسب بعض الروايات هنا هذا الحادث إلى عصر السلطان أبي الحسن أيضا، وتقول لنا إن الأميرة التي هام بها ابن سراج كانت تسمى «فايمة» وهي على الأغلب من بنات السلطان، وأن السلطان دبر كميناً لهلاك بني سراج بالاتفاق مع ولده أبي عبد الله . ولكن معظم الروايات تقدم إلينا القصة في وضع آخر، وهو أن آل الزعزي خصوم بني سراج اللد حاولوا القضاء عليهم بمختلف الوسائل، فوشوا بهم لدى السلطان أبي عبد الله واتهموهم بالتآمر عليه وسعيهم إلى خلعه وقاتله، واتهموا كبيرهم ابن حامد (أو محمد بن سراج) بتهمة أشنع وهي أنه يتصل بالسلطانة وهي الأميرة مريمة اتصالاً غرامياً، وأنه رأى معها أكثر من مرة في أحراش حدائق جنة العريف . فثار أبو عبد الله لهذا الاجترار الصارخ على عرشه وعلى شرفه، وقرر سحق بني سراج جميعاً، ودبر مع آل الزعزي كميناً محكماً لإهلاكهم، فدعا أكابر الأسرة ذات يوم إلى مأدبة أقامها بقصر الحمراء، وأدخلوا إلى بهو الحفل واحداً بعد واحد بترتيب معين من باب البهو المذكور، وكلما دخل أحدهم اقتاده جماعة من آل الزعزي إلى الفسقية الرخامية التي بالبهو، ونحروه على حافتها، وأخفوا في الحال جثته، حتى هلك معظمهم على هذا النحو المروع . ولم يفتن في النهاية لهذه السكين الدموي سوى قلائل منهم أنبأهم وصيف لهم استطاع أن يتسلل داخل البهو، وأن يخبرهم بما يقع . وبلغ من قتل منهم يومئذ ستة وثلاثين من أنجاد الفرسان والسادة . وهكذا سحقت الأسرة الشهيرة وفقدت كل نفوذها وسلطانها . وسمى المكان الذي تمت

فيه تلك الجريمة الشنعاء من ذلك الحين « بهو بنى سراج » وهو البهو المقابل لبهو الأسود الشهير . وما زالت ثمة بقع سوداء في أرض البهو الذي وقعت فيه المأساة تزعم الرواية أنها بقع من دم القتلى ، وأنها لن تمحى أبداً . وتزيد الأسطورة على ذلك أنه ما زالت تسمع في هذا البهو في بعض الليالي أنات خافتة وقعقة سلاح ، وأنه حدث أكثر من مرة أن رأى حراس الحمراء في جوف الليل بعض الجند المسلمين وقد ملعت أثوابهم الزاهية وأسلحتهم البراقة يقطعون البهو جيئة وذهاباً .

تلك مأساة بنى سراج كما تقدمها إلينا الروايات والأساطير والأناشيد الأسبانية . أما الرواية العربية فليسنا نجد فيها أثراً لهذه القصص المغرق ، بل لسنا نجد فيها ذكراً لبنى سراج في حوادث غرناطة الأخيرة ، وهي أيضاً ضئيلة علينا بتفاصيل هذه الحوادث المؤسسية التي انتهت بذهاب دولة الإسلام في الأندلس . ولكن الأدب الأسباني يتناول هذه الحوادث في كثير من الأقايص والملاحم المغرقة . وأشهر مصادر هذه التراث كتاب وضع في هذا العصر وزعم كاتبه ، وهو أسباني من أهل مرسية يدعى جيتريز دي هيلاء ، أنه نقله من التواريخ العربية ، وهو مزيج من بعض الوقائع التاريخية المحرفة ، وكثير من القصص الخرافية ، يدور معظمه على حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية ومنافسات بنى سراج وبنى الزعزى وغيرهم من أمجاد غرناطة . وقد ذاع هذا المؤلف في أسبانيا ولا سيما في ريف الأندلس وترجم إلى لغات عدة . بيد أنه يبدو من سياقه أنه لا يمكن أن يكون ترجمة لروايات عربية ، وكل ما هنالك أنه مزيج من الأساطير النصرانية والشعبية المغرقة التي ذاعت في ذلك العصر عن حوادث غرناطة ، وأذكاها خيال الأخبار والفرسان والشعراء ، وأذكتها بالأخص عوامل دينية وسياسية خاصة .

في سنة ١٨٢٦ ظهرت قصة شاتوبريان « مغامرات آخر بنى سراج » التي وضعها قبل ذلك بأعوام عقب زيارته لأسبانيا . وقد وقعت حوادث هذه القصة بعد سقوط غرناطة بأربعة وعشرين عاماً أعني في سنة ١٥١٥ م وبطلها فتى أندلسي يدعى ابن حامدة يصفه شاتوبريان بأنه سليل بنى سراج وآخر عقبهم . وقد نزح بنو سراج عقب سقوط غرناطة إلى أجواز تونس ، وعاشوا هنالك على مقربة من أطلال قرطاجنة القديمة عيشة متواضعة في غمر الحشرات والذكريات

المحنة، واشتغلوا بالتطبيب بعد الفروسية، وهلكوا واحداً بعد الآخر حتى لم يبق منهم سوى ابن حامد. وكان فتى وسيم الطلعة جم الذكاء والفطنة والكرم، وهي الصفات التي بها عرف آله. توفي أبوه وهو في الثانية والعشرين من عمره، فاعتزم أن يهج إلى غرناطة موطن آبائه القديم، فركب البحر إلى الأندلس وجاز إلى غرناطة واتخذ هنالك صفة طبيب عربي جاء لبحث عن الأعشاب النادرة في جبال الأندلس. ففي ذات يوم أخذ يطوف برצוע غرناطة وجرائها وحدائقها الملوكية، وقلبه يخفق بالذكريات المؤلمة. ولما جاء المساء لم يستطع أن يقاوم شعوره، فعاد يطوف بأحيائها طول الليل حتى ضل طريقه وأدركه الصباح. وبينما هو يسير هائماً اللب إذ وقعت عيناه على فتاة أسبانية رائعة الجمال تخرج من منزلها ووراءها وصيفة فسحره جمالها أيما سحر، ودهشت هي لمنظره وثيابه العربية، فتقدمت منه بظرف وسألته: أهو غريب؟ وهل ضل طريقه؟ فأجابها بالفاظ وعبارات رقيقة أن نعم، فسارت أمامه بظرف حتى قادتة إلى باب الخان الذي ينزل فيه.

وترك منظر الحسنة في قلب ابن حامد أثراً لا يمحي وشغف بها أيما شغف، ولبت أيما يطوف هائماً في غرناطة وهو يتصورها في كل رؤية وكل مقابلة، حتى كان ذات يوماً يجول على ضفاف نهر «حدارة» على مقربة من حدائق جنبة العريف فسمع صوت قيثارة وغناء، فخفق قلبه واقتحم حرش الأشجار، فألنى نفسه بين جماعة من الفتيات ذعرن لمقدمه، وصاحت إحداهن: «هذا هو السيد العربي» وكانت هي فاتنة قلبه.

كانت دوناً بلانكا — وهو اسمها — سلية أسزة عريقة تنسب إلى السيد الكبيادور، وأبوها الدوق ساتافي، ولها أخ فتى يدعى دون كارلوس. وكان الدوق قد استقر في غرناطة في بعض أملاك الأسر المسلمة التي وهبت لآييه، وكانت بلانكا لفرط جمالها وذكائها وظرفها معبودة الأسرة، وكانت تفرح في ذلك اليوم مع نفر من صاحباتها. فلما كاد يراها ابن حامد حتى صاح أنه يبحث عنها كما يبحث الظمان عن الماء. فأجابه بلانكا أنها كانت تنشد قصة بني سراج وهي تفكر فيه. فخفق قلبه وكاد يصيح بها أنه «آخر بني سراج» لولا أنه خشى أن يثير الكشف عن شخصه ريب السلطات.

وهنا قدم والد بلانكا الدوق، فبادرت إليه قائلة: «هذا هو السيد المسلم الذي حدثتك عنه يا أبت، وقد عرفني وجاء يشكرني على ما أسديت إليه». فرحب الدوق

بابن حامد ! وأنس الجميع بمقدمه ، وأخذوا يسألونه عن بلاده وأحواله ، فكان يجيب بظرف وفصاحة ، وكان يتحدث القشتالية كأحد أبنائها ، ثم تناولوا الحلوى والشيكولاتة ، وانقضى اليوم في غناء ورقص وطرب ثم عاد الجميع إلى غرناطة ، ووعد ابن حامد أن يلبي دعوة الدوق لزيارته .

سرى إلى ابن حامد وبلانكا حب عنيف متبادل . وكانت بلانكا تقول في نفسها : « آه لو دخل في ديني وكان يحبني لتبعته إلى آخر العالم . » وكان ابن حامد يقول لنفسه : « آه لو أسلمت بلانكا ! » وأفضى إليها بحبه ذات يوم وها يتنزهان في أبهاء الحمراء ، فأجابته كيف يمكن ذلك وهو عربي كافر وهي أسبانية نصرانية ؟ واستدعى ابن حامد فجأة إلى تونس ؛ إذ كانت أمه على شفا الموت ، فاستأذن من حبيبته في السفر ، وأقسم لها أنه سوف يحبها إلى آخر نسمة من حياته ، فأجابته باكية أنها سوف تنتظره كل عام ، وأنها سوف تذكره إلى الأبد ، وتقبله زوجها يوم يدخل دينها .

وعاد ابن حامد إلى تونس فألقى أمه قد توفيت ، وقضى بين أطلال قرطاجنة أشهراً وهو هاثم اللب ، حتى جاء يوم السفر إلى غرناطة ، فركب البحر إلى مالقة وكانت بلانكا هنالك ترقب مقدمه خلال التلال المشرفة على الشجر . فلمحت ذات يوم مركبا عربيا منشور الشراع ، فهرعت إلى المرسى ولحت عربيا يرتدى ثيابا نخمة ولم يكن سوى ابن حامد ، فبعثت إليه تدعوه إلى مكانها ، فهرع إليها ابن حامد وارتقى أمام قدميها ، وقدم إليها هدية طريفة هي غزالة وضعت في سلة ، قائلا إنها تشبهها خفة ورشاقة . وسارت بلانكا ووالدها الدوق وابن حامد إلى غرناطة ، وهنالك أتفق الحبيبان أوقاتا سعيدة في التجوال والرياضة وتبادل العواطف المضطربة ، ولكن كلاهما لبث راسخ العزم على التمسك بدينه . فكأما دعته بلانكا إلى اعتناق دينها دعاها هو بدوره إلى اعتناق دينه .

وعاد ابن حامد إلى موطنه ، ثم سافر في العام التالي إلى غرناطة وقصد إلى منزل بلانكا ، وكان والدها الدوق غائبا في مدريد ، فلقى أخاها الدون كارلوس وكانت تعبده ويعبدها حبا ، ولكن تولته الدهشة وانكمش فؤاده حينما ألقى عند قدمي بلانكا فتى لم يره من قبل ، وهو أسير فرنسي من أصل نبيل يدعى لوتريك توثقت بينه وبين الدون كارلوس وأصر الصداقة منذ أسر في موقعة بافيا ، وعاد معه إلى أسبانيا . ورحبت بلانكا بابن حامد وعياه دون كارلوس برقة ، فأنحنى

ابن حامد أمام الفتاة وانصرف لفوره ، وساور لوتريك الشك في نظراتهما فالنصرف هو أيضا . وهنا أفضت بلانكا إلى أخيها بحقيقة الأمر وباحت له بحبها لابن حامد ، فصاح بها ساخطا كيف تحب سليلة السيد الكنيادور عريثا ومسلما ، وقد كان يظن أنها تقترن بلوتريك . فأجابته أنها حرة في أمرها وعواطفها ، بيد أنها لن تغدو على أى حال زوجة لمسلم .

وهرع دون كارلوس إلى ابن حامد ودعاه إلى البراز ، فأجابه إلى طلبه وتبارزا خارج غرناطة فغلبه ابن حامد ولكنه ترفع عن إيذائه . وهنا جاء لوتريك وبلانكا إلى مكان المبارزة مسرعين وانتهى الأمر بسلام واحتجب ابن حامد حينما نزولا على نصيح بلانكا .

ولبت ابن حامد تفرسه مختلف العواطف والمشاغر . وجاءته بلانكا ذات يوم وهى شاحبة ذابلة وخاطبته بجمدة وذكرته كيف تذوى صحتها في حبه ، فهجس بمخاطره مدى لحظة أن يقبل التنصير وينتهى الأمر . وفي الغد كان إلى جانب بلانكا وأخيها الدون كارلوس ولوتريك في حفل أقيم في جنة العريف ، وأخذ كل من الفتيان الثلاثة يلتقى بعض أناشيد الفروسية ، وألشد ابن حامد قصة من وضع شاعر من بنى سراج ، وتبين من أناشيد دون كارلوس أن جد ابن حامد وهو فارس بنى سراج أيام حرب غرناطة قد لقي حتفه على يد أسرة حبيبتة ، وأن أسرتها هى التى استولت على تراث بنى سراج ، فعندئذ كشف ابن حامد عن شخصه ، وأعلن أنه آخر « بنى سراج » ، وقدم الدليل على نسبته خاتم بنى سراج معلقا في عنقه بسلسلة من الذهب ، وتضرع إلى حبيبتة أن تنسى كل شيء ، وأنه يحملها من كل شيء . وأنه يضع نفسه تحت تصرفها لتأمره بما يفعل . فعندئذ أشارت إليه بلانكا أن يعود إلى الصحراء ثم أغمى عليها .

فرجع أمامها ابن حامد ثم غاب عن الأنظار . وفي نفس الليلة سافر إلى مالقة وركب البحر إلى وهران ، وهناك انخرط في سلك قافلة الحاج المسافرة إلى مكة ولم يعرف بعد ذلك مصيره قط .

ومرضت بلانكا حتى أشرفت على الموت ، ثم تماثلت وعاشت في حزن مقيم وعزلة مطبقة ، تذهب كل عام إلى مالقة لتحج البحر فلا ترى أحدا ، وتقضى أيامها في التجوال في أبهاء الحمراء . وقد توفي والدها من الحزن ، وقتل أخوها في مبارزة ، واختفى لوتريك فلم يسمع به أحد .

. مآسة بنى سراج

يقول شاتوبريان : وهناك في تونس عند الباب الذى يؤدى إلى خرائب قرطاجنة توجد مقبرة ، وبها قبر منعزل ليست له أية علامة مميزة ، يصفونه بأنه قبر « آخر بنى سراج » .

تلك هى القصة التى ألهمتها ذكريات بنى سراج قلم الكاتب الفرنسى الكبير . ومن الواضح أنها لا تقوم على أصل تاريخى ، ولكنها تقوم كمعظم القصص المتعلقة بمحادث سقوط غرناطة وأنجادها الأعلام ، وفروستها الأخيرة على تراث الأساطير والأناشيد الأسبانية المفرقة . على أنها تبدو بما يسبغه عليها شاتوبريان من بلاغته وفنه ، وبما يتخللها من ذكريات غرناطة والأندلس ، قطعة من الخيال المؤثر . وهى ليست إلا مثلاً من أمثلة عدة استطاع فيها الخيال الأوروبى أن يجد فى صفحات التاريخ الأندلسى الأخيرة كل عناصر الإلهام والفن الرفيع .

محمد عبد الله عثمان

ذكريات

القاهرة فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧

في عام ١٩٠٣ اجترينا امتحان الشهادة الابتدائية ، وكنا في القطر كله لا نزيد على ثلاثمائة أو أربعمائة تلميذ . وعقد الامتحان في القاهرة . ولم يكن بالقطر كله سوى ثلاث مدارس ثانوية كانت في نظامها ثكنات يتسلط عليها الإنجليز بالأوامر العسكرية والعقوبات العسكرية . والتحقّت بالمدرسة التوفيقية ثم بالمدرسة الخديوية . وكان الإنجليز يحاربون شيئين في الأمة لا ثالث لهما . وكانوا يكفلون بقاءنا في ظلام الجهل وذلة الفقر بهذين الشيئين ، وهما محاربة التعليم ، ومحاربة الصناعة . ونجحوا في ذلك نجاحاً عظيماً ، فلم يسمحوا طيلة إشرافهم على وزارة المعارف بإنشاء مدرسة ثانوية للبنات في أي مدينة من مدن القطر . وكانوا يعلموننا أن بلادنا زراعية لا تلائمها الصناعة ، كأن القدر قد قضى علينا بالفقر الأبدي . وكانوا يصرون على المحافظة على « تقاليدنا » . فكانت المدرسة السنية الابتدائية في القاهرة ، وكانت ناظرتها إنجليزية ، تصر على البرقع للتمييزات وهن في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر . وكان معلم اللغة العربية يفصل من وزارة المعارف إذا نزع عمامته وقفطانه واتخذ البنطلون والجاكته . وتقدمت الآنسة نبوية موسى لامتحان الشهادة الثانوية في سنة ١٩٠٧ من بيتها . فرفض دنلوب المستشار الإنجليزي لوزارة المعارف قبولها في الامتحان . ولكنها استمرت على الكفاح وأحدثت ضجة في الجرائد ، وتقدمت في السنة التالية فقبلت ونجحت ولكن الإنجليز تنهبوا . فلم تفز فتاة مصرية بالشهادة الثانوية منذ سنة ١٩٠٨ إلى ١٩٢٩ حين تقدمت الفتيات اللاتي أنشأت هن وزارة المعارف مدرسة ثانوية في ١٩٢٥ أي بعد إعلان الاستقلال بسنتين .

وكانت التلمذة في المدرسة الخديوية فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧ سلسلة من التعذيب . فكان أحدنا يعاقب طيلة العام الدراسي بالحضور يوم الجمعة في المدرسة حتى لا يهناً بالإجازة الأسبوعية . وكان من العقوبات المألوفة أن يحضر

أخذنا في منتصف الساعة السابعة صباحاً أى في الظلام مدة الشتاء ، ثم لا يترك المدرسة آخر النهار إلا بعد الحبس ساعة أو أكثر . وقد يكون السبب الوحيد لكل هذه العقوبات أن المعلم الإنجليزى قد طلب من التلميذ أن يقعد فوقف ، أو يقف فقعد . وقد تكون هذه المخالفة محض التباس لا أكثر . ثم يتأخر المسكين في الحضور في الساعة السادسة والنصف صباحاً ، فيزاد عقوبة والزيادة تتراكم . وهذا إلى عقوبات أخرى مهينة مثل حرمانه من الغذاء إلا برغيف يأكله وهو واقف أمام زملائه .

وكان ناظر المدرسة يدعى شارمان ، وكان يتأنق في تعذيبنا . وحدث أن الجمعية الخيرية الإسلامية أرسلت على نفقتها بعض تلاميذها من مدارسها الابتدائية ، وكانت تشتري لهم ملابسهم في شكة واحدة . وكان هؤلاء المساكين يخرجون من هذه الملابس الصفراء الرخيصة . واشتروا غيرها من الملابس المألوفة ، حتى لا يتميزوا بفقرهم أمام زملائهم . ولكن شارمان أصر على أن يلبسوا ملابسهم التي تصمم بالفقر ، فلبسوها وكانوا يتزوون منا في خجل . ولست أشك في أنه حين أعلنت الجرائد وفاة شارمان هذا غرقاً في أواخر الحرب الكبرى الأولى عم الفرح جميع القارئین الذين كانوا تلاميذه . وقد يستنكر القارئ هذه العاطفة منا . ولكنى أؤكد أن التلمذة في تلك السنين كانت عذاباً لا يطاق . وكان للمعلمين الإنجليز لذة في تعذيبنا . وكانت العلاقة بيننا وبين هؤلاء المعلمين خالية من الإحساس البشرى ، حتى لقد كنا أحياناً نجهل اسم أحد المدرسين طيلة العام الدراسى .

وقضيت ثلاث سنوات بالمدرسة الخديوية لا أكاد أعد أسبوعاً واحداً فيها هنتت به . ولذلك تخلفت عن الدراسة . وكان من أسباب هذا التخلف أيضاً أنى مرضت بعينى واحتجت إلى إجراء عمليتين لا يزال أثرهما المشوه باقياً . كما أنى أعزو إلى عذاب المدرسة هذه العريضة الجنسية الذاتية التي انغمست فيها للترفيه عن نفسى ، وإزالة الكمد الذى كانت تحدته هذه الحياة المدرسية المرهقة . ولكن القاهرة في تلك السنين (١٩٠٣ — ١٩٠٧) كانت حافلة بتباشير العصر الجديد . فقد رأيت فيها الأوتومبيل لأول مرة . ولكن الحياة القديمة كانت لا تزال راسخة . فكان السقاء يحضر الماء في قربته لمتزلنا . وكنا أحياناً نركب الجمير من مكان إلى آخر لأن الترام كان في شوارع قليلة . ولم يكن شئ

من المنازل قد بنى على الضفة الغربية من النيل، كما أن هليوبوليس كانت لا تزال صحراء . بل أذكر أن شمال المدرسة التوفيقية في ١٩٠٣ كان خالياً من المباني إلا القليل المتفرق .

وكنا نتحدث في تلك السنين عن شيئين يجران المجتمع المصرى هما الاحتلال الإنجليزى، وحركة قاسم أمين لتحرير المرأة، ولم أكن أهتم بالحركة الثانية كثيراً . وكان « الحزب الوطنى » أعظم قوة تكافح الاحتلال في ذلك الوقت . وكان قد أُلغى في ١٨٩٧ ستة من الشبان المتنبيين هم : أحمد لطفى السيد (باشا) ومصطفى كامل وعبد فريد ومحمد عثمان (والد أمين عثمان باشا) وليبى محرم (شقيق عثمان محرم باشا) وسعيد الشيمى . وكان « اللواء » جريدة الحزب الوطنى يستهوى النفوس، وكنا نسارع إلى شرائه عقب الانصراف من المدرسة . ولكن الشبان الأقباط كانوا يجدون بعض الاستياء من الدعوة الدينية في الحزب الوطنى وكذلك الدعوة العثمانية أى التركية . وكان منطقهم يقول : « إذا كنتم تدعون إلى جامعة إسلامية وإلى تأييد الحقوق العثمانية في مصر مع أن الأتراك ليسوا فقط أجنب بل إن تاريخهم يحفل بالمظالم في مصر، فإن لنا الحق في الاتجاه نحو جامعة مسيحية والاعتماد على الاحتلال البريطانى . »

وقد انتهى موقفهم هذا إلى أن حمل مصطفى كامل عليهم وأثار تعصباً دينياً ساءت عواقبه واستغله الإنجليز أيام كرومر وجورست . ولم يصلح هذا الفساد القومى غير أحمد لطفى السيد حين أسس « الجريدة » ودعا دعوة مصرية بحثة ليس فيها شئ من الدعاية للأتراك أو للعرب أو للإسلام . ولكن حتى مصطفى كامل قبيل وفاته بخمسة أشهر أو ستة أعلن في مقالات أن مصر يجب أن تكون للمصريين فقط ، وكان لهذا يعارض الخديوى عباس فى ممالاته للدولة العثمانية . وبلغ من معارضته له أن جريدة « المؤيد » وصفته بأنه قد أصبح يشبه عرابى . والواقع أن المجتمع المصرى فى بداية هذا القرن كان مجتمعاً تركياً أو كالتركى ؛ فكان الاصطيفاف فى استانبول مألوفاً ، وكانت الحكومة المصرية تؤدى « الجزية » السنوية لتركيا . وكانت العائلات الغنية عائلات تركية خالصة أو خلاسية . ولما كنا نجد « مصرى » ثريا . ولذلك حين تتأمل العائلات المصرية الثرية فى ١٩٤٦ تجد أنها كلها حديثة العهد بالثراء . وهذه الحال تفسر لنا نفسية الحركة العرابية . فإن عرابى كان يتأمل وطنه فى ١٨٨٠ فلا يجد فيه

مصريًا صميمًا يملك شيئًا يؤبه له . وكان جميع الأثرياء من الأتراك أو الألبان الذين كان محمد علي قد اختصهم بالامتيازات ، وأقطعهم أرض المالكين المصريين الذين استولى على عقود امتلاكهم وأحرقها . ولذلك كنا لانعرف رئيسًا للوزارة إلا وهو تركي الأصل . بل أحيانًا كانت تؤلف الوزارة وليس بين أعضائها مصري صميم واحد أيام إسماعيل وتوفيق . وكنا نرى هؤلاء الأرستقراطيين على سخفهم ونذالتهم وهم في عرباتهم يتزهون على جسر قصر النيل . وكان يتقدمهم قوَّاص أو قواصان وكل منهما في سترة تهريجية يحمل عصا طويلة في وضع عمودي ويعدو أمام العربى وهو يصيح : هيه ، هيه .

وكانت الجرائد المقروءة في تلك السنوات ثلاثًا : « اللواء » الذى كان يحرك الأمة إلى المطالبة بالجلاء ويقرؤه جميع الشبان . و « المؤيد » الذى كان يؤيد الخديوى ويقرأه أبناء البيوتات التركية والمحافظون من المصريين . و « المقطم » الذى كان يؤيد الإنجليز ويقرؤه الموظفون . أما « الأهرام » فكان فى ركود يشبه الموت لا يقرؤه غير عدد صغير من التجار .

وكان الخديوى عباس محور الحركة الوطنية فى أوائل حكمه . وهو الذى أوعز بإيجاد الحزب الوطنى ، وكان يعاونه بالمال . وبما زاد الخديوى اتجاهها نحو الحركة الوطنية تلك الإهانات الشخصية التى كان يجدها من كرومر ، فقد حصل هذا الرجل على تربيته السياسية فى الهند ، وكان يعامل المصريين كما كان يعامل الإنجليز الهنود قبل خمسين أو ستين سنة ، وكانت له فى ذلك أساليب طفولية . وقد رأيت ذات مرة وهو ينزل من عربته ، فلم ينزل مستويًا على قدميه كما يفعل البشر ، بل تقدم له خادم مصري وحمله كأنه طفل من العربى فى عناية ورقة حتى حط جثته على الأرض . . . وقد فعل هذا فى ظنى كى يثبت أنه سيد مطاع أو ملك غير رسمى . وتشاجر مرة مع الخديوى لأن الخوذى الذى كان يسوق عربته إنجليزى . وحاول مرة ، عقب انتقاد الخديوى للجيش المصرى الذى كان كتشنر قائدًا عامًا له ، أن يعين وزيراً إنجليزياً . وكان كرومر هذا من عتاة الاستعماريين ، وهو الذى أحال القطر المصرى كله إلى عزبة للقطن ، وقتل الصناعة المصرية قتلاً تاماً ، حتى إننا حوالى ١٨٩٢ أنشأنا مصنعاً فى القاهرة لغزل القطن ونسجه ، وجئنا له بمدير إنجليزى ، فأصر كرومر على فرض الضرائب الباهظة عليه حتى أغلقه . ثم ، وهنا عبرة ، عين مديره الإنجليزى فى الحكومة المصرية .

وبفضل الحزب الوطنى ، بل بفضل الشاب مصطفى كامل ، تزايدت الحركة الوطنية وأخذت موجاتها تعلو وتزيد . ورأى كرومر عجزه عن مكافحتها ، فحمله الغيظ على العنف الأحمق بل على التوحش الإجرامى . فانتهاز حوالى سنة ١٩٠٧ فرصة التقاء الجنود ببعض الريفيين فى دنشواى إحدى القرى فى المنوفية ، وكانوا يصيدون الحمام الذى كان هؤلاء الفلاحون يربونه ، فاشتبك الريفيون مع الإنجليز فى مشاجرة انتهت بقتل بعض الإنجليز أو بالأحرى بوفاته . وعندئذ عينت محكمة «مخصوصة» كان رئيسها المرحوم بطرس غالى باشا ، ومن أعضائها المرحوم فتحى زغلول باشا ، وكان المحامى عن الإنجليز المرحوم الهلباوى الذى صار بعد ذلك عضواً فى حزب الأحرار الدستوريين . وشرع فى محاكمة الدنشوائيين وعم الأمة توتر نفسى وغلت العواطف . وكتب «المقطم» بأن المشنقة أرسلت إلى دنشواى قبل أن تنتهى المحاكمة ، فحجلت الحكومة وكذبت الخبر . ولكن المرجح أن المقطم كان صادقاً ، لأنه كان يتصل اتصالاً تاماً بالإنجليز فى ذلك الوقت . وصدر حكم المحكمة بجلد البعض وبشنق الآخرين . وأنفذت الأحكام فى القرية ذاتها ، ورأى الأطفال آباءهم يشنقون أو يجلدون ، ورأت الزوجات والأمهات والشقيقات والآباء أعزاءهم وهم يتدلون من الحبال أو يصرخون من الجملد .

وأذكر أنى كنت فى الإسكندرية فى ذلك الوقت أتنزه مع أخى ، وكنا نأكل فى المطاعم . فلما قرأت الحكم عمى جمود يشبه الغثيان ، فلم أستطع الأكل جملة أيام . ودارت فى رأسى خواطر جنائية عن هؤلاء المعتدين على بلادنا وأهلنا . وخجل الإنجليز أنفسهم من هذا الحادث الإجرامى ، فعزلوا كرومر عن وكراته فى مصر . وكان يرأس الوزارة الإنجليزى فى ذلك الوقت رجل من الحريين يدعى هنرى كامبل بانرمان . ولكن وزير الخارجية المدعو جراى برر جريمة كرومر بأن وقف فى البرلمان يقول : إن التعصب الإسلامى قد تفشى فى إفريقية الشمالية كلها بما فى ذلك مصر . وكتب «المقطم» مقالا عنوانه «التعصب يمتد ويشتد» ما زالت كلماته ترن فى ذهنى ، ولا تزال «دنشواى» عندى من الذكريات النفسية الأليمة .

وقد وجدت تعزية فى شئ واحد هو أن الوجدان الوطنى أصبح عاماً وتنهت الأمة كأنها استيقظت من نوم ، فكنت أجد بعض الشبان يشترون «المقطم»

ويمزقونه حتى لا يقرأه أحد ، وحتى الأقباط الذين كانوا متوجسين من حركات الحزب الوطنى الدينية ، أصبحوا وطنيين يكرهون الإنجليز . وكان هذا الانفعال الجديد ملحوظاً فى أعضاء طائفتنا . ولكن اختلاط الحركة الوطنية بالدعوة الإسلامية من ناحية وبالرغبة فى السيادة العثمانية من ناحية أخرى عرقل الاندماج التام للأقباط فى الحركة الوطنية ، فكانوا يشيخون عنها ويذكرون حكم الأتراك ومظالمهم أيام إسماعيل وتوفيق .

وشعرت فى ذلك الوقت بما لازلت أشعر به الآن ، وهو أن الاستعمار البريطانى ليس هو العدو الوحيد لبلادنا ، لأن الرجعية بالتزام التقاليد ، وكراهة الروح العصرية فى السياسة والاجتماع والعقيدة ، كل هذا يتألف منه عدو آخر لعرقله أمتنا عن التقدم . وكانت نظرية التطور التى تعلمتها من « المقتطف » قد جعلتني ألمح بصيصاً من الرؤيا الجديدة ، وأن أومن بأن العلم الذى حقق السيادة وإن لم يحقق السعادة لأوربا ، جدير بأن يرفعنا من حضيض الفقر والجهل الذى وضعنا عليه الإنجليز ، وأن يحقق لنا استقلالنا . ولذلك وجدتني من ذلك الوقت أدعو إلى أن نعيش المعيشة العصرية ، وأن أناصب الرجعيين المصريين العداً الذى أناصبه للإنجليز .

وكان على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » معدوداً بين كبراء الكتاب الصحفيين يحسن المناقشة ويأترم المنطق والتعقل . وكان « المؤيد » قليل الانتشار يسبقه « اللواء » ويطغى عليه بمقالات مصطفى كامل النارية . ولكن « المؤيد » كان يثب فى الأزمات . ففى حادثة دنشواى مثلاً أقبل عليه القراء ، وهم فى كمد وحزن وحيرة ، يقرأونه ويتعقلون ما يكتبه عن السياسة الإنجليزية المصرية وينظرون للمستقبل من خلال بصيرته .

ولكن علاقه الشيخ على يوسف بالخدوي جعلته يتجه صوب استامبول أو كما كانوا يسمونها « الأستانة العلية » حتى إنه عند ما أسس « مجلس المبعوثان » فى تركيا دعا المصريين إلى أن يرسلوا نواباً عنهم فيه ، إذ أن مصر جزء من الدولة العثمانية . . .

أما مصطفى كامل فكان يغزو قلوب الشبان . وكان إذا أعلن عن خطبة يلقيها تجمع الآلاف لسماعه . وكان فى شبابه وحماسته إغراء للشبان . وقد مات بالدرن ولما يبلغ الثانية والثلاثين .

وفي تلك السنين شبت الحرب بين روسيا واليابان ، فاتجه الرأي العام نحو اليابانيين باعتبار أنهم أمة شرقية مثلنا ، فكنا نفرح كلما قرأنا عن هزيمة روسية ؛ لأن روسيا كانت تمثل في أذهان الجمهور أوربا التي تنتمى إليها بريطانيا ، كما أن اليابان كانت تمثل يقظة الشرق . حتى إن مصطفى كامل ألف عنها كتاباً باسم « الشمس المشرقة » .

وأحدث خليل صادق نهضة أدبية في تلك السنين بسلسلة من القصص كانت تخرج كل شهر باسم « مسامرات الشعب » وهي قصص مترجمة عن الفرنسية والإنجليزية اشترك في الترجمة له فيها كتابنا المعروفون مثل حافظ عوض وعبدالقادر حمزة (باشا) ومحمود أبو الفتح وغيرهم . ولكن الأدب لم « يتمصر » في ذلك الوقت ؛ لأن كفاحنا للأمبريالية البريطانية كان يستغرق كل مجهودنا . فكان الكاتب الذي يجد في نفسه القدرة على التعبير الفني يلتفت إلى السياسة قبل الأدب ، ويجهد في إيقاظ وجدان المصري الوطني . وما نقصنا نحن من هذه الوجهة سده إخواننا السوريون عنا ، وهم بالطبع كانوا أقرب إلى الثقافة العصرية الأوربية منا ؛ لأنهم تعلموا في الجامعة الكاثوليكية والجامعة الأمريكية في بيروت . وهم أيضاً ، لأنهم كانوا مسيحيين ، لم يجدوا العائق السيكلوجي الذي كنا نجده نحن في مصر إزاء الثقافة الأوربية العصرية .

وكنا فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٨ في تبلبل سياسي وفي تبلبل أدبي واجتماعي . فقد كانت تسود وجداننا السياسي نزعتان : الأولى والكبرى في الاتجاه نحو الدولة العثمانية والدفاع عن استقلالنا المصري ، بدعوى أننا جزء من هذه الدولة العثمانية . وواضح أن موقفنا هنا كان حائراً مقلقاً . ثم كانت النزعة الأخرى وقد بزغت ضعيفة تتلجلج بل لا تكاد تنطق ، وهي الدعوة إلى الاستقلال المصري التام والتخلص من بريطانيا وتركيا معاً .

أما التبلبل الأدبي فلم نكد نحس به في تلك السنوات . وكان جميع الكتاب ، باستثناء السوريين ، يعنون بالأدب دراسة القدماء من العرب لا أكثر . ولكن كان هناك تبلبل اجتماعي وضع خميرته محمد عبده وقاسم أمين ، ونمت وزكت هذه الخميرة في الوسط الإسلامي ، وأصبح لها دعاة وخصوم .

وكان الخديو عباس محبوباً إلى سنة ١٩٠٧ يجد فيه الشباب رمزاً للكفاح . وكانت شراسة كرومر ، الذي كان يرغب في معاملته كما لو كان أحد مهرجات

الهند ، تذب فيه هذا الكفاح . وتعلق به الجمهور وشاعت عنه مواقف وطنية . ومما سمعناه في تلك السنين أن ويصا واصف ومرقس حنا وعدداً آخر ، معظمهم من المحامين ، قصدوا إلى سراى عابدين وانتظروا إلى أن هم الخديو بركوب عربته ، فأصروا على أن يحلوا خيولها ويجروها هم . ولكن الخديو اتخذ موقفاً معارضاً لاتجاهات الشيخ محمد عبده نحو الأزهر ؛ فكان الخديو يصر على أن يبقى الأزهر كما كان منذ مئات السنين محافظاً لا تتسرب إليه تيارات الثقافة العصرية . وكان محمد عبده يصر على أن يتطور الأزهر إلى جامعة عصرية . واتجه المستنيرون من الأمة وجهة محمد عبده فازوروا عن الخديو .

ولكن أعظم ما جعل الجمهور المصري يتغير على الخديو هو ما كان يسمى بسياسة الوفاق . فإن الإنجليز ، بعد أن رأوا سياسة كرومر الشرسة مع الخديو قد أحالته إلى وطني يدس لهم ويؤيد الحركات الوطنية ضدهم ، عينوا السرالدون جورست وكيلا لهم بالقاهرة ؛ فتجيب هذا إلى الخديو وزاد في سلطته . وارتاح الخديو إلى هذا التغيير ارتياحاً عظيماً جداً ، وشرع يعارض الحركات الوطنية الدستورية ، ويسير مع الإنجليز في «سياسة وفاق» كان ضررها بالأمة فادحاً . وكانت سياسة الوفاق هذه سبباً في انقلاب مصطفى كامل ؛ إذ أنه أبى أن يسير مع الخديو ، وأصر على الكفاح . ولم تمض سنوات حتى أصيب جورست بالسرطان ومات به في إنجلترا . وأعرب الخديو عن حبه له ، وتقديره لسياسة الوفاق بأن زاره خفية وهو في فراش الموت .

ثم جاء كتشنر ، فأعاد سياسة كرومر ، ولكن في حاجة العسكري وغشومته . وعاد الخديو إلى موقف المعارضة والمعاكسة للإنجليز .

ولو سئلت عن الفرق في القاهرة بين ١٩٠٥ و ١٩٤٥ لقلت إن نبض القاهرة قبل أربعين سنة كان أبطأ ، كما أن الإيقاع كان شرقياً في كل شيء تقريباً . فكان الناس يمشون أكثر مما يركبون . وكانت المدينة متجمعة مكتلة في رقعة صغيرة لم تستفص بعد إلى صحراء هليوپوليس أو إلى الضفة الغربية من النيل . وكنا في الملابس نعبر طور الانتقال . فإني أذكر أنني لبست قفطاناً بحزام وأنا تلميذ بمدرسة الأقباط في الزقازيق ، وكنت في العاشرة من العمر . ثم لبست أيضاً وأنا في الثانية عشرة بذلة رمادية من طراز الريدنجوت . أما نساءنا وآلاتنا فبقين كلهن إلى سنة ١٩١٩ يتخذن البراقع والحبرات .

وكنا نقضى لىالى السرور عند الشفخ سلامة حجازى . والحق أن هذا الرجل كان ممثلا بارعا ، ولكنه لم يكن فمثل قدر ما فغنى . فقد وجد إقبالا عظفما على أغانيه فكان التمثيل عنده ملحقا بالغناء . وظنى أنه كان يفعل هذا مضطرا ؛ لأن كفاءته المسرحفة كانت عظفمة جدا . ولا بد أنه كان فتنألم ؛ لأن الجمهور لا فقدرها وفؤثر عليها الغناء .

وكانت هناك إلى جنب مسرح الشفخ سلامة ملاه أخرى كانت غاية فى الفحش ، ففث كانت الراقصات فقمفن بفركات وإفماءات فى فى صمفمها محاكاة ففر فففة للتعارف الجنسفى ، محاكاة فاحشة رخفصة دنسة متهفكة . وقد اضطررنا بعد سنة ١٩٢٢ ، إلى إلغاء هذا الرقص . ولكن بعض الأغانى القفدفة الفاحشة لا تزال فغنى إلى أيامنا هذه .

وشرعنا ، بعد ذلك بسنوات ، فحس الوجدان المسرحفى ، وفندرك معنى الدرامة ومغزاها ، مما ترجمه فرح أنطون ومما مثله جورج أبفض من الدرامات عن اللغة الفرنسفة .

سلامه موسى

آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية

العادات المصرية القديمة الباقية في مصر إلى الآن

تنتشر في كل أمة من الأمم مجموعة من العادات والتقاليد ، يزاوها الأفراد في كل وقت كأمر طبيعي سهل ميسور لا يمكن أن يكون مجالا للبحث والمناقشة . وشأننا في مصر شأن باقي الأمم ؛ فنحن نجد أنفسنا محاطين بطائفة من العادات نراها ونلمسها في كل يوم منبثة بين طبقات مختلفة من الأمة هي السواد الأعظم من أهل هذه البلاد ، بحيث أصبحت هذه العادات والمعتقدات دستورا عند العامة في المدن ، وجميع أهالي القرى من الفلاحين والمزارعين . هذه العادات تترفع عنها تلك الأقلية من المتعلمين في هذه البلاد ، فيصفونها بالخرافات ، وإذا ترفقوا في الوصف والتعبير سموها بعلم « الركة » ، وهم يعنون بذلك فن الترهات والأباطيل والخزعبلات .

ولكن هل جشم أحد هؤلاء المتعلمين نفسه ، فبحث عن أصل هذه العادات والخرافات والمعتقدات بحثا علميا ردها جميعا إلى أصولها القديمة ، طبقا لقواعد علم « الفولكلور » ؟

الواقع أننا لا نعرف شعبا في العالم أجمع أشد محافظة من الشعب المصري على تقاليده وعاداته . فقد مرت على مصر أدوار مختلفة من التاريخ غيرت لغة البلاد ودينها عدة مرات ، ولكن الغزوات التي توالى على مصر لم تستطع أن تغير شيئا مما ورثه الشعب من التقاليد والمظاهر : قد يكون من المحتمل أن آلاف اليونان والعرب الذين استقروا في البلاد قد تمكنوا من إحداث أثر ضئيل في المدن الكبيرة التي استقروا فيها مجتمعين ، ولكن باقي البلاد التي تشمل آلاف القرى والساكن بقية محافظة على مصريتها الثابتة وتقاليدها القديمة دون أن يعتورها نقص أو تأثر . فالفلاح الحالي لا يزال يشبه أجداده

الذين عاشوا منذ أربعة آلاف سنة تمام المشابهة ، مع فارق بسيط هو أن الفلاح الحالي قد أصبح يتكلم العربية ويدين بالإسلام أو بالمسيحية ، أما ملاحظه وطريقة معيشته وأدوات الزراعة التي يستعملها والمنازل التي يسكنها والعادات التي يزاولها والتقاليد التي يسير عليها ، فهي مصرية فرعونية في روحها وشكلها . فما زال الفلاح يعيش هو وماشيته في منازل مبنية من اللبن كما كان يعيش الفلاح في العصر الفرعوني ، وما زال يستعمل في فلاحه الأرض نفس المحراث والمنجل والمذراة وغيرها من أدوات الزراعة التي كان يستعملها أجداده الأقدمون ، وما زال يروى أرضه بنفس الشادوف الذي كان يروى الفلاح القديم أرضه به . فإذا جمع محصوله من الحبوب وضعه في صوامع من الطين يقيمها فوق منزله كما كان يفعل الفلاح القديم تماما . وما زال هذا الفلاح الذي نراه اليوم خير خلف لسلفه العظيم في صبره وجلده ، يعمل في حقله طول ليله ويكد طول نهاره دون أن يدركه كلل ولا ملل . وهو في وسط فقره يستعين عليه بروح المرح والدعابة . وما زالت السلال والمقاطف «والزكائب» التي تعرف «بالشنف» والحبال بل الأنوال التي يستعملها في نسجه ، وكذا المنازل هي نفسها أدوات سلفه العظيم . وما زال فلاحنا قنوعا يكتفي من عيشه بالكفاف ، إذا جاع فكل ما يتمناه قطعة خبز يسد بها رمقه ، وهو كالفلاح المصري القديم لا يختلف عنه في مأكاه ، لون الطعام الذي يوده ويهواه هو البصل والفجل .

فهذا الفلاح الذي وصفناه هو الذي حافظ على ما ورثه من تقاليد وعادات ظل يتلقفها من أسلافه ، وينقلها وديعة إلى خلفائه ، جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، حتى وصلت إلينا في صور مختلفة من المعتقدات التي نطلق عليها الآن اسم علم « الركة » .

من المعروف أن قدماء المصريين كانوا يعبدون الشمس ، واستمرت عبادتها زمنا طويلا . ولكن الكثيرين سوف يدهشون عندما أقول إن أثر عبادتها لا يزال ظاهرا بيننا إلى اليوم . ففي بعض قرى الوجه البحري لا يزال يقسم الأهالي بالشمس فيقولون : « وحياة الشمس الحرة » وفي جهات أخرى يحلفون بالشمس فيقولون : « وحياة البهيّة التي تطلع من جبلها » . ومظهر آخر من هذه المظاهر يتضح في عادة رمي السن إلى الشمس فيقول الصبي : « يا شمس

ياشمّوسه ، خدى سن الحمار وهاتى سن الغزال . « أما البنت فتقول : « يا شمس ،
ياشمّوسه ، خدى سن الجاموسة وهاتى سن العروسة . »

وقد وجدت الشمس عند قدماء المصريين مع الجعل (الجعران) ، فسميت
« خپرع » ، وإلى الآن نجد أهالى بعض جهات الصعيد إذا مرض أحدهم بالحمى
المسببة عن ضربة الشمس ، خاط إلى طرف ثوبه جعلاً ليأخذ الحمى .

وكما كان المصريون يعبدون الشمس ، فإنهم كانوا يعبدون أنواعاً مختلفة من
الأشجار ، كشجر الجميز والسنت والنخيل ، وكانوا يعتقدون أن الإلهة « هاتور »
أو « توت » قد حلت فيها . وفى كثير من الرسوم نرى الميت وقد وقف أمام
شجرة برزت منها الإلهة وهى تقدم له مائدة عليها قرايين مختلفة . فهذه العبادة
لا تزال موجودة فى مصر إلى الآن يزاوها كثير من المسلمين والأقباط على
السواء . فشجرة المطرية التى تعرف بشجرة العذراء هى بلا شك خلف لشجرة
هليوبوليس المقدسة التى كانت تحل فيها الإلهة ويعبدها المصريون القدماء .
وفى إحدى قرى الفيوم شيخ اسمه الشيخ صبر ذفن فى مكان لا تقوم فيه
سوى شجرة كبيرة يحج إليها كل ذى حاجة يريد قضاءها من أهالى البلاد
المجاورة ، ويأتى لها المرضى من كل فج عميق آملين الشفاء من أمراضهم ، فيدق
كل مريض فى جذعها مسماراً يلف عليه خصلة من شعره ، فإذا فعل هذا اعتقد
المريض أنه سيشفى من مرضه لا محالة .

فهذه الأشجار ، وخاصة الجميز ، لا تخلو منها جبانة حديثة فى مصر أو
ضريح من أضرحة الأولياء والمشايخ . وتعتبر الشجرة وأغصانها مقدسة ، أما
أوراقها وفاكهتها فلها قيمة محترمة .

وللقطط الآن عند العوام منزلة خاصة ؛ فهم يرعون جانبها ويحسنون معاملتها
ويتجنبون ضربها . وهم يعتقدون أن الأرواح والجنان يتلبسون أجسام هذه
القطط ويظهرون بأشكالها . وتفسير هذه الأفكار والمعتقدات الغامضة
هو أن القطط كانت إحدى معبودات المصريين القدماء ، يعبدونها باسم الإلهة
« باستت » .

ويعتقد العوام من الناس أن لكل منزل ثعباناً يحرسه ؛ فهذا الاعتقاد
يرجع إلى أن المصريين القدماء كانوا يعبدون أحياناً ثعباناً كبيراً يظنون فيه
الخلود ، ويعتقدون أنه يسكن حقلاً أو غابة أو كهفاً أو جبلاً ويقوم على حمايته .

ولدينا بالمتحف المصرى تمثال ثعبان وجد بمعبد أتريب ، بنها الحالية ، ووضع هناك لحمايته .

أما ما نجده أحيانا معلقا على أبواب المنازل من تماسيح منحطة ، فإن هى إلا بقية من بقايا عبادة هذه الحيوانات فى عصر الفراعنة ، إذ كان التماسيح إلهًا عبوده وسموه « سبك » .

يعتقد العوام الآن أن لكل شخص أختا تحت الأرض أو قرينة تولد معه . فهذا الاعتقاد ورثناه عن الفراعنة الذين كانوا يعتقدون أن كل شخص له روح أو قرين أطلقوا عليها « كا » وكانت هذه الـ « كا » تعيش معه ، فإذا مات تبعته إلى المقبرة .

هذه كلمة عاجلة عن المعتقدات . أما العادات فكثيرة لا يدركها حصر ، فنقتصر على ذكر أهمها :

يحرص الفلاحون فى القرى على الإكثار من الأولاد والنسل حتى تكون لهم أسرة كبيرة وذرية ، وهم يبكرون فى الزواج بدرجة يستغربها الكثيرون . فهذه عادة ورثناها أيضا عن المصريين القدماء . قال الحكيم المصرى « آنى » فى وصية إلى ابنه : « اتخذ لنفسك زوجة وأنت صغير حتى تعطيك ابنا تقوم على تربيته وأنت فى شبابك ، وتعيش حتى تراه وقد اشتد وأصبح رجلا . إن السعيد من كثرت ناسه وعياله ، فالكل يوقرونه من أجل أبنائه . » أفليست هذه العبارات بالفاظها ومعانيها هى التى نسمعها كل يوم من أفواه المسنين من الفلاحين يوصون بها أولادهم ليل نهار ؟

نعيب على مواطنينا تمسكهم بوظائف الحكومة وتعلقهم بأذيالها ونحتقر قولهم : « من فاته الميرى اتمرغ فى ترابه » ، ولكننا ننسى أو نتناسى أننا ورثنا هذه العقلية عن أجدادنا . فقد ورد فى النصوص الفرعونية صورة خطاب كتبه أب لابنه يقول فيه : « بلغنى أنك أهملت دراستك وسرت وراء ملاهيك ، فهل تريد أن تكون فلاحا تشق وتكدح ! لا تكن فلاحا ، ولا تكن جنديا ولا تكن كاهنا ، بل كن موظفا يحترمك الجميع ، ويمتلىء منزلك خدما وحشما وتترعب فى مجلس الثلاثين إلى جانب رجال البلاط . »

ولطالما هزأنا بآلاف الموظفين وما يبدوونه من ضروب المداهنة والمصانعة

آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية

للرؤساء ابتغاء مرضاتهم ، ولكننا نسينا أن هذا الداء مولود فينا توارثناه عن الآباء والأجداد . ألم يقل الحكيم « بتاح حتب » الذي عاش منذ خمسة آلاف سنة : « انحنِ أمام من هو فوقك ، أمام رئيسك في شؤون الإدارة الملكية حتى يستمر بيتك مفتوحا ، ويستمر رزقك وراتبك جاريا ، ولا تعصه فإن عصيان من بيده السلطة شر مستطير . »

ننادى الآن بالويل والشبور وعظائم الأمور إذا انتقل الموظف إلى جهة بعيدة ، ولكن يجب ألا نلام على ذلك ، فإن الاغتراب قد ولد فينا كرهه حين ولدنا ، وورثناه ضمن التركة التي خلفها لنا الأجداد . ألم يشك هذا الموظف المسكين الذي نقل من بلده منفيس منذ أربعة آلاف سنة ، فكتب يقول : « إني أجلس هنا بالجسم على حين تطير روحي إلى منفيس حتى تطمئن على الأحوال هناك وتستقر . إني أجلس هنا ولست بمستطيع أن أقوم بعمل ، أي إلهي « بتاح » أحضر إليّ وخذني إلى منفيس ودعني أرها ولو من بعيد . »

ثم إن الكثير مما نشكوه من عيوب يجري في دمائنا بحكم الوراثة من آبائنا الأقدمين . فتمسكنا بالمظاهر الكاذبة وما تحتتمه من تبذير شديد عيب قديم فينا . ألا نخبرنا النصوص بأن الملك رمسيس الثالث الذي كان يعطى ١٨٥٠٠٠ كيس من القمح سنويا للمعابد ، هو بعينه الملك الذي كان لا يستطيع أن يرسل خمسين كيسا من القمح شهريا لعماله في الجبانة ، وقد كانوا يتضورون جوعا !

أما كرم المصريين وإسرافهم في الولائم والأفراح فهما موروثان أيضا . فلطالما شهدت قاعات منازل الأثرياء في عصور الفراعنة ولائم رائعة كان يدعى إليها عشرات الصحاب والخلان وتتخللها الموسيقى والرقص والغناء . وكان المصريون لا يدخرون وسعا ، كما نفعل اليوم ، في تقديم الكميات الوفرة من اللحوم وألوان مختلفة من ألذ أنواع الطعام ؛ إذ كانت تقاس عظمة الداعي بكمية ما يقدمه من طعام . فإذا حان وقت الطعام غسل كل مدعو يده قبل الأكل ، فكان يتقدم الضيف إلى رجل يصب على يده الماء من إبريق في طست يشبه كلاهما الطست والإبريق اللذين نستعملهما اليوم كل الشبه ، فإذا فرغوا من أكلهم غسلوا أيديهم أيضا كما نفعل اليوم .

أما احتقارنا للفلاح فهو قديم . وقد وردت في رسوم المقابر الفرعونية مئات الرسوم التي تهزأ به وتسخر منه ، وكان إذا تأخر في دفع ما على أرضه من

خرائب أئته جباة الأموال وطرحوه أرضاً وأوسعوه ضرباً بعضهم حتى يدفع .
أفلم يكن هذا هو النظام المتبع في جباية الأموال إلى عهد قريب ؟
وهناك مئات من العادات الصغيرة نراها كل يوم دون أن نلقى إليها بالاً .
فالمغنى البلدى لدينا والمقرئ وهو يتلو القرآن كلاهما يضع إحدى يديه على خده
وهو ينشد . فهذه العادات وردت لها عشرات الرسوم في الآثار المصرية القديمة .
بل إن نفس الزمارة (المزمار) التي يستعملها المغنون في القرى هي نفسها التي
كانت تستعمل في عصور الفراعنة .

ثم إن التصفيق بالأيدي لمصاحبة الغناء أخذناه عن المصريين القدماء . وكذا
«الطريقة» بأطراف الأصابع عند الرقص ورثناه عنهم أيضاً . وكما كان يفضل
المصريون القدماء من المغنين والعازفين من كان أعمى لا يبصر ، فإننا لا نزال إلى
الآن تفضل من المقرئين من كان كفيف البصر . أما عادة وضع القلم على الأذن
التي يزاوها كل يوم مئات من كتبة المحال التجارية والمحصلين وجباة الأموال
(الصرافين) في القرى والأقاليم ، فهي عادة انحدرت إلينا من كتبة قدماء
المصريين الذين كانوا يضعون الأقلام على آذانهم .

بل إن عادة إظهار الإعجاب بحسن صوت المغنى أو المنشد أو إظهار الفرح
العظيم بأن يلقي الشخص ملابسه أو طربوشه هي أيضاً عادة مصرية قديمة . فقد
ورد في نصوص الأهرام وصف لوصول الملك بعد موته إلى العالم الآخر حيث
« وجد الآلهة في انتظاره متدثرين بملابسهم ومنتعلين نعلاً بيضاء ، فما كادوا
يرونه حتى ألقوا بملابسهم ونعالهم من الفرح وصاحوا قائلين : « إن قلوبنا لم
يدخلها الحبور والفرح إلا عند مقدمك » .

أما ما ندعوه الآن بالسحر فقد ورثناه بأكمله عن المصريين القدماء . فقد
اشتهرت مصر منذ قديم الزمان بالسحر ، وإلى الآن لا تعدم قرية من قرانا
ساحراً تغدق عليه خيراتها وتضع فيه ثقها ويستمتع فيها بنفس النفوذ والثقة
التي كان ينعم بها سحرة العصور القديمة .

كان المصري القديم يلجأ إلى الساحر إذا أراد التخلص من عدو . وتخبرنا
النصوص أن الساحر كان يعذب هذا الشخص بما يطلقه عليه من أحلام مزعجة
وأشباح مرعبة وأصوات مستغربة ، بل إن الساحر كان يسلط عليه الأمراض
فتنهك قواه وتهدد بدنه . وكان الساحر قادراً على أن يجعل النساء يتركن أزواجهن

آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية

ويتعلقن بأذيال من يريد الساحر من رجال ، حتى لو كانوا موضع كرههن من قبل . وكان الساحر يطلب في مثل هذه الأحوال لكي ينجح عمله أن يُؤتى له بقليل من دم الشخص المطلوب أو قلامه من أظافره أو خصلة من شعره أو قطعة قماش من ثياب يكون قد لبسها ، فإذا حصل الساحر على ما طلب صنع تمثالاً من الشمع بشكل الشخص المطلوب العمل له ، ووضع في التمثال أو استعمل في صنعه الأشياء التي أخذها . فإذا تم له ذلك ألبس التمثال ملابس كالتى يرتديها الشخص نفسه حتى يشبهه تمام المشابهة . ثم يبدأ في أن يجرى على التمثال طائفة من الأعمال السحرية ؛ فكان إذا دق مسماراً في التمثال أصيب الشخص بمرض ، وإذا قرّب التمثال من النار أصابت الشخص حمى جنبية ، وإذا طعن التمثال بسكين قُتل الشخص أو جرح . ويظل الساحر يزاوّل أعماله حتى يقضى على الشخص الذى يريده . وقد ورد في النصوص أن هذا النوع من السحر قد استعمل ضد الملك رمسيس الثالث ، ولكنه اكتشف الأمر فقبض على هؤلاء السحرة وصادر ما وجدته لديهم من تماثيل الشمع التى صنعت بشكله (راجع ورقة هاريس البردية السحرية وورقة تورين البردية القضائية) : أفليس هذا النوع من السحر وعمل التماثيل من الشمع أو الطين وشكها بالإبر والدبابيس هو الذى يستعمله سحرتنا في القرى والأقاليم الآن ؟

وليس الأمر مقصوراً في ذلك على القرى والأقاليم ، بل إن القاهرة نفسها وهى عاصمة البلاد تعج بمن يعتقدون فيها بالسحر وقوة فعله . ونحن نورد في هذا المقام فقرة نشرتها جريدة الأهرام في اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٣٥ قالت فيها تحت عنوان : « تشكو من السحر » : « تقدمت فتاة وطنية إلى البوليس تشكو شاباً معيناً بأنه دأب على أن يستعمل لها السحر حتى أقض مرقدها ، وطلبت من البوليس أن يحول بين ذلك الشاب وبين أعماله السحرية . وكل ما لدينا من غرام بالتائم والتعاويز والأحجية : كحجاب الحب والكراهة والحفظ ، وآلاف التائم التى تعلق في رقاب الأطفال حتى تطول أعمارهم ، كل هذه إن هى إلا عادات ورثناها عن أجدادنا القدماء الذين كانوا لا يسيرون خطوة إلا والتائم ترافقهم وتحميهم . وزيارة واحدة للمتحف المصرى ترينا آلاف التائم التى استعملها المصريون القدماء .

ويقرب من هذا اعتقاد العوام منا اعتقاداً جازماً بالعين وقوة أثرها . فأنت

إذا جلست إلى رجل من العوام حدثك كيف أن هناك فئة من الناس لا تكاد ترى شيئاً تعجب به حتى يحصل له حادث ما . ولنا في ذلك تقاليد غريبة . فإذا توقعك طفل عزت أمه انحراف صحته إلى عين الحسود ؛ فتذهب إلى أحد المشايخ وحينئذ يوعز إليها أن تلتقط « ريحة » الطفل ، ثم يكتب لها حجاباً ويعطيها قليلاً من « الكسبرة » لتبخر بها طفلها ، ثم توضع « الشبة » الزفرة في النار ويطوفون خلال ذلك بالمريض حول النار وهم يقولون : « من عين أمك لعين أبوك ، لعين الناس إلى حسدوك ، إن كانت عين مره ، يبتليها بشرشرة ، وإن كانت عين راجل يبتليها بشراشر . يالمبة ، مساء الخير عليك ، فلان منكدرى نكده عليك » . ثم تأخذ إحدى النساء النار بعد أن تلتقى فيها ملليماً وترميها من وراء ظهرها إشارة إلى نبد أذى العين .

وبسبب العين أيضاً نشأت فكرة تعليق الضحون على مداخل المنازل أو قرون الأغنام أو عروسة القمح على الأبواب ، وكذا طائفة من التائم نراها معلقة على العربات بل على سيارات الأغنياء منا والمثقفين بشكل خرز أو قلائد توضع دفعاً للعين ؛ فهذه الخرافة ورثناها أيضاً عن مصر القديمة . فقد وجد في مكتبة معبد الإله حوريس في أدفو كتاب مملوء بالرقى والتعاويذ لطرد العين الشريرة . كما أن هناك أنشودة معروفة للإله تحوت يرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة ، وقد ورد فيها ما يأتي : « أيها الإله تحوت إذا كنت تحميني لم تبق بي حاجة إلى الخوف من العين » .

يعتقد العوام عندنا أن هناك ساعات من النهار بل أياماً مخصوصة لا يحسن بالمرء أن يأتي فيها عملاً لأنها منحوسة . فهذا الاعتقاد في الأيام سعداء ونحسها قديم أيضاً ؛ إذ كان المصريون القدماء يعتقدون أن الأيام تكون سعيدة أو منحوسة طبقاً لما وقع فيها من حوادث سعيدة أو كريمة في أساطيرهم الدينية ، فالיום الأول من أمشير الذي رفعت فيه السماء ، وكذا اليوم السابع والعشرون من هاتور الذي عقد فيه صلح بين الإلهين حوريس وسيت وتراضيا فيه على اقتسام العالم ، كانا يومين كلهما سعد وبركة . أما اليوم الرابع عشر من طوبة الذي بكت فيه ايزيس دنفيس على أوزيريس فقد كان يوماً منحوساً . وكان هذا الاعتقاد من القوة في العصر الفرعوني بحيث إن كثيراً من الأعمال كالبدء في سفر بعيد أو عقد صفقة تجارية أو ما إليها كان يؤجل من أجل هذه الأسباب .

آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية

وما زلنا الآن بعد مضي خمسة آلاف سنة نؤجل أشغالنا لهذا السبب عينه .
وقد اعتدنا في ليلة شم النسيم أن نعلق البصل فوق الأماكن التي تنام فيها
أو نضعه تحت الوسادة ، وفي الصباح نكسر البصل ونشمه ، وفي بعض القرى
يلقون هذا البصل على باب المنزل . فهذه العادة مصرية قديمة ؛ إذ كان الناس في
عيد الإله « سكر » إله الموتى في مدينة منفيس يطوفون حول جدران هذه
المدينة وقد علقوا البصل حول رقابهم ، كما كانوا يعلقون البصل أيضاً حول أعناقهم
في الليلة التي تسبق هذا الاحتفال .

كان الطب في مصر القديمة يختلط اختلاطاً كبيراً بالسحر ، فالعلاج بالعقاقير
والأدوية كان يسير جنباً إلى جنب مع العلاج بالرق والتعاويذ . وقد ورثنا
شيئاً كثيراً من قدماء المصريين في هذا الباب . ففي القرى نجد الشخص إذا
مرض لجأ إلى شيخ يزاول السحر ، فيكتب له تعويذة على طبق ، ثم يضع الماء فيه
كي يختلط بالكتابة التي عليه ، ثم يكلف المريض بشرب هذا المنقوع لكي يشفي
من مرضه . فهذه الطريقة نقلناها عن قدماء المصريين . ولدينا على ذلك الدليل :
ففي المتحف المصري يوجد تمثال من الجرانيت الأسود يقوم على قاعدة ، لكاهن
ساحر يدعى زحر اشتهر بما كان يحفظه من الصيغ السحرية لعلاج مختلف
الأمراض . فهذا الساحر المشهور الذي لا يشق له غبار في فنه صنع لنفسه هذا
التمثال وغطاه هو وقاعدته بالتعاويذ السحرية الواقية من عدد كبير من الأمراض
لكي يستفيد به بنو جنسه بعد موته . فكان إذا أصيب أحدهم بمرض مما نصت
عليه التعاويذ ذهب فصب الماء على التمثال فيصبح الماء بعد جريانه على التعاويذ
المنقوشة عليه متشبعاً بفضيلة التعاويذ . وما على الإنسان بعد ذلك إلا أن يغترف
السائل الذي يجري إلى تجويف القاعدة فيتناوله المريض ويشربه لكي يحصل
له الشفاء .

أفليس هذا هو الأصل في العادة التي ذكرناها ؟ أو ليست فكرة « طاسة
الخضة » الموجودة لدينا الآن بما عليها من كتابات ونقوش وآيات ووضع الماء
فيها لشربه هي شيء شبيه بما ذكرناه ؟ بل ما أشبه « طاسة الخضة » هذه بإناء
من المرمر وجد في مقبرة توت عنخ آمون حفر على حافظته سطر من الكتابة
الهيروغليفية يتضمن أدعية للملك وتعويذة لحفظه نقشت في هذا المكان حتى

تختلط بما يشربه الملك عندما يضع شفته عليها وقت الشرب فتمنحه الصحة والسعادة .

ثم إن الأصل في تلك الفكرة الغريبة المستهجنة التي تملك فريقاً من نساءنا والتي تتلخص في أن فلانة عليها شيخ أو عليها عفريت ، لا يعدو الخيال الذي يدل على عقلية سقيمة معتلة من نساءنا أكثر من دلالتها على جسم سقيم أو مرض عضوي . والمسألة فوق هذا وذاك تقليد ورثناه انحدر إلينا ضمن التركة التي خلفها لنا المصريون القدماء . ألسنا نقرأ في قصص المصريين القدماء قصة أميرة بختن وقد حلت في جسدها روح شريرة لم يمكن إخراجها من جسدها إلا بعد أن ذهب إليها الإله خنسو بنفسه فأخرجها بقوة سحره ، أو لسنا نقرأ في هذه القصة نفسها أن هذه الروح قد اشترطت قبل خروجها أن يقام لها احتفال نفخ يشترك فيه الإله مع أمير بختن بحضور هذه الروح ، فأقيم الاحتفال وقدمت فيه الهدايا والقرايين والضحايا لهذه الروح أمام الإله خنسو ، فلما أخذت منها بأوفر نصيب ، وعند ما قاربت الحفلة الانتهاء « خرجت الروح ذاهبة إلى حيث تريد » كما تقول النصوص المصرية القديمة . والآن ألا نجد في هذه القصة المصرية القديمة تفسيراً للمصدر الذي استقيناه منه هذه الحفلات الهائلة المأجبة التي ندعوها « الزار » ولأولئك « الأسياد » الذين يحلون في أجسام سيداتنا المصريات .

وهناك صور كثيرة تقع تحت أنظارنا في كل يوم تطابق أشد المطابقة صوراً مصرية قديمة بتفاصيلها كما وردت رسومها على جدران المقابر . فمنازل الفلاحين في القرى هي كما قلنا شديدة الشبه بالمنازل المصرية القديمة ، فهي تبني مثلها من اللبن الذي يضرب في قالب من الخشب بنفس الطريقة التي كان يضرب بها الطوب عند قدماء المصريين ، ثم يُرص في الشمس ليجف . ونفس المصطبة التي نجدها أمام منازل الفلاحين الآن كانت توجد عند المصريين القدماء أمام منازلهم . بل إن الأخصاص التي نجدها الآن مقامة في المزارع والحقول وفي جهات متعددة من القرى ، والمصنوعة من سفائف من البوص المطلى بالطين ، هي أيضاً كانت ذائعة الانتشار عند قدماء المصريين .

والآن تنتقل إلى صورة أخرى نراها كثيراً مرسومة على جدران مقابر طيبة ، الأقصر الحالية ، وهي صورة حلاق القرية ، وقد جلس على الأرض وأمامه رجل

آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية

يخلق له في الهواء الطلق ، أفليست هذه الصورة بعينها هي التي تجدها في قرانا الآن ، بل في كثير من مدنها ، بل في العاصمة نفسها على إفريز الطريق بجوار سور حديقة الأزبكية .

ونحن إذا سرنا في القرية رأينا فريقا من الصبية وقد حلقوا رؤوسهم ، ولم يتركوا عليها إلا خصلات متناثرة من الشعر للزينة ، فهذه العادة أيضا أخذناها عن أطفال قدماء المصريين .

والآن فلنقترب من حفلة عرس لنرى ما يدور فيها . فهنا نجد المغنين وقد وضعوا أكفهم على خدودهم عند الغناء كما كان يفعل المصريون القدماء . وعلى مقربة منهم نجد العازفين على الزمارة ، وهي قصبة من البوص طويلة الساق ذات ثقب تشبه تمام الشبه ما كان يستعمله قدماء المصريين . وهناك نجد طائفة من الراقصات وقد أسرفن في التكحل وغمرن الخدود بالأصباغ كما تعود أسلافهن من المصريات في العصر الفرعوني أن يفعلن ، ونجد في أيديهن نفس الطبله والدربكة والرق والطار التي كانت تستعملها الراقصات المصريات في عصور الفراعنة . كما نرى الجمع وقد انتشى بشرب نبيذ البلح ، وهو نفس النبيذ الذي كان يفضلونه المصريون القدماء في أمثال هذه الحفلات .

ونحن إذا تركنا هذا كله جانبا ويمنا شطر الأراضي المزروعة والحقول الواسعة رأينا فيها ما يدهشنا . فالحقول تقسم الآن إلى مربعات صغيرة لتسهيل ريها بنفس النظام الذي كان يسير عليه المصريون القدماء منذ عصر ما قبل التاريخ . ونجد الحقول وقد انتظمت المحراث وتوارثته عن المصريين القدماء ولم تغير ، مع توالي العصور عليه ، لا من شكله ولا من طريقة استعماله . كما نراها تنتظم الشادوف بشكله المتعارف عند المصريين القدماء أيضا ، يقوم على استعماله الفلاح المصري الحديث كما كان يقوم سلفه العظيم على استعماله منذ آلاف السنين . فإذا نما الزرع واشتد عوده وآن أوآن حصاده ، فطريقة قطعه هي بالمنجل وهو نفس المنجل الذي كان يستعمله المصريون القدماء بشكله المعروف الذي أخذناه عنهم . وطريقتهم في التذرية هي نفس الطريقة التي نستعملها نحن الآن ، كما أن الأداة التي نستعملها فيها ، وهي المذراة ، هي بعينها لم تتغير منذ عصور قدماء المصريين طبقا لما نراه مرسوما على جدران المقابر .

ونحن إذا سرنا على جسور القرى نرى صفوفًا من الرجال والماشية والدواب

آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية

وهي تسير في الأفق البعيد ، فتعيد إلى ذا كرتنا مناظر الصفوف الطويلة المشابهة المرسومة على جدران المقابر والآثار . ومما يزيد هذه الصورة حركة وقوة حياة ما نراه يرفرف فوق رؤوسنا من طيور ، فهنا نجد الإلهة المصرية القديمة نخبيت ترفرف على شكل عقاب . وهناك يطير الإله حوريس على شكل صقر كبير ، وعلى مدى البصر يسير الإله أنوبيس على شكل ابن ، آوى ، فيختبئ في الأودية والسهول . وعند موطئ أقدامنا نرى خپر يسير متمهلاً في شكل جعل صغير . وهناك تحت الشجرة المقدسة نرى الإله خنوم يرقد تحت ظلها في هيئة كبش كبير . وهكذا في كل جانب من جنبات الوادي وسهوله نرى الحروف والعلامات الهيروغليفية تقفز بيننا ، تذهب وتجيء كأنها نقوش معبد فرعوني قديم قد عادت إليها الحياة فجأة بقوة ساحر عظيم .

وهكذا تتالى أمام أعيننا في مصر الحديثة صور مختلفة يخيّل إلينا معها أن رسوم جدران المقابر قد تحولت في لحظات إلى رسوم حية و « تابلوهات » مجسمة تنبض بالحياة .

فنحن ، كما رأينا ، نعيش في نطاق تركة خلفها لنا القدماء ، تشدنا إليها سلسلة من التقاليد والعادات ومختلف الأشياء التي تربطنا بها ربطاً وثيقاً لا نجد إلى فصر عروته سبيلاً . فنحن كما كنا وسنظل دائماً أبناءاً للفراعنة ، وإنا بهذه التركة بكل ما فيها من محاسن وعيوب لجد فخورين .

محرم كمال

الطفلان العاشقان

أ هو في الثالثة من عمره ، وهي في مثل سنه
أو تنقص عنه قليلا ، نشأ بينهما الحب فصارا
لا يطيقان الفراق في ليل أو نهار . [

أفديهما من عاشقي غصنان في ظل الصبا
ما منهما بحبيبه إن غاب عنه أن أمش
قرت به عينا - فلم يتعاطيان من الهوى
من خمرة لم تتخذ وتراها - تحت الكرى -
متبسمين له كما أب إن يغضبا فالقلب أب
هي لحظة تمضي وما كم من وداد عاد بعد
ولربما أبدى المحب (م) تجلدا والقلب مضني
ح وقد عرفت الحب فنا

(١) الوهن : نصف الليل .

الطفلان العاشقان

لله حين تراهما والزهرة أيقظه الندى
 والنورق في الأوراق وسنى أرنا الرقيب، وقل أن
 يلقي أخو الصبوات أمنا «خشف»^(١) يعانق مستطاً
 رأ لبه خشفاً أغناً يتقارضان الهمس كس
 رى في ثنایا النفس لحناً لبساً الهوى العذرى كو
 بأ طاهراً ذيلاً وردنا لم يندما يوماً إذا
 قرعت غواة الحب سننا

*

يأيها الفنانات لا ولقيت أيامه
 سعداً يظلكا ويمننا لا تسمعا قول الوشا
 ق، ولا تعيرا العذل أذنا وليرع حبكما العفا
 ف، فلم يزل للحب حصنا لو كان يهوى الناس مث
 لكما جنوا سلوى ومنا مثلما لي في صفا
 هـ هواكما «قيساو لبني» سقيا لروضكما وحيًا

على الخدى

(١) الخشف : ولد الغزال .

عدي بن زيد

نشأ عديُّ في أسرة كريمة بالحيرة ، وكان أجداده أصدقاء لملوكها الذين أولوهم ثقتهم وعطفهم . وكان جده حماد أول من تعلم الكتابة ، وكتب للنعمان الأكبر . وقد توثقت صلته بمرزبان الحيرة فروخ ماهان ، حتى عهد إليه بتربية ولده زيد من بعده ، وقد عمل المرزبان بوصية صديقه . وكان زيد الطفل يجيد العربية فوجهه المرزبان لدراسة الفارسية والتكلم بها ، ثم أوصى به خيراً عند كسرى ونصح بأن يجعله على البريد في حوائجه ففعل ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة . وهلك النعمان ، واختلف أهل الحيرة فيمن يولي من بعده إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه ، فأشار المرزبان عليهم بزيد بن حماد ، فكان ملكاً على الحيرة إلى أن نصب كسرى المنذر بن ماء السماء .

ونشأ عديُّ بن زيد طفلاً في الوقت الذي كان أبوه ملكاً فيه ، وكان رفيقاً لابن المرزبان ، يلعبان معاً ويتلقيان علوم الفارسية معاً في الكتّاب الفارسي ، وأصبح عدي وشاهان مرد ، ابن المرزبان ، كأنهما أخوان . ولما قويت الصلة بين كسرى والمرزبان عمل هذا على إلحاق عدي بخدمة كسرى كما فعل بأبيه من قبل ، فهو ينتهز فرصة إثبات كسرى له ولولده في صحابته ، فيرجوه أن يلحق بأبنائه هذا الفتى العربي الذكي الذي تعلم الفارسية فأتقنها ، والذي يقول الشعر بالعربية . وكان عدي جميل الوجه - والفرس تتفاءل بالوجه الجميل - فلما كمله كسرى وجده ظريف المحضر حاضر الجواب ، فأحبه وألحقه بديوانه ، فكان أول من كتب بالعربية في الديوان . وعلا شأن عدي عند كسرى فكان يؤذن له عليه في الخاصة .

وبينا عدي ينعم بما حظى به من عطف كسرى إذا بأعراب الحيرة يشورون على المنذر ، فإنه يعتدي على حقوقهم ، يأخذ ما يزيد منهم قسراً ، فهم يريدون خلعه ، وهو يحس ببغضهم له ، فيؤثر أن يتخلّى عن عرشه ، وأن يعيش بقية

همره في أمن وسلام . ولكن زيدا والد عدى يصلح ما بين الملك وشعبه ، ويرضى العرب برأى زيد على أن يكون له الحكم وللمنذر الملك . وأخذ عدى يتردد على الحيرة بين الحين والحين . والناس يرون فيه الرأى الناضج ومحسون تفوذه القوى عند كسرى ، فيعرضون عليه الملك ، ولكنه يأبى أن يكون ملكا ، لأنه لا يحب حياة الحكم بل يريد أن يكون حرا طليقا ينعم بما ينعم به من تفوذ في بلاط كسرى ويحيا الحياة التي يحبها بين الفرس ، فإذا حن إلى بلاده استطاع أن يزورها متى شاء فيلقى من حب أهلها وتقديرهم له ما يدخل على نفسه السعادة والغبطة والبهجة الحقة بالحياة . ويشعر المنذر بما لعدى من مقام عند كسرى ، وما له من حب في نفوس العرب ، فيعمل على تقريبه منه ، ويتخذ صديقا ويعهد إليه بتربية ابنه النعمان .

وكان للمنذر غير ابنه النعمان أبناء كثيرون يسمون الأشاهب الجاهلهم ، وأظهرهم الأسود الذي تربى في حجر بني مرينا . فلما احتضر المنذر أوصى بأبنائه إلى قبضة الطائي وملكه الحيرة إلى أن يرى كسرى رأيه . ويفكر هذا في أن يغض النظر عن هؤلاء الأمراء الصبية ، ويرغب في أن يولى على الحيرة أميرا فارسيا . ولكن عدى بن زيد يذود عن العرب وهو في بلاد كسرى . إنه يذكر للمنذر أنه منع الأعراب من أن يأخذوا ما أعطوه لأبيه من جمال الديات . ويذكر قوله : « لا واللات والعزى لا يؤخذ مما كاث في يد زيد تفروق وأنا أسمع الصوت . » ثم إنه يريد أن يحفظ للنعمان الذي تربى في حجره ولاية عرش أبيه وأجداده . ويسأل كسرى عديا عما بقي من آل المنذر وهل بقي فيهم أحد فيه خير ؟ فيجيبه : « إن في ولد المنذر لبقية ، وفيهم كلهم خير » . فقال كسرى : « إبعث إليهم فأحضرهم ، فبعث فأحضرهم ثم أنزلهم جميعا عنده » .

ودعا عدى النعمان فوعده بأنه سيملكه الحيرة ، ولكنه سينتقص من قدره أمام إخوته وسيظهر لهم من المودة والاحترام ما لا يظهر له ، لأنه يريد أن يغترهم بذلك حتى يمكن له عند كسرى . وجمع الأشاهب فأوصاهم بالتأدب على المائدة . وقال : « إذا دعاكم كسرى للطعام فالبسوا من ثيابكم أحسنها ومن زينتك أعلاها ، وتباطئوا في الأكل وصغروا اللقم ونزروا ما تأكلون فإن الفرس قوم ذو مدنية وحضارة ، وهم لا يأكلون ما يأكل العرب ، إنهم يتذوقون الطعام تذوقا ولا يزدردونه ازدرادا » . قال : « وإذا سألكم كسرى ، أتكفونني العرب ؟ قولوا

إنا نقدر عليهم ولكن لا تقدر على أنفسنا ، حتى لا يطمع في أن يضرب بعضكم ببعض ، وحتى تظل مهابة العرب موفورة في نفوس الفرس . وخلا عدي بصاحبه النعمان فنصح به بأن يتجوع وأن يدخل غرفة الطعام في ملابس السفر ، وأن يسرع في المضغ والبلع ويكبر اللقم ويزيد في الأكل ، وألا يحفل بما حوله من مظاهر المدنية الفارسية المترفة . قال : « وإذا سألك : أتكفيني العرب ؟ قل نعم . فإذا قال وإخوتك ؟ فقل إذا عجزت عنهم فإني عن غيرهم لأعجز » . ودخل الأشاهب على هرمزد ابن كسرى وقدّمهم إليه عدي بن زيد ، فأعجبه جاهلهم وحسن زيهم ، ولقت نظره هذا الأحمر الأبرش القصير الذي لا يحفل به عدي بن زيد كثيراً . ودخل هرمزد إلى غرفة الطعام ومعه الأشاهب فرآهم يأكلون كما يأكل أهل الحضريّ تباطئون ويتأنقون ، عدا هذا الأحمر الأبرش القصير فقد جلس إلى المائدة وكأنّه في مخيمه ، فهو يُقبل على الطعام بشهية فيقطع اللحم بيديه ويزدرده ازدراداً ولا يكاد يلتفت إلى شيء إلا لما يتهيأ للانقضاء عليه . ونظر كسرى فأطال النظر إلى هذا القتي ، والتفت إلى من حوله وقال بالفارسية : « هذا أصلحهم للملك » . ورفع الطعام وأخذ كسرى يسألهم فرداً فرداً عن العرب فيجيب كل منهم بما أملاه عليه عدي ، حتى إذا كان هذا الأحمر الأبرش القصير قال : « أكفيك العرب وإخوتي جميعاً » . فقام كسرى وألبسه التاج وثودى به في البلاط ملكاً على الحيرة .

وعاد عدي مع صاحب الملك وعاد الأشاهب ومن بينهم الأسود ووليه عدي ابن مرينا . وأراد عدي بن زيد أن يصفوا الجو للنعمان وأن يزيل ما بالنفوس من ضغائن وأن يترع ما فيها من غل ، فدعا ابن مرينا وأصحابه إلى طعام في بيعة . وبعد الطعام قال له عدي بن زيد : « يا عدي إن أحق من عرف الحق ثم لم يعلم عليه من كان مثلك ، وإني قد عرفت أن صاحبك الأسود كان أحب إليك أن يملك من صاحبي النعمان ، فلا تلمني على شيء كنت على مثله . وأنا أحب ألا تحقد على شيء لو قدرت عليه ركبته . وأنا أحب أن تعطيني من نفسك ما أعطيتك من نفسي ، فإن نصيبي في هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك » . وقام إلى البيعة خلف ألا يهجوّه أبداً ولا يبغيه غائلة ولا يزوي عنه خيراً أبداً . فلما فرغ عدي بن زيد قام عدي بن مرينا خلف مثل يمينه ألا يزال يهجوّه أبداً ويبغيه الغوائل مابقي . وتوثقت الصلات بين عدي بن زيد والنعمان ، وكان هذا يستشير في أموره ويعمل برأيه . وقد بلغ من تأثر الملك بعدي أن ترك الوثنية واعتنق النصرانية

بنصيحته (١) . ولكن عديا لم يكن يطيل الإقامة في الحيرة ؛ فهو من أصحاب كسرى الأقربين ، وهو يؤثر البقاء في فارس حيث الترف الذى ألفه منذ صباه . فின்றز ابن مرينا فرصة ابتعاد عدى بن زيد عن النعمان ليتقرب منه . وكانت السبيل إلى هذا التقرب ميسورة ؛ فقد كان ابن مرينا غنيا وكان يستعين بأموال الأسود ، فكان يبعث بالهدية تلو الهدية إلى النعمان ويتردد عليه ولا يترك مجلسه ، فاتخذ النعمان منه صديقا أميناً . ولما أحس ابن مرينا بتمكنه من النعمان أخذ يدس لعدى بن زيد ، فصوره وقد استعلى على النعمان لأنه صاحب الفضل عليه . وأحس أهل مجلس النعمان بما لابن مرينا من متزلة وبما لقوله من أثر فكانوا يتملقونه بالموافقة على آرائه وتأكيده ما يصدره من أن عدياً لا يؤمن شره . ومهما تكن طبيعة الوسائل التى تذرعه بها ابن مرينا فى الواقعة بين الصديقين فإنه نجح فى السعى بينهما والايقاع بعدى .

وبعث النعمان إلى عدى عند كسرى يدعوهُ لزيارة الحيرة فاستأذن فاذن له . وما كاد يدخل الحيرة حتى أخذوه فألقوه فى محبس لا يدخل عليه فيه أحد . وأدرك عدى بن زيد أن خصمه ابن مرينا قد أفسد ما بينه وبين الملك . فكتب إلى النعمان يشكو إليه سعى أعدائه به ، ويذكّره بما كان من أمر نصره له والأخذ بيده حتى علا العرش :

سعى الأعداء لا يألون شراً	على ورب مكة والصليب
أرادوا كى تمهل عن عدى	ليُسجن أو يُدهدَه فى القليب
وكنّت لزاز خصمك لم أعرد	وقد سلوكك فى اليوم الخصب
أعالتهم وأبطن كل سر	كما بين اللحاء إلى العسيب
ففتّ عليهم لما التقينا	بتاجك فوزة القِدَح الأريب

ثم شكّا ما لقي من الحبس والقيد ومصادرة الأموال ، وقد أصبح بيته مقفراً إلا من زوجات أرامل هلكن من النحيب :

أحطّى كان سلسلةً وقيداً وغلاً والبيان لدى الطبيب

(١) تايخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحزرة الأصفهاني ص ٧٤ .

أتاك بأننى قد طال حبسى ولم تسأم بمسجون حريب
وبيتى مقفراً إلا نساء أرامل قد هلكن من النحيب
يبادرن الدموع على عدى كشن خانه خرز الربيب
يحاذرن الوشاة على عدى وما اقترفوا عليه من الذنوب

ثم يستعطفه ويعتذر إليه عما قد بدر منه :

فإن أخطأت أو أوهمت أمراً فقد يهيم المصافي بالحبيب
وإن أظلم فقد عاقبتمونى وإن أظلمت فذلك من نصيبي

وأخيراً يقول له إنه سيندم عليه إذا افتقده في الشدة فلم يجده :

وإن أهلك تجد فقدي وتخذل إذا التقت العوالى في الحروب

وكان كثير الضيق بهذه الأغلال التي شدوه بها . وقد زارته أمه فساءه أن
رأته وقد أوثقوه وهو ينصحها ألا تقترب منه وألا تحاول معانقته، فإن المصنف
بالأغلال لا يروق له عناق :

ولقد ساءنى زيارة ذى قمر بى حبيب لودنا مشتاق
ساءه ما بنا تبين فى الأي مدى وإشفاقها إلى الأعناق
فاذهبى يا أميم غير بعيد لا يؤاقي العناق من فى الوثاق
واذهبى يا أميم إن يشأ الله بنفسي من أزم هذا الخناق
أو تكن وجهة فتلك سبيل الد اس لا تمنع الحتوف الرواق

ثم يخاطب إخوته طالبا منهم أن يعيشوه ويخلصوه من سجنه :

وتقول العداة أودى عدى وبنوه قد أيقنوا بغلاق
يا أبا مسهر فأبلغ رسولا إخوتى إن أتيت صحن العراق
أبلغن عامراً وأبلغ أخاه أننى موثق شديد وثاق
فى حديد القسطاس يرقبني الحما رس والمرء كل شيء يلاق
فى حديد مضاعف وغلول وثياب منضجات خلاق
فاركبوا فى الحرام فكثوا أياكم إن عيراً قد جهزت لانطلاق

وأخذ عدي يرسل القصيدة تلو القصيدة للنعمان مستعطفاً ، والنعمان لا يابه له ، ويكتب الشعر لأعدائه ناصحاً تارة ، ومهدداً تارة أخرى فلا يلتفت إليه أحد منهم . وكان له أخ اسمه أبي كان قد ألحقه بديوان كسرى ، فكتب إليه شاكياً ما يلقاه من سجن وقيد . ورفع أبي أمر أخيه إلى كسرى فكتب إلى النعمان يأمره بإطلاقه . ولكن خليفة النعمان أرسل إليه بما كان من أمر كسرى ، ثم إن جماعة من خصوم عدي جاءوا يعبدون إلى النعمان وحدثوه بأنهم رأوا رسول كسرى يدخل السجن ويقابل عدياً ، وأن الرسول في الطريق إليه ، تخشى النعمان إن ترك عدياً حيّاً أن يخرج من السجن فينتقم منه ، فأرسل إليه جماعة فغمّوه حتى مات . وجاء رسول كسرى فدخل على النعمان فأحسن وقادته وتلقى رسالته ثم أبلغه أن عدياً قد مات .

ولم يكذب ابن مرينا يتخلص من عدوه الأكبر عدي حتى أظهر النفور والبغض للنعمان ، فانه لم يكن يريد ملوكاً على الحيرة ، وإنما كان يسعى للأسود . وأحسن النعمان بما كان من حقد ابن مرينا على عدي والإيقاع به عنده ، فندم على ما كان من قتله ، وأخذ ولده زيداً فأحسن رعايته ، ثم بعث به إلى كسرى راجياً أن يكون خلفاً لأبيه .

وقبل ملك الفرس زيدا وولاه وظيفة أبيه . وكبر زيد وزادت منزلته عند كسرى ، وفي نفسه أن يكيد للنعمان انتقاماً لأبيه . وكانت ملوك العجم صفة من النساء مكتوبة عندهم ، وكانوا يعيشون إلى الأطراف في طلبها ، ولكنهم لم يفكروا في بلاد العرب لظنهم أنها خالية منها . ودخل زيد ذات يوم على كسرى فوجده يتحدث في ذلك القول ، فقال له : « إن عند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة » . وأراد أن يحكم انتقامه فحدث كسرى بأن شراً في العرب ، وفي النعمان خاصة ، أنهم يتكرمون عن العجم . والتمس من كسرى أن يذهب بنفسه إلى النعمان حتى لا يغيبهن أو يعرض غيرهن ، فبعثه كسرى ومعه رسول من عنده . وأقبل زيد والرسول على النعمان فأبلغاه الرسالة . فقال : « أما في هذا السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته ؟ » فسأل الرسول زيدا : « ما المأ والمعين ؟ » فقال له بالفارسية : « كاوان أي البقر » . واعتذر النعمان عن تلبية طلب كسرى . فرجع زيد ومعه الرسول فحدثا الملك برفض النعمان ، وقال زيد : « إني خبرتك يا مولاي بفسادهم على

غيرهم وأن ذلك من شقائهم ، وإني أكرم الملك عن مشافهته بما قال . فسأل كسرى الرسول فقال : « إنه أجابنا بقوله أما كان في بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا ؟ » فغضب كسرى ووقع في قلبه منه ما وقع ، وقال : « رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ثم صار أمره إلى التباب » .

وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان ، فأصبح في حيرة من أمره : أيحارب كسرى ذوداً عن الأعراض وهو لا يقوى على قتاله ؟ أم يبعث بزوجاته وبناته وأخواته إليه ، وهو ما يأباه الرجل الحر ؟ واستجار برؤساء العرب فلم يجبره أحد منهم فليس منهم إلا خائف من كسرى طامع في رضاه . فأودع أهله رئيساً من العرب ، ثم سار إلى كسرى الذي بعث يطلبه .

وقابه زيد بن عدي على قنطرة ساباط فقال له : أنج نعيم إن استطعت النجاء . قال : أفعلتها يا زيد ! أما والله لئن عشت لأقتلنك قتلة لم يقتلها عربي قط ولا لحقنك بأبيك .

قال زيد : إمض لشأنك نعيم ، فقد والله أخيت لك آخية لا يقطعها المهر الآن .

ولما بلغ كسرى أن النعمان بالبواب أمر بقيده وإلقائه في السجن ، فظل به إلى أن لقي حتفه .

وهكذا انتقم زيد لأبيه الذي مهد للنعمان بلوغ الملك ، والذي قال له وهو سجين :

نحن كنا قد علمت قبلك محمد البيت وأوتاد الإصار

بهي الحساب

من هنا وهناك

عبد الحق حامد وأفكاره الفلسفية

ولقد يفهم أن قائل هذا البيت يعرف ما
وهو ليس بطبيب — أنه يكون نموذجاً لتلك
الظاهرة الروحية الغريبة المسماة « ثنائية
الشخصية » ويعتقد أنه هكذا ويعترف ، هذا
صحيح ! ولكنه يقوله من وجهة التشاؤم
والتفاؤل. ولعله من المستطاع أن يقال إن المعنى
الذي أقصده أنا لم يخطر قط بباله . إذن
لا نبالغ كثيراً ولا نعد حالة الشاعر مطابقة
للأعجوبة الروحية المشهورة عند الأطباء
الفسانيين .

وفي الحقيقة قد يوجد في بعض الأشخاص
الثنائية الشخصية . ونحن نعتبر هذه الثنائية
لأسباب عدة حالة مرضية . ومثلاً قد ظهر
بعد البحث والاختبار أن بعض الناس يعمل
بفعل الروحين ، أنهم يعملون كشخصين
متفاوتين ليس بينهما أدنى تشابه ، وأن أحدهما
بعد أن يظل يظهر معنويته لمدة وبطابع معين
يزول عن الوجود ، أو على تعبير علماء النفس
ينادر المسرح ثم يظهر كأنه متجرد من الروح
الأولى ويعمل على فطرة أخرى ، هذا الشخص
الثاني ليس بالشخص الأول وهو على تقيضه تماماً
سواء أكان ذلك من حيث الفكر أم الاعتقاد
أم الخلق . والغريب أن هاتين الشخصيتين
المتحلفتين ليستا على اتصال الواحدة بالأخرى
ولكل منهما ذاكرة خاصة ، ولكل منهما حرم
يحيط بمعنويتها ، كل منهما تمثل دورها على
المسرح أي تعمل بحكم شخصيته وتتذكر أعماله
السابقة وتواصل حياتها المعنوية بعد استئنائها
من المرحلة التي تركتها فيها .

قبل أن أدلي ببيان رأي نحو أفكار شاعر
مفكر جليل القدر مثل عبد الحق حامد يحسن
بي أن أورد نبذة عن شخصيته المعنوية وطبعه
الشاذ ، فإن هذه هي القاعدة المعتبرة والدأب
للقبول لدى الناقلين .

ولكنني آسف لعدم كفاية وقتي ، وهذا
ما جعلني لا أقف منه موقف الناقد ، فأردت
مع ذلك أن أضع بالاختصار تحت ضوء البحث
في عدة صفحات شيئاً مما قد يثير الفضول مما
درسته عن هذا الموضوع . وإني أوكد للقراء
المحترمين أن ما سوف أقوله إنما هو صورة
صادقة لطني الناب الذي سيطر على فكري
نتيجة بحثي الذي قمت به بصبر ودقة .

إن شخصية حامد المعنوية معقدة جداً . وهي
تكاد تضرب مثلاً لفطرة متعددة الوجوه
أعني أنها تجمع في نفسها نماذج من شخصيات
متخالفة ومتنوعة . ولذلك أعتقد أنه لا يكون
صحيحاً أن نعتبرها شخصية واحدة ، وإن كانت
وحيدة في تاريخ أدبنا كآية للعبقرية .

إن حامداً للفظ مشترك ، بل إنه لاسم جامع ،
وإلى هذا الاسم تنسب شخصيات معنوية مختلفة
كلها على فطرة متفاوتة .

وهو ذاته قد أدرك هذه الحقيقة ، فقال
للتعبير عن معنى التضاد الموجود في طبعه :

حقيقة أيكي شخصين ، اعتقادجي : برى
هميشه مبشر ، برى مكدر در !

[ما أنا إلا شخصان ، وفي اعتقادي أحدهما
أن مبشر والآخر مكدر .]

فحسب بل هي ثقيدته بحيث لا يمكن تقديرها
حق قدرها . حينها تضيق روح الشاعر ذرعا
بالافتراضات غير المجدية للعقل الذي يشعر بعجزه
وينعقد لسانه أمام أسرار الغيب ، يلتجئ
الشاعر المسكين إلى معتقدات الطفولة البريئة
الخالصة فيجد فيها شيئاً من العزاء . هذا الرجل
الذي تعلق به فكرة الانعدام إلى الأبد ، يسليه
عنها النظر إلى وجوه الأطفال ، فيخيل إليه أن
الذين مضوا يعودون فيهم إلى الحياة ، فيتسلى
برؤيتهم على محياهم . ومثلاً أنه أوضح جيداً
جداً كيف شعر بسرور مؤلم حينها لاحظ أن أما
ماتت قد عادت إلى الحياة في شخص بنتها .
والشاعر بعد أن خاطب أولاده ولا سيما
ابنته ونبه عليها قائلاً :

شاعر ده چو جوتدر ، آى تيزم ! ييل .

[اعلمى يا بنيتى أن الشاعر طفل أيضاً !]

برهن على ما أوردته بالآيات الآتية :

جوق مسئله حل ايدر وجودك

بازيجه سى دراو دست جودك

سن سك قبلان اول مزارى تاويل

عمرم اوله جقى سنكاه تكييل .

بن سنجه او يونجايغم مسلم .

سن سه بكا برغريب تمثيل .

سندن بولورم بودم تسلى

لكن اونه برألم تسلى ؟

برطرز ييانله آ كلا شيلماز ،

فريادو فنايله آ كلا شيلماز !

[إن وجودك لمفتاح لحل مسائل كثيرة

وهو لعبة بيد الخالق الكريم

وما وجودك إلا تأويل للقبر

وما أنت إلا تكملة لعمرى

وما أنا إلا لعبة في يديك

أما أنت فأية عجيبة لى

ولولا أن اعتقاد التناسخ باطل بالبداية
لكان الانسان يستطيع أن يدعى أمام هذا
الحادث العجيب : أن روحين مختلفتين تترددان
على قالب الجسم نفسه دون أن تشعر إحداها
بالأخرى ، وتتصرفان فيه بالتناوب !
وهاك الظاهرة الغريبة التي نسميها بالثنائية
الشخصية ولها أنواع ، والأطباء الاختصاصيون
يعدون هذا النوع منها مرضاً خاصاً ينهك
الشخصية .

والشاعر المشهور الذي أشراف بمعرفة
جيداً ليس ولا شك شخصاً عجيباً مثل هذا
وأنا كفيل بذلك . وإذا قلت : إنه من ذوات
الشخصيات العديدة فليست أتصد المعنى المذكور
قطعاً ، فأرجو ألا يفهم ذلك خطأ . فكل
ما أريد أن أقوله هو أن لروح حامد مظاهر
متنوعة ولذكائه تجليات ولطبعه ميولاً مختلفة .
ولكنها تكون في ذات حامد سجايا بذلك البروز
والاستتلال ، بحيث إنها تكاد تكفى لتمييز شخص
بشاكلته الخاصة . وهذا النوع من الانسان
ليس نادراً ، وليست هذه الفطرة من شأن
الشخصيات العظيمة بالضرورة ، وإن هي
إلا فطرة جبلت عليها فحسب .

وإني أخال أن لحامد شخصيات عديدة ،
لا شخصيتين . أعرف منها ثلاثاً ، وكتبت
هذه الرسالة لتتدبر إحداها حق قدرها .

أولاً إنه روح طفل دمثة مرحة غير خاضعة
للنظام بل نائرة في بعض الأحيان . ولقد غمرها
فيض إلهي فاحتفظت بشبابها ولم تعرف الهرم .
وأصدقاءه المقربون عاشروها مدة طويلة ورضوا
عنها رغم مجونتها ، لأنهم واثقون من أنها بريئة
وليس من شأنها أن تكبر فهي فتية دائماً !
أليس الشاعر كالطفل في فطرته ؟ وما الطفولة
بضارة ما دامت لا تعكر صفو العبقريّة . أو لم
يكن كذلك لورد بايرون ، بولقرلين وروبرت
لوئيس ستيوفنس وكثير من كبار الرجال ؟
وليست معنوية الطفل هذه لا تضر شاعرنا

من هنا وهناك

وإذا كان الانسان لا يدرك — كما يرى الشاعر — حقيقة الأشياء وعلة الكون وغاية الحوادث : أى سبب الحياة وسر الممات ، وقف موقف المتفرج من جريان الوقائع . وإذا لم تكن المعرفة سوى ذلك ، فان معرفة الأطفال وحكمهم الذى يصدر عنه عفواً وبسذاجة لجدير بالرجحان ، إذ الأولى هو عدم المعرفة .

وهو يستمد من روح الطفل تلك عندما لا يجد في جريان الحوادث نظاماً ، وفي الكون غاية معقولة ، أى حين يقع في الشك وهو يعمن النظر في مشكلة العلة النهائية . ولا غرو أنه تصور الله كالطفل الأكبر تحت تأثير هذه المشكلة . وهذا يعنى أنه عند ما لا يرى نظاماً في العالم يتحرر من قبول عقدة الايجابية .

نقلها إلى العربية ابراهيم صبرى

توفيق رضا

وليس لي عزاء سواك الآن
ويا له من عزاء مؤلم !
لا أملك بياناً ولا نوحاً لتبينه . [

عندما تعجز كل الأفكار الفلسفية أن تسد فراغ القبر يأس الشاعر من الاهتمام إلى وسيلة لشفاء آلام روحه العميقة القاسية ، فيجد النظريات الفلسفية والمعتقدات كلها عبارة عن أقوال باطلة لا غناء فيها ، وحينئذ يرجع إلى الطفولة ، ويرى اعتقادهم أولى بصفاء الضمير ، وفي قوله :

سزردہ کی اعتقاد ، خوشدر .
اک دوغروسی او ، بزمکی بوشدر .

[إن اعتقادكم أحسن وأصح
أما ما عندنا فهو واه]

ما يثبت ما أسلفته ..

جناية

كتب إلينا الأستاذ حبيب زحلاوي رداً على ما أثير حول القصة التي نشرت له في أعداد هذه المجلة ، وظهر أنه سبق أن نشرها في إحدى المجلات الأدبية تحت عنوان آخر . ولنا نحب أن نعود إلى ما كتبناه عن ذلك في العدد السابق . غير أننا نقول إن ما ذكره الأستاذ عن علم سكرتير التحرير بسابق نشرها لا يمكن أن يطابق الواقع ، كما أن تغيير العنوان إنما كان بعمل الأستاذ مؤلف القصة وبخطه ، ويثبت ذلك أصلها المحفوظ في الدار . وللاستاذ رأيه في مبدئه الخطر عن حق المؤلف في بيع المقال الواحد لأكثر من ناشر . ولم يبق بعد ذلك إلا أن ننشر خطابه بدون تعليق :

من قبل ذلك بمجلة « الرسالة » بعنوان آخر .
وقرأت أيضاً تعليقك على تلك الكلمة .
وقد بدا لي أن أهمل الرد عليها تجاوزاً عن الروح الذي أمني عليك ذلك التعليق ، واستخفافاً بالواقعة نفسها ، لأن طبيعة القصة تقبل النشر في أكثر من صحيفة ، وفي أزمان

حضرة المحترم سكرتير تحرير مجلة الكاتب
المصري
أت في العدد التاسع من المجلة ، كلمة بعث
بها أديب من العراق إلى رئيس التحرير
يستنكر فيها نشر قصتي « جناية » التي نشرت
بالعدد السابع من المجلة ، ويقول إنها نشرت

أقول : بلى ! هذا من حق وليس لخلق
أن ينازعني فيه ، وإلا فما رأى الأستاذ حسن
محمود في موضوع أو موضوعات أدبية يذيعها
أديب بالمذايع فيأخذ عنها أجرا ، ثم ينشرها
في صحيفة أو أكثر فينال عنها أجرا ، ثم يجمعها
في كتاب ويقدمها للناس فيأخذ عنها أجرا ،
ثم تترجم إلى لغات أجنبية وتنشر فيقبض
عنها أجرا ، فهل ينطبق تصرف هذا الأديب
على تصرف التاجر الذي يبيع السلعة الواحدة
مرتين ؟
اللهم كلا !

نشرت صحيفة « كانديد » الفرنسية قصة
متسلسلة عنوانها « سيدة في نافذتها »
لقصصى يدعى دريس لاروشيل ثم نشرتها
بعد ذلك مجلة « باريس » في عدديها ٢١ —
٢٢ الصادرين في أول وفي منتصف شهر
أكتوبر سنة ١٩٢٩ من سنتها السادسة
والعشرين ، فأنهالت كتب القراء تحمل الشكر
لقلم تحرير « مجلة باريس » التي يسرت لهم
قراءة القصة دفعة واحدة . وهل فعلت سوى
أنى نشرت قصة في عدد واحد من « الكاتب
المصرى » كانت نشرت في مجلة « الرسالة »
متسلسلة في مجلة أعداد ؟ وهل في هذا الأمر
الذى اتفقنا عليه معاً ما يستوجب اللوم
ويستحق الانتقاد ؟

هييب الزهرلى

متفاوتة البعد ما دام فيها ما يكفل لها ذلك من
عناصر الحياة وخصائص البقاء . ولكنى
أتناول الرد على التعليق بالمقدار الذى يضع
الامر في نصابه ، ويجرد المسألة من الزوائد التى
خسرها السائل بسؤاله ، والكاتب فى كتابه .
عرضت عليك — باتفاق بينى وبين رئيس
التحرير — قصة « لقيط » (وقد نشرتها
مجلة « الكتاب ») ، فأبيت أخذها بحجة أن
فيها ما يمس فتاة مجندة فى الجيش البريطانى ،
فعرضت عليك مجموعة قصصى المعدة للنشر
وتركت لك حرية الاختيار ، فاخترت أنت القصة
التي نشرتها لطابعها الشامى البديع . ولكن
عنوانها « الجارم » لم يعجبك ، فاستبدلنا به
عنوانها الجديد وهو « جناية » وكتبته فى
رأس القصة بقلمك وحبرك ثم نشرتها . ولما
تلاقينا بعد ذلك لقيتني ببشاشة ظاهرة
وابتسامة عريضة ، وقلت لى : « متى تتحفنا
بقصة جديدة لم يسبق نشرها » فاعتذرت لك
بانصرافى إلى كتابة القصة الطويلة ، وانتهى
الامر .

إذن كان المعلوم أنك اخترت قصة نشرت
من قبل ، وكان المفهوم أنك تقرأ مجلة كمجلة
« الرسالة » ، فما معنى أن تسألنى الرأى فى
التاجر الذى يبيع السلعة الواحدة مرتين ؟
ولكن أليس من حق أن أبيع قصة لناشر
سبق لى نشرها ؟

شرايت

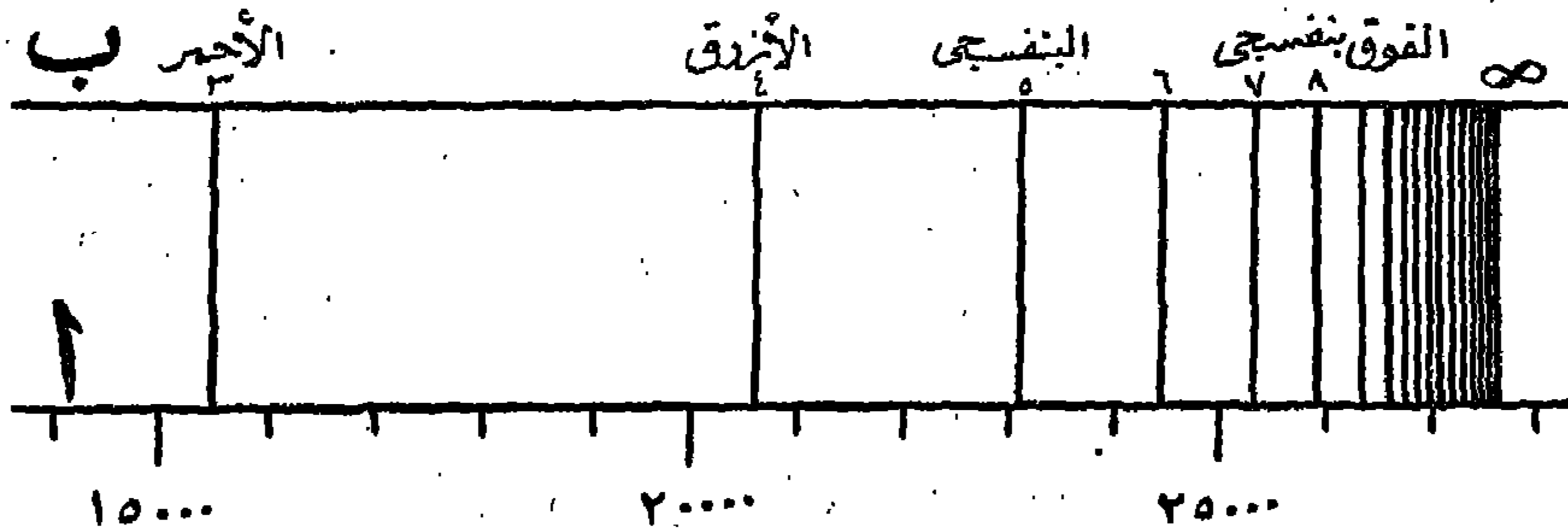
شهرية العلم

الالكترونون الحائر وبوهر العظيم

الطيف إلا على حساب حركة تقديمية
للألكترون نحو النواة، وهو ما ليس حادثاً؛
لعدم تغير مواضع خطوط الطيف .
وهكذا لم يمكن الاحتفاظ في بادئ الأمر
بنموذج رذرفورد الشمسي، وهو النموذج
المحبب إلى العلماء، مع تفسير في الوقت ذاته
للانبعاث الضوئي ووجود الخطوط الطيفية في
مواضع ثابتة . صعبات تتلوها صعب لم يمكن
التنلب عليها إلا فيما بعد . على أن مهنتي اليوم
أن أشرح كيف تغلب العلم على هذه الصعاب،
وكيف ثبت للعلماء دوران الالكترونون المستمر
حول النواة، وكيف أمكن مع هذا تفسير
الانبعاث الضوئي وتحديد مواضع الخطوط .

ولعل بدء النجاح في التنلب على هذه
الصعاب يرجع إلى مجهود رجل متواضع،
مجهول الاسم في زمانه، له مكانته اليوم بين
العلماء المحدثين، هذا الرجل هو بالير الذي
ظل منزوياً في قاعات التدريس في ثانوية بال
بسويسرا . عكف بالير عام ١٨٨٥ على
دراسة طيف الهيدروجين الذي تظهر له

طالان : عالم الالكترونون عاش فيه البشر
ملايين السنين، وأكبر خصائصه انبعاث الضوء
والكهرباء، وعالم تووي يشغل العلماء مرجعه
نواة الذرة . وأظن أننا سنعيش فيه ملايين
أخرى من السنين إن لم ينقطع بفعل الانسان
حبل الحياة على الأرض . ولقد تحدثت عن
العالم الالكترونون فذكرت أن ذرة كل عنصر
تتركب من نواة وسطى يدور حولها عدد
من الالكترونونات كما تدور الأرض حول
الشمس . وإني لا أدخل في أصل الفكرة عند
رذرفورد ومدرسته اللذين افترضوا للمادة
هذا النظام الشمسي، ومع ذلك فانه لا يكفي
أن يفترض رذرفورد ذلك ليكون اقتراضه
صحيحاً؛ فالعلم يتطلب التحقيق من طريقين
طريق البحث النظري وطريق العلم التجريبي .
ويتلخص الموقف في نظريتين، إحداهما تعتمد
على افتراض حركة بندولية لا حركة دورية
للألكترون داخل الذرة، وهذه تفسر
الانبعاث الضوئي ولا تفسر مواضع خطوط
الطيف . والثانية تفترض للألكترون حركة
دورية حول النواة، وهذه لا تفسر خطوط



سلسلة بالير للهيدروجين

علمياً لو أننا استخدمنا فكرة الكم عند بلانك ، وهو الذي يقول إن الطاقة ظاهرة غير متصلة ، وإنها لا تحدث إلا بكم معين أى بوحدة معينة . وتطلع بوهر بثاقب فكره نحو الإلكترون محاولاً أن يعطيه نموذجاً يتفق وفكرة الكم السابقة ، نموذجاً يفسر به الانبعاث الضوئي ، مع الاحتفاظ بنموذج رذرفورد السابق .

حدثنا العلماء أن المادة لا توجد إلا بكم ووحدة معينة هي جسيمات ذرة العنصر ، وأن الكهرباء لا توجد إلا بكم معين أى وحدة لا تتجزأ هي الإلكترون . ويحدثنا بلانك أن الطاقة في هذا الكون مهما كان نوعها لا توجد بدورها إلا بكم معين لا ينقسم إلى وحدتين . ولنذكر ذلك أذكر أننا إذا أردنا مثلاً أن ندعو عدداً من الناس لتناول الطعام ، فأننا نخبرون أن ندعو ثمانية أشخاص مثلاً أو تسعة أو عشرة الخ . . . ، ولكننا لا نستطيع أن ندعو تسعة أشخاص ونصف شخص ، إذ الإنسان موجود في الخليقة بوحدة معينة ويستحيل وجوده بأجزاء هذه الوحدات — كذلك الحال في الطاقة التي لا توجد في الخليقة إلا بوحدة معينة وكم معين .

هذا الكم للطاقة تطلع إليه بوهر ليوفق بين أعمال جليسة لبالمير صاحب السلسلة ، وأعمال هامة لبلانك صاحب الكم ، وأعمال أخرى لرذرفورد صاحب النموذج الذري المحبب إلى العلماء لانسجامه مع بقية الكون . وهكذا بدأ بوهر عمله محاولاً تفسير الشفرة التي عثر عليها بالمير ، وكان بوهر يقول : « ليست هذه الورقة لبالمير عديمة القيمة ، إنما هي ورقة تحتاج إلى من يطالعها » . وهكذا تشبث بوهر بهذا المستند ، وهو يقول للعالم أجمع : « أعطوني وقتاً كافياً لعل أوفق لقراءة هذه الرسالة العجيبة » .

خطوط رأسية تقترب بعضها من بعض ابتداء من خطوطه الأولى في الأحمر نحو البنفسجي كما في الشكل ، وقد اتضح له في بادئ الأمر عدم وجود نظام معين بين أوضاع هذه الخطوط ، ولكنه وجد أن هناك ارتباطاً بينها وبين بعض ، كالمس مثل هذا الارتباط لطيف العناصر الأخرى . وهكذا أصبحنا بعمل بالمير أمام دالة رياضية تشمل متغيرين أحدهما طول الموجة والآخر ترتيب الخط الطيفي ، بحيث وجدت علاقة لأول مرة بين الأعداد الصحيحة وموضع هذه الخطوط .

ولسهولة علاقة بالمير ولشعوري باهتمام فريق من القراء ببحوته ، بل ولاهية هذه البحوث ، أذكر أنه إذا فرضنا أن :

١ عدد الذبذبات الضوئية في الثانية أي التردد
٢ ترتيب الخط الطيفي في الهيدروجين
٣ عدد ثابت يسمى ثابت ريدبرج ومقداره :

$$76 و 109677 (س. م) - 1$$

فإن علاقة بالمير تكتب كالتالي :

$$1 = \left(\frac{1}{n^2} - \frac{1}{m^2} \right) R$$

ويلاحظ أنه إذا عوضنا في السلسلة المتقدمة العدد بترتيب أي خط ابتداء من الخط الثالث نحصل على التردد الخاص بهذا الخط ، وبالتالي على طول موجته ، وقد طابق هذا الواقع إلى حد كبير .

ظلت أعمال بالمير منذ سنة ١٨٨٥ لا تجد تفسيراً إلى أن قام عالم دانمركي يافع في سنة ١٩١٣ بالخطوة الحاسمة في هذا الموضوع ، وهذا التاريخ الأخير يجب أن يذكره الانسان بكثير من الاهتمام ، فقد عرف نايلز بوهر لأول مرة أن هذه السلسلة لبالمير تجد تفسيراً

أزجو أن ينال موافقة العلماء المعاصرين - ولقد حاول بوهر بهذا أن يفسر عملية انبعاث الضوء التي لم يعزها إلى دوران الإلكترون، وإنما عزاها إلى حادث عظيم وقع لهذا الكوكب الصغير، حادث لم يقع على الأقل لكوكبنا الأرضي منذ دورانه حول الشمس، وهذا الحادث الجسم الذي وقع للإلكترون هو وثبة له من إحدى المدارات إلى مدار آخر ليس له أن يتعداه إلا بحادث آخر مماثل للأول. على أن هذه الحوادث وأمثالها التي أحدثت تغييراً في طاقة الإلكترون هي التي سببت لنا على شبكة العين ما نراه من الأثر الضوئي الذي يرجع في أصله إلى هذا الاضطراب الإلكتروني، فنرى للصوديوم هذين الخطين، ونرى هذا أحمر وذلك أصفر.

هنا يحررنا بوهر من كل قيودنا العلمية السابقة، ويباعدنا عن كل معارفنا وعن كل ما ورثناه وورثه فيزيائيو هذا العصر من علوم. فثلا كيف يمكننا أن نتصور مع بوهر إلكترونات دائراً في مدار معين لا يرسل أمواجاً كهربائية وفق نظرية مكسويل، تلك النظرية التي اضطرت بوهر إلى هجرها. بل إننا نصادف بعد ذلك صعوبات جمة، أولها أننا لا ندرك لماذا تعطى وثبة الإلكترون إشعاعاً؟ وثانيها لماذا يتبع نظام المسارات وحدة بلانك؟ وأخيراً يقصر بنا الفكر أن نفهم لماذا وثب الإلكترون؟

ومهما يكن من خطورة هذه الأسئلة، فإن بوهر لم يعرها انتباهاً، وربما كان هذا سر عظمته. وهكذا كلما عارضته فكرة قديمة عمد إلى ترك القديم، وظل شاخصاً إلى الطيف لا يعبأ بكل تاريخ الفيزياء، مادام يجد بطريقته الخاصة تفسيراً لوضع الخطوط الطيفية، وهكذا أحدث ثورة علمية كبرى. على أن هذا النجاح لبوهر، وإن تعارض

والآن دعونا نسأل لماذا نرى في الصوديوم خطوطاً طيفية معينة، ونرى للهيدروجين خطوطاً أخرى؟ دعونا نسأل هل هناك علاقة بين ما نراه وبين ما هو داخل الذرة؟ إننا لم نر هذه القطعة من الصوديوم هذه الخطوط إلا بعد أن هيجنا في اللهب - ترى ماذا جرى في عالمها الإلكتروني؟ وما هذا النوع من الاضطراب؟ وما الذي طرأ على الإلكترونات الدائرة داخل ذرات هذا الصوديوم؟ ترى ما الذي حدث للصوديوم أو للهيدروجين أو غيره من أحداث عالمية جعلتنا نرى لكل منها خطوطه المنتظمة؟

هنا احتفظ بوهر العظيم بنموذج رذرفورد ولكنه لم يوافق على ميكانيكة لورنتز البندولية ولا على تلك الفكرة التي تفسر الانبعاث الضوئي تفسيراً خاطئاً، من تقدم مستمر للإلكترون نحو النواة عند دورانه حولها. وأصر بوهر على أن الإلكترون يدور، ولكنه يدور في مدار ذي قطر معين أو مدار آخر محدد، وحسب أن لكل مدار كمية معينة من طاقة الكترونية تزداد بازدياد المسار، وفي هذا ازدياد لطاقة الإلكترون الكامنة، وهي الطاقة التي يعطيها كاملة فيما لو وقع في النواة مثلاً. وهنا أدخل بوهر فرضاً جريئاً له علاقة بكم بلانك متقدم الذكر، ففرض أنه لا توجد مسارات للإلكترون إلا تلك التي تطابق التغير في الطاقة بمقدار كم واحد. وهنا حسب هذا الكم الذي يرتبط بمقدار المسار وتتبع في ذلك الأعداد الصحيحة ١، ٢، ٣ الخ وكأنه فرض في الحيز حلقات معينة حول النواة لا يمكن للإلكترون أن يدور إلا فيها. وأظن أنه يمكننا أن نفترض في الحيز هذا النوع من عدم الاتصال بجوار المادة. بمعنى أنه يصح لنا أن نفكر أن وجود المادة تفرض على الحيز بجوارها أو عندها فرضية بوهر العظيمة المتقدمة. وهو رأى خطري

شهرية العلم

كل هذا يجعل الموضوع عسيراً ، ومع ذلك اندفع جيش من الفيزيائيين النظريين في كل جامعات الأرض محاولين تتبع أعمال بوهر وتطبيقها والاضافة إليها ، وذلك بالانتقال من عنصر إلى عنصر والتغلب على صعوبة الحساب ، وتوالت الرسائل العلمية في هذا الباب سنين طويلة حتى إنني كنت لأصادف في السوربون سنة ١٩٢٥ والعشر السنين التي تلتها إلا طلاباً مشغولين بقضية الطيف ، وهم بال عشرات من جميع أجناس البشر ، بعضهم يتابع النظر إلى طيف العناصر في المعامل ويحاول أن يقوم بتحسين في الطيف ، وبعضهم يتابع الحساب ويقابل ذلك بما تحتته التجارب . ومن هؤلاء وهؤلاء من يكف على عمله أعواماً ليجد حلاً موقفاً بين ما يصل إليه عن طريق الحساب وما يعثر عليه غيره من الطريق التجريبي .

وهكذا كان على بوهر أن يواجه فيزيائي هذا العصر ، يفسر ما هو معروف من ظواهر طبيعية ليس من السير هجرها ، وما قد يستجد من الظواهر . ألم يجد بوهر تفسيراً خالداً لظاهرة زيمان ، نسبة للفيزيائي الهولندي الذي كشفها ، وتتلخص في أن المجال المغناطيسي القوي أثراً في الانبعاث الضوئي ، بحيث إذا وضعنا قطعة الصوديوم المتوهجة بين قطبي مجال مغناطيسي ، فإن الخطوط الطيفية تنقسم فيما بينها ، فنرى للخط الواحد اثنين وثلاثة . ويطول بنا الشرح لو فرنا كيف استطاع بوهر دون أن يتخلى عن فكرته أن يفسر هذه الظاهرة تفسيراً صحيحاً ، بل إنه وجد تفسيراً لظاهرة أخرى اسمها ظاهرة ستارك من اسم مكنشها الألماني ، وهي ظاهرة خاصة بأثر المجال الكهربائي في الضوء .

هذا هو بوهر العظيم ، وهذه هي الالكترونات الحائرة تدور حول النواة كما

مع ما ذهب إليه الفيزيائيون في عصره ، لفت إليه نظر جيش كبير من هؤلاء . وقد تمكن من وضع حساب دقيق لخطوط الهيدروجين ، بل تمكن من تفسير ثابت ريدبرج الذي ذكرناه في سلسلة بالمير المتقدمة ، والذي ظل العلماء يرون فيه عدداً بسيطاً لا يمت للذرة في شيء ، فوجد أنه دالة لكثافة النواة وكثافة الالكترون وشحنته وثابت بلانك وسرعة الضوء .

ولم تكتمل هذه الصفحة الجيدة لبوهر دون أن يصادف صعباً لا تعدلها صعاب ، فقد امتحن العلماء طيف الهيليوم فوجدوا أن العدد الثابت يختلف قليلاً عما يحتته حساب بوهر . وهنا أخذ بوهر في محل الاعتبار أثر الالكترون المتحرك على النواة مسبباً لها حركة ضعيفة ، فصحيح بهذا ما ظنه العلماء خطأ . وأخيراً عند ما يعثر فيزيائي من ذلك السهد على خطوط غريبة في أنبوبة هيدروجينية لا تتفق مواضعها مع معادلات بوهر ، فإن بوهر يؤكد له خطأه التجريبي ، ويذكر له في جرأة أنه لا بد أن يكون هناك أثر طفيف للهيليوم مثلاً في هذه الأنبوبة ، وهو أثر طالم اختفى عند تحضير الهيدروجين من جديد والحصول عليه بحالة نقية .

ومع كل ما ذكرت فقد تمخل عمل بوهر صعوبة علمية كبيرة . فبينما لا يشمل حساب مجموعتنا الشمسية إلا تسعة كواكب ، يصل عدد الالكترونات نواة العناصر المختلفة إلى ٩٢ . هنا نرى صعوبة يعرفها أولئك الذين وهبوا حياتهم لتتبع رياضيات بوهر للمتقدمة . وتنحصر صعوبة الحساب في تحديد ما لهذه الكواكب (الالكترونات) ، من أثر بعضها في بعض ، وفي ميل مسارات الواحدة منها على الأخرى ، بل في اختلاف هذا الميل من كوكب إلى آخر .

تدور الأرض حول الشمس، هذه الإلكترونات التي ذكرنا أن النسبة بين كتلة إحداهما وحنة المسبحة كالنسبة بين هذه الحبة والكرة الأرضية، أصبحت معروفة في دورانها ووثبانها داخل العالم الذري بتدر ما نعرف من حركة السيارات داخل العالم الشمسي .

لقد عز على نفسي أن أذكر نايلز بوهر فيما نشرته بالكاتب المصري في بضع سطور (١) بعد أن لمع اسمه في سنة ١٩١٣ والسنين التي تلتها ، وبعد أن لمع اسمه من جديد في الطاقة الذرية وما جرى بين صحراء المكسيك وميروشيا .

هذا هو بوهر العظيم الذي فسر الانبعاث الضوئي من وثبة للإلكترون من مدار بعيد في النواة إلى مدار أقرب منه ، وجمع في هذا التفسير بين فكرة الكم وبين نظام الطيف .

هذا هو بوهر الدنمركي الذي يرأس اليوم أعمال الطاقة الذرية بأمریکا، والذي أفاد أخيراً من أعمال أوتوهان في برلين ، قد أطلعتك على جزء من أعماله الخالدة التي هزت العالم هزاً ، وها نحن أولاء تجولنا في الذرة معاً بعيداً عن

النواة وعن شمها الخطيرة ، تجولنا معاً في هذه السيارات التي تدور حول نفسها وحول النواة . وأغلب الظن أن جولتنا كانت متعبة لك وعسيرة على نفسي ، فقد أمعنت الفكرة فيما أكتب ، وأطلت النظر فيما تطالع . ولكنها !لدينا خلقت على نحو هذه الحلقات المعقدة . والميراث العلمي يزداد على هذا النحو الذي تراه ، ومع ذلك فلم أعرض في هذا المقال لأعمال ديراك الخالدة ، وما يحتمه من حالة منطاطيسية للإلكترون ، ولم أعرض كذلك لدوران الإلكترون حول نفسه ، وكلها أعمال متممة لأعمال بوهر .

ولقد تتبع مع القارئ في الجزء الأكبر من هذا العرض طريقي الخاصة في الكتابة والشرح ، واستعنت في جزء منه بطريقة في العرض لریشنباخ . وما هذا وذاك إلا محاولة مني لعرض آرائي وآراء غيري . ومع ذلك فإن لقي القارئ مشقة في هذه الجولة ، فأكبر ظني أنه أفاد مما تعب من أجله ، وسأحاول أن تكون جولاتي القادمة أيسر عنده من جولاتي السالفة .

محمد محمود غالي

(١) « القنبلة الذرية والعدم الذرة » ، الكاتب المصري عدد ١ (أكتوبر ١٩٤٥) ، صفحة ٩٥ .

شهرية السياسة الدولية

كأنه ركود

كأن السياسة الدولية إذ تنلى مراجعها ، في ركود ؛ فهي لا تزال تعالج نفس المشاكل التي بدأت فيها من شهور : ومشكلة إيران لا تزال حتى هذه اللحظة التي نكتب فيها هذه الشهرية واردة في جدول أعمال مجلس الأمن وهي فيه منذ بدأ أعماله بلندن في أواخر شهر يناير الماضي . ولا تزال كذلك المشكلة الأسبانية شاغلة أعمال المجلس ذاته منذ انتقل مقره إلى نيويورك . ولا تزال أنظمة الحكم والدستور في فرنسا واليونان وبلغاريا

وإيطاليا محل الاستفتاءات والانتخابات والمشادات داخل هذه البلاد ، وموضع التأثير في الاتجاهات الخارجية لها وللدول العظمى من ورائها كذلك . ولا يزال مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة يعقد جلسات في قصر لوكسمبور يتلمس حلولاً لمشاكل معاهدات الصلح مع إيطاليا والنمسا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندا وما يتفرع عنها من تعديل الترخوم وتقرير نظام المستعمرات .

ولكن

ولكنه ركود في الظاهر ليس غير ؛ إذ الواقع أن العالم الدولي كان طوال الشهر المنقضى في حركة دائمة يساورها شيء من القلق ، ويحض عليها شيء من الحرص على الرغبة في الاستقرار . وكان مظهر تلك الحركة خطبا يلقيها وزراء الخارجية في إنجلترا

والولايات المتحدة وروسيا ، ورسالات يوجهها الرؤساء إلى شعوبهم وهم يخرجون من ديارهم أو وهم يعودون إلى ميادين العمل فيها . على أن الأمر لم يقف عند حد الأقوال تلقى والعبارات تدون ، بل إنه تجاوز الأقوال والعبارات إلى الأعمال والمواقف .

في إيران

فبينما يستيق مجلس الأمن المسألة الإيرانية في جدول أعماله ، تتم المفاوضات بين حكومة طهران وزعماء أذربيجان الذين كانت قيامتهم سبباً مباشراً أو غير مباشر لعرض القضية الإيرانية السوفيتية على هيئة الأمم المتحدة ، وتصل إلى تفاهم بين الطرفين يسفر عن بقاء الاقليم المتحضر في دائرة الامبراطورية الإيرانية ، على أن يستمتع بنوع من التميز

في الادارة المحلية ، إذ يكون له حاكم عام من أبنائه ، وإذ تخضع الادارة فيه لنظام المجالس الاقليمية والقروية ، وإذ يحظى أهله بنصيب وافر من العدالة الاجتماعية والهناء البشرية . والمنظور بعد هذا التفاهم في سبيل الاستقرار أن تسحب القضية الإيرانية بل تشطب من جدول أعمال مجلس الأمن وقد زال الخلاف الذي سبب رفعها إليه .

اسبانيا

العامة لهيئة الأمم المتحدة . وبين هؤلاء الآخرين من يرى أن تكون التوصية مقصورة على اقتراح النظر في قطع العلاقات الدبلوماسية مع أسبانيا ، ما دام نظام فرانكو هو السائد فيها . وبينهم من يرى التوسع في الاقتراح بحيث يشمل قطع العلاقات بالنص ، كما يشمل فتح الباب أمام الجمعية العامة للاتجاه إلى أي اقتراح آخر تراه .

وينحش الكثيرون أن يكون هذا التعدد في المواقف وهذا الترجيح بين الآراء معيدا إلى الذاكرة سوابق مؤلة من سوابق الضعف التي كانت تلصق بعصبة الأمم البائدة !

لكن المشكلة الأسبانية ، أو «الفرنكوية» لا تزال معروضة على المجلس ، ولا تزال محل تنازع الاتجاه بين أعضائه . فمنهم من يرى قطع العلاقات الدبلوماسية في الحال مع تلك الدولة التي ينطوى نظامها الداخلي على مظاهر صريحة من مظاهر الفاشية التي قامت الحرب العالمية الثانية للقضاء عليها . ومنهم من يرى العرض للنظام «الفرنكوي» حراما في ذاته ، إذ هو تدخل في شؤون داخلية يمنعه ميثاق الأمم المتحدة ذاته . ومنهم من يرى عدم اتخاذ المجلس قرارا حاسما في المشكلة ، والاكتفاء برفع توصية منه إلى الجمعية

في فرنسا

إلى الاشتراكيين لتجعل منهم رئيس الجمعية التأسيسية في شخص فرنسوا أوريول ، ورئيس الحكومة في شخص مسيو جوان رئيسها الحالي .

وفي اللحظة الأخيرة ، بالنسبة لهذه الشهرية جد جديد ، بل حدث حدث ، بدخول الجنرال ديغول في الميدان وإلقائه خطابا اعتبره الكثيرون خطاب ترشيح لرياسة الحكومة الجديدة .

ولتطور الأمور في فرنسا على نحو آخر أثر كبير في السياسة الدولية . والمعروف أن الاتحاد السوفيتي يؤيد الشيوعيين الفرنسيين ، كما أن حكومة العمال في إنجلترا تميل إلى الاشتراكية ، والعناصر الكاثوليكية والرجعية في كل مكان تدعو بالخير والاقبال للحركة الجمهورية الشعبية .

وقد جرت الانتخابات العامة الثانية في فرنسا خلال الشهر المنقضى وأسفرت عن بعض التحول في الموقف السابق عليها . وقد كان الشيوعيون هم أصحاب المكان الأول فأصبحوا في المكان الثاني ، وكان الاشتراكيون في المكان الثاني فأصبحوا في الثالث ، وكانت الحركة الجمهورية الشعبية في الصف الثالث فطفرت إلى الصف الأول ، وإن كانت الفروق في الأصوات لا تزال طفيفة كما كان شأنها من قبل .

وقد كان من شأن هذا التبدل أن حسب الجمهوريون الشعبيون — وهم المسيحيون الديمقراطيون السابقون — أن من حقهم أن تكون لهم رياسة الجمعية التأسيسية الجديدة وأن تكون لهم رياسة الحكومة أيضا . ولكن بعض المضاعفات جاءت تميل أول الأمر

في إيطاليا

وفي إيطاليا أسفر الاستفتاء عن فوز النظام الجمهوري على النظام الملكي ، وكان المصوتون خمسة وعشرين مليوناً ويزيدون . فازت الجمهورية منهم بأثنى عشر مليوناً وفازت الملكية بأحد عشر مليوناً وألغيت بطاقات ميلونين . فكان هذا الإلغاء مثاراً للشك والظن ولتأجيل الإعلان الرسمي للجمهورية من قبل محكمة النقض التي تشرف على فرز الأصوات وإعلان النتيجة النهائية . وقد انتهز الملك أمبرتو فرصة عدم إتمام هذا الاجراء واعتبر الملكية لا تزال قائمة ورفض مغادرة البلاد إلا مكرهاً وموجهاً رسالة للشعب يسجل فيها حقه في المطالبة بالعرش .

في اليونان

ولا تزال الازمة النظامية قائمة في اليونان بين الملكيين والجمهوريين . ولا يزال الملكيون يطالبون ببقاء الجنود البريتانية في اليونان لحفظ الأمن الذي يخشون عليه من الجمهوريين اليساريين إذا خلاهم الجو . ويقوم الجدل في أثينا حول الموعد الذي يجرى فيه الاستفتاء . وكان المفهوم أنه لن يكون قبل سنة ١٩٤٨ . لكن بعض العناصر اليمينية تحاول إجراءه من الآن أو على الأقل ترك الملك يعود إلى بلاده ويتولى سلطاته مادام النظام القائم هو النظام الملكي ، ومادام الوصي على العرش هو المتولى رئاسة الدولة بالفعل نيابة عن الملك الأصيل . لكن المسألة أعوص من أن تعالج بسهولة . وعودة الملك الآن قد تكون إيذاناً بقيام حرب أهلية واسعة النطاق . ولذلك فأغلب الظن أن الحال تستمر على ما هي عليه وقتنا آخر إلى أن تجيء شهرتنا المقبلة على الأقل .

مؤتمر وزراء الخارجية

أما مؤتمر وزراء الخارجية فقد بدأ اجتماعه في جو تفاءل به « الملاحظون » ، وقد رضى الرفيق مولوتوف أن يدع المسألة النسوية ترد في جدول الأعمال بعد الفراغ من معاهدات الصلح . لكن المواضيع الدقيقة في المعاهدة الايتالية لا تزال قائمة ولا يزال

الخلاف عليها ناشباً . ولم يتضح بعد أى اتجاه لاية دولة في سبيل أية ناحية من نواحيه . ولو أن المتشائمين يخشون أن تكون تريستا مبعث شرارة جديدة ، أو أن يكون الخلاف على مصير برقة وطرابلس سبباً لاختفاق المؤتمر وإيذاناً باتجاه حاسم جديد في الميدان الدولي كله .

محمود عزمى

شهرية الفن

معرض مائة صورة من عيون الفن لمدرسة باريس

الذى يقوم فى نفس الاطفال والمحبين ، وغاية هذا الفن هو الهرب من هموم الحياة .
أما « الأنبياء » فقد نشأوا فى عالم الفن فى نحو سنة ١٨٩٠ تحت تأثير جوجان وجماعة الصداقة ، وتجمعهم اكتشافات واحدة ، وقد عملوا فى حماسة وتواضع على ربط أنفسهم بالتقاليد المفقودة . ويعد بونار من أجرئهم وأكثرهم اختراعاً ، وهو يجدد زنوار وريدون على حين يرث فيار كلا من شاردان وديجاس ويعتبر موريس دنى صاحب نظريات الجماعة . ويمت روسل وقالوتون بصلة إلى فرا أنجلكو ودانجر وپوسان ؛ وكل منهم حاول أن يتخلص من حدود لوحة التصوير ، ونجح فى التصوير على الحوائط .

أما الوحوش فكل همهم فى اللون . وقد ظهر فن هذه الجماعة فى سنة ١٩٠٥ وهم ماتيس وفلامنك وروو ومانجان وپو وقالا ومازكيه وقان دونجن . وهم جميعاً يفتنون فى الألوان ومزجها وتنويعها . وتعنى الوحشية أيضاً بالنار : ففلامنك يصور حريق الشمس على حين يصور روو العالم وهو يحترق فى نار الجحيم .

أما المذهب التكعبي فهو اتجاه جديد فى التصوير الفرنسى المعاصر . فالوحشية ليست إلا نوعاً جديداً من المذهب التأثيرى ، أما المذهب التكعبي فهو قطع لكل صلة بالماضى ، ورفض لكل ما أتى به المصورون منذ سنة ١٨٧٥ ، فأنت ترى شدة الحياة بدلا من لذة

إنه لمن أصعب الأمور اختيار مائة من خير الصور وجمعها فى صعيد واحد بحيث تكون هذه الصور فوق متناول النقد . ولكن متحف شاربنتييه قد تمكن من القيام بهذا العمل العجيب ، حين عرض ما سماه « مائة من أهم الصور التى أخرجتها مدرسة باريس » . وهذه الصور تظهر لمن يجهل حتى الآن ما أخرجته العبقرية الفرنسية فى فترة خطيرة من حياتها ، منذ مطلع هذا القرن فى مونمارتر مونپارناس وغيرها من أحياء باريس .

أكثر هذه الصور من عمل رجال توفوا ، وهى تنتمى إلى مدارس عدة من طرق الفن الحديث أطلق عليها أسماء غريبة مثل الأنبياء والوحوش والمدرسة المتجاوزة مدى الواقعية والمدرسة التعبيرية .

ومدرسة أصحاب الغريزة لا تنتمى إلى « البسطاء » ولا « الأوائل الحديثين » وليس هنالك كلمة يمكن أن تعبر عن الصفة الأساسية لهذا النوع من المصورين ؛ على أن تسميتهم بالفريزيين تصفهم بما فيه الكفاية ؛ إذ أن هذه الصفة تجمع بين أشخاص ذوى أخلاق متباينة وتكوينات متعددة ومطامع أحيانا متعارضة . وهؤلاء الفريزيون يتركون الكلام لقلوبهم وما فيها من الشعر وما تنطوى عليه من أحلام . وهذه الأحلام تختلف عن أحلام المتجاوزين مدى الواقعية ؛ إذ أن الآخرين يحاولون تصوير ما ينطوى عليه العقل الباطن ، وإنما الحلم عند الفريزيين هو ذلك

شهرية الفن

ولم يسبق لفن التصوير أن بلغ من الثقة والجرأة مبلغه اليوم ، وإن كنا لا نجد في رسومه الأخيرة ما كان في الرسوم الأولى من عنف وتأثير ، إذ يغلب عليها الهدوء والحب والروحانية ، وهذا غير ما نألفه في المدارس الأخرى . على أننا نجد فوق كل هذا ، تلك الروعة التي نجدها في صور عظماء المصورين على اختلاف العصور .

نتقل إلى الأجانب ؛ فإن وجود المصورين الأجانب بين المدرسة الباريسية ظاهرة جديدة وهامة بالنسبة لعدددهم وصفاتهم .

لقد ظهرت مواهب كثيرين من الأجانب عندما سكنوا باريس ، فكان لباريس الفضل في أن أحيطوا بحب الحماسة وحب الانشاء والجرية ، وتعلموا كيف يعبرون عن رسالتهم ، وهم بدورهم زادوا مدينة النور ثراء .

وهكذا نرى بيكاسو في تاريخ الفن الفرنسي يتأثر سيزان دون أن ينسى بلده أسبانيا . ولقد تأثر الفن الفرنسي بالحياة الأسبانية عن طريق جوان جري وميرو ، وأدخل إليه كل من موديلاني وكيريكو شعور العظمة . ونستطيع أن نقارن قهما حين كانا بايطاليا بفنهما وهما في فرنسا ، فيتجلى لنا فضل باريس عليهما . ولكن أليس أنفع ما دخل الفن الفرنسي هو ما جاءه من شرق أوروبا ؛ لأنه أبعد المؤثرات وأكثرها غرابة ؟ إن فن سوتين وتحليلاته للطبيعة ، وشاجال وتحولاته ، مما أدخل خميرة جديدة في الألوان القديمة التي ألفها المصورون الفرنسيون ، ولم يظهر في مجال الفن منذ ثلاثين سنة مثل هذا العنصر الجديد الذي بلغ مبلغ الثورة . فالفن الفرنسي المعاصر يحتوي على عناصر متعددة فيها حياة ؛ ولذلك كانت رسالته لا تزال في انتشار .

الحياة التي نجدها عند رنوار ، وترى التناسق الجدى في اللون الأسمر أو الرمادي بدلا من الألوان الحمراء الزاهية ، وترى الأشكال الهندسية بدلا من الخطوط المؤثرة لبيسارو وسسلي ومونيه ، ففي المذهب التكعبي بأجمعه رفض للبحوث والاكتشافات السابقة . ولكن هذا الرفض ليس سلبيا ، إذ هو يعبر عن شيء آخر ولكنه يحذف ما لا يلائمه ؛ فأصحابه يريدون العودة إلى فن العظمة ؛ ولذلك يفرضون على أنفسهم نظام كبار المنشئين . فالصورة ليست مجرد لعبة ظريفة ، بل هي تعبير عن إرادة لا تتفق مع التساهل . ويجب ألا تخطط بين الجميل والظريف وبين الجد والركة وبين العظمة والتأثير . وقد تمكن مخترعو هذه النظريات التي دهش لها الجمهور من أن ينشئوا تدريجياً عالماً فنياً لا يتخذ العالم الخارجي إلا ذريعة لينشئ فناً حسب حاجاته .

وفي العالم الذي شب سنة ١٩١٠ ظهرت فيه نمجة جديدة من رجال الفن ، كان التصوير عن طريق التكعيب من أوائل طرق التعبير عن ذلك النوع من المشاعر .

ثم جاء مذهب المتجاوزين مدى الواقعية على أثر التكعيب ، وقد انبعثت في العالم هزة صامتة ، وكأن الأرض قد ثارت كتلا ، وكأن الحيوان قد دهش لنفسه ، وكأن الانسان قد قلق لقوته .

ثم جاء التعبيريون . وإذا كنا نستطيع أن نتكلم عن مذاهب انوحشية والتكعيب والمتجاوزين مدى الواقعية ، فانه لمن أصعب الأمور أن نحدد وصف المدرسة التعبيرية . وكثيراً ما سمي روي Roualt أبا المذهب للتعبيري الفرنسي ، وإلى جانبه جرومير . ورسوم روي تدل على تطور متناسق ،

معرض الستائر في باريس

وظهر في هذه الاثناء مصور للستائر حديث هو مسيو لوركا ، فأقيم له معرض في متحف كاريه ، وبلغ مسيو جرومير في أوبوسون مبلغاً من الاتقان لا يدانيه فيه أحد ، فلا زال الفرنسيون في فن الستائر والسجاد يشغلون مركزاً هاماً .

ويشغل المعاصرون في المتحف طابقتاً بأكملها . ويعتبر كل من مسيو راؤول دوفى ولوركا وجرومير زعماء هذا الفن الفرنسى في القرن العشرين ، وهؤلاء الرجال الثلاثة لم يخترعوا مع ذلك شيئاً غير منتظر ، وهم يمتون بصلة قوية إلى ما نشاهد في الطابق الأسفل من فن القدماء في هذا الباب .

أقيم معرض عظيم في المتحف الاهلى للفن الحديث بشارع الرئيس ولسن بباريس ، وفيه نرى صوراً متتابعة لتاريخ الستائر الفرنسية . وقد نسق القسم القديم منها مسيو قرليه ، والقسم الحديث مسيو جان كاسو ، يعاونهما في ذلك رجال المتاحف الأهلية .

ولقد عادت الحياة إلى فن الستائر في فرنسا منذ بضع سنوات ، وبدأت الحركة متواضعة حين نسجت ستائر في بوقيه مطابقة لرسم راؤول دوفى ، ثم قويت في عهد الاحتلال الألماني عند ما نسج جان أدنيه رسوم ساقال وبريانشون وكوتو وروهنر وغيرهم .

شهيرة السيدنا

عودة القافر (شركة أفلام التاج)

قبل إن قصة هذا الفيلم من وضع الأستاذ يوسف جوهر ، وقيل أيضاً إنها حازت الجائزة الأولى من وزارة المعارف العمومية لمسابقة القصة . وقد تكون الجائزة الأولى من وزارة المعارف للقصة ضماناً كافياً لنجاح الفيلم ، ولكنها في هذه المرة لم تكن كافية لهذا الضمان ؛ فقصة هذا الفيلم مفككة بها من التطويل ما يمل القارئ أو المشاهد . على أنني أعترف للمؤلف أنه ذو خيال خصب جامح لم يحسن التحكم فيه فأوحى إليه مواقف وقصصا كثيرة غير مرتبط بعضها ببعض . فعند ما يتكلم عن أسرة حمدي وما بينها وبين الأسر الأخرى من ضغائن يخيل إليك أن محور القصة هي تلك الضغائن ، ولكن سرعان ما يتضح لك أن تاريخ الأسرة ليس له علاقة بالحوادث القادمة مطلقاً بل إن كانت ثمة علاقة فلم يحسن المؤلف إظهارها . وعلى أية حال فقد غالى في سرد هذا التاريخ وأسهب فيه حتى أسأمك منه .

ثم ينتقل بك من الماضي إلى الحاضر : فيبتدىء حياة حمدي ، وهي حياة كفاح كما قيل في البرنامج الذي وزع على النظارة ، وهي حقاً حياة كفاح ، غير أن كثرة الحوادث والشخصيات شغلت المؤلف عن إعطاء هذا الكفاح المرتبة الأولى في قصته . فأطال مثلاً في دراسة شخصية هذا المحامي الشيخ إطالة لا مسوغ لها مطلقاً ؛ إذ أن شخصيته ليست ذات غناء في الفيلم الأهم إلا في حدود تأثير هذا الشيخ في صهره حمدي . وكان من اليسير جداً على المؤلف أن يظهر مدى هذا التأثير في منظر أو منظرين

قصيرين ، إلا أنه تمادى في ذلك ، حتى إن نصف القصة أو ما يقارب النصف لم يكن الحديث فيه حول كفاح حمدي في الحياة بل حول حياة هذا الشيخ ، وهي حياة هادئة متصلة الهدوء لا يعكر صفوها سوى حادث أو حادثين لا خطر لهما مطلقاً .

ويموت الشيخ ولا يترك لحمدي وزوجه شيئاً من الثروة التي جمعها . فيعود الشاب إلى الكفاح في سبيل قوته وقوت أسرته ، وتلم به محن كثيرة : منها أن زوجته التي تزوجته عن حب وأنجبت منه طفلاً ووثق الرباط بينهما ، والتي قبلت أن تكافح مع زوجها ، هجرته هذه الزوجة لتعيش مع شاب كان أبوها يبغضه كل البغض ، ولم تظهر له قبل زواجها أي ميل . فهل يمكن فتاة شريفة مثل التي صورها لنا المؤلف محبة لزوجها مخلصه له كل الاخلاص ، هل يمكن هذه الفتاة أن تقبل دعوة شاب للتزوم معه ؟ فهي تضحي بزوجها وبابنها وبسعادتها لترحل مع هذا الشاب الذي يسعها عن زوجها ما يجرح شعورها وكبرياءها ؛ ولو لم تكن بطلّة النصة بالأخلاق التي اتصفت بها ، لكان لهذه النزوة منها مسوغ .

ويواصل حمدي كفاحه في الحياة حتى يصبح محامياً مشهوراً تحقيقاً لرغبة حماء ، وينتقل من العسر إلى اليسر . وهنا يمرض ابنه ، فتسمع زوجه بهذا المرض فتذهب لعيادة المريض الصغير ، ويتقابل الزوجان حول سرير ابنهما ، فتكون التوبة ويكون الغفران ، ويعاود الزوجان المعيشة مأ .

المحامي الشيخ وفي إيماءاته وخطواته البطيئة كأنه يمثل على المسرح . فهذا التمثيل لا يصلح للسينما لكبر المناظر ، ومن ثم تبدو المواقف طويلة مملة . وقد أصاب الأستاذ حسين صدقي في تمثيله توفيقاً يجعله أهلاً للثناء ؛ فهو يبدو طبيعياً في كل مواقفه . أما السيدة سميرة خلوصي فقد امتلأ جسمها إلى حد لا يسمح لها أن تقوم بأدوار الفتيات ، ولم تحسن في لبس سروال ركوب الخيل لأنه زاد من بدايتها . وعلى المخرج أن يختار لممثلته الأولى ما يلائم جسمها ويخفي ما به من عيوب . وقد قامت بدورها وأصابت نجاحاً وتوفيقاً .

غير أن نجاح الفيلم تمثيلاً لم يمنعه من الاخفاق تماماً . وكيف لا يكون ذلك نصيبه ، والقصة مفككة لارتباط بين أجزائها ، والاخراج رخيص لم يبدل فيه المخرج عناء . والسينما المصرية لن تعرف إلى النجاح سيلاً إلا إذا دقت في اختيار قصصها ، وأخرجت لنا من الأدب العربي الحديث والأدب الأوربي أيضاً ما أنتج من قصص طالية متقنة . وليعلم الذين يغنون بشؤون السينما أن القصص الظاهرة بالجوائز ، ليست هي أحسن القصص . والدليل هنا جلي واضح .

ونرى من هنا أن الجزء الأول أو مقدمة القصة قد أغارت على القصة نفسها وفاقتها طولاً مع أن العقدة ونهاية القصة لم يحظيا إلا بوسط يسير ، وأن الابتعاد عن موضوع القصة طغى عليها حتى فقدت وحدتها وضاعت معالمها في هذا الطغيان .

ولم يحسن الأستاذ أحمد بدرخان في إخراج الفيلم إخراجاً سينمائياً . وربما كان له في ذلك بعض العذر ؛ لأنه ليس من حقه أن يقتطع من الرواية ، مما جعل إخراجاً مسرحياً أكثر منه سينمائياً . فقد أطال في تصوير المونولوج في الفيلم ومناجاة الشيخ لصورة امرأته أو ثوب الحمامة ، إلى آخر هذه المواقف التي طالت حتى شئناها . ويبدو أنه لا بد من وجود مناظر راقصة في الأفلام المصرية ، ولو لم يكن لها مسوغ . وإذا كان المخرج يتهاون بفنه إلى هذه الدرجة ، فكيف يقبل المؤلف أن يدخل على قصته هذه المناظر التي ليس لها أي مسوغ . بل تعد إطالة لا تستساغ ؟

وكان التمثيل مسرحياً أكثر منه سينمائياً . فالأستاذ حسين رياض — ونحن لا ننكر هنا أنه ممثل قدير — قد غالى شيئاً ما في تمثيل

فولبوني (فيلم أيل دي فرانس) (١)

الفرنسي جول رومان فصاغها صياغة فرنسية خالصة محتفظاً فيها بمعالم شخصياتها كما وضعها مؤلفها الانجليزي ، وبنقده اللاذع لعيوب المجتمع المعاصر له ، وبأدراكه التام للطبيعة الانسانية البغيضة . وقد يكون الكاتب الانجليزي غالى في تصوير هذه الطبيعة حتى أصبحت شخصياتها غريبة كل الغرابة تبعث على البغض والكراهية . إلا أن الكاتب

يبدو أن السينما الفرنسية تتجه إلى إخراج للمسرحيات الخالدة على الشاشة البيضاء ، مع أن هذه المسرحيات غير صالحة للسينما مطلقاً . وقصة « فولبوني » التي عرضت علينا منذ قليل ماهي إلا مسرحية « فولبوني » أو « الذئب » التي ألفها بن جونسون سنة ١٦٠٤ واقتبسها عنه الكاتب النمساوي ستيفان زفايج ، ثم تناول موضوعها الكاتب

شهرية السينما

من طابعها الواقعي ما يجعل من شخصياتها صوراً « كاريكاتورية » .

وثمة فوارق بين السينما والمسرح تجد من نجاح أية مسرحية . إذا أخرجت إخراجاً سينمائياً . فبينما تركز المسرحية على الحوار دون المناظر نجد أن الفيلم السينمائي يركز على المناظر دون الحوار . وبالرغم من هذا البون الشاسع بين أسلوبى هذين المظهرين للفن التمثيلي ترى الشركات الفرنسية تتزاحم على إخراج المسرحيات في السينما . فهي لا تقتبس المسرحيات وتصلحها ولكن تعرض المبرحة في أمانة تامة . أما قولبوني فقد أدخل المخرج على مسرحية جول رومان مقدمة للقصة ليكثر من المناظر الخارجية في الفيلم . وعند انتهاء هذه المقدمة عادت إلى أساليب المسرح في الإخراج . وعشنا حاولنا أن نتبع موسكا في غداوته وروحاته في المدينة ، فالمنظر ظل واحداً طول الشريط ، لم تنتقل من حجرة قولبوني إلا مرة واحدة للذهاب إلى المحكمة . ولولا التمثيل وجمال الحوار لبدا مملا هذا الأثر الفني . فهاري بور ولويس جوقيه وشارل دولان كان لهم النصيب الأوفى في نجاح هذا الفيلم باشتراكهم فيه بفنهم الرفيع . كانت هاري بور يقوم بدور قولبوني وهو دور عسير ، إذ يحتوي على دورين في آن واحد : قولبوني على فراش الموت ، وقولبوني الصحيح البدن الذي يلعب بالرجال ويسخر منهم بواسطة ماله . والجمهور المصري يعرف الممثل القدير لويس جوقيه الذي يتفرد في تمثيل مسرحيات جان جيرودو ، وقد أيقن القيام بدور موسكا ذلك الشاب المستهتر الذي قضى جزءاً من حياته عالة على قولبوني ثم نجح في أن يستولي على مال سيده . ونذكر أخيراً شارل دولان وكان يقوم بدور كورباتشيو ذلك الرجل المسن الذي كان يقرض النقود بالربا الفاحش . وقد

الفرنسي قد حرص كل الحرص ، وهو أمين في اقتباسه ، على الاحتفاظ بهذه الصورة التي تدعو إلى الاشتياز أكثر مما تدعو إلى السخرية . ولا ننكر أن الفيلم ما عدا الجزء الأول منه كان أيضاً أميناً في اقتباسه لهذه المسرحية الفريدة .

وقصة قولبوني تصور تصويراً دقيقاً أطماع الناس في المال وفرض سلطانه عليهم . فهم عبيد له لا يعيشون إلا لجمعه كلما وجدوا إلى جمعه سيلاً ، والاستمتاع بمنظره وهو مكس في خزائهم كلما تيسر لهم هذا الاستمتاع . وهم في سبيل هذا وذاك لا يبالون بالوسيلة التي تيسر لهم هذا الاستمتاع وهذه اللذة . فهم يضحون بأزواجهم وأولادهم وأعراضهم لينالوا حتى اليسير من المال ، يتفانون في خدمة هذا الإله الطاغية وهذا السيد المستبد ، لا شباع أهوائهم وملذاتهم . فقولبوني تاجر شرقي يعيش في البندقية وقد جمع من تجارته مالا كثيراً ، فأذاع بين الناس بواسطة موسكا تابعه أنه أشرف على الموت وأنه حرر وصيته ، ولكنه لم يذكر في تلك الوصية اسم وريثه ، فأخذ الناس يهرعون إلى قصره طمعا في أن ينالوا الميراث .

فهذا يقدم له كأساً من الذهب الخالص وذاك كيساً من القطع الذهبية . وحين يتضح لهم أن هداياهم ليست بذات غناء يلتجئون إلى وسائل أخرى ، فهذا يحرم ابنه ميراثه ليجعل قولبوني وريثه الوحيد ، وذاك يحضر له امرأته ليقضى معها ليلة فاجرة ثمنا لهذا الميراث الذي يود الحصول عليه . ولكن لا يحصل على هذا الميراث أحد منهم ، فقولبوني يفقد ثروته التي جمعها وحرص على إخفائها بفضل دهاء تابعه موسكا . فهذه صورة بشعة لنفسية الإنسان ووضاعتها لا تخلو من التهمك والسخرية ، ولكني أرى فيها من المبالاة بالرغم

فأم بهذا الدور دون مغالاة : لقد غير من ملامحه وصوته وضحكته بما يلائم الشخصية التي كان يضطلع بها . ولا عجب أن ينجح شارل دولان في هذا الدور فهو يمثل منذ سنة ١٩٢٨ . ولا داعي أن تتعرض لجاسكلين ديلوباك ولا لتمثيلها السخيف المزرى . ومن العجيب أن نرى هذه الممثلة تظهر في أفلام كثيرة بالرغم من مواهبها الضئيلة .

(١) سيرانو دي برجيراك تأليف إدمون روستان (أفلام فرناند ريفيرز)

من الخطأ أن نعد هذا الفيلم إنتاجاً سينمائياً ، وأن توجه إلى مخرجه الأمانة على ما فعل . فلم يرم مسيو فرناند ريفير عند ما أنتج هذا الفيلم إلى أن يغير على مسرحية خالدة ويشوهها بأن يقتطع من مشاهداتها ما لا يصلح للسينما وأن يضيف إليها ما يراه ملائماً ليصل إلى النجاح السهل الرخيص كما يفعل بعض المخرجين المصريين . بل كان مقصده نبيلاً كل النبيل ؛ إذ أنه أخرج هذه المسرحية بأكملها كما كتبها إدمون روستان دون أن يغير فيها كلمة واحدة ، وأهداها إلى هؤلاء الذين قرءوا شعر روستان وحالت الظروف بينهم وبين مشاهدة تلك المسرحية . وقد يوجد من بين النظارة من يرى هذا الإنتاج بالاطالة وبساطة الإخراج وقلة المناظر . فليعلم هذا الفريق من المشاهدين أنهم يتعدون عن الأمانة في النقد ؛ لأن فيلم « سيرانو دي برجيراك » ما هو إلا تسجيل سينمائي لمسرحية خالدة مثلت وأخرجت على أنها مسرحية لا فيلم . ولا أرى في ذلك أى خطأ بل على العكس أرى أن فيه خدمة جليلة لعاشق الفن والمسرح الفرنسي أولئك الذين حرّموا هذا النوع من المسرحيات والتمثيل منذ زمن بعيد .

وقصة « سيرانو دي برجيراك » خالية من الحوادث الكثيرة ، مع أنها متقنة حواراً وموضوعاً كل الاتقان . لما علم سيرانو دي برجيراك أن ثمة شاباً يدعى كريستيان يكف كلفاً شديداً بحبوبته روكسان أخذ يمد له يد المساعدة في هذه المغامرة النرامية . والدافع إلى ذلك هو أن سيرانو دميم الهيئة لم يجد إلى السعادة في الحب سيلاً بالرغم من لباقة وإتقانه لغة الهوى ، على حين كان كريستيان شاباً وسيم الطلعة جذاباً ولكنه لا يعرف كيف يتكلم إلى النساء . ويصل العاشقان إلى مرادهما ، وهو أن تهيم روكسان بالشاب كريستيان ، فتعشق فيه جماله ولباقة سيرانو . ويموت كريستيان أثناء محاصرة أراس ويحتفظ سيرانو بالسر الذي كان يربط بينهما ، ولم يبح به لروكسان إلا عند وفاته أى بعد أربع عشرة سنة . وقد اجتمع في هذا الفيلم عبقرية رجلين : عبقرية الشاعر روستان الذي لشعره وقع قلماً وجدناه في مسرحيات أخرى ، وعبقرية الممثل العظيم مسيو كلود دوفان . وشعر روستان في غنى عن تقديمه إلى الجمهور ، فقليل من الناس من لم يطلعوا عليه ولم يشعروا عند قراءته بهذه الموسيقى التي تنطلق منه . وروستان يمتاز بسهولة اللفظ : فشعره كماء جدول نقي شفاف . أما روحه المرحية ونكاته المستملحة ومواقف مسرحياته المثقنة وخياله الجامح ، فهذه العناصر كلها متجمعة ، مهدت لمسرحية سيرانو الطريق إلى الخلود . أما مسيو كلود دوفان فهو يمتاز ببساطة في التمثيل

شهرية السينما

وإمام واسع للشخصية التي تمثلها . فقد أخرج لنا شخصية سيرانو كما عرفناها وكما رسمها مؤلفها : شخصا دميم الهيئة ، ولكنه يمتاز باللباقة في الكلام ، وحب المخاطرة ، والافتخار ببني مقاطعته وتطلعه إلى الحرية والاستقلال الفكرى مهما كلفه ذلك من عناء ، ومهما أوجد له من متاعب . كل نواحي هذه الشخصية كانت واضحة في تمثيل هذا الممثل البارع . وما نأخذ المخرج به هو إدخاله بعض الرسوم المتحركة على الفيلم ليصور قصة سيرانو عن صعوده إلى القمر . ولست أجد معنى لهذه الرسوم ، وقد أفسدت قليلا من وحدة الفيلم وطابعه المسرحى .

رسمى لامل

من كتب الشرق والغرب

نزهة النفوس ومضحك العبوس

الفكاهة ، أو على الأقل لسنا نعرف في مصر شاعراً احتكره الهزل هذا الاحتكار . حقاً أن في الخريدة شعراء فاطمين يعتدون بالفكاهة في شعرهم ، وكذلك الشأن في العصر الأيوبي، ولكننا لا نجد شاعراً يخصص نفسه بالهزل هذا التخصيص الذي نجده عند ابن سودون .

والحق أن ابن سودون شخصية طريفة في تاريخ أدبنا المصري؛ لأنه يفصح إفصاحاً واضحاً عن مزاج المصريين في هذا الجانب الذي تشتهر به مصر في عصورها الإسلامية المختلفة . وإن من يقرأ هذا الديوان يلاحظ أن صاحبه كان يعتمد في فكاهاته على المفارقة ، فهي المفتاح الذي ينصب منه جميع نغم الهزل في الديوان . وقد كان يسلك إلى هذه المفارقة طريقة واضحة ، هي أن يقف بين يدك موقفاً جاداً يريد أن يروي لك بعض العجائب ، ولكنه ما يبدأ في ذكرها حتى تحبس مفارقة ونبواً وشذوذاً عن منطق الحوادث ، وبذلك تسترسل في الضحك لا لسبب إلا لأنك تشعر كأنك فقدت توازنك ، فقد كنت على أهبة أن تستمع لأشياء غريبة ، فإذا بك تستمع لأشياء كأنها بديهية لكثرة ألفتنا لها واصلتنا بها . ومن هنا يأتي الضحك لأن الحقائق تصعد أمامنا وتهوى وكأنها تهوى من أمكنة عالية، هي أمكنة المنطق الواقع ، فنضطرب معها ولا نلبث

هذا عنوان ديوان (١) ألفه شاعر مصري يسمى ابن سودون ، وقد كان يعيش في القرن التاسع الهجري ، وكان إماماً ببعض المساجد ، إلا أنه اتخذ الهزل منهجاً له في حياته، فطار اسمه وتنافس الظرفاء في الحصول على شعره الذي يذهب كله مذهب الضحك والفكاهة . وقد عني أخيراً بجمع هذا الشعر في ديوان وأضاف إليه طائفة من الحكايات والملافيق ، كما يقول هو في مقدمة هذا الديوان ، وهو يملؤه بضروب من القصائد والموشحات والزجل والدوبيت وأنواع من المواليا مضافاً إليها طائفة من الطرف العجيبة والتحف الغريبة .

وقد بنى أغلب الديوان من اللفظ العامي ، وهو من هذه الناحية يسجل جانباً له أهميته في تاريخ لغتنا الشعبية ؛ فإن من يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغة هذا الديوان ولغتنا المصرية المحلية الحديثة ، وإن في هذا بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ وأنها لا تتطور إلا بقدر محدود؛ فكثير من أمثال هذا الديوان واصطلاحاته وألفاظه لا تزال ماثلة تحت آذاننا في العصر الحديث . ولكن الشيء الذي يلفتنا حقاً في هذا الديوان هو أنه ألف كله في ضروب من الهزل والدعابة ، ولسنا نعرف شخصاً قبل ابن سودون كتب ديواناً من الشعر كله يأخذ مأخذ

(١) طبع هذا الديوان في القرن الماضي طبعة سقيمة . ولكن يدار السكتب المصرية نسخ مخطوطة منه مختلفة .

من كتب الشرق والغرب

أن نضحك في غير نظام ، بل في فوضى كفوضى الكلام الذي نسمعه . وانظر إليه يقول :

ثيقن أن الأرض من فوقها السما
ويبينهما. أشياء متى ظهرت ترى
لتعلم أني من ذوى العلم والحجى
ومنهم أبو سودون أيضاً وإن قضى
أنا ابنهما والناس هم يعرفون ذا
فصر بها نيل على الطين قد جرى
وليست تبل الشمس من نام في الضحى
بها الظهر قبل العصر قيل بلا مرا
ترى ظهر كل منهم وهو من ورا
بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا
ويبرد فيها الماء في زمن الشتا
يطن كصيني طرقت سوا سوا
ويكي زمان الحزن فيها إذا ابتلى
فذاك له في الهند بالعين قد رأى
لأنهم تبدو بأوجهم الحى
تراه بها وسط النهار وقد مشى
ثمارة كأثمار العراق لها نوى
بأثمارها قالوا يحركها الهوى
تدل على أني من الناس يا فتى
ولا امرأة قد زوجاني ولا حيا
وحققتهما بالفهم والحذق والذكا
إذا سمعت أني أفوق على جحا

إذا ما الفتى في الناس بالعقل قد سما
وأن السما من تحتها الأرض لم تزل
وإني سأبدي بعض ما قد علمته
فمن ذاك أن الناس من نسل آدم
وأنت أبي زوج لامي وأننى
وكم عجب عندي بمصر وغيرها
وفي نيلها من نام بالليل بله
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائماً
وفي الشام أقوام إذا ما رأيتهم
بها البدر حال الغيم يخفى ضياؤه
وتسخن فيها النار في الصيف دائماً
وفي الصين صيني إذا ما طرقت
بها يضحك الانسان أوقات فرحه
ومن قد رأى في الهند شيئاً بعينه
وفيه رجال هم خلاف نسائهم
ومن قدمشى وسط النهار بطرقها
وعشاق إقليم الصعيد به رأوا
به باسقات النخل وهي حوامل
وعندي علوم بعد هذى كثيرة
وما علمتني ذاك أمى ولا أبى
ولكننى جريتها ففرقتها
فيا بخت أمى بى ألا يا سرورها

لا تحتاج الى سمو في العقل وما يشبه السمو ،
غير أن ابن سودون يستغل ذلك نفسه ليحدث
لك المفارقة حين تسمع وصف هذه الأشياء
وأنها تحتاج الى عقل راق ، ثم تقرأ فإذا أنت
أمام حقائق أولية . وإنه ليحاول أن يأتي
بأبسط ما يمكن من هذه الحقائق لجعلك
تغرب في الضحك . ويتطرق ابن سودون
من هذه المقدمة إلى بيان ما رآه في البلدان
المختلفة من عجائب ، وهو يبدأ بمصر فيروى
لك حقائق عامة مألوقة ، ولكنك ما تقرأها
حتى تضحك لأنه عرف كيف يعث بمنطقك

أرأيت كيف يغمس ابن سودون هزله في
ليقة المفارقات ، فإذا الفكاهة تستوى له على
هذه الصورة المتناقضة ، فهو يبدأ حديثه بأن
الانسان إذا سما عقله أخذت تدخل عليه هذه
اليقينيات من مثل أن الأرض من فوقها السماء
وأن السماء من تحتها الأرض ، وأن بين السماء
والأرض أشياء متى انكشفت لنا رأيناها .
وليس هذا كل ما يقف عليه الانسان حين
يسمو عقله ، فانه يقف أيضاً على أن الناس
من نسل آدم وأن أباً صاحبنا زوج لأمه .
وماذا من الجدة في هذه اليقينيات ؟ إنها

في الشطر الثاني . وما من شك في أنه حاول أن
يعرب ما وسعه الاغراب حين أخذ يعرفنا بأن
الرجال هناك يختلفون عن نسائهم اختلافاً بينا
لما لهم من لحي ، كأن اللحي خاصة من خواص
رجال الهند دون سواهم . وأعجب من ذلك
وأغرب أن من يمشى هناك وسط النهار تراه
وسط النهار وقد مشى ، وهي مغالطة طريفة .
ويعود ابن سودون إلى مصر أخيراً فيتكلم
عن إقليم الصعيد ويعجب أن به ثماراً كأثمار
العراق لها نوى ، أرأيت إلى هذا النظر أو
قل هذا القياس الدقيق ؟ إنها علوم ابن سودون
الكثيرة كما يقول ، تلك العلوم التي تجعله
يقتنع بأنه من الناس ، ولقد تعلمها باجتهاد
ورحلاته ، وما تعلمها من أم ولا أب بل
ولا من زوج ولا من حم ، وإنما تعلمها من
طريق تحقيقه وفطنته وذكائه ، وإنه ليهني
أمه بنفسه مردداً أنه يفوق على جحا . وحقا
أنه كان جحا القرن التاسع الهجري ، ولم
يكن يعتمد في جحويته على النوادر والنكت
كما كان يعتمد جحا ، بل كان يعتمد على هذا
الفن من الهزل الذي لا نبعد إذا قلنا إنه
تفوق فيه لا على جحا وحده بل على كل
من سبقوه . وهو فن — كما رأينا — كان
يعتمد على المفارقات المنطقية . وربما كان
من أطرف القطع التي تصور ذلك قوله في
رثاء أمه :

فطالما لحستني لحس تحنني
خوفا على خاطري كيلا تبكي
أقول أمبو تجي بالماء تسقيني
تقول : هاها : بهز كي تنيني
صوصو بنيلي وكم كانت تحنيني
وبعد ذا كشكشتني كي ترضيني
مسكي وبعثي له كانت تحنيني
تنثر الملح من فوق وترقيني
على المنصة تلقاني بتزيين

هذا العبث الذي جعله يقص عليك أن الفجر بمصر
يظهر قبل الشمس ، وأن الظهر يمر بنا قبل
العصر . وإنه ليؤكد ذلك كأنه شيء مشكوك
فيه ، فيقول إنها حقيقة « بلا مرأى » . وينتقل
إلى ابن سودون بسامعه من مصر إلى الشام
فيروي له أن بها ناساً ظهر كل منهم وراءه ،
كأن الناس على قسمين ، قسم هذا الذي
يراه في الشام ، وهو قسم غريب ، ولذلك
وقف ليدلنا عليه وعلى مبلغ ما رأى هناك
من غرائب ، أما القسم الآخر فقد سكت عنه
لأنه مفهوم ومعروف ، وهو إنما يروي
المجهول غير المعروف . هذه قصة الناس
هناك ، أما بدرهم فإن ضياءه يستتر حال الغيم
وأما شمسهم فإن ضياءها ينتشر حال الصحو ،
وهناك تسخن النار في الصيف ويبرد الماء في
الشتاء ، كأن ذلك كله شيء خاص بالشام .
ويترك الشام إلى الصين فاذا هو يحدثنا أن بها
صينياً يطن مثل ماذا ؟ « كصيني طرقت سوا
سوا » . هل جاء ابن سودون بشيء ؟ إنه كما
يقولون فسر بعد جهد جهيد الماء بالماء ، وهو
يستمر في هذه المفارقة ، فالناس في الصين
يضحكون في أوقات فرحهم ويبكون في أوقات
حزنهم ، وينتقل من الصين إلى الهند فيحدثنا
أن من رأى هناك شيئاً بعينه ، فقد رآه بعينه !
هل قال ابن سودون شيئاً أكثر من أنه
غالطنا ، فاذا هو يعيد ما قاله في الشطر الأول

لموت أمي أرى الأحزان تحنني
وطالما دلعتني حال تربيتي
أقول نعم تجي بالاكل تطعمني
إن صحت في ليلة وألا سهرها
كم كحلتنى ولى في جهتي جعلت
وربما شكشتني حين أغضبها
ومن فقيهي إن أهرب ورام أبي
وزغرطت في طهوري فرحة وغدت
وفي زواجي تصدت للجلاء عسى

من كتب الشرق والغرب

وبعد ذلك ماتت آه واني
وأربعين سنيناً في حسايني
لي في من بعدها جودوا بآمين

وربت اولاداً ايضاً مثل تربيتي
وخلفتني يتيماً ابن أربعة
يعظم الله فيها الأجر لي وكذا

فيها من ضحك في موضع الرثاء وما يطوى فيه من حزن . ولا يكتفى ابن سودون بذلك إذ نراه يعمد إلى محاكاة بكاء الأطفال وما يقرن بهذا البكاء من هز أمهاتهم لهم وقولهن ماها ونحو ذلك . ثم يسترسل في الحديث عن حنو أمه عليه وكيف كانت تكحله وكيف كانت « تحنيه » ثم كيف كانت « تشكشكه » وكيف كانت « تكشكشه » . ثم يقص علينا كيف كانت « تحنيه » حين يهرب من الفقيه وأنها « زغرطت » يوم طهوره وزينته يوم زواجه . وأخيراً يعلن أنها خلفته يتيماً ابن أربعة وأربعين سنيناً ، كما يقول . وكل هذه مفارقات ؛ فهو يتيم وهو في الوقت نفسه ابن أربعة وأربعين ، وهو باك وهو في الوقت نفسه ضاحك ، بل إنه ليضحك حتى يخرج بضحكه إلى هذا الهزل وما يتصل به من فكاهة . وفي أي موضع يصنع ذلك ؟ في الرثاء أو بعبارة أخرى في أكثر المواقف دعوة للحزن وأشدّها استثارة للبكاء ، وهو بلا ريب يجرح هنا شعورنا ؛ لما اصطالحنا عليه في مثل هذا الموضع ، لكنه جرح ينتهي بنا إلى أن نضحك بل إلى أن نفرق في الضحك لأنه جاء على غير أهبة وبدون انتظار ، وإنه ليغلو في ذلك غلو البله . وهذا هو وجه طراوته وجمال فكاهته . وارجع إلى ديوانه فستجده دائماً يعتمد على هذه المباينات بين ما تنتظره وما يستقبلك به من أشعاره . ومن أطرف ما جاء من ذلك وصفه لحفلة زواجه إذ يقول :

ونجم طالعه بالسعد قد ظهرا
أغصانه بالتهاني تنثر الزهرا

وما من شك في أن كل من يستمع إلى هذا الرثاء يفرق في الضحك ؛ لأن ابن سودون اعتدى على الموقف التقليدي في مثل هذه الظروف اعتداءً شديداً أو قل اعتداءً صارخاً . وأي عدوان أبعد من هذا العدوان الذي نجد فيه شخصاً يقف بإزاء أمه — وقد لبث نداء ربها — ليرثيها وكأن كل كلمة في رثائه تعبر عن دمة تنحدر من عينه ، فإذا هو يترك ذلك كله وما يتصل به من حشمة ووقار إلى مظهر جديد لم نره عند أحد من قبله ، وهو مظهر لا يتصل بالحزن ولا بالرثاء ، وإنما يتصل بالفرح والسرور ، كأنما يتحدث إلى أمه في أحد أعياد ميلادها ، وهي قائمة بين يديه تستمع إلى طرفه فتضحك ، وقد تغرب في الضحك لأنه بعد أن بلغ أربعاً وأربعين سنة يتحدث عن ذكرياتها القديمة . وهذه المخالفة في الموقف وما تنطوي عليه من مفارقة هي أساس فكاهة ابن سودون في هذه القطعة . وارجع إلى مطلعها فانك تراه في الشطر الأول من مقطوعته يكاد ينهد من حزنه انهداداً فقد قوسه الحادث وحناء . ولسكنك لا تقرأ الشطر الثاني حتى تجد المفارقة ، فإذا هو يذكر كيف كانت أمه « تلحسه لجس تحنين » وكيف كانت « تدلعه » خوفاً على « خاطره » . ونستمر فإذا هو يحكي لغة الأطفال ذاكرة أنه كان حين يقول ننم تأتي أمه له بالأكل وحين كان يقول أمبو تأتي له بالماء . رأيت صرامة الموقف وما يمليه على ابن سودون ؟ إنه لا يملى عليه إلا هذه الفكاهة وما يطوى

حل السرور بهذا العقد مبتدرا
والكل كالوجه الأرض فانعطفت

بكل عود عليه لا ترى وترا
على العرايس كي يقضوا به الوطرا
حد الأشد وعقلي في الوري اشتها
أني إذا نمت مع ظهري يكون ورا
عقلي ولكن حوت في عمرها كبرا
بالسن من رمح أو سيف إذا بتر
في عينها عمش للجفن قد ستر
في كفها فليج ما ضر لو كسرا
في عمرها نوب كم قد رأت عبرا
يوما وقد سبست في جيدها شعرا
أواه لو حاشها موت لها قبرا

والطير من فرحها في دوحها صدحت
تقول في صدحها دام الهنا أبدا
وكننت عند زفافي قد وصلت إلى
فكننت أعرف من عقلي وكثرته
هذا وعقل عروسي كان أصغر من
في السن قد طعنت ما ضر لو طعنت
في لونها نمش ، في أذننها طرش
في بطنها بعج ، في رجلها عرج
في ظهرها حذب في قلبها كدر
يا حسن قامتها العوجا إذا خطرت
تظل تهتف بي : حسنا حظيت بها

القبح كلها . وهو يعتمد إلى المبالغة في هذه
الفنون حتى يستتم ما يريد من إضحاك وتفكه .
وأمعن النظر في القطعة فانك تجد يقف أثناء
وصفه لقبح هذه الزوج المسكينة ليظهر إعجابه
بقامتها على ما فيها من عوج وأمت . بل على
ما في صاحبها من بعج وعرج وفليج وحذب !
وهذا هو التباين أو هو المفارقة التي تنبع
منها فكاهة ابن سودون ، وإنها لمفارقة تميزه
من نظرائه الفكهين في الشعر العربي ، بل
في الشعر المصري نفسه ؛ فتجن لا نعرف
أحدأ سبقه إلى هذا التفنن الواسع في استخدام
المفارقة على هذا النحو في شعره ، فإذا هو
يتحول كله إلى هذه الطرائف الفكاهية .
وقد كان ابن سودون يدمج في هذه المفارقة
ضروبا من التباله وإظهار النفلة كما مر في
الأمثلة السابقة وعلى نحو ما نجد في قوله :

والفيل فيل والزراف طويل
والطير فيما بينهن يحول
فالارض تثبت والفصون تميل
ويرى له مهما مشى سيلول

وأنت تراه يعتمد في هذه القطعة إلى المفارقة
حتى يستخرج ما يريد من هزل وفكاهة .
فقد بدأ شعره بالسرور وطالع السعد وما كان
من مشاركة الطبيعة والطير للعروسين في فرجهما ،
وما نستمر حتى نراه يعتمد إلى التباله بل إنه
ليعلنه ، فعقله على كثرته لم يكن يعرف به
إلا أنه إذا نام كان ظهره من ورائه ، ومع
ذلك فعقله أكبر من عقل زوجه . وقد ذهب
بعد ذلك يعرض علينا زوجه هذه في صورة
مشوهة لا تنسجم مع مطلع شعره ، وهذا
هو معنى ما نقوله من أنه يعتمد إلى ضروب
من المفارقة والتباين في هزله ، فبينما هو في
مستهل هذه القطعة يعلأ الجو بشراً وابتساما
لهذا الزواج السعيد ، إذ هو يملؤه بعد ذلك
كآبة وغما واكفهراراً ؛ لما صدم شعورنا به
من وصفه لهذه الزوج القبيحة التي جمعت فنون

البحر بحر والنخيل نخيل
والأرض أرض والسماء خلافا
وإذا تعاصفت الرياح بروضة
والماء يمشى فوق رمل قاعد

لنا في هذه القطعة أقرب الأشياء من حسنا
وذهب يروييه في هذا الضرب من البله والسذاجة .

وهو لا يأتي بشيء غريب ومع ذلك فان
شيئا من الضحك يلم بنا ؛ لأن ابن سودون جمع

من كتب الشرق والغرب

وهي سداجة هيأته لأن يصف كل ما يتصل به حتى لغة الأطفال مجدها في شعره كقوله :

ولما أن كبرت بمحمد ربي
بقيت أقول تنو تنو تاته
وصار لمنتهى عقلي ابتداء
ودحو كخ وانبو مم آء

فقد حشد في البيت الثاني كل ما يمكن من لغة الأطفال؛ وله في هذا الباب طرف كثيرة . وقد حكى في ديوانه كثيراً من أصوات الحيوانات ؛ إذ نراه يقلد صوت الخروف والبقرة ، وقد قلد صوت الأوزساراً . ومن طرفه قوله في « كتكوت » :

شريت لي كتيكيت
عنرين يصيح
لو حليق فيه زماره
يزمر ينقر
أقول لو كتكت
يرفر فر يزقزق
لو جناح لاح من جنبو
غليظ البطينه
كبر صار شويطن
ويعمل لأختو
فيمو بزيق
من البرد زيق
وحنك فيه تقازه
دويحك رشيق
يكتكت يجي
لحسو زعيق
كلما انشرح لوح بو
ولو ساق رقيق
ينافر أخوه
قيح في الطريق

وما من ريب في أن هذه قطعة خفيفة ، وإنها لتعبر عما أمتاز به ابن سودون من حاسة الفكاهة التي لا نجد لها نظيراً بين من عاصروه ، فقد كان يعرف كيف يجمع الصفات والخصائص لكل شيء يعالجه ، وكانت تسعفه في ذلك مخيلة لا تقطة تعرف كيف تضم أشتات الصورة بعضها إلى بعض . وقد تعلق بجانب ذلك بوصف الأطعمة والتحدث عنها تحدثاً يشوبه الجشع بل تشوبه « الفجعة » . وقد أتى في هذا الباب بيدع كثير . وله بعد ذلك مواليات كثيرة لعل من أغربها قوله :

التور والبقر ذى العسام ومن قبله
هديك تحبل وتولد عجل أو عجله
في مصر والشام وف غزه مع الرمله
وذاك في الساقيا ياكل بفرقله

وإن الإنسان ليخيل إليه أن ابن سودون لم يترك شيئاً في حياته يمكن أن يستخرج منه لوناً من ألوان الفكاهة إلا بعثه وعرضه أمام نظارته وقرائه . وقد ساق في ديوانه مجموعة من الحكايات والطرف النثرية ، وإنها لا تقل

موتى ضيف

من وراء البحار

مصر في المجلات البريطانية

رأى مجلة علمية

الامة المصرية . وكانت محاربة الفرنسيين فتح العالم مما فرض على مصر الدور الذي ما زالت تقوم به على أنها مفتاح لتحقيق الكثير من مطامع الدول العظمى ، وظلت مسرحا لمنافساتهم ، وبعيت شديدة الاتصال بالحياة الاوربية في سياستها وآرائها وآلاتها وقتها . واتصلت مصر بعدد كبير من أهل أوربا ، أكثرهم من العناصر غير المرغوب فيها ، وكان ذلك أيضا مما جاء بالبريطانيين .

لقد رأت حكومات بريطانية متتابعة أنها مضطرة إلى اعتبار التسليط على شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهو الذي تمكن منه الانجليز لأول مرة بانتصار نلسون في موقعة النيل ، نقطة أساسية في السياسة ، لا سيما أن للشرق الأوسط أهمية استراتيجية وله علاقة بمصالح بريطانيا التي تمتد إلى جوانب العالم . وقوى هذا المظهر من السياسة الخارجية البريطانية منذ السنة السبعين من القرن الماضي بعد إنشاء قناة السويس . فملكه مصر ليست كبيرة الأهمية فقط من الوجهة الجغرافية العسكرية العامة ، ولكن بين حدودها يمر فيه الجزء الأكبر من السفن التي تربط المملكة المتحدة بالهند وممتلكات المحيط الهادى والشرق الأقصى . لذلك ظلت بريطانيا نحو مائة وخمسين سنة تلعب دورا هاما في العلاقات بين مصر وسائر أنحاء العالم . ومنذ احتلت الجيوش البريطانية مصر في سنة ١٨٨٠ صارت مسألة هذه العلاقات على صورة ما أهم

في مجلة « العالم اليوم » ، وهي من أكثر المجلات الانجليزية تدقيقا في أخبارها ، إذ يصدرها المعهد الملكي لدراسة الأمور الدولية فصل (في عدد مايو) عن بريطانيا ومصر ، ووجهة النظر المصرية في تعديل المعاهدة . ومما جاء فيه أن مشاكل مصر ناشئة إلى حد كبير عن مركزها الجغرافي الخاص . فنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة كان التسليط على مصر مفتاحا للسلطة على جميع المساحات التي هي مهد الحضارة الغربية . وفي العصور الحديثة صارت جميع المساحة التي نسميها عادة ، وللسهولة أكثر من التدقيق ، بالشرق الأوسط ، هي أهم مفتاح استراتيجي ، لما لاحظ نابليون في سرعة ، وصار امتلاكها أو المقدرة على منع الغير من امتلاكها هو وسيلة النصر في الحروب العالمية . ولا يوجد في عصور التاريخ إلا القليل مثل التاريخ المصرى الحديث تراه واضحا وضوحا ظاهرا في حوادثه . وهو لا يحتاج إلى فن المؤرخين . - سنة ١٧٩٨ ، وهي سنة الغزو الفرنسى ، هي أول سنة في تاريخ مصر الحديث . وقد جاءت مع جيوش نابليون آراء الثورة الفرنسية وجميع مثل الحضارة الغربية ، وأدّى وجود العلماء الذين أثقل بهم مركز قيادته إلى اكتشاف أقدم مدنيات العالم ، بفضل شامبليون وتابعيه وتعريف الغرب بها . وبفضل مطابع الفرنسيين واحتذاء عاداتهم وتأثير طرقهم ، تأثرت عقول المصريين بطابع الغرب ، وصار للفرنسيين دور هام في حياة

المفاوضات الحالية ، وذكر أنها تسير في جو غير ملائم ، فإن هيئة وفد المفاوضات التي اختارها رئيس الوزراء المصري قوية ، ولكن تأثيرها ضعف لرفض الوفد الاشتراك فيها . وقال إن المطالبين اللذين تطالب بهما الوطنية المصرية الآن هما جلاء الجنود البريطانية عن مصر ، والاعتراف « بوحدة وادي النيل » وهو ما يعنى وحدة مصر والسودان . ولقد كان للسودان دور مهم في الآراء السياسية المصرية على مدى التاريخ ، وهذا طبيعي إذ أنه منبع النيل ، فهو يلعب دوراً حيوياً في حياة مصر أهم من الدور الذي تلعبه مصر في حياة بريطانيا ومجموعة دول الامبراطورية . ومشكلة مستقبل السودان أكبر وأعقد من أن يبحث فيها الآن . ومن وجهة نظر العواطف المصرية يلاحظ أمران : أولهما أن السودان ولو أنه اسمياً تحت حكم ثنائي من إنجلترا ومصر فقد ظل في الواقع تحت إدارة موظفين انجليز وهم يسرون به الآن إلى درجة متزايدة من الحكم الذاتي ، وثانيهما أن قوة الارغام التي تكون بيد الدولة المستولية على السودان إذا هي أرادت الضغط على مصر هي قوة في الواقع لا حد لها . على أن هذه القوة لم تستعمل قط ، ومن غير المعقول أن البرلمان البريطاني يوافق على هذا النوع من الضغط الاقتصادي على الحياة المصرية . ولكن الاحتمال موجود ، وقد أشار إليه انجليز غير مسئولين في خطب عامة لهم . على أن الأمر يتعلق بالثقة ، فإذا كانت الثقة متبادلة والتعبير عنها سخياً فليس ثمة سبب يحول دون ضمان مستقبل السودان ، بحيث يزيد نصيب أهله في السيطرة على مستقبلهم ثم في الوقت ذاته يجب أن تذهب مخاوف مصر . وربما كان مما يسترعى النظر ويبعث على التفاؤل في الموقف بأجمعه هو عدم وجود أي نوع من العداء الجنسي أو الوطني ، وندرة العداء الشخصي .

ماؤ حياة مصر السياسية ، والآن صارت أداة الحكم في العلاقات بين إنجلترا ومصر هي معاهدة التحالف والصداقة التي عقدت بينهما في سنة ١٩٣٦ .

ثم تكلم الكاتب عن العلاقات بين مصر وإنجلترا بعد الاحتلال ، فذكر مركز مصر منذ عهد محمد علي ثم الأسباب التي أدت إلى الاحتلال بما هو معروف في الكتب الانجليزية التي تبحث في سياسة بريطانيا نحو مصر ، وانتقل إلى الحرب العالمية الأولى وما كان من تقدم الروح الوطنية في مصر واهتمامها ، لا سيما على اثر المبادئ التي أعلنها الرئيس ولسن ورغبة مصر في تمثيلها بمؤتمر الصلح وعدم إجابتها إلى تلك الرغبة ، وتأليف الوفد تحت زعامة للمنفور له سعد زغلول باشا الذي يعتبر أبا الاستقلال المصري ، وأثر تصريح فبراير سنة ١٩٢٣ وعدم رضا الوطنيين عن مركز مصر السياسي الذي أوجده هذا التصريح ثم سوء الحالة الدولية الذي أدى إلى عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ . وقال إن مساعدة مصر في الحرب الأخيرة لها نصيب كبير في الجدل السياسي الحالي ، فالبريطانيون ينتقدون رغبتها في استرداد جميع ما لها من دين كبير نشأ عن نفقات الحرب البريطانية ، لا سيما إذا نظرنا إلى الموضوع في ضوء أن مصر لم تعلن الحرب رسمياً إلا في مارس سنة ١٩٤٥ ولكن الواقع أن تعاون مصر في أثناء الحرب كان كاملاً وذا قيمة كبيرة وأنه لا الرأي العام ولا السياسيون أظهروا أي ميل للاستفادة من المأزق الذي كانت فيه بريطانيا . ولو نظرنا إلى ذلك في ضوء التاريخ العاصف للسنوات العشرين السابقة لوجدنا قصة العلاقات المصرية الانجليزية أثناء الحرب قصة تسترعى النظر .

ثم تكلم عن موقف الحكومة المصرية عند أزمة العلمين ، وانتقل إلى ما تلا الحرب من حوادث داخلية حتى وصل إلى مرحلة

رأى فى مجلة محافظة

يقتصد فى صدق القول اقتصاداً باعشاً على الأسف أن المستعمرات المستقلة وافقت على هذا الانسحاب .

وفى اليوم التالى اى ٨ مايو خشى أن ينشر مارشال سمطس تكديباً لذلك ، فاعترف بأن المستعمرات المستقلة أخبرت بأن بريطانيا ستخذ هذه الخطوة الخطيرة جداً ، ولكن لم يؤخذ رأيها فى هذه الخطوة . وهذا التقلب المزدوج الذى قام به رئيس الوزارة ليس من المناظر السارة ، ولكنه كان ذا فائدة كبيرة ، فقد كشف عن الواقع وهو أن المستعمرات المستقلة ، فيما يسمى بالاستشارات ، تخبر فقط بما تنوى الحكومة الامبراطورية عمله ، ولكنها لا تستشار فيما يجب أن تكون عليه السياسة الامبراطورية . والواقع أنه لا يوجد أية استشارات أو سياسة فى جميع الأمور المرتبطة بالامبراطورية ، أى الأمور التى لها مساس حيوى بالمستعمرات المستقلة ، بقدر مساسها ببريطانيا . وقد صرح مستر أتلى فى أحد ارتبائكاته أن وزراء المستعمرات لا يطلب إليهم أن يبدوا موافقتهم فى مسألة خاصة بالملكة المتحدة ، فما أغرب هذا القول ! إن الدفاع عن الامبراطورية والدفاع عن مصر حيوى للامبراطورية بأسرها .

أشارت مجلة « ناشنال رڤيو » ، وهى المجلة الشهرية التى تنطق بلسان المحافظين ، فى عرضها لحوادث الشهر (فى عدد يونيو) إلى للمفاوضات المصرية ، وتصريح مستر أتلى بمجلس العموم البريطانى فى جلسة ٧ مايو حين أعرب عن نية الحكومة البريطانية فى الجلاء عن مصر . وقال محررها إنه مما لا يصدق أن حكومة تتخذ مثل هذه الخطوة دون أن تستشير غير مجرد أهوائها ، ودون أن تسأل المستعمرات المستقلة التى ساعدتنا على الاحتفاظ بالبحر المتوسط ، فى الحملة الافريقية العنيفة التى كانت فى سنة ١٩٤٠ — سنة ١٩٤٢ . هذا مما لا يصدق حتى من حكومة متقلبة قليلة التجربة مثل الحكومة البريطانية . ولكن هذا ما كان فعلاً . ولقد وقف المستر تشرشل الذى يعرف ما هى مصر وما هو الدفاع عنها فى التو وطلب استمرار المناقشة . وقد نوقش الموضوع بأكمله فى جلسة كبيرة الأهمية فى اليوم ذاته ، إذ كان حزب المحافظين بأكمله يؤيد زعيمه ، فإن الدفاع عن مصر معناه الدفاع عن قناة السويس ، والدفاع عن القناة معناه الدفاع عن الامبراطورية البريطانية فى الشرق ، وعن جنوب إفريقية وأستراليا ونيوزيلاندة وفى هذه المناقشة صرح مستر أتلى وهو

رأى سياسى محافظ

الوطنية التى كانت من ظواهر تاريخ العالم فى القرنين الأخيرين . وبينما مسلك الشعب المصرى آخذ فى هذا التطور ، إذا بالمركز الجغرافى لمصر لا يزال هاماً كما هو بل زاد أهمية ، فإن التقدم الحديث فى الهندسة واكتشاف آبار

وكتب اللورد الترنكهام فى هذه المجلة المحافظة مقالا عن « أمة النيل » ابتداءً بوصف ما حدث فى مصر من تطور ويقظة وطنية بفضل سعد زغلول . وقال إن هذه اليقظة ليست بمستغربة بل هى مثال آخر لليقظات

البتروول والتئلب على الجو ، كل هذه الامور زادت للمثل القديم تحقيقاً ، وهو الذى يقول إن مصر هى المركز الاستراتيجى للعالم . وقد أشار إلى أن الامبراطورية البريطانية صارت مع الجمهورية الأمريكية والاتحاد السوفيتى اكبر الدول شأنًا ، ولكنها فى مركز أصعب من مركزى القوتين الأخيرتين ؛ فهما دولتان أرضيتان كبيرتان تحت حكومة مركزية واحدة تجرى مواصلاتهما داخل حدودهما ، ولا يمكن أن تفصل هذه المواصلات عنهما إلا بغزو كبير . وهما من الوجهة السياسية والاقتصادية والحرية قادرتان على الاكتفاء بنفسيهما ، فى حين أن بريطانيا مؤلفة من أمم متفرقة ذات سيادة ، ومواصلاتها تتوزع على العالم حيث يكون تأمين هذه المواصلات البحرية والبرية متوقفا على صداقة بعض الدول الأجنبية ومن أهمها مصر . وسلامة المواصلات الامبراطورية تتوقف على حسن علاقاتها مع جميع أمم الشرق الأوسط . فحسن النية فى جميع تلك المنطقة شرط ضرورى لسلامة استراليا وحريتها ، وكذلك نيوزيلندة وجنوب أفريقية ، وحلقة كبيرة من المستعمرات البريطانية والأراضى المحمية ، ولبريطانيا نفسها . ولذلك يتوقف الكثير من الامور على الحكمة السياسية نحو مصر بعد أن تسلطت عليها نزعة الحماسة الوطنية الآن بحيث صار أعقل زعمائها غير قادرين على توجيه هذه النزعة فى سهولة .

وقال إن البحث فى هذه السياسة على أساس القواعد الحرية أو المادة وحدها معناه عدم فهم المشكلة القائمة . هذا ، مع أن مشاكل الامبراطورية نفسها لا يمكن تسويتها على هذا الأساس ، فكيف ببلد غريب عنها . فالوطنية لا تخضع للمادة . والواجب أن تقوم العلاقات على التعاون المتين العملى مع مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط . وقال إن هذه الاعتبارات يجب ألا تغيب

عن الأذهان . ثم أخذ يستعرض العوامل الاستراتيجية فى الشرق الأوسط على ضوء أن مصر مفتاح له ، فقال إن المصالح السائدة للامبراطورية البريطانية قد نمت نمواً كبيراً منذ موقعة النيل فى أيام نلسون ، وهو نمول يمكن يحلم به قواده ، قسسطها وتجارها على بلاد الشرق أمدادها بقوة مالية تلبت فى آخر الأمر على محاولات نابليون بأجمعها .

وفى هذا القرن خاضت إنجلترا غمار الحرب مرتين ، وكان المعتدى هو ألمانيا فى المراتين مع انضمام تركيا إليها فى المرة الأولى وإيطاليا فى المرة الثانية ، ومع ازدياد المصالح زيادة هائلة ، فقد أنشأت المهارة الفرنسية قناة السويس واحتلت بريطانيا مصر بعد بضع سنوات من شرائها لأسهم الخديوى فى القناة ، وأعادت بريطانيا (!) فتح السودان ، واكتشفت آبار الزيت فى العراق وجنوب إيران . ولو أن الشرق الأوسط خرج من يد الأمم المتحدة لما تمكنت من الانتصار على إيطاليا ثم ألمانيا ثم اليابان . لذلك كان من حسن الرأى ومن الجرأة السياسية المحموده أن أرسلت بريطانيا جيشها الوحيد المدرع إلى مصر إلى خريف سنة ١٩٤٠ فى وقت كانت فيه فى خطر الغزو من البحر . ومما يدل دلالة واضحة على أهمية الشرق الأوسط أن تيار الحرب إنما اتخذ وجهته الحاسمة بعد الانتصار البريطانى فى العدين . أجل ! إن هذه الموقعة لم تكن لتنجى الشرق الأوسط لو سقطت ستالينجراد ، إلا أن الانتصار فى ستالينجراد لم يكن لينجى روسيا لو لم تجعل الجيوش البريطانية من المستحيل الزحف الجنوبى على حقول البترول الروسية ، بأن كسرت شوكة هجوم المحور على مصر والقنال . ثم تكلم عن معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر وإخلاص الجانبين فى تنفيذها مما أدى إلى خروج مصر من الحرب سالمة وغنية وحررة . على أن مظاهر الحرب غيرت من وجه

الدول الكبرى التي تحتكر وسائل الحرب . ومما له مغزاه أن أكبر قوتين حرييتين مستقلتين بنفسيهما لا تظهران أى ميل للاعتماد على الضمانات الدولية . فروسيا ترفض فكرة السيطرة الدولية على الدانوب ، وتطالب فى إصرار بميناء فى شرق البحر المتوسط ، وبقاعدة حربية فى الدردنيل ، فى حين لا يخطر على بال الولايات المتحدة أن تجعل قناة بناما تحت مسئولية دولية .

وهو يرى أن القوة الجوية والقنبلة الذرية لم تغيرا من أهمية الدفاع المحلى لقناة السويس ، ويؤكد أن أمريكا وروسيا يشاطرانه هذا الرأى فيما يتعلق بالدفاع عن الطرق للمائية الهامة لديهما .

وهو يلوم الحكومة البريطانية على تملكها فى الجلاء عن القاهرة والاسكندرية بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ، وقال إن المعاهدات الدفاعية لاتمس حرية الأمم الصغيرة فان الأمم الكبيرة نفسها تحاول عقد مثل هذه للمعاهدات .

واختتم مقاله ذاكرأ أنه بقلبه مع الوطنيين المصريين ، وأن علاقات مصر مع جميع الأمم يجب أن تكون علاقة الأمة ذات السيادة فى أرضها . ويبدى أسفه على أن السياسة البريطانية لم تظهر ذلك فى وضوح . ومع ذلك يعزو إلى المتطرفين من المصريين عدم فهمهم لمراى بريطانيا .

القاهرة والاسكندرية ، وامتلات مصر بالجنود والمنشآت العسكرية ، وصارت بلداً محتلاً ، مع أن حكومتها قد ساعدت فى ظروف الحرب . ولقد أخذت الوطنية المصرية تنظر إلى هذه الحال بين التلق . ولقد مضت ثلاث سنوات على معركة العلمين ، وصارت الحرب بعيدة ومع ذلك ظلت صعوباتها قائمة . وكان من الواجب الجلاء عن القاهرة والاسكندرية فى أسرع فرصة بمجرد زوال الظروف المقتضية لبقاء الجنود فيها ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فهاجت خواطر المصريين .

وقال إن حكومة المحافظين غير مسئولة عن ذلك ، لأنه نبه الحكومة الحالية إلى هذا الأمر عند ما كان فى منصبه بمصر (فقد كان وزير دولة فى مصر واسمه سير ادوارد جريج قبل منحه لقب لورد) على أثر انتهاء الحرب اليابانية .

ومع ذلك فقد نقد الكاتب تصريح الحكومة البريطانية بالجلاء ، وقال إنه لايسر للمفاوضات بل يزيد لها صعوبة ، إذ يؤيد هذا التصريح الوهم القائل بأنه يمكن ضمان سلامة مصر بغير إقامة منشآت دائمة على القناة . وزعم أن مصر لا تحتل عبء الدفاع عن نفسها ، فان ذلك العبء يحل بتنظيماتها الاقتصادية والاجتماعية . وانتقد القول بأنه يمكن ضمان القناة وماجاورها بالضمانات الدولية ، فان الضمانات الدولية تتطلب تبادل الثقة بين

ظهير حريشا

نابليون لاميل لودفيج نقله عن الالمانية الاستاذ محمود ابراهيم الدسوقي - الجزء الاول
(دار الكاتب للمصرى)

والنسجام بديع ، أقبل الناس على كتبه كما يقبلون على قصة ، بل أقبل بعضهم عليها أكثر مما يقبلون على قصة ، فكثير من الناس لا يحلو لهم الخيال الصرف ، وهم في هذا الكتاب وأمثاله يجدون بغيته من خيال يستعمل لأحياء الحقيقة .

كان مما أتى به ليتون ستريتشى في كتابة السير دقة الملاحظة مع جمع الخلال الصغيرة البسيطة التي تلازم المرء في حياته ، كما جاء بروح الفكاهة العريضة والتسامح . أما موروا الفرنسي كما ترى في خير ما وضعه من سير ، كأرييل التي هي حياة شللى ، ودزرائيلي ، فقد جاء بتلك الأناقة التي يشترك فيها كبار الكتاب الفرنسيين ، مع توضيح الشخصية بسوق مثات الشواهد التي تقوت الملاحظ العادى .

وجاء إميل لودفيج ، الالمانى ، بشئ آخر ، لا أستطيع أن أقول إنك تجد فيه روح الفكاهة ، فليست الفكاهة من صفاته البارزة ، ولا أستطيع أن أقول إنه أتيق في كتابته واضح التحليل ، فليس ذلك من صفاته البارزة ، وإنما ميزة أسلوبه هي تلك القوة التأثيرية الناشئة فيما أظن — عن قلم اتجه نحو المسرح والدراما قبل أن يتجه نحو الادب القصصى وكتابة السير .

والواقع أن إميل لودفيج كان في مبدأ حياته لا يفكر إلا للمسرح ، ففي الثالثة والعشرين من عمره ألف دراما عن لورنزو دي مديسى ،

لأريب في أن كتابة سير العظماء قد اتخذت في القرن العشرين اتجاهها لم يعرف من قبل ، فقد كانت كتب السير ، لاسيما في القرن التاسع عشر ، عبارة عن أسفار مطولة مملة لا يكاد يكتفيها غير أصدقاء الأسرة التي نجم منها العظيم . وكان أكثر هذه الكتب يوضع باتفاق بين الأسرة والمؤلف ، وفي هذه الكتب يحاول المؤلف أن يبرز المحاسن إن وجدت ، أو يعزو لصاحب السيرة ما يستطيع من فضائل ، ويخفى من الرذائل ما وجد إلى ذلك سبيلا .

ولكن هذا النوع الجديد من الكتابة صعد فجأة إلى مصاف الآداب ، وأقبل عليه القراء حتى كان في وقت من الأوقات وما زال ، إلى حد ما ، أحب ألوان الادب إلى الجمهور . وكان الفضل في ذلك لثلاثة أسماء : ليتون ستريتشى الاديب الانجليزى ، وأندريه موروا الاديب الفرنسي ، وإميل لودفيج الاديب الالمانى ، ومنذ أخذ هؤلاء الثلاثة ينقطعون انقطاعاً تاماً ، أو إلى حد كبير ، لكتابة السير ، برزت أسماء عشرات من الأدباء الذين يعنون بهذا اللون من الادب عناية كبيرة ، ويجدون جمهوراً كبيراً من القراء في جميع أنحاء العالم .

لعل ليتون ستريتشى (١٨٨٠ — ١٩٣٢) كان أول هؤلاء الثلاثة ، فهو عند ما نشر كتابه «عظماء من عصر فيكتوريا» ورسم فيه صور أربعة من العظماء بطريقة جديدة حية ، واصفاً فضائلهم غير مغرق فيها ، ومشيراً إلى نقائصهم في غير قسوة وفي أسلوب فك

الذى نشره في سنة ١٩٢٢ ، وأضافه دار الكاتب المصرى إلى المكتبة العربية في هذه الأيام . فهو مجموعة صور متتابعة ومناظر رائعة تصور حياة ذلك البطل خير تصوير . وقد وجد المؤلف خير من ينقله إلى اللغة العربية ، فقد نقله الأستاذ محمود إبراهيم دسوقي وهو خير من ينقل عن الألمانية في أمانة ودقة ومحافظه على الأصل معنى ومبنى ، مع طلاوة أسلوبه ومحاولته الأمانة حتى في نقل الأسلوب . وقد أثبت دار الكاتب المصرى إلا أن يظهر هذا الكتاب في صورة بديعة ، فأخرجت الصور التى ازدانت بها الطبعة الألمانية خير إخراج ، كما أن غلاف الكتاب جاء آية في حسن الذوق . وهذه أمور يهملها الناقدون عادة ولكن من الواجب أن ينوهوا بها حتى يزداد الاهتمام بالاتقان الذى فى الكتاب العربى .

وإننا لندرجو ألا تتوانى الدار فى إخراج الجزء الثانى قريباً ، حتى يستطيع القارئ المتشوق أن يتابع قراءة هذا السفر بأكمله .

وفى الخامسة والعشرين فكر فى مسرحية ينظمها شعراً لنابليون ، ولم يتجه إلى كتابة السير إلا حين درس حياة بسمارك ليخرج مسرحية ، ثم بدا له أن هذه المسرحية لن تمثل على مسرح ألماني ما كان ولهم الثانى غريم بسمارك جالساً على العرش . وعلى ذلك وضع صورة قلمية عن بسمارك ونشرها فى سنة ١٩١١ . وفى نهاية الحرب العالمية الأولى كان لودفيج فى الثانية والثلاثين من عمره فقصده إلى منطقة البحيرات الايطالية حيث عاش فى تلك المناظر الساحرة ، وهو يضع مؤلفاً كبيراً عن حياة جيئى .

فأميل لودفيج إذن كان يميله الأول كاتباً مسرحياً ، ولذلك تجدد فى كتبه قوة فى اللفظ ومحاوله للتأثير ، كما تجدد فيه ميلاً إلى استعمال طرق المسرح . ويفقد أحياناً السيطرة المسرحية - كشأنه فى كتابه عن بهوفن - فيصبح الكتاب مجرد مجموعة من النوادر ، أما فى الكتب القوية ، فأنك تجد قوة تأثير بالغة ، كما فى كتابه عن جيئى ، وفى سفره عن نابليون

أسامة بن منقذ تأليف الأستاذ محمد أحمد حسين (مطبعة دار الكتب المصرية)

فلقد كان مولد هذا الأمير من آل منقذ الذى وضع هذا السفر ، قبل نحو ثلاثة أشهر من تلك الدعوة التى نشرها البابا إربان الثانى من أرض فرنسا ، حين انتقل إليها خاصة من روما ، لنشر دعوته إلى الحرب الصليبية فى مؤتمر كليرمون من أعمال أوفان ، ولقد ذهب من عاصمة عرشه الدينى مصحوباً بالكرادلة والأساقفة ، فى موكب كموكب منتصر ، وكان يحطّ بفضيحة واقتناع الرسل .

نجحت دعوة البنايا ، واجتمعت جيوش المتطوعين من أتقياء المسيحيين والأمراء ، وقامت هذه الجيوش إلى البلاد السورية حيث

عندما غر المستشرق الفرنسى درنبورج فى أثناء بحوثه وتنقيباته بمجموعة قصر الاسكوريال على النسخة الخطية الوحيدة لكتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، رأى أمامه صورة واضحة لحياة أمير من أمراء العصر الذى عرف نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي وغيرهما من سلاطين الاسلام ، وهم الذين وقفوا فى وجه الغزوات التى شنها الفرنج على البلاد الاسلامية ، وأرادوا بها استخلاص الأماكن المقدسة من يد المسلمين وأراد الأمراء منهم أن يحققوا مطامعهم ، وأن يقتطعوا لأنفسهم ملكاً فى البلاد الاسلامية .

لحياة الفرسان في عصره ، وهي لا تختلف في كثير عن صورة أمثالهم من فرسان الغرب ، فيها البطولة والشجاعة وجرأة الحياة وتقلبها ، وفيها الحديعة والديسة والندر ، فهي صورة تجمع بين قوة السيف وقوة القلم . فقد كان أسامة محارباً قوياً ، وكان كذلك أدبياً له شعر وله رسائل ، بل كان أدبياً متفوقاً على كثيرين من أدباء عصره ، ويكفي أن تقارن نثره في كتاب الاعتبار بنثر العباد الأصفهاني مؤرخ صلاح الدين في كتابه عن حياة هذا العاهل الإسلامي ، لتعرف قيمة أسامة في نثره السهل وحكايته الطلية على غير ما هو مألوف في زمنه من استعمال السجع والمحسنات البديعية التي تكاد تنحفي معالم المعنى .

على أننا قبل أن نحاول قراءة أسامة الذي عني به الأوربيون عناية كبيرة يجب أن نعرف تاريخه وتاريخ زمنه ، ومن محاسن المصادقات أن وضع لنا الأستاذ محمد أحمد حسين كتاباً عن أسامة ، وهو كتاب غزير المادة دقيق في تحقيقاته ، وهو يصف لنا حياة أسامة بن منقذ وما كان في زمنه من أحداث خير وصف . ويزودنا بكل المراجع التي يمكن أن يحتاج إليها الباحث في هذا الباب . وهو كتاب يدل على نهضة حقيقية في فن كتابة التاريخ قام بها مؤلف جدير بهذا العمل بفضل دراساته وثقافته .

استطاعت أن تستولي على الأماكن المقدسة وأنشأ بعض الأمراء المسيحيين لهم ملكاً . في هذا العصر المضطرب نشأ وعاش أسامة ابن منقذ سليل بيت كانت له الإمارة على بلدة محصنة اسمها شيزر قريبة من مدينة حلب المعروفة ، وكانت إمارة مستقلة بين الإمارات الإسلامية العديدة ، التي وجدت في تلك الجهات من سوريا ، وكانت هذه الإمارات لا تفتأ تتطاحن فيما بينها ، وبذلك وجد الأعداء من الفرنج سيلاً إلى الدخول . ولا ريب في أن صغر هذه الإمارات وضعفها ، مع حب الأثرة التي تملأ نفوس زعمائها جعلتها تسلك سياسة أقل ما يقال فيها ، إنها معوجة ، وإنها أحياناً تستحل الغدر والحديعة .

غير أن أسامة لم يتول إمارة شيزر فقد تولى الإمارة بعد أبيه عمه ، وتوجس منه خيفة ، فاضطر إلى ترك وطنه ، وربما كان ذلك من محاسن المصادقات ، إذ بعد وفاة عمه تولى ابن عمه الإمارة ، وحدث في عهده زلزال مخيف هدم فيما هدم من مدن سوريا حصن شيزر وقضى على جميع آل منقذ وقد كانوا مجتمعين في ولية ، ولم ينج منهم إلا من كان خارج البلاد ومنهم أسامة .

حاش أسامة عيشة فارس من فرسان البلاد الإسلامية ، ورسم في كتابه صورة حية

إسماعيل وهو مجموعة وثائق نشرها باللغة الفرنسية الأستاذ جورج جندي بك والأستاذ جاك تاجر (مطبعة المعهد الفرنسي)

أمين المكتبة الملكية الخاصة بالتصير الملكي ، فإن نشر مثل هذه الوثائق الرسمية مما يساعد الباحث في تاريخ تلك الحقبة على تعرف الحقيقة في عصر زاه يعد من أهم عصور تاريخ مصر الحديث ، ولا ريب في أن مصر إذا كانت قد عرفت معنى الاستقلال في عهد مؤسس الدولة العلوية

من أئمن المجموعات التاريخية القيمة التي ظهرت في عالم الطباعة الفرنسية بمصر تلك المجموعة من الوثائق الرسمية عن المنفور له الحديوي إسماعيل ، وهي التي قام على نشرها كل من العالمين الفاضلين جورج جندي بك ورئيس المحفوظات التاريخية وجاك تاجر بك

بعد أن فقدته فترة طويلة ، فإن نهضتها الحقيقية ، ومجاراتها لتيار الحياة المدنية ، ودخولها معترك هذه الحياة على قدم المساواة مع الدول الأوربية ، واتجاهاتها إلى المدنية الحديثة ، كل ذلك قد تم في عهد المنفور له الخديوى إسماعيل .

وهذه الوثائق تطلعتنا على جوانب العظمة في كثير من تصرفات هذا العاهل . وإنا نرجو أن يصدر المؤلفان الطبعة العربية منها قريباً فيكون فضلها على الباحثين في تاريخ هذه الفترة مضاعفاً .

ألفريد دى موزيه بقلم الأستاذ صلاح الدين الشريف (مطبعة المقتطف والمقطم)

هذا الكتاب من لواحق المقتطف الشهيرة وأخشى أن يكون الحصول عليه صعب المنال . ولكنى رأيت فيه من أناقة الأسلوب وحسن السرد ما أحبت معه أن أنوه بمؤلفه الفاضل ، وأرجو أن أرى له في المستقبل القريب من الكتب الأدبية أو القصص ما يضيف به جديداً إلى المكتبة العربية . فإن هذه اللواحق بطبيعة الحال محدودة الحجم لا تتسع للافاضة في البحث .

حسن محمود

التعليم في رأى القابسى للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة)

نواة هذا الكتاب رسالة مخطوطة في التربية وضعها الحافظ المحدث أبو الحسن على ابن محمد بن خلف القابسى في القرن الرابع للهجرة ، وعنوانها على ما يرجحه الدكتور الأهوانى : «الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» .

وهي مخطوطة فريدة ليس منها إلا نسخة واحدة في المكتبة الأهلية بباريس ، كتبها ناسخها في أوائل القرن الثامن للهجرة .

والقابسى فقيه محدث مكفوف البصر مغربى النسب والدار ، توفى في أوائل القرن الخامس للهجرة ، وله مؤلفات عدة من بينها هذه المخطوطة التى وقع عليها الدكتور الأهوانى فجعلها نواة بحثه هذا الممتع الذى حصل به على الدكتوراه من جامعة فؤاد الأول ، ثم جعله بين دفتى هذا الكتاب .

وعنوان الكتاب لا يدل على كل ما اشتمل

عليه ، فما كان أجدره لو أراد المطابقة بين الاسم ومسماه أن يجعل عنوانه « التربية عند العرب على توالى المصور » . بل لعل هذا العنوان لا يدل كذلك على الكتاب دلالة الوصف على موصوفه ؛ فقد كانت نظرة المؤلف في موضوعه شاملة محيطه تتجاوز الأبعاد والمسافات وتتناول الموضوع من أقصى مراميه ، فلم يقتصر في بحثه على عرض رأى القابسى في التعليم ونقده والموازنة بينه وبين آراء غيره من أهل النظر في هذا الفن ، بل جعل هذا البحث نواة لحديث ضافى الذبول واسع المدى يتناول فنون التربية من قريب ومن بعيد ، في أسلوب مرسل وعرض منطوق سليم .

وكانت القاعدة الأساسية التى انبنى عليها البحث بكل ما تناوله من الأصول والقواعد ، هى « أن تفسير حالة التعليم في عصر من

هؤلاء ذات أثر كذلك في تلوين آرائهم . وقد قسم المؤلف كتابه فصولاً ؛ فكان الفصل الأول عن حياة القابسي ، والثاني عن يثته وطريقته في التأليف ، والفصول التالية بعد هذين عن تاريخ التعليم ووسائله وأهدافه ومظاهره واختلاف أحواله عند المسلمين على اختلاف العصور ، ثم كان الفصل العاشر إجمالاً لآراء المسلمين في التربية والتعليم . وجاءت الخاتمة بعد ذلك تقرر القاعدة التي بنى عليها المؤلف بحثه ؛ فإذا انتهى مما أراد جعل رسالة القابسي ذيلاً لكتابه ، فنشرها مصححة مضبوطة مبنية على ما وسعه الجهد . فهما إذن كتابان لا كتاب واحد ، فمن شاء فليتمس النفع حيث أراد : من كلام الأهواني في صدر الكتاب ، أو من رسالة القابسي في ذيله ، فسيجد هنا وهناك شيئاً يستحق أن يفرغ له وقتاً يطول أو يقصر ، ينشأ سبب اللذة والمنفعة جميعاً :

العصور يقتضي النظر إلى آراء المربين وصلة آرائهم بالمذاهب العقلية التي يعتنقونها ، ويقتضي النظر إلى حالة المجتمع الذي تفرع عنه التعليم كظهور من مظاهر الحياة العقلية .

على هذه القاعدة راح المؤلف يفصل آراء القابسي في التعليم ، ويحاول تحليل أسباب الخلاف بينها وبين آراء غيره من أهل النظر في هذا الفن ، فيربط بين رأي كل منهم ومذهبه ، وبينه وبين الحياة الاجتماعية في عصره . وفي سبيل تأييد هذه الفكرة أورد ما أورد من آراء الفزالي وابن سينا وابن خلدون وإخوان الصفا وغيرهم من ذوي المذاهب الفلسفية أو النزعات الصوفية أو السلفيين أو أهل الفكر الحر ، وأوضح في جلاء كيف كان اختلاف مذاهبهم العقلية ذا أثر واضح في اختلاف رأيهم في التعليم ، وكيف كانت الحياة الاجتماعية في عصر كل من

الرءوس بقلم مارون عبود (منشورات دار المكشوف — بيروت)

فهو يسميه « الرءوس » ، والرءوس هي تلك الكرات القائمة على أعناقها بين أكتاف الناس وكواهل الحيوان ، ولكن لهذا اللفظ مع ذلك معاني جمة في أذهان قرائه ، وإنما يريد المؤلف معنى واحداً من تلك المعاني ، فهو إنما يريد أن يتحدث عن « رؤساء » الأدب في العربية منذ كانت العربية ، أو بعبارة أخرى : يريد أن يتحدث عن زعماء الشعر في العربية على اختلاف العصور . فذلك هو موضوع الكتاب كما يبدو لي ، وقد اختار أن يكون عنوانه « الرءوس » وليس بين كلمتي الرءوس والرؤساء كبير فرق في المعنى ولا في الاشتقاق اللغوي ؛ فهو عنوان صادق الدلالة على موضوعه ، ولكنه عنوان « خطابي » كذلك !

قلت لنفسي حين مضيت في قراءة الفصول الأولى من هذا الكتاب : هذا كتاب يستحق أن يقرأه كل أديب في العربية ؛ إنه كتاب جديد . . . جديد جداً . . . إنه « فن » لم يسبق إليه سابق — أعرفه — في العربية ! . . . ومضيت في قراءته ؛ إنني لا أريد أن يفوتني هذا « الجديد » .

هذا كاتب من كتاب العربية يعالج « علم الأدب » في أسلوب من أساليب « الفن » ، وللعلم أسلوب غير أسلوب الفن ؛ فلهذا أراد أن يقتحم على غير « أهل التخصص » فيحملهم بلطف حيلته على الدخول من الباب حين يسوق إليهم « العلم » في هذا الأسلوب « الخطابي » الرشيق .

وكان عنوان الكتاب فناً من فن الكاتب ،

بلغ المتنبي سماه «الرأس الضخم» . وهنا ترقب ما يقول الأستاذ ما روى عن عبود عن المتنبي ، ذلك الرأس الضخم الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، ولكنه لا يتحدث إليك عن المتنبي ، وإنما يتحدث عن طه حسين .

ويعنى في الحديث عن طه حسين وقد خيل إليه أنه يتحدث عن المتنبي ، حتى يستغرق من الكتاب ما يقرب من مائة صفحة في مناقشة كتاب طه حسين «مع المتنبي» . وحسبه حديثاً عن المتنبي أن يستغرق هذا القدر من صفحات الكتاب في مناقشة كتاب ألفه طه حسين عن المتنبي . ماذا قال ؟ لا أدري ! ليس هذا شأنى

ولكنه شأن الناقد ؟

وكأنما كان انقطاعه عن موضوع الكتاب في هذه الصفحات التي تقرب من المائة سبباً إلى عدوله عن النهج الذى التزمه في الفصول الأولى من الكتاب ؛ فلما هم أن يرجع نسي موضوعه وعدل عن طريقته ، فجاء حديثه بعد ذلك عن الشريف الرضى على أسلوبه في الحديث عن المتنبي ؛ فلم يكتب عن الشريف وإنما كتب عن زكى مبارك والدكتور محفوظ ؛ ينقد كتابيهما عن الشريف الرضى ويفرقهما بفنه اللاذع .

ثم تأتى بعد ذلك فصول قصيرة عن بعض الرؤوس الصغيرة ، فيتحدث عن البهاء زهير وابن نباتة وابن الفارض ، ويختم الرؤوس بالحديث عن أحمد شوقي ، وفصل أخير عن الشعر بين الناقد والمعلم .

هذا هو الكتاب . وما أرانى قد وصفته كما هو في نفسه ، وكما وقعت صورته في نفسى ؛ وما يطيب لى أن أفرض على القراء صورة لعلها في مرآتهم غير ما هى في مرآتى ؛ فليست أنصحهم إلا بأن يقرأوا ذلك الكتاب ، فإن فيه فناً جديداً . . .

وليس من شأنى في هذا الباب أن أنقد ، وإلا لوجدت مجال القول ذا سعة ، وإنما كل قصدى هو التعريف والبيان والعرض ؛ فليس من شأنى إذن أن أتبع آراء المؤلف فأزعم أنه أصاب الرأى فى كذا وكذا واخطأه فى كذا وكذا ، وإنما لى شأن آخر ، ولكن ذلك لا يمنعنى — على كل حال — أن أصرح عن إعجابى بالكاتب وكتابته ، فإن فى طبيعيتى العنف والثورة ، وفى هذا الكتاب عنف ومثورة ، وحسبه هذا إحساناً يستر ما وراءه . والآن ما هى هذه الرؤوس ، أو من هم أولئك الرؤساء فى الشعر العربى ؟

هذه فصول متتابعة ، يتحدث فيها المؤلف عن الأوائل فى الجاهلية ، فيأخذ فى نوع من الحديث عن امرئ القيس ، وطرفة ، وزهير ، وعنترة ، وغيرهم من الأوائل ، فى أسلوب طريف ورأى . . .

ثم يعنى فى الحديث عن الشعر بعد الاسلام ، ويقض فيما يصف من شعر عمر بن أبى ربيعة «أبى جوفان» أو دون جوفان العربى كما يريد أن يصفه ، وشعر جرير ، فيسمى العصر الأموى بهذين الشاعرين : عصر الهجاء ، وعصر الغزل . ولعله فيما كتب من هذا الباب لم يأت بمجديد فى الرأى ، ولكن له أسلوباً وفناً جديدين ، وعلى مائدته كثير من التوابل ! ثم يتحدث عن عصر الترف أيام العباسيين ، ويتعقب أبا نواس شاعر الحمرة ، أو شاعر الخلالة ، ثم يعنى فى آثار بشار بن برد ، زعيم الخلاء ، فيصف من خبره ، ومن شعره ، ويصور نفسيته تصويراً بارعاً وشيقاً ، كأن قد رأيت وجلست إليه وعاشته وكشفت عن مكنون صدره . فإذا فرغ من بشار يتحدث إليك عن الماصرين الأربعة : أبى تمام ، ودعبل ، وابن الرومى ، والبحتري ؛ فإذا

في مجلات الشرق

دقيقة واحدة ١

ونذم ؛ ولو تمهلنا دقيقة واحدة لتغير الأمر في كثير من هذه ، ولكننا أقرب إلى الصواب وإلى . . . السعادة .

« تمهل دقيقة واحدة قبل أن تحكم على هذا المغرور الذي « يقرئك » ، وذاك السافل الذي تلعه ، وهذا الطيب الذي تمدحه ، وذلك الشخص الذي تدمه ، فقد تنقلب معك الآية تماماً . . . »
« تمهل دقيقة واحدة قبل ؛ لقد جربت أنا ذلك فربحت . . . فجرّبها أنت ! . . . »

من مقال طريف للدكتور صبحي أبو غنيم في العدد ١١٨ من مجلة « الصياد » لبنان :

« جرب دوما قبل ان تعطى رأيا ، أو حكما ، أن تمهل دقيقة ، دقيقة واحدة ، قبل الحكم ، في المرض ، في الأدب ، في السياسة في كل شيء ، وثق أنك لن تندم . »
« أنت وأنا وذاك نمر في حياتنا بمئات من المشاكل كل يوم ، في الصنعة ، والناس ، والحياة ، « فنقرف » ، ونلعن ، ونمدح ،

الحياة معرض

ماديات « يأنس الأفراد ويأنس الجمهور منها فائدة لمصالحهم . ووسيلة النجاح في هذا الشأن أن تكون « صيرفيا » لبقا في عرض مالا يدك من علم أو فن ممتاز في « معرض الحياة العام » . . . »

« وإجادة العرض وحسن الاعلان يقومان على دعائم مركزية من إقناع الأفراد وإقناع الجماهير بأن معروضاتك قيمة تحوي الشيء الكثير من رفق مصالحهم الخاصة والعامة ، وبقدر ماتوفق في هذا الاقناع تكون المتفوق الناجح في الحياة ! »

وفي عدد أبريل من مجلة « المنهل » التي تصدر في مكة المكرمة — بقلم عبد القدوس الأنصاري :

« ليس الأمر الذي ينجحك اليوم في الحياة الاجتماعية الحاضرة ، أن تكون ذا ثراء عريض من العلم ، أو ذا ثراء موفور من الأدب ، أو من أي شيء آخر ذي قيمة معنوية في الحياة ، فالعصر اليوم كما ترى « عصر المادة » فهي تسيطر على كل شيء . والذي ينجحك إذن في هذا الجو المادي أن تستطيع « إحالة جوهرياتك » إلى « طاقة

رسالة الأمة العربية

يقول في جزء منه :
« تتفاوت الأمم في عظمتها بتفاوت اهدافها ؛ فبعض الأمم تعمل لهدف مادي

وفي عدد يونية من مجلة « الأدب » — لبنان مقال للأستاذ أبي مدين الشافعي بعنوان « العناصر النفسية في القومية العربية »

في مجلات الشرق

مضطرة إلى خدمة الأفراد والتضحية بحق الجماعة لارضاء شهوات الفرد ، ويحد الايمان من الغضب الذي يدفع إلى الانتقام العنيف واستعمال القوة لاسكات الحق ، كما أن الايمان يحد من الغطرسة الناشئة عن غرور النصر ونشوته . . .

« إن الخطر الذي أحرق العالم يشتد ويهدد الباقي من الانسانية بالفناء . والآن نرى أنفسنا وسط المعمة ، ومن الواجب أن نقوم برسالتنا إلى العالم ، وصوت البعث العربي يعبر عن هذا الاتجاه ، إذ يقول : إن الأمة العربية التي أظهرت في الماضي شخصية قوية فذة وحملت رسالة كان لها أعظم الأثر في تقدم الانسانية ، لا يزال الآن في قدرتها ومن واجبها أن تؤدي رسالتها الضرورية بين مجموعة الأمم . . . »

خاص بها ، وبعضها الآخر يعمل لمهدف معنوى خاص به ، وأمم أخرى تحملت رسالة شاقة ، وجعلت رسالتها روحية تقوم على خدمة الانسان . . . وكانت رسالة الأمة العربية في أن ترمي الحضارات في العالم وتكمل نقصها وتؤديها بكل إخلاص مهما تحملت في سبيل ذلك من تضحية . . .

« إن حروب العرب كانت دائماً تنتهي إلى نتائج تضمن للانسان حريته وتضمن له الطمأنينة ، فلا يخاف على ماله وعرضه ، ويقاتل الرجل في سبيل فكرة سامية لا في سبيل أغراض مادية وتوسيع الحدود الحيوية والحصول على أرض غنية . ويقوم الايمان بدور كبير في تنظيم الحياة الفردية والاجتماعية ويجعل الشخص يقف عند حد في لذاته ، فلا يتدفع الاندفاع الخفيف الذي يجعل الحكومات

هذا دمي !

وفي العدد ١٩ من مجلة « الرابطة » البغدادية ، للشاعر احمد الصافي النجفي :

وغدت تمص دماي مص ظمي
كفي عليها ، فعل منتقم !
فلا ، وأطفأ لوعة الضرم
يجري بجسمك ، فانتظر نقي !
أسفك دماءك ، بل سفكت دمي !

أبعوضة حطت على قدمي
أمهلتها حتى ارتوت ، فهوت
كل شئ من وجد صاحبه
أغنى ، إنك كالبعوض : دمي
واعذر إذا عذر البعوض ، فلم

سيادة اللغة !

وكثير من رجالهم المستشرقين ، سياسيين وغير سياسيين ، يدرسون لغتنا ، لا تكريماً لها ولا تقديراً أيضاً ، وإنما لأنها لغة القوم « السودين » ما في هذا شك ، وإلا فلماذا لا ندرس غير الانجليزية ؟ ولماذا يدرس الانجليزي غير العربية : الفارسية والهندية والصينية وغيرها من لغات الأمم التي للانجليز

ومن مقال عنوانه « مبلغ حاجة اللغة العربية إلى الإصلاح » بقلم هادي محي الحفاجي في العدد ١٧ من مجلة « الفري » التي تصدر في النجف — العراق :

« نحن اليوم وكثير من الأمم أمثالنا ندرس اللغة الانجليزية ، لا تكريماً ولا تقديراً لها ، وإنما لأنها لغة « السادة »

في مجالات الشرق

إليه غيره . وإنما سادت اللغة العربية والأدب العربي وقتاً ما بسيادة أهلها وقوتهم وسلطانهم ، شأنها في هذا شأن الانجليزية اليوم والفرنسية قبل الحرب ، وإلا فلماذا لم تسد اللغة العربية في الجاهلية ؟ ولماذا لم تسد في القرون المظلمة ؟ ولماذا لا تسود اليوم ؟

مصالح في بلادها ؟ أتقديراً وتكريماً لكل هذه اللغات ، أم لنهايات أخرى غير التكريم والتقدير ؟

أما كون اللغة العربية « سيدة اللغات » والأدب العربي « سيد الآداب » فهذا ما لم يكن ولن يكون مطلقاً ، فكل لغة ميزة ليست للآخرى ، ولكل أدب فضل يقتصر

كن معلماً

وهو أفضلهما ؛ وثانيهما في الأعمال ، وهو أخسهما . إن الذين يعظون الناس ويرشدونهم في كل فرع من فروع الحياة الأدبية والمادية ولا يعملون بشيء مما يقولون ، لا يقعون تحت حصر

« أتقول إنه ليس لك إلا خلق واحد ، وإنك تعمل كل ما في وسعك في سبيل تنفيذ المبادئ السيامة التي تدب بها مهما كلفك ذلك ؟ حسن جداً . إنك قدوة صالحة تستحق الاقتداء والاتباع ، ولكنك لم تفعل حتى الآن سوى نصف واجبك ؛ لأنه لا يجب فقط أن تسلك السبيل السوي ، وإنما يجب أن تحمل الآخرين على سلوكه أيضاً ، وأن تقدم لهم كل معونة ممكنة على بلوغ هذا الغرض ! »

ومن مقال بعنوان « الأزمة الخلقية » في عدد مايو من مجلة « المعلم الجديد » — بغداد ، بقلم الدكتور محمد مهدي البصير :

« إنك تشكو من الشكوى من أخلاق هذا اليوم ، وتنكر على الناس ظمأهم إلى اللذة ، وتكالهم على المادة ، وبعدهم عن الأمانة ، وتهالكهم في سبيل المصلحة الخاصة ، وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل .

« إنني أوافقك على هذا موافقة تامة . فلنبحث عن السبب الذي نشأت عنه هذه الأزمة فإنها لم تنشب فجأة ومن غير سبب . إنه من المفيد أن نقرر أن المجتمع الحاضر يعيش على خلقين مختلفين ، ويجري في حياته على مبدئين متناقضين ، يصطنع أحدهما في الأقوال ،

أدب المغرب

« النوع الأول هو نوع الطبقة التي تكتب بالشكلية الأندلسية بحيث لا تبدل ولا تغير ، ويمكننا أن نجعل زعيم هذه الطبقة الأديب الكبير السيد محمد بن المفضل غريط ، ذلكم المغربي الأندلسي الموهوب صاحب كتاب فواصل الجمان في أدباء ووزراء الزمان ، وصاحب القصائد التي تتخذ شكلية النسيب والتعزُّل على تلك الطريقة ، ومثني »

أصدرت مجلة « الثريا » التي تصدر في تونس عدداً ممتازاً في شهر مارس الماضي للتعريف ببلاد المغرب ، لمناسبة زيارة محررها السيد نور الدين بن محمود لتلك البلاد . وفيما يلي كلمة من مقال في ذلك العدد عن « أدبنا المغربي كما أراه » بقلم الأديب المغربي السيد عبد الكبير الككتاني :

« أدبنا اليوم ينحصر في أنواع ثلاثة :

في مجالات الشرق

الأسلوب الصحفي الجديد ، وقد ظهر استعداد من سائر شبابنا للسير على طريقته ، وهو في قالب أحواله يحاول تقليد كبار الكتاب المصريين ، خصوصاً الكتاب الذين ظهروا على مسرح مجلة « الرسالة » التي تتمتع بمقعد ممتاز عند شباب المغرب . . .

« على أننا لم نصل حتى الآن إلى تكوين اتجاه موحد لأدبنا الجديد ، ذلك لأن الثقافة في المغرب كانت ، وربما لا تزال ، مقصورة على فئة مخصوصة ، ثم لانعدام أساليب النشر التي هي أكبر عامل على إيجاد الكاتب الجيد ، إذ لا يوجد كاتب أو شاعر خلقت معه عبقريته وإنما البيئة والعوامل والمشجعات هي التي توجد الكاتب والشاعر ! »

المقامات على طريقة الحريري وبديع الزمان الهمداني .

« أما النوع الثاني فهو ليس بالاندلسي الخصب ولا فيه من العناصر ما يجعله مغريباً محضاً ، وليس هو بالأسلوب الجديد ، بل يعتمد على غمامة اللفظ وسمو المعنى وسبك الموضوع ، وأستطيع أن أجعل زعيم هذه الفئة في النثر العلامة الجليل مولاي احمد النميشي ، وهو مؤلف كتاب الشعر والشعراء من عهد الحكم الادريسي السعيد إلى الآن ، ومؤلف كتاب ظريف فيمن قال كلمة فعرف بها — وأجمل زعيمها في الشعر الشاعر المفلق الأستاذ الجزولي الرباطي . . .

« ثم هناك النوع الثالث ، وهو ذلك

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTÉRATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ÉCRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

GUSTAVE FLAUBERT
LETTRES INÉDITES OU AUTHENTIQUES A DU CAMP

JULES SUPERVIELLE
ÉLÉMENTS D'UNE POÉTIQUE

ALBERT CAMUS
LA PESTE BROUILLE LES CARTES

EDITH BOISSONAS
POÈMES

HENRI CALET
LE DIEU DES FLANDRES

JEAN GRENIER
LA POÉSIE DE L'ESPACE

NICOS ENGONOPOULOS
BOLIVAR
(traduit et présenté par Robert Levesque)

GEORGES SCHEHADE
MONSIEUR BOB'LE

N. BALADI, ETIEMBLE, E. FORTI, M.G.,
G. HENEIN, KARAM, H. EL KAYEM, E. SIMON.

EXPOSITION SALINAS,
REVUE DES LIVRES, NOTULES, LES REVUES,
BULLETIN.

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTÉRATURE ET D'HISTOIRE

SOMMAIRE DU NUMERO DE JUIN

- RAYMOND SAVIOZ Un maître et un disciple au XVIII^e siècle.
JACQUES KAISER De la « Liberté capitaliste » au « Contrôle collectiviste ».
RENE SUDRE Le Jubilé scientifique du Professeur Vincent.
BERNARD GUYON Réflexions sur l'art de Péguy (suite).
JACQUES DOMBASLE Les Ecrivains français et l'Allemagne.
ROBERT KEMP La Querelle d'Amphitryon.
JEAN-LOUIS DESTOUCHES . Magnétisme terrestre et relativité.

CHRONIQUE DES LIVRES

Jean DUPERTUIS

تباع كتب
دار الكاتب المصري
في المكتبات الشهيرة

وإن أردتم أن تصلكم كتبنا
رأساً بالبريد فارسلوا إلى الدار ثمن
ما تختارون منها مع إضافة أجرة
البريد المحددة .

أثمت دار الكاتب المصرية طبع
كتاب أنساب الخيل لابن الكلبي
وهو معروض للبيع يومياً وثمان
النسخة للجمهور ٢٥٠ ملياً ولباعة
الكتب ٢٠٠ ملياً ولمن يشتري
عشر نسخ فأكثر .

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

إدارة الطاب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصري »

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها

مجلة الكاتب المصري تعني بكل ما يرد إليها من المقالات
والرسائل ولكنها لا تلتزم بنشرها ولا ردها

التمن بمصر: ١٠ قروش



في أرجاء العالم العربي

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

٣٧٣	الأدب بين الاتصال والافتصال ...	طه حسين
٣٨٩	حق الاعتراض في هيئة الأمم المتحدة	محمود عزى
٣٩٥	جرائم الحرب ومحاكمات نورنبرج	محمد عبد الله عنان ...
٤٠٢	اهتماماتى الأدبية في لندن	سلامة موسى
٤١٢	عودة الربيع (قصيدة)	عبد الرحمن صدق ...
٤١٣	الخطط الكبرى في الحرب العالمية الأخيرة	سليمان حزين
٤٢٨	الشخص الثالث (قصة)	حسين فرج زين الدين
٤٣٤	أحزان المساء (قصيدة)	إبراهيم محمد نجا
٤٤٠	محادثة بين الأسد البريطانى والدب الروسى	محمد رفعت
٤٤٧	عودة إلى مكياقللى وأميره	حسن محمود
٤٥٤	طريق الهجرتين والعقد الالهى	أحمد فؤاد الأهوانى
٤٦٠	المرأة والجر عند الأعشى	على إبراهيم الأقطش
٤٦٨	تصدع مبدأ سيادة الدولة	سامى عازر جبران ...
٤٧٤	في الصيف (قصة)	أحمد كامل
٤٨٣	تولستوى	سليم سعده
٤٩٩	الريف في مصر (قصيدة)	أحمد محفوظ
٥٠٢	العناصر الثلاثة للقومية المصرية	رياض شمس
٥٠٩	إبراهيم بن المهدي : حياته السياسية ...	منير الحسامى

من هنا وهناك (مؤنس طه حسين ، محمد يوسف موسى)
شهرية الاجتماع — شهرية السياسة الدولية — شهرية السينما
من كتب الشرق والغرب — من وراء البحار — ظهر حديثاً
في مجلات الشرق



تصدرها دار الكاتب المصري
شركة مساهمة مصرية
القاهرة



الآلة الأوتوماتيكية الحاسبة الطابعة

رمنجتون راند

إن الآلة الأوتوماتيكية الحاسبة الطابعة ، كما حققها مصانع رمنجتون راند ، من أعجب ما اخترعه العقل البشري من آلات المكاتب — فهي آلة حاسبة **تطبع** النتيجة لكل نوع من المسائل الحسابية . وهي بمقدرتها على القسمة ، والضرب ، والجمع ، والطرح — **والطبع** — تحل مكان آلة الجمع العادية التي لا تؤدي العملية الحسابية ، وتحل مكان الآلة الحاسبة العادية التي لا تؤدي عملية الطبع

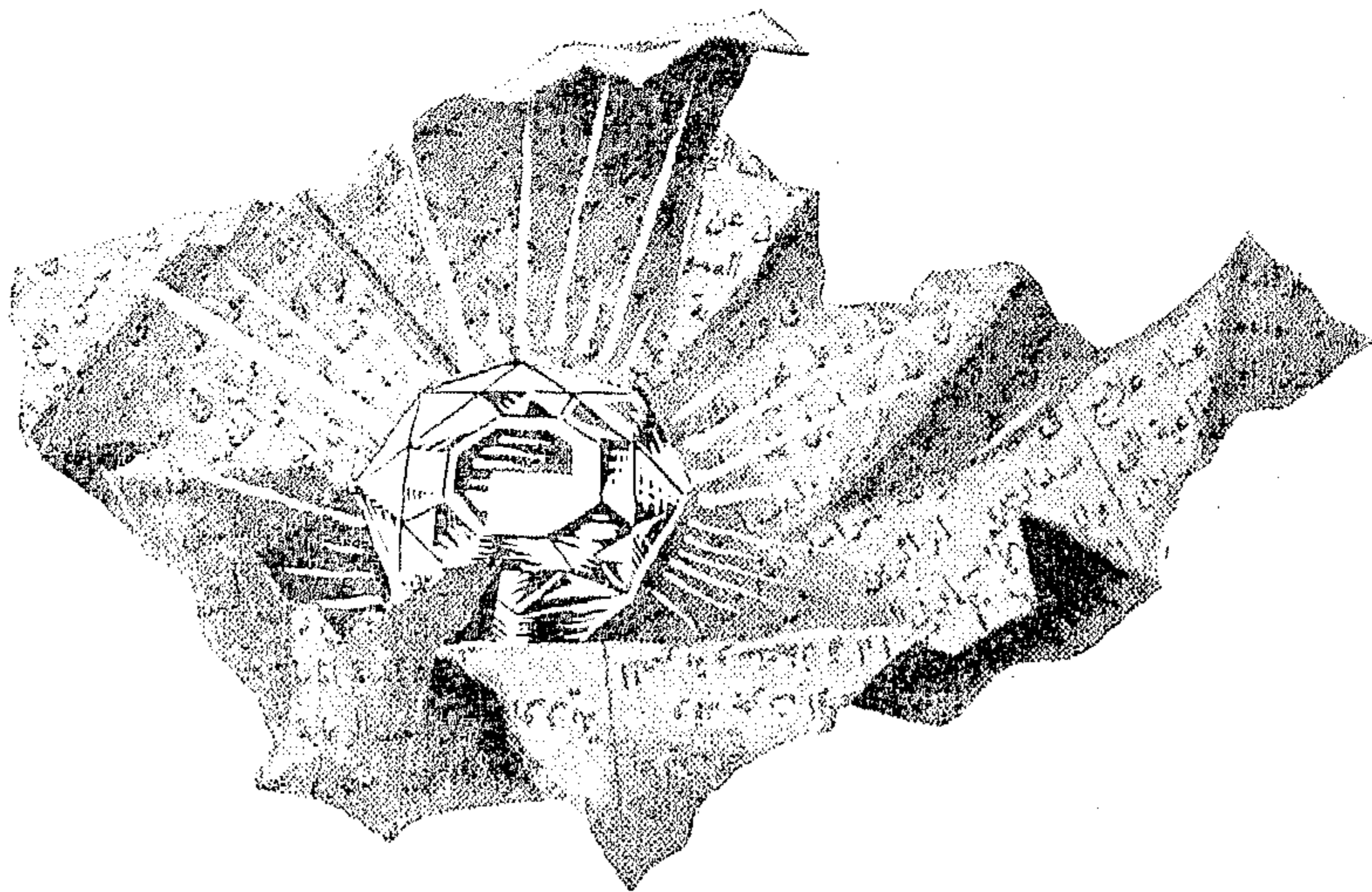
إنتاج مصانع
الآلة الكاتبة
رمنجتون
راند



لكافة الاستعلامات اطلبوا الصور الأيضاحي
من الوكلاء الموزعين الوصديين :

الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية قسم آلات واثاث وادوات المكاتب
الافتاهرة الاسكندرية بورسعيد
المركز الرئيسي بالفتاهرة : شارع قنطرة التركة

الجواهر لا توضع في المهرل من الأوراق ..



بَلْ تَوْضَعُ فِي

عَلَبٍ جَمِيلَةٍ انِيْمَةٍ

... كذلك الكتب التي تحتوى كنوزاً
أثمن من الجواهر ، يجب أن تظهر في ثوب
بديع من حسن الطباعة وأناقة المظهر .
وهذا ما تعمل له دار الكاتب المصرى ،
فهي تختار أجمل الثياب لأقيم الكتب .



دار الكاتب المصرى ، قسم النشر بإشراف الدكتور طه حسين بك

مَدِينَةُ جُوسْتِنْيَانِ

قِيَامُ الْفَقْهِ الرَّومَانِيِّ

INSTITUTES DE JUSTINIEN

يتبعها

نظام للموارث وضعه جوستنيان

ويليها

بعض قواعد وتقريرات فقهية رومانية

وبعض تقديرات أخلاقية

نقله إلى اللغة العربية

عبد العزيز فهمي

رئيس محكمة النقض والابرار سابقاً

يظهر قريباً



Une traduction de mes
livres en votre langue...
à quels lecteurs pourra-
elle s'adresser ?

André Gide

ترجمت كتبى الى لغتكم ؟ .. الى اى قارئ
يمكنه ان تراه ؟ رأى الرغبات يمكنه ان يتلى ؟
ذلك ان واحدة من القضايا الجوهرية فى العالم
المسلم نيامها الى ، انه وهو الانسانى الروح يحمل
من الاضوية اكثر مما يشير من سلطان . انظر انا ؟

انزيم حيدر

اجهدوا للدخول من
الباب الضيق
(انجيل : لوقا : ١٣-٢٤)

انزيم حيدر

الباب الضيق

تقديم
نزيه الحكيم

مقدمة لانزيم حيدر وطه حسين

لم تحط انت ، وانما
دفعك الى الخطأ . لقد خالطت
كثيراً من المسلمين ، ولكنك لم تحالط
الاسلام ... فلو قد تعمقوا
الدين تعمقاً دقيقاً لأظهروك
على ما يشير القرآن من ما
يمرض لها من هباب .

طه حسين

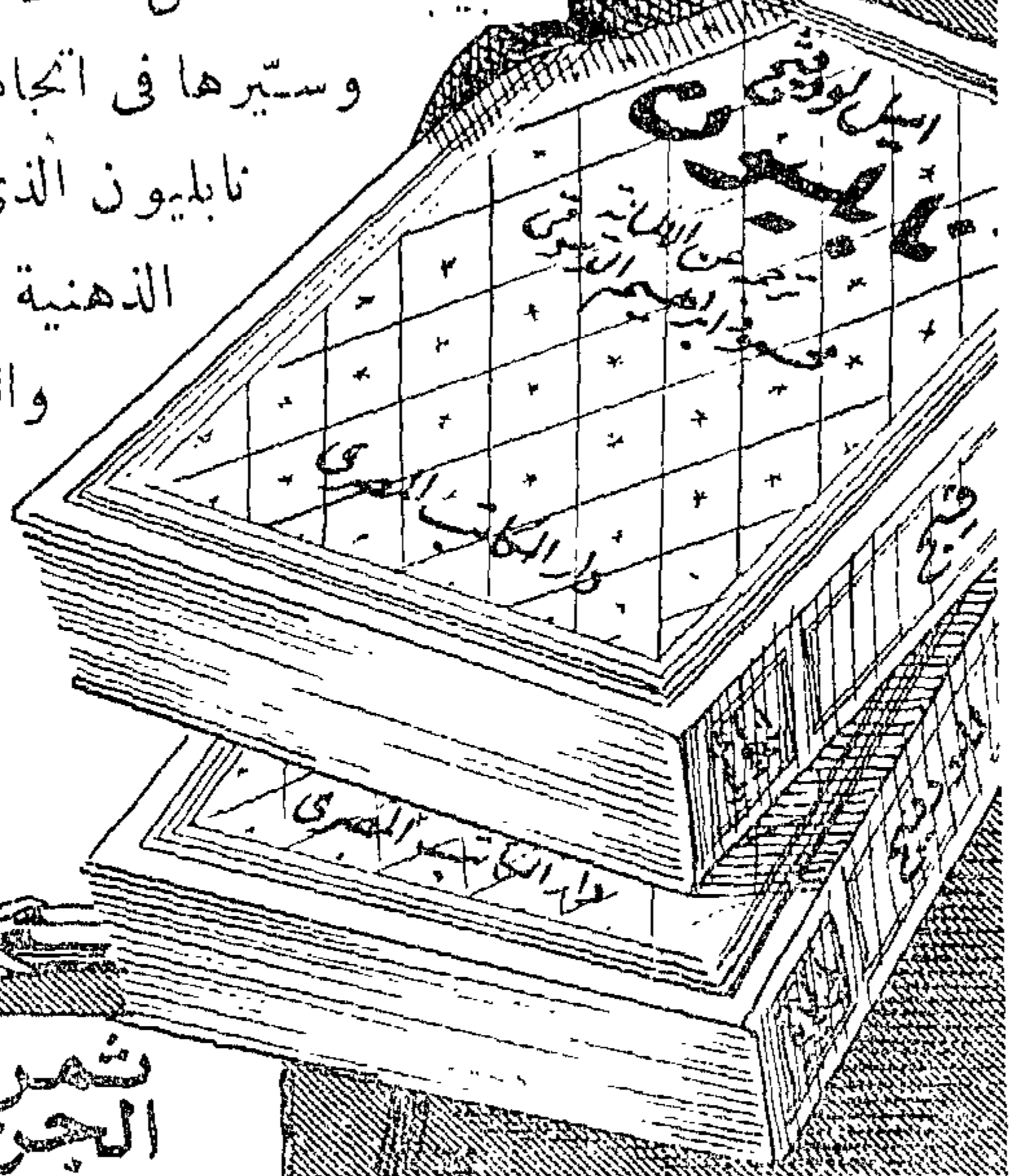
١٨ قرشا والبريد ١٢ مليماً



خطب الأفلا

في هذا الكتاب الفذ ، مؤلفه الفذ ، يبدو نابليون عظيماً في رفعة ، عظيماً في محنته ، يثير الاهتمام اليوم ، كما أثاره قبل اليوم ، ويشيره بعد اليوم : شخصية ضخمة يتعدل فيها الرأي كل يوم .
فنا بليون السائس ، ونابليون القائد ، ونابليون المفكر ، قد كان إلى ذلك رباً من أرباب القلم ، ومالكاً قديراً لناصرية الكلام .
في هذا الكتاب يتحدثنا نابليون عن نفسه ، ويعيش في حاضرنا كما عاش في حاضره ، ويعرض صور عصره حية متحركة .
نابليون الواسع العلم ، المحدث بالعالم ، المحيط بتاريخه ، وهو ما يزال غض الإهاب ، في شرح الشباب .
نابليون الذي وضع أذنه دائماً على قلب الجماهير شأن الطبيب الفاحص ، لا المحب الواله ، فعرف اتجاهها ، وسيرها في اتجاهه .

نابليون الذي تفوق في أعماله الحربية بصفاته الذهنية ، وكان سلاحه النظر ، والحساب ، والتصميم ، والفصاحة ، ومعرفة الناس .
نابليون الذي اعتز بلقب عضو المعهد أكثر مما اعتز بلقب الفاتح .
هل كان رجل جلاد ، مبيداً للعباد ، عاملاً لشخصه ، بانياً لمجده ؟





سترى فى هذا الكتاب كيف جلا لودفيج شخصيته ،
ومجسد إنسانيته ، وقدم صورة متنوعة بديعة لعبقريته .
ستقرأ قصة حقيقية لقاهر الثورة ، ومأجى الفوضى ،
وزعيم التاريخ الحديث ، ورمز العبقرية العالمية ، وتلمس من
المؤلف تصويراً شعرياً ، ودقة تاريخية .

ستدرس رجل الأقدار مما كتب لودفيج عنه ، وذكره
هو عن نفسه ، فى ترجمة مشرقة تبرز ملامح الأصل الألمانى ،
وعبارة رصينة توائم أسلوب المؤلف الألمعى ، بقلم مترجم
إيفيچينيا وإجنت والصراط وأقاصيص أندرسن : لجوته ،
وسودرمان ، وهانس أندرسن .

نابليون

لاميل لودفيج

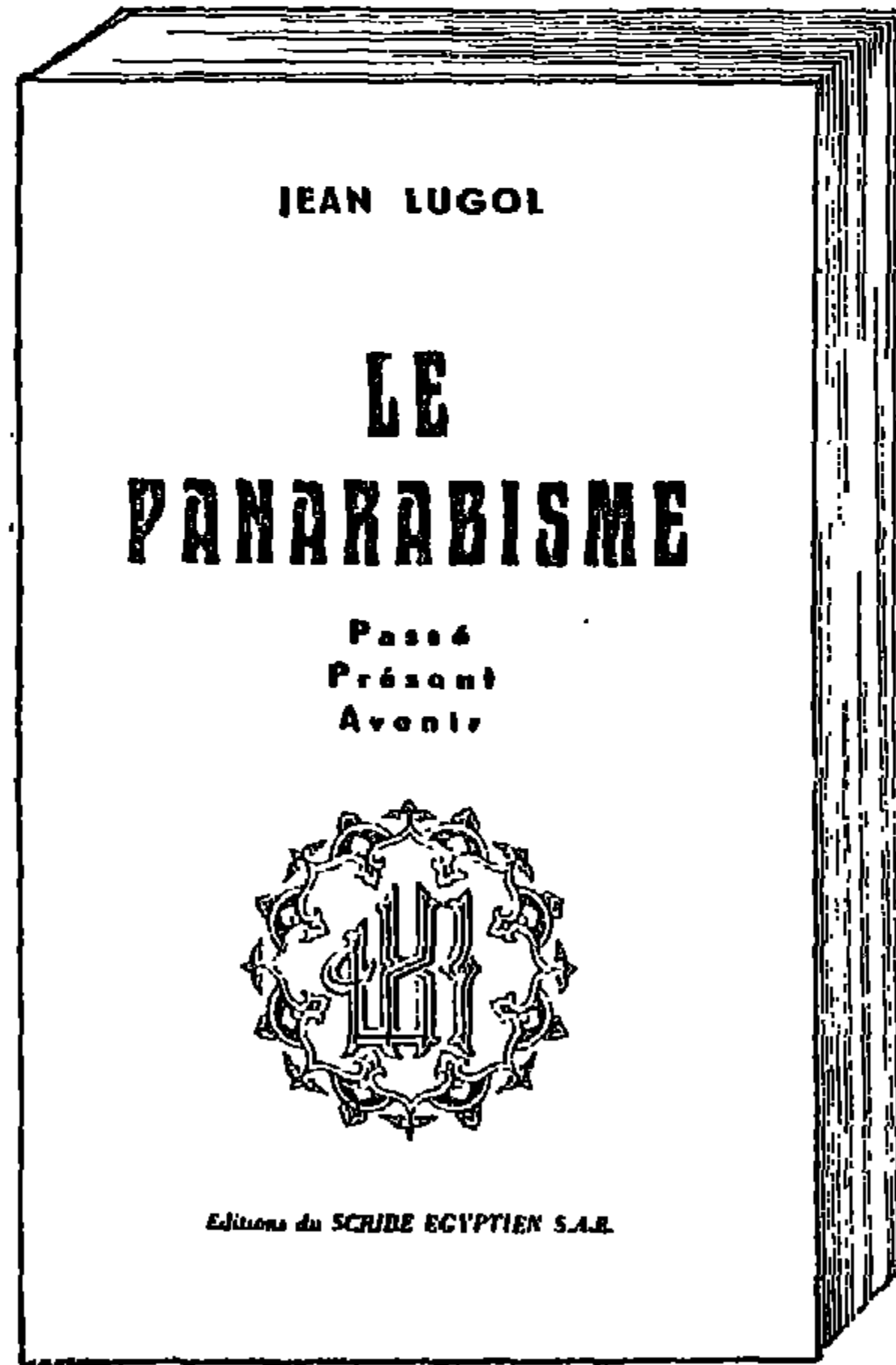
ترجمه عن الألمانية

محمود إبراهيم الدسوقي



طبعة فائزة هزينة بالصورة فى جزئين

الى قراد اللغة الفرنسية



إن نهضة العالم العربي التي تعد من أهم حوادث الحرب العالمية الثانية تمتد إلى ألف سنة من تاريخ الشرق . فهي تنبئ بنظام سياسى جديد للمستقبل . ولا يستطيع أحد أن يتجاهل هذه المشكلة التي تعد — فى وقت واحد — مشكلة دينية وأخلاقية وسياسية واجتماعية واقتصادية والتي ما فتئت — منذ أبعد الأزمان حتى أيامنا هذه — تشغل اذهان الناس .

ومسيو جان ليجول — الموظف فى عصبة الأمم سابقاً والصحفى الذى استوطن مصر منذ زمن بعيد ، مؤلف عدة كتب عن مذهب التوحيد والحضارة وعن مصر والحرب العالمية الثانية الخ — قد رسم صورة عظيمة للحضارة العربية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وإنه لمن الضرورى لكل شخص أن يقرأ هذا الكتاب الذى يقوم على وثائق صحيحة والذى كتب فى روح سمحة .

كتاب ضخيم يقع فى ٣٠٠ صفحة

الثنى ٨٠ قرشاً
البريد ٣٦ ملها



طبعة مزينة بعدة صور
وخرائط

آراء النقاد

في كتاب «العروبة»

LE PANARABISME

تأليف جان ليجول

رئيس تحرير «لابورص اجيبسين»

«Le nouvel ouvrage de notre rédacteur en chef, M. Jean Lugol, *LE PANARABISME*, a paru en librairie. Volume de 300 pages, enrichi de plusieurs illustrations et de cartes soignées, *LE PANARABISME* vient à son heure. L'auteur s'est efforcé de jeter une abondante lumière sur les problèmes historiques et actuels qui concernent les nations arabes.»

La Bourse Egyptienne, 3 juin 1946.

«ألف الأستاذ جان ليجول رئيس تحرير جريدة «لابورص اجيبسين» كتاباً نفيساً عن بلاد الشرق العربي . . . وعنى المؤلف عناية فائقة بموضوع الكتاب ، فاعتمد في تأليفه على وثائق تاريخية وزينه بصور متقنة لملوك الدول العربية ورؤسائها وبصور جميلة لأخرى للمدن الكبيرة في هذه البلاد . . . وصقوة القول أن كتاب الأستاذ ليجول خليق بأن يطلع عليه المهتمون بالشؤون العربية .»

المقطم في ١٥ يونيه ١٩٤٦ .

«Dans les temps effervescents que nous vivons, voici un livre qui s'impose à notre attention de façon toute particulière. Ce n'est pas seulement un plaisir et un profit que de le lire, c'est un devoir.»

Le Progrès Egyptien, 23 juin 1946.

« عرف مسيو جان ليجول بأبحاثه القيمة التي يخرجها لنا بين الحين والحين في صورة كتب وافية شاملة لدقائق الموضوع الذي يختصه بالبحث . . . واليوم يخرج علينا المسيو ليجول بكتاب جديد قيم عن جامعة الدول العربية . . . فالكتاب مرجع هام من مراجع التاريخ العربي يصلح لتنوير أذهان الأجانب بشأن كل ما يتصل بالعرب والجامعة العربية .»

الكتلة في ٨ يوليو ١٩٤٦ .

«A tous les lecteurs de langue française qu'intéressent les problèmes du nouveau monde arabe, le livre de M. Lugol sera une lecture des plus utiles, celle d'un grand manuel d'introduction à la vie politique et morale d'Etats appelés à jouer un rôle capital dans la paix et la prospérité du monde. Nous ne pouvons que vivement le recommander.»

Le Journal d'Egypte, 9 juin 1946.

« هذا كتاب قيم أصدره بالفرنسية الأستاذ جان ليجول وصدره بكلمة لمسيو جورج ييكو يقول فيها : « إن العالم العربي في حالة تطور وهو في الوقت الحاضر قوة محدودة جداً بالنسبة لما سيصبح عليه في مستقبل غير بعيد . . . وعلى الرغم من عدم اتفاقنا تماماً مع المسيو ليجول في جميع آرائه ، إلا أن الكتاب قيم ومكتوب بروح المؤرخ المطلع .»

آخر ساعة في ١٩ يونيه ١٩٤٦ .

«Ceux qui se perdent encore dans la complexité des questions orientales liront avec profit *LE PANARABISME*: c'est là un guide simple et clair du monde arabe en pleine renaissance.»

Images, 16 juin 1946.

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصري في أول كل شهر عن دار الكاتب المصري ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب
المصري . لا تقبل الاشتراكات لأقل من
سنة كاملة .

نمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصري تعنى بكل
ما يرد إليها من المقالات والرسائل
ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الإدارة : ٥٤٢٧٣-٤٧٨١٥-٤٥٠٣٤



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكاتب المصطفى



أغسطس ١٩٤٦

رمضان ١٣٦٥

مجلد ٣ - عدد ١١

الأدب بين الاتصال والانفصال

أى المذهبين أهدى سبيلاً : مذهب الأديب الذى يؤثر العزلة لعقله وقلبه وفنه ، وينظر إلى الحياة الإنسانية الواقعة من برجه العاجى ، لا يحفل بها ولا يقف عندها ، ولا يلتفت إليها ، إلا أن تكون مصدراً لآثر من آثاره الفنية ، فهو حينئذ يستوحىها ويستقصيها ، ويصدر عنها فيما يرسم من الصور ، وما يحدث من الآثار ، يقف منها موقفه من الطبيعة غير الواعية ، يتخذها مادة لفنّه دون أن يشاركها بعقله وقلبه وشعوره فيما يختلف عليها من الأحداث ، وما يلم بها من الخطوب — أم مذهب الأديب الذى يأخذ بحظه من هذه الحياة الواقعة ، فيسعد حين تشيع فيها السعادة ، ويشقى حين يستأثر بها الشقاء ، ويجاهد مع المجاهدين ليكسب لنفسه وللناس ، أو قل ليكسب للناس ولنفسه حظاً جديداً من سعادة ، وليدفع عن الناس وعن نفسه طائفاً عارضاً من شقاء ؟

هذه هى المسألة التى يلوح بها الأدباء الفرنسيون فى باريس منذ وضعت الحرب أوزارها ، بل قبل أن تشب الحرب نارها . فقد فرضت هذه المسألة نفسها على الأدباء الأوربيين منذ كان الاصطدام العنيف بين المذاهب فى تنظيم الحياة السياسية والاجتماعية بين الحريين حين عظم أمر الشيوعية فى روسيا ، وأمر الفاشية فى إيطاليا وألمانيا ، واجتهدت الديمقراطية التقليدية فى أن تثبت بين هذين المذهبين من مذاهب السياسة والاجتماع ، وفى أن تدفع عن نفسها خطر الفناء الذى يأتىها من التسلط المطلق للجماعة ، ومن التسلط المطلق للفرد ، على دقائق الحياة الاجتماعية والفردية على السواء . فقد وجدت الشيوعية أدبا

الأدب بين الاتصال والانفصال

شاركوا فيها ، ودافعوا عنها ، وقاموا دونها بحملونها بالسنتهم وأقلامهم ، ويحاولون نشرها في أقطار الأرض . ووجدت الفاشية كذلك أدباء أنفقوا ما يملكون من قوة وجهد في الذود عنها ، والقيام دونها . ونظرت الديمقراطية فإذا الساسة وحدهم هم الذين يناضلون ويجهدون لحمايتها أول الأمر ، وإذا الأدباء لا يحفلون بها ولا يتكلفون حمايتها ، وإنما يؤثرون أنفسهم بخيراتها ، ويستمتعون في ظلها بما يتاح لهم من الحرية ليحيوا كما يحبون ، وينعموا كما يستطيعون ، ويكتبوا كما يشاءون ومتى يشاءون وفيما يشاءون من الموضوعات . وأكبر الظن أنهم كانوا خليقين أن يعضوا في طريقهم تلك لا يفتحون إلى ما حولهم من الحياة الواقعة لو لم يحسوا الخطر يأتيهم من انتشار الشيوعية والفاشية في بيئاتهم الخاصة التي يعيشون فيها ، ولو لم يشعروا بأن هذا الخطر يتغلغل في حياة أوطانهم تغلغلاً مخيفاً ، ويوشك أن يخضعهم لأحد المذهبين اللذين كانا يتنازعان أوربا بين الحربين .

هنالك تبينوا أن حريتهم معرضة للخطر ، وأن ثقافتهم معرضة للزوال ، وأن فنهم معرض للفناء ، وأنهم مخيرون بين اثنتين : إما أن يفنوا في الشيوعية أو الفاشية فيذهبوا مذهب غيرهم من الأدباء الشيوعيين والفاشييين ، وإما أن ينجحوا الديمقراطية التقليدية ألسنتهم وأقلامهم ، ويشاركوا أصحاب السياسة في الدفاع عنها والقيام دونها وحمايتها من أن يجتاحها هذا الخطر أو ذاك . رأوا ذلك رأى العين وأحسوه إحساساً قوياً ملحاً ، فاضطروا إلى أن يشاركوا في الدفاع عن الديمقراطية ، وذهب بعضهم مذهب الفاشية ، وذهب بعضهم الآخر مذهب الشيوعية ، وخرج الأدب من عزلته ، وانحدر الأدباء من بروجهم العاجية إلى أسواق السياسة وميادين الصراع حول المنافع العاجلة والمصالح القريبة ، ونشأت هذه الظاهرة الأدبية التي تسمى التضامن في تبعات الحياة .

ثم كانت الحرب ، واضطر كثير جداً من الأدباء إلى ما اضطر إليه غيرهم من عامة الناس من مصانعة العدو أو مقاومته ، ومن الانحياز إليه أو التآلب عليه ، ولم يبق أو لم يكديبق أديب أوربي يستطيع أن يقول إنه محتفظ بعزلته ، مستأثر بوحده ، معتصم ببرجه العاجي ينظر إلى اضطراب الناس من حوله كما ينظر إلى ضوء الشمس حين تشرق ، وإلى ظلمة الليل حين تغمر الكون ، وإلى الاغصاق حين يداعبها النسيم ، أو إلى ماء الجدول حين يداعب الحصباء ، وإلى الطير

حين تملأ الجو غناء وبكاء ، وإلى أمواج البحر حين تعصف بها الريح .
أكره الأدباء على أن ينزلوا بأدبهم إلى الحياة الواقعة ، وعلى أن يشاركوا
الناس في آلامهم وآمالهم ، وفيما يتاح لهم من سعادة أو شقاء . حتى الذين آثروا
الصمت منهم لم يؤثر الصمت ترفعاً عن المشاركة في الحياة الواقعة ، ولا تمنعاً
على التضامن الاجتماعي ، ولا حباً في الاعتصام بالبروج العاجية ، وإنما اتخذوا
الصمت سلاحاً لعلّه كان أمضى من الكلام أحياناً . فقد كان العدو المنتصرون
يودّون بمجدع الأنوف لو ظفروا من هؤلاء الأدباء الصامتين بشيء من تأييد ،
كما كان الصديق المتضامنون مع العدو عن رضا أو عن كره ، والذين كانوا
يسمون بالكويسلنج يتمنون أيضاً بمجدع الأنوف لو أتيحت لهم معونة
هؤلاء الأدباء الصامتين . فقد اضطر الأدباء إذن إلى أن يشاركوا في الحياة
الواقعة ، وإلى أن يختاروا بين المذاهب السياسية والاجتماعية التي كانت تتنازع
أوروبا في ذلك الوقت ، وأدوا ثمن هذه المشاركة غالباً : ضحّوا فيها بأنفسهم
أحياناً ، وبراحاتهم أحياناً ، وبحريتهم دائماً . ثم تضع الحرب أوزارها بين الجند
المقاتلين دون أن تضع أوزارها بين الساسة المختصمين . فالناس لا يقتل بعضهم
بعضاً منذ حين ، وقد انهارت ألمانيا وإيطاليا واليابان ، واستسلمت بلا قيد
ولا شرط ، ولكن الخسومة السياسية حول النظم المختلفة ما زالت قائمة
كعهدها قبل أن تشب الحرب ، وكعهدها بعد أن شبت الحرب ، فماعسى أن
يكون موقف الأدباء من هذا الصراع المتصل بين النظم السياسية والاجتماعية ؟
أشاركون فيه بعد الحرب كما شاركوا فيه قبل الحرب وأثناء الحرب ، أم
يستأنفون حياتهم تلك القديمة فينحاز إلى العزلة منهم من يحب العزلة ،
ويصعد إلى البروج العاجية منهم من يحب الاعتصام بهذه البروج ؟ وبعبارة
موجزة : أيباح للأديب أن يحيا حياة العزلة ، وأن يخلص لفنّه المحض ،
وأن ينظر إلى الحياة الإنسانية الواقعة كما ينظر إلى الطبيعة الصامتة يتخذها
مادة لفنّه ليس غير ، أم يُفرض على الأديب أن يحيا مع الناس ، فيألم حين
يألمون ، ويأمل حين يأملون ، ويشاركهم مشاركة كاملة فيما يجدون من
نعيم وبؤس ، ومن سعادة وشقاء ؟ وبعبارة أشد وضوحاً وإيجازاً : أينبغي
للأدب أن يكون لوناً من ألوان الترف ، أم يجب على الأدب أن يكون
أداة من أدوات الحياة ؟

هذه هي المشكلة التي تقيم الأدباء في باريس وتقعدهم منذ حررت فرنسا . وقد يخيل إلى كثير من الناس كما يخيل إلى الأدباء الفرنسيين أنفسهم أنها مشكلة جديدة طارئة . ولكن نظرة يسيرة سريعة في التاريخ الأدبي لأي أمة من الأمم الحيّة تكفي لإقناعنا بأن هذه المشكلة ليست جديدة ، وبأن حظها من الطرافة ضئيل جداً يوشك ألا يكون شيئاً . فأنت تستطيع أن تنظر إلى أي عصر من عصور الأدب الفرنسي ، مثلاً منذ أوائل القرن السادس عشر إلى الآن ، فستري أن الأدباء قد انقسموا دائماً هذا النوع من الانقسام ، فكان منهم المشاركون في الحياة الواقعة ، والمؤثرون للعزلة والانفراد . وكان أثر الذين يشاركون في الحياة الواقعة دائماً أعظم خطراً وأجلّ شأنًا من أثر الذين يحبون العزلة ، ويعتصمون بالوحدة ، ويلزمون بروجهم العاجية ينزلون منها وحيهم الأدبي تنزيلاً .

فلست أدري إلى أي حدّ يمكن أن يقال إن مونتني ورابليه في القرن السادس عشر كانا معتزلين يعتصمان بالبرج العاجي ، مع أن الواقع الذي ليس فيه شك هو أن أدبيهما يصوّر حياة الطبقة الفرنسية التي كانا يعيشان فيها أدق تصوير وأبدعه . وقل مثل ذلك بالقياس إلى الشعراء الذين عاشوا في ذلك العصر ؛ فهم قد عاشوا مع طبقتهم عيشة تضامن . لا اعتزال ، وهم قد صوروا طبقتهم تصويراً صادقاً ؛ منهم من اتصل بالقصر فصور حياة القصر ، ومنهم من عاش من الشعب فصور حياة الشعب . وكانت الحال كذلك في القرن السابع عشر ، فلم يكن كورني ولا راسين ولا بوالو معتزلين يلقون وحيهم من بروجهم العاجية ، كما كان أبُللون يلقى وحيه في معبد دلف ، وإنما كانوا يشتقون فنهم من الحياة الواقعة من حولهم ، يتخذون مذهب القدماء في الأدب وسيلة إلى تصوير هذه الحياة الواقعة بما فيها من ألم وأمل ومثل عليا . فأما مولير فأمره أوضح من أن يحتاج إلى بيان .

أما القرن الثامن عشر فهو القرن الذي عرف تضامن الأدب مع الحياة الواقعة في أوسع حدوده وأبعد آماده . فمن الخطأ كل الخطأ أن يقال إن فولتير ومونتسكيو وديديرو وروسو كانوا معتزلين أو مترفعين عن الحياة اليومية الواقعة . والثورة الفرنسية لم تأت من لا شيء ، وإنما جاءت من تطور الحياة الواقعة نفسها من جهة ، ومن تصوير الأدب لهذه الحياة وتطورها من

جهة أخرى ، ومن إشعار الأدب للشعب بأن الحياة التي كان يحياها لم تكن تلائم حقه في الحرية والإخاء والمساواة والعدل . فإذا تركنا هذا القرن فسنلاحظ أن القرن التاسع عشر كان عصر الصراع بين الأدب ، وبين الذين خاضوا الحرية ، أو حاولوا أن يضيعوا ما كسبه الشعب الفرنسي من ثورته الكبرى . وقد احتاج نابليون إلى أن ينظم حربه التي نصبها للأدباء الأحرار ، كما نظم حربه التي نصبها لخصومه من الإنجليز والروس والنسويين ، وكانت له شرطته الداخلية ذات النظام الدقيق العنيف . وكان له صرعا من الأدباء ، كما كان له جيشه العظيم وصرعا من خصومه الخارجيين . وأكبر الظن أن نابليون لم يحارب الأدباء إلا لأنهم قاوموه ، وأن الأدباء لم يقاوموه إلا لأنهم خالفوه في الرأي ، ولم يخالفوه في الرأي إلا لأنهم تضامنوا مع الحياة الواقعة ، ولم يعتصموا بالبروج العاجية ، ولم يؤثروا العزلة وما تستتبعه من العافية على الجهاد مع المجاهدين . وقد كان للملكية الفرنسية بين الإمبراطوريتين أنصارها وخصومها من الأدباء ، وكان لها صرعاها وضحاياها ، كما كان لها أصدقاؤها الذين استمتعوا في ظلها بالسعادة والنعيم . وهذا كله لا يدل إلا على أن الأدباء ، أو كثرة الأدباء ، لم يستطيعوا أن يؤثروا حياة العزلة . والثورة الفرنسية الثانية سنة ١٨٤٨ ، لم تأت من لا شيء وإنما جاءت من تطور الحياة الواقعة ، ومن تصوير الأدباء لهذا التطور ، ومن إقناعهم للشعب بأن سادته قد أضاعوا عليه ما جنى من الثورة الكبرى . وقد كان للإمبراطورية الثانية صرعاها من الأدباء . وما نظن أننا في حاجة إلى أن نذكر فكتور هوجو ، وما أظن أحداً يستطيع أن يقول إن فكتور هوجو ولا مرتين كانا من أنصار العزلة وعشاق البرج العاجي ، حتى فلوبير الذي أبي أن يحفل بشيء غير الفن ، وفرض على نفسه حياة خالصة للأدب وللأدب الخالص ، حتى فلوبير لم يستطع أن يمتنع على المشاركة في الحياة الواقعة ، والتضامن مع الناس فيما كانوا يجدون من أمل وألم . ويكفي أن تقرأ قصته الرائعة « التربية الشعورية » *L'Education sentimentale* ، وأن تقرأ رسائله ، وأن تقرأ كتابه الخالد — *Bouvard et Pécuchet* — لتعلم أن برجه العاجي لم يكن إلا ملجأ يأوى إليه ليستعرض ماجنى من مشاركة الناس في حياتهم الواقعة ، ثم يعرضه بعد ذلك عليهم في صورته الرائعة التي تدفع إلى العمل ، وتملأ القلوب شوقاً إلى المثل العليا ، وإزوارا عن هذه الحماقة التي تعرض الشعب لعبث العابثين .

فإذا كانت الجمهورية الثالثة فالكثرة الضخمة من الأدباء مشاركة في السياسة إلى أبعد حدود المشاركة . وليس من شك في أن جورس ، وليون بلوم ، وأناتول فرانس ، وموريس باريس ، وبيجي لم ينتظروا ظهور الشيوعية والفاشية ؛ ليشاركوا في الحياة السياسية الواقعة مشاركة تختلف عنفاً وليناً باختلاف أمزجتهم وما كان يحيط بهم من الظروف . وقد عرف الفرنسيون في آخر القرن الماضي أزمة دريفوس تلك التي أكرهتهم جميعاً على أن يشاركوا في السياسة مشاركة فعلية عنيفة لم يتخلف عنها عالم ولا أديب .

فإذا لهج الأدباء الفرنسيون الآن بالتضامن الأدبي مع الحياة الواقعة ، وإذا أسرفوا في ذكر الأدب المتضامن والأدب المعتزل ، فهم في حقيقة الأمر لا يأتون بشيء جديد ولا يواجهون مشكلة جديدة ، وإنما هي مشكلة قديمة خالدة : إلى أي حد يستطيع الأدب أن يعتزل الحياة الواقعة دون أن يصبح لغواً من اللغو ، وسخفاً لا غناء فيه ؟ وإلى أي حد يستطيع الأدب أن يشارك في الحياة الواقعة دون أن يضطر إلى الإسفاف الذي يفسده ، وإلى الابتذال الذي يابغيه ؟ والشئ المحقق فيما أعتقد هو أن الفرنسيين كغيرهم من الأوروبيين ، بل كغيرهم من الناس المتحضرين ، يمرون بهذه الأزمة العنيفة التي تمر بها الأمم بين حين وحين ، والتي تضطر المثقفين وقادة الرأي إلى أن يتجاوزوا عن عزلتهم أكثر مما تعودوا أن يفعلوا ، وإلى أن يأخذوا بحظهم من الجهاد اليومي ؛ لينصروا هذا المذهب أو ذاك ، وليحققوا هذا اللون أو ذاك من ألوان المثل العليا .

وقد صورت في العدد الماضي من هذه المجلة ذلك الصراع العنيف بين العدل والحرية . فهذا الصراع لا يمكن أن يتحقق ولا أن تظهر آثاره ، ولا أن يؤثر ثمره إلا إذا كان هناك مصارعون يديرون بينهم ما يديرون من هذا الجدل العنيف . فالحرية ليست شيئاً قائماً بنفسه يمكن أن يلتزم خطة الدفاع ، أو أن يتخذ خطة الهجوم . والعدل كذلك ليس شيئاً قائماً بنفسه يمكن أن يتخذ هذه الخطة أو تلك . وإنما الحرية والعدل خصلتان قائمتان في أنفس الناس : وهؤلاء يؤثران الحرية ، وهؤلاء يؤثران العدل ، وهؤلاء يؤثران شيئاً وسطاً بين ذلك . وهم جميعاً يختصمون ويصطرون ، ويجادل بعضهم بعضاً . والخصومة بينهم لا تكون بالعمل وحده ، وإنما تكون بالعمل والقول ، ولعلها أن تكون بالقول أكثر مما تكون بالعمل . وانتصار الحرية على حساب العدل يعرض الناس جميعاً ،

الأدب بين الاتصال والانفصال

ومنهم الأدباء ، لحياة قاسية قوامها الظلم . وانتصار العدل على حساب الحرية يعرض الناس جميعاً ، ومنهم الأدباء أيضاً ، لحياة قاسية قوامها المساواة وفيها شيء كثير من الخضوع . فالأديب مضطر إلى أن يدافع عن نفسه ، لأنه هو نفسه معرض بحكم هذه الأزمة لفقدان الحرية ، أو لفقدان العدل ، أو لفقدانها جميعاً . فالعزلة الأدبية في هذا الوقت ليست إلا حكماً بالموت على الأديب . ولولا أن هذه الأزمة العنيفة تثير الشهوات ، وتدفع الأهواء إلى الجموح ، لما اختلف الأدباء الفرنسيون كما يختلفون اليوم حول الأدب المعتزل والأدب المتضامن . فالحرية في حاجة إلى أن يدافع عنها أنصارها ، والعدل في حاجة إلى أن يدافع عنه أنصاره . والأديب الذي ينحاز إلى نفسه ويعكف عليها ويفرغ لها ، لا يزيد على أن يسجل أنه زاهد في الحرية والعدل جميعاً ، أى أنه زاهد في الحياة . أو قل إنه لا يزيد على أن يسجل أنه طفيل يعيش من كسب غيره ، ينتظر أن ينتصر هذا الفريق أو ذاك ليعيش في ظله ، وينعم بما يلقي إليه من الفتات . وهذا الأديب فيما أعلم لا يوجد أو لا يكاد يوجد . وفي الحياة بعد ذلك أشياء أخرى غير الحرية والعدل ، والناس في حاجة إلى هذه الأشياء ؛ فهم يختصمون حولها كما يختصمون حول الحرية والعدل . والأديب مثلهم يحتاج إلى هذه الأشياء كما يحتاج إلى الحرية والعدل ، فهو مضطر إلى أن يخاصم ويجاهد ليحقق رأيه في كل مشكلة من المشكلات التي تمس الجماعة وتؤثر في حياتها . ومن هنا يمكن أن يوجد الأديب الذي لا يخاصم في العدل ، ولا في الحرية ، ولكنه يخاصم في الدين ، أو يخاصم في الإلحاد ، أو يخاصم في هذا المذهب أو ذاك من مذاهب الدين ، أو يخاصم فيما شئت من هذه المشكلات الإنسانية التي لا تنقضى والتي تتجدد في كل يوم .

والأدب الفرنسي ليس وحده موضوعاً لهذا الخلاف حول التضامن والاعتزال ، فالمسألة كما قلت آتفاً قديمة لا تتصل بعصر دون عصر ، عامة لا تنصل ببيئة دون بيئة ولا بجيل دون جيل .

أكان الأدب اليوناني مثلاً معتزلاً أم متضامناً ؟ مسألة من شأنها أن تضحك الشعراء والفلاسفة ، والكتاب اليونانيين لو أنها أُلقيت عليهم . فقد كان الأديب اليوناني بطبعه مواطناً يونانياً ، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ويؤدي واجباته الوطنية ، ويشهد الاجتماعات السياسية ، ويدافع عن هذا الحزب

أو ذاك ، ويجنى ثمر هذا الدفاع نعيماً أو بؤساً وسعادة أو شقاء . والذين يقرءون الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية يعامون ذلك حق العلم ويقدرونه حق قدره . ومن ذا الذى يستطيع أن يقول إن التراخيديا اليونانية لم تكن تميل إلى المحافظة السياسية ، وإن الكوميديا لم تكن تعبت بالديمقراطية ، وإن سقراط قد شرب السم ؛ لأنه آثر الاعتزال الفلسفى على التضامن مع الحياة الواقعة ، وإن أفلاطون لم يفرق فى السياسة إلى أذنيه ، وإن أرسطاطاليس لم يضطر بحكم السياسة إلى أن يموت غريباً ! ولم يكن الأدب عند الرومانيين أقل مشاركة فى الحياة الواقعة من الأدب اليونانى . فربما كان أظهر شىء فى الأدب اللاتينى الخطابة وقد كانت كلها أو أكثرها سياسة ، والتاريخ وقد كان كله أو أكثره سياسة . فأما الشعر فقد حاول أن يتجنب السياسة فلم يبلغ مما أراد شيئاً ؛ لأن السياسة كانت تفرض نفسها على المواطن اليونانى والرومانى فرضاً ، لا يعنيه أن يكون هذا المواطن أديباً أو حذّاء .

وأدبنا العربى أكان متضامناً مع الحياة الواقعة أم كان مترفعاً عنها ؟ أهو الآن أدب متضامن أم أدب معتزل ؟ مسألة لا تخلو من عبرة وعظة . فقد كان أدبنا العربى حياً قوياً حين تضامن مع الحياة الواقعة ، وكان فاتراً متهاكاً حين اضطرت الظروف إلى الاعتزال . وما أريد أن أذكر الشعر العربى فى العصر الجاهلى ؛ فقد كان أمره أوضح من أن يحتاج إلى بيان . كان الشاعر العربى لسان القبيلة ، يسجل ما آثرها ، ويذيع مفاخرها ، ويدافع عنها فى المواطن التى تحتاج إلى الدفاع ! وما كان أكثرها ! فقد كان أدبنا الجاهلى ، وهو كله شعر ، متضامناً لا يطيق الاعتزال ولا يسيغه ؛ لأن الشاعر كان فرداً من أفراد القبيلة يحيا بحياتها ويشارك فيما يصيبها من خير أو شر ؛ فإن خالف عن هذا التضامن فهو الخليع الذى يجب أن يعيش عيشة الصعاليك ، وهو بهذا يخرج عن التضامن مع القبيلة إلى تضامن آخر ليس أقل منه مشاركة فى الحياة الواقعة ، وهو الضتمان مع أمثاله من الصعاليك .

كان أدبنا الجاهلى متضامناً إذن . فأما أدبنا الإسلامى فقد كان تضامناً كله : كان تضامناً حين كان الشعراء المسلمون والمشركون يتقارضون قصائدهم دفاعاً عن الإسلام أو دفاعاً عن حياة قريش قبل أن تسلم قريش . وكان تضامناً حين نشأت الأحزاب السياسية بعد موت النبی ، وحين انحاز كل شاعر إلى حزب من

الأحزاب يدافع عنه باليد واللسان . حتى هؤلاء الفحول الذين ظن الناس أنهم قرعوا للشعر وتجاوزوا عن السياسة ، لم يستطيعوا أن يفرغوا للشعر ولا أن يتجاوزوا عن السياسة ، وإنما انحاز الأخطل إلى بنى أمية ، وانحاز الفرزدق إلى العثمانية ، وعارض الحجاج وغيره من ولاية العراق ، وانحاز جرير إلى الزبيريين ثم باع شعره لبنى أمية . وفرغ بعض الشعراء للفن الخالص ، فادركهم الحول على ما أتيج لهم من الجودة الرائعة ؛ ولعل ذا الرمة أن يكون مثلاً صادقاً لهؤلاء الشعراء الذين أرادوا أن يعتزلوا فلم يصيبوا من الاعتزال إلا الإخفاق والحول . وإنا لنبذل ما نستطيع من الجهد لنرد إلى ذى الرمة وأشباهه شيئاً من الإينصاف ، فلا نكاد نظفر من ذلك بشيء على بعد العهد وتباين الظروف .

وقد ظل أدبنا متضامناً مشاركاً في الحياة الواقعة حتى بعد انقضاء العصر الأموي وتغلب الاستبداد الفارسي على القصر في بغداد . والناس يظنون أن تغلب الفرس على العرب بعد الثورة العباسية قد اضطرب الأدب إلى شيء من العزلة . وليس هذا بملائم للحق ؛ فإني أجدهم الشعراء في العصر العباسي يختصمون كما كانوا يختصمون في العصر الأموي حول مذهب الشيعة ومذهب الجماعة ومذهب الخوارج . وليس السكتاب والفلاسفة والفقهاء بأقل تضامناً ومشاركة في الحياة الواقعة من الشعراء . وقد كان تغلب الترك في القرن الثالث على دار الخلافة وعلى السلطان كله خليقاً أن يبعد الأدب عن السياسة ، ولكنه لم يصنع شيئاً ؛ فقد كان الترك أقل مشاركة من الفرس في الفن ، وأقل منهم احتفالاً بهذا الذوق المترف والنحو الرفيع من الأدب ، وأشد منهم غلظة في مواجهة المشكلات ومعالجة الخطوب ، ولكنهم على هذا كله لم يمنعوا البحتري وأبا تمام وابن المعتز وابن الرومي من أن يشاركوا بشعرهم في السياسة العامة من جهة وفي السياسة الخاصة الطارئة من جهة أخرى . ومن ذا الذي يستطيع أن يقول إن سينية البحتري وبائية أبي تمام قد صدرتا عن شاعرين معتزلين ! ومن ذا الذي يستطيع أن يقول إن رسائل الجاحظ قد صدرت عن أديب معتزل لا يشارك في الحياة الواقعة ! ومن ذا الذي ينكر أن ابن الرومي قد حرص على الزنج واستحث أهل بغداد لنصر الموفق ! ومن ذا الذي لم يقرأ جدال ابن المعتز لأبناء عمومته من الطالبين ! والمتنبى أكان معتزلاً للحياة الواقعة أم كان مشاركاً فيها ؟ أليس من المحقق أن افتتان الأجيال بشعر المتنبي إنما هو نتيجة طبيعية لما كان من تضامن

المتنبى في أكثر حياته مع العرب في خصوصتهم للفرس والترك ، ومنع انقراطة في سخطهم على النظام الاجتماعى ومحاولتهم تغيير هذا النظام ؟ وأبو العلاء الذى امتاز بالعزلة وانفرد بهذه الوحدة التى فرضها على نفسه فى محبسه أو فى محابسه ، والذى ظن أنه قد حقق من هذه العزلة ما أراد مع أنه لم يحقق منها شيئاً ، أكان أدبه معتزلاً أم متضامناً ؟ أيستطيع أحد أن ينكر أن أبا العلاء لم يحقق فى شيء كما أخفق فى محاولته للعزلة ؟ أما أنه نجح فى عزلته المادية فشئء جائز ، لأنه لزم داره ولم يخرج منها إلا مضطراً . وأما أنه أخفق فى عزلته المعنوية فشئء ليس فيه شك ولا يمكن أن يكون موضوعاً للنزاع . فلم تخل دار أبا العلاء من الطارئى عليه والملمين به يوماً من الأيام أثناء نصف القرن الذى لزم فيه داره . ولم ينظم أبو العلاء بيتاً من الشعر ، ولم يكتب فصلاً من النثر إلا كان فيما نظم وما كتب متصلاً بالحياة الواقعة أوثق الاتصال وأشدّه . فهذا الشاعر الفيلسوف الذى أنفق حياته طالباً للعزلة ، هو الذى أنتج فى الأدب العربى أدباً أقل ما يوصف به أنه أدب اجتماعى متضامن بأوسع معانى هذه العبارة وأدقها . وقد أخفق أبو العلاء فى كثير من الأشياء بحكم الظروف التى أحاطت به ، ولكنه لم يحقق فى شيء كما أخفق فى محاولة الابتعاد عن الناس . وأبو العلاء يستطيع أن يقول إنه إنسى الولادة وحشى الغريزة ؛ فغريزته هذه الوحشية هى التى ميزته من غيره ودفعت الناس دفعاً إلى أن يتمالكوا عليه ، واضطرته هو إلى أن يتهالك عليهم أشد التهالك وينكر ذلك على نفسه أشد الإنكار ، ويصور هذا فى شعره تصويراً بشعاً رائعاً فى هذا البيت :

كلابٌ تعاوت أو تعاوت لجيفة وأحسبني أصبحت ألامها كلباً

من أشنع الخطأ إذن أن يقال إن أدبنا العربى فى عصوره المزدهرة قد كان أدباً معتزلاً مترفعاً عن الحياة الواقعة أو مهملاً لهذه الحياة . وإنما الذين يقولون مثل هذا القول هم الذين غرتهم ظواهر الأشياء عن حقائقها ، فلم يروا فى شعر الشعراء إلا مدحاً وهجاء ورثاء ، ولكنهم لم يتعمقوا هذا المدح والهجاء والرثاء ، ولم يفهموا هذه الفنون على وجهها ، ولم يدرسوا غيرها من الفنون التى طرقها هؤلاء الشعراء ، ولم يروا فى نثر الكتاب إلا تنميقاً وتزويقاً وتأنقاً فى اختيار اللفظ ، وتكلفاً فى تحرير المعانى ، وتصنعاً فى تعقيد الأسلوب ، ولكنهم لم

يتجاوزوا هذا إلى ما يمكن أن يكون وراءه من مشاركة في الحياة الواقعة أو ترفع عن هذه الحياة .

والغريب أن الذين يدرسون تاريخ الأدب العربي لا يكادون يفتنون إلى أن أكثر كتابنا إنما كانوا يعملون في المرافق العامة ، ويتصلون بالسلطان من قرب أو من بعد ، ويتأثرون بالخطوب التي يقتضيها الاتصال بالسلطان والاشتراك في الحياة العامة ، ويصورون هذا كله حين يكتبون ، سواء أصدروا فيما يكتبون عما يقتضيه العمل أو عما يجدونه في ذوات أنفسهم . وأنا أتمس الكاتب العربي أو الإسلامي الذي نقض يده من الحياة العامة نقضاً واعتزل الحقائق الواقعة اعتزالاً ، فلا أكاد أظفر به أثناء هذه العصور الأدبية العربية المزدهرة .

وواضح جداً أن اتصال الأدب بالحياة الواقعة ليس معناه أن ينقطع الأديب عن نفسه ، فلا يكتب ولا ينظم إلا فيما يمس هذه الحياة الواقعة . فتصور الاتصال بين الأدب والحياة الواقعة على هذا النحو ضرب من السخف لا غناء فيه ؛ لأن الإنسان ، ولا سيما حين يكون على ما ينبغي أن يكون عليه صاحب الفن من دقة الحس ورقة الشعور وصفاء الطبع واعتدال المزاج ، لا يستطيع أن ينسى نفسه ولا أن يجحد ما يختلف عليها من ألوان الشعور حين يتصل بظواهر الأشياء وحقائقها .

فإغراق الشاعر في الغناء وإلحاحه في وصف الجمال مهما يكن مظهره ، ليس معناه انقطاع هذا الشاعر عن الحياة الواقعة واعتزاله في برجه العاجي ، وإنما معناه أنه لا ينسى نفسه كما أنه لا ينسى غيره ، وأن ذهنه مهياً لتلقى الانطباعات مهما يكن مصدرها ، ثم لتصوير هذه الانطباعات فيما ينشئ من أثر منظوماً كان هذا الأثر أو منشوراً . فإغراق أبي نواس مثلاً في وصف الحمر وتهالكه على تصوير أهوائه الجامحة ولذاته الآثمة ، ليس معناها أن أبا نواس قد اعتزل حياة الناس وارتفع أو اتضع بأدبه عن المشاركة في هذه الحياة ، بل معناه أنه قد آثر نفسه بمقدار قليل أو كثير من إنتاجه الأدبي دون أن ينسى الحياة الواقعة ، وإنما هو يشارك فيها حين يمدح الخلفاء والوزراء والأمراء ، ويشارك فيها حين يهجو ، ويشارك فيها حين يصور الزهد . ومن يدرى ! لعله يشارك فيها أشد المشاركة حين يُغرق في وصف الحمر ، وحين يصور الأهواء الجامحة والاذات الآثمة . لأنه لم يكن يعاقر الحمر ولا يقارف الإيثم وحده ، وإنما كان فرداً من طبقة

ألفت معاقرة الحمر ومقارفة الإثم . فهو إذن لا يصور نفسه وحدها، وإنما يصور طبقة من معاصريه . وهو من هذه الناحية مشارك في الحياة الواقعة حين تكون جدًّا وكدًّا ومواجهة للمشكلات ، وحين تكون عبثًا وهزلًا ومجونًا ومقارفة للموبقات . وهو من هذه الناحية أيضًا مرآة للعصر الذي كان يعيش فيه ، أو مرآة ، إن شئت ، للون من ألوان الحياة في العصر الذي كان يعيش فيه . ولولا أن الأدباء يشاركون في الحياة الواقعة بأدبهم لما أمكن أن يلهمج مؤرخو الآداب بهذه الجمل التي يلحون علينا بها من أن الأدباء صورة لعصره ومرآة لبيئته ومن أن الأدب مصدر من مصادر التاريخ ، إلى آخر هذه العبارات التي لا تدل في حقيقة الأمر على شيء إلا أن الأدب متصل بالحياة الواقعة مشارك فيها مصور لها ، حافظ بحكم هذا كله لخصائصها التي يمكن أن تنقل من جيل إلى جيل ، وأن تصبح بعد ذلك موضوعاً لدرس التاريخ .

من السخف إذن أن يقال إن أدبنا العربي قد كان معتزلاً بالحياة الواقعة منفصلاً عنها في تلك العصور . ومع ذلك فقد يمكن أن نلاحظ أن الشعر مثلاً قد نأى عن الحياة الواقعة في بعض عصوره حين غلبت العجمة على الحياة الأدبية ، وحين تسلط المستبدون من غير العرب على حياة الشعوب واستأثروا لأنفسهم وخاصتهم بالسلطان كله ، ولم يشاركوا الشعب في قليل أو كثير من هذا السلطان ، وإنما قدسوا سلطانهم ليقدسوا أنفسهم ، واحتكروا الأمور العامة وحظروا على غيرهم أن يشارك فيها أو يخوض في ذكرها . هنالك تضاءلت الصلة بين الأدب والحياة الواقعة العامة ، وهنالك عكف الأدباء على أنفسهم وفرغوا لها ، وجعلوا يُبدئون ويعيدون فيما ورثوا من معاني القدماء ، لا يجددون شيئاً ؛ لأنهم لم يكونوا يصنعون شيئاً . فرغوا لأدب لا حياة فيه ؛ لأنهم أنفسهم لم يكونوا يحيون ، وإنما كانوا مضطرين إلى لون من الحياة يشبه الموت ، فصوروا حياتهم كما استطاعوا أن يصوروها .

فالآداب الغربي قد اتصل بالحياة العامة حين أتاحت الظروف للأدباء أن يشاركوا في هذه الحياة ، وانفصل عن الحياة العامة حين اقتضت الظروف أن يتنحى الأدباء عن هذه الحياة . وربما كان هنالك مثل يبين ذلك في غير غموض ولا لبس ، وهو هذا الذي نجمده في القرن الأول حين كان الأدب العربي مزدهراً أشد الازدهار ، وحين كانت الحياة السياسية قوية أعظم القوة ، وحين

اضطر فريق من أبناء المهاجرين والأنصار بحكم السياسة الأموية إلى الفراغ والعكوف على أنفسهم ولذاتهم . هنالك اعتزل عمر بن أبي ربيعة والعرجي وابن أبي عتيق وأمثالهم الشؤون العامة ، ولكنهم لم يعيشوا في بروجهم العاجية ، وإنما عاشوا مع الناس في الحجاز ؛ لأن الحجاز كله قد اضطر إلى اعتزال السياسة وتجنب الشؤون العامة . فكان هؤلاء الأدباء يشاركون في الحياة الواقعة من حولهم ؛ لأن هذه الحياة الواقعة كانت ابتعاداً عن السياسة واعتزالاً للشؤون العامة وفراغاً للنفس وتهالكاً على الذات . وهؤلاء الأدباء مع ذلك لم يهتموا بهذه العزلة راضين عنها محبين لها ، وإنما احتماؤها على كره منهم وتسلاوا عنها بهذا الغزل الرفيع . وهل زاد العرجي على أن صور ألمه وألم أمثاله لهذه العزلة التي فرضت عليهم حين قال :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمةٍ وسدادٍ ثغرٍ

على أن العرجي وغيره من شعراء الحجاز في ذلك الوقت قد حاولوا الثورة على هذا الاعتزال الذي فرض عليهم ، ولقوا في سبيل هذه الثورة ألواناً من العناء حفظها لنا التاريخ . والأمر لا يحتاج إلا إلى أن نفهم التاريخ على وجهه وإلى أن نقيس حياة القدماء بحياة المحدثين . فهناك مشكلة خطيرة هي التي أنشأت مسألة الاتصال بين الأدب والحياة الواقعة أو الانفصال عنها ، وهي أن حياة القدماء وحياة المحدثين إلى وقت قريب لم تكن تعتمد على الديمقراطية التي تعترف بحق الشعوب في الحرية والعدل والمساواة ، وإنما كانت تحتفظ بهذا الحق لطبقة ممتازة من الناس ، إليها وحدها السلطان ، وإليها وحدها الثقافة ، وإليها وحدها كل ما يكون الرجل الحر بالمعنى الدقيق ، فأما كافة الشعب فكانت أداة مسخرة تجمد وتكد وتشقى لتنعم هذه الطبقة الممتازة بالحكم والسلطان وبالأدب والفن وبالفلسفة والعلم .

فما عسى أن تكون الحياة الواقعة العامة بالقياس إلى الأجيال التي جرت أمورها على هذا النحو : أهى حياة الشعب الذي كان أداة مسخرة ، أم هي حياة السادة الذين كانوا يستغلون هذه الحياة ؟ هذه هي المشكلة التي خيلت إلى كثير من الناس أن الأدب كان معتزلاً للحياة العامة . ولكن حقائق الأشياء تدل في غير لبس على أن الأدب لم يعتزل الحياة العامة قط ، وإنما الشعوب هي التي أكرهت

على اعتزال هذه الحياة العامة ونحيت عنها تنحية . فالأدب اليوناني الذي كان ينشأ في أتيننا إنما كان يحفل بحياة المواطنين الأتينييين ، وهؤلاء المواطنون كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى سكان أتيننا وما حولها من المدن والقرى . والأدب الذي كان ينشأ في البصرة والكوفة وبغداد إنما كان ينشأ للذين يستطيعون فهمه وذوقه من هذه الطبقة التي أتيح لها الامتياز ، وهذه الطبقة ضئيلة جداً بالقياس إلى سكان العراق . والأدب الذي كان ينشأ في باريس وقرساي في القرن السابع عشر مثلاً إنما كان ينشأ لهذه الطبقة القليلة التي كانت تستأثر بالحياة العامة في القصر وخارج القصر ، وهي قلة ضئيلة بالقياس إلى سكان فرنسا . وما ينبغي أن تطلب إلى الأدب أن يتصل بالذين لا يستطيعون فهمه ولا ذوقه ، وإنما ينبغي أن تطلب إلى الدولة أن تهيب الشعب للمشاركة في الحياة العامة أولاً ولتفهم الأدب وذوقه ثانياً ، ثم تلوم الأدب بعد ذلك إن اعتزل الحياة العامة ، وترفع عن الاتصال بالشعوب . وقد طلب الأدب نفسه إلى أوروبا في القرن الثامن عشر تهيئة الشعب للمشاركة في الحياة العامة ، والارتفاع به عن الغفلة والجهل والبؤس ، وجاهد في ذلك حتى بلغت الشعوب منه ما أرادت في القرن الماضي وفي هذا القرن ، واتصل الأدب بالشعب ما وجد إلى الاتصال به سبيلاً . وبقيت هنا وهناك قلة ضئيلة جداً من الأدباء لم تفطن لما حدث حولها من التطور ، أو لم ترد أن تفطن لهذا التطور ، فظلت محافظة معتزلة متجافية عن الحياة الشعبية ، ولكنها لم تستطع أن تحتفظ بعزلتها وتجاهلها ، أبت أن تهبط إلى الشعب فارتقى الشعب إليها ؛ لأن الشعب إذا أخذ في الثقافة لم يقنع منها بالقليل .

وهذه المشكلة التي عرضت لأوروبا وأثارت فيها هذا الخلاف ، قد عرضت لنا نحن وأثارت عندنا هذا الخلاف في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ؛ فقد أدركتنا الحياة الحديثة ونحن على ما كان عليه الناس قبل الثورة الفرنسية : طبقة ضئيلة تستأثر بالحياة العامة فتتعم بالسلطان والثقافة وما يلائمها من الأدب ، وشعب مسخر لخدمة هذه الطبقة الضئيلة ، لاحظ له من سلطان ، ولا من ثقافة ، ولا من أدب . في ذلك الوقت كانت الصلة منقطعة أو كالمقطعة بين الأدب والشعب . ولكن التطور الحديث لم يلبث أن نبه الشعب إلى حقه ، وأن يتخذ الأدباء أنفسهم وسيلة لهذا التنبيه ، وإذا هم يتجاوزون الطبقة الممتازة إلى الطبقات المسخرة ، وإذا هم يخرجون من تلك العزلة أو قل يوسعون الميدان

الذى كانوا يعيشون فيه ؛ ليستطيع أن يتلقى أفواجاً من الشعب تستمع لهذا الأدب الذى كان يلتقى من وراء ستار . فاصبح يُلقى فى الهواء الطلق ، تسمع له الجماهير وتنشره الصحف ويسعى إلى القادرين على فهمه وذوقه فى الإقطار البعيدة من الأرض . وربما كان شوقى وحافظ رحمهما الله آية بينة على هذا التطور ؛ فقد كان شعر شوقى ينشد فى القصور ، وكان شعر حافظ ينشد فى دور الأغنياء وأصحاب الجاه . ثم لم يكد القرن يتقدم حتى أصبح شعر شوقى وحافظ ينشد فى الملاعب وينشر فى الصحف ، وحتى ذاعت دواوين شوقى وحافظ ، فتجاوزت طبقة السادة ، ووصلت إلى أيدي قوم لم يكن لهم من أمور الحكم والسلطان شئ . ثم كانت الحرب العالمية الأولى والثورة المصرية ، وإذا الحواجز تلغى بين الطبقات ، وإذا الشعب يقتحم هذه الحواجز اقتحاماً ، وإذا الأدباء الذين كانوا يترفعون عن الشعب قد أصبحوا ألسنة لهذا الشعب يعبرون عن نفسه أكثر مما يعبرون عن أنفسهم ، ويصورون حياته أكثر مما يصورون حياة أنفسهم . وقد عرفنا حياة الأحزاب السياسية ، وانقسم المصريون بين هذه الأحزاب ، فعدنا إلى حياة العرب فى القرن الأول من جهة : أحزاب سياسية لها أدباؤها وشعراؤها ، ووثبنا إلى الحياة الأوربية الحديثة من جهة أخرى : أحزاب سياسية لها أدباؤها وشعراؤها كذلك . وحقق أدبنا العربى الحديث هذه الضلة الرائعة بين حياتنا القديمة وبين الحياة الأوربية الحديثة ، واستؤنف الاتصال بين الأدب العربى وبين الشعب وحياته الواقعة العامة . فأصبح الأدباء مرآة للشعب حقاً ينطقون بلسانه ويصورون آلامه وآماله . وقد حاول أديب أو أديبان الارتفاع بالأدب عن الشعب والاعتزال فى البروج العاجية ، فلم تظفر هذه المحاولة إلا بالإخفاق الفاحش الشنيع .

وكذلك اتصل التاريخ وأصبحت الحياة الحديثة صورة مقاربة للحياة القديمة على ما بينهما من الفروق الهائلة . فأدبنا الحديث متصل بحياتنا الواقعة ، كما كان أدبنا القديم متصلاً بالحياة القديمة الواقعة . والفرق بين الأديبين عظيم ؛ لأن الفرق بين الحياتين عظيم أيضاً . حياتنا الواقعة شعبية أو تريد أن تكون شعبية لا يستأثر بها فريق من الناس دون فريق ، وأدبنا الحديث شعبى أو يريد أن يكون شعبياً لا ينشئه قوم ممتازون لقوم ممتازين . والحياة الواقعة القديمة أرستقراطية قد استتبعها أدباً يشبهها . ومن هنا نلاحظ هذه الظاهرة

الأدب بين الاتصال والاتصال

الطريقة ظاهرة الأدب المزدوج في الحياة الواقعية القديمة ، والأدب الفرد في حياتنا الحديثة : في الحياة الواقعية القديمة أهمل الشعب فغاش عيشته الخاصة ، وأنشأ أدبه الخاص ، فشاع كتاب ألف ليلة وليلة ، وما يشبهه من الأدب الشعبي . وفي حياتنا الحديثة عظم أمر الشعب وأصبح كل شيء ، فعُنى به الأدباء ، ولم يحتاج إلى أدب شعبي خاص ، وإنما اكتفى بهذا الأدب الرفيع الذي كان ينظر إليه من بعيد فأصبح الآن يذوقه ، ويتخذ غذاء للعقول والقلوب .

هذه هي قصة الاتصال والاتصال بين الأدب والحياة الواقعية ، تظهر خطورة كل الخطورة حين ننظر إليها نظراً سطحيّاً ، فإذا تعمقناها وبلونا حقائقها ، رأيناها يسيرة قريبة تنحل إلى شيء يسير قريب ، وهو أن الأدب متصل دائماً بالحياة الواقعية . فإذا أصبحت هذه الحياة الواقعية شعبية ، فليس للأدب بد من أن يكون شعبياً أيضاً . وهذا هو الذي تتجه إليه حياة الآداب ؛ لأن هذا هو الذي تتجه إليه حياة الشعوب ،

طه حسين

حق الاعتراض في هيئة الأمم المتحدة

ألفت لجنة من الخبراء الفقهاء لبحث مدى تطبيق حق الاعتراض droit de veto في هيئة الأمم المتحدة ، وقد استعمله الاتحاد السوفيتي واستعملته المملكة المتحدة صراحة ، وتساءل المتسائلون هل كان انسحاب المندوب السوفيتي من مجلس الأمن كلما جاءت مسألة إيران بعد اليوم السادس من شهر مايو الذي أعلن فيه أن القوات الروسية قد تم انسحابها من تلك البلاد مظهراً من مظاهر ذلك الحق ؟ كما ذكر الذاكرون اقتراحاً للمندوب السوفيتي ذاته بالنزول عن حق الاعتراض في لجنة « الطاقة الذرية » إذا نزل عنه مندوبو سائر الدول المتمتعة به .

وحق الاعتراض هو الحق المقرر للخمس الدول صاحبات المقاعد الدائمة في مجلس الأمن — وهن المملكة المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين وفرنسا — في الوقوف من بعض القرارات موقفاً يبطلها ويجعلها كأن لم تصدر أصلاً .

وقد قررت ذلك الحق الفقرة الثالثة من المادة السابعة والعشرين من ميثاق الأمم المتحدة؛ إذ نصت على أن قرارات مجلس الأمن « تصدر بموافقة أصوات سبعة من أعضائه يكون من بينها أصوات الأعضاء الدائمين متفقة » . ويرجع هذا النص إلى قرار من القرارات التي كان الأقطاب الثلاثة ، روزفلت وتشرشل وستالن ، قد اتخذوها في مؤتمر يالطا وجعلوه واحداً من الأسس التي يستمسكون بها في مؤتمر سان فرانسيسكو . وكانت الحكمة التي استندوا إليها في اتخاذهم ذلك القرار أن دولهم — ومعها فرنسا والصين — هي التي احتملت العبء الأكبر في الحرب ، وهي بحكم قواتها ومعداتها التي ستحتمل أكبر العبء لافي حالة قيام حرب جديدة فحسب ، بل في حالات القسر

حق الاعتراض في هيئة الأمم المتحدة

الذي يفرض على الدول المهددة لسلام العالم وأمنه منعاً للحرب العامة أو حصاراً لولاياتها في حدود ضيقة ؛ ولذلك فقد وجب أن يكون لها ذلك الحق الذي يتمشى مع ثقل تلك الأعباء .

ولقد قابلت الدول المتوسطة والصغيرة حق الاعتراض المقرر على هذا الوجه بعظيم المقاومة وشديد الاحتجاج أثناء المناقشات التي دارت حوله في مؤتمر سان فرانسيسكو ، إذ اعتبرته ناقضاً لمبدأ المساواة بين الأمم كبيرها وصغيرها المقرر في ديباجة الميثاق ، والمقول إنه المبدأ الأصيل الذي يقوم عليه النظام العالمي الجديد . وكان لمصر في هذا الصدد موقف بل أكثر من موقف . والحق أن إنجلترا والولايات المتحدة كانتا في وقت من أوقات المناقشة في سان فرانسيسكو قد أظهرتا من اللين ما بدا معه الأمل في إلغاء ذلك الحق ، لكن تشدد الاتحاد السوفيتي وتأيد فرنسا لهذا التشدد قطعاً حبل ذلك الأمل .

وعندما عرضت أحكام التصويت على اللجنة المختصة في مؤتمر سان فرانسيسكو احتدم الخلاف في شأنها على وجه لم يسبق له مثيل ، وهوجمت امتيازات الدول العظمى من جانب الدول الأخرى على أساس أن حق الاعتراض المخول لها لا وجه له ، وخاصة بالنسبة للقرارات الصادرة في مرحلة الحل السلمي للمنازعات . وخشى في هذا الشأن أن يؤدي استعمال هذا الحق إلى عجز المجلس عن السيطرة على النزاع ، فيفلت زمامه من يده ، ويتخذ مجراه خارج دائرته .

واقترحت مصر أن يعاد النظر في أحكام التصويت ، فتصدر جميع القرارات سواء كانت متعلقة بالإجراءات أو بالمسائل الموضوعية بأكثرية ثمانية أصوات على أساس رفع عدد الأعضاء إلى أربعة عشر . ويكفي أن تصدر القرارات في المسائل الموضوعية بأغلبية ثمانية أصوات وموافقة أربع من الدول العظمى الخمس متى لم تكن إحدى هذه الدول طرفاً في النزاع الذي يتعلق به قرار المجلس ، فإذا كان القرار صادراً بالقيام بعمل من أعمال القسر ، فللدولة العظمى التي لم توافق على هذا القرار أن تمتنع عن الاشتراك في هذه الأعمال ، ولكن يقع عليها ألا تقدم أي عون للدولة التي تتخذ هذه الأعمال ضدها .

على أن الدول العظمى تمسكت بالصيغة التي أقرت في مؤتمر يالطا ، ولم تتجدد اعتراضات الدول الصغرى ، فلم تقبل الدول العظمى أي تعديل فيها .

وفي أثناء المناقشة في مسألة التصويت تقدمت الدول الصغرى باستفسارات

حق الاعتراض في هيئة الأمم المتحدة

هتّى في شأن تطبيق أحكام التصويت ، وأحيلت المسألة إلى لجنة فرعية نظراً لما أثير من شكوك في مدى هذا التطبيق ونطاقه ، وخاصة بعد أن أبدت المملكة المتحدة تفسيرات ثبت في المراحل اللاحقة أنها تتجاوز ما اتفقت عليه الدول العظمى في النهاية . وتقرر أن تعد تلك اللجنة قائمة بهذه الاستفسارات تقدم إلى الدول العظمى في صورة أسئلة يطلب منها الرد عليها بجواب مشترك . وشكلت هذه اللجنة من أحد عشر عضواً ، ومثلت فيها الدول العظمى جميعاً وأستراليا وكوبا ومصر واليونان وهولندا وساقادور . واشتملت قائمة الأسئلة على اثنتين وعشرين مسألة مختلفة أريد الاستفسار عن استعمال حق الاعتراض في كل منها . ووعدت الدول الداعية إلى مؤتمر سان فرانسيسكو بإعداد تصريح مشترك منها ومن فرنسا .

وفي أثناء إعداد هذا التصريح — على حد ماورد في تقرير وزارة الخارجية المصرية عن أعمال مؤتمر الأمم المتحدة للتنظيم الدولي الصادر في سنة ١٩٤٥ والذي نستقي منه المعلومات المتصلة بتطور حق الاعتراض في اجتماعات ذلك المؤتمر ولجانه — ثار الخلاف في إحدى المسائل بين الدول الداعية نفسها . فنع أن هذه الدول لم تختلف في أي وقت على ضرورة الأخذ بإجماع الدول العظمى عند إصدار قرارات المجلس في مرحلة حل المنازعات حلاً سلميًّا فقد أثبتت مسألة حق دولة من الدول ذوات المركز الدائم في منع نظر المجلس في نزاع ليست طرفاً فيه وفي منع المناقشة بشأنه . واختلف الرأي بين هذه الدول في تفسير صيغة يالطا ، وهل هي تميز لمثل هذه الدولة هذا الحق أو لا تميز . وقد سبق أن أصدرت وزارة الخارجية الأميركية في الفترة الفاصلة بين مؤتمر يالطا ومؤتمر سان فرانسيسكو تصريحاً رسمياً يتضمن تفسيراً لأحكام التصويت المتفق عليها في يالطا على وجه يقضي بأن لاحق لمثل هذه الدولة في منع المجلس من النظر في مثل هذا النزاع ومن المناقشة فيه . ولم يخرج موقف الولايات المتحدة في المؤتمر عن حدود هذا التصريح ، بل انضمت إليها في هذا التفسير المملكة المتحدة والصين وفرنسا . أما الاتحاد السوفيتي فقد أبدى عند إعداد التصريح المشترك أن النظر في أي نزاع في مجلس الأمن والمناقشة فيه إنما يعتبر كل منهما مسألة تتعلق بالموضوع لا بالإجراءات ، وبهذا تنطبق عليهما الأحكام التي تنطبق على بقية المسائل الموضوعية كأعمال القسر وتدابير الحلول السامية للمنازعات . وأصرت

حق الاعتراض في هيئة الأمم المتحدة

الدول الداعية الأخرى على ضرورة تأكيد حق النظر والمناقشة في أي موقف يعرض أمره على مجلس الأمن ، فيجري هذا النظر وتلك المناقشة قبل أن تستعمل إحدى الدول ذوات المركز الدائم حقها في منع المجلس من الانصراف إلى اتخاذ التدابير اللاحقة المفروض اتخاذها في شأن النزاع .

وانتهى الخلاف بين الدول الكبرى بعدول الاتحاد السوفيتي عن وجهة نظره الأولى . وقد استغرق حل الخلاف وإعداد التصريح المشترك ثلاثة أسابيع تبين للجنة الفرعية بعد انقضائها أن هذا التصريح لم يتضمن الإجابة على جميع الأسئلة ، فحاولت الحصول على زيادة في الإيضاح . وإذ يئست من الحصول عليها أحيلت المسألة إلى اللجنة الفنية . وقد وجدت هذه اللجنة نفسها مضطرة إلى قبول التصريح بالحالة التي أعلن بها .

« على أن الدول العظمى أكدت أثناء المناقشة أنها في استعمال حقوقها في التصويت سيحدوها دائماً بالإحساس بتبعاتها نحو الدول الصغرى ، وإنها لن تستعمل حق الاعتراض إلا في أضيق حدوده . »

ومعنى كل هذا الذي أوردنا أن وجهات النظر إلى حق الاعتراض لا تزال مختلفة ، إذ لم تصل اللجان ولم يصل المؤتمر إلى توحيدها ، وهذا الاختلاف الباقي هو الذي دعا إلى تأليف لجنة الخبراء وتكليفها ببحث مدى تطبيق ذلك الحق .

على أن النصوص الواردة في ميثاق الأمم المتحدة لا تجعل من حق الاعتراض المقرر للخمس الدول صاحبات المقاعد الدائمة في مجلس الأمن حقاً مطلقاً .

ويجب التمييز باديء ذي بدء بين التصويت في الجمعية العامة والتصويت في مجلس الأمن . أما التصويت في الجمعية العامة فيقوم على مبدأ المساواة بين الأصوات جميعاً ، وتصدر القرارات فيها بأغلبية الثلثين فيما ستمتها الفقرة الثانية من المادة الثالثة عشرة « المسائل الهامة » ، وبالكثرة المطلقة للأعضاء الحاضرين على حد ماوردت به الفقرة الثالثة من المادة المذكورة ، لكن دون أي اشتراط خاص بأصوات الدول العظمى وضرورة وجودها بين الكثرة المقررة .

أما مجلس الأمن فقد تولت المادة السابعة والعشرون من الميثاق مسألة التصويت فيه فميزت بين المسائل « الإجرائية » والمسائل « الأخرى » .

حق الاعتراض في هيئة الأمم المتحدة

واشترطت للمسائل الإجرائية أن « تصدر القرارات فيها بموافقة سبعة من أعضاء المجلس ». دون تمييز بين أصحاب المقاعد الدائمة فيه وأصحاب المقاعد الموقوتة ، ونصت بالنسبة للمسائل الأخرى كافة على أن تصدر القرارات فيها « بموافقة سبعة من أعضائه يكون من بينها أصوات الأعضاء الدائمين متفقة » . ولكنها استثنت من هذه المسائل الموضوعية الأمور الخاصة بحل المنازعات حلاً سلميًّا ، وهي أقرب إلى محاولات التوفيق منها إلى اتخاذ الخطط ، وقضت بالنسبة لها بأن « يمتنع عن التصويت من يكون طرفاً في النزاع » وإن كان واحداً من الأعضاء الدائمين أنفسهم .

أما في المجلس الاقتصادي والاجتماعي وفي مجلس الوصاية ، فلا امتياز لصوت من أصوات الأعضاء على صوت سواء أكان صاحبه من أصحاب المقاعد الدائمة أم لم يكن .

وإذن فلا يستعمل حق الاعتراض إلا في المسائل غير الإجرائية التي تعرض على مجلس الأمن وحده ولا يكون صاحب الحق طرفاً فيها ، وهو إذا كان طرفاً فإنه لا يستعمل هذا الحق فقط بل إنه لا يشترك في التصويت أصلاً .

أما الانسحاب من المجلس — وهو الذي تكرر صدوره عن المندوب السوفيتي في اجتماعات نيويورك — فلا يمكن اعتباره مظهراً من مظاهر حق الاعتراض أصلاً ؛ إذ يجب إعلان الاعتراض صريحاً حتى يكون هناك اعتراض . وقد جرى العرف في لندن على هذه الوتيرة ، فجرت المناقشات في المسألة الإيرانية وفي المسألة اليونانية والأندونيسية وجرت قدماً ، وعرضت في بعضها اقتراحات بقرارات ، فأعلن مندوب روسيا في واحدة ، وأعلن مندوب بريطانيا العظمى في ثانية أنه لن يوافق على قرار مستند إلى ما تقدم من اقتراح . فعرض المجلس إلى الاقتراحات أخرى تقدم أصحابها بها بعد التهديد بالاعتراض ، ووصل فيها إلى تسوية أو لم يصل ، فاعترض المندوب الروسي أو البريتاني ، وحال اعتراضه الصريح دون صدور القرار .

نعم إن عدم حضور مندوب إحدى الدول صاحبات المقاعد الدائمة يجعل حكم الفقرة الثالثة من المادة السابعة والعشرين غير قابل للتطبيق ؛ وهي تنص على أن القرارات تصدر « بموافقة سبعة أصوات يكون من بينها أصوات الأعضاء الدائمين متفقة » . وفي غياب واحد منهم لا تكون هناك « أصواتهم »

حق الاعتراض في هيئة الأمم المتحدة

ولا تكون أصواتهم «متفقة» ؛ وهذه هي المسألة الجديدة التي تعرض على الخبراء .
وهي المسألة الغامضة في نظرنا بين سائر المسائل المتبينة خلال مواد الميثاق .
على أن الخبراء سيعرضون حتما لتلك القائمة من المسائل التي كانت قد أعدت
في اللجنة الفرعية التي ألفتها مؤتمر سان فرانسيسكو، ولم تحظ « بزيادة الإيضاح »
الذي كانت تتلمسه في صدد موضوع التصويت وحق الاعتراض . ولعلمهم يعرضون
في الوقت ذاته لمبدأ الاعتراض الذي تقوم القيامة من كل ناحية في وجهه ؛ لاعتدائه
على مبدأ المساواة التي يستند إليها الميثاق ، وتستند إليها هيئة الأمم المتحدة
والاتجاهات الدولية الجديدة كلها . ولعلمهم إذ يعرضون له يوصون بإلغائه
ولا سيما بعد ما بدا من جانب المندوب السوفيتي في لجنة الطاقة الذرية استعداد
للتزول عنه إذا نزل الآخرون .

محمود عزمي

جرائم الحرب ومحاكمات نورنبرج

تجرى منذ أشهر في مدينة نورنبرج الألمانية القديمة محاكمة الفريق الأول من مجرمي الحرب الألمان . وقد اختيرت نورنبرج لإجراء هذه المحاكمة لأسباب أدبية ، منها أنها كانت معقلا من أهم معاقل النازية ، وفيها عقد المؤتمر النازي الكبير سنة ١٩٣٥ وصدرت فيه قوانين نورنبرج الشهيرة لحماية الجنس الآري وإقصاء الجنس اليهودي نهائيا عن حظيرة الأمة الألمانية . وهي الآن تشهد خاتمة المأساة النازية ودمغ زعمائها الأكار بطابع الجريمة ، وربما شهدت غدا رءوس بعضهم تسقط في ساحاتها تنفيذا لحكم المحكمة الدولية .

وهذه المحاكمة هي الأولى من نوعها في ميدان القانون الدولي ، وقد سنت من أجلها أصول ومبادئ جديدة لم يعرفها القضاء الجنائي الدولي من قبل ، وصيغت أنواع جديدة من الجرائم الدولية لم يكن يسوغها العرف الدولي ، فغدت بذلك مستقى لطائفة من القواعد والسوابق التي تتصل أشد الاتصال بجرائم الحرب وتحديد تبعاتها ومعاقبة المسؤولين عنها .

على أننا نستطيع أن نعتبر محاكمة نورنبرج ، بالرغم من كونها الأولى من نوعها ، مرحلة جديدة لمحاولة قديمة . ذلك أن مسألة جرائم الحرب ومعاقبة المسؤولين عنها مسألة قديمة ترجع إلى الحرب الكبرى ، وقد كان الألمان في الحرب الكبرى كما كانوا في الحرب العالمية الثانية هدف الاتهام . ولم تدخر ألمانيا الإمبراطورية يومئذ ، شأنها في الحرب المنقضية ، أية وسيلة من وسائل السفك المروع أو التدمير الشامل إلا استعملتها ضد أعدائها : فمن حرب الغواصات ، إلى استعمال الغازات الخائقة لأول مرة ، إلى قتل الرهائن والأسرى والفتك بالمدنيين بمختلف الوسائل والصور . ومن ثم فقد فكرت الدول المتحالفة يومئذ في أن تحمّل زعماء ألمانيا الإمبراطورية تبعة هذه الجرائم ، وأن تسعى إلى

جرائم الحرب ومحاکمات نورنبرج

معاقتهم باعتبارهم « مجرمى حرب » یسألون عما اقترف بأوامرهم من جرائم أو أعمال اعتبرت منافية لقوانين الحرب .

وجاءت معاهدة فرساي فحققت للحلفاء الظافرين ، وفى مقدمتهم انجلترا وفرنسا وأمريكا ، ما أرادوا من النص على مسئولية مجرمى الحرب ووجوب محاكمتهم ومعاقتهم على ما اقترفوا من جرائم . وأفردت المعاهدة لهذه المسألة قسماً خاصاً هو القسم السابع (المتعلق بالعقوبات) ويشتمل على أربع مواد ، من المادة ٢٢٧ — ٢٣٠ وقد نص فيها على اعتبار إمبراطور ألمانيا ولهم الثانى « مرتكباً لجريمة عليا ضد المبادئ الأخلاقية الدولية ، وضد حرمة المعاهدات المقدسة » ، وعلى أن تنشأ لمحاكمته محكمة خاصة من قضاة يمثلون الدول المتحالفة تسترشد فى حكمها بالمبادئ والعهود الدولية والمبادئ الأخلاقية الدولية ، وتوقع على المتهم نوع العقاب الذى ترى تطبيقه ، كما نص على اعتراف الحكومة الألمانية للدول المتحالفة بحق إحالة الأشخاص الذين ارتكبوا أعمالاً تنافى قوانين الحرب وتقاليدها إلى محاكم عسكرية لمحاكمتهم ومعاقتهم ، وعلى أن تقدم الحكومة الألمانية إلى الحلفاء جميع الأشخاص الذين ارتكبوا مثل هذه الأعمال ، وأن تقدم جميع الوثائق والمعلومات اللازمة لإثبات الجرائم المنسوبة إلى المتهمين والبحث عن المجرمين وتقدير التبعات .

ولكن نصوص معاهدة فرساي فى هذا الشأن لم يكتب لها التنفيذ العملى ؛ فقد عجز الحلفاء عن وضع يدهم على إمبراطور ألمانيا السابق ؛ إذ لجأ إلى هولنده وأبت هولنده تسليمه تمسكاً منها بحق إيواء اللاجئين السياسيين ، ولأن ألمانيا لم تسلم أحد أبنائها الذين أريدت محاكمتهم ومعاقتهم على ما ارتكبوا خلال الحرب من أعمال اعتبرها الحلفاء جرائم يجب العقاب عليها . وساعد ألمانيا على سلوك هذه الخطة تفرق كلمة الدول الظافرة ، ولا سيما انجلترا وفرنسا ، وانسحاب أمريكا قبل بعيد من ميدان الشؤون الأوروبية .

وقد دار التاريخ دورته ، وعادت مسألة مجرمى الحرب لتتخذ فى الحرب العالمية الثانية أهمية خاصة ، وذلك نظراً لفداحة الأعمال الإجرامية التى ارتكبها الحزب النازى ، وما أنزلته القيادة الألمانية بالبلاد المفتوحة من ضروب التدمير والسفك التى لم يسمع بها . وأبدت الدول المتحالفة ، أو الأمم المتحدة ، منتهى الإصرار

والعزم على وجوب القبض على مجرمى الحرب الألمان ومحاكمتهم على ما اقترفوا من جرائم . وظهر هذا الإصرار فى صورة قرارات اتخذتها الدول المتحالفة الكبرى . أولا وقبل هزيمة ألمانيا فى مؤتمر القرم فى فبراير سنة ١٩٤٥ حيث نص ضمن قراراته على وجوب معاقبة مجرمى الحرب الألمان عما ارتكبوا من جرائم . وثانياً فى وثيقة النصر الأولى التى تضمنت شروط التسليم التى فرضت على ألمانيا (٥ يونيه سنة ١٩٤٥) وفيها نص على وجوب تسليم جميع زعماء الحزب النازى وغيرهم ممن تعلق به ريبة الإجرام النازى . وثالثاً فى مؤتمر بوتسدام (يوليه — أغسطس سنة ١٩٤٥) حيث تضمنت قراراته نصاً جديداً فى هذا الشأن .

وأنشأت الدول المتحدة الكبرى — بريطانيا وروسيا وأمريكا — لجنة مشتركة للنظر فى جرائم الحرب ، ووضع الأصول والإجراءات التى يجب اتباعها فى محاكمة المسئولين عنها . وشارت فى البداية بعض صعاب قانونية دولية حول مركز رئيسى دولتى المحور ، أعنى هتلر وموسوليني ، وهل يحاكم كل منهما أمام محكمة خاصة أم يعاقب بمقتضى قرار سياسى على نحو ما اتبع فى شأن نابوليون بونابرت ، وهو المثل الوحيد من نوعه الذى يقدمه لنا التاريخ فى هذا الباب . ولكن سرعان ما حسمت هذه الصعاب بمصرع الرجلين واختفائهما من الميدان إلى الأبد ، وفيما عدا ذلك فقد استقر رأى اللجنة على أن يقدم إلى المحاكمة سائر الزعماء والقواد والساسة الذين تلحقهم التبعة مهما كانت أشخاصهم ومراكزهم .

وقد أنشئت « المحكمة الدولية العسكرية » أو المحكمة العليا لجرائم الحرب بمقتضى اتفاق عقد فى أغسطس سنة ١٩٤٥ بين بريطانيا العظمى وأمريكا وروسيا وفرنسا ، ووصف الغرض من إنشائها بأنه « إقامة الدعوى العمومية على كبار مجرمى الحرب من دول المحور الأوربى ومعاقبتهم » . ونص على أنها تختص بمحاكمة مجرمى الحرب الذين لا تتصل جرائمهم بمحيط جغرافى معين ، ويشمل هؤلاء بنوع خاص أكبر مجرمى الحرب . أما المجرمون الأصغر فسيحاكون فى البلاد التى ارتكبوا فيها جرائمهم . وجعل مقرها الدائم فى برلين ، وهى تعقد الآن أولى محاكماتها فى نورنبرج بصفة مؤقتة للبواعث الأدبية التى أشرنا إليها .

ويلحق بهذا الاتفاق دستور المحكمة مكون من ثلاثين مادة ، يتناول إنشاءها واختصاصاتها وسلطاتها والإجراءات التي يتعين اتباعها في التحقيق وفي إقامة الدعوى العمومية . وبالرغم من أن المحكمة قد وصفت بأنها « دولية عسكرية » فإنها تتألف من أربعة قضاة فنيين ينتمون إلى الدول الأربع ، ويتولى رأسها اللورد لورنس أحد أعضاء محكمة الاستئناف الإنجليزية ، ويقوم بمهمة الاتهام فيها أيضاً نفر من القضاة وأعضاء النيابة غير العسكريين .

ويؤلف دستور المحكمة من مزيج من الأصول الإنجليزية والأمريكية وأصول القارة ، سواء فيما يتعلق بالاتهام أو النفي والسماح للمتهمين بالاستعانة بالدفاع (المحامين) وتوجيه الأسئلة ، وأن يتقدموا بأي دليل للدفاع عن أنفسهم . بيد أن المحكمة منحت فيما يتعلق بالإثبات حرية العدول عن قواعد الإثبات الفنية ، ولها أن تنتفع إلى أقصى الحدود بالإجراءات والوسائل غير الفنية ، كما أن لها أن تقبل أى دليل ترى له قيمة مرجحة .

وكما عني دستور المحكمة بالناحية الشكلية أو ناحية الإجراءات ، فقد عني في الوقت نفسه بالناحية الموضوعية ، وذلك بتعريف الأعمال التي يمكن أن تعتبر جرائم حرب وتدخل في اختصاص المحكمة ويمكن أن تلحق تبعاتها الأفراد العاديين ، وذلك على النحو الآتي :

أولاً — التآمر والاتفاق الجنائي على ارتكاب أو على ما يتضمن ارتكاب جرائم ضد السلم أو جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية .

ثانياً — جرائم ضد السلم ، وتشمل تدبير أو تحضير أو شهر حرب اعتدائية أو حرب يترتب عليها انتهاك المعاهدات الدولية أو الاتفاقات أو التأكيدات أو الاشتراك في تدبير عام أو مؤامرة ترمي إلى إضرار مثل هذه الحرب .

ثالثاً — جرائم حرب . وتشمل كل الأعمال التي يترتب عليها انتهاك قوانين الحرب أو تقاليدها .

رابعاً — جرائم ضد الإنسانية . وتشمل جرائم القتل والإبادة والاسترقاق والنفي وغيرها من الأعمال غير الإنسانية ، والتي ترتكب ضد السكان المدنيين سواء قبل الحرب أو أثناءها .

وعلى ذلك فقد اعتبرت المحكمة الدولية العسكرية هيئة قضائية لها أصول وقواعد خاصة تسير عليها بمقتضاها ، وعليها وفقاً لدستورها أن تقدر إدانة

جرائم الحرب ومحاكمات نورنبرج

المتهمين وبراءتهم وفقاً للأصول والقواعد الموضوعية ، لا وفقاً لتقديرها الخاص ؛ كما أن عليها أن تدعم الحكم الذي تصدره في حق أى متهم — بالإدانة كان ذلك الحكم أو البراءة — بالأسباب التي تستند إليها . ويتعين بمقتضى ذلك أنه إذا ثبت أن أحد المتهمين لم يرتكب جريمة من الجرائم التي عددها دستور المحكمة ، فإنه يجب الحكم ببراءته .

وقد وجهت إلى المحكمة الدولية العسكرية وإلى دستورها طائفة من الملاحظات والمطاعن الهامة ، تتلخص في كيفية تأليفها ، وفي شرعية دستورها ، وفي كونه يعتبر ذا أثر رجعى سواء من حيث التطبيق أو نوع الجرائم التي نص عليها .

فأما عن تأليف المحكمة ، فقد قيل إنها تتألف من قضاة من الأمم المتحدة الظاهرة ، وإن تأليفها على هذا النحو لمحاكمة أبناء الأمة المهزومة لا يتوافر فيه ما يجب لتحقيق العدالة من النزاهة ، والبعد عن التأثير بالعواطف والميول الشخصية ، وإنه كان خيراً لو أنها ألفت من قضاة محايدين لا تحذوهم مثل هذه المؤثرات . ويردون على ذلك بأن المحكمة تؤلف من خيرة القضاة ، وأن لها دستوراً خاصاً لا تستطيع الخروج عليه ، وأنها تجري محاكماتها في علانية تامة ، وهذا في ذاته ضمان لرقابة الرأي العام الدولي على إجراءاتها ، وأنه ليس من المحتوم في جرائم الحرب أن يتولى أمرها قضاة محايدون ، وإلا كان من المتعذر أن تقدم قضايا التجسس والتخريب أمام القضاء الوطني لدولة ما .

وأما عن شرعية دستورها ، فقد قيل إنه فضلاً عن كونه قد وضع على يد مشترعى الأمم الظاهرة ، فإنه يتضمن من الناحية الموضوعية النص على جرائم لم يعرفها القانون الدولي من قبل ، ولم تصطلح الأمم على اعتبار مثل هذه الأعمال جرائم حرب يعاقب عليها . . . كما يتضمن النص على تبعات لم يصطلح من قبل على التسليم بها . وهذا ما حاولت هيئة الدفاع عن المتهمين أن تثيره في بداية المحاكمة .

ويردون على ذلك بأنه قد يكون حقاً أن هذه الجرائم مستحدثة في القانون الدولي ، ولكنها على أى حال يمكن أن ترجع إلى بعض أصوله . فأما تهمة التآمر على السلم ، وهي التهمة العامة التي تنضوى تحتها سائر التهم الأخرى ، فلا شك أنها

جرائم الحرب ومحاکات نورنبرج

تقوم على أسس ثابتة . وقد كانت نيات الحزب النازي نحو انتهاك السلم تتطور بتطور الحوادث وازدياد مقدرته على تنفيذ تهديداته بالقوة القاهرة ، وكان الغرض وهو غزو الأمم وضم الأراضي ، والوسيلة وهي شهر الحرب بأروع الأساليب والصور ، يتحدان معاً ليسبغا على المؤامرة لوناً إجرامياً لا شك فيه .

وكذلك التهم المتعلقة بارتكاب جرائم ضد السلم ، وهي تتلخص في تدمير وشهر الحرب الاعتدائية وانتهاك المعاهدات والاتفاقات الدولية ، فهذه ليست بعيدة عن روح الأصول الدولية . ذلك لأن الحرب الاعتدائية قد اعتبرت عملاً خارجاً على القانون بمقتضى ميثاق كلوج . وإذا لم تكن قد سُنت لارتكابها عقوبة معينة ، فإن كثيراً من مبادئ القانون الدولي لم تسن لها في حالة المخالفة عقوبات معينة . وهذا الاتجاه إلى اعتبار الحرب الاعتدائية جريمة دولية يقوى ويشدد منذ الحرب العالمية الأولى ، وهو يجد صدى اليوم بصورة عملية في دستور المحكمة العسكرية الدولية . وهكذا تصبح الحرب الاعتدائية بالفعل جريمة دولية يجب أن يلقي الذين يدبرونها جزاءهم .

وأما عن التهم الخاصة بجرائم الحرب فقد اعتبرت الحرب الإجماعية ، بما تنطوي عليه من وسائل مثيرة في القتال واحتلال الأمم المسالمة ، مخالفة لقوانين الحرب وعرفها ، وعلى ذلك فلا بأس من أن يقرر العقاب على جرائم دبرت ونفذت بشناعة باعتبارها جزءاً من السياسة العسكرية العامة .

ويمكن أن يقال مثل ذلك بالنسبة للنوع الرابع من الجرائم التي تقررت المحاكمة عنها ، وهي الجرائم التي ارتكبت ضد الإنسانية . نعم إن القانون الدولي لا يعنى بالأمور الداخلية لبلد ما ، ولكن الصورة التي ارتكبت بها هذه الجرائم في ألمانيا النازية من إبادة الجماعات ، وقتل وتعذيب الألوف من الأبرياء في معسكرات الاعتقال وغير ذلك مما يجعل أثرها يتعدى إلى الجماعة الدولية سواء من الناحية المادية أو الناحية الأدبية . وبذلك تغدو ذات لون دولي .

هذا ، وأما عن الاعتراض القانوني المتعلق بكون هذه الأعمال والجرائم قد وقعت قبل سن المبادئ والنصوص الجنائية التي تعاقب عليها ، وكونها تغدو بذلك ذات أثر رجعي وهو ما ينافي أصول التشريع الجنائي ، فإنه يصعب علينا أن نجد حقيقة ما يدحضه من الناحية الفقهية . ولكن قيل في ذلك إن هذه

جرائم الحرب ومحاکات نورنبرج

الأعمال والجرائم كانت من الروعة والشناعة بحيث يستحيل أن نجد لها أى مسوغ ، وإن التمسك فى مثل هذه الحالة بأصول التشريع التى وضعت فى الأصل لتحقيق العدالة يقضى بالعكس إلى إهدار العدالة فى مثل هذه الظروف الخاصة . تلك هى النواحي الفقهية التى يمكن أن تثيرها محاكمات نورنبرج . على أن لهذه المحاكمات نواحي أدبية وتفسية وسياسية لا يمكن إغفالها .

إن الفريق الأول من مجرمى الحرب الألمان الذين يحاكمون اليوم أمام المحكمة العسكرية الدولية فى نورنبرج ، وهم أكابر المسئولين ، يضم معظم الذين بقوا على قيد الحياة من زعماء ألمانيا النازية من الساسة والقادة أمثال جورنج ، وفون ريبنتروب ، وهيس ، وروزنبرج ، وفون بابن ، وفون نويرات ، وشاخت ، وشترينجر ، والأميرال دوتتر ، والجنرال يودل ، وفون كيتل ، وبراوختش ، وفون رولشتت ، وغيرهم من أعظم هيئة أركان الحرب الألمانية . وهكذا يرى الشعب الألمانى زعماءه الذين سيطروا على أقداره وقادوه حيناً إلى النصر ، ثم ألقوا به أخيراً فى هاوية الدمار واليأس ، يدمغون بطابع الجريمة ، ويحطمون كما تحطم التماثيل الزائفة ، وتدمغ معهم الآثار الأخيرة للنظام العنيف الذى جلب على ألمانيا والشعب الألمانى أفدح كارثة عرفها فى تاريخه . وتمزيق الزعامة النازية السياسية والعسكرية ، واختفاء زعمائها من الميدان على هذا النحو ، يعاون فى التحوط للمستقبل ، وفى الحول دون قيام حركات رجعية جديدة فى ألمانيا المهزومة الممزقة ، على الأقل لأمد طويل .

ومن جهة أخرى ، فإن الأثر العميق الذى تتركه هذه المحاكمات فى الجماعة الدولية يبعث شيئاً من الأمل فى أن يتدبر المغامرون من الزعماء والساسة الذين تحفزهم عواطف التعصب القومى أمرهم . قبل المخاطرة بإثارة حرب اعتدائية لا يضمن فيها النصر المحقق . وسيدكر الرؤساء والقادة دائماً أن الهزيمة لن تنطوى على فقد المناصب والنفوذ إلى حين فحسب ، بل سوف تجلب معها تبعات الجريمة ، وعار المحاكمة ، والموت المشين .

محمد عبد الله غنانه

ذكريات

اهتماماتي الأدبية في لندن

عند ما أرجع بذكرياتي إلى البذور والجذور التي نشأت ونبتت منها ثقافتى الحاضرة أجد أنها تكاد جميعها تعود إلى الفترة الواقعة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ حين كنت فى لندن . فى تلك الفترة كانت هناك طائفة من المذاهب والنظريات ، فى الأدب والعلم ، « تتجرثم » . وقد كان من حظى الحسنى أن أدركت الجرائم الأولى لهذه الحركات . ومع أنى الآن مشرف على الستين ، فإنى أجد ، بالاستبطان ذهنى ، أن ما أعرفه أو أعتقد أو أدعو إليه من نظريات أو مذاهب فى ١٩٤٦ إنما أخذت جرائمه الأولى فى تلك الفترة . ولم تكن الزيادة فى السنين بعد ذلك سوى زيادة فى نمو هذه النظريات والمذاهب أو التوسع فيها أو التفرع منها . وظنى أن هذا هو المؤلف أيضاً فى سير التكشف الثقافى عند غيرى ، أى إننا لا نكاد بعد العشرين نجد شيئاً ، وإنما قصارانا أن ندافع عما أحببنا أو تلقينا راغبين ، ثم يبعثنا الحب إلى النمو بالتوسع والتعمق . وعندى البرهان على ذلك ، فإنى فى ١٩٠٩ ألّفت رسالة صغيرة تبلغ نحو ٣٠ صفحة بعنوان « مقدمة السبرمان » ، حين أعود إليها الآن ، أجد فيها جميع الجرائم الفكرية التى لا تزال تشغل ذهنى . وهى تمتاز بفجاجة فى الأسلوب مع فجور فى التفكير . إذا كانت تدل على عقل خام ناشئ ، فهى أيضاً تدل على عقل مستطلع واثب . واندججت فى المجتمع الإنجليزى الجديد . وأعنى بنعت « الجديد » تلك الطوائف والجماعات المستطلعة المتسائلة فى « الجمعية الفابية » و « جمعية العقلين » وأمثالها . وكان كل شئ فى تلك السنين فى البوتقة فى سبيل التغير والتطور . فقد كان حزب الأحرار فى مجده يتوده كامبل بانزمان واسكويث ولويد جورج . ولكن هذا المجد كان يحمل غبار القرن التاسع عشر ، وتراكم هذا الغبار حتى لم يستطع الأحرار أن ينفضوه عنهم ، فلم تمض عليهم بعد ذلك نحو عشر سنوات حتى خنقهم . فلم نعد نسمع عن الأحرار بعد الحرب الكوكبية الأولى . وكانت

جرائم الاشتراكية تختمر فى كل أوربا ، وكان هؤلاء الأحرار أنفسهم عجيبتها التى نمت فيها هذه الجرائم .

ولم يمض على عام فى لندن حتى وجدتني أتجه نحو اليسار أى نحو الاشتراكية . ولم يكن هذا الوجدان سياسيا فقط ، فقد وجدتني اشتراكيا قبل أن أقرأ ماركس لقوة الجذب التى كانت عند الاشتراكيين فى ناحيتي العلم والأدب . ذلك أن هؤلاء المجددين فى السياسة كانوا أيضا مجددين فى العلم والأدب ، يؤمنون بمذهب داروين ، ويؤلفون جمعيات لليوجينية أى إصلاح النسل ، كما كانوا يقرأون الأدب الروسى ونيتشه وإبسن . ولذلك أدركتني الاشتراكية عن طريق الأدب أكثر مما أدركتني عن طريق السياسة . وكان «التطور» لا يزال مذهبا أكثر مما كان نظرية علمية . ولذلك أنفق «العقليون» مجهوداً كبيراً فى المقاومة السلبية للكتب المقدسة بدلاً من أن ينيروا أو يشرحوا حقائق التطور .

وأذكر أنه فى تلك السنوات طغى الأدب الروسى على لندن . فلم يكن هناك حديث أو سمر إلا عن جوركى أو دوستويفسكى . وأذكر أنى حضرت محاضرة عن تولستوى فوجدت الحاضرين المستمعين كأنهم فى معبد خاشعين . وكانت المحاضرة أيضا أشبه بعظة دينية . وكان هذا طبعاً من الانحرافات فى تفسير تولستوى ؛ لأن مقام تولستوى فى الفن كان أكبر جداً من تلك التطوُّحات الوعظية التى شطح فيها . وأذكر أن أحد الناشرين عرض قصة صغيرة لآندرييف تدعى « السبعة المشنوقون » فسارت فى المكتبات كأنها حريق ، فلم يكن أحد يتكلم إلا عنها . وهذا يدل القارئ على المسكاة العظمى التى احتلها أدباء الروس فى لندن فى تلك الفترة ، حتى أشار إليهم برنارد شو مرة بقوله « العمالقة » . ولما عدت إلى القاهرة شرعت ، بهذا التأثير ، أترجم « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى . وطبعت منها على نفقتي جزءاً يبلغ نحو ١٢٠ صفحة . ولكنى أخفقت فى نشره حتى باعت هذا الجزء بسعر ملهم واحد للنسخة الواحدة . وثبطني هذا عن المضى فى الترجمة لسائر القصص . ولكنى دأبت فى الحديث والكتابة عن الأدباء الروس ، حتى صار كثير من القراء الذين كانوا يجهلونهم على وجدان بهم .

وفى تلك السنوات عرفت إبسن ونيتشه وبرنارد شو وولز . وأذكر أنى

قضيت ليلة كاملة إلى الصباح وأنا أقرأ نيتشه وقد أخذنى سحر أسلوبه وجراءة تفكيره . ونيتشه لا يخطو ولا يعدو ، ولكنه يقتحم . ولكنى عند ما أرجع أيضاً إلى الاستبطان الذهني أجد أنى لم أتاثر كثيراً به أو أن أثره كان مقصوراً على سنوات ، على الرغم من الحماسة التى كنت ألتقى بها مؤلفاته وأحفظ بها عباراته . فأنا الآن خلو أو كاخلو من المركبات الذهنية التى أستطيع أن أعزوها إلى نيتشه . أما مؤلفات داروين مثلاً فكنت أقرأها فى عناء ومشقة ، حتى كنت أترك الكتاب أياماً أو أسابيع ثم أعود إليه يحفزنى إحساس الواجب لا الرغبة ؛ فلم يكن له فى صدرى حماسة . ومع ذلك هو الباقي الآن فى كيانى الثقافى . وكتابى « نظرية التطور وأصل الإنسان » هو إحدى ثمرات داروين . ولا تزال هذه النظرية تفتق فى خلاياى الذهنية ، وتحملنى على توسع وتعمق فى التفكير البيولوجى والسيكولوجى والاجتماعى .

وهنريك إبسن يعد الآن من الكتاب القدامى ، ولكنه كان جديداً فى تلك الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ . وكان وقعه فى نفسى كبيراً ، أكبر مما كان فى نفوس قرائه الأوربيين . وذلك لأنه كان يجدد فى مجتمع كنت أعده أنا جديداً بالمقارنة إلى مجتمعنا المصرى الجامد ؛ إذ كنت أدمن التفكير فى حال المرأة المصرية والمرأة الأوربية ، وكنت كثير الإعجاب بحريتها فى باريس ولندن وأنها تملك جزءاً كبيراً من مصيرها وتقرره . ولكن درامة إبسن « بيت اللعبة » أو « بيت عروس » كشفت لى حقائق ، وبسطت لى آفاقاً جديدة ؛ لأن ما كنت أتوهمه عن حرية المرأة أو استقلالها فى أوربا إنما هو فى نظر إبسن لم يكن سوى طلاء نراه يخفى حقيقة الاستعباد القائمة ؛ لأن المرأة لا تجد من المجتمع سوى التدليل لأنها لعبة الرجل أو هى كالعروس من الخشب يلعب بها الأطفال ، أطفال الرجال الذين لا يطبقون المساواة الحقيقية بينهم وبين النساء . ومغزى الدراماة أن المرأة يجب أن ترتفع من الأثوية إلى الإنسانية ؛ ويجب أن ترفض التدليل وأن تربي نفسها وتكسب الاختبارات فى هذه الدنيا ؛ لأنها إنسان قبل أن تكون زوجة أو أمّاً .

وعندئذ انجابت عن ذهنى غشاوة ؛ واتضح لى أن المرأة الأوربية كالمرأة الشرقية سواء ، وأن ما بينهما من فرق إنما هو طلاء الحضارة فقط ، أو هو فرق الدرجة فى الاستعباد . وهو استعباد بعيد أحياناً عن أية رحمة أو رأفة ؛ لأن المرأة

التي تعمل كالرجل لا تحصل على أجره ، وفى أقطار أوربية كثيرة كانت لا تحصل على ميراثه . وكانت الجامعات ترفض قبولها طالبة ، كما كانت ترفض الدولة قبولها نائبة أو مرشحة لعضوية المجالس البرلمانية .

وليس لهذه الدراما قيمة فى أوربا الآن ؛ لأن الحال تغيرت فى ١٩٤٦ عما كانت عليه فى ١٩١٠ ، بل تغيرت كثيراً جداً . وكثير من هذا التغيير يعزى إلى هذه الدراما التي أهابت بالمرأة أن تكون إنساناً له شخصيته ومكانته فى هذه الدنيا قبل أن تكون أنثى أو زوجة لها مكائنها فى البيت .

وكننت فى تلك السنوات لا أعرف عن المسرح إلا ما كان يخرج له لنا سلامة حجازى من التمثيل الميلودرامى والأغاني الغرامية . فكانت الدراما عندي لهواً فنياً لا أكثر . ولكن إبسن جعل الدراما اجتماعية بل أحياناً فلسفية . وقرأته فى انتباه وقلق وتفكير كثير . وأصبحت أصد ، فى اشمئزاز ذهني ، عن المرأة المؤنثة المغناج ، وأحترم المرأة العاملة الكاسبة التي تصر على أن تحيا وأن تعرف وتمتبر . وعندى أن إبسن كان محورياً فى ثقافتى ؛ لأن دراماته بعثتني على دراسات أخرى متصلة بالموضوعات التي عالجها هو فى أسلوبه الدرامى .

وإذا كانت أوربا قد أهملت إبسن الآن فذلك لأنها تعلمته وعملت بجميع مبادئه . ويعد برنارد شو إحدى ثمرات إبسن ، فإن جميع دراماته اجتماعية وفلسفية . ولكنه يختلف عن معلمه من حيث عجزه عن الكمال الفنى الذي استطاع إبسن أن يرتفع إليه .

وقد تأثرت كثيراً ببرنارد شو . وعند ما أسائل : لماذا لم أؤلف كتاباً عنه إلى الآن ؟ أعود بذكري إلى محاولات فى هذا التأليف كان يصدني عن المضى فيها أنى أعرف الكثير عن برنارد شو . فصعوبتي هي صعوبة خراش ، بل هي أكثر . وهي أنى زيادة على أنى سأضطر إلى الاختيار مع الإسهاب والتفصيل فإننى أيضاً سوف أواجه من المبادئ والأفكار والفلسفات ما أحتاج إلى تفصيله مما لا يطيقه قارئ رجعى أو جامد لم تتفتح مسام ذهنه للتفكير العصري بل المستقبل . فإن برنارد شو يفكر للمستقبل . وهو علمى الذهن يفكر على آفاق فلسفية بلغة أدبية . وقد أمضيت من حياتى نحو أربعين سنة وأنا أتعلم على يدي هذا الحكيم الذي أعد حياته فى عصرنا نوراً وناراً لجميع الذين يعرفونه . ولا أظن أنه فاتنى شيء مما كتب .

والكاتب ينفعنا إما بما يبسط لنا من معارف ، وإما بما يرسم لنا من خطط واتجاهات . ورنارد شو من النوع الثانى ؛ لأنه يسدد العقول الزائغة نحو أهداف بشرية جديدة ، ويبعثنا على الاستطلاع العلمى للدنيا والإنسان والمستقبل . والنزعة العلمية فى رنارد شو قوية جداً ، ولكنها ممزوجة بنزعة فنية أيضاً . ولذلك نشعر كأنه يحس بعقله ويفكر بقلبه . وهو أحياناً يسب ويهاتر ويهدد بالمعانى العلمية . ومشاجرته مع داروين بشأن « تنازع البقاء » هى مشاجرة فلسفية سيتوقف على الإجابة عليها ، وخاصة بعد اختراع القنبلة الذرية ، مصير الإنسان . إذ ماذا يكون مصير ٩٩ فى المئة من البشر إذا ثبت أن الحق للقوة ، مهما يكن نوع هذه القوة ؟ أو إذا كان معنى تنازع البقاء هو بقاء الأصالح كما نراه فى عصرنا ؟

لقد ردَّ رنارد شو على دراوين بأن ذكره بأن المسيح لم يكن صالحاً للبقاء . . . فى النظام البيولوجى الذى وضعه داروين للتطور .

ورنارد شو مجاهد . وأدبه هو الأدب الجهادى ، أو كما يسميه هو الأدب الصحفى ؛ لأنه يبحث الهموم والاهتمامات العصرية بالذهن العلمى فى ضوء المستقبل . وقد أحدث لى مركبات أو عقداً أدبية وفنية ذهنية كثيرة فى حياتى الثقافية لا تزال إلى الآن مثار التفكير والتأمل .

وأحياناً حين أتأمل الكاتب العظيم أجد أنه عظيم من حيث إنه قادر على أن يترك لنا عقدة ذهنية ، فى المعنى الحسن ، تترتب عليها أفكار واهتمامات متصلة متشابكة نامية . فقد ترك إبسن فى ذهنى عقدة ذهنية هى « الشخصية الاستقلالية » التى هى الواجب الأول على كل إنسان . وترك رنارد شو عندى طائفة من العقَد ربما كان أهمها هو النظر البيولوجى للإنسان ، وأن التطور المستقبلى للبشر يجب أن يكون له المقام الأول عند أية حكومة متمدنة . بل هو يقترح أن تكون لكل دولة وزارة خاصة بالتطور غايتها بحث الوسائل كي تتطور الأمة .

ولا عبرة بأن تكون له أخطاء وأوهام . إذ ماذا نبألى ، كما يقول نيتشه ، أن يكون فى رأس المفكر بعض الديدان ؟

ولم أر رؤيا واحدة فى رنارد شو ، بل رأيت ثلاثاً أو أربعاً . والرؤيا الأولى هى الاشتراكية الإنسانية . وهى بالطبع لا تختلف عن اشتراكية ماركس

العلمية . ولكن برنارد شو ، لأنه أديب وفيلسوف وفنان ، جعل المذهب الاشتراكي مذهباً إنسانياً ، ودمغ بالخزى كل من يجهل الاشتراكية أو لا يسعى لها . وهو الذى استطاع أن ينشر هذا المذهب بين الأثرياء ، لأنه أثبت لهم أن أموالهم لا تساوى همومهم وما يتعرضون له من قلق ، وأن الاشتراكية إنما جاءت لتغنى وتزيد لا لتفقر وتنقص .

والرؤيا الثانية هى ديانة برنارد شو ، فإن مشاجرته مع داروين ينتهى مغزاها إلى أنها مشاجرة دينية . إذ كيف يمكن أن نساكن إلى كون يكون محوره ومغزاه تنازع البقاء وبقاء الأصلح ؟ وقد قلت إن من الموانع التى حالت دون تأليفى عن برنارد شو أنى أخشى الأذهان الجامدة التى لم تتسع مسامها الذهنية للآراء الجديدة . وهنا أيضاً أقول إنى عاجز عن بعض الإسهاب أو التفصيل لديانة برنارد شو . وقصاراى أن أقول إنها ديانتي وإن عمودها الفكري هو التطور الذى يعد فيها أسلوباً وهدفاً .

أما الرؤيا الثالثة فهى الإيمان بالعلم بل السلوك العلمى ولكن مع الدين . وعلم بلا دين هو القنبلة الذرية وبقاء الأصلح كما يفهم هذا الأصلح أو يتخيله تجار منشستر ونيويورك . ولكن العلم مع الدين هو السعادة البشرية والتطور إلى السبرمان .

وبرنارد شو مثل جيته قد جعل من حياته كتاباً آخر ، بل ربما كان هذا الكتاب أحسن مؤلفاته . فإن الناس يقرءون حياته ويستوحون منها القدوة والصلاح . فهو الآن فى التسعين ، وقد عاش منها ستين سنة وهو نباتى . وهو يسير كل يوم ساعياً على قدمية نحو سبعة كيلومترات ، ويقرأ ويكتب كما لو كان فى الثلاثين أو العشرين . وهو يخفف من ألم الحقائق بالفكاهة ، تلك الفكاهة الجدية النارية التى تخرج منه كأنها تشنجات الحكمة أو وخزات الفلسفة .

ومن عجب أن هذا الرجل ، الذى تترشد بأرائه وتستشير برؤاه أحسن الطبقات المثقفة فى العالم ، هذا الرجل لم يتعلم قط فى مدرسة أو جامعة . وقصارى ما حصل عليه تعليم أبت فى السنتين الأولى والثانية من المدرسة الابتدائية . ولكن إذا عدّ هذا تقصيراً أو قصوراً فى النظام التعليمى وبرامجه ، فإنه يجب علينا أن نعدّ ارتقاء برنارد شو إلى القمة فى الثقافة العصرية برهاناً على أن الثقافة السامية قد أصبحت مشاعة بين الجمهور ، بحيث إذا توافر الذكاء

والعناية استطاع أى فرد منه أن يصل ، من الكتب المطبوعة ، إلى أرقى ما يستطيع المتعلم فى الجامعة بل أكثر . وهذا ما لا يمكن أن يقال فى قطر مثل مصر . وإنما يقال مع التأكيد عن فرنسا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة ؛ لأن الثقافة شائعة تفشو فى كل مكان بكل طراز الابتدائى والمتوسط والعالى . ولذلك سرعان ما يتعلم الأمى أو من هو فى مقامه ويتسلى إلى القمم .

وهناك شخصية فذة أخرى كانت محورية توجيهية فى حياتى هى شخصية ه . ج . ولز . وظنى أنه الآن فى مرض الموت . وكل من شو وولز يبحثان العالم وكأنهما يشرفان عليه كما يشرف العمدة فى ألفة ومعرفة على قريرته . ولكن بينهما مع ذلك فرق ؛ فإن شو يتجاوز الأعماق والآفاق إلى ما وراءهما . وولز يتعمق ولكنه لا ينظر إلى ما وراء الآفاق . يعيش على الأرض فى حين يعيش شو فى السماء ، حتى لنحس ونحن نقرأ ولز أننا نختنق بهواء المدينة ولو أننا نتحدث إلى رجل يعرف كل ما فيها ، ولكننا نحس حين نقرأ شو أننا نتنسم أوزون البحر المعقم . وكلاهما طائر ، ولكن ولز يدرج بقلمه يحلق . أما شو فدأبه الطيران والتحليق . والمغزى فى شو أن الإنسان سيتغير ، جسماً ونفساً ؛ لأن التطور يقضى بذلك . ورسالته هى أن يبعث وجدان التطور فى قرائه .

ولكن المغزى فى ولز أن المجتمع سيتغير ، فى نظمه وأخلاقه ؛ لأن الآلات قد أحدثت قوات اقتصادية جديدة سوف تضطر أمم العالم إلى أن تكون أمة واحدة . ورسالته هى أن يبعث فى قرائه وجدانا هو أن هذا العالم قريتنا الكبرى .

وولز هو بلا شك الأب الروحى للعالم الجديد ؛ فإنه يدعو إلى لغة واحدة وثقافة واحدة . بل لقد ألف فى شرح الطرق التى يجب أن تتخذ للإيجاد موسوعة عالمية يتحد فيها أبناء هذا الكوكب فى آراء واتجاهات نحو الخير والحضارة . وله ثلاثة مؤلفات تدل على اتجاهه العالمى . أولها « خلاصة التاريخ » . وقد ألفه عقب الحرب الكبرى الأولى حين كانت عبارة « الحرب لأنها الحرب » تجري على الألسنة وتوحى الخيالات الزاهية بشأن اتحاد العالم . وهذا الكتاب هو محاولة نيرة خيرة غايتها أن تفهم أن الحضارة القائمة هى مجهود البشر جميعهم . وأن هذه الأمم الكثيرة المختلفة إنما هى أمة واحدة ، أو يجب أن تكون كذلك . وكتابه الثانى : « علم الحياة » هو دعوة إلى النظر العلمى لهذه الدنيا وسكانها من

الاحياء . وهى دعوة دينية علمية . وكتابه الثالث : « أعمال البشر وثمرتهم وسعادتهم » هو بحث فى حاضر البشر وطاقاتهم لحضارة قادمة . وقد كان أثر وولز عندى نفسياً أكثر مما كان ذهنياً : أى إنه كسبى مزاجاً عالمياً يكاد يكون مساوياً للحاسة الوطنية ، فإن اهتمامى بالحركة الوطنية مثلاً فى الهند يحرك عاطفتى ويشير انفعالى كالحركة الوطنية فى مصر . وكنوز أفريقيا من الحيوان تشغل ذهنى وتثير غضبى عند ما أقرأ عن عبث الصيادين فى الغابات ، كما تشغل ذهنى وتثير غضبى سياسة الإنجليز فى زراعة السودان أو ضبط مياه النيل . بل كسبت من وولز مزاج التساؤل والاستطلاع والتوسع الثقافى فى العلم والأدب والفن .

وقد كان اهتدائى إلى شو وولز عن طريق الجمعية الفابية حوالى سنة ١٩٠٧ . ولكنى واليت اتصالى بهذين الكاتبين إلى وقتنا هذا . وهما يدرسان السياسة العالمية على آفاقها العالية . ومفتاح دراستهما هو الاشتراكية والتطور . وفى الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ كان إبسن وشو وولز عالقين بقلبي يرسمون لى معالم دراساتى فى المستقبل . ولكن كان هناك مؤلف آخر تسلط فترة قصيرة على ذهنى ، وكان تسلطه نارياً ثم عاد تحريراً ، أعنى به نيتشه . فقد التهمت مؤلفاته فى حماسة ولذة فعصفت بى . وكان ظنى وقتئذ أنه فتح لى أبواباً كانت مغلقة من قبل . ولكن الحقيقة أنى كنت مأخوذاً بسحره فى الأسلوب وجرأته فى التفكير ، وهما سحر وجرأة يستهويان الشباب . وهو يؤلف النثر وكأنه يقرض الشعر ، ويفكر وكأنه يقتحم . وانتفعت كثيراً بتحليله للأخلاق . ولكن هذا التحليل بالطبع فقد قيمته بعد أن عرفت التحليل الماركسى ، وإن كان كلاهما ينتهى إلى أن الأخلاق السائدة هى أخلاق السائدين . ولكن ماركس وصل إلى هذه النتيجة بالتحليل الاقتصادى للمجتمع على حين وصل إليها نيتشه بالتحليل التاريخى اللغوى . أما أخلاق الأقوياء التى دعا إليها نيتشه وجعل منها ديانة جديدة يجب أن يبشر بها الفيلسوف الجديد فقد استهوتنى سنوات ، بل انخدعت إليها وآمنت بها بتأييد من نظرية التطور حين استسلمت لتنازع البقاء وبقاء الأصلح . ولكن رويداً رويداً تقهقر نيتشه من وجدانى وتغير عندى مغزى التطور . بل تطورت عندى نظرية التطور ؛ فلم يعد نابليون هو السبرمان ، ولم يكن للإمبراطوريات مغزى التفوق البيولوجى الذى كاد نيتشه يوهنى أنه كذلك .

وعرفت من ذلك ماركس وجيته وفرويد . عرفتهم عن سبيل تلك المركبات أو العقْد الذهنية التى أحدثها لى شو وولز وإيسن وداروين .
وفى تلك السنوات أيضاً كان فى لندن مجلات أسبوعية أدبية كثيرة تختص بدراسة الأدب الإنجليزى والأوروبى . وكانت «ذى أثينيوم» ثم «ذى أكاديمى» أقوى هذه المجلات . وكانت الأولى راقية حاوية موضوعية . أما الثانية فكانت شخصية جدلية ، وكان محررها اللورد ألفريد دوجلاس صديق أوسكار وايلد . وكان شاعراً أنيقاً ، ولكن تاريخه الماضى وعلاقته بأوسكار وايلد جعلاهما الجمهور الإنجليزى المحافظ يصد عنه ، وكانت مجلته تنزوى فى استحياء فى المكتبات يسأل عنها طالبها .

والعجب أنه ليس عند الإنجليز الآن مجلة أسبوعية واحدة للأدب إذ استثنينا الملحق الأدبى للتيمس ومجلة جون أو لندن وهى تكتب للعمامة . وقد يعد القارئ هذه الحال تأخراً للحركة الأدبية ، ولكنى أعدّه تقدماً . ذلك أن الأدب انتقل من برجه العاجى ، أدب للأدباء ، إلى الميدان الاجتماعى بل السياسى والاقتصادى ، ولذلك فإن المجلات السياسية الإنجليزية تعالج الأدب فى عناية وخبرة تدلان على أنها تعرف قدره فى التفكير والتوجيه . أو قل إن التطور السياسى فى أوربا قد أصبح حافلاً بالانقلابات والانفجارات ، وإنه جذب إليه جميع الأدباء ، ولذلك صار الأدب مذهبياً يتحزب ويتشيع لآراء معينة فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد .

وهذا هو ما يجب أن يكون ؛ لأن الأدب للأدب هو الأدب فى الخواء . وقد يقال حسْبُ الأدب أن يكون إنسانياً . ولكن كيف يكون كذلك إذا لم يشتبك فى المشكلات الإنسانية الحاضرة : السياسة والاقتصاد والاجتماع ؟
ووجدت من هذه الحركات الأدبية فى تلك السنوات توجيهاً لى وتربية . وكثير من مؤلفاتى ، إن لم يكن جميعها ، اتجهت فيها هذه الوجهة الاجتماعية ، حتى صرت أوصف بآنى « كاتب اجتماعى » . وكأن هؤلاء الواصفين أرادوا أن يميزوا بينى وبين الأدباء الذين ما زالوا يفصلون بين الأدب وبين الاجتماع . ولكنى ، مع ذلك ، أجد فرقا أساسياً آخر بينى وبين بعض الأدباء فى مصر ، هو أنى أمارس طرازاً من البلاغة يمارسون هم غيره . ذلك أن طرازى أوروبى وطرازهم عربى . وقد حملتى هذا الفرق أن أولف كتابى « اللغة العربية والبلاغة

العصرية « ، لأن بلاغتنا التقليدية لا تلابس حضارتنا العصرية ، وقد وجدت فيها عجزاً عن التعبير لشئون عصرنا ، فاخترت أسلوباً آخر للتعبير الذى يجمع بين الفن والاقتصاد ، كما يكون على وجدان بقيمة التفكير ثم التعبير العلمى . فإن معاجنا العربية التى ورثناها عن الأدب العربى تقول مثلاً إن الطب هو السحر . ولكننا فى القرن العشرين نقول إن السحر هو الخرافة . وإن الطب قد صار علماً تجريبياً اجتماعياً بيولوجياً . ويجب ، لهذا السبب ، أن تلابس البلاغة العصرية عند الكاتب العصرى ، هذا الطب الجديد فتكون هى أيضاً علماً تجريبياً اجتماعياً بيولوجياً . وبكلمة أخرى أقول : إن البلاغة ، كاللغة ، اجتماعية . أى إنها تخدم المجتمع وتلابسه . فإذا تغير المجتمع وجب أن تتغير البلاغة . ومجتمع القرن العشرين يحتاج إلى بلاغة القرن العشرين ، بلاغة العلم والاجتماع الجديدين لا بلاغة العباسيين ولا بلاغة الأمويين .

سلامه موسى

عودة الربيع

يا زوجتي في وَحْشة القبرِ عاد الربيعُ وأنتِ لم تدري
 عاد الربيعُ فحيثما التفتتُ عينُ رأتَه ضاحكَ الثغرِ
 هذى معاهدنا مزيّنةً منه بمثل يبارق النصرِ
 والبيتُ عادت دَوْحُه عَجَباً تزهو بأوراقٍ لها نَضْرُ (١)
 وعلى ذوائب دَوْحِه اضطربت مُحمراً عناقيدُ من الزهر (٢)
 وتجاه مجلسنا بَشْرَفَتِه نيلٌ — ولا كالنيل — من تبرِ
 شمسُ الربيعِ كَسَتْهُ حُلَّتْهَا وَهْجاً يضاحك صفحة النهرِ
 وكأنما مَسْرَى نسائمه نَسَمُ الحياة بأرضنا يسرى
 عاد الربيعُ وذى مواكبُه سكرانةٌ باللون والعطرِ
 عاد الربيعُ وذى مواكبِه يحدو لها شِدْوٌ من الطيرِ
 ما هزّني للبشر موكبُه بل هزّني للحزن والذكرِ
 هيهات تدعوني مفاتنه ماتت دواعيهنّ في صدرى
 يا زوجتي مرَّ الربيعُ هنا مرَّ الربيعُ عليكِ في القبرِ

عبد الرحمن صدقي

(١) نضر مصدر ويستعمل نعتاً يقال شيء نضر كقولهم شهود عدل (لسان العرب) .
 (٢) الإشارة إلى شجر بوانسيانا ريجيا *Poinciana regia* وبه يزدان أكثر من شارع
 في ضواحي القاهرة .

بين الحرب والجغرافيا

الخطط الكبرى في الحرب العالمية الأخيرة

يميز العسكريون في دراسة الحرب بين الخطط التكتيكية والخطط الاستراتيجية . وهم يقصدون بالأولى خطط الحرب التي تتصل بحركات الجند المحلية في الميدان ، وتوجيهها حسبما تقضى به فنون الحرب ، وظروف الطبيعة ، وحاجات القتال من يوم ليوم ، أو من ساعة إلى أخرى ؛ ويتولى وضع هذه الخطط والقيام على تنفيذها قواد الميدان وضباطه المحاربون . أما الخطط الاستراتيجية فيقصدون بها رسم سياسة الحرب الأساسية ، وإدارة دفتها فيما يتصل بمناطق الارتكاز الكبرى ، والمواقع ذات القيمة العسكرية الحيوية ؛ ومن حيث خطوطها واتجاهاتها الأساسية في توجيه الحركات الكبرى في الهجوم أو الدفاع . ومثل هذه الخطط الاستراتيجية كثيراً ما يشارك في وضعها رجال الدولة من غير العسكريين ؛ فرسمها يحتاج إلى أفق أوسع من الأفق العسكري الخالص ؛ كما أنها تتصل بتنسيق أداة الحرب كلها تنسيقاً يشمل مختلف مرافق الحياة الإنتاجية ، ويوجه عمليات الحرب في ميادين متباعدة أشد التباعد ، تشرف عليها — في حالة الحروب العالمية الحديثة — أكثر من دولة واحدة ، ويتوقف النجاح فيها على عوامل كثيرة ، بعضها سياسى يتصل بالمعاهدات والتحالفات والاتفاقات السرية والعلنية ، وبعضها اقتصادى يتصل بالإنتاج والتموين والنقل وتبادل المعاونة ، وبعضها الآخر معنوى يتصل بالمبادئ والمُثل العليا في السياسة ونظام الحكم وفي الدين والاجتماع عند مختلف الأمم والشعوب .

ومهما تكن تلك العوامل التي تتصل برسم خطط الحرب الأساسية ، فإن العهد الحديث قد امتاز بأن العلم أصبح فيه يوجه حياة الإنسان ونشاطه بما في ذلك الحرب ذاتها ، وهى لا تعدو أن تكون مظهرًا عنيفاً من مظاهر النضال والكفاح من أجل بقاء الأصلح . ولذلك فقد اتصلت أداة الحرب

المخطط الكبرى في الحرب العالمية الأخيرة

وإدارتها بألوان مختلفة من العلم والتنظيم العلمى ؛ وأصبح لازماً لكي تنجح الحرب أن يسبقها ويصحبها تنظيم فنى دقيق يستند إلى أسس علمية وعملية فى الوقت ذاته . فالحرب الحديثة تعتمد على السلاح الذى لا ينتجه غير العلم والتطبيق الفنى للمعرفة العلمية ، كما تعتمد على دقة التنظيم وحسن التوجيه فى استخدام ذلك السلاح الذى لا يفيد مضأؤه إلا إذا استعمل فى اتجاهه الصحيح ، وفى حدود خطته المرسومة . وفوق ذلك كله فقد زاد من اعتماد الحرب والتسلح على العلم والمعرفة والمهارة الفنية وحسن التنظيم والتنسيق أن الحرب قد أصبحت فى العصر الحديث « شاملة » للحياة المدنية فى جميع مرافقها ، وأصبح المحاربون فيها لا يقتصرون على أولئك الذين يقفون فى الصف الأول وفى جبهة القتال ، وإنما يشملون أيضاً أولئك الذين يعملون فى الإنتاج والنقل وتنظيم الآداة والإدارة فى المدن والمصانع وفى الحقول والمناجم ، بل وعلى طرق البر والبحر والهواء . ولذلك كله فإن تنظيم الحرب أصبح معناه تجنيد الحياة القومية كلها . وفى هذا العهد الذى أصبحت فيه السلم استعداداً وانتقالاً إلى الحرب صار لازماً أن يشمل التخطيط والتنظيم والتوجيه حياة الأمم فى السلم والحرب على السواء .

على أن ما يعنينا فى هذا المقال إنما هو أن نحاول تتبع الحرب العالمية الأخيرة فى خططها الكبرى من ناحية التنفيذ وإجراء الحرب ذاتها ، وتوجيه حركات الهجوم والدفاع من الجانبين توجيهاً يتمشى مع ظروف الطبيعة والمواقع الجغرافية ، ويعين على كسب الحرب فى النهاية . ومن المتفق عليه بين العسكريين أن الحرب العالمية الأخيرة جاءت فى جولتين ، فصلت بينهما فترة استجمام واستعداد بين الهدنة فى عام ١٩١٨ واستئناف القتال فى عام ١٩٣٩ . بل إن من المتفق عليه أيضاً أن هذه الحرب بجولتيها إنما ترجع فى الأصل إلى دوافع تتصل بنهضة ألمانيا الحديثة وسعيها إلى أن تستكمل أسباب قوتها وسلطانها بين جاراتها الأوربية من جهة ، وإلى أن تتوسع فيما وراء البحار وتنتزع السيطرة العالمية من بريطانيا سيدة البحار من جهة أخرى . ولذلك فإن خطط الحرب فى الجولتين وما سبقهما وتوسطهما من فترات استعداد إنما هى خطط ترمى إلى غاية مرسومة ومحددة ، هى السطاطان فى أوربا والسيطرة فيما وراء البحار ! ولذلك فإنه على الرغم من اختلاف ظروف الحرب فى الجولة الأولى عنها فى الجولة

الثانية ، فإن هناك عناصر مشتركة بين الجولتين لا يمكن إلا أنه يلمسها الباحث الذي يعنى بالأساس والجوهر قبل أن يعنى بالعرض والمظهر .

وقد بدأت ألمانيا استعدادها للحرب والنضال ضد بريطانيا في مطلع القرن الحالى ، فدعمت مركزها في القارة ، لا سيما قلبها وجنوبها الشرقى ، ووثقت صلاتها بإمبراطورية النمسا والمجر القديمة وكذلك بإيطاليا ، وكونت كتلة قوية من دول الاتحاد الثلاثى وأنصارها . ثم سعت في الوقت نفسه إلى تقوية أسطولها وإعدادة للنضال المقبل من أجل سيادة البحار . ولكنها من هذه الناحية كانت أعجز من أن تعد أسطولاً يعادل أسطول بريطانيا ، التي كان لها من التقاليد البحرية والخبرة بالملاحة وحرب البحار ما تجمّع خلال أجيال طويلة ، كما كان لها من أساطيل التجارة والحرب ما لا يمكن أن يبنى مثله ولا أن يعد رجاله إلا في فترة طويلة من الزمن . ومع ذلك فقد أحست بريطانيا بمصدر الخطر والمنافسة الجديدة ، فضاعفت جهودها في الاستعداد البحري ، كما أخذت سبيلها إلى إنشاء محالفات أوربية تناظر ما سعت إليه ألمانيا في قلب القارة . وكان أن حالفت بريطانيا فرنسا في الغرب ، كما حالفت روسيا في الشرق ؛ وسعت الدبلوماسية البريطانية إلى أن تقطع السبيل على ألمانيا في زحفها السياسى والاقتصادى نحو جنوب القارة الشرقى وأرض الإمبراطورية العثمانية .

تلاحقت الحوادث واقترب الحصان الأصيلان من أن يقفأ وجهها لوجه ؛ وتطايّر الشرر وكاد يشتعل لهيب الحرب أكثر من مرة . وكان أبرز إنذار جدى بالحرب حادث أجدير في عام ١٩١١ ، عند ما شخصت قطع من أساطيل الطرفين إلى ذلك المرفأ الصغير على ساحل إفريقية الشمالية الغربية ، وظهر التحدى الذى لا يمكن أن يكون وراءه غير الشر ، ولا يمكن أن ينتهى إلى غير الصدام ! . . . وهكذا لم يعد إشهار الحرب الفعلية إلا مسألة زمن وانتهاز للفرص .

وجاءت الفرصة في وقت أحست فيه ألمانيا وأنصارها ، أو خيل إليهم ، أنهم قد استكملوا الاستعداد ، وأن من الخير أن يبدءوا النضال قبل أن يتجمع لحلفاء الغرب أكثر مما تجمع لديهم من قوة ، بل قبل أن يتخذ هؤلاء الحلفاء عدتهم كاملة وحذرهم شاملاً ، بعد أن تكررت عليهم النذير ، وتوالت قرائن الشر من المعسكر الجرماني النمساوى . وهكذا شرت الحرب ؛ وكان طبيعياً

أن تشتعل أول الأمر في أرض البلقان ، تلك المنطقة التي تختلط فيها القوميات وتتنافر المصالح ، وتجرى تيارات السياسة الدولية في كل اتجاه . كما كان طبيعياً أن الحرب متى بدأت واشتركت في إثارتها دولة كبرى كإمبراطورية النمسا ، فإن يكون إلى حصرها من سبيل . ولا بد من أن تنتشر لتشمل أوروبا كلها ؛ فالحدود السياسية بين الدول في هذه القارة يصح أن يكون كثير منها مثار نزاع ؛ لأنها لا تتمشى مع الحدود الطبيعية ، ولا مع توزيع السلالات والقوميات ، ولا مع مال لكل دولة من مجال اقتصادي حيوي . وبذلك فقد كان الجو مهيأ لأن يشارك المتذمرون — وما أكثرهم ! — في حرب أقل ما يقال فيها إنها تشبع رغبة نفسانية ، وتعلل الشعوب بآمال لم تحققها السلم ولا وسائلها السلمية ، فعسى أن تحققها الحرب وما تنتهي إليه من نصر يطمع فيه الجميع !

وتطورت الحرب سريعاً ، واتضح خطتها ، فصار لها ميدانان : أحدهما غربي والآخر شرقي . وفي الغرب اتجهت ألمانيا صوب أراضي بلجيكا في السهل الجنوبي من الأراضي الواطئة ، رغم أن المعاهدات الدولية كانت تضمن استقلال تلك البلاد . ذلك أن طريق الأردن والفلاندر كان طريق الغزو التاريخي لمن يريد أن يأخذ فرنسا من أيسر سبيل ، ولمن يريد أن يقف في مواجهة بريطانيا ، ويتخذ لنفسه قواعد بحرية لحرب الغواصات وحصار الجزر البريطانية وقطع طرق البحر التي هي كجبال الوريد بالنسبة لبريطانيا . ومع ذلك كله يظهر أن ألمانيا لم تكن مستعدة الاستعداد كله عند ما أقدمت على هجومها هذا ؛ فهي من ناحية البر لم تستطع أن تبلغ هدفها وهو باريس ، وإنما وقفت دونها من الشمال الشرقي ، حتى جاء جوفر وهزم طلائع جيوشها هزيمة منكرة في موقعة المارن في مطلع الحرب ، على بعد عشرات قليلة من الكيلو مترات من العاصمة الفرنسية ، ورد فريقاً من الألمان على أعقابهم ، كما أجبر قواتهم الأساسية على أن تحفر خنادقها لتقيم فيها اتقاء للارتداد . وبالتدريج تحولت حرب الميدان الغربي من حرب متحركة على سطح الأرض إلى حرب خنادق ، ترابط فيها الجيوش تحت الأرض ، ولا تتحرك الجبهة إلا زحزحة من أحد الجانبين أو الآخر لمسافات قصيرة لا تذكر . فكان الحرب في هذا الميدان قد شئت حركتها ، وتقرر مصيرها أن تصبح حرب مناوشات طويلة الأمد ، تستنفد الجهد ولا تؤدي

الخطط الكبرى في الحرب العالمية الأخيرة

إلى نتيجة سريعة . وقد بقيت كذلك بل بقي هذا الميدان الغربي أتوناً يلقي فيه الجانبان برجالهم الفرقة تلو الفرقة ، فيحصدونها الموت دون أن يستطيع أحد الجانبين أن يحقق نصراً يذكر . ولم ينقذ الموقف آخر الأمر إلا انحلال الروح المعنوية ، ثم قيام الثورة الداخلية في ألمانيا عام ١٩١٨ ، مما استتبع انسحاب جيوش الألمان عن مواقعها في الغرب ، وتقدم الحلفاء في نصر غير صريح من الناحية العسكرية الخالصة ، ولا مسلم به من جانب الجيش الألماني وقادته على الأقل . وهكذا انتهى الأمر « بهدنة » ربما كان مرجعها ضيق النفوس بالحرب ، وسأمها من عدم الوصول إلى نتيجة فاصلة ، أكثر مما كان مردها إلى نصر حاسم من جانب الحلفاء . وقد ارتدت جيوش ألمانيا البرية إذ ذاك إلى ديارها في نظام عجيب .

فأما من ناحية البحر فيظهر أن استعداد ألمانيا أيضاً لم يكن كاملاً . فقد حرصت بريطانيا في الفترة السابقة للحرب على أن يكون أسطولها معادلاً لمجموع أسطولي أية دولتين أوريبتين معا . ولذلك بقي الفرق كبيراً في القوة بين أسطول بريطانيا وأسطول ألمانيا . ولم تستطع قوات ألمانيا البحرية أن تبلغ نتيجة فعلية أو فاصلة في شل حركة الملاحة من حول بريطانيا ، وإجاعة أهلها أو إرغامهم على التسليم . ومع أن ألمانيا قد اتجهت منذ البداية نحو إنشاء أسطول قوى من الغواصات وبثه حول بريطانيا ، فإن هجومات تلك الغواصات لم يباغ ذروته من القوة إلا في عام ١٩١٧ . ومهما قيل عن أن بريطانيا قد شارفت على الهلاك والتسليم في ذلك العام ، فإن الشيء المهم أنها قاومت ، وأن عدم استطاعة ألمانيا أن تبلغ شأواً هجومها البحري على قوافل السفن وطرق الملاحة قبل ذلك اعطى بريطانيا الفرصة لإتمام الأهبة ومواجهة الهجوم بما انتهى إلى إحباطه ولقد كان عامل الزمن على الدوام في جانب البريطانيين !

كل هذا حدث في الغرب ، وقد كان الميدان الأصلي والأهم في حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . فأما في الشرق فقد تقدم الروس سريعاً في أرض روسيا الشرقية ؛ ولكن الألمان مالبثوا أن هزموهم شر هزيمة على يد قائدهم هيندنبرج ؛ كذلك تقدمت جيوش الروس ثم ارتدت في أراضي غاليسيا وعلى حدود إمبراطورية النمسا والمجر ، ثم أصيبت تلك الجيوش بنحسائر فادحة في عامي ١٩١٦ ، ١٩١٧ ؛ وساعد ذلك على قيام ثورة البلاشفة . ومع أن ذلك كان مما يجوز أن

يطمع الألمان والنمساويين ، وأن يغريهم بجارتهم العتيقة ، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بقدر ، فهم كانوا فيما يبدو مشغولين بالحرب في الغرب والجنوب . وعلى كل حال فإن الحرب في الميدان الشرقى ما لبثت أن دخلت في مرحلة ركود ، انتهت بانكماش روسيا وانطوائها على نفسها ، بعد أن وجد البلاشفة أن من الخير أن يعكفوا على إصلاح الحال في بلادهم ، وأن يدعوا الرأسماليين والاستعماريين يدق بعضهم أعناق بعض في ميادين الغرب والجنوب .

وفي جنوب أوروبا كان هناك الميدانان الإيطالي والتركي . ففي أرض إيطاليا كانت تلك الدولة ، إلى حد ظاهر ، عالة على حلفائها ، أكثر مما كانت عوناً لهم . فقد وقفت إيطاليا متذبذبة في أول الأمر ، رفضت أن تحارب في جانب حلفائها الأسبقين ، وهم الألمان والنمساويون ، بحجة أنهم بدءوا الحرب بالهجوم ، ولم يكن حلف الاتحاد الثلاثي المعقود في عام ١٨٨٢ ليقيدوها بمد يد المعونة إلا في حرب الدفاع . ومع ذلك فهي لم تقف في جانب حلفاء الغرب صراحة إلا بعد مداولات ومداورات وشروط تضمنتها معاهدة لندن السرية في عام ١٩١٥ . وأخيراً دخلت إيطاليا الحرب فإذا بجيوشها تتذبذب بين النصر والهزيمة ، ثم إذا بها تحتاج إلى العون لدرء الهزيمة ، ولمنع النمساويين من الالتفاف وأخذ الميدان الفرنسي من الجنوب . وقد أدرك حلفاء الغرب ارتباط الميدان الإيطالي بالميدان الغربي من الناحية الاستراتيجية ، فأمدوا إيطاليا بالعون ، وساعدوها على حماية جناحهم ضد النمساويين حتى حانت ساعة النصر .

أما في الميدان التركي فقد تعقدت الأمور ، واستمر النضال سجالاً في البر والبحر . وكان الألمان قد أدركوا قيمة الشرق الأوسط فأتوه من بابه في القسطنطينية ، وسندوا قوات تركيا المتداعية . ولكن الحلفاء كانت لهم قواعد هامة في ذلك الشرق ، لا سيما في مصر التي ما لبث البريطانيون أن توسعوا منها إلى البلاد العربية ، حيث استغلوا ثورة العرب ضد الأتراك . وانتهى الأمر بانقشاع نفوذ العثمانيين وزوال سلطانهم ، وحلول نفوذ الحلفاء ، لا سيما بريطانيا محل الدولة العثمانية في كثير من أرجاء العالم العربي . والمدهش أن الحرب الأصلية انتهت في أوروبا ، ومع ذلك فقد استمر الحلفاء الإنجليز والفرنسيون لعامين أو ثلاثة يحاربون لتوسيع نفوذهم وتثبيت أقدامهم في أراضي العرب بعد أن أبرزت الحرب قيمة تلك البلاد ومواقعها في ربط طرفي العالم .

الخطط الكبرى في الحرب العالمية الأخيرة

وكان هناك ميدان آخر منعزل في تلك الحرب هو ميدان المحيط الهادى . فقد ارتبطت اليابان ببريطانيا بمحاكمة عسكرية منذ عام ١٩٠٢ ؛ وتعلم اليابانيون كثيراً من شؤون التجارة والاتصال بالعالم الخارجى من حلفائهم ومعلمهم البريطانيين ؛ وتعلموا منهم كذلك فنون الحرب البحرية وقيمة الأساطيل الحديثة بالنسبة لإمبراطورية من الجزر ، تريد أن تنشر نفوذها وأن تكون لها السيطرة على ما حولها من بحار . وقد بادرت اليابان بإعلاق الحرب على ألمانيا ، ثم انطلقت بأساطيلها وقواتها البحرية فطردت الألمان من كثير من جزر المحيط ، وحلت محلهم فى مناطق النفوذ العسكرى والنقط الاستراتيجية الهامة فى تلك الجزر ؛ ثم احتفظت لنفسها بالانتداب عليها بعد الحرب ، واتخذت منها قواعد توثبت منها فى حربها الأخيرة ومحاولتها التوسع على حساب حلفائها السابقين .

من هذا العرض السريع نستطيع أن نتبين أن خطط القتال فى الجولة الأولى من الحرب العالمية كانت تدور ، إلى حد كبير ، حول التنافس الأصيل بين بريطانيا وألمانيا من أجل السيطرة على اتصالات أوروبا بالعالم الخارجى . ولم تخسر ألمانيا تلك الجولة لأنها انهزمت فى البر ؛ فجيشها بقيت إلى النهاية منتصرة فى الميدان الشرقى ، انتصاراً سجلته معاهدة برست ليتوفسك مع الروس فى عام ١٩١٨ ؛ وجيشها لم تهزم فى الغرب انهزاماً ماحقاً ، بل إن معارك الحرب البرية لم تدرفوق أراضي ألمانيا ذاتها ، وإنما كانت فى خارجها ، وبقيت كذلك حتى تراجعت جيوش الرايخ إلى أرض الوطن ، غير مطاردة ولا مختلة النظام . وقد خسرت ألمانيا الجولة لأنها لم تتخذ من قوة البحر وقواعده ما تستطيع به أن تخنق بريطانيا عدوها الأصيلى . . . بل عدوها الذى استطاع أن يؤلب من حوله الانتصار والحلفاء فى الغرب والشرق ، وفى العالمين القديم والجديد ، فاشتمل معسكر بريطانيا وحلفائها على حكومات تمثل ١٤٣٠ مليون من سكان العالم ، على حين لم يبق فى معسكر ألمانيا غير حكومات تمثل ١٦٠ مليون فقط . وهكذا لم يكن النصر غير مسألة زمن ؛ حتى إذا انهارت جبهة ألمانيا القومية فى الداخل جاء النصر كالثمرة هزتها الريح فسقطت ، وكان سقوطها فى الميدان الغربى .

وانقضت الفترة ما بين الهدنة فى عام ١٩١٨ وإعلان الحرب فى الجولة الثانية عام ١٩٣٩ . ولما كانت الحرب فى جولتها الأولى لم تصل إلى نتيجة فاصلة ، فإن

الخطط الكبرى في الحرب العالمية الأخيرة

الدوافع الأولى والعوامل الأساسية التي أدت إلى الحرب في عام ١٩١٤ ما زالت باقية . فأوروبا قارة صغيرة ، تتراحم فيها الأمم ، وتختلط الحدود ، وتتداخل القوميات ، وتتشابك المصالح والمواصلات ؛ فلا يمكن أن تستقر العلاقات بين الدول على حال واحدة إلى أجل طويل . وأوروبا لها مصالح فيما وراء البحار ، تطمح ألمانيا ، وهي الدولة الكبرى التي تتوسط القارة ، في أن تنتزع السيطرة عليها من بريطانيا التي تقف على باب القارة ، وتحتكر السيطرة على طرق البحار ، وموارد كثير من مناطق النفوذ والمستعمرات . وقد استغرقت ألمانيا بضع سنوات قبل أن تفيق من صدمة ١٩١٨ ؛ ولكن نهوضها كان أسرع كثيراً مما تصور أكثر الناس في ذلك الوقت . وسرعان ما أدرك الحلفاء أن ألمانيا قوة لا يمكن كبتها ، كما لا يمكن تنظيم أوروبا تنظيماً مجدياً بدونها ؛ فكانت اتفاقات لوكارنو في عام ١٩٢٥ ، ودخول ألمانيا في عصبة الأمم . ومع ذلك فلم يكن من المعقول ولا الطبيعي أن ترضى ألمانيا بوضعها هذا ، وأن تقنع بما تركت لها معاهدة فرساي من مجال حيوى مبتور الأطراف مقصوص الجوانب ، وهي الأمة التي تستشعر ، من مواردها في الثروة والرجال ، ومن موقعها الجغرافي ومكائنها في النهضة الأوروبية الحديثة ، مايؤهلها لأن تتزعّم القارة . ولذلك كله ما لبثت خطط ألمانيا أن برزت من جديد ؛ وأراد قادتها هذه المرة أن يكون وضع خططهم على أساس من الدراسة والتقدير أكثر عمقاً وأبعد مدى مما حدث في العهد القيصرى ؛ فرأينا النازية الحديثة تضع نصب أعينها عدة أمور : أولها حسن التنظيم والتربية في الداخل حتى لا تتكرر مأساة الثورة الداخلية التي جلبت في نظرهم هزيمة ١٩١٨ ، ثم توطيد نفوذ ألمانيا في القارة ذاتها حتى لا تشغل الدولة نفسها بحروب محلية عند ما يحين وقت الكفاح العالمى ؛ ولذلك سعى الرايخ حثيثاً لاستعادة أراضيه في السار ، ووحد ما بين ألمانيا والنمسا ، وضم جانباً من تشكوسلوفاكيا ، وعمل جاهداً لاستعادة دانزج وأجزاء معينة من بولندا ، ولو أنه لم يوفق لكل ما يريد . كذلك رسم قادة النازى خططهم على ألا يحاربوا في جبهتين أو أكثر في أوروبا أو خارجها إلا مضطرين تحت قهر الظروف . ذلك أنهم قدروا أن قوة ألمانيا في تماسكها كتلة واحدة تضرب في اتجاه موحد . ومع ذلك فقد قدروا للظروف احتمالاتها ، فكسوا ألمانيا بشبكة من الطرق الجيدة ، وأعدوا عدتهم بل اتخذوا عتادهم من النوع الميكانيكى

السريع الحركة والذي يسهل نقله من ميدان إلى ميدان ، ووضعوا خطط ما أسموه بالحرب الخاطفة ، تلك التي تمكنهم من الضرب يميناً أو شمالاً بأسرع ما يكون ، والتي يتحول معها القتال من حرب مواقع إلى حرب حركة . وهم في ذلك كانوا قادة ومنظمين عسكريين من طراز جديد ممتاز . ولكنهم للأسف — أو لحسن الحظ — لم يقدرُوا عوامل أخرى ؛ منها أن هذا النوع من القتال السريع يقتضى الوصول إلى نتائج فاصلة وحاسمة في أقصر وقت ممكن ؛ وأن الخطة الخاطفة إن أخفقت في الوصول إلى غايتها كاملة كانت عرضة للانهياب ؛ لأن عامل الزمن يكون على الدوام في الجانب الآخر وضد صاحب الحرب الخاطفة . وقد أدرك أعداء الألمان من البريطانيين والروس هذه النقطة إدراكاً عميقاً ، وإن قصر عن إدراكها الفرنسيون . فما إن لمح البريطانيون منفذاً إلى إطالة الحرب في أية صورة حتى نفذوا منه ؛ وما إن رأى الروس وسيلة إلى تشتيت جهد الغزاة من الألمان والمصاهرة لهم لإطالة النضال يوماً واحداً حتى عمدوا إليها . وهكذا كان الألمان مقامرين في حربهم وفي خططهم ؛ قد ركزوا كل قواتهم في اندفاعات خاطفة كان من الجائز أن تصل بهم إلى نتيجة فاصلة ، ولكنهم لم يقدرُوا أن أى تعطيل أو انحراف عن الوصول إلى الغاية المحددة في الوقت المحدد معناه أن السهام تطيش وويل لمن تطيش سهامه في حرب حديثة يتكاف فيها إعداد السهم من القوى والموارد ما لا سبيل إلى تعويضه !

كذلك أخطأ الألمان وأنصارهم في تقدير بعض العوامل الجغرافية الكبرى ، التي كان لها أعمق الأثر في تحديد مجرى الحرب ، والتي كان ينبغي أن يحسبوا لها حسابها وأن يجعلوا لها من القيمة أكثر مما فعلوا . وأول هذه العوامل أن ما يقارب ثلاثة أرباع سطح الكرة يغطيه الماء ، وأن من يريد أن يتسلط على شؤون هذا الكوكب واتصالات سكانه بعضهم ببعض ينبغي أن تكون له سيادة البحر ، وأن يسيطر فوق ذلك على مواقع وقواعد بحرية حصينة على طول طرق المواصلات ؛ فإذا لم تيسر له هاتان الميزتان وجب أن يرسم خطته على أن يحصل منهما على أكبر قدر مستطاع . وقد يظهر أن الألمان النازيين أدركوا هذه الحقيقة إدراكاً كاملاً ؛ ولكنهم على كل حال قصرُوا دون إدراكها على وجهها الكامل الصحيح ، وأرادوا أن يستعوضوا عن قصورهم من هذه الناحية

الخطط الكبرى في الحرب العالمية لآخيرة

بقوة الجو ، التي أضافت عنصراً جديداً في الحرب الآخيرة ، ولكنها لم تغير الحقائق الجغرافية الثابتة . وقد رأينا النازيين في مطلع الحرب في الجبهة الغربية ، أى في صيف عام ١٩٤٠ ، يحتلون شواطئ أوروبا الغربية على نطاق أوسع كثيراً مما فعلوا في الحرب السابقة ؛ فهم قد احتلوا النرويج والدانمرك وسواحل هولندا وبلجيكا وسواحل فرنسا الغربية كلها حتى حدود أسبانيا الموالية . وكان قصدهم من وراء ذلك أن يقفوا في مواجهة بريطانيا على طول الساحل ، فتتخذ غواصاتهم وطائراتهم قواعدهما في كل مكان ، تشن الغارة وتبعث الرعب في البحار المحيطة ببريطانيا ، كما تضاعف الصعوبات أمام الأسطول البريطاني في محاولته ضرب الحصار البحري على القارة الأوروبية . ولكن الألمان لم يدركوا أن هذه الخطة لا يمكن أن تنجح وأن تؤتى نتيجةها إلا إذا صحبتها — بل سبقتها — خطة أخرى ترمى إلى إنشاء أسطول بحري يناظر الأسطول البريطاني المرابط حول الجزر البريطانية ويكون كفؤاً لمنازلته في عرض البحر . فقد ثبت أن الأسطول الألماني بتكوينه الذي كان عليه عند قيام الحرب كان مضطراً إلى الالتجاء معظم الوقت في موانئه وقواعده أو قرب السواحل التي تحميها الطائرات ؛ وهو ، فيما دون الغواصات ، لم يساهم كثيراً في ضرب الحصار وتضييق الخناق على بريطانيا ، التي تابعت قوافلها البحرية سيرها . وجاهد الألمان وكابروا طوال سنوات ثلاث كان عامل الزمن فيها حليف بريطانيا ، حتى انتصرت هذه الآخيرة في موقعة الإطلنطي ، وهي الموقعة الكبرى التي امتدت بطيئة خلال عامين بل ثلاثة على سطح المحيط ، وتقرر فيها لمن تكون سيادة البحار وما يتبعها ويترتب عايتها من سيطرة عالمية .

وقد يختلف العسكريون في تقدير النتيجة لو أن هتلر تقدم وغزا بريطانيا عقب نصره الخاطف في صيف عام ١٩٤٠ ، ولكن الحقيقة التي ينبغي أن نعترف بها هي أن هتلر لم يكن له من أساطيل البحر وعدته ما يسمح له بغزو بريطانيا إذ ذاك ، وإلا لم يتراجع عن ذلك . ويظهر أنه جرب قوة الجو ، فكانت موقعة بريطانيا الجوية في أواخر الصيف وأوائل الخريف من عام ١٩٤٠ ، فجاءت نتيجةها مثبطة للهمة مقعدة للعزم ، واضطر هذا الفاتح الذي كانت الطبيعة أوسع من أن يشملها حسابه ، وأفسح من أن يحيط بها تقديره ، اضطر إلى أن يتواضع تواضعاً لم يكن بد من أن يجبر وراءه الهزيمة يوماً ما . فبريطانيا رأس

الحرب المدبر ، ومصنع الحرب الدائب على الإنتاج ، وقاعدة الحرب التي لا بد أن يتجمع فيها من القوة والسلطان ما يؤذن بغزو القارة من جديد . وسرعان ما انقلب الوضع في الميدان الغربي من هجوم من ناحية ألمانيا ، إلى قعود ثم دفاع . وكان على ألمانيا إذ ذاك أن تحصن ذلك الشاطئ الطويل ، الذي امتد آلاف الكيلومترات ، والذي انقلبت مزية الطول فيه ، فصارت الآن على الألمان بعد أن قدر النازيون أن تكون لهم .

وفي غزو الميدان الغربي وإعادة فتح الجبهة الغربية تعلم البريطانيون من درسهم السابق في الحرب الماضية ؛ فهم لم يعمدوا هذه المرة إلى غزو القارة إلا بعد أن تأكدوا من أن قوتهم وقوة حلفائهم تبلغ أضعاف قوة العدو . ذلك أنهم لم يريدوا أن تفتح الجبهة قبل أن يكمل الاستعداد ، فتقلب الحرب فيها إلى حرب خنادق يصح أن تطول إلى سنوات ، كما حدث في حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ عندما كان الحلفاء يُعيدون فرقهم ثم يبعثون بها إلى الميدان واحدة إثر أخرى فيحصدوها الموت أولا فأولا ، وتلتهمها النيران قبل أن تصيب نجحا يذكر . ولقد تجلت شخصية تشرشل وواسع خبرته كرائد حرب وواضع خطة في أنه مارس في هذه المرة ضبط النفس وقاوم إلحاح أعدائه بل حلفائه ، لا سيما الروس منهم ، فلم يفتح الجبهة الثانية في عام ١٩٤٢ ، ولا في عام ١٩٤٣ ، وإنما انتظر حتى تم استعداده ، واستعداد الأمريكيين بنوع خاص ، في عام ١٩٤٤ وتمسك قبل ذلك بأن يكتفى حلفاء الغرب بحملة إفريقية الشمالية ، ثم بمناوشات الميدان الجنوبي ، حيث كانت إيطاليا أضعف نقطة في استحكامات المحور وقلعة أوروبا المحورية .

فأما الحقيقة الجغرافية الثانية التي لم يقدرها النازيون حق قدرها (كما لم يقدروا قيمة الاستعداد البحري الشامل) فهي أن مسافات اليابس ينبغي أن يحسب حسابها على وجه دقيق ، وأنه كلما طالت المسافات صعب الاتصال واستنفدت الطاقة البشرية . وأوروبا كما نعلم قارة تضيق في الغرب ولكنها تتسع كلما اتجهنا نحو الشرق ؛ ولذلك فإن الألمان كانوا كلما توسعوا نحو الشرق في الميدان الروسي اتسعت أمامهم المساحة وازداد طول الميدان ، حتى جاء وقت امتدت فيه جبهتهم من فنلندا في الشمال إلى البحر الأسود والقوقاز في الجنوب . واتساع الجبهة هذا معناه صعوبة التركيز في الهجوم ، الذي بدأ قويا مركزا ثم

وق في قوته وتهادى في سرعته وتراخى في اندفاعه ، حتى أصبحت الجبهة « خطأ » رقيقاً ، لا يصلح لمتابعة الهجوم ، بل لا يقوى على الثبات والدفاع . والواقع أن الطبيعة الجغرافية للميدان الروسى لم تكن لتعين على نجاح غزو يأتى من الغرب ؛ لأن جهود النازى تنشئت وتبعثر كلما توغل نحو الشرق ؛ وذلك بالطبع في مصلحة المدافعين . أما إذا جاء الهجوم من الشرق ، فإن قوى الغزاة وأجنحة جيوشهم تتجمع وتتركز ويقابل بعضها بعضاً ويسند بعضها بعضاً كلما توغلت نحو الغرب . ولعل هذا هو السر الأكبر فى أن هجوم الروس المضاد بدأ فى شعب متفرقة ، لاقى بعضها بعضاً حتى بلغت غايتها متساندة متكاثفة ، على حين تفرقت ریح الألمان وطاشت سهامهم فى هجومهم المبعثر نحو الشرق .

والحق الذى تدل عليه كل القرائن أن هتلر وأعوانه عندما قرروا غزو روسيا فى صيف ١٩٤١ لم يحسبوا للمسافات حسابها الدقيق ، ولم يحتاطوا لظروف المناخ والطبيعة الجغرافية إذا لم يتم النصر فى خلال أشهر أو أسابيع معدودات ، كما كانوا يقدرّون — فيما يقال — . وقد دفع قادة الحرب الهتلرية والمسؤولون عن خططها ثمن ذلك التقدير الخاطئ أرواحاً كثيرة بلغت عدة ملايين من الجانب الألمانى وحده ، وجعلت من ذلك الميدان الشرقى طاحونة الحرب الضروس التى كلفت الإنسانية من الأرواح أضعاف ما كلفها الميدان الغربى ، الذى قصد به فى أول الأمر أن يكون ميدان الحرب الأساسى .

وأما الحقيقة الجغرافية الثالثة التى غفل عنها المحوريون ، فهى أن الحرب العالمية مهما اختلفت أساليبها واتسعت ميادينها وتعددت جبهاتها ، لابد أن ترتبط فيها الخطط ، وأن يُنسّق الإشراف على تنفيذها فى مختلف الميادين والجبهات . ومع ذلك فقد ركز الألمان جهودهم أول الأمر فى ميدان واحد أو ميدانين أوريين ، وغفلوا أو تغافلوا عما وراء ذلك من ميادين . فقد سيطرت عليهم فكرة الحرب فى ميدان واحد ، وتجنب الحرب فى ميدانين فى آن واحد ، إلى درجة ملكت عليهم تفكيرهم فى غير ذلك من فنون الحرب ومقتضياتها وأحكامها . ولذلك قد غفلوا عن ميدان إفريقية الشمالية شهراً متلاحقة بعد دخول إيطاليا الحرب إلى جانبهم حتى دفعوا ثمن إهمالهم غالباً فى النهاية . ذلك أنهم تركوا الإيطاليين يحاربون حربهم فى إفريقية الشمالية والشرقية حتى ضعفت قواعدهم وتضععت مراكزهم فى الحبشة بصفة خاصة ،

وحتى تمكن البريطانيون من أن يثبتوا أنفسهم في مراكز قيادتهم وقواعدهم الهامة في مصر وشرق إفريقيا بل وفي الشرق الأدنى أو الأوسط عامة . وبعد أن تم كل هذا تنبه الألمان والتفتوا إلى حليفهم ، وبعثوا بروميل ومدده إلى شمال إفريقيا . ولكن موقف البريطانيين كان قد أصبح من الثبات ، وجناحيهم الجنوبي (الحبشي) والشرقي ، كانا قد أصبحا من الأمان بحيث استطاعت قواتهم وقوات حلفائهم الثبات أول الأمر ثم الاندفاع آخره ، حتى اكتسحت مواقع المحور في شمال إفريقيا ، وبلغ الحلفاء إيطاليا ، على نحو ما هو معروف .

وقد يحسن هنا أن نشير إلى ارتباط الحرب في كل من شمال إفريقيا وجنوب روسيا . فقد التفت الألمان فيما يبدو إلى الشرق الأوسط ولو متأخرين ، ولكنهم بدلا من أن يسعوا إليه مباشرة عن طريق اليونان والدوديكانيز ثم لبنان وسوريا والعراق ، أرادوا أن يبلغوه دائرين في حركة التفاف مزدوجة ، فمدوا ذراعا إلى روسيا الجنوبية والقوقاز ومدوا الأخرى إلى إيطاليا وشمال إفريقيا وصحراء مصر . ولكن الذراعين كانتا من التباعد واختلاف الظروف بحيث لم يكن مستطاعا رسم خطة مشتركة توحد بين حركات الجيوش المهاجمة في كل منهما ، وتنسق تلك الحركات بحيث تستطيع إحدى الذراعين أن تعين الأخرى فيما قد تتعرض له من شدة أو محنة ، شأن كل ذراعين تعملان معاً ومن أجل غاية واحدة . ولعلها لم تكن مجرد مصادفة أن تنكسر إحدى الذراعين في ستالينجراد عندما انكسرت الذراع الأخرى في العلمين . ولقد كانت هاتان الموقعتان على أبواب الشرق الوسيط ، نقطة تحول قاطع في مجرى هذه الحرب العالمية .

وفوق ذلك فإن عدم ارتباط الخطط المحورية فيما بينها قد تمثل في ناحية أخرى لا تقل خطورة عما سبق . . . ذلك أن اليابان حاربت إلى جانب المحور من أجل غاية مشتركة هي تحطيم الديمقراطية وسيطرتها العالمية ، ولكنها — فوق دخولها الحرب متأخرة شيئاً ما — حصرت نفسها في ميدانها وعملت من أجل مصالحها الخاصة . وقد كانت مقتضيات الحرب الحقيقية تحتم أن تسعى اليابان لتتصل بالمحور في الغرب عن أي طريق ، فتهاجم روسيا في الشرق مثلاً ، وبذلك تخفف الضغط عن الألمان في ميدانهم الشرقي ، وتسعى لأن يلتقي جناحا المحور أو يتقاربا على الأقل في أرض الروس . أو توجه هجومها البحري في ناحية الهند وشرق إفريقيا وجزيرة مدغشقر وبحر العرب ، على أمل أن تقترب شيئاً ما

من قوات المحور الممتدة نحو البحر المتوسط والبحر الأحمر ، أو أن تقطع مواصلات الحلفاء البحرية في غرب المحيط الهندي وبين جنوب إفريقيا والهند والبحر الأحمر على الأقل . ولكن الذي حدث هو أن اليابان فضلت أن تعمل منفردة وحسابها الخاص في ميدان المحيط الهادئ ؛ وأن تركز قواتها في احتلال جزر الهند الشرقية وجزر المحيط الهادئ ، ثم تتجه نحو استراليا بدلا من أن تتجه نحو المحيط الهندي . وقد شنت اليابان بذلك قواتها في اتجاه لا يقربها من قوات المحور ومواقعها فيما وراء البحار . والواقع أن الحلفاء قد أفادوا من هذا الخطأ إلى أبعد حد ، حتى إنهم استطاعوا أن يرسموا خططهم في مرحلتين : أولاها تقضي بالفراغ من الميدان الأوربي بتركيز الهجوم على إيطاليا وألمانيا ، مبتدئين بالأولى لأنها أضعف حلقات المحور ، حتى إذا ما انتهوا من الفاشيين والنازيين فرغوا — وفرغت معهم روسيا ذاتها آخر الأمر — لليابان فحطموها على انفراد .

نخرج من هذا الحديث بأن قصة الحرب العالمية ، كما عرضناها في هذه السنوات الثلاثين أو الأربعين الأخيرة ، قصة تستحق الدراسة والتفكير وإنعام النظر . وكلما تعمقنا في دراستها برزت لنا نواحيها المختلفة ، واتضح لنا ارتباط نتائج النضال فيها بحسن تدبير الإنسان ومحاولة الاستفادة من الظروف الجغرافية العامة . والحق أن الحرب لم تعد مجرد قتال بين أقوياء تجمع لهم من القوة فوق ما يستطيعون التحكم فيه ، وإنما هي قد غدت علما وفنا على السواء ، بحيث يستحيل على جاهل بعد اليوم أن يحارب بنجاح ، وبحيث لا يكتب الفوز بعد اليوم إلا لأولئك الذين يفكرون ويرسمون ويفيدون من عبر الماضي ، ويستجيبون لما تقتضيه ظروف البيئة التي يحاربون فيها . وويل لأولئك الذين يندفعون بعد اليوم في حرب لا يدركون الغاية منها إدراكا صحيحا ، ولا يحسنون رسم الطريق الذي ينبغي أن تسير فيه .

وقد يفيدنا وينير سبيل المستقبل أمامنا أن نحاول الخروج من هذه الحرب المنتهية بدرس أخير . ذلك أن هذه الحرب بجولتها إنما قامت في الأصل على أساس النزاع بين الجرمان والبريطانيين من أجل السيطرة العالمية . وقد أخفق الأولون لأنهم لم يرسموا خططهم كما ينبغي أن ترسم ، أو هم قد رسموها متأثرين

بعامل التحدي والاستفزاز بدلا من أن يتأثروا بعامل الفكر الرصين والترسم الهادئ لظروف الميدان . وقد نجح البريطانيون لأن خبرتهم في الاحتكاك الدولي وسياسة القتال العالمي كانت أطول ، ولأن استجابتهم لظروف الطبيعة ومقتضياتها كانت أقوى ، ولأن عامل الزمن كان على الدوام في جانبهم

ولكن الشيء المهم الذي انتهت إليه هذه الحرب هو أن البريطانيين قد نجحوا هذه المرة في إزالة عدوهم أو إبعاد خطره المباشر إلى أجل طويل . وقد يكون ذلك خيرا بالنسبة لبريطانيا ومستقبها . . . ولكنه قد لا يكون كذلك ، فقد كانت ألمانيا على الدوام عامل توازن في قلب القارة الأوروبية ، كما كانت مصدر خطر تآلب لمكاخته أهل القارة في الشرق والغرب . ففي حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ مثلا اتفقت روسيا القيصرية ، رغم كراهيتها للحرية والديمقراطية ، مع بريطانيا التي كانت مهد الحياة النيابية ومبعث الديمقراطية التي تستند إلى الحرية . وفي حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ اتفقت روسيا البلشفية مع بريطانيا الرأسمالية ، فكان الخطر الجرمانى باعث الوحدة بين متناقضات القارة الأوروبية . . . بل كان نطاق الأمان الذى يعزل بين متناقضات لا يمكن إلا أن تصطدم أشد اصطدام إن هي تلاقت وجهاً لوجه ! والآن وقد زال هذا الخطر الجرمانى المشترك ، أو كمن إلى أجل طويل ، فهل ينتهى بزواله دافع الوحدة بين طرفى القارة ؟ وهل يخفى ذلك العدو المشترك فلا يجد الروس الصقالية ، أو لا يجد الإنجليز السكسونيون أمامهم عدواً آخر غير حليفهم القديم ؟ وهل ينبجى القدر لأوربا أن تنقسم الآن إلى معسكرين اثنين في الشرق والغرب ، بعد أن كانت منقسمة إلى معسكرات ثلاثة في الشرق والوسط والغرب ؟ وهل يكون التصادم بين طرفين أشد عنفاً ، وأكثر تخريباً ، وأدنى إلى الفناء والإفناء مما كانت عليه الحال بين أطراف ثلاثة ، يسهل أن يتفق اثنان منها على الثالث ، فيجىء النصر قبل أن يستحيل القتال إلى حرب فناء ؟ وهل يجىء في أعقاب ذلك كله أن يختل توازن القارة وتترنح مدنية أوربا ، أو تدك معالمها ، فيداول الله الأيام بين القارات كما يداولها بين الناس ؟ أسئلة كثيرة قد لا يستطيع أن يجيب عنها إجابة صحيحة سليمة غير الزمن ! ولعل أبلغ حكم الله سبحانه وتعالى في الخليقة أن الزمن يسير !

الشخص الثالث

لم يكن قد مضى على إقامتي في مدينة ليدز أكثر من شهرين قضيتهما بين الجامعة والمنزل ، ما حاولت أن أختلف فيهما إلى مراقص تلك المدينة الجميلة ومشاربها وملاهيها لألهو بعض الوقت ، حتى عطلة آخر الأسبوع كنت أقضيها في غرفتي بين الكتب . ولم يكن يعتريني من كل هذا ملل أو سأم ؛ فقد درجت على مثل هذا النوع من الحياة منذ الصغر ومنذ أدخلت المدرسة في مصر ، وتعودت حياة الجد ، ولم أكن لأغيرها بعد أن رأيت أن النجاح كان حليفي في كل مراحل حياة الدراسة . وكان أبي - رحمه الله - يفخر بي ويشجعني على هذا ويصرفني - بشتي المغريات وصنوف الحيل - عن الألعاب الرياضية وغيرها من الجمعيات الثقافية . وقد أدركت الآن أنه وإن يكن النجاح قد حالفني ، فقد خرجت من معركة المدرسة بنظر قصير وجسم هزيل وخبرة قليلة بشؤون الحياة .

وفي يوم الأحد التالي لانقضاء هذين الشهرين كنت جالسا في الغرفة أطالع كعادتي ، وإذا بصاحبة المنزل تدق الباب وتستأذن في الدخول ، وقت لاستقبالها ؛ فدخلت وقالت لي وفي صوتها رنة العطف - وفي الحق أن هذه المرأة كانت لي في هذه الغربة أمًا مؤنسة :

— إنك يا مستر ريدي غريب الأطوار . إن أهالي ليدز في مثل هذا اليوم يغادرون المدينة فتياناً وفتيات ، أزواجاً وزوجات ومعهم أطفالهم ، إلى الريف الجميل يستمتعون بمناظره الخلابة . وإني لأعجب أن يقبع شاب في مثل سنك في غرفته يوم الأحد كما تفعل العجائز والمرضى ، وما كان أحوجك وأنت تدرس طوال الأسبوع إلى الخروج في مثل هذا اليوم لتجدد نشاطك . وقد تأملت لك وفكرت طويلا فيما قد يؤول إليه حالك إذا أنت انصرفت إلى الدرس وحده .

الشخص الثالث

وها أنت ذا ترى منظارك السميك وجسمك الهزيل ، فماذا أنت صانع بعد هذا ؟
يجب يا عزيزي أن تقرن الجسد بشيء من اللهو البريء . وكم يسعدني أن يكون
إلى جانبك فتاة طيبة الخلق ترتاد وإياها الحدايق أيام الآحاد والأعياد . وإني
موقنة بعد ذلك أنك لن تأسف على هذه الساعات السعيدة ... فبعد سنوات قد
تتزوج وتكون لك أسرة وتثقل كاهلك هموم الحياة ، وحينئذ تفتش بين
طيات الماضي عن هذه الساعات السعيدة ، وسوف تذكرها ، وستظل تذكرها
دائماً ؛ لأنك لا تستطيع إلا أن تذكرها . وإنه ليسعدني أن أخرج بك من هذه
العزلة وأدعو إلى منزلي يوم الأحد القادم بعض الفتيات والفتيان - ومن بينهم
فتاة من أسرة في الريف كنت أسكن إلى جوارهم قبل نزوحى إلى المدينة - وقد
اخترت لك هذه الفتاة لأنها جميلة ، وعلى شيء من الثقافة ، كما أنها على خلق كريم .
فإن رغبت في هذا فساكتب لأبيها أطلب إليه أن يسمح لي بأن أضيفها عندي ليلة
الأحد . وإني إنما أفعل ذلك لأدفع عنك الضجر ، ولأدخل عليك شيئاً من السرور .
فهل أنت راض عن هذا ؟ وهل لي أن أكتب لأدعو هذه الضيفة الكريمة ؟
ثم أمسكت . وفكرت من جانبي فيما قالت ، وتذكرت أبي وشدة حرصه على
أن أكون ذلك الطالب الذي يصل ليله بنهاره بين الكتب ، وذكرت كذلك أن
النجاح كان حليفي في هذه الحياة المضنية الشاقة ، ولاح لي في هذه الآونة خيالي
في المرأة ، فرأيت منظارى السميك وجسمى الهزيل ، وفي حركة عصبية قلت
لصاحبة المنزل وقد انتصبت واقفة أمامي يشع من عينيها بريق فيه رحمة وفيه
عطف كثير :

— إني راض يا سيدتي عن كل ما تقترحين ، وإني لك لشاكر .
وكان يوم الأحد ، وحضرت الفتاة فيمن حضر ، ونعمت مع الجماعة بأطيب
وقت ، وانقضى اليوم على خير ما تنقضى به الأيام ، وخرجت أصحاب الفتاة ،
وركبت وإياها قطار الضواحي ، وتحادثنا كثيراً في رحلتنا القصيرة ، فسألتنى
عن مصر وعن آثارها وتاريخها . ومر القطار ينهب بنا الأرض ، حتى إذا
ما أشرفنا على قريتها طلبت إلى في أدب جم وفي شيء من الاعتذار ألا أصحابها
إلى منزلها ؛ لأنها لا تود أن تظهر مع غريب في طرق القرية الصغيرة ، وهي تخشى
أن يؤدي ذلك إلى فسخ خطبة شقيقتها ، فقد يتقول الناس عليها وتلوكنها السنة
السوء . فنزلت على إرادتها ورجعت أدراجي بعد أن ودعتها في المحطة .

الشخص الثالث

تمت ليلتي نوماً هادئاً بعد أن فكرت طويلاً في تلك الفتاة الفاتنة . فلما أصبحت قابلت ربة البيت ، فابتسمت وسألتني :
— كيف حالك الآن يا مستر ريد ؟
ثم أردفت :

— هل لك في أن أدعو صاحبتك مرة أخرى لتمضي عطلة آخر الأسبوع عندنا؟ فأجبتها على الفور أجزل لها الشكر وأقول لها افعلی بربك وادعيها كل أحد، وانحنيت وخرجت وهي تشيعني بنظرات الأم العطوف، ولكن في شيء من الخبث . وحضرت نورا وكنت أخرج معها للنزهة في الرياض ، واشتركت معها في أندية رياضية عدة . ولكن ذلك كله لم يشغلني عن الدرس والتحصيل ، وحمدت الله على ما آلت إليه حالي ، فقد زال عني الهزال والضعف .

تعددت زيارات نورا لمنزلنا ، وتوثقت بيني وبينها صلات الود . وعند عودتي ذات يوم من الجامعة رأيت صاحبة البيت تستقباني بالباب لتقول لي إن والد نورا في غرفة الاستقبال وقد حضر يريد مقابلتي ، فدخات غرفتي وأنا أفكر فيما فجأتني به ، وأفكر فيما دعا هذا الرجل إلى الحضور وأنا لم أعرفه من قبل ولم تقدمه إلي ابنته ، وقد حظرت عليّ ألا أضحها إلى منزلها ، فما الذي حدث وأنا لم أفعل شيئاً ألام عليه ؟ جال كل ذلك بخاطري وشاعت الهواجس في نفسي وأنا رجل شرقي أحسب حساباً لكل خطوة في مثل هذه الأمور ، وأعرف عواقب هذه المقابلات ، وأنا ما زلت كذلك كعضو بعثة وأخشى على مستقبلتي ، فماذا عسى أن تكون نتيجة هذه الزيارة المفاجئة ؟ ثم طفقت أفكر وأخذت رأسي بين يدي وجعلت ألعن صاحبة المنزل وأنحى بالأمم على نفسي أن قبلت اقتراحها ، وتوهمت أن لعنة الله قد نزلت بي لأني حدثت عن الطريق التي رسمها لي أبي . وبعد هنيهة دقت صاحبة المنزل باب غرفتي ، وللمها استبطأتني ، وقالت :

— أسرع يا مستر ريدى ، فإن والد نورا في انتظارك . . .

أفقت من أحلامي ، وبدلت ملابسى ثم استجمعت شجاعتي وسرت في خطى ثابتة إلى غرفة الاستقبال ، فرأيت رجلاً فارغ الطول ، يناهز الخمسين ، يخف لمقابلتي ويشد على يدي في شيء من القوة ، ثم جلس وجلس ، وبعد فترة غير قصيرة قال لي في هدوء :

— لقد أخبرتني نورا كل شيء . . .

الشخص الثالث

ولم يكذب يثم كلمته حتى تصببت عرقا ، واسكنه عاد يقول :
— إنك كنت كريما يا سيدي مع ابنتي ، وقد أخبرتني عن عنايتك بها ، وكيف
أنك كنت تهب لها بعض وقتك وتسعدها ، وقد حضرت لأشكر لك صنيعك .
وفي الحق يا بني أني لا أستطيع أن أفيك حقك من الشكر ، فأنا أعيش وأسرتي
في جو يسوده الهدوء في منزلنا الريفي ، ولم يكن ليختلط بنا إلا نقر قليل من
أهالي القرية ، ولم يكن شيء من المرح يعرف طريقه إلى دارنا إلا بعد أن تمت
خطبة ابنتي الصغرى ، وقد قدر لهذه الخطبة أن تفسخ . وبرمت أسرتي بهذا
الهدوء المطلق وبخاصة زوجتي ، فلم أجد بدا من أن أدعو أحد معارفي ليقم
معنا ونتقاضى منه أجرا ، فلا يستشعر خجلا في ضيافتى التى قد تطول . وهذه
عادة بلادنا نعهد إليها لنغير من جو الضجر ونقل من هذا السكون الممل .
وها قد عاد إلى بيتنا شيء من السرور ، وقد شكرت هذا الرفيق من قبل ؛ لأنه
سرى عن زوجي وابنتي الصغيرة ، كما شكرت لك الآن مثل هذا الصنيع الذى
قمت به نحو نورا . . .

ووقف الرجل وسلم وانصرف وأنا لا أصدق أنه ما حضر حقا إلا لي شكر ،
وأخيرا انقشعت وساوسى وحمدت الله على هذه النتيجة .

سافرت من ليدز إلى باريس لأتم بعض البحوث الخاصة برسالة
الدكتوراه التى اعترمت أن أتقدم بها إلى الجامعة بعد سنة . وانقطعت أخبار
نورا عني ولم تتراسل طوال هذه المدة ، ثم عدت إلى ليدز وقابلت الفتاة
مصادفة ، فقالت لى إنها تسكن الآن مع أمها وأختها ووالدها الجديد فى المدينة
وتركتنى مسرعة لأنها كانت على موعد مع أمها . ووقفت هنيهة أتبعها نظرى
وأنا لا أفهم مما قالت شيئا ، ثم رجعت إلى غرفتى ، ودعوت صاحبة المنزل
وأعدت على سمعها هذه الجملة التى قالتها نورا ، ورجوتها أن تفسر لى هذا اللغز
وهل يستطيع الإنسان فى هذه البلاد أن يكون له والد قديم ووالد جديد ؟
فضحكت وقالت لى :

— ليس فى هذا غرابة ، وسأحدثك عن ذلك كله . لقد أخبرك والد نورا
أنه ضم إلى أسرته ضيفا ، وقد حدث ذات يوم أن تقدم الزوج إلى زوجته ،
وقد نمت إليه بعض إشاعات أو لعله لحظ شيئا من التغير فى سلوك زوجته ،
فأخبرها أنهم لم تعد بهم حاجة إلى هذا الضيف بعد ، وأخير أن يطلبوا إليه

— بعد أن ينتخلوا له المعاذير — أن يخلي غرفته . ولعله لم يشأ أن يبوح لها بشيء من الشك في أمرها ، فتعلل بأن ابنتيه قد يتقدم من يطلب يد واحدة منهما ، واستحلفها بحبه أن تجيبه إلى طلبه . أما الزوجة فقد أجابت على الفور أنه إن فعل ذلك ، فلا بد لها من أن تهجر البيت وتلحق بهذا الضيف . ودهش الزوج لجرأة زوجته وصراحتها ، وقال لها : « أنا إنما أتكلم عن رجل استأجر غرفة في منزلنا ، لا عن عشيق يقيم تحت سقف بيتي بين زوجي وابنتي . وهل أستطيع أن أفهم من قولك هذا أن بينكما علاقة حب أو غرام ؟ وهل لك أن تصارحيني بكل ما حدث بينكما ؟ فظلت الزوجة هادئة فترة ، ثم ما لبثت أن قالت لزوجها إنها تحب هذا الرجل ، وإنها لا تستطيع أن تفارقه أو تعيش بدونه لحظة واحدة . فاعتلجت في صدر الرجل عوامل عدة من خير وشر أخذت تتناوبه ، وأخيراً انتصر عنصر الخير في صدر الرجل الذي كان يحب زوجته ويعبدها ، فاعتدل في مكانه وقال لها : « أواثقة بأعزيتي أنه يبادلك هذا الحب ؟ » فأمنت على ذلك . فرجاها زوجها أن تدعو الضيف إلى مقابلته على انفراد ، فحضر وأراد أن يعتذر عن كل ما حدث ، ويقول إنه لم يقصد إلى ذلك ، ولكن الزوج قاطعه في حدة وصرامة ، وقال له : « لقد عرفت كل شيء ولست ألومك أو ألومها على عاطفة جامحة كثيراً ما تأخذ بلب الإنسان وتغلبه على أمره ، وليس لي إلا أن ألوم نفسي ، فأنا الذي مهدت لكل ما حدث ، وقربت بين قلبين كانا بعيدين . ولست أفكر ياسيدي في الانتقام من أحد بعد أن أربت سنى على الحسنيين ، ولا أذكر أن فؤادى انطوى يوماً ما على حقد أو ضغينة ، فما كان ليعرف موجدة أو يكنّ حفيظة . ولنسح الكلام في هذا جانباً ، وما أحسب أنك تهتم له الآن ، وقل لي بربك هل تحبها حقاً ؟ وإذا أنا أخليت سبيلها ، فهل تقبلها زوجاً ؟ وهل تعاهدنى على ذلك كرجل شريف ؟ فأني أحبها كذلك ، ولا أرضى لها أن تعيش خلية .

وذهل الضيف لما رأى من هدوء الزوج ، وزم شفتيه وظهرت على أساريره أمارات حزن عميق . وخيم في جو الغرفة سكون لم يلبث أن بدده صوت الزوج يقول لصاحبه : « الكلمة الآن لك ياسيدي . » ولكن الضيف لم يتكلم وظل صامتاً ، ولعله حاول الكلام فلم يقو عليه ، وأخيراً ركع أمام الزوج وفي عينيه دموع وأجهش يبكي وطلب إليه أن يغفر له زلته . فتهرر الزوج وقال له في

الشخص الثالث

خشونة : « ما لهذا طلبت الانفراد بك ، وإني أطالبك الآن بأن تجيب على أسئلتى . فوقف الضيف ومضى يتعثر واستند إلى أحد المقاعد وقال للزوج : « أجل ! إني أحبها وسأ تزوجها ، على شريطة أن تبارك لنا هذا الزواج . » فتمتم الزوج ببعض كلمات غير مفهومة كأنما كان يصلى بينه وبين نفسه ليشد أزرها ، فقد كان يخشى على هذه النفس المطمئنة أن تنال منها تلك الصدمة فتوهنها ، أو لعل الزوج في صلاته القصيرة كان يبارك هذا الزواج المقبل الذى رسمه لزوجته ولهذا الرجل المائل أمامه ، أو لعله في صلاته القصيرة كان يصب جام غضبه ويستنزل لعنة ربه على هذين المخلوقين اللذين حطما منه قلباً كان عامراً بالعطف والحب لأسرته الوادعة .

وخرج الرجلان وافترقا دون أن يتبادلا كلمة أو تحية . واعتزم الزوج أمراً أصره في نفسه ، وغادر منزله وعاد بعد أسبوع فقابل زوجته وقدم لها وثيقة وقال لها : « ستجدين في هذه الوثيقة يا عزيزتى ما تقدمينه إلى المحكمة برهاناً على خيانتى العهود الزوجية . فقد صاحبت إحدى بنات الهوى وعاشت بها بضعة أيام فى أحد الفنادق ، وقد أثبت كل هذا فى الوثيقة — فما عليك إلا أن تتقدمى بها للمحكمة مطالبة بالطلاق ، وستنزل على لعنة القاضى ، ولكنى سأتحمل هذه الصدمة ، وسأترك لك منزلى عن طيب خاطر حتى تنتهى المدة التى يحق لك أن تتزوجى بعد انقضائها . » ثم قبل زوجته وابنتيه ، وجد الدمع فى عينيه ورح المنزل بعد أن قدم لها هذه التوضيحية التى لم تكن لتظفر بزواجها الجديد بدونها . وها أنت ذا ترى أن كل شئ قد تم — كما أراد الزوج وأرادت الزوجة — وها هى ذى نورا صديقتك قد انتقلت مع أمها وأبيها الجديد إلى المدينة ، وعاد الزوج القديم إلى منزله الريفى يعيش فيه كالراهب وحيداً إلا من رحمة الله . وسكنت صاحبة المنزل . أما أنا فما زلت أذكر هذا الرجل الوقور الذى خف إلى ليشكرنى ، وما زالت ترن فى أذنى كلمات الشكر التى كان يتقدم بها للشخص الثالث الذى أدخل السرور على زوجته وابنتيه ، والذى غير الجو الهادئ الممل ، والذى سلبه أخيراً قلب زوجته التى أحبها وما زال يحبها .

مسكين فرج نيس الميمه

أحزان المساء

[مهداة إلى الروح الحبيب

من الروح الغريب .]

اشهدي يا نفس أطياف الغروب
وهي تفتي مثل أحلام القلوب
واندبى النور ، وضجى بالنحيب
واهبطى في هوة الليل الرهيب

غابت الشمس ، وكانت منذ حين
تسكب الأفراح في قلبي الحزين
فُيغنى القلب فياض الحنين
أغنيات الشوق ، والحب الدفين

غابت الشمس ، ووارها المساء
فتولى الصنفور غنى والرجاء
وطواني الليل ، والليل فناء
وحياة القلب فجر وضياء

هكذا تذبل في النفس الأمانى !
هكذا تنأى عن القلب الأغاني !
وأرى الأيام يطويها زمانى
فيمز اليأس روحى وكيانى

هكذا يمضي عن الدنيا الربيع !
فيجفُّ النبع ، والزهر البديع !
والروابي الخضر يطويها الخشوع
وغناء الطير شـجـو ودموع !

هكذا يمضي عن القلب الشباب !
فإذا العمر يغشيه الضباب !
وإذا الآمال وهمٌ وسراب !
وإذا الجنّات قفرٌ ويباب !

أيها الليل لقد هجت انتحابي
فشربتُ الدمعَ ، والدمعُ شرابي
أفـأـ يكفيك يأسى واكتئابي ؟
إن أكن أشكو بدمعى ، فلما بي

إننى يأيتها الليل وحيـدُ
ساهر ، والنوم عن قلبي بعيد
إن مضى همٌّ ، أتى همٌّ جديد
آه لو عشت كما كنت أريد

آه لو عاش فؤادى كيف شاء
لملأتُ الكون شدواً وغناء
ويح قلبي ! إنه ذاب بكاء
فهو ينساب دموعاً ودماء

أحزان المساء

إننى حى ، ولكنى دفينٌ !
إننى حر ، ولكنى سجين !
أيها الليل : حياتى ما تكون ؟
أهى صمت ؟ أم غناء ؟ أم أنين ؟

من تراه طاف بالحزن عليًا ؟
فسقانيه ، وقد كنت صبيًا !
ثم ألقى فى دمي همسا خفيًا :
سوف تبقى هكذا ما دمت حيا !

من تراه يدرك السر المريعًا ؟
من تراه يرأب الشمل الصديعا ؟
من تراه يبصر الروح الصريعًا ؟
ويرى القلب ، وقد حال دموعا !

إننى أشتاق أن أحيأ سعيدا
أترك السجن ، وأجتاز القيودا
وأرى عمرى ، وقد صار نشيدا
هائما فى الكون ، يرتاد الوجودا

آه لكنى أرى عمرى يفنى
وأرى قلبى فى الأسر مُعْنَى
لست أدري يا فؤادى لم جئنا ؟
كان أجدى لو بقينا حيث كنا

احزان للمساء

أين منى مجلسى بين الروابي ؟
فى مكان ضمَّ أهلى وصحابى
وبه الروح الذى يُروى شبابى
بالرحيق الحلو ، والشهد المذاب

ذلك الروح الذى يرجو إيابى
ويريق الدمع حزناً لاغترابى
كلما وافيته بعد الغياب
بالحنان السمع ينسينى عذابى

اين منى مجلسى عند الغدير ؟
وضياء الفجر كالماء النخير
والتربى نشوى بأنفاس العبير
وأنا أصغى إلى شدة الطيور

أين أيامك ياعهد الطفولة ؟
ومغانيك النديات الجميله
وأنا أهفو إلى كل خميله
أقطف الزهر ، وما للزهر حيله

ذكريات الأمس ما أجملها !
وهى تُلقى فى حياتى ظلها
إن أحلام شبابى كلَّها
هى منها ، وإليها ، ولها

أحزان المساء

أين ؟ لأشئ سوى الحزن المُوَاتِي !
وطيوف اليأس حَوْلى حائِثَات !
وأمانى القلب حيرى بأكيات !
يا زمانى . . . هذه كل حياتى !

غربتى طالت عن المغنى الرطيب
غربتى طالت عن الروح الحبيب
وشباب العمر يفنى فى المشيب
آه لو وافيته قبل المغيب

فتحدثتُ إليه بشجونى
وتشكّيتُ من الدهر الخؤون
ورأى السهد الذى حول جفونى
فسقانى الحب فى ظل السكون

غير أنى قد طوت عمري القيودُ
والهوى فى مهجتي غضٌّ جديد
أترى الماضى الذى راح يعود ؟
فيغنى الحب ، والقاب يُعيد

قيدتنى ها هنا بؤسى الحياة
وهى تدرى أنها تقتل ذاتى
إننى طائر حزين الأغنيات
يشتهى أفقاً رحيب الجنبات

أحزان المساء

قيدتني وهي تدرى أن عمري
لم يُرد قيـدا ، ولم يرضَ بأسر
وهي تدرى أن نفسي نفس حر
كضياء البدر يسرى حيث يسرى

أشتهى النور ، وأهفو للظلال
وأحب العيش في دنيا الخيال
وأرى الدنيا كما طاقت بيـالى
وأنا نشوان من خمر الجمال

ليس هذا العيش ما تهواه نفسي
ليس هذا الكون ما طاف بحسى
هات كأسى ، إننى أنسيتُ كأسى
علّـها تُغرق آلامى ويأسى

هات كأسى ، هم دعنى أتمنى
فالمنى كم داعبتُ قلبى فغنى
وإذا ارتاح إليـها واطمأننا
فانشر النوم علينا . . . ثم دعنا

ابراهيم محمد نجا

محادثة

بين الأسد البريطاني والدب الروسى

الأسد : — ألا يحزنك أيها الدب أن ترى ما آل إليه أمرنا فى الغابة من خلاف بعد وفاق ، وتباعد بعد تقارب ، ومعسرة بعد ميسرة ، وشك وحذر وتربص ، بعد إيمان وثقة وتفاهم ساد بيننا فى أثناء عرا كنا المشترك مع الوحش حتى أمكننا التغلب عليه فى النهاية ؟ وجزى الله الشدائد كل خير ؛ فقد علمتنا أن نكون معاً فى الحرب ، ولعلها أن تعلمنا كيف تتفق فى السلم .
هيا أيها الدب ! تعال إلى كلمة سواء بينى وبينك ألا نؤمن إلا بالحق والحرية والتعاون على نشر السلام فى ربوع الغابة جميعا .

الدب : — إننى أيها الأسد لست من فصيلتك ، وليس بينى وبينك من المشاركة فى الصفات أو الصلات أو الطباع ما يساعد على إنشاء هذا التآلف الذى تنشده . وقد علمنا آباؤنا وأجدادنا طوال القرنين الماضيين أن نكرهك ونمقتك ونكون على حذر دائم منك . وإذا كانت ظروف الحياة أو الموت قد أكرهتنا أن نشترك معاً فى الحرب الأخيرة زهاء أربع سنوات أو أكثر قليلا ، فلاتنس أنك شنت علينا فى منتصف القرن الماضى حرباً شعواء يذكرها التاريخ باسم حرب القرم ، نسبة إلى شبه الجزيرة التى دارت فيها رحى معاركها ، وهى المكان نفسه الذى اعتصم فيه الوحش فى الحرب الأخيرة . وقد ألّبتنا علينا فى تلك الحرب دول أوربا ، فأرسلت قواتها تؤازر سلطان تركيا ضدنا وضد الصليب الذى طالما تشدقتم بدعوى نصرته . وكنا بمفردنا أمام عصابتكم تلك ، فانهزمنا وقاسينا من أهوال الحرب ألواناً لا يشبهها إلا بعض ما قاسيناه أخيراً . وفى النهاية لم يسعنا سوى طلب الصلح ، فأمليتم علينا شروطاً مذلة مالبثنا أن

محجروناً منها وأنتم راغمون . على أن هذا لم يكن آخر عهدكم بمنّا وآتنا ؛ فقد دأبتم على الكيد لنا ومعارضة مصالحنا بكل ما أوتيتم من قوة .

أنسيت أيها الأسد أنكم أتمم الذين رفعوا سعر التين اليابانى فى السوق الدولية بتحالفكم مع اليابان سنة ١٩٠٢ ، وأن هذه المحالفة كانت مقدمة للحرب الروسية اليابانية التى قضت على سمعتنا الحربية والبحرية وأذلتنا فى نظر الدول جميعاً . وأقسم أنه لولا هذه الهزيمة وظهور قوة ألمانيا البحرية منافسة لكم فى أوائل هذا القرن ، مارضيتم أن تكفّوا عن مناوأتنا أو تأخذونا إلى جانبكم فى الحرب الماضية .

وهل يمكن أن ننسى ما قاسيناه على أيديكم أثر ثورتنا الكبرى وبعد الحرب العالمية الأولى من طرد وحرمان وإذلال وعدوان لا تزال آثاره ملموسة باقية إلى وقتنا هذا ؟ تلك حقائق قد وعّاها العقل الروسى واختزنها فى أعماق أغواره فلا سبيل إلى نسيانها ألبتة .

لا أيها الأسد ! لا تحاول أن تخدعنا . إن التاريخ والسياسة قد تأمرا على إخفاق حركة التفاهم بيننا .

الأسد : — لاتنس أيها الدب أن الزمان قلبٌ ، وأن السياسة لاتسير على وتيرة واحدة ، وأن الحكيم من لاءم بين سياسته وحاجات زمانه ، واحتاط فى يومه لمستقبله . وإذا كانت الظروف فى الماضى قد أكرهتنا على محاربتكم ذات مرة فقد علمتنا الحرب الأخيرة فائدة التعاون بيننا وبينكم . ولا إخالك تنكر مدى المساعدة التى قدّمناها لك أنا وابن عمى الأمريكى ضد الوحش الذى أنشب أظفاره فى عنقك ، وكاد يمزق جسمك أشلاء .

الدب : — تلك أكذوبة لم نسمع بها ولم نقرأ عنها . إنما قرأنا وتحدث الركبان أن الوحش قد طاردكم حتى طردكم من أوربا ، وأنزل بكم فى دنكرك هزيمة منكرة لو أنه تابعها إلى عرينكم لبادت فصياتكم ولدمرت جزيرتكم تدميراً .

الأسد : — ليس من ذنبنا أن تستهزئ بكم حكومتكم وصحافتكم ، فتخفى عنكم الحقائق الواقعة ، ولا تطلعكم من حقائق الموقف الدولى إلا على ما يوافق

أغراض زعمائكم . أما قولك إن الوحش قد هدد فصياتنا بالانقراض فردود عليك ؛ فقد كان موقفه معنا مجرد تهديد أجوف . أما موقفه معكم فكان حقيقة واقعة ؛ فقد داس أراضيكم وتحكم في مواردكم وأخضع لسلطانه جزءاً من بلادكم . ولو قد استعمل الوحش ضدكم مخلصيه الأماميين والخلفيين جميعاً لفتك بكم فتكا ذريعاً ؛ ولكننا شغلناه عنكم فلم ينلکم منه إلا مخاب أو مخلصان فنجوتم .

الدب : — إذا كنت تقصد بقولك تلك الأجزاء من الأرض المقفرة التي غزاها فقد كان ذلك حقاً ، ولكن كان باختيارنا وطوع إرادتنا حين ارتدنا عنها وتركناها يمسحها جيئة وذهاباً أكثر من مرة . ولكنه لم يستطع أن يغزو قلب الروسى قط . فليس في العالم كله مثل الروسى في صدق العزيمة وقوة التصميم والاعتماد على النفس في أوقات الشدة . وأظن أن العالم سيتحدث جيلاً بعد جيل عن بطولتنا في موقفنا إزاء الوحش ؛ فقد قمنا بأعظم مجهود عرفه التاريخ في سبيل التحرر ، وكسر شوكة ذلك الوحش الجبار الذي فرض كلبته على الغاية كلها قرابة خمسة أعوام .

الأسد : — اذكر أنك لم تكن وحدك ضد الوحش .

الدب : — أتريد أن تقول إنه لولا مساعدتكم لوهن موقف روسيا أمامه . ألا فلتعلم أن الماديات وحدها لا تكسب الحرب ، وإنما المعول على القوة الروحية وعلى الأعصاب الفولاذية التي يتحصن بها الشعب جميعه في كفاحه وتصميمه . وإنى لجد فخور بما أظهرته حكومتى من حسن تدبير وبعد نظر ؛ فقد نفذنا منذ سنة ١٩٢٩ مشروع السنوات الخمس مرتين ، واستطعنا بتضحياتنا أن نحول روسيا الزراعية إلى بلاد صناعية هائلة ، فأسسنا المصانع الكبرى للإنتاج الحربى والاقتصادى ، وضللنا خبراءكم وخبراءهم وأعوانكم وأعوانهم ، وأخفينا مصانعنا في بطون جبال الأورال بمنأى عن الأنظار وبما من من العدو . ولولا إنتاج هذه المصانع السرية ما أجدت علينا مساعداتكم شيئاً ولا أغنتنا فتيلاً . ولقد توقعنا أنكم سترتبكون في سياستكم وستخلطون وتتخبطون ، وأن أنفسم الأمانة بالسوء ستوحى إليكم أن تغدروا بنا فتصرفوا أنظار الوحش عنكم إلينا وتوجهوه

ضدنا ، ينفرد بنا ، وإذ ذاك يحلو لكم أن تروا أعداءكم يتطاحنون وأنتم بمنجاة . ولا بد أن تكونوا قد قدرتم أن ينتصر الوحش علينا لفرط غفلتكم وظنكم به القوة ، وحينئذ ينجو العالم مما تسمونه شر الشيوعية ، ويخرج الوحش النازى منهوك القوى فلا يجسر على مهاجمتكم . ألم تهملوا فى سنة ١٩٣٨ لاتفاق ميونيخ ؟ ألم تدق أجراس الكنائس فى بلادكم شكراً لله على خلاصكم من الوحش ؟ فهلا فكرتم حينذاك فى مصيرنا ! وهلا دعوتهمونا إلى مشاركتكم ! ألم نكن خليقين بمقعد خامس معكم إلى جانب فرنسا وإيطاليا ؟ إن الأمر لو اوضح وضوح الشمس . لقد قررتم إنقاذ جلودكم ؛ لتدعونا طعماً شهياً للوحش .

الأسد : — الغلطة الكبرى التى ترتكبونها الآن هى التى ارتكبتها الوحش من قبلكم . إنكم تظنون حبنا للسلام ضعفاً ، وتحسبون رغبتنا فى المسالمة جبناً . إننا قوم طبعنا على تعشق الحرية الفردية ، وإنا لقمقت الحرب أشد المقت ، ونكره التسلط فى كل مظاهره . فنحن لا ندين كغيرنا بالخدمة العسكرية الإجبارية ولا نبرر قيام الجيوش والقوادى العسكرية إلا فى الظروف القصوى . لذلك تروننا نتعثر ونرتبك ؛ وقد تصيبنا الهزيمة فى أول الأمر كلما اشتركنا فى حرب مفاجئة ؛ حتى إذا تأملنا فى جو الحرب ومرنت عليه نفوسنا وعقولنا وصممت عليه عزيمتنا وإرادتنا ، بذلنا أقواتنا وضحينا بأرزاقنا وأعمالنا وسخرنا للحرب بحوثنا وإنتاجنا ومعاملنا ومصانعنا ، وكل ما نملك من قوى مادية ومعنوية ؛ فإذا نحن أمة قد خلقت خلقاً جديداً . وما هى إلا فترة تطول أو تقصر حتى يتحول اليأس بأساً ، وتستحيل الهزيمة نصراً مبيناً .

لذلك أوكد لك أيها الصديق أننا كنا صادقين فى ميونيخ ، مخلصين فى حب السلام إخلاصاً دفعنا إلى أن نبذل فى سبيله من عزتنا وكبريائنا بل من شرفنا فى نظر أصدقائنا .

الدب : — ولماذا كل هذه التعمية وهذا التضليل ؟ قل بالصراحة إنكم لم تكونوا مستعدين للحرب ، وإنكم آثرتم شراء السلم فى سنة ١٩٣٨ بأى ثمن حتى تأخذوا أهبتكم للحرب ، وتحاولوا اللحاق بالوحش الذى سبقكم وتفوق عليكم

درجات فى استعداداته . قل بالصراحة إن نفوسكم كانت خائرة ، وإن قلوبكم قد ملئت رعباً من الوحش . لقد كنا نعلم عنكم هذا وأكثر منه ؛ ولذلك لم نلق بالآ إلى بعثكم السياسية حين بعثتموها إلينا فى أخرج الساعات تطلبون بها معوتتنا .

الأسد : — لا . بل نطلب بها محالفتكم مخالفة حرة ؛ لنندراً بالجهد المشترك خطر الوحش .

الدب : — حقاً إنكم لدهاة فى السياسة ، ولديكم معين لا ينضب . من المصطلحات التى تكسون بها أغراضكم ؛ فتارة تسمونها مخالفة ومعاهدة ، وطوراً تسمونها انتداباً أو وصاية ، وحيناً تسمونها مجالس أمن أو دفاع مشترك — وكلها فى الحقيقة أغطية شفافه تحاولون بها أن تستروا أجساد أنانيتكم العارية .

لقد أردتم بمحالفتنا أن تتخذونا مخلب القط تلتقطون به من النار ثمر القسطل ، فتعرضونا لضربة العدو ودفعته الأولى . وماذا كان يهمكم من أمر انتصارنا أو هزيمتنا وأتم فى الغرب ونحن فى الشرق ؟ !

لذلك قابلناكم بسلاح من نوع سلاحكم ، فطاملناكم وأغويناكم ، وفتحنا باب المفاوضات مع العدو ، ووضعنا على رأس خارجيتنا وزيراً جديداً هو مولوتوف الذى عرفتموه اليوم جيداً ، ليدير دفة السياسة الجديدة . وكانت طلبية الوحش منا أن نلزم الحيدة إذا ما نشبت الحرب ، وهى طلبية فى الغاية من السهولة إذا قيست بما عرضتموه علينا ، فقبلنا محالفتهم ورددنا كيدكم إلى نحوركم . وانتفعنا بمخالفة الوحش وهو منتش بخمرة النصر ، فضممنا دول البلطيق التى كانت جزءاً لا يتجزأ من أرض الوطن قبل الحرب العالمية الأولى ، واسترددنا بساراييا من رومانيا ، وعدنا إلى حدودنا القديمة فى بولندة ، وحاربنا فنلندة التى كانت تهدد لنيينجراد . ولما آنسنا من الوحش الغدر والشروع فى الانتقاض علينا ، دبرنا أمورنا سرّاً فجهزنا معاملنا ، وعقدنا مع التنين اليابانى معاهدة الحيدة إذا هوجمنا ، فكانت ضربة سياسية بارعة أفسدت على الوحش مارسه من خطط لاغتيالنا .

أرأيت أيها الأسد أن الدب لا يقل عنك فى براعته السياسية ، وإنما الفرق بينى وبينك أنك خبيث وأنى صريح .

الأسد : — علم الله أنى لست خبيثا ، ولا أضمر الشر لأحد فى العالم . والخبث من شيم الضعفاء الذين تنقصهم الخبرة وحسن سياسة الأمور . وما كان نجاحى وما بلغت من مكانة فى الغابة نتيجة لمكر أو خبث وُصِمتُ به ظلما ، ولكن الظروف واتتنى ، وخدمتنى المصادفات السعيدة فى مختلف أرجاء الغابة . وإني لا أكره أن أتكلم عن نفسى ، ولكن مادمت تدفعنى إلى ذلك فأنى أقول لك : إن الحظ + الشجاعة + الأخلاق = النجاح . فاحفظ هذه المعادلة .

وإذا كنت قد أخطأت كسائر البشر فى تقدير موقفكم قبيل الحرب الأخيرة فاعلم أنى وسكان الغابة جميعا كنا نعتقد جازمين أن ثورتكم قد هدّت من كيانهكم وضعضعت نظامكم ، وقللت من حماسة رجالكم ، وأنكم إذا جد الجدل لا تقوون على الوقوف أمام الوحش طويلا ، فلا يلبث أن يكتسحكم كما اكتسح غيركم من قبل .

ومن ذا الذى كان يظن أن نظاما أو تجربة كالبلشفية تستطيع أن تنتج مثل هذه المعجزة ؟

الدب : — يلوح لى أنك تنتقص فضل البلشفية وتسخر منها وتظن بها الظنون . وليس هذا بمستغرب منك ؛ فدولتكم تقوم على سيادة أصحاب رءوس الأموال وإن كنتم تسمونها ديمقراطية .

الأسد : — ودولتك تقوم على الدكتاتورية أو الفاشية ، وإن كنتم تسمونها حكومة الشعب .

الدب : — أتقول الفاشية ؟ هذه سبة ، ولست أسمح لك مطلقا أن تنتقص من قدر حكومتى ، وسأعلمك كيف تحترم ...

وهنا حاول الدب أن يمد مخالبه ، فقام الأسد غاضبا وقال :

الأسد : — كنت أظن أن محادثتنا ستنتهى كما بدأت فى اتزان وروية وحسن قصد متبادل . فأما وقد تقمصت طباع الوحش الذى هزمناه ، فأنى ذاهب لعرض أمرى وأمرك على مجلس الغابة .

محادثة بين الأسد البريطاني والدب الروسى

الدب : — إنى آسف . . .

الأسد : — حبذا هذه اللهجة اولست أدرى لماذا لا نصطنعها فى أثناء مناقشاتنا فى المؤتمرات واللجان التى نعقدتها .

الدب : — دع العواء والزئير للمؤتمرات ، ولنكن الآن فى هدنة علمية وإلى اللقاء .

محمد رفعت

عود إلى مكياقللى وأميره

فى كل وجهة ، وفى كل طريق من الحياة العامة فى أوربا — وفى غيرها من بلاد العالم — نجد اسم مكياقللى مذكوراً ، فى الغالب ، فى معرض السوء . فإذا رأينا سياسة الجشع والأثرة تسير عليها الدول ، وصفنا هذه السياسة بأنها مكياقللية . وإذا رأينا الدس والوقیعة قلنا إن هذه سياسة مكياقللى . وهكذا صار اسم هذا السياسى والأديب علماً على كل ما هو قبيح وعلى كل سيئات الحكم ومثالب النظم . وهكذا اكتسب هذا الرجل الذى عاش فى القرن السادس عشر ، وفى عصر النهضة فى إيطاليا ، شهرة غريبة على مر الأيام . ويغلب على الظن أنها شهرة باقية ما بقيت فى العالم أمم وما بقى للدول حكام ، وستظل هذه الشهرة قائمة وباقية بقاء النظم السياسية نفسها فى العالم . لكن هل هذا الرجل جدير فى الواقع بكل هذه المثالب ؟ وهل هو رجل سوء حقاً ؟ إن من يدرس حياة مكياقللى وخدماته العامة للمدينة التى نشأ وعاش فيها ، مدينة فيرنزى — فلورنسا — لا بد أن يعلم حق العلم بأنه لم يكن رجل سوء ؛ وخدماته لتلك الدولة الإيطالية الصغيرة ، وكانت إيطاليا عندئذ منقسمة إلى دويلات متحالفة ومتنافسة ، جديرة بكل تقدير ؛ وكان رجلاً ذا ذهن متفوق ممتاز ، ومع ذلك ذاعت له هذه الشهرة السيئة لكتاب واحد من كتبه وضعه فى عزلة بعد أن ترك منصبه ، ورأى السلامة فى أن يقيم بضیعة صغيرة له ببلدة سان كاشيانو فى ضواحي فلورنسا . وقد اضطر مكياقللى إلى هجر العاصمة بعد أن عاد الأمر فيها إلى أسرة مديتشى ، وتشتت أعضاء الحكومة التى كان يخدمها . ووضع هذا الكتاب بعد أن خدم دولته زهاء ثلاثين سنة خدمة جلیلة ، وشاهد أحداث تلك الأيام الحافلة بالحوادث ، وعاشر الكثيرين من أبرز رجال عصره الخافل بالعظماء . والواقع أن العصر الذى عاش فيه مكياقللى كان عصرًا عجيباً ، والمدينة التى

نشأ فيها كانت مدينة عجيبه^(١) ، فقد كانت الدويلة التي عاصمتها فلورنسا من أهم الدويلات الإيطالية وأغناها ، وأكثرها تأثراً بالنهضة الأوربية التي عمت بلاد إيطاليا ثم بلاد أوربا في ذلك العصر ، على أثر استيلاء الأتراك على القسطنطينية ، وهروب العلماء البيزنطيين بما يحملونه من كتب ورثوها عن اليونان إلى البلاد الإيطالية . هذا ما يقوله المؤرخون عادة وإن كانت عوامل النهضة الأوربية ، وبخاصة في إيطاليا ، أبعد مدى من هذا التاريخ ، وهي في فلورنسا أبعد مدى من غيرها من البلاد . ألم يعيش في تلك المدينة العجيبة ، ويتجول في أرجائها الشاعر دانتى قبل ذلك بقرنين ؟

ولد مكياقللى في مدينة فلورنسا في عصر من أزهر عصورها ، هو عصر لورنزو دي مديتشى^(٢) ، الذي كان أميرها وحاكمها فعلاً ، وبالإسم فقط يعتبر المواطن الأول في خدمة تلك الجمهورية ، وهو الذي بثرائه ومساهمته جمع العلماء والأدباء والمصورين والنحاتين وجعل مدينته فخر المدن الإيطالية ومركز الترف والرخاء ، وجعل منها مثال الحضارة بخيرها وشرها . ولكن ما لبثت هذه المدينة بعد موته أن اتجهت وجهة أخرى .

فقد عاش في زمن لورنزو برز في الحياة راهب اسمه ساقونارولا^(٣) ، رأى تلك الحياة العابثة التي يحياها الأثرياء في فلورنسا ، ورأى البذخ والمجون وتقليد العامة لهم ، فبدأ صوته يرتفع في الكنائس داعياً الناس إلى نبذ الدنيا والعمل للآخرة ، مذكراً بالشواب منذراً بالعقاب ، وكان الناس يستمعون إلى عظاته فيبكون . فلقد عرف هذا الراهب القصير القامة الحليق الوجه ، كيف يجذب قلوبهم ويستولى على عقولهم . ولم يلبث الناس أن رأوا بعد قليل من الزمن هذا الراهب الصغير يستولى على أمور المدينة ويحركها بين يديه ويقودها إلى طريق الخير ، خير الآخرة لاخير الدنيا ، فإذا مدينة الترف تنبذ الترف ، وإذا مدينة الحضارة تعود إلى التقشف ، وإذا المدينة تطرد أثرياءها وعيون أسرها ، وتنقاد المواعظ ساقونارولا ولسحر حديثه ، وإذا المبشر يصير حاكماً بأمره في أمور الدنيا بالذات ، تلك التي يندد بها ، وتسير الأمور فإذا به يصطدم مع البابا اسكندر السادس

(١) ولد تقولا مكياقللى في ٣ مايو سنة ١٤٦٩ .

(٢) لورنزو دي مديتشى ١٤٤٨ — ١٤٩٢ .

(٣) ولد ساقونارولا سنة ١٤٥٢ وأحرق سنة ١٤٩٨ .

صاحب السلطان الدينى الأكبر ويزداد بينهما الجفاء ، فيوقع عليه البابا وعلى مدينته عقوبة الحرمان الرهيبة ، فيقوى خصوم ساقونارولا ومناوضوه ، وينفض الشعب من حوله ، ويسير هو حثيثا إلى نهاية عنيفة ، شأن مئات غيره من زعماء تلك البلاد المتقلبة ، أرادوا الخير وعملوا له ، فانتهد الحياة بهم إلى نهاية محزنة .

لم يعد آل مديتشى بعد نهاية ساقونارولا ، بل أنشئت حكومة مجلس العشرة وهى التى شغل فيها الشاب مكياقللى منصب سكرتير هذا المجلس .

خدم مكياقللى هذه الجمهورية منذ تأليفها خير خدمة ، وعرف فضله فى المهمات التى تحتاج إلى لباقة وكياسة ونظر بعيد ، وكان يرسل إلى البلاد المختلفة ، فسافر إلى روما مرات عدة لتسوية خلافات كانت قائمة بين الجمهورية وبين الحكومة الدينية للمدينة الخالدة . وظل مكياقللى فى خدمة مجلس العشرة إلى أن عاد آل مديتشى فتغلبوا مرة أخرى وطاردوا الجمهورية ورجالها . وحينئذ انقلب رجل النشاط والحركة والدهاء والسياسة ، رجل فكر ورجل قلم ، فأخذ يكتب ملاحظاته ويدون خواطره فى كتاب « الأمير » أولاً ، وهو كتاب يصف فيه ما يجب أن يكون عليه الأمير ، وما يجب أن يتصف به من صفات حتى يكون ناجحاً محققاً لمراميه وأغراضه . وقبل أن ينفض يديه من هذا الكتاب ابتداءً كتاب « تعليقات على الحوليات العشر الأولى لتيتو ليشيو ^(١) » وفيه يصف الجمهورية ومزاياها .

أما كتاب الأمير فقد اشتهر فى جميع أنحاء العالم ، وصار الأساس لعلم السياسة . وهو كتاب عجيب فى آرائه وأغراضه وتأثيره ؛ إذ لو استعرضنا أعمال الحكام من عصر مكياقللى حتى الآن — ولا نقصد الأمراء بالذات ، بل نقصد الهيئة الحاكمة المسئولة ، فالأمراء فى العصور الحديثة لا يحكمون — لوجدنا أن الدول لم تخرج فى توطيد سلطاتها ومعاملاتها بوجه عام عما جاء فى هذا الكتاب ؛ فهى لا تزال تسير على مبادئه ، تلك المبادئ السياسية التى فصل فصلاً تاماً بينها وبين الأخلاق ، فجلبت لصاحبها السمعة الشنيعة .

لنستعرض قليلاً ما جاء فيه : إنه يبتدىء بالكلام عن نشأة الإمارات

(١) تيتو ليشيو المؤرخ الرومانى الشهير (٥٩ — ١٩ ق . م .)

من وراثية ومجدثة مكتسبة ، ثم يصف كلا من النوعين ، ويأخذ في بيان طريقة اكتساب الإمارات سواء أكان اكتسابها بالسلاح أم بالمصادفة الحسنة ، ويتكلم عن الذين اكتسبوا الإمارة بطرق الشر ، وكيف تقاس قوة الإمارات ، وما هي الإمارات الدينية ، وأنواع الجيوش والمرزقة منهم .

ثم يأخذ في الكلام عن الأمراء وفن الحرب ، وما يحمد الأمراء من أجه وما يذمون عليه ، وعن جود الأمير وشحه ، وعن قسوته وحلمه ، وهل الخير له أن يُحِبَّ أم أن يُخْشَى ، وكيف يجب أن يحافظ الأمراء على كلمتهم ويتجنبوا الكراهية والاحتقار ، وقيمة الحصون للأمير ، وكيفية الحصول على الشهرة . ثم يتكلم عن كتم أسرار الأمير وعن تجنب المرائين ، ولماذا خسر أمراء إيطاليا بلادهم ، وضرورة تخليص إيطاليا من المتوحشين .

وقد يرى مكياقللى في أسوأ حالاته ، على الأقل في هذا العصر ، عندما يسأل مثلاً : هل الأفضل أن يُحِبَّ الأمير أم أن يُخْشَى ؟ ثم يجيب : لعل من المرغوب فيه أن يجمع الإنسان بينهما . ولما كان من العسير جمعهما لدى شخص واحد ، فمن الأسلم للأمير أن يخشى بدلاً من أن يحب ما دام مضطراً إلى النزول عن أحد الأمرين . فالناس بوجه عام منكرون للجميل متقلبون خونة جبناء طماعون ، وهم معك ما دعت ناجحاً ، ويبذلون لك دمهم وأموالهم وحياتهم ما لم تكن لك حاجة إليهم ، فإذا احتجت إليهم انقلبوا عليك .

وفي رأيه أن كل إنسان يؤمن بأن من فضائل الأمير أن يكون وفياً وأن يعيش مستقيماً بعيداً عن الخداع ، ومع ذلك تثبت تجاربنا أن الأمراء الذين أتوا أعمى لا كبيرة لم يأبها كثيراً لإراقة الدماء ، وعرفوا كيف يحتالون على خداع الرجال ، وفي آخر الأمر انقلبوا على أولئك الذين وثقوا بهم . ويجب أن تعلم أن هنالك طريقين للنضال : أحدهما القانون ، والآخر القوة . والأول خاص بالناس والآخر بالحيوان . ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية في أكثر الأحيان وجب الالتجاء إلى الأخرى . لذلك كان من الضروري أن يعرف الأمير كيف يجمع بين الإنسان والحيوان . . . والأمير إذ يضطر لمسلك الوحوش يجب أن يسلك مسلك الأسود والثعالب . فالأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من الشراك ، والثعلب لا يستطيع أن يحمي نفسه من الذئب . . . ولكن من الضروري

أن يعرف جيّداً كيف يخفى هذه الصفة ، وكيف يكون خداعاً ومراثياً . ففي الناس بساطة كبيرة ، وفيهم شهوة للوصول إلى رغباتهم ، فمن يحاول أن يخدع فلا بد أنه واجد مخدوعاً . . . ليس من الواجب أن يكون الأمير حائزاً لجميع المزايا ، ولكن من الضروري جداً أن يظهر بمظهر الحائز لها .

في هذه الأقوال وفي أمثالها وجد الناس في مكياقللى سياسة شيطانية ، وأخذوا يلومونه ويرون أن ما جاء به مخالف للفضائل ولواقع الأمور . ولو سار الأمراء على مذهبه لضلوا ، ولكن مكياقللى وجد الكثيرين من المدافعين عنه وعن آرائه .

أما الدفاع عن آرائه فيقوم على أقوال من الكتاب نفسه ، فهو ينطوى على آراء حكيمة وأحياناً نبيلة لا غنى عنها للأمير أو الحاكم ، مثل قوله : « لا أريد أن أترك جانباً هاماً من هذا الموضوع ، فهو خطر لا يمكن حماية الأمراء منه إلا في صعوبة إذا كانوا شديدي الحذر نافذى البصيرة هو خطر المرائين الذين يمتلئ بهم بلاط الملوك ؛ لأن الناس يتساهلون في أمورهم ويخدعون بطريقة ما ، فلا تسهل وقايتهم من هذا الوباء ، وإذا حاولوا ذلك تعرضوا لخطر الوقوع في الاحتقار . ولا سبيل لحماية أنفسهم من المداهنين ألا بتفهم الناس أن إخبارهم بالصدق لا يضايقهم ، ولكن إذا ما أخبر كل واحد الأمير بالصدق ففي ذلك ما يقضى على الاحترام . »
« لذلك كان على الأمير أن يجد سبيلاً ثالثاً ، هو أن يصطفى العقلاء في دولته ويسمح لهم وخدمهم بجرية قول الصدق له ، وذلك فيما يسأل عنه وحده لا في أمور أخرى . »

وفي صفحات عدة من كتاب الأمير ، وفي صفحات أكثر من كتابه المسمى « تعليقات على الحوليات العشر الأولى من تيتوليقيو » تجد في مكياقللى النظرة الحكيمة المجردة ، ولكنها تدل أكثر من ذلك على روح الوطنية ، والأمل في أن يجتمع شمل الدويلات الإيطالية فتؤلف وحدة كبيرة إيطالية ، تكون في مركزها وخطرها مثل الدولة الرومانية في أوج مجدها . هذا هو الحلم الذي كان يحلم به ، ولا يزال يحلم به دائماً أبناء إيطاليا المفكرون ، وهذا هو السبب الذي أدّى برجل مثل مكياقللى في سلامة تفكيره أن يتخذ من طاغية

مثل شيزاري بوجيا ابن البابا اسكندر السادس^(١) مثالا للأمير الذي يعمل لنجاح في أغراضه . ذلك أن شيزاري بوجيا مع كل ما سجله له التاريخ من فظائع ، كان طامحاً إلى أن يجمع إيطاليافي ظل سلطان واحد، ويعيد إليها وحدتها ويمنع عنها سلطة الفرنسيين والألمان الذين يسميهم الإيطاليون الوطنيون بالبرابرة ، وذلك بعد أن اقتطع له أبوه من أملاك الكنيسة ملكاً .

عرف ميكافلي شيزاري بوجيا وخالطه حين أرسله مجلس العشرة في بعثة سياسية ، وعرف مطامحه وآماله ، فرأى فيه قبل كل شيء الأمير الذي يحقق آمال نفسه وآمال كل مثقف في إيطاليا . ثم سارت الحوادث سيرها ومات البابا اسكندر السادس على قوته في وقت لم تكن تنتظر فيه وفاته ، وصادف أن أقعد المرض شيزاري فلم يستطع أن يتحكم في انتخاب البابا الجديد ، فانتخب البابا بيوس الثالث الرقيق الحاشية ، ولكنه لم يعمر غير أشهر ثم مات ، وعلى أثر وفاته انتخب البابا يوليوس الثاني العظيم العنيف محب الفنون المكافح للمقاتل ، عدو آل بوجيا ، فكانت النهاية التي أدت بشيزاري إلى الفرار ثم إلى الاعتقال في إسبانيا ثم الهروب ثم الموت مقاتلاً في بلاد بعيدة .

كل هذه الأمور يستخلص منها سكرتير مجلس العشرة العبر وهو بمنفاه في داره الصغيرة حيث ينفذ إلى مبادئ الأمور وأصولها في السياسة بعد أن مارس السياسة لاممارسة المضطرب لممارسة الرجل الذي خلق لهذا العمل . وهو إذ انقطعت الأسباب بينه وبين السياسة إلى غير رجعة وإلى غير أمل ، بل ربما لم تنقطع عنه أسباب الأمل الذي يرى تحقيقه بعيداً ، يكتب في عبارته الهادئة المنحوتة في جلاء كنحت التماثيل اليونانية في صفائها وإباتها وتحديدتها ، فيستخلص خلاصة الأشياء التي إن طبقتها في كل زمن تجد الأمراء أو قل ذوى الأمر يسرون عليها أرادوا ذلك أو لم يريدوا .

لك أن تصخب وتقول إن طبيعة البشرية خير من ذلك ، ولكن تمنع قليلاً في أمور هذا العالم الحديث الذي لا يعرف الأمراء وإنما يعرف الدول وقس مسلك هذه الدول بمعيار من المعايير التي وضعها ميكافلي : إن هنالك طريقين للنضال ، أحدهما القانون والآخر القوة ، والأول خاص بالإنسان والآخر

(١) البابا اسكندر السادس ولد سنة ١٤٣١ باسبانيا وتولى عرش البابوية من

بالحيوان ، ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية في أكثر الأحيان وجب الالتجاء إلى الأخرى ؛ لذلك يجب أن يعرف الأمير كيف يجمع بين الإنسان والحيوان — عبارة مثيرة ، ولكن أليس يسير عايتها أصحاب السلطان حتى اليوم ؟ قد يكون في كأس الكاتب شيء كبير من المرارة ، والواقع أنه لم يخلد إلى هدوء الضيعة في سهولة . وتستطيع أن تقرأ وصفه البديع لحياته في رسالة كتبها في الزمن الذي كان يحرر فيه كتابه « الأمير » لتعلم من أمره كثيرا ؛ فقد كان يستيقظ مع الفجر في كل يوم ، فيرتدى ثياب الفلاحين ويذهب إلى عمله في ضيعته وحساباته إلى المساء . فإذا كان الغروب قصد إلى المقهى حيث يجلس بين الفلاحين ليلعب الورق ويضحك ويصخب ويشاحن ، فإذا قضى هزيعا من الليل قصد إلى داره وخلع ثيابه الخشنة وارتدى ثيابا أنيقة هي التي كان يرتديها حين يقوم بعمله ويقابل الأمراء والحكام ، وفي هذه الثياب يجلس إلى كتبه وأوراقه ومحبرته ليعاشر قوما مهذبين ، كما يقول .

كان سكرتير مجلس العشرة في السنوات الأخيرة من حياته يأمل العودة إلى أعماله الإدارية والسياسية . وقد لاح له هذا الأمل قريبا ؛ إذ طرد آل مديتشي مرة أخرى . وفي هذه اللحظة عاجلته المنية وترك تراثه تلك الكتب — وفي مقدمتها كتابه الخالد عن الأمير — التي هي جديرة بالدرس في كل وقت ، والتي تحتوي على حقائق تعتبر وتستعبر دائما أسس السياسة الحديثة .

من محمد

طريق الهجرتين والعقد الالهى

هجرة إلى الله وهجرة إلى الرسول . فقد قال تعالى فى كتابه العزيز : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . » ألف الإمام ابن القيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ فى هذا المعنى كتاباً جعل عنوانه « طريق الهجرتين وباب السعادتين » بَيَّن فيه أن للعبد فى كل وقت هجرتين ، هجرة إلى الله بالطاب والمحبة والعبودية والتوكل والإِناية والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه ، والافتقار فى كل نفس إليه . وهجرة إلى رسوله فى حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه . ولابن القيم كتب أخرى كثيرة، غير أن هذا أفضلها ؛ لأنه يصور رأيه فيما يجب أن يكون عليه سلوك الإنسان فى هذه الدنيا ، وفى صلة المخلوق بالخالق ، من الفقر إليه والغنى به ، وفى الخير والشر وكيف يكون الخير من الله والشر من أنفسنا ، وفى القضاء والقدر ، وفى نفاة التعليل والحكمة والأسباب ، وفى الإرادة الإنسانية والمحبة .

وهذه كلها مسائل دقيقة خطيرة شغلت بال المسلمين منذ فجر الإسلام ، وهى شاغلة لأفكار المؤمنين بوجود الله من أصحاب الأديان ، بل هى شاغلة لأذهان الكفار والمشركين مادام المجتمع الإنسانى فيه الخير والشر والعدل والظلم . ولقد حاول الفلاسفة والمتكلمون والصوفية حل هذه المشكلات كل فرقة حسب منهجها ومذهبها ، فاختلَفوا فى ذلك اختلافاً كبيراً . وُخِيِّل إلى أصحاب هذه المذاهب أنهم ملكوا عنان البيان ، واختصوا بالمنطق والبرهان ، فسموا أنفسهم الخاصة وسائر أفراد المسلمين دهاء وعوام ، وأطلقوا على الجمهور أهل السنة ، والإسلام الصحيح لا يعرف خاصة وعامة ، أو أرستقراطية فكرية واجتماعية .

وتصدَّى من أهل السنة فى كل عصر رجال يجادلون الفلاسفة والمتكلمين

والمصوفية ، ولكن أبرزهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية ، ومثلهما في تاريخ الإسلام مثل سقراط وتلميذه أفلاطون في تاريخ الفلسفة ، كلاهما لا ينفصل عن صاحبه .

أول مسألة يحسن تقريرها في هذا الصدد علة احتياج العالم إلى الله . وقد بادر ابن القيم بعد خطبة الكتاب بنفى مقالة الفلاسفة والمتكلمين وإثبات دليل آخر غير دليليهما ، فقال : ولهذا كان الصواب في مسألة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين تذكرهما الفلاسفة والمتكلمون ؛ فإن الفلاسفة قالوا : علة الحاجة الإمكان ، والمتكلمون قالوا : علة الحاجة الحدوث . والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان ، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار . وفقر العالم إلى الله تعالى أمر ذاتي لا يعلل ، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته .

ثم مضى بعد ذلك فلم يتعرض للفلاسفة والمتكلمين الذين عني بالرد عليهم في بعض كتبه الأخرى . ولكنه اهتم بالمصوفية ؛ إذ أن مذهبهم يرمى إلى الوصول بل الاتصال بالله ، وهو أليق المذاهب بالهجرة إليه ، واصطلاحاتهم في ذلك تتم عليهم ، فهم يصفون المتصوف بالسالك والمسافر والسائر ، إلى آخر هذه النجوت المميزة لأرباب السلوك وأصحاب الطريق .

والمصوفية أصناف ، منهم المعتدلون ومنهم المتطرفون ، ولهم رموز واصطلاحات لا يفهمها إلا المريدون . ولقد رثى ابن القيم للصوفي الذي يحمله التصوف إلى ولوج باب الحلول ، فيقول : « سبجاني أو ما في الجبة إلا الله . ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له ، ويعذر لسكره ، وعدم تمييزه في تلك الحال . » والحلاج هو المقصود من هذا القول : ما في الجبة إلا الله . يطعن ابن القيم التصوف في الصميم ، ويبطل غاياتهم ، كالقول بالحلول والاتحاد والفناء ، ويسفه طريقهم ، ويناقش أئمتهم البارزين . أورد رأيهم في الفقر وهو باب السعادة وبداية الطريق . قال أبو المظفر الفريسي : الفقير هو الذي لا يكون له إلى الله حاجة . وعقب القشيري على هذا القول بأن صاحبه يشير إلى سقوط المطالبات ، وانتفاء الاختيارات ، والرضا بما يجريه الحق سبحانه . واعترض ابن القيم عليهما فقال : « إنه كلام مستدرك خطأ ؛ فإن حاجات العبد إلى الله بعدد الأنفاس . . . وأما أن يقال لا حاجة له إلى الله فشطيح قبيح . »

الواقع أن مرد الخلاف بين أهل السنة والصوفية في طريقة التفكير . المتصوفة يحكمون الذوق ، ويدركون الأشياء بعين القاب لا بنور العقل . وأهل السنة يجعلون الشرع قبلتهم ، ويتبعون الكتاب والسنة ، وينفذون إلى الحقائق « بالعقل الصريح والفطرة الكاملة » . ولابن تيمية كتاب اسمه « موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح » رد فيه على مزاعم الطاعنين في أهل السنة . وقال ابن القيم : إن تحكيم الصوفية مجرد الذوق ، وجعل حكم ذلك الذوق كلياً عاماً ، فهذا ونحوه من مشاركات الغلط .

ونحن نوافق أهل السنة في هذا الرأي الذى يجمع بين النقل والعقل ويوفق بينهما ، ويجعل المعول على العقل فى تفسير النصوص والنظر إلى الأمور . والرجوع إلى العقل الصريح هو أول لبنة فى بناء مذهب ديكارت من الفلاسفة المحدثين ، وهو القائل : « العقل الصريح le bon sens هو أكثر الأشياء قسمة بين الناس بالتساوى . »

أما الذوق وهو طريق الصوفية فهو منهج لا يتفق مع طبيعة الحياة ، ولا يفسر كل شئ ، ولا يتفق عليه جميع الناس ، ولا تقبله جميع العقول . ولقد حكى أبو حامد الغزالي عن نفسه أنه طاف بجميع المذاهب فلم يجد بغيته أو شفت غلته ، فأتته إلى التصوف الذى عدّه أفضل المذاهب وأليقها بالاتباع . واستطارت شهرة الغزالي ، ولقب بحجة الإسلام ، واتبعه كثير من الناس ، فكان الاقتداء به علة فى تأخر المسلمين ، كما سبق أن ذكرنا من قبل فى مقالنا عن « قضية العلم بين الغزالي وابن رشد » . واعترض علينا الأستاذ العقاد فى مجلة « الكتاب » مدافعاً عن الغزالي ، ولكننا حين ذكرنا أنه إحدى علل تأخر المسلمين لم نكن نقصد إلى رأيه فى العلم فقط ، بل لأنه اتخذ التصوف مذهباً ، فجعل الجمهور يقبل على التصوف ، ويتخذ الذوق لا العقل عماده ، وينصرف عن الدنيا ويذهب فيها .

قال ابن القيم يعترض على الصوفية : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك . وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذى يضرب بزهد المثل .

وقال الصوفية بالتوكل ورفضوا الأسباب ، فأجابهم ابن القيم : فهذا كما أنه ممتنع عقلاً وحسّاً فهو محرم شرعاً ودينياً ، فإن رفض الأسباب بالكلية انسلاخ

بين العقل والدين ، وإن أريد به رفض الوقوف معها ، والوثوق بها ، فهذا حق ، ولكن النقص لا يكون فى السبب ولا فى القيام به ، وإنما يكون فى الإعراض عن المسبب تعالى . فمنع الأسباب أن تكون أسباباً قدح فى العقل والشرع . وإثباتها والوقوف معها وقطع النظر عن مسببها قدح فى التوحيد والتوكل . والقيام بها وتنزيلها منازلها ، والنظر إلى مسببها ، وتعلق القيام به جمع بين الأمر والتوحيد ، وبين الشرع والقدر ، وهو الكمال . والله أعلم .

إذا كان الله هو الخالق المبدع ، وهو العليم القدير ، وهو الفعال لما يريد ، فلماذا يعاقب الناس على أفعالهم ؟ وإن قلنا الإنسان حر فإين إرادة الله ؟ هذه هى المشكلة الكبرى : القضاء والقدر ، وحرية الإرادة . وكيف يمكن التوفيق بين القضاء والقدر ، وبين الأمر والوعد والوعيد ؟

تميزت بعض الفرق للقدر وحاربت الشرع ، وتميزت بعضها الآخر إلى الشرع وكذب القدر . والطائفتان فى نظر ابن القيم ضالتان .

وآمنت فرقة ثالثة بالقضاء والقدر وأقرت بالأمر والنهى ، ولكنهم جعلوا مشيئة الله وقضائه دليلاً على رضاه به ومحبته له ؛ إذ لو كرهه وأبغضه لحال بينهم وبينه . وقال بعضهم إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها . وهذه كلها أقوال مشهورة ؛ فالمعتزلة ينسبون الحرية للإنسان وبهذا يصح عندهم الوعد والوعيد . والجبرية يثبتون القضاء والقدر ويعطلون حرية الفرد . وجاء الأشاعرة فقالوا بنظرية الكسب الأشعرى التى أصبح يضرب بها المثل فى الدقة والخفاء ، حتى ليقال أخفى من كسب الأشعرى . وخلاصتها أن أفعال العباد مخلوقة لله مكسوبة لهم ، فجمعوا بين الإرادتين .

أهل السنة يختلفون عن هؤلاء جميعاً ، وهم غير الأشاعرة . فإن قلت إن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم من الحنابلة ، فلا تنافى بين الحنابلة وأهل السنة . أليس الإمام أحمد بن حنبل هو الذى ضرب حتى خلعت كتفه فى محنة خلق القرآن ، ورفض الجواب وقال : القرآن كلام الله لا أقول مخلوقاً أو غير مخلوق . ورأى ابن القيم فى القضاء والقدر يتلخص فى شيئين : أن هناك حكمة إلهية فى كل ما خلقه الله وأمر به ، وأن الخير من الله والشر من العباد .

الحكمة من صفات الله والحكيم من أسمائه الحسنى . ومن حكمته أنه خلق

هذا العالم مركباً من أضداد ، كالليل والنهار ، والبرد والحر ، والداء والدواء .
وخلق الإنسان منه الطيب ومنه الخبيث .

فإن قيل : لم خلق الله الأضداد ، وهلا جعلها كلها سبباً واحداً ؟
قال ابن القيم : وهل تمام الحكمة وكمال القدرة إلا بخلق المتضادات
والمختلفات وترتيب آثارها عليها ، وإيصال ما يليق بكل منها .
وسأل ابن القيم أستاذه ابن تيمية : فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور
مجردة من المفاسد مشتملة على المصلحة الخالصة . قال ابن تيمية : خلق هذه
الطبيعة بدون لوازمها ممتنع ، ولو خلقت على غير هذا الوجه لكانت غير هذه ،
ولكان عالماً آخر غير هذا .

أما حقيقة نفس الإنسان فإنها جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة ، فما حصل لها من
كمال وخير فمن الله ، وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب الظلم والشرف فهو
منها ومن حقيقتها . فإن قيل لم لا تكون النفس خيرة ، كان هذا بمنزلة أن
يقال : هلا تجرد الغيث عما يحصل به من تغريق وتخریب وأذى ، وهلا تجردت
الشمس عما يحصل منها من حر وسموم ؟

كمال القدرة بخلق الأضداد ، وكمال الحكمة تنزيهاً منازلها ، والعالم هو
الذي يربط القدرة بالحكمة ، ويعلم شمولها لجميع ما خلقه الله ويخلقها .

الجديد في مذهب ابن القيم مذهب المحبة ، بها يفسر جميع المشكلات
السابقة . فقد خلق الله العالم ، وأحب من خلقه عبادته فقال : « وما خلقت الجن
والإنس إلا ليعبدون » . قال ابن القيم : فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من
خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته . وهو سبحانه ، كما أنه يحب أن يعبد ،
يحب أن يحمد ، ويثني عليه ، ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى .

فإنه سبحانه يحب نفسه أعظم محبة ، ويحب من يحبه ، وخلق خلقه لذلك ،
وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك .

ويذهب ابن القيم إلى أبعد من هذا : فهناك عقد إلهي بين الله وعباده ثمنه
الجنة . وفي ذلك يقول : فإله سبحانه خلق عباده له ، ولهذا اشترى منهم أنفسهم ،
وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم . وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له ،
مصطفاة عنده ، مرضية لديه . فالساعة أنت ، والله المشتري ، والثمن الجنة .

ومحبة الله من أقوى الأسباب فى الصبر عن مخالفته ومعصيته : فإن المحب لمن يحب مطيع . وكلما قوى سلطان المحبة فى القاب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى . وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها .

وإذا اقترنت المحبة بالإجلال والتعظيم أدت إلى الانقياد :

والمحبة أنواع : طبيعية مشتركة كمحبة الجائع للطعام والظمان للماء . ومحبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل . ومحبة أنس وإلف وهى محبة المشتركين فى صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة . وهذه الأنواع كلها لا تستلزم التعظيم ، ولا يتعارض وجودها فى الإنسان مع محبة الله . ولهذا كان رسول الله يحب الخلاء والعسل ، وكان يحب نساءه ، وكانت عائشة أحبهن إليه ، وكان يحب أصحابه ، وأحبههم إليه الصديق .

أما المحبة التى لا تصلح إلا لله فهى محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم . قال تعالى : « والذين آمنوا أشد حبا لله » .

والمحبة تقتضى إيثار المحبوب على غيره . والإيثار نوعان : إيثار معاوضة ومتاجرة ، وإيثار حب وإرادة . والمحبة الصادقة فى الإيثار الصادر عن الإرادة ، لا فى إيثار المعاوضة وطاب الحظوظ .

ولا محبة بغير إرادة ، فهى أساس العبودية الذى لا تقوم إلا عليه ، فلا عبودية لمن لا إرادة له .

أما التجرد عن الإرادة إطاعة لهوى المحبوب ، فهو عند ابن القيم باطل كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

والتحقيق عنده أن المحبة هى موافقة المحبوب فى إرادته ، بأن يبقى مراده مراد محبوبه . وهذا عند الصوفية نقص فى العبودية ، وهو عند ابن القيم من كمال الإسلام .

وعلى هذا النحو يحل ابن القيم مشكلة التوفيق بين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية ، لا بطريق الفلاسفة أو المعتزلة أو الأشاعرة أو الصوفية ، بل بطريق المحبة .

أحمد فؤاد الأهوانى

المرأة والحمر عند الأعشى

لو بحثنا في شعراء الجاهلية جميعهم ، حتى الذين اشتهروا منهم بالعشق والحب ، لم نجد فيهم من وصف المرأة مثلاً وصفها الأعشى ، ولا ذكرها وتحدث عنها ، إنما ذكرها وتحدث عنها الأعشى . ولو أننا درسنا شعراء الجاهلية لم نجد فيهم من تحايل للوصول إلى المرأة والتقرب إليها كما تحايل الأعشى عن صدق يدفعه بطبعه ، وعن محرك يميل به في فطرته . فهو يعتمد في ذلك على زينته مثلاً :

ولقد أرجل جتى بعشية	للشرب قبل سنابك المرتاد
والبيض قد عنست وطال جراؤها	ونشان في قن وفي أذواد
ولقد أخالهن ما يمنعنني	عُصراً يملن على بالأجياد

أو يعتمد على رسله :

فبعثت جنيّاً لنا	يأتى برجع جوابها
فشى ولم يخش	الأنيس ، فزارها وخلا بها

وأحياناً أخرى يعتمد على شعره ومجده أو مجد قومه :

فإن شئت أن تهدي لقومي فاسألى	عن العز والإحسان أين مصيرها
ولا تصرميني واسألى ما خليقتي	إذا ردّ عا في القدر من يستعيرها

وينتهاز الأعشى لذلك الفرص ، ويختلس المناسبات في الليل والنهار وبين الرجال والحراس ، وحين يغيب الأهل والأقارب :

قد بت رائدها وشاة محاذر	حذرا يقل بعينه أغفالها
فظللت أرهاها وظل يحوطها	حتى دنوت إذا الظلام دنا لها

للرأة والجر عند الأعشى

قرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالبها
حفظ النهارَ وبات عنها غافلا نخلتُ لصاحب لذة وخلها

ويتهم الأعشى في سبيلها كل ناصح ورشيد :

ومستدير بالذى عنده على العاذلات وإرشادها

والأعشى طلب المرأة شابًا ، وتحسر على فقدانها شيخًا .

رأت عُجْزاً في الحى أسنانَ أمها لدائى ، وشبانُ الرجال لدائىها
فشايها ما أبصرت تحت درعها على صومنا ، واستعجلتها أناتها

وقال يعذر فتاة صدته في شيخوخته :

ألا قل لتيّاك ما بألها ألبين تُحدجُ أجمالها ؟
أم للدلال فإن الفتا ع حق على الشيخ إدلالها
فإن يك هذا الصبا قد ذبا وتطلاب تيّا وتسألها

ثم يتمناها ويتمنى أن تحور إليه لمتة في آهة باكية :

فأنى تحوّل ذا لمة وأنى لنفسك أمثالها ؟

بل يريد الأعشى أن يتكلف في طلبها أبلغ المشاق .

ولو أن دون لقاءها ذا لبدة كالزئج نأبه
لأتيته بالسيف أمشى لا أهدولا أهابه

ولقد وصف الأعشى المرأة : وصف جمالها ووجهها وجسدها وثيابها
ومواكبها ورحيلها ، ولم يترك فيها موضعاً يوصف إلا وصفه ، وصوره ورسمه
في إجادة ودقة :

بيضاء جاء العظام لها فرع أثيث كالجبال رجله
إذ هي تصطاد الرجال ولا يصطادها إذا رماها الأبل
كأن طعم الزنجبيل وتقا حًا على أرى الدبور نزل

المرأة والحجر عند الأعشى

ثم يصف نساء يسارقن النظر من وراء الكلال :

السارقات الطرف من ظعن الـ	حي ورقم دونها وكلل
فيهن مخروف النواصف مسـ	روق البغام شادن أكحل
رخص أحمر المقاتين ضعيـ	ف المنكين للعناق زجل

أو يصف امرأة فيقول :

وإذا غزال أحور الـ	عينين يعجبني لعبابه
حسن مقلد حليـه	والنحر طيبة ملابه
غراء يبهج زولهـ	والكف زينها خضابه

أو يصف نساء على الحدوج :

واستقلت على الجمال حدوج	كلها فوق بازل موقوفـ
خاضعات يظهرن أكسية الخرز (م)	ويبطن دونه بشفوفـ
وحثن الجمال يسهكن بالبا	غز والأرجوان نخل القطيفـ

إلى مثل ذلك الجو العجيب الذي أحاط الأعشى المرأة به ، وآها بينه وأرادها أن توجد فيه ؛ وهو جو سحري جميل كجمال المرأة نفسها ، وهو جو عبق بالمسك والكافور والزنجبيل وأنواع الفواكه ، وجو مفعم بالأزهار والورود والأقحوان والزنبق ، وجو فيه رقص وغناء وزمر ، وفيه خمر وقمار ، وفيه عهر ومجون ؛ وهو الجو الذي تحاط به المرأة حين تقودها الدوافع التي تلقى بها في أيدي مثل هذا الرجل أو أضرابه . فالأعشى إذاً قد بهرته المرأة وهاجت نفسه ، فهو يحسها بجميع حواسه إحساساً صادقاً قوياً ، وإحساساً شرهاً بهيجاً ، وإحساساً المتفتح للحياة وألوانها بكل نافذة من نوافذ نفسه . ولكننا مع ذلك الوصف وتلك العناية وذلك الاهتمام ، ألا نستطيع مطلقاً أن نتول إن الأعشى أحب المرأة يوماً أو احترمها ، ولا أن نقول إنه قد عشق المرأة عشق الود الخالص أو تعلق بها تعلق العاطفة المشبوبة . فإذا قال الأعشى إنه عشق فمقد بدأ يكذب . فهو لم يتضل بامرأة ما اتصالاً عاطفياً ولا اتصالاً نفسيّاً ، ولم تكن له وشيجة يمكن أن نطلق عليها آمين اسما من أسماء الحب العذري أو

المرأة والخمر عند الأعشى

الهوى البريء . ونستطيع بيسر وبغير كد أن نتصور للأعشى أكثر من علاقة واحدة ، وأكثر من موضوع واحد . فما أكثر اللائى تعرّف إليهن الأعشى ومازجهن واختلط بهن فى وقت واحد !

لهذا لم نر فى شعر الأعشى أحوال العاطفة العاشقة وأطوارها وتجاربها ، ولم نعر فى شعره على اختلاجات القلب الخافق ولا وساوسه ولا آماله ومخاوفه . ولم نلق فى غزله تلك العاطفة المجردة السامية ، أو تلك المعانى المثالية أو الأحاسيس العفة المخلصة الطاهرة المحرومة ، أو ذلك الهيام الذى ينزع فيه الكائن الحى بكل وجوده إلى المخلوقة التى تكمله نزوع الوجد الملتهب والحنين المستعر . إنما كان الأعشى عاشق جمال حسى فى المرأة وصائد متعة جسدية مؤقتة .

ولو ان دون لقاءها جبلا مزلقة هضابه
لنظرت أنى مرتقا ه وخير مسلكه عقابه .

لماذا ؟ الآن الوجد البريء يدفعه أو الشوق التزيه يوحى به ، أو الوحشة النفسية تزجيه وتحمله ؟ كلا . وإنما لأن الحب فى نظره دَرسٌ ثيابه :
لأنيتها إن الحب (م) مكاف دَرسٌ ثيابه

بل كان همه من المرأة أن يقول :

من كل بيضاء ممكورة لها بشر ناصع كالابن
عريضة بوس إذا أدبرت هضيم الحشا شخنة المحتضن
يصب لها الساقيان المزا ج منتصف الليل من ماء شن

والأعشى كان لذلك يطلب فى المرأة ألوانها الزاهية البراقة اللامعة ، وهو فى ذلك مستهتر متهتك لا يبالى ولا ينجس ، مسرف مبالغ لا يقنع ولا يرتوى ، حتى فى أيام شبابه وفى عهد كهولته نراه يتطلع بعين متشبهة إلى الماضى الماجن ، ويعود بذاكرته إلى أحداثه الدائرة .

والغريب أن رجلا كالأعشى — وهو على إلحاحه هذا وراء المرأة — لا نجد عند ذلك الضعف والوهن ، أو ذلك التخاذل وتلك الذلة التى تصحب فى العادة مثل هذا الصنف من المزاج ، أو تلازم أشباه هذا الضرب من الطبع . ولعل

ذلك كان راجعاً إلى نجاحه فيما يبغيه ، أو إلى أنه كان يجد الفريسة والشريكة — إن صح هذا التعبير — من غير مشقة . وبذلك لم تكن به حاجة إلى اصطناع الذلة أو اصطناع الخنوع .

ولقد كنا نود أن نصف بعض صلات الأعشى ، لولا أننا لا نجد المادة الكافية في تاريخه وسيرته . وإذا نحن أردنا أن نعتمد في ذلك على شعره لاضطررنا إلى أن نتخترع له الحوادث ، وإلى أن نحمل عليه القصص والأخبار ؛ لأن الأعشى لا يزيد في شعره على الوصف الكثير ، فإن هو ذكر حادثة فإنما يذكرها ذكراً مقتضياً عما لكي يخلص بذلك إلى الوصف ؛ فقد كان يجد فيه ، على ما يخيّل إلينا ، لذة ومتعة لا يعدلها إلا لذته ومتعته بنفس الجمال المادى الذى يصفه ويتوق إليه ، ولأنه مع ذلك كله لم تكن — فى الغالب — للأعشى صلة طويلة بامرأة معينة ، أو أن من طبعه ألا تدوم له علاقة مع خلية من خلياته .

ولقد كان من المنتظر والطبيعى لرجل عاشر المرأة وشاهدها فى أوضاعها المختلفة واختلط بها ومازجها — أن يعرف هذا الرجل شيئاً عن طبيعة المرأة وأن يخبر بعض أسرارها وخفاياها . ولكن الأعشى رجل على العكس من ذلك . فأغلب الظن أنه مات ولم يفهم المرأة ، ولم يعرف كنهها ولا طبيعة مزاجها وأنوثتها على الرغم من كل تجاربه وصلاته بها . والسرف فى ذلك بسيط ؛ فالأعشى رجل غلبه مزاجه وامتلكته طبيعته حتى لم يدع له الفرصة التى ينظر فيها إلى المرأة حراً من قيودها خالصة من أسرها ، وكانت لذاته وشهواته تغمره وتغرقه فلا تتركه يخرج منها ليدرس أو يمحس ، ولا ليلاحظ أو يحصى ، وكانت نفسه الساذجة تتحول بينه وبين ذلك أيضاً . فالأعشى رجل مقاهٍ وخدنٍ منتديات ومجالس . إنما كان يحسن المظاهر العملية ويتقن الأساليب المستعملة فى بلوغ غرضه . وكل ما عرفه الأعشى عن المرأة أنها تهجر الشيوخ وتطلب الشبان ، أو أنها تعشق المال وتلفظ الرجل الخالى . وهذه قضايا لا قيمة لها إذا قيست إلى ما كان ممكناً أن يستخلصه من القضايا الأخرى ، ومن الأحكام التى غفل عنها أو غابت عنه أو لم يفطن إليها .

وخلاصة القول فى غزل الأعشى أنه كان عاشق جمال ، يصفه ويتبعه ويمدحه ويمجياه ، ولكنه الجمال الحسى المادى . وكان هذا العاشق عاشقاً يخون أحياناً ويندر أحياناً أخرى ؛ لأنه لا يرجو من وراء ذلك إلا إشباع نزعاته ، ولكنه

المرأة والخمر عند الأعشى

كثيراً ما صور هذا الجمال في صور بارعة فاتنة ، وأظهره في مظهر مغر جذاب ، وأحاطه بضروب المباهج وبصنوف الأفراح ؛ لأن الجمال الحسى كان في حياة الأعشى كل شيء ؛ فهو الذى شكل أخلاقه وطبع عاداته ووجه تصرفاته وأعماله ، ولأن الجمال الحسى كان الهدف القريب الذى تهدف إليه النفس الحية الزاخرة ، وينزع إليه الكائن الممتلىء بالحياة المرهف نواحي الحس .

وأى شيء أحق هنا بالتحدث عنه بعد المرأة إلا الخمر ، والخمر عند الأعشى خاصة . والحق أن المرأة والخمر كالشيء وظله . ومن الذى يصف الخمر غير الأعشى ؟ ذلك الذى شربها فى أباريق الفضة وكثوسها ، بل قال فى أباريق الذهب :

إذا انكب أزهر بين السقاة تراموا به غرباً أو نضارا

قال أبو عبيدة : الأزهر هو الأبريق الأبيض ، والغرب هو الفضة ، والنضار هو الذهب .

وشربها فقيراً كما شربها غنياً :

على كل أحوال الفتى قد شربتها غنياً وصعلوكا وما إن أقاتها

وشرب الأعشى الخمر فى الصباح ، ولم يتركها فى المساء :

و ذات نواف كلون الفصو	ص باكرتها فادّجت ابتكاراً
غدوت عليها قبيل الشرو	ق إما نقالا وإما اغتاراً
فلم ينطق الديك حتى ملاً	ت كوب الرباب له فاستزارا

ويشربها الأعشى حتى يهذى ويخلط بين المدركات :

شربت الراح بالقلتين حتى حسبت دجاجة مرت حمرا

لأنه مسرف مبالغ :

ولقد شربت ثمانيا وثمانيا	وثمان عشرة واثنين وأربعا
من قهوة باتت بفارس صفوة	تدع الفتى ما كما يميل مصرعا

المرأة والجر عند الأعشى

بل لقد أهلك الأعشى ماله في هوى الجر .

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالى وكنت بهن قدماً مولعا
الجر واللحم السمين مع الطلى بالزعران ولا أزال مروّعا

والأعشى اتتجع في سبيل الجر البلدان واخترق الصحارى وزار الأديرة :

وكعبة نجران حتم علي لك حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها
لهم مشربات لها بهجة تروق العيون لأذهابها

والواقع أن مجلس الجر عند الأعشى كان مجلساً حافلاً غنياً زاخراً : غنياً
بالجر والمال ، غنياً بالندماء والفكاهات ؛ فكان يشربها :

في شباب كمصاييح الدجى ظاهر النعمة فيهم والفرح
لا يشحون على المال وما عودوا في الحى تصرار اللّعح

كذلك كان هذا المجلس غنياً بالموسيقا والمأكولات وبالأزهار والرياحين
وبالمسك والكافور، وكان يحتسيها بين مناظر الطبيعة الغناء وبين ربوعها الفيحاء.
وكان مجلسه آخر الأمر أو أوله عامراً بأهم شيء أو بالسبب الأول الذى كانت
تقام هذه المجالس من أجله ، وهى القيان والراقصات والمغنيات أو المرأة :

وكأسٍ شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
وشاهدنا الورد والياسمى ن والمسمعات بقصابها
ومزمرنا معمل دائم فأى الثلاثة أزرى بها؟

وقال :

يا من رأى عارضا قد بت أرمقه كأنما البرق فى حافاته الشعل
لم يلهنى اللهو عنه حين أرقبه ولا اللذازة من كأس ولا كسل
فقلت للشرب فى درنى وقد ثملوا وشيموا . وكيف يشيم الشارب الثمل؟
برقا يضىء على أجزاء مسقطه وبالحبوة منه عارض هطل

المرأة والخمر عند الأعشى

ولكن الأعشى عندما يصف الخمر يصفها وصفاً ظاهرياً ، يصف وجودها الخارجي وألوانها وأكثوسها ، ويصف مجاسها والحاضرين فيه ، ويعين أوقات شربها وكمية هذا الشراب دون أن يزيد على ذلك وصف أثرها في النفس ، ذلك الأثر المعنوي المجرد ، ودون أن يذكر أحوال الخمر ومعاني السكر والغيبوبة أو أحاسيس الدهول والنشوة ، وصلة ذلك كله بالحياة والوجود والموت .
ويمحسن بنا أن نذكر وصفاً كاملاً للجلس من مجالس الخمر عند الأعشى ، لتبين حقيقة ما نقول :

وشمول تحسب العين إذا	صفتت وردتها نور الذئب
مثل ذكر المسك زالك ريحها	صبتها الساقى إذا قيل توح
ذات غور ما تبالي يومها	غرف الأبريق منها والقدر
وإذا مكوكها صادمه	جانباه كر فيها فصبح
فترامت بزجاج معمل	يخلف النازح منها ما نزع
تحسب الزق لديهم مسنداً	حبشياً نام عمداً فانبطح
ولقد أغدو على ندمانها	وغدا عندي عليها واصطح
ومغن كلما قيل له	أسمع الشرب فغنى فصدح
وثنى الكف على ذى عتب	يصل الصوت بذى زير أبح
فترى الشرب نشاوى كلهم	مثل ما مدت نصاحات الرب
بين مغلوب كريم خده	وخذول الرجل من غير كسح
وشغاميم جسام بدن	ناعمت من هوان لم تلح
كالتمثيل عليها حل	ما يوارين بطون المكتشع

وأخيراً لم يكن شرب الخمر في الجاهلية عيباً في ذاته ، إنما كان العيب في الإسراف والإدمان والأسراف . ولقد أسرف الأعشى حتى فاق سائر الناس . ونحسب نحن أن ما شجعه على ذلك وحفزه إليه إنما هو جريه وراء المرأة ، وطلبه لها في أى صورة تكون وفي أى مكان توجد ، وحرصه على أن يحيطها بأنواع اللذات وشكول المتع ، مع إسراف الحس ومبالغة الرغبة الكامنة في طبعه ومزاجه .

على إبراهيم الأؤنس

تصدع مبدأ سيادة الدولة

يكاد يجمع الفقه الحديث للقانون الدولي العام على أن السبب الجوهري لاختفاق نظام السلامة المشتركة في عصبة الأمم هو أن تلك العصبة كانت دولة بين الدول ولم تكن دولة فوق الدول ، وكان ميثاقها يتطلب في إصدار قرارات المجلس أو الجمعية (مادة ٥ فقرة أولى) إجماع آراء الأعضاء الحاضرين فيما عدا حالات قليلة تتعلق بالإجراءات وغيرها وردت في الميثاق على سبيل الحصر (المادة ٥ فقرة ٢ والمادة ١٥ فقرة ٤ وفقرة ١٠) .

ولقد لقيت قاعدة الإجماع هذه نقدا شديدا ؛ لأنها فسرت علما وعملا بأنه من حق أية دولة أن تمتنع عن المساهمة في تنفيذ القرار الذي اتخذ متى ما رأت مصلحتها في ذلك . وكان النص على هذه القاعدة في الميثاق أمانة صارخة من أمارات تمسك الدول الأعضاء بمبدأ سيادة الدولة .

لسيادة الدولة وجهتان : وجهة داخلية ، ووجهة خارجية : أما الوجهة الداخلية فلازمة لا غنى عنها ؛ إذ ليس من يمارى في أن الحياة البشرية لا بد لها من حكومة تشرف عليها وتدير شئونها ، وهى على كل حال ليست محل بحثنا اليوم . أما الوجهة الخارجية — وهى التى يدور عليها هذا المقال — فقد ظلت إلى اليوم عقبة كئودا فى سبيل إقامة سلطة دولية فوق الدول ترسم للعالم السياسة العامة وتحول بذلك دون تصادم المصالح القومية ، على نحو ما رأينا تصادمها منذ إنشاء عصبة الأمم إلى أن اندلع لهيب الحرب العالمية الثانية .

ولهذا رأينا الفقه الدولي يعلن الثورة على الأوضاع القديمة ، وينادى بمبادئ جديدة قوامها الحد من مبدأ سيادة الدولة وإخضاعها خارجيا لمقتضيات المجتمع العالمى . ويعلقون على ثورتهم السلمية تلك ، أمل إنقاذ الإنسانية جمعاء من هذه الحروب المتكررة ، ومن هاته الأزمات الاقتصادية الدورية .

تصدع مبدأ سيادة الدولة

وكان أول ما نادى به فقهاء القانون الدولي العام — من سنوات سابقة على نشوب الحرب الحالية — ضرورة إلغاء قاعدة « الإجماع » من عهد عصبة الأمم وما يتفرع عن ذلك الإلغاء من تقييد الأقلية برأى الأغلبية ، ومن فرض قاعدة إجبارية للتحكيم بدل القاعدة الاختيارية الأولى ، تكفل الالتجاء إليها ، وتنفيذ ما يصدر من قرارات مبنية عليها قوات دولية مندجة ، إن تعذر إنشاؤها فوراً ، فلا أقل من أن تجمع الدول كلمتها عليها حتى يهضم العالم ذلك المثل الأعلى ويسيعه . وإن هذا الاتجاه الجديد هو في واقع الأمر صدى للحوادث التي تعاقبت من يوم أن انسحبت ألمانيا من مؤتمر نزع السلاح سنة ١٩٣٢ إلى يوم أن نشبت حرب سنة ١٩٣٩ / ١٩٤٥ . ذلك أن تاريخ العالم في هذه الفترة ينبئنا بأن الصراع الوحشي الذي شهدناه أخيراً من دول تقول إنها متمدنة ، لم يقم إلا بسبب تمسك الشعوب بمبدأ سيادة الدولة ، ولعدم اكتراث تلك الشعوب بما وقع من انتهاك متكرر للعهود والمواثيق مادامت مصالحها المباشرة لم تكن قد مست بعد . لقد ظنت أن الأمر لا يعنيها إذا انسحبت ألمانيا من مؤتمر نزع السلاح سنة ١٩٣٢ ، ثم من عصبة الأمم سنة ١٩٣٣ ، ولا يعنيها إذا هاجمت اليابان منشوريا معتدية على زميلتها الصين عضو عصبة الأمم سنة ١٩٣٣ ، ولا يعنيها إذا احتلت إيطاليا الحبشة زميلتها في العصبة سنة ١٩٣٥ ، ولا يعنيها إذا احتل هتلر منطقة الرين المجردة ناقضا اتفاقيات لوكارنو سنة ١٩٣٦ ، ولا يعنيها إذا اضطرعت الشيوعية والفاشية على أرض أسبانيا سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٨ ، ولا يعنيها إذا ضمت ألمانيا النمسا سنة ١٩٣٨ ، ثم بوهيميا ومورافيا وميمل سنة ١٩٣٩ ، وإذا احتلت إيطاليا ألبانيا سنة ١٩٣٩ . حتى إذا احتل هتلر دانتز وغزا بولندا واقترب الخطر بذلك من إنجلترا وفرنسا ، وأوشكت المصالح المباشرة أن تمس ، استيقظت الشعوب من سباتها قبل فوات الفرصة في سبتمبر سنة ١٩٣٩ . فلا عجب أن نرى مبدأ سيادة الدولة يتقوض إزاء ما رأيناه من اشتداد التنافر بينه وبين حقائق الحياة البشرية . ولا عجب أن نرى الفقه الدولي العام يقول إنه لا نجاح لأية مؤسسة جديدة للسلام ، سواء اتخذت صورة مجرد اتحاد أوروبي أو عالمي أو قاري ، أو صورة تشكيلات إقليمية تربطها عصبة أمم جديدة ، إلا أن تقتنع الحكومات ومن ورائها الشعوب بأن الدولة خاضعة بطبيعة الأشياء لمجتمع أوسع .

تصدع مبدأ سيادة الدولة

والا اتجاه الفقهى الثورى اللافت للنظر هو تعديل مركز الفرد فى القانون الدولى العام . كان الفقه السائد قبل الحرب العالمية الثانية ، أن الفرد ليس من أشخاص القانون الدولى العام . ولهذا رأينا القانون المذكور لا يلتفت إلى الأفراد التفاتاً مباشراً ، ولا يعنى بحقوقهم عناية مباشرة . وكان إذا حل بفرد ضرر من عدم تنفيذ دولة الالتزام الدولى ، يلجأ ذلك الفرد إلى دولته لينال عن طريقها الترضية والإنصاف . وكانت النظرية السائدة إذ ذاك أن الحق الذى أهدر ليس حق الفرد ولكنه حق الدولة ، حقها فى أن يلقى أفرادها المعاملة الحسنى من الدول الأخرى .

ولم يكن إذن للفرد ، فيما عدا حالات نادرة قليلة الأهمية ، حق الالتجاء مباشرة إلى المحاكم الدولية ، وإنما كان ذلك من حق دولته . وكان عليها أن تتمسك بأن الحق المعروف هو حقها لتمتد إليه ولاية تلك المحاكم ، ولطالما تعقدت الإجراءات وتراخى إحقاق العدالة .

ولهذا أشاروا بالتوسع فيما كان للفرد — من قبل — من حق المشول مباشرة أمام المحاكم الدولية : كان له ذلك أيام أنشئت «المحاكم المختلطة التحكيمية» سنة ١٩٢٩ لتنظر فى مطالب الأفراد والهيئات الناشئة عن حوادث الحرب فى سنة ١٩١٤ / ١٩١٨ ، وكان له أن يمثل أمام «اللجنة الدولية المشتركة» بين الولايات المتحدة وكندا ، وأمام غيرها من الهيئات التحكيمية الدولية المحدودة . ولقد اعترض بعضهم على المبدأ بأنه يخشى منه أن ترهق المحاكم الدولية بنزاعات تافهة أو كيدية . ولكنه اعترض مردود ؛ لأنه يصدق على المحاكم الإقليمية ، ومع ذلك فهو لم يمنع من إنشائها .

وحسب من يخسر دعواه تحمله بمصاريفها وبالتعويض إذا اقتضى الأمر ؛ ليحسب حساب عمله قبل الإقدام عليه . كما أنه من الممكن أن توكل تصفية النزاعات إلى دولة الفرد المتقاضى أولاً ؛ فتقدم منها إلى المحكمة الدولية ما تراه جديراً بالتقديم ، على أن يكون هذا الإجراء موقوتاً ولفترة انتقال يزول بانتهاءها .

ومبدأ سيادة الدولة يقوم على التعصب الوطنى الذى يدفع بالمرء إلى تقديم المصالح المباشرة لدولته على المصالح غير المباشرة — البعيدة والمحقة مع

ذلك — للمجتمع الدولي ، والذي يغرس في نفسه الإحساس بأن دولته هي الحكم ، والخصم ، فيما يشجر بينها وبين دولة أخرى من خلاف . ولهذا يشير المتأخرون من فقهاء القانون الدولي العام بإجراء تغيير جوهري في عاطفة الولاء ، ويرون ضرورة نقلها من الدولة الوطنية إلى الدولة العالمية . والسبيل عندهم ، إلى ذلك الهدف المثالي ، أن تحذف من كتب طلبة المدارس المواد التي توحى الولاء للوطن وحده ، وأن يلقنوا بدلها مزايا المجتمع الأوسع . ومما يساعد على تجلية هذه الفكرة لأذهانهم وتقريبها إلى قلوبهم أن تلقى عليهم مبادئ عامة في الاقتصاد السياسي تثبت لهم استحالة نظرية الاكتفاء الذاتي ، بل قصورها عن أن تحقق لشعوب العالم غنيها وفقيرها الرفاهية المنشودة .

ولا تحسبن تلك الثورة الشاملة التي أعلنها الفقه الحديث على مبدأ سيادة الدولة ثورة مخدوعة خداعة ؛ فإنك إذ تتبع نشوء الدولة وظهور العاطفة الوطنية تلمس أن التصدع الحالى الذى نشهده فى ذلك المبدأ إن هو إلا طور انتقالى محتم يأمل الخير من ورائه أولئك الذين لم يفقدوا بعد كل ثقتهم فى الطبيعة الإنسانية .

تكونت الدولة من اندماج — اختيارى أو إجبارى ؛ فذلك لا يهم — للأسر والعشائر ، ونبتت فكرة الحكومة من إحساس عام بضرورة قيام سلطة مركزية تشرف وتنظم وتنتقص من حرية الفرد والقبيلة فى التصرف تصرفا قد يضر بالآخرين .

وتفريعا على هذه الحقيقة التاريخية قالوا إن تعلق الفرد بوطنه هو عاطفة اكتسابية صناعية . فالوطن الذى يحبه المرء بطبعه هو وطنه الصغير ، قرية كانت أو مدينة أو بقعة صغيرة من الأرض ، يعرفها بتفاصيلها وتربطه بها ذكريات شخصية عزيزة ، هناك ولد غالبا ، وهناك يقضى عادة فترة حياته .

أما الوطن الكبير فأقليم متسع — كثيرا ولم يكن دائما — ما تختلف بقاعه وطباع أهله بعضها عن بعض . ولست أعرف وصفا لعاطفة المرء أصدق من وصف فولتير ، قال : « كلما اتسع هذا الوطن تناقص حبك له . إن الحب الموزع يضعف ؛ إذ أنه من المحال أن تحب من قلبك أسرة كبيرة العدد لا تكاد تعرفها . » وإنك لترداد يقينا من صواب هذا النظر إذا ما تقصيت النظريات المختلفة

تصدع مبدأ سيادة الدولة

التي اعتنقها مختلف الباحثين في تصرف عناصر الوطنية وأصل تكوينها ، مما لا يتسع المقام هنا لعرضه (١) .

ويزيدك يقينا على يقين أن تعود بذاكرك إلى ما كان يفعله الجنود المرتزقة من محاربة دولهم وقتل إخوتهم « في الوطن » ، وإلى ما كان يقع من دخول الموظفين المدنيين خدمة الحكام الأجانب ، وما كانوا يبذلونه لهم من الولاء والأمانة مما لا يتصور بذله إلا لما تعارف الناس — أخيرا وعلى الخصوص من بعد الثورة الفرنسية — على تسميته بالوطن .

ولم تقف ثورة الفقه عند المسميات بل تعدتها إلى الأسماء . فلم نعد نقرأ عن قانون ما بين الدول ، بل أصبحنا نقرأ عن قانون ما فوق الدول . وإن هذا النقد المبرر لمبدأ سيادة الدولة إن هو في واقع الأمر إلا صدى لبحوث متشعبة مترامية الأطراف . فلقد أثبت رجال الاقتصاد فساد النظرية القائلة بالاستقلال الوطني في المسائل الصناعية والتجارية والمالية . وأوضح رجال الاجتماع أن رفاهية شعب من الشعوب تتأثر بفقر شعب آخر ، وأن جبل السلام يضطرب بسبب ذلك ، وأن ظروف العمال وحالتهم الصحية والمعنوية تتأثر بعوامل دولية لا تعترف بالحدود السياسية . ونبذ رجال التشريع اليوم نظرية القانون الدولي العام المبنية على سيادة الدولة إلى نظرية إخضاع التشريع القومي والأنظمة القانونية الوطنية لقانون الأمم .

ولقد كان المأمول أن تسير السياسة الدولية وفق ذلك الفقه الدولي الحديث ، مدفوعة على الأقل بعبرة الماضي ، وما ذاقته الدول من نتائج التعصب الدولي . فإذا بميثاق الأمم المتحدة لا يعدل عن « قاعدة الإجماع » القديمة إلا عدولا وهميا ، دفع ببعضهم إلى الاعتقاد بأنه يمتاز في هذا عن ميثاق عصبة الأمم . والواقع ، مع شيء من إمعان النظر ، غير ذلك . فلقد نصت حقا المادة ٢٥ من ميثاق الأمم المتحدة على أنه « يتعهد أعضاء الأمم المتحدة بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها وفق هذا الميثاق » . وهي بذلك النص تمتاز — حقا — عن ميثاق

(١) راجع في تفصيل ذلك ص ٨٧ — ص ٩٢ من كتاب :

World Order in Historical Perspective, by Hans Kohn, Harvard University Press, 1944.

تصدع مبدأ سيادة الدولة

العصبة حيث كان لكل عضو أن يقرر أن يشترك أو لا يشترك في تطبيق الجزاءات التي تقررها عصبة الأمم في حالة معينة على دولة قامت بعمل من أعمال العدوان . ولكنها كما قلنا مزية وهمية ؛ لأن المادة ٢ فقرة ٣ من ميثاق الأمم المتحدة حتمت توافر أغلبية سبعة أصوات من أعضاء مجلس الأمن الأحد عشر فيما لا يتصل بالمسائل الإجرائية، وحتمت إجماع الأعضاء الدائمين وهم روسيا والصين وفرنسا وبريطانيا وأمريكا ، أى الخمسة الكبار ، على ما يقولون عن أنفسهم أو يقوله عنهم الناس ، لا ندرى .

وبذلك عدنا إلى قاعدة الإجماع القديمة ؛ لأن كل السلطات الفعالة تركزت في مجلس الأمن ، دون بقية فروع هيئة الأمم المتحدة ، ولأنه أصبح في وسع الخمسة الكبار أن يفرضوا إجماعهم على العالم ، وفي وسع واحد منهم أن يشل قرارا اتفق عليه الأربعة الباقون .

ويحق لنا بعد هذا أن نسائل : فيم إذن كل تلك الدماء الغزيرة التي نزفها شباب العالم وزهرة سكانه ؟ أو لم يكفل ميثاق الاطلنطي - أغسطس سنة ١٩٤١ - لدول العالم أجمع حقوقا متكافئة في الحصول على المواد الخام ، وفي التحرر من العوز ؟ أو لم يكن مفهوما من نصوصه وروحه أنه قضاء على مبدأ سيادة الدولة ، حيث لم تتصور دولة تتمسك بحريتها المطلقة في العمل غير مكترثة بما قد ينال دولة أخرى من ضرر ، وتطالب مع ذلك تلك الدولة الثانية بأن تفتح لها أسواقها ومواردها وطرق المواصلات فيها ؟

إن ربط رفاهية العالم وسلامة شعوبه بتخلي الدول عن سيادتها الخارجية هو من قبيل ربط الغنم بالعُرم ، وهو بذلك لا يمكن أن يلقى اعتراضا من منصف . وإذا كانت الوطنية - لباب مبدأ سيادة الدولة - شعورا جميلا حقًا ، وكان لخير العالم أن يبدأ بالدولة ، فمن الخطورة أن يقف عند حدودها ، فيذكي الأثرة ويولد التنافس الحقود بين الشعوب .

ولو عمل مؤتمر الصلح المقبل على تدارك ذلك العيب الجسيم في ميثاق الأمم المتحدة ، لأسدى إلى قضية السلام يداً لن ينساها له الآباء والأمهات .

محمي غار ميراني

فى الصيف

استقبلت الصباح نشيطة غاية فى النشاط ، مبهتجة أشد الابتهاج ، تنتقل بين أرجاء المنزل فى حركة خفيفة سريعة ، يرتفع صوتها من حين إلى حين بألحان عذبة مرحة .

نظرت إلى المرأة وأطالت النظر ، فابتسمت . وترفت يداها الدقيقتان تجعّد من شعرها الأسود ، ترفعه تارة إلى أعلى ، وطوراً إلى أسفل ، ثم تنظر إلى طيفها وتطيل النظر ، وتدفع برأسها الصغير إلى الوراء ، فتتهدل خصلات من شعرها على جبينها ، فترتفع يدها تداعبه يمنة ويسرة . ترفعه إلى أعلى وتخفضه إلى أسفل . وأخيراً تركته للهواء يداعبه كيف يشاء . ثم عمدت إلى أجمل أثوابها فارتدته . ودارت على عقبها أمام المرأة ، فانفرجت شفتاها عن ابتسامة عذبة فيها رضا واطمئنان ، وفيها رقة وجاذبية .

« سيرانى الآن على أحسن حال وأوفاه . . . ما أعمق نظراته . . . » اضطرب جسمها اضطراباً يسيراً عندما ألم بها هذا الخاطر . . . إنها تتعجب لشعورها نحو هذا الشاب الذى أتى منذ أيام قليلة ، يستأجر الطابق العلوى من منزلهم ، فاستقبلته على أحسن ما يستقبل به القوم الذين يقدون إلى الإسكندرية فى هذه الفترة من الصيف ، لكنها لم تكذ تراه حتى اضطربت لنظراته النفاذة أعمق الاضطراب ، نظر إليها فأطال النظر ، وصاحفها ، فضغط على يدها فى رفق ورقة زادت اضطراباً .

طوّفت به حجرات المنزل . وهو لا ينطق إلا بالإعجاب ، ولا يبدى إلا الثناء . وسرعان ما وصل إلى اتفاق مع أمها . . . فقد أفهمها الدليل الذى صحب الشاب إلى المنزل ، أن الأسرة القادمة من القاهرة ، كريمة أصيلة ، ذات مركز مرموق . ولم ينس أن يضيف أن هذا الشاب غير متزوج . . . وسرت كلماته فى نفسها مسرى السحر ، فأثمت عقد الإيجار فى لحظات يسيرة . . .

وقفت آمال في شرفة المنزل ترقب في قلق ، تلك السيارات التي تمر بسرعة لا تلوى على شيء ، فينبض قلبها ، ويشتد ؛ ثم يشتد حتى يعلو أصواتها أو يكاد ، فتتبعها بنظرات تملؤها الحسرة حيناً ، والأمل أحياناً ، والأسف غالب الأحيان .

انتظرت فأطالت الانتظار ، فهمت بالانصراف . ولم تكد تخطو خطوات يسيرة ، حتى وقفت بغتة ؛ فقد وصلت الأسرة . . . قفز بصرها إلى باب السيارة يسترق النظر إليه ، ولكنها لم تقو على الانتظار فأسرعت لتكون في شرف الاستقبال . ألفت نظرة قلقة حائرة ، بين إبراهيم بك وزوجته الفاضلة وبين ابنه وابنته . . . على . . . أين على . . . ؟ ولكنها أخفت اضطرابها واستقبلتهم بما يليق أن يستقبل به ضيوف كرام ، متمنية لهم أجمل الأمانى وأسعد الأيام .

حمد الله كثيراً ما وسعه الحمد والشكر . إنها العناية الإلهية قد أعطته فأجزلت له العطاء ، فقد نال إجازته السنوية بعد طول التمتع والأياء . التمتع من الرؤساء ، والأياء من كل من يمت إليهم بصلة . . .

أخذ مكانه في القطار السريع يطوى به الأرض طيئاً صوب الإسكندرية ، بلد الحب والجمال . . . وكانت تصعد زفرة حارة مع كل نسمة من أنفاسه يخفق لها قلبه ، فيعتدل في جلسته ، ويلتفت يسرة إلى هذا الرجل الجالس أمامه يطمئن لعدم مراقبته إياه . . . ، يسرع ببصره إلى تلك الفتاة الجالسة جواره يرقب ابتسامة حائرة بين شففتيها فيزداد اضطرابه ، فينصرف عنها إلى نافذة القطار يُسرِّي عن نفسه بتلك المناظر التي تمر سريعاً أمام عينيه ، فتنتلق روحه في الفضاء حائرة بين القاهرة ، سريعة العدو نحو الإسكندرية . إنه ماضٍ حزين ، مستقبل باسم ، يالها من بسملة تصل الماضي بالحاضر ! ياله من ماضٍ أوشك فيه أن يصبح رب أسرة دعائمها الحب وأركانها الإخلاص !

أحب فتاة بادلته حُبّاً بحب ، وإخلاصاً بإخلاص ، فبنيا معا في ومضات من هذا الفيض الرائق عش الأمانى . وما إن اكتمل بناؤه وتحددت أركانه حتى هبت ريح عاصف أطاحت به . نظر الشاب في حسرة وألم إلى انهيار آماله . . . فتاته أصبحت تسأم منه وتسخر من أفكاره ، وقد كانت تتلهف إلى سماع نبذة من صوته العذب الرنين في أذنيها . أعجبت بطبيب شاب عادها أثناء مرضها ، خدعها

منصبه وماله فهامت به ، فأطاحت بخطيبتها بل بمستقبأها ، فلم تاحق حتى بهذا الذي
مر في طريقه لا يلوى على شئ . . .

انحدرت دمعته على خد الشاب وانفجرت شفتاه عن بسمة إن جاز للحزن
والسرور أن يجتمعا في لحظة . . . حزن لهذا الحب الضائع وسراً لطائف جميل
ألم به . . . وإنه لطائف رقيق جميل يبعث على السرور حقاً . . . يصل الماضي
بالحاضر . . . يبعث هذا الحب الضائع في أمل مقيم . . . إنها فتاة الإسكندرية
التي خفق لها قلبه عند رؤيتها في اللحظة الأولى . . . فأصبح يقيناً لديه هذا
المثل السائر « يخلق الله من الشبه أربعين » . لكن كفاه اثنان . . . صفحة قد
طواها ، وأخرى أقبل عليها في لهفة وأمل . . .

مالت الشمس للغروب ، وانحنى في رفق وحنان على صفحة البحر الرائقة
كالحناء تقبل أعز مخلوق لديها قبلة هي الحب الخالص الذي يبلغ حد الهوس
والجنون . . . والذي هو أيضاً آية في صفائه ونقاوته . احمر وجهها خجلاً فزادته
الحمرة رقة وجاذبية وجمالاً . . . شعرت أن شخصاً يراقبها ويسرُّ لتلك
المراقبة . . . فأنتهت الوداع وأسرعت في الاختفاء وفي قلبها خفقة أمل في لقاء
قريب . . . تاركة وراءها أثراً قد نحت في قلب محمود روعة هذا الجمال الذي
صوره الخالق فأبدع تصويره .

هبّت نسمة من هواء منعش أفاقته من أحلامه ورمته في أحضان الحقيقة ،
حيث أقبلت والدته تحمل أقذار الشاي ، فاعتدل في جلسته . وترك إبراهيم بك
جريدته وجلس ثلاثتهم يتجاذبون أطراف الحديث ، الذي شاركهم فيه بعد لحظات
آمال وشقيقتها سعاد ، فأكسبتاه بهجة ومرحاً . غنّت سعاد ما وعت ذاكرتها
من الغناء الذي تصحبه بحركات من جسمها يكسبها رقة ويضفي على كلامها
جاذبية . فقد اعتادت آمال وسعاد أن تترددا في الأيام الأخيرة على أسرة
إبراهيم بك تسليانهم بأحاديثهما العذبة المرحية ، حتى اتلفتا معهم وأصبح إبراهيم
بك لا يطيب الجلوس له في شرفة منزله المطلّة على البحر ، إلا إذا نادى الفتاتين ،
سعاد تغني وآمال تمدّها بالعون من نكاتها اللاذعة التي تشجعها على المضي
فيما تقول .

مر الوقت سريعاً والجميع في جلستهم تلك ، حتى أقبل عليهم على حائل

حقيبتها التي سقطت في حركة لاشعورية حين أقبلت عليه والدته تمطره وابلا من القبلات ، ووالده وشقيقه محمود يهتئانه بسلامة الوصول .
سكتت آمال حين رآته ، فلم تنفرج شفتاها إلا عن كلمتين أو كلمات تحمد الله على حضوره ، فشكرها وهو مضطرب غاية الاضطراب ، فالجميع يحفون به ، والجميع ينظرون إليه ، ولكن نظرة واحدة زادت اضطراباً ، فأمال حائرة تنظر إليه تارة وإلى الجمع تارة أخرى ، تتبع نظراته أينما سارت ، وتنصت لكلماته وتتلهذ بوقعها في أذنيها ، وهو يجتلس إليها النظرات ، ويوجه إليها من حين إلى حين بضع كلمات . وسرعان ما يحول حديثه عنها مداعبا سعاد أو متلطفاً مع والديه وهو فيما بين هذا وذاك قلق النظرات قلق الأفكار مضطرب الحديث . . . فلاحظوا عليه ذلك فعزته والدته إلى تعبته من مشقة الطريق ، وطلبت إليه أن ينهض ليستريح ، فما نام . . . يفكر ويطيل التفكير ، فيما تطويه له الأيام المقبلة . . . سعادة أم شقاء ، مستقبل باسم أم ليال حالكة السواد . . .

أقبل عليها بقلبه وروحه ونفسه ، خفق قلبه لها ، ونعلقت روحه بها ، وهامت نفسه حولها . . . لم يقو على فراقها أو البعد عنها . وأنسى له ذلك ، وقد استولت على عقله ووجدانه وتغلغلت في أعماق كيانه ، خفيفة رشيقة ، عذبة الحديث ، فيها رقة وجاذبية ، وفيها جرأة . . . اضطرب لها وزادته حيرة وخجلاً فلم يدر مكانه منها ، لكنه قد عرف ووعى أنها حاضره الجميل ، ومستقبله الباسم .

أخذ يمر على منزلها في خروجه وعودته . وما أكثر ما كان يخرج ويعود ، ويمر عليها . . . يخترع لذلك التعلات ، أخذ على نفسه شكرهم على حفاوتهم بأسرته وما أحاطوهم به من وسائل الراحة ، لكنه فكر فأطال التفكير . . . فلواجبات الشكر نهاية . . . فسارعوا إلى إنقاذه . . . أو هم قد سارعوا إلى إغراقه . . . فرضى قلبه ، وطابت نفسه بطوق النجاة ، وحبل الأمل . . . سعاد تهنياً لدخول الامتحان . . . ليعطيها دروساً . . . فكان الدرس ساعة أو بعض ساعة ، فصار ساعات أو هو جزء من نهار . . . فإذا هو النهار كله . . .
سرّاً أحمد . . . لذلك أعظم السرور ، أو قل أحمد بك كما يلد لأسرته أن

تدعوه بهذا اللقب ، ولم لا ؟ فهو لا يقل عن البكوات في شيء ، فهو يمتلك عمارة في أرقى أحياء الإسكندرية تدر عليه العشرات بل المئات من الجذيات ، وإن كان كاتباً أو رئيس كتاب ، فليس هذا في نظرهم إلا منصبا حكوميا تكتنفه الهيبة والوقار . . .

إذن فقد سرَّ أحمد بك لذلك أعظم السرور ، وشاركته زوجته في ذلك ، فقد عبَّدا الطريق لعلى فأجادا تعبيده . . . فليمش فيه إذن في أناة ومهل حيث ينتهي به حتماً إلى آمال . . . حيث هي في انتظاره وفي انتظار الخطبة السعيدة . أكرما علياً وزادا في إكرامه ، بل أكرما إبراهيم بك وأسرته أعظم الإكرام . وخرج محمود من هذا بأوفي نصيب ، كان أقرب أفراد الأسرة لعلى فأشركه معه في زياراته أحيانا بل غالب الأحيان ، فألفه أحمد بك وزوجته وأحبته آمال وسعاد لمرحه وخفته . . . ولضحكته تلك التي تبدأ فجأة وتنتهي فجأة ، عالية واضحة منفصلة المقاطع ، يخيل لسامعها أنها مفتعلة وأن صاحبها يجيد التمثيل . لكن محمود بطبيعته السمحة التي لا تعرف الخداع يُطلقها على سجيته ، معبرة أقوى تعبير عن روحه المرحية .

لاحظ على أن آمال تحيط بمحموداً ببعض حبها . . . فنفي ذلك من ذهنه ، فأمال له ، وله وحده تتجه له بكل حبها ، فهو في نظر والدها الزوج المنتظر ، فلتحطه إذن بأعظم قسط من الحب ، وأوفي نصيب من العطف والحنان . انتهت إجازة على . . . وحانت ساعة رحيله . . . فاضطرب لذلك أشد الاضطراب ، فقد نسيها وغاب عن ذهنه أن هناك نهراً وأن هناك ليلاً يعقب النهار وأن هناك وقتاً ينقضي ويزول . . . استيقظ فجأة من أحلامه ليغرق في أعماق آلامه . . . ترقرت في عينيه الدموع ، وخفق قلبه خفقانا شديداً ، بل هي دقات حزينة متصلة ، أخذت تعلو ثم تعلو حتى ضاق بها صدره ، فحاول أن يودعها بكلمات فخرجت من شفثيه زفرات تتخللها كلمات قليلة خافتة ، يعيدها بأنه سوف يعود قريباً ، فهو لا يقوى على فراقها لحظة . . . فاغرورقت عينها بالدموع . . . وكانت سعاد أعظم اضطراباً من آمال ، فلم تقو على إخفاء ألمها لفراق أستاذها . . . فبكت وبكت طويلاً ولم يكن إلى إسكاتها من سبيل . . . بكت لأنه علمها أصول الحب والغرام . . . فلم تكن الدروس جدّاً خالصة . . . بل فيها دعاية . . . أحب على آمال ، فحال كل من اتصل بها آمال . . .

ولم يكن أحمد بك بأقل الماء من ابنتيه أو زوجته ، ولكنه اطمأن لوعوده ،
وبها قنعت زوجته ، وإن كان قد ألم بها طائف تطيرت منه فطرده من فكرها
شرطردة . . . فكل ما حولها ينبئ بالسعادة لابنتها . . . فتوجهت إلى الله أن
يشملهم بعطفه ورعايته ورضاه .

أخذت تجري وتتدافع ، مسرعة حيناً خفيفة السعي حيناً آخر ، تحاول
اللاحاق ببعضها ، ولكن ليس إلى ذلك من سبيل ، فهي تعلق وترقى وتدفع
إلى الأمام فتصدم صخور الشاطئ في قوة هائلة فتشتت ذرات الماء في الهواء
صغيرة دقيقة ثم تعود من حيث أتت خائبة مدحورة . . . بل أشد ما تكون
قوة وعزيمة ؛ فهي لم تياس ولن تياس ، ولن يعرف الضعف إلى قلبها من
سبيل . فهي تعاود الكرة مرة ومرة مسرعة سريعة الجري متدافعة أشد
التدافع تصدم الصخر في قوة ما بعدها قوة لا تضعف ولا تلين .

ابتسم محمود لهذه الخواطر التي ألمت به في جلسته تلك من هذا الصباح
الباكر ، يرقب الصراع المتصل العنيف بين قوى الطبيعة . فهذه ثابتة شاحخة
بأنفها في السماء ، واثقة شديدة الثقة بنفسها ، وتلك في هجوم وانكسار ،
في إقبال وإدبار تريد أن تشق طريقها وإنها لبالغته ، وما تلك النتوء المنتشرة
وهذه الفجوات المبعثرة ، والممرات الطويلة إلا النصر المبين وإن طال الزمن
وبعدت الشقة .

أرسل محمود الطرف إلى هؤلاء القوم الذين أسرعوا مبكرين إلى الشاطئ
يمتعون أنفسهم بمياهه المنعشة وشمسه الهادئة ، قبل أن يعص حلقه ، وتشتد
شمسه فتلفح الوجوه وتحرق الأجساد ، وإذا بموجة هائلة تندفع إلى الشاطئ في
قوة ترتفع لها ذرات الماء عالية في الهواء ، ثم مسرعة إلى أسفل ، فينهض محمود
مذعورا جادا في الهرب ، فترتفع ضحكة خفيفة رقيقة مرحة أشد المرح ، فيقف
في مكانه جامدا يضحك من نفسه ، ملتفتاً إلى هذا الصوت الذي رده إلى هدوئه .
فتقدمت آمال في خفة وقد ارتدت للبحر لباسه ، وتهذلت خصلات من شعرها
فوق جبينها تخفي أطراف عينيها ، فتهمز رأسها في حركة رشيقة فيها خفة ودلال
فيعود إليه انتظامه ، فيظهر ثغرها وقد افتر عن ابتسامة عذبة وصوت هو أقرب
إلى الضحك تحييه تحية الصباح ، وتدعوه إلى مشاركتها في حظها من الرياضة ،

فيعتذر . . . فتلح أشد اللحاح ، فيعدها بالاستعداد في الصباح التالي ، فتبتهج أشد الابتهاج وتقول له إنها سوف تكون في الانتظار في هذا الموضع وذلك المكان . ثم تندفع في المياه في حركة رشيقة بديعة إلى حيث صويحباتها تشاركهن هو هن البرى ، ورياضتهن المرحه .

استرجع محمود أفكاره ، فأسف أشد الأسف لهذا الوعد الذي انطلق من بين شفثيه تحت تأثير فتنة هذه الحورية التي خرجت من أعماق المياه رفيقة السعى خفيفة رشيقة تدعوه وتلح في الدعاء . . . لا شك أنها بلبت أفكار على بهذا اللحظ وهذه المرأة ، فاندفع بين يديها يرتل آيات الحب والإعجاب ، حتى ضاق به والداه ، بل ضاقت بهيامه الأسرة كلها ، فأبراهيم بك متبرم بعلى يرى في هذا الحب الطارىء والزواج الوشيك الوقوع نكبة عليه وعلى الأسرة . يعجب لعلى ولأفكاره تلك التي هبطت إلى الدرك الأسفل . انحدرت بمستوى الأسرة الرفيع السامى إلى مستوى الكتّاب وأشباه الكتّاب . . . فيعزم فيما بينه وبين نفسه أن لو تم هذا الزواج فسوف يقطع كل ما بينهما من صلة . . . ثم تنغص عليه هذه الخواطر أيامه ولياليه فيجهر بعزمه إلى أفراد الأسرة ، فيؤيدونه ، ويشاركونه في الضيق والتبرم ، ويأتلفون جميعاً على مقاطعة على ، وأن يقفوا سداً بينه وبين هذا الزواج .

طاقت بذهن محمود هذه الخواطر ، وألمت به هذه الأفكار ، ورأى السحب تنكاثف وتتزاحم وتنذر بسوء المصير ، فوطد العزم على الحضور في الصباح التالي لمقابلة آمال . . . بعد أن همّ بالانصراف عنها وعدم الاهتمام بها . . . فعلى أعمامه الماضى وأذهله الحاضر ، فهو لا يدرى إلى أين يسير .

— إنك آلمتني وزدت في إيلاى ، انصرفت عنى فتغاليت في الانصراف وقلة الاكثراث ، فعذبتنى . . . وأى عذاب هذا الذى تسقينيه على جرعات قليلة بطيئة . . . راقبتك من بعد فهامت روحى بك ، فسعيت إليك ، فما زدت إلا تعلقاً ، ولكننى كلما زدت قرباً منك زدت بعداً عنى . أصبحت في حيرة من أمرى بل في حيرة من أمرك . . . أحاديثك إلى ، بل تلك الكلمات القليلة التي تتفضل بها على من حين إلى حين ، لا زيف فيها ولا رياء . . . لا مكر فيها ولا خداع . . . لم أعهد لها من أحد حتى على . . . هذا الإخلاص وتلك الصراحة في كل ما يصدر من قول وعمل . . . إن الصراحة على مر مذاقها تهدي سواء السبيل .

— لا تنظر إلى هكذا يا محمود فإنك تزيد في إيلاحي، فاستكما أقرأ في نظراتك، وفي تلك الابتسامة الساخرة . . . بعدمة الإخلاص، فاسدة الضمير . . . فحي لعلني إن شئت أن تسميه حباً . . . بل صداقتي له كما وضحت لي الآن، لن تتجاوز هذا الحد في يوم من الأيام . حقيقة لقد أقبلت عليه بكل جوارحي، أسمع كلمات المديح والإطراء حتى خففت ضربات قلبي فتبينت على نقاء ضميرك زيفه ورياءه . فهل لك أن تقبل صداقتي، وتسمع تلك الخفقة الصادرة من أعماق قلبي؟ — إني لفي حيرة من أمرك يا آمال، ولني عجب أي عجب لهذا الطالب الذي تودين، وهذا الأمر الذي أنت عليه عازمة وفيه رغبة . فمن يوم أن تعرفت إلى أسرتكم، قد أحببت فيكم هذا المرح الذي يذهب عنا متاعب الحياة، وهذا الظرف الذي ألسانا من الاليالي وكر الأيام فإن أنسى ما حيث هذه الأيام بل تلك اللحظات التي مرت كحلم جميل .

— محمود . . . إن سمحت لك بشيء فلن أسمح إلا بأن تكون صديقاً لشخص واحد فقط . . . فصديق الجميع ليس صديقاً لأحد .

وكانت جالسة بعيدة عنه فأقربت منه وهي تبسّم في عذوبة ورقة، نظرت إليه نظرات طويلة عميقة . . . خفض لها بصره . . . فضحكت في مرح ودلال، فقد كان خجلاً أشد الخجل، يعجب لهذه المرأة في الحديث بل المرأة في كل شيء . . . حتى شعر بأنفاسها الحارة الملتزمة . . . فازدادت ضربات قلبه عنفاً، وشدة فترفق ساعدها فضمها إلى صدره يقبلها في رفق لا يخلو من شدة . . . ولكنه سرعان ما يفيق من هذه النشوة العابرة . . . فتبتسم له وتنصرف . . . ويبقى محمود حيث هو في حيرة من أمره وفي عجب لهذه الفتاة، ينكر نفسه أشد الإنكار ويعنفها أشد التعنيف، لا يدرى كيف بدأ هذا المشهد المسرحي ولا كيف انتهى؛ فقد كان سخيلاً حقاً، يبعث على الضحك . . . الضحك من نفسه والضحك من آمال، فقد أنكر جرائتها أول الأمر . . . ولكن دفعته نفسه بل دفعته غريزته إلى هذه القبلة التي أنكرها أشد الإنكار .

انصرفت آمال شاردة الفكر، تائهة في بیداء لا أول لها ولا آخر، فقد شعرت أنها تحب محموداً حباً ملك عليها نفسها، فهي سعيدة أشد السعادة؛ لأنها استطاعت أن تظهر به آخر الأمر . فسوف تسعد بعذب حديثه وتستأثر ببطءه ورعايته وحبه .

يصل على في هذه الليلة إلى الإسكندرية . قلقاً أشد القلق يمتلي قلبه شغفاً لرؤية آمال ، فهو لا ينتظر حتى يصعد إلى أمه وأبيه ، بل يعرج عليها قبل أن يصعد إليهم . . . فتقابلته مقابلة فاترة ، ينكرها أول الأمر . لكنها تتماهى في ذلك ، فلا يصدق عينيه ويكذب قلبه ، فيكلمها في عتاب رقيق ، فتعتذر له بأن صديقاتها ينتظرنها على شاطئ البحر ، وتمضي بسرعة قبل أن يفيق من ذهوله . يعجب على لها أشد العجب ، ويزداد الأمر حرجاً ، فما إن يراه والده حتى يعنفه بشدة لا رفق فيها ، وتنكر عليه أمه هذه الحب الذي لا رجاء منه ولا فائدة فيه ، ويعجبا لحضوره ولم يمض على سفره سوى أيام قلائل ، فيخبرهم والأسى عملاً قلبه ، بأنه حضر لبعض أعماله يومين أو ثلاثة ، وقد كان كاذباً فيما يقول ، فقد وطد عزمه وحزم أمره على أن يعتذر إلى رئيس عمله بخطاب يرسله إليه بأنه مريض ، وما هو بمريض . . . فإلى أن ترسل إليه المصلحة طبيباً يعود ، تمر أيام لا تقل عن عشرة وقد تزيد . . . إذن فسوف يمضي أياماً سعيدة ويعود إلى عمله قبل حضور الطبيب ، فقد برأ من مرضه . . . شاكراً لله عطفه ورحمته . . .

فإذا الأمور تسير كما تهوى لا كما يشاء ويهوى . لاحظ على آمال إقبالها على محمود وانصرافها عنه ، فعاتبها برفق أول الأمر ثم بشدة لا تخلو من عنف . . . فهو لم يحضر إلا لها . . . ولم يعرض نفسه لكل هذا العناء إلا بسببها ، فتشكره على هذا العطف الزائد والحنان الفياض . . . فيود أن تكون له وله وحده ، فلا تحفل به . . . فيؤنبها فتصرف عنه . . .

بدأ اليأس يتسرب إلى قلبه ، فلا يلتفت إليه ، فكله أمل أن تعود إليه ، فتكذب الأيام ظنه ، وتخيب أمه ، فأمال تحيط بمحموداً بحب خالص وعطف شامل . يعود على كاسف البال ، مظلم القاب ، شارد العقل والوجدان ، فيلقاه والده ضيقاً به متبرماً من وجوده ، فيحزم أمره بل يحزم أمتعته . . . ويعود إلى القاهرة غارقاً في بحر من الآلام والأحزان .

محمد كامل

تولستوى

ولد تولستوى عام ١٨٢٨ ، وهو العام الذى ولد فيه هنريك ايبسن . ومما هو خليق بالذكر أن كلا هذين العبقريين كان يكره الآخر ويحاربه فى أفكاره وآرائه . وليس فى هذا العداء المتبادل ما يدعو إلى الدهشة ؛ فتولستوى كان مالكا لناصرية الأفكار الحديثة، ويؤيد الجامعة المسيحية وينكر الفرد، فى حين كان هنريك ايبسن يؤيد الفرد وينكر حقوق المجتمع . فهما بذلك يتابعان نزاعاً موزوناً منذ أجيال متعاقبة . ومع ذلك فكلاهما ثورى ؛ فهما ، من هذه الناحية فقط ، متشابهان ، أما فيما عدا ذلك فهما متباينان ؛ فلكل منهما طريقته الخاصة فى إبداء استيائه من العالم تختلف كل الاختلاف عن طريقة الآخر . كما كان لكل منهما مذهب يتشيع له ويدافع عنه ويقول بأنه خير المذاهب . ليس شك فى أن لكل منهما نفوذه وتأثيره . ولما كانا غير متفقين على رأى ، فإن المرء لميل إلى الاعتقاد بأن تأثير أحدهما يتناقض مع تأثير الآخر ويتعارض معه . والواقع أن الأمر على نقيض ذلك ؛ فتناقض أفكارهما الشخصية ، مع انتشارها وذيوعها فى وقت واحد ، قد ضاعف من قوة الفوضى التى كانت سائدة إذ ذاك بين الكتاب والاضطراب المستحوذ على عقولهم .

قلنا إن تولستوى ثورى ، وكان الأجدر أن تقول إنه مصلح . فقد كان عدو الشدة والتعسف ، وكان يأبى أن تقاوم بمثلها ، ويبشر باللين والحلم كما وصفهما الإنجيل . أما إذا كان قد أثار الاضطراب والقلق وأشعل نيران الفتنة ، فمرجع ذلك إلى أنه كان يسعى إلى تحسين النظم القائمة وينادى بإصلاح المجتمع الإنسانى . إن المصلحين والثوريين على جانب عظيم من الخطر إذا هم حققوا غايتهم . على أن ضررهم يبدأ فى الظهور قبل أن يدركوا تلك الغاية كما يبدأ تأثيرهم البتة فى الانتشار ، فيضيفون إلى الفوضى القائمة فوضى من نوع جديد هى أقطع وأفتك ؛ لأنها تجمع بين القديم والجديد .

دَن تولستوى بسيطاً جداً، ولكنه كان — فى بساطته المتناهية — مؤثراً. وكانت نفسه من النفوس المعذبة، بل أشد النفوس عذاباً. وقد سعى إلى تخفيف ذلك العذاب وتسكين اضطراب نفسه، بجميع ما أوتيته من نبوغ وذكاء. وكان لا بد من عبقرية فذة لتتمكن من تلك النفس، وتهدى من روعة ما تعانيه من الألم. ومع ذلك لم تفلح تلك العبقرية الفذة. لقد طالما بحث عن الحقيقة ونقب عنها فلم يجدها. على أنه قد وجد اليقين. فتلك الناحية من خلقه هى التى أثارت الدهشة من حوله. لقد انتزع الإيمان كل أثر للشك من صدر هذا الرجل، فبدا مطمئناً هادئاً وديماً. فكيف استطاع هذا الجبار أن ينتزع عوامل الشك من صدره حتى أصبح لا يرتاب فى شئ على الإطلاق؟ إن لنا عقائدنا واعتقاداتنا، وهى قوية راسخة، ومع ذلك فإنها تترك فى نفوسنا بعض الأثر للريبة والتشكك. أما تولستوى فقد كان ينظر إلى جميع المسائل التى تعرض له نظرتين مختلفتين: فينظر إلى بعضها نظرة هامة عاجلة ويعجل فى حلها خدمة لنفسه، أو كما كان يقول: خدمة للإنسانية، وينظر إلى بعضها الآخر نظرتة إلى الأشياء التافهة الباطلة ولا يهتم بها. كان العلم فى نظره شيئاً تافهاً معدوماً. فالأخلاق وحدها كانت فى نظره بمثابة الحقيقة الراهنة للحياة، فكان ملماً بجميع خباياها بحيث لم يعد يشعر بشئ من الشك والتردد.

لقد طالما رغب تولستوى فى ذلك الإيمان وبحث عنه حتى ظفر به فى النهاية! ومع ذلك فقد أجمع من عاشروه على أن عينيه كانتا تشعان ببريق غريب لا يخلو من القلق. وهذا فى الواقع ما كان يجعله مؤثراً، وإن كان المذهب الذى نادى به ومات عليه مذهباً خاطئاً سيئ العاقبة، عظيم الضرر.

كان تولستوى من أسرة عريقة فى النسب... وعلى الرغم من أنه — وهو فى السبعين من عمره — أصبح رسول المساواة المطلقة بين جميع الرجال، وزعيم فلسفة شعبية، فإنه ظل محافظاً على نزعتة الأريستقراطية تحت ثوب العبال الذى كان يرتديه، وظلت أنانية الكونت تولستوى الشريف الروسى متجلية وراء مذهب الإصلاح أو الثورة الذى كان ينادى به.

أتم تولستوى دراساته فى جامعة قازان القائمة فى أعماق روسيا، ثم التحق بالجيش، أسوة بجميع أبناء الشرفاء، برتبة ضابط فى المدفعية. وكانت فرقته معسكرة فى القوقاز فقبضى عدة سنوات يعيش عيشة الترف والبذخ والحرية.

المطلقة ، كما كان يعيش السادة في عهد الرق والاستعباد . لم تكن له في ذلك العهد عقيدة ، فكان لا يؤمن بشيء غير اللهو والمرح . وقد كتب فيما بعد : « لقد عشت في هذا العالم خمسة وخمسين عاماً — وإذا أنا استثنيت سنى طفولتى — فقد عشت فوضوياً عديمياً بكل معانى هذه الكلمة ، لا اشتراكياً ولا ثورياً بالمعنى الذى يطلق على هاتين الكلمتين ، ولكن « نهيليستياً » أى خارجاً » على كل النواميس والشرائع . »

كان مطلق الحرية فى القوقاز ، فأطلق لنفسه العنان ولم يقف بها عند حد ثم اشتعلت نيران حرب القرم ، وهو فى السادسة والعشرين ، فأغرته نفسه الفتية بخوض تلك المغامرة ، وطلب أن يشترك فيها فأجيب إلى طلبه . كان موجوداً فى سياستوبول عند ما ضرب عليها الحصار ، فوصف ، فى ثلاث قطع ، صور الحوادث التى شاهدها ، فكانت تلك القطع فاتحة مؤلفاته . وما إن عقد الصلح بين روسيا والدول حتى استقال من منصبه ، وترك الجيش وسافر إلى بطرسبرج وقضى فيها وفى موسكو ثلاث سنوات فى لهو وعريضة . كان مثال « الكونت » الصغير رشيق القامة رقيق الحاشية لبق الحديث ، فكانوا يتوددون إليه ويلتفون حوله ، لما كان يبدو على محياه من ذكاء وقاد ، وما اشتهر عنه من النجاح فى المنتديات والأوساط الراقية بل فى بلاط القيصر . ومرت هذه السنوات وهو يتقلب بين أحضان الطيش واللهو ، ولكنها مع ذلك كانت غزيرة الإنتاج بفضل ما وقف عليه تولستوى من الحقائق المقنّعة المستهترة ، والمظاهر الخلابية الكاذبة . وفى سنة ١٨٦٠ تزوج ، فهدأت ثأثرته وانقطع إلى قصره فى مقاطعة تولا .

لقد كتب ، قبل ذلك التاريخ ، « القوزاق » ثم أعقبه بكتابه « طفولة وحداثة وشباب » وهو قصة حياته ، أودعها مع بعض التحريف ، جميع ذكرياته . لقد دلت هذه القصة على ما كان عليه ، وتنبأت بما سوف يصل إليه ؛ فقد كان يتمتع ببعد النظر ، وينعم بموهبة الوصف والتصوير ، وفى ذلك سر عبقريته . كان ينظر إلى الأشياء على حقيقتها ويراها كما يجب أن تكون عليه ، ويلم بجميع نواحيها ودخائلها ، ويصورها تصويراً دقيقاً ، ويصفها وصفاً شاملاً ، فيتناول فى هذا الوصف حياته ومعيشته ، ويتكلم عن حقيقة القرى والأشخاص والنفوس . فأشخاص القوقازيون قد رأهم وعاشرهم ؛ لأنه قضى ردهاً من الزمن فى بلادهم وبين ظهرانيهم . لقد تخيل شخصية أولنين على شاكلة ، فجعله يعمل الحياة المضطربة

المأعجة التى تمر فى المدن الكبيرة ، وجعله يتروح إلى تلك القرية الموحشة فى بلاد القوقاز ، وهناك يعلق قلبه بحب ماريان ابنة مضيفه . غير أنه لم يفلح — على الرغم من حبه العظيم لها — أن يروض نفسه ويجعلها شبيهة بنفس ماريان ، بسيطة ، ساذجة ، صريحة . سيحاول تولستوى فيما بعد أن يضرب على منوال أولين ، ويستط حياته وقلبه وعقله ؛ ليتزل بها إلى مستوى العمال والفلاحين الذين اختلط بهم . تلك كانت رغبته الصادقة ، ولكنه يظل على ما كان عليه من الإيهام والتعقيد بل أكثر مما كان عليه ، لأنه حاول ألا يكون مبهما أو معقداً .

إن من يقرأ ذكريات حوادثه يتبين أنها لاذعة شديدة الوطأة فيدهش . على أنه لا يلبث أن يراجع نفسه متى علم بأن تولستوى كان ينظر إلى الحقيقة نظرة غريبة قاسية . وهذا ما يتجلى عند قراءة كتابه الذى وصف فيه أباه وصفاً شائناً وأظهره للملأ عريداً سافلاً . أما أن يكون أبوه ذلك السافل العرييد ، وأن يكون قد رآه على تلك الصورة ، وأن تحمله صراحته المدهشة على المجاهرة بذلك ، فهذا دليل قاطع على ما كان عليه هذا الرجل الفذ من صفاء الذهن وقوة الإرادة التى تحمل على الدهشة ، بل تبحر الشعور ما دمنا قد تعودنا أن ننظر إلى الأشياء نظرة خفية مستترة متساهلة إذا ما اتصل الأمر بذوينا . أما تولستوى فكان يعتقد بأنه يكذب لو أنه فعل مثل ذلك . ثم إن الواحد منا يعد نفسه ، كما يعد الناس طرّاً ، عابثاً ، عاقاً ، إذا وصف أباه ولم ينمق الوصف ، فى حين أن تولستوى لا يحمل أى حقد لأبيه ولا يعتب عليه أو يلوّمه ، ولكنه يصفه لنا على علاقته وصفاً دقيقاً . وهو أيضاً يصف لنا نفسه كما يراها . فهذا هوذا يصفها لنا إذ كان فى السادسة عشرة من عمره ، وقد ضل وفقد إيمانه وبدأ حياته nihilistic ، أو « حياة العدم » كما يعبر عنها بنفسه :

« إن المذهب الفلسفى الذى سحرنى أكثر من جميع المذاهب الفلسفية الأخرى ، هو مذهب التشكك . وقد قادنى ، ردهاً من الزمن ، إلى حالة قريبة من الجنون . فقد كنت أتحيل أنه لا يوجد ، ماعدائى ، شئ أو كائن فى العالم ؛ وأن الأشياء ليست بأشياء ، بل هى مجرد مظاهر كاذبة أتصورها متى كنت فى حاجة إليها ، ثم تتوارى وتتلاشى متى تناسيتها أو كففت عن التفكير فيها . ففى بعض الأحيان كنت ، وأنا تحت تأثير تلك الفكرة الملازمة ، أفقد شعورى إلى حد أن كنت ألتفت فجأة وأنظر إلى الخلف عسى أن يقع نظرى على العدم قائماً حيث

لم أكن موجوداً . كان عقلى الضعيف لا يستطيع التغلغل إلى أعماق المجهول؛ فقد يفقد ، تحت تأثير هذا العمل المرهق ، ما كان عندي من العقائد واحدة فواحدة . وقد كان يجب على أن أحافظ عليها لكي أحتفظ بسعادتي وهنأتي . تلك الجهود الفكرية أكسبتني شيئاً من حدة الذهن وسرعة الخاطر ، وأضعفت عندي من قوة الإرادة بقدر ما أكسبتني من الميل إلى التحليل الأخلاقي الذي أصبح عندي بمثابة عادة ، ونزع عن مشاعري كل طراوة ، وحمل اللبس إلى آرائي . « تلك - لاشك - صفحة غريبة . وهي تكشف لنا عن دخيلة ما انطوت عليه نفس فتى يافع قد اخترع لنفسه - مجرد استعماله الذاتي أو ليكون سبباً في تعاسته وشقائه - مذهباً فلسفياً على غرار المذهب المثالي الذي قال به باركلي ولكن في أقصى حالاته . وهذا المذهب يقول بأن الأشياء على اختلاف أنواعها قائمة على إدراكنا الحسى لها ، ولذلك فإن حقيقتها المستقلة عنا لا بد أن تتلاشى وتختفي ، وأتينا نعيش في عالم من المظاهر ننخلقه نحن لأنفسنا . لابس شك في أن تولستوى - وهو في السادسة عشرة من عمره - لم يقرأ باركلي ولم يرشده إليه أحد . فالخيلة التي أوجدها لنفسه هي من صنع قواه المدركة الحادة المرهفة .

وهاك مثلاً آخر من الهذيان الذي قاده إليه حساسيته ويتجلى في كتاباته : « عندما أتذكر عهد طفولتي والحالة العقلية التي كنت أتمتع بها آنئذ ، أدرك معنى الجرائم الفظيعة الوحشية التي ترتكب بغير ما غاية وبغير ما رغبة في الإيذاء ، بل بدافع الفضول واللاشعور ، أو بدافع الحاجة إلى ارتكاب فعلة ما . ثم إنه تمر بالمرء أحياناً فترات من الزمن يرى فيها المستقبل في ألوان قائمة وأوضاع متباينة ، حتى ليخشى العقل أن يقف حياها أو يتناولها بالتفكير فيغمض عينيه لكيلا ينظر إلى هذا المستقبل ، ويقف فعل العقل والتفكير ، ويحاول أن يقنع نفسه بأنه لن يوجد مستقبل ولم يوجد ماض . ففي تلك اللحظة التي يقف عندها الفكر عن مراقبة كل وازع من الإرادة ، وتصبح الغرائز المادية عماد الحياة ورائدها ، في تلك اللحظة أدرك ما يرتكبه الطفل القليل الاختبار بلا تردد ، وأفهم لماذا يشعل النار ويدكي ضرامها بأنفاسه ، وينظر إليها بابتسامة ساذجة فضولية وهي تلتهم البيت الذي يرقد فيه إخوته وأبويه وكل الذين يحبهم حباً عميقاً . ففي تلك اللحظة التي تتوارى فيها الفكرة خلف حجب اللهو أو

النسيان والعدم ، يقف القروى اليافع إلى جانب الدكة التى يضطجع عليها أبوه الشيخ وهو ينظر إلى شفرة المعول التى تلمع فى يديه ، وفجأة ترتفع تلك اليد بما تحمل فى قبضتها وتهوى ، وتتحول نظرة الفتى من المعول إلى الدم الذى يتفجر من الرأس المحطم . إن المرء ليجد ، إذ يكون فى مثل تلك الحالة ، نوعاً من اللذة فى الانحناء على حافة الهاوية السحيقة وترديد هذه الفكرة : « لو أننى أنحدر إلى أسفل ورأسى إلى الأمام ! » أو أن يضع فوهة مسدس أو غدارة محشوة على جبينه ويهذى قائلاً : « لو أننى أضغط على الزناد ! » أو أن ينظر إلى شخص عظيم الشأن مخفواً بمهابة الجميع ويقول لنفسه : « لو أننى أتقدم إليه وأجره من أنفه وأقول له : « إيه ! أيها الرجل الطيب هلا أتيت معى ! » . يقيناً إنه لجنون وإن كان الوصف جذاباً . . . »

هذا ما ورد فى كتاب « القصة الروسية » للكونت دى ثوجويه . وهو يقدر أن ذلك يعد نتيجة لإحساس روسى بحت أو « نوبة » شائعة فى روسيا باسم « أوتشايانييه » ومعناها « اليأس » . وإن كان من النوع الذى ينطوى على التعصب والوحشية والسخف المتعمد المقصود ، كما أنه نوع من السخط المشوب بالكآبة والحزن والاستسلام الذى ياباه تولستوى ؛ لأنه استسلام الذات والنفس والحياة لعوامل قوية مستترة خطيرة مغرية رائدها الخطر . أو بعبارة أخرى هو نوع من السحر الخفيف المسف وإن كان فى ظاهره بسيطاً ساذجاً . . . ثم يستطرد ثوجويه حديثه بقوله : « مسكينة روسيا ! تلك هى روحك وهى روح طائر مائى يخلق فوق العاصفة ويرفرف فوق الهاوية ! »

هذا ما كتبه ثوجويه عام ١٨٨٦ . وإن تاريخ روسيا الحديث ، تاريخها عقب ثورتها الأخيرة ، كفيل بأن يعزز هذا التشخيص الدقيق لذلك الداء الوبيل . لقد كان تولستوى ، مع ما كان عليه من عبقرية فذة ، روسياً بحتاً وروسياً كبيراً . كان روسياً بكل قطرة من دمه ، فكان لا يخلو من أية حاسة أو أى شعور أو عقيدة أو نزعة أو سخافة روسية . وهذا ما جعله يصف روح بلاده وروحه ، ويعبر عن حقيقة تعبيراً صحيحاً دقيقاً . إنه يصورها تصويراً حسيماً يحمل على الدهشة والعجب . على أن هذا التصوير يخفف عناء البحث والتفكير على قارئه ويجعله يفهم خباياها ويشعر بها . إنها روح مستسلمة للأحلام ، فلا تجد فرقاً بيناً بينها وبين الحلم الذى تسبح فيه أو الحقيقة التى تلمسها . ومع ذلك

فتلك الروح تفكر وتعقل ، ولكنها تناقش وتقيم البيانات والحجج للتدليل على صحة خيالها أو على الحقيقة . هذه الروح تتمتع بكثير من الفضائل . وبين تلك الفضائل فضيلة ممتازة هي الصبر عند الشدائد . إنها أقدر من سواها على تحمل الألم والجلد . ويظهر أن استسلامها لا يكلفها شيئاً ، وإن كان في الواقع يحملها أشياء ؛ لأنها لا تستطيع كتمان ما يعترها من ثورات فجائية يتجلى فيها حقدتها ثم ينفجر . إنها لا تنظر إلى الزمن والفضاء كما ننظر إليهما ؛ فليست لها فكرة ثابتة عنهما ؛ لأنها تضل وتتيه في دياجير الزمن والفضاء . إنها روح ضالة شريفة معذبة تستسلم فجأة لنزعاتها ونزعاتها مهما كانت مسبة أو خطيرة . إنها روح مريضة . إن القصص الروسية التي لقيت رواجاً عظيماً ، وبصفة خاصة قصص تولستوى قد كشفت عن صحة ذلك . تلك كانت روح روسيا قبيل الحرب العالمية الأولى . وهي روح مترددة غير مستقرة . فقد خانت كل من وثقوا بها ، كما خانت نفسها بسذاجة وجهل ، وقد كان ذلك أشد خطراً عليها من أعدائها .

إن « حرب وسلم » و « أنا كارنين » أشهر مؤلفات تولستوى وأبدعها . ولكنه عند ما تحول من قصصى إلى رسول مبشر ، أصبح يحتقر عمله كقصصى ، وبصفة خاصة هذين المؤلفين . لاشك في أنه أخطأ في تحقير هاتين الدرتين الخالدين ، فقل أن يوجد في الأدب ما يضارعهما ، وقل أن يوجد بين الأدباء من وضع في مؤلفاته من الحقائق ، وضمنها من الوقائع ، وكشف عن خفايا النفوس وأضاءها مثله . وقل أن يوجد من تناول الحديث عن خبايا تلك الآلة المتحركة ، ووصفها في دورانها السريع وحركاتها الظاهرة والخفية وذاتيتها ونزعاتها الخاصة وخصائصها كما تنازلها تولستوى . فكأنه كان يفكك أجزاء تلك الآلة لكي تقف على تركيبها وأسرارها .

إن كتاب « حرب وسلم » هو وصف للحياة الروسية في بدء الجيل الماضى خلال حروب نابليون . إن تولستوى يبعث هذا الماضى من قبره . فأحد الأشخاص هو إمبراطور فرنسا ، والآخر هو قيصر روسيا . إنهما ولا شك من العظماء وهما زعيان . على أن تولستوى لا ينعم عليهما بهذا اللقب ، فلا يوجد عنده زعيم . إن تولستوى عبقرى ، وهو لذلك لا يكتفى بأن يرى ، بين الحوادث البشرية ، السبب الظاهر الجلى ، على الرغم من أن هذا السبب قد يكون أحياناً أوضح

من الحقيقة . إنه يؤمن بالأسباب الصغيرة المتعددة فيبحث عنها بين الجماهير والجموع ؛ ولذلك رأى أن الذين رأسوا الحركة وتزعموها هم من العامة لأهمها . يوجد في « حرب وسلم » شخصية بذت الأباطرة وسمت عليهم ، وتلك الشخصية هي الجموع والجماهير وعامة الشعب . وهذا ما يزيد في ثروة تلك القصة ويرفع من مكانتها . وهذا ما يجعل التجانس كبيراً بين هذا الكتاب وبين الحقيقة الحية . في وسط تلك الجموع اختار تولستوى أشخاصاً يمثلون ، أو يمثل كل منهم إحدى خصائصها . فكلما ازدادت مظاهر هذه الجموع ازدادت الوحدات التي تؤلفها . وأحد هؤلاء الأشخاص الذين تعرض لهم تولستوى بكل دقة وإخلاص هو الكونت بطرس بزوكوف ، وهو روسى بمعنى الكلمة ، وهو ذكى عالم وديع سهل الانقياد متحفز للشهوة سريع الخاطر رقيق الحاشية جدير بكل تبذل وجنون ، ميال إلى الكسل كما أنه ميال إلى العمل المتواصل المرهق . وهو إلى هذا كله شريف لا يتقهقر أمام ارتكاب تقيصة أو جرم . كانت النار تلتهم موسكو دون أن يعلم أحد من أشعل ضرامها ، وكان بطرس بزوكوف في قصره ، فغادره في زى قروى واختلط بجموع الشعب . كان يحمل تحت معطفه خنجرًا حادًا ؛ ربما كان يقصد قتل نابليون . وهو إن قتله فلكى ينتقم لروسيا . وهو يعلم ما كان ينتظره من وراء ذلك . على أنه لو قتل نابليون فغايتته من ذلك التضحية . ومجمل القول أن ما كان ينتظره لم يثنه عن عزمه بل زاده حمية . إن قتل نابليون ، لو تم ، كان سبباً في موته ، هو نفسه ، وهذا ما كان يبتغيه ، وهذا ما لم يفعله . إن البون شاسع بين ما يريده بزوكوف وبين ما كان يجب أن يقدم عليه . فبين إرادته وتنفيذ ما يريده يحيم كل ما في نفسه من تشكك وتردد . وقع بزوكوف أسيراً بيد الفرنسيين ، فكانوا يعاملونه بمنتهى القسوة والوحشية . لشد ما كان يتألم ! ولكنه يلتقى وهو في الأسر بقروى يدعى أفلاطون كراتايف . وهو رجل معدم ونكرة بالنسبة له . وهو إلى جانب هذا عار عن كل فكرة بعيد عن كل تفكير ، إذا نزع حذاءه فاحت من قدميه رائحة كريهة حادة . وكان يجلس القرفصاء ويضم يديه إلى ركبتيه ويظل شاخصاً إلى بزوكوف . ماذا كان يريد من بزوكوف ؟ لاشئ على الإطلاق ، إلا أنه كان ينظر إليه . وبزوكوف من جانبه كان ينظر إلى كراتايف . فإذا كان يريد منه ؟ هل يريد درساً أم يريد نصيحة وإرشاداً ؟ ولكن أى درس يمكن أن يرجوه بزوكوف العالم من هذا

الغبي الجاهل ؟ . . . هنا تتجلى الفلسفة التى سيعتنقها تولستوى ، وتصبح رائده وموضوع رسالته . إن بزوكوف قد اكتشف الحقيقة فى عقلية أفلاطون كراتايف البسيطة الساذجة . . . وأية حقيقة ياترى ؟ . . . طهر الكائن وزهده واستسلامه للقدر .

وتبادل بطرس بزوكوف بضع عبارات مع أفلاطون كراتايف . إلا أن ما قاله أفلاطون كراتايف لا يعدو حد السخف . . . بعض ألفاظ سقيمة عقب عليها بابتسامة وشرحها بما يفيد عجزه عن عمل أى شئ ، وأن الحال يجب أن تكون كما هى عليه ، وأن خير ما يعمل هو قبول ما لا يمكن رفضه ويتعذر تبديله . يجب الاستسلام لذلك بغير مقاومة . وأخذ التعب من أفلاطون كراتايف حتى لم يعد يقوى على السير ، فقتله الجند برصاصهم دون أن يبدى أية مقاومة أو تأخذه هزة اضطراب أو غضب . لقد مات وهو يتألم . واتخذ بطرس بزوكوف من كراتايف رائداً له . . . هذا مؤثر للغاية وهو سخيض أيضاً . وفى مثل ذلك دعاية إلى هدم التفكير وانعدام الفكرة . فهل يمكن أن تؤدى جهود الفكرة البشرية إلى مثل ذلك الانتحار للفكرة ؟ . . . الواقع أن ما فعله بزوكوف سيء غله تولستوى .

أما القصة الثانية « أنا كارنين » . فمكاتها لا تقل عن مكانة « حرب وسلم » . فيها واقعة غرامية تنمو وتتطور بتطور الحوادث المزعجة التى تتخللها ، وفيها خاتمة . أما الفن فيها فيتساوى مع سابقتها كما تتساوى قوة الابتكار والتنبؤ التى يظهرها المؤلف فى معرفة النفوس وحيرتها واضطرابها . ويوجد فى « أنا كارنين » كما فى « حرب وسلم » شخص اودعه تولستوى بعض أفكاره الهامة . وهو فى هذه القصة بمنزلة بزوكوف فى انقصة الأولى . هذا الشخص يدعى : ليثين .

قسطنطين ليثين رجل نبيل ، يعيش فى الريف طبقاً لعادات خاصة . وهو شريف النفس ، طيب السريرة ، كان يود أن يحسن حالة القرويين ، ويخفف عنهم وطأة الحياة ، ويحطم أغلال الاستعباد التى تقيدهم متأثراً بالأفكار الحرة التى كانت تشتعل فى نفوس بعض الروسين . على أن تعصبه لمذهب الحرية المدنية والدينية لم يكسبه إلا المتاعب واليأس . مات له أخ كان يحبه ويقضى حياته بصحبته ، فأثر هذا الحادث فى نفسه تأثيراً كبيراً . وإلى جانب ذلك كان يقرأ شوپنهاور ، فلم يرجح من تلك القراءة شيئاً ، وأظلمت الدنيا فى وجهه ، وتملكت

الكآبة نفسه، وتحولت تلك الكآبة إلى نوع من الفاسفة والاستسلام . وصار يعتقد أنه ليس إلا ذرة حقيرة ضئيلة تكونت في اللانهاى ، وسارت مع الوقت في هذا الفضاء وتألبت مع المادة ولا بد أن تنفجر وتتلاشى كالفقايع التى تطفو على سطح الماء . « هذه الذرة هى أنا » . أزعجه ذلك القياس وتأثر منه كثيراً . ولما لم يكن إلا قياساً ، فإنه لم يلبث أن هجره ، وإذ ذاك ضل كل الضلال ولم يعد يعرف شيئاً إطلاقاً . وخاطب نفسه : « ما دمت لا أعلم من أنا ، ولماذا أنا هنا فى هذه الحياة ، فإن الحياة تصبح أمراً مستحيلاً . ولما كان المستحيل أن أدرك ذلك فلا شك فى أن الحياة مستحيلة . »

من السهل أن يقول المرء إن الحياة مستحيلة وهو مع ذلك يحيا . فلو أنه كان يتمتع بقليل من الإدراك العقلى لوجب عليه أن يقول : « إننى أحيا وإذن فالحياة ليست مستحيلة . » ولكن هذا الإدراك العقلى لا يوجد . وهو عند ليثين أقل منه عند أى شخص غيره . ثم إنه يقول لمن يريد أن يستمع إليه ويقول كذلك لنفسه : « لا يجب أن يحيا المرء لنفسه ، ويجب أن يحيا لله . » ولما كان مظهره وهو يقول ذلك يدل على الثقة والطمانينة والهناء ، فهيئته هذه تدل على أنه على حق . لقد سرَّ ليثين لتلك الحقيقة ، وانضم إلى فكرة فيدور وخاطب نفسه بقوله : « كل الشر ناتج عن سخف العقل ووضاعته ! »

لقد استعاض هذا الرجل بفيدور عن جميع الفلاسفة وشويناور . لقد قرب الكونت فوجويه فى كتابه « القصة الروسية » بين ارتداد بزوكوف وارتداد ليثين إلى الايمان . وأضاف تلك الملاحظة : « فى ذات يوم التقى تولستوى وسوتائف ، كما التقى بزوكوف وكراتايف ، وكما التقى ليثين وفيدور الرجل الطيب » .

كان سوتائف قروياً من تشر . اخترع فلسفة أو ديناً نادى ، به وأخذ ينشره فى نزواته وأحاديثه . بدأ فيه بالإنجيل ، فأخذ يفسره على طريقته بإخلاص وبغير تعقل . واستخلص منه مذهباً يدعو إلى الإخاء وتنظيم الحياة المشتركة والشيوعية . وهكذا كما رأينا بزوكوف وليثين يلتحقان بمدرسة كراتايف وفيدور الرجل الطيب ، نرى أن « مؤلف حرب وسلم » و « أنا كارنين » وفيما بعد مؤلف « اعترافى » و « دينى » ، و « ماذا يجب فعله ؟ » يلتحق بمدرسة سوتائف الرجل المتعصب .

وتغيرت جميع أساليب حياته .

ففى «دينى» يقص أنه بينما كان فى موسكو مر بباب بوروفيتزكى ، فوقع نظره على شيخ متسول مريض مقطوع الساق ومعصوب الرأس ، وتأهب تولستوى ليحسن إليه ؛ ببعض النقود ، إلا أن المتسول وقف فجأة بقدر ما تسمح له حالته ، واندفع هارباً مذعوراً ؛ فقد رأى جندياً شاباً فى أحسن الهندام جميل الوجه مقبلاً عليه ومهدداً ، وطارده الجندى وهو يقذفه بالعنات ؛ فقد كان من المحظور على المتسولين الجلوس بباب المنزل الذى يقيم فيه بوروفيتزكى . وانتظر تولستوى حتى دانه الجندى وسأله :

— هل تعرف القراءة ؟

— يقيناً !

— وهل قرأت الإنجيل ؟

— بالطبع !

— وقرأت فيه تلك العبارة : « إن من يطعم جائعاً وما يتبعها . . . »

وكان الجندى يذكر تلك العبارة ، فبدأ عاياه الاضطراب وأخذ يسائل نفسه هل هو أخطأ مع أنه يقوم بواجبه العسكرى . وأخذ يبحث عن جواب يلقيه على نفسه وعلى تولستوى الذى يخاطبه . . . وفى النهاية قال لمحدثه :

— وأنت إذا كنت تعرف القراءة فهل قرأت اللائحة العسكرية ؟

واضطر تولستوى إلى الاعتراف بأنه لم يقرأها . فاستطرد الجندى :

— إذن اسكت !

وابتعد وهو يهز رأسه ، ومشى وهو يخال عجباً .

فلماذا كان يحاول أن يزعم أفكار الجندى ، ويحول بينه وبين القيام بواجبه ؟

لم يكن يتعمد ذلك ولم يفكر إلا فى هدايته إلى أرجح واجباته وأسمائها .

ولكن هذا الجندى كان يرى أن واجبه فى تلك اللحظة هو فى اتباع الأوامر .

على أنه ليس من المعقول إلغاء لوائح البوليس والقوانين ؛ لأن الإنجيل يأمر

بالإحسان . إن تولستوى يغالى فى تعاليمه ، والجندى كان على حق إذ يلاحظ هذه

المغالاة ويرفض أن يحطم شعوره بواجبه مقابل مغالاته فى تطبيق سنة الإنجيل .

كان تولستوى يحب الحقيقة إلى حد الشغف والتدله . كان يحبها لأنه طالما

رغب فيها وتمناها ، وطالما تألم بسببها قبل إدراكها . هذا هو التعليل الوحيد

الذى كان يقدمه هذا الرجل العظيم ويجيب به على كل من كان يعارضه في رأيه . وهو تعليل عجيب . إن السبب في كل ما وصل إليه ناشئ عن حساسية مرهفة كانت تلازمه منذ طفولته، ولم تضعف الأيام ولا السن من شوكتها بل زادت في حدتها . إنه كان لا بد له أن يكون رقيق الشعور مرهف الإحساس متيقظ الذهن إلى حد يؤثر فيه أدنى اعتراض لا إدراكه العقلى ، لكي يتمكن من وصف شخصياته في مختلف الأزمنة وتصوير نفسياتهم وشعورهم . ولكن مثل هذه الحساسية كانت عذاباً مستمراً ، فقد كانت تحول كل فكرة من أفكاره إلى قلق واضطراب . إن مذهب التشكك الذى طالما ارتاح إليه غيره ، كان عند تولستوى مصدراً لأفظع الأحزان والآلام . والحقيقة التى كانت في نظر غيره موضع الفضول كانت محط أنظاره وسعيه يبحث عنها كما يبحث الغريق عن حبل الإلقاء، ويحاول الوصول إليها عسى أن يدرك بوساطتها شاطئ الخلاص، حتى إذا أدركها قبض عليها بيديه القويتين، ولن يقوى إنسان — أيا كان — على أن يجعله يتخلى عنها أو ينكرها .

وليس أدل على تمسكه بمذهبه وارتياحه إليه من قوله يخاطب بعض أصدقائه : « إذا أنت أدخلت قطعة من القش بين آلات ساعة وقفت جميع أجزائها وكفت عن الحركة . ولكنك إذا انتزعتها عادت جميع الأجزاء إلى سيرها الطبيعى ، وهذا دليل قاطع على أن هناك ضرراً من وجود قطعة القش بداخل الآلات . والامر كذلك إذا أنت أدخلت في حياتك مذهباً خاطئاً . . . تسألنى لماذا أو من بأن مذهب المسيح هو المذهب الصحيح ، وتطالبنى بالدليل على ما يحملنى على الاعتقاد بهذا المذهب ؟ . . . إذن هاك الدليل : عندما تدخل الفكرة المسيحية الحقيقية إلى أعماق النفوس ، فإن الحياة بأسرها تنتظم وتصبح جليلة هيئة منسجمة ، ويتلاشى التردد وتزول الاعتراضات . . . إننى أعتقد بمذهب المسيح لأننى لا أعرف مذهباً آخر يستطيع أن يهب مقداراً من السعادة يضارع ما يهبه هذا المذهب إلى مثل هذا العدد العظيم من الناس إن لم يكن إلى الناس طراً . لا نزاع في هذا اليقين ! إن السفستائيين يحاولون عبثاً طمس معالم هذه الحقيقة . والكتاب أمثال نيتشه الذين يتبجحون في تأييد نظرياتهم الفردية ، ويدعون بأن العطف والشفقة ضرب من الضعف ، لا يمكن أن يكونوا مخلصين . إن مذهبهم كاذب . والمذهب المعارض لمذهبهم واضح تمام الوضوح لمن يبصرون . »

لقد ذهب بعض الكتاب — ومن بينهم الكونت دى ثوجويه — إلى القول بأن تولستوى كان متصوفاً . على أن الذى يتبين من كتاباته وأقواله أنه لا يدين بهذا المذهب ، وأنه « واقعى » أو — إذا شئت — اختبارى . فقد قام تولستوى بكثير من الاختبارات فى الحياة ، لم يفلح بعضها فأثار حزنه ، وأفلحت الأخيرة ونجحت نجاحاً باهراً . أما فلسفته فليست — كما قيل — عوداً على المسيحية فى أول عهدها ، ولكنها تفسير للمسيحية . إنها تؤمن وتدعى لنفسها الحقيقة ، وإن كانت بعيدة كل البعد عن المسيحية التى تقول بها الكنيسة الروسية بل الكنائس أجمع . ويكفى للتدليل على ذلك أن نقرأ النبذة الآتية : « كل شئ كان يعزلى الحقيقة بالمعنى الذى وجدته فى مذهب المسيح ، ولكنى مكثت طويلاً دون أن أفهم السبب الذى جعلنى أكتشف شريعة المسيح كما لو كنت أكتشف شيئاً جديداً العهد ، وإن كان قد مرّ على تلك الشريعة ثمانية عشر قرناً توافر خلالها آلاف الناس ووقفوا حياتهم على دراسة هذا الإيمان . . . »

تلك أنانية مدهشة مع ما فيها من تواضع غريب . على أن ما يبدو على تولستوى من القلق ليس مستغرباً . لقد اكتشف ، أو اخترع المسيحية كما لو كانوا يكتشفون الآن أمريكا فيجدون أنها ليست كما كانوا يتوهمونها أو كما كانت عليه فى عهد كولمبوس ! أما كيف صنع تولستوى مسيحيته فواضح من حديثه لبعض أصدقائه : « عندما أقرأ عظة الجبل أتبين أن الحقيقة كما يجب أن تكون تتجلى فى عباراتها . فكل ما جاء فى الإنجيل مطابقاً لما ورد فى عظة الجبل ، فأنا أسلم به . أما الباقي فأنا أهمله أو أرفضه . » وهكذا فإن العظة التى ألقاها المسيح وهو على الجبل ليس فيها ذكر ألوهيته ، ولذلك كان ينكر تولستوى ألوهية المسيح . هذا تعليل غريب . وإذا قيل لتولستوى إن هذه العظة أخلاقية ولا معنى إذن لأن تتضمن تعزيزاً لألوهية المسيح ، فإنه كان يتبرم لهذا الاعتراض ولا يجيب عليه ؛ إذ كان شديد التمسك بعقيدته ولا يقبل أى اعتراض عليها .

ليس شك أن التفسير التولستوى لعظة الجبل لا يخلو من نزعة صبيانية . لقد فصل تولستوى تلك العظة عن الإنجيل ، وجعل منها إنجيلاً له يفسره كيفما شاء ، ويريد أن يجعل منه برنامجاً لحياة من نوع جديد كان يطالب بتحقيقه .

يوجد نوعان من الحياة البشرية أو بعبارة أصح من الحياة فى المجتمع

— لأن الحياة الفردية بمعنى الكلمة لم توجد — وهذان النوعان هما الحياة الريفية والحياة العملية . فإذا أسف فيلسوف لاندفاع الناس في معترك الحياة العملية فليس في ذلك ما يؤخذ عليه . وإذا أسف على الحياة الريفية فيمكن أن يقال عنه بأنه شاعر . وإذا كان يتوقع عودة الإنسانية إلى الحياة الريفية فيصح أن يقال عنه إنه حالم . أما إذا جاء هذا الحالم إلى ميدان الحياة العملية وأراد أن يفرض على من فيها العودة إلى الحياة الريفية ، فأقل ما يقال عنه إنه مخادع . فإذا خدع تولستوى نفسه فله عذره ، وإن كان لا يخلو من الخطر ؛ لأن تأثيره كان عظيماً . لقد أنكر تولستوى كل وطن باسم الاشتراكية البشرية . لقد كان للروس قبيل الحرب العالمية الأولى كثير من المعامين غير تولستوى . وقد ضلّوا بهم حتى لقد انسحبوا من الحرب قبل نهايتها ؛ وما ذلك إلا عملاً بتلك التعاليم الخطيرة .

إن مبدأ عدم مقاومة الشر هو أحد المبادئ الرئيسية التي يتضمنها برنامج تولستوى . وقد تذرّع الروس بهذا المبدأ ليشتروا وهنهم وخورهم وانسحابهم من الحرب ، لم يقاوموا الشر الذي كانت تمثله ألمانيا في ذلك العهد ، وكذلك لم يقاوموا الشر الذي استفحل في بلادهم ، فظلت خلال سنوات عدة مسرحاً للقوضى وإراقة الدماء . وإذا كانت روسيا قد استعادت الآن مكائتها فلا أنها تخلت عن هذه التعاليم بعد أن تبين لها خطؤها ، ووقفت في وجه الشر وقاومته .

كان تولستوى يأبى أن ينظر إلى النتائج . وكثيرون من كتاب الروس من هم على شاكلته . لقد وضع مبادئ مذهب ، وهو يحافظ عليه مهما كانت نتائجه . يقيناً أنه كان لا يرغب في أن تصبح روسيا — في بعض عهودها — مسرحاً للشر ، فذهبه ، كما فكر فيه ، لا يرمى إلى تلك الغاية ولا يذهب إلى هذا الحد ، على أنه كان سبباً لتلك النتيجة ، وهذا ما يستحق اللوم عليه .

كان تولستوى فذّاً في عبقريته ، فذّاً في تفكيره وبسط آرائه ، فذّاً في معيشته . فقد كان يرتدى لباساً قبيلاً إنه شبيه بلباس الموحيك أو القرويين وإن كان في الواقع لباس العمال . كان هذا اللباس مؤلفاً من معطف أسود معقود عند المعصم ، وملتصق بالجسم عند الخصر بزئار من الجلد ، ومفتوح عند العنق تحت لحيته البيضاء المسترسلة على صدره . كان هذا اللباس ملائماً ومناسباً

وأكبر الظن أنه اختاره لنفسه مرضاة لراحته ، أو تشبهاً بتلك الشخصية التي نادى بها تطبيقاً لمذهبه . لقد كان هذا المذهب على شيء من الشدة ؛ فهو يفرض نوعاً من الحياة في منتهى التقشف ، ومثيراً للضييق والألم . على أن الكونتس تولستوى كانت إلى جانبه ساهرة على راحته ، تستنبط الحيل للتوفيق - بقدر الإمكان - بين ما يفرضه هذا المذهب وبين ما تتطلبه الحياة العادية .

حدث أن ألم به مرض ثم أبل منه ، فأشار الطبيب بأن يعطى قليلاً من النبيذ مع الطعام ، ليقاوم الضعف الذي خلفه المرض . وكان مذهبه يحرم شرب النبيذ فوجدت الكونتس حلاً مناسباً لإرضاء الطرفين ، إذ فكرت في أن تستعير عن النبيذ بعصير العنب المختمر . هذا العصير - وإن اختلف الاسم - ليس في الواقع إلا نبيذاً ، ولكنه من نوع مجلل لا شيء ، إلا لأنه لا يحمل اسم النبيذ . وحدث مرة ثانية أن فكر تولستوى ألا يتقاضى من ناشري مؤلفاته جعلاً ؛ لأن مذهبه يدعو إلى ذلك ، ولأن الفن ليس مهنة يمنح عنها أجراً . والمرء لا يكتب إلا لينشر فكرته ويقدمها هبة لإخوانه ؛ وهذا ما يأمر به الإحسان وتدعو إليه الصداقة . وكشف تولستوى عن فكرته لزوجته ، فها لها ما سمعت واستاءت ، ولكنها تمكنت من معالجة الأمر وقالت له : « صحيح . هذا جميل ولكن فيما يتعلق بمؤلفاتك الحديثة ؛ فهي ملائمة لفكرتك النبيلة التي تقوم عليها مبادئ رسالتك ، وأنا أقرك عليها يا لبيب نيقولايتشيتش ، أما قصصك التي نبذتها عنك وأنكرتها أمثال « حرب وسلم » و « أنا كارنين » ، فهي مؤلفات شعبية وضيعة لا تصلح للوعظ والإرشاد ولا لهداية أحد ، ولذلك فهي تختلف كل الاختلاف عن غيرها . » واستقر الرأي على ألا يتقاضى تولستوى كويكاً واحداً من بيع مؤلفاته الأخلاقية - وتلك كانت لا تباع بطبيعتها - ويستمر في تحصيل حقوق التأليف عن قصصه المنبوذة المحترقة - إذ أنه كان ينبذها ويحترقها - وتلك كانت رائجة وتباع بكثرة مدهشة . إنه اتفاق مدهش عظيم ومضحك في ظاهره . ولكن هل هو مضحك في ذاته ؟ إنه يوضح بجلاء أنه يصعب على الإنسان أن يعيش كما يريد ، وكما يقرر أن يعيش طبقاً للفكرة التي يكونها عن الجمال

إن مثل هذا العيش كئيب لا يسر . ومما يزيد في كآبته أن تولستوى نفسه كان يتألم منه مُرّ الألم . وخير دليل على ذلك هو موته . كان قد تجاوز

الثمانين، وكان يعيش فى مزرعته فى ياسنايا بوليانا محاطاً بذويه وعشيرته . وفى ذات يوم غادرهم خلصة . . . إلى أين عساه يذهب ؟ إلى مكان قصيٍّ مجهول ينشد فيه حرّيته . . . أية حرية ؟ . . . حرية العيش طبقاً لعقيدته وإيمانه . كان قد اعتزم أن يتعد عن حياة تُنظم وتُعدّ له بما يناقض مذهبه ويتعارض معه . وهكذا أصبح تولستوى العظيم الخالد مشرداً فى الطرقات ، يعيش فى العراء بعيداً ، ويفقد ما بقى له من القوة شيئاً فشيئاً . ثم يفاجئه البرد فيقضى نحبّه فى العراء . . . مسكين ذلك الشيخ الهرم . . . لقد هجر كل شئ وترك كل شئ ؛ ليكون فى لحظة موته شيخاً مسكيناً . . .

سليم سعد

الريف في مصر

خلجات الأفراح والأحزان
عاش في أمسه طليق العنان
ف وهمس الأفنان والغدران ؟
أخرس الخطو بادى الأيمان
لاهت الصدر في البعيد المدانى
ظماً رغم مائها للدهان
صارخ البث ذائع التحنان
ساقه السوط في مدى الدوران
وإذا ثار هم كالعجلان
بهظته فظاظة الرومان
خطوات الإنسان والحيوان

هدباً من قضيبه الريان ؟
ق ويحنو عليه في الجريان
ويلقى المجلس طيب المكان

ساقيات يمسسن بالملان ؟
ء بطرف مخالس وسنان
ن بشفر منظم جندلان
عرض الوجد من هوى الفتیان
ساخطات على الفتى علوان

ذكريات الصبا من الأزمان
صور مسها فؤاد ذكور
أين منى الملاعب الخضر في الري
يوم أمشى إلى الفراش صيودا
باسط الكف من رجاء وخوف
والسواقى على الفراض تعاني
في أنين من الوجيعه باك
ساقها مرهق من الأين أعمى
يُثقل الخطو إن تمهل عنه
كأسير في عهد نيرون يشقى
نُظم للقوى تحجل فيها

أين ذاك الصفصاف ياريف يدنى
يمسح الماء في الجداول بارف
يبسط الظل بارداً وظليلاً

أين ياريف في الصباح عذارى
راجعات وقد صدرن عن الما
يتنادرن ساخرات ويضحكن
ويخافتن في الحديث إذا ما
مُعجبات بخالد وسليم

أين ياريف صيحة الديك في الفج
وابتسام الجديد يذهب بالاح
لوحة تجمع الظلال فتونا
خطها الله مبدع الحسن والظر
يتراءى جاهلها بهجات

ر تباعاً وصادح الكروان ؟
ظ إلى كل باسم فتان
نقشها مفصح بغير لسان
ف ورب الإحسان والإتقان
حافلات بساحرات المعاني

أين ذاك الأصيل ياريف يبدو
موعد اللهو والتطلع للغي
ورواح الأجير ينفذ عنه
فأسه تنبت الرفاهة لنا
غبنته أيامه وجحود
خس حظاً وإن تعهد بالحظ (م)
دهره الجهد والخصاصة والجه
حرقت وجهه الظهائر وانسا
وتولى الطبيب عنه وعافته
لطف الله بالشهيد وبالبنا

في اصفرار كخالص الزعفران ؟
د ولتقياً العشاق والإخوان
عنت اليوم واحتمال المعاني
س وإن طال عيشه في الهوان
نافر البر عازب الإحسان
وفيراً وبالقطوف الدواني
ل ونبت المرفه المبطان
بت إليه فواتك الديدان
ه أياد تهيم بالنسيان
ذل كل الفداء للأوطان

أين ياريف ليلة البدر في الصي
ورقيق النسيم يحمل شدواً
من محب مكابد أرقته
وقديم من الحفاظ وسعى
زهرة الحب والسكون حواله
فتنة تملأ النفوس جمالا

ف وجمع السمّار والتدمان ؟
بثه الحب في رقيق الأغاني
عقبات الهوى وميل الغواني
دلسته عجائز الجيران
نا وخفق الطيور في الأغصان
وهيام يشيع في الوجدان

أين عهد السراق والمجد ياريف
هجروا في قراك جنة عدن
جذبهم مياهاج خادعات
بهرج صاخب وصيحة مين

ف وعهد الانصار والأعوان ؟
وتولوا بقسمة الخسران
زيقتها حواضر البلدان
من كذوب معربد سكران

الريف في مصر

دينه النقش في القراطيس والنق
وتراه وقد تملأ وفراً
دائم الجهد والتطلع والحو
أين هذا الشقى منك رضىً
قانعاً بالحياة في كنف الأم
د وزاه من اصفر رنان
يشتكى حظه من النقصان
ف حليف الهموم والأحزان
خافلاً عن مذاهب الأشجان ؟
ب قريراً بقسمة الرحمن

أحمد محفوظ

العناصر الثلاثة للقومية المصرية

أولاً — الوجود المستمر للجماة المصرية

إن أردت تصور القومية المصرية ، أو حاولت تصويرها ، فإنك واجد رمزها الرائع ، وتصويرها الجامع في تمثال «مختار» .
الفلاحة المصرية ، تعتمد يمينها على دعامة مصرية ، وهي ترمى ببصرها أقصى الأفق .

هذه الفلاحة هي الأم التي ولدت لمصر أبناءها وبناتها على ضفاف النيل ، جيلاً بعد جيل ، في خلال العُصر المتعاقبة ، وهي التي كانت نائمة فاستيقظت واستوت قائمة .

لم تنقطع صلتها بالماضي ، فإنها ما زالت تستند إليه ، ولا هي تقيدت بالحاضر ، راضية بالتلفت حواليتها ، أو قانعة بالنظر تحت قدميها ، ولكنها تتطلع للأمام ، ناظرة إلى المستقبل .

إنها تربط الماضي بالحاضر ، وتصل الحاضر بالمستقبل
ولكن . . . ما الحاضر ، وما الماضي ، وما المستقبل ؟
أليس الحاضر لحظة مجردة من الامتداد الزمني ، تجرّد النقطة الهندسية من الأبعاد ؟

ثم ، أليس الماضي بدوره لحظة مجردة من الامتداد الزمني ، كانت الحاضر ، فتراجعت لتحل مكانها — في تصورنا — لحظة أخرى مثلها ، كانت المستقبل فأصبحت الحاضر ؟

وإذن ففي وسعنا أن نتصور أن الماضي والحاضر والمستقبل ، تلتقي وتندمج في لحظة واحدة مجردة من الامتداد الزمني .

العناصر الثلاثة للقومية المصرية

ولئن صح هذا التصور بالنسبة لحياة الفرد — وهو صحيح — فإنه بالنسبة
لحياة الأمة أكثر صحة ، وأوضح أثراً .

فالمصري الذي يعيش اليوم ، ليس لبينةً مستقلة في بناء القومية المصرية
الحاضرة ، منفصلة عن الماضي ، منقطعة الصلة بالمستقبل ؛ ولكنه لباب الماضي
ومسالك الحاضر ، ونواة المستقبل . مثله كمثل اللحظة الزمنية ، يلتقي فيه الماضي
بالحاضر ، ويتصل عنده الحاضر بالمستقبل .

والأمة المصرية ليست أفرادها الذين يعيشون الآن ، ولكنها أفرادها
الذين ماتوا ، والذين ولدوا ، لا في هذه الساعة وحدها ، (ومصر تلد في الساعة
حوالي ثمانين وتشيع نيتما وخمسين) بل في خلال الأجيال الماضية كلها ، وأفرادها
الذين سوف يولدون في الأجيال القادمة جميعها .

ولئن قسنا عدد الأحياء من المصريين في هذه اللحظة ، بعدد الذين عاشوا في
القرون الخوالي بأسرها ، وجدنا أن هذه الملايين من الأحياء ، التي تعد على
أصابع اليد الواحدة ثلاث مرات أو نحوها ، لا تعدو أن تكون قطرة في محيط
زاخر بألوف الملايين ، بل بملايين الملايين ، ممن اشتركوا بالأمس ، أو ممن سوف
يساهمون غدا في تكوين القومية المصرية وتشكيلها وتلوينها ، على كثر الغداة
ومرّ العشي .

فالقوم الذين يعيشون اليوم في مصر ، ويعرفهم العالم باسم المصريين ، ليسوا
إذن مصريي القرن العشرين وحده ، ولكنهم مصريو الحقب الخوالي والعصور
التوالي . هم مصر الغابرة ، وهم مصر الحاضرة ، وهم مصر المستقبل .

والقومية المصرية ، أي الرابطة بين الفرد المصري والجماعة المصرية ، شيء
مركز في كيان الأفراد المصريين .

ذكريات كل مصري ، وتقاليده ، ومعتقداته ، هي التي يتكون من مجموعها
ذكريات الجماعة المصرية ، وتقاليدها ، ومعتقداتها .

فالقومية في داخلنا ، في صميم كل فرد منا ، ولكنها أسمى من تفكير أي فرد
فيها ، وأوسع من فهم جميعنا .

عاش أجدادنا وآباؤنا على ضفاف هذا النيل منذ ألوف السنين ، يتلقون فيضه
في أجل معلوم ، وينعمون بشمس مصر يقطع قرصها الساطع سماءهم الصافية مرة
في كل نهار ، ويسعدون بالوادي الخصيب المنبسط ، لا تتبدل طبيعته ولا تتغير

معامله . لا زلازل ولا براكين تهدم ما شادوه ، ولا صواعق ولا أعاصير تخرب ما عمروه ؛ فأخلاقهم موسومة بطابع الاستمرار والاستقرار ، وقلوبهم مشربة بحب النظام ، مفعمة بحب الأسرة ، مطبوعة على تذوق الجمال ، ونفوسهم فياضة بالولاء لنظم يحلون بها ، ومؤسسات يؤثرونها ، ومعتقدات يدينون بها ، جعلت منهم قوما متجانسا ، وقومية قوية لعلها أقدم القوميات وأعجدها وأخلصها .

فقد عرفنا الله وعبدناه ووحدناه ، وأدركنا الروح والخلود ، وآمنا بالبعث في اليوم الموعود ، واستأنسنا القمح واستنبطنا أُنْخِر سلالاته ، وبنينا وشيدناه ، ونحتنا وصوّرنا ، وكتبنا ودوّننا ، وقسنا وأحصينا ، وحسبنا الشهور والسنين وشرعنا وطببنا ، وفكرنا وألفنا ، حين كان البشر نياما ، وكانت الدنيا جهلا وظلاما .

وإن التاريخ ليدحض دعوى المتحاملين على القومية المصرية ، ويفند مفتريات القائلين بأننا قوم طال عهدنا بسيطرة الغزاه ، والخضوع لحكم الطغاه ، حتى فقدنا قوميتنا ، واستحلنا مجموعة من أفراد متعددة عناصرهم ، متنافرة مواردهم ومصادرهم .

فما هبط واديننا شعب ، مستوطنا أو فاتحا ، إلا طويناه وتمثلناه ، وطبعناه بطابعنا ، وصغناه في قالبنا ، وأدجنناه في قوميتنا .

صنعنا هذا بالهكسوس ، والاثيوبيين ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، والعرب ، والآتراك ، واحتفظنا دائما بأشكالنا وسجننا ، ومعظم تقاليدنا وعاداتنا . حتى المسيحية والإسلام ، لم يكدا يغير دخولهما البلاد من أخلاقنا القومية ، إلا قليلا .

أما الذين لم يتأقلموا ، فإننا لم نلبث طويلا حتى لفظناهم وتخلصنا منهم ، كما حدث مع الفرنسيين ثم الانجليز من بعدهم .

ثانيا - الشعور بالجماعة

وهو وجود فكرة الجماعة المصرية في عقول أفراد المصريين ، وفهمهم طبيعتها وتكوينها وحقوقها ومطالبها .

وحسبنا أن نضرب لهذا الشعور مثلا ، النهضة المصرية في سنة ١٩١٩ .

لم تكن تلك النهضة مجرد اتجاه مجموع إرادة المصريين نحو الاستقلال ، بل كانت اتجاه إرادة جميع المصريين نحو الاستقلال ؛ إذ كان الدافع لهذه الإرادة الجماعية دافعا واحدا منبعثا من يقظة الشعور العام ، ولم يكن دوافع متنوعة تختلف باختلاف الأفراد ، وإن اتجهت كلها نحو هدف واحد .

الفلاحة التي ظنوها ميتة ، كانت نائمة فضحت واستوفزت واستوت واقفة تتوكل على ماضيها وتتطلع إلى مستقبلها ، بعد أن تأصلت فكرة الأمة في عقول الأفراد الذين تتكون منهم الأمة ، وأصبحت هذه الفكرة نواة لعاطفة قوية ، تحرك دوافع قوية ، وتتغلب على سائر الدوافع ، وتتحكم فيها وتسيطر عليها .

اضمحلت النزعة الفردية ، وانطوت المصلحة الشخصية ، فاندججت في نزعة الجماعة ، وانضوت تحت لواء المصلحة العامة ، وأصبح المصري يرى نفسه جزءا لا يتجزأ من الجماعة المصرية ؛ وبعد أن كان شعور المصري « أنانيا » في شخصه أضحي شعوره « أنانيا » في الجماعة ، تجاوز حدود نفسه ، وتخطى نطاق أسرته ، وانبعث فيه دوافع العمل لمصلحة قومه وأمته .

زادت معرفة الفرد المصري بالجماعة المصرية ، وتضاعف اعترازه بلغته ، وقوى احترامه لتقاليده ، واشتد حرصه على محبة الأمة المصرية والاندماج فيها والتجانس معها ، ونشط للقضاء على ما عساه أن يشوب وحدتها من عوامل التفرقة ، بسبب اختلاف الدين ، أو الفوارق الاجتماعية وما إليها .

شعر المصريون بأن للأمة المصرية عمرا أطول من عمر أفرادها ، وأنها وجدت قبل أن يولدوا ، وأنها مستمرة بعد أن يلقوا ربهم ، وأيقنوا أنهم باندماجهم فيها يعظمون ويخلدون ؛ فاتخذوا للأثرة الفردية فلسفة جديدة ، هي الأثرة الجماعية ، وطابت نفوسهم بالتضحيات حتى روت دماءهم شجرة القومية المصرية ، فإذا أصلها ثابت وفرعها في السماء .

وكانت يقظة « الشعور السياسي » أول ثمار هذه الشجرة المباركة ، فعم الجماعة المصرية بأسرها ، وسيطر على تصرفاتها . ولا غرابة ، فقد كان أجدادنا أسبق الناس إلى التأثر بالشعور السياسي ، فاتخذ هذا الشعور في عقلنا القومي مظهرا شبيها « بأساليب التفكير الدائم » .

ولربما ظل هذا الشعور خامداً عدة أجيال ، ولكنه لم يلبث أن غاد إلى الظهور بكامل قوته ، حين توافرت له الظروف الملائمة . و « الوطنية » أهم مظاهر

«الشعور السياسى» ؛ فإن الطفل يحمل معه منذ العصور المتوغلّة فى القدم نزعة الولاء للجماعة التى يعيش فيها . ولئن صح ما يقوله علماء التاريخ الطبيعى من أن «الحقوق الإقليمية» معترف بها بين الحيوانات العليا ، فلا يبعد أن تكون الوطنية قد انتقلت إلينا بالوراثة من عصور ما قبل التاريخ .

وتنطوى الوطنية على «حب عاطفى لبلدنا» ، وهى عاطفة مركوزة فى العقل الانسانى ؛ لذلك لم يكن تشويه برامجنا التعليمية ، ولا مسح التاريخ المصرى فى مدارسنا ، ولا محاربة الوطنية فى نفوس الأجيال السابقة على الثورة ، ليؤثر فى محبة المصريين لوطنهم ، وقيامهم كفرد واحد للدفاع عن حقوقه .

وكما تنطوى الوطنية على حب عاطفى للبلد او الوطن ، فإنها تشمل أيضا «الشعور بالولاء نحو الوطن» ، والشعور بالولاء للمواطنين . شعور بالولاء نحو الوطن ، شبيه بشعور الولاء للأسرة ، وشعور بالولاء نحو المواطنين ، شبيه بشعور الولاء قبل الزملاء فى الصناعة ، والإخوان فى المهنة ؛ فهو جزء من «غريزة الاجتماع» ولون من «غريزة المحافظة على النفس» ، أو هو على الأقل مرتبط بهما .

وهذه الناحية من الشعور الوطنى ، أى هذا الولاء للوطن ، والولاء للمواطنين ، هو ضرورة لازمة لتكليف تصرفات المواطنين بإزاء الشئون العامة والمسائل السياسية ، وهو أصل شعورهم بالولاء نحو حكومة البلاد ، أى نحو العرش والدستور والبرلمان والوزارة .

فلم تكد تشب الثورة ، أى لم تكد تتحرك المشاعر السياسية للمصريين ، حتى اشترك أبناء البيت العلوى فى الحركة الوطنية ، واشتركت الحكومة مع الوطنيين فى المطالبة بحقوق البلاد ، وقويت الروابط إلى حد الاندماج بين ما كانوا يسمونه عنصرى الأمة ؛ إذ تبين أن الأمة ليس فيها عنصران ، بل عنصر واحد هو العنصر المصرى ؛ وضعف الشعور بالفوارق بين مصرى ومصرى ، سواء أكانت فوارق اقتصادية أم علمية أم اجتماعية ، وقوى الشعور بضرورة إزالة هذه الفوارق عن طريق رفع المستوى العام للطبقات الفقيرة والجاهلة ، وأصبحت الوطنية دين الجميع ، والوطن قبلة الجميع ، والقومية المصرية شعار الجميع . ومما يرتبط بالوطنية ويكاد يتحد وإياها ، شعور اصطلاحنا على تسميته «العزة الوطنية ، أو الكرامة القومية» .

العناصر الثلاثة للقومية المصرية

وهو شعور قد يظل كامناً عدة قرون ، فإذا صادف الحافز الملائم ، ورى شيراره ، واندلع أوارؤه ، وتأججت ناره ، حتى إذا تولته القيادة القوية الأربية ، استكمل عناصره ، وصهر الروح القومية فصفي شوائبها ، وسما بها إلى عليين . وما الكرامة القومية غير إحساس هدفه تحقيق الرضا القومى . وكما أن من مظاهر احترام النفس أن يسكن الإنسان الدار التى يختارها ، ويرتدى الملابس التى يجدها لائقة ، فإن من مظاهر الكرامة القومية أن يختار الفرد الحكومة التى يعيش فى كنفها ، ويدين بالولاء لها . على أن يكون رجالها من بنى جنسه ، يتكلمون لغته ويشعرون شعوره ؛ لأن المواطن ينظر عادة إلى حكومته كأنها جزء من نفسه ، وبضعة من حسه ، وقطعة من ماله وملكه . وقد كان ليقظة شعورنا بالكرامة القومية ، الأثر البالغ فى حياتنا الوطنية ، فاسترددنا استقلالنا ، وانطلقت أيدينا فى إدارة بلادنا وتمثيلها لدى الدول الأجنبية ، وأصبح لنا دستور وبرلمان واشتراك فعلى فى الحكم ، قوامه الاقتراع العام ، والمسئولية الوزارية .

ثم تلا ذلك إلغاء الامتيازات الأجنبية ، فخلص بذلك شرفنا القومى من أذى المذلة أمام الأجنبي ، الذى كان يعيش بيننا دون أن يخضع لتشريعنا الجنائى أو المالى ، أو يحاكم أمام قضائنا الوطنيين ومحاكمنا الوطنية .

وها نحن أولاء قد تخلصنا من ديننا الدولى ، الذى كانت مذلتة تطوق عنق كل مصرى ، وأصبحنا على أبواب الحدث العظيم الذى نستكمل به استقلالنا تاماً خالياً من كل شائبة .

ثانياً — التنظيم والقيادة

هو العنصر الذى لا غنى عنه لأى جماعة تريد القيام بعمل قومى جماعى . وقد أتيح لمصر فى فجر نهضتها الحديثة عدد من أبنائها ، مثلوا وحدة الشعب المصرى ، وعبروا عن شعوره الوطنى والسياسى ، واشتركوا فى تنظيم الحركة القومية ، وساهموا فى إذكاء روحها ، ونجحوا فى توجيهها وجهة مباركة .

ولئن صح لنا أن نحدد وقتاً معيناً لابتداء يقظة «الشعور بالجماعة» ، وهو ثانى عناصر القومية المصرية ، فإننا نرجح أن يكون سعيد باشا أول حاكم من

أسرة محمد علي ، ربط مصالحه بمصالح شعبه باعتباره مصريًا ، وقطع على نفسه العهد بأن يتولى المصريون تدريجاً جميع مرافق الدولة ، ونزل عن ملكية الأراضي المصرية للمصريين .

ولا ننسى للخديو إسماعيل ، دعمه شخصية مصر كدولة مستقلة ، بما استخلص من حقوقها ، وأن أول برلمان مصري انتخب في عهده ، وأنه أول من اعترف بمبدأ المسؤولية الوزارية ، وفي أيامه جاءنا جمال الدين الأفغاني ، الذي تخرج عليه زعيم النهضة السياسية ، وزعيم النهضة الدينية ، وزعيم النهضة النسوية .

وهكذا مهد عهد سعيد وعصر إسماعيل ليقظة الشعور القومي ، وقدما لظهور عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول .
وها هو ذا صاحب الجلالة المصرية ، الملك فاروق الأول ، يضرب لشعبه المجيد المثل في الوطنية ، والقومية المصرية .
هذه هي العناصر الثلاثة للقومية المصرية . وإنا نرجو أن نتناول في مقال آخر ، « نواحي الضعف في القومية المصرية » .

م. باصر شمس

إبراهيم بن المهدي : حياته السياسية

إنما هذه شخصية موهوبة عبت في قصور خلفاء الدولة العباسية : هارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ، وانتشر شذاها الذكي في مجالس الأئس والسمر والطرب ، تشدو بأعذب صوت ، وتغرد بأشجى نغم . وقد حفلت حياة هذه الشخصية العبقريّة بالطموح والإقدام ، وتفردت بالشجاعة والمغامرة ، واتسمت بتعدد المواهب وخصبها ، وامتازت بتسّم ذروة الفن والفصاحة . فكانت زينة المحافل ، ونديمة المجالس ، وريحانة النفوس الصادية لارتشاف مناهل الفن والجمال ، وبهجة الأرواح الظمأى إلى همسات الوجد والغرام .

أنجب العصر العباسي الأول هذه الشخصية الفذة في مناحي حياتها الصاخبة ، الغارقة في أحضان الهوى ، العابثة في مجالس الخلفاء والقيان ، الساخرة من أحداث الزمان ، الضاحكة من الهموم والأحزان . فكانت ألد شخصية وأغربها ، وأدعاهها إلى الدرس والبحث والتحليل ؛ تلك شخصية إبراهيم بن المهدي اللحن الحائر الرائع .

أمه « شكّة » مولدة . كان أبوها من أصحاب المازيار ، يدعى شاه افرند ، قتل مع المازيار ، وسببت ابنته « شكّة » وأرسلت إلى المنصور ، فوهبها لـ « حياة » أم ولده ، فربتها عندها . ثم بعثت بها بعد ذلك إلى الطائف ، فترعرعت هناك وتقصحت . فلما شبّت ، أعيدت إلى « حياة » . أصلها من طبرستان ، وقيل إنها ابنة ملك طبرستان .

و ذات يوم أبصرها المهدي عندها ، فأعجب بها ، فطلبها منها ، فنحتها إياها . وما لبثت أن ولدت منه إبراهيم عام ١٦٢ هـ . وهو ينسب إليها ويدعى إبراهيم ابن شكّة . وكان مثلها حالك السواد . وقد لقب بالتنين لعظم جثته وضخامتها .

ابراهيم بن المهدي : حياته السياسية

تولى ابراهيم بن المهدي : في الثامنة عشرة من عمره ، إمرة جند دمشق سنتين كان خلالها مثال الحاكم الصالح .

على أن الرشيد عزله لهفوة بدرت منه ، وهو الفتي الحاكم ، وعين مكانه سليمان بن المنصور بن المهدي . غير أن الفتنة نشبت في أثناء حكم سليمان ، ولم يطمعه أحد من الشعب .

وغضب الرشيد على ابراهيم ، وحبسه مائة يوم ، ولم يسمح له بدخول قصره ، كما حظر على جعفر بن يحيى أن يذكر اسمه أمامه سنة .

بيد أن الأيام كانت كفيلة بعودة الصفاء والمودة بين هارون الرشيد و ابراهيم ، فكان الرشيد أيقن أنه من العدل أن يفكر في جفائه لأخيه ، فغيره أن يختار مدينة يوليه عليها ، فإذا با ابراهيم يحن إلى دمشق ومغانها .

عقد لا ابراهيم على إمرة دمشق ثانية ، ورحل إليها عام ١٨٦ معزاً . وبعد زمن أقاله الرشيد متذرعاً بحبسه ، وولى مكانه العباس بن محمد بن ابراهيم الإمام . ولكن مالبت الرشيد أن ألغى ولاية العباس بن محمد ، وأعاد ابراهيم إلى ولايته ، وأثنى على حكمته ، وأجازته بثلاثين ألف دينار .

وبقى ابراهيم في ولايته الثالثة على دمشق أربع سنوات ، قفل بعدها راجعاً إلى بغداد ، وهو في ريثق الشباب ، وقد اكتسب من الحكم خبرة ودراية انتفع بهما في حياته المفعمة بالحوادث الجسام .

لما استقر الأمر للمأمون ، وولى الخلافة عام ١٩٨ ، بعد ما استمرت الحرب بينه وبين أخيه الأمين ، وردت في الثاني من رمضان سنة ٢٠١ رسالة على عيسى ابن محمد بن أبي خالد ، من الحسن بن سهل ينبئه فيها بأن المأمون بحث عمن يليق أن يكون ولي عهده ، فلم يجد في بني العباس وبني علي أفضل وأروع وأعلم من علي بن موسى بن جعفر بن محمد ، وقد دعاه الرضى ، وأمره أن يخلع الثياب السود شعار بني العباس ، وأن يرتدى الثياب الخضراء شعار بني علي ، وأن يأمر أصحابه والجنود والقواد وبني هاشم وأهل بغداد بأن يبايعوه ، وأن يتخذوا الخضرة في ملابسهم وأعلامهم .

فقبل البعض ذلك ، ورفض البعض الآخر أن يخرج الأمر من ولد العباس ،

ابراهيم بن المهدي : حياته السياسية

واحتدم الجدل بين أهل بغداد أياماً ، واضطربت الفتنة ، واستعرت سورة الغضب بين الشعب ، فناوءوه وقاوموه .

اجتمع زعماء الثورة وبحثوا في قضية المأمون ، فأنكروا عليه صنيعة ، فإذا بهم يجمعون على خلعه ، وتنصيب منصور بن المهدي خليفة ، ودعوه المرتضى ، وساموا عليه بالخلافة ، ولكنه أبى ذلك . فعمدوا إلى أخيه إبراهيم ابن المهدي ، فبايعوه بالخلافة ، ولقبوه « المبارك المنير » وقلدوا ابن أخيه إسحاق بن موسى بن الهادي ولاية العهد . وكان ذلك في ٢٥ ذي الحجة عام ٢٠١ .

لما اتزع إبراهيم بن المهدي الخلافة من المأمون ، أوفد إليه المأمون الحسن ابن سهل في جيش ، فثبت له إبراهيم وقاتله فهزمه .

ودارت رحى الحرب بين إبراهيم وأهل بغداد ، وبين أهل الكوفة والسواد ، فتغلب إبراهيم عليهم وعسكر بالمدائن .

واستعرت الحرب سجالاً بين جند المأمون وجند إبراهيم ، وانتشرت الدسائس والمؤامرات ، وانقسم أهل بغداد إلى حزبين .

وما زال إبراهيم بن المهدي في بغداد يدعى « أمير المؤمنين » ويخطب باسمه في بغداد والسواد والكوفة ، إلى أن كان علي بن موسى الرضى ولي عهد المأمون يأكل عنباً ، إذا به يموت لوفرة ما تناوله منه . فنزل موته على المأمون نزول الصاعقة ، وانتابه جزع عظيم .

وفي موت ولي عهده الذي احتدمت الحرب من أجله ، ونبذ السواد ، ولبس الخضرة بسببه ، أدرك المأمون أن لا سبيل له إلا أن يسلك سياسة الحكمة والمرونة . فإذا به يكتب بوفاته إلى الحسن بن سهل ، وإلى بني العباس وأهل بغداد والموالي ، وأنهم إنما نعموا عليه لجعله ولياً عهده . أما وقد زال السبب ، فإنه يرغب إليهم أن يدخلوا في طاعته ، ولكنهم جابهوه بالرفض وأنهم لا يقبلون عن إبراهيم بن المهدي بديلاً .

وبقيت الحرب مضطربة زمناً بين المأمون وإبراهيم بن المهدي . وما زال إبراهيم يخذل الفتن ، ويقف في وجه خصومه ، ويدافع عن خلافته ، حتى انتشرت الفوضى . وقد نظم عيسى بن محمد بن أبي خالد مؤامرة على تسليم إبراهيم

إلى خصومه . وكان يتظاهر بالطاعة لإبراهيم والإخلاص له . ولما نعى هذا الخبر إلى إبراهيم كتم الأمر في نفسه .

وانضم بعض أنصار إبراهيم من القادة والجند إلى حميد الطوسي ، وساموه المدائن ، كما هزم جند حميد جند إبراهيم وطاردوهم .

ولما رأى خاصة أهل بغداد انتصار حميد ، انضم إليه الفضل بن الربيع وعلي ابن ريطة . ثم بدأ العقد ينفرط من حول إبراهيم ، حيث تحول عنه الهاشميون والقواد إلى حميد تباعاً .

وهنا أدرك إبراهيم من انصراف أنصاره من حوله ، أنه خسر المعركة ، وأنه لا شك خاسر الخلافة . وإذا ببضعة من القواد يفاوضون علي بن هشام على تسليم إبراهيم بن المهدي إليه . فلما علم إبراهيم بخيانتهم وخيانة قومه وأصحابه ، وأنهم قرروا تسليمه ، ولم يبق له نصير أو صديق ، دأب على ملاطفتهم في حكمة ولين .

وفي عيد الأضحى عام ٢٠٣ سار موكب إبراهيم بن المهدي إلى الجامع ، مرتدياً زي الخلافة ، تحف به حاشيته بأبهة وعظمة ، وصلى بالناس صلاة العيد . وهو يشاهد معسكر علي بن هشام . ثم عاد إلى قصر الرصافة ، واجتمع فيه بمؤيديه وأنصاره ، حيث درس وإياهم الموقف الراهن ، فوجد أنه فقد الخلافة ، ولا مناص له من الفرار من وجه المأمون ، كي لا يبطش به ، لأن أقل عقاب له كان القتل .

انسل إبراهيم بن المهدي من قصر الخلافة إلى داره ، حيث اختفى في ليلة الأربعاء في ١٧ ذي الحجة سنة ٢٠٣ .

وحاصر المطلب وابن الساجور وأصحابهما دار إبراهيم ، وأبلغوا ذلك إلى حميد الطوسي وعلي بن هشام ، فقدموا ودخلا دار إبراهيم ، فوجداها خالية منه . فأعلموا المأمون بذلك .

وكانت خلافة إبراهيم بن المهدي سنة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً ، قضاها في إخماد الفتن والثورات ، ومحاربة المأمون في سبيل الاحتفاظ بالخلافة وتنازع البقاء .

دخل المأمون بغداد في ١٦ صفر عام ٢٠٤ وكان مرتدياً هو وأصحابه الخضر ،

ابراهيم بن المهدي : حياته السياسية

كما كانت أعلامهم خضراً ، وثياب بني هاشم وقواده وجنده وأهل بغداد خضراً .
وبعد مرور ثمانية أيام اتفق معه بنو العباس على نبذ الخضرة ، والعودة إلى
ارتداء السواد .

وكان من الأسباب التي ساعدت المأمون على إعادة أهل بغداد إلى طاعته ، أنه
أمر بإعفاءهم من ألفي ألف درهم من خراجها . وهكذا استمالهم إليه وملك قلوبهم
مرة أخرى ، مما دل على مرونته السياسية ، وحنكته الإدارية .
ومالبت المأمون أن استأنف إدارة شؤون الدولة بما عرف عنه من
الحكمة والحلم .

غير أن العلويين عمدوا إلى المشاغبة عليه ، بعد أن ضحى بما ضحى في سبيلهم . فلما
رأى منهم ذلك أمرهم بهجر الخضرة وارتداء السواد ، ومنعهم من الدخول عليه .
إن ما تجلبى به المأمون من سماحة الخلق ، ورحابة الصدر ، والحلم القوي ،
وحب التسامح ، وميله إلى التساهل ، وكرهه للانتقام ، وشغفه بالعفو ، أصبح
مضرب المثل . فقد عفا عن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، ثم أعقبه بعفوه
عن عيسى وزير إبراهيم بن المهدي ، وكان هو والفضل بن الربيع من زعماء
الانقلاب عليه .

وفي ربيع الآخر سنة ٢١٠ اعتقل إبراهيم بن المهدي ، وهو متنكر بزني امرأة .
وروى أبو المحاسن بن تغري بردي يصف عفواً المأمون عن عمه إبراهيم بقوله :
« ... وله في هروبه واختفائه وكيفية الظفر به أمور وحكايات مهولة ؛ منها
أنه لما وقف بين يدي المأمون ، شاور في قتله أصحابه . فكل أشاروا بالقتل ،
غير أنهم اختلفوا في القتلة ؛ فالتفت المأمون إلى أحمد بن خالد وشاوره ، فقال :
يا أمير المؤمنين ؛ إن قتله فلك نظير ، وإن عفوت عنه ، فمالك نظير . فأنشد المأمون :
فلئن عفوت لأعفون جلاً ولئن سطوت لأوهن عظمي !
فكشف إبراهيم بن المهدي رأسه وقال : الله أكبر ! عفا عني أمير المؤمنين ؟
فقال المأمون : يا غلمان ، حلوا عن عمي وغيروا من حالته ، وجيئوني به ... » (١)
وفي مثل إبراهيم بن المهدي بين يدي المأمون ، وفي الحوار الذي دار بينهما ،

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٢٤١

بلاغة و طرافة و متعة تشف عن فصاحة ابراهيم و توبته ، وعن حلم المأمون و كرمه .
حدث ابن عساكر قال « . . . » ولما طال عليه الاختفاء ضجر ، فكتب إلى
المأمون : « وليُّ الثأر محكمٌ ، والعدل أقرب إلى التقوى . ومن تناوله الاغترار بما
مد له من أسباب الرجاء ، فمن عادية الدهر على نفسه . وقد جعل الله أمير المؤمنين
فوق كل ذي عفو ، كما جعل كل ذي ذنب دونه . فإن غفا فبفضله ، وإن عاقب
فبحقه » . فوقع المأمون على الكتاب : « القدرة تذهب الحفيظة ، وكفى بالندم
إنابة وعفو الله أوسع من كل شيء » . ولما دخل على المأمون قال :

إن أكن مذنباً فخطي أخطأ ت ، فدع عنك كثرة التائب
قل كما قال يوسف لبني يعقوب لما أتوه : لا تثريب
فقال له المأمون : لا تثريب ، وقال له أيضاً لما أخذه : ذنبي أعظم من أن
يحيط به عذر ، وعفوك أعظم من أن يتعاضمه ذنب . فقال له المأمون : حسبك !
فإن قتلناك فله ، وإن عفونا فله . . . (١) « بل أعفو يا ابراهيم ، فكبر
ابراهيم وخر ساجداً (٢) » .

إن عفو المأمون عن عمه ابراهيم بن المهدي ، كان خيراً ومكرمة وذكراً
عاطراً مدى الدهر . وقد ضرب به مثلاً عالياً في الحلم والتساهل والتسامح
ورحابة الصدر ونبل الخلق .

ومن أبلغ ما دار بين المأمون و ابراهيم بن المهدي ما حدث الفضل بن طيفور .
« . . . » وقال المأمون ل ابراهيم حين صفح عنه : لو لم يكن في حق أبوتك حق
الصفح عن جرمك ، لبلغت ما أملت بتنصلك في لطف توصلك . وكان ابراهيم قال
له : إنه إن بلغ جرمي استحلال دمي ، فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغان عفوه .
ولي بعدهما شفعة الإقرار بالذنب ، وحق الأبوة بعد الأب . . . قال المأمون :
. . . لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو ما حمدوني عليه : ولا أنابوا من ذنوبهم .
فقال ابراهيم إما متمثلاً وإما مخترعاً :

أمير المؤمنين عفوت حتى كأن الناس ليس لهم ذنوب (٣)
وأضاف ابن العميد قوله : « . . . فقال له المأمون : إني شاورت في قتلك ،

(١) التاريخ الكبير ج ٢ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ . (٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ١٧٦

(٣) كتاب بغداد ج ٦ ص ١٩٥ .

ابراهيم بن المهدي : حياته السياسية

فأشاروا بقتلك ؛ إلا أنني وجدتُ قدرك فوق ذنبك ، فكرهتُ القتل^(١) .
وعاد إبراهيم إلى مجلس المأمون عزيزاً مكرماً ، فنادمه المأمون ولطفه .
ثم طلب إليه أن يغني ؛ فاعتذر بأنه نذر الله عند خلاصه نبذ الغناء . فألح عليه ،
و أمر بوضع العود في حجره فغنى :

هذا مقام مشرد خربت منازل ودوره

تمت عليه عداوته كذبا ، فعاقبه أميره

ثم أمر المأمون بإعادة ما حجزه له من الأموال والضياع والعقار والدور
والدواب ، كما أعاد مرتبته ، وأجازه بعشرة آلاف دينار فوراً ، وانصرف مكرماً
على خيل المأمون .

وهكذا أنقذ بيان إبراهيم بن المهدي حياته من القتل ، ويظهر ذلك على
كرم المأمون وسماحة طبعه ، وتقديره للأدب وأربابه . فلولا بلاغة إبراهيم
وسرعة خاطره ، وذلاقة لسانه ، وقوة حجته ، ومضاء عزيمته ، لبطش به
المأمون ، وجعله عبدة لسواه .

منير الحسامي

(١) تاريخ المسامير ص ١٣٦

من هُنا وَهُنا

مرقص الشانزليزيه

هذا الرقص التقليدي ، محاولة أن يحدث شيئاً جديداً وأن تنشئ ، موضوعات مبتكرة للرقص وخطوات لم يسبق إليها الراقصون من قبل . وهناك أسماء ستظل دائماً مقرونة إلى هذا الجهد الحصب في تجديد الرقص والخروج به عن أصوله المألوفة ، فالى جانب المرقص الروسى وجدت محاولات لوى فولير التى ابتدعت الرقص من وراء نقب تقبضها وتبسطها وتمدها وتردها عصا خفية . ووجدت كذلك محاولة أخرى للعودة أو لحياء الرقص اليونانى القديم ، يستعان على ذلك بما يرى مرسومًا على الآنية القديمة . وكانت إزادورا دونكان هى التى استأنفت هذه المحاولة . وقد حاول راقص روسى آخر بين الحربين سرج ليفاران يعرض على مسرح الأوبرا مذهبه الخاص فى هذا الفن الجميل ، فكان نجاحه الرائع السريع مصدر سطوع عظيم لمراقص الأوبرا كلها . ولكن هذا الراقص العظيم قد حيل بينه وبين إعجاب الباريسيين بعد تحرير فرنسا ، لأنه اتهم بالتعاون مع العدو فحرم عليه الظهور على مسارح باريس . منذ ذلك الوقت فتن جماعة من الشباب الفرنسيين هذه المرة بفن ترينسكورا إلهة الرقص عند اليونانيين وأخذوا يجمعون شملهم وينظمون عملهم تحت إشراف رولان بيتيه الذى لم يتجاوز بعد السابعة والعشرين من عمره ، وأخذوا يعرضون طائفة من المناظر الراقصة فى ملعب الشانزليزيه الذى تسموا باسمه . وقد عرضوا مناظرهم أخيراً فى لوندريه فظفروا عند نظارتها بفوز عظيم . ويظهر أن

حرصت باريس دائماً على أن تحتفظ بالرقص بالمنزلة الممتازة التى يستحقها ، لأنها تراه فناً رفيعاً كأخته الموسيقى وكأخيه التمثيل وكمه الأدب . وهو من أجل ذلك يلجأ إلى الأدب وإلى الشعر خاصة لينشئ له النص الذى يعتمد عليه ، كما يلجأ إلى اللحن والايقاع ليكونا شيئاً أكثر من الحركات والاشارات . وهو كالمأساة والملاحاة والدرامة محتاج إلى التصوير والعمارة والنحت والتخطيط والبدع — الموضحة — والاضاءة ، إذا أراد أن يظهر فى المناظر الملائمة ، وأن يكسو جسمه وأن يراه الراى فيعجب به .

ومن أجل ذلك رغب كبار الشعراء وكبار الملحنين وأصحاب الصوت البعيد من الفنانين فى أن يتعاونوا لينشئوا آية بديعة من آيات الرقص . فإذا تحققت هذه الشروط الدقيقة المسيرة وأعان بعضها بعضاً أتيح للنظارة أن يشهدوا مناظر فنية رائعة نادرة تخرج فيها لذة العين ولذة الأذن ولذة العقل والقلب . وهذا الانسجام الدقيق بين هذه اللذات هو الغاية الصحيحة للرقص .

ومنذ عرض سرج دى دياجيلف فى باريس قبيل الحرب العالمية الأولى للمرقص الروسى ballet russe وأظهر العالم على عبقرية نيجنسكى عنت العاصمة الفرنسية عناية متزايدة بفن الرقص . وليس من شك فى أن مسرح الأوبرا قد كان له رقصه التقليدى المقرر منذ وقت طويل ، ولكن أخذت حركة جديدة موازية تظهر فى أول القرن إلى جانب

وأيستهم لم يتح له ما أتيح لنيجنسكى من النبوغ ولا ما أتيح لسرج ليفار من التفوق ، وإنما هو فى أكبر الظن متقن لفنه ولكنه راقص غير ممتاز قد منح جسما جميلا حسن الاتساق فأتاح له ذلك رضا النظارة عنه وحبهم له . وهو مع ذلك قد أحسن اختيار الجوقة التى تعمل معه من الراقصين والراقصات ولا سيما جان بابليه وسولانج شوارتز . وبرنامج هذه الجوقة كثير متنوع ؛ فهى تتبكر موضوعات جديدة وتعرض بينها من حين إلى حين مناظر تقليدية قديمة كهذا المنظر المشهور شبح الورد الذى خلده نيجنسكى والذى يعرضه فى رقصة رائعة الشاب الحدث بابليه الذى لم يبلغ العشرين بعد ، والذى ينتمى إلى أب من كبار الأطباء فى باريس . وربما أخذ على رولان بيتيه وجوقته أنهم لا يعنون بالوحدة كما تنى بها المراقص الروسية ، وإنما يذهب به الإلهام مذاهب مختلفة متباينة بحيث يمكن أن يقال إن فى مراقصه إرضاء لكل ذوق . وهى خصلة يمكن أن تكون فى وقت واحد مزية وعيباً . فهو من هذه الناحية يكفل لنفسه جمهوراً ضخماً من النظارة ؛ لأنه يتيح لكل فرد ما يلائم ذوقه الخاص من المتاع ، ولكنه من أجل ذلك نفسه لا ينشئ لونهاً جديداً من الفن ولا يحدث ثورة حاسمة فى الرقص ، ولا يسبغ على مناظره من الخصائص ما يميزها تمييزاً دقيقاً من مراقص سرج ليفار مثلاً الذى هو أرسخ منه فى الفن قدماً وأشد منه للفن تعمقاً وأقدر على النهوض بما يقتضيه الفن من أعباء . فليس من الممكن إذن أن تدرس مراقص الشانزليزيه فى مجملتها ، وإنما يمكن أن تبين الخصائص التى يمتاز بها هذا الرقص أو هذه الراقصة . هذا الاقتصار إلى الوحدة وهذا التقصير فى تحقيق الملاءمة يلاحظ حتى فى ثنايا المنظر الواحد من مناظر الرقص حيث تصعب ملاحظة الوحدة فى الحركة ، وإن كانت وحدة

الزمان والمكان تظل مفروضة بحكم قوانين المسرح . وينتج عن ذلك الشعور بأن كل فرد من أفراد الجوقة إنما يأتى ليظهر ما يستطيع أن يعرض ، كما ينتج عن ذلك أيضاً أن النظارة لا يشهدون حركة اجتماعية ولا منظراً تشترك فيه الجوقة على أنها كل ، وإنما يشهدون ألعاباً رياضية فردية وتمارين شخصية . وهناك عيب آخر خطير لهذا المرقص وهو أن الموسيقى ليست على انسجام دائم ملحوظ مع الرقص . وإنما هى تعلق صوتية توشك أن تكون عقبة دون فهم الرمز الذى يقصد إليه الرقص . فإذا سجلنا هذه الملاحظة فيجب أن نحمد لمرقص الشانزليزيه مشاركته فى الجهد الذى يبذل لإظهار الجمهور على مذاهب الشعراء المعاصرين من أمثال جان كوكتو وجيل بريقت والملحنين المحدثين من أمثال جاك إيبر وهنرى سوجيت وعلى التجديد فى فن المناظر مما يبتكره أمثال مارى لورانسان وفاكشتش .

ولنختم هذه المجالة بكلمات تصار حول المنظر الأخير الذى عرضه مرقص الشانزليزيه منذ أيام ، وهو الشاب والموت . وهو عنوان كما ترى مستعار فى أكبر الظن من رباعية شوبرت : الفتاة والموت ، هذا المنظر يتصفه الشاعر جان كوكتو على رولان بيتيه منشىء الرقص وعلى الراقصين جان بابليه الفتى وتالى فيليبار الفتاة وعلى فاكشتش منشىء المنظر وهو يعرض مقترباً بموسيقى جوف سبستيان باخ . فى غرفة حقيرة على سطح دار من دور باريس ينتظر المصور عشيةته التى يهواها وهى تأتى ولكنها لا تظهر له حياً وإنما تظهر له أزدراء . وما تزال به حتى تغريه بالانتحار وتدفعه إليه ، ثم تمضى والفنى يقتل نفسه خنقاً . هنالك تنطير أجزاء الغرفة وإذا نحن على سطوح باريس أثناء الليل نرى من بعد برج إيفل ونرى فى كل مكان أضواء

من هنا وهناك

والحركة . فالوائد تنهار والكراسي تتحطم .
والفتاة تلطم الفتى وتكره وتشعل سيجارة
والفتى يضع يده على قلبه ويتمرغ على الأرض .
ويعضى المنظر على هذا النحو . والغريب أن
جان كوكتو كان قد أعلن إلى الصحف قبل
أن يعرض هذا المرقص أنه لا ينتظر له نجاحاً .
وكانت نتيجة هذا الاعلان أن الشعب الباريسي
أبى أن يتهم بالغباء ففتح المرقص فوزاً عظيماً .
أما النقد فأثر التحفظ . أيمكن أن يكون
تصريح كوكتو لوناً من ألوان الاعلان الذى
يريد ظاهره شيئاً ويريد باطنه شيئاً آخر ؟

مؤنس طه حسين

أيام للعربية في باريس

١ — كانت جلسة طيبة ممتعة منتجة
« لآخوان الصفا » ، المتعاونين على العلم
والفلسفة والحق ، بباريس بدار أستاذنا
الكبير ماسينيون ، نعمنا فيها أثناء تناول
الشاي والحلوى الشرقية بحديث من أحاديث
الدكتور ، فيه توجيه محمود لجماعتنا الناشئة
هنا ، بما أوضح وحدد من الغباية ، ورسم
من الطريق والمنهاج ، وذلك عصر الأربعاء
الخامس من مايو .

٢ — وكانت الخميس غداة هذا اليوم
يوماً مشهوداً من أيام مصر ، إذ دعا أستاذنا
وطلاب معهد الدراسات الإسلامية بكلية
الآداب بالسوربون صفوة من رجال العلم
والآداب لاستقبال غم تكريماً للدكتور
ولسماع محاضرة له عن خصائص الأدب العربى
الجاهلى .

وبعد أن افتتح الجلسة الأستاذ ليقى
بروفنسسال ، ألقى الدكتور محاضرتة القيمة
باللغة العربية ، التى حدد فيها خصائص هذا

تشب وتحمّد ، ثم يظهر الموت — يرى الفرنسيون
الموت دائماً فى شكل امرأة وتؤنث لغتهم —
مقنعاً قد اتخذ ثوب السهرة أحمر قانياً وهو
يدنو من الفتى ، حتى إذا بلغه نزع قناعه وقنع
به الشاب . فإذا نزع الموت قناعه تبين للنظارة
أن الموت ليس إلا هذه الفتاة التى كان
يعشقها المصور ، ثم هى تقوده من سطح
إلى سطح .

فى هذا المنظر أيضاً تنقطع الصلة بين
الموسيقا وبين هذا الرقص ، أو بعبارة أدق
هذا التخيل . فكل شئ يؤدى بالإشارة

لمصر منزلة رفيعة فى باريس ، ولأبنائها
مقام محمود وسمة طيبة لدى من يتصلون بهم
فى حياتهم العلمية وحياتهم الخاصة . وزاد
فى هذا وذاك وجود الأستاذ الكبير الدكتور
طه حسين بك بيننا فى عاصمة العلم والآداب
هذه الأيام ، فقد ارتفع فيها بفضل صوت
مصر والبلاد العربية عامة ، بما أقيم لحضرته
من الهيئات الرسمية والعلمية وأبناء العروبة
من استقبالات جمعت بين الجلال والجمال ،
وبما ألقى فيها من كلمات قيمة فيها الاشارة
بالعروبة والثقافة العربية بلسان العالم الثبت
الأديب ، وأسلوب لا يقال فيه أكثر من أنه
أسلوب الدكتور طه حسين !

ولست أشير فى هذه الكلمة إلا إلى
ما شهدته بنفسى ، وأجد هذه الاشارة واجباً
علينا لمصرنا والعروبة ، ونحن فى عاصمة كبيرة من
عواصم العرب دوى فيها صوت مصر والعربية ،
وسمعه الكثير من العلماء والأدباء ، أستاذنا
السوربون وغيرهم من رجالات فرنسا .

من هنا وهناك

العروبة جميعاً» ولتحرير الحياة العقلية العربية من قيودها الحاضرة، وبعث الشخصية العربية قوية جبارة رائعة بين باقي الشخصيات الانسانية». وهكذا قدر لهذا الشباب أن يبيت إلى مصر والعالم العربي في شخص الدكتور طه حسين بك آلامه، وأن يزجي إليه آماله.

وأخيراً تكلم الدكتور، وأفاض في الكلام من كل قلبه ومشاعره وعقله، عن مبدأ تعرفه إلى شمال إفريقية والأندلس، وعوامل حبه لمن أنجب هذا القطر من أقطار العالم العربي الاسلامي من علماء وأدباء ومؤرخين وفلاسفة على رأسهم ابن خلدون وابن حزم؛ وكيف أنه كان يفر إلى مؤلفات هذين في فورة شبابه وهو لا يزال طالباً بالأزهر، فيجد فيها متعة العقل والقلب! كما تحدث طويلاً عن فضل هذا القطر على العالم العربي كله، وعلى التفكير الانساني عامة، وعن غير هذا كله من الشؤون التي بعثت في أبناء هذا القطر أكبر الآمال وأقوى الغرائم، لبعث بلادهم من جديد، وإضافة الكثير من الابداع إلى مجدهم العظيم القديم.

ومن الطريف والقيم بالذكر هنا أن أشير إلى أن الدكتور، في حفل معهد الدراسات الاسلامية، لم يحمّد موقف المتنبي كشاعر بين القديم والجديد؛ إذ لم يرض لنفسه أن يكون محافظاً، وحاول التجديد فلم يأت بشيء. وكان بين الحضور المعجبين الأخ مصطفى كامل ياسين، وهو شاب نابّه من شباب العراق جاء إلى باريس لاستكمال دراسته للقانون؛ ويظهر أنه عتب على الدكتور في نفسه، حتى إذا كانت حفلة طلاب شمال إفريقية ألقى كلمة شعرية لطيفة ممتعة فيها هذه الآيات:

الأدب ومقوماته، وأبان ما يرجع منها إلى الموضوع وما يرجع إلى اللفظ، وخلص من ذلك إلى أن هذا الضرب من الشعر القديم يوجد في كل العصور، حتى العصر الحديث الذي نعيش فيه، بوجود هذه الخصائص في بعض نتاج كل عصر.

ثم كان بعد أن هدأت عاصفة تصفيق الحب والاعجاب، الشاي والحلوى التي قدمت بكرم عجبنا له ونحن في باريس هذه الأيام! وفي خلال تناول الشاي كانت كلمات الترحيب من مندوبي الطلاب العرب النابهين.

وانتهى الحفل ونحن نحس السرور والفخر يتمشيان في أعطافنا، لمحاضرة عن الأدب العربي، تلقى من عميده باللغة العربية في معهد من معاهد السوربون، وبين نخبة من رجاله أساتذته الفرنسيين!

٣ — أما يوم الخميس الثالث عشر من هذا الشهر مايو، الذي كانت أيامه أعياداً لنا هنا، فقد كان يوم شمال إفريقية والأندلس الذي لا ينسى. إن من الأمانى التي يحلم بها شباب شمال إفريقية الناهض أن يتصلوا اتصالاً مباشراً برجال النهضة في العلم والأدب في مصر والعالم العربي عامة، وقد حقق الله لفريق من هذا الشباب، الذين هاجروا من بلادهم إلى باريس في سبيل العلم والجهاد لتحرير أوطانهم العزيزة، أمنية من هذه الأمانى. لقد تفضل الدكتور وأجاب دعوتهم لحفلة شاي، فكان ذلك من جسّات باريس، كما أشار إليه رئيس نادى هؤلاء الطلاب وهو الأخ المهدى بن عبود وزميله الفاضل السيد محبوب بن ميلاد.

لقد تحدثنا عن العقاب الكؤود التي تحول بينهم وبين الاتصال بالعالم العربي، هذا الاتصال الذي يجب أن يكون دائماً خيراً

يا فتى النيل بعض واديك نيل زاهر الضفتين عذب المواسم
أدب كابتسامة الفجر تحضل (م) بأنفاسها ثغور الكائنات

من هنا وهناك

هو آمال أمة وتراث من رسالاتها بظلك سالم
وسواء بالفضل راية فتح خافق ظلها وآية عالم

يشتهى نقدك العراق وإن كان
ولذكراك تنثنى كوفة الجند
أو تنسى رسالة المتنبي
لست أدري وإن فتنت بآيا
أخيال من ابن عباد أم في
ن على آية العراقيين حاتم
د وتنسى معاهد ومعالم
وسراياه والطبا والمعلم
تك والسحر من بنائك ناجم
ض من الحق لا يرق للائم ؟

أنت يا ابن البيان وحى عصور
تنطوى صفحة الزمان وآيا
مشرق عهدها وفيض مكارم
مك ميمونة ومجدك دائم

تحدث الدكتور إلينا بالفرنسية هوصيا ناصحاً
بضرورة فهم الحياة بباريس فهما دقيقاً من
كل نواحيها وانهاز الفرص الكثيرة المتاحة
لنا لنصل إلى ما يجب من هذا كله ، وبذلك
تجننى مصر منا فيما بعد الكثير من الخير ؛
إلى غير ذلك من النصائح الحكيمة التي أمدته
بها تجاربه الطويلة ، والتي تنبعث من عقله وقلبه
لأبناءه المخلصين . كما شكر باسم المصريين ومصر
عامة ما يلقاه هنا أبناءها دائماً من حفاوة
باريس وجهاتها الرسمية ، وعناية الأساتذة
عناية شديدة خاصة ، تجمع بين عناية
الأستاذ والأب الحكيم .

وكان بين الحضور الذين تفضلوا بأجابة
دعوتنا من الأساتذة الفرنسيين ، الأساتذة
ماسينيون وبريسيه وليفى بروغنسال ،
وغيرهم من أساتذة السوربون ومعهد
الدراسات الإسلامية والكلوليج دي فرانس .
هكذا كان مقام الدكتور طه حسين بك
بيننا في باريس هذه الأيام ، عظيم الفضل محمود
الأثر بفضل الله على مصر والعروبة عامة .
ونسأل الله الهداية والرشاد .

وقد أعجب الدكتور بالشعر والشاعر
وقربه إليه وأخذ يسأله عن حاله ودراساته
هنا ، كما أعجب بذلك الحاضرون إعجاباً شديداً .
— وكان أخيراً ، بعد هذه الأيام
المشهوددة الخالدة ، أن تفضل الأستاذ الدكتور
بأجابة دعوة أبنائه المصريين إلى حفل يتحدث
فيه إليهم حديث الأستاذ لتلاميذه المخلصين
قبل أن يترك باريس إلى الوطن العزيز .
ودعى إلى هذا الحفل كثير من العلماء
والأدباء والأساتذة الفرنسيين ، وعدد كبير
يمثل البلاد العربية شرقها وغربها ؛ وكان ذلك
يوم الأربعاء ٢٦ من هذا الشهر ، في قاعة
الحفلات بالمنزل الدولي بالمدينة الجامعية .

وقد بدأت الحفلة بتقديم مندوب
Le centre d'accueil à Paris إلى
الدكتور وثيقة رسمية من مدينة باريس
فيها اعتراف بفضله وتقديره كصديق من
أصدقاء باريس ، ثم بكلمات طيبة من الإخوان
والأساتذة : القصاص والشاوي وعنبر ، ثم
أخيراً عزفت بعض قطع من الموسيقى الغربية .
وبعد كلمات الترحيب والشكر من الإخوان

محمد يوسف موسى

باريس في ٢٧ مايو ١٩٤٦

شريات

شهرية الاجتماع

أثر الحرب في الإجرام

والعقاب وهو العنصر الثالث من عناصر
الإجرام يظهر أثر الحرب واضحاً عليه في
تلك النظرة الحازمة التي توليها السلطة العامة
بعض الجرائم، وارتفاعها بدرجات العقاب في
بعض الحالات وبعض الظروف إلى درجة
غير متصورة في الظروف العادية .

وسنبداً بشرح أثر الحرب في المجرم
وسنحاول الوصول إلى ما وراء العرض الظاهر
لصانع الجريمة مقتفين دخيلة نفسه .

يصدر المجرم في جريمته عن بواعث تحركه
وعن بيئة اجتماعية تساعد في تكوين هذه
البواعث لديه . . . وفي الظروف العادية
تعمل البيئة عملها في تكوين البواعث الخاطئة .
فهذا شخص يولد في أحضان الفقر فتدفعه
الحاجة وأخلاق السوء إلى ألوان من الآثام
والجريمة . . . وهذا حدث من أقاصي الصعيد
يقتل والده وتعمل البيئة الحارة التي تغلي
بالانتقام عملها في نفسه . . . ويضج بشماته
الناس وتعييرهم ، فتنبو فكرة الانتقام عنده
وترعرع إلى أن ينفس عنها بالطريق الذي
يختاره ، وبذلك ينخرط في سلك المجرمين .

وفي الحرب تزداد البواعث الموجودة
أصلاً ، والتي تحرك الشخص لارتكاب الجريمة ،
جلاءً ووضوحاً وقوة . فطبيعة الطفرات
التي تلازم الحروب وترتفع بأشخاص من
الفقر إلى الغنى العريض ، هذه الطفرات الواسعة
تصلح حافزاً ضخماً لدى كثير من الأشخاص

تعتبر الحروب من الظروف التي تمر
بالمجتمعات فتغير من مجرى حياتها ومحدث
أثراً واضحاً في كافة اتجاهاتها الذهنية
ومقاييسها الاجتماعية . ومما لا شك فيه أن
الإجرام ، وهو ظاهرة اجتماعية أو على تعبير
البعض سنة كرمية ، يتأثر تأثراً واضحاً بالحروب
ويصطبغ بها بألوان متعددة . . . والإجرام
بناصريه يتكون من المجرم والجريمة ، ويضاف
لذلك عنصر ثالث هو العقاب ، وهو جواب
المجتمع على الخارجين عليه الكاسرين نواحيه .
والحرب في نيلها كل مظاهر الحياة بالتغيير
تنال الإجرام في عناصره آتفة الذكر ، فهي
تنال المجرم من ناحية بواعثه النفسية ومدى
قداسة المعايير الخلقية عنده ، وتناله أيضاً من
حيث نوعه وبيئته ، وفي نظرته إلى طائفة معينة
من الجرائم والفصل بينها وبين الخطيئة
والاستعانة بكل وسائل التبرير لإبعاد بعض
الجرائم عن دائرة الخطيئة .

وتتأثر الجريمة بالحروب ، فتنتطوي تلك
الظاهرة الاجتماعية تحت قانون العرض والطلب
كما ردد ذلك الفيلسوف تارد ، فتكثر
أنواع من الجرائم تقتضيها الظروف الطارئة ،
أو بتعبير آخر يشتد الطلب عليها ، وتصطبغ
أفعال ما كان يدور بخلد أحد أن تصطبغ
بصبغة الجريمة . ويلابس الجريمة بصفة عامة
صفة المبالغة في الأداء أو على الأقل الأداء
الاجماعي .

شهرية الاجتماع

فيه لو لم تسر الظروف على هذا النحو .
وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل إن
بيئة الحرب تغير من نظرة بعض الأشخاص
إلى المعايير الخلقية التي تواضع المجتمع عليها .
ومن مقتضى هذه المعايير إدخال طائفة من
الأفعال في عداد الجرائم . والملاحظ أن
الأخلاق تنهي عن الجريمة أيا كان لونها ، إما لأن
اقتراحها خطأ خلق في ذاته كالسرقة والاعتصاب ،
وإما لأنها مجافية — وإن لم تكن مجافاة
تامة — لقواعد الأخلاق كجرائم الإهمال ؛
فإن في ارتكابها تعريضاً للمركز الذي يحرص
الرجل المحترم على التمتع به في المجتمع . والحرب
تؤثر في هذا الوضع المريب الذي يحيط
بالجريمة ، فتكاد تخرج بها في نظر بعض
الأشخاص عن دائرة الخطيئة إلى دائرة
الأفعال المشروعة . ففرص الاغتناء الواسعة ،
وموجات الأموال التي تنفق بغير حساب ، وعمل
الظروف غير المفهوم في توزيع الأموال على
أشخاص دون آخرين ، وزيادة الاعتقاد أن
الحرب فرصة لا تعوز للاغتناء لا يكون وراء
تركها إلا الندم ، كل هذا يغلب في بعض
النفوس رغبة انتهاز الفرصة ، ويلبس الجريمة
ثوباً من أثواب المحاولات والكفاح في الحياة
لا أكثر ، وتحتفي تدريجياً بالمعايير الخلقية تحت
هذا الستار فيصبح الشخص المقدم على الجريمة
في نظر نفسه ليس أمام عمل مشروع أو غير
مشروع أو عمل ينال من مركزه الاجتماعي أو
لا ينال منه ، بل أمام اختيار الفقر أو الثنى ،
انتهاز الفرصة أو تركها ، ولا شأن للأخلاق في
هذا الموقف . . . ولا محل لرقابة الضمير . . .
ويندفع وراء هذا التصور الخاطئ مستعيناً
بكل وسائل التسوينغ إلى أن يصل
بينه وبين وجدانه ، إلى أن مهاراة الشخص في
انتهاز الفرصة وأن طعام الساعة هو عقل
الساعة . . . ولا تترك له بحلة الحرب الهوجاء
فرصة للتأمل والتدبر في أوهامه وأخطائه .

على ارتكاب جرائم الأموال وتوفر في نفوسهم
عنصر المقاومة التي قد يكون من نتائجها فيما
بينهم وبين أنفسهم استواؤهم على عرش المال
إن كفلت لهم حظوظهم النجاة من معقبات
فعلهم . فمثلاً في جرائم الأموال ، وهدف الشخص
فيها وقصده الأول الحصول على مال مملوك
للغير بطريق غير مشروع ، يزداد الدافع على
ارتكاب هذه الجرائم في أزمات الحرب
وضوحاً وقوة ، فيدفع المجرمين إلى اجتراح
مثل هذه الأفعال دفعا أشد عنفاً وأكثر جلاء
من أزمته السلم . وهذا ما ظهر فعلاً في عدد
من المجرمين ؛ فكثير من موظفي الحكومة
الذين كانوا في مدة الحرب يحتكون بحكم
عملهم بالتجار يرون بأعينهم الربح الذي ينعم
به هؤلاء فيعملون أذهانهم في مقارنات خاطئة
بين حالتهم وحالة هؤلاء المجدودين . وكثيراً ما
أنتجت هذه المقارنات لدى بعضهم بواعث
على الجريمة . فتولد حالة الموظف المالية
وما يتوقعه لنفسه من مستقبل تفس وما يرى
عليه التجار الذين أسعدهم الحظ ، كل هذا يولد
عنده رغبة حائرة عاجلة في الربح ، فيسعى نهماً
وراء المال ، ويشعر بجوع مادي هو أول
درجات الجريمة عند ضعف النفوس . وقد
وقعت طوائف متعددة من الموظفين في
المحظور بسبب هذا ، وأضيف إلى السجون
شباب يانع سلبته الرغبة الجامحة في الاغتناء
نعمة الحياة الشريفة . وفي غير دوائر الموظفين
كثيرون من ضعاف النفوس أذهلهم الغنى
المفاجيء الذي حل بغيرهم ، فتولدت عندهم
رغبة التسابق المندفع الذي لا يعرف الهوادة
ولا يعرف القيود ، خلقية كانت أو قانونية
أو اجتماعية . وولدت هذه الرغبة بدورها
باعثاً جامحاً على الاغتناء ولو كان عن طريق
الجريمة . فهذه الطفرات الواسعة التي ولدتها
الحروب تعتبر مسئولة شيئاً ما عن أشخاص
هديدن وقعوا في الجرم وما كانوا ليقعوا

شهرية الاجتماع

دائم اليقظة ، ويتحرى ما يهدد كيانه فينهي عنه ويوجب لأفعال التي يراها لازمة للمحافظة عليه . وأوقات الحروب أشد الأوقات تهديداً لسلامة المجتمع ، ومن ثم تزداد حساسيته فيرصد العقاب في أفعال متعددة أحس بخطورها واضحاً . والحرب التي مرت بنا أرتنا بوضوح ذلك الحرص وتلك اليقظة التي تلبس المجتمع في المحافظة على نفسه ، فقد نهى عن أفعال وهو لا يبغي من وراء نهيه إلا تلبية رد الفعل الجديد الذي وضعته فيه ظروف الحرب قهراً .

أحست الحكومات منذ البداية بأطماع الطامعين ، ورأت شبح الجوع والغلاء يهدد كيانه الشعوب ، ورأت الميزان يختل بين مختلف الطوائف ، ورأت توثب بعضها لبعض فاستجابت لذلك كله وأدخلت أفعالا معينة في باب المحرمات وقررت لها عقابا ، ووضع الاتجار تحت الرقابة وأقيمت له حدود اعتبرت مجافاتها جرماً ، وحرمت الأفعال الكثيرة لضمان تموين الشعوب وأخرى لضمان سلامة الدولة في أعمالها الحربية . وصفوة ما تقدم أن أفعالا كثيرة انسحب عليها ثوب التحريم بسبب الظروف الطارئة ، ومن ثم زاد عدد الجرائم زيادة ملحوظة .

وفيما عدا الجرائم التي نشأت لأول مرة بسبب الحرب ، فقد اختل التوازن اختلالا واضحا بين الجرائم المحرمة أصلا في زمن السلم . فبينما دعت ظروف الحرب إلى زيادة نوع معين من الجرائم بقيت أنواع أخرى في حدودها الطبيعية . ويصح أن نستهدى هنا بنظرية الفيلسوف تارد في إخضاع الاجرام لقانون العرض والطلب ؛ فقد اقتضت ظروف الحروب وتجمع الجند في المدن لقضاء فراغهم والتماسهم الراحة عن طريق اللهو وعدم اطمئنانهم على حياتهم ، مما يقلل حرصهم على المال . . . اقتضى كل ذلك زيادة عدد الجرائم الخلقية

في إحدى القضايا سئلت فتاة اندفعت في تيار الفساد عن حياتها قبل الوقوع في الرذيلة فأجابت بأنها كانت خادمة . ولما سئلت عن سبب إشارتها عملها الجديد على القديم وهو يمتاز بطهارة المسلك ، أجابت بأنها خرجت من المقارنة بين الماضي والحاضر إلى أن في الحاضر يسراً وسهولة في سبل الرزق ، ويسراً وسهولة في تجميع المال . وتقويت مثل هذه الفرصة قد يدعو إلى ندم العمر كله . وظهر أيضاً أن بعض الموظفين الذين انزلوا إلى الرشوة كان يساورهم شعور خفي أن فعلهم هذا لم يكن إلا إقامة للعدل بينهم وبين غيرهم من المجدودين بسبب الحرب ، وإصلاحا للتوزيع الذي قامت به المصادفات بغير حساب ، وهي علة مفهومة في نظرهم . بل إن كثيراً من الذين اقتطعت منهم مبالغ الرشوة ليذكرون أن هؤلاء الموظفين كانوا يصرحون لهم بذلك دون مواربة ، موضحين أنه ليس غريباً ولا نائياً أن يخصهم شيء مما ينالون من أموال طائلة . ومن ذلك يبدو مقدار تأثير المعايير الخلقية بالحروب ، ومقدار مزاحمة الفرص البراقة ، وهي كثيرة جداً في زمن الحرب ، للاثرائ الخلق ، ومقدار تداعى مبادئ الأخلاق أمام رغبة جمع المال .

هذا هو أثر الحرب في صانعي الجريمة ، وهذا هو المدى الذي يتأثر به المجرم . وأما أثر الحرب في الجريمة فيتعين أن نبدأ قبل الكلام عنه بتعريف الجريمة :

يعرف رجال القانون الجريمة بأنها كل فعل أو امتناع يقرر له القانون عقاباً . . . والمفهوم بداهة أن القانون عندما ينهى عن فعل أو امتناع يستهدف في ذلك مقتضيات الزمان والمكان ، فما يعتبر محرماً في وقت من الأوقات أو ظرف من الظروف قد لا يعتبر كذلك في وقت آخر أو مناسبة أخرى . والمجتمع بحكم غريزته في المحافظة على نفسه

شهرية الاجتماع

بهذه الصبغة ، ففى تتخذ شكلا منظما توحى به عقلية الحرب والميدان ، تنتظم العصابات للسرقات وللنهب ولا يتأز الأموال بالطرق غير المشروعة ومجمع هذه العصابات وتنظيمها يؤدى بها إلى شئ من الثقة والجرأة ، ومن ثم تنشأ الجريمة التى تؤدى بشكل إجماعى عنيف .

هذا هو أثر الحرب فى الجريمة ، وهذا هو اللون الذى تصطبغ به . أما أثر الحرب فى العقاب ، وهو العنصر الثالث من عناصر الاجرام كما سبق أن أوضحنا ، فيمكن تلخيصه فى زيادة حساسية المجتمع فى الحفاظ على نفسه فيصدر من العقوبات ما يكون رد فعل للعنف الذى يبدو من المجرم والاتساع فى الجريمة . فالأثر عبارة عن عنف يقابل عنفا وشدة تقابل شدة . ومن ثم ترتفع العقوبات ويوجد القضاء العسكرى بأجراءاته الصارمة وشدة أخذه للجناة . وما هذا كله إلا كما أوضحنا استجابة للظرف الجديد ، ظرف المبالغة والجنون فى كل شئ . هذا هو أثر الحرب فى الاجرام أحد مظاهر الحياة الاجتماعية ، وهو كما أوضحنا اندفاع من المجرم إلى آخر مدى تطيقه إرادته الاجرامية مع تبرير ومغالطة ترمى إلى تسويغ الجريمة ، واتساع واختلال فى ميزان العمل الخاطيء ، وبتظة وحرص واستجابة من جانب الحكومات لهذه الدواعى التى تهدد كيانها .

وجرائم الأموال زيادة فاحشة . فوسائل تصيد المال ميسورة بالطرق غير المشروعة ، فقام هيكل ضخم من جرائم متعددة هدفها الأول ابتزاز أموال هؤلاء الجنود . وفى هذا الهيكل زادت الجرائم الخلقية وجرائم السرقة زيادة ملحوظة ودعا تجمع الجيوش وكثرة ما تنفقه وانتشار الجنود وقضاؤهم حاجاتهم وكونهم جنودا إلى حرص التاجر وجشعه فكثرت جرائم غش البضائع . ومجرد مطالعة الاحصائيات الرسمية يؤيد ما سبق أن ذكرنا من اختلال موازين الجرائم وازدياد بعضها ازديادا واضحا .

والحرب تعتبر بيئة صالحة لنوع من الجريمة يستتر دائما تحت ستار البطولة ، وهو الجريمة التى توجه ضد الدولة والتى تصطبغ بصبغة للغامرة التى يقوم بها المغامرون الطامحون . فجرائم الخيانة وجرائم الاتصال بدول الأعداء والمراهنة الايجابية العملية على مصاير الدول ، كل هذه الأفعال تظهر غالبا فى أيام الحروب ويقوم بها أشخاص تضيق صدورهم بالمطامع الواسعة والآمال العريضة ، وهم فى الغالب من الطوائف الممتازة ذهنيا لكن شدة أثرهم هى التى تدفعهم إلى سلوك هذا السبيل .

وهناك أثر للحروب ينسحب على الجريمة بصفة عامة . فالعنف والتنظيم الذى يلبس الحرب يصبغ الحياة كلها ، ومن بينها الجريمة ،

احمد مختار قطب

شهرية السياسة الدولية

بل شهرية وزراء الخارجية

وقد خشي في بعض الأحيان أن يموء المؤتمر بالاخفاق وأن تحمل العالم كارثة ، إن لم تكن هي كارثة حرب عالمية ثالثة ، فهي على كل حال كارثة قطع العلاقات الدبلوماسية أو وقفها أو توترها بين الكتلتين السلافية والانجلوسكسونية . لكن كتبت السلامة آخر الأمر للمؤتمر وتوجت أعماله بالنجاح ، ودعى مؤتمر الصلح إلى الانعقاد في التاسع والعشرين من شهر يولييه يضم الاحدى والعشرين دولة التي كان قد تم التفاهم في اجتماع من اجتماعات « الأقطاب الثلاثة » رؤساء المملكة المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، على قصر الدعوة عليهن ، وإن كانت مصر وإيران والعراق قد تقدمت بطلبات لحضوره ، وهن قد بذلن أثناء الحرب بالنسبة لطاقتهن ما يعتبرنه مساهمة فعالة فيها .

كان مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة المنعقد بباريس هو الشاغل بال المعقنين على الشؤون الدولية طوال الشهر المنقضى ، وقد بدأ في الخامس عشر من شهر يونيه وانتهى في الخامس عشر من يولييه . وكان جدول أعماله متضمناً معاهدات الصلح مع إيطاليا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندا ، كما كان متضمناً العرض قدر المستطاع لمعاهدة الصلح مع النمسا ولشؤون ألمانيا . وقد تراوح جو المؤتمر بالنسبة لأعضائه وبالنسبة للمتتبعين أعماله بين التفاؤل والتشاؤم ، وكان هذا التراوح يتمشى في عموميه مع المواقف التي كان يقفها الرفيق مولوتوف وزير الخارجية السوفيتية من زملائه وزراء بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وفرنسا ، بل من زميليه وزيري إنجلترا وأمريكا وحدهما ، تساهلاً أو تشدداً .

تريستا والمستعمرات الإيطالية

ويكون له حاكم يعينه مجلس الأمن بهيئة الأمم المتحدة بعد استشارة إيطاليا ويوجوسلافيا ويكون مسئولاً أمامه بالذات . وهذا إلى تحديد التخوم بين إيطاليا ويوجوسلافيا بالخط المسمى « الخط الفرنسي » — ومنسوب فرنسا هو الذي اقترحه — تحديداً يقضى على كثير من أسباب النزاع في تلك المنطقة التي تقطن فيها جنسيات مختلفة إيطالية وسلافية وكرواتية ونمساوية ومجرية أيضاً . لكن هذا الحل لم يرض الإيطاليين ولم يرض

وكانت المسألتان الشائكتان خلال معاهدة الصلح الإيطالية هما مسألة تريستا ومسألة المستعمرات الأفريقية . أما جزر الدوديكانيز فقد تقرر بالاجماع عودتها إلى اليونان . ووجه الصعوبة في مسألة تريستا أن إيطاليا تعتبرها إيطالية فتريد استبقاءها في حظيرتها ، وأن يوجوسلافيا تعتبرها يوجوسلافية فتريد ضمها إليها . وقد انتهى الأمر بشأنها إلى اعتبار منطقتها « إقليمياً حراً » يحظى بنظامه البرلماني الخاص المستند إلى مبدأ الانتخاب العام

شهرية السياسة الدولية

الاحتفاظ لكل من اصحاب الشأن بوجهة نظره .
وبريتانيا العظمى تود أن تكون برقة بين
مناطق النفوذ البريتاني ، والاتحاد السوفيتي .
يطالب بالمساهمة في الوصاية على طرابلس وعلى
أريتريا ، وإيطاليا تسترحم كي تعود إلى طرابلس .
ويحظى استرحامها بتأييد الولايات المتحدة .
وانجلترا تود لو خلقت الصومال الكبير من
الصومال البريتاني والصومال الايتالي
والصومال الفرنسي تحت وصايتها ، وأهل
أريتريا يطالبون بالانضمام إلى الحبشة ،
وإمبراطور الحبشة يطالب بمنفذ لبلاده إلى
البحر . ومصر لا تريد أن تعاودها أزمة
الاعتداء على حدودها الغربية والتوغل من
ناحيتها في أراضيها المستقلة ، والجامعة العربية
تود لو تحظى طرابلس الغرب — وهي من
بلاد العربية — باستفتاء أهلها جميعاً كي
يقرروا ما يريدون لأنفسهم من مصير .

اليوجوسلافين ، فأعلن الايتاليون الحداد إذ
فقدوا « تريستا » واحتجت حكومتهم
الجديدة بل أعلنت خيبة أملها في « العدالة
الدولية » . وقامت حكومة بلغراد تعلن عدم
رضائها عن قرار الأربعة الوزراء ، كما قام
السلافيون من سكان الاقليم بمحاولون الاقدام
على حركة فعالة ، فقامت السلطات الاميركية
بدعم قواتها العسكرية فيها .

وأما المستعمرات الافريقية فقد انتهى
المؤتمر إلى تقرير تأجيل البت في مصيرها إلى
ما بعد انقضاء عام على إبرام معاهدة الصلح
الايتالية ، ولكن مع تحديد الأوضاع التي
يتم على مقتضاها مصير تلك المستعمرات . وهي
أوضاع الاستقلال أو الوصاية أو الادماج
في أقاليم مجاورة مع اعتبار الوعد الذي قطعه
بريتانيا العظمى للسيد السنوسي ألا يعود
النفوذ الايتالي إلى برقة بحال . ومعنى هذا
إبقاء المشكلة كلها معلقة إلى وقت أنسب مع

الحدود الفرنسية الايتالية

عدة من السنين ، كما ادخلت محطات كبيرة
لتوليد الكهرباء بفعل سقوط المياه من الجبال
توفر لفرنسا الكثير من الوقود الذي يحتاج
إليه صناعاتها في تلك المنطقة من مناطق
جنوبها الشرقي .

كذلك تم تفاهم وزراء الخارجية الأربعة
على تعديل الحدود الجديدة بين إيطاليا
وفرنسا ، فأدخلت في الجمهورية الفرنسية بلاداً
ظل أهلها يتكلمون الفرنسية على الرغم من
ضمهم إلى إيطاليا وبقائهم تابعين لها عشرات

التعويضات

المفاجيء من رزايا ، فانهى الرأي إلى قبول
وجهة النظر الروسية في الحالين ، وإن كانت
قد اكتفت هي بأن يكون نصيبها من التعويضات
أنواعاً من الانتاج الايتالي لا نقداً مراعاة
لضائقة إيطاليا المالية .

كما تم التفاهم على التعويضات التي فرضت
على إيطاليا ، وهي الدولة المنضمة إلى ألمانيا
في الاعتداء . وكانت روسيا تستمسك بنصيبها
في تلك التعويضات كما كانت تستمسك بتعويض
اليونان على ما أنزل بها الاعتداء الايتالي

شهرية السياسة الدولية

الملاحه فى الدانوب

وكان تنظيم الملاحه فى الدانوب من أو كانت حرية الملاحه فيه — محل تدافع فى مؤتمر وزراء الخارجيه ، لكن الامر انتهى إلى تغليب منطق الاشياء وتقررت هذه الحرية تحت إشراف الدول التى يجتازها النهر الأوروبى العتيده . وبهذا سهلت الموافقة على معاهدات الصلح مع رومانيا وبلغاريا والمجر ، وسهل التفاهم على سحب القوات السوفيتيه منها فى نفس المدى الذى تم التفاهم على سحب القوات الاميريكيه والبريتانيه فيه من الاراضى الايتاليه ، وهو مدى تسعين يوماً بعد التوقيع على معاهدات الصلح .

معاهده فنلندا

وكذلك أقر المؤتمر معاهده الصلح مع فنلندا — أو مشروعها — وهى التى تبنى روسيا قبل غيرها وإن كانت انجلترا قد ساهمت فيها كذلك بخلاف فرنسا وأمريكا ، إذ لم تكونا محاربتين لفنلندا .

ألمانيا والنمسا

ولم يستطع الوزراء الأربعة أن يصلوا إلى تفاهم على شؤون ألمانيا والنمسا ، فأجلوا بحثها إلى اجتماع آخر ، على الرغم من احتجاج فرنسا التى كانت تود الانتهاء إلى تقرير نظام دولى لمنطقه الرور الغنيه بفحمها يكرن لما فيه مقام خاص . وقد كان للرفيق مولوتوف فى هذا الصدد تصريح لم يرض الفرنسيين ؛ إذ عارض فيه مبدأ تقسيم ألمانيا وأيد فكرة الإبقاء عليها دولة موحدة ، وإن كانت محاولات تبذل فى سبيل عدول روسيا عن اتجاهها الذى أعلنه وزير خارجيتها فى تصريحه .

شئ من التفاؤل

ومهما يكن من شئ فقد غلب التفاؤل على أمر مؤتمر وزراء الخارجيه فى نفوس للمعقبين الدبلوماسيين ، وقد تجسم هذا التفاؤل بمخاصة فى خطاب أذاعه مستر بيرنز وزير خارجيه الولايات المتحدة فى السادس عشر من يولييه بمجرد عودته إلى واشنطن من باريس

بعد انقضاء أعمال المؤتمر ، وقد أعرب فيه عن عظيم سروره ؛ إذ توجت جهوده وجهود زملائه فى سبيل تنسيق وجهات نظر الدول العظمى بالنجاح ، كما أعرب عن كبير أمله فى انسجام الاتجاهات بينهن فى مستقبل الأيام .

محمد عزمى

شهرية السينما

الجوهرة السوداء (أفلام مينرفا) (١)

يتردد الزوج طويلا في إحراق هذه الخطابات ، وأخيراً يلقيها في النار . وإذ يتأملها وهي تذوب في اللهب يقع بصره على هذه الجملة في نهاية أحد الخطابات : « إن ابنتنا لا تعرف أباهما الحقيقي » . فيعتقد أن لامرأته عشيقاً ، وأن تلك الطفلة التي أحبها ودللها ليست ابنته بل ابنة غريمه . فينفر منها ويتعد عنها ويهجر القصر ويحيا في باريس حياة لهُو وعريضة . أما الابنة فتتلاقى من العذاب ألوانا ، فهي تسعة منذ وفاة أمها لأن مربيته تريد أن تحل مكان والدتها في المنزل وأن تبعدها عن القصر حتى تتمكن من مغازلة الأب والزواج به . والطفلة تكافح في سبيل إحباط هذه المؤامرة ، حتى تضطر المريية أن تدخلها إحدى المدارس الدينية التي تديرها الراهبات . وهنا تتاح الفرصة للمريية أن تنصب شراكها لرب الدار وتحمله على الزواج بها ، ولكنه يرجيء هذا الزواج . وتعلم الفتاة بكل ما يحدث بين والدها ومربيته فتزهد في الحياة وتعزم على دخول الدير . وأخيراً يعلم الوالد من إحدى صديقات زوجته أن الخطابات التي أحرقها لم تكن خطابات زوجته بل خطابات تلك الصديقة . فيتحقق حينئذ أن الطفلة ابنته وأنه باعراضه عنها لم يثر إلا بغضها له وزهدها في الحياة ، فيحاول أن يصلح خطأه . ويعاونه في تلك المهمة الشاقة أحد أصدقائه . ويقع هذا الصديق في شرك الحب للفتاة ، ولكن سرعان ما يتضح له أن

يخيل إلى مشاهد هذا الفيلم أن الجوهرة السوداء التي يحمل الفيلم اسمها ، تلعب دوراً مهماً فيه . وما تكاد تجرى حوادث القصة حتى نعلم أنها ليست ذات خطر وأن المؤلف لم يطلق هذا الاسم على قصته إلا لما فيه من غرابة . فالجمهور حين تحدته عن جوهرة يتخيل في الحال حجراً كريماً براقاً ، ولا يتبادر إلى ذهنه أن ثمة جواهر سوداء نادرة الوجود . فالجوهرة السوداء في نفسها شيء فريد يثير الإعجاب لندرته ، فما بالك وهذا الاسم يطلق على قصة سينمائية ! فالمشاهد يسعى إلى دار العرض لاشباع فضوله الذي أثاره هذا الاسم الغريب ، ولكن سرعان ما يخيب ظنه ، فالفيلم ليس فيه من جمال إلا عنوانه ، وربما كان تمثيله أيضاً .

اعتزم المسيو متری ، وهو مدير أحد البنوك الكبيرة في باريس ، أن يلحق بامرأته وطفلته على الساحل الجنوبي من فرنسا بمناسبة عيد الميلاد مع الأسرة ، ولكنه عند وصول الطائرة إلى المطار لا يجد في انتظاره إلا طفلته ومربيته . كانت امرأته قد برحت القصر ذاهبة إلى طولون لا مريجهله زوجها ، ولم تعد من رحلتها في الوقت المناسب لمقابلة زوجها . ويطول انتظار الزوج لزوجته ، ثم يعلم أنها لقيت حتفها في حادث سيارة . ويعيد النبؤليس إليه ما وجدته مع الفقيدة في السيارة . ومن بين هذه الأشياء عدة خطابات كتب على غلافها الخارجي هذه الجملة المثيرة : « تحرق عند وفاتي » .

شهرية السينما

في مجرى حوادثه حتى يحمل الفيلم اسمها ؟
وقد قام بدور الوالد المسيو شارل قانيل،
وهو ممثل قدير نجح أتم النجاح في تمثيله .
فهو لا يلجأ مطلقاً إلى العنف في التعبير عن
شعوره مكتفياً بنظرة أو بإيماءة ليعبر عن
الحزن أو الغيرة أو الغضب . وقد تؤاخذ
على اتباعه أحياناً أسلوباً مسرحياً في أداء
دوره ، ومع ذلك فلا يسعنا إلا الثناء عليه
لتمثيله البارع .

ومدام جابي مورلي بالرغم من كبر سنها
الذي لم يخفها الماكياج في هذا الفيلم ، فإنها لم
تغير من أسلوبها الفني في القيام بدور المربية .
وقد أتقنت الأداء إتقاناً يستحق هذا الإعجاب
الذي نالته دائماً . فهي لا تتقن فناً واحداً ،
وإنما تجيد تمثيل الدراما بقدر ما تتقن تمثيل
الأدوار الهزلية . وحسبنا هذا ليكون دليلاً
على كفايتها الفنية الفاتنة .

ورغم ضآلة الفيلم من حيث القصة فهو
يعد إنتاجاً حسناً إلى جانب تلك الأفلام
المتخاذلة التي تعرض علينا أثناء الموسم الصيفي
في مصر .

الفتاة لا تحبه ، وإنما هي في كلف شديد
بشباب في البحرية كان رفيق طفولتها . فلا
يمانع الوالد من زواج ابنته بمن تحب .
والقصة ، وقد استوفت حوادثها ، لا تنتهي
إلى هذا الحد من المفاجآت العجيبة ، بل يضيف
لنؤلف إليها حادثاً مفاجئاً آخر وهو إعلان
الحرب وانفصال العاشقين الصغيرين .

ونحن نجد أن القصة في بداءتها متقنة تمام
الاتقان في دراستها للشخصيات وفي ترتيب
حوادثها ، حتى يلجأ المؤلف إلى المفاجآت التي تغير
مجرى الرواية ، مثل ظهور شخصية صديقة
الزوجة واعترافها المفاجيء للزوج بأن الخطابات
الغرامية هي خطاباتنا ، وأنها قد أعطتها لصديقها
لتعيدها إلى عشيقها . ويسائل المشاهد
ما الذي حمل هذه العشيقة على تسليم تلك
الخطابات إلى صديقها مع أن في إمكانها هي
أن تعيد بنفسها هذه الخطابات إلى عشيقها ؟
ويسائل كذلك : ما أهمية إعلان الحرب في
نهاية الرواية ، وما الدافع إلى هذا التطويل
ويسائل أخيراً : ما الدور الذي لعبته
الجوهرة السوداء في الفيلم ، وما أهميتها

الساحبات الفاتنات (مترو جلدوين ماير) (١)

إقصاؤه عن محبوبته ، فيفرغ لعملة وهو
التلحين . ولكن الفتى ينصرف عن كل شيء
إلا عن إرضاء زوجته واسترداد حبها .
ولم تكن القصة محور الفيلم ، فحوادثها
قليلة جداً على حين كثرت خلال تلك الحوادث
المناظر الراقصة والموسيقى الشجية
والاستعراضات الرائعة في حمام السباحة .
وثمة عنصران احتلا المسكناة الأولى في الفيلم :
عنصر الفكاهة وعنصر الرقص . وكان الممثل

و «الساحبات الفاتنات» من الأفلام
الاستعراضية الملونة ، فيه من المناظر الخلابة
والمواقف المضحكة الفكاهة ما جعله يحتل دار
العرض منذ أربعة أسابيع .
والقصة هنا معدومة تماماً ، أو قل إن شئت
إنها قليلة الشأن : شاب تزوج بفتاة رائعة
الجمال ولكن بعد مراسم الزواج انفصلا
لأنه نوى إلى الزوجة أن فتاهامتزوج ، ولم يكن
هذا صحيحاً ، وإنما كانت وشاية أريد بها

خلافة تسر العين ، لا نرى فيها ما يستحق الذكر إلا الاستعراض الأخير الذي قامت به فتيات شركة مترو جلدوين ماير في حوض السباحة ، وقد كان استعراضاً فريداً في نوعه ؛ فلم نر قبل منظر الرقص المائي ، إن صح هذا التعبير عن هذا الاستعراض ؛ فقد استعاضت الراقصات عن حركات الأقدام بحركات أذرعهن وهن يسبحن في الماء على نغم القالس . وكانت الراقصات على أتم ما تكون الحركة انسجاماً ، وهن يظهرن في أوضاع مختلفة تشمل تارة أهراما ، وتمثل تارة زهرات .

وقد أتى المخرج في آخر المنظر بما يشوّه تشويهاً بغيضاً ، وذلك بنوافير الماء والنار التي انبثقت فجأة من حوض السباحة . والذي أراه أنه أتى بهذه الأشياء ليؤلف منها صورة الستار وهو يسدل على الرواية حين تنتهي . أما الاستعراضات الأخرى فلمست أرى فيها ما يجعل الحديث عنها مستساغاً .

أما موسيقا الفيلم فقد كانت مزيجاً من القالس والسوينج وموسيقا أمريكا الجنوبية . وقامت بأداء هذه الألحان فرقتان موسيقيتان ، يقود الأولى منهما كسافييه كوجيت وهو من ملحنى الرومبا المشهورين ؛ ويقود الأخرى هارى جيمس من أحسن ملحنى السوينج . وساهمت بنجاح كبير هيلين فوريسيت العازفة على الأرغن ، مهارتها في العزف على هذه الآلة تدعو إلى الإعجاب والتقدير .

والفيلم فوق ذلك كله غني بالمناظر الجميلة وبالألوان الطبيعية الخلافة وملابس الراقصات المنسجمة التي تدل على أن الذوق في أمريكا قد أخذ يرتقي شيئاً ما . وقد يأتي يوم نرى فيه الذوق الأمريكى يضارع الذوق الفرنسى في اختيار الملابس وألوانها .

الهزلى رد سكتون يتعهد العنصر الهزلى ، وقد أثبت منذ أمد بعيد أنه فاق الممثلين الأمريكيين الهزليين أمثال لوريل وهاردى وإدى كاتنور وإخوان ماركس من حيث تعمقه النفس الانسانية وإظهار عيوبها في صورة مضحكة . وهو لا يلجأ إلى عناصر خارجية لاثارة الضحك مثل لوريل وهاردى ، ولكنه يعنى بإبراز الناحية الهزلية في عاداتنا وأخلاقنا ، معتمداً في ذلك على إيماءاته وتعبيرات وجهه . وأذكر له تمثيل شخصية الخجول في أحد الأفلام الاستعراضية الماضية ؛ فقد مثل في شيء من المبالغة المضحكة كل ما يأتي به الخجول من حركات وما يبدو عليه من اضطراب حين يكون بين يدي فتاة جميلة . وأذكر له أيضاً في « السابحات الفاتنات » هذا الموقف العجيب الذي يحاكي فيه ما تفعله المرأة عند استيقاظها في الصباح . ومع أنه لا توجد الأشياء اللازمة لهذا المنظر من الأكسسوار مثل المساحيق والملابس النسوية ، فقد أخذ يمثله في إتقان تام . فهو بحركات أصابعه يفهم المشاهد أنه يتناول « البودرة » و « أحمر الشفاه » و « أحمر الخد » الخ من المساحيق التي تستعملها النساء في التجميل . وهو على إحاطة تامة بتفاصيل هذا التجميل ، فلم يهمل منها شيئاً من تصفيف الشعر إلى ارتداء الملابس الداخلية والجوارب . وأعتقد أن ممثلاً يجد المادة الهزلية في حركاته المبتكرة المفاجئة دون أن يحتاج إلى أن يستمد هذه المادة من الأشياء التي تحيط به أو المفارقات المضحكة أو النكات الموضوعة ، أعتقد أن هذا الممثل جدير بالإعجاب لهذا الفن الرفيع .

والعنصر الثانى فى الفيلم هو عنصر الاستعراض . ومما يؤسف له أن هذه الاستعراضات التى توالى فى الفيلم فى مناظر

من كتب الشرق والغرب

نقد النثر

ألفه قدامة في سنة عشرين وثلثمائة

كان قدامة بن جعفر البغدادي ناقدًا ، ملتهب الخاطر ، غزير المادة ، جيد الفطنة ، منظم الفكرة ، يقرأ الكتب بعين النقد يسائل نفسه : هل أحاطت هذه الكتب بموضوعها أم لم تحط ؟ فإن وجدها كما يجب ويشتهي طاب بذلك نفسا ، وإن لم يجدها وفق ما يريد أنبرى للتأليف فيما قصرت فيه ليتم النقص الذي لحظه . كما فعل حين ألف نقد الشعر . فقد رأى المؤلفين قبله قد استقصوا بيان العروض والقوافي ، وشرح الألفاظ الغريبة ، والمسائل النحوية ، وأفاضوا القول في معاني الشعر ومقاصد الشعراء ، ولكنه لم يجد أحدا تصدى للتأليف في نقد الشعر ، وبيان جيده من رديئه ، مع أن التأليف في هذا الفن أولى وأجدى « فإن الناس يخطئون في ذلك منذ تفقهوا في العلوم ، وقليل ما يصيبون . » (١) ولما وجد الأمر كذلك وضع كتابه نقد الشعر .

وكان قدامة مولعا بالنظام أشد الولع وأعنفه ، يأخذ به نفسه في كل ما يكتب وما يؤلف . ومن ثم كان يضيق أشد الضيق بكل كتاب يجيد عن جادة النظام ، ويندفع إلى معارضته بكتاب منظم دقيق يوتق أبصار الناظرين ، ويروق بصائر المتوسمين . قرأ قدامة كتاب « الألفاظ الكتابية » لعبد الرحمن بن عيسى الهمداني المتوفى سنة ٣٢٠ هـ

فلم يرق في نظره ؛ لأن الهمداني في إيراد الألفاظ لم يعن باستقامة وزن الكلمات المتعاقبة ، ولا باتساق السجعات المتقاربة ، فعارضه بكتاب « جواهر الألفاظ » . وكذلك قرأ قدامة كتاب « البيان والتبيين » لأبي عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فوجده لا يستحق هذا الاسم الخلاب ؛ لأن الجاحظ « لم يأت فيه بوصف البيان ، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان ، وإنما ذكر فيه أخبارا منتخلة ، وخطبا منتخبة » (٢) فعارضه بكتاب أسماء كتاب « البيان » ذكر فيه كما يقول : « جملا من أقسام البيان ، آتية على أكثر أصوله ، محيطة بمجاهير فصوله ، يعرف بها المبتدى معانيه ، ويستغنى بها الناظر فيه . لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكني شرحت في بعض قولي ما أجملوه ، واختصرت في بعض ذلك ما أطالوه ، وأوضحته في كثير منه ما أوعروه ، وجمعت في مواضع منه ما فرقوه ؛ ليخفف بالاختصار حفظه ، ويقرب بالجمع والايضاح فهمه . » (٣) ألف قدامة كتاب « البيان » هذا في سنة عشرين وثلثمائة وعرضه على الوزير العالم علي بن عيسى فقراه وأعجب به كما أعجب به كبار النقاد في عصره ، فشهدوا له بالاجادة والاحسان والتفرد في وصف فنون البلاغة بما لم يشركه فيه أحد وشبهوا عمله في هذا الكتاب بوضع الخليل

(١) نقد الشعر ص ٥ . (٢) نقد النثر ص ٣ . (٣) نقد النثر ص ٥ .

ابن أحمد الفراهيدي لعلم العروض . وانتشر الكتاب ، وسارت نسخه إلى بلاد المغرب ، ثم عبرت البحر إلى الأندلس . . . ودار الزمن دورته ، وبادت كتب قدامة الكثيرة فيما باد من كتب السلف في تلك المحن المعروفة ، ولم يبق من كتبه غير « نقد الشعر » و« جواهر الألفاظ » و« الحراج » ونسخة وحيدة من كتاب البيان كانت في ملك عالم نحوي أندلسي وهو أبو عبد الله محمد بن أيوب بن محمد النافق البلسي (٥٣٦ هـ - ٦٠٨ هـ) (١) . وهذه النسخة محفوظة في مكتبة الأسكوريال . وقد كتب على صفحتها الأولى هذه العبارة : « كتاب نقد النثر مما عني به أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي رضي الله عنه وأرضاه . للشيخ الفقيه المكرم أبي عبد الله محمد بن أيوب بن محمد نفعه الله به . وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان » . والنظر في هذه العبارة يلحظ في يسر وسهولة أن صاحب النسخة أو ناسخها قد استحدث للكتاب اسم « نقد النثر » ؛ لأنه قد جمعه مع نقد الشعر في مجلد واحد ، وأن هذا الاسم لم يكن شائعاً ولا معروفاً كما يشعر بذلك قوله : « وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان » . قرأ بعض المستشرقين هذه العبارة فأخطأ في فهمها ، وكان هذا مصدراً لخطأ جمهرة المستشرقين في هذه المسألة الواضحة ؛ فقد أخذ درنبورغ صاحب فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالأسكوريال من هذه العبارة أن مادة الكتاب لقدامة ، وأن صياغتها لأبي عبد الله محمد بن أيوب ، وقال إنه لا يعرف شيئاً عن ابن أيوب هذا . وتابعه على ذلك بروكلان وهيوار متابعة تامة . وبازاء ذلك كما يقول الأستاذ العبادي (٢) -

شك الدكتور طه حسين بك في نسبة الكتاب إلى قدامة ، وقال في بحثه عن البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر : « ينسب نقد النثر إلى قدامة . ولكن المطلع عليه يرى أنه لا يمكن أن يكون له ، بل هو في الغالب لكاتب شيعي ظاهر التشيع قد صنف كتباً عدة في الفقه وعلوم الدين يشير إليها ويحيل عليها في شيء من الطمأنينة والارتياح . » (٣) وقد عهد الدكتور طه حسين إلى الأستاذ العبادي تحقيق هذه المسألة ، فكتب في تحقيقه يقول : « أما نحن فبعد طول البحث ثبت عندنا أن الكتاب لقدامة كما جاء على الورقة الأولى من النسخة المخطوطة . » واستدل على ذلك بأن الكتاب لا بد أن يكون قد كتب في عصر قدامة ؛ لأن أسلوبه وطريقته وروحه الفلسفي اليوناني « كل ذلك يشير في جلاء ووضوح إلى أنه من آثار القرن الرابع ، ثم إنه ليس من بين الأعلام الكثيرة الواردة به علم واحد يمكن أن يقال إنه متأخر عن عصر قدامة تأخراً يذكر . والمقارنة الموضوعية بين كتابي نقد النثر ونقد الشعر ترى تقارباً عجيباً في كثير من المعاني فضلاً عن طريقة التعبير عنها مما يرجح أن الكتابين صدرا عن أصل واحد . » وضرب لذلك عدة أمثلة من الكتابين قارن بينهما ، وخلص منها بنتيجة تؤيد إثبات الكتاب لقدامة . ولكن الدكتور طه لم يقتنع برأي الأستاذ العبادي وما زال عند رأيه الأول من أن الكتاب « لا يمكن أن يكون لقدامة » بدليل أنه تحدث بعد ذلك بأعوام عن « كتاب نقد النثر المنسوب لقدامة » وقال في حديثه هذا : « والكتاب ليس لقدامة بيقين » (٤) . وكان طبعياً أن يشيع الشك في نسبة

(١) بغية الوعاة للسيوطي ص ٢٣ .

(٢) مقدمة نقد النثر ص ٢٠ .

(٣) مقدمة نقد النثر ص ٤٢ .

(٤) من حديث الشعر والنثر ص ١٢٥ .

الكتاب . وأن مجزم كل من يعرض له بنفيه عن صاحبه . ومن أعجب ما رأيت أن بعض كبار الأساتذة قد استدل على أن الكتاب لم يؤلفه قدامة بأن مؤلفه قلده الجاحظ ، وقدامة لا يقلد أحداً ؛ لأنه مستقل في آرائه ! وبأنه شيعي وقدامة بعيد كل البعد عن هذا الاتجاه ، وبأنه قد ألف في علوم الدين كتباً ، وهذه ناحية بعيدة عن قدامة كل البعد ! وبأن منهجه في البحث إجمالي وفي أسلوبه سجع وازدواج ، ومنهج قدامة تفصيلي وأسلوبه مرسل بعيد عن السجع والازدواج . وهي أدلة واهية كما ترى لا تثبت أمام النقد إلا بمقدار ما يلقفها . وقد كتب الأستاذ محمد كرد علي بك في مجلة المجمع العلمي كلمة عن الطبعة الثالثة من هذا الكتاب قال فيها : « ليس هذا الكتاب لقدامة كما ذكر في الكتاب وأكد الأستاذ العبادي بل هو لرجل شيعي مجهول كما قال الدكتور طه ، ولا يزال الأستاذ العبادي مصرّاً على نسبته لقدامة ، وما أورد على ذلك ضعيف » . وأنا لا أوافق الأستاذ على رأيه في أدلة الأستاذ العبادي ، وهي عندي قوية كل القوة كافية الدلالة على أن الكتاب لقدامة . بل كان يكفي في نسبته له ما جاء على الصفحة الأولى من النسخة المخطوطة ، ولم يكن هناك ما يسوغ الشك أو يدعو إليه . ولو ارتضيّا الشك في الكتب العزمية على هذا النحو لنفينا كثيراً منها عن أصحابها ؛ لأنه ليس لنا من سند في نسبتها إلى مؤلفيها غير وجود أسمائهم عليها .

والحق الذي لا مرية فيه أن هذا الكتاب المسمى بنقد النثر قد ألفه قدامة ، ويشهد بذلك معاصروه . قال أبو حيان التوحيدى - وهو أعظم مؤرخ ثقافي لعصره : « وما رأيت أحداً تنامى في وصف النثر بجميع ما فيه وعليه

غير قدامة بن جعفر في المنزلة الثالثة من كتابه . » قال لنا علي بن عيسى الوزير : « عرض على قدامة كتابه سنة عشرين وثلثمائة واختبرته فوجدته قد بالغ وأحسن وتفرّد في وصف فنون البلاغة في المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى مما يدل على المختار المجتبي ، والمعيّب المجتنب . ولقد شابه فيه الخليل بن أحمد في وضع العروض . ولكن وجدته هجين اللفظ ، ركيك البلاغة في وصف البلاغة ، حتى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه ، وكأن ما يدل به غير ما يدل عليه . وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم وحسن التصور وتوارد المعنى وتقد الطبع وتصرف القريحة . ولولا أن الأمر على ما ذكرت لكان ذلك الطريق الذي سلكه والفن الذي ملكه ، والكنز الذي هجم عليه ، والنمط الذي ظفر به ، قد برز في أحسن معرض وتحلى بألفاظ كلام ، وماس في أطول ذيل ، وسفر عن أحسن وجه ، وطلع من أقرب نفق ، وحلق في أبعد أفق . » (١) هذا هو الدليل الذي يفصل في الأمر ويضع الحق في نصابه ويريح الكتاب والباحثين من عناء الافتراض الظنى . ولكن قد يظن بعض الناس أن هذا النص وإن كان فاصلاً في أن قدامة قد ألف كتاباً وصف فيه فنون البلاغة فأحسن الوصف وأجاد الابداع ، فانه غير فاصل في أن يكون هذا الكتاب الذي بين أيدينا هو الذي عناه أبو حيان وتحدث عنه الوزير ؛ لأنهما لم يذكر اسم الكتاب الذي ألفه قدامة . ولكن عدم تسميتهما له لا يفيد من يظن هذا الظن شيئاً ؛ فان وصفهما للكتاب الذي عنياه ينطبق على نقد النثر كل الانطباق . وإن من الصفات التي وصف بها ووجدت في نقد النثر ما يقوم مقام الاسم الصريح

من كتب الشرق والغرب

منزلة فهاتان منزلتان . بقى من أقسام البيان الأربعة بيان اللسان ، وبيان الكتاب وقد جمعهما المؤلف في منزلة واحدة وهى المنزلة الثالثة . قال فى صفحة ٤٨ : « باب فيه البيان الثالث وهو العبارة . . . » ونجد فى هذا البيان الثالث أو فى هذه المنزلة الثالثة يقول فى صفحة ١٠٥ : « باب فيه المنشور وما جاء فيه ، وليس يخلو المنشور من أن يكون خطابة أو ترسلاً أو احتجاجاً أو حديثاً . ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه . » وقد فصل القول فى الخطابة والترسل من صفحة ١٠٥ إلى صفحة ١٣٢ ثم تكلم عن الجدل والمجادلة من صفحة ١٣٣ إلى صفحة ١٥٤ ، وأفاض فى الكلام عن الحديث من صفحة ١٥٤ إلى صفحة ١٦٦ التى ينتهى بها الكتاب . من هذا العرض المجمع يتبين أن المنزلة الثالثة من كتاب قدامة الذى تحدث عنه أبو حيان والوزير هى نفس المنزلة الثالثة من كتاب نقد النثر أو من كتاب « البيان » كما سماه قدامة حين ألفه ليعارض به الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين . وكان لزاماً على ناشريه الفاضلين أن ينشروه باسمه الأصيل ليحققا المقصد الذى أراغ إليه قدامة من التسمية التى ارتضاها لكتابه ولم يغب عنها حولا . ولعلهما فاعلان ذلك عند إعادة طبع الكتاب للمرة الرابعة إن شاء الله .

لأنه من الملامح الأصيلة والصفات اللازمة التى تغنى بمجرد ذكرها عن تسمية الموصوف . أليس مما وسم به كتاب قدامة أنه قد وصف النثر بجميع مائيه وعليه كما يقول أبو حيان ، وأنه قد تفرد بوصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد كما يقول الوزير ؟ بلى ! وإن تلك الأوصاف بعينها هى أوصاف المنزلة الثالثة من كتاب نقد النثر . فقد قسم المؤلف وجوه البيان فى صفحة ١٠ بقوله : « والبيان على أربعة أوجه فنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبين بلغاتها ، ومنه البيان الذى يحصل فى القلب عند إعمال الفكرة واللب ، ومنه البيان الذى هو نطق باللسان ، ومنه البيان الذى يبلغ من بعد أو غاب . » والكتاب كله تفصيل لهذه الأنواع فى صفحة ٢٠ مجد المؤلف يقول : « باب فيه البيان الأول وهو الاعتبار . قد قلنا إن الأشياء تبين بذواتها لمن تبين ، وتعبّر بمعانيها لمن اعتبر . وإن بعض بيانها ظاهر وبعضه باطن . ونحن نذكر ذلك ونشرحه . . . » وفى صفحة ٤١ : « باب فى البيان الثانى وهو الاعتقاد . قد قلنا إن الأشياء إذا بينت بذواتها للعقول ، وترجت عن معانيها وبواطنها للقلوب صار ما ينكشف للمتبين من حقيقتها معرفة وعلماً مركوزين فى نفسه ، وهذا البيان على ثلاثة أضرب . . . » وكل بيان من البيانين يسمى

البيان أحمد صفير

من وراء البحار

ماذا في اليابان ؟

وعلى ذلك لم تحدث من الأمريكيين تلك الحوادث التي تصاحب عادة شاربي الخمر. وكان اليابانيون يتصورون الأمريكيان وحوشاً ضارية، فزال هذا الظن سريعاً .

وقد دهش الأمريكيان عند ما رأوا أطفالاً أو عجائز يقدمون كومة من الأوراق المالية تتراوح بين ٦٦ سنتاً إلى دولارين لكي يحصلوا على علبة من السجائر. على أن الذي لم يفهمه الأمريكيون هو أن اليابانيين بالرغم من الهزيمة لا يزالون على شيء من الثراء . والسبب الحق في ذلك هو أن اتساع قوة الشراء لم تقابل بوجود سلع يستطيع المستهلك أن يشتريها . ويدفع الأمريكيون الآن للعامل العادي ٨ ين (وهو ما يعادل ٣٥ سنتاً) في اليوم، ويتناول العمال المهرة أجراً قدره ١٢ ين وكان العامل من هؤلاء لا يتناول قبل وصول الأمريكيين أكثر من ٧ ين .

وقد اعتاد اليابانيون أن يعملوا بين ١٠ و ١٢ ساعة في اليوم بغير عطلة إلا مدة يومين في الشهر ، فزى من ذلك أن اليابانيين سيكونون أحسن حالا فيما يتعلق بأحوال المعيشة من الأوربيين .

ولقد أخذ اليابانيون يقلعون عن الكثير من معتقداتهم الراسخة . فلم يعد الامبراطور عندهم مقدساً بالدرجة التي كان عليها . وينتظم العمال في نقابات تحميهم وهم يطيعونها كطاعة الجندي قائده ، ولذلك كانت هذه النقابات غنية . وقد أخذ الأمريكيون يساعدون هذه النقابات ، ولكنهم يخشون أن تقوى إلى حد

لننا نعلم عن اليابان إلا القليل من الأنباء المقتضبة التي ترد في البرقيات . على أن الصحفي الأمريكي بليرفاليسر كتب في العدد الأخير من « المجلة الجغرافية الأمريكية » (عدد يونيه) مقالا قيما عن اليابان وحالتها الحاضرة . قال : تخرق البلاد الآن آلاف من السيارات الأمريكية على حين يسير أهلها على الأقدام في شوارع قديمة . وهم يرمون إلى أغراض جديدة ، فقد قبل اليابانيون هزيمتهم في صبر وطاعة ، وهم مليئون بالرغبة في أن يسلكوا ببلادهم مسلكاً أحسن مما كان في الماضي .

لقد ظن الأمريكيون عند ما نزلوا إلى أرض اليابان أنهم سيقابلون بالكراهية والغدر ، فكانت دهشتهم شديدة عند ما تبينوا أن قول الامبراطور في بيانه « يجب ألا نكره أعداءنا » قد قبل ونفذ حرفياً . ولقد صار الأمريكي يمثل القوة ، والقنبلة الذرية ، والأسطول القوي الساحق . وكان الياباني يعتقد في نفسه القوة ، ولكن الأمريكي هزمه ، فاستنتج في بساطة أن طريقة الحياة الأمريكية خير من طريقته . وهو لذلك يقبل سلطة الأمريكيين ويخضع لارادتهم ويبدل كل مجهود لكي يتعلم ويتلقى الطريقة المثلى منهم . وهكذا نراه مثلاً يعتبر الديمقراطية مرمى يقصد إليه ، لا وسيلة إلى غاية . ومما زاد من رغبة اليابانيين في التعاون أنهم أحبوا الجنود الأمريكيين سريعاً . ذلك أنه لم يكن في البلاد من الخمر إلا القليل ،

من وراء البحار

التعاليم الحربية والجنسية. ولكن كتب التاريخ والجغرافيا محشوة بها، فأقلعوا عن تعليم التاريخ والجغرافيا. ومع ذلك لا تزال تجد أنهم في المدارس لا يتناولون نص أمر للامبراطور حتى يبادر المعلم بلبس القفاز، وأنهم لا يزالون ينحنون أمام صورة الامبراطور كل يوم عند الصباح !

قد يؤثر في نظام الحكم .
وتقوم المدارس الآن بتعليم الديمقراطية ، ولكنها تقوم بذلك على أسلوب خاص باليابانيين فقد صدر أمر إمبراطوري بعدم الاستمرار في التعليم الحربي والبارزة والحركات العسكرية ، فقام المعلمون بذلك. وأمر المعلمون بأن يقرأوا عن

الحياة السياسية في النمسا

ولكن إذا فحصنا قوة الرأي العام في ضوء النتائج الانتخابية في المجلس عشرة سنة الأخيرة وجب ألا يغيب عن الأذهان عامل هام هو قوة الاشتراكيين الوطنيين ، فهذا الحزب لم يحصل في انتخابات سنة ١٩٣٠ على صوت واحد ، أما في سنة ١٩٤٥ فانهم منعوا من الانتخاب، على أنه كان يوجد في سنة ١٩٣٠ عناصر الاشتراكية الوطنية في الجناح الأيمن للأحزاب الأخرى . ولا ريب في أن حزب الشعب يجد تأييدا بين صفوف النازي السابقين الذين منعوا من الانتخاب . وحزب الشعب هذا هو وريث لعدة أحزاب، أهمها الاشتراكيون المسيحيون الذي ألفه الدكتور كارل لويجر وكان يجد تأييدا من الكاثوليك ومن صغار أصحاب الأعمال المسيحيين ، ولكن هذا الحزب ضعف بعد وفاة زعيمه .

وإذا كان حزب الشعب الآن في مركز أقوى من الأحزاب المماثلة له في الانتخاب السابق فانه ينقصه الوئام بين زعمائه ، ولذلك لم تبد جهته قوية بما يتناسب مع عدد أعضائه في البرلمان ، واضطر إلى أن يعقد علاقات ود مع الحزب الاشتراكي .

أما مركز الحزب الاشتراكي فهو أكثر وضوحا ؛ لأنه بذاته الحزب الاشتراكي الديمقراطي القديم ، ولكنه بدل من اسمه

في مجلة « العالم اليوم » التي يصدرها المعهد الملكي للشؤون الخارجية (عدد يونيه ١٩٤٦) وصف للحالة السياسية الآن في بلاد النمسا . ويقول كاتب المقال : إن مما يسترعى النظر في الحياة السياسية لهذه الدولة هو الثبات الظاهر في الرأي العام السياسي منذ خمسة عشر عاما . فقد دلت نتائج الانتخاب في سنة ١٩٤٥ على أن نسبة قوة الأحزاب لم تتغير عما كانت في سنة ١٩٣٠ ، ففي هذه الانتخابات نال حزب الشعب ٥٠ ٪ من الأصوات ونال الاشتراكيون ٤٤ ٪ والشيوغيون ٥ ٪ / ٤ . أما في سنة ١٩٣٠ فقد حصلت أحزاب اليمين على ٥٤ ٪ والاشتراكيون الديمقراطيون على ٤١ ٪ والشيوغيون على ٥ ٪ / ٦ . فنرى في ذلك تحولا ولكنه غير قوى ، وهو أمر يسترعى النظر إذا اعتبرنا أن الحرية السياسية قضى عليها منذ سنة ١٩٣٨ عند اجتياح النازيين لتلك البلاد .

ويرجع هذا الثبات إلى أن هذه الأحزاب السياسية تمثل مصالح مهنية ، أكثر مما تمثل نظريات سياسية فلسفية ، ولما كان النظام الاجتماعي في تلك البلاد لم يتغير كثيراً منذ نحو عشرين سنة (ففيها نحو ٤٠ ٪ من أصحاب الأجور ونحو ٤٠ ٪ من الفلاحين ونحو ٢٠ ٪ من المستقلين وأصحاب المهن الحرة) لم تتغير لذلك نسبة الممثلين للأحزاب .

اضطر إلى أن يقبع في تلك الدور المظلمة التي بناها لطبقة العمال ، والتي هي غرله مقيم . على أن الحزب الاشتراكي لم ينل في الانتخابات الأخيرة الكثرة التي انتظرها كثيرون ، وقد زاد عدد الأصوات التي نالها في الأرياف ونقص عددها في قيينا . والسبب في ذلك توزيع الصناعات في أنحاء البلاد أثناء الحرب ، وفرار اليهود من العاصمة النمساوية . ثم إن الحزب حمل في انتخاباته حملة شديدة على النازيين فلم يجعل لهم سيلا للعودة إلى أحضانهم ، وقد أخذ الحزب يعدل عن مسلكه . ويوجد في النمسا حزب شيوعي ولكنه ضعيف . وكان المنتظر أن يقوى في الانتخابات إلا أنه يظهر أن الاحتلال الروسي لم يقد في تقوية هذا الحزب . وليس لهذا الحزب زعماء بارزون ولا هو خال من الخلافات الداخلية . فيتبين من ذلك أن الحياة السياسية في النمسا قائمة على حزبين . ويظهر أنهما عرفا كيف يعالجان الخلافات القائمة بينهما في سبيل العودة ببلاد النمسا إلى الحياة الطبيعية النافعة .

اعترافا بفضل الاشتراكيين الثوريين الذين قاوموا النازي ، وأنشأوا علاقات مع الاشتراكيين في البلاد الأخرى . وكان هذا الحزب منذ أنشأه فكتور أدلر في سنة ١٨٨٩ يعمل لمصلحة الطبقة العاملة فقط ، فهو لذلك موحد في أغراضه ، ولا تتضارب مصالح أعضائه كما هو الشأن في حزب الشعب . ولقد كان يشرف عليه فيما مضى زعماء من مثقفي اليهود نجحوا في تحسين حال العمال . ولكن هؤلاء الزعماء اضطروا في سنة ١٩٣٤ إلى الفرار من البلاد مما أضعف مركز الحزب ، وهجره عمال كثيرون وانضموا إلى الوطنيين الاشتراكيين . وكان ماضي الحزب الاشتراكي مما يبعث على الاحترام ، لا لدفاعه عن مصالح العمال فحسب ، بل كذلك لما أظهره من مهارة في إدارة أمور بلدية قيينا . ثم إن هذا الحزب كان بعيدا عن فضائح الرشوة التي لطخت الكثيرين من زعماء الحزب الاشتراكي المسيحي . وأهم من ذلك أن هذا الحزب ظل على مبدأ واحد في مقاومته للفاشية في النمسا ، ولم يخضع إلا للقوة ، حين

قاعة المطالعة بالمتحف البريطاني

من الكتب التي تعد مراجع في بابها ، أما مجموعة الكتب النادرة والمخطوطات والآثار فقد نقلت إلى مخابئ ، أعدت لها منذ سنة ١٩٣٤ .

ولم تصب غرفة المطالعة الكبيرة إلا بضرر بسيط ، ولكن الجهة الشمالية من مكتبة الملك أصيبت إصابة مباشرة وتحطمت نوافذ قسم المخطوطات ، كما أصيبت مجموعة صحف القرن التاسع عشر والعشرين المحفوظة في هويدن بخسارة كبيرة . وكانت أكبر كارثة نزلت بالمتحف البريطاني في آخر غارة كبيرة في مايو سنة ١٩٤١ عند ما احترق الجانب الجنوبي الشرقي

قد يسر العلماء في أنحاء العالم أن يعلموا بافتتاح قاعة المطالعة الشهيرة في المتحف البريطاني ابتداء من شهر يونيه . وقد كتب الأستاذ أرنديل أزديل بهذه المناسبة في العدد الأخير من نشرة أخبار الكتب البريطانية يقول : إنه عند ابتداء الحرب رأى أولو الأمر من الخطر بقاء هذه القاعة مفتوحة وهي غاصة بالقراء مع أن الغارات منتظرة في كل وقت فقرروا إغلاقها ، وسمح للقراء بأن يقصدوا إلى المطالعة في المكتبة الشمالية ، وهي الغرفة التي كانت مستعملة للاطلاع على الكتب النادرة ، بعد أن نقلوا إليها عددا

من وراء البحار

ونظم لها الفهرس الذى يستطيع به المثات أن يصلوا إلى هذه الكتب .

وقد زاد إصدار الكتب فى عهده بتقديم فن الطباعة ، فسلك سياسة حكيمة بشراء كل ما يمكن شراؤه ، ثم بعمله على أن يحصل المتحف على نسخة من كل كتاب يتم طبعه ، حسب قانون حقوق النشر الذى أصدره البرلمان الإنجليزى فى سنة ١٨٤٢ .

وضاقت مخازن المتحف البريطانى بالكتب وهى جزء من محتوياته ، فوضع بانتزى تصميم غرفة المطالعة الحديثة وابتدئت فى سنة ١٨٥٤ وتمت فى سنة ١٨٥٧ . وكانت القاعة فيها مضى ميسرة للجميع ، أما الآن فقد أنشئت مكتبات عامة وخاصة عدة يمكن الجمهور أن يقصدها ، ولذلك رثى من الواجب وضع بعض القيود ، محافظة على الكتب وضنا بالمقاعد على من ليسوا فى حاجة شديدة إليها ، فهى الآن وقف على طلاب المعرفة الحقيقين من جميع الأمم .

من البناء ، وطارت أجزاء من السقف المشتعل إلى المربع المجاور ، فاتصلت النار بمخازن الكتب المجاورة لغرفة المطالعة ، وتلف من الكتب ما يقرب من مائة ألف مجلد . وقد عمد المتحف إلى البحث عن تعويض النسخ التالفة ، ولكنه قد لا يوفق فى تعويض بعضها أبدا .

وهذه الغرفة ، لا فى زوارها فحسب ، بل فى إنشائها كذلك ، هى مصداق للقول المأثور بأن العلم لا وطن له ؛ فقد وضع فكرتها وعمل على تحقيقها موظف أجنبى فى خدمة المتحف البريطانى هو انطونيو بانتزى الذى هاجر من مدينة مودينا الإيطالية إلى إنجلترا فى سنة ١٨٢١ ، وكان أدبيا عالما بالشعر القديم ولكنه أيضا رجل مجدد وإدارى قدير . فكان أول من فكر فى إنشاء مكتبة وطنية كبيرة بالمعنى المتعارف اليوم . وقد أخذ الرجعون يناهضون فكرته ، ولكنه مازال يعمل حتى جمع نحو مليون كتاب بلغات مختلفة

ظفر حديثا

نابليون لامييل لودفيج نقله عن الألمانية الأستاذ محمود ابراهيم الدسوقي - الجزء الثانى
(دار الكاتب المصرى)

واخرى ؟ لقد كان نابليون عبقرى ، ولكن هذا التغيير يتطلب عبقرية أخرى أى يتطلب أن يجمع المرء بين عبقريتين . وعلى ذلك نشهد فى الجزء الثانى من هذا السفر الشيق سيرة حياته خطوة خطوة نحو النهاية المحتومة ، التى لا تبدو عادة لأعين المعاصرين ؛ إذ تخفيها للمطامع والآهواء والمنافع والآمال ، ويخفيها عنه هو ما هو محاط به من حاشية ومنتفعين ومتعلقين .

لقد كان نابليون عظيما فيما اتخذه من وسائل للوقوف فى وجه الأقدار ، فلم يكن يسوس إمبراطوريته وحدها بل كان يسوس تلك الدول التى أنشأها ونصب على عروشها أولئك الأقزام من إخوة وقواد قد يكونون بارزين فى الحروب ولكن أنى لهم العلم بتدبير الملك وحكم البلاد !

ولم يفقد الامبراطور عبقريته فى الحرب حتى اللحظة الأخيرة من حياته ؛ فقد كان دائماً القائد الفذ فى انتصاراته المتوالية حتى ظن أنه لن يهزم ، وهو لم يهزم إلا لتألب الظروف وتكالب الحوادث وتجمعها حتى جرفه التيار .

وفى الفصول الأخيرة من هذا الجزء نجد حياته فى منفى ، بتلك الجزيرة الاستوائية النائية ، وعيشته بين نفر قليل من خالصائه ولم يعد له من عمل إلا التفكير فى ذلك الماضى القريب الذى خط فيه صفحات من المجد .

يعتبر كثير من الكتاب بدء سقوط نابليون وأقول نجمه منذ عدل سافراً عن مبادئ الثورة ونظمها ونصب نفسه إمبراطوراً . وهم فى ذلك يتبعون رأى العدد الكبير من الرجال المعاصرين الذين كانوا يناصرون قائد الثورة الشاب والقنصل الأول ، فاذا به يحطم آمالهم إذ يحلم بتكوين عرش وأسرة مالكة ، فانقلبوا عليه ، وقبع بعضهم فى ديارهم وهم يتمنون لهذا العرش النهاية والزوال ، واتخذ بعضهم الآخر موقفاً عدائياً صريحاً .

ولكن نابليون سار قدما فى سياسته لا يلوى على شيء ؛ فهو تمل بانتصاراته وبالامبراطورية التى كونها ، وبذل فى سبيلها حتى قلبه ، فأقدم على طلاق جوزفين التى عرف فيها حبه الاول وربما كان الأخير ، وصاهر أسرة هابسبرج العريقة ؛ ليربط دمه الوضيع بدماء الملوك التى يقال إنها زرقاء .

ونحن فى مطلع هذا الجزء الثانى من الكتاب الذى بادرت دار الكاتب المصرى إلى نشره ، لكيلا ينقرط عقد الحديث عن القارىء ، نجد صورة نابليون إذ كان يستطيع أن يقنع بما كسب ، ويعمل على توطيد هذه الامبراطورية ، ويحاول أن يسترضى الدول المناهضة باللين والمهادنة حتى يخلدوا إلى النظام القائم ، وحسبه أن يكون لامبراطوريته اليد العليا فى أوروبا ، ولكن هل يمكن لعجلة السياسة أن تقف ؟ وهل يغير المرء من طباعه بين لحظة

تأثير عن أعمال الجمعية العمومية العادية الأخيرة لعصبة الأمم وضعه الأستاذ محمود الدرويش بك (المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٤٦)

فتكون الهيئة الجديدة أكثر مقدرة على معالجة المشكلات القائمة ، وأن تظهر لها شخصية مستقلة تكون أبعد من التأثير بأهواء أعضائها ومظاممهم .

هذا التقرير الذى وضعه رئيس مندوبى مصر فى الجلسة الأخيرة لعصبة الأمم لا يبحث طبعاً فى مثل الأمور التى ذكرناها ، فهو تقرير رسمى كتب بكياسة الرجل القدير على تمثيل بلاده ، الذى لا يفوت فرصة دون أن يجر نفعاً إلى وطنه أو يؤدي له خدمة ، مثال ذلك موقفه حين امتنع من التصويت على مشروع القرار الخاص بالانتدابات من أجل فلسطين ، فهو يقوم بواجبه ، ولو كانت الهيئة التى حضر اجتماعها فى النزاع الأخير .

فى هذا التقرير القيم نرى الفصل الأخير من حياة هذه المؤسسة التى علق العالم بها آماله نحو ربع قرن كامل ، وظن أنها خير أداة لمنع الحروب بعد أن اكتوى بنار الحرب العالمية الأولى ، ولكن — مع الأسف — لم تتحقق هذه الآمال ، وانتهى الأمر بهذه الهيئة إلى الاخفاق ، وانتهى بالعالم إلى حرب عالمية ثانية ، لا تقل فظاعة عن الأولى . لقد قابل الناس تأسيس عصبة الأمم بتفاؤل كبير لم تسوغه الحوادث ، وهم يدخلون إلى عالم ما بعد الحرب الأخيرة وهم أكثر تحفظاً نحو الهيئة التى حلت مكانها ، بل يكاد شعورهم يبلغ حد التشاؤم . غير أن كل محب لخير هذا العالم يرجو أن تكذب الحوادث هذا الشعور

مختصر تاريخ الحضارة الغربية فى الأزمنة الحديثة للأستاذين جورج حداد وبسام كرد على (يطلب من مكتبة العلوم والآداب بدمشق)

عشر فى إيطاليا ، وانتقلت منها حتى عمت البلاد الأخرى ، وقامت هذه النهضة على أثر العودة إلى دراسة الآثار الفكرية لليونان والرومان .

وفى هذا الكتاب المختصر المفيد نجد صورة تكاد تكون كاملة لجميع نواحي التقدم الفكرى ، قبل المادى ، فى بلاد أوروبا فى القرون الأربعة الأخيرة . وقد لخص المؤلفان عل اتساع موضوعهما هذه الحركة خير تلخيص ، فتكلموا عن حضارة عصر النهضة ، ثم انتقلوا إلى القرن السابع عشر وحياته الأدبية

فى راي أن كل كتاب يصدر باللغة العربية عن الحضارة الغربية ، هو كتاب جزيل الفائدة جداً فى الشرق ؛ إذ الواقع أننا لانطمع فى الأخذ بأسباب الحضارة ، وبلوغ درجة من التقدم مثل ما بلغته الأمم الأوروبية ، إلا إذا قمنا بدراسة وجوه هذه الحضارة دراسة عميقة . فليس تقدم الغربيين هو على مايعتقده بعض الشرقيين تقدم فى الماديات وحدها ، بل هو نهضة شملت نواحي الحياة جميعها من مادية وروحية . وقد ظهرت هذه النهضة جلية واضحة فى القرنين الخامس عشر والسادس

اليونانية ، ومواصلتهم البحث والزيادة في هذه الدراسات ، وبذلك ظلت الحضارة متصلة بفضل العرب ولم ينضب معينها إلى أن تلقاها الأوريون منهم .

وإننا لنرجو في القريب العاجل ان يقبل الأدباء والمؤرخون على دراسة الحضارة الغربية وأسبابها ، ويعملوا على تزويد عالم الكتب العربية بهذه الدراسات التي لا يمكن أن تقل فائدة عن نشر كنوز الأدب والتاريخ العربي القديم .

والفنية ، ثم القرن الثامن عشر وخصصا فيه فصلين للحركة العلمية والانتقال الصناعي . ثم تبسّطا في الكلام عن القرن التاسع عشر : حيث أضافا إلى الموضوعات التي درسناها في القرنين السابقين موضوع التطورات الاجتماعية والسياسية .

وقد أعجبنا من المؤلفين أنهما لم ينسيا الشرق في تاريخهما ، فابتدآه بذكر فضل العرب في حمل قبس الحضارة في القرون الوسطى ، واتصال دراستهم وتفكيرهم بالدراسات

في موكب الشمس الجزء الأول تأليف الدكتور أحمد بدوى (لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .

في الجيل الماضي ، ثم أنشئت الجامعة وأخذ طائفة من العلماء المصريين أمثال الدكتور سليم بك حسن والدكتور سامى جبره وإلى جانبهما عدد من أفاضل العلماء الأجانب ينشرون الدراسة التاريخية لمصر القديمة ، وسافرت البعث من تلاميذهم إلى مختلف البلاد الأوربية .

وها نحن أولاء نجد ثمرة من ثمار التوفر على دراسة التاريخ المصرى القديم في هذا السفر الثمين الذى يخرجنا لنا اليوم الدكتور أحمد بدوى .

ونحن إذ نقرأ هذا الجزء الأول في تاريخ البلاد المصرية والمجد القديم نشعر ولا ريب باغتراب كبير ، لا لأنه تاريخ أجدادنا فحسب ، بل كذلك لأن المؤلف ، وهو مصرى صميم غيور بوطنه ، عرف كيف يكتب هذا التاريخ في تحمس وحرارة عاطفة ، مما بث في ثنايا كتابه روحاً خاصة متوثبة ، وجعل منه سجلاً حياً وطنياً ، فوق ما فيه من علم وثيق .

وقد صدر الكتاب بمقدمة للأستاذ محمد شفيق غربال بك المؤرخ المشهور ، ثم جاء

عند ما عرف شامبليون كيف يحل رموز ذلك الحجر المحتوى تلك النقوش الغريبة التي هي أقرب إلى الصور ، والتي تمثل حروف لغة بائدة ، إذ وجد على الحجر نفسه سطوراً منقوشة باللغة اليونانية ، ورجح أنها ترجمة لما كتب بالحروف المجهولة ، وعندما تمكن من الوقوف على شئ من سر هذه اللغة البائدة ، وبدأ الستار يرفع عن مدينة من أقدم مدنيات العالم ، وتاريخ مجيد من مجد التواريخ ، أخذ العالم يقرأ ماضى أمة — الأمة المصرية — هو أقرب إلى الأساطير منه إلى الحقيقة ، ولم تكن تلك الآثار ملموسة وقائمة .

اجتذبت دراسة التاريخ المصرى العلماء من سائر الأجناس ، فلم يمض قرن حتى كانت أمامنا صورة بارزة ، لمدينة مصر التي كان لها فضل كبير على الحضارة القديمة ، والتي اغترف منها اليونانيون والرومان وغيرها من الأمم ، ثم انتقل ميراثها إلينا نحن أبناء العصر الحديث .

ولقد اشترك في بحوث التاريخ المصرى بعض العلماء المصريين ، من أمثال أحمد كمال باشا

والرابعة والخامسة والسادسة عارضا آثارها وملوكها . وانتهى من هذا الجزء الأول بكلام عام عن الدول القديمة .
ولسنا نريد بعد هذا البيان العودة إلى التنويه بالكتاب وقيمتها العظيمة . وكل ما نرجوه أن يعمل المؤلف سريعاً على إتمام كتابه ونشر أجزائه الباقية .

مسن محمود

للمؤلف يروى قصة الكتاب والحافظ له على تأليفه ، وتكلم عن مصر الخالدة ، ثم ذكر لمحة سريعة لقصة التاريخ المصري ، وانتقل بعد ذلك إلى مصادر هذا التاريخ المصري ، ثم أخذ يشرح فجر هذا التاريخ ، وعصر الأسرات الأولى وملوكها والعقائد الدينية في الدولة القديمة ، ثم تكلم عن الأسرات الثالثة ،

نحل عبر النحل لتقى الدين المقرئى ، نشره وحقق أصوله الأستاذ جمال الدين الشيال (مكتبة الخانجي القاهرة)

هذه هي دلالة العنوان كما أرادها المؤلف ، وكما حققها الناشر ، وكما يدل موضوع الكتاب .

والمقرئى من علماء هذه الأمة الذين ضربوا بسهم في كل فن ؛ فهو على شهرته في التاريخ من أهل التحصيل والاجتهاد في فنون شتى . وقد نشأ في عصر زاخر بأهل العلم والفضل والنباهة نستطيع أن نسميه بمن اجتمع فيه من العلماء وبما اجتمع لكل منهم من طارف العلم وتليده وبما حاولوا من إذاعة العلم في مؤلفاتهم التي لا يكاد يبلغها الحصر — عصر الموسوعات ؛ فلا عجب أن يتجه المقرئى إلى تأليف كتاب خاص في النحل يلم فيه بكل ما يخطر على البال حين يذكر اسم النحل مما يتصل بموضوعه من العلم واللغة والحكمة والتاريخ وشئون الاقتصاد وغيرها ، حتى لم يدع شاردة ولا واردة في هذا الباب إلا عرض لها وأشبعها تحقيقاً ودرسا ؛ فجاء كتاباً جامعاً لفنون شتى ؛ ففيه من علم الحيوان ، وفيه من فنون الأدب ، وفيه من طرائف اللغة ، وفيه فن المقرئى وذوقه ودقة تناوله .

قلت لنفسي وقد ألتقي إلى أن الأستاذ الشيال معنى باخراج هذا الكتاب : من أين يأتى تهيأت الرغبة للأستاذ الشيال في نشر هذا الكتاب وهو شاب كل همه البحث عن التاريخ الاسلامى في مصادره وموارده ، وهذا كتاب ليس من التاريخ ولا يمت إليه بسبب قريب ؟

ثم لم ألبث أن عرفت من أين عرضت للأستاذ الفاضل هذه الرغبة ؛ فؤلف هذا الكتاب هو المقرئى مؤرخ مصر الأول ، أو الأشهر ، فلا عجب أن يكون بينه وبين ناشر هذا الكتاب أسباب .

وهو كتيب لطيف الحجم كبير الفائدة ، لعل في غموض عنوانه ما يباعد بين القارئ العادى ومعرفة موضوع الكتاب ؛ فعنوانه « نحل عبر النحل » بسكون الحاء المهمة في الكلمتين المتماثلتين لفظاً وشكلاً . أما الأولى منها فعناها المنح ، وأما الثانية فالمقصود بها تلك الحشرة الرفافة التي تخرج لنا العسل . والعبر : جمع عبرة ؛ فالمقرئى في هذا الكتاب يريد أن يمنح قارئه العبرة في درس النحل .

ظهر حديثاً

وألمع إلى بعض ما يشبهه من مؤلفات السابقين ،
وقدم له بمقدمة تستحق التنويه والذكر ، وألحقه
بما لا بد منه من الفهارس . وهو مجهود يقتضى
المكافأة وحسن الجزاء .

وقد أخرج الأستاذ الشيال هذا الكتاب
إخراجاً محمود عليه ، فحقق أصوله وأصلح
أخطاء النسخ فيه ، وجلى كثيراً من غوامضه
وأشار إلى طائفة غير قليلة من مراجعه ،

صديق العائلة للدكتور مصطفى الديوانى (مكتبة النهضة المصرية — القاهرة)

وأنا « أب » قد تفردت بمخصائص ليست
في كثير من الآباء . . . والحمد لله على نعمائه ؛
فاعلى بمخصائصى تلك أن يكون من حقى أن
أدعو الآباء والأمهات جميعاً إلى التزود من
هذه الثقافة الأبوية الصحية التى يقدمها لهم
الدكتور الديوانى فيما ينشئ من كتب .

على أن هذا الكتاب إنما يعالج نوعاً من
تلك الثقافة هو أقرب فى بعض فصوله إلى
الاجتماع منه إلى الصحة ، ولا تزال فنون
الحياة يجاذب بعضها بعضها ويطنى بعضها على
بعض — فهو يبدأ بالفصول الأولى منه
بالحديث إلى الآباء والأمهات عن أسرار
الأبوة والأمومة ، وأدوار الحمل والوضع
وما يتصل بها من حياة الطفل ، ويسط
الحديث فى بعض ما يكون بين الأزواج
والزوجات مما يزاوونه عملاً دون أن يعرفوه
علماً ، وما قد يحتاج الصبي أو الفتاة إلى معرفته
حين تتفتح ملكاتهما ؛ وهو يدير الحديث فى
هذه الفصول على طريقة الحوار بين بعض
الأطفال وأمهاتهم ، فيرشد الأمهات ويعودهن
كيف يكنين إذا تحدثن إلى بناتهن أو أبنائهن
فى شئون لا ينطلق فيها اللسان صريحاً .

ويتدرج بعد هذه الفصول فى الحديث إلى
الآباء والأمهات فى مسائل تعنيهم كل العناية
ولا يستغنون عن التماس أسباب علمها ،
فيتحدث عن تغذية الأطفال وتربيتهم ،
والأمراض التى تشيع بينهم ووسائل الوقاية منها .

ليس هذا أول كتاب للدكتور
الديوانى يحاول به أن ينشر الثقافة الطبية ،
أو الثقافة الصحية ، بين قراء العربية .
والفرق عندى بين معنى الثقافة الطبية
والثقافة الصحية قد يكون مفهوماً من سياق
العبارة ، فليست أعنى أن الدكتور الديوانى
بكتابه هذا وبما سبقه من كتب فى مثل
موضوعه يطمح أن يكون قراؤه أطباء ، وإنما
يطمح أن يكونوا أصحاب ، يعرفون أسباب
الوقاية والخطوات العلاجية الأولى التى تسبق
دعوة الطبيب .

ونحن فى مصر محتاجون إلى الثقافة الصحية
أكثر من حاجتنا إلى كثير من أنواع
الثقافات ، فنحن شعب مريض . قالوا :
لو وزعت أمراض المصريين على جميعهم
بالتساوى لكان نصيب كل مصرى منها بضعة
أمراض ، أحسبها ثلاثة أو أربعة ؛ وإن شعباً
ينتشر فيه المرض إلى هذا الحد لحقيق بأن
نعالجه بنشر الثقافة الصحية قبل أن نعالجه
بتخريج طوائف من الأطباء يزاحم بعضهم
بعضاً « فى السوق » لقلة « الزبائن » والمرضى
فى بيوتهم يجهلون أنهم مرضى !

وكتاب « صديق العائلة » الذى أخرجه
أخيراً الدكتور الديوانى بعد كتابه « حياة
الطفل » يعالج نوعاً من النقص فى ثقافتنا الصحية
ننحن فى حاجة إلى علاجه ؛ فما أحرأه أن يكون
فى مكتبة كل أسرة وفى رأس كل أب وأم !

فيها عصمة من الخطأ وتصحيحهم بمجارب آبائهم
وأمهاتهم حتى بعد أن يصيروا هم آباء
وأمهات . أما اليوم فلست أقصد الفكاهة
إن أشرت على الآباء والأمهات أن يهدوا
إلى أبنائهم وبناتهم قبيل الزواج نسخاً من
مؤلفات الدكتور مصطفى الديواني !

والخطوات الأولى لملاحتها . كل ذلك
في أسلوب سهل مبسط لا يشق على قارئ
ولا قارئة !

لقد كان الآباء والأمهات في الزمن القديم
يقدمون لبنينهم وبناتهم وصايا يستحفظونها
عليها قبل أن يلجوا بيت الزوجية : ليجدوا

على الشاطئ المسحور ديوان شعر للشاعر اليمني الأستاذ محمد عبده غانم (مطبعة فتاة الحرية بـ عدن)

شعراء وان ينشد شعرهم في مصر ؛
ولهذا آثرت التنويه به على ازدحام مكتبي
بدواوين الشعراء ، والذين يطعمون أن يكونوا
شعراء !

والديوان أبواب ثلاثة : الخافقات ،
والملاحقات ، والسابقات ؛ أما السابقات فهي
القصائد الست التي فاز بها الشاعر في
المباريات ؛ وهي حقيقة بالفوز بين ما يقدم
للمباريات !

وأما الخافقات فهي القصائد التي يعبر بها
الشاعر عن خفقات قلبه . وأما الملاحقات فهي
محاولاته الشعرية للتخليق والسمو والنفاد إلى
ما وراء السموات ! . . .

ولا أحب أن ينتهي حديثي عن الشاطئ
المسحور دون أن أنوه بقصيدته « حديث
الجماجم » فهي محاولة شعرية تؤذن بما ينتظر
أن يكون في غده إن شاء الله . ولولا ضيق
المجال لآثرت أن أنشرها على القراء نموذجاً
من فنه !

هذا ديوان شاعر من « شعراء السابقات »
وهو اسم أرجو أن يسره ؛ فقد اشترك —
كما يقول في مقدمة ديوانه — في ست
مباريات شعرية « فكان التوفيق حليفه في
كل مرة » وظفر فيها جميعاً بالجائزة الأولى ،
وقد أفرد لهذه القصائد الست الباب الثالث
من ديوانه وسماها السوابق !

ويقول الشاعر في مقدمة ديوانه القصيرة
إنه لم يكن على نية نشره لولا الخاف أصداقائه ،
فانه موثق بأنه لم يبلغ المنزلة التي تسمح له أن
ينشر شعره على الناس . وهو شعور طيب
نحو نفسه ؛ لأنه يأمل أن يبلغ في غده
منزلة من الاجادة تحمله على الرضا عن نفسه ،
وإننا لنأمل له مثل أمله !

على أني لا أريد أن أظلمه أو أغمظه
بعض ما يستحق من الثناء ؛ فان فيه مخايل
شاعر نرجو أن يتم تمامه في وقت قريب ،
فان له أسلوباً وطريقة ولحات من الشعر !
وإنه لحبيب إلينا أن يكون في اليمين الحديث

محمد سعيد العربي

في مجلات الشرق

الصحافة والأدب

الصحافة خطرة عليه ، تؤذيه في صميم أدبه ولا يمكن أن يفيد منها كما يفيد الأديب المكتمل الذي استوى عوده على صعيد الانتاج الأصيل . »

ثم يسترسل الكاتب في الحديث فيتحدث عن أدباء العربية الذين جمعوا بين الأدب والصحافة ، ويخص بالذكر الزميلين المازني والعقاد « فكانهما من الانتاج في النقد والشعر والقصص والدراسات الأدبية على العموم معروف لا يرقى إليه الشك ولا يختلف فيه اثبات . ربما أسقط الزمان شعرهما أو تجاوز عن بعض دراستهما أو غربل جانباً كبيراً من قصصهما ، ولكنه مع ذلك سوف يضطر إلى أن يسجل اسمهما بين صفحات التاريخ الأدبي ويقر بأثرهما في توجيه الفكر العربي والأسلوب البياني نحو القدرة على الابداع والامتناع في كثير من القوة والجمال ... »

في العدد الرابع من مجلة « الفكر » التي تصدر في دمشق مقال بهذا العنوان ، للأستاذ محمد روي فيصل ، يتحدث فيه عما بين الأدب والصحافة من صلات ، ومن فوارق ، وعما بين الصحفي والأديب ، فيقول : « إنما تتميز الصحافة من الأدب بالانتاج ، فالسرعة في تهيئة الصحيفة ، وإيصالها إلى يد القارئ ، هي كل شيء في الصحافة ؛ على حين أن الأناة سمة الأدب ومناط قوته وجماله وخلوده ... »

ثم يسأل : هل يجتمع الأديب والصحافي في إهاب إنسان واحد ؟ ثم يقول : « يجيب بول موران : نعم ، ولكن على شريطة أن يكون الأديب قد كملت أدواته ، وتمت ملكاته ، وقويت شخصيته ، وأدركت نفسه طريقها ... أما الأديب الذي لا يزال يتلصص مكانه في دنيا المواهب فمن المحقق أن

مجاعة أدبية ١

المال الذي انتهى إليه الأدب ، لعدم عناية الأدباء المعاصرين بتسجيل المناسبات القومية فيما يبدعون من شعر ونثر من ناحية ، ولانصرافهم من ناحية أخرى عن فنون من الأدب لانزال في حاجة إلى المزيد منها — إلى الاشتغال بالصحافة والتدلي إلى مستوى رجل الشارع ، فيقول : « ورجل الشارع في البلاد العربية في

ويمال الأستاذ عبد الله المشنوق في العدد السابع من مجلة « الأديب » اللبنانية الموضوع نفسه ولكن من جوانب أخرى ، فيزعم أن انصراف طائفة من أدبائنا المعروفين في الآونة الأخيرة إلى الاشتغال بالصحافة قد أحدث ما يسميه « مجاعة أدبية » فينحي باللائمة على الذين سماهم من أولئك الأدباء ، ويبدو في حديثه متشائماً ضيق الصدر بهذا

في مجلات الشرق

الغرف — وفي كل صحيفة يومية أو أسبوعية !
« وطه حسين يترك الأيام — أروع قصة
حياة كتبها أديب عربي — وعلى هامش
السيرة لينصرف إلى السياسة الحزبية ويكتب
في جريدة « البلاغ » مقالات يصف فيها
خصومه السياسيين ! . . . »

كذلك زعم الأستاذ المشنوق فيما كتب
ومن هذا الجانب تناول موضوعه . فليت
شعري هل أنصف الأستاذ المشنوق في
« الأديب » ؟ وهل أصاب الأستاذ روجي
فيصل في « الفكر » ؟

أدنى درجات السلم الثقافي ؛ فإذا بأحمد أمين
يهجر فجر الاسلام وضحي الاسلام وظهر الاسلام
وعصر الاسلام ليكتب عن « المودة » في مجلة
« الاثنين » مقالا مزينا بالصور والرسوم !
« وتوفيق الحكيم يهبط من برجه العاجي
ويترك فيه شهر زاد وأهل الكهف ويوميات
نائب في الأرياف لينقد شريط « لص بغداد »
في مجلة « آخر ساعة » !

« وعباس العقاد يترك ابن الرومي
وينتشه والعبريات ليكتب في موضوع
— كخادمة المنزل التي تصلح لجميع

ضرائب المدنية !

« أنحن برمون بالمدنية ؟
« أنحن ساخطون عليها كارهون لها ؟
« لا لا ؛ فما نحن برميين بالمدنية ولا
ساخطين عليها ، ولكننا ساخطون من
الضرائب التي تتقاضانا إياها المدنية من وقتنا ،
من أعصابنا ، من صحتنا ، من كرامتنا ، من
أخلاقنا ، من عزة نفوسنا ، من عواطفنا ،
من فصلها إيانا عن أمنا الرءوم الطبيعة ، من
جنايتها على حياتنا العائلية المحتضرة ، من
تدميرها لروح البساطة في نفوسنا ، ولما
أفاضت في نفوسنا من فوضى وما أشاعت من
غرور . وأعظم نكبة يصاب بها الانسان أن
يسلب عواطفه ويتحجر قلبه ويرغم على أن
يعيش بلا قلب . . . »

وفي العدد نفسه من مجلة « الفكر » مقال
للأستاذ روكس العريزي بهذا العنوان
يتحدث فيه عن هذا العصر المادي الذي نعيش
فيه وعن مظاهر الحضارة التي تنعم بها ، ثم
يخلص من ذلك إلى الحديث عن الضرائب التي
تقتضينا إياها هذه الحياة المترفة التي نحياها ،
فيعدددها ويصف أسبابها وتأثيرها ، ويوازن
في حديثه ذاك بين تلك المناعم وتكاليفها
فيقول :

« نظرة فاحصة دقيقة ترينا شكوى البشر
عالية ، وتسمعا زفراتهم غير منقطعة ،
وتعرض أماننا دموعهم سيولا تجري ، ولا
تجد أحدا راضيا عن حياته ، ولو كاد يلامس
حياة الغزالي في تساميه ؛ فما سر ذلك ؟

مستقبل الشرق

الشرق ذو شطرين : أولهما تطور قومي ،
وثانيهما تطور ديمقراطي ، فيقول :
« أما التطور القومي فسيكون بتعزيز

وفي السفر الثاني من سلسلة « البقعة
العريية » التي تصدر في دمشق ، يرى
الأستاذ محمد عابدين حمادة أن اتجاه مستقبل

في مجلات الشرق

تساير العروش إرادة الشعوب كما حدث في إيطاليا وألمانيا حين تكوينيهما .
« أما التطور الديمقراطي فيما نسرله أن تعميم الثقافة ساعد على الوعي القومي ، وبدأ الشعب يفهم الغث من السمين ، وهو واضع لا شك حداً للسلطات المطلقة وتسيير حكوماته وفقاً لإرادة شعوبها ، وسيتضى على مالا يزال باقياً من الوضع الاجتماعي السابق الذي كان يجعل العالم العربي ألعوبة في يد بعض الحكام والاقطاعيين ! ... »

فكرة الوحدة أو الاتحاد العربي ، رغم العقبات التي نراها الآن ، ورغم المشكلات الموجودة ضمن الكيان العربي نفسه ؛ ولابد من يوم تلتصر فيه فكرة الشعب العربي في الوحدة أو الاتحاد ...
« أجل إن هذه « الجامعة » لا تشفى غليل الشعب العربي الظامى إلى الوحدة أو اتحاد سياسى حقيقى ، ولكن لا ينكر في الوقت نفسه أنها خطوة حقيقية ، نسبة إلى الحقبة القصيرة من الزمن ؛ ونأمل في المستقبل القريب أن

بين الأدب والقومية

إلا بالكل ، ولا يكون أداة صالحة إلا حين يحتل مكانه من الكل .
« أما ما يطلب من الأدب فهو أن يكون « إنساناً » قبل أن يكون كاتباً أو شاعراً ، وأن يكون ذا رسالة يغلب فيها البناء على الهدم . هذان هما الشرطان الأساسيان ، ولا يهم بعدهما أن يقضى الأدب أيامه في التغزل بالمرأة والتحدث عن الحب ، أو في التغنى بأعجاد الوطن وعبقريّة الأمة ، أو في الدفاع عن الإنسان والإنسانية ؛ لأنه حر فيما يختار فلا يصح أن نفرض عليه مبدأ من المبادئ أو طريقة من الطرق ، وهو إنما ينتج — حين ينتج — ليفرض علينا لا لنفرض عليه ! » .

وفي مجلة « الأدب » أيضاً مقال للأستاذ عبد اللطيف شرارة بهذا العنوان يقول فيه :
« ليس المهم في الإنتاج الأدبي نوع اللغة ولا نوع الثقافة ، ولا المهم أن نجعل قيمة « الفكر » فوق كل قيمة جعلاً نظرياً صرفاً ، ولا المهم أن تكثر المدارس والشهادات والصحف ؛ وإنما المهم هو شعور الأمة بنفسها كوحدة وانطلاقها نحو تحقيق نفسها .
« هذا الشعور كاف لأن يخلق فيها الأدباء والمفكرين والفنانين من كل جنس ولون ؛ إذ لا بد أن تحاول التعبير عن شعورها ، وهي لا تثبت وجودها إلا بهذا التعبير .
والأدب مهما استقل وتمرد وتمرد وانفرد عن أمته فإنه يبقى جزءاً منها ، والجزء لا يفسر

عبقريّة اللفظ

فيها بذاتها ، ومحسب قوم أنها آلة صماء تتحرك ولكن دون وعى ولا حس ، ويتجنى آخرون على اللفظ فيتهمونه بألوان شتى من أمثال هذه التهم ؛ ثم يبنون على هذه الآراء

وفي العدد الخامس من مجلة « البطحاء » التي تصدر في بغداد كلمة للأستاذ حسين مروة عن عبقريّة اللفظ يقول فيها :
« يحسب قوم أن اللفظة مادة هيئة لأحياء

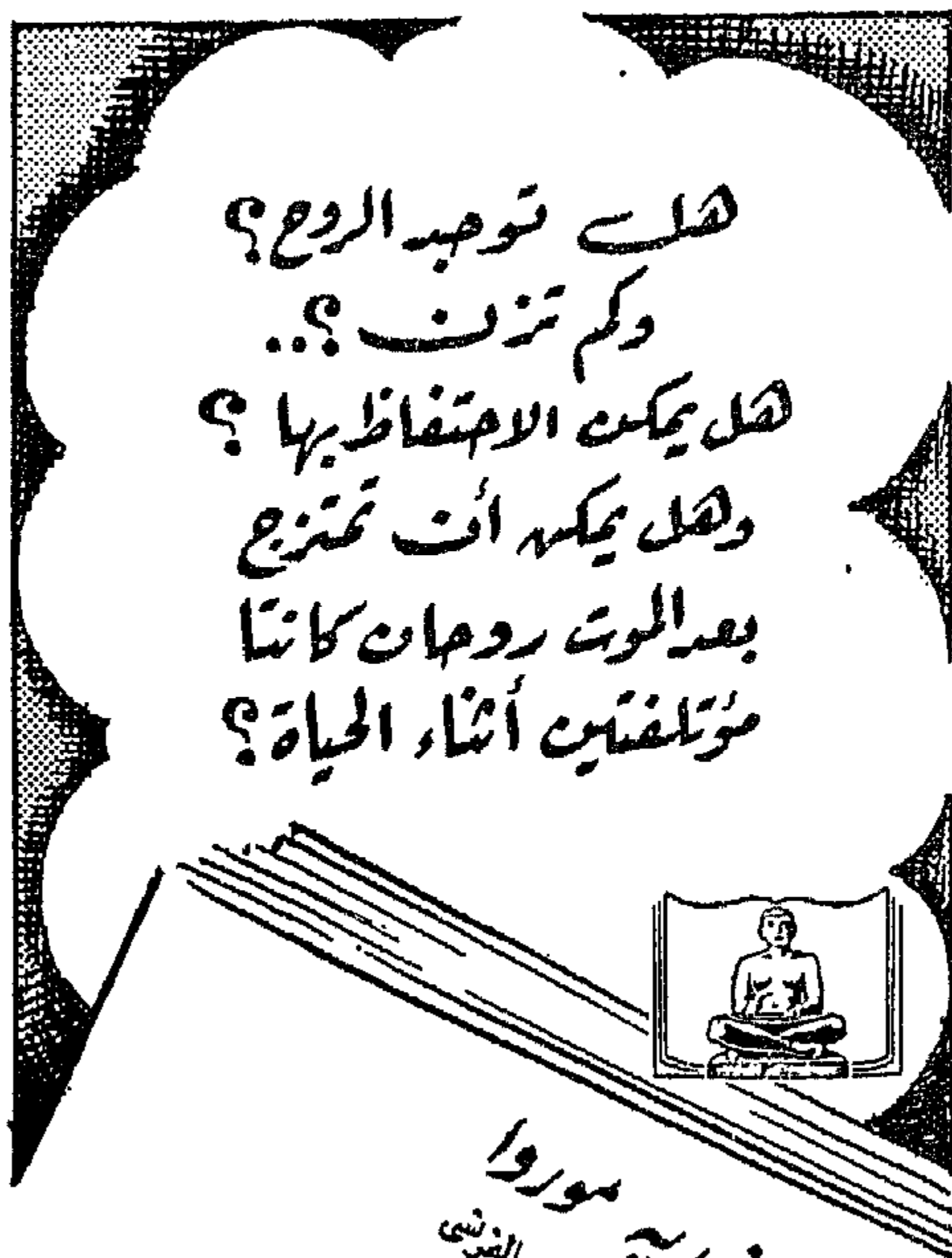
في مجالات الشرق

ضعيفاً هزئاً قالوا إنه أدب لفظ، وهم يعنون أن الأنبوبة فارغة من السائل الذي هو مصدر القوة في الأدب والفن .

« أنا أنكر أشد الإنكار أن يكون للفظ وجود مستقل عن المعنى ، بل أعجب أشد العجب كيف يتصور ناس أن يوجد لفظ دون معنى ، شرط أن يكون لفظاً من الألفاظ الموضوعة في اللغة . وأزيد على هذا أن المعنى الذي أقصده أوسع مما تدل عليه هذه الكلمة عادة ؛ فالمعنى الذي يحمله كل لفظ إنما هو (شخصية) مركبة من حس ومنطق ومنزاج وعاطفة ، كما تتركب (شخصية) الكائن الحي من الناس تماماً ... »

جميعاً أحكاماً في البيان والأدب والفن . وما عجبى لشيء كعجبي لشيوع هذه الأحكام تنهض على تلك الآراء .

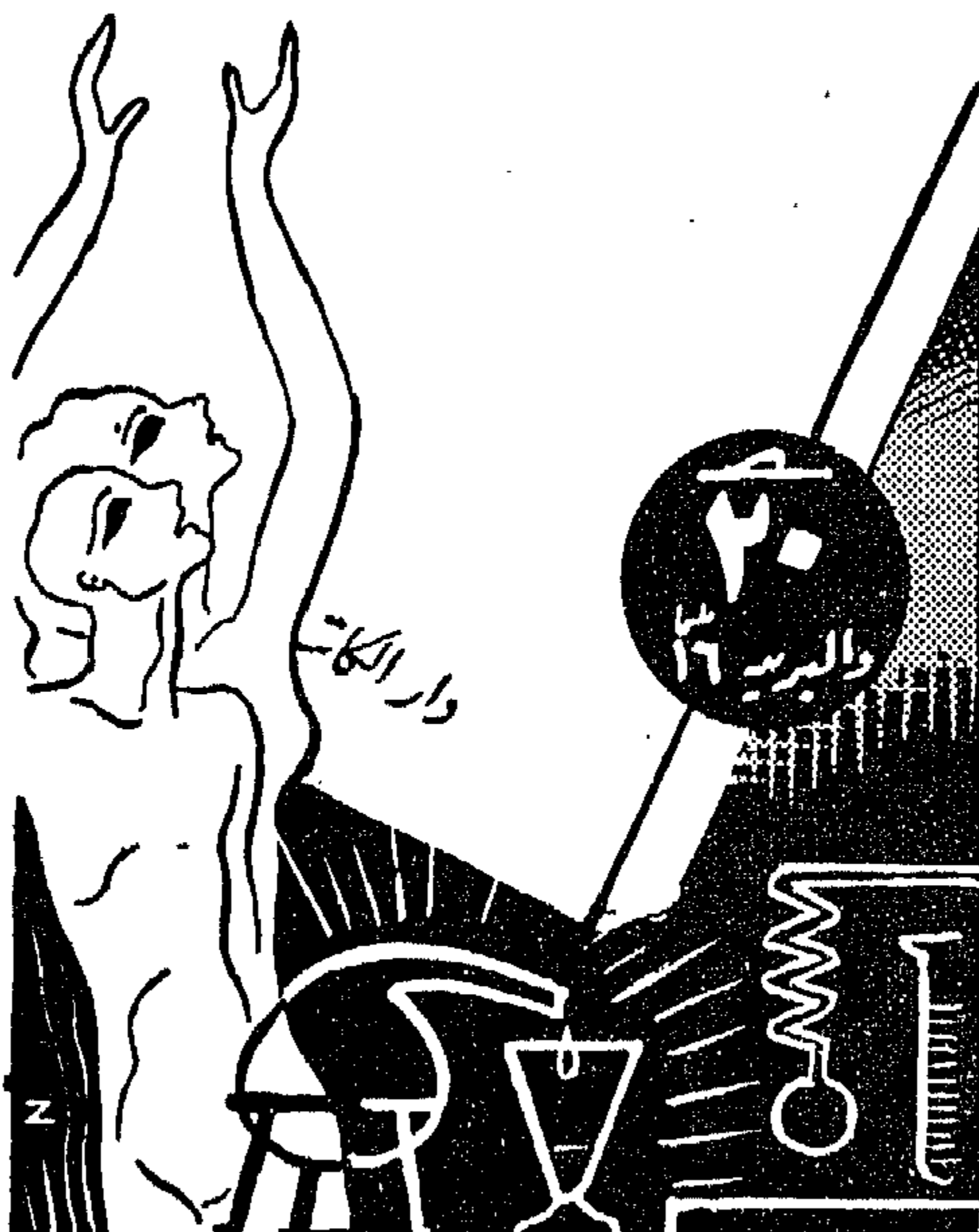
« وليس صحيحاً البتة أن جودة البيان وعبقريّة الأدب وجمال الفن تصدر جميعاً عن ينبوع غير ينبوع اللفظ . ولقد يكون في هذا الرأي صدمة عنيفة لأولئك الذين يهون عندهم شأن اللفظ حتى لينعتون الأدب الضعيف أكثر الأحيان بأنه أدب لفظ وهم يحسبون أن الأدب يتجزأ فيكون منه لفظ ويكون منه معنى ؛ أما اللفظ عندهم فكالأنبوبة الفارغة ، وأما المعنى فكالسائل الذي تملأ به الأنبوبة . فإذا بدا لهم الأدب



اندرية موروا
عضو الجمع القوي الفرنسي

وازن الأرواح

تغريب عبد الحليم محمود



موريس يارس
عضو الجمع القوي الفرنسي

جنة على نهر القاصي

تغريب
لمر عبد الحليم محمود وعبد الحليم محمود



العقيدة والتشريع

في الإسلام

تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى	عبد العزيز عبد الحق	علي حسن عبد القادر
المدرس بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر	المدرس بكلية الشريعة بالجامع الأزهر	دكتور في العلوم الإسلامية مدير المركز الثقافي الإسلامي بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام — تطور الفقه

نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف

الفرق — الحركات الدينية الأخيرة

ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعريين

كتاب ضخيم يقع في ٤٠٠ صفحة

الثن ٨٥ قرشا (البريد ٤٠ مليا)





يهيل سه الناس في أفرامهم واللامه ،
يري كل قاري في مرآة صورة منه نفسها ،
أو صورة منه هولاء ، في إطار قصص
رائع في بيانه وفي فنانه





SCRIBE

٢٠
البريد ١٦ عينها



يحيى الخشاب حكايات فارسية

دار الكاتب المصري

حكايات فارسية

كتاب يحمل الى قراء العبرية
عبيرا رقيقا حسن الموقع في
النفس من هذه الحياة الفارسية
المتأززة بما فيها من رفقة
وفطنة وفكاهة

z



قصّان من الأدب الروى الرفيع



قصة مازعجة
تصور قلب شاب تاشى
يشرف الى الحب فى غير اهدى
ولا تحفظ وما يصيبه منه بأس
هينما يعلم انه كان يحب عشيقه أسير

الشمس ١٥
البريد ١٢ مليناً

قصة شاب ممتحن
يداء القمار لقي من هذا
الدار فى حياته شراً عظيماً
ولهى قصة عنيفة تسائر
بحاجة القارئ الى الاستطلاع

الشمس ١٨
البريد ١٦ مليناً



ليون دوديه

كايخضرو وحياة العاصفة

تعريب حسن محمود

طبعة فرنسية بالصورة
وصفحة ملونة تبين كيف كان هذا الزعيم بعد خطبه

٣٥
والبريد ٢٤



آية فنية خالدة
للكاتب الشهير أوسكار وايلد



صراع بين الأثم والضمير
صورة نهرهم بينما صاهبا
محتفظ بشبابه
نقد للحياة الاجتماعية الإنجليزية
في مزاج من الزل والجد

اوسكار وايلد
صورة
دوريات وولفي
تعميد لويس عوض



والبريد ٢٠٠٠

اوسكار وايلد
شبح كاتين قبل
تعميد لويس عوض



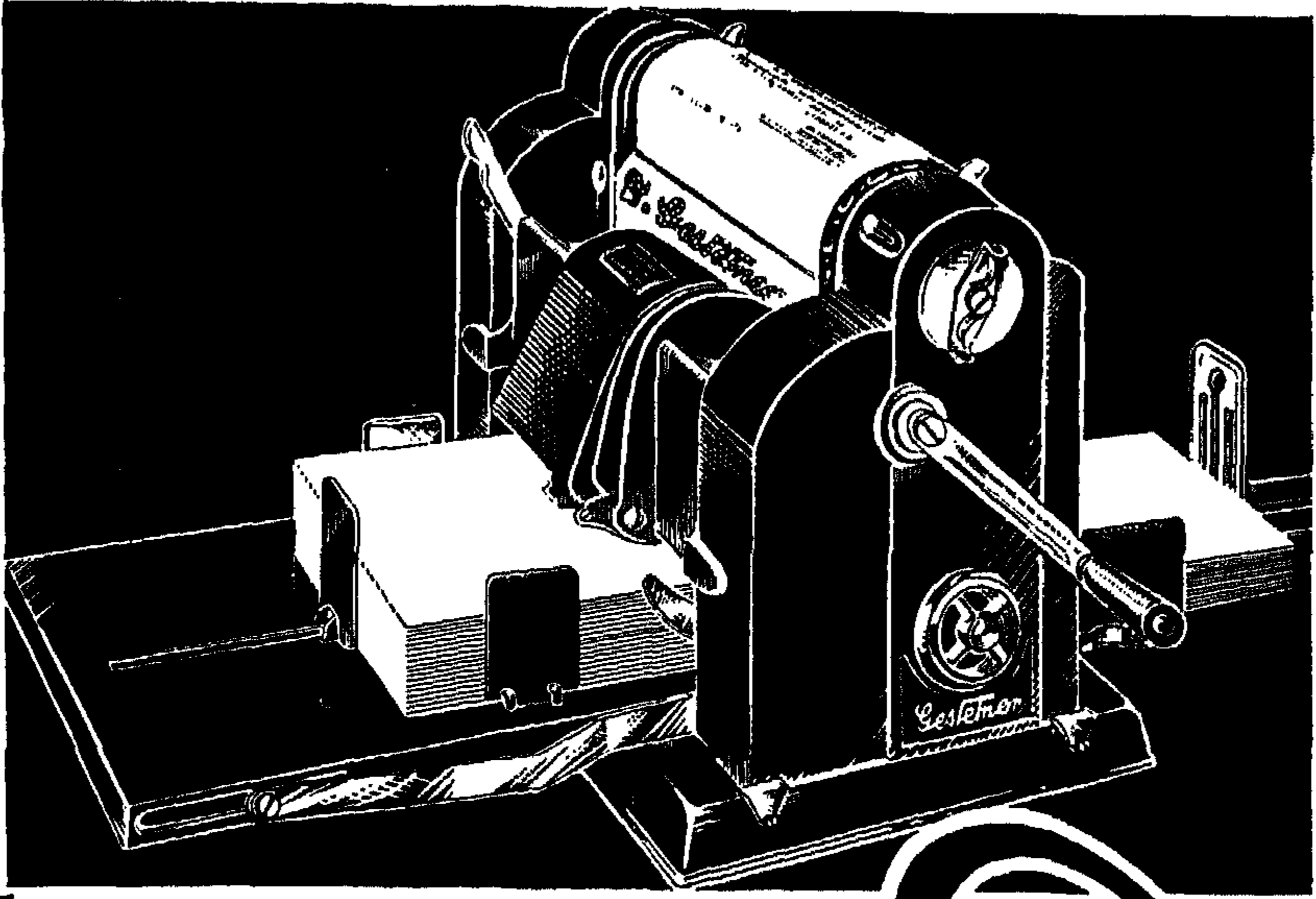
اوسكار وايلد
شبح كاتين قبل
١٨ اقتبا
والبريد ١٦٠٠



ظهر آخر لفضن اوسكار وايلد

مغامرات شبح يجول في ابحار قهر عيش
موازنة بين العقل الإنجليزي
المحافظ والعقل الأمريكي المجتهد
قصة فلكية مرعبة

كتابان مزيان
بصور مختارة
نصف افلام
٢٠٠٠ ج ٠ م



جستيتنر

Gestetner

آلات نسخ الصور ولوازمها



أن ما بلغت منتجاته من
التفوق هو نتيجة للبحث المستمر والتحسين
المتصل منذ سنة ١٨٨١ .
وصلت في مصر آخر نماذج من هذه
الآلات ولوازمها ، اطلبوا كافة الاستعلامات
من الوكلاء الموزعين الوحيدين .

جستيتنر

ضمانات للشقة في النوع
تحقق من هذا الاسم دائما

SCRIBE

الكاتب المصري شركة مصرية قسم آلات وأثاث وأدوات المكاتب
القاهرة الأسيوطية
المركز الرئيسي بالقاهرة ، هـ شارع فنطرة التكت



VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTÉRATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ÉCRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU SIXIÈME CAHIER

JEAN PAULHAN
SLOGANS D'AVANT L'IMPRIMERIE

MICHEL BERVEILLER
CELA S'APPELLE L'AURORE

JEAN LOEWENSON
NAISSANCE D'UN COUPLE

RAYMOND GUÉRIN
APRÈS LA FIN

ETIEMBLE
EVOLUTION DE LA POÉTIQUE CHEZ SUPERVIELLE

PIERRE ROBIN
REMARQUES

HENRI FELIX et GABRIEL MARCEL
SUR L'EXISTENTIALISME

MARCEL PROUST
CINQ ÉTATS DES « JEUNES FILLES EN FLEURS »

ETIEMBLE, HUSSEIN FAOUZI, EDGARD FORTI,
M.G., GEORGES HENEIN, HILDE ZALOSCHER

LES EXPOSITIONS DE PARIS
EXPOSITIONS DE DESSINS D'ENFANTS ÉGYPTIENS
REVUE DES LIVRES, NOTULES, LES REVUES,
BULLETIN.

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTERATURE ET D'HISTOIRE

SOMMAIRE DU NUMERO DE JUILLET

- D. A. ZAKYNTHINOS . . . Activité apostolique et politique étrangère
à Byzance.
RENE DUMESNIL Le Cas « Messiaen ».
Dr. F. MAINZER Le cœur est-il le siège de l'âme ?
RENE SUDRE Les progrès de la biologie.
ARAGON Matisse ou Apologie du luxe.
BERNARD GUYON Réflexion sur l'Art de Péguy (*fin*).

CHRONIQUE THEATRALE

Robert KEMP

CHRONIQUE DES LIVRES

Jean DUPERTUIS

اعلان

أتمت دار الكتب المصرية طبع
كتاب أنساب الخيل لابن الكلبي
وهو معروض للبيع يومياً وثمان
النسخة للجمهور ٢٥٠ ملياً ولباعة
الكتب ٢٠٠ ملياً ولمن يشتري
عشر نسخ فأكثر .

تباع كتب

دار الكاتب المصري

بالبغداد

في المكتبة العصرية

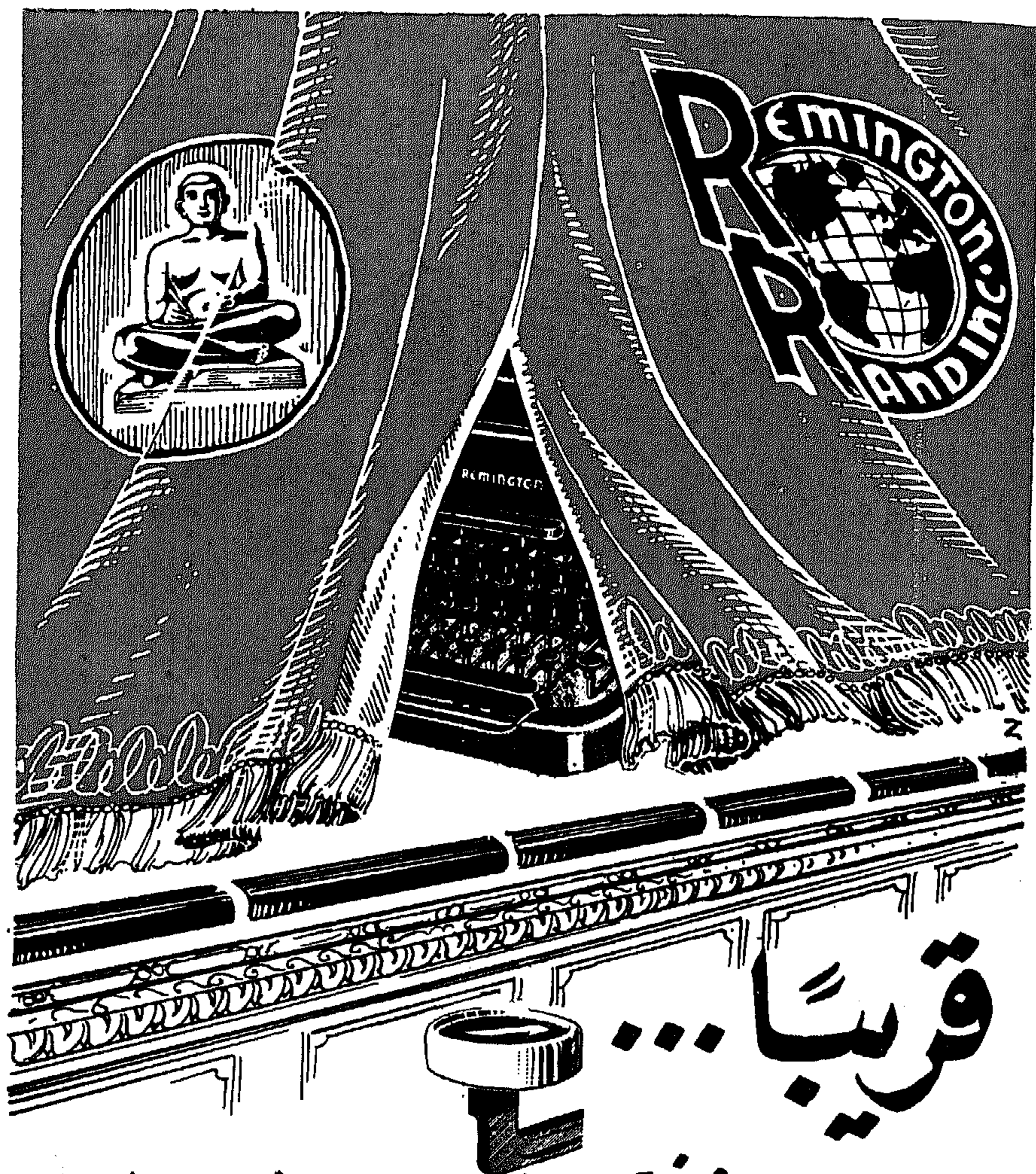
ببغداد

لصاحبها محمود حلمي

تليفون ٦٤٨٠ - ٤٢٧٦ - ٩٤٧٠

وعند وكلائها في الألوية

الموزعين الوهابيين في العراق



قريباً...

آلة الكاتبة رنجتون أجديدة ذات الحروف العبرية
...وفي انتظارها، إذا كان الحظ قد أسعدك باقتناء آلة رنجتون
فلا تهملها والجا إلى قسم الصيانة رنجتون للعناية بها :



بور سعيد
شارع محمد محمود باشا
ت ٤٦٨

الاسكندرية
١٨ شارع طلعت حرب باشا
ت ٢٣٨٩٩

القاهرة
٥٢ شارع قصر النيل
ت ٥٤٢٧٣ ٤٧٨١٥ ٤٥٠٣٤

الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية
المشاهرة الاسكندرية
الركن الرئيسي بالمشاهرة : ه شارع قنطرة الدكة
بور سعيد

SCRIBE



في أرجاء العالم العربي

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

٥٦٧ الأدب المظلم	طه حسين
٥٩٠	المصانعة وسيلة جديدة للاستثمار الصناعي	محمود عزمى
٥٩٦	محادثة بين الأسد البريطانى والدب الروسى	محمد رفعت
٦٠٤	صفحة مجيدة من تاريخ أمة عظيمة ...	سهير القلماوى
٦١٠ المسألة الهندية	محمد عبد الله عنان
٦١٩	من ذكريات جبل رضوى (قصيدة)	فؤاد شاکر
٦٢١ بريطانيا وسر قوتها	سليمان حزين
٦٣٢ بعض الأدباء الذين عرقتهم	سلامه موسى
٦٤١ الماضى القريب والماضى البعيد	حسن محمود
٦٥٤ رياضة الجبل	على حافظ
٦٦٠ النهضة السياسية فى أندونيسيا	محمد جنيدى
٦٧٦ إبراهيم بن المهدي : حياته الفنية	منير الحسامى
٦٨٣ طرف من فلسفة القانون - القانون الطبيعى	محمد على عرفه
٦٨٩ نهاية الأبطال	مير بصرى
٧٠٠ مشكلات التعليم فى لبنان	عبد العزيز أحمد
٧٠٩ الأزمة الأولى	طه عبد الباقي سرور

من هنا وهناك (سلامة موسى ، شحادة الخورى ، عبد اللطيف شرارة)
شهرية العلم - شهرية السياسة الدولية - شهرية الفن - شهرية المسرح
شهرية السينما - من كتب الشرق والغرب - من وراء البحار - ظهر حديثاً
فى مجالات الشرق



تصدرها دار الكاتب المصري
شركة مساهمة مسندة
القاهرة



كاردكس

— لنحسين الإنتاج في المَكمل

نظام كاردكس اختراع أمريكي فريد يتيح ترتيب بطاقات الأعمال ترتيباً أفقياً وليس رأسياً كالنظام العتيق ، وهو لذلك يضمن بطريقة مجيبة سرعة ترتيب تلك البطاقات وتسجيل البيانات فيها . وترى الطرف الأسفل لكل بطاقة — وهو الفهرس — ظاهراً بأكمله ، فيسهل عليك إيجاد البطاقة التي تبحث عنها في الحال . وهناك إشارات ملونة تتحرك على هذا الطرف الظاهر ، فتلفت النظر إلى الموضوعات التي تستدعي إجراء خاصاً . وهكذا يعطى نظام كاردكس لرجل الأعمال صورة منظمة سريعة عن حالة أعماله .



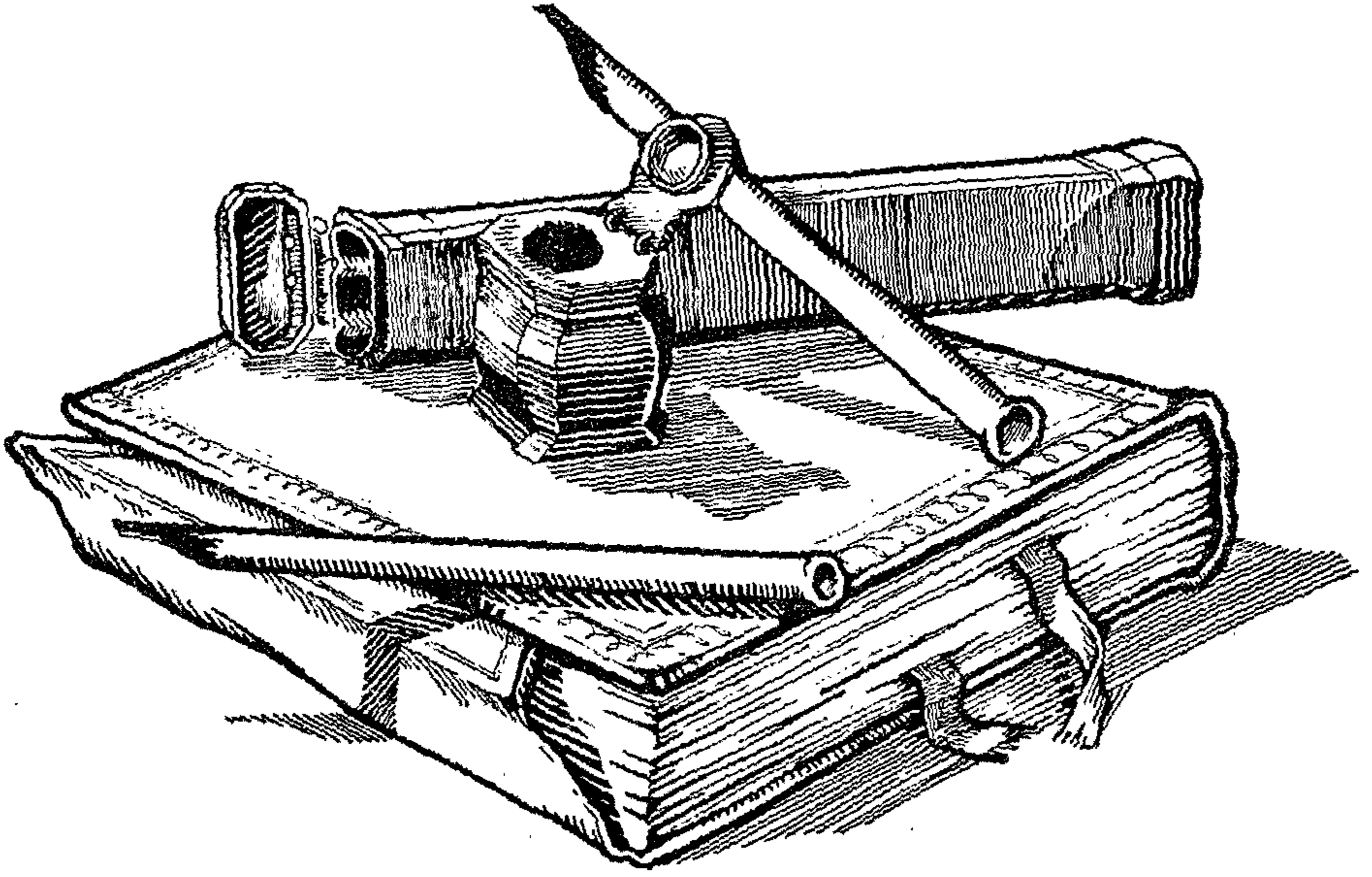
إنتاج مصانع
الآلة الكاتبة
ومنجوتون
راسند

وفي أنحاء القطر المصري ، يستعمل رجال الأعمال نظام كاردكس في تسجيل أهم العمليات التجارية مثل الجرد ، والبيع ، والشراء ، والإنتاج وغيرها من الأعمال . فاستعمال كاردكس يمكن صاحب العمل من « الرقابة » ... وامتلاك زمام عمله إذ يكون أمامه في كل لحظة رسم بياني للأمر يرشده فيما يتخذ من قرارات .

فنظام كاردكس يزيد من كفاية عمالك ، فيساعد على زيادة إنتاجك كما ساعد الشركات الأمريكية .

الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية قمر لالة وإتانة وأدوات المكاتب
المشاهرة
الأسكندرية
الركز الرئيسي بالمشاهرة : ه شارع قنطرة الدكة





لقد انتهى عصر المخطوطات والقلم والمحبرة...

وصارت الكتب الآن في متناول الجميع بفضل
آلات الطباعة الحديثة التي تخرج الآلاف من الكتب
في فترة قصيرة ؛ ومن المستطاع الحصول على الكتب
القيمة بأثمان زهيدة .

لم يبق إذن لدور النشر إلا أن تتبارى في حسن اختيار
مطبوعاتها وإخراج الكتاب في صورة أنيقة بديعة
حتى لكأنه قطعة فنية .

وفي هذا المضمار تجد القارئ على النشر بدار الكاتب
المصري هم السابقين .



دار الكاتب المصري ، قسم النشر بإشراف الدكتور طه حسين بك

ظهِرَ حَرِيثًا

مَآوِنُ جُوسْتِنْيَانِ

فِي الْفِقْهِ الرَّومَانِيِّ

INSTITUTES DE JUSTINIEN

يتبعها

نظام للمواريث وضعه جوستنيان

ويليها

بعض قواعد وتقريرات فقهية رومانية

وبعض تقديرات أخلاقية

نقله إلى اللغة العربية

عبد العزيز فهمي

رئيس محكمة النقض والابرار سابقاً

التمر ١٥٠ قرشاً

البريد المسجل ١٠٠ مليم

والخارج ١١٢ مليم



كتاب قيم في طبعة ممتازة

وتجليد أنيق

كتاب يعد فتحاً جديداً في الأدب

أرض البشر

للكاتب الطيار انطوان دي سانت اكسيري

راشد من الرعيل الأول
للطيارين ينظر إلى الكون خلال
تجربته نظرة الشاعر الفيلسوف،
يصلنا بالآفاق الشاسعة
ويضعنا في صميم الخطر
وفي صميم العمل

تعريب مصطفى كامل فوده
طبعة فريضة بالصورة



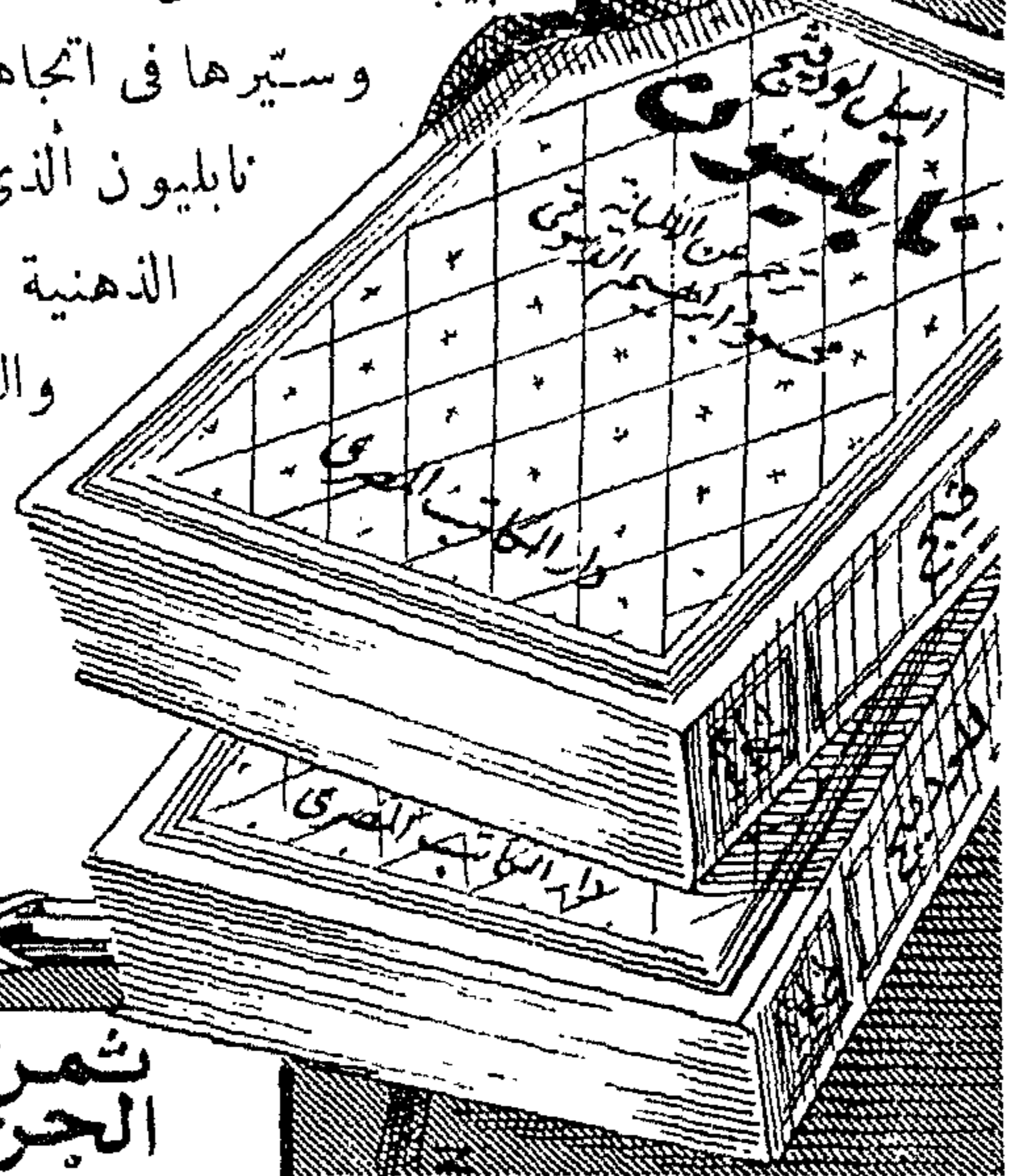
2

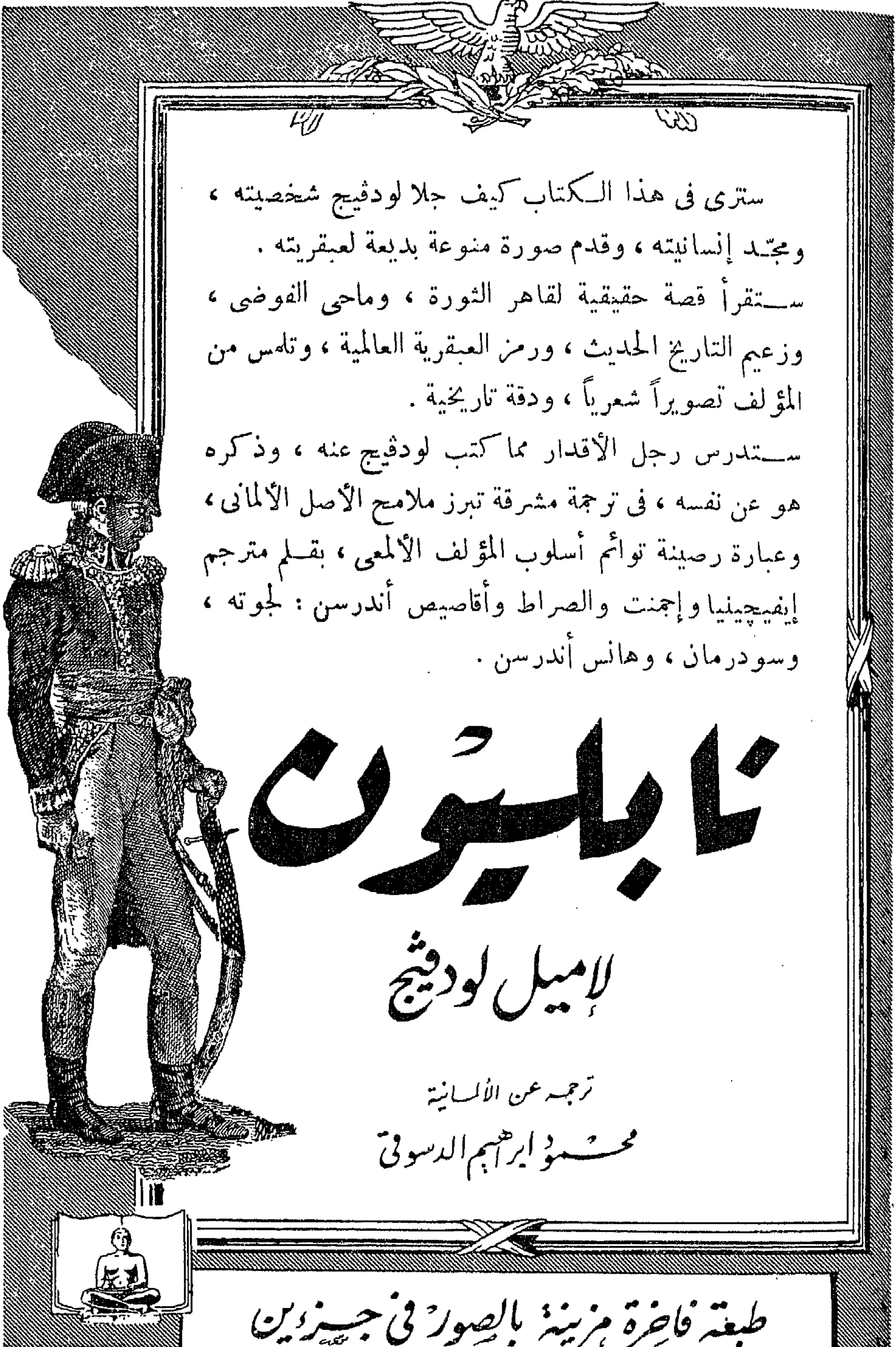
والبريد
٢٥
٢٠ مليوناً

تَحْلِيلُ الْفَذْلِ

في هذا الكتاب الفذ ، مؤلفه الفذ ، يبدو نابليون عظيماً في رفعتة ، عظيماً في محنته ، يثير الاهتمام اليوم ، كما أثاره قبل اليوم ، ويشير به بعد اليوم : شخصية ضخمة يتعدل فيها الرأي كل يوم . فنابليون السائس ، ونابليون القائد ، ونابليون المفكر ، قد كان إلى ذلك رباً من أرباب القلم ، ومالكاً قديراً لناصرية الكلام . في هذا الكتاب يحدثنا نابليون عن نفسه ، ويعيش في حاضرنا كما عاش في حاضره ، ويعرض صور عصره حية متحركة . نابليون الواسع العلم ، المحدث بالعالم ، المحيط بتاريخه ، وهو ما يزال غض الإهاب ، في شرح الشاب . نابليون الذي وضع أذنه دائماً على قلب الجماهير شأن الطبيب الفاحص ، لا الحب الواله ، فعرف اتجاهها ، وسيرها في اتجاهه .

نابليون الذي تفوق في أعماله الحربية بصفاته الذهنية ، وكان سلاحه النظر ، والحساب ، والتصميم ، والفصاحة ، ومعرفة الناس . نابليون الذي اعتز بلقب عضو المعهد أكثر مما اعتز بلقب الفاتح . هل كان رجل جلاد ، مبيداً للعباد ، عاملاً لشخصه ، بانياً لمجده ؟





سترى في هذا الكتاب كيف جلا لودفيج شخصيته ،
ومجد إنسانيته ، وقدم صورة متنوعة بدیعة لعبقريته .
ستقرأ قصة حقيقية لقاہر الثورة ، ومأحی الفوضى ،
وزعيم التاريخ الحديث ، ورمز العبقرية العالمية ، وتلمس من
المؤلف تصويراً شعرياً ، ودقة تاريخية .

ستدرس رجل الأقدار مما كتب لودفيج عنه ، وذكره
هو عن نفسه ، في ترجمة مشرقة تبرز ملامح الأصل الألماني ،
وعبارة رصينة توائم أسلوب المؤلف الألمعي ، بقلم مترجم
إيفيچينيا وإجنت والصراط وأقاصيص أندرسن : لجوته ،
وسودرمان ، وهانس أندرسن .

نابليون

لاميل لودش

ترجمه عن الألمانية

محمود إبراهيم الدسوقي

طبعة فائزة مزيئة بالصورة في جيزدين



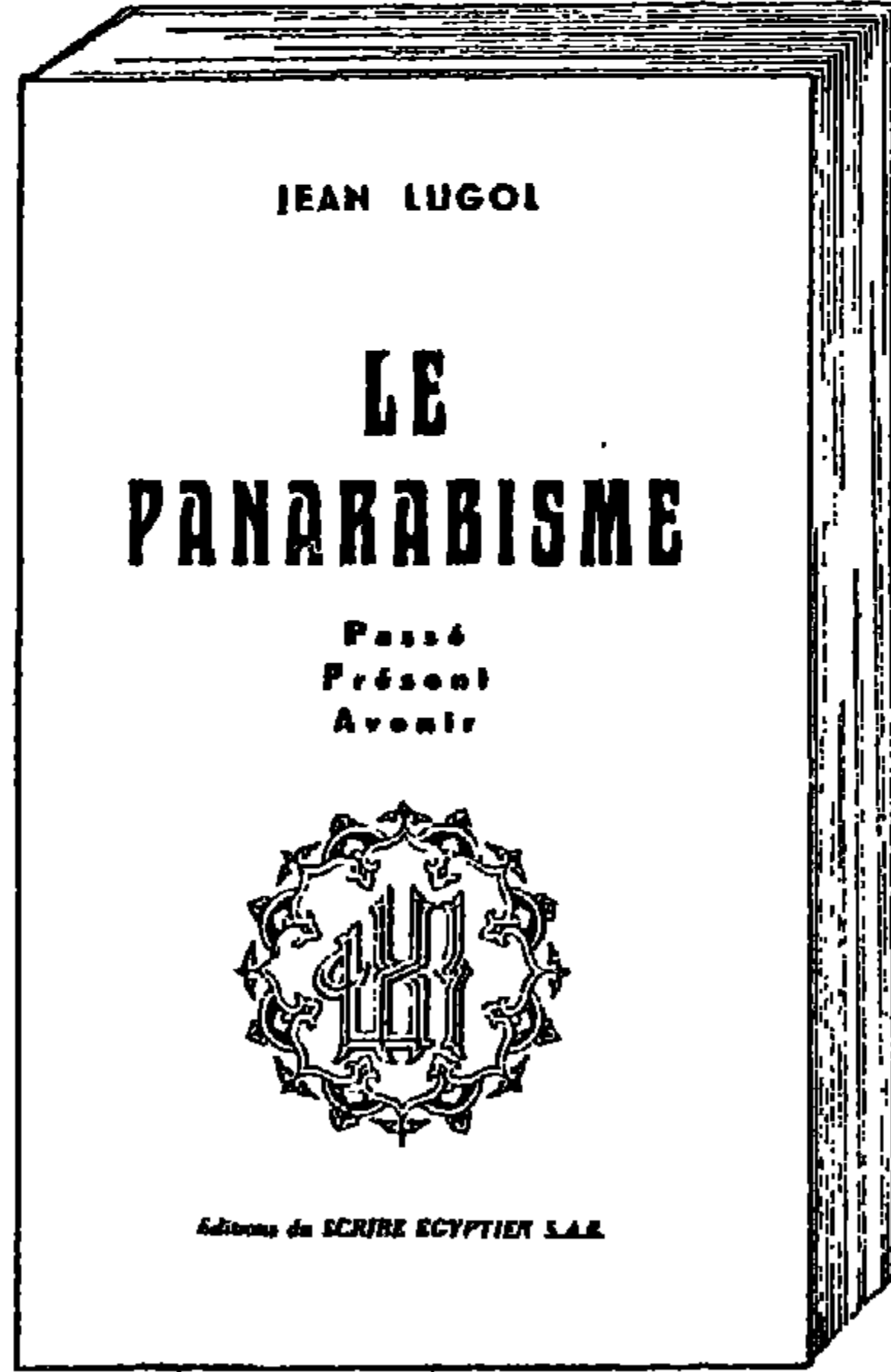
SCRIBE

حكايات فارسية

كتاب يحمل الى قراء العبرية
عبيرا رقيقا حسن الموقع في
النفس من هذه الحياة الفارسية
المتأخرة بما فيها من رقة
وفطنة وفكاهة



الى قراء اللغة الفرنسية



إن نهضة العالم العربي التي تعد من أهم حوادث الحرب العالمية الثانية تمتد إلى ألف سنة من تاريخ الشرق . فهي تنبئ بنظام سياسى جديد للمستقبل . ولا يستطيع أحد أن يتجاهل هذه المشكلة التي تعد — فى وقت واحد — مشكلة دينية وأخلاقية وسياسية واجتماعية واقتصادية والتي ما فتئت — منذ أبعد الأزمان حتى أيامنا هذه — تشغل اذهان الناس .

ومسيو جان ليجول — الموظف فى عصبة الأمم سابقاً والصحفى الذى استوطن مصر منذ زمن بعيد ، مؤلف عدة كتب عن مذهب التوحيد والحضارة وعن مصر والحرب العالمية الثانية الخ — قد رسم صورة عظيمة للحضارة العربية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وإنه لمن الضرورى لكل شخص أن يقرأ هذا الكتاب الذى يقوم على وثائق صحيحة والذى كتب فى روح سمحة .

كتاب ضخم يقع فى ٣٠٠ صفحة

الثنى ٨٠ قرشاً
البريد ٣٦ ملياً



طبعة مزينة بعدة صور
وخرائط

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصري في أول كل شهر عن دار الكاتب المصري ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعها .

الاشتراك

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب
المصري . لا تقبل الاشتراكات لأقل من
سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصري تعنى بكل
ما يرد إليها من المقالات والرسائل
ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الإدارة : ٥٤٢٧٣-٤٧٨١٥-٤٥٠٣٤



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكاتب المصري



سبتمبر ١٩٤٦

شوال ١٣٦٥

مجلد ٣ — عدد ١٢

الأدب المظلم

ليست حياة الناس كلها ورداً ، وليست حياة الناس كلها شوكة . وقد أنبأنا شاعرنا القديم منذ عشرة قرون بأن العاقل يشقى بعقله في النعيم ، وبأن الجاهل يسعد بجهله في الشقاء . ومعنى هذا أن الحياة شوك بالقياس إلى العاقل الذي يحلل ويعمل ، ويحصى ويستقصى ، ويحاول أن يرد كل شيء إلى علته ، ويستخرج من كل شيء نتيجة ، وأن الحياة ورد بالقياس إلى الجاهل الذي يأخذها كما تساق إليه لا يحاول لها فهما ولا تأويلا . وتستطيع أن تعرض هذه القضية عرضاً آخر فتقول : ليست الحياة كلها مشرقة كما يشرق النهار ، وليست الحياة كلها مظلمة كما يدلم الليل . وأكبر الظن أنها تظلم وتدلم حين يريد العاقل أن يحياها عن بصيرة وفهم ، وأنها تشرق وتضيئ حين يريد الجاهل أن يقبلها كما تهدي إليه . وأكبر الظن كذلك أن إشراقها بالقياس إلى الجاهل نفسه لا يخلو من ظلمة تغشاها بين حين وحين فتخفي معالمها وتشوه محاسنها وترد صاحبها على جهله إلى الحيرة حيناً وإلى القنوط حيناً آخر ؛ وأن ظلمتها بالقياس إلى العاقل لا تخلو من ضوء ضئيل نحيل ينفذ إليها أو ينفذ منها كما ينفذ السهم فتشرق له بعض جوانبها لحظات تقصر أو تطول .

وليس في ذلك شيء من الغرابة ؛ فضاء الشمس يحجبه السحاب ، وظلمة الليل يجلوها ضوء القمر أو تخرقها أشعة النجوم . والناس كلهم يعلمون أن حياتهم مزاج من الخير والشر ، ومن السرور والحزن ، ومن الرجاء واليأس ، ومن الابتهاج والابتئاس . تختلف حظوظهم من هذه النقائص باختلاف

الطباع والأمزجة ، وباختلاف البيئة والظروف ، وباختلاف هذه المزايا التي ركبت في نفوسهم والتي تعكس لهم الحياة نقية صافية حيناً ، وكدره قاتمة حيناً آخر . ولكنهم بعد ذلك يختلفون ، أو قل إن أدباءهم وفلاسفتهم يختلفون حين يريدون أن يصوروا لهم هذه الحياة فيما يحدثون من فلسفة ، وفيما ينشئون من أدب . فبعضهم لا يصور من الحياة إلا صفوها وعفوها ، وما يشيع فيها من نقاء وجمال . وبعضهم لا يصور من الحياة إلا شرها ونكرها وما يجثم عليها من فساد وضلال . وبعضهم يتوسط بين ذلك فيصورها شائقة رائقة حيناً ، ويصورها قاتمة بغیضة حيناً آخر . وليس في شيء من هذا كله جديد ، فن الكتاب من يتفائل دائماً ، ومنهم من يتشاءم دائماً ، ومنهم من يأخذ من التفاؤل والتشاؤم بطرف . ولكن الجديد هو أن من الأوربيين من يلوّنون هذه الآداب المتباينة ألواناً مختلفة ، ويسمونها بهذه الألوان ؛ فالأدب الخالص للتشاؤم أدب أسود ، والأدب الخالص للتفاؤل ، والأدب الملائم بين التفاؤل والتشاؤم ، يأخذان ما يريد الكاتب أو المتحدث أن يسبغ عليهما من الألوان حين يريد العبث أو الدعاية . وهذا كله لا يزيد على أن يكون نحواً من أنحاء التحديق ، وفناً من فنون الإغراب .

ولأمر ما لا يكاد الأوربيون في هذه الأيام يحفلون بأدب التفاؤل ، ولا بالأدب الذي يتوسط بين التفاؤل والتشاؤم ، وإنما يعنون العناية كلها بالأدب الأسود الذي يخاص للتشاؤم ، ويصور الحياة في أبشع صورها وأقبح مناظرها ، لا يخفى ولا يحاول أن يخفى من ذلك شيئاً ، بل يجتهد في إظهار الخفى وتوضيح الغامض ، واستكشاف مالا يهتدى إلا إنسان إليه من سيئات الحياة ، ومن ضعة الحظ الذي كتب للإنسان في هذه الحياة . وأكبر الظن أن الحن التي امتلئت بها أوربا في هذا القرن ، والخطوب التي صبت على الإنسانية في الحربين العالميتين ، وما تكشفت عنه نفوس الأفراد والجماعات من أثره لأحد لها ، موضوعة لا سبيل إلى وصفها ، وضعف أمام الأحداث ، وتخاذل أمام الكوارث كل ذلك قد أظهر للإنسانية على سيئاتها ، وكشف لها مخازيها ، وعلمها أنها ليست من الرفعة والسمو ولا من الطهر والنقاء بحيث كانت تظن حين كانت حياتها مطمئنة راضية

وهذه الظاهرة التي نراها الآن في أوربا ، ظاهرة الإقبال على التشاؤم ،

والإنتاج للآثار القائمة ، والإعجاب بالأدب الأسود هذه الظاهرة نفسها ليست جديدة ، وإنما هي شئ ألفته الإنسانية منذ أقدم عصورها ؛ فهي متفائلة مبتهجة حين تكون حياتها راضية مطمئنة ، وهي متشائمة مبتئسة حين تعصف بها الخطوب ويشيع في حياتها القلق والخوف . وقد نستطيع أن نسجل في هذا الحديث السريع بعض الظروف التي بدت فيها هذه الظاهرة قوية جامحة توشك أن تكتسح كل شئ ، وتوشك أن تسبغ على الأدب بنوع خاص هذه الظلمة القائمة ، وهذا السواد الخفيف .

والأدب اليوناني بالطبع قد سبق إلى الخضوع لهذه الظاهرة في القرن الخامس قبل المسيح حين اضطربت حياة العالم المتحضر في ذلك الوقت بالاصطدام بين اليونان والفرس ، وحين اضطربت حياة اليونان أنفسهم بالاصطدام بين الآتينيين والأسبارتيين . وليس من شك في أن الهول الذي انتشر في بلاد اليونان بحكم هذه الحروب المتصلة قد حمل العقل اليوناني قبل كل شئ على أن يفكر في الحياة ، ويحاول أن يعلل ما فيها من خير وشر ، ومن نعيم وبؤس . وهو لم يكد يعرض لهذا الموضوع حتى ثارت أمامه هذه المشكلات الإنسانية الخالدة التي تتصل بالعلاقة بين الإنسان والآلهة ، بل بين الإنسان والقضاء الذي يسيطر على حياته ويصرفها كما يشاء هو لا كما يشاء الإنسان . وليست المأساة اليونانية وآياتها الخالدة إلا مظهراً من مظاهر هذه الحيرة ، التي سيطرت على العقل اليوناني حين صور لنفسه هذه المشكلات ، وأراد أن يجد منها مخرجاً ويلتمس لها حلاً .

وكان الجواب الأول الذي ألقاه العقل على الإنسان وصورته المأساة أروع تصوير ، هو أن هناك قوة قاهرة مأكرة ليس لأحد عليها سلطان ، لا من الناس ، ولا من الآلهة أنفسهم ، وهذه القوة هي القضاء المحتوم الذي لا يستطيع أحد لأحكامه نقضاً ولا تغييراً . وكل ما في الأمر أن في الوجود طبقتين تتمايزان من جهة ، وتتشابهان من جهة أخرى : إحداهما طبقة الآلهة التي لا تخضع لغير القضاء ، والتي تمتاز بشئ من القوة وظاهر من الحرية . والثانية هي الإنسان الذي لا يخضع للقضاء وحده أو قل لا يخضع للقضاء مباشرة ، وإنما يخضع له من طريق الآلهة الذين ينفذون فيه الأمر ويمضون فيه الإرادة المحتومة . فالأقدار مثلاً قد كتبت على أويديبوس أنه سيقتل أباه ، وسيتزوج أمه ، وسيكون

له منها ابنان يقتل كل منهما صاحبه في موقعة حاسمة ، وابنتان تموت إحداها في سبيل أداء الواجبات الدينية لأحد أخويها حين يدركه الموت وتأتي الدولة إلا أن تتركه بالعراء نهباً لسباع الطير . وحظ الآلهة من القدرة إنما هو إنقاذ هذا القضاء ، تسخير الإنسان له تسخييراً ، تنصح له قليلاً وتضلله كثيراً وتعتب به دائماً . فهي توحى إلى لا يوس ملك ثيبة أن سيكون له ابن يُرديه ، وهي تلقى في رُوعه أنه إن استطاع أن يتخلص من هذا الابن حين يولد فقد يفلت من هذا القضاء المحتوم . وما تزال تغريه بذلك وتزينه في قلبه حتى يدفع بالصبي حين يولد إلى أحد الرعاة ليقله . وقد عاد الراعي إليه فأنبأه بأنه أنقذ إرادته ، فيطمئن الملك وينعم بحياة قوامها الغرور ؛ لأن الراعي لم ينفذ أمره ولم يصدق الخبر . أَلقت الآلهة في رُوعه حب الصبي والعطف عليه فلم يقتله ، وإنما تركه في حيث استطاع راع آخر أن ينقذه ويكفل له الحياة .

وكذلك عبثت الآلهة بالملك فغرته وأملت له ، وعبثت بالراعي فزيّنت في قلبه الحب والرحمة ، وأتاحت للصبي أن ينشأ وينمو ويبلغ أشده ويصبح قادراً آخر الأمر على أن يقتل أباه ويستأثر بعرشه ، ويتزوج من أمه وينفذ حكم القضاء . فحكم القضاء إذن ضرورة محتومة لا يفلت من سلطانها أحد ، وليس الآلهة أنفسهم إلا أدوات لإنقاذ هذا الحكم مهما يظهر من سلطانهم على الناس ومداورتهم لهم ، ولـكنهم على كل حال يستمتعون بظاهر من الحرية يتيح لهم هذه المداورة .

وقد استطاع العقل اليوناني في هذا الطور من أطواره أن يمنح الإنسان شيئاً من الحرية الظاهرة ، لأقول في تغيير حكم القضاء ، ولا أقول في التخلص من سلطان الآلهة ، وإنما أقول في الثبات لهذا القضاء ، والحزم أمام سلطان الآلهة . فأويدبوس لا يغير من الضرورة المحتومة شيئاً لأنه لا يستطيع تغييرها . وهو ينخدع بوحى الآلهة ، فيفر من منقاه معتقداً أنه سيظفر بالحرية كل الحرية نتيجة لهذه المغامرة . وهو يحل اللغز الذي يلقيه عليه ذلك الكائن الغريب أمام مدينة ثيبة ، ويظفر بالعرش ، ويتخذ الملكة لنفسه زوجاً ، ويرى أنه قد ظفر بالسعادة كل السعادة ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن الآلهة إنما سلكت به هذه الطرق كلها لتنفيذ على يده حكم القضاء فتضطره إلى قتل أبيه ، ثم لتنفيذ فيه هو حكم القضاء فتضطره إلى أن يتزوج أمه ويعقب منها الولد .

فحريته إذن أمام القضاء وأمام الآلهة ليست شيئاً ، ولكن له مع ذلك نصيباً من الحرية فهو يثبت للكارثة ، قد فقاً عينيه ، ونفى نفسه من الأرض ، ولكنه لا يتهم نفسه بشيء ولا يلومها على شيء ، فهو لم يأنم ، وإنما كتب القضاء عليه الإثم وضلته الآلهة حتى تورط فيه . ولو خير لاختار ، ولو عرف أن هذا الشخص الذي لقيه في الطريق هو أبوه لما قتله ، ولو عرف أن هذه الملكة التي أهدت إليه نفسها وعرش زوجها هي أمه لما تزوجها . وإذا فهو مجبر لا مختار ، وإذن فهو لا يحتمل تبعه ولا يستحق لوما ، وهو في حقيقة الأمر لا يعاقب نفسه حين يفقأ عينيه ويهاجر من وطنه ، وإنما ينفذ حكم القضاء ، ويخضع لسلطان الضرورة . لم يكن يملك إلا هذا ، ولكنه على ذلك ينكره ويثور عليه ، ويرى نفسه بريئاً أمام الآلهة وأمام القضاء

وكذلك نرى الإنسان يعرف نفسه أولاً ويعرف ضعفه ثانياً ، ويعرف أن هذا الضعف لا يأتيه من عند نفسه ، وإنما يأتيه من عند هذا السلطان الأعلى الذي يتحكم فيه ويصرف أمره كما يريد ، لا يستشير ولا يستأمره ، وإنما يسخره لما يريد تسخيراً . والمهم بعد ذلك هو أن الإنسان يحقق هذا كله ، ويصارع القضاء بأنه غير ملوم .

ومهما يكن من شيء فقد أُلقيت المسألة الخطيرة ، مسألة الصلة بين الإنسان وبين الآلهة ، بل مسألة الصلة بين الإنسان وبين القضاء . والذي يحدث بالقياس إلى أويديبوس هو بعينه الذي يحدث بالقياس إلى غيره من أبطال المأساة ، فهم جميعاً يمتحنون لا في قدرتهم على الخير ولا في ترجيحهم بين الحسنة والسيئة ، وإنما يمتحنون في احتمالهم للمكروه ، وإذعانهم لحكم القضاء ، وثباتهم لما ينزل بهم من الملمات ، فمنهم من يذعن في غير اعتراض ، ومنهم من يذعن في شيء من المقاومة ، ومنهم من يود لو يثور ، فإذا أعجزته الثورة احتفظ بحريته كاملة بينه وبين نفسه ، وحمل الآلهة والقضاء تبعه ما يتورط فيه من شر ، وما يجري على يديه من أحداث .

فالمأساة إذن في حقيقة الأمر ليست إلا لوناً من ألوان التشاؤم حين ينظر الإنسان إلى الصلة بينه وبين هذه القوة المتسلطة التي تحكم لا معقّب لحكمها . ومع ذلك فهذا اللون من ألوان التشاؤم ليس سواداً كله ، بل فيه شيء قليل أو كثير من الإشراف ، لأن فيه شيئاً قليلاً أو كثيراً من الأمل الذي يأتي من

الأدب المظلم

معرفة الإنسان نفسه ، ومن شجاعته عند البأس ، وقدرته على المقاومة ، وصبره على المكروه صبراً يأتيه من إرادته لا من شيء آخر . ومن هنا كانت المأساة اليونانية تصويراً لبؤس الإنسان من جهة ، ولبطولته من جهة أخرى . وقد يخيّل إلى الناس أن المأساة اليونانية هي وحدها الأدب الأسود في الحياة العقلية اليونانية . ولكن شيئاً من التفكير اليسير يُظهرنا على أن السواد كان يجلل الأدب اليوناني كله في ذلك العصر المجيد الذي أورث الإنسانية هذا التراث الخالد العظيم .

فلسفة السفسطائيين في القرن الخامس قبل المسيح لم تكن إلا نوعاً من التشاؤم ؛ لأنها كانت تنكر الحقائق ، وتقيم أمر الحياة كله على التخيل والخداع . لم يكن المهم عند الفلاسفة السفسطائيين أن يعرفوا الحق لأنهم يئسوا من معرفة الحق ، وإنما كان المهم أن يلبسوا الحق بالباطل ، ويخدعوا نظراءهم من الناس . وواضح جداً أن الفلسفة التي تقوم على اليأس ليست من الإشراف ولا من السطوع في شيء .

والملمهة اليونانية التي كانت تملأ الملاعب ضحكا وتخرج النظارة عن أطوارهم ، لم تكن في حقيقة الأمر مشرقة ولا ناصعة ، وإنما كان إشراقها تكلفاً ونصوعاً خداعاً ؛ فهي كانت تُضحك النظارة من أنفسهم ، وتعبث أمامهم بما كانوا يكبرون من القيم ، وهي كانت تظهر منهم بالرضا وتضطرهم إلى الإعجاب . ومعنى ذلك أنها كانت تكشف لهم عما في حياتهم الفردية والاجتماعية من السخف الذي لا يستحق منهم إعجاباً ولا إكباراً ، وإنما يستحق منهم سخرية واستهزاء . فأرستوفان حين كان يُضحك الشعب من حكومة الشعب ، وحين كان يعبث بفلسفة الفلاسفة وسياسة الساسة وأدب الأدباء ، إنما كان يسخر ويحمل الاتيين على أن يسخروا معه من هذه القيم الفلسفية والسياسية والأدبية التي كانوا يقدرونها ويكبرونها خارج الملعب صادقين فيما بينهم وبين أنفسهم أو كاذبين . لم يكن أرستوفان يزيد على أن يثبت للاتيين أن ما كانوا يزعمون به على المدن اليونانية ويزعمون به حياتهم لم يكن إلا سخفاً وباطلاً . ومن هنا نفهم ما يقال في تاريخ الفلسفة من أن سقراط وتلاميذه إنما أنفقوا جهودهم الهائلة الخصبية ليقاوموا هذه النزعات السفسطائية التي تؤيس الإنسان من نفسه ، وتفسد الصلة بينه وبين آلهته ، وتدفعه إلى نوع من الفوضى لا ينتج له إلا العبث والشك

والاستهانة بكل شيء والانتقاض على كل سلطان . وليس يعنيني أن أئين الآن ما أتيح لسقراط وتلاميذه من الفوز بقدر ما يعنيني أن ألاحظ أن الجهود التي بذلها سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس لرد الإنسان إلى شيء من النظام والاستواء ، ولتنظيم الصلة بينه وبين هذه القوة العليا التي تدبر أمره هذه الجهود نفسها قد انتهت إلى الإخفاق . وقد يكون الأدب اليوناني في عصر سقراط وتلاميذه بعيداً عن التشاؤم . ولكن الشيء المحقق هو أن هذا العصر قد انتهى آخر الأمر إلى تشاؤم الرواقين والأيقوريين وأصحاب الشك ، وعادت القضية الإنسانية سيرتها الأولى ، ووقف الإنسان من الآلهة موقفه القديم الذي كان يملؤه اليأس ، ويشيع فيه الإذعان الخالص أو الإذعان الذي تشوبه المقاومة أو الذي كان يدفع إلى الثورة الصريحة التي دفع إليها أبيقور وتلاميذه ، والتي أورثت الإنسانية في العصر القديم أروع نماذج الأدب الأسود ، ذلك الذي يقطع الصلة بين الإنسان وبين آلهته ، والذي يعلم الإنسان ألا يؤمن إلا بنفسه ، ولا يعتمد إلا عليها ، ولا يأمل إلا فيها ، والذي يعلم الإنسان كيف يرى نفسه من الوهم ، ويخلصها من خوف الآلهة ، ويعصمها من رهبة الموت ، ويزهدها في لذات الحياة ، ويأخذها بأن تنظر إلى حقائق الأشياء كما هي في غير خداع ولا انخداع . والذين يقرءون « طبيعة الأشياء » للشاعر اللاتيني العظيم لوكريس يتبينون أن سقراط وأصحابه لم يقهروا الأدب الأسود إلا وقتاً قصيراً ، وأن هذا الأدب الأسود لم يلبث أن استأنف فوزه وانتصاره وتسلطه في أشكال مختلفة متباينة على عقول الخاصة والعامة جميعاً . وواضح جداً أني هنا لا أستقصى ولا أتعرق ، وإنما أكتفي بالإشارة والإجمال عن التاميح والتفصيل .

وقد يكون من الخير أن أتجاوز اليونانيين والرومانيين وأدبيهما العظيمين ، إلى أدب شرقي ما أظن أنه قد كان أقل منهما تصويراً لهذا الموقف الخبير ، موقف الإنسان العاقل من هذه المشكلة المعقدة ، مشكلة الصلة بينه وبين القضاء — وهو الأدب اليهودي . ويكفي أن يستمتع القارئ بالنظر في سفر أيوب ليرى كيف ألفت المسألة ، وكيف عرضت المشكلة ، وكيف ثار حولها الشك ، وكيف اقترحت لها الحلول ، وكيف انتهت أمرها بالإذعان لقضاء الله الذي لا يستطيع الإنسان أن ينفذ إلى أسرارها ، ولا أن يتعمق حكمته البالغة . وليس أدبنا العربي بأقل من هذه الآداب القديمة حظاً من الوقوف عند هذه

المشكلة والتأثر بها فيما أنتج الأدباء من الشعر والنثر ، وفيما أنتج الفلاسفة من الكتب والفصول . وكما أن الاضطراب الذي تعرضت له الأمة اليونانية في القرن الخامس قد أنتج فيها الأدب الأسود الأول ، وكما أن الاضطراب الذي نشأ عن حروب الإسكندر وخلفائه وعن حروب الرومان قد أنتج الأدب الأسود الثاني عند أولئك وهؤلاء ، وكما أن المحن التي صبت على بني إسرائيل قد أنتجت لهم الأدب الأسود في عصرهم القديم ، فكذلك الاضطرابات التي تعرضت لها الأمة العربية بعد الفتوح بحكم الفتن والثورات قد أنتجت لها أدبها الأسود منذ القرن الأول للهجرة ، وظلت تنتجها لها إلى أن مات أبو العلاء (١) .

فشعر الشيعة المضطهدين ، وشعر الخوارج الثائرين ، لا يروق لأنه يظهر الحياة جميلة خلابة ، ولا يعجب لأنه يظهر لنا محاسن هذا العالم ، وإنما يؤثر في النفس لأنه يبين لنا أن هذه الحياة بعيدة كل البعد عن أن ترضى أو تسر ، قريبة كل القرب من أن تسخط وتسوء ؛ لأن الظلم عليها غالب والفساد فيها شائع ، ولأنها قد فقدت شيئاً خطيراً لا تطيب الحياة إلاّ به ولا تستقيم إلاّ عليه ، وهو العدل الذي يعطى كل ذي حق حقه ، ويسوى بين الناس في مواجهة الحياة واحتمال خطوبها ، والاستمتاع بما فيها من نعيم ولذة ، والشقاء بما فيها من بؤس وألم . فالشيعة يطلبون العدل الذي يرد السلطان إلى مستحقه من أهل البيت ، والذي يمكن الأئمة أن يملأوا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً . وشعر الشيعة في ذلك الوقت إنما يكتسب سواده وإظلامه من تصوير هذا الظلم الذي صبت على المختارين من أهل البيت ، فخرمهم الاستمتاع بحقوقهم ، وحرّم الناس ما كانوا وحدهم قادرين على أن يشيعوه بينهم من العدل ، وعلى أن يسوسوهم سياسة تحملهم على الجادة ، وتسلك بهم السبيل الواضحة إلى نعيم الدنيا والآخرة جميعاً .

وشعر الخوارج بل أدب الخوارج كله ، لا يعجب ولا يروق إلاّ لأنه يصور ما ينقص حياة الناس من إقرار العدل في الأرض ، وتحقيق المساواة بين المسلمين . وهم حين يتغنون بلاءهم في الحرب ، وجهادهم لأصحاب السلطان ، وسفكهم لدماء المصالحين للحكام ، ويبيعهم أنفسهم لله يجاهدون في سبيله فيقتلون ويقتلون ،

(١) وأنا أحب دائماً أن أختم العصر الذهبي للأدب العربي في الشرق بموت أبي العلاء . قد أكون مخطئاً في ذلك أو عيباً ، ولكنه موقف دفعت إليه ، ولعلني أن أبين ذات يوم مذهبي فيه .

الأدب المظلم

لا يصورون حياة ناصعة رائعة ، ولا عيشاً ناعماً سعيداً . والذين يؤثرون منهم القعود ، ويحاولون الاعتذار عن أنفسهم من إيثار العافية ، لا يحبون الحياة لأنها خير في نفسها ، ولا لأنها تتيح لهم نعيماً يستحق أن يحرصوا عليه ، وإنما يؤثرون الحياة لأنهم يرونها وسيلة إلى دفع شر لا يدفعه الموت ، وإلى تحقيق قليل من الخير قد لا يعينهم الموت على تحقيقه . فهذا القاعد يؤثر الحياة بأن له بنات عاجزات يخاف عليهن البؤس والشقاء ، ويريد أن يعصمهن من الذل والابتذال . وهذا القاعد الآخر يؤثر الحياة لأنه يمتحن بها نفسه ويعوددها احتمال المكروه ، والصبر على الفتنة ، والنفاذ من الخطوب . وهو يراها عبئاً ثقيلاً يتقرب إلى الله باحتماله ، ويتنقل بهذا العبء بين أحياء العرب في البادية ، وبين مدنهم في الحاضرة ، لعله أن يذيع فيهم كلمة الحق ، ولعله أن يحمل بعضهم على الخروج . فالحياة الواقعة بغیضة إلى الشيعة لأنها قائمة على الظلم . والحياة الواقعة بغیضة إلى الخوارج لأنها قائمة على الظلم أيضاً . وأولئك وهؤلاء ، وغير أولئك وهؤلاء ، يفكرون ويقدرّون ، ويلتمسون للظلم علله ، لعلهم يستطيعون أن يزيلوها فيتباح لهم إزالة الظلم . ويلتمسون إلى العدل سبله لعلهم يستطيعون أن يسلكوها فيتباح لهم تحقيق العدل . وهم حين يفكرون ويقدرّون يلقون على أنفسهم هذه المسألة الخالدة : ما موقف الإنسان من القضاء والقدر ؟ أحرّ هو فمن حقه ومن الحق عليه أن يحتمل التبعات ، ويخوض إلى الحق والخير والعدل غمرات النضال والجهاد والموت ؟ أمجبر هو فينبغي له أن يستسلم وأن يذعن ، وأن يستقبل الحياة لا راضياً عنها ولا ساخطاً عليها ؛ لأنها لا تستحق رضا ولا سخطاً ، ولأن الرضا والسخط لا قيمة لهما إذا لم يصدر عن إرادة حرة تستطيع أن تختار وأن تغير من شؤون الحياة ما لا تحب ؟ وكذلك أُلقيت هذه المسألة على العقل الإسلامي ، وشفى بها الناس قبل أن يتجاوز القرن الأول للهجرة ثلثيه .

فأما مسألة العدل ، فقد أُلقيت على العقل الإسلامي في أيام النبي نفسه . وكان الإسلام هو الذي ألقى هذه المسألة حين دعا إلى إنصاف الضعيف من القوى ، وإلى تحقيق المساواة بين المسلمين لا ينبغي أن يتفاضلوا إلا بالتقوى . وقد عرض القرآن وعرضت سيرة النبي على المسلمين صورة رائعة للعدل حببته إلى نفوسهم ، وزينته في قلوبهم ، ودفعت فريقاً منهم إلى الغلو في طلبه ،

وإلى التشدد في تحقيقه ؛ فوجد بينهم من أغضب النبي نفسه حين ألح عليه في تحقيق العدل ، حتى قال له النبي : ويحك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ! ووجد بينهم من خاصم الخلفاء وأنكر سيرتهم وأذاقهم معارضة مؤذية ، ولقى منهم مقاومة مؤذية . فسعد بن عبادة ينفي نفسه من وطنه ويموت غريباً ؛ لأنه يرى أن الجماعة لم تعدل حين جعلت الخلافة إلى المهاجرين . وأبو ذرٍّ يضطر إلى أن يعيش وقتاً من حياته غريباً ، وإلى أن يموت غريباً ؛ لأنه ينكر سيرة عثمان وعمّاله في أموال المسلمين .

وكذلك عرف المسلمون منذ القرن الأول للهجرة المشكلتين الخطيرتين اللتين شقى بهما الإنسان دائماً : مشكلة العدل الاجتماعي من جهة ، ومشكلة الصلة بين الإنسان وبين القضاء والقدر من جهة أخرى . وظهر أثر هاتين المشكلتين في مقدار عظيم من الأدب الإسلامي ، حتى أصبح من الممكن أن نقول إن المسلمين قد عرفوا هذا الأدب الأسود قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة . على أن هناك أدباً أسود آخر يستحق شيئاً غير قليل من العناية ؛ لأن مؤرخي الآداب العربية لم ينظروا إليه إلا هذه النظرة اليسيرة السريعة التي لا تحقق شيئاً ولا تتعمق شيئاً . فهذه الأزمة العنيفة التي ثارت بين الشعراء التقليديين في العراق ، والتي أنتجت لنا هذا الهجاء الرائع المروع بين الفحول الثلاثة ومن شايعهم من الشعراء . ما مصدرها ؟ وما غايتها ؟ وما طبيعتها ؟ أكانت لهواً سخيفاً يرجع كما يقول المؤرخون إلى هذه الخصومات السخيفة بين حين من أحياء تميم ؟ أم الحق أن الهجاء قد ثار بين الفرزدق وجريز لهذا السبب اليسير البسيط الذي يذكره المؤرخون ؟ أم الطبيعي أن تثار خصومة غير ذات خطر بين حين من أحياء العرب في البادية فتتفشأ عنها هذه الأزمة الهجائية التي انتشرت في بادية العراق وأمصاره ، كما تنتشر النار في الحطب الجزل ، والتي فرضت نفسها على جميع البيئات العربية في جميع أقطار الدولة ، ثم فرضت نفسها ، وما زالت تفرض نفسها ، على الأدب العربي كله إلى اليوم وإلى آخر الدهر ؟ ألا يمكن أن يكون هذا الهجاء ظاهرة لما كان في الحياة العربية في ذلك الوقت من اضطراب خطير مصدره الانتقال من حياة جاهلية ساذجة إلى حياة إسلامية معقدة ، ومصدره أيضاً كل هذه المشكلات التي واجهها العرب حين أدب لهم من الفرس والروم ، وفتحت عليهم أقطار الدنيا ، وأتيح لهم سلطان

لم يكونوا يحملون به ، و ثراء لم يكونوا يستطيعون أن يحققوه في أنفسهم ، ثم
 نظروا فإذا هذا السلطان تحتكره قلة ضئيلة من دون سائر العرب على ما كان
 طبع قبائلها وأحيائها من سابقة في الشرف والمجد ، ونظروا فإذا هذا الثراء
 الضخم يتاح لفريق دون فريق ، وإذا جماعة منهم ينعمون حتى يبطرهم النعيم ،
 وإذا جماعات أخرى منهم تحرم حتى يضطرها الحرمان إلى البؤس والاستجداء ،
 وإذا الحفيظة تملأ الصدور ، وإذا الغيظ يستأثر بالنفوس ، وإذا الحسد يفسد
 الصلات ، وإذا التنافس يجعل بعض الأصدقاء لبعضهم عدوًا ، وإذا الحياة مظلمة
 يسبغ الحرمان عليها سوادًا حالكا بالقياس إلى بعض الناس ، ويسبغ الخوف
 عليها ظلمة قائمة بالقياس إلى بعضهم الآخر ، وإذا بعض الناس يتتبع مثالب
 بعض ويحصى عليهم السيئات ، وإذا بعضهم الآخر يكيل لهم صاعًا بصاع ، وإذا
 الشر يشيع بين هذه الأحياء العربية ؛ لأن الله أخرجهم بالإسلام من الظلمات إلى
 النور ، ولكن الزمن لم يكد يتقدم حتى غشيتهم ظلمات جديدة من الفتن
 وما استتبع من ظلم وعسف ، ومن تنافس حول أعراض الحياة ؟

وليس من الضروري أن يكون الشعراء والذين كانوا يستمعون لهم حين
 ينشدون ، محققين لهذه المعاني كلها في أنفسهم تحقيق الشاعر بها المسجل لها ،
 وإنما يكفي أن تكون هذه الحقائق واقعة في نفسها مؤثرة في نفوس الناس لتؤثر
 في نظرتهم إلى أنفسهم أولاً ، وفي نظرتهم إلى الناس ثانيًا ، وفي نظرتهم إلى
 الحياة كلها آخر الأمر . ولأمر ما يحرص العرب على أن يستقصى بعضهم مثالب
 بعض ، وعلى أن يحصى بعضهم على بعض السيئات ، وعلى أن يذكروا القديم
 ليحيوا منه ما يسوء الخصم ويسر الصديق ، في نفس الوقت الذي بلغ فيه
 التنافس في السياسة والسلطان وفي المال والثراء أقصى غاياته وأبعد آماده .
 والشئ المحقق هو أن الفرزدق حين يهجو جريراً بهذه الخصلة أو تلك من
 الخصال البغيضة ، لا يريد شخص جرير وحده ، وإنما ينصب جريراً مثلاً لقومه
 أولاً ، ولجميع الذين يتصفون بهذه الخصلة من الناس بعد ذلك . فهو لا ينحو
 نحو الفرد ، وإنما ينحو نحو الجماعة ونحو الجماعة في أوسع حدودها . وتستطيع
 أن تقول مثل ذلك في جرير حين يهجو الفرزدق ، وفي غير هذين الشعارين من
 المهجائين في ذلك الوقت . فهجاؤهم نوع من النقد العام ، ومن الاستقصاء لما كان
 في الأخلاق من نقص ، ولما كان في النظام الاجتماعي من عيب . وليس أدل على

الأدب المظلم

ذلك من أن هذا الهجاء قد وجد صدها في النفوس العربية كلها ، فتهالك العرب على روايته وحفظه واختصموا في تقديره وفي تفضيل بعض الهجائيين على بعض . ومعنى السياسة العليا للدولة بهذا الهجاء ، فآثر بعض الخلفاء وعمّاهم جريراً ، وآثر بعضهم الفرزدق . واستطاع عبد الملك أن يؤثر جريراً على الفرزدق ، وأن يؤثر الأخطل على جرير . وليس لهذا كله معنى إلا أن تكون هناك صلة بين هذا الهجاء وبين حقائق السياسة التي كانت تدير في قصور الخلفاء والأمراء .

فهذه العيوب التي يمحسها بعض الهجائيين على بعض عيوب اجتماعية لا فردية في أكثر الأحيان . وهذه القصائد التي تفيض بهذا الهجاء ليست إلا صوراً قائمة بالحياة العرب في العراق كما كان يراها الهجاءون . من هذه الصور ما يسوء ويملاً القلوب حزناً ، ومن هذه الصور ما يثير السخرية ويدفع إلى الضحك العريض . وقد رايت في أول هذا الحديث أن الأدب الأسود ليس كله حزناً ، وأن من الملاحى المضحكة ما هو أشد سواداً من المأساة . فالهجاء إذن في ذلك العصر قد كان فناً من فنون الأدب الأسود ابتكره العرب الإسلاميون ابتكاراً قبل أن ينتصف القرن الأول . ولم يكن هؤلاء الهجاءون من الشيعة ، ولا من الخوارج ، وإنما كانوا من الجماعة المحافظة . وإذن فقد كان الأدب الأسود غالباً على حياة العرب أيام بني أمية ، على عكس ما يقدر الذين يؤرخون الآداب العربية .

وما أريد أن أتجاوز العراق إلى الحجاز ، ولا أن أسأل عن لون الأدب الحجازي في ذلك الوقت ؛ فقد بينت في غير هذا الحديث أنه لم يكن صافياً ولا ناصعاً ، وأن غزل الغزليين وهو اللاهين إنما كان نوعاً من التسلية عن الهم ، والتعزى عن الخطوب ، والاستعانة بالحلم الواقعي أو العذري على نسيان ما كان أهل الحجاز يشقون به من فراغ في الطبقة الغنية وحرمان في طبقة الفقراء . ومعنى ذلك أن أدب الحجاز لم يكن أقل سواداً من أدب العراق .

ولم يكد القرن الثاني يتقدم حتى انتهت هذه الاضطرابات إلى غايتها ، فكانت الثورة ، وأُديل لبني العباس من بني أمية ، وأُديل للفرس من العرب . فهل دنى هذا كله على آثار الأدب الأسود وأنشأ مكانه أدباً أبيض ناصعاً جميلاً ؟ مسألة فيها نظر ، وأحسنها تنتهى بنا إلى شك مريب ؛ فقد نشأ جيل جديد من الشعراء

والكتّاب ، استقبلوا فنوناً جديدة من الشعر والنثر . ولكن أكانت نفوس هؤلاء الأدباء مشرقة ؟ أكانت آثارهم صوراً لهذه النفوس المشرقة ؟ لقد لها أهل العراق في القرن الثاني كما لها أهل الحجاز في القرن الأول . وأكاد أعتقد أن لو أهل العراق لم يكن أقل سواداً من لو أهل الحجاز ؛ فقد خيبت الثورة آمال كثير من المثقفين الذين كانوا ينتظرون منها خيراً كثيراً . ومن أجل ذلك وجدت الدولة العباسية الجديدة مقاومة من أنصارها بعد أن ظفرت بخصومها ، مقاومة بالسيف أحياناً وبالأسان دائماً . فالمنصور يقتل أبا مسلم ، ويمكر بعلي ابن عبد الله حتى يقتله . والشيعة العلويون يعارضون الدولة الجديدة بسيوفهم وألسنتهم كما كانوا يعارضون الدولة القديمة . والخوارج ماضون في ثورتهم يظهرن ولا يستخفون ويستخفون ليظهروا . والمطالبة بالعدل ما زالت قائمة ، والنظر في المشكلات الفلسفية يزداد قوة وتعمقاً وانتشاراً . وبشار يهجو المنصور والمهدي . وابن المقفع يترجم الكتب في التخويف من السلطان ، وينتهي أمره إلى موت شنيع . والزندقة تشيع في أمصار العراق ، والدولة تنصب لهذه الزندقة وأصحابها حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، وكثير من المثقفين الممتازين يقدّمون وقوداً لهذه الحرب . وأظن أن شيئاً من هذا كله ليس من شأنه أن يدعو إلى إشراق النفوس ولا إلى إنتاج الأدب المشرق . ونظرة سريعة إلى الأدب الذي كان ينشأ في ذلك الوقت تظهرنا على أنه لم يكن في جملة صفو ولا عفواً ولا رائقاً ؛ لأن حياة الأدباء لم تكن صافية ولا رائقة ؛ فقد قُتل بشار وقُتل ابن المقفع وقتل غيرها وسُجن آخرون . فإذا رأيت ابن المقفع يخوف من السلطان ، وإذا رأيت بشاراً يهجو السلطان ، ويسخر من الرعية ، وينكر الدين ، أو يفضل النار على الطين والسيطان على الإنسان ، وإذا رأيت أبا العتاهية يهتد في الحياة ويبغضها إلى الناس ، وإذا رأيت أصحاب المجون يسرفون على أنفسهم ويسخرون من كل شيء في غير تحفظ ولا احتياط — إذا رأيت هذا كله فسل نفسك : أكانت الحياة رائقة تنتج أدباً رائقاً ، أم كانت قائمة تنتج أدباً قائماً شديداً لإظلام ؟

وما ينبغي أن نخدعنا ظواهر الأمور عن حقائقها ؛ فنحن نرى في الشعر مدحاً للخلفاء والوزراء وقادة الدولة وساداتها ، فنستنبط من هذا المدح ، كما تعود مؤرخو الآداب أن يستنبطوا ، أن الأدباء كانوا راضين عن الخلفاء والوزراء ،

الأدب المظلم

وعن القادة والسادة ، وأنهم كانوا يهدون إليهم المدح مخلصين . ونحن نقرر في الوقت نفسه أن المدح كان يشتري بالمال ، وأن الشعراء كانوا يتنافسون في إرضاء القادرين على منح الجوائز الضخمة . ثم نحن لا نلأثم بين هاتين الحقيقتين الواقعتين ، أو لا ننتهي من هذه الملاءمة إلى غايتها ، فنقرر حقيقة واقعة ثالثة وهي أن كثرة هذا المدح لم تكن إلا رياء ووسيلة إلى كسب الحياة ، وإلى كسب ما يحتاج إليه الأحياء من ألوان الترف والنعيم . وليس أدل على ذلك ، إن احتاج ذلك إلى دليل ، من أن بشاراً كان يمدح الخلفاء والسادة ليأخذ جوائزهم ، وكان يهجوهم إذا خلا إلى نفسه وإلى شياطينه .

ونحن نرى في شعر الشعراء في ذلك العصر لهواً وعبثاً ومجوناً ، فنستنبط من هذا كله متعجلين أن الحياة كانت رائقة شائقة وجيلة خلافة ، وننسى أن الإسراف في العبث والغلو في المجون والإغراق في اللذات ، كل ذلك لا يدل إلا على اختلال الموازين وفساد القيم ، وانحراف الناس عن الجادة ، وحاجتهم إلى أن ينسوا أنفسهم ويتسلوا عن همهم . وأقل ما يمكن أن تدل عليه موجة الاستهتار التي اكتسحت بيئات الأدباء في البصرة والكوفة وبغداد ، هو أن هؤلاء الأدباء كانوا قد انتهوا إلى لون من ازدراء التقاليد والاستخفاف بالسنن الموروثة والاكتفاء أو الاستعانة بانتهاز الفرص على احتمال الحياة .

ونحن إذا استقصينا الشعر الذي كان يقال في ذلك العصر رأيناه ينحل إلى مدح يصور الرياء في جملة ، وإلى هجاء يصور ما في الحياة من خلال تستحق المقت ، وإلى مجون يصور الحاجة إلى الهرب من هذه الحياة والتخفف من أثقائها ، ثم إلى زهد يصور النظر إلى الحياة على أنها جِدٌّ ولكنه جد يشيع اليأس في النفوس ، ويدفع العاقل إلى أن ينسى حاضره ويتسلى عن يومه ليفكر في غده ، وليستعد لما يهيا له بعد الموت .

ومع هذا كله فقد أخذ العقل الإسلامي يظهر عناية شديدة بالمشكلة الفلسفية الكبرى ، مشكلة الاختيار والجبر ، وما تستتبع من مشكلة الأمل واليأس ؛ كما أخذ العقل الإنساني يتعمق النظر في شؤون الحياة اليومية على اختلاف فروعها ، فينكر أكثرها ، ولا يكاد يعرف منها إلا القليل . ونكاد نحس منذ هذا العصر أن التشاؤم قد أخذ يتصور مذهباً مستقلاً له عماده الفلسفي ، وله في الوقت نفسه وسائله الأدبية . فلم يكن بشار متفائلاً ، بل لم يكن بشار من التفاؤل في شيء .

وإنما كان ساخطاً متشائماً ، يقيم سخطه وتشاؤمه على إخفاقه في إرضاء عقله حين التمس إرضاء هذا العقل في مذاهب الفلاسفة والمتكلمين ، فلما لم يظفر بشيء صار إلى هذا الشك البغيض .

وكل ما في الأمر أن التشاؤم يكون باسم أحياناً ، وعابساً أحياناً أخرى ، وقد يتحول ابتسامه إلى ضحك شيطاني عريض ، وقد يتحول عبوسه إلى يأس من كل شيء وقنوط حتى من رَوْح الله ، يختلف هذا كله باختلاف المزاج والطبع والبيئة . وقد كان تشاؤم بشار هادئاً باسم أحياناً ، وشيطانيّاً مقهقهاً في أكثر الأحيان . وليس لهو بشار وتصويره لهذا اللهو فيما روى لنا من شعره إلا مظهراً لهذا التشاؤم . وأحسب أن العابثين من أصحاب بشار كانوا يذهبون مذهبه حين يحسون الإخفاق في إرضاء العقل ، وينتهون إلى الشك فيستهزئون بكل شيء ، ويسخرون من كل شيء ، وينتهزون فرص الحياة . وما أرى إلا أن حماداً ، ومطيعاً ، ووالبة وأمثالهم من أصحاب الخلاعة والمجون ، قد تعرضوا لنفس الأزمة الفلسفية التي تعرض لها بشار ، وخرجوا منها على نفس النحو الذي نحاه بشار حين خرج من أزمته . ومن شباب هذا العصر من تعرض لمثل ما تعرض له بشار ، ولكنه لم يخرج من أزمتة إلى اللهو والمجون والشك ، وإنما خرج منها إلى الجدد ، فعنى بفنون من الحياة يستطيع العقل أن ينتج فيها دون أن يتعرض لمحنة ، أو يواجه هذه المشكلات التي لا حل لها . والمؤرخون يحدثوننا عن فقهاء وزهاد عاصروا بشاراً وأصحابه ، وسلكوا معهم طريقهم الفلسفية ، وكادوا يتعرضون لليأس ، فشغلوا أنفسهم بالفقه والزهد والنسك عن مواطن الزلل هذه .

ثم يتقدم القرن الثالث وإذا أمور المسلمين تزداد تعقداً ، ويشتد فيها الحرج ، وينتشر فيها الاضطراب . ثقافة ممتازة تتغلغل إلى بعض طبقات الشعب ، وثرأ ضخمة يزداد انحصاره في أيدي قلة ضئيلة مستأثرة بالحكم ، وضعف السلطان السياسي ، وتعمق لمشكلات الفلسفة ، وشعور واسع عميق بهذا التفاوت المنكر بين الطبقات ، ثم تيرم بهذا التفاوت ، ثم إنكار له ، ثم ثورة عليه ، وإذا ثورة الزنج توشك أن تثل عرش الخلافة ، وأصحاب الأقاليم ينتهزون هذا الضعف فيستقلون بأقاليمهم ، والأدباء يرون هذا كله ويفكرون فيه ويتأثرون به ، ومنهم من شارك في بعضه ، وإذا هم يصورون هذا فيما يقولون

الأدب المظلم

من شعر وما يكتبون من نثر . وقد يكون ابن الرومي مضطرب الأعصاب ، فاسد المزاج ، قد خلق مهياً للتشاؤم ، ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو أن الحياة من حوله لم تكن تصده عن التشاؤم وتغريه بالتفاؤل ، وآية ذلك أنه أتفق حياته متشائماً ، وأن حياته هذه المظلمة قد انتهت به إلى أن يموت مسموماً . وقد يكون ابن المعتز قوى الأعصاب ، معتدل المزاج ، قد خلق مهياً للتفاؤل ، وحاول أن يتفائل ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه أنه لم يجد في الحياة من حوله ما يغريه بالتفاؤل العميق ، وإنما وجد ما يسليه عن هموم الحياة وأحزانها ، فتسلى بالشعر والعلم والأدب وشيء من الترف . ثم بدا له ذات يوم أن يواجه الحياة كما تعود بنو أبيه أن يواجهوها ، فلم يكذب يفعل حتى أدركته حرفة الأدب وقُتل قبل أن تتم له البيعة بالخلافة .

ولا يكاد القرن الرابع يُظل العالم الاسلامي الشرقى ، حتى يكون الكتاب قد بلغ أجله ، وحتى تصبح حياة المسلمين في الشرق شرقاً كلها ، لا يتفائل فيها إلا خفاف العقول ، أو الذين انتهى بهم الشك الفلسفي إلى أقصاه . فأما الذين لهم حظ من عقل راجح وبصيرة نافذة فمتشائمون ؛ لأن كل شيء يضطرهم إلى أن يتشاءموا . لم تكد ثورة الزنج تخمد حتى ثارت في أعقابها ثورة القرامطة ، وإذا اللهب ينتشر في الشرق العربي كله . وفي الوقت نفسه تنشأ دولة الشيعة في شمال إفريقيا ، ويكاد الشرق الأعجمي ينفصل عن الخلافة انفصالا . وما ينبغي أن نطيل فيما لا يحتاج إلى الإطالة . فقد كان كل شيء في ذلك العصر يمهّد لنشأة الشاعر المتشائم العظيم أبي الطيب المتنبي الذي لم يتشاءم بعقله ولسانه فحسب ، وإنما هم أن يتشاءم بسيفه فلم يفلح ، وهو على كل حال مؤسس التشاؤم الفلسفي المنظم في الشعر العربي . أسسه قبل أن يبلغ العشرين ، وأتم بناءه قبل أن يدركه الموت . نظر إلى الحياة اليومية فضاق بما كان يملؤها من فساد ، وضاق بالنظام السياسي والاجتماعي الذي كان يعرض الناس لهذا الفساد ، ثم احتقر الناس لأنهم قبلوا هذا النظام أو أذعنوا له ، ثم سمت همته المتشائمة إلى ما هو فوق الناس وفوق نظهم السياسية والاجتماعية ، وإذا هو يسأل عن الموت ، ويسأل عن الحياة ، ويسأل عن الحرية ، ويسأل عن الجبر ، وإذا هو ينكر الحياة إنكاراً ويراهنا شرقاً قد أكره الإنسان عليه إكراهاً .

فلم يكن أبو العلاء إذن تلميذاً للمتنبي في فنه الشعري وحده ، وإنما كان

تأميداً له في تشاؤمه الفلسفي قبل كل شيء . وقد بينت في غير هذا الحديث أن أكثر أصول الفلسفة العلائية المظلمة قد سبق إليه المتنبي ، فألم به إلمامات قصيرة دون أن يحاول تفصيله أو تنفيذه . وجاء أبو العلاء بعد موت المتنبي بعشر ، سنين فلم يكده يفقه الشعر حتى قرأ المتنبي وتأثر به ، وجعل يلقي على نفسه الأسئلة التي كان يلقيها المتنبي على نفسه . وقد أحاطت بأبي العلاء ظروفه المعروفة ، فقاوم التشاؤم ما وجد إلى مقاومته سبيلاً ، ولكنه لم يبلغ الثلاثين حتى خطا الخطوات العقلية والعمالية التي لم يتح للمتنبي أن يخطوها ، وإذا هو يتخذ من التشاؤم عقيدة وسيرة في وقت واحد ، وإذا هو يذهب في تشاؤمه نفس المذهب الذي يذهبه كفكا المتشائم الأوربي الحديث فيما كتب بين الحربين العالميتين ، فيرى أن نفسه سجين في جسمه ، وأن جسمه سجين في الأرض ، أو قل في العالم . فأبو العلاء يحدثنا بأن الإنسان لا يستطيع أن يأبق من ملك الله ، فيخرج من أرضه وسماؤه . فنفسه سجين في جسمه إذن ، وجسمه سجين في هذا العالم المحدود مهما تتسع أرجاؤه وتبعد آفاقه . فما يمنع أن يجعل هذا السجن الفلسفي حقيقة عملية واقعة ، وأن يلزم نفسه سجيناً ضيقاً لا يعدوه ، وأن يعيش في هذا السجن هذه العيشة الغليظة التي يضطر إليها السجناء .

هذا الشعور العلائى هو الذى وجده كفكا وصوره في كثير من آثاره تصويراً . شابهاً أشد المشابهة لتصوير ألى العلاء في الازوميات ، وفي الفصول والغايات ، ولكنه لم يلزم نفسه داراً ضيقة محدودة كما فعل أبو العلاء .

فأنت ترى من هذا كله أن التشاؤم الفلسفي في الأدب بعيد كل البعد عن أن يكون ظاهرة موقوتة بعصر من العصور ، أو مقصورة على جيل من الأجيال ، أو محصورة في أمة من الأمم . وأنت ترى أيضاً أن ما يسميه الأوريون الآن أدباً أسود ليس له من الجِدّة والطرافة هذا الحظ الذى يتصوره بعض الكتاب الغربيين ، فقد تشاءم اليونان ، وتشاءم الرومان ، وتشاءم اليهود ، وتشاءم العرب . ولست أشك في أنك لا تكاد تدرس أدباً من الآداب على اختلافها وعلى اختلاف العصور والبيئات والأجيال إلا رأيت فيه ظلاً من التشاؤم قوياً أو ضعيفاً ، ممدوداً أو مقبوضاً ، يختلف هذا كله باختلاف ما لأصحاب هذا الأدب من تعمق للثقافة ، ومحاولة لحل المشكلات الفلسفية الخالدة . ومصدر هذا فيما يظهر أن الفطرة الإنسانية مركبة من عناصر مختلفة يمتاز منها عنصران

متناقضان : أحدهما طموح لا حد له يدفعه إلى أمام ، والآخر قصور لا حد له يردّه إلى وراء أو يقفه في مكان لا يعدوه ؛ فهو دائماً موضوع للتزاع بين هذين العنصرين . فإن كان غافلاً أو محدود الثقافة قبل الحياة كما هي ، فاندفع حين تدفعه الظروف ، ورجع أدراجه حين تضطره إلى الرجوع ، ووقف مكانه حين تكرهه على الوقوف . وإن كان ذكياً القلب ، نافذ البصيرة ، دقيق الحس ، بحث واستقصى ، وساءل عن مكانه من هذين العنصرين اللذين يتجاذبان ، وساءل كذلك عن حرّيته أو عن حظه من الحرية التي تتيح له إن أراد أن يستجيب للعنصر الذي يقوده إلى أمام ، أو أن يستسلم للعنصر الذي يردّه إلى وراء ، أو أن يثور على العنصرين جميعاً فيمضي كيف يشاء وحيث يشاء . ولا يكاد يسأل عن هذا الحظ من الحرية حتى يدركه التشاؤم ؛ لأنه يرى أن هذه الحرية محدودة بمحدود لا سبيل إلى تجاوزها ، منها ما يأتي من الطبيعة ، ومنها ما يأتي من الجماعة . وهو قد يحاول الثورة على هذه الحدود أو تلك ، ولكنه يردّ آخر الأمر مخذولاً مدحوراً .

وقد لاحظ أبو العلاء كما لاحظ المتشائمون من قبله ومن بعده أنه دفع إلى الوجود دون أن يستأمر أو يستشار ، وأنه يدفع إلى الموت دون أن يستأمر أو يستشار أيضاً . فسأل نفسه وسأل غيره ، كما سأل المتشائمون من قبله ومن بعده : لماذا دفع إلى الحياة ؟ ولماذا يدفع إلى الموت ؟ وما الذي يراد منه بين الحياة والموت ؟ وما الذي يراد به بعد أن يموت ؟ وهو لم يتلق على هذه الأسئلة جواباً يرضى عقله ويشفي حاجته إلى الوضوح ، فوقف موقف الحائر الذي يضيق بكل شيء ، ويضيق بنفسه قبل كل شيء ؛ لأنه لا يفهم علة ولا غاية لشيء من الأشياء . وقد أراد أبو العلاء أن يمتحن حرّيته ليعرف أحقّ هي أم باطل ، ففرض على نفسه ألواناً من الشدة المادية والفلسفية والفنية ، وخيل إلى نفسه أنه إن احتمل هذه الشدة وصبر لها كما ينبغي فقد يدل ذلك على أن له من الحرية حظاً . ولكنه لم يكد ينفق أعواماً في احتمال هذه القيود التي فرض على نفسه وتمرن على احتمالها ، حتى شك في حرّيته ، ثم استيأس منها ، ثم اعتقد أنه دفع إلى هذه القيود بنفس القوة القاهرة التي دفعته إلى الحياة ، والتي تدفعه إلى الموت . وقد يتاح لي ، وقد يتاح لغيري من الدارسين لأبي العلاء ، أن نستقصى أصول فلسفته المتشائمة ، وأن نوازن بينها وبين فلسفة المتشائمين المحدثين . وأكبر

الظن أننا سنصل إلى نفس النتيجة التي وصلنا إليها حين وازننا بين الفلسفة العلائية المتشائمة ، وبين فلسفة المتشائمين القدماء ، وهي أن المحدثين لم يكادوا يزيدون على أصول الفلسفة العلائية شيئاً ، ولكنهم زادوها تفصيلاً وتوضيحاً ، كما أن أبا العلاء لم يزد على فاسفة المتشائمين القدماء شيئاً وإنما وضّح منها الغامض ، وفصّل منها المجمل . أتيح له من الثقافة والتجربة ما لم يتح للذين سبقوه ، كما أتيح للمتشائمين المحدثين من الثقافة والتجربة ما لم يتح لأبي العلاء . فالمشكلات التي تدفع إلى التشاؤم واحدة على اختلاف العصور والأجيال والبيئات . ولكن الوسائل التي تتخذ لمواجهتها ومحاولة حلها ، هي التي تختلف باختلاف حظ العقل من الرقي ونفوذه إلى أسرار الطبيعة ودقائق الحياة . والغريب أن هذه المشكلات لم تزل قائمة لم تجد لها الإنسانية حلاً على اختلاف ما أتيح للإنسانية من رقي العقل ، وتقدم العلم ، واتساع المعرفة ، واختلاف وسائل البحث والاستقصاء .

ومن يدري ! لعل من الخير أن تظل هذه المشكلات غامضة ملتوية لا سبيل إلى حلها . فأقل ما لهذا الغموض من المزايا أنه أنتج لنا هذه المحاولات الرائعة ، هوأتاح لنا هذه الآداب الرفيعة التي نفزع إليها كلما ضيقنا بالحياة أو ضاقت بنا الحياة ، ونفزع إليها كلما غرّتنا الأمانى وكادت الآمال تخدعنا عن أنفسنا ، وكاد رقي الحضارة يورطنا في البطر والأشر . فنحن محتاجون إلى أن نسعى ، وإلى أن نتقدم مبطينين ومسرعين ، ولكننا في الوقت نفسه محتاجون إلى حاصم يعصمنا من الغرور ، ويمسكنا أن تندفع في إيماننا بأنفسنا إلى غير حد . هولست أدري إلى أى تهور تندفع الإنسانية ، لو أنها وجدت لهذه المشكلات حلولاً نهائية مقنعة يطمئن إليها الناس جميعاً . أكبر الظن أن الإنسانية إن أتاحت لها هذه الحلول فستضطّر إلى حياة راكدة خامدة ، لا طائل فيها ولا غناء . وما قيمة الحياة إذا خلت من الإشفاق والخوف ، ومواجهة المشكلات ومحاولة التخلص منها ، وإلقاء الأسئلة والتماس الأجوبة لها ! وأى غناء في هذه الجماعات الحية الميتة التي وجدت لكل مشكلة حلاً ، ولكل سؤال جواباً ، واطمأنت إلى حظ من العلم التقليدي المغلق الذي يتعرض للنقص ولا يتعرض للزيادة ! والغريب أن التجارب تمر بالناس ، وأن العصور تختلف عابهم ، وأن الرقي يتاح لهم ، وأنهم يظفرون بالتقدم بين حين وحين ،

ولكنهم على ذلك كله يقفون من الفلسفة المتشائمة مواقف متشابهة على ما بين الأجيال والعصور من الاختلاف .

فقد ضاق القدماء بتشائم أبيقور ، واشتد تقدّم له ونعيمهم عليه . وضاق المسلمون بتشائم أبي العلاء فأكفره منهم من أكفره ، وما يزال كثير منهم إلى الآن يرى تشاؤمه شراً ، ويخاف منه على نشاط الأفراد والجماعات . وقد تعرض المتشائمون الأوروبيون لمثل ما تعرض له أبيقور وأبو العلاء ، فضاق بهم من ضاق وأنكرهم من أنكر ، وخيف من تشائمهم على عقول الناس ، وعلى نشاط الأفراد والجماعات ، وعلى إيمان الشباب بالحياة وما ينبغي أن يملأ قلوبهم من الأمل والثقة بالنفس .

ولعل الذي حملني على إملاء هذا الحديث الطويل إنما هو من جهة مظهر من مظاهر الفلسفة الحديثة في التشائم ، ومظهر من مظاهر المقاومة لهذه الفلسفة من جهة أخرى . فقد يخيّل إلى أن أوروبا لم تشهد قط موجة تشائم كهذه الموجه التي كانت تلاعبها وتداعبها بعد الحرب العالمية الأولى ، والتي طغت عليها طغياناً جارفاً في هذه الأيام . وهذا التشائم الأوروبي الحديث هو الذي أنتج ما يسميه الفرنسيون في هذه الأيام بالأدب الأسود . والحق أن هذا الأدب مختلف أشد الاختلاف ، متنوع شدة التنوع ، كما كان أدب أبي العلاء مختلفاً متنوعاً . فقد عرض أبو العلاء علينا تشاؤمه شعراً ونثراً ، وعرضه علينا فلسفة ووعظاً ، وعرضه علينا نقداً للسياسة والاجتماع ، ونقداً للأخلاق والديانات ، وعرضه علينا واقعة وخيالاً . ومن يدري ! لعله عرضه في ضروب أخرى من الفن لم تصل إلينا ؛ لأننا لم نحفظ من أدب أبي العلاء إلا القليل .

والأدب الأوروبي مختلف على هذا النحو ، تراه يعرض فلسفة يسلك فيها طرق الفلاسفة ، وتراه يعرض تمثيلاً يشهده النظارة في الملاعب ، وتراه يعرض قصصاً منها الواضح الجلي ، ومنها الغامض الرمزي ، ومنها ما يكون بين ذلك فيه كثير من الوضوح وفيه كثير من الغموض .

وقد أتفتت أكثر الوقت الذي قضيته في باريس معاشراً لطائفة من هؤلاء الأدباء السود ، لم ألق منهم أحداً ، ولكني قرأت لهم كثيراً ، ووجدت في قراءتهم اللذة العليا أحياناً ، والضيق الشديد أحياناً أخرى ، والاشمئزاز الذي تنقبض له النفس في كثير من الظروف . وقد تعودت والحمد لله بفضل أبي العلاء أن أعاشر

المتشائمين ، فلا أضيق بتشائؤهم لأنه مظلم ، أو لأنه يسيء رأى الناس في الحياة . ولكن عند الكتّاب الأوروبيين والأمريكيين لونا من التشاؤم بغضناً حقاً لا أدرى أرفع الأدب أم يخفضه . وقد كدت أملى لا أدرى أيتصل بالأدب أم يبعد عنه أشد البعد . فمن التشاؤم الحديث ما يحاول عرض الحياة الإنسانية الواقعة كما هي ، يصورها في أبشع صورها ، ويعرض منها لأشياء لم يكن الأدب يعرض لها من قبل إلا عند القدماء من اليونان والرومان والعرب . وقد كنا نظن أن الأدب العالمي الحديث قد استطاع أن ينقى نفسه من هذه الأوضار ويرتفع بها عن هذه النقائص ، وكنا نلتمس للقدماء العذر ، ونجد هذا العذر في أنهم كانوا قدماء لم يبلغوا من الحضارة ومن ترف العقل والشعور ما بلغه المحدثون . ولكن الأدباء المتشائمين في هذا العصر يريدون أن يصوروا الواقع ، خلا يصدّهم عن تصوير هذا الواقع شيء ، ولا يجدون في صدورهم حرجاً من أن يصوروا أشياء يريد الإنسان المتحضر عادة أن يخفيها على نفسه . ويكفى أن ينظر القارئ في آثار جان بول سارتر الفرنسي ، وفي آثار ميلر الأمريكي ، ليغض هذا النوع من الأدب الذي لا يعتمد على فن مترف ، ولا يتجه إلى ذوق صرّيف ، وإنما هو أدب غليظ يصور حياة غليظة ، ويتجه إلى عقول لا تحفل بالذوق ، ولا بالفن ، ولا بالشعور .

وهناك أدب متشائم ولكنه رفيع ؛ لأنه لا ينحط إلى تصوير الطبيعة الغليظة ولا ينزل إلى تصوير الغرائز الجامحة ، وإنما يصور الواقع من حياة الناس في غير مظاهرها البشعة ، كما يصورها غفلة الغافل ، وعقل العاقل ، وموقف هذا وذاك من المشكلات الفلسفية والسياسية والاجتماعية العليا . وأنت تجد هذا عند جان بول سارتر نفسه وإن كان يؤذيك ما تفجأ به بين حين وحين من هذا الأدب الغليظ الذي تروى عنه النفس وينبوعه الذوق . وأنت تجد هذا عند ألبير كامو حين يعرض عليك تشاؤمه قصصاً وتمثيلاً وفاسفة . وأنت تجد هذا عند كفكا حين يعرض عليك تشاؤمه في قصصه الرمزية الغامض الرفيع ، وفي خواتمه التي تملأ يومياته فلسفة وفناً .

فهذا هو مظهر الاختلاف في الأدب الأسود الحديث . فأما مظهر المقاومة لهذا الأدب الأسود فيشهد من يقرأ الصحف والمجلات الفرنسية . وربما كان من أطرف أشكاله هذا الحوار الذي اتصل بين الشيوعيين ، أو قل بين اليساريين

من جهة ، والمعتدلين من جهة أخرى ، حول آثار كفكا أتحرق أم لا تحرق -
وواضح جداً أن الإحراق هنا ليس إلا رمزاً . فالمسألة التي يختلف فيها الأدباء
الفرنسيون اليساريون والمعتدلون هي هذه : أتباح قراءة كفكا للشباب أم
تحظر عليهم .

فأما المعتدلون فيؤثرون الحرية على كل شيء ويثقون بقدرة الشباب على
مقاومة ما يشيع في آثار هذا الكاتب من اليأس الذي يثبط الهمم ، ويفل
العزائم ، ويميت القلوب ، وقد يدفع إلى الانتحار . وأما اليساريون فيرون أن
الحياة أمل كلها ، وأن تحقيق الآمال محتاج إلى الايمان ، لا إلى الشك ، وإلى
الإقدام لا إلى الإحجام ، وإلى العزم الصادق والهم البعيد ؛ وهم من أجل ذلك
يشفقون على الشباب من هذا الأدب الأسود الذي يجعل الحياة كلها سواداً ..
وواضح كذلك أن الكلمة الأخيرة ستكون للحرية دائماً ؛ فلم تفلح قوة
من القوى في محاربة الرأي ، ولم تستطع النار مهما تكن مضطربة شديدة
الالتهاب أن تحرق كتاباً ، وهي قد تحرق ورقاً وحبراً ، ولكن الدخان الذي يثور
من هذا الحريق يضاعف الإغراء بالقراءة ، ويملأ القلوب فتوناً بهذه الكتب
التي حرقت ولكن لم تمس روحها النار . ولست أعرف إغراء بالأدب أقوى من
محاربته . ولست أعرف إحياء للرأي أقوى من اضطهاده . فلن يحرق كفكا ، ولن
تحرق آثار جان پول سارتر ، وإن كانت آثار هذين الكاتبين قد دفعت
بعض الشباب إلى الانتحار ، ودفعت بعضهم إلى اقتراف الجرائم . ولن يكون
القرن العشرين شرّاً من القرن الثامن عشر والتاسع عشر ؛ فالناس يعلمون أنه
قصة قتر قد دفعت غير واحد من الشباب إلى الموت ، ولكنها لم تحرق ، ولم
تحظر على القراءة ، والشباب يقرءونها الآن أو يشهدونها في ملاعب التمثيل ، فلا
تلقى في نفوسهم يأساً ، ولا تحجب إليهم الموت ، وإنما ترسم على ثغورهم ابتسامات
لعلها لا تخلو من بعض السخرية .

وكذلك يُقاوم الأدب الأسود الحديث كما كان يقاوم الأدب الأسود القديم .
ولكنك توافقني بعد هذا الحديث الذي طال حتى بلغ الإملال على أن
التشاؤم الأوروبي الحديث كغيره من التشاؤم القديم ، قد أنشأته ظروف متشابهة
تفرج متشابهاً في أصوله وصوره ونتائجه وموقعه من نفوس الناس .
وإذا كان لهذا الحديث كله مغزى يحسن أن أقف عنده ، وأن أتمنى أنه

الأدب المظلم

يتنبه إليه الأدباء المحدثون ، والقراء المحدثون أيضاً ، فهو أن الأدب الحديث
مهما يختلف ومهما تتباين صورته ، ليس إلا امتداداً واستمراراً للآداب القديمة ،
وأن الرقي الأدبي الصحيح محتاج إلى ألا يقطع الأدباء والقراء صلتهم بالقديم .
ذلك أحرى أن يعصمهم من الغرور ، ويحميهم من أن يظنوا بأنفسهم الإعجاز
والابتكار ، على حين أنهم قد أضافوا الشيء الكثير إلى ما ترك القدماء ،
ولكنهم لم يُعْجِزُوا ولم يبتكروا ، وإنما جهلوا إنتاج من سبقهم فغلوا في
تقدير أنفسهم غلوّاً شديداً . ورحم الله أبا العلاء ؛ فقد كان شاباً في أكبر الظن
حين قال :

وإني وإن كنت الأخيرَ زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

طه حسين

المصانعة

وسيلة جديدة للاستثمار الصناعى

فى العالم كله من الناحية الاقتصادية والاجتماعية غليان . وفى تلك البلاد التى اجتاحتها الحرب ، وأنزلت بمقوماتها الاقتصادية والخلقية أقصى ما أنزلت من التخريب والتدمير ، حركات إلى الخروج من المأزق خلال دعوة إلى جمعيات تأسيسية تصدر للجماعة دستوراً جديداً ، لامن الناحية الساسية وحدها ، بل من الناحية الاجتماعية أيضاً ، واتجاهات جديدة تملئها الانتخابات الأخيرة التى جاءت فى مواعيدها ، أو على أثر الحرب بعد أن طال انتظارها . وبين تلك البلاد المتلمسة إنقاذاً مما حل بها ، فرنسا وإنجلترا . وقد اتجهتا — أولاً خلال انتخاباتها الجديدة لجمعية تأسيسية تضع لها دستوراً جديداً لجمهوريتها الرابعة ، والآخرى خلال مجلس العموم الذى تمخضت فيه الكثرة الاشتراكية عن فوز حزب العمال فى الانتخابات العامة الأخيرة — إلى فكرة التأمين ونفذتها فى بنك الدولة وفى وسائل توليد القوات المحركة كالنجم فى إنجلترا ومحطات الكهرباء فى فرنسا .

ولا شك أن إجماع المفكرين لما ينعقد على هذا التيار الجديد ، فلا يزال لتقديم أنصاره ، ولا يزال للقابضين على السلطان الاقتصادى من القوة مالا يتنحون به عن هذا السلطان إلا بشق الأنفس . وقد كان الإشكال دائماً فى الحياة الاقتصادية وما ينشأ فيها من «متناقضات» إنما هو فى الموقف الذى يقفه رأس المال من العمل ، والعمل من رأس المال . وقد وقف كل منهما دائماً من الآخر موقف العداء على رغم ما يحاول بعضهم أن يدخله على العلاقات بينهما من روح التفاهم أحياناً ، أو روح التعاون أحياناً أخرى . وقد أخذ الكتّاب والمفكرون وأصدقاء رأس المال والعمل ، من هؤلاء وهؤلاء يُدلون هذه الأيام بمجهود فى سبيل التنسيق والتوفيق .

وفي فرنسا الآن اتجاه إلى «صهر» رأس المال والعمل في إدارة المنشآت... وتعالج المجالات الاقتصادية والاجتماعية هذا الاتجاه للتوفيق بين التيارات المتضاربة. ويستند أصحاب هذا الاتجاه هناك إلى أن الحادث البين طوال القرن التاسع عشر والثلاث الأول من هذا القرن العشرين، إنما كان تميز عنصر رأس المال في المنشآت؛ فكان يمثل رأس المال وحدهم هم الذين يشرفون على إدارة المنشأة، وإليهم وحدهم يعهد بتنظيم هذه الإدارة دون استشارة حقيقية ومنتجة للعمل وأصحاب الأجور. ورأس المال ضرورة من ضرورات خلق المنشأة وسيرها، ولكن عناصر الأجور بنشاطها ومثابرة ذكاؤها وعملها تعاون بنسبة عالية في إنجاح المشروع. ومن العدل المقرر في السابق أن يعترف لأصحاب الأجور بنصيب من المزايا الأدبية والمادية التي تلحق بالمساهمة في الإدارة والإنتاج.

ويتساءل العارضون لهذا الموضوع في تلك المجالات الاقتصادية والاجتماعية الفرنسية: ما هي الفوائد التي تعود على المنشأة من مساهمة العاملين في إدارة المنشآت؟ فيجيبون بلا تردد أنها ستسمح بالإفادة من خبرة خير العاملين ومن توزيع المهمات على أرباب الكفايات؛ لأن كل طائفة من العمال — بالمعنى الواسع من أصحاب الأجور — قادرة أكثر من غيرها على إعطاء الآراء والنصائح المستمدة من طبائع العمل ذاته. وكذلك فإن إشراك العمال في إدارة المنشأة سيخفف من وطأة الخصومة القائمة الآن بين رأس المال والعمل، وإن وجودهم في مجالس الإدارة وفي اللجان سيسمح بتربية رؤساء العمال تربية اقتصادية تنقصهم في الوقت الحاضر. وكذلك فإن اتصال رأس المال بمختلف الطبقات اتصالاً أليفاً يساعد على تربيته التربية الاجتماعية. فأصحاب رؤوس الأموال لا يعترفون عادة بأسس المطالب الاجتماعية التي يقدمها الذين «يؤجرونهم»، ولا يرون فيها إلا رغبة في زيادة أجورهم، في الوقت الذي تعتبر إجابتهم لها تحقيقاً لرغبة متصلة بالعزة النفسية. وإلى هذا وذاك فإن هذا التفاعل في المعرفة والاتصال يسمح بانتقاء العمال الأكفاء، واختيار الصفوة منهم التي تتبين في كل فئة من الفئات الاجتماعية. والصفوة هي الوسطة الخيرة بين التقريب والتفاهم. ويذهب الكتاب الاقتصاديون والاجتماعيون إلى الدعوة إلى تحقيق ذلك «الصهر» بين رأس المال والعمل عن طريق التعاون بينهما تعاوناً صادقاً.

ويقولون بتحقيق هذا التعاون لا بمصادرة رأس المال ولا بإعادة توزيعه ، ولكن بتعديل حقوق المساهمة والمشاركة : المساهمة فى الإدارة والمشاركة فى الأرباح . ويقولون مثلاً إن نسبة مساهمة العمال فى إدارة المنشأة تكون على قدر النسبة بين رأس المال وأرقام الإنتاج . ويضربون لذلك مثلاً : فإذا كان رأس المال المستثمر قد بلغ المائة وأرقام الإنتاج قد بلغت ألفاً ، فإن تمثيل رأس المال والعمل فى إدارة المنشأة يكون بالتعادل والنصف تماماً . وإذا بلغ رأس المال خمسة وعشرين وبلغ رقم الإنتاج ألفاً ، فإن نسبة رأس المال فى الإدارة تكون بالربع ونسبة العمل فيها بثلاثة الأرباع . وإذا كان رأس المال قد بلغ الأربعمئة ورقم الإنتاج ألفاً ، فإن رأس المال يمثل بثلاثة أخماس والعمل بخمسين اثنين . أما فى المشاركة فى الأرباح ، فيذهبون إلى تنويع العمال إلى فئات ، منها ما ينتج إنتاجاً من الدرجة الأولى ، ومنها ما ينتج إنتاجاً من الدرجات التالية ، ويوزعونهم على العمال والرؤساء والمديرين . ويحددون مشاركة أقل أنواع العمال بحصة واحدة فى الربح ، ويحددون مشاركة المدير بمئة حصة ، وتتراوح حصص سائر العمال والرؤساء بين الفئتين .

وينصح أولئك الكتاب العارضون لهذه المعالجات الجديدة التى تملئها على النظام الاجتماعى الفرنسى هذه الأيام للسير بها سيراً وسطاً — أن تتدخل الحكومة لتنفيذ تلك الإصلاحات بالطرق التشريعية ، وبالطرق الإدارية التى تطبق القواعد على المنشآت التى تديرها الحكومة وتراقبها . ويؤكدون فى بحوثهم ومقالاتهم أن « عالم العمال لا يمكن أن يظل أجنبياً عن إدارة النشاط الاقتصادى ^(١) . »

وفى مصر مشكلة اجتماعية . هذا واقع لا ريب فيه . فالفروق بين مستويات المعيشة شاسعة ، والإحساس بالحاجات عند رقيق الحال باد ، والتذمر بينهم آخذ فى التجسم ، وعدد المتعطلين من العمال فى ازدياد ، والشكوى لدى العاملين من قلة الأجور وكثرة ساعات العمل عالية ، والقاق من جراء ذلك كله يساور النابهن والمفكرين . ولا شك أن الحال تشغل كذلك بال الناعمين والحاكين . لكن ما هو المجهود الذى يبذل فى سبيل الإصلاح ؟ وهل هو موصل حقاً إلى الحل المنتج ؟

(١) مقال فى « المجلة الاقتصادية والاجتماعية » الصادرة بباريس بعددها الصادر فى

شهر يونيه سنة ١٩٤٦ ص ٨ إلى ١٨ .

هناك بلا ريب اجتهادات ، لكن هناك كذلك بلا ريب تواكلا واستهانات . نعرف مثلاً على سبيل الجزم أن تقارير قد صدرت منذ سنوات عن مسئولين لفتوا فيها الأنظار إلى المخاطر التى تترتب على ترك الأمور دون معالجة ، وتقدموا فيها باقتراحات متضمنة طرقاً للوقاية من الكوارث قبل أن تحل فيستعصى أمرها على المنتج . ونعرف على سبيل الجزم أيضاً أن تلك التقارير الصادر بعضها من أقرب موظفى الحكومة إلى الوزراء قد « ركنت » ، ولم تنل من المهتمين ما هى جديرة به من الاهتمام . ونرى الآن حركات يحاول القائمون بها إيجاد عمل للمتعطلين وتقديم الإعانات لهم إلى أن يتيسر لهم العمل عن طريق السعى لدى الشركات ، أو عن طريق القيام بأعمال عامة كبرى .

وليس ما يطرأ على الاجتماع المصرى هذه السنوات جديداً فى العالم ، وليس ما يتخذ لمعالجته من طرائق مبتكراً فى مصر ، بل قد سبقنا غيرنا إلى استقبال المشاكل الاجتماعية ، ولجأ غيرنا إلى ما نحاول الالتجاء إليه لمعالجة هذه المشاكل . وقد أخفقت محاولات المحاولين عند غيرنا فى أن يقفوا بالمعالجة عند الوسائل السطحية التى لا تنزل إلى الصميم . والمشكلة أعمق من أن تكون مشكلة تعطل ومشكلة قلة أجور وكثرة ساعات عمل . وهى فى الحقيقة مشكلة النظام الاقتصادى الذى يستند إليه الكيان الاجتماعى فى مختلف الأمم .

ولقد كان النظام الاقتصادى الشائع إلى ما قبل قيام الحرب العالمية الأولى هو نظام الاستثمار الفردى الحر المستند إلى المنافسة السليمة الحرة . لكن ظروف الحرب العالمية الأولى ، وظروف ما بعد تلك الحرب العالمية الأولى ، ثم ظروف الحرب العالمية الثانية ، قد قضت على ذلك النظام الفردى فى عمومه وتركت التوجيه والتسيير والتخصيص تقص من أجنحته شيئاً فشيئاً حتى أصبح الاتجاه الحاضر ، اتجاه تأمين المرافق المالية والاقتصادية ذات الصبغة العامة — خطوة أولى فى سبيل التعميم بالتطبيق على سائر المنشآت والمشروعات .

والعالم الآن عالم متصل متفاعل ، ما تكاد الطريقة الاقتصادية أو الاجتماعية تلوح فذة جديدة فى جانب منه ، حتى تتجاوز ما بين ربوعه من حواجز وحدود فتبذر بذورها فى كل موضع ، ويحاول الأخذ بها وتطبيقها فى كل مكان . وليست مصر بمعزل عن العالم ، وما هى إلا متصلة به ومتفاعلة . فإذا أعدت ، أو ماذا أعد القائمون بالأمر فيها لمواجهة الطرائق الجديدة من عدة ، ولا سيما بعد أن

لاح فيها ما لاح من بؤادر القلق الاجتماعى التى تتوالى أحداثه على الأيام ؟ لقد خطر لى خاطر ، وأنا أتأمل أحوال العمال ومن إليهم : ترى ماذا علينا لو أخذنا بنظام « المصانعة » ؟ لكن ما المصانعة أولاً ؟ هى عندى « المشاركة فى الصناعة » . وقد اجتهدت فى أخذ التعبير عن « المزارعة » وهى المشاركة فى الزراعة . والزراعة معروفة فى مصر ، ومعرفة مصر بها عريقة . ولا تزال أقاليم تقيم العلاقة بين صاحب الأرض وفالحها على هذه الطريقة ، يقدم صاحب الأرض أرضه وما إليها من وسائل الرى ، ويقدم الفالح مجهوده ، ويجبىء المحصول الناتج من الأرض بفضل مجهود الفالح فلا يستأثر به أحدهما ، ولا تصفى العلاقة بينهما بالمال ، ولكن يقتسم الاثنان المحصول بنسبة تتفاوت بتفاوت قدر المساهمة الأولى بين النصف والنصف ، وبين الحسنيين والثلاثة الأخماس ، فتكون كما يجرى به عرف التعبير عند الفلاحين « مناصفة » أو « مخامسة » . وتنتج هذه الطريقة أحسن النتائج بالنسبة للعلاقات بين الملاك والفلاحين ، فلا يحس الفلاح أن صاحب الأرض مرهقه بالإيجار المرتفع أو أنه سالبه حين يتعاقد معه على تسديد إيجاره ، قناطير معدودة من القطن مثلاً حين يتجاوز السعر حدًا معيناً ، ولا يحقد المالك على المستأجر حين يقبض إيجاره المحدد ويترك له المحصول يبيعه لحسابه إذ تكون الأسعار مرتفعة ، بل يحس الاثنان معاً أنهما متضامنان وأنهما فى السراء والضراء سواء ، وأنهما فى « حمى الله » يخصهما معاً بما يشاء .

ترى ماذا علينا إذن لو أخذنا بمثل هذا النظام فى العلاقة بين العمال وأصحاب العمل ، وهو ما نجتهد فى تسميته بالمصانعة ، مع ما يقتضيه الطابع الصناعى الخاص من تحوير ؟ ماذا علينا لو أقمنا تلك العلاقة على مبدأ المشاركة فى الأرباح بين العمال وأصحاب الأعمال ، فتسير المصانع على نحو ما تسير عليه الآن من حيث امتلاك رأس المال ومن حيث استخدام العمال ، فإذا ما أقفلت حسابات المنشأة فى آخر العام ، وأخذ من الأرباح الشاملة ما ينبغى أن يؤخذ عادة لحساب الاستهلاك والتجديدات ، ولحساب الاحتياطى اللازم لمقابلة مخاطر الخسائر وما إليها ، تحدد نسبة مئوية ثابتة تعتبر حدًا أدنى لأرباح رأس المال المستثمر ، تتراوح بين ثلاثة وخمسة فى المئة ، ثم يوزع الباقي على أصحاب العمل والعمال بنسبة متساوية أو متفاوتة بين رأس المال وأصحابه من ناحية ، والعمال والقائمين به من ناحية ثانية ؟

ترى ماذا علينا لو اتجهنا هذا الاتجاه ؟ وما هو في الواقع بالاتجاه الجديد
المبتدع ، وكثير من المنشآت في أوروبا وفي أميركا تنخص عمالها آخر العام
بمحنة معينة في الأرباح توزع عليهم بنسبة مرتباتهم وأجورهم . وهو مبدأ
متواضع إلى جانب ما يبدأ تطبيقه في إنجلترا وفي فرنسا من مبدأ « التأميم »
أو « المرافق المستصنعة » ؛ أو « صهر رأس المال والعمال » الذي يدعو إليه
بعض الكتاب الفرنسيين . وتوافق الخواطر هو ظاهرة هذا العهد وقد اختفت
فيه الحواجز والتخوم بين منتجات الفكر ، وستختفي فيه الحواجز والتخوم بين
حاجات البشرية ، والحد الأدنى للحياة في أية بقعة من بقاع الأرض .

محمد عزمى

محادثة (١)

بين الأسد البريطاني والدب الروسى

الأسد : — قل لى أيها الدب ! لماذا هذا التناقض الظاهر الذى يلحظه الناس بين آرائك وسلوكك السياسى ؟ فحين بدأت ثورتكم الكبرى استنكرتم سياسة القياصرة القديمة ، ونددتم بخطط التوسع تنديداً أدى بكم إلى التبرؤ من المعاهدات التى كانت فى مصالحكم ، كمعاهدة لندن السرية التى عقدناها معاً فى سنة ١٩١٥ وتعاهدنا فيها على أن تكون القسطنطينية ومنطقة المضائق من نصيبكم متى انتهت الحرب بهزيمة الوحش وزميله الذئب التركى ؛ فقد فضحتهم حينذاك سر المعاهدة ، وأعلنتم زهدكم فى شروطها ، وكسبتم بذلك صداقة الذئب . وفعلتم مثل ذلك فى بلاد الفرس ، فنزلتم عن منطقة نفوذكم وعن امتيازاتكم فيها ، وقدمتم مؤسساتكم ومهماتكم هدية منكم للشعب الإيرانى . ثم ما هى إلا بضع سنوات حتى تنكرتم لمبادئكم تلك ، وبعثتم السياسة القيصرية القديمة من مرقدتها ، وأصبحت سياستكم الخارجية ، سواء فى البحر المتوسط والمضائق أو فى شبه جزيرة البلقان أو فى خليج فارس أو فى غرب آسيا والمحيط الهادىء صورة طبق الأصل من سياسة التوسع التى كانت تسير عليها الحكومات الأوتقراطية فى عهد القياصرة .

الدب : — وما دخل مبادئ الثورة فى السياسة الخارجية للدولة ؟ إن من الحق أن تؤثر الآراء الثورية فى سياسة الأمة الداخلية ، فتصدر التشريعات وتسن القوانين مشربة بالآراء الحديثة . أما فى السياسة الخارجية فإن الاعتبارات الجغرافية والتاريخية الثابتة هى التى تتحكم فى توجيهها مهما كان لون الحكومة القائمة بالامر قيصرية كانت أو بلشفية . . .

(١) الكاتب المصرى عدد ١١ (أغسطس ١٩٤٦) .

وهل تأثرت سياستكم الخارجية بتقلد العمال زمام الحكم بعد المحافظين ؟
إن الخطوط الرئيسية لسياسة العمال الخارجية هى نفس الخطوط التى رسمها
تشرشل والمحافظون ، وإن اختلفت طرق تنفيذها والتفاصيل التى تشتمل عليها .
وكذلك الحال فى روسيا وفى سائر البلاد العريقة فى تاريخها وتقاليدها —
لا مندوحة لها عن التأثر بحقائق تاريخها وجغرافيتها . فمن الحقائق الجغرافية
مثلا التى تسيطر على سياسة روسيا الخارجية مهما تغيرت نظم الحكم فيها ، أنها
بلاد توشك أن تكون مغلقة ، بسبب تجمد مياه البحار المحيطة بها فى معظم شهور
السنة ؛ ولذلك تراها دائبة السعى للوصول إلى منافذ تطل منها على الخارج وتيسر
لها الاتصال بالمناطق الدافئة النشطة فى تجارتها الغنية بمواردها . ومن الحقائق
التاريخية التى تمتزج بدماء الروس ولا تنفك مسيطرة على أذهانهم ، أن هناك شعوبا
فى البلقان تنتمى إلى الجنس السلافي أو الصقلي الذى تنتسب إليه روسيا . وما
فتى الروس طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يعطفون على تلك
الشعوب ويدربونها ويمكنون لها حتى تخلصت من نير الأتراك ، ثم إطردها
وكمل استقلالها ، وباتت روسيا تعتقد أن من حقها على تلك الشعوب أن تخصصها
بمكانة تمتاز بها على سائر الدول .

وإذا كان دعم الثورة قد استدعى فى أول الأمر أن نركز جهودنا فى
سياستنا الداخلية ، وأن نعتصم بالأناة والصبر إزاء ما فرضته علينا الدول من
قطيعة وطردها وحرمان ، فإننا لم نر بداً من أن نطرق باب الشرق مادام الغرب قد
أوصد أبوابه دوننا ، فعقدنا معاهدات الصداقة وحسن الجوار مع تركيا وإيران
وأفغانستان . ولما لم تقبلونا أو تدعونا معكم فى عصبة الأمم ، تفاهمنا مع الوحش
المنهزم ، واتسعت مسافة الخلاف بيننا وبينكم ، إلى أن اكفهر الجو فى أوروبا
وتلبدت سحب الحرب الأخيرة ، فاجأتم إلينا ولكن بعد ضياع الوقت .

الأسد : — إذا كانت حقائق التاريخ والجغرافية هى التى تملى عليكم سياستكم
الخارجية ، فما معنى المشاكل التى تثيرونها فى إيران والباقان والمضايق وفى تريسته
ومستعمرات إيطاليا القديمة ؟ وأى اعتبارات جغرافية أو تاريخية تدعوكم إلى
التدخل فى شؤون دولتين مستقلتين كإيران وتركيا ، أو إلى المطالبة بضم طرابلس
أو جزر الدوديكانيز ؟ فهل كان أهل إيران وتركيا من العنصر السلافي

الأرثوذكس ؟ وهل كانت جزر الدوديكانيز واقعة فى البحر البلطى أو هى لا تزال قائمة ، كما تعلم المدارس تلاميذها ، فى شرق البحر المتوسط ، فليس يهم أمرها سوى اليونان ؟ وكيف انقلب الذئب التركى فجأة إلى وحش مخيف ، فأخذتم منذ انتهينا من الوحش نحاولون الانقضاض عليه ظمأ وعدواناً بعد أن صادقتموه فى بدء ثورتكم ، ودافعتم عن مصالحه فى وجه الدول جميعاً ؟

الدب : — من الاعتبارات الجغرافية التى تتحكم فى توجيه السياسة الخارجية لدولة ما ، المواقع والنقط الاستراتيجية التى يتوقف عليها تأمين حدودها وسلامتها من العدوان . وبلاذنا كما تعلم بلاد مترامية الأطراف ، إذا تمهاونا فى حماية حدودها من الخارج انهار البناء كله من الداخل ؛ إذ لا بد من أن يطمئن الشعب داخل حدوده حتى يستطيع أن يتفرغ للنهوض ببلاده . ونحن شعب حديث العهد بالحرية ، ولا بد له من الاستقرار حتى يتعلم ويتدرب ويتقدم . وأتنى يتهاى لنا الاستقرار إذا كنا فى الجنوب تحت رحمة تركيا : إن شاءت فتحت لنا المضائق وإن شاءت أغلقتها فى وجهنا وحبست عنا تجارة البحر المتوسط ؟ ومن أين لنا الأمان والسلامة وفى الجنوب الشرقى بركان من الأكراد لا يهدأ ثورانه وإنما يخضع هؤلاء الأكراد لايران والعراق وتركيا ؟ وكيف يهدأ لنا بال وفى الشمال الشرقى إقليم قارص وأردهان وأرتيقان وقد كان داخل فى حدود أرمينيا السوفيتية قبل سنة ١٩١٩ وهو إقليم على جانب عظيم من الأهمية الحربية ؛ لأنه يتحكم فى الطريق إلى القوقاز ؟ أما من ناحية الغرب فقد أخذنا أمورنا بأيدينا ، وضممنا ولايات البلطيق كما كانت قبل الحرب العالمية الأولى ، وأخذنا من بولندة وفنلندة أراضى كانت لنا فى الماضى أيضاً . ولو أنها بقيت فى أيدي غيرنا لتعرضت حدودنا الغربية للخطر .

ولا تنس أن الوحش قد هاجمنا مخترقا هذه الحدود مرتين فى مدى خمس وعشرين سنة ، وقد ذقنا من أهوال الحرب فى المرتين ألوانا لم ير العالم مثلها ، وقد راح ضحيتها ملايين من الشبان فضلا عن الخسائر المادية التى منيت بها البلاد . وإنه لإجرام فى حق الوطن أن نتساهل فى أمر قد نتعرض بسببه لهجوم ثالث قد لا نقوى على احتماله مرة أخرى .

الأسد : — ولكن تأمين الحدود يصدق يجب أن يكون من مهمة مجلس الأمن فى هيئة الأمم المتحدة التى تضافرت جهودنا على إنشائها ، وبذلك يصبح التأمين عامًّا يصون السلم فى جميع الأرجاء . أما أن يكون التأمين مهمة فردية تتولاها كل دولة وفق مصلحتها الخاصة ، فإن مثل هذا التصرف لا يلبث أن يؤدى إلى التنافس الحربى ، ومن ثم يكون سبباً إلى حرب عالمية ثالثة . وكما أن الحرب لا تتجزأ : إذا نشبت فى إقليم اندلعت منها شرارات الحرب العامة سريعاً ، فكذلك السلم يجب ألا تتجزأ حتى ينتشر لواؤها على العالم أجمع . ثم لماذا تخشون الوحش وقد تقطعت أوصاله وانهد بنيانه ! وأكبر الظن أنه لن تقوم له قائمة إلا بعد أجيال ، وبعد أن يكون العالم قد تطهر من أدران الحرب واتخذ عدته لإبادة جرثومتها . لا بد أن يكون فى الأمر خبيء يعملون على كتمانها ، وإلا فصدّ من تريدون هذه التأمينات ، وتقيمون هذه التحصينات ؟

الدب : — إن أمرك أيها الأسد لغريب حقًّا . تسألنى ضد من هذه التأمينات وأنت الذى ابتدعت النقط والقواعد الاستراتيجية ، واستمسكت بالمناطق والشرابين الحيوية ، ووضعت يدك على مفاتيح أهم المنافذ البحرية فى العالم ! أأنت المتسلط فى البحر المتوسط بقواعذك فى جبل طارق ومالطة وقبرص وفلسطين وقناة السويس وعدن ، فضلاً عما بيدك من أملاك وجزر وقواعد فى سائر أركان المعمورة ، وكل هذا لتأمين طريقك إلى أملاكك الواسعة . . . فلماذا تبيح لنفسك ما تأباه على غيرك ؟ ألم يعلن ابن عمك الأمريكى أمام الملأ فى أثناء الحربين العالميتين أن فى مقدمة أغراضكم من الحرب إعلان حرية البحار ، ولا تزال مع ذلك مفاتيح البحار فى أيديكم إلى الآن !

الأسد : — إن لنا ظروفًا خاصة لا إخال دولة أخرى فى العالم تشاركنا فيها ؛ إذ لا يخفى عليك أننا نسكن جزيرة صغيرة لا تبلغ جزءاً من مائة من مساحة بلادكم ، وقد اجتزنا مرحلة الزراعة منذ ظهور حركة الانقلاب الصناعى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأصبح أساس ثروتنا الصناعة والتجارة ، وجل اعتمادنا فى غذائنا وخاماتنا على ما يرد إلينا من أنحاء الإمبراطورية ومن الخارج ، لذلك نعتبر أسطولنا الحربى والتجارى خط دفاعنا الأول ؛ فإذا لم نحفظ بتفوقنا فى

البحار تعذر علينا ضمان سلامة اتصالاتنا بأملنا كنا وبالعالم الخارجى ، وأعوزتنا الخامات والأغذية ، وتعرض أطفالنا وأسرننا لخطر الجوع والحرمان . هذا هو الفرق بينى وبينك وبين ابن عمى : كلا كما فى غنى نسبي عن العالم الخارجى ؛ فلديكما الكفاية من موارد الخامات والأغذية ، وقد حبستكما الطبيعة بإنتاج وافر من مادة زيت البترول الذى يعتبر بحق عصب النشاط الاقتصادى والحربى ، فأتم تنتجون منه مقدار ١٠٠٠ ٪ من إنتاج العالم . وأما الولايات المتحدة فتنتج ٦١٣ ٪ منه ، وهى ميزة لكما تفوق كل تقدير وتتيح لكما أن تنتهجا فى سياستكما خطة العزلة عن مجموعة الدول حين يبدو لكما . وأما نحن فنعيش حالة على غيرنا ؛ إذ نستورد من الخارج كل حاجتنا من زيت البترول اللهم إلا نسبة ضئيلة تنتجها كندا والهند . حتى زميلنا الديك الفرنسى يستطيع أن يعيش على موارده الخاصة وإنتاج أملاكه القريبة منه دون أن يتعرض للخطر مثلنا . من ذلك ترى أيها الصديق أن القوة البحرية وما يتبعها من قواعد البحرية هى مسألة حياة أو موت بالنسبة إلينا ، وفى اليوم الذى تتخلى فيه عن قواعدنا ونقطنا الاستراتيجية فى عرض البحار نكون قد نزلنا عن مكائنا كدولة عظمى ، وأنكرنا تاريخنا وتقاليدينا ، وغمطنا حق ذرائنا وأسلافنا وبالاختصار نكون قد انتحرنا .

الدب : — لست أظن أن العالم يخسر كثيراً بذهابكم ، فقد انتهى زمانكم وأديتم رسالتكم على قدر ما سمحت به ظروف الجهل والفقر والضعف التى كانت تسيطر على العالم فى أثناء تفوقكم . وكما كم أنكم أدخلتم النظم الديمقراطية النيابية فى بلاد العالم ، فأشعتم فيها الخلافات الداخلية ، وساعدتم على الفرقة والتناحر الحزبى بين أبناء الوطن الواحد ، بقصد الوصول إلى كراسى الحكم وتأليف الوزارات التى ابتدعتموها . كما كم أنكم جعلتم الشاى شراباً عالمياً ، ولعب الفوتبول رياضة أممية ! وستذكر لكم الأجيال المقبلة حروبكم وما بذلتم من جهد فى سبيل استعمار إيرلندة والهند وأمريكا وإفريقية ، وفرض رقابتكم على البحار فى الحرب والسلم . أما الآن وقد فتحت الكشوف العلمية الهائلة آفاقاً جديدة لحياة جديدة مليئة بالندر والاحتمالات ، فإن هذه الحياة تتطلب دماً جديداً ودروساً جديدة يقوم بها أساتذة مدربون تدريباً جديداً

فى مدارس غير مدارسكم ، ووفق آراء وفاسفات غير آرائكم وفلسفاتكم .
الأسد : — قال القدماء أو المحدثون — لا أدرى — إن من لا يتطور
يتقهقر . والسرف فى بقاء فصيلتنا إلى الآن أننا نطبق نظرية التطور فى جميع أنظمتنا
وآرائنا السياسية والاقتصادية حتى الاستعمارية . وأحسب أنك تعلم أن
مستعمراتنا وأملاكنا فى عرض البحار قد أصبحت مع التطور دولا مستقلة
شكلا وموضوعا ، حتى إن بعضها قد قرر فى الحرب الأخيرة أن يلزم الحيطة ،
ولو شئنا لأرغمناها على دخولها إلى جانبنا ، ولكننا آثرنا حرية الرأى على
مصلحتنا الخاصة . وما مثل جنوب إفريقية فى أول الحرب وإيرلندة طوال
مدة الحرب ببعيد . وإننا لنباهى بأننا منذ القرن التاسع عشر وإلى الآن لم نزل
ندافع عن حقوق الشعوب الصغيرة ، ونرعى مصالحها ضد قوى الاستبداد
والرجعية ، فساعدنا على ظهور قوميات مستقلة جديدة تتمثل فى جمهوريات
أمريكا وفى اليونان وبلجيكا وفى الشرق الأوسط . وأظن أن العالم سيدكر لنا
جهودنا فى سبيل تحرير الرقيق ، وتكوين جمعيات الصايب الأحمر ، وتحرير
المرأة ، ونظام الكشافة ، وحرية التجارة ، وحتى الانتخاب العام . وما دمنا
مؤمنين بنظرية التطور والحرية ، فإن بريطانيا لن تموت ، وسترى أيها الرفيق
أن العالم لن يفيد من الثورة والعنف بقدر ما يفيد من الحرية مع التدرج
والتطور .

الدب : — إني أمقت التباطؤ والتدرج ، وأدين بالثورة التى خلقت روسيا
الجديدة ، وأعتقد أن النظام الديمقراطى بما ينطوى عليه من تراخ وضعف وتمييز
بين الطبقات هو سبب ما يعانىة العالم الآن من قلاقل واضطرابات .
دعنى أنفذ برنامج الثورة الشيوعية الدولية ، وسترى كيف يبرأ العالم من
أدوائه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية جميعا

الأسد : — إني أعتقد أن التطور هو النظام الطبيعى ، فالثمرة لا تنضج فى
يوم وليلة ، بل لا بد لها من تربة صالحة ورى وغذاء وتقليم وتشذيب وتطعيم
وتدخين حتى تطيب وتتدانى للآكلين . أما الثورة فظاهرة شاذة تقذف
بالشعوب فى ألوف من التجارب والانقلابات العنيفة الدامية القاسية ، ثم

لا تلبث فورة الثورة أن تخمد ويعقبها رد فعل طويل من الضعف والإرهاك والإخلاق إلى التواكل والقناعة . قد تكون الثورات السياسية ضرورة طبيعية فى عصور الاستبداد والتسلط القديم . أما فى هذا العالم الجديد الذى يجب أن تتمتع فيه الشعوب باستقلالها والأفراد بحريتها فى حدود القانون — فنحن فى حاجة إلى ثورة من نوع آخر فى البحوث العلمية والاكتشافات الآلية الجديدة التى لا يقتصر تطبيقها على عتاد الحرب ، بل يجب استغلالها لرفع مستوى البشر ولمصلحة الطبقات جميعاً لا لمصلحة طبقة دون أخرى . ولا أمل فى تحقيق ذلك إلا إذا تعاونت الشعوب ، وأمنت العدوان عليها ، ونعمت بكامل حريتها وسيادتها فى الداخل والخارج .

الدب : — هذه مجرد نظريات تتشدد بها .

الأسد : — كذلك كان الطيران مثلاً ، وكان التسامح الدينى ، وكانت القنبلة الذرية — كلها كانت مجرد نظريات فى أول أمرها ثم أصبحت بالممارسة والتجربة حقيقة يفيد منها العالم أجزل الفوائد .

الدب : — وكيف توفق بين فكرة الاتحاد العالمى الذى تنشده وتمسك الدول بكامل حريتها وسيادتها ؟

الأسد : — أريد أن يكون الاتحاد العالمى لمنع الحروب ، وتيسير المواصلات والتجارة ، ونشر الصحة والثقافة ، وتوفير العمل بين شعوب العالم . أما فى الشؤون الداخلية ، وحق الملكية ، وحرية العبادة والتعبير ، واختيار نوع الحكم ، فنريد حرية كاملة فى حدود القانون دائماً وسيادة تامة بحيث لا تتدخل دولة فى شؤون دولة أخرى . ولا يتحقق كل هذا — كما ذكرت لك — إلا بالتعاون واحترام الحريات .

الدب : — أأست عضواً متعاوناً معكم فى هيئة الأمم المتحدة وفى مجلس الأمن ؟

الأسد : — حقاً نحن جميعاً أعضاء ، ولكننا غير متساوين مع الآخرين .
وأساس التعاون المساواة ، فإذا انتفت زالت الثقة وحلت مكانها الريب والظنون .
وقد تذرعنا بحقنا كمحاربين غالبين فى الحرب الأخيرة ، وتمسكنا نحن الخمسة
الكبار بحق الإجماع فى التصويت بيننا ، وانبنى على ذلك أن واحداً منا نحن
الخمس يستطيع أن يحول دون تنفيذ أى قرار يتخذه مجلس الأمن أو الجمعية
العمومية للأمم المتحدة مهما عظم أمره ومهما بلغت الكثرة فى جانبه . وقد
أثبتت الظروف أننا كنا على خطأ فيما قررنا ، فإننا بذلك قد فتحنا هوة عميقة
بيننا وبين أمم العالم جميعاً . ويدهشنى أنكم تناهضون مبدأ المساواة بين الدول
على حين تحض ثورتكم على المساواة بين الجميع .

إن مبدأ احترام المساواة يقتضينا أن ننزل عن حق « القيتو » ، وأن نؤمن
بحق الكثرة . فإذا لم ننزل عن هذا الحق الذى اغتصبناه لأنفسنا فلا مندوحة
إذا من أن نعمل على كسب الأصوات بالحق وبالباطل ، وقد تؤدى بنا الحال
إلى بعث قوة الوحش من جديد ليكسبه واحد منا إلى جانبه ، وحينئذ تتحقق
نبوءة هتلر حين قال إنه إذا ذهب ، فإن الديمقراطية والبلشفية لا تلبثان أن
تصطربا ، وفى اضطرابهما فرصة ألمانيا وبعث للنازية من جديد . فلنكن على
حذر . وأولى لنا أن نتفق ، ولا يصح أن يلدغ أحدهنا من جحر أكثر من مرتين !

الدب : — كفى ! إنك تمحضرنى ! وما كنت أظن أن محادثتنا ستقلب
سريعاً إلى محاضرة من جانب واحد . فإلى اللقاء عندما يعود مولوتوف من الغابة .

محمد رفعت

صفحة مجيدة من تاريخ أمة عظيمة

ليس منا من يجهل عراقة الصين في الحضارة والمدنية ، ولكن القليل منا ينظر إلى أهل الصين اليوم بالعين التي تملأها تلك المعرفة . فلقد ظلم التاريخ الحديث هذه الأمة العظيمة فأشاح بوجهه رضاه عنها ، فإذا هي تعسة بائسة مستضعفة تقاتل قتال الحق أمام القوة . . . قتالا مجيداً رائعاً أعواماً وأعواماً كل العالم كله في القتال من نصفها عدداً ، وتكالبت الأمم القوية عليها . . . هذه انجلترا النائية ، وتلك اليابان جارتها ، فما وَكَّنت ولا كَلَّت .

وهذه صفحة من صفحات هذا القتال العظيم تصور أول صفحة من هذه الحرب بين القوة والحق . ولقد نقل التاريخ إلينا هذه الصفحة في مختلف ظروفها وغصورها ، فإذا هي على اختلافها تتحد في ظاهرة واحدة ، هي تغلب الحق تغلباً زائفاً في بدء المعركة ، تغلباً يعجب الأبطال وأشباههم ومن يطربون لسيرهم . ولندع التاريخ يقلب صفحات تلك الحرب العظيمة ويصور صوراً مختلفة من مواقف القتال وتتأججه ، تتحد هي أيضاً رغم اختلافها في أنها تنتهي أبداً بانتصار القوة المادية ، ولنقف نحن أمام هذه الصفحة الأولى نعجب ونطرب ، ونسأل كيف أمكن لمثل هذه العظمة أن تطأطئ الرأس أمام القوة ولو إلى حين .

ترسم الصورة بلاط الملك جورج الثالث في لندن آخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وقد جلس الملك العظيم على عرشه المكين يستقبل رجالات الدولة ، ويصرف شؤونها في وقار الملوك العظماء وهيبتهم . وهذا هو اللورد ماكارثي سفير الملك إلى بلاد الصين النائية ، وقد عاد من رحلته الطويلة الشاقة متعباً ولكنه باسم مشرق الوجه لولا شيء من جمود في حركاته ونظراته . وما كاد يدخل قاعة العرش بعد أن أعلن مقدمه حتى كاد الملك يخف لاستقباله لولا وقار من العرش ، وبرود من الطبيعة والدم . وأقبل السفير وانحنى أمام الملك ،

ونظر إلى الوزراء والحاشية من حوله وقد ملئت نفسه رضا وطمأنينة . نعم هذا هو الزخرف الحق وذلك هو جلال العرش وهيئته ، لا تلك القاعة الفاخرة في أقاصى الشرق التى زانها فن عجب مسرف فى زخرفه ، دقيق فى نقشه ، يوحى بشئ من السحر الشاذ ، فيحس المرء أمامه أنه فى عالم غريب عنه . ثم هذه الرائحة العطرية الثقيلة تنبعث من جوانب القاعة الكبرى ، فتدير الرأس ، وتسد منافذ النفس . ولم يطل خياله المقارنة بين وطنه وذلك البلد النائي العجيب . لقد أعد خطاباً رائعاً طويلاً أخذ يلقيه الآن على آذان هؤلاء السامعين ، والملك العظيم منصت فى شوق ولهفة .

« إن الصين بلد عظيم فى مدنيته عريق فى حضارته . وهو فوق هذا بلد غنى بالخيرات ، قد أسبغ الله عليه نعمة لم يفز بها إلا الأقل من بلاده العديدة ؛ وذلك أنه قد كفى أهله وأغناهم عن غيرهم ، وهو مستطيع أن يكفيهم ويغنيهم ما شاء ، مهما تطورت المدينة الحديثة ، وتعددت مطالب العيش فى ظلها . وسكانه يا مولاي قوم مثابرون على العمل ، مخلصون فيه ، لهم خفة الآلة سرعتها ، وفن الإنسان وحذقه . . . »

وطال حديث السفير عن هذا البلد الشرقى النائي العجيب ، فإذا الملك والقوم من حوله يكادون يستحثونه لينبئهم بنتيجة سفارته ، فقد بدأوا يملئون الإ نصات إليه ، وأصبحوا يسمعون جملة وتفوتهم لشروذ أذهانهم جل . « إني عاشرتهم فلم أجد أكثر منهم أدبا ، ولا أصدق منهم معاملة ولا . . . » وشرد ذهن المنصتون إليه من جديد . قال الملك مقاطعاً بعد أن طال كلام السفير : « عسى أن تكون قد فزت من إمبراطورهم بالرد الحسن على ما طلبنا إليه . » فقال السفير وقد أدرك أنه أطال : « نعم يا مولاي . وإنه لرجل عجيب فى مظهره ، ولكنه على خلق قويم كريم . ما قابلته إلا باسم راضيا متأدبا مجللاً للناس من حوله ، فاستحق بذلك إجلال الغرباء وعبادة شعبه . وإنهم ليعبدونه بأخلص مما يعبد به شعبنا ربه الذى خلقه . » وتدفق بيان السفير من جديد ، فقال الملك مقاطعاً : « ولقد نجحت سفارتك إليه . أليس كذلك ؟ » قال : بلى قد نجحت يا مولاي أى نجاح . ولقد حملنى إليك رسالة لم ينبئنى بشئ مما احتوته ، ولكن الهدايا التى أرسلها إلى جلالتك ، والمعاملة التى لاقيتها منه تنبئ جميعها بأننا قد وفقنا لأكثر مما طلبنا . إنه لعجيب حقاً ألا يحدثنى بشئ

في صدد ما جئت به إليه ، بل كان يقول دائماً : رد الرسالة رسالة مثلها . ألبس كذلك ؟ ثم يتسم ابتسامة ناعمة هادئة . إنه لرجل عظيم . . . » وخشى الملك أن يتدفق بيان الوزير من جديد ، وقد عيل صبره ، فقال في شيء من الحزم : « هات الرسالة إذن واتلها علينا . » وفض السفير ختم الرسالة الإمبراطورية ، فإذا بها تقول :

« إنكم أيها الملك تعيشون في منطقة بعيدة نائية ، ولكنكم تريدون في تواضع أن يمسمكم من بركات حضارتنا خير ؛ لذلك أرسلتم سفيركم يحمل رسالتكم في هيبة ووقار .

« إن فضل أسرتنا العظيمة وأمتنا المجيدة قد عم الآفاق وطبقها ووصلت أخباره إلى كل أمة على الأرض ، فأرسلت إلينا ملوك العالم أجمع برّاً وبحراً هداياها وخراجها .

« إننا نحن الصينيين نملك كل شيء ، ولا يهرنا من تلك التحف الجميلة التي عندكم شيء ، بل إن منتجاتكم وصناعاتكم لا محل لها في بلادنا ، ولا فائدة منها عندنا . . . »

وبدأ الملك يوجس خيفة ، فظهرت أمارات الجد على وجهه البارد الجامد ، ولكنه في لهفة التطلع إلى ما بعد لم يقاطع سفيره .

« ولقد قبلنا هداياكم التي أرسلتموها إلينا ، لا شيء إلا لهذا الولاء والإخلاص اللذين أمليا عليكم إرسالها إلينا ونحن في أقصى البلاد وأناها . . . » ولم يستطع الملك سكوتاً فقال : « ولقاء وإخلاص ؟ لمن ؟ أكل أيها السفير . » وبدأ يفهم أن السفير قد بالغ فيما ظن من نجاح سفارته .

« إنا لنحس من خطابكم تواضعاً محموداً خليقاً بأن يحترم . ولقد استقبلنا سفيركم خير استقبال ، ووهبنا له من عطايانا كثيراً ، وأرسلنا إليكم أيها الملك هدايا ثمينة تجمد بها بياننا مرفقاً بهذه الرسالة . ألا فلتقبلها في إجلال واحترام . »

ولم يملك الملك نفسه من أن يضحك . بيان بالهدايا حتى لا يختص السفير العزيز نفسه بشيء منها ، فلقد وهب للسفير ما ظن أنه يكفي ، ولكنه لم يأمن طمعه حتى بعد الشبع ، فأرسل هذا البيان بها . ألا فلا تقبلها في إجلال واحترام . في إجلال يا للغرور ، عرش مكين بلا جدال ، وحضارة عريقة قديمة بلا ريب ،

ولكن أى شعب اليوم ، وأى مكان بين الأمم فى هذا العصر . ألا رفقا بهذا التعاضم الفارغ الخداع . كم يخدع الماضى هؤلاء القوم عن حاضرهم . وجالت هذه الخواطر كلها بسرعة البرق فى رأس الملك العظيم لما توقف السفير هنيهة لىبتلع الإهانة التى أصابته من هذا القصير المزخرف العجيب ، إمبراطور الصين . ألا ما أكثر ما يخدع فيه المرء ! بيان بالهدايا ! وقال السفير تاليا الرسالة الإمبراطورية :

« وأما طلبكم أن تبعثوا من عندكم سفيرا ليعيش فى بلاطنا القدسى الهادى فإن مثل هذا المطلب لا يمكن أن يجاب ؛ فكل أوربى يعيش فى عاصمتنا ييكن محظور عليه أن يغادر الصين ، وأن يكاتب أحداً من بلده ؛ لذلك لسنا نرى كيف يمكن أن تفيدوا شيئاً بوجود سفير من لدنك عندنا . أضف إلى ذلك أن فى أوربا أمما كثيرة غير الأمة البريطانية ، فإذا طلبت كل منها ما طلبتم فخيرنى بالله كيف يمكننا أن نوافق على هذا الطلب ؟ أتريدون من أسرتى الملكية أو من أمتى المجيدة أن تغير من عاداتها أو من طباعها شيئاً ، لتنفذ لكم ما تريدونه ؟ »
وتحققت مخاوف الملك . إن السفير قد خدع ولاشك هؤلاء القوم ناعمى الملمس ناعمى الشعور : إن فى تلك الأجسام الضئيلة الخفيفة الحركة قلوبا مليئة بالغش والخداع . ولكنه أراد أن يتابع الرسالة ، فلم يعلق على سفيره بشئ .
والسفير فى لهفة الدهشة أخذ يتابع القراءة مبهورا .

« ولقد طلب سفيركم أيضا أن أسمح لبواخركم بالتجارة فى موانئ أخرى غير ميناء كانتن وهذا طلب مرفوض ، ولن نسمح بتجارة لكم فى أى ميناء آخر غير كانتن . »

ولن نسمح بتجارة لكم فى أى ميناء آخر غير ميناء كانتن ! فيم كان النجاح أيها السفير ! ولما كان هذا هو المطلب الأساسى الذى من أجله رحل السفير رحلته الطويلة الشاقة ، وانتظر الملك انتظاره المترقب المتاهف ، فإن الملك لم يملك نفسه فى مرارة السخرية من أن يقول : « نجاح عظيم بلاشك أيها السفير ! أكمل رسالتك . »

« وأما طلبكم إلينا بأن نسمح لتجاركم بأن يختزنوا بضاعتهم ، ويتاجروا فيها فى ييكن ، فهذا مالا يمكن أن ينفذ عمليا . إن عاصمتى هى المحور الذى من حوله تدور الأرض بأجزائها جميعاً . . . »

وضحك الملك يفرج آلام سخطه وغيظه . المحور الذى من حوله تدور الأرض ! أى غرور وأى تعاظم ؟ ومن ؟ من هؤلاء القوم صغار الأجسام صغار العقول . قال السفير وقد اغتاض هو الآخر أشد الغيظ : « بيكين . إن أقدر مدينة فى بلدكم أيها الملك لأنظف من بيكين تلك التى هى محور الأرض وعاصمة الكون ! لكم خدعت فيك أيها الإمبراطور العظيم أيها الشين لنج : إنك حقاً لعظيم . فقال الملك حانقاً هازئاً : « لا تنس أن الصين يا مولاي بلد عظيم فى مدينته عريق فى حضارته ، وأن سكانه قوم مثابرون على العمل مخلصون فيه . » فأكمل السفير قراءة الرسالة وقد كاد يقطع على الملك كلامه :

« وإن قوانين بلدنا للازمة صارمة . وقد حرمت هذه القوانين على الأجانب أن يتاجروا فى وطننا ، فلم يجسر أحد إلى الآن أن يفعل . لذلك ترانى أيها الملك مضطراً لأن أرفض هذا الطلب أيضاً .

« إن سفيرك قد طلب إلىّ أيضاً أن أسمح لكم بتعليم دينكم ونشره فى الصين . ولكن الأباطرة العظماء والفلاسفة الحكماء قد علموا الصين منذ فجر التاريخ ديناً اعتنقته الملايين من رعيتى ؛ فلسنا فى الواقع محتاجين إلى تعلم دين جديد . إن الطلب لشاذ ، وهو فى نظرى لا يستند إلى أى حجة من منطق أو دليل من عقل . »

وكرر السفير : « لا يستند إلى أى حجة من منطق أو دليل من عقل . » ولكنه خاف أن يكون الملك قد فهم سر هذا التكرار فأسرع بالجملة التالية وكررها هى أيضاً .

« لقد نظرنا دائماً بعين العطف العظيم إلى السفارات التى كانت تأتينا محملة بالهدايا من الممالك التى كانت تتوق حقاً إلى بركات مدينتنا . ولكن طلباتكم تنافى عادات أسرتنا وأمتنا منافاة صارخة ضريحة ، ولسنا نرى فائدة يمكن أن نجنيها من إجابتنا لها . إنه لمن واجبك أن تدرك عواطفى ، وأن تتبع فى احترام ووقار تعليماتى . »

قال الملك : « ثم ماذا؟ » قال السفير : « انتهت الرسالة يا مولاي . » فابتسم الملك هازئاً ساخراً مغيظاً ، وحنق الحاضرون . ولولا هيبة العرش ووقار الملك لعلّقوا كثيراً .

صفحة مجيدة من تاريخ أمة عظيمة

ولكن التاريخ يسرع ، فيسدل على هذا المنظر أستاره . وتتابع فصول هذه الحرب بين القوة والحق ، فإذا مناظرها متشابهة وفصولها مكررة . ولكن أيعمل التاريخ من التكرار ؟ كلا ! أيتعظ الإنسان من هذا التكرار ؟ كلا أيضاً . وما زالت الحياة مشوقة بأحداثها ، وما زال منا من يتحرق شوقاً إلى أخبارها .

مهدي القلماري

المسألة الهندية

تعتبر الهند بحق أسطع جوهرة في التاج البريطاني وأعظم وحدة في الإمبراطورية البريطانية . وهي بمساحتها وسكانها ومواردها الضخمة تكاد تعدل قارة بأسرها . فمساحتها تبلغ زهاء مليوني ميل مربع ، ويبلغ سكانها أكثر من ثلاثمائة وخمسين مليونا . وتبسط بريطانيا على هذا الإقليم الغني الشاسع سلطانها المطلق منذ أكثر من قرن ونصف قرن . ومنذ سنة ١٨٧٧ يزدان التاج البريطاني بشعار الإمبراطورية ، ويلقب ملك إنجلترا بإمبراطور الهند ، وينوب عنه في حكم الهند نائب الملك .

ولم يضطدم الحكم البريطاني في الهند خلال هذه الفترة الطويلة بغير ثورة خطيرة واحدة هي ثورة سنة ١٨٥٧ . ولكن الهند تضطرم منذ ربع قرن بحركة قومية واسعة النطاق كشفت غير مرة عن قوتها وخطورتها بفورات غنيقة من العصيان المدني وعدم التعاون والمظاهرات والمواكب الدموية . وما تزال السياسة البريطانية منذ ربع قرن تطاول وتداول وتبذل مختلف المحاولات لحل المسألة الهندية .

وليست المسألة الهندية إلا مسألة جميع الشعوب والأمم المغلوبة . وقد كان لاشتداد وطأة الحكم البريطاني في الهند أثره في إيقاظ الوعي القومي ، وحفز الشعب الهندي إلى المطالبة بحقوقه وحياته التي طال الأمد على هضمها . وظهر عزم الهند جليا على النهوض إلى خوض غمار الكفاح الوطني منذ أواخر الحرب الكبرى حيث كانت للتضحيات العظيمة التي بذلتها الهند يومئذ لتصرة الإمبراطورية البريطانية أعظم الأثر في تنبيه الشعب الهندي إلى أهمية الهند كعامل في توطيد قوة الإمبراطورية ، وإلى المطالبة بحقوقه القومية المساوية .

المسألة الهندية

وتعتبر الهند كلها من أملاك التاج البريطانى ، ولاتدخل فى عداد المستعمرات أوالحمايات . وتنقسم إلى وحدتين دستوريتين كبيرتين : الأولى الهند البريطانية وتبلغ مساحتها مليون ومائة ألف ميل مربع ، ويبلغ سكانها نحو ٢٧٠ مليوناً وتشتمل على ولايات بورما وأسام وبنغالة وبهار وأوريسا والولايات المتحدة والبنجاب والولايات الشمالية الغربية وبلوخستان البريطانية وبومباى والولايات الوسطى ومدراس وجزائر أندمان ونيكوبار . وقد غدت بورما الآن وحدة منفصلة ذات نظام خاص . ويتولى حكم الهند البريطانية نائب الملك يعاونه مجلس تنفيذى هو مجلس الدولة ، وجمعية تشريعية ذات اختصاص محدود . والثانية هى الولايات الهندية المستقلة ، وتبلغ مساحتها أكثر من سبعمائة ألف ميل مربع ، وسكانها نحو ثمانين مليوناً ، وتشمل الولايات الآتية : حيدرآباد ، وبارودا ، وميسور ، وكشمير ، وراجيوتانا ، والهند الوسطى وولايات بومباى وولايات مدراس ، والولايات الوسطى ، وولايات بنغالة ، والولايات المتحدة ، وولايات بنجاب وبلوخستان ، وسكيم والولايات الشمالية الغربية . وتعترف الولايات المستقلة بسيادة التاج البريطانى . ويتولى الحكم فيها أمير وطنى مطلق السلطان ، ولكل منها جيش خاص وميزانية خاصة ، ولكن يحد من سلطان الأمير وجود مقيم بريطانى إلى جانبه . ولا يحق للأمير أن يعقد معاهدات أو محالفات داخلية أو أن يعلن الحرب أو أن يسىء معاملة السكان . فإذا أساء إدارة الإقليم عزل وعين مكانه أمير وطنى آخر . ومعنى ذلك أن أمراء الولايات المستقلة لا يعدون أن يكونوا حكاماً محليين تابعين مباشرة للتاج البريطانى .

وقد اتخذت الأمانى الهندية منذ البداية صورة المطالبة بالاستقلال الذاتى ، واقرنت هذه الأمنية بسائر الحركات العنيفة التى اضطرت بها الهند فى سبيل المطالب الوطنى منذ نهاية الحرب الكبرى . ولكن السياسة البريطانية ترى أن تعتبر المسألة الهندية مسألة دستورية فقط تتعلق بنظام الهند الدستورى والشكل الذى يتخذه هذا النظام فى ظل الإمبراطورية . وكانت هذه النظرة المتواضعة رائد السياسة البريطانية فى جميع ما اتخذته من خطوات لمعالجة المسألة الهندية حتى اليوم . ونستطيع أن نقسم محاولات السياسة البريطانية فى هذا السبيل إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى

وتبدأ المرحلة الأولى منذ أواخر الحرب الكبرى ، وذلك حينما اشتدت حركة المطالبة بالاستقلال الذاتي ، وشعرت بريطانيا بأن الوعي القومي الهندي بدأ يتخذ وجهة عدائية . فعندئذ رأت الحكومة البريطانية في هذه المرحلة الدقيقة التي مازالت تواجه فيها الإمبراطورية أخطار الحرب أن تبادر إلى العمل ، فأوفدت في سنة ١٩١٧ مستر مونتاجو (اللورد فيما بعد) وزير الهند إلى الهند للبحث فيما يجب عمله نحو إنشاء حكومة هندية ذاتية . وفي العام التالي صدر تقرير مشترك من اللورد شامسفورد نائب الملك ومستر مونتاجو يقترح بعض إصلاحات دستورية وإدارية في هذا السبيل ، فلقبت هذه المقترحات أشد معارضة من زعماء الجبهة القومية ، وبدأ غاندي دعوته الشهيرة إلى العصيان المدني ، وتوالت الاضطرابات والمصادمات الدموية في الهند في الأشهر التالية . وعدلت المقترحات أثناء ذلك على يد لجنة برلمانية . وفي ديسمبر سنة ١٩١٩ صدر قانون الهند الجديد المعروف بقانون مونتاجو وشامسفورد تحقيقاً لما وصفته السياسة البريطانية يومئذ بأنه العمل على ترقية نظم الحكم الذاتي في الهند والسير بها قدماً في سبيل إقامة الحكومة المسؤولة . وأخص مافيه أن يجعل مجلس الدولة مجلساً تشريعياً ثانياً ، وأن تختص الجمعية التشريعية بإقرار الميزانية ، وأن تمنح بعض الضمانات الطائفية ، وأن يمثل الهند لدى حكومة لندن مندوب سام . وهكذا اقتصر التعديل على المظاهر الشكلية ، ولم يتقدم كثيراً في سبيل إنشاء الحكومة الهندية المسؤولة . بيد أنه نص في القانون الجديد على « أنه لما كان التقدم في تحقيق نظام الحكم الذاتي في الهند البريطانية لا يمكن إجراؤه إلا بمراحل متعاقبة ، فإنه يجب بعد عشرة أعوام أن تنتدب لجنة للبحث في سير الدستور الجديد ، واقتراح ما يجب إجراؤه فيه من التغييرات » .

المرحلة الثانية

وقطعت الهند بعد صدور الدستور الجديد بضعة أعوام مليئة بالاضطرابات والكفاح القومي . ولكن السياسة البريطانية لم تعدل عن خطتها المرسومة .

وفي سنة ١٩٢٨ حينما اقتربت نهاية الأعوام العشرة نذبت الحكومة البريطانية لجنة للإصلاح الدستوري الهندي برئاسة السير جون سيمون ، وذلك لكي تبحث « كيفية سير الإدارة الحكومية ونمو التعليم وتقديم النظم النيابية في الهند البريطانية وما يتعلق بذلك من الشؤون ، ثم التقرير عن مبدأ الحكومة الذاتية : هل يُرغَبُ في تطبيقه ، وإلى أى حد ؟ وهل يجب توسيع أو تعديل أو تقييد مرحلة الحكم الذاتي القائمة ؟ »

وأنفقت لجنة الإصلاح الدستوري في الهند بضعة أشهر في البحث والدرس ثم أصدرت بعد عامين تقريرها الضخم ، وفيه تنوّه في أكثر من موضع بعدم صلاحية الشعب الهندي لأي نوع من أنواع الحكومات الذاتية المسؤولة ، وتقرر أن تجربة الأعوام العشرة ليست كافية لتقرير الخطة القويمة التي تتبع . ويفيض التقرير في التنويه بظروف الهند الخاصة من خلاف طائفي راسخ ، وتقاليد دينية متضاربة ، وتعدد لا مثيل له في الأجناس والأديان واللغات والخواص الأخلاقية والاجتماعية . وأبدت اللجنة فيما يتعلق بالتوصيات بعض مقترحات أهمها أن يؤخذ بمبدأ التمثيل الطائفي في كل إصلاح دستوري ينفذ ، وأن تعتبر الهند البريطانية دولة متحدة تتكون من ولايات متحدة ، وأن تعدل حدود الأقاليم الحالية ، وأن يمحصر حق الانتخاب في طبقات معينة لا تتعدى عشرة في المائة من مجموع السكان ، وأن تفصل ولاية بورما عن الهند البريطانية ؛ لأنها تكون وحدة مستقلة بذاتها . هذا إلى طائفة أخرى من الاقتراحات لإصلاح التعاليم والنظم الإدارية . وهكذا جاءت توصيات لجنة الإصلاح الدستوري مخيبة لآمال الزعماء الهنود والشعب الهندي . واقتربت فترة نشاط اللجنة وظهور تقريرها بطائفة جديدة من الاضطرابات والقلق : وأضحى واضحاً أنه يجب على السياسة البريطانية أن تاتمس لتهدئة الحركة القومية الهندية وسائل أخرى .

وفي ذلك الحين كانت وزارة العمال في كراسي الحكم ، وكان الأمل معقوداً بأن تتخذ الحكومة البريطانية بعض خطوات عملية لحل المسألة الهندية . وأذاعت الحكومة البريطانية بالفعل على لسان نائب الملك في الهند بياناً رسمياً عن مستقبل الهند الدستوري ، خلاصته أن الحكومة البريطانية ترى أن الوقت قد حان لتحقيق غاية الحكم الذاتي التي يشير إليها قانون حكومة الهند الصادر

المسألة الهندية

في سنة ١٩١٩ (قانون موتاجو وشامسفورد) وأنها ستعمل على عقد مؤتمر عام تمثل فيه الهيئات الهندية ذات الشأن كلها ، وتبحث فيه المسألة الهندية برمتها . وبالرغم من أن توصيات لجنة سيمون لم تكن طيبة ولا مشجعة ، فقد حافظت الحكومة البريطانية على وعدها في عقد المؤتمر . وعقد هذا المؤتمر الذي عرف بمؤتمر المائدة المستديرة بالفعل في أكتوبر سنة ١٩٣٠ في لندن ، ومثلت فيه جميع الهيئات والطوائف الهندية ذات الشأن ، وشهده غاندي في مراحله الأخيرة ، كما مثلت فيه الإمارات المستقلة . وقطع المؤتمر شوطا بعيدا في الاتفاق على المبادئ العامة ، ولكنه اصطدم بالخلاف الحاد بين الهندوس والمسلمين على مبدأ التمثيل الدستوري ؛ فقد تمسك الهندوس وتمسك غاندي بأن يجري هذا التمثيل على القاعدة القومية دون وزن للاعتبارات الطائفية ، وتمسك المسلمون بمبدأ التمثيل النسبي والطائفي ، وهو ما كانت تميل الحكومة البريطانية إلى الأخذ به ، وتمسك الأمراء المستقلون باستقلالهم المحلي وارتباطهم المباشر بالتاج البريطاني ، وانهى المؤتمر دون الوصول إلى اتفاق .

وعلى أثر ذلك أعلنت الحكومة البريطانية أنه ما دام الهنود أنفسهم لم يستطيعوا الاتفاق على مسائلهم الخاصة ، فإنها لا ترى مناصا من أن تأخذ الأمر بيدها وفقا للسياسة التي قررتها في شأن الإصلاح الدستوري . وفي سنة ١٩٣٥ صدر قانون جديد للهند ينظم أوضاعها الدستورية ، وهو ينص على أن يكون للولايات الهندية حكومات برلمانية مسئولة ، وأن تقوم جمعية تشريعية اتحادية تمثل الهند البريطانية والولايات المستقلة معا ، وأن توضع السلطة التنفيذية في يد وزراء مسئولين أمام الجمعية التشريعية ، وأن يحتفظ الحاكم العام - نائب الملك - بالإشراف على شؤون الدفاع والشؤون الخارجية . على أن هذا القانون الذي يمثل أقصى ما ذهبت إليه السياسة البريطانية في مسألة الاستقلال الذاتي لم يتح له أن ينفذ تنفيذا تاما ؛ لمعارضة أمراء الولايات المستقلة في نظام الحكومة الاتحادية . وعلى ذلك فقد استمر النظام الدستوري القديم (نظام سنة ١٩١٩) نافذا فيما يتعلق بتشكيل الحكومة المركزية حتى قامت الحرب العالمية الثانية .

المرحلة الثالثة

وهنا يعيد التاريخ نفسه ، وتجد بريطانيا نفسها للمرة الثانية ، شتبكة في صراع مميت مع ألمانيا وحلفائها ، وتجد الهند نفسها للمرة الثانية وقد دُفعت إلى خوض حرب لم تردها ، وسخرت مواردها ومئات الألوف من أبنائها لمؤازرة بريطانيا والدفاع عن الإمبراطورية البريطانية . وكان موقف الهند في هذه المرة أخطر وأدق ، نظراً لخطورة الأحوال في الشرق الأقصى ، وما تنطوي عليه خصومة اليابان لبريطانيا ، حتى قبل أن تقع الحرب بين الدولتين ، من الاحتمالات الخطيرة . وهنا بادرت السياسة البريطانية كما فعلت أثناء الحرب الكبرى إلى بذل وعودها المعسولة . ففي أغسطس سنة ١٩٤٠ أعلن نائب الملك اللورد لثلججو أن الحكومة البريطانية تقطع على نفسها عهداً بأن تمنح الهند نظام « الدومنيون » أو الأملاك المستقلة ، ولكن بشرط أن يتحقق الاتفاق بين الطوائف الرئيسية ؛ لأن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تفوض السلطة إلى أي حزب لا تعترف بسلطانه أقلية ذات شأن ؛ وأن هذا العهد الجديد الذي يمنح الهند الاستقلال الذاتي سوف ينفذ عقب انتهاء الحرب مباشرة ، وسيضطلع الهنود أنفسهم بوضع الدستور الهندي الجديد .

وبالرغم مما ينطوي عليه هذا العهد الجديد من تقدم واضح في تحقيق الأمانى الهندية ، فقد بدا يومئذ في ثوبه الحقيقي عهد ضرورة ملحة كعظم العهود التي تقطعها السياسة المرنة تحت ضغط الحاجة الطارئة . ومن ثم فقد استقبلته الهند بفتور ظاهر . ولما رأت الحكومة البريطانية أنها لم تصل إلى الغرض المنشود في التهدئة أوفدت وزيراً لامعاً من وزرائها هو السير ستافورد كريس إلى الهند في مارس سنة ١٩٤٢ ؛ ليروج للمشروع الجديد ، وليقنع الزعماء الهنود بحسن نية بريطانيا . وكانت الأمور قد تفاقمت يومئذ في الشرق الأقصى . ولم يمض على إعلان اليابان الحرب على بريطانيا وأمريكا بضعة أسابيع حتى سقطت سنغافورة وجزائر الهند الشرقية ، وأخذ الزحف الياباني في البر والبحر يهدد الهند نفسها ، ولم تُجد محاولات السير كريس في الإقناع والشهدئة شيئاً ، بل على العكس اضطرمت الهند بفورة جديدة من الاضطرابات والقلق ، وطالب حزب المؤتمر بإقامة الحكومة الهندية المسؤولة في الحال ، وهدد غاندي بالانفاق

مع اليابان كما هدد بالعصيان والثورة . فعندئذ بادرت الحكومة بالقبض على غاندى وزملائه واعتقلوا حتى نهاية الحرب . ولبت الموقف على خطورته مدى حين . وفى سنة ١٩٤٣ تولى اللورد ويقل منصب نائب الملك ، وحاول مرة أخرى أن يقيم حكومة هندية مسئولة من جميع الأحزاب ، ولكنه لم يوفق ؛ لمعارضة حزب الرابطة الإسلامية ، وإصراره على أن يكون جميع الوزراء المسلمين من أعضائه . وهكذا أخفقت جميع المحاولات البريطانية للبدء فى تنفيذ السياسة الدستورية الجديدة . وانتهت الحرب العالمية الثانية وقد بذلت الهند فيها أضعاف ما بذلته فى الحرب الكبرى من الموارد والرجال ، ولكنها ما زالت أبعد من أن تظهر بتحقيق شئ من أمانها التى تكررت بشأنها عهود السياسة البريطانية .

الموقف الحالى

ولما تولى حزب العمال البريطانى الحكم فى يولييه سنة ١٩٤٥ صرحت الحكومة البريطانية الجديدة فى خطاب العرش بأنها ستبذل أقصى جهدها لتحقيق الحكم الذاتى الكامل للهند فى أقرب وقت . وفى شهر مايو الماضى أوفدت الحكومة البريطانية بالفعل إلى الهند لجنة وزارية جديدة برئاسة لورد لورنس وزير الهند ، ومن أعضائها السير ستافورد كريس وزير التجارة ، وتقدمت هذه اللجنة إلى الهند بمشروع جديد ، خلاصته أن تؤلف فى الحال حكومة قومية مؤقتة للهند يتولى الهنود جميع الوزارات فيها ، وأن تقوم بوضع الدستور الهندى الجديد جمعية تأسيسية تمثل فيها الطوائف الثلاث الكبرى : الهندوس والمسلمون والسيخ ، كل بحسب نسبتها العددية فى سائر الأقاليم على أن يمثل كل نائب مليوناً من الأتقس . أما قواعد الدستور الأساسية فتتلخص فى وجوب إنشاء اتحاد هندى يضم الهند البريطانية والولايات المستقلة مع اختصاص مشترك فى شؤون الدفاع والمواصلات الخارجية ، وإنشاء مجلس تشريعى مشترك يضم ممثلى الهند البريطانية والولايات المستقلة ، وأن تحتفظ الولايات بالإشراف على الشؤون المحلية الأخرى الخارجة عن اختصاص الاتحاد ، وأن تؤلف حكوماتها الخاصة . ولكل ولاية أن تطالب تعديل الدستور الجديد بعد مرور عشرة أعوام وذلك بأكثرية الأصوات . ويستبعد الدستور الجديد مشروع «الباكستان»

أو مشروع الدولة الإسلامية المنفصلة التي تنادى به أغلبية كبيرة من المسلمين .

ولا بد لنا هنا أن نشير بكلمة موجزة إلى مشروع « باكستان » هذا الذي كثر الحديث عنه في الأعوام الأخيرة . فكلمة « باكستان » تتألف من الحروف الأولى لأسماء الولايات الهندية الإسلامية ، وهي بنجاب وأفغان وكشمير والسند وترمز « تان » إلى بلوختان ، وتقع هذه المقاطعات كلها في شمال الهند الغربي ، وتضم كتلة إسلامية تبلغ زهاء ستين مليوناً . والمسلمين أغلبية نسبية أيضاً في مقاطعتي أسام وبنغالة في شرقي الهند . وترى الأقلية المسلمة التي يمثلها حزب الرابطة الإسلامية أن تؤلف من هذه الولايات المسلمة دولة إسلامية منفصلة هي التي يرمز إليها بمشروع « باكستان » ، وأن تحقيق هذا المشروع هو خير ضمان لحقوق المسلمين الطائفية ، وخير كفيل بحمايتهم من طغيان الأقلية الهندوسية الساحقة . ويؤيد المسلمون تمسكهم بالضمانات الطائفية بأسباب أدبية ومادية . أما البواعث الأدبية فترجع إلى أن لهم تاريخاً مجيداً وحضارة إسلامية عريقة ترجع إلى أيام سلطانهم وسيادتهم على الهند كلها . وأما البواعث المادية فترجع إلى تجاربهم المرة مع الأقلية الهندوسية كلما أتيح لها أن تعمل باسم الأغلبية ، فهي تعمل دائماً على غمط حقوقهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . وقد ظهر هذا الطغيان الطائفي بأجلى صورة منذ قيام حكومة حزب المؤتمر في المناطق التي توجد فيها أقلية هندوسية ، تطبيقاً لقانون الهند الجديد . ولا يريد المسلمون أن يتخلصوا من السيطرة الإنجليزية ليقعوا تحت سيطرة الهندوس الطائفية . فهذه البواعث كلها تحملهم على التمسك بمبدأ التمثيل الطائفي والضمانات الطائفية .

ولذلك لم يبد المسلمون حماسة في تأييد المشروع الدستوري الجديد ؛ لأنه يأخذ بنظرية التمثيل العددي ولا يأخذ بمبدأ التمثيل الطائفي ، ولا يقدم أية ضمانات حقيقية للأقلية الإسلامية الكبرى التي تبلغ زهاء تسعين مليوناً . ولم تسفر المفاوضات التي دارت بين اللجنة الوزارية البريطانية وبين حزب المؤتمر الذي يمثل الأقلية الهندوسية ، وحزب الرابطة الإسلامية الذي يمثل الأقلية المسلمة عن الاتفاق على وسائل تنفيذ المشروع الجديد من إقامة الحكومة الهندية المسؤولة والجمعية التأسيسية التي تتولى وضع الدستور

المسألة الهندية

الهندي . ولا يبدو أن هناك أملاً في الاتفاق المنشود مادام الخلاف قائماً بين المسلمين والهندوس على مبدأ التمثيل الأساسي .
والظاهر أن حكومة العمال البريطانية إذا ما يئست من الاتفاق مع الهنود أنفسهم قد تعتمد إلى مثل ما عمدت إليه في سنة ١٩٣٠ على أثر إخفاق مؤتمر المائدة المستديرة ، فتأخذ الأمر بيدها ، وتحاول أن تقوم بتنفيذ السياسة الدستورية الجديدة من جانبها معتمدة على بعض الأنصار الهندية الأكثر اعتدالاً . تلك هي أطوار المسألة الهندية منذ بداءتها ، وهذا هو المدى الذي استطاعت السياسة البريطانية أن تذهب إليه في محاولة حلها ، وذلك خلال ثلاثين عاماً أو تزيد تكررت فيها وعودها وعهودها المأثورة .

محمد عبد الله عنانه

من ذكريات جبل رضوى

[الواقع في منتصف الطريق بين مكة والمدينة إلى الجنوب ، في رحلة جلالتى للملكين المعظمين فاروق وعبد العزيز . وهذه القصيدة وصف لذكريات مباهج البادية في صحراء تلك الرحلة الشائقة على شاطئ البحر الأحمر .]

طوينا إليك البيد حين نسير
نسائل عن رضوى ، وما أنت قصدنا
تشاخصت في الأعنان تبغى سماءها
كأنك في تلك المنازل مفرد
ونحن نعد السير نطوى فيافياً
فطورا بسيف البحر مالت ركابنا
نسير خفافاً نهب البيد تارة
فكم ررب رعناه والسرب آمن
مشينا إلى أسرابها وهى رتبع
تروح الظباء الغر عنا تهاديا
نراوحها ذات اليمين ، فإن أبت
فما هى إلا لحظة ثم لحظة
يقر به الصياد عيناً وغبطة

شبهاتها في المحصنات بدور
فلاة ، وتلكم في المدائن دور

لك الويل يا تلك الظباء ، فإنها
ولا فرق إلا أن تلك كناسها

(١) ثبير : جبل مشهور في منى .

ومن عبث الأهواء حين تجور
وما هو إلا نعمة وحبور

مباهج أنس جمّة وسرور
طيور ، تباريها هناك طيور
نظيم ، بلبات الحسان ، نثير
وفي الليل وهاج الأسرّة نور

وحياك منهل السحاب غزير
وما لك في سمع الزمان عبور
وذكرك دون الأصفرين يسير
تداور أحداث الورى وتدور
وكلّ إلى ما في ربّاك يشير
وأصغى إلى نجوى ربّاك ضمير
له في سجل الخالدين سطور
به روضة فياحة وغدير
بهيج بأعلى التلعتين نضير
يقوم عليه سببٌ وصخور
لتردان منها أذرعٌ وصدور
تمنّته من غيد الملاح نحور
وما هي إلا ضفّة وخير
يجر إليك الذيل وهو كسير
من الموج ، فاثالت عليه بحور
من الأفق بدر في السماء منير
مع البید في ليل الربيع سمير

وفي النفس ما في النفس من صبواتها
وما العيش إلا صبوة أو علالة

ولما بدا المخيام للركب أشرقت
ترأى كأسراب الحمام مجتماً
تنثر فيه الكهرباء كأنها
ففي الصبح وضاح الأسرّة مشرق

فيا سفع رضوى جادك المزن والحيا
ويا سفع رضوى كنت بالأمس مغفلا
وكنت وما في الناس عنك مسائل
ولكنها الأيام فيما يرونها
فهاك يُثار اليوم ذكرك خافقاً
تطلّعت الأنظار نحوك فجأة
أضفت إلى التاريخ سفيراً مجدداً
فيا لك من واد فسيح منّضر
ويا لك من روض به السفع موقن
فإن أنس لا أنسى بسيفك شاطئاً
جواهره في منظر العين تُشتمى
وأصدافه من خالص الحسن لؤلؤ
جلسنا إلى نجواك نصغى لهمسها
جلسنا وقرص الشمس يبدو واصفراره
فما هو إلا أن حوته لفائف
وما هو إلا أن أطل مكانه
فيا من رأى بحراً وبدراً كلاهما

[مكة]

نوراد مياك

بريطانيا وسر قوتها

من حق حليفتنا العظيمة علينا أن نتناولها بشيء من البحث بين حين وحين . فقد ارتبط تاريخنا القومى بتاريخ بريطانيا وإمبراطوريتها ارتباطاً مباشراً خلال هذه السنوات السبعين الأخيرة ، وارتباطاً غير مباشر فيما سبق ذلك من سنين . بل إن ما بيننا وبين تلك البلاد من أسباب إنما يرجع إلى أيام أن سعى البريطانيون إلى أرض مصر يحاربون على أبوابها أسطول نابليون أيام الحملة الفرنسية . . . ولقد كنا ننظر إلى بريطانيا خلال هذه السنوات الطويلة نظرات تختلف بين الصداقة حيناً والعداء أحياناً ؛ حتى استقرت بنا الحال آخر الأمر فأنخذنا منها حليفة عظيمة ، أخلصنا لها الصداقة فى كثير من أوقات المحنة وساعات الشدة ، وإن كانت لم تذكر لنا كل ما ينبغى أن تذكره أيام السلم وساعات الرخاء . ولسنا نود فى هذا المقال أن نتناول ما بيننا وبينها من أسباب قد يختلف فى تقديرها الناس ، يرى فريق منهم أنها تقوم على أساس من المصالح الحقيقية والمنافع المتبادلة ، ويرى فريق آخر أنها تقوم على صداقة من ذلك النوع الذى قال فيه الشاعر إنه ليس منه بد . وإنما نود أن نسجل أن هذه الأسباب والصلات ، مهما يكن مردها ومرجعها ، فإنها تفرض علينا — ولمصلحتنا نحن — أن نحاول أن نتعرف شيئاً عن تاريخ بريطانيا الحديث ؛ لعلنا أن ندرك بعض مصادر القوة وأسرارها فى حياة هذه الحليفة التى كان لها أثر خطير فى توجيه كثير من شؤوننا القومية فى العهد الحديث . وخير لنا فيما نحن بسبيله من جهاد أن نكون بصيرين بهذه القوة التى ندافعها وتدافعنا من أن نعز الطرف عن أسرارها ، ولا نبالى بمعرفة شيء عنها .

وبريطانيا جزيرة صغيرة ، تتجاورها جزيرة أخرى أصغر منها ، وعدد من الجزر المنتشرة حولها فى الجنوب والغرب والشمال . ولا تكاد تتجاوز مساحتها جميعاً ١٢٥,٠٠٠ ميل مربع ، أو أقل من $\frac{1}{4}$ ٪ من سطح اليابس ؛ ولا يكاد

سكانها جميعاً يجاوزون ٥٠ مليوناً أو حوالى ٢١/٠٪ من مجموع سكان الأرض . وتقع تلك المجموعة من الجزر فى منطقة نائية بالنسبة للعالم القديم ؛ فهى فى أقصى شمال أوروبا الغربى ، بعيدة عن قلب العالم ، حيث نشأت الحضارات القديمة ، وحيث ظهر التاريخ وازدهرت المدنية فى وقت كانت فيه تلك الجزر فى دور بدائى ، وكان أهلها يعيشون على هامش الحياة ، يسكنون الكهوف أو ما يشبه الكهوف ، ويعيشون على صيد البر والبحر ، وعلى شئ قليل من الجمع والالتقاط ، قد انزوا فى جزرهم النائية بعيداً عن العالم ، وقبعوا هناك لا يعرفون شيئاً عن الناس ، ولا يكاد الناس يعرفون عنهم شيئاً .

وبقيت الحال كذلك حتى عهد الكلتيين الذين سبقوا الرومان ووطدوا العلاقة بين بعض أجزاء بريطانيا الغربية وبين شمال فرنسا وغربها . ثم جاء الرومان أنفسهم فغزوا بريطانيا ، وفتحها يوليوس قيصر ، وامتد استعمار الرومان حتى أطراف أسكتلندة الجنوبية ، ونفذت معه بعض معالم المدنية الرومانية إلى الجزر البريطانية ، ثم تلا ذلك اتصال متعاقب بين الجزر والقارة ، فوصلت بعض موجات من الغزاة والفاحين والمهاجرين من النرمنديين والسكسونيين وغيرهم . ومع ذلك كله فقد بقيت الصلة بين بريطانيا والقارة ضعيفة محدودة ، حتى جاءت النهضة الحديثة ، فأخذت بريطانيا معالمها عن القارة ، وعاصر ذلك إلى حد كبير ظهور الاستكشافات البحرية إلى أمريكا والهند وغيرها من بقاع الأرض فيما وراء البحار ، وسعت أوروبا حثيثاً إلى أن تتصل بالعالم الخارجى لتتجر معه أو لتستعمره . وهنا برزت قيمة الموقع الجغرافى للجزر البريطانية كمحطة عند باب أوروبا الخارجى فى عرض المحيط ، وبدأت بريطانيا رويداً رويداً تترغم حركة التوسع الأورپى إلى الخارج ، فبنت قوتها البحرية العتيدة ، وتغلبت على الأسبان والهولنديين وغيرهم ممن حاولوا التحكم فى مخرج البحر ومسالكه . ثم جاءت فى أعقاب ذلك النهضة الصناعية المعروفة ، التى ساهم فيها العلم والتطبيق العملى ، فظهر لون جديد من المدنية المادية التى تستند إلى استغلال موارد القوى المحركة والصناعة الآلية فى نطاق متسع . وهنا أيضاً برزت قيمة بريطانيا التى جمعت إلى غناها بالموارد المعدنية الصناعية اتصالاتها الوثيقة بالعالم الخارجى ، حيث يمكن استجلاب المواد الخام التى لا تنتجها أوروبا ، حيث يمكن تصريف المصنوعات الحديثة فى أسواق لم يكن

من العسير استغلال أهلها في تجارة ، لا يمكن أن يستوى فيها جهل المشتري وغفلته ، بعلم التاجر وفطنته . وهكذا انتهى الأمر بأن غدت بريطانيا دولة قوية ، بل نواة لإمبراطورية امتدت فيما وراء البحار ، حتى صارت أوسع إمبراطورية عرفها التاريخ .

وقد لا يكون من اليسير تعليل هذا الدور الكبير الذي كتب لبريطانيا وجزرها الصغيرة أن تلعبه في تاريخ العالم الحديث ، والذي لا يتناسب مع ما نعرف عن هذه الجزر من صغر المساحة وقلة السكان ؛ ولكننا مع ذلك نستطيع أن نعرض لعدد من العوامل الأساسية التي مهدت لهذا الدور . وبعض هذه العوامل طبيعي ، يتصل بطبيعة الجزر نفسها وبمواردها الطبيعية ومناخها وموقعها الجغرافي وغير ذلك ، وبعضها الآخر بشري يتصل بالسكان وتكوينهم ومقدرتهم على استغلال ظروف البيئة والموقع الجغرافي . بل إن بعض تلك العوامل لا يتصل ببريطانيا ذاتها ، ولا بأهلها وحدهم ؛ وإنما يمتد إلى خارج الجزر ، في القارة المجاورة ، أو بعيداً عنها فيما وراء البحار .

والذي يدرس الجزر البريطانية دراسة مفصلة لا يلبث أن تأخذ حقيقة جغرافية رائعة . . . ذلك أن هذه الجزر على صغرها معقدة التركيب والتكوين إلى حد غريب ؛ فهي مكونة من صخور مختلفة ، يرجع أقدمها إلى أبعد الأزمنة الجيولوجية ، ويرجع أحدثها إلى الزمن الجيولوجي الأخير ، وهي تكاد تشمل الأزمنة والأعصر الجيولوجية جميعاً . ثم إن هذا التنوع في أعمار الصخور وعصور تكوينها يزيد من تعقيد أن الصخور من أنواع مختلفة ، منها الناري والرسوبي والمتحول ، ومنها الطيني والرمل والجيري وغير ذلك . وقد كان لهذا التنوع والتعقيد في أنواع الصخور وأعمارها ، وكذلك في تركيبها وبنيتها ، أثره الكبير في غنى الثروة المعدنية وتوافرها . ومن المسلم به أنه كلما تباينت الصخور وتنوعت زاد احتمال العثور على المعادن ذات القيمة الصناعية بين طبقاتها . ولو أن بريطانيا كانت بسيطة التكوين نسبياً ما توافرت لها كل تلك الثروة المعدنية التي كانت أساس النهضة الصناعية في العهد الحديث . . . بل ما توافرت لها بعض المقومات الاقتصادية الأخرى التي ترجع إلى التكوين الجيولوجي ، ومنها جودة التربة الركامية وغيرها في المناطق السهلية ، والجهة الجنوبية الشرقية من إنجلترا بصفة خاصة ، مما يسر لبريطانيا في بعض فترات أن

تضعف إنتاجها الزراعى فى الأغذية ، كما حدث إبان هذه الحرب المنتهية .
 وإلى جانب هذا التنوع فى التكوين الجيولوجى للبيئة البريطانية ، هناك
 تنوع آخر فى التكوين البشرى لسكان تلك الجزر . فبريطانيا وأخواتها جزر
 يفصلها عن القارة بحر ضيق ، عبرته دفعات متتالية من المهاجرين الذين استقرت
 بهم الحال هناك ؛ فهى لم تكن فى تاريخ عمراتها الجنسى مجرد معبر أو طريق
 هجرات ، كما حدث فى بعض جهات القارة ، وإنما تجمعت فيها العناصر المختلفة ،
 واختلط بعضها ببعض ، حتى إنه ليقال عن البريطانيين كما نعرفهم الآن إنهم
 يتكونون فى الأصل من ثمانى سلالات متباينة ؛ فمنهم النوردي الأشقر المشوق
 القامة ، والذي أتى من اسكندناوة وأقصى شمال أوروبا ؛ ومنهم الألبى الربعة
 العريض الرأس ، الذى أتى من وسط القارة ؛ ومنهم عنصر البحر الأبيض
 المتوسط المعتدل القوام الأسمر الشعر والبشرة ، والذي أتى من جنوب أوروبا
 الغربى ، ووصل بريطانيا دائراً مع البحر والساحل ؛ ومنهم السكسونيون
 والنرمنديون وغيرهم من العناصر المختلطة الدم والتكوين ، والتي لا يتسع المقام
 هنا لسردها وذكر أصولها وأنسابها وطرق هجراتها قبل أن تبلغ هامش القارة .
 ولكن الشئ المهم أن هذا التنوع الجنسى فى تكوين البريطانيين معناه تنوع
 الملكات والاستعداد بين سكان الجزر . ومع أن هذا التنوع والاختلاط كان
 مصدر تفكك وضعف بين السكان فى العهود القديمة وبعض العهود الوسيطة ،
 فقد استحال بالتدرج إلى امتزاج وتزاوج بين العناصر المختلفة ، تحقق معه فى
 العهد الحديث ما يسميه البريطانيون «الوحدة فى التنوع» unity of diversity
 وبذلك صار تنوع العناصر واختلاف السلالات بين سكان الأمة المتحدة أو
 المملكة المتحدة فى إنجلترا واسكتلندا وبلاد الغال وإيرلندا (أو جزر منها)
 وبقية الجزر المتناثرة ، عامل قوة وتماسك فى العهد الحديث ، بعد أن كان عامل
 ضعف وتفكك فى العهود السابقة .

وهنا لابد لنا من أن نشير إلى نظرية جنسية كثير الكلام عليها فى السنوات
 الحديثة . تلك التى تقول بضرورة نقاء الجنس أو السلالة ليصبح التكوين القومى
 للأمة متجانساً قوياً . وقد حاولت الفلسفة النازية فى ألمانيا الهتلرية أن تطبق
 تلك النظرية فى شئ كثير من المغالطة العلمية ؛ فادعت أن الألمان آريون ، أو
 أنهم على الأقل ينبغى أن يكونوا جميعاً من الآريين الخالصين . ومع أن لفظ

« آرى » هذا ليست له على التحقيق دلالة جنسية صادقة ، نظراً لاختلاط الدماء والسلالات بين المجموعة الآرية من بنى البشر ، فإن الألمان النازيين قد تمكنت منهم فلسفة النقاء الجنىسى إلى درجة التعصب ، فعملوا على إقصاء كثير من العناصر غير الآرية ، بصرف النظر عما قد يكون لها من قيمة فى تكوين الأمة الألمانية . أما البريطانيون فقد كانت نظريتهم على تقيض ذلك تماماً ؛ فهم قد استمسكوا « بوحدهم المتنوعة » ؛ وهم قد نظروا إلى اختلاط الدماء فيهم على أنه مصدر قوة يعتز بها ويحافظ عليها ؛ ولا بأس — بل قد يكون من الخير — أن يُداوم على تغذيتها بدماء جديدة من الخارج . ولسنا بحاجة إلى أن نقول إن الأيام والتجربة قد أثبتت صحة النظرية البريطانية ورجحانها على نظرية النقاء الجنىسى . . . ولعل هذه الأيام والتجارب نفسها تزيد من إثبات نظرية الاختلاط والتنوع عندما يزداد بروز قيمة هذا العامل فى مستقبل بلاد كالولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى ، حيث تتنوع السلالات وتختلط الدماء إلى حد يفوق فى مداه ومقداره ما حدث فى بريطانيا على نطاق مصغر .

إذن كان هناك تنوع فى مظاهر البيئة الطبيعية فى بريطانيا ، يعادله تنوع فى سلالات السكان ومزايهم ومؤهلاتهم . على أننا فى استعراض التكوين الجنىسى لسكان هذه الجزر ينبغى أن نلاحظ أثر البحر الذى يفصل بين بريطانيا والقارة ؛ فهو لم « يقطع » صلة الجزر بالقارة تماماً ، وإنما « نظم » تلك الصلة ، وكان بمثابة المصفاة للعناصر والهجرات التى تقدمت من ناحية الشرق واتجهت غرباً ، حتى إذا ما وصلت إلى شواطئ أوروبا وحافتها الغربية قعدت العناصر الخاملة والقائنة منها ولم تشأ أن تغامر فتغبر البحر إلى جزر لا تعرف من أمرها وظروف المعيشة فيها شيئاً ؛ أما العناصر المخاطرة والمغامرة فلم يقعدوها البحر ، وإنما كان حافزاً لها على أن تستطلع ما وراءه . وهكذا كان البحر مصفاة كما ذكرنا ، فلم يصل إلى بريطانيا على وجه العموم غير العناصر المخاطرة التى لا يخيفها البحر ولا تقعدوها أخطاره . ولعلنا نجد فى ذلك ما يفسر لنا نشاط أهل بريطانيا فى العهد الحديث ؛ فهم قد تجمعوا فى جزرهم ، حتى إذا ما تهيأ الطرف المناسب وحانت الفرصة المواتية بعد عصر الاستكشافات البحرية وظهور الاستعمار ، انتشر سكان بريطانيا المنحدرون من سلالة أولئك المخاطرين الأول ، فجابوا وجه الأرض ، وكوّنوا إمبراطوريتهم المترامية الأطراف فيما وراء البحار ،

وعمرؤا كثيراً من أقطار العالم الخالية إذ ذاك في أمريكا الشمالية وأستراليا وزيلندة الجديدة وجنوب إفريقية وغيرها . . . ولو أن سكان بريطانيا كانوا كغيرهم من سكان الشواطئ المواجهة من أوروبا الغربية ما استطاعوا أن يقوموا بذلك الدور الاستعماري الفريد ، وعلى الوجه المعروف في التوسع البريطاني ، الذي كان لابد أن يقوم به عنصر عريق في المغامرة وركوب الأخطار .

وهناك عامل آخر كان له أكبر الأثر في شجذ نشاط سكان بريطانيا ، وفي حفز همهم على العمل والكفاح الذي يتطلبه العهد الحديث وحضارته المادية . ذلك أن المناخ هنا من ذلك النوع المعتدل البارد الذي يعين على النشاط الجسماني ، ويستلزم الحركة الدائبة ؛ فلا هو مناخ حار يتراخي له الجسد ، وتحمد الهمة وتفتقر الحركة ، ولو في فصل من العام ؛ ولا هو مناخ قارس يجمد له الجسم وتشل الحركة ويقف العمل في أشهر الشتاء ؛ وإنما هو مناخ بارد قد لطفه المحيط وتياراته الدفيئة ، بحيث أصبح مناسباً أشد المناسبة للعمل الدائب والجهاد الذي لا يكاد يأخذه إجهاد . وفوق ذلك كله فهو مناخ قلب ، تتنازعه مؤثرات القارة المتطرفة ومؤثرات المحيط الملطفة ، فيؤدي ذلك إلى كثرة التغيير في ظروف الطقس من يوم ليوم ، بل من ساعة لأخرى ؛ كما يؤدي إلى كثرة الزوابع والأعاصير التي لا يستقر معها الجو على حالة واحدة . وبهذا كله أصبح الطقس غير مضمون ، ولا يمكن التنبؤ به ؛ فعلم ذلك السكان الحذر وبعد النظر ، بل عدم التواكل وشدة الاحتياط ؛ كما علمهم الجلد والمصابرة وتزقب الفرج مهما طال انتظاره . وهذه كلها صفات نلمسها في الخُلق البريطاني ، إذا ما نحن درسناه عن كثب . . . والمدهش الغريب — أو لعله ليس غريباً — أن البريطانيين فوق استجابتهم لمقتضيات مناخهم وطقسهم الخاص ، قد شعروا فيما بينهم وبين أنفسهم بما لهذا المناخ والطقس من قيمة ينبغي أن يُعترف بها اعترافاً شعبياً ؛ فصار الجو والطقس حديثهم اليومي المعتاد ، لا يكاد يلقاك أحدهم حتى يبادرك بالتحدث عنهما ، حديثاً ملؤه التبرم الهادي الرزين ، أو الرضا الذي لا ينجح إلى إسراف ، أو الأمل المقتصد في أن تتحسن الحال ثم عامل طبيعي آخر كان له أثره الظاهر هو الموقع الجغرافي لهذه الجزر على حافة المحيط في شمال القارة الغربي . وقد أثر هذا العامل في نواح ثلاث : أولاً ما كان من أن بحر الشمال ومياه المانش لم تقطع الصلة بين الجزر والقارة ، وإنما

بريطانيا وسر قوتها

« نظمت » الاتصال بينهما على نحو ما فعلت الصحراء المصرية مثلاً بين وادى النيل وبقية بلدان الشرق . . . وقد ترتب على ذلك أن بريطانيا أفادت من صلاتها بأوروبا ، فوصلتها معالم المدنية الأوروبية من جنوب القارة ووسطها وشمالها ، ولكن وصول تلك المعالم كان على دفعات متقطعة وبمقادير محدودة لم تلمس شخصية أهل الجزر ، الذين استطاعوا أن يحتفظوا على الدوام بطابعهم الحضارى الخاص . ولعل هذا هو السر فيما عرف عن البريطانيين من روح التحفظ بإزاء القارة ؛ فهم يتصلون بها ويأخذون عنها ويتدخلون فى شئونها بين حين وحين ؛ ولكنهم مع ذلك لا يندمجون فيها ، بل ينظرون إلى جزرهم على أنها ذات كيان مستقل وشخصية قائمة بذاتها ؛ فاتصلهم بأوروبا يجب أن يبقى فى نظرهم داخل حدود معينة ونطاق مرسوم لا يتعداه إلى خصائص الحياة البريطانية .

وأما الناحية الثانية التى أثر فيها الموقع الجغرافى للجزر البريطانية ، فتتمثل فى أنها تقع عند أبواب القارة البحرية فى الشمال الغربى . وقد انتقل مركز المدنية فى أوروبا الحديثة إلى سهولها الشمالية ؛ وبذلك انتقل المدخل الأساسى للقارة فى احتكاكها مع العالم الخارجى من سواحل البحر المتوسط وأشباه جزره إلى سواحل الأطلسى فى شمال أوروبا الغربى ، وتحكمت بريطانيا بفضل موقعها الجغرافى فى ذلك المدخل ؛ فكانت مثلاً فى أيام استعمار أمريكا محطة للسفن الخارجة من أوروبا والمنطلقة نحو أمريكا تحمل المهاجرين ، ولتلك القادمة من الغرب تحمل السلع والمنتجات التى تفرغ فى موانئ بريطانيا استعداداً لنقلها إلى سفن أخرى تتولى توزيعها على الموانئ الأوربية . وهكذا تولت بريطانيا وموانئها مهمة الوساطة البحرية والتجارية بين أوروبا وأمريكا من جهة ، ثم بين أوروبا وبقية المستعمرات فيما وراء البحار من جهة أخرى . وقد عرف البريطانيون كيف يفيدون من هذه الوساطة إلى أبعد الحدود ، فنام أسطولهم التجارى ، وازدهرت موانئهم وأسواقهم ، ومنها لندن ذاتها التى صارت فيما بعد ، ولا تزال حتى يومنا هذا ، مركزاً هاماً من مراكز التسويق والمعاملات التجارية والمالية . . . ومعروف أن التجارة والاشتغال بشؤون المال والقراض من أربح المهن وأبلغها اتصالاً بالحياة والعلاقات الدولية الحديثة . وقد استطاعت بريطانيا يسبقها فى هذه الشؤون أن تدعم مركزها العالمى بين الأمم إلى حد كبير ؛ وساعدها من ناحية التجارة والملاحة البحرية العالمية أن شعبها بحرى بحكم

بريطانيا وسر قوتها

تكوينه ، وأن شواطئها غنية بالمرافئ الطبيعية ، وبمصبات الأنهار الواسعة والصالحة للملاحة ، وأن تيار الخليج الدفء يدور من حولها ، فيدفئ مياهها ويمنع تجمدها وعرقلة الملاحة فيها في أشهر الشتاء . وبذلك كله كانت الطبيعة عوناً للإنسان في بناء قوة بريطانيا الملاحية .

وأما الناحية الثالثة التي أثر فيها الموقع الجغرافي لجزر بريطانيا فهي الناحية العسكرية . ذلك أن البحر الذي يفصل بين الجزر والقارة أضفى على بريطانيا نوعاً من الوقاية والأمان . وقد كان على بريطانيا أن تشارك في مشكلات القارة وحروبها الكثيرة في العهد الحديث ؛ ولكنها بحكم إحاطة البحر بها ، وبما تجمع لها من قوة البحر وعُدته ، كانت تلاقى أعداءها على صفحة الماء إن كان لهم من الأساطيل ما يشجعهم على تحديها أو محاولة قهرها ، كما حدث أيام حرب الأرمادا التي شنّها الأسبان ، أو فوق أرض القارة وفي ميادين الأراضى الوطيئة وشمال فرنسا وأسبانيا وغيرها إن قعد العدو في أوروبا ولم يكن له من الأساطيل ما يناظر قوة بريطانيا سيدة البحار . ولذلك كله فإن أرض الجزر البريطانية ذاتها لم تكن في يوم من الأيام ميدان حرب أوروبية ، وإنما كانت بريطانيا تتخذ ميادينها البرية في أرض غيرها من دول القارة التي أصابها الدمار والخراب مرة تلو مرة ؛ وحتى في هذه الحرب المنتهية لم يكن ما أصاب بريطانيا من جراء تغير الأحوال وظهور أثر الهجوم الجوي في الحرب إلا جزءاً يسيراً مما أصاب أرض القارة ومدنها ومرافقها العسكرية والمدنية على حد سواء . وهكذا استطاعت بريطانيا ، بفضل هذه الميزة الكبيرة ، أن تخرج من حروبها الكثيرة سليمة المرافق ، قادرة على متابعة حياتها العادية وإنتاجها الاقتصادي ، على عكس أمم أوروبا البرية التي اكتوت مدنها وقراها ومصانعها بل حقولها بنيران الحرب في الميدان ، والتي كان عليها عقب كل حرب أن تنفق السنين الكثيرة في إصلاح ما خربته الحرب قبل أن تقف على قدميها وتجاهد جهاد الأقوياء . بل هكذا كانت بريطانيا أسبق من غيرها إلى النهوض في سنوات السلم ، واستعادة أسباب الرخاء والمنافسة القوية في الشؤون الخارجية والتوسع الاقتصادي العالمي ؛ لأنها كانت تخرج في أعقاب الحروب — وعلى وجه الإجمال — دون أن تمس أرضها أو مرافقها المادية بشيء يذكر ؛ فكأن كل حرب أوروبية ساهمت فيها بريطانيا — فيما عدا هذه الحرب الأخيرة — كانت تضيف إلى

مقدرتها على المنافسة العالمية بالنسبة لغيرها من أمم أوروبا المكافئة ، والتي كثيراً ما شغلته شؤونها الداخلية في أعقاب الحرب وأهتها ، ولو لي حين ، عن أن تنافس في ميدان التوسع الأوربي خارج القارة .

إلى هذه الأسباب جميعاً يرجع السر في قوة بريطانيا وسبقها في العصر الحديث . وهناك من غير شك أسباب أخرى — سياسية وتاريخية على وجه الخصوص — لم نخطط بها ولم نشر إليها في هذا المقال . ولكن ما أتينا به من المقومات الطبيعية والبشرية يكفي لنتفهم منه أن ما تجمّع لبريطانيا من القوة لم يأت نتيجة المصادفة ، وإنما هو قد ترتب على توافر عدد من العوامل والأسباب التي كانت تعمل متداخلة متكاملة ، والتي أتم بعضها بعضاً حتى استطاعت هذه الجزر الصغيرة وسكانها المحدثون في المدينة والمحدودون في العدد أن يكتسبوا أمة قوية غنية ، قادرة على أن تسبق غيرها من الأمم الحديثة في ميادين العمل والجهاد والتوسع والاستعمار ، بل قادرة أن تتخذ لنفسها مركز القيادة في ميدان السيطرة العالمية ، فأنشأت إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ، جمعت فيها بين أهل الشرق وأهل الغرب ، وبين أهل الجنوب وأهل الشمال ، على نحو لم يسبق له نظير في التاريخ . وقد ثبتت تلك الإمبراطورية لكثير من المحن والأزمات ، بل كانت في الغالب تخرج من أزماتها أقوى مما دخلت أو هي على الأقل كان هذا شأنها فيما مر بها من أزمات سابقة ، حتى جاءت هذه الحرب الأخيرة بأعقابها وتبائجها البعيدة التي لا يعلم مداها وأثرها النهائي غير الله !

ولكن ما لنا نتحفظ إلى هذا الحد ولا نحاول أن نستشف المستقبل في موضوع نسعى الآن إلى أن نلجّه من الناحية العلمية الخالصة ؟ الآن هذا المستقبل مثقل بالاحتمالات التي لا ضابط لها ولا حاكم ؟ أم لأن هناك عوامل جديدة لا ترتبط بقوة بريطانيا ، وإنما تتصل بمصادر أخرى للقوى في جهات أخرى من العالم ؟ أم لأن مبدأ السيطرة العالمية وقيامه على أساس التحكم في اتصالات أوروبا بالخارج لم يعد هو الحاكم الوحيد في توازن القوى الدولية ؟ أم لأن الإنسانية أخذت تسير إلى غاية جديدة متمسكة طرقاتاً جديدة غير ما اعتادت أن تسير فيه خلال هذه الأجيال الأخيرة ؟ أم لأن بريطانيا التي كان

لها سبق في ميدان السيطرة العالمية على غيرها من امم أوروبا قد بدأت تفقد تلك الميزة ، فلحقت بها أم جديدة بعضها في أوروبا وبعضها في خارجها ؛ ولا بد من أن تلاحق الأمم بعضها بعضاً ، وأن يداول الله الأيام بين الناس على نحو جديد لن يكشف عن نتيجته غير الزمن ؟ قد تكون كل هذه الاحتمالات من الحقيقة في شيء يسير أو خطير ؛ ولكن الشيء الذي نستطيع أن نستبينه — ومن الخير لنا أن نستبينه واضحاً جلياً — هو أن الاتجاهات الحديثة في اتصالات العالم ، وفي علاقات الدول والأمم بعضها ببعض ، قد أخذت تتبلور خلال هذا الجيل الأخير ، حتى اتخذت صورتها الواضحة مع نهاية هذه الحرب الأخيرة . وكل من يدرس النضال الحديث بين الأمم في صورته الجديدة ، التي برزت للناس في أواخر مراحل الحرب ، يدرك في غير عناء أن الجماعات البشرية سائرة نحو التكتل ، وأن مستقبل القوة معقود لواءه للأقوياء الكثيرين في العدد والأغنياء في الموارد ؛ ولم يعد هناك في الحروب الكبرى التي توجه مصائر العالم شيء اسمه أم صغيرة أو أم متوسطة ، وإنما هناك أم كبيرة تلتف من حولها أم صغيرة وتتذبذب بينها أم متوسطة أو شبه كبيرة . وقد خرجنا من هذه الحرب المنتهية — إلى جانب إقرار كيان الإمبراطورية البريطانية وتوسيع رقعتها في بعض الأطراف — بأمتين كبيرتين ، ليس من اليسير حصر مواردهما الظاهرة والكامنة ، هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ؛ وبأمة أخرى قد يبدو شأنها خاملاً في الوقت الحاضر ، ولكن المستقبل كفيل بالكشف عن قوتها الهائلة في المال والرجال ، هي الصين التي تحتل مساحة تناهز مساحة أوروبا بأسرها وتزيد عليها في عدد السكان ؛ ثم بأمة أخرى عريقة في المدنية والثقافة هي الأمة الفرنسية ، ولكن لن تبلغ ، هي وإمبراطوريتها ، من القوة المادية بعض ما بلغ الآخرون . على أن الشيء الذي لا يخلو من مغزى حقيقي هو أن بعض فلاسفة الوقت الحاضر وساسته الراسخين يرون بحق أن بريطانيا إذا انقردت عن إمبراطوريتها ، وتخلت عن سندها من الأمم الأخرى — أو تخلت عنها ذلك السند — فإنها لن تعدو أن تكون قوة متوسطة وأمة من المرتبة الثانية بين أمم المستقبل . ويظهر أن حلفاءنا البريطانيين ، رغم كل ما يقال من بطء إداراتهم وجنوحهم إلى التسوية بالوقت في كثير من الأشياء ، كانوا أسرع الناس إلى إدراك هذه الحقيقة ، وإلى

العمل على تلافى مصدر الضعف الجديد الذى يهدد كيانهم الدولى والايمبراطورى .
 وإذا كان لنا أن نقرأ النتائج من المقدمات ، فإن سياسة بريطانيا يحاولون الآن
 رسم الخطة وتلمس الطريق إلى استكمال أسباب قوتهم المهددة ؛ فالإمبراطورية
 إن أرادت أن تقف أمام منافسيها فى المستقبل ، ينبغى أن تزيد من أسباب
 الترابط بين أجزائها ، وينبغى فوق ذلك أن تعمل على تكتل القوى فى ما أخذ
 الإمبراطورية ومناطق الخطر فيها . وقد يكون الشرق الأدنى أو الأوسط
 مكن الخطر الأكبر فى بناء الإمبراطورية . وبريطانيا محتاجة فى هذه المنطقة
 إلى أن تجمع من القوى وأن تكسب من الصداقات أكبر قدر تستطيع أن تجعله
 إلى جانبها . ومهما أظهر ساستها فى الوقت الحاضر من ألوان الصلف والاعتزاز ،
 ومهما تأثرت أقوالهم وأفعالهم بما يستشعرون فى هذه اللحظة من قوة مصدرها
 هذا النصر العظيم الذى أحرزته الإمبراطورية وحلفاؤها بأعلى ثمن ، فلا شك
 أنهم مدركون أن احتياج بريطانيا ، بحكم ما تمخضت عنه الحرب ، إلى الأمم
 الصغيرة والمتوسطة أكبر من احتياج تلك الأمم إليها . ولئن قيل فى وقت مضى
 إن قوة بريطانيا ضرورية للدفاع عن الشرق وأبوابه ومسالكه ، فإن من الحق
 أن يقال فى المستقبل إن صداقة هذا الشرق ألزم لسلامة بريطانيا وإمبراطوريتها
 من أية قوة تستطيع أن تخف بها إلى ميادينه . وليس من شك فى أن بريطانيا
 وساستها ، بل قادتها العسكريين أنفسهم يدركون هذه الحقيقة تمام الإدراك ،
 إن لم يترفوا بها فى العلانية . وحقيق بأهل هذا الشرق وقادته أن يدركوا
 هذه الحقيقة على وجهها الصحيح ، قبل أن يحددوا موقفهم ، وقبل أن يرسوموا
 خططهم ، وينظموا علاقات بلادهم الدولية فى المستقبل . وقد يكون من الحق
 علينا لأنفسنا وللإنسانية جمعاء أن نعرف قدر أنفسنا وقد عرفه الناس ! بل
 قد يكون من الخير لنا وللإنسانية جمعاء — ونحن نعيش فى مهب العاصفة بين
 قوى العالم الجبارة — أن نرسم خطانا فى نور وتبصر ، وأن نتلمس سبيلنا إلى
 التعاون الدولى فى حزم واستقلال !

سليمان حسين

ذكريات

بعض الأدباء الذين عرفتهم^(١)

عرفت جرجى زيدان مؤسس الهلال قبل أن يموت بسنتين أو ثلاث ، بل عرفته منذ ١٩٠٩ حين كنت بالبحر ، وكنت قد ألفت رسالة « مقدمة السبرمان » وبعثت بها إلى مطبعة الهلال كي تطبع ، فأحالتها المطبعة إليه ليقرأها . وبعث هو إلي بخطاب مسهب يشرح لي فيه وجوه النقد التي يأخذها على الرسالة ، ويقترح حذف بعض الفصول والسطور مما عده مخالفاً للعقيدة العامة . وأذكر من خطابه هذا قوله : « إنه لا بأس أن ننتقد المسيحية ، لأن المسيحيين قد ألقوا نقد دياتهم ، أما المسلمون فيجب أن نتوقا لهم ، لأنهم لم يألوا النقد » . وقد خرجت هذه الرسالة مشوهة مبتورة لكثرة ما حذف منها . ولما عدت إلى مصر زرتة واتصلت معرفتي به إلى وفاته ، وكنت بين مشيعة إلى قبره . وكان جرجى زيدان عصامياً في ثقافته وثروته ، وهو أول من أرصد حياته في عصرنا لدراسة التاريخ الإسلامى ، وألف في ذلك قصصه الكثيرة كما ألف تاريخ التمدن الإسلامى . وهذه الكتب تعد من الطلائع لهذه الدراسات التي استفاضت في العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة . ولم يكن لجرجى زيدان أي اتجاه علمي . حتى لقد كتبت ذات مرة أعزو الحجاب عند العرب إلى أسباب بيولوجية هي أن البنات في الأقطار الحارة يبالغن سن النضج الجنسي في الحادية عشرة أو حوالى ذلك أي قبل اكتمال سن النضج الذهنى . ولذلك لم تكن لهن من عقولهن رقابة على غريزتهن الجنسية أو ضبط لها ، وأن هذا هو السبب للحجاب بين العرب . فتعجب لهذا التعليل وقال لي إن « الأسلوب يعجبني » ، ولكن الحقائق تكذبه . وكانت هذه « الحقائق » عنده تاريخية . وأنا الآن أعرف أنني كنت مخطئاً في هذا التعليل البيولوجى ، إذ ليس هناك أي فرق في سن النضج الجنسي بين أبناء المناطق الحارة والمناطق الباردة ، والتعليل الصحيح للحجاب اجتماعى .

(١) هذه ذكريات الأ. ت. ت. تأثرها بالأمم كما كتبتها لا نستطيع لأنفسنا أن نراجعها فيها فضلاً عن أن نحاول الملاءمة بينها وبين آرائنا الخاصة فيمن ذكر من الأحياء والأموات .

وكان جرجى زيدان انبساطياً بديناً بشوشاً كثير الأصدقاء . ومات عقب انتهائه من أحد مؤلفاته . فما هو أن أتم الصفحة الأخيرة حتى وضع القلم وانسطح ، فاتفجر شريان أحدث له « النقطة » . وفي اليوم التالي شيعناه إلى الجبانة ، وكان هناك عدد غير صغير من الأدباء الذين استعدوا لتأبينه . ووضع النعش وكشف عن الوجه ونهض أحد المؤبين . ولكن ما إن شرع في إلقاء كلمته حتى صاح شقيق المتوفى يقول : إنه رأى شقيقه يرمش وإنه لا يزال حيّاً . وكانت المسألة لا تزيد على أن عاطفته قد تغلبت على عقله . ولكن كانت النتيجة أن المشيعين عادوا ولم يسمعوا تأبيناً ، وترك حارس للجثة إلى الصباح . . .

ومؤلفات جرجى زيدان لا تزال حية ، وهي أقرب إلى التلخيص منها إلى الإسهاب ؛ لأنه عالج موضوعات لم يعالجها أحد من قبل ، فكان يستوعب أكثر ما يستطيع فيضطر إلى الاقتضاب . ولما أنشئت الجامعة المصرية كلّف إلقاء محاضرات عن التاريخ الإسلامى . ثم عادت إدارة الجامعة ، فألغت هذا التكليف بدعوى أنه مسيحي . وقد تركت هذه الحادثة في نفسه مرارة ، فكان لا يفتأ يذكرها في حزن وألم .

وكان فرح أنطون يصدر « الجامعة » ، وكان من وقت لآخر ينتقد « الهلال » . وكانت مجلة « الهلال » شرقية ومجلة « الجامعة » غربية ؛ فلم يكن هناك نقطة للتعارف أو التصديق بين صاحبيهما . واتصلت صداقتي بفرح حين شاركته في تحرير « الأواء » لفترة قصيرة حوالى ١٩٠٩ . وكنا نقضى السهرة في إحدى المقهوات المطلة على ميدان الأوبرا أو ما يقاربها . وكان فرح « مفكراً حراً » بالمعنى الفرنسى لهذه العبارة . وكان يعرف نيتشه وروسو . وقد اندمج بعد ذلك في الحركة الوطنية المصرية . وكان حلي الأصل ، ولذلك شق عليه اتخاذ الاتجاه المصرية العامة . وكان انبساطياً مفراحاً يشرب الخمر ، بل كان يشرب الأيسنت ، وهو مشروب منع بيعه بعد ذلك لفتكه بالصحة .

وقد ترك كل من جرجى زيدان ، وفرح أنطون ، أثره في النهضة المصرية . فإن الأول فتح أبواب الدراسة لتاريخ الإسلام والعرب وآدابهم وعقائدهم وحضارتهم ، كما فتح الثانى أبواب الدراسة للنهضة الأوروبية . ومات الأول حوالى الستين ، ومات الثانى حوالى الأربعين . وفي تلك السنوات عرفت يعقوب صروف محرر « المقتطف » ، وكان قد جاوز

الستين . وأذكر أنه لأول مقابلة لي شرع يسألني عن أصلي وهل أنا مصري قح أم بي عرق أجنبي . وكان قد قرأ رسالتي « مقدمة السبرمان » . وبعد حديث طال في العلوم عاد فجزم بأنني أجنبي ، وأن تفكيرى يدل على هذا ! وكانت نزعته العلمية قد طغت عليه ، فلم يكن يحسن التقدير للأدب أو الفلسفة ؛ ودار بيني وبينه نقاش ذات مرة عن هربرت سبنسر وشوبنهاور . فأبرزت أنا القيمة العظمى للفيلسوف الألماني الذي نظر النظرة الكونية الشاملة . أما هو فكان يرى أن سبنسر أعظم المفكرين في العالم ، وأن شوبنهاور لا قيمة له بتاتاً إلا في « ملاطفات » أدبية أو مجازفات فلسفية . وكان « المقتطف » في أيامه من المجلات القوية التي وجهت القراء العرب الوجهة العلمية وأنارت بصيرتهم . ولم يكن جافاً في إirاده للبحوث العلمية ، كما أنه كان من وقت لآخر يترجم إلى العربية مقالات جديدة من المجلات الأوربية .

وفي إدارة المقتطف وجدت أمين المعلوف ، وكان لغويًا عالمي الذهن ، وقد وضع معجماً بعد ذلك للحيوان لا يزال أحسن ما يعتمد عليه في هذا الموضوع . واتصلت بيني وبين أمين المعلوف صداقة إلى وفاته . وكان يكثر من الشراب . وقبل وفاته بعامين أو ثلاثة أصيب ببحّة كانت تجعل الحديث معه شاقاً ، ولكنه احتفظ ببشاشته وذكائه . وقد عاش أمين المعلوف ملء حياته . فاشتغل في السودان ووصل إلى أقاصيه العليا حيث أفريقيا السوداء ، كما اشتغل في مصر والعراق . وهو ، مثل فرح أنطون ، لم يتزوج .

ويجب أذكر هنا أن جميع هؤلاء الأربعة كانوا سوريين ، أو ، كما نقول الآن بعد التجزئة التي أعقبت انهيار الدولة العثمانية ، لبنانيين . وكانوا جميعهم كارهين للحكم العثماني لا يطيقون ذكره . وإذا شرع أحدهم في الحديث عنه لم يتمالك من الغيظ . ولم يكن وجدانهم وطنياً ؛ لأن رؤيا الاستقلال للعرب لم تكن قد تجسّمت ، وكان اليأس أغلب عليهم . وحتى بعد انهيار الدولة العثمانية ، عقب الحرب الكبرى الأولى ، بقوا على شك من حقيقة الاستقلال المزعوم لهذه الدول العربية . وأظن أنهم كانوا على حق في هذا .

ومن الشخصيات الفذة التي عرقتها قبل الحرب الكبرى الأولى شخصية الأدبية الكبيرة م . وقد بقينا صديقين إلى يوم وفاتها عقب عودتها من مستشفى الأمراض العقلية في لبنان . ولم تكن م جميلة ولكنها كانت

« حلوة » . وكانت تعرف الآداب الإنجليزية والفرنسية ، وتقرأ كثيراً وتقف على الاتجاهات العصرية في أوروبا وأمريكا والشرق . وكانت أيضاً متمدنة من حيث اكتمال وسائل التمدن في المعيشة . وكان تمدنها وثقافتها يكسوان وجهها وتعبيرها ظرفاً ورقة . وقد استطاعت في أن تجعل احتراف الأدب عند الفتاة المصرية أو السورية زينة أنثوية لا استرجالاً كريهاً . وكانت ، في حياة أبويها ، تعقد بمنزلها اجتماعات « صالونية » حيث يكون السياسي والأديب والوجيه بعض ضيوفها . وكانت تشترك في جميع المناقشات بل كانت أحياناً تديرها . وقد تنبه ذكاؤها كثيراً لاختلاطها بهؤلاء الضيوف . ولم يكن هناك موضوع تعجز عن الاشتراك في معالجته . وتفعل كل ذلك في رقة وجمال وتمدن . ومات أبوها فلم يتأثر « الصالون » ، ولكن عقب وفاة والدتها تزعزعت في . ولم يكن ذلك ، في ظني ، لحزنها على والدتها التي ماتت بعد أن أسنت وبعد أن كان موتها منتظراً . وإن كانت الفارقة بين الأم وابنتها قد تركت أثرها ، وخاصة عند ما نعرف أن في لم تتزوج ، وأن رفقتها لأمها كانت تعزيها . وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوماً ما وهي منفردة مقطوعة في منزلها ، وخاصة في وسط ، مهما قلنا إنه متمدن ، لا يزال شقيقاً .

على أني أظن أن السبب للترزع النفسي الذي أصاب في كان انتقالها الفسيولوجي من الشباب إلى الكهولة . وهذا الانتقال كثيراً ما يخل بالاتزان الفسيولوجي عند بعض النسوة . وقد ماتت في منذ أكثر من سنة بعد سنوات قضتها في مستشفى الأمراض العقلية في لبنان . ولما عادت زرتها مع صديقي الأستاذ أسعد حسني . وفتحت هي لنا الباب ، فرأيت شخصاً لا أعرفه . رأيت سيدة بيضاء الشعر كأنها في السبعين . فسدرت عيني ، فغمزني أسعد وهمس : الآنسة في ! الآنسة في ! فسلمت وتضاحكت ، ولكنها أدركت كل شيء . واستولى على اكتئاب وخجل وجود ، وارتسمت في ذهني صورة لعذاب النفس الذي لقيته هذه المسكينة في مرضها . ولكن سرعان ما زال عني الاكتئاب والخجل والجود ، إذ شملني أسف . فإن في قعدت إلينا وشرعت تقص علينا ما قاسته في المستشفى وكيف ألبسوها « الجاكيت » التي تمنع العريضة عند المجازين ، وكيف أضربت في عن الطعام . ثم ، وهنا الأسف والحزن ، كانت وهي تروي لنا ما وقع لها وكيف أن أدباء مصر نسوها وتركوها ولم يسألوا

عنها ، كانت تضحك مرة وتبكي أخرى . وتكرر هذا منها كثيراً . وأدركت أنها لا تزال في حاجة إلى المستشفى .

وزاد اعتقادي هذا عند ما أصرت أنه كان لها أقرباء ينوون خطفها من القاهرة ، وكانت تذكر أسماءهم وأنهم كانوا يتربصون بها في مكان معينه ، وكانت هي مضطرة إلى المرور بهذا المكان .

وخرجنا نحن الاثنين ونحن في أسف وغم لهذه الحال التي كانت عليها . ولكن أسفى أنا كان مزدوجاً ؛ فأني بقيت طيلة المساء وأنا أفكر في جمودي وكيف أنى لم أتنبه عند ما رأيتهما بالباب ، فأحييها تحية اشتياق وتقدير ، وأنها لا بد قد عرفت من جمودي أنها تغيرت ، وأن جمالها وحلاوتها وظرفها ورقتها قد زالت . وملاأثنى هذه الخواطر مرارة بل كراهة لنفسى .

فلما كان اليوم التالى قضيت إلى منزلها وأنا طيلة الطريق أستعد للقاء أرجو أن أقشع به غمامة الأمس . وهو مع ذلك لقاء لفتاة مريضة مزعزعة . فلما فتحت لى الباب عانقتها في حنان صادق وحب مصطنع . وتراجعت هي وتأمات وجهى في ابتسام وانسراح واضحين وهي تقول : « مرسى . مرسى يا أستاذ ! »

وشعرت أنى كفرت عن جمودي فى الأمس . وقعدت معها وأنا أتحدث فى نشاط ومرح . ولكنها عادت إلى البكاء والضحك . فكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تتشجج بالضحك . وبعد أسابيع مائت ؛ إذ لم تطق هذه الدنيا التى رافقتها أكثر من ثلاثين سنة وهى تتلأأل فيها بالشباب والجمال ، ثم عادت فتركتها منفردة فى شيخوختها بلا جمال وبلا تلاًؤ .

ومخلفات مى الأدبية كثيرة ، ولكنها كانت فى حديثها أبرع وأذكى مما كانت فى جميع ما كتبت . وكنت أقول لها إن السبب لتفوق حديثها على مقالاتها ومؤلفاتها أنها شرقية تخاف فى الكتابة أن تبوح بكل ما تفكر ، ولكن هذا الخوف يزول عنها فى الحديث . وقد صدمتنى ذات مرة بملحوظة جعلتنى أفكر ، هى قولها : « إن مبالغتى فى التفاؤل هى فى صميمها وأصلها مبالغة فى التشاؤم . » وأحياناً أظن أنها كانت صادقة ، كما أنها هى أيضاً كانت متفائلة ذلك التفاؤل الذى يخفى التشاؤم ويضممه .

وقد يسأل القارىء هنا : لمَ لم تتزوج مى مع جمالها وثقافتها ؟ فالجواب أنها كانت تعيش فى وسط شرقى . ولو كانت مى قد نشأت فى برلين أو باريس

أو لندن فوجدت الكثيرين ممن ينشدون الشرف والسعادة بالزواج منها ، والذين
والمجد بالتصاق تاريخهم بتاريخها . ولكن إخواننا اللبنانيين ، على الرغم من
عصريتهم ، لا يزالون شرقيين ، ولم يستطيعوا أن يسيغوا زوجة تستقبل ضيوفها
في صالون أدبي له حرية الصالونات الأوربية في المناقشة والاختلاط . وبكلمة
أخرى نقول : إن مي عاشت فيما قبل ميعادها بخمسين سنة .

وقبل الحرب الكبرى الأولى عرفت عبد الرحمن البرقوقي صاحب مجلة
«البيان» . وكانت هذه المجلة الشهرية تحاول أن تحيي الأسلوب العربي القديم على
نحو ما فعلت جريدة « مصباح الشرق » ، للمويلحي أو كما تفعل الآن مجلة
« الرسالة » . وكان البرقوقي تقيض في أهدافه الأدبية ؛ فقد كان يجد لذة عجيبة
في التعبير عن معنى ما بكلمة مائة . ويقول إننا يجب أن نحى هذه الكلمة . ولم
يكن يجدي احتجاجي عليه بأن الكلمة إنما أُميتت لأسباب قوية استدعت
موتها ، وأن إحياءها الآن خطأ ؛ لأن مركزها الاجتماعي قد انعدم . وكان صهره
مصطفى صادق الرافعي أكثر إمعاناً منه في خطة الإحياء للكلمات المماتة . وعرفت
محمد السباعي وكان الكاتب الأول في مجلة «البيان» . أما الكاتب الثاني فكان
عباس حافظ . وكلاهما كان يعني أكبر العناية بالأسلوب العربي القديم . ولم يكن
بمجلة « البيان » لا كثير ولا قليل من الفن الصحفي ، ولذلك لم تعيش طويلاً .
وكان عبد الرحمن البرقوقي من أطيب الناس . وكان غربي الذهن ، قضت
المصادفات بأن يكون شرقي التربية والثقافة . وكنا أحياناً نمشي في الإسكندرية
فيأخذ في المقارنة بين الشوارع التي أقيمت إليها مساكن الأجانب وبين تلك
الأخرى التي أقيمت إليها مساكن المصريين . ويستنتج من هذه المقارنة ما يحمله
على القول بأن الشرق كله مفلس . وكان قد عرف الشيخ محمد عمده وأدرك
المغزى في اتجاهاته وإصلاحاته .

وإذا كان حقاً أن الحمر تكشف عن خبايا الصدور ، وتفكك الضوابط
التي تحول دون الصراحة ، فإني أروى الحادث التالي الذي يدل على النفس الزكية
التي كان يتسم بها البرقوقي . فقد كنا على قهوة في الإسكندرية حوالي ١٩١٤
وقد قعدنا إلى الموائد الخارجية والنسيم يهب علينا كأنه البلسم في رقته
ونعومته ، وأمامنا أكواب من البيرة (أو غيرها) نشربها في اشتهااء ولذة .
ثم طلبنا رطلين من الكباب ، فجاء بهما الخادم وبخار الكباب يتصاعد ورائحة

الشواء تسكر . وما إن شرعنا نتنقل على هذا الطبق حتى طرأ علينا متسول . وكان غاية في القذارة والجوع والعفن ، فطاب إحساناً . فتأمله البرقوقي ثم نظر إلى كأنه يستفهم . ثم دفع الطبق إلى طرف المائدة وقال للرجل : كل . وأكل الرجل الطبق كله برطليه من الكباب وهو واقف .

وكان البرقوقي يسكن ، هو ومجلمته ، بالقرب من باب الخلق ، وكانت « الجريدة » قريبة منه . وقد دعوته قبيل الحرب الكبرى الأولى أن نزور معاً لطفى السيد (باشا) رئيس تحريرها . ولم أكن أعرفه قبل ذلك إلا من مقالاته مع إعجابي العظيم بها . فلما دخلنا عليه ، وجدت غرفته كأنها غرفة وزير في سعتها وأثاثها . وتحدثنا عن نيتشه والتصوف . ولا أدري إلى الآن كيف جمع بينهما لطفى السيد ، ولكنني خرجت من هذه المقابلة الأولى وفي اعتقادي أن لطفى السيد أديب كما هو فيلسوف .

وحوالي تلك السنين ، أو قبل ذلك بقليل ، بزغ طه حسين . وكان أزهرياً معهما ، يكره الأزهر ، ويعربد على صفحات « الجريدة » . والتحق بالجامعة المصرية ونال دكتورية الأدب . وكان الفرح عاما بين الشباب الجديد لهذا الأزهرى الناجح . وكنت أصدر مجلة « المستقبل » الأسبوعية في الدعوة إلى القرن العشرين وما بعده . فنشرت صورته وهو بالجبة والقفطان . وراج العدد بين القراء الذين رغبوا في اقتناء الصورة . وكان لنجاح طه حسين قيمة رمزية هي أن مصر العتيقة تستطيع أن تتجدد . وقد وجد طه حسين من لطفى السيد المراعاة بل أحياناً المحابة ، حتى كانت مقالاته تتحيز المكان الأول في « الجريدة » على الدوام . والواقع أن انتقال طه حسين من الأزهر إلى الجامعة المصرية ثم إلى السوربون مع أنه ضريب هو معجزة . ولكن ثم معجزة أخرى هي أنه اتخذ مكاناً أمامياً ثورياً مستقبلياً في الأدب ، مع أن الإنسان كان يتوقع ، بعد اعتبار ماضيه ، أن يتخذ مكاناً تقليدياً حيث يراعى « قواعد النحو والصرف » في الأدب والاجتماع والسياسة . وقد يقال إن المعري قد أثر فيه وبعث في نفسه كراهة لقواعد « الصرف » وقد يقال إن المعري قد أثر فيه وبعث في نفسه كراهة لقواعد « الصرف » في أسلوب الحياة . ولكن يبقى عندئذ سؤال هو : لماذا اختار طه حسين المعري كي يكتب عنه ويسهب في الكشف عن عقله وقلبه ؟ ولا عبرة بأن يقال إن الاشتراك في العاهة باعث مقنع للقوة الجذبية التي وجدها طه حسين في المعري ؛ لأن هناك أدباء وشعراء كثيرين بهم هذه العاهة لم يجذبوا

طه حسين . وظنى أن عاهة العمى لم يكن لها إلا أقل الأثر فى التفات الأديب المصرى إلى أديب المعرة . وإنما الأثر الأكبر أنهما يشتركان فى الثورة ، وخاصة الثورة على المشايخ . فقد رأى طه حسين فى الأزهر ما بعث سخطه وحركه إلى الكفاح ، ثم رأى عند المعري مثل هذا السخط ومثل هذا الكفاح ، فارتبطت بين الأديبين أواصر الحب والفهم وتعارفا وتفاهما . وقد انتقلت عند طه حسين بعد ذلك ، بثورة المعركة من ميدان الأزهر إلى ميدان السياسة المصرية . ولكن اتجاهاه الأول لم ينحرف .

وهناك من يزعم أن السياسة قد أفست أدباءنا وشغلتهم عن مهمتهم الأصلية . وهذه المهمة إنما هى عند هؤلاء الزاعمين أدب البرج العاجى الذى لا يتصل بالمشكلات العصرية . ولكنهم مخطئون ؛ لأن الأديب فى عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسيا . وأثنى بالطبع السياسة العليا ، السياسة العالمية والقطرية . ولا أعنى أن يستأجر أحد الأحزاب كاتبا نيرصد تلمه للدفاع عنه ظالماً أو مظلوما . ونحن نعيش فى عصر انفجارى يحفل بالانقلابات الاجتماعية والأدبية والعلمية . وذلك الأديب الذاهل الذى يعيش فى البرج العاجى إنما يبتعد عن أهم الشؤون البشرية حين يبتعد عن السياسة . وكل أديب له وجدان بتطور العالم فى عصرنا يحس أن واجبه الأول أن يكون عنصراً من عناصر هذا التطور . ولذلك يستحيل أدبه إلى أدب كفاحى سياسى .

ولذلك لا يستحق أدباؤنا اليوم على أنهم أخضعوا أدبهم للسياسة ، بل الحق أنهم يستحقون الثناء والحمد . وحين أتأمل الصدود الذى نلاقه أحيانا فى بعض الأفراد أو عند الجميع عن شوقى ، على الرغم من شاعريته الرائعة ، أعتقد أن مرجعه أن شوقى لم يمارس الأدب الكفاحى ، ولم يطابق بين فنه وبين أمانى الشعب ، إلا فى فترات نادرة ، وأن إعجاب الشعب بحافظ إبراهيم ، على الرغم من شاعريته التى لا تسمو إلى مستوى شوقى ، إنما يرجع إلى أنه طابق بين فنه وبين أمانينا السياسية . وحتى فى المستقبل بعد مائة سنة مثلا سوف يدرس حافظ ويستدل بشعره على عواطف الأمة المصرية واتجاهاتها ومستواها الفنى أكثر مما يدرس شوقى الذى عاش ، زمناً خير قصير من حياته ، فى البرج العاجى .

ولم أعرف شوقى إلا فى السنوات الأخيرة من حياته . وكان له مكتب بالقرب من دار الكاتب المصرى كنت أزوره فيه . وقد فهمت مقدارا كبيرا

من سيكلوجيته حين شرع ذات مرة يوضح لي في إسهاب لماذا ألف درامة «كليوبطرة». فقد زعم أنه أراد أن يزكي هذه المرأة باعتبارها ملكة مصرية قد أسىء إليها في سمعتها. ودهش أكبر الدهشة منى عند مناقضته وقلت إنها لم تكن مصرية. وكان في ثقافته يصبو إلى كل قديم، حتى إنه لم يدرك شيئاً من التيارات الكاسحة التي اتسم بها الثلث الأول للقرن العشرين. وقد ولد شوقي في أواخر القرن التاسع عشر في مصر، في بيئة الباشوات والبكوات التي كانت تكره عرابي، ولم يقطع الجبل السرى الذي كان يربطه بالقرن التاسع عشر إلى يوم وفاته.

أما حافظ إبراهيم فكان من الجواهر التي لا تزال تلمع وتسطع في ذكريات جميع الذين عرفوه. وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجههم يصدم ويخيف لأول نظرة، حتى إذا قضى معه الإنسان نصف ساعة ودَّ لو ينهض ليقبله ويعانقه. فقد كان أنيساً يحدثك بنكات، بالمعنى العربى القديم لهذه الكلمة. وكان وطنياً يطابق بين أمانيه وأمانى الدهماء من الفلاحين والعمال والمتوسطين. وأذكر من نكاته أنى سألته ذات مرة عن رأيه في أحد الشعراء، فكانت إجابته العجيبة: «إن أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب».

وليس هناك مفر من المقارنة بين شوقي وحافظ ومطران؛ فإن دراسة هؤلاء الثلاثة تدل على التيارات المتنافسة والمتناقضة في المجتمع المصرى فى الخمسين من السنين الأخيرة. فإننا نحس أحياناً في قصائد شوقي ومقطوعاته جو الترف المصرى الذى أوشك على الزوال: السجاجيد الإيرانية وصينية القهوة الفاخرة يحملها عبد أسود، والمقاعد الناعمة والحجاب، حجاب المادة والروح. أما أشعار حافظ فصرخات المتألم، وأحياناً مهاترات العاجز. ونحن نقرأها فنصرخ معه ونهاتر فى ألم وعجز؛ لأنه منا ونحن منه: شاعر مصرى بلدى. أما مطران فيشبه أحياناً تلك الحقائق الأنيقة التى يجمع فيها أصحابها الأثرياء أصص النباتات الأجنبية التى نسأل عن أسمائها ونعجب بروائها، ولكن ليس لها فى قلوبنا ذلك الحنين الذى نحسه حين نذكر حقولنا المألوفة بفلاحينا وجداولها وأشجارها من الحمير والتوت.

الماضى القريب والماضى البعيد

فى أمثال الرومان أن « الكاييتول قريب من صخرة تريبا ». أما الكاييتول فهو ذلك التل المرتفع من تلال روما الذى كان عليه موطن الحكم . وأما صخرة تريبا ، فهي صخرة إلى جانب من الكاييتول كان يلتقى من فوقها المجرمون المحكوم عليهم بالموت ، فيلقون حتفهم . ويقصد الرومان بهذا القول أن الارتفاع يعقبه الوقوع .

هذا من أمثال الرومان . والناس فى هذه الأزمان يرتقون الكاييتول عن طريق ممهد ذى درجات عريضة ؛ ليشهدوا ما فوقه من قصور صارت متاحف ، وليطأوا من خلف التل على المكان السحيق الذى كان يلتقى فيه المجرمون . يرتقى الناس فى هذا الطريق وهم يذكرون هذا المثل ، وقد جذب أعينهم تمثال مرقس أوريليوس الإمبراطور الفيلسوف ممتطيا جواده . وقد سلم هذا التمثال من عصور التعصب والجهل ، أيام القرون الوسطى ؛ إذ ظن المؤمنون أنه تمثال قديس ، لما اتسم به من سكينة ووقار . وقد يشغلهم منظر هذا التمثال الرائع وهم صعود ، عن أن يلقوا نظرة عابرة على تمثال صغير من البرونز إلى يسارهم هو تمثال ريتزى أو كولا دى ريتزى ، وقد يلقون نظرة عليه دون أن يأبهوا به ، مع أن صاحب هذا التمثال أقرب من يصدق عليهم مثل الرومان القائل إن الكاييتول قريب من صخرة تريبا ، وهو يمثل شخصية فذة لا تزال تتكرر وبخاصة فى تاريخ إيطاليا ، فى الماضى البعيد والماضى القريب ؛ ومسلك شعب روما نحوه ، هو دائما مسلك الإيطاليين نحو رجالهم الذين خدموهم من قبل ومن بعد .

فى أول القرن الرابع عشر الميلادى كان النزاع المستمر بين البابا والإمبراطور قد بلغ مداه ، ذلك النزاع على السلطة الدنيوية الذى ابتدأ فى القرن الحادى عشر واستمر إلى القرن الثالث عشر . فالبابا يرى أنه صاحب

الكلمة العليا في جميع البلاد المسيحية ، وان سلطانه الديوى يشمل جميع المسيحيين كما يشملهم سلطانه الدينى . والإمبراطور ، وكان في ذلك الوقت عادة من الأمراء الألمان ، يرى أن سلطان البابا مقصور على الأمور الدينية ، وأن الأمراء إذ يخضعون له في هذه الأمور ، لا يتزلون عن سلطانهم الديوى . ومن هنا نشأ هذا النزاع الذى انتصر فيه البابوات أكثر من مرة ، وأذلوا أباطرة الدولة الرومانية المقدسة أكثر من مرة ، وهُزم فيه البابوات غير مرة ، ولم يتورع هؤلاء الأباطرة عن إذلالهم غير مرة . وكانت هذه الحرب السجال وبالأعلى على الإمبراطور وعلى الكنيسة . فالكنيسة تستعمل سلطانها الدينى على قلوب المؤمنين ، وتستعمل سلاح الحرمان الرهيب في قتال الإمبراطور ، والإمبراطور يستعمل سلاح التنديد برجال الكنيسة وبالبابا نفسه ، ويشكك الناس في طهارة معيشتهم . وينتصر للإمبراطور أمراء وملوك يرجون منه خيراً ، وينتصر للبابا أمراء وملوك منافسون للإمبراطور .

فاذا أهل القرن الرابع عشر كان هذا التنافس قد بلغ مداه بانتصار البابا في الظاهر والقضاء على أسرة هوهنشتاوفن التى كان منها الأباطرة . ولكن هذا النصر لم يكن بلا ثمن ، فاقدر انتصر البابا بفضل مساعدة ملك فرنسا وهؤازرته ، وفي سبيل النصر لم ينظر البابا إلى الثمن الذى كان عليه أن يدفعه . جاء القرن الرابع عشر فاذا البابا لم يعد صاحب السلطان على المسيحية من عاصمة ملكه روما ، وإذا هو أسير أو كالأسير يعيش في بلدة بإقليم متاخم لفرنسا . أما البلدة فهى أفنيون ، وأما الإقليم فهو جنوب فرنسا الآن . لم يكن هؤلاء البابوات الذين اتخذوا أفنيون مقاما أسرى في الحقيقة ، فهم الذين رضوا لأنفسهم بهذا الوضع ، فلقد بلغ من سيطرة ملك فرنسا أن صار أكثر الكرادلة الذين ينتخب من بينهم البابا من الفرنسيين وصار البابوات ينتخبون من الفرنسيين كذلك . فالبابا كلنتيو الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤) . وهو أول من اتخذ أفنيون مقاما ، كان من أهل جسكونيا ، وقد أصغى إلى نصيحة فيليب الجميل ملك فرنسا فلم يطأ بقدمه أرض روما . وانتخب البابا جيوفانى الثانى عشر بعد أن ظل كرسى البابوية خاليا سنتين ، فلم يكتف بالإقامة ببلدة أفنيون كسلفه إلى أن يحزم أجره على العودة إلى عاصمة المسيحية ، بل اتخذ له مسكنا ، وزاد في بنائه ، حتى جعل منه قصراً وحصناً ، وهو الذى

يشاهد في تلك البلدة إلى اليوم . وهكذا شعرت روما بأنها لم تعد عاصمة المسيحية .

ماذا كان تأثير ذلك في روما ؟ وماذا كان تأثيره في إيطاليا ؟

أما إيطاليا فكانت غارقة كعادتها في انقساماتها والتنازع بين إماراتها ودولها المستقلة ، فهي مسرح للحروب في سبيل المطامع ، يقوم بالقتال رجال حرب مأجورون من رجال الشمال الأشداء : ألمان وسويسريون ومجريون ؛ وهم رجال أشداء ، ولكن ليس من صالحهم أن تنتهي هذه الحروب وقد اتخذوها مهنة . وإذا انتهى هؤلاء الأمراء الإيطاليون وانتهت هاته الجمهوريات من المشاحنة ، فما مصير هؤلاء الجنود ؟ وأي عمل يمتحنون ؟

إذن فلستمر هذه الخلافات ، ولتبق هذه المطامع تعمى الأبصار عن الطريق سوى . ولكن بين الناس من ليسوا أمراء ، وبينهم من لا يتجهون اتجاه الأمراء في المطامع ، وفي إيطاليا حول ذلك العصر زادت العيون تفتحا ، وأخذ الناس يقبلون على هذه الحياة الدنيوية ويحاولون فهمها ، وزاد الميل بينهم إلى الدراسة وإلى لذة الحياة العقلية ، فإذا هم يجدون بينهم كنزاً كان مطموراً . فهذه كتب اليونان والرومان بين أيديهم من رثا شئ كثير ، وفيها من الإنتاج الفكري كل ما هو عظيم . وهذه آثار الرومان والتماثيل التي أخرجت من باطن الأرض تدل على مجد قديم ، فما أبعد الفرق بين الماضي المجيد ، والحاضر عندئذ ! ولكن ما السبب في هذا الفرق ؟ ولماذا نزلت إيطاليا من عليائها وصارت نهبا للبرابرة من شعوب الشمال ؟ ألا يمكن العودة إلى ذلك المجد القديم ؟ بلى ! والبرهان على ذلك أن شاعرا حديثا أخرج معجزة من معجزات الأدب لا تقل عن آثار الأوائل . ألم يخرج دانتى في تلك الأيام ملحمة « الكوميديا الإلهية » صاغها شعراً ، فأحيا الآمال في قلوب المفكرين من أبناء وطنه ؟ فملحمته لم تكن شعراً نادراً بقدر ما هي عمل من أعمال الإرادة يدل على أن الإيطاليين ورثوا المجد القديم ، وأن لغتهم الحديثة قادرة على منافسة اللغات القديمة ، وفيها من الحياة ما قد يبلغ مبالغ القديم .

زاد إقبال الناس على الدراسات يستزيدون منها ، ويقارنون بين الماضي المجيد والحاضر وما فيه من تناخل وانحطاط ، فظهر تياران من التفكير : فريق انصرف إلى الدراسات القديمة ، ونبذ كل تعاليم الكنيسة ، ورأى فيها سبب

الانحطاط ، ومجد الوثنية وآثارها ؛ وإلى هذه الناحية اتجه مازسيليو وأوكام ، ويمثل هذه الروح في عالم الأدب بوكاتشيو . وفريق رأى أن الدراسات القديمة لا تتعارض مع المسيحية ، وأن ما يؤخذ على الكنيسة من مساوئ إنما هو من عمل رجالها لا من فكرتها ، وفي طليعة الأدباء الذين نحوا هذا النحو في ذلك العهد بتراركا .

هذا في إيطاليا . أما في روما فقد تأثر المفكرون بهذه النهضة الفكرية ، وظهر هذان التياران ، إلا أنه من الطبيعي أن يكون التيار الثاني غالباً . فروما لم تنس أنها عاصمة المسيحية كما كانت عاصمة الدولة الرومانية العظيمة ، وقد ظلت روما ألف سنة عاصمة المسيحية ، وهي في تلك الأيام لم تعد كذلك ، وقد هجرها هؤلاء البابوات الفرنسيون ، فالمدينة فقدت مجدها القديم ، وهي تكاد تفقد مجدها الحديث ، وقد سادتها الفوضى وصار أهلها بلا معين أمام أسر أشرفها المتنازعين المتنافسين ، المتقاتلين بالأجراء من جنود البرابرة . ولم تعد تشرق شوارع المدينة تلك المواقب الدينية العظيمة التي كانت تخفى ما فيها من مناظر الفاقة . ولقد استطاع البابوات أن يعيشوا في أقيون في كنف ملك أجنبي ، ولكن الرومانيين لا يستطيعون أن يعيشوا بغير البابا ، ولذلك كانوا في تلك الفترة يرسلون الوفود إلى بابوات أقيون يلتمسون منهم العودة إلى مدينتهم الخالدة . ولكن هؤلاء البابوات يؤثرون الأمن والدعة في حى الملك الأجنبي ، على العودة إلى عاصمتهم وفيها الأحداث والاضطرابات ، وبين أشرفها النزاع والنضال .

كان فتى من فتیان مدينة روما ، في نحو التاسعة عشرة من عمره ، يشهد هذه الأحداث ويفكر فيها ، فتتألم نفسه ؛ ولكن ماذا يفعل وهو صغير لا يقوى على شيء ، وهو فقير ليس في يده شيء ؟ فوالده صاحب حانة صغيرة لا يمتلك إلا قوت يومه . إنه لا يستطيع أن يفعل غير ما يفعله الفتى الجاد لنفسه ، فهو يقبل على تثقيف نفسه ويقبل على الدرس إقبالا عجيباً ، فيعكف على دراسة المؤلفين القدماء من يونانيين ورومانيين ، ودراسة التوراة والإنجيل ، ويتعلم النحو منه والفلسفة والخطابة ، ويستظهر أقوال المؤلفين القدماء . وهو في ذلك محبوب أنحاء المدينة باحثاً عن آثار روما القديمة التي أخفاها الإهمال ، فاحصاً لها دارساً تاريخها ، ومن هذه الآثار كان يستوحى المجد الغابر ، ويشعر بالذل الحاضر .

بلغ ريتزى السن التى كان عليه فيها أن يتخذ له مهنة ، فجنح إلى مهنة القلم ؛ لأنها أقرب إلى واهبه وقلبه ، وضار نحامياً ، وكان بارعاً فى صناعة القلم ، بليغ العبارة . ولكن الله وهب له موهبة كان لها تأثير بالغ فى حياته ، فقد كان ذلق اللسان ينفذ حديثه إلى القلوب ، ويتسلط بالقول على الجماهير . وكانت أحداث ذلك الزمن وما فى المدينة من فوضى واضطراب وإهمال وفاقه ، أكبر مجال للقول ، فهى تبعث أبناءها على أن يندبوا حظها ، ويقارنوا بين ما كانت عليه من عزة ورياء ، وما هى فيه من ذل ومسغبة . وفى هذا المجال ظهر نجم ريتزى وأخذت شهرته تتسع ، وأخذ يجد السامعين والمصغين إلى أقواله ، فتجول فى نفسه خواطر وآمال استقاهها من تاريخ تلك الأرض التى لا يزال يطؤها ، ومن تلك الدماء التى يظن أنها تجرى فى عروقه صافية ، كما يظن أهل روما .

كان أهم ما يشغل المدينة فى تلك الأيام خاصة ، كما يشغل أهل إيطاليا عامة ، عودة البابا إلى مدينته الخالدة . ولقد توفى البابا نديتو الثانى عشر (١٣٣٤-١٣٤٢) فى قصره بأفنيون ، وانتخب البابا كلنتيو السادس (١٣٤٢-١٣٥٢) فرئى تأليف سفارة من كبراء المدينة ومتوسطيها وعامتها لتهنئته ولتسليمه السلطة الوطنية فى المدينة ، والالتماس منه أن يتولى كرسي القديس بطرس . وكان فى هذه السفارة شاعر النهضة العظيم بتراركا ، وكان فيها كولا دى ريتزى . وما لبث بفضل أن برز صوت الشعب ظاهراً ؛ فهو يتكلم فى عبارة طليقة ويذكر أنه مندوب الشعب ونائب الفقراء والأرامل والأيتام ، ويعرض الحوادث وما حاق بروما بسبب ابتعاد البابا عنها ، ويتحدث حديثاً قريباً إلى تلك المثل التى كان يحلم بها الشاعر بتراركا ، حتى لقد تصور الشاعر أنه مبعوث من العناية جاء ليحقق تلك الآمال الجليلة التى تجيش فى نفسه نحو بلاده فيرد إليها الحرية ، ويرد إليها النظام ، ويعود زعيم المسيحية إلى مدينته ، وتحيا الإمبراطورية الرومانية ، كما كانت وليدة ، إرادة الشعب الايطالى ، وتصير روما بفضل ذلك سيدة العالم !

هكذا شعر الشاعر العظيم حين رأى نائب الشعب يتكلم ، وهكذا عقدت بينهما أواصر صداقة متينة .

وجد هذا الخطيب الجمهورى أذناً صاغية لدى البابا نفسه ؛ فقد تحدث إليه شارحاً ما فيه الشعب الرومانى من بؤس وضيق ، وما عليه النبلاء من صلف

وظلم . وكان البابا رجلاً مثقفاً عالياً بأصول الخطابة ، فقد كان أستاذاً لآل راسات الدينية في جامعة باريس ، وكان مستشاراً لدى فيليب دي فالوا ، فسرّ من الفتى الروماني الذي يعرف فنون القول ، على أن أحد أمراء الكنيسة ، وهو الكردينال جيوفاني كولونا ، كان حاضراً ، فلم يعجبه ما قاله الخطيب الشعبي في حق بني عمومته من أشرف روما ، فعرف كيف يباعد بين كولا وبين البابا ، وعرف كيف يغضب عليه البابا ، فمنعه من دخول القصر . وعاش كولا بعض الوقت في تلك المدينة وقد هجره زملاؤه وتجاهاه الناس ، فكان يقف كما يقول « في الشمس مثل الكلاب » وكان رجال الكنيسة يقاطعونه ، وقد أضرب به الجوع حتى كاد يسأل الناس .

على أن بتاركا ما علم بما وصل إليه الصديق حتى أخذ يسعى ويسعى ؛ لينزل ما بنفس الكردينال منه ، حتى رضى عنه هذا السيد ، وتوسط له لدى البابا ، فعينه البابا عضواً في المجلس البلدي بروما ، وحمله رسالة يثني فيها البابا عليه وعلى إخلاصه وعلمه ، وحماه من الأشراف الذين كانوا يريدون مؤاخذته على ما فاد به عنهم .

كن مركز الزعيم يقوى لدى الشعب على مر الزمن ، وكان أعداؤه من الأشراف يزدادون . ففي ذات يوم من شهر إبريل سنة ١٣٤٤ كان المجلس ينظر في أمر من الأمور ، فإذا الخطيب يقف فجأة ، وقفة شيشرون في الماضي عندما أخذ في اتهام كاتينا ، وإذا هو ياتي خطاباً يحمل فيه على القضاة والحكام والأشراف ويقول : « لستم وطنيين . أتم لا تبغون الخير بل تعملون للشر . إنكم تسفكون دماء الشعب ، وفي كل شارع وفي كل بيت تلجأون إلى النهب والعنف ، ترفضون كل نظام ، تدنسون كل مقدس ، تغتصبون الحقوق ، وتدعون الامتيازات ، وتتهربون من القوانين . . . »

سكت الأعضاء ، وقد أدهشهم هذه الجرأة ، لكن أحد أفراد أسرة كولونا الشريفة ، قام في التوقصد إليه ولم يكلمه بل صفعه !

بعد هذا الحادث عدل الخطيب عن طريقته واتخذ طريقاً آخر ، فكان ياجأ إلى التاميح بدل التصريح ، وكان يفضل الإشارة ، فيعلق صوراً في أمكنة ظاهرة من روما ترمز إلى مجد روما وعزها الماضي وذلها الحاضر .

وفي ذات يوم عثر على لوحة أثرية كتب عليها قانون ملكي ، فيه أمر من مجلس

الشيوخ الروماني بمنح الإمبراطور فسبزيانو سلطة الإمبراطورية ، فجمع أعضاء المجلس وحاضرهم في هذا الأمر ، مظهراً ما كان لمجلس الشيوخ من عظمة ، وكيف كان ساطانه أقوى من سلطان الإمبراطور نفسه ؛ إذ كان منه يستمد الإمبراطور السلطة .

ثم عدل ريتزي عن سياسته في الحملة على الأشراف فصار يخالطهم وصاروا يدعونه إلى دورهم ، وأقلع عن تحديهم علناً . وكانوا يعتدون بأنفسهم ، فلا يظنون أن أحداً يجرؤ على مناوأتهم . وزادت الخلطة بينه وبينهم ؛ ففي ذات مرة كان مدعواً إلى دار أسرة كولونا ، وقال له أحدهم مازحاً : « إنا لنمائك إذ نرى أوداجك قد انتفخت ، وقد تعتبر دوقاً إن لم تكن إمبراطوراً . » فأجابه ريتزي : « سأكون بلا ريب إمبراطوراً ، والويل عندئذ لكم ! » وحينئذ دعاه الحاضرون إلى أن يلتقي عليهم بعض القول صائحين : « ألق موعظة من موعظتك » ورفعوه فوق مائدة . فأخذ يخطبهم مؤنباً طاعناً فيهم وفي أعمالهم ؛ وكلما زاد في التأنيب ازدادوا ضحكاً !

مع كل هذا ، وفي غفلة من هؤلاء الأشراف كان ريتزي يدبر أموره ، ويعد العدة لعهد أمن وإصلاح في روما ، فكان يجمع الأنصار وينظم الرجال من بين قوم يريدون لبلدهم خيراً .

وفي ١٩ مايو سنة ١٣٤٧ ، وكان زعيم أسرة كولونا أقوى الأسر الشريفة خارج روما مع رجاله ، جمع الزعيم الشعبي أنصاره قبيل الفجر ، وكان قد أخذ في الصلاة منذ منتصف الليل ، وخرج إليهم من الكنيسة ، وقد لبس الدرع إلا أنه كان عاري الرأس ، وكان إلى جانبه مندوب البابا الذي انضم إليه ، وتبعه أنصاره في حفل حاشد ، وعلى رأسه تخفق ثلاثة ألوية ترمز إلى روما والبابوية ، وسار في موكب إلى قصر الحكم حيث خطب الناس خطبة عظيمة ، ثم قرأ أحد أعوانه النظام الجديد الصالح الذي يراد به الخير ، والذي يكون فيه السلطان للشعب لا للأشراف ، حيث يؤخذ المذهب بجزيرته دون نظره إلى مركزه الاجتماعي ، ويسود الأمن وتسود الطمأنينة .

وصاحت الحشود تضع السلطة في يد الزعيم ، وله أن يختار من الألقاب ما يشاء ، فليكن طاغية ، دكتاتوراً في سبيل الإصلاح ، فليكن دوقاً ، دوتشي ، أو ما شاء . ولكن الزعيم يقنع بلقب روماني معروف هو « زعيم

الشعب « ليحمل لواء الحرية والعدل في الجمهورية الرومانية المقدسة . هكذا تم هذا الانقلاب من غير أن يسفك دم . وأخذ رينزي يعمل في الحال على تنظيم المدينة وحفظ الأمن . وترامت أنباء هذا الانقلاب إلى الخارج ، وأرسل رينزي الرسل ، والرسائل ليعلم من لم يعلم من الأمراء بهذا الانقلاب . ولم تكن يداه خاليتين من العمل داخل روما نفسها ، فمن البديهي ألا يرضى الأشراف عن هذا النظام . وكان ستفانو كولونا زعيم الأسرة أول من غضب حين ترامت إليه الأنباء وهو في رحلته ، فعاد في التو إلى روما ليطرد الدعي في رأيه . وكان ستفانو حديدًا شارب التسعين من عمره ، ومع ذلك يمتطي جواده بلا مساعد ، وله من الأولاد والحفدة عدد كبير ، ألقوا السلاح ورضعوا من دماء أسرة أورسيني خصومهم منذ نعومة أظفارهم . وقد مرت بستفانو أحداث كثيرة في عمره الطويل ، فهل يهتم بجنون هذا المهرج !

عاد ستفانو قاصداً روما ، فما أشرف عليها حتى جاءه رسول الزعيم يعلنه بالعودة من حيث أتى ، فكان جوابه في بساطة : « قل لهذا المجنون إنى إن غضبت عليه بعض الغضب ، فسألقيه من نافذة القصر » . وسمع الزعيم بهذا التهديد ففرع أجراس المدينة ، وإذا الشعب يحتشد في جوع هائلة ، وإذا ستفانو يضطر أن يتراجع أمام المجنون المهرج ويعود أدراجه .

أصدر الزعيم بعد ذلك أمراً إلى جميع الأشراف أن يلزموا ضياعهم وقصورهم واحتل رجاله الجسور والمواقع المحصنة ، ودمر ما أقامه الأشراف من متاريس وحصون داخل المدينة ، وقبض على رؤساء العصابات الإجرامية في روما وفيما حولها من بلاد ، وطلب إلى الأشراف أن يوافقوه إلى مقر الحكم حيث دعاهم إلى أن يقسموا بأن يخضعوا لقوانين الدولة ، ثم دعا من بعدهم القضاة ثم المحامين ثم التجار ليقسموا يمين الإخلاص . وأقام محكمة العدل ، لتفصل في الخصومات ، وللمعاقبة المجرمين ، فاستتب الأمن في روما وفيما حولها من البلاد . وكان الزعيم يعمل ليلاً ونهاراً للنظر في أمور الدولة وفي مخاطبة الدول والأمراء ، وهو على كتّابه رسائل بليغة يشرح فيها أغراضه ومراميه لخير روما وإيطاليا شرحاً وافياً ، فهو يطلعهم على ما حققه لروما من سعادة ، وهو يرجوهم أن يرسلوا إليه مندوبين وخبراء للجمعية الكبيرة التي تحقق إقامة الدولة الصالحة ، وتعمل في روما على عقد معاهدة تحالف عام لتحرير البلاد الإيطالية

حامة من استعباد الأجنبي ، وكانت هذه الآمال التي كانت تجيش في صدره تجيش في صدر كل إيطالي . ولئن كان من العجيب أن تجد هذه الآمال من يدعو إليها ويعمل على تحقيقها في زمن انقسمت فيه المدن والإمارات الإيطالية وتفرقت شيعاً ، وكان يحارب بعضها بعضاً ، مستعينين بالقواد والجيوش الأجنبية . وكان بعض الأراضي الإيطالية تابعاً لملك فرنسا ، وبعضها تابعاً لملك أسبانيا ، وبعضها تابعاً للإمبراطور الألماني ، فليس عجيباً أن تهز هذه الدعوة القلوب وأن يجد كولا دي رينزي شاعراً عظيماً ومفكراً جليلاً مثل بتراركا يقول : « أكرموا أيها المواطنون هذا الرجل . أكرموه فهو يكاد يكون رسول العناية ، ونعمة نادرة من نعم الله ، وابدلوا حياتكم في سبيل سلامته . »

كان الأشراف يترصبون به السوء ، وكان الزعيم الشعبي وقد زادت سلطته يتحداهم . وقد أتى في سبيل ذلك بأعمال تؤخذ عليه ، وتدل على القسوة ، وإن كانت ليست بالمستغربة في عصره . فمن ذلك أن أحد الأشراف لزم قصره ولم يأت ليقسم يمين الإخلاص للدولة الصالحة ، لعجزه عن ذلك ، فقد كان مريضاً بداء عضال لا يقوى معه على الحراك ، فأمر الزعيم بأن يقتل لعدم طاعته ، حتى يكون عبرة لغيره من الأشراف .

وفي ذات يوم دعا ثلاثة من أكبر رجال أسرة أورسيني ، واثنين من أسرة كولونا من بينهم ستفانو زعيم الأسرة ، وتحدث إليهم في أمر دولته ، فغلظوا له القول ، فأمر باعتقالهم على أنهم خونة للدولة وعزم على قتلهم ، وأرسل إليهم قسّاً ليعترفوا له اعترافهم الأخير ، وتجمع أهل روما ليروا مشهد الفتك بهؤلاء الأشراف . ولكن الزعيم الشعبي أخذته الرأفة في اللحظة الأخيرة ، فاندفع يخطب الجمهور في أمرهم ويلومهم على كراهيتهم للنظام الذي أقامه وتدابيرهم في الخفاء للقضاء على الدولة ، ثم أعلن الصفح عنهم ، وعينهم قواداً لحماية دولته .

مثل هذا العفو لم يكن إلا ليزيد حفيظتهم وكراهيتهم للزعيم ، فالتحدث كلمتهم على مقاومته والسعى للقضاء عليه .

بدءوا يقاومونه فعلاً بأن التجئوا إلى ضياعهم ومدنهم الحصينة حول روما وعملوا على منع الأقوات من أن تصل إلى المدينة ، فأخذ القوت يقل فيها ، وعجز حامة الناس عن الحصول عليه ، وأخذ رينزي يعمل على مقاومة من أعلن العصيان

الماضي القريب والماضي البعيد

منهم علانية ، وينظم الجنود من أبناء روما لقتالهم . ومن الطبيعي أن يمر على الناس بسبب الضيق نوع من عدم الثقة في الدولة الصالحة . وشعر ريتزي بالعسر المالي حين اضطر إلى تجنيد الجنود من أهل روما ، ففرض ضريبة على المملح ضاق بها العامة ، فلم تعد عبارات الزعيم تؤثر فيهم ، ذلك الزعيم الذي كان مثلهم فقيراً معدماً ، وهو الآن ينافس الأشراف في ثرائهم ويظهر لهم كل يوم في ثياب الحرير المزركشة بالقصب أو في دروع مزخرفة بالذهب .

يقال لهم إنهم يقاتلون من أجل الوطن ، ولكنهم لا يرون في تلك الحروب المتصلة مع الأشراف قتالاً من أجل الوطن . وللأشراف بعد فضائلهم ، فهم إذا ظلموا العامة فإنهم يعرفون في احتفالاتهم كيف يرضونهم ، وكيف يوزعون عليهم في سخاء ما سرقوه ونهبوه منهم . وزعيم الشعب لا يعرف هذا الفن في حفلاته ، وهو أجدر في هذه الحفلات أن يسمى زعيم الكلام .

استغل خصوم ريتزي هذا الانقلاب في عقلية الجمهور كما استغلوا خلافاً من نوع آخر أشد خطراً في ذلك العصر ، فمن الطبيعي أن يحدث بين الزعيم القوي صاحب السلطان وبين نائب البابا خلاف على السلطة ، ومن الطبيعي أن ينقل نائب البابا هذا الخلاف إلى المجال الديني ، ففي تصرفات ريتزي وبطشه بخصومه ما لا يتفق مع سياسة الكنيسة ، وفي أفعال ريتزي في احتفالاته التي كانت مزيجاً من الاحتفالات الدينية والرومانية القديمة ما لا يتفق مع الكنيسة ، وفي الآراء التي كان يفوه بها ما لا يتفق مع الكنيسة ، وقد أدى ذلك كله إلى أن وقعت الكنيسة عليه عقوبة الحرمان ، فانقض الناس من حوله ، فنزل عن سلطانه لنائب البابا ، وفر من المدينة .

في شهر يولييه من سنة ١٣٥٠ وصل إلى مدينة براغ رجل في ثياب راهب ، وقصد إلى قصر لودفيج ملك هنجاريا ، وطلب مقابلته في أمر خاص ، فوافق الملك على مقابلة الراهب المجهول . فلما مثل الغريب بين يديه تحدث إليه عن راهب يعيش في مونتشالو اسمه الأب أنجيولا ، وقال : « لقد اختار سفيرين أرسل أحدهما إلى البابا في أفنيون ، وأرسل الثاني إليك أيها الإمبراطور . » فنظر إليه الملك الهنجاري بعينه الواسعتين وقال له : « إذن تكلم . » فتكلم الغريب طويلاً ، فذكر أن العالم يدخل في طور جديد تكون فيه سعادة

ويكون فيه رخاء ، وتكون فيه عزة للأُم المسيحية . وعرف الملك من الحديث بعض آراء صاحبه فقال : « إني لا أكاد أعرف من أنت » . فقال الغريب : « من تظنني أكون ؟ » قال الملك : « أظن أنك الزعيم الشعبي لروما . » فقال رينزي : « أجل ! إني كولا الذي كان من فضل الله عليه أن حكم في سلم وفي عدل وفي حرية ، مدينة روما . »

وتحدث كولا إلى الملك طويلا عن روما ومجدها القديم وما يريده لها من مجد حديث ، وعن الكنيسة وما ينتظر لها من رفعة في ظل راع جديد يتوج الملك ، فيجعله إمبراطوراً وسيداً على بلاد الغرب ، ويعيد الزعيم الشعبي إلى روما ، فيمد سلطانها ، ويصير سيداً على الشرق . وكان الملك يسمع هذه الأحلام والآمال في صمت ، ولكنه أرسل كولا دي رينزي إلى أسقف المدينة ، وعلماء الدين كي يباحثهم فيما عزته إليه الكنيسة من أقوال مثيرة اعتبرت خروجاً على تعاليمها .

أقام كولا رينزي فترة من الزمن في براغ يتردد على رجال الدين ، ويمضي أيامه في مناقشتهم ، وقد أدهش علماء تلك البلاد بنحسب تفكيره . وكان لا يعيش عيش التقشف ، بل يتبع الألمان في كثرة أكلهم وشرايهم ، ثم نقله الملك إلى حصن على نهر الألب حيث بقي سجيناً عدة أشهر ، وكان الجو لا يلائمه ، ولم يكن واثقاً من مستقبله ، فكان يمضي الوقت في كتابة الرسائل إلى الملك يرجوه أن يستحث محكمة رجال الدين على النظر في مسأله ، فقرر الملك أن يرسله إلى البابا في أثينيون فنقل إليها محروساً .

مثل رينزي أمام محكمة الكرادلة ، فلم يطلقوا سراحه كما فعلوا منذ زمن قصير بالملكة جيوفانا ملكة نابولي التي خانت زوجها ثم اشتركت مع عشيقها في قتله ، بل قضوا بسجنه ، فوضع في قلعة من أحصن قلاع القصر مكبلاً بالأغلال ، وكان الغل مثبتاً في جدار الغرفة .

ثم حدث في هذه الأثناء أن توفي البابا القائم ، ووقع الاختيار على أسقف أوستيا ، فتولى عرش البابوية تحت اسم أنوسنزو السادس ، فعفا عن كولا وباركه وعينه مساعداً للكردينال البورفوزو الذي عهد إليه بتهدئة إيطاليا وإعادة حقوق الكنيسة في روما .

سافر رينزي إلى بروچيا وأقام فيها بعض الوقت إلى أن تمكن من مقابلة

الكردينال البورفوزو ، وفي حديثه الخلاب طاب إليه أن يعينه قنصلا على روما ، وهو يعرف كيف يعيد إلى الكنيسة حقوقها ، ويعيد الأمن إلى تلك المدينة ، فأجابه الكردينال إلى طلبه ، وعينه قنصلا على روما .

عاد إلى روما في كوكبة من الرجال ، فقابله أهل المدينة كما يقابل الفاتح وزينت الشوارع والجسور وارتفعت أصوات الهتاف والتهليل إلى عنان السماء . فلقد عرف أهل روما فضله بعد ذهابه ، وذاقوا عذاب الفوضى والظلم . وقبض ريتزى على زمام الحكم بقوة وعزم ، وأخذ يصرف الأمور بميزانه الذي لم يكن عدلا كله ، ولكنه في ذلك العصر كان يعد ميزان العدل . وعاد الزعيم إلى كتابة رسائله وإرسالها إلى الملوك والأمراء كعادته يشرح فيها آماله من أجل روما وإيطاليا ، وما يرجوه لها من رفعة ومجد ، ويستحثهم على مؤازرته في مقصده . وحاول ريتزى أن يخضع الأشراف للنظام والقانون ، فلم يستجيبوا له ، بل كانوا في هذه المرة أشد عدااء له ، وأكثر اتحاداً على مقاومته ، فعزم على كسر شوكتهم والقضاء عليهم وفي طليعتهم أسرة كولونا

اشتد ريتزى على الأشراف ، وأخذ يقاتل الذين تحصنوا منهم في حصونهم ، ويهاجم حصون آل كولونا وقراهم ، وسقط في يديه بعض الأشراف من أسرة كولونا فراحهم ، بل نكل بهم تنكيلا ، متهماً إياهم بالسرقة والنهب والعدوان . وكان من بين قواد الجيوش المرتزقة قائد كبير جمع ثروة كبيرة من الاعتداءات ومن تأجير عصاباته للأمراء ، وقد استعان ريتزى بأخويه على قتال الأشراف فطالبوا بزيادة أجرهما فلم يلب ريتزى طلبهما ، فدخل أخوها ضواحي روما غازياً ، وكان ريتزى يحاصر حصاراً شديداً مدينة باسترينا معتقل آل كولونا ، فرفع الحصار . فأرسل القائد إلى ريتزى رسولا يطالب المصالحة على أن يدفع مبالغاً من المال ، فرضى ريتزى وأمنه على نفسه ودعاه لمقابلاته ، فما جاء إليه حتى أمر بالقبض عليه وحوكم على أنه قاتل ، وقاطع طرق ، وناهب ، فحكم عليه بالموت وقتل على مشهد جمهور كبير من أهل روما ، وصودرت أمواله جميعاً ، فذهب بعضها إلى ريتزى ، وذهب بعضها إلى نائب البابا ، وبعضها ذهب إلى خزانة البابا نفسه .

ثم فترت حماسة الجمهور الروماني المتقلب ، وأخذوا يرمون الزعيم بالظلم والقسوة ، فقاتلته الأشراف ليست إلا العمل للقضاء على أبناء روما ، وقتله

قائد الجيوش المأجورة ايس إلا الطمع فى أمواله . وبدلاً من أن يجد الرومانيون فى قتل هذا القائد القضاء على عامل من عوامل الفساد فى الحياة الإيطالية ، فإنهم تأثروا لموته ، وعدّوه شهيداً أو كاشهيد . ووجدوا أسباباً أخرى لاستيائهم ؛ فقد زاد رينزى ضريبة الملح كى يتمكن من مقابلة النفقات المتزايدة لجنوده من أبناء روما ؛ فإن هؤلاء أصبحوا لا يقبلون الأجور الزهيدة على اعتبار أنهم إنما يعملون لخير وطنهم ، بل طالبوا بأن تكون أجورهم مثل أجور الأجانب الذين يعملون فى خدمة الأشراف . ألم يتغلبوا على الأجانب أكثر من مرة ؟ فلم ينقدون أجوراً أقل منهم ؟

تجمعت الأشياء كما تتجمع سحب الشتاء ، وشعر رينزى بهبوب العاصفة وأخذ الأشراف يستعدون للموقف النصل ، وفى ذات يوم سمع رينزى فى قصر الحكم صيحة معروفة فى روما : « أيها الشعب ! أيها الشعب ! » وهى صيحة أسرة كولونا المعروفة فى الحروب وإلى جانبها صيحة خطيرة ترتفع من أنفاه الجماهير : « ليمت الخائن الذى فرض الضرائب » وكانت الجماهير تهاجم القصر . وقف الزعيم حائراً ، وفكر فى أن يرتدى درعه ، وأن يخرج مرة أخرى إلى الجمهور ، ويسلط عليهم سحر بيانه ، فارتدى الدرع وخرج إلى الشرفة ، ولكنه قوبل بالحجارة والنبال فارتد إلى الداخل ، وخلع درعه فى سرعة ؛ ولبس ثياباً حقيرة ، وعمد إلى أغطية السرير وربطها وتدلى إلى الشارع من خاف القصر ، وكان الجمهور بقيادة الأشراف يشعل النار فى الأبواب الخارجية للقصر ، فما اجتازها حتى وجد أمامه الأبواب الداخلية ، فأخذ يشعل النار فيها .

سار الزعيم فى طريقه ، وتمكن من اختراق النطاق الأول من الحراس الذى ضربه الثائرون حول القصر ، فما وصل إلى النطاق الثانى حتى عرفه بعض الحراس فقبضوا عليه ، وتصايحوا بأنهم قبضوا على الخائن وعاجلته الطعنات من كل جانب ، نخر صريعاً فى أيدي الجمهور ، وجره أتباع آل كولونا إلى قصرهم فى روما حيث بقيت جثة الزعيم معلقة بضعة أيام إلى أن أمر أعداؤه بدفنه .

وهكذا حدثت مأساة الماضى القريب ، فى ذلك الماضى البعيد ، رينزى الذى وصفه أحد المؤرخين فقال إنه كشهاب لامع فى سماء روما ، أضاء فترة ثم انطفأ ، فأعقب ظلاماً .

رياضة الجبل

كل رياضة لا ينمو بها الجسم والعقل وأُخلق جميعاً تفقد ركناً من أركان القوة التي يجب أن تتوافر في الرجل السليم . فإن اشتد ساعده وهانت بصيرته فما هو بسليم ، وإن نما عضده وعقله وسقطت همته فما هو بسليم ، وإن كبر عقله وتضاءل عزمه وجسمه فما هو بسليم ولقد حسب الذين أصابهم الكبر قبل أن يبلغوا أجله أن الرياضة لعب ولهو ، وأن الحياة وقار ، وأن الوقار جمود ، وحملوا بنهم وبناتهم على أن يتخلقوا في ربيع الشباب بخلق الشيوخ . . . ثم سئموا بعدها تكاليف الحياة واستذلهم العجز والحمول فلا ينهضون لخير ، وهرمت أم مختارة ، واستمتع غيرها بالشباب والقوة والنهوض والعزم . . .

ولقد سألت نفسي في مطالع الجبل سؤالاً أبدياً فيه ثم أعيد ، عسى أن أجد وجه الصواب فيه لا ظالماً ولا مظلوماً . . . كيف يبصر وجه الحياة من شب مكتوفاً في منازل العسر والجهل ، وإن أبصر وجه الحق ضاقت حيلته ، ولا يسمع مرشداً يحبّه ولا هادياً يهديه . والإنسان معدن قد يغفل فيتراكم عليه التراب وقد يقدد السيف فيكون حياً صارماً . . . وكيف يبصر جانب الحق شباب لا يسأل نفسه عن شيء ولا يسأله سائل عن شيء ، فركب من الحياة مركباً هيناً ، ونعم بنعمة الظل في مطلع الربيع ، فذابت زهرته التي لا تستقبل حرّ الشمس ؟ . . . إن الإنسان فقير أبد الدهر إلى النور . . . فإن لم يأت نور من علم أو معرفة أو هداية أو تجربة ، نظر بعينه فلا يبصر ، وأصغى بأذنيه فلا يسمع . . . وكان حقاً على القوى أن يضىء ظلام الضعيف ، وعلى العارف أن يهدي سبيل الضال . « فمثل رجل رأى ضالاً فهداه الطريق كمثل الذي يضىء للناس من مصباحه فيعيش الناس في ضياء ، ولا يمنع ذلك مصباحه من أن يضىء » .

ومن أولى بنشر ذلك النور ممن تولى قيادة الإنسان ، ومن أمسك بيديه مصير الإنسان ، أى الذين نهضوا لحكومته . فإن نسي هؤلاء أنهم أئمة السعادة والنور ، وذكر هؤلاء أنهم مساطون أشداء ، تردى من يحكمون فى ظلمات الحياة ، وكان جزاؤهم أن يكرهوا مثلاً يكرهه التسلط الغاشم الظالم .

ومن أولى بنشر ذلك النور من عالم يحب الإنسان وسعادة الإنسان . فإن أمسك عليه علمه كان مصيره كالشجرة التى يسقط ثمرها فلا يحيا به الناس

وخير ما يُنعم به الحاكمون فى أمة على شبابها وما ينعمون به على نفوسهم من جميل — سفينة فى البحر تحمل تجارة الأمة وتحمل شباب الأمة إلى كشف حجاب الطبيعة ، فيعلمون ما يعجز عن كشفه كل كتاب ، ويقرءون ما يقصر عن بيانه كل معلم . فكل معرفة لاتأتى من صحف الطبيعة صدى ليس من ورائه حياة . وكثير منها غرور وظن . ولا يزيدهم ذلك إلا تعطشاً للدار التى شبوا فيها وحنيناً للأرض التى ولدوا فيها . فإن جاءوا ديارهم بعد هذا جاءوها بعلم وقوة ، ومنعوها وأعزوها بعلم وقوة ، ولا يسأمون تكاليف الحياة والشباب . وكيف يسأم تكاليف الشباب من انغمس مرة فى أثر السماء ، ومن كشفت قدماء الصخور التى تتفجر منها البحيرات والأنهار ، ومن ملأ عينيه بالبساتين التى لا تحصى والتى تتوج رؤوس الموج فى البحار ، ومن نام فى أحضان الأرض التى ولدت كل شئ وسار فى موكب الشمس التى تبصر كل شئ ونمى عقله وعزمه وساعده .

مما أنعم الله به على الإنسان نعمتان نعمة النسيان والفكر ، فكيف يخرج الفكر من النسيان أوتار فى النفس تهتز من صفو ومن صدى ومن نعيم ومن شجى ، وترسل الزهرة الناعمة وجهاً محبوباً وسعداً ، ويوقظ الطير الوديع بدعائه وندائه أوتار السباحة والرضا ، وتطاول هذه الأوتار ما تسمع من خير الحياة الدافقة التى تهبط عند رمى العين من شاهق ، والتى تتلوى تحت قدميك فى ضمير المراعى ، والتى تتراعى ضافية حية ، فإن اعترضها صخر دفعته فإن ثبت لها الصخر جرت من حوله عن يمين ويسار وحينئذ يستوى الفكر والنسيان كما تستوى نعمة الفكر والنسيان إن ثملت الأوتار بالنعم العذب . وما تزال تتراوح هذه الأوتار من صدى إلى صدى حتى يغلبك الطرب على جمود الوقار ، وتغنى كما يتغنى من بين يديك كل شئ .

وفي ضحى الشمس نسيم تهتز في آثاره أعطاف الأشجار ، وأديم السماء صاف أزرق لا تختلط به الغيوم ، وفي وضوح النهار بياض مصفى لا تشوبه شائبة ، وسكون وسلام وأمن . . . تقودك عصاك الطيعة من ظل الشجر إلى حر الشمس فوق الصخور التي يتبدل حولها ماء السحاب جليداً ، والتي لا تبصر مكنونها العين ، والتي خلقت مهبطاً للنور . وترى عند أقصى لفتاتك لوناً لا يكاد يستقر تحت الأبصار حتى يتبدل تحت طيف الشمس شيئاً آخر ، وترسل الشمس ضوءها الوهاج في قمم الصخور الباسقة في كبد السماء ، وفي أودية الثلج الأبيض الممتد بين هذه الصخور والقمم ، وتشيع الشمس صفاء لا تدركه الأبصار وسلاماً لا يبلغه السمع ، ويخرج من ثدى هذه الطبيعة كل شيء حى ، وتنسيك الطبيعة كل شيء فلا تدرك خطو الزمان الذي يترك خطوه في بعض الأرض الفناء . . . والهرم . . . ليس في قلب هذه الطبيعة هرم ولا فناء ؛ إنما ترسل هذه الطبيعة الفتوة وتثير هذه الطبيعة السعادة الكاملة التي توحى إلى النفس الخلود . فوق هذه الصخرة التي تشرف على قطع من الجليد ، والتي يبلل جوانبها ماسال من قطع الجليد العليا إر مدبية من رءوس الجبل عاتية مظلمة جرداء تعترض ضباب السحاب ، وتعترض ما وراءها من سلاسل جبال تعلو وتنحدر كأنها رءوس الموج في بحر عاصف ، وتتلون هذه السلاسل بألوان قائمة إذا حجب عنها ضياء الشمس . وإذا جلتها الشمس كشفت عما في باطنها من مرعى أخضر تنفذ في بساطه الأخضر القاتم كتل عارية من صخور حمراء ، حتى تلقى عند مدى العين ساسلة كلون السحاب بيضاء قد كسا رءوسها الجليد الذي تمزقه صخور سود . ويعترض مدى العين جانب شاهق يُسلم العين إلى صفحة السماء التي جرى فوق لونها المخضر الأزرق خطوط بيض وقطع من سحاب أبيض لا تستقر في قرار وإنما تمر مترفقة كأنها على سفر ، ثم تهبط العين من شاهق السحاب إلى باطن الوادى في هاوية تخضر جنباتها ثم تكون صخوراً مجرداً . واتخذت مياه القمم سبيلها من كل منزل واطىء إلى باطن ذلك الوادى . . . ولا تسمع في رأس هذا الجبل سوى صوت مساقط الماء وهي تدوى في جوف الصمت دويًا يبدد عنفه فضاء الوادى . . .

وليس أعجب في هذا الجبل من فعل الماء . . . فهو كأنما يريد أن يغيث الناس من كل سبيل . . . فهو منبعث منطلق من شقوق الصخر ومن جيوب

الجبل . وإذا تجمع تدفق فأكل باطن الصخر ، وهوى من صخر إلى صخر وبتون الصخر الأحمر والأبيض والأسود ملساء ناعمة لا تغير من بياض السيل شيئاً ، فهو صاف لا يخفى ما في باطنه من شيء . وإذا لقي في مجراه جندلاً من جلاميد الصخر نفر فتناثر فوق رأسه بياض شاهق من فوقه رذاذ . فإن سد طريقه الجبل أكل ما استطاع من الأرض التي يستند عليها الجبل فيسقط مجرى السيل من رأس صخر سقط مما أكل السيل ، إلى رأس صخر هوى إلى ما انحدر من السيل . . . فهي مساقط بعضها فوق بعض في أعماق تتزايد كلما ضاقت جوانب الجبل . وكلما تجمع مجرى السيل في هذه المضائق العميقة انبعشت منه قوة لا يقف في سبيلها شيء . . . ويتجمع في مجراه الضيق كتل من صخر موحش استقبلت سبيل الماء ولم تتجرد من طبيعتها الأولى ، فهي تحمل فوق رأسها شجراً حياً هبط معها من جانب الجبل ، وكلاً أخضر ما يزال مزهراً .

والله يغفر الذنوب جميعاً ، فقد مكثت عشرين يوماً أنظر في ثنايا الجبل إلى رءوس الجليد ومساقط الماء ، وأصغى إلى نفسي وإلى ما تجده من نعيم في كبد الصمت ، وإلى ما يملؤها من فيح النسيم . ومضيت جامداً لا ألوى على هذه الزهور التي تناثرت في المرعى الأخضر وعاشت في عروق الصخر الجامد . . . حتى قالت لي فتاة ذات صباح : « اجمع لي من زهر الجبل . . . » فأى نعيم في هذه الحياة ينزل بنفوس الأحياء أنعم من هذه الساعة حين لا يبقى للنفس من شاغل سوى جمع الورد وتتبع الرياحان والزهر . . . وتلفت إلى هذا اللون الندي الأزرق الذي كسا رأس الزهر وتمايل في ظلال الجبل مع النسيم . وتتلون الزهرات بحلى دقّ عن كل وصف . . .

ثم يحجب الصخر سحراً وعاماً لا يبلغه سوى القوى الفتى . وإن من الصخور لصخوراً يأخذ بالألباب ويدعو بدعاء جُزر الموسيقى التي دعت في الأساطير كل عابر : أيها العابر الغريب ، من أتنا طرب بما لم يطرب به أحد ورددناه إلى أهله بعلم . ومن جاءها هلك . ولا ينجو من التهلكة إلا من سد سمعه عن دعائها . وكذلك تدعو بعض الصخور : أيها العابر الغريب إنك لم تبلغ ضمير فتنتي وسجري ، فمن أتنا طرب بصمت وسلام لم يبلغه سمع ، ورددته إلى قومه بعلم ، ورأى ليلاً لم يشهده أحد ، وشهد مطلع الشمس بسحر لا يعلمه أحد . ودون هذه الصخور كتل وأودية من جليد .

واتخذ فتية الجبل مغنا من قيادة الرياضيين إلى تسلق هذه الصخور .
وامتازت الرياضة في الجبل بالصبر والتمهل والتعقل . . . والطريق البعيد خير
دائماً من الطريق القريب . . . وأثقلت أحذية الرياضيين بقطع من الحديد تثبت في
الصخر وتقي من الزلزل وتعصم من خفة الأحلام . وحمل الرياضيون طعامهم
وبعض ما يحتاجون إليه في حقائب يشدون بها إلى ظهورهم ، وفي أيديهم عصي
تثبت في الأرض بطوق من حديد مدبب ، ولها مقابض كهيأة الفأس أعدت
لترفع ما عسى أن يعترض الطريق من ثلج ، وليحفروا بها موضعاً لأقدامهم في
الصخر الأملس والجبل القائم . . . ويقضون النهار في مثاني مصعدة فوق
الصخر الجامد والعشب اللين ، ويجتازون منازل السيل ثم يقضون الليل في
أكواخ عند أقدام أودية الجليد ، ليبرحوها قبيل الفجر وراء الدليل إلى رأس
الجبل ، وليشهدوا مطلع النهار والشمس .

ومن لم يأخذ لهذه الرياضة أهبتها ، ولم يتروذ لها بالآناة والحكمة قد تزل به
قدم إلى فج سحيق . . . وقد اخترت العزلة في مطالع الجبل على تتبع الدليل ،
ومشيت وحدي وسط النهار في مثاني معامة بخطى الداهيين ، ولم أزد أن يكون
لي صاحب يشغلني بحديثه عما أرى وما أسمع ، فقد حرصت على أن أنقض عن قاي
في صفو السكون ما عسى أن يكون قد اكتسب من ملالة بالناس في حياة
المدن . وكما استقبلت بقلبي ما لم أكن أعلم من جمال وصحو أوت إليه الحياة
والبشر والربيع والشباب ، وقرأت في صفحة الطبيعة حكمة خفيت من قبل على
قاي ، وهي أن السعادة أقرب إلى الإنسان من جبل الوريد ، وأن الله قد ألزمها
عنق الحياة حين قدر الحياة للناس ، فنسيها الإنسان ونظر إلى حيث لا يشهد إلا
الشقاء يوم استمسك بأهداب الطمع الذي أذل أعناق الرجال ، وبالمال الذي شئت
الحبيبين . فمن استطاع أن يستقبل بملء جفنيه متهللاً مستبشراً ثياب الفجر الوردية
ويستقبل وجه الشمس بقباب سليم ، ويشرق قلبه كما يشرق الطير المغرد في الصبح
والزهر المتفتح في مطلع النهار ، ومن استطاع أن يعيش في الأرض تحت حر
الشمس ، فيرى عند قدمه ظله حياً مشرقاً إذا فلح الأرض أو غرس الزهر أو مشى
في مناكب الأرض إلى معرفة وخير ، ومن استطاع أن يعمل نهاره فيثمر ما عمل
وينمو عقله وعزمه وساعده نمو الخير ، ومن استطاع أن يطلق نفسه من كل
عقل ، ويحرر قلبه من كل ذل مختار ، ومن استطاع أن يسير في موكب الحياة

ريضة الجبل

والشمس ، وأن يغمس قلبه في أصيل الشمس ، ولا يحدثه الليل ببغيضة أو نقمة
ويحدثه بالخير أبداً ، ومن استطاع أن يجمع ما غرست يمينه من زهور
فيهدئها للتي تحبه والتي لا تريد أن تحبه ، ومن استطاع ألا يفسد صفاء الليل
بطمع وجمال النهار بجشع — من استطاع ذلك فقد كسب نعيم الحياة جميعاً ،
وهو نعيم لم يختص الله به غنياً دون فقير ، ولا كبيراً دون صغير ، بل هو مال
مشاع من سبقت إليه يده فهو له .

على مافظ

النهضة السياسية في أندونيسيا

دراسة تاريخية عن يقظة الشعب الأندونيسى

إن الوضع الجديد الذى اتخذته الشعب الأندونيسى لنفسه فى هذه الحياة ، منذ استسلام الإمبراطورية اليابانية فى شهر أغسطس ١٩٤٥ للقوات الحليفة ، قد أثار الرأى العام العالمى وأعجبه ! لأن علمه بحقائق الحياة الحديثة فى أندونيسيا لا يودى إلى إشباع رغبة النفس فى التطلع إلى طبيعة النفس الأندونيسية التى اصطبغت بصبغة الحرية ، وتقمصت روح الاستقلال . ولو أراد الباحث أن يستقصى الأسس التى تركزت عليها الجمهورية الحديثة فى أندونيسيا لما استطاع أن يدركها ؛ لأن السياسة الاستعمارية قد ضيقت الخناق على الحركات الاستقلالية الأندونيسية خشية تسرب أنبائها إلى العالم . ونحن فى هذا البحث ندرس الحياة الأندونيسية الحديثة من الناحية السياسية دراسة تاريخية ؛ ليطلع العالم على القواعد التى بنيت عليها دعائم الجمهورية الأندونيسية منذ ١٧ أغسطس ١٩٤٥ .

منذ انبثق فجر القرن العشرين على أندونيسيا ظهر جيل جديد فيها مشبع بالروح الديموقراطية ، متطلع إلى المثل العليا . وكانت الجامعات والمعاهد العليا الأندونيسية والهولندية تقذف إلى ميدان الحياة الاستقلالية شباب أندونيسيا ، الذين على نشاطهم المتدفق نهضت أندونيسيا فى حياتها الحديثة ، وعلى جهودهم العظيمة استطاعت أن تتمتع بالحرية السياسية التامة فى عام ١٩٤٥ ؛ وفى عام ١٩٠٦ أسس الدكتور وحيدى ناديا للمعلمين انضم فى سلك عضويته طلبة الجامعات والمعاهد العالية ورجال السياسة والأدب والصحافة ، وزمرة ممتازة من أقدر الموظفين الأندونيسيين فى الحكومة الهولندية . وهدفُ النادى نشر الآداب الأندونيسية الرفيعة بين طبقات الشعب ؛ لتستوحى منه الروح السامية التى خلقت شعباً حياً كان له السيادة المطلقة فى المحيط الهادى والهندي فى عهد إمبراطورية سريويجايا ومجافايت الأندونيسيتين منذ القرن الثامن حتى القرن

النهضة السياسية في أندونيسيا

الخامس عشر . وقد أبدى نادى المعلمين نشاطاً ملموساً في توجيه العقول نحو التجديد والابتكار لمسايرة التطور العالمى في شؤونه العامة . وكان الاحتكاك الأدبى بين الجاليات الأوروبية وبين طبقات الشعب الأندونيسى قد أثر تأثيراً كبيراً في حياته الأدبية والسياسية والثقافية ، فأنتج هذا الامتزاج الأدبى وضعاً جديداً في حياة الشبان الأندونيسيين أعضاء نادى المعلمين ، فالتمسوا طرقاً متنوعة لتحقيق المثل العليا لأندونيسيا المستعبدة . وكان خير الطرق وأيسرها قلب النادى إلى هيئة سياسية تسعى إلى تحقيق الاستقلال السياسى لأندونيسيا الكبرى بالطرق العلمية الحديثة . فكفاح الاستعمار لا ينتج مالم تكن وسائله مبنية على الاطلاع التام بحقائق الحياة الغربية الاقتصادية والسياسية . واستعمال العلوم الغربية الحديثة في الكفاح والنضال أس أولى لمقارعة السلاح بالسلاح ، إذ التضلع من العلوم الحديثة سلاح قوى في أيدي الشعوب المستعمرة لاسترداد حريتها .

أصبح نادى المعلمين هيئة سياسية تسمت بأسمى المقاصد ، إشعاراً للزعة الشعب الحديثة ، وتبدليلاً على روحه الجديدة ، ورغبة في تحقيق المثل العليا في وضعه الحديث .

فما هو هذا الاسم الساحر ؟ وما هي تلك المقاصد السامية ؟

هو «الزعة الفاضلة» . الزعة إلى التجديد والابتكار في طرق الحياة : الزعة إلى السمو في العمل وفي مناهج أدائه . وقد قابل الشعب هذه الزعة السامية بعاصفة من الترحيب المشبع بروح الحماسة والمشاعر الملتهبة . ففي يوم ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨ استهل الشعب الأندونيسى حياته الجديدة تحت إرشاد جمعية Boedi Oetomo — الزعة الفاضلة — فافتتحت أعمالها بنشر الروح القومية بين طبقات الشعب ؛ لتهيئة الأفكار لقبول الآراء الحديثة في السياسة وفي الاقتصاد . فكانت عاصفة هوجاء عصفت بمعالم الاستعمار الهولندى ؛ إذ كانت الروح القومية قد اشتعلت والتهبت قبل أن تثير جمعية « بودى أوتومو » النفس الأندونيسية للجهاد في سبيل التحرير السياسى . فطلب الزعماء الأندونيسيون من السلطة الهولندية تعديل النظام السياسى ، وتغيير سياستها الاستعمارية ، بإعطاء الشعب حقه في إدارة وطنه ، واستغلال جهوده في تنمية الإنتاج الصناعى والزراعى . وأسهل طريق لتنفيذ طلب الزعماء إنشاء حكومة أندونيسية

ترتبط بالتاج الهولندي أدبيًا ؛ كيلا تفقد هولندا مكائنها الممتازة ومركزها السياسي والاقتصادي في الشرق الأقصى . واستند الزعماء في أحقية مطالبتهم بالحقوق السياسية لأندونيسيا على غنى الوطن الأندونيسي بالأيدي العاملة والرءوس المفكرة . يدل على ذلك إنتاج الجامعات والمعاهد العالية ، والمدارس الصناعية والتجارية والزراعية العليا من الشبان المثقفين ثقافة عالية ، وانغماسهم في ميادين الأعمال الحرة أو في دوائر الحكومة الهولندية . فالمصانع الهولندية والشركات الأوربية المتحدة ذات المصانع والمعامل زاخرة بالأيدي الأندونيسية العاملة والرءوس المفكرة ، زيادة على المشتغلين بالمحاماة والقضاء والصحافة والسياسة والتجارة والصناعة والزراعة . وقد أنتج هؤلاء أعمالاً سياسية واقتصادية تثبت تضلعهم من مناهج الحياة الحديثة ومسايرة التطور العالمى في السياسة والعلوم والاقتصاد . وإزاء هذه المطالب الأندونيسية واندفاع الروح التحررية في ميدان السياسة لم تجد الحكومة الهولندية بدءاً من مسايرة التيار الأندونيسي وفسح المجال له كيلا تصطدم به ؛ لأنها أدركت أن المشتغلين بالحركات الاستقلالية ممن تثقفوا ثقافة عالية من الجامعات الهولندية والأندونيسية ، ونالوا ألقاباً علمية رفيعة منها يؤازرهم خريجو الجامعات الأمريكية . وهم على اطلاع واسع ومعرفة وثيقة بدقائق السياسة الاستعمارية الغربية وطرق مقاومتها . وقد أنشأ المستر فان دفنتر المحامى الهولندى وأحد الهولنديين الخلقين مقالاً في مجلة « الدليل » الهولندية الصادرة بلاهاى فى شهر مايو ١٩٠٨ حول اليقظة الأندونيسية ، وظهر الجمعية السياسية « بودى أوتومو » تقود الشعب الأندونيسى فى طريق السياسة الشائكة ؛ للوصول إلى تحقيق الأمل القومى للشعب الأندونيسى . وقد جاء فى هذا المقال الكلمات التى اختلجت فى مخيلة هذا الهولندى الذى نظر إلى موقف حكومته إزاء الحركات الاستقلالية الأندونيسية التى بدأت تتطور وتشمل كل الجزائر الأندونيسية ، فحفزته وطنيته إلى تبين الخطة التى تستطيع بها هولندا أن تحتفظ بمركزها الاقتصادى فى أندونيسيا إذا انتهجتها ، وإلا انهارت إمبراطوريتها . انهياراً تاماً !

قال المستر فان دفنتر : « إننا نعجب من يقظة هذه الفتاة الجميلة ! فيجب علينا أن نحذر مستقبلها ؛ فقد تثير علينا روح البغض والكراهية لسيطرتنا عليها ،

فيثير هذا الشعور تياراً يجمت جذور استعمارنا . وليس الوقت الذي نجد فيه أنفسنا غير قادرين على مقاومة الروح القومية للشعب الأندونيسي ببعيد ، فيجب على السلطات الهولندية أن تتيقظ وتستعد للمستقبل ، المستقبل الغامض . إن مستقبلنا في سياستنا الاستعمارية للشعب الأندونيسي يتركز على أساسين . الأول : الضرب بيد من حديد على الحركات التحريرية الأندونيسية للقضاء عليها . والثاني : مسايرة الشعب الأندونيسي في حركاته ، وهي الطبيعة اللازمة لحياة الدول الاستعمارية . فالسير على الأساس الأول غير صحيح ؛ إذ يؤدي بنا إلى الاندحار في ميدان الشرق السياسي والاقتصادي . وأما العمل على الأساس الثاني فهو السياسة الرشيدة ، وهو شرف لنا وتمكين لحياتنا السياسية والاقتصادية . وسوف نجد من الشعب الأندونيسي التعاون المشترك والحب المتبادل . ويجب أن ندرك أننا نحيا على الإنتاج الأندونيسي ، فإذا فقدناه فطريقنا ستؤدي إلى الفناء المحتوم ! »

أنار هذا الرأي الهولندي الحر الدوائر الهولندية في أندونيسيا وهولندا ؛ لأنه كان بمثابة قنبلة ألقيت على النظام الاستعماري الهولندي . وتجاه هذا التحول الفكري في بعض ساسة هولندا اتخذت الحكومة الهولندية خطة قاسية للقضاء على الحركات السياسية الأندونيسية ، فألغت بعض الهيئات العامة والرياضية والأدبية الأندونيسية ؛ لأنها رأت منها اتجاها نحو مناوأة الاستعمار المتمثل في شخصية الهيئة الحاكمة الهولندية . وقد أبدى الشعب الأندونيسي جلدأ وعزماً من هذه الضربة القاسية التي حطمت مؤسساته القومية ، فاستعد لتتابع النضال والدعوة إلى السياسة السلبية تجاه الحكومة الهولندية .

تشير برامج جمعية « بودي أوتومو » إلى العمل بكل الطرق الممكنة لتحرير أندونيسيا من الاستعمار ، وإلى تعميم الثقافة العالية بين طبقات الشعب ، ثم إلى إصلاح الحالة الاقتصادية . وقد سارت الجمعية في تنفيذ هذه البرامج ، فأوجدت قسماً إدارياً عاملاً لوضع السياسة القومية للمطالبة بالاستقلال ، ونشر المعلومات الدقيقة عن مستوى التربية السياسية للشعب ، ولجنة خاصة للدفاع عن حقوق الشعب المغتصبة والدفاع عن أعماله . وأنشأت أيضاً مدارس عالية ومكاتب وأندية للتهذيب العالي ، وأسست أيضاً مصارف ومحلات تجارية ، وساعدت الفلاحين وصغار المزارعين والتجار بإقراضهم الأموال لرفع مستوى أعمالهم .

في عام ١٩١٢ ظهر في المسرح السياسي الأندونيسي حزب Sjarekat Islam أو « الرابطة الإسلامية » برئاسة الزعيم المسلم الشهير شكرو أمينوتو . ظهر هذا الحزب ليؤدى الرسالة الإسلامية الإصلاحية مازجاً معها ما أنتجه العقل الغربى من علوم حديثة .

ويستدل من أعمال الحزب برنامجه القومى . وهو يدل على أداء العمل السياسى لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندى ، ثم نشر التعليم العام مقروناً بالتهذيب الإسلامى ، ثم إصلاح الحالة الاقتصادية بتنمية الإنتاج الزراعى والصناعى وتحسين وسائله ، وإنشاء إدارات رئيسية لتتولى إدارة شؤون مختلفة من المصالح العامة لتكون حكومة مصغرة داخل الحكومة الهولندية . وأهم هذه الإدارات هى : إدارة المالية والاقتصاد والتعليم والشؤون الخارجية والزراعة والدين والرياضة . وأنشأ أيضاً السلطات الثلاث الكبرى — القضاء والتشريع والتنفيذ — لتدريب زعمائه ورجاله على أصول الحكم . وقد طلب من الحكومة الهولندية إنشاء حكومة أندونيسية ليشارك الشعب فى الإدارة والحكم . وكان قد سبر غور نفسه ومقدار كفايته فى إدارة الحكومة ، فلهيئة العاملة فيه من أقطاب السياسة والإدارة . ويدل هذا على استطاعة الحزب تكوين الإدارات الرئيسية فيه ، والسلطات الكبرى الثلاث . وأبرز أعضاء الحزب السيد عبد المعيد ، ويشغل وكالة الحزب ، وهو يمثل الناحية العصامية فى القوة النفسية والإدارية بين أعضاء الحزب ، والمستر أغوس سالم أكبر مؤرخى الجيل الحديث فى أندونيسيا ، ومن أشهر العلماء المفكرين . ويشغل جانباً كبيراً من الناحية السياسية والاقتصادية فى الحزب فيلسوف من فلاسفة القرن العشرين له مؤلفات كثيرة فى السياسة والاقتصاد ، أشهرها « الأسواق العالمية » و « تاريخ العالم » ، وقد مثل حزبه وزميله السيد عبد المعيد فى المجلس النيابى فى دورته الثانية ، وفى عام ١٩٢٢ انتخب عضواً فى المؤتمر الدولى لنقابات العمال بجنيف ممثلاً لنقابات العمال الأندونيسيين . وقد استطاع بحنكته الإدارية والسياسية وتضلعه من العلوم الاقتصادية الحديثة وما يرتبط بها من فروع المعرفة أن يؤثر فى المؤتمرين تأثيراً كبيراً ، ويبنى لأندونيسيا مركزاً ممتازاً فى الاقتصاد . ومنذ أعلنت الجمهورية فى أندونيسيا فى ١٧ أغسطس عام ١٩٤٥ أصبح المستر أغوس سالم مستشاراً لرئاسة الجمهورية ، ثم متكلماً

النهضة السياسية في أندونيسيا

باسم وزارة الخارجية في وزارة الدكتور شهرير ، ثم عين وكيلا لوزارة الخارجية . ولا يزال يشغل هذه الوظيفة ويؤدي أعمالها بدقة أثبتت كفايته السياسية في ظرف تجتاز فيه أندونيسيا أكبر عملية امتحان دولي ؛ لتثبت أحقيتها بحريتها السياسية واستقلالها التام .

اتتهج الحزب السياسة التعاونية مع الحكومة الهولندية ؛ ليُفسح للشعب مجال العمل في ميدان أوسع حرية ؛ فقدم مذكرة إلى السلطة الهولندية تعرف باسم « مذكرة شكرو » ووقعها أبرز رجالات أندونيسيا . وقد ورد في هذه المذكرة طلب إنشاء حكومة وطنية ذات برلمان ، فوعدت الحكومة الهولندية بلاهاى الزعماء الأندونيسيين بإنشاء الحكومة وبرلمانها حينما يصفو الجو الدولي وتضع الحرب أوزارها (الحرب العالمية الأولى) فقبلوا هذا الوعد . ولم تدفعهم سياستهم القومية إلى ختل السلطة الهولندية والقيام بثورة عنيفة تقضى على الاستعمار الهولندي في ظرف أصبحت فيه المملكة الهولندية كريشة في مهب الرياح !

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، أنشأت الحكومة الهولندية مجلساً نيابياً مختلطاً ، وانتخب أعضاءه من الهولنديين والأندونيسيين والشرقيين . فعدت الأحزاب السياسية الأندونيسية هذا المجلس ملعباً هولندياً تمثل فيه المهازل السياسية ! فعدل حزب الرابطة الإسلامية سياسته ، واتبع السياسة اللاتعاونية ؛ لعبث الحكومة الهولندية بمطالب الشعب . ثم شرعت في إرسال الزعماء وكبار المشتغلين بالحركات الاستقلالية إلى جزيرة غينيا الجديدة أو الأرض الحمراء ؛ ليلاقوا حتفهم جزاء بما كسبت أيديهم من مناوأة السياسة الاستعمارية !

إن السياسة الهولندية بعد الحرب العالمية الأولى كانت تفسح المجال لاندفاع الأندونيسيين في ميدان التحرير السياسى . فالشعب الأندونيسى لم يربعه منفى غينيا الجديدة أو السجون الحالكة ؛ لآرائه السياسية ، ومقاومته السياسة الهولندية . وأعظم ظاهرة لهذا الجهاد الأندونيسى ، انتشار فروع حزب الرابطة الإسلامية في المدن والقرى ، حتى بلغ عدد أعضائه ثلاثة ملايين عضو عزعوا دعائم الاستعمار الهولندي وهزوا عرشه بالأرض المنخفضة ! ثم ظهور أحزاب سياسية لتحرير أندونيسيا من النظام الاستعماري الهولندي . وأشهرها :

حزب أنسولندا أنشأه ثلاثة من زعماء أندونيسيا هم الدكتور دوين ديكر ، والدكتور شفتوماعون كسومو ، والبروفيسور ديوانتارا ، في ٦ سبتمبر ١٩١٢ . وسياسته توحيد مواليد أندونيسيا الأوربيين في الوحدة الأندونيسية ؛ ليشاركوا في الدفاع عن أندونيسيا . ولما انتشرت روح الوحدة بين الطبقات الأوروبية حلت الحكومة الهولندية حزب أنسولندا ، ونفت زعماءه إلى الجزر الأندونيسية النائية ، ثم رُحِّلوا إلى هولندا ومكثوا ست سنوات بعيدين عن الأعمال والحركات السياسية . وفي عام ١٩٢٢ ترك البروفيسور ديوانتارا الاشتغال بالسياسة ، وخاض ميدان الثقافة ، فأنشأ مؤسسة ثقافية « تامن سيسوا » لنشر التعليم الحديث للجيل الجديد . وبلغ عدد المدارس التابعة لهذه المؤسسة في عام ١٩٢٧ سبعمائة مدرسة من رياض الأطفال حتى العالية . وفي ابتداء سلطة الجمهورية الحديثة تولى البروفيسور ديوانتارا منصب وزارة المعارف .

ثم في مايو ١٩١٣ هبت على أندونيسيا العاصفة الاشتراكية الكبرى ، فتأثرت بنظمها الحديثة في الاقتصاد والسياسة . والشعب الأندونيسي شعب شرقي يلاقى الأمرين من السياسة الاستعمارية الهولندية . حينما سارت التيارات الاشتراكية من أوربا تقبلتها أندونيسيا بصدور رحب ؛ لأنها ستقضى على الرأسمالية العالمية التي تؤيد السياسة الاستعمارية الهولندية ، فتستنشق نسيم الحرية وتحلق في أجوائها .

سنفلت . . . اشتراكي هولندي ، أرسلته الهيئة الاشتراكية العالمية بالروسيا إلى الشرق الأقصى لنشر الروح الاشتراكية فيه . وصل إلى أندونيسيا في عام ١٩١٣ ، فالتصل ببعض العمال والموظفين الهولنديين في مدينة «سماراتنج» وخاض معهم في أحاديث ذات شجون ، واستطاع بخبرته الواسعة جذب نفوس العمال والموظفين إلى حظيرة الاشتراكية العالمية ، فبرز منهم عدد ذو ميول متطرفة . فأسس سنفلت بمساعدة الاشتراكيين الهولنديين والأندونيسيين الحزب الاشتراكي الديموقراطي ، وأعلن برامجه وهي [١] إيجاد حالة اجتماعية واقتصادية جديدة للشعب الأندونيسي [٢] العمل لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندي [٣] قلب نظام الحكم رأساً على عقب . وسعى الحزب إلى تنفيذ هذه البرامج بكل الطرق الممكنة ، فظهر في محيط العمال

النهضة السياسية في أندونيسيا

تأثير المذهب الاشتراكي الحديث ؛ فحدثت عدة إضرابات واعتصابات ، نتيجة لمطالب العمال بتحسين حالتهم من الهيئات المسؤولة ورفضها الموافقة عليها . كما حدثت عدة تطورات في ميدان السياسة أدت إلى وضع الحكومة الهولندية نظاماً داخلياً يستطيع معه الشعب أن يبدى آراءه السياسية تجاه السياسة العامة للحكومة الهولندية في أندونيسيا . ولما توسعت الحركة الاشتراكية وامتد نفوذها إلى الدوائر الهولندية الاستعمارية خشيت هولندا أن تتحول سياستها من استعمارية إلى اشتراكية وطنية تؤيد السياسة التحريرية الأندونيسية ! فقبضت على بعض زعماء الحزب الديمقراطي الاشتراكي من الهولنديين وأعادتهم إلى هولندا . وأما المستر سنفلت زعيم الحزب ، فقد مكث في أندونيسيا يرقب عن كثب السياسة الاستعمارية الهولندية في كفاحها الحركات الاستقلالية الأندونيسية . ولما تهيأ الجو الداخلي للسياسة الاستعمارية بالضرب على الحزب الديمقراطي الاشتراكي ، حلت الحكومة الهولندية هذا الحزب . وبذلك فقدت الحركة الاستقلالية الأندونيسية عضواً عاملاً أثبت عصاميته وثباته خلال أربع سنوات في مقاومة السياسة الهولندية الاستعمارية ١٩١٣ - ١٩١٦ ، وكفاح الرأسمالية العالمية .

وفي شهر سبتمبر ١٩١٤ أسس بعض زعماء أندونيسيا حزباً سياسياً باسم حزب فاسوتدان ترأسه الزعيم الأندونيسي الشهير رادين إسكندر ديناتا ؛ للعمل لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الغربي . وانضم إلى عضويته كثير من الموظفين ورجال التجارة والصناعة والصحافة وطلاب الجامعات والمعاهد العالية . ويعتبر هذا الحزب حزب الأرستقراطيين الأندونيسيين ، ومثله في المجلس النيابي زعيمه ديناتا . وقد اتبع السياسة التعاونية مع الحكومة الهولندية منذ نشأته حتى عام ١٩٢٢ ، ثم أعلن السياسية اللاتعاونية متضامناً مع سائر الأحزاب السياسية الأندونيسية .

وفي عام ١٩١٧ أسس رجال سومترا حزب شركت سومترا أو رابطة سومترا للاشتراك في ميادين الجهاد المقدس لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندي . وقد أنتج الحزب قوة سياسية داخلية هزت جزيرة سومترا وأقعدتها ، فأخرجت مركز هولندا السياسي في هذه الجزيرة العظيمة .

النهضة السياسية في أندونيسيا

وفي عام ١٩٣٥ اتحد حزب شركت سومترا مع عدة أحزاب سياسية لتكوين حزب سياسي زاخر بالعقول المفكرة ، والرءوس المدبرة ، والأيدى العاملة .

وفي مايو ١٩٢٠ فاجأ الدوائر السياسية ظهور الحزب الاشتراكي الأندونيسي تحت رئاسة الزعيم الاشتراكي الشهير الدكتور سمعون . وقد ساعده في إنشاء هذا الحزب المستر تان ملاكا والمستر دارسوتو والمستر عالمين . وأعلن الحزب برامجه السياسية بين وجل الحكومة الهولندية القاتل ، وبين فرح الشعب الأندونيسي العظيم ! فالحكومة الهولندية قد درست مغامرات زعماء الحزب الاشتراكي حينما كانوا أعضاء عاملين في حزب الرابطة الإسلامية ، ولم ينفصلوا منه إلا لسياساتهم المتطرفة ، ومغامراتهم العظيمة في ميدان الاستقلال ، وآرائهم الاشتراكية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية . وأبرز منهج الحزب ، قوة اشتراكية قومية تطوح هيكل الاستعمار الهولندي في أندونيسيا ، وإيجاد حالة اقتصادية ترفع مستوى العامل والفلاح ، ثم القضاء على العادات والتقاليد البالية ، أو التقاليد الغربية المشبعة بروح التهمك والفساد .

احتل الحزب الاشتراكي المسرح السياسي دون غيره ، فهو قوى برجاله وماله . فقد انتسب إليه كثير من العلماء والأدباء والمحامين والصحفيين ، ورجال الأعمال وزعماء العمال من مختلف النقابات . كما انتسب إليه الفلاح في كوخه والعامل في مصنعه والمرأة في دارها والطالب في معهده . وقد اعترفت بقوة الحزب الاشتراكي جميع الأحزاب الأندونيسية حيث لا يضع الإنسان قدمه في أى مدينة أو قرية إلا يجد أمامه فرعا للحزب منظما تنظيما دقيقاً . وقد حدث بينه وبين حزب الرابطة الإسلامية صراع عنيف حول المبدأ . فالحزب الاشتراكي مبدؤه الاشتراكية المتطرفة التى تناقض الشريعة الإسلامية ، وحزب الرابطة الإسلامية مبدؤه الإسلام الذى وضع حقوق الإنسان . ولما ازدادت فورة الدم الاشتراكي الأحمر في أعضاء الحزب تصدت الحكومة الهولندية لها ، فصارت تضرب على الحزب الاشتراكي بوضع الرقابة الشديدة على فروعها وعلى مؤتمراتها وعلى اجتماعاته العامة ، فأثار هذا العدوان السياسى شعور الاشتراكيين الأندونيسيين ، فحملوا حملات شعواء على الحكومة الهولندية في ميادين السياسة والصحافة والاقتصاد ، فقاتلات ذلك بحملات مماثلة

لحملات الاشتراكيين ، قاتمت الحكومة الهولندية الحزب الاشتراكي بانه ينشر المذهب الشيوعي الروسى بين طبقات الشعب الأندونيسى ، وأنه يستمد سلطته المعنوية من الحزب الشيوعي بروسيا ، ثم شرعت فى اتهام بعض زعماء الحزب بإثارة الروح الثورية ، وإخلال الأمن العام ، فتوصلت بهذه التهم إلى القبض على أقطاب الحزب وزجهم فى غياهب السجون ، أو نفيهم إلى غينيا الجديدة ، بعد مشادات طويلة بين محامى المتهمين وبين القضاة الهولنديين الذين نصبوا أنفسهم فى آن واحد قضاة وحكاما . فما أغرب الحياة ! وما أكثر مهازلها ! قوم يعيشون فى وطنهم غرباء ! فإما أن يعيشوا هادئين ، وإما أن يخرجوا منه ! فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل !

وفى يونيو ١٩٢٢ قام زعيم الحزب الاشتراكي الدكتور سمعون برحلة عالمية ، واتصل بأقطاب الأحزاب الاشتراكية فى أوروبا وأمريكا وآسيا ، واطلع على دقائق النظم الاشتراكية الروسية ، وعلى مؤسساتها الصناعية والثقافية ونظام العمل . ثم مثل حزبه فى المؤتمر الشيوعي العالمى المنعقد بموسكو خلال مكثه بها ، فأطلع الأوربيين على المجهودات الجبارة التى تبذلها أندونيسيا لتحرير السياسى . ولدى عودته ضجت الصحافة الهولندية من رحلة الدكتور سمعون وقيامه بشرح قضية وطنه لزعماء الأمم والشعوب . وقد أنتجت هذه الرحلة روحاً طيبة فى الدوائر السياسية العليا فى أوروبا ، وتفاؤلا حسناً فى الأندية الأندونيسية .

الحزب الاشتراكي الأندونيسى يشرف على الحركات الاستقلالية ويديرها حسب سياسته القومية . فاضطرت الحكومة الهولندية إلى استعمال القوة والبطش به ، فوسعت للحصول على أعمال تسوِّغ لها القبض على المستر تان ملاكا وبقية زعماء الحزب ، ولكنها لم تستطع ! فالأعضاء العاملون فى الحزب الاشتراكي من أقدر المحامين والسياسيين والصحفيين ، وهم على اطلاع دقيق على الأنظمة العالمية الخاصة والعامية . وبعد معارك سياسية عنيفة فى المسرح السياسى بين الحزب الاشتراكي والحكومة الهولندية رأت هولندا أن خير وسيلة للقضاء على الحزب الاشتراكي إثارة التهم واختلاق الأكاذيب حول سياسة زعماء الحزب . فشرعت فى تهمة الوسائل العملية للقبض على تان ملاكا العمود الفقري فى الحزب الاشتراكي . فشرع تان بما تنويه السلطة الهولندية من القبض عليه ، فقفز إلى جزيرة سنغافورة واشتغل محرراً فى إثارة الرأى العام فى ملايا . ثم أسس الحزب الجمهورى

النهضة السياسية في أندونيسيا

الأندونيسي للعمل لاستقلال أندونيسيا ، فضيقت السلطة المحلية عليه بسنغافورة حتى اضطرته أن يتركها ويحط رحاله في الفيلبين . وهناك اشتغل في الأعمال السياسية لتحرير أندونيسيا وبورما والهند الصينية وأندونيسيا من سيطرة الأمبريالية العالمية . والمسترتان ملاكا سياسى مشهور في شعوب الشرق الأقصى لما قام به من خير الأعمال لتحرير الشرق الأقصى من الاستعمار الغربى .

وخلال السنوات الطويلة التى مرت على الحكم الهولندى منذ خروجه من أندونيسيا حتى عام ١٩٤٢ كان المسترتان ملاكا متقلابين عواصم البلدان الشرقية للدعوة إلى الحرية والاستقلال . وكان يدخل إلى أندونيسيا مخفياً في أشكال مختلفة من السمات والملابس . وفى عهد الاحتلال اليابانى كان تان ملاكا يشتغل عاملاً فى أحد مناجم الفحم الحجرى بجاوة الغربية . ولم يستطع إبراز نفسه لأن الحكومة اليابانية تناوى السياسة الاشتراكية المتطرفة . وبعد مرور ثلاث سنوات على استقلال أندونيسيا ظهرتان ملاكا فجأة فى ميناء جاكرتا ، فعلمت السلطات الجمهورية بذلك ، فرحبت به ترحيباً عظيماً دلت به على تقدير أندونيسيا لخدمات أبنائها المجاهدين الذين ضحوا بأرواحهم وأموالهم فى سبيل تحريرها من النير الهولندى ، ثم عين مستشاراً للجمهورية ورئيساً لمائة وأربعين هيئة سياسية أندونيسية تعمل لتقوية دعائم الاستقلال ، والدفاع عن كيان الجمهورية التى تضم خمسة وسبعين مليون نفس . وفى شهر يوليو ١٩٤٦ عين داعياً لنشر استقلال أندونيسيا التام فى أنحاء العالم .

وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٢٦ أشعل الحزب الاشتراكى الأندونيسى ثورة عامة للقضاء على الاستعمار الهولندى ، واستعمل الأندونيسيون القنابل اليدوية والديناميت والمسدسات والبنادق ، واستطاعوا فى ظرف وجيز السيطرة التامة على بعض المدن الأندونيسية الكبرى ، وكادت العاصمة تسقط فى أيديهم . وكان العامل الأساسى فى نجاح الثورة فى ابتداء أمرها ، التكاتف المشترك بين طبقات الشعب وهيئاته العاملة ؛ إذ أن نقابات العمال وسائى السيارات والترام والقطر الحديدية ، ونقابات الحمالين واتحاد الموظفين فى دوائر الحكومة الهولندية ورجال البحرية الأندونيسيين ، ورجال الشرطة والحرية الوطنيين ، انتظموا فى سلك الثورة ، فصارت نيران القوات الأندونيسية تصلى جنود الحكومة الهولندية وتقضى على حياتهم . أما الهولنديون فقد استعملوا كل أنواع الأسلحة

الحديثة التي تحت سيطرة جنودهم ، وقذفوا بجيوش جرارة أنوا بها من أنحاء الجزر الأندونيسية إلى جزيرة جاوة حيث الثورة في أشدها ، واستطاع البحريون الأندونيسيون من رجال الأسطول الهولندي السيطرة على البارجة الهولندية ستيفن روبنسون واستعملوها في القضاء على بعض السفن الحربية الهولندية . ولما تيقظت السلطات البحرية الهولندية إلى مصير البارجة ستيفن روبنسون أرسلوا طائرة حربية تبحث عنها في المياه الأندونيسية . وبعد لآي وجدوها سائرة نحو الشمال ، فأندرت الطائرة رجال البارجة بالعودة إلى قاعدة الأسطول فرفضوا مضحين بحياتهم في سبيل تحرير أندونيسيا ، ثم قذفت الطائرة قنبلة على البارجة وأتبعها بأخرى ، حتى اشتعلت النار في هياكلها وغرقت تودع حياتها بين حسرة البحرية الهولندية وبين حقدتها على هؤلاء الرجال !

وفي نهاية شهر فبراير ١٩٢٧ انتهت الثورة الاشتراكية بانتصار الحكومة الهولندية ، فاحتظت السجون بالثوار الأندونيسيين ، كما غصت المحاكم بزعماء الحزب الاشتراكي ومحاميهم . ثم سجنّت الحكومة الهولندية ٤٥٠٠ شخص من الاشتراكيين بعد محاكماتهم ، كما نفت إلى غينيا الجديدة ١٣٠٨ عضو ، بارز من أعضاء الحزب الاشتراكي ، وآلاف أخرى إلى بعض الجزائر الأندونيسية النائية ، ثم أصدرت السلطة الهولندية نظاماً يمنع الاجتماعات وتأسيس الأحزاب وراقبت الصحافة الوطنية والهيئات العلمية والأدبية ونقابات العمال مراقبة دقيقة .

وأما زعيم الحزب الدكتور سمعون والمستر سرجونو فقد خرجا من أندونيسيا خفية وتابعا سيرهما حتى حطا رحلتهما في أوروبا . فالدكتور سمعون اتخذ مدينة موسكو مقراً له ، وأما المستر سرجونو فقد أقام في مدينة برلين ، ينشران الدعاية للحركة الاستقلالية الأندونيسية . وفي نهاية الحرب الأخيرة تخطى الدكتور سمعون البلدان الأوربية حتى وصل إلى بلدان الشرق الأوسط فعرفته قيادة القوات المتحالفة فقبضت عليه . ولما عرفت مكانته السياسية أعيد إلى روسيا .

بعد سقوط الحزب الاشتراكي مضرجا بدمائه حيّاً بروحه ، تسلم راية الجهاد شباب في الخامسة والعشرين من عمره طموح النفس رقيق الشعور قوى الجاذبية ، تلقى دراسته السياسية الأولى على يد الزعيم شكرو أمينوتو ، ثم

النهضة السياسية في آندونيسيا

ولج ميدان السياسة في عام ١٩٢٧ وأنشأ الحزب الوطني الأندونيسي ، ذلك هو الدكتور سوكارنو رئيس الجمهورية الأندونيسية .

اشترك في إدارة الحزب المستر سرتونو حاكم جزيرة جاوة اليوم . والمستر إسحق والمستر بوديترات والمستر سوجادي ثم الدكتور شفتو مانجوني كسومو . ومبادئ الحزب : الجهاد الإيجابي لاستقلال أندونيسيا التام . فأنشأ فرقاً عسكرية للهجوم والدفاع ، وهيئات وطنية تشرف على الحياة الأندونيسية الاقتصادية والثقافية والسياسية والتجارية والصناعية ، فازدادت الحكومة الهولندية اضطراباً وقلقاً . فهذه حركات ثورية منظمة يديرها خريجو الجامعات الغربية وأقدر السياسيين ، تساعدكم الصحافة الوطنية لإثارة الرأي العام الأندونيسي على الاستعمار ، والدعوة إلى الجهاد العملي .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٩٢٩ انتفضت الحكومة الهولندية بقضها وقضيضها على الحزب الوطني للقضاء عليه ، فداهمت فرقة مسلحة من جنودها دار الدكتور سوكارنو ليلاً واعتقلته ثم ساقته إلى السجن انتظاراً للمحاكمة . وبينما كانت الأعمال العسكرية تجري في الهجوم على خمسين مدينة فيها فروع الحزب للقضاء عليها وجمع أوراقها ودفاترها ، كانت أعمال أخرى تسير في تفتيش ثلاثمائة منزل في مدينة باندونغ يملكها بعض أعضاء الحزب . فعمل الجنود فظائع تنفر منها النفوس ، وتشتمز منها الإنسانية . والسبب الأساسي لإجراء السلطة الهولندية هذا الهجوم المفاجيء ادعاؤها بأنها تلقت أنباء تشير إلى أن الحزب الوطني سيقوم بثورة عامة في مستهل عام ١٩٣٠ . وبعد تحقيقات طويلة استمرت سبع عشرة جلسة مع الدكتور سوكارنو وزملائه في المحكمة الهولندية قررت الحكومة الهولندية سجن الدكتور سوكارنو أربع سنوات ، وممدداً مختلفة على المستر غاتوت والمستر ماسكون والمستر سوفريا . ثم أصدر الحاكم العام الهولندي المستر دي خرايف أمراً بسجن الدكتور سوكارنو عامين ، ف قضى الزعيم الأندونيسي في محبسه عامين لاقى الأمرين خلالها . وفي ٣١ ديسمبر ١٩٣١ خرج من السجن وانضم إلى الحزب الوطني برئاسة المستر سرتونو ، فعمل على إصلاح برامج وتنظيم أعماله ، ثم أسندت إليه رئاسة الحزب ، فقادها خير قيادة . وفي ٥ مارس ١٩٣٣ قبضت الحكومة الهولندية عليه للقضاء على حركاته السياسية ونفته إلى جزيرة فلوريس .

أقصت السلطة الهولندية الدكتور سوكارنو وزملاءه عن ميدان السياسة لعلها تستطيع القضاء على الحزب الوطني . ولكن عزائم الرجال كالصخرة الصماء لا تؤثر فيها الضربات . فاستعاد المستر سرتونو رئاسة الحزب وسار قدماً به نحو الحياة الحرة ، ثم تنحى عن الرئاسة وأسندها إلى المستر سوديرا ، فعمل هذا بنشاط ملموس في تقوية الحركات الاستقلالية .

في عام ١٩٢٧ كوَّنت الأحزاب السياسية : الحزب الوطني ، حزب الرابطة الإسلامية ، حزب بودي أوتومو ، حزب فاسونندان ، حزب قوم بتاوي ، حزب شركت سومترا ، حزب شركت مادورا ، نادي المعامين — هيئة سياسية ، باسم « الهيئة السياسية الأندونيسية » لتوحيد العمل ، والوقوف صفّاً واحداً أمام السلطة الاستعمارية . وتولى رئاسة الهيئة المستر محمد حسني تمرين . وبظهور هذه الهيئة هبت على النظام الاستعماري الهولندي عاصفة سياسية قوية . واستمرت هذه الهيئة في العمل حتى أدت واجباتها السياسية تجاه الاستقلال الأندونيسي .

وفي عام ١٩٣١ أنشأ الدكتور محمد حتى نائب رئيس الجمهورية والدكتور سوتان شهرير رئيس الوزارة حزب التربية الأندونيسي للعمل على تحقيق استقلال أندونيسيا . وحدثت بينه وبين الحزب الوطني مصادمات عنيفة في الميدان السياسي ، كما هي العادة الطبيعية في الأحزاب السياسية . وفي ٢٥ فبراير ١٩٣٤ أمرت الحكومة الهولندية مدير الأمن العام بمدينة ماتارام بالقبض على الدكتور محمد حتى والدكتور شهرير والدكتور سوكيمي . ثم نقلت الدكتور محمد حتى إلى جزيرة بندانيرا ، والدكتور شهرير وسوكيمي إلى غينيا الجديدة .

وفي ٢٤ ديسمبر ١٩٣٥ وحد الدكتور ستومو الزعيم الشرقي الشهير سبعة أحزاب سياسية وأبرز منها حزباً سياسياً كبيراً ، هو حزب أندونيسيا الكبرى . وغاية الحزب ، السعي لاستقلال أندونيسيا ، وتعميم ثقافته العالية ، ونشر الاقتصاد القومي

والحزب مؤسسات ثقافية واقتصادية ، منها : المصرف الوطني وفروعه ، وشركة التأمين على الحياة وفروعها ، وشركة الملاحة وفروعها ، ومعهد الزراعة والتعليم والمعهد الإسلامي ، وإدارة الصحافة والنشر ، وفرق الكشف ، عدا دور للأيتام ورياض للأطفال . وله أيضاً جرائد يومية أشهرها « الرأي العام » و « الفكر » .

النهضة السياسية في أندونيسيا

وفي عام ١٩٣٦ أنشأ الدكتور أمير شرف الدين حزب النهضة الأندونيسي ؛ لتحقيق استقلال أندونيسيا ، وانتشرت فروعه في أنحاء أندونيسيا . وهذا الحزب يعد من أكبر الأحزاب السياسية ؛ إذ اشترك فيه كبار المشتغلين بالحركات الاستقلالية . وحين ظهرت الحكومة الجمهورية تولى الدكتور أمير شرف الدين وزارة الاستعلامات ، ثم وزارة الداخلية ، ثم وزارة الدفاع ، ولا يزال يشغلها حتى اليوم . وفي نفس هذا العام أنشأ المستر محمد يعين حزب الاتحاد الأندونيسي لتحقيق الحرية السياسية التامة لأندونيسيا . وبعد إعلان الحكم الجمهوري قبضت الحكومة الأندونيسية عليه لسياسته المتطرفة ؛ إذ كان يريد الإسراع في القضاء على معالم الاستعمار الهولندي بالأسلحة الحديثة ، ثم أفرج عنه وعين حاكما لجاوة الغربية .

وفي عام ١٩٣٧ أنشأ المستر ويوهو الحزب الإسلامي واشترك معه الدكتور سوكمان والدكتور سوكاردي والمستركسمات والمستر ولي الفتح والمستر محمد رشيدى والمستر عبد القهار مذكر والأستاذ محمد منصور . واتبع الحزب دستوره القرآن والحديث النبوى . ولهذا الحزب عضوان في الوزارة الأندونيسية بعد اندغامه في الأحزاب الإسلامية التى كونت حزب ماسجوى أى مجلس شورى مسلمى أندونيسيا .

وفي ٢١ مايو ١٩٣٩ ظهر فى المسرح السياسى عامل جديد لتحقيق الاستقلال لأندونيسيا ، وهو تشكيل الأحزاب السياسية هيئة سياسية باسم « رابطة الأحزاب السياسية الأندونيسية » وتولى رئاستها المستر محمد حتى تمرين .

قامت الرابطة بحركات سياسية واسعة النطاق ، فنشرت دعايات قوية فى المجتمع الأندونيسى لإنشاء برلمان وحكومة أندونيسية . ولهذا الغاية أنشأت الرابطة ما يزيد عن مائة هيئة سياسية للدعوة لمشروع البرلمان فى أنحاء أندونيسيا ، ثم أقامت مؤتمراً قومياً لبحث مشروع البرلمان ووضع مذكرة ترفع للسلطة الهولندية العليا . وبعد انتهاء المؤتمر قدمت الهيئة مذكرتها إلى المجلس النيابى ، وهذا بدوره رفعها لحكومة لاهاى . فغضت الحكومة الهولندية نظرها عن هذه المذكرة . ثم اضطربت سياسة هولندا للاعتداء الألمانى على الأراضى المنخفضة . ثم فى ٩ مارس ١٩٤٢ احتلت القوات اليابانية الجزائر الأندونيسية ، وشكلت حكومة وطنية فيها ، وأجبرت الشعب على

النهضة السياسية في أندونيسيا

التجنيد الإجبارى . وفى ١٧ أغسطس ١٩٤٥ أعلنت أندونيسيا الحكم الجمهورى واستقلالها السياسى التام .

لقد ظهر للعالم كيف نهضت أندونيسيا ، وكيف أنشأت الجمهورية ، وكيف تدافع اليوم عنها بدماء أبنائها وأرواحهم . وسيظفر الشرق بنصر مبين إذا وقف موقفاً سليماً تجاه السياسة الاستعمارية الغربية .

محمد منبى

ابراهيم بن المهدي : حياته الفنية

كان إبراهيم بن المهدي من أنبغ المغنين وأخبرهم بالأنغام والوتر والإيقاع ، ومن أجملهم صوتاً ، وأطبعهم غناء ، جيد الصنعة ، حسن الأداء . وهو أول من نبذ الغناء القديم وحوّره ؛ لأنه كان مقصراً فيه ، وابتكر الغناء الجديد ، وأصبح زعيم المذهب الجديد في الغناء ، في حين كان إسحاق الموصلي زعيم المذهب القديم ، والخصم العنيد ، والمنافس الخطر لإبراهيم ابن المهدي .

وكان المغنون ذوو الأصوات الجميلة في العصر العباسي الأول : ابن جامع ، وعمر بن أبي الكنتاب ، وإبراهيم بن المهدي ، وهم من الطبقة الأولى في الفن . أما من اتبع طريقة إبراهيم الجديدة ، فمخارق وشارية ورّيق ويحيي المكي وحسين بن محرز وإسماعيل بن جامع وسواهم .

كانت صنعة إبراهيم في الغناء لينة ورقيقة . وطالما نسب ما يصنع إلى جاريته شارية ورّيق لثلاً ، يفسح مجالاً للناس لانتقاده ولومه ، حتى قلت أغانيه بين الناس مع كثرتها .

وحينما كان يلام لتعديله في الغناء القديم وتبديله وتجديده ما طاب له التجديد ، يقول : « أنا ملك وابن ملك ، وإنما أغنى على ما أشتهى وكما ألتذ . » (١) ذكره ابن النديم فوصفه بقوله : « أول نابغ نبغ من بني العباس . له ترسل وشعر ، وصنف كتباً . . . لم يُرَ في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه ، ولا أشعر . وله مع ذلك صنعة في الغناء يتقدم بها كل أحد . وكان إسحاق وإبراهيم قبله يأخذان عنه ، ويتحاكم المغنون إليه في صناعته . . . وله من الكتب :

(١) النويري : نهاية الأرب في فنون العرب : ج ٤ ص ٢٢٦ .

كتاب أدب ابراهيم « و « كتاب الطبيخ » و « كتاب الطب » و « كتاب الغناء . » (١)

وبلغ من جمال صوته أن قال ابن أبي ظبية : « كنت أسمع ابراهيم بن المهدي يتحنن فأترب . » (٢)

وقال الأصفهاني : « . . . وكان رجلاً عاقلاً ، فهماً ، ديناً ، أدباً ، شاعراً ، راوية للشعر وأيام العرب ، خطيباً فصيحاً ، حسن العارضة . وكان إسحاق الموصلي يقول : ما ولد العباس بن عبد المطلب بعد عبد الله بن العباس ، رجلاً أفضل من ابراهيم بن المهدي . فقيل له : مع ما تبذل له من الغناء ؟ فقال : وهل تم فضله إلا بذلك ! » (٣)

وكانت أخته عليّة بنت المهدي نداءً له في الغناء والشعر ؛ فقد كانت على مقدار كبير من الحذق والنبوغ في الشعر والتلحين والغناء . وكانت تتمتع بصوت رخيم عذب ، حتى قال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع : « ما اجتمع في الإسلام قط أخ وأخت أحسن غناءً من ابراهيم بن المهدي وأخته عليّة . وكانت تقدم عليه . » (٤)

وقال ابن الطقطقي : « . . . وكان فاضلاً ، شاعراً ، فصيحاً ، أدبياً ، مغنياً ، حاذقاً . وإليه أشار أبو فراس بن حمدان في ميميته بقوا

منكم عليّة أم منهم وكان لكم شيخ المغنين ، ابراهيم أم لهم (٥)

ويستطرد الأصفهاني بقوله : « . . . لو ذهبت إلى شرح سائر أخبار ابراهيم ابن المهدي وقصصه لما ولى الخلافة ، وغير ذلك من وصفه بفصاحة اللسان ، وحسن البيان ، وجودة الشعر ، ورواية العلم ، والمعرفة بالجدل ، وجزالة الرأي ، والتصرف في الفقه واللغة وسائر الآداب الشريفة ، والعلوم النفيسة ، والأدوات الرفيعة ، لأطلت . . . فلذلك اقتصرت على ما ذكرته من أخباره دون ما يستحقه من التفضيل والتبجيل والثناء الجميل . » (٦)

(٢) الأغاني : ج ١ ص ١٠٧ .

(٤) الأغاني : ج ١ ص ١٦٣ .

(٦) الأغاني : ج ١ ص ٩٧ .

(١) الفهرست : ص ١٦٨ .

(٣) الأغاني : ج ١ ص ٩٦ .

(٥) الفخرى : ص ١٦٠ .

لم يكن إبراهيم يغنى إلا في مجالسه الخاصة ، وفي مجالس الخلفاء . وكان يغنى سرّاً ترفعاً وأتفة ، أو إذا دعاه الرشيد أو الأمين . فلما ظفر به المأمون وعفا عنه ، أسرف في صنعة الغناء وشرب النبيذ في مجلسه ، وغدا يخرج من عنده ثملاً مع المغنين ، وذلك لفرط شغفه بالغناء . فانتهر المأمون هذه السانحة ، وشجعه على سلوكه ، وأذاع بين الناس أن عمه عزف عن المطالبة بالخلافة ، وأنه لا يصلح لها لمجونه

روى الأصفهاني عن جمال صوت إبراهيم بن المهدي ، أن الحسين بن إبراهيم ابن رباح قال : « كنت أسأل مخارقاً : أي الناس أحسن غناءً ؟ قال : كان إبراهيم الموصلي أحسن غناءً من ابن جامع بعشر طبقات ، وأنا أحسن غناءً من إبراهيم الموصلي بعشر طبقات ، وإبراهيم بن المهدي أحسن مني بعشر طبقات ... أحسن الناس غناءً أحسنهم صوتاً ؛ وإبراهيم بن المهدي أحسن الجن والانس والوحش والطير صوتاً ، وحسبك هذا . » (١)

وذكر أبو المحاسن بن تغري بردي عن تأثير جمال صوت إبراهيم وعذوبته قال : « ... وعن منصور بن المهدي : كان أخي إبراهيم إذا تنحنج طرب من يسمعه ، فإذا غنى أصغت إليه الوحوش ومدت أعناقها إليه ، حتى تضع رءوسها في حجره ، فإذا سكت نفرت وهربت . وكان إذا غنى لم يبق أحد إلا ذهل ويترك ما في يده حتى يفرغ . » (٢)

ذكر النويري ما يدل على عبقرية إبراهيم في الغناء ، قال :
« وحكى عن إسحاق بن إبراهيم ، قال : لما صنعت صوتي الذي هو :

قل لمن صدّ عاتبا وناى عنك جانباً
قد بلغت الذي أردت وإن كنت لاعباً
واعترفنا بما ادّعى وإن كنت كاذباً
فافعل الآن ما أردت فقد جئت تائباً

اتصل خبره بإبراهيم بن المهدي ؛ فكتب إليّ يسألني عنه ، فكتبت إليه

(١) الأغانى : ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ج ٢ ص ٢٤١ .

ابراهيم بن المهدي : حياته الفنية

الشعر ، وإيقاعه ، وبسيطه ، وبحجراه ، وأصبعه ، وتجزئته ، وأقسامه ، ومخارج
نغمه ، ومواضع مقاطيعه ، ومقادير أدواره ، وأوزانه ، وفغناه . ثم لقيني ،
فغنّانيه ، ففضلني فيه بحسن صوته . » (١)

غنى إبراهيم في داره هذه الأغنية من نظمه وتلحينه :

وإذا تباع كريمة أو تشترى فسواك بالنعها وأنت المشتري
وإذا صنعت صنيعاً أتممتها بيدن ليس نداها بمكدر

وكانت جارية رومية لا تفهم العربية ، تكنس في جانب من الدار ، وكان
إبراهيم يطرح هذه الأغنية على جاريته شارية ؛ وإذا بالجارية الرومية تذرف
دموعاً حارة . ولما ماتت الألفاظ في حنجرة إبراهيم وتلاشت في عالم العدم ؛
جفّ الدمع من عيني الرومية . فكان صوت إبراهيم الشجي أثار في نفسها
ذكريات عزيزة ، ما تمالكت معها عن صون دمعها الحبيس من الانطلاق من
مكانه ، فأنسلت من الأحداق سخيناً غزيراً ، حيث أطفأ جرة تضطرم في
فؤادها الكليم .

دخل إبراهيم يوماً نشوان إلى مجلس الرشيد ، وكان في مجاسه إبراهيم
الموصلى وابن جامع . فقال الرشيد في دعة :

— بحياتي يا إبراهيم غنني !

فتناول إبراهيم العود ، ولم يلتفت إلى الموصلى وابن جامع ، وغنى في شعر
لجير من تلحين ابن عائشة :

أسرى بخالدة الخيال ولا أرى شيئاً ألدّ من الخيال الطارق
إنّ البايّة من تملّ حديثه فأنقع فؤادك من حديث الوامق
أهواك فوق هوى النفوس ، ولم يزل مذ بنّت قلبي كالجنّاح الخافق
طرباً إليك ولم تُبالي حاجتي ليس المكاذب كالخليل الصادق

فقال إبراهيم الموصلى لابن جامع ، وقد أس تفوق إبراهيم وحذقه :

(١) نهاية الأرب في فنون العرب : ج ٤ ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

إبراهيم بن المهدي : حياته الفنية

— لو طلب هذا بهذا الغناء ما نطاب ، لما أكلنا خبزاً أبداً !
فأجابه ابن جامع متمللاً :
— صدقت .

ولما انتهى إبراهيم من غنائه أجابهما قائلاً في رزاة :
— خذا في حقكما ودعا باطلنا !

كان الرشيد يحب أن يستمع غناء أخيه إبراهيم ، إلى أن تسنى له أن ينفرد
به مرات . وذات يوم حضر مجلسه سليمان بن أبي جعفر ، فقال الرشيد لإبراهيم
في لين :

— عمك وسيد ولد المنصور بعد أبيك ، وقد أحب أن يسمعك .
فإذا بإبراهيم يغني شعراً للأحوص من تلحين ابن سريج ، وهو :

سقياً لربعك من زبع بذي سلم وللزمان به إذ ذاك من زمن
إذ أنت فينا لمن ينهك عاصية وإذا أجزأ إليكم سادراً رسني

وقد بلغ من طرب الرشيد أن أمر له بألف ألف درهم .

قال هارون الرشيد ذات ليلة لأخيه إبراهيم ، وكان في مجلسه جعفر
ابن يحيى فقط :

— أنا أحب أن تشرف جعفرأ بأن تغنيه صوتاً .
فغرد إبراهيم في شعر الدارمي من تلحينه :

كأن صورتها في الوصف إذ وصفت دينارُ عين من المصرية العتق
أودرة أعيت الغواص في صدف أو ذهب صائه الصواغ من ورق

فأهتز الرشيد وجعفر من الطرب ، حتى بلغ منهما الجذل أقصاه .

كان إبراهيم يحسن الإيقاع على الطبل والناي . وقد أوقع مرة على الطبل
إيقاعاً أذهل الحاضرين بإتقانه . وطلب إليه الأمين يوماً أن يزمر ، فأجابه بأنه
لم يحاول ذلك بعد ، ولن يحاول ؛ ولكنه سأل الأمين أن يحضر جارية من

ابراهيم بن المهدي : حياته الفنية

موالى المهدي ، فأمرها أن تنفخ فى الناي ففعلت ، فأمسكه إبراهيم وشرع يمر بأصابعه على فتحاته كلما مر الهواء ، فى لباقة وتفنن ، حتى ملك لب الحاضرين . وقد بلغ من براعته إذ ذاك أن أجمع الحاضرون على أنهم لم يتمتعوا بسماع عزف على الناي أجمل من هذا العزف السحري .

لما أخرج عيسى بن محمد بن أبى خالد من السجن ، وهو من أنصار إبراهيم فى خلافته ، وقد سجن لخيانته ، كان إبراهيم يغنى المأمون بعد ظفر المأمون به ، أغنية من شعره وتلحينه :

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبتُ منى	هوى الدهرُ بي عنها وولى بها غنى
فإن أبكِ نفسى أبكِ نفساً عزيزة	وإن أحسبها أحسبها على ضن
وأفلتني عيسى وكانت خديعة	حالتُ بها ملكي وفلت بها سنى

فأشفق عليه المأمون ، وقال له فى عطف ورقة :
— والله لا تذهب نفسك يا إبراهيم على يد أمير المؤمنين ، فطب نفساً ،
فإن الله قد أمنك ، إلا أن تُحدثَ حَدَثًا يشهد عليك فيه عدلٌ ، وأرجو
ألا يكونَ حَدَثٌ إن شاء الله .

رغب المأمون إلى إسحاق الموصلى أن يغنى لحناً من شعر الأختل :
يا قلَّ خيرُ الغوانى كيف رُغنَ به فشرُّهُ وشَلَّ منهن تصريدُ

فغناه إسحاق ببراعة ، فأعجب به المأمون . ثم سأل إبراهيم أهو لحن هذا الشعر ؟ فقال نعم ، وغناه غناء رائعاً . فغمرت المأمون نشوة لذيذة من الطرب ، وفضله على غناء إسحاق الذى لم يكن فى وسعه أن يفنده ، لحذقه فيه وتفوقه عليه .

غنى إبراهيم ذات يوم فى مجلس المأمون غناءً ممتعاً ، فاستحوذ الطرب على أبى زيد ، وهو كاتب لطاهر ، فوثب وقبَّل طرف ثوب إبراهيم اعجاباً به وبصوته الرخيم . فرمقه المأمون شزراً مستهجنًا فعله . فقال له فى حماسة :
— ما تنظر ! أقبله والله ، ولو قتلتُ عليه !

إبراهيم بن المهدي : حياته الفنية

فلاحت بسمه لطيفة على ثغر المأمون ، وهمس في دعة :
— أبيت إلا ظرفاً

كان المعتصم يضم في يده طاقة يانعة من النرجس ، فطلب إلى إبراهيم أن يقول فيها شعراً ويغنيه . فأطرق إبراهيم هنيهة ينكت في الأرض بقضيب ، ثم ارتجل هذه الأغنية :

ثلاثُ عيونٍ من النرجسِ على قائمٍ أخضرٍ أملسٍ
تذكرتني طيبَ رياءٍ الحبيبِ فيمنعني لذة المجلسِ

فأعجب به المعتصم وغمرته البهجة وتملكه الطرب ، فامر له بجائزة سنوية .

وفي ٧ رمضان سنة ٢٢٤ سكت قلب إبراهيم بن المهدي عن الخفقان ، وخبا النور المتألق في عينيه ، فخرست تلك الحنجرة الذهبية الشجية عن التغريد الحنون ، ومات عبقرى بنى العباس ، بعد أن ملأ الدنيا شعراً ونثراً وفناً ، وبعد أن فاض فصاحة وبلاغة وبياناً ، وغمر الحياة أنساً ومرحاً وطرباً ، وبعد أن زخرت حياته الصاخبة الوثابة ، بجلائل الأعمال والحوادث الجسام ؛ وأنتج من روائع عبقريته ما يخلده على تعاقب الأزمان ومدى الأعوام .

منير الحسامي

طرف من فلسفة القانون

القانون الطبيعي

لم يألف الناس أن يقرءوا في المجلات الأدبية الشائعة عندنا شيئاً عن القانون ، كما لم يألف المشتغلون بالقانون عندنا الكتابة إلى هذه المجلات . ولعل هذا أو ذاك راجع إلى ما يعتقده الناس — عامتهم وخاصتهم — من أن القانون مادة جافة يستعصى على الكافة فهمها ، ويتعذر على أفهام غير الفنيين إدراكها والآلفة بها . وتلك عقيدة هي إلى الوهم أقرب منها إلى الحقيقة . فليس من شك أن الأدب قوام القانون ؛ فهو للقانون لحمته وسداه . وشأن القانون في ذلك كشأن سائر العلوم ، لا يجد القارئ متعة في قراءتها إلا إذا امتازت بطلاوة العبارة ، ومتانة الأسلوب ، وحسن انتقاء الألفاظ ، لتقريب المعاني إلى الأفهام .

وأخصب ميدان للأدب في نطاق القانون نجده في تلك الأسفار النفيسة التي ترد القانون إلى الفلسفة ، فتجرده من قيود النصوص وأغلال التشريعات ؛ لتسمو به إلى علياء المثل العليا التي توحىها الطبيعة وتكن في سر الوجود . وهذا هو المعنى الذي تنطوى عليه فكرة القانون الطبيعي .

انبعثت فكرة القانون الطبيعي من فلاسفة اليونان . فقد استرعى نظرهم تشابه سلوك الناس في المجتمع ، على اختلاف ميولهم ومشاربهم ومناطق وجودهم ، فعزوا هذا التشابه إلى وجود مبادئ أساسية مثالية تسود في سائر المجتمعات ولا تتأثر باختلاف المكان ومر الزمان . تلك المبادئ هي التي يرمز إليها باسم الضمير والشرف والاستقامة والفضيلة ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق ، ويخضع لسلطانها البشر في مشارق الأرض ومغاربها ، دون أن يكون لهم عليها أدنى سلطان ؛ لأنها أسمى من أن تسير الإرادة البشرية ، أو تخضع لسلطانها . وقد تطرّق فلاسفة اليونان من هذه المشاهدات إلى البحث في أصل هذه المبادئ وعلة اتساقها وعدم تموجها . فلاحت لهم بارقة قانون أبدي ، لا يتحول

أو يتبدل ، وإليه تشخص أبصار الذين حاق بهم ظلم من جراء تطبيق القوانين الوضعية . واستهوت هذه الفكرة شعراء اليونان ، فطفقوا يشيدون في أشعارهم بمزايا هذا القانون وسمو مبادئه ، وقالوا عن هذه المبادئ إنها « فطرة الله التي فطر الناس عليها » وإن كل إنسان يولد على هذه الفطرة . وخلع فلاسفتهم على هذا القانون الذي يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الشر والبغى اسم « القانون الطبيعي » ، ونعتوه بأنه سمة « العقل المستقيم » ، ليس كمثله شيء ؛ لأنه من وحى الله ذى الجلال .

وتلقّف فقهاء الرومان فكرة القانون الطبيعي ، ونسجوا بصددتها على منوال فلاسفة اليونان ، فوصفوه بأنه القانون الذي يهتدى دائماً إلى سبيل العدل والخير ، ولا يتحول عن هذا السبيل . وهذا ما يعنيه الفقيه Ulpian بقوله : « إن حدود القانون هي الاستقامة ، والكف عن الأذى ، وأن تعطى كل ذي حق حقه » . وبذلك يبدو القانون الطبيعي في ثوبه التقليدي كجموع المبادئ التي يهتدى إليها المرء بفطرته ، وينساق إليها بإرشاد عقله وهوى سليقته . فهناك من مبادئ السلوك ما يحس الفرد بطبيعته بوجوب التقيد بها في علاقته بخالقه ، أو بأمثاله في المجتمع ، أو في محاسبتها لنفسه . فيرى نفسه مدفوعاً إلى إتيان بعض الأفعال التي تنسجم مع طبيعته كفعل الخير ومراعاة النظام ، أو منصرفاً عن الأفعال التي ينفر منها بطبيعته أيضاً ؛ لأنها مجلبة للأذى أو مخلة بالنظام . فالعبادة والخضوع والإيمان من مقومات السلوك في علاقة الفرد بربه ، وكلاهما نتائج حتمية لحقيقة أساسية هي أن الإنسان خلق ضعيفاً ومحتاجاً إلى الرعاية ؛ فهو ينزع بطبيعته إلى أن يستمد من قدرة الخالق ما يقوى به ضعفه ، ويلتمس منه أن يكأله ويرعاه . كما أن حب ذوى القربى والوفاء بالعهد وطاعة أولى الأمر ، كحدود لعلاقة الفرد بأمثاله في المجتمع ، تنسجم كلها مع كونه نزاعاً إلى الاجتماع بطبيعته ؛ فيهتدى بغريزته إلى أن القتل والسب أمور تتنافى مع الطبيعة ، وتآبها النفوس السليمة .

أما فيما بين الفرد ونفسه ، فإن كبت جماح النفس عن الانغماس في الشهوات ، وصرفها عن الانصراف إلى الملمات ، نتيجة حتمية لتنازع عنصرين هما الروح والجسد . ولما كانت الروح أسمى من الجسد ، كان تغليب العنصر الأدنى على العنصر الأعلى متنافراً مع ما يجب أن يكون ، أى مع مقتضيات العقل السليم .

على أن الإجماع لم ينعقد بين أنصار القانون الطبيعي على مصدر هذا القانون . فمنهم من يجرده من كل صبغة دينية فيسندّه إلى طبيعة الإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً مدركاً . وبذلك لا يلزم للتسليم بوجوده الإيمان بالله ؛ بل يستوى في ذلك المؤمنون والملحدون . وفي هذا يقول جروسيوس عن القانون الطبيعي إنه من « إملاء العقل السليم الذي يهdy إلى ما يتضمنه كل فعل من خير أو شر تبعاً لتوافقه أو لتنافره مع الطبيعة المدركة نفسها . » ثم نراه يلقي بعبارة الجريئة « لو أن الله غير موجود لظل القانون الطبيعي في الوجود . » وقد سرت هذه النظرية إلى أنصار الفكر الحر الذين نجد منهم في فرنسا برودون وأوجست كونت وليترى وفويي ، وفي إنجلترا ستيوارت ميل ودارون وهربرت سبنسر وهكسلي ، وفي ألمانيا مولسخت وبيختر وهيغل وغيرهم . أما الفريق الآخر من أنصار القانون الطبيعي ، فإنهم يخطئون الفريق السابق فيما زعموه من أن وجود القانون الطبيعي مستقل عن وجود الله . فهو لاء يرون أن الطبيعة البشرية مع قدرتها على الميل إلى بعض الأفعال والنفور من بعضها الآخر ، فإنها عاجزة بذاتها عن أن تجعل من ميلها أو نفورها قواعد ملزمة أو أوامر قطعية . فالتسليم بوجود القانون مع إنكار وجود المشرع هراء غير مفهوم . فلو محونا تدخل إرادة أسمى من إرادة البشر في خلق القانون الطبيعي لاستحال أن نفهم الضرورة الأدبية التي تحمل الإنسان على اتباع مقتضيات العقل والحكمة . وقد يرد على ذلك بأن الإنسان إنما يتبع هدى العقل بدافع من مصلحته . ولكن المصلحة الذاتية لاتصلح وحدها أساساً لإلزام الفرد بأن يسير على مقتضى العقل ؛ فقد يكون من سعة الحيلة أو من القوة بحيث لا يخشى مغبة السير على هواه .

ويخرج أنصار هذا الاتجاه من هذا التدليل بتقرير أن الله يملئ القوانين الطبيعية ويبصّرنا بمكانها من الأشياء والأفعال بما يمنحه إيانا من نور العقل ووحى الضمير . ولا يسوغ أن نستنتج من القول بأن هذه القوانين مطبوعة في قلوبنا ، وكائنة في ضمائرنا ، أنها مستمدة من طبيعتنا ، بل إن لنا مجرد القدرة على تحصيلها من مشاهدة الوقائع المختلفة واستخلاص مختلف النتائج من هذه المشاهدات . ومهما يكن من أمر الخلاف حول مصدر القانون الطبيعي ، فإن فكرته استقرت في نطاق القانون ، فانتقلت من أيدي الشعراء والفلاسفة ورجال الدين

إلى أيدي علماء القانون الذين حاولوا — منذ القرن السادس عشر — أن يقابلوا بينه وبين القانون الوضعي . فقسموا القانون بمعناه العام إلى طبيعي ووضعي . وعرفوا الأول بأنه مجموع المبادئ الأزلية ، السابقة على خلق البشر ، والتي تفرض سلطانها على كل كائن حي ، دون أن تتأثر بالزمان والمكان ؛ لكونها مستمدة من طبيعة الأشياء ، ومن ثم لا تخضع لعوامل التحول . أما القانون الوضعي فهو مجموع التشريعات التي يضعها الإنسان بدافع الضرورات الاجتماعية . فالأول تالد سماوي على حين أن الثاني طريف بشري . واستطردوا من هذه المقارنة إلى القول بوجوب وضع القانون الطبيعي موضع الصدارة من القانون الوضعي ، وفرضوا على المشرع أن يستلهم قواعد الثاني من الأول ، وأن يحاول جهد الطاقة أن يكون تشريعه مطابقاً للمبادئ السامية التي يتضمنها القانون الطبيعي ، وبذلك يكفل الخير للناس جميعاً ؛ إذ يبصرونهم بأنجع الوسائل لتحسين حالهم وتحقيق سعادتهم وهناءتهم .

على أنه إذا تم شيء بدا نقصه ، فما إن بلغ القانون الطبيعي قمة المجد بحيث أصبح عماد فلسفة القانون في القرن الثامن عشر حتى لقي مقاومة عنيدة من جانب بعض المفكرين . واشتدت هذه المقاومة حتى انقلبت إلى هجوم عنيف في منتصف القرن التاسع عشر ، حين تراجع القانون الطبيعي أمام هجمات المذاهب الوضعية الواقعية التي اجتذبت إليها كثيراً من فطاحل علماء القانون ؛ لما امتازت به من بساطة ووضوح مرجعهما استناد هذه المذاهب إلى الوقائع المادية الملموسة ، وإنكار تأثر القانون بما عداها من العوامل المعنوية أو المبادئ المثالية . فمن معترض بأن القول بوجود قانون عام شامل لا يتأثر بمرور الزمان ولا بتغير المكان ضرب من ضروب الخيال . وفي ذلك أرسل پاسكال عبارته المشهورة : «Justice en deça, injustice au delà des Pyrénées» التي أثارت ثائرة أنصار القانون الطبيعي ، فرموه بالمهاجرة وإلقاء القول على عواهنه .

ومن منكر لوجود قانون مستقل عن إرادة البشر ومستمد من طبيعة الأشياء ، وهؤلاء هم فقهاء الألمان ومن نحائهم من المفكرين الذين لا يرون في القانون إلا حدثاً بشرياً ، ويرون أن البحث فيما وراء ذلك لا يدخل في علم القانون ؛ إذ أنه من قبيل البحث فيما وراء الطبيعة ، وليس ذلك من شأن علماء القانون .

ويستندون في ذلك إلى أن التاريخ لا يحوى في أى عصر من العصور ما يؤيد هذه النظرية . بل إن القانون الرومانى والقانون الفرنسى القديم تضمننا أنظمة تتعارض تماماً مع أخص المبادئ المعتمدة من القانون الطبيعى فى نظر أنصاره .

إزاء هذه الحملات المتكررة عمد بعض الفقهاء المحدثين من أنصار القانون الطبيعى إلى تناول فكرته ببعض التعديلات حتى تسير اتجاه الفكر الحديث . فأعلنوا أن أساس هذا القانون هو تلك المبادئ المستقرة التى لا يعترىها التغيير ، والتى توحى وجوب تحقيق العدالة بين أفراد المجتمع ، وتفرض على كل فرد أن يشعر أن من ألزم واحباته أن يحترم حقوق الأفراد الآخرين بالقدر الذى يقتضيه تحقيق العدالة الاجتماعية وكفالة النظام الاجتماعى . أما تحديد ذلك القدر ومقتضى تلك العدالة وحدود هذا النظام ، فأمور لا سبيل إلى وضعها على أساس مستقر ؛ إذ أنها مرتبطة بأحداث المجتمع ، وهى دائمة التطور والتغير والتحول ، كما أنها تتأثر باختلاف وجهات النظر فى تحديد معنى العدالة والنظام ، وتباين الأفكار عن حدود السلطة والحرية ، وعن حق الجماعة وحقوق الفرد ، وما يترتب على ذلك الاختلاف وهذا التباين من تغلب بعض هذه القوى المتعارضة على بعضها الآخر . فترجيح إحدى الكفتين على الكفة الأخرى لا يخضع لمعيار ثابت ولا يسير على وتيرة واحدة . فكما تبين الخطل من الانتصار لإحدى هذه القوى وتغليبها على الأخرى تغير الاتجاه وقُلبت الأوضاع ، وهو ما يؤدى إلى تعديل جوهرى فى نظام المجتمع ، ثم إلى تغير حدود العدالة كرد فعل مباشر لهذا التعديل .

وما من شك فى أن هذا التحوير فى فكرة القانون الطبيعى — كما أورثتنا إياه التقاليد — يؤدى إلى مسخها . فكيف يتصور أن يتخذ هذا القانون نهجاً لهداية الإنسانية بعد أن أصبحت مبادئه عرضة للتبدل والتحول على هذا النحو ، فتجرد بذلك من أهم خصائصه ؟ أفلا يؤدى القول بتغير حدود القانون الطبيعى إلى تقويض دعائمه وهد كيانه ؟ وماذا يجدى المشرع أن يستلهم أحكامه من تلك المبادئ التى لا يقر لها قرار ! ثم إن عيب هذا المذهب الأساسى هو فى إغفاله تعيين السلطة التى يؤول إليها أمر تحديد هذه الحدود المتغيرة بطريقة لا تقبل الجدل . فمن ذا الذى يخضع الحد القانونى الطبيعى لحالة اجتماعية معينة فى زمن معين ؟ لا شك أن كل هذه الاعتراضات كفيلاً بالاعتراض عن مسامرة

أُنصار « مذهب القانون الطبيعي ذي الحدود المتغيرة » فيما ذهبوا إليه من المباغدة بين هذا القانون وبين أصله التقليدي .

ولقد زادت الحرب الأخيرة حماسة لفكرة القانون الطبيعي كما بدت في ثوبها التقليدي . فقد كشفت هذه الحرب الطاحنة عن الهاوية السحيقة التي تردت فيها الإنسانية من جراء ذلك العدوان الوحشي على أوليات مبادئ العدالة . فازدادت بذلك حاجتنا إلى مضاعفة الجهود بغية تحقيق العدالة بين الناس على وجهها الأكمل . ولعل أشد الناس عداوة للقانون الطبيعي لا يمارون في وجوب أن يكون للإنسانية مثل أعلى تهدف إليه وتسعى جاهدة إلى تحقيقه . فيجب إذن أن تتركز كل الجهود حول تقريب النظام القانوني الوضعي من هذا المثل الأعلى ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وليس عسيراً أن نلمس هذا المثل الأعلى في فكرة القانون الطبيعي ، إذا عمدنا إلى تخليصه من تلك الأفكار الخيالية التي تلحقه بما وراء الطبيعة ، فتجعله بذلك فوق مستوى إدراك البشر .

فمن المسلم به أن جوهر القانون هو النظام الذي يكفله الحاكم . فليس تمة من يجادل في أن المجتمع لا يمكن أن يقوم إلا على دعائم ثابتة من نظام مستقر . واستقرار النظام في المجتمع يقتضي نوعاً من التوجيه الذي يفرض على الأفراد بدافع أسمي من إرادتهم . ففكرة النظام يجب أن تسبق في وجودها وسائل تحقيقه . والقانون الطبيعي هو منبت هذه الفكرة ومستقرها ، فهو باعتبارها قانوناً كامناً في طبيعة الإنسان كفيلاً بأن يفرض نفسه كضرورة لإعداد الجماعة لقبول النظام ورسم الخطة الاجتماعية التي تهدي أعضاء المجتمع إلى الطريق القويم .

محمد علي عرفة

من تجارب الشعر

نهاية الأبطال

قصيدة في خمسة أناشيد

[« وكان الملوك إذا أشرفت عليهم منايهم أمروا بأنفسهم أن
يجعلوا في سفن ، ثم ترسل السفينة في اليم منشورة القلاع تدب في
خشبها نار بطيئة المسرى . فاذا انساب بها زاهر التيار وهبت له
الريح ، تأججت في بدنها النار وطار في أركانها شواظها . وكذلك
يلقى البطل العظيم بين أحشاء الماء وجوانح الهواء قبرا . . . »
توماس كارليل (١٧٩٥ — ١٨٨١)

الأبطال وعبادة البطولة ، تعريب محمد السباعي]

توطئة

امتد العهد الوثني في البلاد الإسكندنافية إلى نحو سنة ألف للميلاد حين
ثبتت المسيحية أقدامها في تلك الربع . وهذه البلاد الشمالية تمتاز بمنظر الشفق
القطبي الرائع ، والجليد الذي يغطي أراضيها معظم أيام السنة ، ونهارها الذي
يمتد طول أشهر الصيف ولياها الذي يستمر طول الشتاء .

شهدت البلاد الإسكندنافية في عهدها الوثني عصور صراع ونزال مجدت
فيها القوة والبأس ، وألهمت الحرب تأليهاً . تلك أيام الأبطال — الفايكنج —
المحاربين الأشداء الذين بلوا فنون القتال وغامروا في البحار على متون سفنهم
الشراعية ، وأغاروا على السواحل الأوربية قاصيها ودانيها ، فألقوا الرعب في
قلوب أهلها وعادوا بغنائمها وأسلابها واستوطنوا بعض أقطارها . وكان
الإسكندنافيون — كغيرهم من أقوام الشمال في جاهليتها — يعبدون آلهة
متعددة كبيرها « أودن » الإله الأب رب النصر والخلود ، الذي أعد
للأبطال جنة عرفت باسم « ولهلا » أي بلاط القتلى لا يدخلها إلا من مات

نهاية الأبطال

قتيلاً . وكانوا يقربون للآلهة على المذابح قرايين من البشر — ولا سيما اسرى الحرب — حيناً ، ومن الخيول والثيران والكلاب والصقور أحياناً .

عرف الإسكندنافيون في عهودهم تلك بالقسوة والبسالة . وكان من عاداتهم أن البطل الذي غامر في المعارك وألقى بنفسه في المهالك فلم يلق حتفه ، إذا أدركه الهرم ودعاه مرض الموت أشفق على نفسه أن يذهب بعد وفاته إلى عالم الأشباح السفلى ، فانتحر بطريقة غريبة عديمة النظير ؛ لكي ينال الخلود ويدخل « ولها » فردوس الأبطال . فكان يُسَجَّس في سفينة تزين له وتحمل بعده حربه ومتاعه وأسلابه ، ثم تطلق في عرض البحر بعد أن تضرم في شراعها النار . وهكذا يقضى البطل الهرم الذي لفظته المنية فيما خاض من الوقائع العديدة لمحبه بين الحرق والغرق ؛ لكي يصيب السعادة الأبدية التي يصبو إليها ، سعادة الحروب العظيمة والماكدب الفخمة في جنة « أودن » .

والقصة الشعرية التالية من وحى بلاد الشمال في جاهليتها ، وقد وصفت طرفاً من حياة الفايكنج رماتهم على حقيقتها في تلك الأزمنة الهمجية :

النشيد الأول : ميلاد

شَفَقَ حائلٌ يَجُرُّ ذيولاً شَفَّ في مُنْعَةٍ تلاشت نُصُولاً
وصل الأرض والسما ببحرٍ قد كساه الضباب شبه هيئوكل

وسمته شمس الصباح شُعاعاً زائفاً ، فاتراً ، نحيلاً ، مُضاعاً
في نهـار جهنم مداهُ شهور كل ساعاته تلوح وداعاً

في أقاصي الشمال حيث الأراضى ترتدى الشاج حلة من بياض
وتهبُّ الرياح تحمل قرأ جمد الماء في قلوب الغياض

أنشأ الرب مورطن الأبطال « اودن » الرب ذو الحى المتعالى
وهدهم إلى القتال فنونا ودعاهم إلى الوغى والنزال

وأعدَّ الفردوس للشهداء لا ينال الخلود في مُنتداهما
« وَلَهْلَاءَ » موئل السَّنا والهناء
غير رَهْط قضى بسُوح الدماء
ما حياة الرجال غير حِمَام
والذي مات في الفراش ذليلاً
قد تسامى إلى العُلا بالأنام
ليس أهلاً لدائم الأكرام
هكذا قُدِّر النظام قديماً
فمضت أعصرُ الزمان حثائلاً
وَيَوْمَ صافى الأديم ، سعيد
قد دَعَوْهُ « سِيغُورْد » لما روه
شبَّ في منبت الإمارة عزاً
فاذا ناهز الشباب زكياً
في ليالى الصفاء والأسمار
قد رَوَوْا أخبار البطولة قديماً
وفتانا أصغى بسَمْعٍ وقلبٍ
عقد العزم أن يعيدَ عهداً
بلغ القصْد من فنون القتال
وعنق السيوف تلمع وهجاً
في صراع الفتيان أحرز مجداً
وبساح الوغى أغار وجلى
حينما صال في الجمال وكراً
لابساً لامة القتال ، أغراً

نهاية الأبطال

يَعْصِبُ الرَّأْسَ مَغْفَرٌ لِمَا عَصَى وَعُطُوفُ الشَّبَابِ تَهْتَزُّ سَكْرًا

خَالَهُ النَّاسُ مِنْ كُفَاةِ السَّمَاءِ زُمْرَةُ الْخَالِدِينَ أَهْلُ الْبَهَاءِ
حَبْلٌ فِي الْأَرْضِ مَرشِدًا لِأَنَامٍ مَارَسُوا فِي الْوَعْيِ فَنُونَ الْعِلَاءِ

النشيد الثاني : قران

فِكْرَةٌ قَدْ تَمَثَّلَتْ فِي الْخِيَالِ وَتَجَلَّتْ بَغِيرَ رَسْمٍ مِثَالِ
صَبَّهَا الْعَقْلُ نُطْفَةً عَذْرَاءَ مِنْ رَحِيْقِ الْأَهْوَاءِ وَالْآمَالِ

وَحَبَّاهَا مِنْ الْأَثِيرِ وَجُودًا وَكَسَاهَا مِنْ الْجَمَالِ بِرُودًا
وَسَقَاهَا مَاءَ الشَّبَابِ صَبِيحًا فَائِضًا فِي دَمِ الْحَيَاةِ خُلُودًا

فَدُ تَرَوَّتْ مِنْ السَّمَاءِ بِهَاءَ وَمِنْ الْفَجْرِ رَوْعَةً وَضِيَاءَ
وَمِنْ الْوَرْدِ رَقَّةً وَأَرْيَجًا وَمِنْ الْحَرِّ نَشْوَةً وَصَفَاءَ

وَاسْتَعَارَتْ مِنَ النُّجُومِ عِيُونًا شَعْرٌ مِنْهَا نُورٌ يُشْرِعُ فَتُونًا
وَمِنْ الزَّئْبَقِ النَّدى خُدُودًا أَوْدَعَ السَّحَرُ فِي جَنَاهَا فَنُونًا

وَمِنْ الدُّرِّ تُغْرِهَا الْوَضَاءُ وَمِنْ الْغُصْنِ قَامَةً كَهَيْفَاءَ
نَيْشَرَ الشَّعْرُ فَوْقَهَا سِتْرَ حُسْنٍ مِنْ خِيوطِ التَّيْبْرِ الْمُشْرِعِ سَنَاءَ

فَإِذَا مَا تَجَسَّمَتْ بِكِيَانِ وَأُطْلَتْ عَلَى رَسْمِ الزَّمَانِ
تَبَخَّذَتْ شَكْلَ غَادَةٍ وَتَبَدَّدَتْ فِي حَيَاءٍ وَرَوْنَقٍ لِلْعِيَانِ

بَرَزَتْ وَسَطَ رَغْمَةِ الدَّامَاءِ كَكَعَابٍ مِنْ غَانِيَاتِ الْمَاءِ
وَالْأَوَادِي تَزْفُّهَا حَامِلَاتِ مُنْيَةَ الْأَرْضِ ، مَمْنُولِ الظَّلَامِ

نهاية الأبطال

زُهرَةُ (١) اليونان ابنة الأمواج بُعِثَتْ في الشمال غُرَّة تاج
دُعِيت « إِبْرُ نِهَيْلد » حين أضاءت مثل شمس فَرَّتْ حجاب الدياجي

نُشِأت في محبوبحة من نعيم مَعَ لِدَاتِ كدُرٍ عقد نظيم
هُيَّئَتْ للأمير خيرَ عروسٍ من كرامٍ قد زُوِّجَتْ بكرِيم

مَحْضَتُهُ الودادُ أنقى شعُور وحبته بمهبها الموفور
فأقاما في خَفَضٍ عيش طويلا زينة المجد والهوى والحبور

النشيد الثالث : أسي

مُسِنَّةُ الدهر من قديم الزمان لا يموت الشُّجاعُ موتَ الجبان
لا يموت الأبى فوق سرير صاغراً في مذلة وهوان

فاذا أَخْطَطَات حشاه السُّهامُ وتحمأه في الجِلاد الحِمامُ
خاف أن يترك الحياةَ مَهِيناً هَرِمًا ، مضه الأسي والسقام

مِيتَةً لا تليق بالأبجداد لم تحقِّ بالكماة والانداد
بعدها تشقى الروح في ظلمات من جحيم كدجا إلى الآبد

في مهاوى السكون والأشباح حيث لا ذِكرَ للوَفَى والسماح
لا ولا ذِكرَ للهوى وصبايا خالداً قد تُظْفِنُ بالأقداح

وأبو الخالدين « اودن » أَوْرَى للسطى الحرب في الملاحم سعرا
في رحماه العلى فوق الثريا حثُّ يجري كَيفُضُ المجره نَهرا

أقام البراز للأبطال في ميادين صولة ونزال

(١) الزهرة : فينوس ربة الجمال .

نهاية الأبطال

ليس يَهْوِي الصرِيحُ إِلَّا لِيَحْيَا وَيُعِيدَ الكُرَّاتِ غَيْرَ مَبَالٍ

ثُمَّ يَحُلُو لِلأَقْوِيَاءِ الطُّعْمَانُ وَإِنْتِشَاءُ بِخُمْرَةٍ وَرُضَابٍ
فِي نَعِيمٍ يَرِفُ فِيهِ الْجَنَانُ وَأَنَاشِيدُ رَنَمَتِهَا الْقِيَانُ

أَيُّ سَعْدٍ بَدَأَ وَأَيُّ هَنَاءٍ رُخِصَتْ فِي سَبِيلِهِ - وَهُوَ حَلِمٌ -
فَأَنَّ حُسْنَ الرُّؤْيَى وَطِيبَ الرِّجَاءِ زَهْرَةُ العُمَرِ وَالْمَى مِنْ فِدَاءِ

نَبِّئُونِي يَا أَيُّهَا الْكُتَّانُ أَخْبِرُونِي بِكُنْهٍ أَمْرِي وَرُدُّوهُ
لِي صَوَابِي ، فَإِنِّي وَلَهْـلَـهـانُ مِنْ حَبَبَتِهِمْ عَلَوَمَهَا الْإِزْمَانُ

إِنِّي مُشْفِقٌ حَزِينُ الْفُؤَادِ هَلْ أَلَاقِي الرَّدَى ذَلِيلًا مَعْنَى
هَلْ أَذُوقُ الْفَنَاءَ بَعْدَ الْجِهَادِ ؟ حَتَفَ أَنفِي فِي غَيْرِ سُوحِ الْجَدَادِ ؟

مِنْ حَيَاةِ الثَّرَى بَلَعْتَ عَيْتِيَا قَدْ تَقَضَّى مَا بَيْنَ حَرْبٍ وَحُبٍ
بَعْدَ عَمَرٍ مَضَى هَنِئًا رَضِيًا وَرَجَاءٍ أَطْلَعَ عَذْبًا نَدِيًا

لَيْتَنِي قَدْ لَقِيتُ حُلُوَ الْمَنَايَا لَمْ أَخَفْ رَقْدَةَ الظَّلَامِ خُلُودًا
فِي صِرَاعِ أَفْنَى عَزِيزِ الْبَرَايَا لَمْ أَكَابِدْ إِذْنِ عَنَاءِ الرِّزَايَا

هَكَذَا وَجَّهَ الْإِمِيرُ الْخَطَابَا أَثِيهَا السَّيِّدُ الْمَطَاعِ الْمَعْلَى
فَتَلَقَّى مِنْ الشُّيُوخِ الْجَوَابَا خَلَّدَ الدَّهْرُ مَجْدَكَ الْغَلَّابَا !

قَدَّرْتُ مِنْذُ مَبْدَأِ الْإِحْقَابِ قَدْ عَلِمْنَا مَشِيئَةَ الْأَرْبَابِ
إِنْ نِيلَ النِّعَمِ رَهْنُ السُّطَّلَابِ فَدَعِ الْكُمْدَ وَأَطْرَحِ إِشْفَاقَا

إِنْ أَطَالَتْ بِقِسَاءِكَ الْآجَالِ فَسَتَقْضَى كَمَا قَضَى الْأَبْطَالُ
لَيْسَ بِالسَّيْفِ فِي الْقِرَاعِ وَلَكِنْ فِي ضَرَامِ عَنَتِ الْهَلْ الْأَجْيَالُ

نهاية الأبطال

موتٌ حرٌّ ما بين نارٍ وبحرٍ بطلقُ النفسَ من شقاءٍ وأسرٍ
وُنيْلُ الخلودِ أعذبُ ورْدٍ أو يَغلو لأجله أيُّ مَهرٍ ؟

النشيد الرابع : خلود

يا بلادَ الجليدِ ، أرضَ الشَّمالِ إشهدي اليومَ ميتةُ الأبطالِ
أو قدي النَّدَّ في المذابحِ ناراً وأحرقِ الطيبَ في رؤوسِ التلالِ

قربى التَّقدِّماتِ فوق الصَّخورِ من خيولٍ وأبقُرٍ وصقورِ
قد أحبَّ الإلهَ ريحَ قُتَارِ تتعالى ذكيَّةٌ بالنَّذورِ

وأخرجي في مواكبِ تَبَّارى زفتِ القَرَمَ بأسلاً مغوارا
بزمورٍ شَجِيَّةٍ وطُبولِ وتراويلٍ من شَفاهِ العذاري

زَيْنُوا مَرَكَباً طویلَ الشَّراعِ جَهَّزُوهُ كِفارسٍ للقِراعِ
حَمِّلُوهُ مِنَ الغَنائمِ وَسُقَا وِسلاحِ الوَغَى وخيرِ المتاعِ

ثمَّ سَجَّوْا «سَيغُورْدَ» فوق الدروعِ قد جَاوَهُ كَالشَّمْسِ عِنْدَ الطَّلُوعِ
وَإِذَا مَا كَدْنَا الْأَوَانُ وَشِيكا أَجَّجُوا النَّارَ فِي سَوَارِي الْقُلُوعِ

أطلقوا في الخضمِ زَيْنَ الجَوَارِي (١) كلواءِ هَفَا بنورٍ ونارِ
فتمَّاداتٍ على أواذِي جَزْرِ بين تهليلٍ هَزَّ جَنْبَ الْبِحَارِ

تَبِعَتْهَا الْقُلُوبُ وَالْأَحْدَاقُ وأضاءت بنورها الآفاقُ
ومضت في سنائها نحو موتِ كتمته في صدرها الأعماقُ

(١) الجوارى : السفن ، جمع جارية .

نهاية الأبطال

سعيداً أيا كُنتي ألهيَّجاء قد ورثتَ الخلودَ بعدَ الفناء
هذه الأرضُ رددت في خُشوعٍ : الوداعَ الوداعَ حتى اللقاء !

نشيد

هلمى يا ربوع العـلا
والجلال
هيكَل المصطفين الالى
برزوا في الوغى والقتال
وأراقوا دما واستباحوا رحمى من عدوسما
في النزال
مجدى يا ذرى « ولها »
مجدى البطـل الأمـثـلا
زَيْنَ أهل الوغى في الرجال

مجدى الفـارس المجتـبى
في الأنـام
من جنى في العُلا الرتـبا
وسما بالفعال الجسام
قد علا محتدا وصفا موردا وأذلَّ الرعدى
بالجسام
وابتغى المجد مُنتسبا
وارتجاه له سبباً
للخلود برغم الحـام

هزأت روحه العاتيه
بالحُتوف
في حروب جرت داميه
حصدت أهلها بالألوف

نهاية الأبطال

لم يَهَبْ جَهْمًا حينما أَمَّهَا نافتا سَمَّهَا
في الصفوف

أَخْطَأْتَهُ الْقَنَا الْعَارِيه
فَأَعْدُوا لَهُ الْجَارِيه
كَيْ يَمُوتَ مِمَاتِ الْأَنُوفِ

جَهَّزُوا لِلْعُلَا مَرْكَبَا
ذَا شَرَاع
زَيَّنُوا لِلرَّدَى مَنَصِبَا
أَضْرَمُوا نَارَكُمْ فِي الْقَلَاعِ (١)
وَأَرْفَعُوا أَعْلَامَا فِي خِضْمِ طَمَا قَدْ حَوَى عَدَمَا
لِلشَّجَاع

تَغْنِ يَا بَحْرُ لَحْنِ الرَّدَى
رَجِّعِي يَا قَلَاعِ الصَّدَى
رَدَدِي الْيَوْمَ آيَ الْوَدَاعِ

هَلَايَ يَا رُبُوعِ الْعَلَا
وَالْجَلَالِ
هَيْكَلِ الْمُصْطَفَيْنِ الْإِلَهِ
بَرْزُوا فِي الْوَغَى وَالْقِتَالِ
وَأَرَاقُوا دَمَا وَاسْتَبَاحُوا رَحْمَى مِنْ عَدُوٍّ سَمَا
فِي التَّرَالِ

مَجْدِي يَا ذَرِي « وَلَهْلَا »
مَجْدِي الْبَطْلِ الْأَمْثَلَا
زَيْنِ أَهْلِ الْوَغَى فِي الرِّجَالِ

(١) القلع : الشراع ، يجمع على قلع وقلع .

النشيد الخامس : وفاء

وَجُمَةٌ خِيَّمَتْ عَلَى الْأَرْجَاءِ هَدَأَتْ بَعْدَ فُورَةِ الضُّوْضَاءِ
كَسَكُونُ جَهَمٍ تَلَا إِغْصَارًا كظلام ألمٍ إثرَ ضياءِ

رَجَعَ الْقَوْمُ مِنْ وَدَاعِ الْأَمِيرِ وَرَكَابُ الْمَوْتِ اخْتَفَى فِي السَّعِيرِ
فَعَيُونٌ حَسِيرَةٌ وَوُجُوهُ كَالْحُلُوتِ وَأَنْفُسٌ فِي هَدِيرِ

إِيَّاهُ ! لَكِنْ أَيْنَ الْأَمِيرَةِ أَيْنَا ؟ فَقَدْتُ مِنْ غُرٍّ الْأَعْزَّةَ زَيْنَا
خَفَّفُوا لَوْعَةَ الْكَآبَةِ عَنْهَا إِنْ جَنَسَ النِّسَاءُ أَدَمُ عَيْنَا

وَأَصْلُوكَ الْبَحْثَ فِي الْبِلَادِ زَمَانَا دُونَ جَدَّوِي فَأَيْنَ حَلَّتْ مَكَانَا ؟
كَيْفَ غَابَتْ وَأَيُّ سَرٍّ طَوَّاهَا ؟ أَيْنَ صَارَتْ ؟ ظَلَّ الْوَرَى حَيْرَانَا

غَيْرَ أَنْ الْإِلَهَ « أَوْدُنَ » يَدْرِي بِخَفَايَا قَدْ غَيَّبَتْهَا وَسِرِّي
فَهَى فِي « وَلَهْلَا » الْعَلِيَّةِ تَتَوَّى نَالَتْ الْخُلْدَ بِالْوَفَاءِ الْأَبْرِي

حِينَ حُمِّ الْقَضَاءِ لَا رَيْبَ فِيهِ طَالِبًا زَوْجَهَا الَّذِي تَفْتَدِيهِ
قَدْ عَرَّتْهَا هَوَاجِسُ وَشَجُونِ أَتَسَعَّرَتْ فِي الْفُؤَادِ وَحِشَّةُ تِيهِ

هَلْ تَخُونُ الْوِدَادَ تَنْقُضُ عَهْدَا لَقَرَيْنِ قَضَتْ بِظُلْمِهِ عَهْدَا ؟
شَارَكَتْهُ فِي نِعْمَةٍ وَبُؤُوسِ قَاسَمَتْهُ عِزًّا رَفِيعًا وَمَجْدَا

أَتَرَاهَا تَلْسَى الْوَصَالَ وَتَرْضَى بِيَعَادِ مِنَ الْمَنِيَةِ أَمْضَى
أَمْ تُرَاهَا ضَنْيْنَةً بِحَيَاةِ فِي التِّيَاعِ وَوَحْدَةِ الرُّوحِ تُقْضَى

لَمْ يَكُنْ ذَاكَ شَأْنٌ بَلَّتِ الْقُرُومُ مِنْ تَبَارُوكٍ فِي كُلِّ مَجْدٍ مَرُومٍ
فَازَلُوا الْمَوْتَ بِاسْمَيْنِ خِفَافًا وَسَمَّوْا فِي الْعُلَا سَمَوَّ النُّجُومِ

نهاية الأبطال

لم يكن ذاك خُلِقَها في الإباء لم يكن ذاك أمرها في الوفاء
لم يكن ذاك فِعْلُها ، فلماذا لا تضمُّ الحُمام يوم اللقاء ؟

عقدتْ بكرةً على الموت عزمًا وأسرتْ في صدرها الأمر حزمًا
جلدةً لا تعافُ ويردُّ المنايا مع زَوْجٍ يَعْنُو له الموت رغمًا

فاذا تُسجى الأمير الحليلُ (١) في ركابٍ له شُعوبُ (٢) دليل
وتعالى الضجيج بين جموع مُشغلت بالحمام — وهو جليل —

دلفتْ في مَسَرَّةٍ وُسكونٍ نحو عُرسٍ مُهيَّأ للمُنون
وثوت في سفينة النار تبغى رفقةَ الزوج — شأنَ زوج حنون

صعدتْ نحو « ولها » رُوحان في أوار الالهيب تصطحبان
طلابَ مَثْواكما بدار خلودٍ بين جمع الأبطال والشُّجعان !

هـللى يا ربوع العـلا

والجلال

هيكَل المصطفين الالى

برزوا في الوغى والقتال

وأراقودما واسـتباحوا حمى من عدوسما

في التزال

مجدى يا ذرى « ولها »

مجدى البطل الأمثلا

زين أهل الوغى في الرجال

[بغداد]

مير بصري

(١) الحليل : الزوج . (٢) شعوب : الموت .

مشكلات التعليم في لبنان

كانت سياسة التعليم في لبنان ورسم مناهجه ، وتوحيد برامجها ، وتحديد أغراضه ، من اعقد المسائل التي واجهها المشرفون على التعليم في تلك البلاد . وكان حلها معجزاً إلى عهد قريب . فتركت أموره موزعة بين الطوائف والجمعيات ، تستقل بتصرفها ، ولا ضابط لها ولا رباط إلا ما كان من نظم صورية توحد بينها شكلاً ، وإن لم تستطع أن تؤلف منها موضوعاً فتوجه الشباب وجهة وطنية صحيحة .

وقد يبدو ذلك عجيباً ، لولا أننا نعلم أن لبنان الكبير باسمه الصغير في حجمه ، قد احتوت مساحته المحدودة جماعات مختلفة الأجناس والعقائد متعددة النزعات والمذاهب .

فهذا العدد اليسير من السكان الذي لا يزيد على مليون ومائة وسبعة وخمسين ألفاً قد كثرت طوائفه وزادت مذاهبها على أربعة عشر مذهباً . ولكل جماعة عقيدتهم الخاصة ومبادئهم وتقاليدهم التي تؤثر في اتجاههم ، ثم لهم نزعاتهم وميولهم وما خضعوا له من عوامل خارجية ، كان لوضع البلاد السياسي السابق وحالتها الاجتماعية والنفوذ الأجنبي فيه تأثير كبير .

نشأ من كل هذا أن التعليم في البلاد لم تستطع الحكومة الاستقلال به ، أو السيطرة عليه سيطرة حقيقية ، بل إن مساهمتها في نشره وتوجيهه أقل من القليل ، على حين كان من حظ الجمعيات الدينية والأهلية والبعثات الأجنبية النهوض بالقسط الأكبر .

وعلى ذلك نرى التعليم في لبنان تنقسمه ثلاث جهات : وزارة التربية ، والجمعيات الوطنية ، والبعثات الأجنبية .

أما وزارة التربية فلم يكن لها قبل عهد الاستقلال إلا عدد محدود من المدارس لا يزيد على ٢٠٠ مدرسة ابتدائية و ٤ مدارس ثانوية غير كاملة تنتهي

عند الابتدائية التكميلية « الكفاءة » ، عدد تلاميذها لا يتجاوز ٢٠ ألفاً في حين كانت المدارس الحرة قد بلغ عددها نحو ١٦٠٠ مدرسة بين أجنبية وأهلية (ابتدائية وثانوية) كلها صرخت بها المفوضية العليا الفرنسية ، فهي وحدها التي كانت قبلاً تمنح إجازات فتح المدارس الخاصة ، وطنية أو أجنبية .

وكان مجموع تلاميذ مدارس الجمعيات الوطنية نحو ٨٠ ألفاً ، وتلاميذ البعثات الأجنبية ٤٠ ألفاً تقريباً ، وقد تأثرت هذه الأرقام فيما بعد بعوامل مختلفة ارتفع معها رقم المدارس الرسمية حتى بلغ نحو ٣٠٨ مدارس وزاد عدد تلاميذها حتى جاوز ٣٠ ألفاً كما سيأتي بيانه .

وينقسم التعليم الابتدائي إلى ثلاث مراحل ، كل مرحلة سنتان ، الأولى قسم التجهيز ويبدأ بعد مدارس الحضانة . والثانية القسم الإعدادي . والثالثة القسم الوسط . ويتقدم التلميذ في نهايته للشهادة الابتدائية الإعدادية ، ثم يقضى سنة في الابتدائي العالي ، فسنتين في الدراسة التكميلية ، لينال الشهادة الابتدائية التكميلية ، وبعد سنتين آخرين يتقدم للبكالوريا (القسم الأول) ثم سنة ثالثة للبكالوريا (القسم الثاني) .

وينبغي أن يلاحظ أن الكثير من الأقسام الثانوية بالمدارس الخاصة كامل يعد طلابه للبكالوريا بقسميها على عكس المدارس الرسمية كما قدمنا . وتستمد مدارس الوزارة مدرسيها من خريجي دار المعلمين التي يدخلها حامل الابتدائية التكميلية بعد امتحان مسابقة ، ويقضى فيها سنتين يمنح بعدها دبلومها .

أما التعليم العالي فليس للحكومة منه شيء ، وإنما هو قسمة بين الجامعة اليسوعية الفرنسية والجامعة الأمريكية . وكان إقبال أبناء البلاد على الجامعة الفرنسية أكثر منه على الجامعة الأمريكية حتى بدأ النزاع السياسي الأخير ، فتحول الاتجاه شيئاً ما . وقد أنشأت الحكومة هذا العام قسماً لدراسة الحقوق اللبنانية ، مدة الدراسة فيه سنة بعد الليسانس ، وألحقته بمعهد الحقوق الفرنسي ، فكان ذلك مثار نقد بعض الصحف الوطنية .

مما تقدم نرى أن أمر التعليم في مجلته كان متروكاً للطوائف توجهه جمعياتها حسب ما يتفق وعقائدها ومذاهبها وميولها ، لا يحد من حريتها شيء إلا النظام العام وبعض قيود صدر بها مرسوم بتنظيم التعليم الحر سنة ١٩٣٥ . وإذا عرفنا أن المعلم بمدارس الحكومة ليس مطالباً بشهادة عليا حتى اليوم

مشكلات التعليم في لبنان

(وقد ذكرنا نظام دار المعلمين) فهمنا السبب في أن مرسوم تنظيم التعليم الحر لم يشترط مؤهلاً لمزاولة مهنة التدريس بالمدارس الخاصة من أى درجة كانت إلا حصول المعلم على الشهادة الابتدائية ، واشترط في مدير المدرسة الابتدائية أن يكون من حملة الشهادة الابتدائية التكميلية ، وأما مدير المدرسة الثانوية فيشترط أن يكون حاصلًا على شهادة البكالوريا .

وهذا أهم قيد موضوع لمزاولة مهنة التدريس أو إدارة المدارس الخاصة ، وإن كان بعض المدارس الحرة يتخير فريقاً من الأساتذة من حملة الشهادات العليا . وقد ترك للمدارس المختلفة الحرية في اختيار أساليب التعليم وانتقاء الكتب ، كما ترك لها حرية التعليم الديني ، فوقف الحكومة منه موقف سلبي اكتفاء بالنص في المنهاج على أنه يمكن القيام بالتعليم الديني في المدرسة ومنهاجه متروك لرأي السلطات الدينية .

وكانت البرامج متأثرة بالنظام الفرنسي إلى حد كبير ، ولا تكاد تختلف البكالوريا اللبنانية عن البكالوريا الفرنسية في شيء إلا العناية بدراسة الأدب العربي أو الفلسفة الإسلامية للقسم الأدبي . ولهذا كان تدريس المواد المختلفة باللغة الفرنسية غالباً ، حتى تتاح للطلاب فرصة التقدم للشهادتين اللبنانية والفرنسية . ظهر من البيان السابق أن نسبة المدارس الرسمية إلى غيرها من المدارس الحرة نسبة هزيلة جداً لا تكاد تبلغ ١٣٪ . وقد تبدو غريبة ، على أنى إمكان تحليلها : ذلك بأن لبنان كان جزءاً من أملاك الدولة العثمانية ، التي كانت عنايتها بالتعليم محدودة أوقاصرة ، وكان للمدارس الرسمية المنشأة في عهدها صبغة إسلامية فهي المدارس الوطنية المعترف بها في نظرها ، فمن الطبيعي أن يختلف إليها من يريد من أبناء المسلمين .

أما أبناء الطوائف الأخرى فقد ألجأتهم الظروف أن يسعوا إلى طلب حماية دينية خارجية أو رعاية أجنبية ، وقد تم ذلك بمعاهدات عقدت في فترات متعاقبة مع الدولة العثمانية كان من أثرها هذه البعثات التبشيرية والجمعيات الدينية المختلفة وما أسست من مدارس تمتعت بحريتها التعليمية وبالإشراف الديني من هيئات أجنبية توطد بها مركز تلك المدارس الطائفية الوطنية والأجنبية .

وقد مر بتلك المدارس وغيرها أدوار من التطور سائر الزمن والظروف ... فلما انفصل لبنان في أعقاب الحرب الماضية عن الدولة العثمانية وخضع للانتداب

مشكلات التعليم في لبنان

الفرنسي ورثت الدولة الناشئة تلك المدارس الرسمية التي أخذت تتحول إلى مدارس مفتوحة للجميع ، وإن ظلت الكثرة فيها للمسلمين .

وفي أثناء ذلك قوى سلطان المدارس الخاصة : وطنية وأجنبية ، وتغلغل نفوذها ، فكانت كل واحدة تعمل من جانبها على تنشئة طلابها على النحو الذي ترتضيه ويطمئن له رجالها الدينيون أو الجهات المسيطرة على التعليم فيها وليس بينها من رابطة إلا الإعداد لشهادة البكالوريا يتقدم إليها من يريد من الطلاب . ولهذا انصرف أبناء الطوائف المختلفة عن المدارس الرسمية إلى مدارسهم الخاصة ، وقد حرص الكثير منها على أن يجعل له شهادة خاصة تمنح لخريجها . ولعل مما ينير سبيل البحث ونذكر منه مبلغ الاضطراب في سير التعليم حينذاك ، واتجاهه وجهات أخشى أن أقول إنها متعارضة من حيث الغاية ، أن نذكر أن الهيئات المشرفة على التعليم الحر الوطني والأجنبي متعددة باللغة الكثرة . فالمدارس الحرة تابعة لنحو ٢٠ هيئة دينية أو مدنية ليس منها المدارس الفرنسية التي يتولى الإشراف عليها جمعيات وهيئات مختلفة قد تبلغ العشرين وكلها يندرج تحت اسم واحد هو المدارس الفرنسية .

ويمكن أن نعد من هذه الهيئات البعثات التبشيرية والعلمانية فضلا عن مدارس الطائفة المارونية والمدارس الكاثوليكية والأرثوذكسية لكل من طوائف الروم والسريان ، والكلدان ، والأرمن ، والإيليا نس الإسرائيلية ، ثم مدارس الجمعيات الإسلامية .

فهذا العدد الضخم المتنوع من المدارس مهد لكل طائفة أن تبعث بأبنائها إلى مدارسها الخاصة بها ، حيث تشعر بكامل حريتها الدينية وإرضاء نزعتها الطائفية ، وعصبيتها المذهبية ، وإن أنتج من ناحية أخرى تنافراً بين بعض الطوائف وبعضها الآخر من جهة ، وبينها وبين المسلمين من جهة أخرى .

وقد شاعت الظروف السياسية أن تفرق بين جماعة المسلمين أيضاً ، فصاروا شيعاً ، منهم السني ، والشيعة ، ثم الدرزي ؛ وقد تعددت جمعياتهم وهيئاتهم التعليمية تبعاً لذلك .

نذكر منها على سبيل المثال للسنيين : جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ببيروت ولها مدارسها في العاصمة والقرى المسماة وكلية للبنين وأخرى للبنات في بيروت نفسها . وجمعية أخرى بهذا الاسم في صيدا ولها كليتها ، وجمعية ثالثة

مشكلات التعليم في لبنان

في طرابلس ولها كلية التربية والتعليم . وللشيعية مدارس جمعية الإصلاح العاملة، والجمعية العاملة الكبرى . والدروز مدارسهم وكلية في عبي (مدرسة الداودية) وإلى جانب ذلك توجد في بيروت كلية شرعية إسلامية تابعة لدائرة الأوقاف ويشرف عليها سماحة المفتي الأكبر للجمهورية اللبنانية، هي كلية فاروق الأول الشرعية .

وهذه الكليات والمدارس المنشورة في القرى المسلمة وفي المدن لا تكاد تختلف في نظامها عن غيرها من المدارس المدنية التي تعد للشهادات الرسمية إلا بالعناية بالثقافة الإسلامية وإذكاء الروح العربية في نفوس أبنائها ما عدا كلية فاروق الأول الشرعية، فإنها معهد ديني يعني بتخريج الطلاب المثقفين ثقافة مدنية إلى جانب التخصص الديني ؛ ليضطلعوا بأعباء الوظائف الدينية على اختلافها في الجمهورية اللبنانية بعد إتمام دراستهم العليا في كليات الأزهر أو جامعة فؤاد الأول .

ولو أردنا أن نكون فكرة واضحة عن توزيع أبناء الطوائف المختلفة من مسيحيين أو مسلمين على المدارس الرسمية وغيرها، وأن نتعرف نسبة من يتعلمون في مدارس غير مدارس طائفتهم إلى مجموع تلاميذ تلك المدارس، لوجدنا بيان ذلك في آخر إحصاء شامل صدر في سنة ١٩٣٩ - ١٩٤٠ .

ومنه يتبين أن الكثرة المطلقة لتلاميذ المدارس الرسمية من المسلمين، فهي تبلغ نحو ٧٠٪، وأن نسبة من يختلفون إلى مدارس غير مدارس طائفتهم قليل جداً لا يكاد يصل إلى ٤٪، وأن عدد الذين يتعلمون في المدارس الفرنسية (قبل عهد الاستقلال) يزيد على أربعة أمثال من يذهب إلى المدارس الأجنبية الأخرى، وهو أمر طبيعي يفرضه الوضع السياسي الذي كانت عليه البلاد، وهو السبب أيضاً في أن ثقافة السواد الأعظم من المتعلمين فرنسية .

على أن هذا الاتجاه أخذ يتحول والميزان قد اضطرب بعد أن اشتدت المنافسة بين الفرنسية والإنكليزية وكثرت المغريات

ثم نلاحظ أخيراً أن نسبة المتعلمين من المسلمين أقل من نسبة المتعلمين من المسيحيين . وربما أثر في انخفاضها قلة المدارس في المناطق التي يسكنها الشيعة .

وقد شعر المسلمون عامة بخضر هذه الناحية، خصوصاً حين رأوا أن للمسيحيين

مشكلات التعلم في لبنان

الحظ الأوفر من وظائف الدولة الكبرى ، فشرعوا يتداركون هذا النقص بشده الاقبال على التعليم العام والاتجاه إلى التعليم العالي خاصة ؛ كما أن هذا الوضع كان له اثره النفسى ؛ إذ جعلهم يشعرون فى العهد السابق انهم لا يستطيعون أن يتنفسوا كما يريدون بحكم الظروف ، فكانوا يتلفتون إلى غيرهم يستمدون منه العون ؛ ومن أجل هذا كانوا يحرصون على الانضمام إلى الكتلة العربية يستنفرون بها ويستشعرون العزة فى ظلها . فلما أهل العهد الجديد على البلاد وبسط عليها سلطانه اطمأن له الجميع وعملوا فى سبيله مخلصين متآزرين .

وقد صحب هذا الطور توسع فى إنشاء المدارس الرسمية وإقبال عليها من جميع الطوائف ، حتى بلغت بمقتضى إحصاء وزارة التربية لسنة ١٩٤٤ — ١٩٤٥

تقسيمهم بحسب الطوائف									عدد التلاميذ	عدد المدارس الرسمية
مختلف	لبناني	أرمني	نسطورية	مسلمون			كاثوليك	ماروني		
				درزي	شيعي	سني				
٧٣	١٠	٨	١١٠	٢٧٠٠	٧٤٦٢	٨٧١٩	٤٣٨٣	١٦٠٨	٥٤٤٠	٣٠١٢٢
										بنين وبنات

أما طلاب المعاهد الخاصة وطنية وأجنبية فليس من الميسور إعطاء إحصاء دقيق عنهم الآن ، وكل ما يمكن ذكره على وجه التقريب ان عدد الطلاب فى لبنان أخيراً يتراوح بين ١٦٠ و ١٧٠ ألفاً منهم نحو ٣٠ ألفاً بالمدارس الرسمية كما ذكرنا و ٤٥ ألفاً أو تزيد قليلاً بالمدارس الأجنبية عامة ، وباقيهم فى المدارس الخاصة الوطنية . هذه كانت حالة التعليم واتجاهاته والمؤثرات التى أثرت فيه فى العهد السابق . وقد أدرك رجال العهد الاستقلالى مبلغ ما فى هذا التبلبل والاضطراب من خطر على وحدة الأمة ، وشاهدوا آثاره البغيضة فى تفريق كلمتها وإضعاف شخصيتها فعملوا من طريق تغيير المناهج على التحرير من نير الاستعمار الثقافى وتوجيه الشباب وجهة وطنية صادقة .

من أجل ذلك ألقت وزارة التربية لجنة تنظر فى تعديل المناهج وتنقيحها واقتراح ما تراه كفيلاً بتحقيق الأغراض التى يتوخاها العهد الجديد فى الجيل الجديد .

شرعت اللجنة تعمل — فى العام الماضى — وصادفتها عقبات مختلفة ثبتت

لها حتى أمكنها أن تضع مشروعاً لتنظيم التعليم العام ، وكانت تبغى من وراء ذلك هدفين :

أحدهما يتصل بنظام التعليم ونوعه ومدته في المدارس المختلفة .
والثاني تحديد أغراضه وما ينبغي أن يرسم لتوجيهه وجهة صالحة لخير المجموع .

وقد انتهى الرأي إلى توحيد نظام التعليم الابتدائي وجعله عاماً للجميع ، فلا تكون هناك مدرستان ابتدائية وأولية (كالنظام المصري) . وقدرت مدته بخمس سنوات تبدأ من السادسة (بعد الحضنة) ثم يأتي التعليم الثانوي المتوسط في أربع سنوات ، تليها مرحلة التوجيه وهي ثلاث . اثنتان للبكالوريا قسم أول ، وواحدة بعدها للبكالوريا قسم ثان .

وعُدِّل نظام التعليم الفني بحيث أتاح لكل تلميذ ينتهي عند مرحلة من مراحل التعليم العام أن يتجه إليه . فبعد أن كانت هناك مدرسة فنية واحدة هي مدرسة الفنون والصناعات يدخلها الطالب بالابتدائية ليتعلم نوعاً من الصناعات على نحو ما كان بمدارسنا المتوسطة ، جعل منه نوع مهني يدخله التلميذ بعد الابتدائية ويقضى سنتين يتعلم فيهما الصناعة أو الزراعة ليصبح زارعاً أو صانعاً أو عاملاً فنياً .

ونوع ثان بعد المرحلة الوسطى ، ومدته ثلاث سنوات ، وينتهي منه الطالب بدبلوم كدبلوم المدارس الفنية المتوسطة في مصر .

ثم نوع ثالث بعد البكالوريا ، ومدته ثلاث سنوات ، يمنح الطالب بعدها دبلوماً عالياً . وبذلك يمكن مواجهة حاجات البلاد الملحة وإمدادها بالزراع والعمال والصناع المهرة والمهندسين والإخصائيين .

كذلك لوحظ عند وضع المنهاج أمر أساسي يتصل بالجواهر هو التوجيه الوطني والاتجاه العربي . من أجل ذلك اشتدت العناية بالجغرافيا والتاريخ القومي غير مرتبطين بجغرافية فرنسا وتاريخها (كما كانت الحال سابقاً) وأضيفت مادة جديدة إلى المنهاج هي التربية المدنية (التربية الوطنية في مصر) كتوجيه وطني يعرف منه الطلاب مقومات الدولة والسلطات المختلفة واختصاصها والحقوق والواجبات القومية والوطنية .

وإلى جانب هذا حرص المنهاج على العناية بالتاريخ العربي واللغة العربية عناية

صحيحة ؛ لما لها من جليل الأثر في بناء الشخصية وتعزيز الشعور بالقومية .
وقد أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة لتدريس مواد العلوم
جميعها في المدارس الابتدائية وفي المدارس الثانوية أيضاً ، إلا أنه أجاز بصفة
مؤقتة أن تدرس العلوم والرياضيات بلغة أجنبية في المرحلة الثانوية فقط ريثما
يتهيأ للأساتذة إعداد الكتب اللازمة لتدريس هذه المواد .

كذلك نزلت اللغة الأجنبية الواحدة عن عرشها فشاركها غيرها ، وأصبحت
المدارس مخيرة بين إحدى اللغتين الفرنسية والإنجليزية يتقدم الطالب للامتحان
في إحداها كما يريد ، كما ألغيت الفرنسية من رياض الأطفال بعد أن كانت فرضاً
عليهم . أما في المدارس الابتدائية فقد بقيت اللغة الأجنبية فرنسية أو إنجليزية ،
لاعتبارات فنية — في رأيهم — لا يجوز التسامح فيها .

وشئ آخر له قيمته اهتم له واضعو المنهاج حتى تصطبغ المدارس كلها بصبغة
واحدة . ذلك أن المناهج الجديدة أصبحت ملزمة لجميع المدارس اللبنانية على
تعدد طوائفها ومذاهبهم ، ولجميع المعاهد الأجنبية على اختلاف جنسيتها .
ولتنفيذ هذا ألغى امتحان معادلة البكالوريا اللبنانية بالنسبة للبنانيين ، فأصبح
على كل طالب أن يتقدم لامتحان البكالوريا اللبنانية إذا أراد الالتحاق بإحدى
الجامعتين ؛ وبذلك تيسر الرقابة على جميع المعاهد التي في لبنان من غير تفرقة بين
جنس أو دين .

على أن هذا الإجراء السليم لا يزال نظرياً ، ويحتاج في تنفيذه إلى
مفاوضات سياسية ليصبح أمراً واقعاً . فإن المدارس الأجنبية في
لبنان ، بل المدارس الخاصة الوطنية ، لا تخضع للحكومة اللبنانية ولا تملك
الحكومة الإشراف عليها أو مراقبتها حتى اليوم ، وإنما هي تخضع لنظام
يستمد قوته من معاهدة فرساي التي تنص على أنه يسمح للدول الموقعة على
المعاهدة أن تعلم بحرية اللغة الأجنبية التي تريدها على النحو الذي تراه من غير أن
تتعرض للمسائل الطائفية ، وقد وقعت فرنسا هذه المعاهدة باسم لبنان (بوصفها
دولة منتدبة) فكان لها حق التعليم باللغة الفرنسية في مدارسها طبعاً ، فضلاً عما
فرضه الانتداب من تدريس اللغة الفرنسية في جميع المدارس الوطنية . واستفاد
الإنجليز أيضاً من هذه المعاهدة باعتبارهم من الموقعين عليها . أما الأميركان فقد
عقدوا معاهدة خاصة مع فرنسا منحتهم نفس الحقوق التي خولتها معاهدة فرساي .

فلما عدل الدستور اللبناني سنة ١٩٤٣ وألغى كل ماله علاقة بالانتداب جدد الأميركيون معاهدتهم مع لبنان لحفظ حقوقهم المشروعة .
أما الفرنسيون فإنهم أرادوا أن يستفيدوا من ملحق معاهدة سنة ١٩٣٦ بينهم وبين لبنان (وهي المعاهدة التي لم يقبل الفرنسيون التصديق عليها حينذاك) فطلبوا تطبيق القسم الخاص بالاتفاق الجامعي ، وبه تمنح فرنسا مركزاً ثقافياً ممتازاً فتفرض اللغة الفرنسية في سنوات معينة وبعدد خاص من الدروس ، وتكون نسبة النجاح فيها عالية ، وأن يفضل المتخرج في المعاهد الفرنسية على غيره في وظائف الدولة . فلما لم يظفروا بالموافقة على هذا الطلب رفضوا هم أيضاً أن يسلموا برقابة الحكومة على المعاهد الأجنبية والخاصة طائفية أو غيرها . فالإشراف على هذه المعاهد لا يزال وفقاً عليهم حتى اليوم ، وإن لم يمارسوه عملياً في العهد الأخير .
من ذلك نرى أن الاتجاه نحو الإصلاح الوطني والتحرر الثقافي من طريق المناهج أخذ سبيله نحو التنفيذ ، ولم يبق إلا أن يجتاز المراحل التشريعية ليصبح قانوناً يجب العمل به ويسرى على الجميع نظرياً ، وإن بقي معلقاً عملياً . بالنسبة للمعاهد الأجنبية حتى تحل العقدة السياسية
وإلى أن يتحقق إشراف الحكومة الكامل على جميع معاهد التعليم تبقى بعض مشكلات قائمة ومصاعب تعترض سبيل الاتجاه الوطني السديد .
ولعل لجنة المناهج قاست الكثير من العناء والعنت حتى وصلت إلى هذا الحد من التعديل والتحويل ، وحتى ظفرت بإقرار مبدأ شخصية الدولة اللبنانية كأمة تحرص على قوميتها واستقلالها مع محافظتها على صلاتها الوثيقة بجيرانها . وهي في ذلك تنزع نزعة وطنية خالصة من كل زيف متحررة من كل مؤثر أجنبي . وبذلك يتبوأ لبنان المكانة الجديرة بشعب عرف بالنشاط والمثابرة والذكاء ، وساهم رجاله بجهود مشكورة موفقة في خدمة الثقافة والعلم .
وإنه لحبيب إلى النفس أن نرى ذلك البلد — وقد اكتوى بنار التفرقة — أصبح يدرك نعمة الاتحاد ، فاجتمعت كلمته والتقى أبناؤه في صعيد واحد بعد أن نبذوا الطائفية أو كادوا ، وتحرروا من العصبية فصاروا صفّاً واحداً نحو الهدف المنشود ، لا غاية لهم إلا أن يعيش الوطن عزيزاً كريماً ، مستقلاً حراً .

الأزمة الأولى

حنت الشفاه فالتقت وأبت أن تفارق الرحيق .
واستيقظت من نومي صارخاً :
— أحبها . . .

وطارت الأحلام فتحولت حياتي إلى أذني . . .
صمت مطلق . . .

إذن فمن الهاتف بتلك الكلمة الحلوة . . .
وذهب الرعب بقلبي . إنني أهذى في منامي ، وأهذى بصوت مرتفع يوشك
أن يوقظ القرية بأسرها . إنني أهذى بتلك الكلمة التي لم أجرؤ أن أقولها في
النور ، بل لم أجرؤ أن أقولها في اليقظة . إنها كلمة حلوة ولكنها رهيبة :
— أحبها . . .

وهل لفتي قروى في السابعة عشرة من عمره أن يهتف بتلك الكلمة
الساحرة الدنسة :
— أحبها . . .

ومن هي تلك التي أحبها ؟
استيقظ القلب ، وانطلق الخيال يسبح في ضباب من الصور اللامعة المخدرة .
ثلاث سنوات قضيتها بالقاهرة بعد أن انتقل أبي إليها ، ولكن تلك المدينة
العظيمة لم تحول من أخلاق الفتى الريفي ، ولم يستطع سحرها أن ينال من أخلاقه .
ثلاث سنوات . . . ثم هفا بقلبي حنين إلى قريتي ، فعدت إليها مع الصيف
أحدث عهداً بمن بقي من الأهل ، وألتبس في مراتع الطفولة حنان النشأة
الأولى . وظفرت بالحنان .
ظفرت بماذا ؟

الأزمة الأولى

لست أدري ! ولكنى أذكر فاطمة زوج قريبي وهى تحيطنى بدفء من رمايتها وبدفء من حنانها . لقد قبلتنى يوم أوبتى قبلة الأمومة . ثم قبلتنى فى اليوم الثانى فانتفض جسدى من القبلة الثانية . إن لها مذاقاً لم يكن فى الأولى . وانقطعت القبل . ولكنى لا أكاد أرفع بصرى حتى يلتقى بعينها الضاحكة ، فأحول بصرى ، ولكننى أشعر بعينها تجول فى صدرى ووجهى ، وتغمرنى بسيل من شعاع دافئ مخدر .

وتتابعت الأيام فأحسست شيئاً فشيئاً أننى لا أغادر المنزل ولا ألهو مع لدائى وصحبى . فأنا أسمر وأسمر مع فاطمة . ولم أكن كارها لهذا السمر ، ولكننى أيضاً لم أكن صاحبه ، فهى التى تتحدث ، وهى التى تمسكنى لديها وتربط حياتى بحياتها .

وما خطر لى السوء . وما كان لمثل قلبى الساذج أن يجول السوء به فى موقف يحوطه سياج من قداسة .

ولست أدري أكان عفواً أم قصداً أننى لا أكاذ أرمى ببصرى إليها حتى أشاهد ذراعاً عارية يلمع بياضها ويتفجر سحرها ، أو ساقاً ممدودة فى وضع فائق يتراقص حوله الخيال . ولكننى أحس بأنها ما كانت قط تستر ذراعاً أمامى أو تغير من وضع ساقها إذا جال حولها بصرى .

وكان زوج فاطمة يدلف فى سرعة إلى شيخوخة مبكرة ، وكان كشأن الكثيرين من أبناء القرية لا متاع له فى الحياة إلا أن يسمر مع صحبه فى ليالى الصيف المقمرة فى ذلك المكان المرتفع بجوار مسجد القرية . ويمتد السمر عادة حتى يوشك صائح الصباح أن يهتف بدعوة النور .

وظاطمة امرأة لا تطيق الوحدة ، فهى تؤمن بالأشباح والأرواح الشريرة ، وتخشى عبثها وعدوانها بالليل ، فلا عجب إذا تعلقبت بى ، لأسلى وحدتها حتى يؤوب زوجها .

واطمان الزوج واستراح إلى وجودى ، فهو كفيل بأن يعفيه من الشجار الدائم بينهما بسبب سهرته الليلية .

وكنا إذا جن الليل سارعت فاطمة فبسطت على سطح المنزل فراشاً وثيراً ، ونادت أن أصعد إليها تحت شعاع البدر فى هواء الصيف الفاتن لنمضى فى سمرنا . وعامت من فاطمة ما هى الحياة .

الآزمة الأولى

إنها تحدثني عن تلك الأسرار الخفية الحبيبة ، أسرار الغرام بتلك القرية الصغيرة . وهل لفتي مثلي أن يعرف أن في القرى غراماً ونجوى ؟
كنت لا أومن بهذا ، ولكن فاطمة ذكرت لي ألواناً وسافت إلى شتيتا من قصص عجب .

وكنت أستلقي وأسلم إليها أذني ، ثم أحلق بخيالي في تلك الدنيا السحرية التي أستمع إليها ، وأصبح في أحلام اليقظة .

وهل هناك أشهى إلى قلب فتى من أن يستمع إلى مثل هذا الحديث ! وفاطمة تعجب لجهلي ، ويعلو ضحكها لسذاجتي ، وتعجب أكبر العجب من فتى عاش في القاهرة بلد الهوى والجمال ، ولم يحب ، ولم يسمع أقاصيص المحبين .

وكنت أعجب أنا أيضاً لهذا ، ثم أطمئن قلبي بأنني فتى آثر النقاء على العبث والمجون . ألم أشاهد زكية تلك الفتاة العبلة الفاتنة التي سلبت نعمة البصر ، وهي ترفع ثوبها ، فلم أكد أنظر حتى غضضت بصرى وأغمضت عيني واستعدت بالله .

ولكن فاطمة تمضي في حديثها ، فأشعر بدبيب غريب يتمشى في قلبي ، وأشعر بشيء حي يتوالب في صدري بل في جسدي كله . . . شيء حار متدفق ، ثم يغمر روحي خدر حنون فاتن حالم ، ثم يحتويني ضباب أسبح فيه وأصبح ، فيصل إلى صوت فاطمة أشبه بهمس يأتي من عالم مسحور .

ثم يطرق الباب طارق ، فأعلم أن صاحب المنزل قد آب ، فتهبط فاطمة وأهبط معها لاستقباله ، ثم ينصرف كل منا إلى حجرته .

ولست أدري هل نامت فاطمة ، وهل نام زوجها ؟ ولكنني أنا لم أنم ! إنني أحلم وأتخيل بل أشعر بيقظة في جسدي ، يقظة متوثبة متمردة لا تطيق الفراش ولا يواتيها النوم .

القمر والنجوم وكل شيء في الطبيعة يهمس بالحب والجمال . هكذا خيل إلى وأنا سادر مسحور ، وفاطمة مني غير بعيد يغمرها ضياء القمر ، ويتلألأ على وجهها وجسدها شعاعه ، وهي تقص علي قصة زوجها .

— إنه رجل بخيل مقتر ، ثم إنه عليل مريض ، ثم إنه . . .
ولكنني صرخت :

— كلا يا فاطمة ! إنه رجل نبيل ، إنه سيد القرية ورجلها .

الآزمة الأولى

قالت في عيوس :

— إنه قريبك فلا عجب إن مدحته .

— قريبي ؟

أجل إنه قريبي ، وهذه المرأة زوجه تنال من كرامته بالقول وبغير القول .
وانهالت على خواطر عجيبة عن الحياة وألوانها .

ولست أدري أى صورة من صور الألم والغضب لبسها وجهي ، ولكنني
سمعت صوت فاطمة تقول في دلال :

— هل غضبت ؟

— كلا !

— لو ذكرت لك سرًا فهل تبقى عليه ، ولا تغضب منه ؟

— إن السر عندي مقدس .

— قريبك يحب !

— ماذا ؟

— يحب !

فقلت ضاحكا :

— مزاح غريب منك !

فأقسمت بالأولياء والصالحين أنه يحب فلانة التي توفي زوجها ، وهو يزورها
ويهدى إليها الهدايا .

فهمت بها :

— سيدتي ، إنك تتخيلين الدنيا كلها حبًا وغرامًا ، فكل إنسان يحب
حتى زوجك الكهل الشريف .

قالت :

— نعم ، كل إنسان يحب إلا أنت !

— كل إنسان يحب إلا أنا . . .

حقيقة كل إنسان يحب إلا أنا . . .

ألحت على تلك الفكرة القاسية : كل إنسان يحب إلا أنا ، وأنا لماذا لا أحب ؟
ولكن من التي أحبها ؟

استعرضت حياتي . إنها خالية من النساء . إنني أحب أمي ، وأحب عمتي ، وأحب

الآزمة الأولى

خالتي ، وأحب ... كدت أذكر اسمها ، ولكن وجهي التهب وركبني الخجل ...
وظل الخجل يلazمني حتى أنقذني الكرى .

ولكن هل نمت حقاً ؟ كلا لقد انتقلت إلى دنيا غير دنيائى ، دنيا أحلام
وأمان ، عربد فيها الحلم ، كما عربد الخيال .

وكانت يقظة الصباح رهيبة . أشعر بخدر يلف أعضائي ويمسك بروحي ،
وأحس رهبة من أن أغادر فراشى . إن الفراش هو دنيائى ، وأنا غريب إذا فارقتة .
ومرت ساعات النهار بطيئة ثقيلة ، وقلبي معلق بسهرة المساء ، وروحي تحن
إلى سمر الليل . . .

وضور هذا الجسد الفاتن تراودنى وتحادثنى ، وتتمثل لى فى أوضاع يلونها
الشيطان ، وتلونها الأمانى . . .

وفسد مذاق الحياة فى فمى ، وكرهت حديث لدائى ؛ لأنه يقطع على تصوراتى ،
وعفت لهو أمثالى فى القرية ؛ لأنه يعطل أحلامى اليقظى . . .
غدوت فريسة للوجوم والذهول !

وجاء المساء . . .

وآن وقت السمر . . .

وتلون حديثنا بلون جديد . إنها تحدثنى عن موقف زوجها . إنه يصبو إليها
ولكنها تصد ، لما أخذ يدركه من أعراض الشيخوخة والضعف . . . وهى الفتاة
اللينة الغضة التى انتهت الزواج منها فلان وفلان ، وداعبها السيد العظيم ،
وتمناها الرجل الكبير .

إنها تثرى نفسها بقصيدة نسوية معطرة بعبادة الجسم ، وتثرى نفسها
بدموع نسوية تثير الحنان وتثير القلب . . .

وأنا ، لى الله ، كنت أتقلب وأتلوى ، وأطوى جسدى وأنشره . تعصف
بصدرى ريح عاتية أحس توثبها وثورتها . أحسها حبيسة تبغى الانطلاق والتدمير .
إن جسمى ثائر ، ونفسى تن تحت ثقل الإحساس بالواجب . إننى أقاوم
نار الرجولة الأولى فى دمي ، وصيحة النداء العنيف القوى . . .

أقاوم وأحترق ، ويكاد يقتلنى الظمأ إلى الرحيق . . .

وتسلمنى الفراش خامد الروح ثائر الجسم ، وتلاحقت الصور فى رأسى
وطارت الكلمات بقلبي . . .

ثم طاف بذهنى خاطر جديد . إن ملامح فاطمة فى خيالى صورة من المعانى
لا صورة من عالم الحس . إننى إلى اليوم أرهب النظر الدقيق إلى عينيها . إن عيني
لم تشبع من محاسنها
آه إننى ظامئاً إلى جهاها

هذا الحياء ، هذه المبادئ الجامدة البالية . إنها تصدنى وتردنى وتحول بينى
وبين الفردوس .

— إننى تأثر . سأملأ عيني بجهاها

ما هذا الجحيم ؟ إننى أحس الحر ينضج من وجهى ، ويثب من أظافرى .
دفء وحر سعار من الجوع الملح العنيف . إن فى جسدى زلزالاً ، وأتلاً
أسمع دمدمته ، وفى أعصابى بركاناً أحس أزيزه . إننى قطعة من النار ، بل من
الجحيم

ومضى الليل بطيئاً ثقيلاً لم أنعم فيه بالكرى ، ولم أهنأ بتلك الغفوة الجميلة
المريحة التى هى نعمة كبرى من نعم الحياة لا يحسها إلا من فقدوها .

وكان صباح أحببته وما تمنيته . إننى أريد الظلام . أريد الخلوة والابتعاد
عن صخب الحياة . أريد أن أعيش فى عالم كل ما فيه خيال فاطمة وإشارة يديها
وضحكها الجميلة المتكسرة ، وعينيها المنادية المحرقة .

وازداد مذاق الحياة فساداً فى فمى . إننى أجلس إلى الطعام فأتصور فاطمة ،
فيشرد خاطرى حتى ينهينى إلى الوجود من بجوارى . وأجلس إلى صبحى أصم
أبكم حتى ينادينى مناد أو يسخر منى عاتب . ويعجب من أمرى من يعجب
إن فاطمة هى حياتى .

ولكن هل أحب فاطمة هذا الحب الطاهر الساحر الجميل الذى يضيف
إلى الإنسانية عطراً من عالم الروح ؟

هل أحب فاطمة هذا الحب الذى تخيله الشعراء إلهاماً وأنعاماً ، وتخيله
الرواة والقصاصون عالماً من المعانى العلوية ؟

كلا

ليس ما أحسه أنعاماً من موسيقى الفردوس ، ولست أشعر بذلك النور
العلوى ، ولا بتلك الأجنحة الملائكية تحملنى إلى سموات المعانى والجمال .

الآزمة الأولى

إننى أحس شخصها يزحم شخصى ، ونداءها يوقظ قاي ، وأشعر بخيالى
يحوم حول ذراع وساق

لقد تفتحت رجولتى على إغراء وإغواء . . .
لم أعرف تلك السعادة التى يتحدثون عنها فى أقاصيص الحب وأشعاره ، ولم
أر الفردوس المفقود ، بل أحسست الجحيم الموجود . . .
إنه اشتهاه جسم لا نداء روح . . .

وهذا الاشتهاه تثور عليه طفولة طاهرة ، وتثور عاياه نفس لم تتدنس ، بل
تنفر أكبر النفور من العبث ، وتنفر أكبر النفور من هذا اللون من الحياة .
لقد كانت طفولتى سعيدة ساذجة عابدة حتى أيقظها من أحلامها ذلك النداء .
وإن كان جسمى صبا ، فإن روحى لم تستسلم بل قاومت وأصرت على الوفاء .
ولكن هل لروح فتى مراهق أن تتغلب فى مثل هذا الصراع ؟ وهل
تسهر فاطمة بتلك المعركة الرهيبة التى تمزق أعصابى وتحرق قلبى ؟ إنها أنثى
تنشد الفوز ولا تعرف المعانى .

إنها أنثى كاملة : جسم ناضج دافئ حتى ممتلئ بفورة الرغبة ، وقلب متوثب
متطلع ينشد النعيم ويحن إلى التذوق ، وروح مرحة عابثة خفيفة ساحرة .
إنها أنثى كاملة ، ربطت حياتها إلى جواد كليل محطم كثير الأوراد والتساويع .
أنثى ضاقت بها تقاليد القرية ، فأحاطتها بجدران من فولاذ لا تفارقها ، حتى
ظفرت بى فكنت دنياها وكنت فريستها .

كنت أحس أنها تشعر بلذة فى إغوائى ، وتشعر بلذة حين ترانى مرتبكا
خجولا ، وتشعر بلذة إذ ترى أنوثتها تغزو قلبى وتملك روحى ، وتتنبس
فى أعصابى .

كنت المجال الحيوى لأنوثتها ، فتملكتنى فى عنف وحماسة .

وأسرفت فاطمة فى عبثها ، فما عادت تنجمل أن تبدو أمامى متبذلة ، وما
عادت تبالى ، فهى تضطجع أمامى ، وتتخذ ما شاءت من الأوضاع .

وأتى المساء وصعدت مع فاطمة إلى أعلى المنزل ، واحتوانا ظلام الليل الذى
أضيئه أشعة باهتة من نجوم الصيف .

والليل سحر على الروح والجسم ، وللحديث سحر على الروح والجسم .
وكان سحرنا بنحوراً في معبد الشيطان ، وأحسست أن فاطمة اعتزمت أمره
وهيباً ، وأحسست أن روحى قد سرقت . . . سرقها جسمى ، فغدوت جسماً
ملتهباً لا شأن للروح به .

وتشعب الحديث ، ومحور الدائرة واحد .

قالت فاطمة :

— أى النساء أحب إلى قلبك : أهي المرأة العيلة اللدنة الناعمة أم الغادة
الهيفاء الرشيقة بدنها وتوثبها ؟ وأى العيون أشهى وأجمل وأفتك : العيون
المتكسرة فى استرخاء وأحلام واستسلام ، أم العيون المنادية فى تحد وعنف
ورغبة ، أم العيون اللامعة الخاطفة فى خبث ومكر ، أم العيون الساذجة المانحة
فى دعة وصمت ؟

وما كنت محدثاً لبقاً ، ولا ممهداً للهاوية التى تجذبني فاطمة إليها . كنت
أشبه بالصينى الذى فرغ من تدخين مخدره ، واستلقى يحلم ويسبح مع الأجسام
السابحة فى دنيا أحلامه ونشوته .

وأدركت فاطمة بغريزتها حالتى ، فراحت تضحك وتسرف فى الضحك .

لم أكن ثائراً ، بل لقد هدأت تلك الفورة الجسدية الصارخة

وانقضى مساؤنا وعاد الزوج من سمره . ولست أدري أى صورة كان عليها
وجهى فلم أراه فى مرآة ، ولكن زوج فاطمة راعه أمرى وأخافه شحوب وجهى
فأحاطنى بمحناته ، وأخذ يسألنى عن صحتى ، فطمأنته فى تمتمة سريعة غامضة حاسمة
وانسلت إلى حجرتى .

واستلقيت أحلم وأتخيل ، ثم انفجرت العاصفة . . . جن جسمى ، وجن عقلى .
ولم أطق الفراش فوثبت منه ، ولم أطق حجرتى فغادرتها ، وأخذت أحوم فى
وَلَهٍ حول باب فاطمة ، وألهبتنى سياط لآترحم ، فغادرت المنزل وأخذت أجول
حول النافذة التى تنبعث منها انقاس فاطمة .

ثم أخذت أغدو فى القرية منطلقاً إلى الحقول . أحسست بالغريزة أننى فى
حاجة إلى نهك جسمى وتهدة ثورتى .

وانتهت على صوت المؤذن يدعو النفوس الجائرة إلى ربها فى فجر يومها
الجديد ، فتسالت فى بطنى إلى مسجد القرية .

الآزمة الأولى

طرق زوج فاطمة باب حجرتي ، ثم ارتد عنها لم يشأ أن يوقظني . لقد سره أنني في سبات عميق ، والنوم عنده علامة العافية .

والتصقت بالفراش وكرهت أن أغادره ، بل لقد اعتزمت أن أقضي به نهاري : وما كان هذا ليرضى فاطمة ، وما تريده المرأة تريده الحياة ! أيقظتني فاطمة فنهرتها للمرة الأولى في حياتي ، فابتسمت ولمع البشر في وجهها وخطف بصرها في تيه وعزة . إنها تريدني غاضباً . هكذا تقول فقد آلمها استسلامي وأدبي ! وألحت فاطمة ، وأصررت على البقاء ، فجلست على طرف الفراش ، وقالت : — كيف كان نومك بالأمس ؟

— كان نوماً سعيداً .

فاستضحكت قائلة :

— إذن فمن الذي كان يحوم حول باب حجرتي ، ومن الذي كان يدور حول نافذتي ؟

وثبتت من الفراش وثبة مجنونة ، وحملت فيها في ذعر ورعب صارخاً :

— من ! ...

وضحكت فاطمة ... وبكيت ...

ثم عبر الباني سرور .

من هنا وهناك

هـ . ج . ولز

وأمریکا الشمالية ، حيث تبنى الأمم مستقبلها على التطور والتدرج فان أثر ولز كبير جداً . وقد ولد ولز فى القرن التاسع عشر . ولكنه ، بخلاف كثير من الكتاب الانجليز ، قطع الجبل السرى الذى كان يصل بينه وبين وليده القرن العشرين . بل هو ثار عليه فى عقوق وإنكار ، ودعا إلى نفى مؤسساته . ونفى عن عقله وقلبه غبار العصر الفكتورى . وعبارة « العصر الفكتورى » من العبارات المألوفة فى بريطانيا وأمريكا . ذلك أن الانجليز فى عهد الملكة فكتوريا التى تولت الحكم أكثر من ستين سنة كانوا ينبسطون على هذا الكوكب . فى توسع جغرافى وتجارى ويزدادون رفاهية ومالاً وسلطاناً . وكان الشعور العام بين الجمهور أن الارتقاء سنة اجتماعية وأن شعب الله المختار هو الانجليز الذين يستعمرون الدنيا ويملاؤونها خيرات وبركات ، وأن نظام الامبراطورية هو فضل ونعمة ينعم بهما الانجليز على سائر البشر الذين ينشرون بينهم الحضارة — بل الحضارة المسيحية — ويقشعون عنهم الجهل والخرافات ويعلمون بينهم الحق والعدالة . وكان هذا العصر ، للنجاح المادى الذى يسود البلاد ، يلتزم العرف والعادات الاجتماعية ويعد الخارجين عليها ناقصين فى الكياسة أو متبشرين على نعم الحضارة . وكانوا من هذا الرضى على أنفسهم وعلى مؤسساتهم يكادون يعلمون العالم : أنه مادام لكل أمة ملكة مثل الملكة فكتوريا ، وديانة مثل الديانة المسيحية ، وتجارة حرة ، فان كل شئ يسير على

مات هـ . ج . ولز فى الثالث عشر من الشهر الماضى عن تسعة وسبعين عاماً . وكان فى الأشهر الأخيرة يشكو من تفاقم مرضه القديم وهو الديابيطس أى البول السكرى . وقد لازمه هذا المرض أكثر من ثلاثين سنة . وكان يعزوه إلى حادث وقع له وهو يلعب مع زميل حين شطحت ساق هذا الزميل فأصابته ولز فى إحدى كليتيه وعطلتها . وكان هذا منذ أكثر من خمسين سنة . ويرجع ولز بذاكرته إلى هذا الحادث لأن الطبيب الذى عالجه من إصابة كليته كان قد قال له إنه سيمرض فى المستقبل بالبول السكرى . ويبدو أنه كان لهذه الكلمة وقع فى نفسه حتى إنه كان لا يفتأ يذكرها . وعند ما صدقت نبوءة هذا الطبيب ألف ولز جمعية من المرضى السكرين أمثاله لبحث أسباب هذا المرض وعلاجه . وكان هو من أبرز أعضائها . ولا شك أن العناية العلمية التى كان يهيش بها ولز ويعالج بها مرضه هى التى أبلغته إلى قراب الثمانين على الرغم من هذا المرض الويل .

وقدمضى على ولز نحو خمسين سنة وهو يؤلف وقد استهنى بقصصه قلوب العامة والخاصة كما أنه كان يرشد الطبقات المثقفة بمؤلفاته الاجتماعية ويوجههم نحو الآراء الجديدة التى يؤمن بها الكثيرون من الساسة والاقتصاديين والاجتماعيين والسيكولوجيين فى جميع أقطار العالم . وأثر ولز ليس كبيراً فى القارة الأوربية حيث تبنى الطبقات المفكرة مستقبلها على الحركات الانفجارية والثورات الانتلالية . أما فى بريطانيا والأمم الاسكندافية وهولندا

أحسن ما يرام وتنقلب الدنيا إلى جنات يعيش فيها الأسود في صفاء مع الغزلان .
ولم يكن على الرغم من هذا النجاح للمادى ، وهذا الرضا العام بين الطبقات الثرية ، كان هناك نفثت في الأسس . فكان التعطل والفاقة والمرض كما كانت القسوة والفتك بل الخطف والنهب يفشو في أنحاء المستعمرات كما يفشو في أزقة لندن ومنشستر ، في المصانع التي كان يعمل فيها الأطفال ، بل في البيوت التي كانت تعمل فيها الأراامل اللاتي كن يعملن في النهار ويسهرن في الليل في كسب قوتهن بالأجر الضئيل ، مما عبرت عنه قصيدة «أغنية القميص» التي شرح فيها مؤلفها كيف تتعذب هؤلاء الصانعات وكيف تنهز أصابعهن من الإبركي يحصلن لأعلى العيش المنتظم بل على ما يمسك الرمق يوماً بعد يوم .

في هذا الوسط ، وسط العصر الفكتوري ، حيث المجد والتلاؤ في الظاهر ، والعفن والفساد في الباطن ، ولد ولز و برنارد شو وأمثالهما من الثائرين . وكان ولز يعيش مع أمه الخادمة في بيت من بيوت الأغنياء . وكان أبوه مدرباً قليل الكسب في لعبة التنس أو الجولف . وقضى ولز طفولته ، كما كان الشأن بين العائلات الفقيرة في «بندروم» . فلما أتم دروسه الابتدائية عمل في أحد المخازن التجارية الصغيرة ثم اشتغل بالتعليم ودأب في الدرس حتى حصل على شهادة بكالوريوس في العلوم . وقد أخبرني الدكتور هيوم الذي كان مديراً لمصلحة الطبيعيات في مصر أنه كان يزامله في تلك الدراسة ، وأنه كان يعرف فيه في ذلك الوقت الجد والذكاء مع الفقر والحاجة .

وأول ما ألف ولز من الكتب هو كتاب في تشريح الحيوان استعمل مدة طويلة بين الطلبة الذين يدرسون البيولوجية أي علم الحياة . ومن هنا نرى أن تربية ولز علمية

وأنه لم يدرس الأدب . والواقع أنه جعل العلم يغزو الأدب . فانه بدأ حياته الأدبية بأن استأنف حركة جول فيرن في الخيال العلمي بأن ألف طائفة من القصص وجدت رواجاً عظيماً مثل «حرب العوالم» و «طعام الآلهة» ونحوهما .

ونستطيع أن نقول إن ولز في العقد الأخير من القرن التاسع عشر شرع يرى رؤيا العلم في التقدم البشري الوشيك . كما أنه أيضاً استطاع أن يرى العفن والفساد في مؤسسات العصر الفكتوري . ولكن بدلاً من أن يعالج هذا الفساد بالثورة الماركسية كما هو الشأن في مفكرى القارة الأوروبية ، وجد هو العلاج في الطريقة الانجليزية العريقة ، طريقة التدرج والتطور باستخدام العلم . وهو إذا كان قد بدأ قصصه بالخيال العلمي المسرف على طريقة جول فيرن ، فانه انتهى بأسلوب رصين في التفكير العلمي لمعالجة مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ولذلك كثيراً ما هجر القصة إلى المقالة . ثم توسع في المقالات حتى صارت كتباً في دراسة الحضارة وعبوبها . حتى إذا كانت الحرب الكبرى الأولى شرع يتجه بقوة اتجاهها علمياً ويقول بضرورة الحكومة الواحدة للعالم كله . وقد تطورت هذه الفكرة عنده ، ولكنها منذ ربع قرن وهي بذرية محورية في جميع تفكيره

وأول تجاربه في هذا الميدان هو «خلاصة التاريخ» الذي ألفه باعتبار أن هذا العالم أمة واحدة قد جاهدت وحاولت في جهادها ، ولا تزال تحاول ، تحقيق الحضارة المثلى . ولأنه قصد إلى هذا الهدف ، فانه كاد يجعل التاريخ فناً إذ هو يستعرض حتى إنه يستصغر شأن إسكندر الأكبر ونابليون الأول ، كأنه يرى فيهما صورة غليوم إمبراطور ألمانيا الذي أشعل ، في الزعم العام ، الحرب الكبرى

من هنا وهناك

ماركس وطعن فيه ، واختصم بذلك جمهور الاشتراكيين الأوربيين الذين يعدونه مصلحاً معتدلاً يرتق ويرقع . إنه بهذه المثابة ، أى بالرتق والترقيم ، يؤخر الثورة ويفسد الوجدان الطبقي بين العمال . والحق أن ويلز من ناحية المزاج الاشتراكي أقرب إلى حزب العمال الانجليزى الحاضر بل إلى حزب الأحرار منه إلى الأحزاب الاشتراكية الأوربية . ومن السنين الأخيرة انبسطت له آفاق جديدة فى تفكيره العالمى . فدعا إلى إيجاد موسوعة كبرى تؤلف للبشر وليس لامة معينة ، بحيث تبقى هذه الموسوعة مؤسسة عالمية لها كتبها الدائمون ومترجوها وسكرتيروها ومكتباتها ومطبعاتها ، وبحيث تشترك فيها جميع الأمم ، وترجم إلى جميع اللغات ، وتطبع على طريقة الورق السائب حتى يستطيع تحريرها وتغيير أوراقها عاماً بعد عام بل شهراً بعد شهر وهى بالبيت عند قرائها .

وفى حياة ولز مأساة هى تطوره الدينى . فقبل نحو ثلاثين سنة ألف نحو أربعة أو خمسة مؤلفات يدعو فيها بروح المرسل المتحمس إلى الإيمان بالله . ولكنه بعد ذلك انقلب إلى تعطيل جامح حتى إن آخر مؤلفاته كان كتاباً فى نقد البابوية . ألحقه بآخر فى نقد التوراة . وكلمة « النقد » هنا ملطفة . لأننا لو وضعنا فى مكانها كلمة « نقض » لكنا أقرب إلى الغرض الذى قصد إليه . وقد أحزن هذا التحول كثيراً من الأحرار الذين كانوا فى بداية القرن يستشهدون بأقواله ويقتبسون منها كي يبرهنوا على أن عظماء المفكرين هم على الدوام من المؤمنين .

الأولى . ولكننا مع هذا الاستفراض نجد نبلا حين نراه يعرض لموكب الحضارة كأنه موكب بشرى وليس إنجليزيا أو ألمانيا أو فرنسيا . كما أننا نحس إحساسه ونجد عاطفته التاريخية تهز قلوبنا كما هزت قلبه حين يصف هذا العالم بأنه « قريننا الكبرى » .

ومنذ الحرب الأولى إلى الآن وهو فى هذا الكفاح الثقافى يحمل على الوطنية كأنها رذيلة ويوضح لنا أن ربط العالم اقتصادياً يجب أن يربطه سياسياً وثقافياً . ويضرب لنا المثل بمقارنة بين القارة الأوربية التى تحفل بيا بل من اللغات والأمم المتنازعة المتقاتلة وبين الولايات المتحدة الأمريكية التى يعيش سكانها أمة واحدة بلغة واحدة . ثم يعزو هذا الفرق إلى أن السكك الحديدية قد ربطت الولايات المتحدة فصارت شبكتها التى تربط مواصلاتها سبباً لاتحادها ، هذا الاتحاد الذى حرمت منه أوروبا لأن السكك الحديدية لم تدركها قبل أن تستقل أممها وتنفصل أقطارها . ثم يستخرج المغزى فيقول إن الطائرات والبواخر والسكك الحديدية والراديفون والتلغراف والبريد الجوى والصحف التى تحملها الطائرات ، كل هذه تربط كوكبنا الأرضى ، كما لو كنا فى قرية صغيرة . ولم يعد هناك مجال لأن يتجزأ هذا العالم دولا ودويلات يعيش كل منها فى سياسة قروية ومهارة حزبية دون النظر للمصلحة العالمية الكبرى .

وقبل أن يكون ولز عالمياً كان اشتراكياً . ولكنه بسبب تلك الحزازات الحرفية التى تلتشأ بين الكتاب والأدباء ، أنكر اشتراكية

من هنا وهناك

إلى المجهول

في الظلام الحالك حيث يختفي كل شيء . . .
بين العواصف الشديدة والرياح الغاضبة
أسلك وحدي طريقاً طويلة . . . إلى المجهول . . .

إنها طريق شائكة ، مخوفة بالأخطار
ولكن الحنين المنبعث في قلبي إلى المجهول
يشير همتي ويضاعف نشاطي ويشد قواي
فأسرع في سيري هائلاً بالعواصف والرياح
غير حائٍ بالأشواك تدمي قدمي . . .

ومن أعماق الظلام يشرق على نور ساطع
فأرى وجهاً مشرقاً تكتنفه هالة من نور
أثبت فيه عيني وأطيل فيه التحديق
فأرتعش منه وأضطرب اضطراباً شديداً
ويخفق قلبي خفقات قوية متزاحمة . .

ومن العواصف الهائجة اسمع صوتاً خافتاً
ولكنه ناعم ، له جرس رقيق يشير الأشجان
وبملاً صدهاء أذني وقلبي المضطرب
وكأنه يدعوني ويلح علي بالوقوف
لأنك طريق وأتجه نحو الوجه المنير . . .

وأشعر بقوة خفية تشدني بعنف
وكأن يداً خفية ناعمة تلامس يدي
لتقودني إلى مشرق النور ومبعث الصوت . . .
إن جسمي يرتجف لهذا الاحساس الغريب
ولكن اليد تشدني بقوة وعنف لا يقاوم . . .

وجه منير وصوت عذب ويد جبارة
تدعوني بل تدفعني في طريق جديدة
ألمح زهوراً ووروداً فرشت عليها
مماؤها صافية تتألق فيها النجوم
وجوها هادي جيل لا يعكره شيء . . .

من هنا وهناك

واقف متردداً دهشاً ، مضطرباً
وأحاول أن أخطو وأنجو من الظلام
لكن صوتاً جباراً ينبثق من أعماق نفسي
ارتعدت منه وارتجفت أضلعي لقوته
صرخ في بقساوة . . . في طريقك إلى الجهول . . .

فأمسح دمعين تحدرتا على خدي
وأغمض عيني لئلا أرى ذلك الوجه
وأطبق يدي على أذني كيلا أسمع الصوت
وأتحسس يدي لأنجو من اليد الجبارة
وأندفع في طريق ، على الشوك ، وفي الظلام . . .

عيناى مغمضتان ورغم ذلك أرى وجهها
وأذناى مسدودتان ومع ذلك أسمع صوتاً
ويدي طليقة ولكنى أشعر بقوة تشدها
أما قلبي ! فانه ليتقطع حزناً وهلعاً
ومع ذلك أندفع بقوة في طريق المظلم . . .

يفغرني ظلام مخيف ، وتلفحنى ريح عاتية
يدى الشوك قدى ، وأتعث في سبى
يهزنى الألم ، وتفيض دموعى بغزارة
ولكنى أتابع السير لأن ذلك الصوت الجبار
لا يزال يصرخ بى : في طريقك إلى الجهول . . .

شواره الطورى

[دمشق]

رسالة

وإذا الحياة على يديه جنة تشيع فيها الأنوار
وتعبق الرياحين ، حتى ينتلب المرء بها ، عند
نهاية المطاف ، إلى حالة من الوجود ، يتنفس
فيها ملء رئتيه ناعماً مطمئناً . . .
« ولكن لى حول ذلك الموضوع ملاحظة
أحس أن إغفالها لا يرضيك ، بل يفضبك ،
بل تجد فيه ضرباً من المصانعة ، ما زلت

« ... قرأت ، كمادتى ، ما تفضلتم به على
قراء العربية في عدد أغسطس الأخير من مجلة
«الكاتب المصرى» عن «الأدب بين الاتصال
والانفصال» فكنت معجباً ، كمادتى أيضاً ،
بهذا الأسلوب الرقراق الشفاف الذى يتناول
مشاكل الفكر والحياة مترقفاً هادئاً ، فيوسع
منها المضايق ، ويمهد العقبات ، ويجلو الغياهب ،

من هنا وهناك

على أنها محض خيال أو نتيجة شذوذ ، ويتجاوزها إلى ما اعتاد من حياته الخاصة وموحياتها الهزيلة . وهكذا تنسج الشقة بين الأدباء والحياة الواقعة وتزداد توتراً يوماً عن يوم ! هذا ما حدث لأفلاطون في فجر التاريخ العقلي ، وهذا ما حدث لجان چاك روسو ، وهذا ما حدث للمعري ، بل هذا ما يحدث اليوم لكل شاعر وأديب ومفكر .

« وكان المفكرون من قبل والأدباء ، يناضلون ويحرصون على رفع الجماهير إلى مستواهم الفكري دون أن تستنزلهم الشهوات إلى مستوى الجماهير ، وكانوا يلقون في هذا السيل من عنت الحكم وجور الأيام قاصمات الظهور . ولكن المرحلة الراهنة من تطور الانسانية أغرت معظم أدبائها بالمظاهر فوققوا عن النضال ، وحسبوا أن في الصحافة والجوائز والمناصب تقديرًا صحيحًا ، وأن في تأليف الكتب ونشر المقالات صيغة النضال المثلى . . . وهذا يعني أنهم نزلوا عن رسالتهم ، وانتقضوا على تاريخهم ؛ فليس ثمة من سقراط يجوب الشوارع ويحتك بالعامية يهديها ، ولا من أريحي يقوم اعوجاج السلطان بحد السيف إذا اقتضى الأمر ، ولا من معري يحتمل الأذى وينافح عن الحق ويبحث عن الحقيقة !

« فأديب اليوم بين أمرين أحلاهما مر : إما أن ينخرط في الحياة الواقعة ويفقد رسالته ، وإما أن يعتزل فلا يستطيع تأديتها .

« هذه هي المشكلة الحقيقية التي تهرع عالم الأدباء اليوم . هذا هو وجهها الصحيح ، وهذا ما أرجو أن تعالجوه في المستقبل . »

عبد الطيف سراده

تحمّل عليها وعلى مصطنعها ، في كل فصل من فصولك النقدية التي تمور بحب الحقيقة والدعوة إلى خدمتها إن في « حديث الأربعاء » وإن في غيره .

« أما هذه الملاحظة فهي أن « وضع » المشكلة التي عرضت لها في حديثك الشيق عن اتصال الأدب بالحياة الواقعة وانفصاله عنها ، جاء مغلوطاً . لأن صلة الأدب بالحياة قضية مفروغ منها ، فهي من الوضوح والبساطة بحيث لا تحتاج إلى نقاش وتقرير . فالأديب كائن حي يتأثر كغيره من الكائنات الحية بما يعمل في كيانه من جهة ، وبما يجري في محيطه من جهة أخرى ، وكل ميزته أن يعبر - مضطراً أغلب الأحيان - عن تأثراته بطريقة من الطرق !

« وحقيقة المسألة كما أحسب ، هي هذه الظاهرة في طبيعة الأدباء - لا في الأدب - التي وصفتها عند ذكر أبي العلاء بكلمة « وحشية » . فإن أكثر الذين حفظ التاريخ أسماءهم من الأدباء والمفكرين ينزعون إلى العزلة ، ويتبرمون بالناس ، ويتحامون ولوج الحياة العملية وشؤونها المباشرة ، ويلقون متعتهم الكبرى في التأمل الصامت . وقد لخص هذه الطبيعة شاعر قديم بقوله :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أظير

« ومن شأن هذه الطبيعة التي تنتظم الكثرة الساحقة من رجال الفكر والأدب أن تخلق الريب في نفوس الجمهور وتمنعه من تفهم ما يلقى إليه من المعاني والأفكار ، فيأخذها

[لبنان]

شرايت

شهرية العلم

ثعبان البحر

البحر . ويبلغ طول هذه الاسماك ستة أمتار ، وهي تشبه الشريط ولها القدرة على تخزين الهواء في عضلاتها وعظامها كما أن جلدها قابل للتمدد . وعند ظهورها على سطح الماء لا يبين منها إلا رأسها وجزء من زعنفة الذنب ، فهي في هذه الحالة أشبه ما تكون بالثعابين ، ولما تقع في الشباك سليمة ؛ لأن جسمها الطويل الرفيع يهشم بعضه عند ما يمسك الصياد السمكة ، وذلك لتصلبها نتيجة لتمدد الجسم بما فيه من هواء . وتستطيع هذه السمكة الخروج إلى البر والمكث فيه بضع ساعات . والواقع أن ثعبان البحر موجود فيه ، وأن ما عثر عليه حتى الآن لا يزيد طوله على أربعة أمتار . وهذه الثعابين توجد عادة في جماعات كبيرة ، وقد تسير في خط مستقيم ، حتى إذا مارأتها البحارة حسبتها ثعبانا واحداً له هذا الطول الذي زعموه . ولهذه الثعابين رئات كبيرة فيملؤها الثعبان بالهواء ويسد أنفه وينام على سطح الماء وقتاً طويلاً ، حتى إذا ما أحس بمفاجأة أفرغ الهواء من رئتيه وثقل جسمه وهبط إلى القاع . وهو يستطيع المكث طويلاً تحت الماء ؛ لأنه يتنفس الهواء الذائب فيه بواسطة الشبكة الدموية الموجودة في اللثة . ومما لا شك فيه أن هذه الثعابين كانت برية ، ويدلنا على ذلك وجود الصفائح البطنية في بعض الأنواع التي لا تزال تصعد إلى اليابس وتزحف عليه .

ماش القدماء في جو الأساطير ، وكان هذا هو العلم وقت ذاك ، إلى أن جاءت البحوث العلمية الحديثة ، فظهرت بعضها من الشوائب وقضت على البعض الآخر ، وخلفتها بعد ذلك للأدب . ولما كان العلم كريماً لا يهاجم ، فقد أبقى على أسطورة ثعبان البحر ، التي شغلت أذهان المفكرين وما زالت محل عنايتهم ، حتى تنتهي بحوثهم الحديثة منها . ولقد لعب الخيال دوراً كبيراً مع ثعبان البحر ، فكثرت حوله خرافات لا يستسيغها عقل ولا يهضمها منطق ؛ فقد روى بعضهم أنه رأى ثعباناً من هذه الزواحف طوله مائة قدم وله رأس في حجم البرميل . ومما يقيم دليلاً على عدم صدق هذه الرواية أن ثعبان البحر على هذا النحو من المبالغة في الطول لم يعثر عليه حتى الآن ؛ لأن الزواحف البحرية العظيمة قد انقرضت منذ أمد بعيد لم يشهده إنسان .

ومن العجيب أن هذه الخرافات ما زالت تحتل مكاناً لاثقاً في أدمغة البحارة ، ولم يتعرض لها العلم بشيء من التكذيب ما دام البحث وراء هذا الثعبان جارياً . ونستطيع أن نقرر أن روايات هؤلاء البحارة نشأت من رؤيتهم بعض الاسماك الطويلة التي تظهر عادة فوق سطح الماء مثل السمكة المجدافية والشريطية . ونظراً لندرة هذه الاسماك فقد اعتبرت من أسماك القاع رغم بهاء ألوانها ؛ قد عثر الشعراء بوصفها ونعتوها بلؤلؤة

شهرية العلم

كذلك الانسان ، فقد حدث أن بحارة إحدى السفن أمسكوا واحداً منها وراحوا يلهون به ، فلدغ أحدهم في سبافته فلم يهتم بهذا الحادث لأنه سمع من أحد الوطنيين في بوغاز ملقا أن تلك الثعابين لا تضر أحداً وأنها ليست سامة ، وبعد نصف ساعة على الحادث تناول البخار فطوره وغير ملابسه وصعد على ظهر السفينة يمرح ويمزح ولم يشعر بأي تغيير على صحته . وبعد ساعتين سقط مغشياً عليه وضعف نبضه واتسعت حدقتاه وتصبب جسمه عرقاً بارداً ، وبدا وجهه كأنما حل به خوف ، وأصبحت القصبة الهوائية بشلل تعذر معه التنفس إلى حد كبير ، وتورم مكان الجرح وما جاوره ، وعم الورم الذراع حتى الرقبة وتلون الوجه بلون أرجواني قائم . وحاول طبيب الباخرة محاولات عدة مخففة في إعطائه أدوية ، ولكن المريض استطاع أن يتناول شيئاً منها بعد حمام ساخن ، ثم لفظ هذه الأدوية على شكل سائل داكن لزج . وبعد عشرين دقيقة اعتبرت جسمه هزات عنيفة ، وعم الاحتقان البطن كله ، وأصبح التنفس شاقاً ، وأرغى الفم وفقد المريض وعيه تماماً ، وقضى نحبه ولم يمض على الحادث أربع ساعات .

وتعود إلى البحر بريشته فهو ما يزال يعمل في هذه الزواحف الخطرة ، فضمرت منها الصفائح البطنية ، وانمحت في أنواع كثيرة من هذه الثعابين . ، وتفرطح منها الذنب وأصبح كالزعنفة ليساعدها على العوم ، حتى أصبحت لا تستطيع العيش على اليابس فتموت بعد مدة ليست بالقصيرة إذا خرجت منه ، كما هو الحال في الحوت أو القيطس . وكثيراً ما يقذف البحر بعد هياجه بآلاف من هذه المخلوقات السامة إلى الشاطئ ، فتموت هذه الثعابين وترتاح أحياء البحر من شرورها . وقد يساعدها الحظ فيأتيها الموج ، ويأخذها مرة أخرى إلى البحر بعد أن يتعذر عليها الزحف فوق الرمال . . .

وتلد هذه الثعابين صغارها في الماء . ولهذه الصغار القدرة على العيش بمفردها ، ولو أن الأم تعتني بها فترة من الزمن وتحميها . وهذه الثعابين ليلية أي أنها تندس في الشقوق نهاراً حتى إذا ما غربت الشمس خرجت تبعث الرعب بين ساكني البحر وعماره . وهي كغيرها من الثعابين البرية كالناشر والبخاخ تقتل الفريسة بسمها وتبتلعها من رأسها ، وبذلك تستطيع أن تأمن أشواك الزعانف . وسم هذه الثعابين قاتل

صبيح فريج نرين المدين

شهرية السياسة الدولية

مؤتمر الصلح

والمكسيك وكوبا . وقد انتهت مناقشات طويلة إلى قبولهن جميعاً لا كأعضاء في المؤتمر يتناقشن في قراراته ويصوتن على صدورهما، ولكن كمقبولات تتقدم كل واحدة منهن بالأدلاء بملاحظاتها في الموضوعات التي تتصل بمصلحتها القوية .

وقبل أن يتناقش المؤتمر في مشروعات المعاهدات ، وأول هذه المشروعات هو مشروع معاهدة الصلح مع إيطاليا ، تناول بالبحث النصاب الذي سيتم عليه صدور القرار من المؤتمر : هل يكون هو نصاب الثلثين أو هو نصاب الكثرة المطلقة ، الأربعة عشر صوتاً في الحالة الأولى ، والاحد عشر في الحالة الثانية ؟ وكان مجلس وزراء الخارجية الأربعة قد قرر بالاجماع نصاب الثلثين ، ولكن جاء المؤتمر يعارض هذا النصاب بنصاب الكثرة المطلقة . وأحست روسيا أن هذا التيار الجديد ضدها ، وكانت تحسب أن معها سبعة أصوات غير صوتها فلا يمكن أن يعتمد نصاب الثلثين إلا بواحد من هذه الأصوات المكونة للكتلة السوفيتية . وحمل مندوب أستراليا على نصاب الثلثين ، وبعد مناقشات اشتدت فيها التعبيرات وافق المؤتمر على اقتراح بالتوفيق بين الاتجاهين : « أن يعرض على مجلس وزراء الخارجية القرارات الصادرة من الثلثين والقرارات الصادرة من الكثرة المطلقة العادية لينظر في نوعيهما معا . »

ولكن المناقشة التي جرت حول هذا الاجراء التمهيدى قد كشفت ما بين الجهتين الانجلوسكسونية والسوفيتية من خلاف .

أهم حادث وقع في ميدان السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى إنما هو انعقاد مؤتمر الصلح في التاسع والعشرين من شهر يولييه لسنة ١٩٤٦ . ولقد كانت هذه الانعقاد مقررأ بمن يحضره من الاحدى والعشرين دولة ، في اجتماع للاقطاب الثلاثة في موسكو ، وكانت مهمته النظر فيما سيعرض عليه وزراء الخارجية الأربعة من مشروعات معاهدات الصلح مع « الأعداء » ، فيبدي في اجتماعه التمهيدى ملاحظاته ، ثم تبلغ هذه الملاحظات إلى مجلس أولئك الوزراء ، ثم تستأنف دعوته للتوقيع على المعاهدات .

وكان المتفاهم عليه أن الدول المدعوة إليه لن تشترك كلها في بحث جميع مشروعات المعاهدات ، ولكنها ستوزع على هذه المشروعات بنسبة إعلانها الحرب وقيام حالتها بالفعل مع الدولة التي ستوصل المعاهدة إلى إقرار السلام معها .

ولم تنته بعد أبحاث معاهدات الصلح مع النمسا ومع ألمانيا ، واذن فالمعرض على المؤتمر في اجتماعه الأول إنما هو البحث في شأن مشروعات معاهدات الصلح مع إيطاليا وبناريا ورومانيا والمجر وفنلندة .

ولم تكن الدعوة الموجهة لحضوره إلا إلى الدول التي حكم « الاقطاب الثلاثة » أو « الدول الأربع » — بريطانيا العظمى ، والنولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى وفرنسا — بأنهن قد قاموا بواجب مادى واسع المدى في الحرب ضد الأعداء . فتقدمت دول أخرى قالت إنها قد قامت بهذا المدى وطلبت أن تحضر المؤتمر ، وهي ألبانيا ومصر

شهرية السياسة الدولية

ولعل الناحية الانجلوسكسونية كانت قد بيتت هذا الموقف ؛ لأنها نصحت لمستر بيغن وزير خارجية بريطانيا العظمى ألا يحضر ذلك القسم الأول الذي سيناقش فيه المؤتمر في هذا الاجراء . وقد شاءت انجلترا أن تضع الحلاف صارخا بين الدولة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ، فناطح مستر بيرنز وزير خارجية الولايات المتحدة مستر مولوتوف وزير الخارجية السوفيتية ، ودعت أستراليا نفسها لمنصرة أميركا ، ولم تتدخل انجلترا إلا عند الضرورة القصوى . ولو كان مستر

بيغن حاضرا ، وهو لا يمتلك أعصابه إذا وقف أمامه الرفيقان مولوتوف وفيشنسكي ، لكان موقف انجلترا هو الذي يكون في الصف الأول من المعارضة للاتحاد السوفيتي . ويلوح أن السياسة الانجليزية العليا تريد أن تترك الولايات المتحدة تخاصم روسيا ، وتتدخل انجلترا في الوقت المناسب للتوفيق ، وذلك للاستفادة من الجانبين .

وعلى أي حال فقد تجلى هذا الدور الاجرائي الأول عن تضامن الأسرة الانجلوسكسونية في الحظيرة الدولية .

القضية الفلسطينية

وقد يميز هذا التضامن في القضية الفلسطينية على الرغم من خلاف على السطح ليس غير . فمنذ عرفت انجلترا خلال تصريحات صدرت من الحزبين الجمهوري والديموقراطي الأمريكيين أن اليهود شأننا عظيما في الانتخابات الأمريكية حاولت استقلال هذه الظاهرة بدل أن تدعها تضغط على السياسة الانجليزية في فلسطين . فوجهت بريطانيا العظمى اهتمام الولايات المتحدة إلى الاشتراك في اللجان التي تؤلف للتحقيق وللوصية بخصوص النظام الجديد في فلسطين، وتركبتها تعنى بالناحية الاقتصادية ، استدراجا لها في الناحية العسكرية ، وهي تميل إلى جعل فلسطين ، بعد أن داهمتها ملامسات مصر والعراق ومواقف سوريا ولبنان ، منطقة استراتيجية لها في الشرق الأدنى . وقد انتهت في توصيات لجان الخبراء إلى تقسيم فلسطين إلى أربع مناطق : يهودية وعربية ، وقديسية ، ونجفية . والمفهوم من اليهودية أنها تكون دولة يهودية في الاتحاد الفلسطيني، ومن العربية أن تكون الدولة العربية فيه ، والقديسية أن « تكون المركز الانتدابي »

البريتاني ، وأن تكون النجفية هي المنطقة الاستراتيجية ، وستوضع فيها جميع الشكنات ، وتوضع فيها جميع المطارات . وهي واقعة بين مصر وشرق الأردن والمملكة العربية السعودية والعراق ذاته ، وقريبة جداً من سوريا ولبنان . وستكون هي كذلك على مقربة من أنابيب البترول المخترقة شرق الأردن وفلسطين والتي ستعبر قريباً من الحجاز إلى البحر المتوسط ، وإذن فأنايب الانجليز وأنايب الأمريكان ، وأولئك وهؤلاء مشتركون في أكثر من شركة استثمار آبار البترول في هذا الشرق الأوسط ، وأغلب الظن أن الرئيس روزفلت كان قد وعد الملك عبد العزيز آل سعود بعدم إدخال تغيير على نظام فلسطين قبل أن يستشير العرب . وها هي ذي اجتماعات بلودان في أوائل هذا الصيف قد انتهت إلى أن طلبت الدول العربية الدخول في مفاوضات مع انجلترا لهذا التغيير ، فجاءتها الدعوة إلى هذه المفاوضات . وقد سبقتها تصريحات وزير بريتاني مسئول أمام مجلس العموم أنها ستقوم

شهرية السياسة الدولية

ولكن قد تمت إجراءات استشارتهم ، وإذن سيكون تغيير النظام الفلسطيني على قاعدة التقسيم التحالفي . وهذا الذي سيكون إنما هو بتضامن الانجليز والاميركان في الشرق الاوسط ، وهو جزء من تضامن الدولتين البادى في مؤتمر الصلح .

على أساس تقسيم فلسطين . وسيذهب ممثلو العالم العربى إلى لندن قريباً للاستشارة consult بعد أن كان وارداً في الكتاب الأبيض الرسمى الصادر من إنجلترا في سنة ١٩٣٩ أن التغيير لن يكون إلا بموافقة العرب consent . واغلب الظن أنهم لن يوافقوا على التقسيم .

إيران

وجعلت بعض الانجليز يقيمون في بعض المناطق الجنوبية والشمالية في إيران . وعقدت اجتماعاً رباعياً بين إنجلترا وروسيا وإيران وتركيا ، وهي في ذلك الوقت ، نحو سنة ١٩١٠ ، تتفاهم مع روسيا على تحديد مناطق النفوذ في إيران فتترك لروسيا الشمال وتختص بالجنوب . وانتهى الاجتماع الرباعى إلى تعديل بعض التخوم بين الدولتين الايرانية والعثمانية ضمت بمقتضاها المنطقة القائمة فيها الآن آبار الزيت الانجليزى في جنوب إيران إلى إيران بالذات . ونالت إنجلترا ، أو شركتها الانجليزية ، امتياز البترول في تلك المنطقة الايرانية الجديدة ، وقام العمل فيها على اكتاف السكان العرب . وتريد إنجلترا في هذه الأيام أن تحفز العرب من أهل هذه المنطقة ، وهم سكانها الاصليون ، إلى أن يطالبوا بالالتحاق بالعراق ، أو على الأقل بالاستقلال الذاتى على غرار ما كان أهل أذربيجان يطالبون به من شهور . وإذن تحظى هي وحدها بالانفراد في إدارة المنطقة مباشرة وبواسطة العراق إذا شاءت . . . وهذه هي قصة جنوب إيران ونزول قوات هندية في البصرة . . . وسرى ما سيطراً عليها من تطورات .

وكذلك يمتد شيء من « الالتهاب » بين السكسونية والسوفييتية في جنوب إيران . فقد قامت إضرابات في معامل الزيت الانجليزية - أو الانجلوسكسونية - في جنوب إيران . فرأت إنجلترا أن هذه الاضرابات تدخل فيها اعتبارات سياسية آتية من جانب أنصار روسيا في إيران وهم حزب تودة الذى قام بما قام من أعمال في أذربيجان الايرانية . فأرسلت مدرعات إلى الخليج الفارسى أوقفها خارج المياه المحلية ، وبعثت بمجنود هنود من الهند إلى البصرة ، وهددت بانزال هذه الجنود إلى الأراضى الايرانية ، وبعثت حكومة طهران إلى حكومة لندن بالاحتجاج .

ومسألة تلك المنطقة الموجودة فيها معامل الزيت الانجليزى كانت لها تطورات طريفة . ذلك أن تلك المنطقة كانت تابعة للدولة العلية ، وأهلها من العرب ، وكانوا تابعين من قبل لولاية من ولايات العراق ، وكانت إنجلترا تعرف أن فيها آبار زيت يمكن استثمارها ، وكانت تركيا ترفض إعطاء امتياز البحث عن آبار الزيت في أقاليمها إلى أجانب ، فدارت للدورات الانجليزية بين الآستانة وطهران ،

المضايق

وجوية وبرية على الدردنيل بمجموع مساحتها نحو ٩٠٠ فدان، وتحويلها حق إنشاء مطار، مشرطة ألا يكون عدد القوات أو السفن الروسية في تلك القواعد محدوداً، على أن تؤيد روسيا في مقابل ذلك استقلال تركيا، وتضمن لها حقها في الدفاع المشترك عن المضائق. ومعنى هذا إبعاد إنجلترا واليونان ويوجوسلافيا وفرنسا واليابان اللاتي هن موقعات على معاهدة مونثرو.

ويغلب على الظن أن روسيا تتقدم بمثل هذه المقترحات التي تعرف أنها غير مقبولة من تركيا، مقابل ما لانجلترا في قناة السويس من مركز ممتاز في حدود سنة ١٩٣٦. وهي ستطالب بمقتضى تلك المقترحات بامتيازات في مواضع أخرى من العالم، ولا سيما في البحر المتوسط بعد أن وقفت إنجلترا وأمريكا موقف المعارضة من اقتراحها الخاص بطرابلس وبجزر الدوديكانيز.

ويلوح في الأفق إشكال المضائق بين روسيا وتركيا، يل بين روسيا وإنجلترا. وينظم أحوال المضائق من الجهة الدولية اتفاق مونثرو الذي عقد في سنة ١٩٣٦ لمدة خمس سنوات تجدد من تلقاء نفسها إذا لم تطلب غير ذلك إحدى الموقعات على هذا الاتفاق عليها قبل انتهاء فترة الخمس سنوات. وكانت هذه المسألة قد أثرت بين اجتماعات من الأقطاب الثلاثة، قم التفاهم في بوتسدام على أن كلا من الدول الثلاث العظمى تتقدم إلى تركيا بمذكرة خاصة بمطالبها. وقد تقدمت الثلاث الدول بمطالبها في الموعد المحدد قبل انتهاء هذه الخمس السنوات الثانية منذ أيام. والمفهوم أن المذكرة الروسية راغبة في أن يكون الاشراف على الملاحة بين البحرين المتوسط والأسود، مقصوراً على الدول التي لها شواطئ على البحر الأسود، وهي روسيا ورومانيا وبلغاريا وتركيا. وكذلك طالبت بمنحها قواعد بحرية

محمد عيسى

شهرية الفن

تصاوير أطفال

هذا الطغيان وتلك الذلابة لم أجدهما في معرض مستطرف حقاً ، هو معرض تلاميذ المدارس الأولية وتلميذاتها في الاسكندرية وهو المعرض الاول من نوعه ، دام من اليوم العشرين إلى الثلاثين لشهر يونيه من هذه السنة .

ساقى إلى هذا المعرض الصديق المصور البارع محمود بك سعيد ، ولولا اطمئنانى إلى ذوقه ما ذهبت ، فقد كانت نفسى تحدثنى أنى سأشاهد تطبيقات لـ « علم الرسم » فشدما دهشت حين تصفحت التصاوير وفرزتها ! ذهبت إلى المعرض مرة وثانية وثالثة لاستمتع بالطرافة والطراءة . فقد أصبت تمثيلات قد أفلتت من قيود الأصول المحككة وتخيلات نجت من الأوضاع المضبوطة . وجدت نفسى بين يدى الفريزة الطافرة والخاطر المبتكر ، وإنما هذا باعث الفن وتلك مادته (أنظر شكل ١ ، ٢ ، ٣) (١)

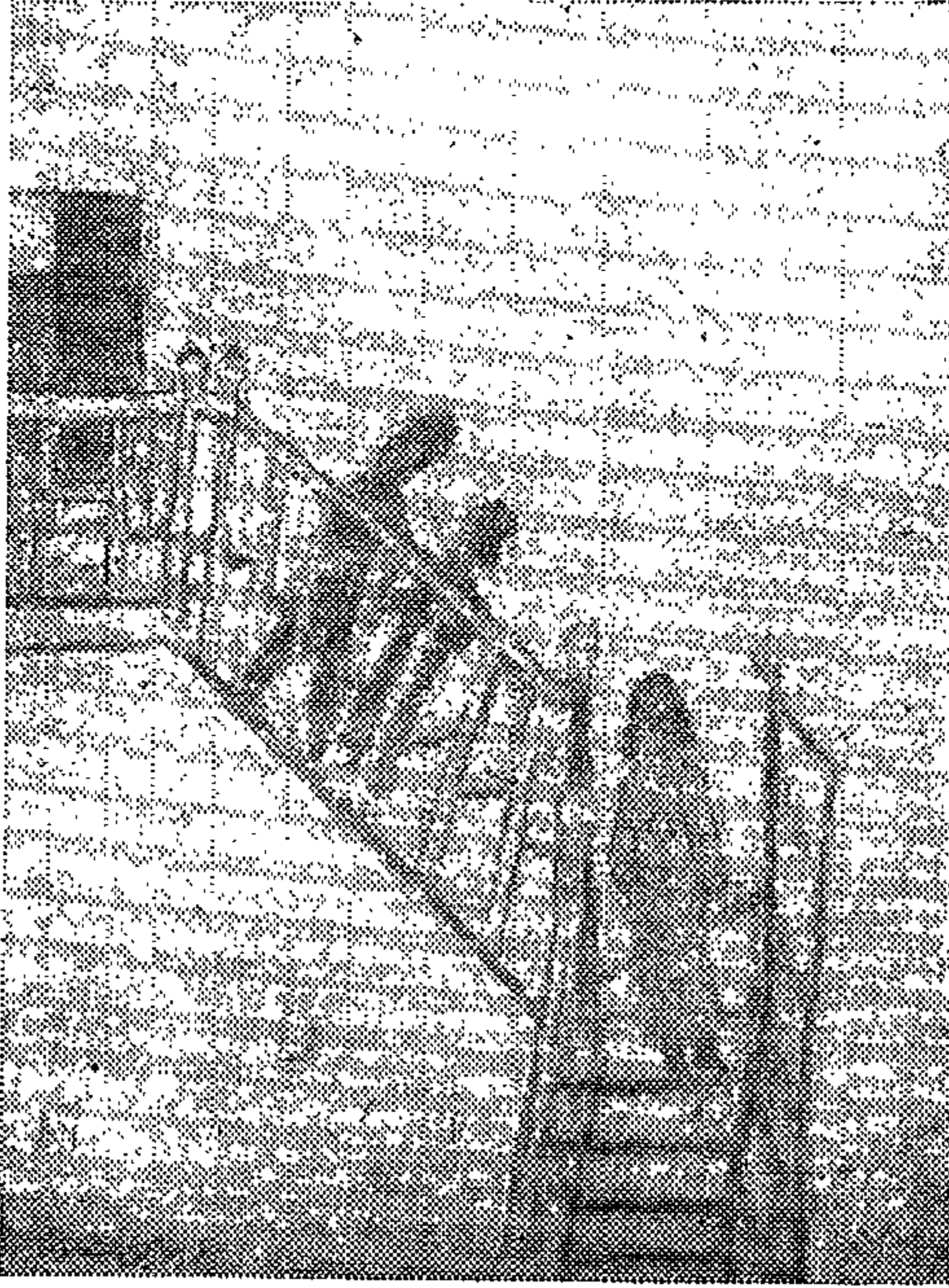
سيثور بعض القراء ، وبخاصة من له إقبال على التصوير أو به انعطاف إلى الفن ، فيقول : ألم تر إلى هذه الأخطاء البديهة في التخطيط والتجسيم ! أو لم تظن للجهل بمبادئ « المناظرة » ! ثم كيف أعجبتك هذه الوسوسات والتعتهات extravagances وهذه التلفيقات والمتناكرات Incohérences ؟ إنما أولئك صبية يعشون ويمخرقون .

كلا ! ما هم بالعابثين ولا بالمخرقين . هم يرقون على الورق ما يدور لهم من اللوائح

ماذا على أن قلت لك إنى أصبحت أقصد إلى معارض الفن في مصر ، ولا سيما المعرض السنوى أيام الربيع ، وأنا كاره مكره . أما أنى مكره فلا أنى لا بدلى ، من جهة المبدأ ، أن أتابع القرائح وأسائر المنازع ؛ وأما أنى كاره فلا أنى لا أجده في تلك المعارض شيئاً يأخذنى أو ينبئننى بأن مصوراً نبغ وأن فناً جمع لمحات تخيلته وشق مسالك لريشته . وليس في تلك المعارض ما يخرج عن المستوى السائد ، وهو مستوى متناقل . أجل ! إنك لتصيب معرفة بأصول الرسم ، وبصراً ببسط الألوان ، ودقة في محاكاة الواقع . ولكنك لا يهتز شعورك لمعنى دفين ، ولا يسرح خيالك مع رؤيا من الرؤى الشوارد ، ولا يدهش عقلك إزاء طريقة من طرائف الأسلوب . حتى للبرزون من المصورين — ولا يزيدون على أربعة أو خمسة — تراهم اليوم كأنهم ثابتون حيث ابتدأوا ، والثبوت في الفن من هرب القريحة وجود الشخصية .

إن صناعة التصوير عندنا في أول نشأتها ، وليس لها تقليد ترجع إليه أو تعول عليه . ومن هنا ضعفها . وهناك سبب آخر أبعد خطراً وأشد فعلاً ، وإن لم يعالج شأنه ظل التصوير عندنا فاتراً أو ساقطاً . وهذا السبب يتلخص في طغيان « القواعد » على « القرائح » أى في غلبة الأصول الموضوعية للرسم والتصوير على لطائف الاحساس ولوامع الخيلة تعقيهما وثبات الريشة على الورقة أو اللوح .

(١) صورها بالفوتوغرافية الاستاذ على رضا . وقد اقتنى الصورة الثانية محمود بك سعيد ، والصورة الثالثة السيد زاهر ، والصورة الأولى صاحب المقال .



شكل ١ : زيارة

في معرض تلاميذ وتلميذات المدارس الأولية
في الاسكندرية (١٩٤٦)

نضرب في جنباتها إلى عالم موهوم كله رضى
فيها الغريب وفيها الشاذ ، لا يحبسها العقل
فلا يدركها ، ولكن يتفهمها الاحساس الفياض .
هؤلاء الثلاثة وأمثالهم يلتقون بالأطفال
على وجه العموم في ميدان البساطة الفطرية
وإهمال الواقع والشروط مع الخاطر (وازن
رقم ٢ برقم ٤ ورقم ٣ برقم ٥) .
بقي أن أقول كلمة في مذهب هذه التصاوير ،
فلتكن مختصرة حتى أعود إليها في بحث طويل :
لا أشك بعد التأمل والتبصر أن هؤلاء
الأطفال عمدوا من طريق الوراثة وبفضل
البدية إلى الأسلوب الشرقي في التمثيل . وهذا
الأسلوب نشأ منذ القرون المسيحية الأولى في
سورية والعراق وفلسطين ، ومنها امتد إلى
آسيا الوسطى من جهة وإلى مصر من جهة
أخرى حيث زحم المذهب الهليني . وأول مظهر

والأفكار ، ولا تضيق من جهة الخط
لذى يجب أن يكون مستويا ، والنقل
الذى ينبغي له أن يكون أميناً ،
والأسلوب الذى لا يقوم إلا إذا أحكم ،
والصنيع الذى لا يحسن إلا إذا فتن .
هم على بدايتهم وسذاجتهم primitifs .
ومن هنا ظرافة تفكيرهم وطرافة
تعبيرهم ، ومن هنا ، قبل كل شيء ،
تلك الشخصية النقية التى كأنها تقفز
من مطاوى الصورة . وهل ننسى أن
من هذه الصفات ما أنال التصاوير
الاسلامية العربية شهرتها ؟ وهى
التصاوير المنسوبة إلى مدرسة بغداد ،
والتي بها تتجلى مخطوطات من مقامات
الحريرى وكتاب كيلة ودمنة وكتاب
الأغاني وغيرها ، مبثوثة هنا وهناك
في المتاحف والخزانات الوطنية .

هل أخبر المعترض أن أعلاما من
التصوير الغربى الحديث جعلوا همهم
الرجوع إلى البداهة والسذاجة ؟ حسبي

أن أذكر ثلاثة لا يجهمهم أحد ممن
له اطلاع على مناحى التصوير ؛ أذكر
هنرى ماتيس Henri Matisse الفرنسى ،
وراؤل دوفى Raoul Dufy الفرنسى ،
ومارك شاجال Marc Chagall الروسى
اليهودى : أما ماتيس (أنظر شكل ٤)
فقد عدل عن التعاليم الجافة l'académisme
وركض يبعث عن الفطرة يستردها حتى نجما
مما هو متسق وبلغ ما هو بسيط ، فاستطاع
أن يهمل الطوارىء والاضافات ليقبض على
الجوهر الخفى والمعنى الخالص . وأما دوفى
فنبذ المهارة إشاراً لطريقة الجهلة بقواعد
الرسم ، حتى إنه كان يخطط بيده اليسرى ،
وكان لا يعبأ بمطابقة المواقع ؛ إذ كان يقول :
« ما الطبيعة سوى افتراض » . وأما شاجال
(أنظر شكل ٥) فهو المنطلق من الدنيا التى

شهرية الفن

بطراءة أولئك الصبية ، وألا يحدوا من قرائحهم ، ويبطئوا من خواطرهم ، وهم يلقنونهم الأصول والقواعد . بل يحسن بهم ان يتركوا للبديهة ، سواء كانت واعية أو غافية ، منافذها ومسالكها بل مقافزها ، حتى يخرج إلينا بعد حين أصحاب فن حي طريف مستمد من تقاليد بلدية . ولن نبالي إذن هل هو سار على نظام المراثيات موافق لتفاصيلها ، وهل هو محكم السبك متشاكل الأجزاء . فليس من هم الفن الصحيح محاكاة الواقع ولا تنسيق الحياة . ومن ذا الذي يستطيع أن ينسق الحياة وكلها اضطراب ! وأما الواقع فمظهر يحف به الشك .

لهذا الأسلوب تلك التصاوير التي كانت تعلق جدران الكنائس في فلسطين والعراق وصحراء لوبيا ، ومثل التزاويق التي تضمها أناجيل ومزامير مخطوطة في الديارات العراقية والشامية والمصرية . وقوام هذا الأسلوب — في الجملة — التعبير القصصي *narratif* الذي يعنيه ما في النفس من مجاهدات *dramatique* ثم التأليف الذي لا يبالي بالمطابقة والتشاكل *assymétrique* .

وبعد فلا يسعنا إلا أن نشكر للذين قاموا بهذا المعرض اللطيف تلك المتعة التي هيأوها لنا ، وأن نهني التلاميذ والتلميذات ونهني معلمهم . وإني لأرجو من هؤلاء ألا يذهبوا

بشر فارس

ملاحظة

نجد الأشكال ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥
في الورقتين المصقولتين في هذا العدد

شهرية المسرح

مسرحيات جان أنوى

من المسرحيات التي تحدثت عنها هذه المجلة (١) .
وليس من البعيد أن يشهد القاهريون في
الفصل المقبل ملهامة لجان أنوى ، إن تحقق
ما يقال من أن فرقة تمثيلية فرنسية ستزور
مصر في الشتاء .

وقد نشرت دار كالمات - ليقي أخيراً
القصص التمثيلية لجان أنوى في مجلدين : جمع
أحدهما « المسرحيات السوداء » وهي :
« الهرمين » (١٩٣١) ، و « النافرة »
(١٩٣٤) ، « والمسافر بغير متاع » (١٩٣٦)
و « أوريديس » (١٩٤١) ؛ وجمع ثانيهما
« المسرحيات الوردية » وهي « مرقص
السراق » (١٩٣١) التي يسميها الكاتب
« ملهامة راقصة » و « موعد سان ليس »
(١٩٣٧) و « وليوكاديا » (١٩٣٩) .
فأنت ترى أن الكاتب قد عني بالتمثيل منذ
منذ وقت طويل وأنه كاتب خصب ؛ فأننا إن
أضفنا إلى هذه القصص قصة « أنتيجون »
كان إنتاجه قد منح الملاعب ثمانى قصص في
خمس عشرة عاماً .

وقبل أن نعرض لدرس هذا الإنتاج
الضخم يحسن أن نلاحظ أن جان أنوى قد
أتيحت له المثلثة البارعة التي تترجم عنه في
توفيق عظيم وهي مونييل قانتان وزوجه .
وهي التي ابتكرت شخص أنتيجون ومثلت
دور تيريز في قصة « النافرة » . ونلاحظ
أخيراً أن الكاتب يهيئ الآن ملهامة جديدة
عنوانها « روميو وجانيت » وقد أعلن أن
لا صلة بين هذه القصة وبين قصة شكسبير .

لم يكن جان أنوى مجهولاً قبل الحرب ،
ولكنه لم يكن يستمتع بالتقدير الذي تظهره
له كثرة الشعب الفرنسى ، كما أنه لم يكن
يشغل المكانة الرفيعة التي يشغلها الآن بين
كتاب الملعب الفرنسى . فما مصدر هذا الفوز
الذى أتيح له الآن ؟ مصدره أولاً أنه شغل
الفراغ الذى أحدثته وفاة جان جيرودو الذى
يؤثر فيه أحياناً بظرفه وخفته وإن لم ينتسب
هو في صراحة إلى مذهبه . وثانياً لأن قصته
الآخيرة « أنتيجون » قد جاءت في الوقت
الذى كانت فرنسا تخضع فيه لمخنتها القاسية
إذ كان الصراع بين هذه الفتاة من أميرات
تتيا وبين خالها الطاغية كاريون مذكراً
الباريسيين بما كان بينهم وبين العدو المحتل
لمد ينتهم من صراع اثناء ظفره المؤقت .

وقد عرضت في أول الشتاء الماضى على
الباريسيين قصتان مختلفتان لجان أنوى .
فبينما كان ملعب لا تيلييه يدعو إلى شهود
الحفلات الآخيرة لتمثيل « أنتيجون » كان
ملعب كوميديا الشانزيليزيه يدعو إلى شهود
تمثيل « النافرة » للمرة المتتمة لاثلاثمائة .
وكان المقرر أن يفتتح مؤتمر الصلح في
الخامس عشر من شهر يونيو الماضى في باريس ،
فأعد الفرنسيون لهذه المناسبة ضروباً من
الحفلات كان من بينها أن استأنف الملعب
الصغير في ميدان دنكور تمثيل مسرحية
« أنتيجون » . وقد شهد أهل القاهرة
هذه « المأساة » في الفصل التمثيلى الأخير ،
عرضتها عليهم فرقة تمثيلية فرنسية فيما عرضت

(١) الكاتب المعمرى عدد ٥ (فبراير ١٩٤٦) و عدد ٦ (مارس ١٩٤٦) .

شهرية المسرح

يعلمون أن الفقر مدل للنفوس ، ولكنهم يجدون على ذلك شيئاً من الكبرياء يأبى عليهم أن يخرجوا من أطوارهم هذه الوضيعة ، وطبقات أصحاب الترف المفرق في القحة الذي يظهر كأنه طبيعي لا تكلف فيه والذي يحمله أصحابه كما يحملون أنوفهم وما يكسور رؤوسهم من الشعر ، ينشئ الكاتب صلات بين أولئك وهؤلاء ؛ ومن هذه الصلات يستخرج للأساسة . فأولئك وهؤلاء قبل كل شيء يبذلون جهوداً مشتركة لالغاء المسافة بينهم بحيث يفهم بعضهم بعضاً ويلبس بعضهم جلود بعض . ثم تأتي بعد ذلك الاستحالة الطبيعية التي تمنع من تحقيق هذه المحاولة وتبين لهم جميعاً أن ليس من سبيل إلى أن يتفاهموا ولا إلى أن يمحى ما بينهم من الفروق . ومن هنا يأتي التشاؤم الأساسي في هذا الفن الذي يلائم عصره الذي ينشأ فيه . وقد كتبت هذه المسرحيات أو أكثرها بين الحربين ، فصورته حياة جيل من الناس لم تقسم له السعادة . وجات أنوى يرى السعادة شيئاً مستحيلاً بل شيئاً ليس من المصلحة ارتقا به حتى تصبح أروع بطلاته في قصة « النافرة » بهذه الجملة : « إنكم لتؤذونني جميعاً بسعادتك هذه التي تسرفون في ترديدها . كأن ليس في الأرض شيء آخر يبتغي غير السعادة . »

وهذا النوع من التشاؤم يتصل في الوقت نفسه بالحياة الخلقية والاجتماعية ، وهو يزحم آثار الكاتب حتى يوشك ألا يترك فيها موضعاً للشعر وجمال الفن . ومن أجل هذا لا يكاد الناقد يظفر بشيء إن أراد أن يمتحن من قريب أسلوبه الكتابي أو مذهبه التمثيلي . فما أسرع ما يلاحظ أن الأسلوب مهمل . فالكاتب لا يزيد أن ينقل إلى المسرح لغة الحديث اليومي من ألفاظ دارجة ، وجل عامة ، وعبارات مألوقة متداولة . أما الفن الدقيق فلا وجود له . فالكاتب حظ من مهارة في

وستعرض هذه القصة في ملعب لاتيبييه حيث عرضت قصة « أنتيجون » وسيخرجها المخرج الشاب أندريه برساك تلميذ جاك كوپو . وليس يكفي لتعليل ما أتيج لهذا الكاتب من نجاح ما قلناه من أنه ورث جيروودو في نجاح متفاوت ، وأن « أنتيجون » قد ظفرت بفوز عظيم لأنها وافقت الواقع من حال الفرنسيين ، بل هناك علة ثالثة لهذا الفوز وهي توضيح آثار الكاتب كلها توضيحاً كافياً . فمسرديات جان أنوى مرآة صادقة دقيقة للحياة اليومية كما يحياها ويشعر بها عدد ضخم من أوساط الفرنسيين المعاصرين ، أو بعبارة أدق كما كان الفرنسيون يحيونها منذ عشر سنين . فقد غيرت الحرب من أطوار الفرنسيين شيئاً كثيراً ، فالأشخاص الذين يعرضهم علينا في أكثر الأحيان من الطبقة المتواضعة ومن الذين يمارسون حرفاً شاحبة منهم الموسيقيون الذين ينتقلون من مصيف إلى مصيف ؛ ومنهم الشبان الذين يتكفون كثيراً من الجهد في مناسبات غير ذات خطر ومنهم في غير تحفظ « النشالون » الذين يجوبون الطرقات . وبراعة الكاتب تأتي من أنه يعرض هؤلاء الأشخاص على المسرح عرضاً حسناً ، ثم ينشئ الصلة بينهم وبين الطبقات التي مازال الناس يسمونها الطبقات العالية : فهنا دوقة شاذة تقدمت بها السن ، وهنا أمير شاب قد أياسته الحياة ، وهنا أحياناً فتى من أبناء البيوتات الطيبة وإن كانت مثرية . وهي تحرص أشد الحرص على التقاليد والأوهام ، ومرة أخرى رجل خطير من رجال المال ، ومرة أخيرة رجل من رجال الفن الذين ظفروا بالثروة وعلو المكان . ينشئ الكاتب صلات بين هذه الطبقات المتباينة ، طبقات البائسين الذين لمحو النعمة من بعيد ، وقد كانوا أخذوا بطرف يسير من التعليم ، فهم يحسون بشاعة البؤس ويتجرعون مرارة الشقاء ، وهم

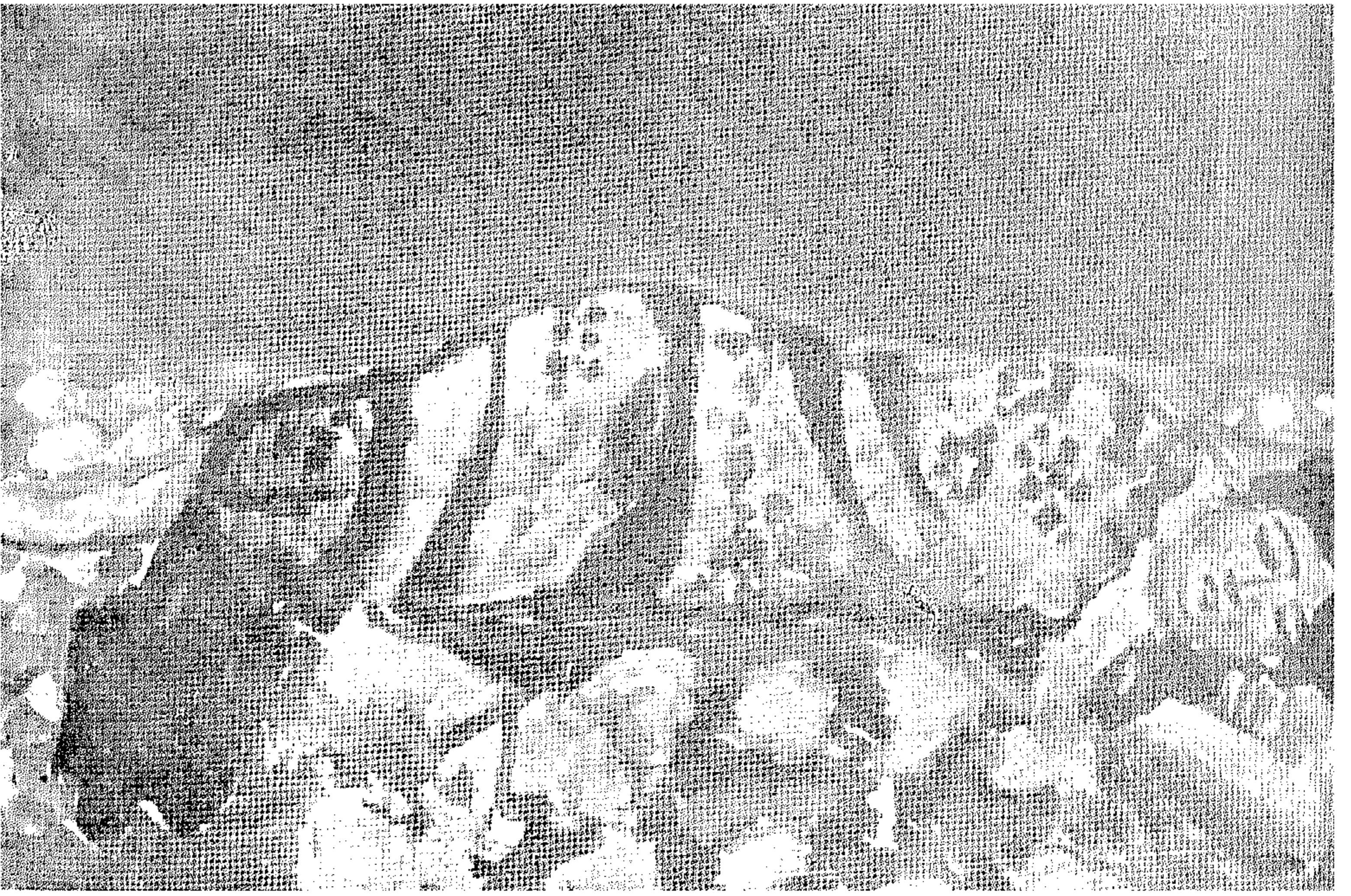


شكل ٢ : من الحياة المنزلية من معرض تلاميذ وتلميذات المدارس الأولية في الاسكندرية (١٩٤٦)

شكل ٣ : رقص من معرض تلاميذ وتلميذات المدارس الأولية في الاسكندرية (١٩٤٦)

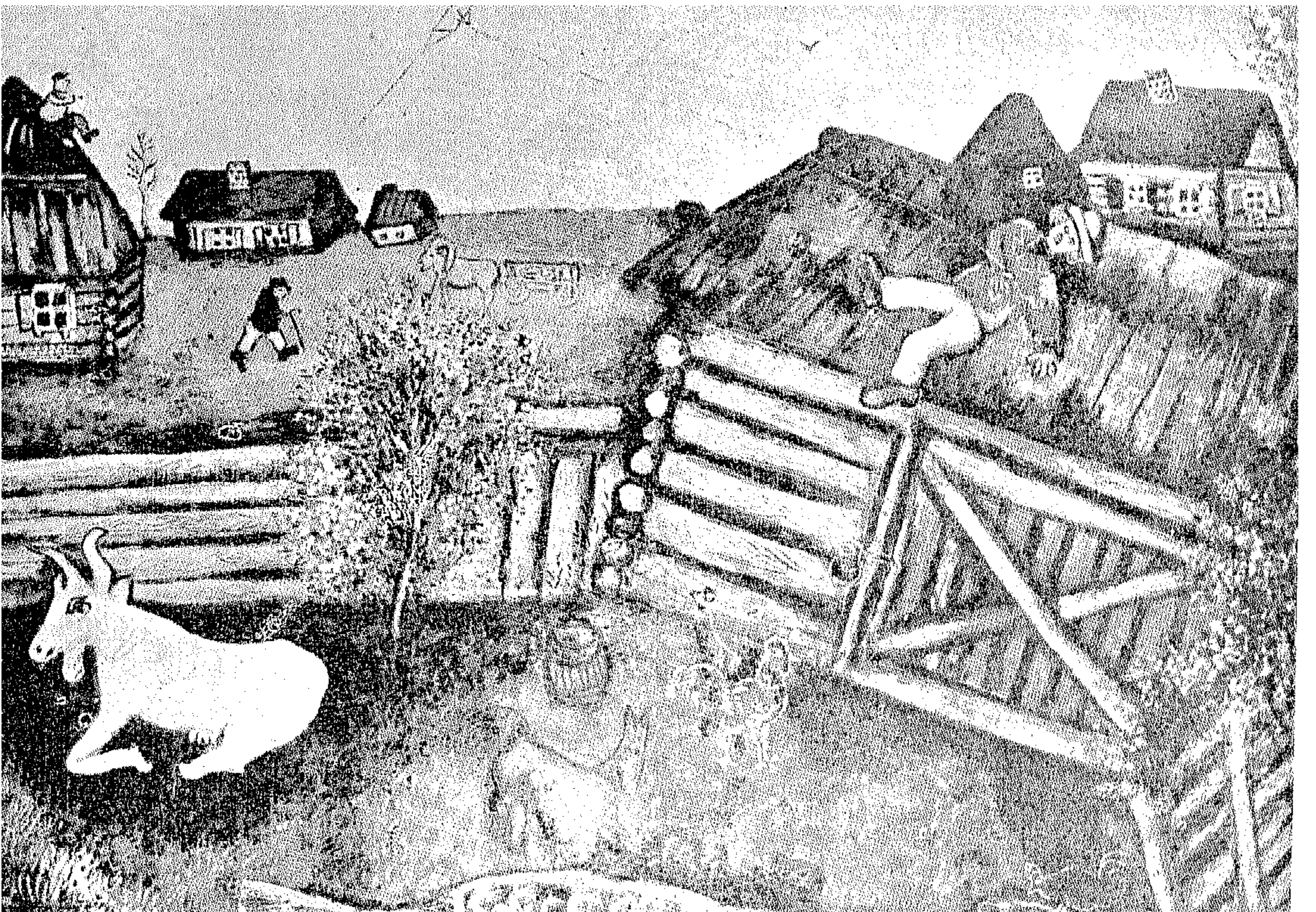


نظر مقال
بشر فارس
في
نهرية الفن
هذا العدد



شكل ٤ : المرأة ذات الوشاح الأسود من ريشة هنري ماتيس (١٩١٨)

شكل ٥ : الحظيرة من ريشة مارك شاجال (١٩٢٦)



شهرية المسرح

للملاءمة بين فصول القصة . ليس في مسرحياته مناظر مختلفة وإنما ينهض الأشخاص بأدوارهم في اطراد منذ تبدأ القصة إلى أن تنتهي . وهو على ذلك لا يأتي بشيء جديد . وأداته للعرض بسيطة جداً في أكثر الأحيان : غرفة استقبال في قصر ريفي ، مقصف في محطة من المحطات ، زاوية في حديقة من الحدائق . لا تأتق ولا ابتكار في الأزياء ولا في الأضواء ولا في زينة الممثلين . وليست العقدة في مسرحياته عسيرة ولا مختلطة . ومن أجل هذا لا يجد المتفرج مشقة في حلها قبل أن يرخي الستار .

فهذا الكاتب أقل تفوقاً من جان چيروودو ومن جان كوكتو بحيث نستطيع أن نقول إن جان الثالث لم يستطع أن يرد الالبقاسمة إلى الملعب كما فعل الأول ولا أن يجدد للمسرح فن العرض والخراج كما فعل الثاني ، وإنما أنتج آثاراً قيمة ستظل شاهدة بهذا العصر المضطرب الحزين الذي أخذت فرنسا تخرج منه في هذه الأيام .

مؤنسى طه حسين

شهرية السينما

الطباعات من السينما المصرية

مزدوجة : فهو يلهى الجمهور ويشقفه ، وهو يربح المؤلف ويشقفه أيضاً ؛ ولكن إغارة مؤلفينا على القصص الغريبة عدوان ينافى الحق والخلق أولاً ، ثم هو بعد ذلك يضر أكثر مما ينفع ؛ لأنه يعطى الجمهور من الأدب الغربى صوراً مشوهة ، وهو يشغل المؤلف عن إتقان فنه مع حاجته الشديدة إلى هذا الاتقان فالمؤلف يرى أن العيب بالفن والأدب ليس بشئ ذى خطر من جهة ، وأنه — من جهة أخرى — أيسر من إجهاد العقل والخيال والقلم لإنشاء قصة مبتكرة طريفة ترفع من شأنه ومن شأن فنه ومن شأن جمهوره . ولست أدري إلى متى يدوم هذا العيب ، ومتى يشعر هؤلاء المؤلفون بأن للفن والجمهور حقوقاً يجب أن تحترم وكرامة يجب أن ترعى . أليس من الحق عليهم أن ينظروا إلى السينما على أنها وسيلة إلى الترفيه ولكنها فى الوقت نفسه أداة للتثقيف وإصلاح الذوق ؟ وسبيل ذلك ألا ينزل الفن إلى ذوق الجماهير ، وإنما يرفع ذوق الجماهير إلى حيث هو أو يلقاه على الأقل فى منتصف الطريق . ألم يأن لمؤلفينا أن يكفوا عن وضع أمثال هذه القصص : « ممنوع الحب » ، « دموع الحب » ، « الحب الاول » ، « ليلي بنت مدارس » ، « ليلي بنت الفقراء » ، « ليلي بنت الريف » ، « ليلي فى الظلام » ، « الماضى المجهول » ، « عودة القافلة » إلى غير ذلك من القصص الضعيفة التى ترمى إلى معالجة مشكلاتنا الاجتماعية فتخطى السبيل إلى ذلك ؟ فالمؤلف لا يترك للمشاهد أن يستنبط من الحوادث نفسها مغزى القصة ، وإنما يلقى

أخذت صناعة السينما فى مصر أثناء السنتين الأخيرتين تتسع اتساعاً أدهش الذين يهتمون بشؤونها لعلمهم بأن وسائل تلك الصناعة محدودة جداً . فالاستوديوهات قليلة ، والممثلون قليلون أيضاً ، والمخرجون الفنيون شئ نادر فى مصر . ورغم هذه الصعوبات وجدنا الشركات السينمائية تظهر الواحدة تلو الأخرى : فكل ممثل فى مصر له شركته السينمائية وكل مخرج له أيضاً شركته الخاصة . وقد رأينا الأفلام تملأ دور العرض حتى فرضت الحكومة على أصحاب الدور الأجنبية أن يعرضوا الأفلام المصرية وقتاً منظماً معلوماً . وقد يكون هذا الاتساع دليلاً على ازدهار صناعة الأفلام . وقد يكون دليلاً على ازدهار فن التمثيل أيضاً . إلا أننا لاحظنا أنه لا يقوم على إتقان ولا على جودة ، كما لاحظنا أن الدافع إلى تكوين الشركات لم يكن إعلاء شأن الفن التمثيلى ، وإنما هو الاكتساب من هذه التجارة المربحة . وقد نجم عن التنافس بين الشركات أن كثرت إنتاج الأفلام كثرة لا تسمح للمؤلف ولا للمخرج ولا للممثل أن يتقن كل منهم فنه . فجاءت الروايات السينمائية ضعيفة قصة وإخراجاً وتمثيلاً .

والمؤلف السينمائى فى مصر لا يفكر فى الابتكار والتجديد . وكيف يستطيع ذلك وهو يعلم أن الأدب الغربى غنى بالقصص ، وأن الجمهور المصرى ليست له دراية تامة بهذا الأدب . فإذا أغار المؤلف على قصة غربية فلن يدري بهذا إلا القليلون . وقد يكون فى الاقتباس من الأدب الغربى فائدة

شهرية السينما

عليه العظات بواسطة إحدى شخصياته .
والعظات لا تجدى حينما تلقى في شبه درس
أو محاضرة في الأخلاق ، وإنما تنفر منها
النفوس ، وتضييق بها الأذهان .

وليس الحوار بأحسن حظاً من القصة .
فالمشاهد يقاسى منه مثلما يقاسى منها . هذا
إذا استثنينا الفيلم الوحيد الناجح في هذا
الموسم وهو « لعبة الست » للأستاذ نجيب
الريحاني . أما الأفلام الأخرى فتجد في
المحادثات التي تدور بين شخصياتها من التكاف
ما يسلمك إلى الملل . هذا عدا المواقف
الكثيرة التي يبتعد فيها الحوار عن القصة
نفسها ويسمك المؤلف كثيراً من البديهييات
التي يعتقد أنها فلسفية عميقة وهي أبعد
ما تكون عن العمق والفلسفة .

ونصيب المخرج من الخطأ والتقصير يعادل
نصيب المؤلف إن لم يزد عليه ، وخاصة إذا
لاحظنا أنه يقوم بالمهمة الرئيسية في الفيلم من
اختيار الممثلين وإرشادهم إلى اختيار المناظر
الخارجية والداخلية والإشراف على الإضاءة
والتصوير . فهو يمثل حقا العنصر الأساسي
في إنتاج الفيلم ، ولكنه كزميله المؤلف يعبت
بالجمهور وبالفن . فلا تجد الذوق في اختيار
الأثاث ولا تلمس التنسيق في وضعه ، وإنما
تزدحم الغرف بهذا الأثاث ، فتبدو كأنها
أبهاء عرض أو قاعات مزاد . وهو يضع مثلاً
مكتباً باشكاتب الدائرة في بهو الفيلا الأنيق
كما حدث في « الماضي المجهول » مع أن في
هذا البهو نفسه من الأثاث ما يملأ ثلاث
غرف . أما المناظر فالمخرج أحياناً لا يختار
منها ما يلائم الموقف الذي يمثل . ففي فيلم
« غرام الشيوخ » منظر في فندق كان يجب
أن يبدو أنيقاً جميلاً؛ إذ أن نزلاء الفندق كانوا
يرتدون ملابس السهرة لتناول العشاء .
ولكن بدا المنظر زرباً قبيحاً ؛ لأن الأستاذ
محمد عبد الجواد مخرج الفيلم لم يختار ما يلائم

الموقف الذي كان يصوره : من بهو أنيق فاخر
أو درج من الممرس الأبيض أو نريا من البلور
البراق . . . إلى أمثال هذه الأشياء التي
تضيق على المنظر لوناً من الأناقة والجمال .
وقد ينصرف المخرج أحياناً عن العناية بتفاصيل
دقيقة قلما يلحظها المشاهد ، ولكن لها قيمتها
الفنية . ففي « غرام الشيوخ » مثلاً ترى فتاة
تعمل راقصة في حانة وطنية ، وهي فتاة
لا تجد نقوداً تشتري بها دواء لأُمها المريضة
ومع ذلك كانت تلبس أساور من الذهب
الوهاج . وفي « عودة القافلة » يستخدم
المخرج مصباحاً كهربائياً متواضعاً في منظرين
مختلفين : أولاً في حجرة مدير شركة تأمينات
وثانياً على مكتب محام ثري . ويتبادى الإهمال
من المتاع إلى ملابس الممثلين . ففي « عودة
القافلة » فتاة ترتدي اللباس الخاص بركوب
الحيل مع أن هذا اللباس لا يلائم ممثلة الدور
مطلقاً . وحسبنا أن نذكر أنه أظهر ما هي
عليه من بدانة لا تؤهلها لتمثيل مثل هذه
الأدوار . وهذه الهفوات إن دلت على شيء ،
فإنما تدل على أن المخرج المصري لم يتقن إلى
الآن المهمة التي تقع على عاتقه عند ما يقوم
باخراج فيلم سينمائي .

ونمة ظاهرة عجيبية في الأفلام المصرية لم
نرها في الأفلام الأمريكية أو الأوروبية ،
وهي أنه لا يكاد يوجد فيلم مصري يخلو من
الرقص والغناء . فكأن الفتاة المصرية —
مهما كانت طبقتها الاجتماعية — لا هم لها إلا
أن ترقص فتسرف في الرقص ، وإلا أن تغنى
فتسرف في الغناء ؛ فهي تغنى في حجرتها ،
وهي تغنى في الحفلات العامة ، وهي تغنى في
الشارع إن شئت . وقد تكون هذه
المناظر مما يناسب سياق الفيلم ويلائم حوادثه
ولكننا نجد في كثير من الأفلام قلقلة
الموضع ، نائية الموقع . وذلك مثل ما حدث
في « عودة القافلة » حيث يقدم لنا المخرج

وأما الطائفة الثالثة فنما « الوجوه الجديدة ». واختيار هذه الوجوه لم يتم على الطريقة المثلى ، والنهج الصحيح ؛ لأن المخرجين آثروا في اختيارهم وسامة الطلعة ، وأناقة المظهر على المواهب الذاتية ، وهي غير قليلة في مصر . ولو تم الاختيار على هذا الأساس لظفرت السينما في مصر بكثير من ذوى المواهب التى ترفع من شأن الفن السينمائي .

ومهما يكن من شئ ، فإن السينما المصرية قد خطت إلى الأمام بعض الخطوات ، بفضل مجهودات فريق من المشتغلين بها ، وإن لم تكن هذه المجهودات موفقة كل التوفيق . ومن المؤكد أن السينما المصرية لو وجدت النقد النزيه الموجه الصالح ، لظفرت من الاتقان والنجاح بما لم يظفر به المسرح حتى الآن ؛ لأن العزم متوافر في هذا المضمار ، ولأن مجال عرض الأفلام المصرية متسع جداً ، وخاصة في الأقطار الشرقية . فليس على المشتغلين بالسينما إلا أن يراعوا الدقة في اختيار القصة التى تصلح للتمثيل وأن يعولوا في ذلك على النجاح الفنى أكثر مما يعولون على الكسب المادى ؛ وأن يعهدوا بالإخراج والتمثيل إلى ذوى المواهب والكفاءات من المخرجين والممثلين ، وأن يسندوا كل شأن من شئون السينما مهما صغر إلى من يجيده ويتقنه .

وما دامت مصر تزعم أنها تتبوأ المكانة الأولى بين البلاد العربية في نواحي الثقافة والفن ، فليس من الخير أن نعرض باهمالنا سمعتنا الفنية للنقد والتجريح . ولندكر دائماً أن علينا واجباً هو أن نحافظ على مكانتنا الرفيعة مهما كلفنا ذلك من نذل وتضحية .

مرتين منظراً راقصاً لا شأن له بمحوادث القصة ولا مكان له في سياقها . إننا لا نريد إقحام الغناء والرقص في أفلامنا المصرية على هذا النحو الشائع ، ولكننا نريد أن تخصص لها أفلام غنائية راقصة على نحو ما تفعل الشركات السينمائية في أوروبا وأمريكا .

أما الممثلون الذين يعملون في الأفلام المصرية فهم يمثلون ثلاث طوائف لا ارتباط بينها . فمن الطائفة الأولى المطربون الذين لا عهد لهم بالتمثيل ولا دراية لهم به ، ولكن المخرجين يؤثرون أن يستغلوا شهرتهم في الغناء ليروجوا بذلك أفلامهم . ومن المحقق أن اشتراك مطرب مثل الأستاذ محمد عبد الوهاب أو مطربة مثل الأنيسة أم كلثوم في فيلم من الأفلام كفيل لهذا الفيلم بالنجاح . ولكن هل يكفل له ذلك النجاح الفنى ؟ كلا ؛ لأن هذين المطربين ليس لهما من المواهب الفنية الطبيعية ما يساعدهما على إتقان فن التمثيل وإن كانا قد اشتركا في أفلام عدة .

ومن الطائفة الثانية الممثلون الذين مارسوا التمثيل المسرحى سنوات طويلة ، ثم آثروا السينما على المسرح لأسباب بعضها فنى ، وكثير منها مادى . وبعض هؤلاء لم يفرق بين التمثيل المسرحى والتمثيل السينمائي فجعل يمثل في السينما على النحو الذى يمثل به على المسرح ، وبين التمثيلين فرق في طريقة الأداء ؛ وبعضهم فطن إلى ذلك ، فنجح في السينما كما نجح في المسرح ؛ ومن هؤلاء نذكر نجيب الريحانى ، وبشاره واكيم ، وإن كان الأول لم يمثل إلا أفلاماً قليلة نالت من الإعجاب ما تناله مسرحياته التى يمثل فيها بنجاح منتطح النظير .

من كتب الشرق والغرب

الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة

للشيخ نجم الدين الغزى

في بيروت والآخرى في دمشق . وهناك نسخة ثالثة في الجامع الأزهر بمصر لم يتمكن الأستاذ الناشر من الرجوع إليها . وهذا الجزء خارج خروجاً حسناً من جهة الدقة العلمية . ولسنا إلى النظر في ذلك . نقصد بهذه الكلمة ، ولكن نحب أن نخب القارئ بما في سطور الكتاب فيطلع على مجرى الحياة في ذلك العصر .

إن المترجمين في هذا الجزء يغلب عليهم أمران : الأول الاشتغال بدراسة الفقه ، والثاني الانقطاع إلى العبادة . والفقهاء بين مدرسين ومؤلفين للحواشي والتعليقات ، والأولياء بين متصوفة و « مجذوبين » و « مكاشفين » . ولهؤلاء غرائب كرامات وخوارق مواجداث . والمؤلف يرويها مطمئناً إليها داعماً لها . من ذلك ما كان يحدث من جانب محمد الضيوطى (ص ٨٤ و ٨٥) « كان يتطور ويختفى عن العيون وربما كان يتكلم مع جماعة فيختفى عنهم وربما كانوا وحدهم فوجدوه بينهم وأشار مرة إلى سفينة فيها لصوص فتسمرت ثم أشار إليها فانطلقت . وله من المؤلفات شرح المنهاج للتووى وكتاب القاموس في الفقه وغير ذلك . » ومن ذلك أيضاً « سويدان المجذوب » (ص ٢١٣) « وكان من أولياء الله تعالى . . . وكان يتطور ، وربما وجد في صورة سبع وفيل وفي صورة فقير وأمير ، وكانوا يرونه مرة بمكة ومرة بمصر . »

إن كتب « الرجال » مما تفخر به الخزانة العربية . وليس هاهنا موضع سرد لأهميات تلك الكتب . والحق أن المئة العاشرة لم تكن تظفر من الكتب المطبوعة بسفر خاص بها جامع لرجالها ، فليس « النور السافر عن أخبار القرن العاشر » لعبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي ، المطبوع في بغداد سنة ١٩٣٤ بالكتاب المستوعب ، وليس الجزء الثامن من « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » المطبوع في مصر سنة ١٩٣٢ لابن العماد بالمرجع الأول . إن القرن العاشر لم تزل به حاجة إلى سفر مثل كتاب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » للسخاوي ، أو « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر » للمحبي ، وكلا الكتابين مطبوع في مصر .

واليوم يخرج الأستاذ جبرائيل سليمان جبور — أحد أساتذة الدائرة العربية في جامعة بيروت الأميركية — كتاب « الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة » لصاحبه نجم الدين الغزى . ولد سنة ٩٧٧ ، ومات سنة ١٠٦١ ، وقد اشتغل بالتدريس والتأليف . والكتاب في ثلاثة أجزاء . ظهر منه الجزء الأول في مختتم السنة الماضية ، وهو يدور على تراجم الأعيان المتوفين من مستهل سنة ٩٠١ إلى آخر سنة ٩٣٣ ، وسيتلوه الآخرون إن شاء الله . وفي الجزء الثالث ستطبع الفهارس والمصادر على أصنافها .

وقد اعتمد ناشر الكتاب نسختين ، إحداها

العلماء من اختلافات في ذلك (ص ١١٤)
ثم أحوال المتصوفة والمتجربين ، وهي مبثوثة
في مطاوى الكتاب . وإلى جانب ذلك كله
فوائد تاريخية مثل قصة أحمد باشا الطاغية في
مصر (ص ١٥٦ - ١٥٩) .
وبعد ، فالرأى أن ميزة هذا الكتاب في
تصويره لجانب من الحياة العقلية والاجتماعية
في عصره ، لا في سرده لرجال ليسوا في مقام
الأولين من الرجال .

والكتاب مشحون بأخبار هؤلاء الصالحين
للتعبد المستغرقين . ومن فوائده أيضاً أنه
يبدل لنا صورة من أسلوب الانشاء في ذلك
العصر ، وهو في الجملة ركيك قد داخلته ألفاظ
جامية وأعجمية . وفي الكتاب إلى جنب هذا
موضوعات تمس الحياة الاجتماعية ، من ذلك
تعاظم بعضهم « الحشيش والكيف »
(ص ٣٠٦) ومنشأ شرب القهوة على يد
أبي بكر الشاذلي العيدروسي وما صار إليه

بشر فارس

نزهة النفوس ومضحك العيوس (١)

بالديوان أن نضحك ، ونفرب في الضحك ؛
لأن ابن سودون يحسن كيف يتغابي ، وهو
غباء ينتهي بنا إلى إهمال عقولنا ، فنضحك
لا سخرية ولا استخفافاً ، ولا كما يقول بعض
الأوربيين عقوبة له لأنه خالف منطقنا ،
وأصبحنا نحس كأنه آلة جامدة ، بل لعنا
نضحك ؛ لأننا نريد أن نكافئه إذ استطاع أن
يخرجنا قليلاً من عالمنا . ومن منا يذهب إلى
ممثل هزلي ليعاقبه بضحكه على شدوذه ؟ إننا
نذهب لنسر ولنتمتع حقبة من الزمن بالاتقال
قليلاً من عالمنا إلى عالمه الذي تنعدم فيه — إلى
حد ما — قيمنا المنطقية ؛ لتحل محلها قيم أخرى
لا تستمد من منطقنا المألوف ، وإنما تستمد من
منطق آخر ، إن صح هذا التعبير ، وهو منطق
يقوم على التباين والشذوذ ودفع الأفكار من
أعلى الشواهد ، وقد انتكست ، فأصبح أسفلها
أعلاها فلا اتساق ولا انتظام ، وإنما تشويش
واضطراب . واستمع إلى هذه النادرة التي
يروىها ابن سودون في باب الحكايات الملافية :

عرضنا في مقال سابق لهذا الديوان النفيس ،
ونجدنا عما فيه من شعر هزلي يذهب مذهب
الدعابة والفكاهة . ولكننا لم نتحدث عن
جانب آخر في هذا الديوان ، وهو جانب هزلي
أيضاً ، غير أن ابن سودون لم يكتبه شعراً ،
بل كتبه نثراً ؛ فقد عقد في ديوانه للنثر بابين :
أما أولهما فباب الحكايات الملافية ، وأما الثاني
فباب التحف العجيبة والطرف الغريبة .
والبابان جميعاً كتبتهما باللغة المصرية الدارجة ،
وهما من هذه الناحية لهما أهمية خاصة ؛ فإن من
يقرؤهما لا يحس بونا بعيداً بين لغتنا الدارجة
الحديثة ولغة ابن سودون في القرن التاسع
الهجري . ولسنا بصدد الحديث عن هذه
الناحية ، فهي لا تهمنا الآن ، إنما يهمنا أن
نستعرض الأدوار المضحكة التي مثلها صاحبنا
في ديوانه ، وهي أدوار تقوم على المجون
والهزل ، مستمداً ذلك من المفارقات المنطقية ،
وهي مفارقات تعتمد قبل كل شيء على فنون
من التباله وإظهار النغلة ، فما نلث حين نلم

(١) الكاتب المصري عدد ١٠ (يوليو ١٩٤٦) .

« قال ابن غيدشة الزلاياني : كنت — وأنا صغير — بليداً لا أصيب في مقال ، ولا أفهم ما يقال ، فلما نزل بي المشيب زوجتي أمي بامرأة كانت أبعد مني ذهناً ، إلا أنها أكبر مني سناً ، وما مضت مدة طويلة حتى ولدت ، والتمست مني طعاماً حاراً ، فتناولت الصحيفة مكشوفة ، ورجعت إلى المنزل آخذ المكبة (غطاء الصحيفة) ونسيت الصحيفة ، فلما كنت في السوق تذكرت ذلك ، فرجعت وأخذت الصحيفة ونسيت المكبة ، وصرت كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى ، ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس ، فقلت : لا أشتري لها في هذه الليلة شيئاً ، ودعها تموت جوعاً ، ثم رجعت إليها ، وإذا هي تئن وإذا ولدها يستغيث جوعاً ، فتفكرت كيف أريه وتحييت في ذلك ، ثم خطر ببالي أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب زوجها والتقط الحب ، ثم يأتي ويقذفه في فم ابنه ، وتكون حياته بذلك ، فقلت : لا والله : لا أكون أعجز من الحمام ، ولا أدع ولدي يذوق كاس الحمام . ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز ، فجعلته في فمي ، ونفخته في فم فرادي وأزواجاً ، أفواجاً أفواجاً ، حتى امتلأ جوفه ، وصار فمه لا يسع شيئاً ، وصار يتناثر من أشداقه ، فسررت بذلك وقلت لعله قد استراح ، ثم نظرت إليه ، وإذا به هو قد مات ، فحسدته على ذلك ، وثلت يا بني : أما إنه قد انحط سعد أمك ، وسعدك قد ارتفع ؛ لأنها ماتت جوعاً وأنت مت من الشبع ، وتركتهما ميتين ، ومضيت آتيهما بالكفن والحنوط ، ولما رجعت لم أعرف طريق المنزل ، وها أنا في طلبه إلى يومنا هذا . »

أرأيت كيف يستخرج ابن سودون منا الضحك بفكاهته ، وما يتقن وصفه من بلاهة صاحبه الزلاياني وغفلته . وانظر إليه كيف جعله ينسى المكبة ويأخذ الصحيفة ، ثم ما زال

بعد ذلك كلما أخذ واحدة منهما نسي الأخرى في تباله غريب ، وإنه لتباله يدفعنا إلى أن ننسى منطقنا ، فإذا بنا نضحك لأننا استرحنا قليلاً من هذا المنطق الذي يتعبنا في حياتنا ، وأخذنا نضرب مع ابن سودون في عالمه الجديد . أتظن أننا بضحكنا نحتقره أو نزري عليه ، أو نحس برغبة في انتقام منه ، أو أننا نريد — كما يقول بعض النفسيين — أن نعاقبه فضحكنا تنفيس أو تعبير عن ذلك ؟ إن هذا في الواقع يعد في الخيال والتصور . ومالنا ولهذا المعاني السيئة ؟ لقد كنا نستطيع أن تؤمن بذلك لو أننا نحس بشيء من الموجدية على ابن سودون ، ولكننا لانحس بذلك ، بل نحس إزاءه بعطف ، بل بشيء من المودة ، فأننا نشعني أن لو كان معنا الآن لنرى كيف يستغل حاضرتنا في دعاياته وفكاهاته . وانظر إلى ما يخلعه على الزلاياني من تباله ، إذ جعله يطعم وليده الجوز واللوز حتى قضى عليه قاتلاً إنه مات شبعاً في حين ماتت أمه جوعاً . ثم يذهب به لاء حضار كفنين لها جميعاً ! ولكن صاحبه سرعان ما ينسى البيت ، وتخونه ذاكرته فيفقد كل دليل يدل عليه . وكل ذلك يضحكنا لا لأننا نريد أن نعاقب ابن سودون كما يزعم بعض النفسيين ، ولا لأننا نريد أن نكافئه كما نزعهم نحن ، ولكن لأن مثل هذا الحديث يصيبنا بضرب من عدم الاتزان ، فنشعر بانسباط ومن ثم نشعر بسرور فنضحك . وليس كل عدم اتزان يفضي إلى ضحك ، فأننا نألم أيضاً حين تصادفنا حادثة لنفس السبب إذ نفقد اتزاننا . وإذن ففقدان الاتزان يؤدي إما إلى ضحك وإما إلى بكاء . ومصدر هذا التناقض أننا حين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانقباض النفسي نألم ونحزن وقد نبكي ، وحين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانسباط النفسي نسر ونفرح وقد نضحك . ومعنى ذلك أن الضحك مسألة فردية تخضع

وإن ولدت قبل ذلك لا يكون إلا صبي . . .
وجرت لي حكاية ، وذلك أنني غسلت قيصي
ونشرته في السطوح ، فقام بالامر المقدور .
ضربه الهوا ، فوقع من فوق لتحت ، وارتجفت
بسلامتي رجفة . . . وعرفت أن ماهي بشاره
خير ، وأنها تدل على موت أمي وأبويه والحمد
لله كانوا فدايه ! وأني صليت وصمت لله تعالى
إللى ما كنت في قيصي ، ولو كنت فيه كنت
انكسرت ، فقلت : حوالينا ولا علينا ! ولكن
من الرجفة وجعتني عيني الللى تبقى ناحية المشد
وقت أخرج من دارنا . والذي نعلم به الوالد
زوج الوالدة أنني دخلت يوم البستان أنا
والخولى فرأيت فيه نخل شى طويل ، وشى
قصير ، وشى ما يشبه شى ، فقلت له دى إيه
قال بلح ، قلت ودى قال نبق ، قلت ودى
قال جهيز ، قلت ودى قال مشمش ، قلت ودى
قال توت ، ورأيت يا أبويه نخلة فيها كل
ورقة قدر الصفحة ، فقلت له ودى إيه فقال لي
موز ، فمجبني قوى ، وقلت له الموز يطلع في
البستان ، فقال لي أيوه ، فقلت له والجن المقل
يطلع فين ، قال : يطلع في طاجن الجبان .
وانت تعرف إن بيتنا على دكان الجبان ،
وأنا كل يوم أجى وأطل من الطاقة وعمري
ما رأيت في الدكان نخيل جن مقل ، وكابرت
الخولى وراهننتو من دجاجي الرقادة لنمجتو
الحيلة ، فالوالد يبصر لنا إن كان الخولى
غلبنى . والذي أعرفكم به كان أنني لما طلعت
البلد ولقيت الصابون غالى بعث فرسى البيضة ،
واشترت لي حمارة سودة حتى لا تتوسخ .
وبس كلام ، فاني لو كتبت الذى في خاطري كله
كان الكتاب يحجى من هون لفين . بعد السلام
على أهل الحارة ، كل واحد وحده ، كثير كثير ،
بتاريخ صبيحة يوم الجمعة الحرام بعد صلاة التراويح
من يوم عاشورا السابع والثلاثين من جمادى
الأوسط سنة تاريخه ، وبالامارة مطرت المطرة ،
وأهل البلد كلهم يعرفوا ، إن شاء الله . »

لشعور الفرد نفسه بضرب من الراحة ،
لامسألة اجتماعية تخضع للمجتمع وأنه يريد أن
ينزل عقاباً أو ثواباً بالأشخاص الفكهين .
ونحن لا نريد أن نفسد فكاهة ابن سودون
مثل هذا الحديث الجاف ، فلنرجع إليه وإلى
أدواره الهزلية ، ولنترك علماء النفس يفلسفون
الضحك كما يريدون .

والحق أن ابن سودون كان جعبة فكاهة ،
فأينما قلبت طربك اندفعت تضحك ضحكا عاليا ،
ونحن نسوق للقارىء إحدى نوادره في باب
التحف العجيبة والطرف الغريبة ، وهى كتاب
كتبه على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبيه في
مصر وهو يمضى على هذا النحو :

« قال هوثقة بن بطاطة بن كجيج :
أرسل فنين بن أبي المدارس إلى أهله كتاباً
من الصعيد يقول في عنوانه : يصل — إن
شاء الله تعالى — إلى دربنا المحروس الذى
ضبتو سنط ولقية ، ويسلم ليد البيت ، مطالعة
الوالد ، وفي داخله السلام عليكم عدد ما في
نخيل البلد من أوراق ، وعدد أمواج البحر
إن تكدر أو راق ، سلام كثير لا يسهه طبق
ولا طبقين ولا أطباق ، أطول من مقود
زرافة ، ولو كان طاق أو طاقين أو ثلاث
أطواق ، من كل بدو سبب . . . والذي أعرفكم
به إن كنتو لسع بالحيا أنني أرسلت لكم صحبة
القاصد على جوز وز فقس الصيف من ديك
الوزة ، وأيضاً خروف أبلق وخروف بلا
يلاق ، ويا سبجان الله ! تبقوا تتكلموا
جزاف : أرسلتم تطلبوا جبل تنشروا عليه
النسيل ، وقتلوا لنا على طوله ، وما قتلوا
على عرضه ! وأرسلتم تطلبوا كشك ، وأنا
إن أرسلته لكم من غير طبيخ فضيحة ، وإن
طبخته ما يوصل لكم حتى يبرد . . . وطلبتموا
تلات والفلاحين ما يزرعوا إلا قرع طويل ،
فيكون ذلك في خاطرهم . من حقه بلغنى أن
اسرائى حيلة ، فلا تخلوها تولد حتى أجى ،

وواضح أن ابن سودون كتب هذا الخطاب باللغة الدارجة لعصره ، وهي لا تختلف كثيراً عن لغتنا الدارجة الآن . وقد جاء فيه بلازمة معروفة لأهل الصعيد إذ أبدل الهاء في لسه « عينا » فقال لسع ، وأيضاً فنحن نجد فيه بعض لوازم أهل الشام ككلمة « من هون » . وكأنما كان المصريون في عصر ابن سودون مثلنا الآن يضحكون من بعض اللوازم في لهجة إخواننا أهل الشام ، ومن أجل ذلك يستظهر ابن سودون هذه اللوازم في بعض هزله . ولكن ليس هذا هو ما يضحكننا في ديوان ابن سودون ولا في هذا الكتاب الذي أرسله فنين إلى أبيه ، إنما يضحكننا ما يعتمد إليه من تبالة ، وها هو ذا يحاول بكل ما يستطيع أن يجعل صاحبه مثلاً أعلى للبله والمذللين ، فقد بدأ كتابه بهذا العنوان : « يصل — إن شاء الله — إلى دربنا المحروس الذي ضبوتو سنط ولقية » ، وهذا هو كل ما استطاع فنين أن يجعله عنواناً لكتابه ، فقد عرف بالدرب الذي أرسله إليه ، وهو درب ضبة بابه سنط ولقية ، ونستمر في قراءة الخطاب ، فإذا هو يستشكل على أبيه ، إذ أرسل يطلب منه حبل غسيل ، وقد اكتفى بأن يذكر له طوله ، ولم يذكر له عرضه ! وكذلك أرسل في طلب كشك ، ولم يقل له كيف يرسله ، وهل يرسله مطبوخاً أو غير مطبوخ ، وأيضاً فإنه سأله بعض قتل ، وكأنه لا يعرف أن الفلاحين لا يزرعون قلا ، وإنما يزرعون قرعاً طويلاً . وهذه كلها استشكلات تفسر تفسيراً واضحاً عقل فنين وما يسمه من بله وغفلة ، وهو يمضي على هذا المنوال فيحمد الله أن وقع ثوبه من فوق بعض السطوح ولم يكن فيه ، وإنه ليسترسل في غفلته فإذا هو يتخذ من ذلك دليلاً على موت أبيه وأمه ! ويستمر فيذكر أنه ارتجف بسبب حادثة ثوبه رجفة رمدت بسببها عينه ، ويريد أن يقول

البنى أو اليسرى فلا يسمفه بله ، فيقول إنها العين التي تكون بازاء ناحية المشد حين خروجه من بيته ، ولا نصل إلى هذا الموضع من الكتاب حتى تستهويننا هذه الغفلة في فنين فتابعه وإذا هو يقص أنه دخل بستاناً ورأى فيه أشجاراً من أنواع شتى ، وقد ذهل حين رأى هذه الأنواع وأداه ذهوله أن يسأل الحولى أين يطلع الجبن المقل ، كأنه تصور الجبن المقل فاكهة مثل المشمش والموز . وسرعان ما عرف الحولى فيه هذا الذهول ، بل قل هذه الغفلة وذلك البله فتندر عليه قائلاً : إن الجبن المقل يطلع في دكان الجبان ، وذهب فنين ينظر في طاقة تطل على دكان الجبان ليرى نخيل الجبن الذي حدثه به الحولى ، فلم يجد شيئاً فذهب يراهنه من دجاجته لنعجته . وإن ابن سودون ليستمر فإذا صاحبه يذهب إلى السوق فيجد الصابون مرتفعاً سعره ، حينئذ تسول له بلاهته أن يبيع فرسه ويشتري مكانها أتاناً سوداء حتى لا تتسخ . وأخيراً يؤرخ خطابه هذا التاريخ المشوش ، إذ يؤرخه بيوم عاشوراء السابع والثلاثين من جمادى الأوسط . فانظر إلى هذا الخلط في التاريخ ، وكل ذلك أراد به ابن سودون أن يصور تصويراً دقيقاً حال بعض أهل الريف في عصره ، وما هم عليه من غفلة ، فاختر فنيناً هذا ليباغ من هزله كل ما يريد . وكما يتندر ابن سودون على أصحاب الريف من أهل الصعيد في عهده نجد كذلك يتندر على الفقهاء وغيرهم من علماء عصره الذين كانوا يعنون بالمناقشات اللفظية وما يتصل بها من كثرة اعتراضاتهم وبيانهم لما تفرق فيه الأشياء وتجتمع ، وإنهم ليبالغون في ذلك حتى يصلون بين أشياء متباعدة لا تخطر على بال أحد . وقد ذهب ابن سودون يتفكه ويتندر على هذا الصنيع في كثير من جوانب طرفة وتحفه ، فتارة يأتي بمثل نحو قول العامة : أبو قردان زرع فدان ملوخيا

وباذنجان ، ويشرحه شرحاً مفصلاً على طريقة علماء اللغة ، فهو يتكلم عن ألفاظه ويخرجها من الوجهة الاشتقاقية تخريجاً كله هزل ودعابة ، وتارة أخرى نراه يقف ليوجه مسألة دقيقة ، ونحن نذكر مثالا لذلك هو حديثه عن الفرق بين المركب والفرس لينجلي لك هذا الجانب المضحك في ديوانه :

« إن من عرف العلم بتحقيقه ، وانعجنت فكرته بدقيقه ، علم أن بين المركب والفرس فرائق من كم وسن ، الفرق الأول أن المركب أثقل من الفرس بدليل أن الفرس إذا حملوها على فرس أخرى تقدر تحملها ولو حملوا المركب على فرس ما قدرت الفرس تحملها ... الفرق الثاني أن المركب أكبر بدليل أن الفرس إذا وضعت رأسها عند رأس المركب لا يصل ذنبها إلى ذنب المركب ، وأيضاً فإن المركب ينام عليها الواحد بالطول والعرض وإيش ما خطر له بخلاف الفرس . وأيضاً فإن المركب ينام على ظهرها واحد وعشرة وأكثر فظهر الفرس ما هي كده . وأيضاً فلفظ فرس ف ر س ولفظ مركب م ر ك ب ، فركب أزيد بحرف والزائد أكبر من الناقص . الفرق الثالث أن الفرس لها سمع وبصر ، تسمع من صاحبها إيش ما قاله لها ، وتبصر كيف تحط رجلها ، والمركب ما هي كده . الفرق الرابع أن الفرس لها أربع قوائم تندار بهم إن خطر لها من هون لهون ، والمركب ما هي كده . ولا يرد على هذا الصندوق والسرير بأن لكل واحد أربع قوائم ، ولا يندار ؛ لأن الكلام فيما يركب ، والسرير وإن كان يركب ، إلا أنه لا يركب للسفر ، والكلام فيما يركب للسفر . الفرق الخامس أن بطن المركب معوقة في المية وبطن الفرس مسيبة ، إلى غير ذلك من الأفرار . »

وهذه الفكاهة لا تجد صداها في نفس

القارئ إلا إذا كان قد اطلع على حذقة أصحاب الشروح والحواشي وعرف اعتراضاتهم وكثرة ما يورده المحشي على الشارح ! وما نظن أحداً بلغ من التندر على علماء العصور الوسطى وانشغالهم بالمناقشات اللفظية ما بلغه ابن سودون ، فقد ذهب يحاكمهم في بعض حكاياته الفكاهية ينقل طرقهم ومصطلحاتهم ، وقد هيا له ذلك أنه كان إماماً ببعض المساجد وكان على حظ واسع من علوم القوم وفنونهم . وانظر إليه وقد استفتاه بعضهم عن الدجاجة هل هي من البيضة أو البيضة من الدجاجة ، فأفتاه على هذا النحو الذي نرويه برمته عنه إذ قال : « لا نقل عندي في هذه المسألة ، والأمران محتملان ، والأظهر أن الدجاجة كانت أولاً ثم باضت وحصل التناسل ، ومما يؤيده الحدوثة المشهورة ، وهي أحدثك حدوثة ، بالزيت ملتوثة ، كان ما كان ، في قديم الزمان ، أولاد حمدان ، يطلبوا ناناً ، والنانا في التنور ، والتنور يريدلو حطب ، والحطب في الجبل ، والجبل يريدلو قاس ، والقاس عند الحداد ، والحداد يريدلو بيضة ، والبيضة في الدجاجة ، والدجاجة تريد لها لقط ، واللقط في الحظيرة ، والحظيرة تريد لها مفتاح ، والمفتاح عند رباح ، مايحي من الساعة لشق الصباح . فقال والبيضة في الدجاجة ، ولم يقل الدجاجة في البيضة ، ولا يختص هذا بالدجاجة بل الوزه كذلك أيضاً . وإنما كتبت الحكاية هنا لعزتها . » وواضح أنه يستخدم مصطلحات الفقهاء في فتاواهم من مثل لا نقل عندي في هذه المسألة ، والأمران محتملان ، والأظهر ، ولا يختص . وقد ذكر الاصطلاح المشهور في لغتنا الدارجة عن من يحكون الحكايات إذ قال : أحدثك حدوثة بالزيت ملتوثة ، وقال أيضاً : كان ما كان في قديم الزمان .

من كتب الشرق والغرب

أما الحكاية نفسها فلها صور كثيرة تشبهها في عاميتنا الحديثة . وعلى هذا النمط كان ابن سودون يداعب أصحاب العلوم والفنون في عصره كما كان يداعب غيرهم من أهل مجتمعه : الريفيين وغير الريفيين . ولم ينس أن يلهج بمحدث لأحد بغدادى حكى فيه لغته ولهجته في صورة هزلية بدیعة ، وكذلك تمثل بشعر على طريقة بعض الإعاجم الذين كانوا يزورون مصر في العصور الوسطى وقد حشد في شعره بعض ألفاظهم كي يتقن دعابته . والحق أن ابن سودون كان فكها من الطراز الأول ، وقد لا نغلو إذا قلنا إنه أهم فكاهى ظهر بمصر قبل عصرها الحديث . وقد كان يتخذ منهاجاً واضحاً في فكاهته وهو منهاج كان يعتمد على المفارقات المنطقية من جهة ، كما كان يعتمد على كل ما يمكن من غفلة وبلاهة من جهة أخرى ، ولم يكن يمتثل لذلك بأشياء خيالية ، بل كان يعتمد إلى واقع حياته ومجتمعه ، فيتخذ منهما ما يريد من هزله . والطريف أنه كان يجد فيهما دائماً مادة غزيرة لفكاهته ودعابته ؛ إذ كان يعرف كيف ينقل أقرب الأنباء والموضوعات منه إلى أدوار هزلية مضحكة فإذا هي وقد تبدلت وجوهها وأصبح كل ما يتصل بها ينشر الضحك والفكاهة . وكان يسوق ذلك في طريقة خاصة ؛ إذ كان ما يزال يخرج من عبث إلى عبث ، ومن مألوف إلى مألوف ، ومن غريب إلى غريب ، ومن به غفلة إلى به غفلة ، حتى ليضطرب توازننا ، ونحس كأننا قد خرجنا من عالمنا إلى عالم آخر هو عالم ابن سودون ، وهو عالم تضطرب فيه الأشياء والأفكار اضطراباً مضحكاً على نحو ما نجد عند ممثلى عصرنا الهزليين في أدوارهم الفكاهية وصورهم المضحكة .

موتى ضيف

من وراء البحار

ألمانيا ومستقبلها السياسى والاقتصادى

العصى لأوربا ، وأنها حين تمس ينشأ عن ذلك اهتزاز شديد . ولقد ثبتت صحة هذا القول بعد حربين عالميتين ، وكان يشعر بذلك سياسى بعيد النظر مثل تيودور روزفلت الذى قال قبل هاتين الحربين عند الإزمة المراكشية : « لو اجتاحت الجيوش الألمانية فرنسا لما استطاع الأمريكيون أن يسكتوا » .

ففى مجال السلامة الاجتماعية توجد خطوط يجب مراقبتها مراقبة دقيقة ، ويجب الاعتراف بأن البلاد الواقعة على هذه الخطوط قد استطاعت أن تكون آراء ثابتة عن الضمانات الواجبة لسلامتها ، فاذا رأينا فرنسا تصرح أن سلامتها ، أو بالحرى سلامة العالم ، تتطلب بعض الاجراءات ، فيجب على الأقل أن تفحص مقترحاتها بروح العطف ؛ فهذه المقترحات هى نتيجة تفكير طويل ، وهى مقترحات دائمة وليست هى آراء رجل واحد أو مناورات حزب من الأحزاب ، بل هى مخطط أمة ودولة . لقد أعلنت الجمعية التأسيسية الوطنية فى ١٧ يناير سنة ١٩٤٦ أن سلامة أوربا والعالم ، تتطلبان حرمان ألمانيا نهائياً من وسائل الحرب التى تمثلها الموارز والحامات فى منطقة الرين ووستفاليا ، وأن تحرم مقاطعات الرين من أن تكون فيما بعد منطقة مرور ، ونحزنا وقاعدة للغزو .

ويجب أن تعاد إلى فرنسا المناجم التى نقلت بموجب معاهدة قرساي . وأن تكون هذه المنطقة تابعة فى نظامها الجمرى والنقدى لفرنسا ، بحيث تكون متممة للنظام الاقتصادى الفرنسى .

ما هو مستقبل ألمانيا بعد الهزيمة ؟ وماذا يكون نظامها ؟ لقد نشرت مجلة الأمور الخارجية الأمريكية (فى عدد يوليه) مقالين هامين مفصلين فى ذلك لانستطيع إلا تلخيصهما وأولهما بقلم مسيو بيدو رئيس وزراء فرنسا . ويرى مسيو بيدو أن مشاكل العالم بعد أن أنهكته الحرب مثل الكرة المتشابكة الخيوط ، فلا يمكن أن يمسك المرء بطرف هذه الخيوط حتى يمكن تسويتها ؛ فهى مليئة بالعقد وأكبر عقدة هى ألمانيا .

قد يقال إن هذا الاعتقاد قائم على عقدة نفسية لدى فرنسا . ولقد كانت ألمانيا حتى أمس مربى للحروب ، وهى اليوم حفرة عميقة لا يرى قرارها ، فهى فى الواقع أولى مشاكل العالم ، وإذا كان الفرنسيون يعمدون إلى تنبيه العالم إلى هذه المشكلة ، فليس ذلك لأنهم يقفون موقفهم العاطفى المعروف من العدو التقليدى . فنظرية الفرنسيين ليست قائمة على التعطش إلى الفتوح ولا على الرغبة فى الأخذ بالثأر . والبرهان على هذا القول أن الحكومة المؤقتة للجمهورية رفضت سياسة الضم . وقد نقول فى التدليل على ذلك أن رئيس المجلس الوطنى للمفاوضة زار مستشفى مدينة باريس فى أثناء معركة تحريرها ليحيى الجرحى الألمان لأنهم كانوا حينئذ بين المهزومين . وفرنسا تعنى عناية كبيرة بالعدالة ، ولا تخطط بينها وبين الانتقام .

فالمسألة الألمانية فى نظر فرنسا هى مسألة سلامتها قبل كل شئ . وفى هذا المعرض لا يستطيع أحد أن ينكر أن فرنسا من الوجهة الجغرافية والسياسية هى المركز

أمام منطقة الرور وهي الكنز الأوربي العظيم الذي يحتوي على مناجم الفحم والمصانع التابعة له ، وهي التي يعمل فيها في الأوقات العادية خمسة ملايين من العمال ، فإن الحكومة الفرنسية ترى لمصلحة الإنسانية أن تعتبر وحدة سياسية مستقلة عن ألمانيا ، وتوضع تحت نظام دولي من الوجهتين السياسية والاقتصادية .

هذا هو رأي الجمعية التأسيسية . وقد يضاف إليه فيما يختص بأراضي الرين ، أن توضع قوات حربية كافية دائماً في الأراضي الألمانية الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الرين ، وربما توضع كذلك على رؤوس بعض الجسور في الضفة اليمنى . ويجب أن تكون أراضي الراين من الوجهة السياسية غير تابعة لألمانيا ولا لفرنسا ، وأن تكون حرة في تدبير أمورها على ألا يسمح لها بأن تتسلح ، وعلى أن تكون تحت رقابة حربية يشترك فيها الحلفاء .

هذا الرأي الفرنسي قد عرفته الدول وأخطرت به في مناسبات عدة ، ولم تقبل الدول حتى الآن هذا الرأي ولم ترفضه ، ولكن قد يكون من المستحسن البحث في أسباب ما يرى من تردد في قبول هذا الرأي . وهذه الأسباب تتعدى أحياناً دائرة المسألة الألمانية إلى مسألة الحالة العامة في العالم ، وهذا مما يؤيد القول بأن المشكلة الألمانية ، هي في آن واحد عقدة ومفتاح للمشاكل العالمية .

فن الآراء التي تبدي رأي يتأثر بجانب إنساني ، هو : هل يفرض على ألمانيا صلح « شديد » ؟ ومثل هذا الرأي جديد في سياسة الدول ، فهي في مؤتمر يالتا ، الذي لم تمثل فيه فرنسا ، قد قضت بفصل كوينسبرج وشتتين وفرانكفورت وبرسلاو ، وهي من أقدم المدن البروسية ، عن جسم الدولة الألمانية . ومع ذلك فهل يكون من الشدة منع المعتدي الذي لا يرعوى عن تكرار اعتدائه ؟ وهل يعتبر من التساهل والملاينة نقل جماعات كبيرة

من السكان ، وهو الذي حدث بعد اقتطاع أراضي ألمانيا الشرقية ؟ إن مثل هذا لن يحدث في ظل النظام الذي تقترحه فرنسا من فصل الرور سياسياً ، إذ أن النظام الدولي المقترح سيحفظ بمستوى عال لمعيشة السكان .

إن فرنسا لا تريد أن تعامل ألمانيا بشريعة العين بالعين ، ولكن ليس من الضروري أن نكون رقيقين بالألمان ، وليس معنى ذلك أن ننزل بهم العقاب الدائم ، فبالألمان صفات وميزات ، وهم أصحاب جد ، ونظام وابتكار ، ولكن مما يؤسف له أنهم يميلون إلى استعمال هذه الصفات بطريقة خطيرة . ولا يجب أن ننسى أنه لم يكن يرتفع بينهم صوت احتجاجاً على مساوىء نظام هتلر ، ولم يرفض جندي ألماني واحد أن يطيع الأوامر الصادرة إليه بارتكاب الفظائع . والآن بعد هزيمة النازية ماذا يحدث في ألمانيا ؟ وماذا نرى في تلك البلاد المحتلة الكثيفة ؟

يروى أحد المراقبين أن أول ما نراه في تلك البلاد هو الاهتمام الكبير بوسائل المعيشة اهتماماً يسيطر على العلاقة بين المنتصرين والمهزومين . ثم إن الألمان لا يهتمون بوجه عام لمحاكمات نورنبرج ، ثم يصرح الألمان لمن يتحدثون إليهم أن تلك البلاد الواقعة بين مل ونهر نيسن ، لا تنتج أنواع المأكولات وحدها ، بل قد أنتجت من قبل عباقرة مثل كنت وبويهيم وانجياوس سيليوس وأيشندورف الذين يمثلون أنبل صفات الذهن الألماني ، وبين الأحياء من أعضاء الفهرماخت ، من لم يقلعوا عن الأوهام ، حتى إنهم لينتظرون حدوث مغامرة جديدة قد تشبه المعجزة . ويوجد في كل مكان ما أسماه أحد الألمان مبدأ الطاعة ؛ لئلا يقول مبدأ الزعامة !

وقد وصف كريستيا درلند ، الخبير السويدي في الأمور الألمانية ، حال فتية هتلر

وأن يتم الاتفاق على مشروع لإنشاء ألمانيا سياسياً من جديد ، وأى رجال يقومون بهذا العمل ؟

على أنه من المستحيل أن ترضى فرنسا بقيام سلطة ألمانية على أبوابها ، بينما أبعدت الحدود في الشرق إلى المسافة التي يقتضيها الحذر ، لذلك ترغب الحكومة الفرنسية في تجديد الحدود الألمانية الغربية في الوقت الذي تقام فيه إدارة ألمانية ، وإلا نشأ عن ذلك موقف غريب : هو أن فصل المقاطعات الشرقية عن ألمانيا مما يؤدي إلى تحويل مركز النقل فيها نحو الغرب ، ويزيد من ضغط ألمانيا على فرنسا .

يقال إن القنبلة الذرية ، ستقضى على الحدود ، فلا يمكن فرنسا أن تضمن سلامتها باحتلال نحو ثلاثين ميلاً من أراضي الرين واكتسار كوكاء من وراء حدودها . فلماذا لا يقال مثل ذلك عن الحدود في الجبهة الأخرى ؟

ثم يقال إن مركز قيادة الجنرال كلاي في برلين قد قام بعملية حساسية فوجد أن اقتطاع الرور من ألمانيا يكلف دافع الضرائب الأمريكي مائتي مليون دولار في السنة . ولكن هل يفضل دافع الضرائب هذا أن يدفع أربعائة ألف مليون دولار بعد سنوات في

حرب جديدة كما فعل في هذه الحرب ؟ إن فرنسا تقترح أن يحال بين ألمانيا وبين أن تجعل من الرور مصنعاً للسلاح على أن يقام في تلك الجهة نظام إقتصادي يجعل من السهل تبادل السلع مع الشرق والغرب ومنها ألمانيا ، وإذا استعمل الرور وقتاً ما لسد جزء من حاجات ألمانيا ففي ذلك الكفاية لكي لا تصبح ألمانيا عبئاً على الأمم المتحدة وسيتمشى الأمر بإيجاد توازن إقتصادي بين الرور وألمانيا من جهة والعالم الخارجي من جهة أخرى .

عندما يعودون إلى وطنهم ، فذكر أنهم ينظرون في يأس إلى الخراب المحيط بهم ، ثم يضعون أيديهم في جيوبهم ، ويلقون نظرات معناها ظاهر ، على مركبات الجنود المحتلة وهي تمر أمامهم في الشوارع . وهم يحبون أن يذكروا حوادث الحرب والأوقات التي أمضوها في البلاد المحتلة ، ويفوهون بالأذع الفكاهات عن الديمقراطية الحديثة ؛ فالأجانب الذين عاشوا ببرلين قبل الاستيلاء عليها وبعده ، يعتقدون أن أنصار النازي اليوم أكثر من ذي قبل .

هذه المشاهدات سبب آخر يضاف إلى الأسباب التي تقضي بمساعدة ألمانيا في محنتها ، والخروج بها من المأزق إلى الديمقراطية الصحيحة ، وهي كذلك سبب في ألا نستسلم للأوهام .

لقد سئل أحد الألمان في الحرب السابقة : ماذا يعمل الألمان لو خسروا الحرب ؟ فأجاب : في هذه الحال سننظم العطف . فيجب أن نعمل على ألا يعود الألمان إلى تنظيم العطف مرة أخرى ، فدرى جوبلز يخرج رأسه من حفرة ليقول لنا : ومع ذلك فقد انتصرنا نحن أيضاً ! فالمسألة إذن ليست إخضاع ألمانيا وإعاسها بل هي العمل على نهضتها دون أن يؤدي ذلك إلى كارثة للعالم والسلم .

لقد انتقد المشروع الفرنسي ؛ لأنه لا يؤدي إلى إيجاد إدارة مركزية في ألمانيا في أقرب وقت ، وإذا لم تنظم ألمانيا وهي تشغل وسط أوروبا ، فإن ذلك يكون مصدر خطر على أوروبا . وفي إدارة ألمانيا واحتلالها عبء ثقيل على الحلفاء ، فيتمين الخلاص منه بأسرع ما يمكن .

على أن النظرية الفرنسية لم يقصد بها بقاء ألمانيا غير منظمة ، فهذه الحفرة السوداء العظيمة ، لا يمكن أن تظل باقية إلى الأبد في وسط أوروبا ، بل يجب أن تقرر كيف نسدها

يكون الميزان متعادلاً ويكون بيع الدولة الألمانية منتجات الرور للمستهلك الألماني، وهي التي حصلت عليها مجاناً، مما يزيد موارد الميزانية الألمانية. ومن الممكن أن تتحمل الرور الديون الألمانية الخارجية.

فالمقترحات الفرنسية إذن لا تهمل الجانب الاقتصادي، وتعني بمستقبل ألمانيا المنهزمة. ولو أن الحلفاء لا هم لهم إلا العناية بالاقتصاد الألماني وحده، دون أي اعتبار آخر، لكان عليهم أن ينشئوا ألمانيا العظمى كما تصورها هتلر. أما القول بأن نهضة ألمانيا كدولة حرة أمر مستحيل، فهو قول لا يتفق مع الواقع كما يعرف الفرنسيون جيداً. وإن جميع المعاهدات لضمان السلامة في الماضي كان الغرض منها اتقاء الخطر الألماني الذي هو مسألة حقيقية لدى جيران ألمانيا وليس مجرد أمر نظري. وإن غريزة الأمم لتسدل على أن أثبت اتحاد في السلم هو القائم على حقائق الحرب التي جمعت بينها.

لقد قام ممثلو مجلس الرقابة للدول المحتلة ببرلين بعمل تقدير للميزان التجاري لألمانيا في سنة ١٩٤٩، فقدر الانجليز أن هذا الميزان سيكون متعادلاً على حين قدر الأمريكيان والفرنسيون والروس أنه ستكون هنالك زيادة في صالح ألمانيا.

ويستطيع إقليم الرور إذا صار دولياً أن يؤدي مساعدة ذات وجهين لألمانيا أحدها تجاري والآخر متعلق بالميزانية.

فالرور أولاً يستطيع أن يبيع ألمانيا الفحم والصلب ومنتجات المعادن والمنسوجات، ويشتري منها أطعمة وحديد وأخشاباً للمناجم وغزلاً صناعياً، وفي هذه الحالة يكون الميزان التجاري على الأرجح في صالح الرور، وحينئذ يكون على بلاد الرور أن تضع تحت تصرف ألمانيا جزءاً من المبالغ التي اكتسبت من جهات أخرى. وإذا ظهر عجز ألمانيا في ميزانها مع الرور فيمكن لإقليم الرور أن يرسل إلى ألمانيا ما يسد حاجتها بلائحة من كي

هل فشلت سياسة أمريكا في ألمانيا؟

في الخارج. وتوفي مطالب روسيا السوفيتية وبولونيا بنقل ما يوجد منها في الشرق مع الاشتراك في جزء من الغرب. أما مطالب الحلفاء الغربيين فتوفي بوضع يدهم على ما في المناطق الثلاث الغربية.

(٣) ينخفض الانتاج الألماني بنقل بعض هذه المصانع وتدمير بعضها بحيث لا يزيد الانتاج عما يكفي لجعل مستوى المعيشة في ألمانيا معادلاً لمتوسط ما عليه الحال في البلاد الأوروبية الأخرى غير إنجلترا وروسيا.

إن قرار تقسيم ألمانيا إلى مناطق للحصول على تعويضات يتناقض مع الرغبة في جعل ألمانيا وحيدة اقتصادية. ثم إن مؤتمر

أما المقال الثاني فهو بقلم الأستاذ إدوارد ميسون، وهو يستعرض أولاً المبادئ الأساسية لاتفاق بوتسدام فيقول إن هذه المبادئ تقضي بما يأتي:

(١) تعتبر ألمانيا في غرب خط الأودر ونيسن وحدة اقتصادية، وتسير المناطق المختلفة على سياسة اقتصادية واحدة، وتوزع السلع الضرورية توزيعاً عادلاً، وتنشأ وكالات اقتصادية مركزية لإدارة النقل والمالية والتجارة الخارجية والمواصلات والصناعة.

(٢) تجمع التعويضات بنقل المصانع والآلات من ألمانيا ووضع اليد على ما تمتلكه

من وراء البحار

بوتسدام لم يبين إذا كانت مطالب التعويضات تسدد من آلات المصانع أو من المعاملات التجارية الألمانية . وقد تقرر في ذاك المؤتمر أن يكون للولايات المتحدة الأولوية بالنسبة للعمال الناشئ عن المعاملات التجارية الألمانية على سبيل التعويض ، ولكن لم يتقرر شيء بالنسبة للدول الأخرى .

ثم إنه بعد القضاء على ألمانيا كدولة صناعية كبرى ، هل تعود الدول فتساعد على النهضة الصناعية ؟ إن الحلفاء لم يتفقوا على ذلك ولا يظن أنهم يتفقون ؛ فسلوك روسيا في منطقتها لا يدل على أنها ترضى بأقالة ألمانيا تدريجياً من عثرتها .

وفي هذه الأثناء قررت اللجنة المكونة للحلفاء ببرلين في مارس من هذه السنة ، تبعاً لقرارات بوتسدام ، مستوى ما يسمح لألمانيا بإخراجها من الصناعات الثقيلة ، فمنع بالطبيعة صنع الآلات الحربية ، أما بعض المواد التي تمت إلى المواد الحربية بسبب مثل صناعة المطاط والأمونيا والبتروال الصناعي والألومنيوم فقد سمح بها مؤقتاً للاستهلاك الداخلي ، إلى أن تستطيع توريدها ، ثم سمح لها ببعض صناعات الصلب والحديد والمواد الكيميائية والآلات الصناعية والهندسية على نطاق ضيق ، أما الصناعات الخفيفة الأخرى وصناعات البناء فقد تركت ألمانيا فيها حرة .

وكانت المفاوضات في هذا الموضوع صعبة وطويلة يريد حليف التساهل في نوع من الصناعات ، فيأبى الآخر إلا التشدد .

فهل يمكن بعد تدمير المصانع ونقلها أن يصل إنتاج ألمانيا إلى الحد الذي يجعل معيشة سكانها في المستوى الذي قرره مؤتمر بوتسدام ؟ وهل تستطيع ألمانيا أن ترسل إلى الخارج من صادرات صناعتها ما يعوض الواردات ؟ لو بقيت ألمانيا وحدة اقتصادية ولم توضع العراقل في سبيلها لما أثر نقل

المصانع وتدميرها في اقتصادها في الوقت الحاضر . إن الصعوبات التي تعترض ألمانيا في هذا الوقت ناشئة عن حاجتها إلى الطعام ، وهذا متوقف على محصولها ، على أن ألمانيا قد سمح لها بإنتاج المحاصيل التي تصنعها دائماً ، ثم إن النقص في الآلات الزراعية لا يؤثر فيها كذلك ، ولذلك ينتظر أن يتحسن حال الطعام فيها بعد محصول سنة ١٩٤٦ . أجل إن صعوبات التبادل بين المناطق ، والقضاء على الزراعات الواسعة في الشرق قد يضر بمركزها الزراعي ، ولكن هذه الأمور غير قائمة على سياسة بوتسدام .

كذلك البرنامج الذي وضع للاعاق من قوة ألمانيا الصناعية لا يؤثر في إنتاجها في المستقبل القريب ولا يقف في سبيل عودة الرخاء إلى ألمانيا بعد ١٥ أو ٢٠ سنة . فوسائل الاقتصاد الحديث تمكن الدول سريعاً من عودة الرخاء إليها ، إذا لم توضع العراقل في سبيله لأغراض سياسية . ولن يشعر الألمان بعبء القرارات التي اتخذت في بوتسدام إلا عند وصولهم إلى فترة متوسطة . أما نقل الآلات والمصانع من ألمانيا فهو سيقبل من إنتاج ألمانيا ولكنه لا يزيد الإنتاج كثيراً في الجهات الأخرى من أوروبا ، ولا ريب في أن ألمانيا ستصاب بضرر كبير في إنتاجها ، ولكن يجب ألا نبالغ في هذا الأمر ، فانا لنعلم أن ألمانيا زادت آلاتها زيادة كبيرة حتى فاقت الولايات المتحدة في ذلك ، ولكن هذا العمل كان في أيام الحرب وأيام الاستعداد لها ، وهذا مالا تحتاج إليه في السلم ، ثم إن أكثر مصانعها الضخمة غير اقتصادية ، فهو موزع لأغراض حربية كما ترى في مصانع هرمان جورنج للصلب . فليس في نقل هذه الآلات ضياع كبير من وجهة الكفاية ، ولكن يجب أن نلاحظ أن نقل الآلات والمصانع مع عدم إمكان استعمالها

في مكان آخر ، مما يضر بالقارة الأوروبية جميعها ولا ريب في أن لهذا العمل تأثيراً حقيقياً على ألمانيا ، وهو يدل على أن الحلفاء فضلوا جمع التعويضات من المصانع والآلات بدلاً من الإنتاج الألماني ، كما كان الحلفاء مدفوعين إلى هذا القرار لأرضاء روسيا السوقية كي توافق على الاشتراك في سياسة بوتسدام التي تقضي بإدارة ألمانيا على أنها وحدة اقتصادية . ومن الطبيعي أن روسيا السوقية تعتبر بقاء الصناعات الألمانية الكبرى في الشرق مهدداً لسلامتها . وإذا لم ينفذ برنامج نقل المصانع ، فإن ذلك يؤدي إلى تقسيم ألمانيا ، وضم القسم الشرقي منها فيما وراء نهر الألب إلى منطقة السلامة الروسية .

ولقد نص اتفاق بوتسدام على الوسائل التي تؤدي إلى اتباع سياسة اقتصادية موحدة في المناطق المختلفة ، بتوزيع السلع بين المناطق توزيعاً عادلاً ، وإنشاء وكالات اقتصادية مركزية ، ولكن هذه النصوص لم تنفذ انتظاراً لتعيين الحدود الغربية لألمانيا ؛ ففرنسا تأبى إنشاء إدارة مركزية اقتصادية قبل أن يثبت في مصير الرور وأراضي الرين . ويقال إن روسيا السوقية تحاول تأجيل إنشاء هذه الإدارة المركزية حتى يتم نقل المصانع والآلات التي تعطى لها على سبيل التعويض . وقد اتخذ النشاط الاقتصادي والسياسي في المناطق اتجاهها متبايناً ، ففي المنطقة الروسية عمل على أن تكون الصناعات الباقية ملكاً للدولة ، وأصرت السلطات على تكوين جهة متحدة من الأحزاب ونقابات العمال ، وفي المنطقة البريطانية جعلت مناجم الفحم ملكاً للدولة ، وأخذت السلطات تقاوم الحركات

الثورية ، وشجعت إنشاء حزب اشتراكي ديمقراطي . وأظهر الأمريكيون في منطقتهم همة في القضاء على النظام النازي أكثر مما بذله الحلفاء الآخرون وأجروا انتخابات محلية . أما سياستهم الاقتصادية فسلبية .

وقد يكون السبب في هذا التباين ناشئاً عن النيات المتباينة للأمم المحتلة ، على أنه قد يكون أيضاً نتيجة لظهور الميول التي تعتمد على القوة المحتلة ، ومهما يكن الأمر فإن مثل هذه الخلافات لا بد أن تؤدي إلى تقسيم ألمانيا ، إذا لم يتدارك الأمر .

ولقد صارت ألمانيا الآن عبثاً على الدول المحتلة ، فعليهم تقع مسؤولية إطعامها ، ولا يمكن التخلص من هذه الحال إلا إذا استطاعت ألمانيا أن تكون لها تجارة صادرات ، لسداد ما تحتاج إليه من واردات . لقد كان سداد التعويضات في الحرب العالمية الأولى قائماً على القروض الأمريكية . ومن البديهي أن أمريكا في هذه المرة حاولت نقل هذا العبء عن أكتافها ، فإذا لم تكن لألمانيا تجارة صادرات فإن سداد ثمن الواردات يقع عبثاً على الدول المحتلة ، أو بالحرى على لولايات المتحدة التي تقترض منها الدول ، أو على الأقل الدول الغربية — ما يكفي للقيام بتبعاتها في ألمانيا . ووقوف ألمانيا على قدميها في اقتصاد موحد أهم إذن من مسألة نقل المصانع والآلات . وكلما تأخر ذلك كلما زادت أعباء الولايات المتحدة . ويجب على الولايات المتحدة أن تعمل على تنفيذ الاتجاه الأساسي من سياسة بوتسدام ، وهو اعتبار ألمانيا وتنظيمها على أنها وحدة اقتصادية .

ظـهـر حـدـيـثـا

مـدـوـنـة جـوسـتـيـنـيـانـه فـي الفـقه الـرومـانـي Institutes de Justinien نقله إلى اللغة العربية حضرة صاحب المعالي عبد العزيز فهمي باشا (دار الكاتب المصري)

لست أصور دهشقي ولا إعجابي ؛ فقد عودني عبد العزيز فهمي ان يدفعني إلى الدهش ويضطرني إلى الإعجاب منذ عرفتته حين كنت طالبا معهما ، وحين كان هو محاميا موفور القوة مستكمل النشاط . وما زلت أذكر إعجاب جيل الشباب به حين كان عضوا في الجمعية التشريعية وحين انفق الليل كاملا متوفرا على درس الميزانية . وما زلت أذكر بعد ذلك انقطاعه لوضع مشروع الدستور وعكوفه على العمل أياما وليالي متصلة في غرفته بفندق من فنادق الاسكندرية في صيف عام من الأعوام ، لا يلقى الناس إلا ساعة حين ينصرف النهار ويقبل الليل ، يتحدث إليهم ويسمع منهم لحظات ، ثم ينصرف عنهم ليمضوا هم في أحاديثهم وفكاهاتهم وليستأنف هو عكوفه على وضع مشروع الدستور . وما زلت أذكر امتناعه على النوم ليدرس هذه القضية أو تلك حين كان رئيسا لمحكمة الاستئناف ثم لمحكمة النقض ، بل ما زلت أذكر تعمقه لقصة الأدب الجاهلي وتحقيقه لما أثير حولها من خلاف حين كانت قصة الأدب الجاهلي ، وتعمقه لقصة الاسلام وأصول الحكم وتحقيقه لكل ما جاء في هذا الكتاب ولما أثير حوله من خلاف ، ولموقف الدستور من هذا الكتاب وما أثير حوله من خلاف .

فالصورة المستقرة في نفسي من عبد العزيز فهمي منذ عرفتته أنه رجل جد مقدام ، لا يعرف تهاونا ولا ضعفا ولا فتورا ، ولا يستقبل

في مثل هذه الأيام من الصيف الماضي تحدث إلى حضرة صاحب المعالي الأستاذ عبد العزيز باشا فهمي في التليفون يسألني ألا أستطيع أن أعيره معجما لاتينيا وكتابا في نحو اللغة اللاتينية . قلت : وما حاجتك إلى هذا العناء في هذا القبط المحرق ! قال متضحكا : إني معني ببعض مسائل الفقه وقد أنسيت ما حفظت من اللاتينية لبعده العهد بأيام الدرس . فان استطعت أن تعيرني هذين الكتابين شكرت لك هذا الفضل . وقد أعرت الأستاذ هذين الكتابين دهشا باقدامه على الفوص في معاجم هذه اللغة القديمة ونحوها على حين كنت أنا أستكره نفسي استكراها على الفوص في معاجم اللغة العربية وأدبها لشدة القبط من جهة ، ولأن الحياة المصرية لاتعين على بحث أو درس من جهة أخرى .

ثم انقضت أشهر الصيف وُلقيت الأستاذ في بعض جلسات المجمع اللغوي ، فعلمت منه أنه نقل إلى العربية هذا الكتاب اللاتيني من كتب الفقه الروماني ، وأنه يريد أن يتيح الانتفاع بما فيه من علم للذين يدرسون القانون في كليتي الحقوق والذين يدرسون الفقه الاسلامي في الأزهر الشريف وغيره من معاهد الدين .

ولست أصور دهشقي حين تلقيت من الأستاذ هذا النبأ ، ولست أصور إعجابي بهذه القوة التي لا تعرف ضعفا ، وبهذه العزيمة التي لا تعرف كلالا ، وبهذه المصابرة التي لا تعرف سأمًا .

من أجل هذا تلقيت ما أنبأني به من ترجمته هذا الكتاب إلى اللغة العربية بما تعودت أن ألقى به أنباءه كلها من الدهش والاعجاب ، ولكنني تلقيت هذا النبأ بشيء آخر غير الدهش والاعجاب ، بهذا الشوق الشديد إلى أن أنظر في الترجمة وأقرأ نتيجة هذا الجهد العنيف .

وعبد العزيز فهمي متواضع دائماً ، يرى أنه مقصر مهما يبذل من جهد ، ومهما يحتفل من مشقة ، ويرى دائماً أن همته أبعد من صحته وإن آماله ومثله العليا أعظم وأضخم من طاقته المحدودة . وهو من أجل ذلك راض عن نفسه وساخط عليها في وقت واحد ، راض عن نفسه لأنه لا يحملها أو لأنها لا تحمله إلا على ما يرضى ضميره وعلى ما يقتنع بأن فيه الخير والنفع لمواطنيه ، قد يخطئ وقد يصيب ، ولكنه متوخ دائماً للحق والخير والمصلحة كما يتوخى الرجل الكريم كل هذه الخصال . وساخط على نفسه لأنه يطلب إليها أو تطلب إليه فوق ما يطيق الإنسان الضعيف مهما يكن حظه من القوة . فكيف إذا نيف على السبعين وقد اعتلت صحته وحملته السن أثقالها ؟

قلت إنه متواضع دائماً فلم يكذب يرى دهشى وإعجابي حتى قال : هون عليك فاني لم أترجم هذا الكتاب من اللاتينية إلى العربية وإنما ترجمته من الفرنسية إلى العربية ، ثم قص على القصة التي تقرأها في مقدمة الكتاب . ولكن الشيء المحقق الذي أشهد به مطمئناً هو أنه لم يؤمن للترجمة الفرنسية أو للتراجم الفرنسية التي اعتمد عليها إيماناً مطلقاً مطمئناً ، وإنما نقد واستقصى وراقب الترجمة واستقصى النصوص وقابل بين التراجم المختلفة ورجح بعضها على بعض ، ولولا ذلك لما استعازتني المعجم اللاتيني وكتاب النحو اللاتيني . فالذين يقرءون هذا الكتاب يجب أن يطمئنوا

أمراً من الأمور الاستقصاء ولا مشكلة من المشكلات إلا قتلها بحثاً ، وأبغض شيء إليه الدرس السطحي ، وأثقل شيء عليه نصف العلم . فهو يحب العلم كاملاً ما وسع الإنسان أن يكمله . ولست أدري أيحب المتنبي أم يزور عنه ، ولكنني أعلم أنه يشارك المتنبي فيما يرى من أن أقبح ما في الرجل من عيب هو أن يكتفى بالنقص حين يستطيع الكمال . من أجل هذا كله لم أدهش حين رأيت عبد العزيز فهمي يندفع في غير أناة ولا مهل ولا رفق بنفسه في درس قصة الكتابة العربية : ما قبل فيها منذ أقدم العصور إلى الآن ، لا يفوته من ذلك شيء ، ثم في محاولة الحل لهذه المشكلة وفيما اقترح من إصلاح الكتابة ، ثم في الدفاع عن رأيه والجهاد في سبيله والرد على خصومه يستقصى ما يدور حول هذه القضية في جميع أقطار الشرق العربي ، فيسجله ويحلله وينقضه لا يعرف في ذلك هوادة ولا لينا . وقد عرض للمجمع اللغوي لإصلاح النحو واختار عبد العزيز فهمي مقررًا لهذا الإصلاح ، وإذا هو يفرق في النحو العربي إلى أذنيه ، وإذا هو يستخرج من دقائقه ويكشف من أسرار ما ينوء بالعصبة أولى القوة من الذين أنفقوا حياتهم في درس النحو واستقصاء مذاهب البصريين والكوفيين فيه ، حتى استقر في نفوس زملائه أنه أعلمهم بالنحو وأنفذهم في مشكلاته . كل ذلك والرجل لم يفرغ لعلوم اللغة العربية ولم يأخذ نفسه بالتخصص فيها ، وإنما ألم بها إلمامات قصارا كما يصنع الرجل المثقف الذي يجب أن يأخذ من كل شيء بطرف . ولكن عبد العزيز فهمي لا يجب أن يأخذ من كل شيء بطرف ، وإنما يؤثر الاستقصاء والتعمق وما يستتبعان من جهد على هذا العلم الناقص اليسير . فكيف به حين يعرض للفقه والقانون ، وهو قد أنفق صفوة حياته في الفقه والقانون ؟

إلى أنهم لا يقرءون ترجمة ثانية عن ترجمة أولى ، وإنما يقرءون كتاباً ترجم عن أصله اللاتيني ، وكانت تراجمه الفرنسية هادياً للأستاذ ودليلاً ولا سيما إذا لاحظنا أن المترجمين الفرنسيين من الفقهاء الممتازين الذين يهتدى برأيهم فيما يكون من تأويلهم للنصوص وتعليق عليها . وهذه الترجمة العربية لكتاب لاتيني في الفقه الروماني خطرهما العظيم من نواحي مختلفة أشد الاختلاف . فنحن نعلم أن سلفنا قد نقلوا من اليونانية إلى العربية ، ونقلوا من الفارسية والهندية إلى العربية أيضاً ، ونقلوا كذلك من السريانية إلى العربية ، ولكننا لا نعلم أنهم نقلوا في الشرق العربي على الأقل من اللاتينية إلى العربية ، فإذا لم أكن مخطئاً فعبء العزيز فهمي هو أول من نقل من هذه اللغة إلى اللغة العربية في بلاد المشرق . وليس هذا بالشيء القليل وأحسبه شيئاً كثيراً جداً ولا سيما حين نقرأ الكتاب ، ونرى أن بين هذا الفقه الروماني وبين كثير من فقهاء الإسلامى تقارباً وتشابهاً واتحاداً أحياناً ، وأن هذا كله لا يمكن أن يكون نتيجة المصادفة وتوارد الحواطر . وهنا تنشأ المسألة الخطيرة الثانية كيف تأتى للمجتهدين من فقهاءنا أن يظهرُوا على دقائق الفقه الروماني إذا كان هذا الفقه لم يترجم لهم كما ترجمت لهم فلسفة اليونان وثقافة الفرس والهند ؟ وناحية خطيرة أخرى لهذه الترجمة هي أن طلاب القانون عندنا كانوا إلى الآن يدرسون ظاهراً من الفقه الروماني يسمعون من أساتذتهم لا يستطيعون أن يرجعوا فيه إلى أصل معتمد . ويحزنى أن أقول إن الأساتذة أنفسهم لا يرجعون في هذا الفقه إلى أصوله الأولى ، وإنما يرجعون إلى ما كتبه الفقهاء الأوربيون أو ترجموه ، وهم يرجعون إلى ما كتبوا أكثر مما يرجعون إلى ما ترجموا . فالفقه الروماني الذي يصل إلى طلابنا في كلية الحقوق ، إنما يصل إليهم شاحباً

ممتقع اللون قد فقد كثيراً من خصائصه التي تمنحه القوة والخصب ، لأنهم تلقوه عن اليد الثالثة أو عن اليد الرابعة لا عن اليد الثانية التي استقته من أصله اللاتيني . والمعروف أن أساتذة الفقه الروماني عندنا لا يحسنون اللاتينية ، ولا يحفلون باتقانها ، ولا يغرون تلاميذهم بدراستها ، لا أكاد أستثنى منهم إلا واحداً ترك مهنة التعليم . فهذه الترجمة ستتيح لطلابنا أن يقرءوا الفقه الروماني قراءة مباشرة ، وأن يستخرجوه من معدنه ويستنبطوه من ينبوعه . ولا أشك في أن هذا سيفتح لهم آفاقاً لم تفتح لهم من قبل وسيغريهم بدراسات لم تكن تخطر لهم على بال . وناحية أخرى لخطر هذه الترجمة ، فطلابنا الأزهريون يتعمقون دراسة الفقه الإسلامى ولكنهم يدورون منه في غرافا منغلقة لا تنفذ إلا إلى المعروف من أصول الفقه الإسلامى . وهم سيقراءون هذا الكتاب وسيعلمون أن أمماً أخرى قد تعمقت الفقه كما تعمقه المسلمون ، وكان فيها مجتهدون يستعرضون المشكلات وينفذون منها ويسرون للناس ما تعرضه عليهم حياتهم اليومية من الأمور المعقدة . وكان هؤلاء المجتهدون يستقبلون هذه المشكلات كما كان المجتهدون المسلمون يستقبلونها ، وكانوا يحلون فيها ويتصرفون فيها على أنحاء قريبة جداً من الأنحاء التي كان المجتهدون المسلمون يعمدون إليها . فسيلقى طلابنا الأزهريون على أنفسهم أسئلة وسيجدون في أنفسهم أجوبة لهذه الأسئلة ، وسيعلمون أن العزلة لم تقبهم لشعب متحضر وأن الأجيال على اختلافها وتباينها لا تعدم وسائل لتداول الحضارة وعناصرها مهما يكن بين هذه العناصر من التباعد والاختلاف ، وسيطالب الأزهريون بمزيد من العلم وسيحرصون لا على أن يعرفوا فقه الرومان وحدهم ، بل على أن يعرفوا فقه أمم أخرى قديمة وحديثة ، وستفتح لهم آفاق

مومسن ونظراؤه بعد أن استكشفت النقوش اللاتينية واليونانية التي لا تحصى ، وبعد أن وضعت موضع الدرس والنقد والمقارنة .

ومن المحقق أن عبد العزيز فهمي لم يقرأ من هذا كله شيئاً ؛ لأنه لم يفرغ للبحث النظري ولم يخصص نفسه في تاريخ الفقه . ولكنني حين رأيت يفسر الجنس كما فسره ويفصل أمور الولاء كما فصلها في تعليقاتها الكثيرة لم أشك في أنه قد رجع إلى هذه المصادر التاريخية ورجع على الأقل إلى المعجم التاريخي العظيم

Dictionnaire des antiquités grecques et romaines de Daremberg et Saglio.

فلما سألت في ذلك تبينت أنه لم يتكلف من هذا كله شيئاً لأن صحته لم تتح له فيما يقول أن يؤدي لهذا البحث حقه . فاعجب إذن لهذا التوافق المدهش بين حدس عبد العزيز فهمي وتناجح البحث التاريخي الدقيق . أما أنا فلست أخفي عليك أنني أسفت أشد الأسف لأن هذا الرجل لم يتخصص في درس التاريخ القديم ، ولكنني أسفت أيضاً أشد الأسف ذات يوم لأن هذا الرجل لم يفرغ للتخصص في اللغة العربية وعلومها . وعبد العزيز فهمي من الذين لا يكادون يعرضون لشيء حتى يشعروك بأنهم وقفوا حياتهم عليه وتفوقوا فيه تفوقاً رائعاً حقاً .

وناحية أخرى لخطر هذه الترجمة وهي أن الكتاب قد أصدره قيصر من قياصرة الروم في القرن السادس للمسيح بعد أن كلف لجنة من الفقهاء البارعين إعداده وعرضه عليه وبعد أن قرأ ما أعدت هذه اللجنة ونقده وغير فيه فحذف منه وأضاف إليه ، وهو من هذه الناحية خلاصة للفقه الروماني الذي اشتغل به أئمة الفقهاء الرومانيين أكثر من ألف عام خضعت فيها روما لنظام الملك وللنظام الجمهوري وللنظام الامبراطوري . وقد حرص

أوسع جداً وأبعد جداً من الآفاق التي فتحت لطلاب الحقوق في الجامعات .

وناحية أخرى تبين خطر هذه الترجمة وهي أن المترجم لم يكتف بالنقل الدقيق الأمين ، وإنما كان فقيهاً وفقياً بأوسع معاني هذه الكلمة ، فقيهاً تعمق الفقه الإسلامي والفقه الحديث الأوروبي والشرقي ، وأراد في كثير من المواضع أن يدل على الصلة بين الفقه الروماني الذي يترجمه وبين هذه الألوان المختلفة من الفقه القديم والحديث .

فالذين سيقروا هذا الكتاب لن يقرأوا ترجمة فحسب ولكنهم سيقروا شروحا وتعليقات ، لعلها أن تكون أقوم من النص نفسه . وليس عبد العزيز فهمي مؤرخاً لا للفقه الروماني ولا للنظم الرومانية . ولعلني لأخطئ إن قلت إنه لم يقرأ من كتب التاريخ الروماني المفصل إلا ما يقرؤه المثقفون الذين يرتفعون بأنفسهم عن الجهل ، ولكن لعبد العزيز فهمي على هذا حدسا غريباً مدهشاً حقاً . فهو قد يلقى الكلمة اللاتينية أو الفكرة الرومانية قد اختلف الفقهاء الفرنسيون في تفسيرها وتأويلها ، وإذا هو يفسرها ويؤولها على النحو الذي انتهى إليه في هذه الأيام أشد المؤرخين والفقهاء تعمقا لفقه الرومان وتاريخهم . وهذا كثير جداً في الكتاب ، ولكنني أضرب له مثلاً بما فسره به عبد العزيز فهمي معنى الجنس ومعنى الولاء فقد كان الفقهاء الذين استعان بهم على ترجمته يختلفون في هذين البابين ويذهبون فيهما مذاهب لا يلائم بعضها بعضاً ؛ لأن حقائق التاريخ الروماني لم تكن في عصرهم قد ظفرت بالجلء الذي أتيج لها منذ أواخر القرن الماضي . لم يكونوا قد ظهوروا على نظريات فوستل دي كولانيج ومن جاء بعده في نظام « المدينة القديمة » وفي معنى الجنس والقبيلة ، ولم يكونوا قد قرءوا الفقه الروماني الخاص والعام كما عرضه

هذا الجهد ، ولكنه يقبل منى في غير شك إقتراحاً يسيراً جداً وهو أن يضيف إلى الكتاب حين يعيد طبعه ثبناً بما فيه من الأسماء والمصطلحات ، مع ما قد يحتاج إليه هذه الأسماء والمصطلحات من شرح وتفسير . ذلك أخرى أن تتم الفائدة ويعم النفع ، ولا سيما بالقياس إلى الذين ليس لهم إلا حظ متواضع من ثقافة في الفقه والتاريخ .

وقد أراد عبد العزيز فهمي أن ينفق ما قد يغله هذا الكتاب من ربح في تشجيع طلاب الحقوق بجامعة فؤاد الأول . وتفضل فكلفتني للقيام عنه بذلك . وهو لن يقبل من الطلاب على جهده وطيب نفسه إلا لونا واحداً من الشكر وهو قراءة هذا الكتاب في عناية وتفهم . ولو أنني كنت مسموع الكلمة عند الأستاذ الأكبر وعند مديري الجامعاتين لألححت عليهم في أن يكون هذا الكتاب مادة من مواد الدرس لطلاب الفقه والقانون على اختلافهم ، ومن يدرى لعلهم لا يحتاجون منى إلى هذا الإلحاح . فهم أبصر بحاجة الطلاب إلى مثل هذا اللون من ألوان العلم .

طه حسين

جوستنيان ، وحرص مترجموه من بعده ، وحرص المترجم المصري على أن يبينوا في إيجاز ما بين الأحكام التي اشتمل عليها هذا الكتاب وبين الأطوار المختلفة للتشريع الروماني من صلة . فأصبح هذا الكتاب كتاباً في الفقه وفي تاريخ التشريع عند الرومان .

فالذين سيقراءون هذا الكتاب سيقراءون فقهاً وتاريخاً معاً . وكان جوستنيان نفسه مشرعاً محباً لتتبع القوانين وإصلاح ما يحتاج منها إلى الإصلاح . وهو يصدر بهذا الإصلاح مراسيم ومنشورات أشير إلى بعضها في الكتاب وترجم بعضها ترجمة كاملة ألحقت بالكتاب . ثم لم يكتف عبد العزيز فهمي بنشر الكتاب وملحقه هذا ، بل أضاف إليه ملحقاتاً أخرى ترجم فيه طائفة صالحة من القواعد العامة لأصول التشريع عند الرومان .

وقد أصدر جوستنيان هذا الكتاب رفقا بطلاب الفقه والحقوق . وترجم عبد العزيز فهمي هذا الكتاب خدمة لطلاب الفقه والحقوق . وما أظن أن عبد العزيز فهمي يقبل منى شكراً أو شيئاً يشبه الشكر على

القاهرة الجديدة قصة للأستاذ نجيب محفوظ (لجنة النشر للجامعيين — القاهرة)

مشهد تقع عليه العين العابرة يجد الأستاذ محفوظ نواة قصة زاخرة بالحياة والفن ! ولكن لماذا اختار المؤلف لقصته هذا العنوان الموهوم ؟ وهل قرأت له منذ قريب « خان الخليلي » ؟

لقد كان القدماء يعالجون الجغرافيا باعتبارها أرضاً وسماً ومناخاً وغلات وسكاناً من الناس أو من الحيوان ؛ ولكن عناوين بعض قصص الأستاذ محفوظ كأنما يعنى بها أن الجغرافيا

قصة ، ومن يقرأ عنوانها تثب إلى رأسه معان كثيرة ولكن لا يخطر في باله ألبتة أن يكون ذلك عنوان قصة ، وذلك بعض فن الأستاذ نجيب محفوظ ، والأستاذ نجيب محفوظ فنان مطبوع وقاص له خصائصه الفنية . وليست قصة « القاهرة الجديدة » أولى قصصه ولن تكون آخرها ؛ إن له عينا ترى ما لا تراه العين ، وله أذن تسمع ونفساً وخطراً يفعل بكل ما يرى وما يسمع وما يحس ، ففي كل

« الجو » العاصف من الآراء والنزعات الجديدة التي تلف حياة الشبان والشابات ، بل الشيوخ والشيخات أيضاً في هذه الأيام ! ولكن ما هو موضوع القصة على التحديد ؟ هذا هو السؤال الذي أوترألاً أجيب عنه الساعة ؛ لأدع لكل قارئ فرصة يلتبس فيها الجواب بنفسه بقراءة القصة ؛ وليس عبثاً ما يضيع من وقت في قراءة قصة من قصص نجيب محفوظ !

تمنيت لو خلت هذه التحفة الفنية البديعة من بعض الهنات في أسلوب القول وفي الأعراب والبيان ، ولكنها هنات ضئيلة لا تبغض قيمة هذه التحفة التي تستحق الثنوية والاعجاب !

في رأيه ، أو في فنه ، هي جغرافيا الناس لا جغرافيا المكان ؛ فأنت تقرأ عنوان « القاهرة الجديدة » تلتبس أن تطالع حديثاً عن الجغرافيا كما يعرفها القدماء ، فإذا بين يديك حديث آخر عن الجغرافيا كما يراها هذا الجغرافي الفنان : أرض الحادثة وسماها الفكر وجو الأعصاب ؛ وإذا رياح وعواصف ولكن مما يثور في داخل النفس لا في ظاهرة الحياة . . .

هي قصة إذن يصف بها « القاهرة الجديدة » على أسلوبه في فهم جغرافيا الناس في هذا الجيل من الشبان والشابات الذين يعيشون على ظهر هذه الأرض التي تسميها الجغرافيا القديمة « القاهرة » ، في هذا

رصد الربيع بقلم الأستاذ فؤاد شاكر (دار إحياء الكتب الغربية — القاهرة)

كان كتاب هذه الرحلة شيئاً طريفاً بين كتب الرحلات ، فيه إلى جانب المشاهدات الطريفة في الرحلة من الآثار والديار نفحات أدبية رائقة ، وفيه شعر ونثر ، وفيه محاورات وطرائف ، وفيه تحقيقات تاريخية وأدبية ولغوية جاءت عفو الساعة لمناسبتها ، ولكن فيها تدقيقاً وبحناً وآراء لها تقدير واعتبار ، وفيه إلى ذلك تعريف بطائفة من أعيان الجيل في نجد والحجاز قد يكون فيه غداً مادة بحث اجتماعي وتاريخي .

وقد صدر المؤلف كتابه بمقتطفات رائعة مختارة من أحاديث وأقوال جلالة الملك عبد العزيز آل سعود أيده الله ، وختمه بفصل في الحديث عن أسرته وتاريخه وأعماله وبعض ما يؤثر عنه من خلال الخير وشمايل الأكرمين — وقدم له الأستاذ العقاد مقدمة بليغة تحدث فيها حديثاً معجباً عن طبيعة التاريخ في الأمة العربية .

الأستاذ فؤاد شاكر أديب وشاعر يحاول في هذا الكتاب لوناً طريفاً من « أدب الرحلات » وهو يصف فيه رحلته وطائفة معه من أعيان الحجاز وأهل الرأي فيها إلى نجد ، تلبية لدعوة كريمة من حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وفي ركبته الميمون في ربيع سنة ١٣٦٠ (شتاء ١٩٤٠ — ١٩٤١) وكانت رحلة ميمونة اقترنت بغيت هاتل في نجد والحجاز أتى بأطيب الثمرات وحقق معنى الربيع ، ومن ثمة كانت تسمية الرحلة .

ولم يلتزم المؤلف فيما يصف من رحلته ورحلة أصحابه ما كان يلتزمه من قبل كتاب الرحلات من الاقتصار على وصف الديار والآثار والناس ، فانه لأديب وشاعر ، وإنه في هذه الرحلة لضيف ملك كريم له مآثر مذكورة في كل مرحلة من مراحل السفر وكل منزلة من منازل الإقامة ، ومن ذلك

وهو على الجملة كتاب يشتمل على فنون شتى ، ومن حق كل قارئ عربي يعنيه أن يتزود بمجديد من العلم عن المملكة العربية السعودية الناهضة وعن نجد والحجاز موطن الشعر والحكمة — أن يلتبس زاده في هذا الكتاب .

عاطفة الحب للدكتور محمد فتحى (مكتبة مصر ومطبتها — القاهرة)

« وإلى الشياطين عساها تهتدى . »
وهيات !

ثم تتابع بعد ذلك صفحات الكتاب :
بضعاً وثلاثين ومائتى صفحة كلها حديث
عن الحب !

هذا عناء لا يصبر عليه إلا عاشق !
فيا رحمة الله لمؤلفه وقارئه !

ولكنه كتاب أحسبه حقيقاً بأن يقرأه
الآلاف ، وأن يصبروا على قراءته ، بل أن
يجدوا في قراءته متاعاً ولذة ، وإن لم أجدي
أنا صبراً على قراءته ، ولم أجد فيما قرأت
من صفحاته إلا آلاماً شجية ، أما الآلاف
الذين سيقراءونه ويصبرون على قراءته
ويجدون فيما يقرأون أنساً وارتياحاً ولذة
فهم العشاق الذين لا يزالون في اللجة ولم
تقذفهم أمواج الحيلة بعد إلى الساحل ،
وأما أنا . . . ولكنى أوترألا أتحدث عن
نفسى في هذا الباب وقد قدفتى الأمواج
على الشاطئ جسداً طريحاً ليس في يديه من
ماضيه إلا ذكريات وآلام شجية وحوله من
أشلاء أمانيه ثلاثة أطفال بلا أم !

ماذا أقول عن هذا الكتاب غير هذا الذى
وصفت من آثاره فى نفسى ؟

لست أملك قولاً بعد ، إلا أن أنصح
كل مؤمن بالحب أن يقرأه ، فسيجد فيه
موعاً من التريية الوجدانية ترتفع به إلى آفاق
الانسانية العالية ، من باب الملذات أو من باب
الآلام !

هذا كتاب شاب فى السادسة والعشرين
من عمره ، وهذه الحقيقة هى أول سطر فى
كتابه الذى بلغت صفحاته بضعاً وثلاثين
ومائتين كلها حديث عن الحب . أتراه حين
يذكر تاريخ مولده فى أول سطر يكتبه ،
ثم يتبعه ببضعة عشر سطراً فى الحديث من
نفسه فى أول صفحة من الكتاب — يريد
أن يدل بشبابه وصفاته ، ولكنه — فيما يبدو —
ليس من أهل الادلال وإن يكن شاباً ؛
فهل تراه يريد — فى حديث ضمنى — أن يقدم
للقارئ البررات التى حملته على بذل الجهد
فى تأليف شتات هذا الكتاب ، يذكر شبابه
وصفاته ، ومن حق الشباب أن يتحدث
عن الحب ! أم لا هذا ولا ذاك ولكنه
يريد فى أول صفحة من كتابه عن عاطفة
الحب أن يعرض « صحيفة أحواله » على من
يعنيه أن يعرضها عليه ولا يعنيه أن يعرضها
على سواه ؟ أعنى : أكانت هذه الصحيفة التى
يتحدث فيها عن نفسه مقصودة لقارئ واحد
من بين مئات القراء ، أو آلاف القراء ،
الذين يقدم إليهم كتابه ، فهى رسالة خاصة
إلى « محبوب » فى كتاب عام يقدمه إلى من
يحب ومن لا يحب ؟

وكانت الصفحة التالية هى الاهداء :

« إلى من أحب »

« وإلى من لا أحب »

« وإلى الفتيات والفتيان فى كل عصر »

« إلى الملائكة لئلا تنقلب شياطين »

الميثاق القومي العربي (منشورات مجلة عالم الغد — بغداد)

الاحتمالات وما تقتضيه من أسباب التحفظ والاحتياط وتحديد الألفاظ لدلولاتها ومعانيها .

وإنها لمناسبة طيبة أن ينشر هذا الميثاق في هذا الوقت الذي يتحدث فيه العالم كله عن العرب وما يتصورونه من أهداف يأملون أن يبلغوها في المستقبل القريب ؛ ليكون هذا الكتيب تعريفاً بالعرب في نهضتهم ، وفي هذا الوقت الذي تحاول فيه جامعة الدول العربية أن يكون لها عمل إيجابي تتحقق به آماني العرب في الحرية والاستقلال ، تحديد معنى القومية المشتركة ؛ لتعرف « الجامعة » في ضوء هذا الميثاق أي سبيل تسلك لتثبت وجودها الإيجابي وتحقق الأمل للعقود بها ؛ وفي هذا الوقت الذي يحتاج فيه نفس كل عربي شعور غامض بما عليه من تبعات وبما تفرض عليه عرويته من واجبات ينبغي أن يؤديها لأمتة وإن لم يدرك ما هي على وجه اليقين والتحديد ؛ ليعرف كل عربي هدفه ويرى في مرآة هذا الميثاق صورة نفسه وحدود واجبه .

ويتألف هذا الميثاق من خمس وعشرين مادة ، تبدأ المواد الأولى منها بتحديد معنى العرب والوطن العربي ، وتنتهي بالمادة الخامسة والعشرين وهي مادة « القسم » الذي يجب أن يقسمه كل عربي يؤمن بعرويته ؛ وفيما بين المادة الأولى والأخيرة يتحدث الميثاق في جلاء ووضوح وتحديد عن المقومات العربية والقومية العربية وخصائص الحركة القومية والنظام السياسي والتشريع ، والشئون الاقتصادية والمالية ، والأهداف الاجتماعية . ألا ما أحق كل قطر عربي أن تتألف فيه شعبة تعمل على التماس الأسباب لتحقيق

هذا كتاب صغير ، على قدر راحة الكف ، لا يتجاوز بضعة عشرة صفحة ، ولكن فيه — على صغره — صورة واضحة للعالم والسمات للنهضة العربية الحديثة وما يجيش في نفوس أهل العربية جميعاً على اختلاف مواطنهم المحلية ونوازعهم الفردية .

هو ميثاق اجتمعت لتحريره ، أو لترجمته من لغة النفس إلى لغة الحديث ، طائفة من شباب العراق أرادوا أن يجعلوه تعبيراً صريحاً عما يحتاج نفس كل عربي من آماني تتصل بمعنى القومية العربية المشتركة ، وتصويراً للوعي القومي الذي تمخضت عنه الأحداث الأخيرة في بلاد العرب ، وإنهم ليأملون بنشره وإذاعته أن يتخذ كل عربي هدفاً وقبلة ، وأن يتواتق على العمل لتحقيقه كل أبناء العروبة ، ولذلك سموه ميثاقاً .

ولقد يقيم في وهم بعض من لم يقرأ هذا الميثاق مكتفياً بالعنوان عما وراءه ، أنه برنامج محلي أو طائفي ، أو حزبي ، لجماعة يريدون أن يحملوا غيرهم على متابعتهم فيه ومشايعتهم على الإيمان به والعمل له . وما هو كذلك فيما أرى ، ولعل لا أعدو الحقيقة إن خرجت به عن مدلوله السياسي فسميته محاولة فنية موفقة لتصوير حقيقة ماثلة في نفس كل عربي فهو تعبير لا إنشاء ؛ نعمل واضعيه هو عمل الفنان لا عمل السياسي .

ويقول الناشر في مقدمته إن منشئه قد ساءخوا ستة أشهر في تحبيره — على صغره — وهو قول يؤيده ما في عبارة الميثاق من الدقة والصدق وروح الاتزان ، فكأنه في معانيه المحدودة الواضحة معاهدة سياسية قد صاغ حروفها أبرع المفاوضين وأوسعهم أفقاً ، وأكثرهم إدراكاً لشئ

ظهر حديثاً

هذا الميثاق ! بل ما أحرى أن يكون في كل
حاضرة وبلد وقرية شعبة من هذه الشعب
تتعاون كلها على العمل له وتثبيت معناه
والتدرج به من مرحلة الفكرة إلى مرحلة
العقيدة ؛ فلسنا نشك أن معاني هذا الميثاق
فكرة قائمة في كل نفس ، وليس ينقصها
لكي تخرج إلى عالم الحقيقة إلا أن تكون
إيماناً في كل قلب !

محمد سعيد العربي

في مجلات الشرق

الاشتراكية حركة رجعية ١

التحضر وأن ذلك النظام تغير من اشتراكية القبيلة إلى اشتراكية الأسرة ... والتغير الأساسي الذي حصل في نظام الملكية حدث عندما أخذ الإنسان يزاول الزراعة . فالذين اهتموا إلى الزراعة وأخذوا يعيشون من ثمرات مزارعهم لم يكونوا يشركون غيرهم فيها ، ومع هذا فان اشتراكية الأسرة بقيت ثابتة ... على أن شيوعية الأسرة لم تلبث أن محيت لدى الشعوب الآخذة بأسباب الحضارة ، وتخلصت الملكية من النظام الاشتراكي العائلي إلى نظام الملكية الفردية التي أصبح بموجبها كل فرد يمتلك بمفرده ثمار أثماره ونشاطه وذكاؤه ، سواء أ كان زارعاً أو صانعاً أو تاجراً أو مخترعاً ... وعلى هذا يمكننا أن نقول إن دعوة الاشتراكيين والشيوعيين إلى إرجاع نظام الملكية إلى ما كان عليه في أحط أدوار التاريخ إنما هي دعوة رجعية دون شك وإن لقبوها بأنها تقدمية !

يسائل الأديب عبد النبي شوقي في العدد الثاني والعشرين من مجلة « النوى » التي تصدر في النجف : « هل الاشتراكية حركة علمية ؟ » ثم يحاول الإجابة عن سؤاله ، فينتفي أن تكون الاشتراكية حركة علمية تقدمية ويزعم أنها — على العكس — حركة رجعية ، فليست هي كما يزعم أهلها حركة مبنية على التطور التاريخي للماضي والظروف الاقتصادية الحاضرة ، فيقول : « إن التطور التاريخي يثبت أن الاشتراكية أبسط وسائل الامتلاك واحطها ، وأنها إذا كانت مطبقة في العصور الموعلة في القدم ، فلأن الأمم التي طبقتها لم تخرج في ذلك الوقت من ظلمات الجهلية والبدادة إلى نور الثقافة والتحضر ، فقد كانت أرض كل قبيلة ومساكنها ومجاري مياهها مشتركة ما بين أفرادها ... ويدلنا التطور التاريخي على أن نظام الملكية أخذ يتطور بنسبة ترقى الإنسان في مدارج

اسقنيها ذكرى !

العربية الكبرى ، وضمها خنقات قلبه
النايض بأمانى العروبة وأحلامها ، يفتتحها
بقوله :

في العدد الثاني عشر من مجلة «عالم الند»
البغدادية قصيدة فريدة للشاعر سليمان احمد
المبيني ، نظمها لمناسبة ذكرى الثورة

هاتها ... تلك خيرة الأجداد أنا صاد ... وأنت يا شعر ... صاد
اسقنيها ذكرى تدور بي الدنيا على نخبها ... وأنتى رشادى !
وأرى الكون كله لمحات من سنا عمق قرية الأجداد !

في مجلات الشرق

ويقول فيها لمناسبة الجلاء عن سوريا :

أبلغ الشام وهي مأججة آلاف
وأغاني الجلاء تلعب بالعو
والسكاري مرئحوت مع الآل
قل لها والقفار تفصلني عن
لم يحن بعد موعد العرس فيجا
ما أرى الشمل في الشام على الكأ
هل سألت النادي وسامرہ الفا
قل لصهيون : دون أحلامك السو
لا يفرنك الهدوء على الفا
إن سبعين ألف ألف حسام
راح نشوى من لجرها المتهادى
د كما تشتهى . . . وبالعواد
جان والغيد زغردات وداد
ها وأطيافها مقيم وغاد :
ولا جر طاطر الأبراد
س ولا مجلس الهوى في اتحاد
رق في العيد عن شهيد النادي
داء عض الشجا ولسع القتاد
ب وتطمعك هجمة الآساد
عربي الحدين بالمرصاد !

الشعر السياسي في العراق

ويقول :
« أما شعراء العراق في هذا القرن ، فترى
بعضهم ييأس من الإصلاح في ظل الدولة
العثمانية ويتجه اتجاهات مختلفة متباينة قد
تدل على قصر نظر وقلة إدراك . . .
وأعني بذلك ما قاله الزهاوى في قصيدة
عنوانها ولاء الانكليز :

وجدت الانكليز ذوى احتشام
إذا بهم احتفى المدعور يوما
أبابة الضيم حفاظ الذمام !
رأى منهم له أقوى محام !

« وهو رأى غريب في بابه . . . وقد
يكون للزهاوى فريق يؤيدونه في رأيه ،
ولكن الشيء الذي لا شك فيه أن هذا لم
يكن رأى الجميع ، فقد كان هناك فريق
من الأدباء والشعراء في مقدمتهم الرصافي

« أيها المولون في مصر مهلا
أنفسيكم القيات بيوم
أشمتا بالمسلمين وقد دا
أم تريدون أن تكونوا كقوم
إن إيلاكم لنا إيلام !
قام في ماتم به الاسلام ؟
رت عليهم بنحسها الأيام ؟
أسكرتهم بين القبور مدام ! »

في محلات الشرق

كنوز الفقراء !

وقفا على وحي الأنبياء وخيال الشعراء ، فإن للعامة في هذا الخلق والابداع اليد الطولى ؛ بل لعل الأنبياء والشعراء يستقون من هذه الينابيع التي لا تفتأ تفيض في كل عصر ومصر ولا يفيض ماؤها أبداً : الآداب العامة ؛ فإذا كان في الأمر بعض الشك ، فإن الشعوب بالأقل تلتقي مع أنبيائها وشعرائها في صعيد واحد ، لكفاية الحاجة الانسانية العامة الدائمة إلى الحوارق والاعاجيب ، أي إلى كل ماهو « في خارج » هذا العالم ونواميسه وحقائقه المألوفة . وإن في الآداب العامة ، أو « الفلكلور » كما يسميها الأفرنج لطرائف شائعة ممتعة غزيرة المعاني ، سواء الأفاضل والامثال أم الاساطير والعقائد .

وهذه مجلة جديدة من مجلات الشرق حقيقة بالتنويه ، أعنى مجلة « صوت المرأة » التي تصدر في بيروت . وبين يدي اليوم منها عدد يوليو ، وقد كنت أتمنى أن يتاح لي أن أعرضها للقراء عرباً مسهباً ليعرفوا أن في العربية اليوم مجلة نسوية خليقة بأن توصف . . . لولا ضيق هذا المجال ، غسبي في وصفها أن أقتبس لقرائي فقرات من هذا العدد الذي بين يدي .

فهذه مقالة للمرحوم عمر فاخوري بعنوان « كنوز الفقراء » يحكي فيها بأسلوبه النابض أسطورة لبنانية ذائعة ، ثم يقول : « ليس خلق عالم على هامش عالمنا هذا ، أو تصور وجود غير هذا الوجود العادي ،

الحب في الشعر العربي

في طوره الثالث ، وتستشهد لذلك بشعر الشنفرى الشاعر الفاتك ؛ أما شعراء الجاهلية « الثانية » فكانوا أكثر تشبيهاً بجمال الوجه والجسم « وأنهم كانوا يفعلون ذلك محاكاة لليونان في تحت التماثيل ! » فالنابغة الذبياني حين يصف « المتبجردة » امرأة النعمان ، وشاعر « اليتيم » حين يصف صاحبه متسائلاً : « هل بالطلول لسائل رد ؟ » والمنخل البشكري حين يتحدث عن قصته مع صاحبه في « اليوم المطير » — كل أولئك فيما تزعم الكاتبة من شعراء الحب في طوره الأول ، ومن المتأثرين باليونان فيما نحتوا من تماثيل !

وبعد أن تسوق الكاتبة طائفة من الأمثلة تقول :

وفي العدد نفسه من مجلة « صوت المرأة » مقال للآنسة ماري عجمي بهذا العنوان تتحدث فيه عن أدوار الحب وتطور معناه مع البشرية ، فتزعم أن الحب كان في أول أطواره مادياً يقف عند حد التعبير الجنسي ، ثم انتقل مرحلة فصار بين المادية والروحية فهو يعنى تارة بوصف الجمال حيث كان ، وتارة بجمال العقل والخلق وطهارة النفس ، ثم انتقل مرحلة أخرى بعد هذه المرحلة حين أيقن الناس أن وحدة الجمال تجمع بين الخلق والخلق وأن الفصل بين المأطفتين عقم أو خروج عما رسمته الطبيعة للبشر . . . ثم راحت بعد هذا التمهيد تتحدث عن الحب بمعانيه الثلاثة في الشعر العربي ، فتزعم أن العرب في الجاهلية « الأولى » عرفوا الحب

في مجلات الشرق

بثينة . . . أما سائر الشعر الأموي الحضري
فعظمه مادي ، ومثله الشعر في الدولة العباسية . . .
وفي أواخر العصر الأموي بدأت الدعابة في
الغزل ، وكثرت في العصر العباسي حتى بلغت
حد السفه والمجون ؛ قال أبو نواس :

يندب شجوا بين أتراب
ولا تزل رؤيته داني !

« فما تقدم يتضح لنا أن شعراء الجاهلية
الثانية لم يتجاوزوا طور الحب الأول . . .
ولكن الشعر الإسلامي — على وفرة مضمونه
من الوصف المادي — يتخلله الروحي . وأكثر
الشعراء سموهم شعراء البدو ، وزعيمهم جميل

« يا قرا أبصرت في ماتم
لا زال ، وثأ دأب أحبابه

لانتقاد الحضارة

العلمي وحده لم يستطع تثقيف الرغبات
والنوازع الانسانية ، وهو يهدد بزوال ما بقي
من معالم الحضارة وآثار الفكر والعقل .
ويرى فريق من كبار المفكرين أن الانسان
إذا استمر في عجزه على إدماج العلم بأغراض
الروح والخلق فستبقى قوى العلم في اتجاهها
نحو التدمير والهدم وتزيد المشاكل وتتضاعف
المتاعب ، فلا يخرج من محنة إلا ويحاط به محنة
أشد وأنكى .

وفي عدد أغسطس من مجلة « الأديب »
البيروتية كلمة للأستاذ قدير حافظ طوقان
عنوانها « السبيل لانتقاد الحضارة » يقول فيها :
« إن الأمم لا تصلح بالعلم وحده ، وإن
التقدم في الاختراع والاكتشاف لم ينج
الانسانية مما حاق بها من مصائب وويلات ،
بل الواقع أن هذا التقدم في المادية زاد
المشاكل تعقيداً وسلب العالم راحة البال
وطمأنينة النفس ، وأثبتت الأوضاع أن التقدم

الجماعة الأدبية ١

ويعنف الأستاذ سهيل إدريس في مناقشته
لدعوى الأستاذ المشنوق فيقول :
« إن الكاتب يتبدى هنا كمؤرخ
للأدب ، والمؤرخ عالم ينبغي أن تتوفر لديه
الرصانة العلمية ، والدقة في البحث ، واستيفاء
الموضوع من كافة نواحيه ، والنزاهة والبعد عن
التحيز . ونعتقد أن البحث العلمي الرزين حين
يتناول جيلاً من الأدباء وتياراً من الأدب يجب
أن يستغرق أكثر من صفحة واحدة مهما كان
غنياً بالآراء الصحيحة والنظرات الصائبة . »

وفي العدد نفسه من مجلة الأديب يناقش
الأديب سهيل إدريس دعوى الأستاذ عبد الله
المشنوق في العدد الماضي من مجلة الأديب ،
التي يزعم فيها أننا في « قحط أدبي لم يسبق لنا
أن شاهدنا له مثيلاً في ماضيات أيامنا . . . »
لأن كبار أدبائنا — فيما يزعم — قد انصرفوا
عن الأدب الرفيع إلى الصحافة ، وقد
أشربنا إلى هذه الدعوى في بعض ما اقتبسناه
من الحديث في العدد الماضي عن الأدب
والصحافة .

في مجلات الشرق

ثم يمضي الأستاذ سهيل في مناقشة دعوى
الأستاذ المشنوق فقرة فقرة ، رفيقاً حيناً
وقاسياً حيناً آخر ، مستشهداً بأمثله من إنتاج
الأدباء المعاصرين في نقض دعوى المجاعة
الأدبية ، مدافعاً عن أدبائنا الكبار الذين
وصفهم الأستاذ المشنوق بما وصف مما نقلنا
بعضه في اقتباساتنا للشهر الماضي ، ثم يختم
مقاله بالوعد بمعالجة الموضوع « في جوهر من
الدراسة والتحليل والنقد إذا شاء الأستاذ
المشنوق . . . » أتراه بهذا الختام يعد أو
يتوعد ؟
من يدري ؟ لعلها بوادر معركة !

الشباب الراجع

وفي عدد أغسطس من مجلة « الفكر » السورية مختارات من نظم الشاعر حليم دموس ،
منها بعنوان « الشباب الراجع » :

سلبت يا دهر مني اعز شيء لديا
سلبت مني شبابي وكانت غضباً نديا
لكنه حن شوقاً وفر منك إليّ
فانظري ، أسلت تراه يا دهر في ولدّي !

فهرس المجلد الثالث

يونيو — سبتمبر ١٩٤٦

دراسات أدبية

طه حسين	الجاحظ
رسالة لم تنشر (مقدمة لطفه الحاجري) ٣٨	من القاهرة إلى بيروت ٣
سلامه موسى	الأدب بين الاتصال والانفصال ٣٧٣
اهتمامات الأدبية في لندن ٤٠٢	الأدب المظلم ٥٦٧
بعض الأدباء الذين عرقهم ٦٣٢	على إبراهيم الأقطش
سليم سعده	المرأة والخمر عند الأعشى ٤٦٠
تولستوى ٤٨٣	على حافظ
سيد قطب	رياضة الجبل ٦٥٤
النقد والفن ٢٣٨	لويس عوض
طه الحاجري	جيمس جويس ٢٤٧
كتاب اليتيمة ٢٦٥	محمد عبد الله عنان
يحيى الخشاب	مأساة بني سراج ٢٨٤
عدى بن زيد ٣١٥	

دراسات فلسفية

أحمد فؤاد الأهواني	مارلو (أندريه)
طريق المهجرتين والعقد الالهى ... ٤٥٤	* خلاصة من بسيكولوجيا السينما (١) ١١٣
نجيب بلدى	جان بول سارتر ومواقفه الفلسفية ٥٠ و ٢٧٧

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوروبين أو أمريكيتين .
(١) André Malraux, *Esquisse d'une psychologie du cinéma*.

دراسات اجتماعية واقتصادية

- رياض شمس محرم كمال
العناصر الثلاثة للقومية المصرية ... ٥٠٢ آثار حضارة الفراعنة في حياتنا
الحالية ٣٠١
سلامه موسى
القاهرة فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧ و ٢٩٢ محمد علي عرفه
عبد العزيز أحمد
مشكلات التعليم في لبنان ٧٠٠ الطبعي ٦٨٣
عثمان أمين
بين العلم والأخلاق ٤٥ محمود عزمي
مراد كامل إريثريا — مشاهدات وآمال ٨٧

دراسات تاريخية

- أحمد فكرى على أدهم
الملوك ١٢٧ بين جيتى وتابليون ٦٠
حسن محمود
الماضى القريب والماضى البعيد ... ٦٤١ قنوائى (الآب)
سهير القلماوى
صفحة مجيدة من تاريخ امة عظيمة ٦٠٤ محمد عبد الله عنان
الملكه شجرة الدر ٦٩
منير الحسامى
إبراهيم بن المهدي : حياته السياسية ٥٠٩
إبراهيم بن المهدي : حياته الفنية ٦٧٦

دراسات سياسية

- حسن محمود
عودة إلى مكياقللى وأميره ٤٤٧ سليمان حزين
سامى عازر جبران
تصدع مبدأ سيادة الدولة ٤٦٨ دوافع الحرب وأهدافها في أوروبا ٢٢٤
الخطط الكبرى في الحرب العالمية
الآخيرة ٤١٣
بريطانيا وسر قوتها ٦٢١

فهرس المجلد الثالث

طه حسين	بين العدل والحرية ١٨٩
محادثة بين الاسد البريطانى والدب	الروسى ٤٤٠ و ٥٩٦
محمد جنيدى	النهضة السياسية فى أندونيسيا ... ٦٦٠
محمد رفعت	بريطانيا وحوض البحر الابيض المتوسط ١٤
محمد عبد الله عنان	مشاكل البلقان ٢٠٥
جرائم الحرب ومحاکات نورنبرج ٣٩٥	
المسألة الهندية ٦١٠	
محمود عزمى	
المعاهدات وميثاق الأمم المتحدة ٢٤	
القضية المصرية وهيئة الأمم المتحدة ٢١٣	
حق الاعتراض فى هيئة الأمم المتحدة ٣٨٩	

قصص

أحمد كامل	فى الصيف ٤٧٤
حسين فرج زين الدين	الشخص الثالث ٤٢٨
حسن محمود	ليلة فى قرسوفيا ٩٦
عبد القادر السماحى	عودة الأسير ٨١
طه عبد الباقي سرور	الأزمة الاولى ٧٠٩

شعر

إبراهيم محمد نجا	أحلامى الضائعة ٣٥
علي الجندي	العابد المثالى — الفجر ٢٧٤
الطفلان العاشقان ٣١٣	أحزان المساء ٤٣٤
فؤاد شاكر	أحمد محفوظ
من ذكريات جبل رضوى ٦١٩	الريف فى مصر ٤٩٩
مير بصرى	ضياء الدخيلى
نهاية الأبطال ٦٨٩	زورق فى حجب الظلام ١٣٥
نذير الحسامى	عبد الرحمن صدقي
تمرد ١١٠	سوانح الغروب — على النيل ... ٢٢٣

فهرس المجلد الثالث

من هنا وهناك

بشر فارس	صاحب الصباغ
عمر فاخوري ١٣٧	معرض الفكر الحديث الأول ببغداد ١٣٨
توفيق رضا	عبد اللطيف إبراهيم
عبد الحق حامد وأفكاره الفلسفية ٣٢٣	الشاشة البيضاء في مصر ١٣٩
سلامه موسى	عبد اللطيف شراره
هـ . ج . ولز ٧١٨	رسالة ٧٢٢
شجاده الخوري	محمد يوسف موسى
إلى المجهول ٧٢١	أيام للعربية في باريس ٥١٨
مؤنس طه حسين	مرقص الشانزليزيه ٥١٦

شهرية العلم

اختفاء البكتريا (سير ألكسندر فلمنج) ١٤١ ، الألكترون الحائر وبوهر العظيم (محمد محمود غالي) ٣٢٦ ، ثعبان البحر (حسين فرج زين الدين) ٧٢٤ .

شهرية الاجتماع

أحمد مختار قطب أثر الحرب في الاجرام ٥٢١

شهرية السياسة الدولية [محمود عزمي]

يونيه ١٤٦ ، بوليه ٣٣١ ، أغسطس ٥٢٥ ، سبتمبر ٧٢٦

شهرية الفن

معرض مائة صورة من عيون الفن لمدرسة باريس [***] ٣٣٤ ، معرض الستائر في باريس [***] ٣٣٦ ، تصاوير أطفال [بشر فارس] ٧٣٠ .

شهرية المسرح

أول بنجتي ١٥٠ مسرحيات جان أنوى ٧٣٣

فهرس المجلد الثالث

شهرية السينما

زوار المساء ١٥١ ، لص غابة شروود ١٥٢ ، عودة القافلة ٣٣٧ ، قولبوني ٣٣٨ ،
سيرانو دي برجيراك ٣٤٠ ، الجوهرة السوداء ٥٢٨ ، السابحات الفاتنات ٥٢٩ .
انطباعات من السينما المصرية ٧٣٦ .

من كتب الشرق والغرب

السيد أحمد صقر شوقي ضيف
نقد النثر ٥٣١ نزهة النفوس ومضحك العبوس
بشر فارس
الكواكب السائرة بأعيان المئة فؤاد وصفى أبو الذهب
العاشرة للشيخ نجم الدين العزى ٧٣٩ وحدة العالم وجزية الشعوب ... ١٤٥

من وراء البحار

روسيا وسياستها الخارجية ١٦٢ ، الحياة في برلين ١٦٣ ، موكب النصر في لندن ١٦٥ ،
باريس تستعد للصيف ١٦٥ ، مصر في المجلات البريطانية : رأى في مجلة علمية ٣٤٨ ، رأى
في مجلة محافظة ٣٥٠ ، رأى سياسى محافظ ٣٥٠ ، ماذا فى اليابان ؟ ٥٣٥ ، الحياة السياسية
فى النمسا ٥٣٦ ، قاعة المطالعة بالمتحف البريطانى ٥٣٧ ، ألمانيا ومستقبلها السياسى
والاقتصادى ٧٤٦ ، هل فشلت سياسة أمريكا فى ألمانيا ٧٤٩ .

ظهر حديثاً

أحمد بدوى جورج حداد
فى موكب الشمس ٥٤١ مختصر تاريخ الحضارة الغربية فى
الأزمنة الحديثة ٥٤٠
أحمد فؤاد الأهوانى
التعليم فى رأى القابسى ٣٥٦ رواس (ا.ل.)
جمال الدين الشيال تعريب محمد مصطفى زيادة
نحل عبر النحل ٥٤٢ التاريخ الانجليزى ١٧٠
جورج جندى وچاك تاجر سانت - أ كسوپرى (أنطوان دى)
إسماعيل - مجموعة وثائق ٣٥٥ تعريب مصطفى كامل فوده
أرض البشر ١٦٧

فهرس المجلد الثالث

شوقي ضيف	محمد الرشيد ملين
الفن ومذاهبه في النثر العربي ... ١٦٨	عصر المنصور الموحدى ١٧٣
صلاح الدين الشريف	محمد عبده غانم
ألفريد دى موسيه ٣٥٦	على الشاطيء المسحور ٥٤٤
عبد الحميد جوده السحار	محمد فتحى
همزات الشياطين ١٧٤	عاطفة الحب ٧٥٨
فؤاد شاكر	محمود الدرويش
رحلة الربيع ٧٥٧	تقرير عن أعمال الجمعية العمومية المعادية الأخيرة لعصبة الأمم ٥٤٠
قدري حافظ طوقان	مدونة چوستنيان ٧٥٢
بين العلم والأدب ١٧٢	تعريب صاحب المعالي عبدالعزيز فهمى باشا
لودفيج (إميل)	مصطفى الديوانى
تعريب محمود إبراهيم الدسوقي	صديق العائلة ٥٤٣
نابليون ٣٥٣ و ٥٣٩	منشورات مجلة عالم الغد
مارون عبود	الميثاق القومى العربى ٧٥٩
الرءوس ٣٥٧	ميخائيل نعيمة
محمد أحمد حسين	اللقاء ١٦٩
أسامة بن منقذ ٣٥٤	الأوثان ١٦٩
محمد أحمد محجوب	نجيب محفوظ
الحكومة المحلية في السودان ... ١٧١	القاهرة الجديدة ٧٥٦

في مجلدات الشرق

بركة الوالدين ١٧٥ ، تعريب الأدب العربى ١٧٥ ، كيف يكتب أندريه جيد ١٧٥ ، روحية الشرق ١٧٦ ، السعادة فن ١٧٧ ، بين جيلين ١٧٧ ، الأبوة حرفة ١٧٨ ، دراسات عن المسرح العربى ١٧٨ ، دقيقة واحدة ٣٥٩ ، الحياة معرض ٣٥٩ ، رسالة الأمة العربية ٣٥٩ ، هذا دى ٣٦٠ ، سيادة اللنة ٣٦٠ ، كن معلماً ٣٦١ ، أدب المغرب ٣٦١ ، الصحافة والأدب ٥٤٥ ، مجاعة أدبية ٥٤٥ ، ضرائب المدينة ٥٤٦ ، مستقبل الشرق ٥٤٦ ، بين الأدب والقومية ٥٤٧ ، عبقرية اللفظ ٥٤٧ ، الاشتراكية حركة رجعية ٧٦١ ، أسقنيها ذكرى ٧٦١ ، الشعر السياسى فى العراق ٧٦٢ ، كنوز الفقراء ٧٦٣ ، الحب فى الشعر العربى ٧٦٣ ، لانتقاد الحضارة ٧٦٤ ، المجاعة الأدبية ٧٦٤ ، الشباب الراجع ٧٦٥ .

العقيدة والتشريع

في الإسلام

تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى	عبد العزيز عبد الحق	علي حسن عبد القادر
المدرس بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر	المدرس بكلية الشريعة بجامعة الأزهر	دكتور في العلوم الإسلامية مدير المركز الثقافي الإسلامي بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام — تطور الفقه
تمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفرق — الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعريين

كتاب ضخمة يقع في ٤٠٠ صفحة

الثن ٨٥ قرشا (البريد ٤٠ ملها)



VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTÉRATURE
PUBLIÉS AVEC LA COLLABORATION DES ÉCRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU SIXIÈME CAHIER

JEAN PAULHAN
SLOGANS D'AVANT L'IMPRIMERIE

MICHEL BERVEILLER
CELA S'APPELLE L'AURORE

JEAN LOEWENSON
NAISSANCE D'UN COUPLE

RAYMOND GUERIN
APRÈS LA FIN

ETIEMBLE
EVOLUTION DE LA POÉTIQUE CHEZ SUPERVIELLE

PIERRE ROBIN
REMARQUES

HENRI FELIX et GABRIEL MARCEL
SUR L'EXISTENTIALISME

MARCEL PROUST
CINQ ÉTATS DES « JEUNES FILLES EN FLEURS »

ETIEMBLE, HUSSEIN FAOUZI, EDGARD FORTI,
M.G., GEORGES HENEIN, HILDE ZALOSCHER

LES EXPOSITIONS DE PARIS
EXPOSITIONS DE DESSINS D'ENFANTS ÉGYPTIENS
REVUE DES LIVRES, NOTULES, LES REVUES,
BULLETIN.

إن هنا فكرة ستحدث ثورة في عالم الأعمال !

بدأت الثورة في غرفة فندق بمقاطعة نيويورك منذ أكثر من سبعين سنة ، كان مخترع الآلة الكاتبة يبحث عن منتج ، غير أنه كان من الخجل بحيث لا يحسن الدفاع عن فكرته بنفسه ، فأرسل اثنين من أصدقائه مع نموذج آله الأولى ليكتسب تعضيد الصناع المشهورين لآلات الحياة وآلات الزراعة رمنجتون وأولاده .

وجاء الأمل في هذا التعضيد بسرعة وفي خمس . وكفت ساعة قضاؤها في تجارب ومناقشات لتخرج إلى حين التحقيق صناعة الآلات الكاتبة . وفاه أحد موظفي شركة رمنجتون ، وكان أثقب نظراً من الآخرين ، هذه السمات النبوية التي سرعان ما غدت حقيقة واقعة : « فكرة ستحدث ثورة في عالم الأعمال » . وفي كل السنين منذ ١٨٧٣ ، كانت آلة رمنجتون ، بفضل هذه الفكرة المبتكرة واتقان عجيب في صنعها ، أشهر الآلات الكاتبة . وكانت التحسينات الكبيرة تصدر دائماً عن العامل الهندسية لمنشئ هذه الصناعة .

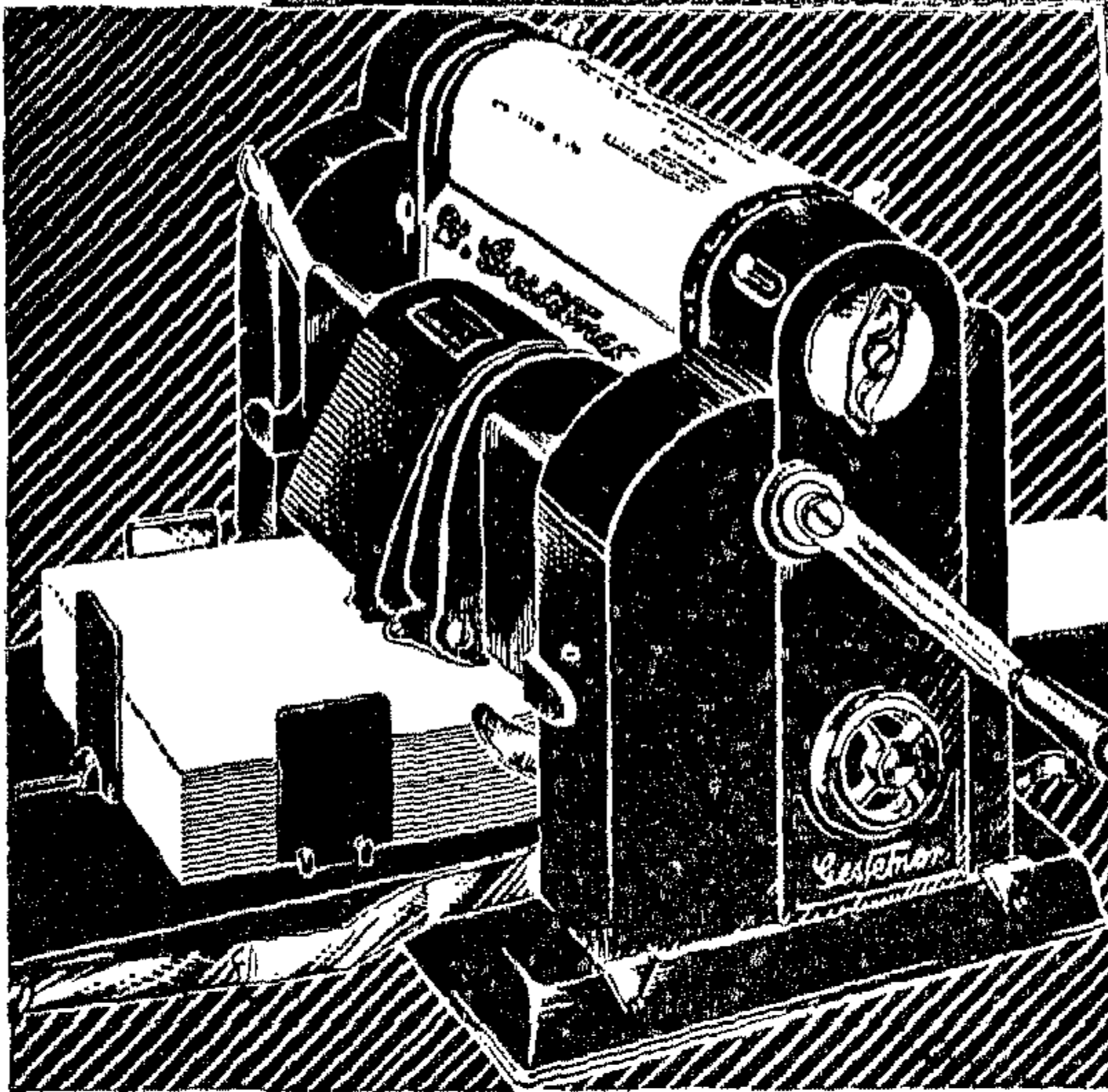
هذا هو السبب في الإقبال على شراء آلات رمنجتون أكثر من غيرها من الآلات الكاتبة . وهذا هو السبب أيضاً في أن آلة الغد الكاتبة حققت اليوم في آلة رمنجتون راند الجديدة التي أثبتت جودتها باستعمالها في ظروف الحرب العصبية والتي بتحسيناتها الجديدة ، ملمس جديد أنعم وسرعة زائدة في العمل ، توفر لك عملاً سريعاً لم تعرفه أبداً .

Remington Rand
رمنجتون راند

الأولى بين الآلات الكاتبة

الوكلاء : **الكاتب المصري** شركة مصرية قسم آلات واثاث وأدوات المكاتب
الموزعون : **الاسكندرية** بورسعيد
القاهرة
المركز الرئيسي بالقاهرة - شارع قنطرة الدكة





آلات نسخ الصور جستيتنر

في الجمعية العمومية
لهيئة الأمم المتحدة
في وستمنستر

والصورة تبين سير العمل في قاعة جستيتنر
في يوم الافتتاح

Gestetner

ضمانات للشقة فنت السونو
تحقق من هذا الاسم دائما

الوكلاء: الكاتب المصري مركز القاهرة - شارع قطرة الدرة
الموزعون: بورسعيد
الأكاديمية



في أنجاء العالم العربي

